أركان الإيمان

إبراهيم أبو عواد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ، والصلاة والسلام على النبيِّ مُحمَّد ، وإخوته الأنبياء الكرام ، وآلِ كُلٍّ ، وصَحْبِ كُلٍّ .

يجيء هذا الكتابُ ليُسلِّط الضَّوْءَ على موضوع في غاية الأهمية ، وهو " أركان الإيمان ". والإيمانُ هو الأساس الفكري والعملي في حياة المُسلم ، حيث يَنقله مِن ظُلمات الجَهْل والضَّياع إلى نُور العِلْم والهِداية . والإيمان لُغةً هو التَّصديق ، وله ثلاث ركائز مُتضافرة : التصديق القلبي ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وإذا اجتمعت هذه الركائز الثلاث في حياة الفرد كانت لها بالغ الأثر في تغيير حياته نحو الأفضل . والإيمان يَزداد بالطاعات ، ويَنقص بالمعاصي . وكُلَّما ازدادت طاعاتُ العبد وتكاثرت أعمالُه الصالحة ، ازدادت حياته إشراقًا وبهاءً ، الأمر الذي يَدفعه إلى العمل كخليفة الله في الأرض وَفْق الشريعة الإلهية ، لإقامة شَرْع الله ، وصناعة الحضارة .

والإيمان له سِتَّة أركان ينبغي أن تتحقق معًا ، وإذا زالَ أيُّ رُكن ، انهارَ الإيمانُ مِن جُذوره ، وهي : الإيمان بالله ، ومَلائكته ، وكُتبه ، ورُسُله ، واليومِ الآخِر ، والقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ آمنَ الرسولُ بِمَا أُنزِلَ إليَه مِن رَبِّهِ والمؤمنونَ كُلٌّ آمنَ باللهِ ومَلائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴾[البقرة : ٢٨٥] . وقد عرَّف النبيُّ ﷺ الإيمانَ بقوله : ((أن تُؤْمِنَ بالله ، ومَلائكته ، وكُتبه ، ورُسُله ، واليومِ الآخِر ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه)) [صحيح مُسْلِم] .

إنَّ الإيمانَ أساسُ الحياة ، والقُوَّة المُحَرِّكة للفرد والجماعة في سبيل إعمار الأرض ، والعَيْش في ظِل الشَّريعة الرَّبانية بوسطية واعتدال ، بدون إفراط ولا تفريط . والإيمانُ لا يكتمل إلا باشتماله على الظاهر والباطن معًا، أي: الإيمان بعَالَم الشَّهادة (المَحْسُوس) وعَالَم الغَيْب (اللامَحْسُوس)، وهذا يَجعل الإيمان شكلًا ومَضمونًا ، صُورةً ومعنى ، رُوحًا ومادةً ، مِمَّا يُؤَدِّي إلى ترسيخ الإيمان في النُّفوس شِعَارًا وحقيقةً ، وتجذير الثِّقة بالله في القُلوب ، والقضاء على الشُّبهات والشُّكوك والظُّنون والوساوس ، التي تَحْرِق أعصابَ الإنسان ، وتُفسِد قَلْبَه ، وتُحطِّم حياته .

وموضوعُ " الإيمان " عميق وواسع ومُتشعِّب ، لا تتَّسع آلاف المُجلَّدات للإحاطة به مِن كُل جوانبه المعنوية والمادية ، ولكن طريق المِيل يبدأ بخُطوة . والإنسان مُطَالَبٌ بالعمل لا النتيجة. والسَّعْيُ نحو توضيح معالم الإيمان وانعكاساته في الحياة الدُّنيوية والأُخْرَوِيَّة ، يستحق مِنَّا البحث الدَّؤوب المُستمر بلا كَلَل أو مَلَل ، لأن المَعنى الشَّريف يَفْرِض عَلَيْنا أن نَتعب مِن أجْلِه .

يتكوَّن هذا الكتابُ مِن تسعة مَبَاحِث رئيسية : المَبحَث الأول يتحدَّث عن الله تعالى ، وتعظيمه ، وحُبِّه ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، وأهمية طاعته ، والابتعاد عن معصيته .

والمَبحَث الثاني يتناول قضية الإيمان بالله ، وضرورة الدعوة إلى الإيمان بالأسلوب الجميل الحَسَن ، معَ بيان أهمية الهداية الإلهية ، والحَذر من الأخطار والمشكلات التي تُهدِّد الإيمانَ .

والمَبحَث الثالث يُوضِّح صفات المؤمنين (عباد الله الذين اختارهم واصطفاهم مِن بين الناس) وعلاقتهم بالله تعالى ، ورعايته لهم ، وعنايته بهم ، وحمايته لهم في الدنيا والآخرة .

والمَبحَث الرابع يُبيِّن أهمية الإيمان بالملائكة ، معَ بيان صفاتهم العظيمة ، وعبادتهم الدائمة والمُستمرة لله تعالى ، معَ توضيح أبرز أعمالهم التي يَقومون بها بأمرِ الله تعالى .

والمَبحَث الخامس يتحدَّث عن الكُتب السماوية المُقدَّسة ، التي أنزلها اللهُ دُستورًا للناس، لإخراجهم مِن الظُّلمات إلى النُّور . ولم أتحدَّث عن القُرآن العظيم ، لأنَّني أَلَّفْتُ كتابًا كاملًا عنه .

والمَبحَث السادس يُبرِز عَظَمَةَ الأنبياء والرُّسُل ، وضرورة الإيمان بهم ، مع بيان صفاتهم ، وعلاقتهم بالله ، وعلاقتهم بعضهم ببعض ، مع توضيح وظائفهم العظيمة وأعمالهم الجليلة .

والمَبحَث السابع يُوضِّح أهميةَ الإيمان باليوم الآخِر ، والحياة بعد الموت ، مع بيان الإرهاصات التي تسبقه ، وأهواله ، وأصناف الناس فيه ، والثواب والعِقاب ، والسعادة والشقاء .

والمَبحَث الثامن يتناول موضوع الإيمان بالغَيْب (العَالَم غَير المَحْسُوس) ، والجنة وصفاتها وأصحابها ، والنار وصفاتها وأصحابها ، مع ذِكر بعض الغَيْبِيَّات كالجِن والشَّيطان وعملية السِّحْر .

والمَبحَث التاسع يتحدَّث عن الإيمان بالقَضَاء والقَدَر ، مع توضيح مَعناه ، وأبعاده ، وأهميته في تحرير الفرد مِن الخَوف ، وزراعةِ اليقين في قلبه .

إن هذا الكتاب يُمثِّل مُحاولةً شخصية لبيان عَظَمَة الإيمان ودَوره المركزي في حياة الأفراد والجماعات والشعوب والأمم،وتوضيح حقيقة أن الإيمان أساس الحياة (المَسَار). ووَفْق طبيعة المَسَار، يتم تحديد المصير (الخُلود في الجَنَّة أو الخُلود في النار) . فالقضيةُ في غاية الأهمية ، ولَيست نظرياتٍ فلسفية، أو عبارات مُنمَّقة، أو شِعارات رنَّانة. والعاقلُ لا يُمكن أن يَلعب بمصيره، أو يَخدع نَفْسَه ، لأنه في امتحان دُنيوي صَعْب ، وسَتَظهر النتيجة بعد الموت، ولا تُوجد فرصة لتدارُك ما فات،أو إعادة الامتحان، والمَوت ذهاب بلا عَودة.والإيمانُ لا يُكْتَسَب بذكاء الإنسان ، وإنَّما هُوَ فَضْل مِن الله، والسِّر في الهداية الإلهية،ولَيس العبقرية الإنسانية،ولا سَهْلَ إلا ما جَعله اللهُ سَهْلًا.وفي الخِتام،أسألُ اللهَ أن يَجعل هذا الكتابَ حُجَّةً لي لا عَلَيَّ. والحَمْدُ لله رَب العَالَمِين .

أوَّلًا : اللهُ سُبحانَه وتَعَالى

١ــ حُب الله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يتَّخذُ مِن دُونِ اللهِ أندادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والذينَ آمَنُوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

يُبيِّن اللهُ حالَ المشركين ، ويَفضحهم على رؤوس الأشهاد . فهؤلاء المُشركون جعلوا للهِ تعالى نُظراء وأمثالًا يَعبدونهم كعبادة اللهِ، ويُعَظِّمونهم ويُحِبُّونهم كتعظيم المؤمنين للهِ وحُبِّهم له . والأندادُ هي آلهتهم العاجزة (الأصنام والأوثان) التي كانوا يَعبدونها مِن دُون الله، وهي لا تضرُّ ولا تنفع .

وكان المشركون يُحِبُّون الأصنامَ كما يُحِبُّونَ اللهَ، أي: يُسَوُّون بينها وبين الله في المحبة والعبادة، إذْ إن المشركين كانوا مُعترفين بوجود الله ، ويَعبدونه ، ولكن لا يُوحِّدونه ، ولا يُفْرِدونه بالعبادة . كانوا يَعبدون اللهَ باعتباره الإله الأعظم وكبير الآلهة.وقد اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً كي تُقَرِّبهم إلى الله ــ على حَد زعمهم ــ .

والمؤمنون أشدُّ حُبًّا للهِ مِن حُب المشركين لآلهتهم . فالمؤمنون يُوحِّدون اللهَ ، ويَعبدونه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد، ويتوكلون عَليه في كل صغيرةٍ وكبيرة ، ويَلجؤون إلَيه في السَّراء والضَّراء ، ويَشكرونه على نِعَمه، ويَصبرون على بلائه . وهذا هو حقيقة حُبِّ اللهِ وتعظيمه وتقديسه ، قَوْلًا وفِعلًا . وحُب العبد للهِ يتجلى في تَوحيده وطاعته وعدم معصيته ، وحُب الله للعبد يتجلى في رعايته والاعتناء بِه،وإكرامه، والإنعام عليه، وتوفيقه إلى الطاعات،وعِصمته مِن الذنوب.

والمؤمنون ثابتون على عبادة اللهِ وحُبِّه في كل الأحوال،ولا يَبحثون عن إلهٍ غَيْره.أمَّا المشركون فَيُغيِّرون أصنامَهم ويُبدِّلون آلهتهم حَسَبَ أمزجتهم وأهوائهم ومصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية. وكان الواحدُ فيهم يَعبد صَنَمًا لمدة مُعيَّنة ، فإذا وجد صنمًا آخَر ، اتَّخذَه إلَهًا ، وتَرَكَ عبادةَ صنمه الأول . وأيضًا ،كانوا يصنعون أصنامًا من التمر ، فإذا جاعوا أكلوها .

كما أن المشركين يَعبدون أصنامَهم وأوثانَهم في الرخاء. أمَّا في الشِّدة فيلجؤون إلى اللهِ وَحْدَه، ويتوجَّهون إليه . وهذا دليلٌ على أن المشركين مُقتنعون بأن آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع ، واللهُ وَحْدَه هو النافع والضَّار . في حِينَ أن المؤمنين يَعبدون اللهَ وَحْدَه في كُل الأحوال ، في الغِنى والفقر ، والرخاء والشِّدة ، والسَّراء والضَّراء .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الله تعالى لَم يقل: يُحبونهم كَحُبِّه . وإنما قالَ : ﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . وإظهار لفظ الجلالة لتعظيم اللهِ وتقديسه ، وإظهار سُوء أفعال المشركين وشناعة ما اقترفوه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٩٩) : ((قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . أي يُحِبُّون أصنامَهم على الباطل ، كَحُب المؤمنين للهِ على الحق ، قاله المُبَرِّد. وقال معناه الزَّجاج ، أي أنهم مع عجز الأصنام، يُحبونهم كَحُب المؤمنين لله مَعَ قُدرته . وقال ابن عباس والسُّدي : المُراد بالأنداد الرُّؤساء المُتَّبَعون يُطيعونهم في معاصي الله. وجاء الضمير في ﴿ يُحِبُّونهم ﴾ على هذا على الأصل. وعلى الأول جاء ضمير مَن يَعقِل على غَير الأصل . وقال ابن كَيسان والزَّجاج أيضًا: معنى ﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . أي يُسَوُّون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القَول الصحيح، والدليل على صِحَّته : ﴿ والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ ... . وقِيل: إنَّما قال : ﴿ والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ ، لأنَّ الله تعالى أَحَبَّهم أوَّلًا ثُمَّ أحَبُّوه ، ومَن شَهِدَ له مَحبوبه بالمحبة كانت محبته أَتَمَّ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إن كُنتم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم واللهُ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ [آل عِمران : ٣١] .

قُل يا مُحمَّد: إن كُنتُم تُحِبُّون اللهَ حَقًّا وصِدقًا ، فاتَّبعوني ، فأنا رسولُ اللهِ إلَيكم ، وحُجَّتُه عَلَيكم . اتَّبعوا سُنَّتي، وتَمَسَّكوا بأقوالي وأفعالي ، والتزموا بالشريعة المُحمَّدية الإسلامية ، وطَبِّقوها على أرض الواقع ، يُحِبَّكم اللهُ ، ويَرْضَ عنكم باتِّباعكم الرسول ﷺ، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم ببركة شريعته ، ويُكَفِّرْ عَنكم سَيِّئاتكم ، ويَمْحُ خطاياكم وآثامكم. ومَحَبَّةُ العبدِ للهِ تتجلى في طاعته في السِّر والعلانية ، والتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه . ومحبةُ اللهِ للعبد تتجلى في مغفرة ذُنوبه ، والعَفْو عنه ، والإنعام عَلَيه . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٧) : ((هذه الآية الكريمة حاكمة على كُل مَن ادَّعى محبةَ الله ، وليس هو على الطريقة المُحمَّدية ، فإنه كاذب في دَعْواه في نَفْس الأمر ، حتى يَتَّبع الشَّرْعَ المُحمَّديَّ والدِّينَ النَّبويَّ ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله)) اهـ .

ولا يَكفي أن تُحِبَّ اللهَ ، وإن كان أمرًا هَامًّا . لكنَّ الأهَم والأعظم أن يُحِبَّكَ اللهُ تعالى ، وهُنا العِبرة . وطاعةُ اللهِ هي عُنوان مَحبته . والحبُّ مِنَ اللهِ عِصمةٌ وهدايةٌ وتَوفيق ، ومِن العباد طاعة.

تَعصي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ — هذا لَعَمْري في القِياسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادقًا لأطَعْتَهُ — إنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

٢_ التَّوكُّل عَلَيه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾[آل عِمران : ١٢٢] .

على الله وَحْدَه تَوَكَّلُوا أيها المؤمنون في جميع شُؤونكم وأموركم وأحوالكم ، فهو الكافي والناصرُ والقادرُ على جَلْب الخير ودَفْع الشَّر . ومَن تَوَكَّلَ على الله ، فإن الله يَحفظه ويُدافع عنه، أمَّا غَيْرُه فلا يستطيع جَلْبَ الخير ، ولا دفع الشر ، لأنَّ الله وَحْدَه هو النافع والضَّار . والتَّوَكُّلُ هو اعتماد القلب على الله في كُل الأُمور والشُّؤون والقضايا،معَ الأخذ بالأسباب بِدُون الاعتماد عَلَيها.

والآيةُ دَعوة إلهية للنبيِّ ﷺ أن يَتَوكَّل على الله ، ويثق به ، ويلتجئ إليه . وفي هذا إرشاد للأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية وتعليم لها بضرورة الالتجاء إلى الله دائمًا وأبدًا ، والثقة بوعده ونصره وتأييده.

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٨٥) : ((﴿ وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يقول : وإلى اللهِ فَلْيُلْقِ أزِمَّةَ أمورهم ويستسلم لقضائه ويثق بِنُصرته وعَوْنه ، المُقِرُّون بِوَحْدانية الله ورسالة رسوله ، العاملون بأمره ونَهْيِه ، فإنَّ ذلك مِن كمال دِينهم ، وتَمام إيمانهم ، وأنهم إذا فَعلوا ذلك كَلَأهم ورَعَاهم وحَفِظَهم مِمَّن أرادَهم بِسُوء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلين ﴾[آل عِمران: ١٥٩].

إذا عَقَدْتَ النِّيةَ على أمرٍ ما بعد المُشاوَرة ، فاعتمِدْ على اللهِ، وتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لا على المُشاوَرة، وَثِقْ باللهِ ، وامْضِ في طريقك لتحقيق رُؤيتك على أرض الواقع . والمُشاوَرةُ قبل العَزْم والتَّبَيُّن، وإذا عَزَمَ الرَّسولُ ﷺ على أمْر، فلا شَيء يَتقدَّم على الله ورسوله. والعَزْمُ عَقْدُ القلبِ على تنفيذ الأمر .

إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُعتمِدِين عَلَيه ، المُعْتَرِفِين بِعَجْزهم أمامَه . والتَّوكُّل على اللهِ هُوَ الاعتماد عَلَيْهِ سُبحانَه، مَعَ الأخذ بالأسباب دُون الاعتماد عَلَيها ، والتَّفويض في الأمور إلى اللهِ تعالى . والتَّوكُّل علامة واضحة على صِدْق إيمان العَبْد، وتَعظيمه لِقُدرة خالقه اللامحدودة، والتأدُّب مَعَ اللهِ تعالى . والتَّوكُّلُ دليل واضح على حُبِّ العَبْدِ للهِ ، وحُب الله للعبد.وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٤) : ((وأمَّا قَوْلُه : ﴿ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ ﴾ ، فإنَّه يعني : فإذا صَحَّ عَزْمُك بتثبيتنا إيَّاك ، وتَسديدنا لك فيما نابك وحَزَبَك مِن أمر دِينك ودُنياك ، فامْضِ لِمَا أمرناكَ بِه على ما أمرناك بِه، وافقَ ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها.وتَوَكَّلْ _ فِيما تأتي مِن أمورك وتَدَع وتُحاوِل أو تُزاوِل _ على رَبِّكَ، فَثِقْ به في كُل ذلك، وارْضَ بِقَضائه في جَميعه دون آراء سائر خَلْقه ومعونتهم . ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلين ﴾ ، وَهُم الرَّاضون بِقَضائه ، والمُسْتَسْلِمُون لِحُكْمِه فِيهم ، وَافَقَ ذلك مِنهُم هَوًى أو خَالَفَه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ وَكَفى باللهِ وَكِيلًا ﴾ [النِّساء : ٨١] .

واعتمد على الله في كُل شُؤونك وأحوالك ، وتَوَكَّلْ عَلَيه ، فإنه يَكفيك ما أهَمَّكَ مِن أمور الدنيا والآخرة . والآيةُ تُشير إلى عَظَمَة التَّوكُّل على الله ، وأنه أساس متين مِن أُسُس الدِّين ، فَمَن تَوَكَّلَ على اللهِ كَفاه أُمورَ دِينه ودُنياه ، وحَماه مِن كُل الشرور والأخطار. وكفى بالله مُفَوَّضًا إلَيه الأمور الصغيرة والكبيرة . والوكيل الحافظ القائم على الأمر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤١٠): ((﴿ وَكَفَى باللهِ وَكيلًا ﴾ تُوكَل إلَيه الأمور ، وتُفوَّض إلَيه الشؤون. فَمَن فَوَّضَ إلَيه أمورَه كفاه، ومَن وَكَلَ إلَيه أحوالَه، لَم يَحتج فيها إلى سِواه)).

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٧):((قَوْلُه: ﴿ وَتَوَكَّلْ على اللهِ ﴾ يقول : وَفَوِّضْ إلى الله أمورَك ، وَثِقْ بِه ، فإنه كَافِيك جميع مَن دُونه حتى يأتيَك أمرُه وقضاؤه.﴿ وَكَفى باللهِ وَكيلًا ﴾ يقول: وحَسْبُكَ بالله قَيِّمًا بأمورك ، وحافظًا لك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ وَكيلٌ ﴾ [هُود : ١٢] .

واللهُ على كُلِّ شَيء حافظ وشهيد ، فَتَوَكَّلْ عَلَيه ، واعتمِدْ عَلَيه في كُل أُمورك وشُؤونك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٢) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ وَكيلٌ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنه الحافظ ، والثاني : الشهيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلى الحَيِّ الذي لا يَمُوتُ ﴾[الفُرقان : ٥٨] .

واعتمِدْ على الله في كُل أُمورك وشُؤونك ، وكُن مُتَوَكِّلًا عليه ، فهو الإلهُ الخالقُ الذي لا يَمُوت أبدًا . والناسُ إذا ماتوا ضَاعَ مَن تَوَكَّلَ عَلَيهم ، وخَسِرُوا كُلَّ شَيء . واعتمادُ العبد على العبد كاعتماد الغريق على الغريق . والعبدُ إذا عَلِمَ أنَّ سَيِّده ومَوْلاه حَي باقٍ دائم، لا يَمُوت، ولا يَزول ، ولا يَغيب، ولا يَفنَى، تَوَكَّلَ عَلَيه حَق التَّوَكُّل، وشَعَرَ بالأمن والأمان، وارتاحَ قَلْبُه، وسَكَنَتْ جَوارحُه.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٠) : ((﴿ وَتَوَكَّلْ عَلى الحَيِّ الذي لا يَمُوتُ ﴾ ، أي : في أُمورك كُلِّها ، كُن مُتَوَكِّلًا على الله الحَيِّ ، الذي لا يموت أبدًا ، ... ، الدائم الباقي السَّرمدي الأبدي الحَي القَيُّوم ، ورَب كُل شَيء ومَليكه ، اجعله ذُخْرَك ومَلْجَأك ، وهو الذي يُتَوَكَّل عَلَيه ، ويُفزَع إلَيه ، فإنه كافيك وناصرك ومُؤيِّدك ومُظفِّرك)) .

وقال الشَّوكاني في فَتح القدير (٤/ ١٢١) : ((وخصَّ صِفة الحياة إشارة إلى أن الحَيَّ هو الذي يُوثَق به في المصالح ، ولا حياة على الدَّوام إلا لله سُبحانَه ، دُون الأحياء المُنقطعة حياتهم ، فإنهم إذا ماتوا ضَاعَ مَن يتوكَّل عليهم . والتَّوكُّلُ اعتماد العبد على الله في كل الأمور)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطَّلاق : ٣] .

وَمَن يثق بالله ، ويعتمد عليه ، ويُفوِّض أمْرَه إلَيه، فإن الله كَافِيه ما أهَمَّه مِن الدنيا والآخرة ، ومُؤيِّده وناصره في جميع أُموره . والتَّوكُّلُ لا يُنافي الأخذ بالأسباب، لأن الأخذ بالأسباب جُزء مِن التَّوكُّل ، ولكن ينبغي للمؤمن أن لا يعتمد على الأسباب ، بَل يعتمد على خالق الأسباب .

والآيةُ تحضُّ العباد على تفويض أمورهم للهِ ، والثقة به ، والاعتماد عليه . كما أنه ربطت بين التوكل والكِفاية بشكل وثيق . والتَّوكُّلُ له رُكنان : الاعتماد على الله ، والأخذ بالأسباب . ومَن زَعَمَ أنه مُتَوَكِّل على الله ولَم يأخذ بالأسباب فهو أحمق وجاهل بالدِّين . ومَن اعتمدَ على الأسباب وَحْدَها ، واعتبرَ أن لها تأثيرًا استقلاليًّا ، فهو كافر . فالأسبابُ خاضعة لِقُدرة الله وإرادته ومشيئته.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٤٣): ((قَوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي مَن فَوَّض إليه أمره كفاه ما أهَمَّه.وقِيل : أي مَن اتقى اللهَ وجانبَ المعاصي وتوكَّلَ عليه، فله فيما يُعطيه في الآخرة من ثوابه كِفاية،ولَم يُرِد الدنيا لأن المُتَوكِّل قد يُصاب في الدنيا وقد يُقْتَل)).

٣ـ خَشْيته

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْني ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

نهى اللهُ المؤمنين عن الخوف والخَشيةِ من الناس . لا تخافوا مِن كلامهم وطَعنهم وأهوائهم وافتراءاتهم ، فإنها باطلةٌ وساقطة ، لا تضرُّكم ولا تُؤذيكم . لا تَلْتَفِتُوا إلى مطاعنهم وشُبهاتهم ، فهم لا يَملكون نفعًا ولا ضَرًّا . والتزموا بطاعة الله ، واحذروا مُخالفة أمره . لقد أمرهم بالخَشية مِن الله وَحْدَه ، فهو أهل أن يُخشَى مِنه ، لأنه النافع والضار . والآيةُ تُهوِّن مِن شأن الناس ، وتُثبِت عجزهم وضعفهم ، وتُعظِّم اللهَ القادر على كل شيء ، لذلك يجب إفراده بالخَشية وعدم مُخالفة أوامره . وهذا يُؤدِّي بالضرورة إلى تثبيت الإيمان في القلب، وزيادة اليقين فيه ، وترك الخوف مِن المخلوقات ، وتجذير الخوف مِن الله وَحْدَه . وتتَّضح في الآية معاني تَسلية المؤمنين وتثبيتهم، وإهمال أهواء الناس ومطاعنهم، وعدم الالتفات إليها ، والتزام طاعة الله وَحْدَه ، ومُراقبته ، والخَشية مِنه ، فهو خالق الناس ، والناس مقهورون في قَبْضته ، لا يَضُرُّون ولا يَنفعون . واللهُ وَحْدَه هو النافع والضار . وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٦٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوْهُم ﴾ يُريد الناس ﴿ واخْشَوْني ﴾ الخَشية أصلها طُمأنينة في القلب تبعث على التَّوَقِّي. والخَوف : فَزَع القلب تَخِفُّ له الأعضاء ، وَلِخِفَّة الأعضاء به سُمِّيَ خَوْفًا . ومعنى الآية : التحقير لكل مَن سِوى الله تعالى ، والأمر باطِّراح أمرهم ، ومُراعاة أمر الله تعالى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاللهُ أحقُّ أن تَخْشَوْهُ إن كُنتم مُؤمنين ﴾ [التَّوبة : ١٣] .

يجب على المؤمنين أن يخافوا مِن الله وَحْدَه ، فهو القادر على كُل شيء ، ولا يَخافوا مِن الناس ، مهما كانت قُوَّتهم وسَطْوتهم ونفوذهم ، لأنهم عاجزون لا يَملكون لأنفسهم نَفْعًا ولا ضَرًّا. فيا أيُّها المؤمنون قَاتِلُوا أعداءَ الله ، ولا تَخْشَوْهم ، واخْشَوا اللهَ وَحْدَه ، ولا تَتركوا أمْرَه ، إن كُنتم مُصَدِّقِين بثواب الله وعِقابه . والإيمانُ يَستلزم الخَوْفَ مِن الله وَحْدَه ، وإهمال كُل ما سِواه .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٣١): ((فاللهُ أَوْلَى بكم أن تخافوا عُقوبته بترككم جهادهم، وتحذروا سَخَطَه عليكم مِن هؤلاء المشركين ، الذين لا يَمْلكون لكم ضَرًّا ولا نَفْعًا إلا بإذن الله ، ﴿ إن كُنتم مُؤمنين ﴾ . يقول : إن كُنتم مُقِرِّين أن خَشْية الله لكم أَوْلَى مِن خَشْية هؤلاء المُشركين على أنفسكم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فَاطِر : ٢٨] .

إنَّما يَخاف اللهَ ، ويَلتزم أوامرَه ، ويَجتنب نَواهيه ، العُلماءُ ، لأنَّ لَدَيهم عِلْمًا ومعرفة ويقينًا بِقُدرة الله على كُل شيء ، ومَن عَلِمَ ذَلك أيقنَ بِعَظَمَة العُقوبة الإلهية على الذنوب والمعاصي ، فخافَ مِنَ اللهِ ، واتَّقاه ، وأطاعه في كُل صغيرة وكبيرة ، تَعظيمًا لله ، وحُبًّا له ، وخَوْفًا مِن عَذابه . وكُلَّما ازدادت معرفةُ العبد بالله ، ازداد خَوْفُه مِنه . ومَن كَانَ عَالِمًا بالله وصِفاته المُقدَّسة ، ازدادَ تعظيمُه لله ، وخَشْيته ، والخَوف مِنه . وقَد حَصَرَ اللهُ الخَشْيَةَ في العُلماء دُون غَيْرهم ، لأنهم العَالِمُون بالله وعَظَمَته وقُدرته ، المُوقِنُون بِقُدرته على كُل شيء ، وإرادته النافذة في كُل شيء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٨٦) : ((يعني : العُلَماء بالله عَزَّ وَجَلَّ . قال ابن عباس : يُريد إنَّما يَخافني مِن خَلْقي مَن عَلِمَ جَبروتي وعِزَّتي وسُلطاني . وقال مُجاهد والشَّعبي : العَالِمُ مَن خَافَ اللهَ . وقال الربيع بن أنس : مَن لَم يَخْشَ اللهَ فليس بعَالِم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٩): ((أي : إنَّما يَخْشاه حَقَّ خَشْيته العُلماءُ العارفون به، لأنه كُلَّما كانت المعرفةُ للعظيم القدير العليم المَوصوف بصِفات الكمال المَنعوت بالأسماء الحُسنى ، كُلَّما كانت المعرفة به أتم والعِلْم به أكمل ، كانت الخَشْية له أعظم وأكثر . قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوله تعالى : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ . قال: الذين يَعْلَمون أن الله على كُل شيء قدير . وقال ابن لَهِيعة عن ابن أبي عَمْرَة عن عِكْرمة عن ابن عباس قال: العَالِمُ بالرحمن مِن عباده مَن لَم يُشْرِكْ به شيئًا، وأحلَّ حَلالَه ، وحرَّم حَرامَه ، وحَفِظَ وَصِيَّته ، وأيقنَ أنه مُلاقيه، ومُحَاسَب بعمله. وقال سعيد بن جُبَير: الخَشْية هي التي تَحُول بينك وبين معصية

اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . وقال الحسن البصري: العَالِمُ مَن خَشِيَ الرحمنَ بالغَيب، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ اللهُ فيه ، وزَهِدَ فيما سَخَط اللهِ فيه ... . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : " ليس العِلْمُ عَن كثرة الحديث ، ولكنَّ العِلْمَ عن كَثرة الخَشْية " . وقال أحمد بن صالح المصري عن ابن وَهْب عن مالك قال : إن العِلْم ليس بكثرة الرواية ، وإنَّما العِلْم نُور يَجعله اللهُ في القلب . قال أحمد ابن صالح المصري : معناه أن الخَشْية لا تُدرَك بكثرة الرواية ، وإنَّما العِلْم الذي فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يُتَّبَع فإنَّما هو الكتاب والسُّنة . وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ، ومَن بَعْدهم مِن أئمة المسلمين ، فهذا لا يُدرَك إلا بالرواية . ويكون تأويل قَوْله : نُور يُريد به فَهْم العِلْم ومعرفة مَعانيه . وقال سُفيان الثَّوري عن أبي حَيَّان التَّيمي عن رَجل قال: كان يُقَال : العُلماء ثلاثة : عَالِم بالله عَالِم بأمر الله ، وعَالِم بالله ليس بعَالِم بأمر الله ، وعَالِم بأمر الله ليس بعَالِم بالله . فالعَالِمُ بالله وبأمر الله ، الذي يَخْشَى اللهَ تعالى، ويَعْلَم الحُدودَ والفرائضَ. والعَالِمُ بالله ليس بعَالِم بأمر الله ، الذي يَخْشَى اللهَ ، ولا يَعْلَم الحُدودَ ولا الفرائضَ . والعَالِمُ بأمر الله ليس العَالِم بالله ، الذي يَعْلَم الحُدودَ والفرائضَ ، ولا يَخْشَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وأجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[المُلْك : ١٢].

إنَّ الذين يَخافون اللهَ ولَم يَرَوْهُ ، ويُطيعونه ولا يَعصونه ، طلبًا لرضاه سُبحانَه ، لهم مغفرة عظيمة يَغفر اللهُ بها ذنوبهم ، وثواب جَزيل لا يَعْرِف قَدْرَه إلا الله ، وهو نعيم الجنة .

إنهم يَخافون اللهَ قبل مُعايَنة العذاب ، وجزاؤهم مغفرة ذنوبهم ، وإكرامهم بالجنة التي لا تفنى.

وقد يكون المعنى : إن الذين يخافون اللهَ ، عندما يغيبون عن أعين الناس ، فَيُطيعونه سِرًّا . ومَن أطاعَ اللهَ سِرًّا ، فتكون العلانية أَوْلَى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٠):((يقول تعالى مُخْبِرًا عَمَّن يخاف مَقَام رَبِّه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس ، فينكف عن المعاصي ، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي تُكفَّر عنه ذنوبه ، ويُجَازَى بالثواب الجزيل)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾[الأعلى: ١٠] . سينتفع بالقُرآن ، ويستفيد مِن مواعظ النبيِّ ﷺ، مَن يَخْشَى اللهَ، ويَخاف عُقوبته وعذابَه ، فيزداد بالوَعْظ والتذكير خَشيةً وصَلاحًا. وخَشيةُ اللهِ أشد تأثيرًا وأقوى أثرًا مِن رَجاء الله ، لذلك تَمَّ تخصيص الذِّكرى بالخَشية لا الرجاء .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢١) : ((قَوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ أي : مَن يَتَّقِ اللهَ ويخافه . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في ابن أُم مَكتوم . الماوردي : وقد

يَذَّكَّر مَن يَرْجُوه، إلا أن تَذكرة الخاشي أبلغ مِن تَذكرة الراجي، فلذلك عَلَّقَها بالخَشْية دُون الرَّجاء، وإن تَعَلَّقَت بالخَشية والرَّجاء . وقِيل : أي عَمِّمْ أنتَ التَّذكيرَ والوعظَ ، وإن كان الوَعْظ إنما يَنفع مَن يَخشَى ، ولكن يَحصل لك ثواب الدُّعاء ، حكاه القُشَيري)) .

٤ _ فَضْله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

إنَّ اللهَ صاحبُ الفضل العظيم ، تَفَضَّلَ على عباده ، وأنعمَ عليهم ، وأحسنَ إلَيهم ، ورعاهم ، واعتنى بهم ، وعَامَلَهُم بما هُوَ أهْلُه ، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولم يُعاملهم بما هُم أهْلُه ، فهُم أهل الذنوب والمعاصي والتقصير ، ومَنَحَهم النِّعَمَ العظيمةَ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، تَفَضُّلًا وتَكَرُّمًا عليهم ، ورحمةً بهم . والفَضْلُ ابتداءُ إحسانٍ بلا عِلَّة .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٠) : ((وأمَّا قَوْلُه : ﴿ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ ، فإنه خَبَر مِن الله جَلَّ ثناؤه عَن أن كُل خَير ناله عباده في دِينهم ودُنياهم ، فإنه مِن عِنده ابتداءً وتَفَضُّلًا مِنه عليهم ، مِن غَير استحقاق مِنهم ذلك عليه ... تعريضٌ مِن الله تعالى ذِكْرُه بأهل الكتاب أن الذي آتى نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ والمؤمنين به مِن الهِداية تَفَضُّل مِنه ، وأنَّ نِعَمَه لا تُدرَك بالأماني ، ولكنها مواهب مِنه يَختص بها مَن يَشاء مِن خَلْقه)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلى الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشْكُرُون﴾[البقرة: ٢٤٣].

أنعمَ اللهُ على الناس، وتَفَضَّلَ عليهم، ومَنحهم النِّعَمَ الكثيرة، وهو غنيٌّ عنهم، لا يحتاج إلَيهم، وإنما هُم يَحتاجون إلَيه.وتنكيرُ﴿ فَضْلٍ﴾ للتفخيم والتعظيم.أي:إنَّ الله لَذُو فضل عظيم على الناس.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٢) : ((قِيل : هُوَ على العُموم في حَق الكَافَّة في الدُّنيا . وقِيل : على الخُصوص في حَق المؤمنين)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٨٩) : ((نبَّه عَزَّ وَجَلَّ بِذِكْر فَضْله على هؤلاء ، على فَضْله على سائر خَلْقه مَعَ قِلَّة شُكرهم)) .

ولكنَّ أكثرَ الناس لا يَشكرون اللهَ على نِعَمه الدُّنيوية والدينية. والكفارُ جاحدون لا يَشْكُرون . والمؤمنون مُقَصِّرُون لَم يَصِلوا إلى غاية الشُّكر وحقيقته .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٦٠٠) : ((يقول : لا يَشْكُرون نِعْمَتي التي أنعمتها عليهم ، وفَضْلي الذي تَفَضَّلْتُ به عليهم ، بعبادتهم غَيري ، وصَرْفهم رغبتهم ورهبتهم إلى مَن دُوني ، مِمَّن لا يَملِك لهم ضَرًّا ولا نفعًا ، ولا يَمْلِك مَوْتًا ولا حياةً ولا نُشورًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾[آل عِمران : ٧٣] .

قُل يا مُحمَّد إن الفضل والخَير والتوفيق بيد الله وَحْدَه ، يُعطيه لِمَن يشاء مِن عباده . وهو سُبحانَه المُنعِم المُتَفَضِّل ، وله الحُجَّة الكاملة ، والحِكمة البالغة .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣١١) : ((يَعني بذلك جَلَّ ثناؤه : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود الذين وصفتُ قَوْلَهم لأوليائهم : ﴿ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ﴾ . إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله ، وإلَيه دُونَكم ، ودُون سائر خَلْقه ، ﴿ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ مِن خَلْقه . يعني : يُعطيه مَن أراد مِن عباده ، تكذيبًا مِن الله عَزَّ وَجَلَّ لهم في قَوْلهم لأتباعهم : لا يُؤْتَى أحد مِثل ما أُوتيتم. فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّه ﷺ : قُل لهم : ليس ذلك إلَيكم ، إنَّما هو إلى الله ، الذي بيده الأشياء كُلُّها ، وإلَيه الفَضْل ، وبيده ، يُعطيه مَن يَشاء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٧] .

أنعمَ اللهُ وتَفَضَّلَ عليكَ يا مُحمَّد ، باختيارك نبيًّا ورسولًا ، واصطفائك لرسالته السماوية ، وإنزال القُرآن عليكَ ، وجَعْلك خَاتَم الأنبياء والمُرسَلين ، وسيِّد المخلوقات في الدنيا والآخرة ، ومَنْحك المَقام المحمود ، وسائر نِعَم الله عليك التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى . والمقصود بالآية الامتنان على النبيِّ بالقُرآن. وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ١٩٣): ((﴿ إنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ كإرسالك ، وإنزال الكتاب عَلَيك ، وإبقائه في حِفْظك ، وغَير ذلك)) .

٥_ التَّفويض إلَيه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ [آل عِمران : ١٧٣] .

قالَ الناسُ للمؤمنين إن أبا سُفيان وأصحابه مِن قُرَيش (قبل إسلامه)، قد جَمَعُوا لكم أعدادًا هائلة ، وحَشَدُوا لكم الرجال من كُل الجهات ، لقتالكم وقتلكم واسْتِئْصالكم ، فخافوهم واحذروهم، فلا طاقة لكم بهم، فزادهم تخويفُ الناس يقينًا بالله وتصديقًا بدِينه، وثباتًا على الحق ، وإقامةً على نُصرة النبيِّ ﷺ . وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص . لقد أهملوا قولَ الناس ، وثبتوا على الحق ، ولم يَضعفوا ، ولم تسقط معنوياتهم، وقالوا: الله كَافِينا،أي:يَكفينا ويَحمينا من كل سُوء.وهو سُبحانَه نِعْم المَوكول إلَيه شُؤوننا، ونِعْم المُفَوَّض إليه أُمورنا . والوكيلُ هو الكافي والحافظ الذي يُوكَل إليه الأمر ، ويُعْتَمَد عليه فيه .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٢٠) : ((ويعني بقوله : ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُم ﴾ قد جَمَعوا الرجال للقائكم ، والكَرَّة إليكم لحربكم ، ﴿ فَاخْشَوْهُم ﴾ يقول : فاحذروهم واتَّقوا لقاءهم ، فإنه لا طاقة لكم بهم ، ﴿ فَزَادَهُم إيمانًا ﴾ يقول : فزادهم ذلك مِن تخويف مَن خَوَّفَهم أمرَ أبي سُفيان وأصحابه من المشركين يقينًا إلى يقينهم ، وتصديقًا لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم ، ولم يُثْنِهم ذلك عن وَجْههم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالسَّير فيه ، ولكن ساروا حتى بَلَغوا رِضوانَ الله مِنه، وقالوا ثقةً بالله وتَوَكُّلًا عليه إذْ خَوَّفهم مَن خَوَّفهم أبا سفيان وأصحابه من المشركين: ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ . يعني بقوله: ﴿ حَسْبُنَا اللهُ ﴾ كَفَانا اللهُ . يعني: يَكفينا اللهُ ، ﴿ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ . يقول : ونِعْمَ المَوْلَى لِمَن وَلِيَه وكَفِلَه . وإنما وَصف تعالى نَفْسَه بذلك لأن ﴿ الوَكِيلُ ﴾ في كلام العرب هو المُسْنَد إلَيه القِيام بأمر مَن أسند إليه القِيام بأمره ، فلمَّا كان القوم الذين وصفهم اللهُ بما وصفهم به في هذه الآيات ، قد كانوا فوَّضوا أمْرَهم إلى الله ، ووَثِقوا به، وأسندوا ذلك إلَيه، وَصَفَ نَفْسَه بقِيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوَكالة ، فقال : ونِعْمَ الوكيل الله تعالى لهم)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٦٢) عن ابن عباس : ((" حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ " . قالها إبراهيم عليه السلام ، حِين أُلْقِيَ في النار ، وقالها مُحمَّد ﷺ حِين قالوا : ﴿ إنَّ الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾)) .

هذا يدل على عَظَمَة هذه العبارة، وجَلالة قَدْرها، وضرورة الحِرص عليها، والإكثار مِن ذِكْرها. ويجب على العبد أن يعتقد أن الأمر كُلَّه لله تعالى ، ولا فاعل إلا الله ، وكُل شيء خاضع لله . وهذا يُثَبِّت اليقينَ في قلب العبد ، ويزيده إيمانًا وطُمأنينة وثباتًا على الحق . ومَن تَوَكَّلَ على الله كَفاه ، ومَن فَوَّضَ إلَيه أمْرَه فازَ وسَعِدَ ، ومَن وَثِقَ بِه أعانه . وعلى العبد أن لا يَنظر إلى غَيْرِ الله تعالى .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمنين ﴾[الأنفال : ٦٤] .

إنَّ اللهَ وَحْدَه كافيكَ يا مُحمَّد ، وكافي أتباعك المؤمنين ، وناصركم على أعدائكم ، ومُؤيِّدكم عليهم ، وإن كَثُرت أعدادهم ، وقَلَّ أعداد المؤمنين . ومَن نَصَرَه اللهُ ، لن يَغلبه أحد .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٨١): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : ﴿ يا أيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ ﴾ وحَسْب مَن اتَّبعكَ مِن المؤمنين . اللهُ يقول لهم جَلَّ ثناؤه : ناهضوا عدوكم، فإن الله كافيكم أمرَهم ، ولا يَهُولَنَّكم كثرة عددهم ، وقِلَّة عددكم ، فإن الله مُؤيِّدكم بنصره)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إلا أن يَشَاءَ اللهُ ﴾[الكَهْف] .

هذا تعليمٌ وتأديبٌ مِن الله للنبيِّ مُحمَّد ﷺ بأن يَربط أمورَه المُستقبلية بمشيئة الله تعالى .

إذا عَزَمْتَ يا مُحمَّد على فِعْل شيء في المُستقبل،فلا تَقُلْ سأفعل ذلك حتى تَقول:إن شاء الله.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٨) : ((هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليَفعله في المُستقبل ، أن يَرُدَّ ذلك إلى مَشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَّام الغُيوب ، الذي يَعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يَكن لَوْ كان كيف يكون)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٢٧): ((سبب نزولها أن قُرَيْشًا سَألوا النبيَّ ﷺ عن ذِي القَرْنَيْن ، وعن الرُّوح ، وعن أصحاب الكهف ، فقال : " غَدًا أُخبركم بذلك " ، ولَم يقل : إن شاء الله . فأبطأ عليه جِبريل خمسة عشر يَوْمًا لتركه الاستثناء ، فَشَقَّ ذلك عليه ، ثم نزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الكلام : ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن تقول : إن شاء الله ، فحذف القَول)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أمْري إلى اللهِ ﴾ [غَافِر : ٤٤] .

وأُسَلِّمُ أمري إلى الله ، وأتوكَّل عَلَيه ، وأستعين به ، فهو الذي يَكفيني ما أهَمَّني،ويَحميني مِن كل سُوء . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٧٨) : ((أي : أتوكَّل عَلَيه ، وأُسلِّم أمري إلَيه . وقِيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قَتْلَه . وقال مُقاتل : هَرَبَ هذا المؤمنُ إلى الجبل ، فلم يَقْدِروا عليه . وقد قِيل : القائل مُوسى . الأظهر أنه مُؤمِن آل فِرْعَوْن ، وهو قول ابن عباس)) .

٦_ التَّسليم لأوامره

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ [لُقمان : ٢٢] . مَن يُطِع اللهَ مُخْلِصًا له، ومُفَوِّضًا أمْرَهُ إليه ، وخاضعًا لِحُكمه ، وسائرًا وَفْقَ شريعته ، وهو مُؤمِن مُوَحِّد ، يَجمع بين الإيمان والإحسان ، ويَلتزم أوامرَ الله ، ويَجتنِب نَواهيه ، فقد اعتصمَ بالعَهْد الأوثق الذي لا يَخاف انقطاعه ، وعَقَدَ لِنَفْسه عَقْدًا وثيقًا دائمًا ، لا يَنقطع ، ولا يزول. والآيةُ تدل على المُبالَغة في التَّمَسُّك ، والثبات على الحق والهدى . وأوثق العُرى الإخلاصُ للهِ تعالى ، فهو باقٍ ودائمٌ لا يَزول ولا يَنقطع، وكُل ما سِواه هالك مُنقطِع. وهذا يدل على قُوة الاتصال بالله تعالى، التي تَقُود إلى تنوير القلب ، وانشراح الصدر، والإقبال على الطاعات، والحِرْص على الآخرة . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٦٩) : ((لأن العبادة مِن غَير إحسان ولا معرفة القلب ، لا تَنفع)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٩) : ((﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ تَعَلَّقَ بأوثق ما يُتعلَّق به،وهو تمثيل للمُتَوَكِّل المُشتغِل بالطاعة بِمَن أراد أن يَترقَّى إلى شاهق جبل ، فَتَمَسَّكَ بأوثق عُرى الحبل المُتَدَلِّي مِنه)) .

وفي حديث جِبريل الشهير في صحيح مسلم (١/ ٣٦) أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف الإحسانَ بِقَوله : ((أن تَعبدَ اللهَ كأنك تراه ، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ لأن أكُونَ أوَّلَ المسلمين ﴾[الزُّمَر : ١٢] .

أُمِرَ النبيُّ مُحمَّد ﷺ لأن يَكون أولَ المسلمين مِن هذه الأُمَّة ، فهو قائد الأُمَّة الإسلامية وقُدوتها العُليا. وهنا يتجلى معنى المُسابَقة والمُسارَعة والمُبادَرة إلى تطبيق أمر الله ، بلا كسل ، ولا تأخير ، ولا نِقاش ، ولا اعتراض. وقد كانَ ﷺ كذلك، فهو أوَّل مَن استسلمَ لله ، وأذعنَ لأمره وحُكمه، وكَفَرَ بالطاغوت، وآمَنَ باللهِ وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، وخضع له بالتَّوحيد ، وأخلصَ له العبادة، وحَطَّمَ الأصنامَ ، وألغى التاريخَ الوثني للآباء والأجداد ، ودعا الناسَ إلى عبادة الله وَحْدَه ، وصنع حضارة الإسلام القائمة على توحيد الله ، وتَنْزيهه عن كُل عَيب ونقص . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((وأُمِرْتُ بذلك لأجل أن أكون مُقَدَّمَهم في الدنيا والآخرة ، لأن قَصَبَ السَّبْق في الدِّين بالإخلاص ، أو لأنه أول مَن أسلمَ وجهه لله مِن قُرَيش وَمَن دان بِدِينهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى رَبِّكُم وأسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أن يَأتِيَكُمُ العذابُ ثُمَّ لا تُنصَرون ﴾ [الزُّمَر : ٥٤] .

وارجعوا إلى الله ، وأخْلِصوا له التَّوحيد ، واستسلموا له ، واخضعوا لأمره وحُكمه ، وأقْبِلوا على طاعته ، وابتعِدوا عن معصيته ، مِن قَبْل نزول عذاب الله عَلَيكم وحُلول عقوبته بِكُم ، والمقصود عذاب الدنيا . ثُمَّ لا تَجِدون مَن يَمنعكم من عذابه ، ويَحميكم من عقوبته . أي : أقْبِلوا على الله بالتَّوبة قبل حُلول نَقمته بكم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأقْبِلُوا أيها الناس إلى رَبِّكم بالتَّوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة له ، واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه مِن تَوحيده ، وإفراد الأُلُوهة وإخلاص العبادة له ... . وقَوله : ﴿ وأسْلِمُوا لَهُ ﴾ يقول : واخضعوا له بالطاعة ، والإقرار بالدِّين الحَنيفي ، ﴿ مِن قَبْلِ أن يَأتِيَكُمُ العذابُ ﴾ مِن عِنده على كُفركم به ، ﴿ ثُمَّ لا تُنصَرون ﴾ يقول : ثُمَّ لا يَنصركم ناصر فيُنقذكم مِن عذابه النازل بكم)) .

٧_ الرَّجاء بالله

قالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا والذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ أُولئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] . إنَّ الذينَ صَدَّقوا بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، والذينَ رَفضوا مُساكَنة المشركين ، وهاجروا من دار الكفر (مكة) إلى دار الإسلام (المدينة) ، وفارَقوا عشائرَهم ومنازلَهم وأموالَهم ، وقاتَلوا وحارَبوا المشركين طاعةً للهِ تعالى ، ومن أجل إعلاء كلمة التَّوحيد .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٠٣) : ((كَرَّرَ الموصول " الذين " لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مُستقلان في تحقيق الرجاء)) اهـ .

أولئك يَطمعون أن يَرحمهم اللهُ فَيُدخِلهم الجنةَ بِفَضْله وتَوفيقه. إنَّ هؤلاء المؤمنين الصادقين على رَجاء الرَّحمة . إنهم أهلُ الرجاءِ لا الظالمون والفاسقون . والرجاءُ وحُسْنُ الظن إنما يَكونان مع الأخذ بالأسباب وَفْقَ حِكمة الله وإرادته . فالعبدُ يَلتزم بأوامر اللهِ ثُمَّ يَرجوه ويُحسِن الظنَّ بِه . أمَّا العُصاة والفاسقون فَيَتَّبعون أهواءهم ، ولا يَعرِفون معنى الرجاء وحُسْن الظن باللهِ تعالى . ومَن رَجا شَيئًا طَلَبَه ورَغِبَ فِيه ، ومَن خافَ شَيئًا هَرَبَ مِنه . والرَّجاءُ دائمًا يَقترِن بالخوف. واللهُ يَغفر الذنوبَ والأخطاءَ، ويَرحم بتعظيم الأجر والثواب . والآيةُ مديحٌ عظيمٌ للمؤمنين بسبب إيمانهم الراسخ ، وتضحياتهم العظيمة . وفي إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨٥) : ((قِيل للحسن : قَوم يَقولون: نَرجو اللهَ ، ويُضيِّعون العملَ ، فقال: هَيْهَات هيهات ، تلك أمانيُّهم يَتَرَجَّحُون فِيها)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٤٩) : ((وإنما قال : ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وَقَد مَدَحهم ، لأنه لا يَعْلَم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ، وَلَوْ بَلَغَ في طاعة الله كُلَّ مَبْلَغ لأمْرَيْن : أحدهما _ لا يدري بما يُختَم له ، والثاني _ لِئَلا يَتَّكل على عَمله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُون ﴾[النِّساء : ١٠٤] .

إن المؤمنين يَرْجُون مِنَ اللهِ الشَّهادةَ والنصرَ في الدنيا ، وارتفاع كلمة الإسلام ، وهزيمة الأعداء ، والحصولَ على الأجر في الآخرة ، في حِين أن الكافرين لا يَرْجُون شيئًا مِن ذلك . ومَن لا يُؤْمِن بالله تعالى ، لا يَرجو مِنه شيئًا ، ولا يَنتظر مِنه نصرًا ولا أجرًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٣١) : ((أي : أنتم وإيَّاهم سَواء فِيما يُصيبكم وإيَّاهم مِن الجِراح والآلام ، ولكن أنتم تَرْجُون من الله المَثوبةَ والنصرَ والتأييدَ ، كما وعدكم إيَّاه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صِدق ، وهُم لا يَرْجُون شيئًا مِن ذلك ، فأنتم أوْلَى بالجهاد مِنهم ، وأشد رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا في طُغْيانِهم يَعْمَهُون ﴾[يُونُس : ١١].

فنتركُ الكافرين الذين لا يَخافون عذابَ الله، ولا يَخْشَوْنَ عُقوبته، ولا يُوقِنون بالبعث والنُّشور، في كفرهم وضلالهم وتمرُّدهم وتكبُّرهم ، يتحيَّرون ويتردَّدون . أي إن الله يُمْهِلهم ، ويَمنحهم النِّعَمَ رغم طُغيانهم ، ولا يُعاجلهم بالعُقوبة ، استدراجًا لهم وخِذلانًا ، وإلزامًا للحُجَّة عليهم .

ونُونُ العَظَمَة في ﴿ لِقَاءَنا ﴾ تدل على الوعيد الشديد ، والتهديد الأكيد .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٦) : ((﴿ فَنَذَرُ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا ﴾ ، يقول : فَنَدَعُ الذين لا يَخافون عِقابَنا ، ولا يُوقِنون بالبَعْث ولا بالنُّشور ﴿ في طُغْيانِهِم ﴾ ، يقول : في تمرُّدهم وعُتُوِّهم ﴿ يَعْمَهُون ﴾ ، يعني : يتردَّدون)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾ [العنكبوت : ٥] .

مَن كانَ مُؤْمِنًا بالله ، ومُصَدِّقًا باليوم الآخِر ، وحريصًا على رضا الله ، وراجيًا لأجره وثوابه ، وخائفًا من الموت والحساب ، والتزمَ بالطاعات ، وعَمِلَ الصالحات ، فإن الله سيُحقِّق رجاءه ، ويَمنحه أجْرَه كاملًا غير منقوص ، ولن يُضيِّع عَمَلَه ، ولن يُخيِّب أمَلَه ، وإن وَعْد الله بالثواب والعِقاب كائن لا مَحَالة ، وواقع بلا شَك . وكُل ما هو آتٍ قريبٌ . والمعنى: مَن كان يَخشى اللهَ ، فليستعد للقائه ، والعمل لليوم الآخِر . وهذا يتحقَّق بعمل الطاعات ، والابتعاد عن المعاصي .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١١/ ٥٥) : ((... بيَّن هُنا أن مَن اعترفَ بالآخرة ، وعمل لها ، لا يضيع عملُه ، ولا يخيب أملُه . والمعنى : مَن كان يَرجو ثوابَ الله ، فليصبر في الدنيا على المُجاهَدة في طاعة الله ، حتى يَلقى اللهَ فيُجازيه ، فإن لقاء الله قريب الإتيان ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ . والآيةُ تَسلية للمؤمنين ، ووعد لهم بالخَير في دار النعيم)) .

٨_ الخُشوع بين يَدَيه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكانوا لَنَا خاشعين ﴾[الأنبياء : ٩٠] .

وكانوا للهِ مُتَذَلِّلين مُتواضعين ، خاضعين له ، يَخافونه في السِّر والعلانية ، ولا يتكبَّرون عن عبادته ودُعائه. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٠) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي مُصدِّقين بما أنزل اللهُ . وقال مجاهد : مُؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سِنان: الخُشوع هو الخَوف اللازم للقلب، لا يُفارقه أبدًا . وعن مجاهد أيضًا : خاشعين ، أي مُتواضعين . وقال الحسن وقَتادة والضَّحاك : خاشعين أي مُتَذَلِّلين لله عَزَّ وَجَلَّ. وكل هذه الأقوال مُتقاربة)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ الذينَ هُم في صَلاتِهِم خاشعون ﴾[المؤمنون : ٢] .

الخُشوعُ في الصلاة علامة المؤمن الصادق البعيد عن النِّفاق والرِّياء ، وما كانت أعضاؤه لَتَخْشَع لَوْلا خُشوع قلبه. وهذا يدل على ارتباط القلب بالله تعالى، وهو علامة الصلاح والتقوى.

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩٦) : ((والذين هُم في صلاتهم مُتَذَلِّلون للهِ بإدامة ما ألزمهم مِن فَرضه وعبادته، وإذا تَذَلَّلَ للهِ فيها العبدُ، رُئِيَت ذِلَّة خُضوعه في سُكون أطرافه، وشُغله بفَرْضه ، وتركه ما أُمِرَ بتركه فيها)) .

٩_ ذِكْر الله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاذكُروني أذكُرْكُم ﴾[البقرة : ١٥٢] .

فاذكُروني أيها المؤمنون بعبادتي وطاعتي والتزام أوامري، أذكُركم برحمتي وثوابي ومغفرتي لكم. والآيةُ تحثُّ على ذِكر الله تعالى، وتُبيِّن عَظَمَته وأهميته وشرفه وفضله . ولا شرف أعظم مِن ذِكر الله لعبده. ولو لم يكن هناك فضيلة في ذِكْر الله إلا هذه ، لكانت كافية .

وفي مُغني المُحتاج (١/ ١٦٩) : ((قال بعض العلماء : خَاطَبَ اللهُ هذه الأُمَّة بقَوله : ﴿ فاذكُروني أذكُرْكُم ﴾ ، فأمرهم أن يَذكُروه بغير واسطة ، وخاطبَ بني إسرائيل بقَوله : ﴿ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾[البقرة : ٤٠] ، لأنهم لم يَعرفوا اللهَ إلا بها ، فأمرهم أن يتصوَّروا النِّعَمَ ليصلوا بها إلى ذِكْر المُنْعِم)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٦٧) : ((وقال الحسن البصري في قَوله : ﴿ فاذكُروني أذكُرْكُم ﴾ . قال : اذكُروني فِيما افترضتُ عليكم أذكُركم فيما أوجبتُ لكم على نَفْسي . وعن سعيد بن جُبَير : اذكُروني بطاعتي أذكُركم بمغفرتي . وفي رواية : برحمتي . وعن ابن عباس في قَوله : ﴿ فاذكُروني أذكُرْكُم ﴾ . قال : ذِكْر الله إيَّاكم أكبر مِن ذِكْركم إيَّاه)) .

وعن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((يَقول اللهُ تعالى : أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي ، وأنا معه إذا ذَكَرَني ، فإن ذَكَرَني في نَفْسه ، ذَكَرْتُه في نَفْسي ، وإن ذَكَرَني في مَلأ ، ذَكَرْتُه في ملأ خَيْرٍ مِنهُم)) [1].

هذا تَحضيض على ذِكْر الله تعالى ، وحَث عليه ، وترغيب فيه ، وبيان لفضل ذِكْر الله ، وعَظَمَةِ هذه العبادة، وسُمُوِّ هذه الطاعة. واللهُ يُجازي عَبْدَه حَسَب ظَنِّه به،فإن رَجا العبدُ رحمةَ الله، وظَنَّ أنه يَعفو عنه ويَرحمه، فإن اللهَ لن يُخيِّب أملَه ورجاءه، وسوفَ يَعفو عنه ويرحمه. ولا يَرجو اللهَ إلا مؤمن . وإن يَئِسَ العبدُ مِن رحمة الله ، وَظَنَّ أنه سيُعاقبه ويُعذِّبه ، فإن اللهَ سَيَخْذُلُه ويُنزِل به غَضَبَه وسَخَطَه وعَذَابَه. ولا يَيْأس مِن رحمة الله إلا كافر . إن العبد إذا ظَنَّ أن الله يُسامحه سامحه، وإذا ظَنَّ أن الله يُعاقبه عاقبه . لذلك ، يجب على العبد أن يُحسِن رجاءه في الله . واللهُ معَ العبد بتوفيقه وإعانته ورعايته ونصره وحِفظه. وإذا عظَّم العبدُ رَبَّه وذَكَرَه ونزَّهه في السِّر ، ذَكَرَه اللهُ وكتبَ له الأجرَ في السِّر . وإذا فَعَلَ العبدُ ذلك علانيةً أمام جماعة من الناس ، ذَكَرَه اللهُ في جماعة مِن الملائكة المُقرَّبين ، الذين هُم أفضل مِن عامَّة البشر . ومَن ذَكَرَ اللهَ بالتعظيم ، ذَكَرَه اللهُ بالإنعام .

---

١ متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٦٩٤) برقم (٦٩٧٠) ، ومسلم (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : " أنا عِند ظَن عَبْدي بي " . قال القاضي : قِيل : مَعناه بالغُفران له إذا استغفرَ ، والقَبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكِفاية إذا طَلَب الكِفاية. وقِيل: المُراد به الرجاء، وتأميل العَفْو ، وهذا أصح. قَوله تعالى : " وأنا معه حين يَذكُرني"، أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية. وأمَّا قَوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكم أينما كُنتم ﴾ [الحديد : ٤]. فمعناه بالعِلْم والإحاطة . قَوله تعالى : " إن ذَكَرَني في نَفْسه ذَكَرْتُه في نَفْسي " . قال المازري : النَّفْس تُطلَق في اللغة على مَعانٍ مِنها الدَّم ، ومِنها نَفْس الحيوان ، وهُما مُستحيلان في حق الله تعالى ، ومِنها الذات . واللهُ تعالى له ذات حقيقة ، وهو المراد بقَوله تعالى:" في نَفْسي". ومِنها الغَيْب، وهو أحد الأقوال في قَوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ ما في نفْسي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] . أي : ما في غَيْبي ، فيجوز أن يكون أيضًا مُراد الحديث أي : إذا ذَكَرَني خاليًا ، أثابه اللهُ وجازاه عمَّا عَمِل بما لا يطَّلع عليه أحد . قَوله تعالى : " وإن ذَكَرَني في ملأ ذَكَرْتُه في ملأ هُم خَير مِنهم " . هذا مِمَّا استدلَّت به المعتزلة ومَن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . واحتجُّوا أيضًا بقَوله تعالى : ﴿ ولقد كَرَّمْنا بني آدم وحَمَلْناهم في البَر والبحر ورزقناهم مِن الطَّيبات وفَضَّلناهم على كَثير مِمَّن خَلَقْنا تفضيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠]. فالتقييد بالكثير احتراز مِن الملائكة . ومذهب أصحابنا وغيرهم أن الأنبياء أفضل من الملائكة لقَوله تعالى في بني إسرائيل : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى العَالَمِين ﴾ [الجاثية : ١٦] . والملائكة مِن العَالَمِين . ويُتأوَّل هذا الحديث على أن الذاكرين غالبًا يَكُونون طائفة لا نبيَّ فيهم ، فإذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في خلائق من الملائكة ،كانوا خَيْرًا من تلك الطائفة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واذكُر رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ودُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بالغُدُوِّ والآصَالِ ولا تَكُن مِنَ الغافلين ﴾[الأعراف : ٢٠٥] .

واذكُر اللهَ سِرًّا ، مُعَظِّمًا له ، ومُتَضَرِّعًا إلَيه ، وخائفًا مِنه . أي : اذكُر اللهَ سِرًّا ، رغبةً ورهبةً ، تَذَلُّلًا وخَوْفًا مِنه ، ووسطًا بين الجَهْر والسِّر ، في أوَّل النهار وآخِره ، ولا تَغفُل عن ذِكر الله تعالى .

والآيةُ تدل على أن رفع الصوت بالذِّكْر ممنوع ومذموم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣١٣ و٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ واذكُر رَبَّكَ في نَفْسِكَ ﴾ . في هذا الذِّكْر أربعة أقوال : أحدها أنه القراءة في الصلاة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا أمر أن يقرأ في نَفْسه في صلاة الإسرار. والثاني أنه القراءة خلف الإمام سِرًّا في نَفْسه، قاله قَتادة. والثالث أنه ذِكْر الله باللسان . والرابع أنه ذِكْر الله باستدامة الفِكْر ، لا يَغفُل عن الله تعالى . ذَكَرَ

القولَيْن الماوردي.وفي المُخاطَب بهذا الذِّكْر قَولان: أحدهما أنه المُستمع للقُرآن، إمَّا في الصلاة، وإمَّا مِن الخطيب ، قاله ابن زيد . والثاني أنه خِطاب النبيِّ ﷺ ، ومعناه عام في جميع المُكَلَّفِين . قَوله تعالى : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ التَّضَرُّع الخُشوع في تواضع ، والخِيفة الحَذَر مِن عِقابه . قَوله تعالى : ﴿ وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ ﴾ الجَهْر الإعلان بالشَّيء ، ورَجل جَهِير الصَّوت ، إذا كان صوته عاليًا . وفي هذا نَص على أنه الذِّكْر باللسان ، ويُحتمل وجهين : أحدهما قراءة القرآن ، والثاني الدُّعاء ، وكِلاهما مَندوب إلى إخفائه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم ﴾[الأنفال : ٢] .

إنما المؤمنون الحقيقيون ، المُخلِصون لله ، الكاملون في الإيمان ، إذا ذُكِرَ اسمُ الله ، فَزِعَتْ قُلُوبُهم، وخافت، تعظيمًا له، وتَهَيُّبًا مِنه، وتقديسًا لأمره، وتمجيدًا لشأنه ، واستحضارًا لعَظَمَته وجَلاله وسُلطانه.وهذه صِفة المؤمن الحقيقي الذي إذا خُوِّفَ بالله، خَضع له، وانقادَ لأمره وحُكمه.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٧٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ليس المُؤمن بالذي يُخالف اللهَ ورسوله،ويَترك اتِّباع ما أنزله إليه في كتابه، في حدوده وفرائضه والانقياد لحُكمه ، ولكن المُؤمن هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قلبُه، وانقادَ لأمره، وخَضع لذِكْره خَوْفًا مِنه، وفَرَقًا مِن عقابه)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى:﴿الذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾[الرَّعْد: ٢٨].

إن المؤمنين تَسْكُن قلوبُهم ، وتَسْتَأنس بتَوحيد الله وذِكْره . والفعل المُضارع يدل على دوام الاطمئنان واستمرار السَّكينة . ألا بذِكْر الله وَحْدَه تَسْكُن وتَسْتَأنس قُلوبُ المؤمنين ، فلا يَشعرون بقلق ولا اضطراب .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٨) : ((﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ﴾ أُنْسًا به ، واعتمادًا عَلَيه ، ورَجاءً مِنه ، أو بذِكْر رحمته بعد القلق مِن خَشْيته ، أو بذِكْر دَلائله الدَّالة على وجوده ووَحدانيته ، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المُعجِزات، ﴿ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ تَسْكُن إلَيه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٧) : ((والمعنى : يَهْدِي الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبُهم بذِكْر الله . في هذا الذِّكْر قَولان : أحدهما أنه القُرآن ، والثاني ذِكْر الله على الإطلاق. وفي معنى هذه الطُّمأنينة قَولان: أحدهما أنها الحُب له والأُنس به ، والثاني السُّكون إلَيه مِن غَير شَك ، بخِلاف الذين إذا ذُكِرَ اللهُ اشمَأزَّت قلوبُهم . قَوله تعالى : ﴿ ألا بِذِكْرِ اللهِ ﴾ . قال الزَّجاج : " ألا" حرف تنبيه وابتداء . والمعنى : تطمئن القُلوب التي هي قُلوب المؤمنين ، لأن الكافر غَير مُطمئن القلب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ ﴾[الكَهْف : ٢٤] . إذا نسيتَ أن تقول : إن شاء الله ، فقُلها عندما تتذكَّر، لتظلَّ دائمًا مُتَّصِلًا بالله، مُعَظِّمًا له. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٢٧): ((وللمُفسِّرين في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها أن المعنى إذا نَسِيتَ الاستثناءَ ، ثُمَّ ذَكَرْتَ، فقُل : إن شاء الله ، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة ، قاله سعيد بن جُبَير والجمهور . والثاني أن معنى إذا نَسِيتَ ، إذا غَضِبْتَ ، قاله عِكرمة . قال ابن الأنباري : وليس ببعيد ، لأن الغضب يُنتج النسيان. والثالث إذا نَسِيتَ الشيءَ فاذكُر اللهَ لِيُذكِّرك إيَّاه ، حكاه الماوردي)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : ((إذا حَلَفَ الرَّجُلُ على يمين ، فله أن يَستثنيَ ، وَلَوْ إلى سَنة ، وإنَّما نزلت هذه الآية في هذا ﴿ واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ ﴾)) . قال : ((إذا ذَكَرَ استثنى)) . قال علي بن مُسْهِر : وكان الأعمش يأخذ بها [٢].

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٠) : ((وعامَّة الفُقهاء على خِلافه ، لأنه لَوْ صَحَّ ذلك لم يتقرَّر إقرار ، ولا طلاق ، ولا عِتاق ، ولم يُعلَم صِدق ولا كَذِب . وليس في الآية ، والخبر أن الاستثناء المُتدارك به مِن القول السَّابق، بل هو مِن مُقدَّر مَدلول به عليه. ويجوز أن يكون المعنى: واذكُر رَبَّكَ بالتسبيح والاستغفار إذا نَسِيتَ الاستثناءَ مُبالغةً في الحَث عليه، أو اذكُر رَبَّكَ وعِقابه إذا تَرَكْتَ بعضَ ما أمرك به لِيَبعثك على التَّدارُك، أو اذكُره إذا اعتراك النِّسيان لِيُذكِّرك المَنسي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أكبرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . ولَذِكْرُ الله أعظم مِن كُل شيء.وعلى العبد أن يتذكَّر عَظَمَةَ اللهِ وجَلاله وسُلطانه وفضله وإنعامه، ويَذكُر اللهَ في أُموره الحياتية وشؤونه الدُّنيوية وعباداته الدينية ، ولا يَغفُل عنه مهما كانت الظروف . وذِكْرُ اللهِ للعبد أعظم مِن ذِكْر العبد لله ، لأن ذِكْر الله خالد باقٍ ، أمَّا ذِكْر العبد ففانٍ ولا يَبقى . وذِكْرُ اللهِ لا تَشُوبه شائبة ، أمَّا ذِكْرُ العبد فهو مَليء بالسَّهْو والنسيان والتقصير والأماني . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٤ و٢٧٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أكبرُ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها وَلَذِكْرُ الله إيَّاكم أكبر مِن ذِكْرِكم إيَّاه، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ ، وبه قال ابن عباس وعِكرمة وسعيد ابن جُبَير ومجاهد في آخرين.والثاني وَلَذِكْرُ الله أفضل مِن كُل شيء سِواه،وهذا مذهب أبي الدَّرداء وسَلمان وقَتادة . والثالث وَلَذِكْرُ الله في الصلاة أكبر مِمَّا نَهاكَ عَنه مِن الفَحشاء والمُنكَر ، قاله عبد الله بن عَون.والرابع وَلَذِكْرُ الله العبدَ ما كان في صلاته أكبر مِن ذِكْر العبد لله،قاله ابن قُتَيبة)).

---

٢ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٦) برقم (٧٨٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اذكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كثيرًا ﴾[الأحزاب : ٤١] .

يا أيُّها الذين صدَّقتم بوَحدانية الله ونُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، اذكُروا اللهَ بالتَّهليل والتَّحميد والتَّسبيح والتَّكبير والتَّقديس والتَّمجيد ، بقلوبكم وألسنتكم ، في كل زمان ومكان ، ذِكْرًا كثيرًا ، ولا تَغفُلوا عن ذِكر الله أبدًا . وينبغي على العبد أن يَذكر اللهَ ، ولا يَنساه على كل حال .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٥٩) : ((قال ابن عباس : " لَم يَفرِض اللهُ تعالى على عباده فريضةً إلا جَعل لها حَدًّا معلومًا ، ثُمَّ عَذَرَ أهلَها في حال العُذر غَيْرَ الذِّكْر ، فإنه لم يَجعل له حَدًّا يَنتهي إليه ، ولم يَعذِر أحدًا في تركه إلا مَغلوبًا على عَقْله ، وأمرهم به في كل الأحوال " ... وقال : ﴿ اذكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كثيرًا ﴾ . أي : بالليل والنهار ، في البَر والبحر ، وفي الصِّحة والسَّقَم ، في السِّر والعلانية . وقال مجاهد : الذِّكر الكثير أن لا تنساه أبدًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِين﴾[الزُّخْرُف: ٣٦].

ومَن يُعرِض عن القُرآن ، ويَغفُل عن ذِكْر الله وعبادته وطاعته ، فلم يَخَف مِن عذابه وعقوبته ، نُهيِّئ له شَيطانًا مُلازمًا له ، ومُلْتَصِقًا بِه، لا يَتركه ، ولا يُفارقه، يُضِلُّه، ويُغويه، ويُوَسْوِس له، ويُزيِّن له الذُّنوب والآثام والمعاصي ، ويَقوده إلى الهلاك والضياع . وهذه عقوبة إلهية لهذا الكافر الضَّال .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها يُعْرِض،قاله الضَّحاك عن ابن عباس،وبه قال قَتادة والفَرَّاء والزَّجاج.والثاني يَعْمَ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا،وبه قال عطاء وابن زيد.والثالث أنه البصر الضعيف،حكاه الماوردي. وقال أبو عُبَيدة:تظلم عَيْنُه عنه...قال المُفسِّرون:﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحمنِ﴾فلم يَخَفْ عِقابه،ولم يَلتفت إلى كلامه ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾ أي:نُسبِّب له ﴿شَيْطَانًا﴾ فنجعل ذلك جَزاءه﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِين﴾ لا يُفارقه)) .

١٠_ شُكره

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واشكُروا لي ولا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

واشكُروا اللهَ بعبادته وطاعته، والتزام أوامره، واجتناب نَواهيه، ولا تَجحدوه بالذُّنوب والمعاصي والآثام . ومَن أطاعَ اللهَ فقد شَكَرَه ، ومَن عصاه فقد كَفَرَه . والشُّكْرُ هو الاعتراف بحق الله المُنْعِم المُتَفَضِّل على عباده، معَ مَدْحه وتَمجيده وتَعظيمه والثناء عليه بأفعاله المحمودة ، والكُفْرُ تَغطية الشَّيء وسَتْره وإخفاؤه . وصَدَقَ الشاعرُ حِين قال :

فَلَوْ كانَ يَستغني عَن الشُّكرِ ماجدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أوْ عُلُوِّ مَكَانِ
لَمَا أمرَ اللهُ العِبادَ بشُكرِهِ ... فقالَ : اشكُروا لي أيُّها الثَّقَلانِ

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٤٠) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بذلك : اشكُروا لي أيُّها المُؤمنون فِيمَا أنعمتُ عَلَيكم مِن الإسلام والهِداية للدِّين ، الذي شَرَعْتُه لأنبيائي وأصفيائي ﴿ ولا تَكْفُرُونِ ﴾. يقول : ولا تَجْحَدوا إحساني إلَيكم ، فأسلبكم نِعمتي التي أنعمتُ عليكم ، ولكن اشكُروا لي عَلَيها ، وأزيدكم فأُتمِّم نِعمتي عليكم ، وأهديكم لِمَا هَدَيْتُ له مَن رَضِيتُ عنه مِن عِبادي ، فإني وَعَدْتُ خَلْقي أن مَن شَكَرَ لي زِدْتُه ، ومَن كَفَرَني حَرَمْتُه وسَلَبْتُه ما أَعْطَيْتُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إن شَكَرْتُم وآمَنتم وكانَ اللهُ شاكرًا عليمًا﴾[النِّساء: ١٤٧].

استفهام بمعنى التقرير . أيُّ منفعة لله في عذابكم إن أحسنتم العملَ ، وأصلحتم حالكم ، وصدَّقتُم بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ؟ . إنَّ اللهَ غنيٌّ عن كل شيء ، وكُل شيء فقير إلى الله ومُحتاج إلَيه . واللهُ يُعذِّب العبادَ بذنوبهم وآثامهم ومعاصيهم ، ولا يَظلِم أحدًا . وتعذيبُ الله لعباده لا يَزيد في مُلكه شيئًا ، ولا يُفيده. وعدمُ تعذيبهم لا يُنقِص مِن مُلْكه شيئًا ، ولا يَضُرُّه .

وتَمَّ تقديم الشُّكر على الإيمان ، لأن العاقل يَنظر إلى النِّعَم العظيمة والآلاء الجليلة ، ويتفكَّر فيها ، ويعترف بوجودها ، ويَشكر مُوجِدَها ، ولا يُنكِر المُنْعِمَ ، ولا يَجْحَد النِّعَمَ . وهذا يَقُوده إلى مَعرفة عَظَمَة المُنْعِم ، والإيمان به ، لأنه صاحب النِّعَم والآلاء . والنُّفُوسُ مَجبولة على حُب مَن أحسنَ إلَيها ، وأنعمَ عَلَيها . والمصنوع يدل على الصانع ، والأثر يدل على المُؤثِّر ، والسَّبب يدل على المُسبِّب ، والنِّعمة تدل على المُنْعِم . وهذا يعني أن الشُّكر هو الطريق المُوصِل إلى الإيمان ، لذلك جاء الترتيب ﴿ شَكَرْتُم وآمَنتم ﴾ ، وقُدِّمَ الشُّكر على الإيمان . ومعَ هذا ، فالإيمان مُقدَّم في المعنى ، وإن أُخِّرَ في اللفظ ، لأن الشُّكر بلا إيمان ، لا فائدة منه .

وكانَ اللهُ شاكرًا لطاعة عباده ، وهو الغنيُّ عنهم ، وهُم المُحتاجون إلَيه ، يُعطي الأجرَ الكثير على العمل القليل ، ويَقبل طاعات عباده اليسيرة ، ويُعطيهم الثواب الجزيل العظيم ، وعليمًا بحق شُكر عباده وإيمانهم . والآيةُ دليل على أن الله لا يُعذِّب المؤمنَ الشاكرَ .

وقال البغوي في تفسيره(١/ ٣٠٣):((قَوله تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إن شَكَرْتُم ﴾ أي: إن شكرتُم نَعماءه ، ﴿ وآمَنتم ﴾ به . فيه تقديم وتأخير ، تقديره : إن آمنتُم وشكرتُم ، لأن الشُّكر لا يَنفع مع عدم الإيمان.وهذا استفهام بمعنى التقرير،معناه:إنَّه لا يُعذِّب المؤمنَ الشاكرَ،فإن تعذيبه عِبادَه لا يَزيد في مُلْكه، وتَركه عُقوبتهم على فِعلهم لا يُنقِص مِن سُلطانه.والشُّكر: ضِد الكُفر، والكُفر سَتْر النِّعْمة. والشُّكر : إظهارها ، ﴿ وكانَ اللهُ شاكرًا عليمًا﴾ . فالشُّكر مِن الله تعالى هو الرِّضى بالقليل مِن عباده وإضعاف الثواب عليه. والشُّكر مِن العبد : الطاعة ، ومِنَ الله: الثواب)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُم لأزِيدَنَّكُم ﴾[إبراهيم : ٧] .

إذا شكرتُم اللهَ بتَوحيده وإخلاص العبادة له وطاعته في أوامره ونَوَاهيه ، فسوفَ يَزيدكم مِن النِّعَم والآلاء والعَطَايا والعبادات والطاعات والأجر والثواب . والآيةُ دليل على أن الشُّكر سبب المَزيد . ومَن مُنِحَ الشُّكر ، لَم يُحرَم مِن الزيادة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٤٧): ((وفي قوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُم لأزِيدَنَّكُم ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها لَئِن شكرتُم نِعَمي لأزيدَنَّكم مِن طاعتي، قاله الحسن . والثاني لَئِن شكرتُم إنعامي لأزيدَنَّكم مِن فَضْلي، قاله الربيع . والثالث لَئِن وَحَّدْتُموني لأزيدَنَّكم خَيْرًا في الدُّنيا، قاله مُقاتل)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومَن يَشْكُرْ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾[لُقمان : ١٢] .

ومَن يَشكر اللهَ فأجرُ شُكره راجع لنفْسه ، عائد إلَيه . واللهُ يَمنحه الثوابَ العظيم ، ويُنقِذه مِن العذاب الأليم. لذلك، إن العبد وَحْدَه هو المُنتفع بشُكره، والمُستفيد مِنه. واللهُ لا تَنفعه الطاعات، ولا تضرُّه المعاصي . وهو سُبحانَه لا يستفيد من شُكر المؤمنين ، ولا يتضرَّر مِن جُحود الكافرين ، وَلَوْ كَفَرَ جَميع أهل الأرض بلا استثناء، لأنه غنيٌّ عن كل شيء ، ولا يحتاج إلى شيء ، وكُل شيء فقير إلَيه ، ويَحتاج إلَيه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٠٨) : ((يَقول : ومَن يَشكر اللهَ على نِعَمه عنده، فإنَّما يَشكر لنفْسه ، لأن الله يُجزِل له على شُكره إيَّاه الثوابَ ، ويُنقِذه به مِن الهَلَكَة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن تَشْكُروا يَرْضَهُ لَكُم ﴾[الزُّمَر : ٧] .

وإن تُؤمنوا بالله وتُطيعوه وتشكروه على هدايته لكم ونِعَمه العظيمة، يَرْضَ شُكركم له.أي: يُحِبه لكم، ويَزِدكم مِن خَيره وفضله وإحسانه ، ويُثِبْكم على شُكركم . والشُّكر يتجلى في حقيقة الإيمان وماهية الطاعة . واللهُ يَرضى الشُّكر مِن عباده لمصلحتهم ومنفعتهم، لأنه لا يَنتفع بعبادتهم ، ولا طاعتهم.وبعبارة أُخرى،وإن تشكروا فَتُؤمنوا يَرْضَ الشُّكر لكم،لأنه سبب نجاتكم وفوزكم بالجنة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧/ ٢٤٤) : ((ورضاه بشُكرهم لأجلهم ومنفعتهم ، لأنه سبب فَوزهم بسعادة الدَّارَيْن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكُن مِنَ الشاكرين ﴾ [الزُّمَر : ٦٦] .

وكُن مِن الشاكرين لله ، لإنعامه عليك بالتَّوحيد والهِداية والنِّعَم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٣) : ((﴿ وكُن مِنَ الشاكرين ﴾ للهِ على نِعمته عليك ، بما أنعمَ مِن الهِداية لعبادته ، والبراءة مِن عبادة الأصنام والأوثان)) .

ثانيًا: الإيمان بالله

١ــ الدَّعوة إلى الإيمان

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلْيستجيبوا لِي وَلْيُؤمنوا بِي لعلهم يَرْشُدُون ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

هذه دَعوة إلهية كريمة للعباد أن يُطيعوا اللهَ، ويتوجَّهوا إليه بالدُّعاء وطلب حوائجهم ، ويُصدِّقوا بِوَحدانيته ورسالاته، ويَتمسَّكوا بالإيمان بِه، كَي يَهتدوا إلى طريق الحق ، بلا انحراف ولا اعوجاج .

فَلْيُجيبوا اللهَ بالطاعات والعبادات ، ويَدْعُوه مُخلِصين ، ويتمسَّكوا بالإيمان ، ويُداوموا عليه ، لعلَّهم يَهْتَدُون ، ويَكونوا على رَجاء مِن إصابة الحق والصواب والرُّشْد والاستقامة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠٤) : ((قِيل : الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فَلْيُجيبوا لي بالطاعة . والإجابة في اللغة : الطاعة ، وإعطاء ما سُئِل . فالإجابة من الله تعالى العطاء ، ومِن العبد الطاعة. وقِيل: ﴿ فَلْيستجيبوا لِي ﴾ . أي: لِيَستدعوا مِنِّي الإجابة ، وحقيقته : فَلْيُطيعوني)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قَدَّمَ إجابته لعباده إذا دَعَوْهُ على إجابة عباده له إذا دعاهم : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيستجيبوا لِي ﴾ ، وجَعَلَ سُبحانَه الاستجابة مِن العبد في غاية الأهمية ، لأن المشكلة في العبد ، ولَيْسَت في قُدرة الله تعالى . فإرادةُ الله نافذة في كُل شيء ، وكُل شيء خاضع لِقُدرته ، ولا شَيء يَمنعه مِن استجابة دعاء العبد . أمَّا العبدُ ففي طريقه عقبات كثيرة تمنع استجابة دعائه . لذلك يجب أن يُنَقِّيَ العبدُ قلبَه وحياته من المُحرَّمات، ويُصحِّح مسارَه .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٩٧):((فَقَدَّمَ إجابته لنا إذا دَعَوْناه على إجابتنا له إذا دَعَانا ، وجَعلَ الاستجابةَ مِن العبد ، لأنها أبلغ مِن الإجابة ، لأنه سُبحانَه لا مانع له مِن الإجابة، فلا فائدة للتأكيد، وللإنسان موانع منها الهوى والنَّفْس والشيطان والدنيا، فلذلك أمرَ بالاستجابة، فإن الاستفعال أشد في المُبالَغة مِن الأفعال ، وأين الاستخراج مِن الإخراج ؟ ، ولهذا يَطلب الكَوْنُ مِن اللهِ العَوْنَ)) اهـ .

ويجب على العبد أن يُصدِّق بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، ويَدْعُوَ اللهَ بإخلاص ويقين . ومِن شُروط استجابة الدُّعاء : تَوحيد الله وطاعته وعبادته ، وأكل الحَلال ، لأن أكل الحرام يَمنع إجابة الدُّعاء ، والتزام أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه ، وحُضور القلب عند الدُّعاء ، والتركيز ، واليقين . والعبدُ قد يَدعو لنفْسه بأمرٍ فيه هلاكه أو ضياعه مِن حَيث لا يَشعر ، ويعتقد المصلحةَ في إجابة الدُّعاء، لأنه قصير النظر، في حين أن المصلحة في عدم إجابة الدُّعاء ، لذلك لا يَستجيب اللهُ له.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمِن باللهِ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى لا انفصامَ لها واللهُ سميعٌ عليم ﴾ [البقرة : ٢٥٦] [٣] .

إنَّ فلسفة الإكراه تقوم على إلزام الغَيْر بِقَولٍ أو فِعل تحت الضغط والتهديد ، بدون قناعة مِنه أو وازع ذاتي أو دافع داخلي . لذلك ، فإنَّ الإكراه يتعارض مع الدِّين جُملةً وتفصيلًا . ولا يمكن للمُكْرَه أن يَشعر بالسعادة الروحية أو الطُّمأنينة في حياته . بل إنه يغرق في الشُّكوك والشُّبهات والخَوف مِن كُل ما حَوْلَه . وهذا يؤدِّي إلى صناعة إنسان مضطرب نفسيًّا، يكون مِعْوَلَ هدم في المجتمع البشري . والإكراهُ يَجعل مِن القلب مكانًا مُلَوَّثًا لا تَنبُت فيه بِذرةُ الإيمانِ والاستقرارُ الروحي. ولا يخفى أن العقيدة الصحيحة مكانها القلب الصافي ، وإذا كان القلبُ غير نظيفٍ ، فلا يمكن أن يحتضن الإيمانَ والسَّكِينةَ .

---

٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أنَّ المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لَم يَعِشْ لها ولد، تحلف لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّهُ، فلمَّا أُجْلِيَت يهود بني النضير،كان فيهم ناس من أبناء الأنصار،فقال الأنصار:يا رسول الله، أبناؤنا. فَنَزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.وقال الشَّعبي:قالت الأنصار : واللهِ لَنُكْرِهَنَّ أولادَنا على الإسلام ، فإنَّا إنما جعلناهم في دِين اليهود إذْ لَم نعلم دِينًا أفضل مِنه ، فَنَزلت هذه الآية . والثاني أنَّ رَجلًا مِن الأنصار تَنَصَّر له ولدان قبل أن يُبعَث النبيُّ ﷺ ، ثُمَّ قَدِما المدينة ، فلزمهما أبوهما ، وقال : واللهِ لا أدعكما حتى تُسْلِما، فَأَبَيَا، فاختصموا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية،هذا قول مسروق . والثالث أنَّ ناسًا كانوا مُسْتَرْضَعِين في اليهود، فلمَّا أجلى رسولُ الله ﷺ بني النضير، قالوا : واللهِ لَنَذْهَبَنَّ معهم، وَلَنَدِينَنَّ بِدِينهم ، فمنعهم أهلوهم ، وأرادوا إكراههم على الإسلام ، فَنَزلت هذه الآية . والرابع أنَّ رَجُلًا مِن الأنصار كان له غُلام اسمه صَبِيح كان يُكْرِهه على الإسلام، فَنَزلت هذه الآية، والقَولان عَن مجاهد . فصل : واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القَدْر مِن الآية ، فذهب قوم إلى أنه مُحْكَم ، وأنه مِن العام المخصوص، فإنه خص منه أهل الكتاب بأنهم لا يُكْرَهون على الإسلام،بَل يُخَيَّرون بينه وبين أداء الجِزية، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وقَتادة. وقال ابن الأنباري: معنى الآية ليس الدِّين ما تدين به في الظاهر على جِهة الإكراه عَلَيه، وَلَم يشهد به القلب، وتنطوي عليه الضمائر، إنما الدِّين هو الْمُنْعَقِد بالقلب.وذهب قَوم إلى أنه منسوخ، وقالوا : هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. فعلى قولهم يكون مَنسوخًا بآية السَّيف.وهذا مذهب الضَّحاك والسُّدي وابن زيد.والدِّين هاهنا أُرِيد به الإسلام)) .

والشخصُ المُكْرَه هو عِبء على الإسلام ، يُسِيء إلى صورة الدِّين ، ويُؤثِّر فِيه سَلْبًا ، ولا يُمكن اعتباره ناصرًا للإسلام أو مُؤيِّدًا له . وبالتالي ، فالشَّخصُ المُكْرَه هو تهديد لوجود الإسلام وجَوهره وصُورته ومنهجه ، وخطر حقيقي على المسلمين. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٦):
((أي: لا تُكْرِهُوا أحَدًا على الدخول في دِين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح جَلِيٌّ دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يُكْرَه أحد على الدخول فيه،بَل مَن هَداه الله للإسلام،وشَرَحَ صَدْرَه،ونَوَّرَ بصيرته ، دَخل فيه على بَيِّنة ، وَمَن أعمى اللهُ قَلْبَه ، وخَتَمَ على سَمْعه وبَصَره ، فإنه لا يُفيده الدخول في الدِّين مُكْرَهًا مَقْسُورًا)) اهـ . وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٣٥٢): عن سعيد ابن جُبَير عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ . قال: ((كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فتحلف : لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّه . فلما أُجْلِيَت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله، أبناؤنا. فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾)) . قال سعيد بن جُبَير :فمن شاء لحق بهم ،ومن شاء دخل في الإسلام .

لَم يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام بأيَّة وسيلة ، وإنما تُرِكوا كي يُقرِّروا مصيرَهم بأيديهم اعتمادًا على فكرهم الذاتي . وفي هذا احترامٌ لحرية الاعتقاد، ورفع من شأن العقل البشريِّ الذي مَنَحَه اللهُ تعالى حقَّ تقرير المصير مَعَ تحمُّل مسؤولية الاختيار كاملةً . ولو كان الإسلامُ دِينًا عنيفًا لوضع السَّيفَ على الرِّقاب لإدخالهم في الدِّين رغم أنوفهم ، وهو يملك النفوذ والقوة والسَّطوة . ومع هذا لَم يُفرَض الإسلامُ عليهم. وكُل فرد اختار طريقَه وفق مشيئته الخاصة دون إكراه ولا إجبار ولا تهديد ولا ضغط.وفي الحديث إشارةٌ إلى الجهل المُتجذِّر في بعض النساء.فالمرأةُ من الأنصار التي لا يعيش لها ولد اتَّخذت من الانحراف العَقديِّ سُلوكًا اجتماعِيًّا على أمل حماية أبنائها من الموت،فصار النَّذْرُ بتهويد ابنها إن عاش هو الطريق الأمثل بالنسبة إِلَيها.وهذا يدل على نظرة الاحترام والتقدير التي يَحملها عَرَبُ الجاهلية لأهل الكتاب . فالعربُ الوثنيون جُهَّال وبِدائِيُّون ، لا كِتاب لهم، أمَّا اليهودُ فَهُم أهل كِتاب (التَّوراة)، ولَدَيهم عُلماء وأحبار ومُفكِّرون.لذلكَ كان العربُ يَشعرون بنقصهم ودُونيَّتهم أمام اليهود.وبدلًا مِن شُكر الله تعالى عَلى حياة ابنها،فإنَّه تُهَوِّده. وهذا الضلالُ المُتفشِّي في البيئة الاجتماعية يعكس مدى التخلف العَقدي، والانهيار الاجتماعي المنتشر على نطاق واسع . والمرأةُ غارقةٌ في بحر عواطفها ، فهي تريد أن يعيش أبناؤها بأي ثمن ، ومستعدة لتقديم كل شيء في سبيل هذه الأُمْنِيَّة . إنها تريد أن تكون أُمًّا ، وتعيش عاطفةَ الأُمُومة بكل حيثياتها، ولا تُبالي بالثمن الذي تُقدِّمه ، حتى لو كان عقيدةً زائغة ، أو انحرافًا أخلاقيًّا .

﴿ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ . قَد اتَّضح الإيمانُ (الرُّشد) والكُفرُ (الغَي)، وتميَّز أحدهما على الآخَر. لقد تبيَّن الإيمانُ مِن الكُفر، والحق مِن الباطل ، والهُدى مِن الضلال ، بالحُجَج والبراهين.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٧) : ((تَمَيَّزَ الإيمانُ مِن الكُفر بالآيات الواضحة . ودلَّت الدلائلُ على أن الإيمان رُشد يُوصِل إلى السَّعادة الأبدية ، والكُفر غَي يُؤدِّي إلى الشَّقاوة السرمدية . والعاقل متى تَبَيَّنَ له ذلك ، بادرت نَفْسُه إلى الإيمان ، طلبًا للفَوز بالسعادة والنَّجاة ، ولم يَحْتَجْ إلى الإكراه والإلجاء)) اهـ .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمِن باللهِ ﴾ . فَمَن يُنكِر عبادةَ الأصنام والأوثان ، ويُخالِف كُلَّ ما يَدعو إليه الشَّيطان ، ويَرفض كُلَّ مَعبود مِن دُون الله ، ويَعبد اللهَ وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، ويُصدِّق أنبياءه ، ويُوقِن باليوم الآخِر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٦) : ((فأمَّا الطاغوت فهو اسم مأخوذ مِن الطُّغيان ، وهو مُجاوزة الحَد . قال ابن قُتَيبة : الطاغوت واحد وجَمْع ومُذكَّر ومُؤنَّث ... والمُراد بالطاغوت هاهُنا خمسة أقوال : أحدها أنه الشيطان ، قاله عُمر وابن عباس ومُجاهد والشَّعبي والسُّدي ومُقاتل في آخرين . والثاني أنه الكاهن، قاله سعيد بن جُبَير وأبو العالية . والثالث أنه الساحر ، قاله محمد بن سيرين . والرابع أنه الأصنام ، قاله اليزيدي والزَّجاج . والخامس أنه مَرَدَة أهل الكتاب ، ذَكَرَه الزَّجاج أيضًا)) اهـ .

﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ . فقد ثَبَتَ على الحق ، والتزمَ الهدى ، وتَمَسَّكَ بأوثق عَهْد وأقوى سبب لِنَيل رضا الله ، والنجاة مِن عذابه الأليم وعُقوبته الشديدة . وهذا العَهْد الوثيق والعَقْد المُحكَم ، هو الإيمان وكلمة الشَّهادة " لا إله إلا الله " .

﴿ لا انفصامَ لها ﴾ . لا انقطاع لها ، ولا كَسْر فِيها. وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٣٤٩) : ((﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ تَعَلَّقَ بأوثق ما يُتعلَّق به ، وهو تمثيل بِمَن أراد أن يَترقَّى إلى شاهق جبل ، فَتَمَسَّكَ بأوثق عُرى الحبل المُتَدَلِّي مِنه)) اهـ .

﴿ واللهُ سميعٌ عليم ﴾ . واللهُ سميعٌ للأقوال ، عليمٌ بالأفعال والقُلوب والنِّيات. وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٦٧): ((ولمَّا كان الكُفرُ بالطاغوت ، والإيمان بالله ، مِمَّا يَنطق به اللسانُ ، ويَعتقده القلبُ، حَسُنَ في الصِّفات ﴿ سميعٌ ﴾ مِن أجل النُّطق ﴿ عليم ﴾ مِن أجل المُعْتَقَد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ آمنَ الرسولُ بِمَا أُنزِلَ إلَيْهِ مِن رَبِّهِ والمؤمنونَ كُلٌّ آمنَ باللهِ ومَلائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِن رُسُلِهِ وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ ﴾[البقرة : ٢٨٥] .

صدَّق الرَّسولُ مُحمَّد ﷺ بوَحدانية الله ، والوَحْيِ الإلهيِّ الذي أنزله اللهُ عَلَيه ، وهو القُرآن العظيم الذي يشتمل على الأمر والنَّهْي ، والحلالِ والحرام ، والوعدِ والوعيد ، والبِشارة والنِّذارة ، والترغيب والترهيب، والمؤمنون عَطْف على الرسول . أي إنهم ساروا على خُطى رسولهم ، وصدَّقوا بِمَا صدَّق به . والجميعُ صدَّق بالله ، وملائكته (العباد المُكرَّمين المُتوسِّطين بين الله ورُسله في إنزال كُتبه) ، وكُتبه (الدساتير الإلهية المُشتملة على التعاليم والشرائع والأحكام التي تَعَبَّدَ اللهُ بِها عبادَه)، ورُسله (البشر المعصومين الذين اختارهم اللهُ لتبليغ الوَحْي الإلهيِّ للناس).يقولون:لا نُفرِّق بين أحدٍ مِن رُسله ، فنُؤْمِن ببعض ، ونَكفر ببعض ، كما فعلت اليهودُ والنصارى . وقالوا : أجَبْنَا ، وَسَمِعْنا أوامرَ الله سَماع قَبول ، وأطَعْنا أمرَك ، نَسألك غُفرانَك ، وإلَيْكَ المرجع بعد الموت . وهذا إقرار واعتراف مِنهُم بالبَعْث والجزاء. وقُدِّمَ السَّمع والطاعة على طلب المغفرة ، لأن الوسيلة تتقدَّم على المُتَوَسَّل إلَيه ، والطريقُ يتقدَّم على الهدف والغاية .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥): ((فقَوله تعالى: ﴿ آمنَ الرسولُ بِمَا أُنزِلَ إلَيْهِ مِن رَبِّهِ ﴾ إخبار عن النبيِّ ﷺ بذلك ... . وقَوله : ﴿ والمؤمنونَ ﴾ عَطْف على الرَّسول ، ثُمَّ أخبرَ عن الجميع فقال : ﴿ كُلٌّ آمنَ باللهِ ومَلائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِن رُسُلِهِ ﴾ ، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فَرْد صَمَد ، لا إله غَيْرُه ، ولا رَب سِواه ، ويُصدِّقون بجميع الأنبياء والرُّسُل والكُتب المُنزلة مِن السماء على عِباد الله المُرْسَلين والأنبياء ، لا يُفرِّقون بين أحد منهم ، فيُؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض ، بل الجميع عِندهم صادقون بارُّون راشدون مَهْدِيُّون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضُهم يَنسخ شريعةَ بعض بإذن الله ، حتى نُسِخَ الجميع بشَرْعِ مُحمَّد ﷺ خَاتَم الأنبياء والمُرْسَلين ، الذين تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفةٌ مِن أُمَّته على الحق ظاهرين . وقَوله : ﴿ وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا ﴾ أي : سَمِعْنا قَوْلَكَ يا رَبَّنا ، وفَهِمْناه ، وقُمْنا به ، وامْتَثَلْنا العملَ بمُقتضاه ، ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنا ﴾ سُؤال للمغفرة والرحمة واللطف ، ﴿ وإلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ أي : المَرْجِع والمَآب يوم الحِساب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتؤمِنُونَ باللهِ ﴾ [آل عِمران : ١١٠] [٤] .

---

٤ قال ابن عبد البَر في الاستيعاب (١/ ٤) : ((وقال بعض أهل العِلم : ﴿ كُنتم ﴾ بمعنى أنتم ، والكاف صِلة . وقال آخرون : كنتم في اللوح المحفوظ ، وهو الذِّكر ، وأُم الكتاب)) .

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية هي خَير الناس ، وأعظم الأُمم ، وهي أكثر الأمم استجابةً للإسلام . وقد أُخْرِجَت لمصلحة الناس ونفعهم وإرشادهم وهِدايتهم،وهذا ليس غرورًا ولا تكَبُّرًا. فالأُمَّة المُحمَّدية حَمَلَت الدعوةَ الإسلامية، وأخرجت الخَلْقَ مِن الظُّلمات إلى النُّور ، وذلك بهدايتهم إلى الإسلام .

والمقصودُ بالأُمَّة المُحمَّدية الصالحون مِنها والأتقياء والأولياء وأهل الفضل ، وهُم الشُّهداء على الناس يوم القيامة . وخَيريةُ الأُمَّة المُحمَّدية وأفضليتها مُقيَّدة بثلاثة شروط : الشَّرْط الأول _ الأمر بالمعروف:الأمر بِتوحيد اللهِ والتصديقِ بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها. الثاني _ النَّهْي عن المُنكَر : النَّهْي عن الشِّرك باللهِ وتكذيبِ النبيِّ ﷺ . الثالث_ الإيمان باللهِ : التصديق باللهِ وعبادته وَحْدَه بلا شِريك ولا نِد . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الواو في الآية لا تقتضي الترتيب .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٨٩): ((وأصل المعروف: كُل ما كان معروفًا فِعْلُه ، جميلًا مُسْتَحْسَنًا غَير مُسْتَقْبَح في أهل الإيمان بالله ، وإنما سُمِّيت طاعة الله معروفًا ، لأنه مِمَّا يَعرفه أهلُ الإيمان ولا يَستنكرون فِعْلَه. وأصل المُنكَر: ما أنكره اللهُ ، ورَأَوْه قبيحًا فِعْلُه ، ولذلك سُمِّيَت معصية الله مُنكَرًا ، لأن أهل الإيمان بالله يَستنكرون فِعْلَها، ويَستعظمون رُكوبَها)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧٨) : ((﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يَتضمَّن الإيمان بكل ما يجب أن يُؤمَن بِه ، لأن الإيمان به إنما يَحِق ويُعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أَمَرَ أن يُؤمَن بِه ، وإنما أخَّره ، وحَقُّه أن يُقدَّم ، لأنه قصد بِذِكْره الدلالة على أنهم أُمِرُوا بالمعروف ، ونُهُوا عن المُنكَر ، إيمانًا بالله وتصديقًا به ، وإظهارًا لِدِينه . واستدل بهذه الآية على أن الإجماع حُجَّة، لأنها تقتضي كَوْنهم آمِرين بكل معروف ، وناهين عن كل مُنكَر ، إِذْ اللام فِيهما _ يعني المعروف والمُنكَر _ للاستغراق ، فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خِلاف ذلك)) اهـ .

كانت الأُمَّةُ المُحمَّديةُ الإسلامية أعظمَ أُمَّة عند اللهِ في اللوح المحفوظ ، أخرجها اللهُ للناسِ لهدايتهم وإرشادهم ، ولا يُوجد أُمَّة أفضل مِنها ، وقد مَدَحَها اللهُ تعالى ، لأنَّها تتحلى بالصفات الثلاث : الأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكَر، والإيمان بالله. وهذا المَدحُ الإلهيُّ تشريفٌ للأُمَّة المُحمَّدية ، وتثبيتٌ لها على منهج الحق ، ورفعٌ لمعنوياتها في سبيل نشر الدَّعوة الإسلامية .

و﴿كنتم ﴾ تُشير إلى تَحَقُّق الشيء في الزمن الماضي ، ولا تَنفي تَحَقُّقَه في الحاضر أو المُستقبَل.كما في قَول الله تعالى: ﴿ وكانَ اللهُ عَليمًا حَكيمًا﴾.فاللهُ كانَ عليمًا حكيمًا،وما زالَ عليمًا حكيمًا ، ويَبقى عليمًا حكيمًا .

وأخرج ابن جرير عن قَتادة قال: قرأ عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾،ثم قال:((يا أيها الناس مَن سَرَّه أن يكون مِن تلك الأُمَّة، فَلْيُؤدِّ شَرْطَ الله منها))[٥].

إن أفضلية الأُمَّة المُحمَّدية مُقيَّدة بتحقيق الشروط الإلهية ، فهي لا تملك صُكوكَ غُفران حتى تنام وتنتظر دخول الجنة. بل عليها العمل بالعِلْم النافع ، والمُثابَرة في تحقيق المُراد الإلهيّ ، حتى تنال شرفَ الصدارة بين الأمم ، والرِّفعة في الدارَيْن . وإذا لَم تُحقِّق شروطَ الرِّفعة فلا بد أن تُلاقي نفْسَ مصير الأُمَم الغابرة التي ذهبت إلى الهاوية مع خَزْي الدنيا والآخرةِ .

وفي صحيح البخاري(٤/١٦٦٠):عن أبي هريرة_ رضي اللهُ عنه_: ﴿كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ﴾،قال:((خَيْرَ الناسِ للناس.تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يَدخلوا في الإسلام)).

والمعنى : تأتون بِهم أسرى مُقيَّدين ، فيَعرِفون الإسلامَ ، ويَعتنقونه طَوْعًا ، فيكون أسْرُكم لهم سبب إسلامهم ، وثباتهم عليه ، وهكذا يَحصلون على سعادة الدنيا ونعيمِ الآخرة الأبديّ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ١٤٥) : ((قال ابن الجوزي : معناه أنهم أُسِرُوا وقُيِّدُوا ، فلمَّا عَرفوا صِحَّةَ الإسلام دَخلوا طَوْعًا فدخلوا الجنة ، فكان الإكراه على الأَسْر والتقييد هو السبب الأول ، وكأنَّه أطلق على الإكراه التَّسلسل ، ولَمَّا كان هو السَّبب في دخول الجنة ، أقامَ المُسبَّب مقام السَّبب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/٤٤٠):((في قَوله تعالى: ﴿ تأمُرُونَ بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ قَولان : أحدهما أنه شَرْط في الخَيْرِيَّة ، وهذا المعنى مرويٌّ عن عُمر بن الخطاب ومُجاهد والزَّجاج . والثاني أنه ثناء مِن الله عليهم ، قاله الربيع بن أنس. قال أبو العالية : والمَعروف التَّوحيد ، والمُنكَر الشِّرك)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قَوْله _ عز وجل _ : ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس ﴾، قال : ((هُم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة)) [٦].

---

٥ تفسير الطبري(٣٨٩/٣) . وانظر تفسير ابن كثير(٥١٩/١)، والعُجاب في بيان الأسباب(٢/ ٧٣٤).

٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٣) برقم (٣١٦٠) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) : ((وعن أُبَي بن كعب قال: [لَم تكن أُمَّةٌ أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأُمَّة] . أخرجه الطبري بإسناد حسن عنه . وهذا كله يقتضي حَمْلها _ أي حمل ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس ﴾ _ على عُموم الأُمَّة ، وبه جزم الفرَّاء ... وقال غَيْرُه : المراد بقوله : ﴿كنتم ﴾ في اللوح المحفوظ ، أو في عِلْم الله تعالى ، ورجَّح الطبري أيضًا حمل الآية على عُموم الأُمَّة)) اهـ .

وعن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جَدِّه: أنه سَمع النبيَّ ﷺ في قَوْل الله _ عز وجل _ : ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾،قال:((أنتم تُتِمُّون سبعين أُمَّة،أنتم خَيْرُها وأكرمُها على الله عَزَّ وَجَلَّ))[٧].

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية لها مكانة خاصة بين الأمم ، باعتبارها الأُمَّة الحاملة لميراث الأنبياء كُلِّهم _ عليهم الصلاة والسلام_ . لذلك كانت الشريعة المُحمَّدية ناسخةً وخاتمة . وبالتالي فإنَّ الأُمَّة المُحمَّدية هي التي تضطلع بمسؤولية المحافظة على الشريعة الإلهية حتى يوم القيامة . وهذا تشريفٌ عظيم ، وتكليفٌ عالي الشأن . وبدون هذه الأُمَّة فإن نور الله تعالى سيختفي على الأرض ، وتتلاشى الشريعة السماوية ، ولن يُعبَد الله تعالى في الأرض . ومن هنا تنبع أهمية هذه الأُمَّة الخاتمة الحاملة لمسؤولية الأمانة السماوية إلى قيام الساعة. إنَّها الأُمَّة الوحيدة التي تَعبد اللهَ وَحْدَه بلا شريك، وتُؤمن بالأنبياء كُلِّهم بلا استثناء . وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوم بَدْر : ((اللهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العُصابةُ من أهل الإسلام ، لا تُعْبَدْ في الأرض)) .

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٩) : ((وإنما قال ذلك لأنه عَلِمَ أنه خاتَم النبيين ، فلو هلك هو ومن معه حينئذ ، لَم يُبعَث أحد مِمَّن يدعو إلى الإيمان ، ولاستمر المشركون يعبدون غَيْرَ الله ، فالمعنى لا يُعبَد في الأرض بهذه الشريعة)) اهـ . والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي الوحيدة التي تَعبد اللهَ وَحْدَه . واليهودُ والنصارى يَعبدون الشيطانَ والهوى ضِمن غلاف دِينيٍّ منسوب زُورًا إلى الذات الإلهية المُقدَّسة. وَلَوْ هَلكت الأُمَّة المُحمَّدية ، فهذا يعني أن كوكب الأرض سيخلو من الإسلام الدِّينِ الوحيد المَقبول عند الله تعالى ، وعندئذ تفقد المفاهيم الشرعية معناها ، وتغيب الشريعة السماوية عن الأرض ، وتفقد ماهية الخِلافة وإعمار الأرض معناها ، ويُصبح العَالَم _بالكامل_ مُسَيْطَرًا عليه مِن قِبَل الشَّيطان، ولا مكان فيه لِتَوحيد الله تعالى . وهذا مُحالٌ نقلًا وعقلًا . وفي مسند أحمد(١/ ٩٨):عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وجُعِلَت أُمتي خَيْرَ الأمم)) [٨]. وهذا كُلُّه يَصُبُّ في مسار تفضيل الأُمَّة المُحمَّدية على باقي الأمم بفِعْل إنجازاتها الدَّعوية المُهمة، وأدائها الثابت في تطبيق الشريعة الإلهية كاملةً غير منقوصة، والمحافظة على المنهج الإسلاميِّ الوسطي بدون إفراط أو تفريط ، والموازَنة الدقيقة بين حاجات الروح وغرائز الجسد ، والتأسيس المنهجي العِلْمي لمجتمع العدالة والفضيلة والأُخُوَّة .

---

٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٩٤) برقم (٦٩٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٨ حسَّنه الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنَادِيًا يُنادي للإيمانِ أنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فآمَنَّا رَبَّنا فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرارِ ﴾[آل عِمران : ١٩٣] .

رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا داعيًا يَدعو إلى الإيمان ، وهو النبيُّ مُحمَّد ﷺ . يَقول هذا الدَّاعي: آمِنُوا بالله، وصدِّقوا بوَحدانيته ، فآمَنَّا وصَدَّقْنا واتَّبَعْناه . رَبَّنا ، فاستُر ذُنوبَنا ، وتجاوَزْ عن آثامنا ، وسَامِحْنا على المعاصي . وتَكرارُ النداء ﴿ رَبَّنا ﴾ لإظهار الخُضوع والتَّضَرُّع . وامْحُ بفضلك ورحمتك وكرمك ذُنوبَنا وخطايانا ، وألْحِقْنا مع الأنبياء والصالحين الذين هَدَيْتَهُم إلى الحق، ورَضِيتَ عنهم . وهذا يدل على أنهم يُحِبُّون لقاءَ الله ، ومَن أحبَّ لقاءَ اللهِ ، أحبَّ اللهُ لقاءه . وأيضًا ، يَشتاقون إلى صُحبة الأنبياء (عباد الله المُخْلَصِين الطاهرين المُطهَّرين) .

وتَنكيرُ ﴿ مُنَادِيًا ﴾ وإطلاقه ، ثُمَّ تقييد الإطلاق والتفسير بعد الإبهام ﴿ يُنادي للإيمانِ ﴾ ، لتعظيم النبيِّ ﷺ ، وتفخيم أمره ، ورفع شأنه ، والتأثير في نَفْس السامع ، ودَفْعه إلى القَبول . ولا يُوجد أعظم مِن مُنادٍ يُنادي للإيمان ، فهذا تكليف عظيم ، وتشريف جليل .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قال: ﴿ مُنَادِيًا ﴾ ، ولم يقل : داعيًا . وذلك من أجل إظهار نشاط النبيِّ ﷺ في الدَّعوة الإسلامية ، وتبليغها للناس كافَّة . إذْ إن النِّداء يشتمل على رفع الصَّوت، وقُوَّة التأثير ، وسَعَة الانتشار ، والجَهْر بالحق ، ونشره بين الناس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٨ و٥٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنَادِيًا ﴾ في المُنادي قَولان : أحدهما أنه النبيُّ ﷺ ، قاله ابن عباس وابن جُرَيج وابن زَيد ومُقاتل . والثاني أنه القُرآن ، قاله محمد بن كَعْب القُرَظي، واختاره ابن جرير الطبري . قَوله تعالى : ﴿ يُنادي للإيمانِ ﴾ فِيه قَولان : أحدها أن معناه : يُنادي إلى الإيمان ... ، قاله الفرَّاء . والثاني بأنه مُقدَّم ومُؤخَّر، والمعنى: سَمِعْنا مُنَادِيًا للإيمان يُنادي، قاله أبو عُبَيدة . قَوله تعالى : ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنَا ﴾ قال مُقاتل : امْحُ عَنَّا خطايانا . وقال غَيْرُه : غَطِّها عَنَّا . وقيل : إنما جَمع بين غُفران الذنوب وتكفير السيئات ، لأن الغُفران بمُجرَّد الفضل ، والتكفير بفِعل الخير ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرارِ ﴾ ... قال ابن عباس : وهُم الأنبياء والصالحون)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ الذي أنزَلْنا ﴾[التَّغابُن: ٨] .فَصَدِّقوا أيُّها المُشركون بوَحدانيةِ الله ، ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، والقُرآنِ الذي أنزلَه اللهُ على رسوله ﷺ. فهو النُّورُ الواضح الذي يُنقِذ الناسَ مِن ظُلماتِ الجهل والكفر، ويُزيلُ ظَلامَ الشُّبهات، كما تُزيل الشمسُ ظَلامَ الليل. وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٢٥٢): ((يعني القرآن ، لأنه يُبَيِّنُ حقيقةَ كُلِّ شيء فَيُهْتَدَى بِه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يؤمن باللهِ يَهْدِ قَلْبَه ﴾[التَّغابُن : ١١] [٩] .

ومَن يُصدِّق بوَحدانية الله وأُلوهيته ورُبوبيته ، ويَعْلَم أنه لا يُصيبه مُصيبة إلا بإذن الله تعالى ، يَهْدِ اللهُ قَلْبَه للصبر والرضا بالقضاء والقَدَر ، ويَجْعَله مُهْتَدِيًا ، وشاكرًا عِند النِّعْمة ، وصابرًا عِند الشِّدة، ويُوفِّقه لليقين والطُّمأنينة ، حتى يَعْلَم أن ما أصابه لم يكن ليُخْطِئه ، وما أخطأه لَم يكن ليُصيبه . وهذا هو التَّسليم لقضاء الله وقَدَره . ومَن آمنَ بالله ، وأيقنَ أن كُل شيء بعِلْم الله وقضائه وقَدَره ، هانت عليه مُصيبته ، ولم يَعبأ بها ، ولم يَأبَه لها ، وسَلَّمَ لأمر الله بكل رحابة صدر . ومَن سَلَّمَ لأمر الله ، ارتاحَت أعصابُه ، وسَكنت جوارحه ، واطمأنَّ قلبُه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨١) : ((أي : ومَن أصابته مُصيبة ، فَعَلِمَ أنها بقِضَاء الله وقَدَره ، فصبرَ ، واحتسبَ ، واستسلمَ لقضاء الله ، هَدى اللهُ قَلْبَه ، وعوَّضه عمَّا فاته مِن الدنيا ، هُدًى في قلبه ، ويقينًا صادقًا . وقد يُخْلِف عليه ما كان أَخَذَ مِنه ، أو خَيْرًا مِنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن يؤمن بِرَبِّهِ فلا يَخَافُ بَخْسًا ولا رَهَقًا ﴾[الجِن : ١٣] .

فَمَن يُصدِّق بوَحدانية الله وأُلوهيته ورُبوبيته ، فلا يَخاف أن يُنقَص مِن حسناته ، ولا أن يُزاد في سَيِّئاته . والبَخْس النُّقصان ، والرَّهَقُ العُدوان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٨٠) : ((﴿ فَمَن يُؤمِن بِرَبِّهِ فلا يَخافُ بَخْسًا ﴾ ، أي : نَقْصًا مِن الثواب ﴿ ولا رَهَقًا ﴾ ، أي : ولا ظُلْمًا ومَكْرُوهًا يَغْشَاه)) .

٢_ حقيقة الإيمان

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فأمَّا الذينَ آمَنُوا باللهِ واعتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُم في رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ويَهْدِيهِم إلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾[النِّساء : ١٧٥] . فأمَّا الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وتمسَّكوا بالقُرآن ، فَسَيُدْخِلهم في جَنَّته ، ويَهديهم إلى طريق الإسلام في الدُّنيا ، وإلى طريق الجَنَّة في الآخِرة .

---

٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٨٣) : ((فيه سِتَّة أقوال : أحدها يَهْدِ قلبَه لليقين، فيَعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطِئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال علقمة: هو الرَّجل تُصيبه المصيبة فيَعلم أنها مِن قِبَل الله تعالى، فيُسلِّم ويَرْضَى . والثاني يَهْدِ قلبَه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قاله مُقاتل. والثالث أنه إذا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أُنعِمَ عليه شَكَر،وإذا ظُلِمَ غَفر،قاله ابن السائب وابن قُتَيبة.والرابع يَهْدِ قلبَه،أي يجعله مُهْتَدِيًا،قاله الزَّجاج.والخامس يَهْد وَلِيَّه بالصَّبر والرِّضى، قاله أبو بكر الوراق. والسادس يَهْدِ قلبَه لاتِّباع السُّنة إذا صَحَّ إيمانُه، قاله أبو عثمان الحيري)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٨٧) : ((﴿ فأمَّا الذينَ آمَنُوا باللهِ واعتَصَمُوا بِهِ ﴾ ، أي : جَمعوا بين مَقَامَي العبادة والتَّوكُّل على الله ، في جميع أُمورهم . وقال ابن جُرَيج : آمَنُوا بالله ، واعتصموا بالقُرآن، رواه ابن جرير. ﴿ فَسَيُدْخِلُهُم في رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ﴾ ، أي: يَرحمهم فيُدْخِلهم الجَنَّةَ ، ويَزيدهم ثوابًا ومُضَاعَفَة ، ورَفْعًا في درجاتهم مِن فَضله عليهم وإحسانه إلَيهم ، ﴿ ويَهْدِيهِم إلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ، أي : طريقًا واضحًا قَصْدًا قَوَامًا . لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف . وهذه صِفة المؤمنين في الدُّنيا والآخرة ، فهُم في الدُّنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات،وفي الآخرة على صراط الله المُستقيم المُفْضِي إلى رَوْضات الجَنَّات)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأنْ أقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفًا ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكين ﴾[يُونُس : ١٠٥].

أخْلِص العبادةَ لله وَحْدَه، حَنيفًا، مُنْحَرِفًا عن الشِّرْك وكُلِّ دِين باطل، مائلًا إلى الإسلام ، وثابتًا عليه، ولا تُشْرِكْ بالله شيئًا. والخِطابُ للنبيِّ مُحمَّد ﷺ ، والمُراد غَيْرُه ، لأنه ﷺ مَعصوم مِن الكُفر.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأنْ أقِمْ وَجْهَكَ ﴾ المعنى: وأُمِرْتَ أن أَقِمْ وَجْهَك . وفيه قولان : أحدها أخْلِصْ عَمَلَك . والثاني اسْتَقِمْ بإقبالك على ما أُمِرْتَ به بوجهك . وفي المراد بالحَنِيف ثلاثة أقوال : أحدهما أنه المُتَّبع ، قاله مجاهد. والثاني المُخْلِص قاله عطاء ، والثالث المُستقيم ، قاله القُرَظي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ فإن فَعَلْتَ فإنَّكَ إذًا مِنَ الظالمين ﴾ [يُونُس : ١٠٦] .

ولا تَعبد الأصنامَ ، فهي آلهةٌ باطلةٌ عاجزة ، لا تَجلب لكَ نفعًا ولا تَدفع عَنكَ ضَرًّا ، فإن عَبَدْتَها مِن دُون الله ، فإنَّكَ مِنَ المُشركين الذين وَضعوا العبادةَ في غَير مَوضعها ، وظَلموا أنفسهم، بأن قَادُوها إلى عذاب النار الأبديّ. وهذا أسوأ أنواع الظُّلم . ولا شَكَّ أن عبادة ما لا يَنفع ولا يضرُّ مضيعة للوقت ، وتدميرٌ لإنسانية الإنسان ، وطريق إلى الهلاك الدائم والعذاب الأبديِّ . ولا يُوجد مَخلوق عاقل يَعبد مخلوقًا آخَر . وتركُ عبادة الخالق والتَّوَجُّه إلى عبادة المخلوق ، أمرٌ في غاية القُبح ، ولا يَفعله إنسان يَملك ذَرَّةً مِن عَقْل . والمُشْرِكُ ظَلَمَ نَفْسَه ، ولَم يَظلم اللهَ ، لأن اللهَ مُنَزَّهٌ عن كُل نقص وعَيب ، وهو غنيٌّ عن كل شيء . لا يَنفعه إيمانُ العبد ، ولا يضرُّه كُفره . والمعنى العام للآية : لا تَعبد غَيْرَ اللهِ ولا تَدْعُ مِن دُونه شَيْئًا ، لأن النفع والضَّر بيد الله وَحْدَه .

والنبيُّ ﷺ مَعصوم ، وهو سَيِّد الأنبياء والمُرسَلين . والخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمقصود غَيْرُه . وإذا كان اللهُ يُخاطِب النبيَّ ﷺ بهذا الكلام العظيم ، ويُحذِّره ويُنبِّهه ، وهو النبيُّ المعصوم مَضْرِب

المَثَل في الإيمان والتقوى ، فما بالُكَ بِمَن هُوَ دُونه ؟، وَكُلُّ الناس دُونه . ويَنبغي أخذ العِبرة والموعظة مِن هذه الآية، فاللهُ يُقدِّم دَرْسًا للناس بأن المُشرِك يَضُرُّ نَفْسَه، ويُهْلِكها ، ويَقودها إلى الخلود في النار ، دُون أيَّة فرصة للنجاة ، كائنًا مَن كان . ولا أحد فوق الشريعة الإلهية .

والآيةُ لا تعني أن النبيَّ ﷺ كان يَعبد الأصنامَ ، ونَهاه اللهُ عن عبادتها . فالنَّهْيُ عَن الشَّيء لا يستلزم وقوعه . واللهُ يَأمر مَن شاء بِمَا شاء . وهو سُبحانَه يُعلِّم أنبياءه ويُوجِّههم ويُرشدهم ، وهُم سادة البشرية،كَي يَتعلَّم الناسُ ويَفهموا أمرَ دِينهم،ويَعرفوا مسارهم في الدنيا،ومصيرهم في الآخرة.

وفي الآية ﴿ فإن فَعَلْتَ ﴾ كُنِّيَ بالنبيِّ ﷺ ، ولَم يُذْكَر صراحةً . وهذا تعظيم لِقَدْر النبيِّ ﷺ ، وتَنويه بِشَأنه ، وإشادة بِفَضله ، وتَنْزيه للنبيِّ عَن عبادة غَير الله ، فهو النبيُّ المعصوم الصادق الأمين، وأعْلَم الخلق باللهِ تعالى ، ولا يُمكِن أن يَقترف جريمةَ الشِّرْك باللهِ تعالى .

الآيةُ ﴿ فإنَّكَ إذًا مِنَ الظالمين ﴾ هي جزاء الشَّرْط ، وتُبيِّن النتيجةَ المُترتِّبة على الشِّرك بالله وعبادة غَيْره.والمعنى:فَإن دَعَوْتَ مِن دُون الله ما لا يَنفعك ولا يَضُرُّك،فإنَّكَ مِن الظالمين لأنفسهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/٧٠):((قَوله تعالى:﴿ ولا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ ﴾ إن دَعَوْتَهُ ﴿ولا يَضُرُّكَ ﴾ إن تَرَكْتَ عبادته . والظالم الذي يَضع الشيء في غَير مَوضعه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أجْرَهُم بِأحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾[النَّحل : ٩٧] .

مَن التزمَ أوامرَ الله ، وفَعَلَ الطاعات ، وابتعدَ عن المعاصي ، مِن ذَكَر أو أُنثى ، وهو مُصدِّق بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، فإن الله سَيُحْييه حياةً جميلةً سعيدةً طَيِّبةً في الدُّنيا ، ويَمنحه الأجرَ العظيمَ والثوابَ الجزيل في الآخرة ، ويَجزيه بجزاء أحسن أعماله وأفضلها . وهذا وعدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة ، ووعدُ الله لا يتخلَّف . والآيةُ تُرغِّب المؤمنين في عمل الصالحات ، وفِعل الطاعات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٨٨ و٤٨٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ . اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطَّيِّبة على ثلاثة أقوال : أحدها أنها في الدُّنيا ، رواه العَوفي عن ابن عباس، ثُمَّ فيها للمُفسِّرين تِسعة أقوال. أحدها أنها القناعة ، قاله عليٌّ عليه السلام، وابن عباس في رواية ، والحسن في رواية ، ووَهْب بن مُنَبِّه . والثاني أنها الرِّزق الحَلال ، رواه أبو مالك عن ابن عباس، وقال الضَّحاك : يَأكل حَلالًا ويَلبس حلالًا . والثالث أنها السعادة، رواه عليُّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع أنها الطاعة ، قاله عِكرمة . والخامس أنها رِزق يَوْم بيَوْم ، قاله قَتادة . والسادس أنها الرِّزق الطَّيِّب والعمل الصالح ، قاله إسماعيل بن أبي خالد . والسابع

أنها حَلاوة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق . والثامن العافية والكِفاية . والتاسع الرِّضى بالقضاء ، ذكرهما الماوردي. والثاني أنها في الآخرة ، قاله الحسن ومجاهد وسعيد بن جُبَير وقَتادة وابن زيد، وذلك إنما يكون في الجنة . والثالث أنها في القَبر ، رواه أبو غسان عن شَريك)) اهـ .

وعن ابن عباس : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ . قال : القُنوع . قال : وكان رسولُ الله ﷺ يَدعو يقول : ((اللهُمَّ قَنِّعْني بما رزقتني ، وبَارِكْ لي فيه ، واخْلُفْ عليَّ كُلَّ غائبةٍ لي بخَيْر)) [١٠].

إن القناعة كَنْزٌ لا يَفْنَى ، ومَصَارِع الرجال تحت بُروق المَطَامِع . والنبيُّ ﷺ كان مُتَمَسِّكًا بالقَناعة ، وكان يَدعو اللهَ أن يَجعله راضيًا برِزْقه ، وأن يُبارك فيه ويُنَمِّيَه ، ويَجعله مِن الحَلال الطَّيب،وأن يَجعل اللهُ له عِوَضًا حاضرًا مِمَّا غابَ عنه، ولم يُدركه مِن مال أو ولد أو أيِّ شيء آخَر.

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وَهُوَ مؤمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢].

ومَن يَفعل الطاعاتِ ، ويَقُمْ بفرائض الله تعالى ، وهو مُصدِّق بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وأن اللهَ يُجازي الناسَ بأعمالهم ، فيُثيب المُحْسِنَ ، ويُعاقِب المُسيءَ ، فلا يَخاف ظُلْمًا بزيادة سيِّئاته ، ولا نقصًا لحسناته . والإيمانُ شرط في صِحَّة العبادات وقَبول الطاعات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٢٤) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وَهُوَ مؤمِنٌ ﴾ . ﴿ مِنَ ﴾ هاهُنا للجِنس . وإنما شَرَطَ الإيمانَ ، لأن غير المؤمن لا يُقبَل عملُه ، ولا يكون صالحًا ، ﴿ فلا يَخَافُ ﴾ أي : فهو لا يَخاف . قَوله تعالى : ﴿ ظُلْمًا ولا هَضْمًا﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها لا يَخاف أن يُظلَم فيُزاد في سَيِّئاته ، ولا أن يُهضَم مِن حسناته، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني لا يَخاف أن يُظلَم فيُزاد مِن ذَنْب غَيْره، ولا أن يُهضَم مِن حَسناته ، قاله قَتادة . والثالث أن لا يَخاف أن يُؤاخَذ بما لم يَعمل ، ولا يُنْتَقَص مِن عمله الصالح، قاله الضَّحاك . والرابع لا يَخاف أن لا يُجزَى بعمله ، ولا أن يُنقَص مِن حَقِّه ، قاله ابن زَيد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وَهُوَ مؤمِنٌ فلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وإنَّا لَهُ كاتبون ﴾ [الأنبياء : ٩٤] . فَمَن يَفْعَل الطاعاتِ ، ويَقُمْ بالعباداتِ ، وهو مُصدِّق بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، فلا بُطلان لثواب عمله ، ولا ضياع لأجره ، ولا جُحود لجزائه ، بل يُشكَر عَلَيه ، ويُمنَح أجْرَه كاملًا ، واللهُ يَكتب عَمَلَه الصالح في صحيفته ، فلا يضيع مِنه شيء . والمقصود هو أن اللهَ يَأمر ملائكته الحَفَظَة بكتابته مِن أجل مُجَازَاة العبد . ومَن أَمَرَ بشيء ، جازَ نِسبته إلَيه .

١٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٨) برقم (٣٣٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٨٦): ((﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ ﴾ أي : شيئًا مِن الفرائض وأعمال البر ﴿ وَهُوَ مؤمِنٌ فلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي : لا نَجْحَد ما عَمِلَ، قاله ابن قُتَيبة. والمعنى أنه يُقبَل مِنه ويُثاب عَلَيه ﴿ وإنَّا لَهُ كاتبون ﴾ ذلك، نأمر الحَفَظَةَ أن يَكتبوه لنُجازيَه به)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحقُّ مِن رَبِّهِم كَفَّرَ عَنْهُم سَيِّئاتِهِم وأصلحَ بَالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٢] .

الذين صَدَّقوا بوَحدانية الله ، والتزَموا أوامرَه ، واجتنبوا نَواهيه . أي : جَمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح.وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٠): ((أي : آمنتْ قُلوبُهم وسَرائرُهم، وانقادت لِشَرع الله جوارحُهم وبواطنُهم وظواهرُهم)) .

﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ ﴾ يَعُمُّ المهاجرين والأنصار ومُؤمني أهل الكتاب وغيرهم . والعِبرةُ بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب .

وصَدَّقوا بالقُرآنِ الذي نَزَّله اللهُ على مُحمَّد ﷺ ، وهو الوَحْيُ الحَق المُنَزَّه عن الكذب والشُّكوك والشُّبهات ، ولَم يُخالفوه في شَيء ، مَحا اللهُ عنهم سَيِّئاتهم ، وغَفَرَ ذُنوبَهم التي عملوها في الماضي بسبب إيمانهم وعملهم للطاعات. وأصلحَ شَأنَهم في الدُّنيا، فعاشوا في سعادة وهناء ، وأصلحَ حالهم في الآخرة، بأن مَنحهم الجَنَّة (النعيم الخالد) .

وفي تفسير البغوي (١/ ٢٧٧) : ((قال ابن عباس ــ رضي اللهُ تعالى عنهما ــ: عَصَمَهم أيام حياتهم ، يعني أن هذا الإصلاح يَعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يَعْصُوا)) .

وقد خُصَّ ذِكر الإيمان بما نُزِّلَ على مُحمَّد ﷺ ، مَعَ أنه يندرج تحت الإيمان الكُلِّيِّ ، تنبيهًا على شَرَفِ القُرآنِ وعَظَمته ، وعُلُوِّ مكانة مُحمَّد ﷺ ، ورِفعة شأنه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨): ((﴿ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ ﴾ تخصيص للمُنَزَّل عليه مِمَّا يجب الإيمان به تعظيمًا له، وإشعارًا بأن الإيمان لا يتمُّ دُونه ، وأنه الأصل فيه)).

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ :ــ ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ ﴾، قال : ((هُم الأنصار)) . قال : ((﴿ وأصلحَ بَالَهُم ﴾ أمْرَهم)) [11].

٣ــ تشبيهه بالنُّور

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ﴾[البقرة : ٢٥٧].

١١ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩٦) برقم (٣٧٠٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

اللهُ وَلِيُّ الذين صدَّقوا بوَحدانيته ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، يَتَوَلَّاهم، ويَنصرهم، ويَحفظهم، ويَحميهم ، ويَهديهم ، ويُعينهم . يُخرجهم مِن ظُلمات الكُفر إلى نُور الإيمان . إنَّ اللهَ يُخرِجهم مِن ظُلمات الكفر المانع لرؤية حقائق الإيمان، والذي يَحجب إبصارَ الآيات الإلهية الساطعة ، إلى نُور الإيمان الذي يفتح القلوب والأعين والأسماع .

والجديرُ بالذِّكر أن لفظة " النُّور " في القرآن الكريم تجيء بالمُفرَد دائمًا ، فلا تُوجد كلمة " الأنوار " ، لأن الحق واحد لا يَتعدَّد، والظُّلمات مُتعدِّدة ، والكُفر أجناس كثيرة ومذاهب مُتفرِّقة. وعلى العبد أن يلتزم بالصِّراط المُستقيم ، ولا يُضيِّع وَقْتَه وجُهْدَه في الطرقات المُلتوية المُتفرِّعة عن الوهم واتِّباع الهوى ، لأن ذلك يؤدِّي إلى التشويش على عقيدته ، وتشتيتِ جهوده وأهدافه الرامية إلى صناعة الخير في كل المجالات . كما أن الطرقات المُلتوية من شأنها إثارة الشُّبهات في النُّفوس، وهذا يُؤثِّر سَلْبًا على تركيز العبد ، ويَسلبه الطمأنينةَ وحَلاوةَ الإيمان . فالشُّبَه خطَّافة ، والقلوبُ ضعيفة . وهنا تبرز ضرورةُ إبعاد القلب عن أماكن الفِتَن ، ولا يوجد عاقلٌ يُعرِّض نَفْسَه للامتحان ، لأنه قد يَسقط فيه ، ولا يَقْدِر على الوُقوف مَرَّةً أُخرى . والسلامةُ أكبر غنيمة ، وعلى العبد أن يَقِيس الأمورَ قبل أن يَغوص فِيها لِكَيْلا يَغرق ، وقد لا يَجد المُنْقِذَ ولا طَوق النَّجاة .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٣) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا ﴾ نصيرهم وظهيرهم ويتولَّاهم بعَونه وتَوفيقه ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ يعني بذلك : يُخْرجهم مِن ظُلمات الكُفر إلى نُور الإيمان . وإنَّما عنى بِ ﴿ الظُّلُمَاتِ ﴾ في هذا المَوضع الكُفر ، وإنما جَعل ﴿ الظُّلُمَاتِ ﴾ للكفر مَثَلًا، لأن الظُّلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء لإثباتها،وكذلك الكُفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان، والعِلْم بصِحَّته، وصِحَّة أسبابه، فأخبرَ تعالى ذِكْرُه عبادَه أنه وَلِيُّ المُؤمنين، ومُبصِّرهم حقيقةَ الإيمانِ وسُبَلَه وشرائعَه وحُجَجَه ، وهاديهم فمُوفِّقهم لأدلته المُزيلة عنهم الشُّكوك بكَشْفه عَنهم دَواعي الكُفر ، وظُلَم سواتره عن أبصار القلوب)).

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي اللهُ عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((إنَّ اللهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ خَلَقَ خَلْقَه في ظُلمة ، فألقى عليهم مِن نُوره ، فَمَن أصابه مِن ذلك النُّور اهتدى ، وَمَن أخطأه ضَلَّ)) [١٢] .

---

١٢ رواه الترمذي(٥/ ٢٦) برقم(٢٦٤٢)وحسَّنه،وابن حِبَّان في صحيحه(١٤/ ٤٣)برقم(٦١٦٩). وقال الهيثمي في المجمع (٣٩٨/٧):((رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني،ورجال أحد إسنادَي أحمد ثقات)).

هذا يدل على أن الإيمان لا يُكتسَب بذكاء الإنسان وقدراته الذاتية،بل هو فضلٌ رَبَّانِيٌّ مَحْض، يُعطيه اللهُ لِمَن يشاء،ويَحجبه عَمَّن يشاء.وَمَعَ هذا فالإنسان يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره، لأنَّ الله تعالى لَم يُجبِر المؤمنَ على الإيمان، وَلَم يُرغِم الكافرَ على الكُفر.فَكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له . فإن هدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله ، وله المِنَّة . وإن هَداه إلى الكُفر فَبِعَدْلِه ، ولله على العبد الحُجَّة.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٣٠) : ((" إنَّ اللهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ خَلَقَ خَلْقَه " أي : الثَّقَلَيْن ، فإنَّ الملائكة ما خُلقوا إلا مِن نُور ، وَلَم يُخلَقوا مِن ظُلمة الطبيعة ، والمَيل إلى الشَّهوة والغفلة عن معالم الغَيب." في ظُلمة " أي : كائنين في ظُلمة الطبيعة ، فالنَّفْس الأمَّارة بالسُّوء المَجبولة بالشَّهوات المُرْدِية ، والأهواء المُضِلَّة ، والرُّكون إلى المَحسوسات ، والغفلة عن معالم الغَيب ، وأسرار عالَم القُدْس." فألقى " ، والإلقاء في الأصل طَرح الشَّيء حيث يَلقاه ، ثُمَّ صار في التعارف اسْمًا لكل طَرْح. " عليهم مِن نُوره " أي شَيئًا مِن نُوره. ومِن إمَّا للتبيين أو للتبعيض أو زائدة. وكذا في مِن ذلك النُّور ، وهو ما نَصَبَ مِن الشواهد والبراهين ، وأنزلَ مِن الآيات والنُّذُر . " فَمَن " شاء اللهُ هدايته " أصابه مِن ذلك النُّور يَوْمَئِذ "، فَخَلَصَ مِن تلك الظُّلمة . و" اهتدى " إلى إصابة طُرق السُّعداء." وَمَن أخطأه ذلك النُّورُ " أي: جَاوزه وتَعَدَّاه لعدم مُشاهدة تلك الآيات وإبصاره تلك البراهين الجَلِيَّات . " ضَلَّ " أي بَقِيَ في ظُلمة الطبيعة مُتحيِّرًا كالأنعام ، كما هو حال الفَجَرة المُنهمِكين في الشَّهوات، المُعرِضين عن الآيات والنُّذُر، أو المُراد خَلْق الذَّر المُستخرَج مِن صُلْب آدم ، فَعَبَّرَ بالنُّور عن الألطاف التي هي تباشير صُبح الهداية ، وإشراق لُمَع بَرْق العِناية، ثُمَّ أشارَ بِقَوله: أصاب وأخطأ، إلى ظهور أثر تلك العِناية في الإنزال، مِن هداية بَعْض، وضَلال بعض ، أو معنى في ظُلمته جُهَّالًا عن معرفة الله ، لأنَّ العُبودية لا تُدرِك الرُّبوبيةَ إلا بإحداث المعرفة مِنها لها، وهو معنى ألقى عليهم مِن نُوره ، أي: هَدى مَن شَاء، فَعَبَّرَ عن الهُدى بالنُّور،فلا يُعْرَفُ اللهُ إلا باللهِ ، فالدَّلائل لإلزام الحُجَّة لا سبب للهِداية بِمُجَرَّدها ، وإلا لاهتدى بها كُل ناظر، وَكَم نَظَرَ فيها ذُو عقل سليم، وفَهْم قويم، وفِكْر مستقيم، وَلَم يَزِدْهُ ذلك إلا ضَلالًا)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن لَم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُور ﴾ [النُّور : ٤٠] .

ومَن لم يَهْدِه اللهُ إلى الإيمان ، فهو كافر ، وخاسر في الدُّنيا والآخِرة ، وهالك لا مَحَالة . واللهُ إذا لم يُقدِّر الهِدايةَ للعبد ، لم يُوفِّقه لأسبابها ، ولم يُرشِده إلى طريقها . وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٣٥) : ((﴿ وَمَن لَم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا ﴾ يقول : مَن لَم يَرزقه اللهُ إيمانًا وهُدًى مِن الضَّلالة ومعرفةً بكتابه ، ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُور ﴾ يقول: فما له مِن إيمان وهُدى ومعرفة بكتابه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِن عِبَادِنا ﴾ [الشُّورى : ٥٢] .

القُرآنُ نُورٌ إلهيٌّ يَهدي اللهُ بِه مَن يَشاء ، والقُرآن هو أساس الإيمان ، ومنبعه. وشرعيةُ الإيمان مُستمدة مِن شرعية القُرآن ، ونُور الإيمان مُستمد مِن نُور القُرآن الخالد إلى الأبد .

جَعَلَ اللهُ القُرآنَ ضِياءً للناسِ ، ونُورًا يُرشِدهم إلى طريق الحق، واللهُ يَهدي بالقُرآنِ مَن اختاره مِن عِباده ، وهُم الذين وَفَّقهم اللهُ للإيمان ، وهَداهم إلى سعادة الدُّنيا ونعيمِ الآخِرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٩٨ و٢٩٩و٣٠٠) : ((قَولـه تعالى : ﴿ ولكن جَعَلْناهُ ﴾ في هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى القُرآن ، والثاني إلى الإيمان . ﴿ نُورًا ﴾ أي : ضِياءً ودليلًا على التَّوحيد ، ﴿ نَهْدي بِهِ مَن نشاءُ مِنْ عِبادِنا ﴾ إلى دِين الحق)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى:﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئوا نُورَ اللهِ بأفواهِهِم واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون﴾[الصَّف: ٨][١٣].

يُريد المشركون لِيُطْفِئوا الإسلامَ (دِين الله) ، ويَقضوا على الإيمان ، ويُزيلوا الشريعةَ الإلهية ، بأفواههم ، وذلك بالطعن في القُرآن وتكذيب النبيِّ ﷺ . وهذا تهكُّم واستهزاء بهم،وسُخرية مِنهم، فقد تَمَّ تشبيه حالهم بحال مَن يَنفخ في نُور الشمس بفمه لإطفائه . واللهُ مُظْهِرٌ للإسلام (الدِّين السماويِّ الوحيد) ، وناشرٌ له في أنحاء العَالَم . وَلَوْ كَرِهَ ذلك الكافرون المُجرِمون الضَّالُّون مِن شَتَّى الأصناف والأديان والمِلَل والنِّحَل . واللهُ ناشرٌ دِينَه الإسلام في كُل زمان ومكان ، وجاعله أعلى من كل شيء ، رغم أنوف الكافرين ، وإرغامًا لهم . ولا شَكَّ أن النصر الإلهيَّ لمُحمَّد نصرٌ لجميع الأنبياء والرُّسُل . وانتشارُ الإسلام يُمثِّل نجاحًا لكل الأنبياء الذين حَمَلُوه قَولًا وفِعْلًا ، وعلى رأسهم مُحمَّد ﷺ .

---

١٣ قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٧٦) : ((في نور الله هنا خمسة أقاويل: أحدها أنه القرآن،يُريدون إبطاله وتكذيبه بالقَول، قاله ابن عباس وابن زيد. والثاني أنه الإسلام، يُريدون دفعه بالكلام،قاله السُّدي. الثالث أنه محمَّد ﷺ ، يُريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضَّحاك . الرابع حُجَج الله ودلائله، يُريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ، قاله ابن بحر. الخامس أنه مَثَل مَضروب ، أي : من أراد إطفاء نور الشمس بِفيه ، فوجده مستحيلًا مُمتنعًا ، فكذلك مَن أراد إبطال الحق ، حكاه ابن عيسى . وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس: أن النبيَّ ﷺ أبطأ عليه الوَحْيُ أربعين يومًا، فقال كَعْب بن الأشرف : يا مَعْشَرَ يهود ، أبْشِروا ! ، فقد أطفأ اللهُ نورَ محمَّد فيما كان ينزل عليه ، وما كان لِيُتِمَّ أمْرَه ، فَحَزِنَ رسولُ الله ﷺ ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية ، واتَّصَلَ الوَحْيُ بعدها . حكى جميعه الماوردي ، رحمه الله)) .

وفي حاشية زادة على البيضاوي (٣/ ٤٩٠) : ((كان كفارُ مكة يَكْرهون هذا الدِّين الحق ، من أجل توغُّلهم في الشِّرك والضَّلال ، فكان المُناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يَكْرهونه من الحق ، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العَالَم مَن يَكفر بهذا الدِّين ، بل المُراد أن يكون أهله عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحُجَّة والبُرهان ، والسَّيف واللسان ، إلى آخر الزمان)) .

٤ _ المُقَابَلَة بين المؤمن والكافر

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومَأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ [آل عِمران : ١٦٢] . لا يُمكن المُساواة بين المؤمن والكافر ، فَهُمَا ضِدَّان لا يجتمعان ، ونقيضان لا يَلتقيان . لا مُساواة بين المؤمن الذي أطاعَ اللهَ، وقامَ بالتزاماته الدينية على أكمل وجه، وبين الكافر العاصي الغارق في ذُنوبه وآثامه ، المُستحق لغضب الله وسَخَطه، لأنه خالفَ التعاليم الإلهية. ومصيره ومرجعه جهنم إن لَم يَتُب ، وبِئسَت النار مُستقرًّا له . والاستفهامُ للإنكار. أي: ليسَ مَن اتَّبعَ رِضوانَ الله، فالتزمَ أوامره، واجتنبَ نَواهيه، كَمَن رَجَع بغضب الله وسَخَطه، بسبب المعاصي والذنوب. والآيةُ تُبيِّن استحالة المُساواة بين الطائع والعاصي .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((أي : لا يستوي مَن اتَّبعَ رِضوان الله فيما شَرَعه، فاستحق رِضوان الله وجزيل ثوابه ، وأُجير مِن وَبيل عقابه ، ومَن استحق غضب الله ، وأُلْزِم به ، فلا مَحيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم ، وبِئس المصير)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِين ﴾ [القَصَص : ٦١] . إن الله وَعَدَ عباده بمنحهم الجنَّة إذا صدَّقوا بوَحدانيته ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، وفَعلوا الطاعاتِ. ووَعْدُ الله واقع لا مَحَالة . لا يتخلَّف ، ولا شَك فيه.

والمُؤمنُ الذي التزمَ بالأوامر الإلهية سيدخل الجَنَّةَ قَطْعًا ، وسوف يَلقى ما وعده اللهُ إيَّاه . وهذا المؤمنُ لا يمكن أن يتساوى مع الكافر ، الذي حصل على نصيبه في الدنيا كاملًا غَير مَنقوص، ولا نصيب له في الآخِرة (الجَنَّة) . لقد اختار المُتعةَ الوقتية الزائلة (الدُّنيا) على المُتعة الأبدية (جَنَّة الآخِرة) ، وفضَّل حُطَامَ الدُّنيا الزائل على نعيم الآخِرة الباقي . وسوف يأتي الكافرُ يَوْمَ القِيامة مُجَلَّلًا بالخِزي والعار، لِيَدفع ثَمَنَ كُفره وتقصيره واستمتاعه بحُطام الدُّنيا، ورفضه لأوامر الله تعالى. والآيةُ تُوضِّح الفرقَ الهائل بين حُطام الدُّنيا الفاني ونعيمِ الآخرة الباقي،وأيضًا الفرق الشاسع بين المؤمن الذي وَعَدَه اللهُ ، والكافر الذي متَّعه اللهُ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٢) : ((أفَمَن وَعَدْناه مِن خَلْقنا على طاعته إيَّانا الجَنَّة ، فآمنَ بما وعدناه، وصدَّق، وأطاعنا، فاستحق بطاعته إيَّانا أن نُنجِز له ما وَعَدْناه، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائر إليه، كمَن مَتَّعْناه في الحياة الدُّنيا مَتاعها ، فتَمَتَّعَ به ، ونَسِيَ العملَ بما وَعَدْنا أهلَ الطاعة، وتَرَكَ طلبه ، وآثرَ لَذَّةً عاجلة على آجِلة ، ثُمَّ هو يوم القيامة إذا وَرد على الله مِن المُحْضَرِين ، يعني مِن المُشْهَدِين عَذابَ الله ، وأليم عقابه)) .

لا مُقَارَنَة ولا مُسَاوَاة بين المؤمن المُصَدِّق بوَعْد الله على الطاعات مِن الأجر الذي هو صائر إلَيه بلا شَك ، وبين الكافر المُكَذِّب بالله واليوم الآخِر ، والجاحد لوَعْده ووعيده ، فهو مُمَتَّع في الدُّنيا فترةً قصيرة ، ثُمَّ هو يوم القيامة مِن المُعَذَّبِين في النار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٣٤ و٢٣٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ أفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ . اخْتُلِف فِيمَن نَزلت على أربعة أقوال : أحدها أنها نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جَهْل. والثاني في عليٍّ وحمزة عليهما السلام ، وأبي جهل ، والقَولان مرويان عن مجاهد . والثالث في المُؤمن والكافر ، قاله قَتادة . والرابع في عَمَّار والوليد بن المُغيرة ، قاله السُّدي . وفي الوَعْد الحَسَن قَولان: أحدهما الجَنَّة ، والثاني النَّصْر . قَوله تعالى : ﴿ فَهُوَ لاقِيهِ ﴾ أي : مُصيبه ومُدْرِكه، ﴿ كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾ أي : كَمَن هو مُمَتَّع بشيء يَفنى ويَزول عَن قَريب ، ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِين ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما مِن المُحْضَرِين في عذاب الله ، قاله قَتادة . والثاني مِن المُحْضَرِين للجَزاء ، حكاه الماوردي)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ فَهُم في رَوضةٍ يُحْبَرُون﴾[الرُّوم: ١٥].

فأمَّا المؤمنون الأتقياءُ الذين صَدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، أي إنهم جَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، فهُم في رياض الجَنَّة يُنَعَّمُون ويَستمتعون ويَفْرَحون .

والرَّوضةُ (البُستان) هي الأرض ذات الأزهار والأنهار والنَّضارة والجَمَال. وتَنكيرُ ﴿ رَوْضَةٍ ﴾ لإخفاء أمرها ، وتعظيمه ، وتفخيمه ، والمراد بها الجَنَّة . والحُبُور السُّرُور . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَهُم في رَوضةٍ ﴾ الرَّوْضَةُ المكان المُخْضَر مِن الأرض ، وإنَّما خُص الرَّوضة ، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب.قال أبو عُبَيدة: ليس شيء عند العرب أحسن مِن الرياض المُعْشِبة ولا أطْيَب رِيحًا... . قال المُفسِّرون: والمُراد بالرَّوضة رِياض الجَنَّة.وفي معنى ﴿يُحْبَرُون﴾ أربعة أقوال:أحدها يُكْرَمون،رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني يُنَعَّمُون،قاله مُجاهد وقَتادة.قال الزَّجاج:والحَبْرَة في اللغة كُل نِعمة حسنة . والثالث

يَفْرَحُون، قاله السُّدي. وقال ابن قُتَيبة: يُحْبَرُون يُسَرُّون، والحَبْرَة السُّرور. والرابع أن الحَبْر السَّماع في الجنة، فإذا أخذَ أهلُ الجَنَّة في السَّماع لم تَبْقَ شجرة إلا ورَّدت، قاله يحيى بن أبي كثير)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأمَّا الذينَ كَفروا وكَذَّبوا بآياتِنا ولِقَاءِ الآخرةِ فأُولئكَ في العذابِ مُحْضَرُون ﴾ [الرُّوم : ١٦]. وأمَّا الذين كَفروا باللهِ تعالى ، وأنكَروا القُرآن (الوَحْي الإلهيّ) ، وكذَّبوا بالبعث بعد الموت، والحساب، والجنة والنار، فأُولئك في عذاب جهنم مُقيمون فيه إلى الأبد ، بلا انقطاع ولا نهاية.وهذا يدل على دوام عذابهم واستمراره بلا توقف.إنهم خالدون في عذاب النار الرهيب .

و " أُولئك " اسم إشارة للبعيد ، يدل على بُعدهم في الشَّر ، وطردهم مِن رحمة الله تعالى . والمعنى : أُولئك المَوْصُوفون بالصِّفات السَّيئة والخِصال القبيحة في عذاب النار مُحْضَرُون يوم القيامة ، لا يَغيبون ، ولا يَهْربون . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٣) : ((أي: هُم حاضرون العذاب أبدًا ، لا يُخفَّف عنهم)) .

والآيتان تتضمَّنان مُقارَنة بين حال المؤمنين السُّعداء ، وحال الكافرين الأشقياء .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَن يُلْقَى في النارِ خَيْرٌ أَم مَن يأتي آمِنًا يَوْمَ القِيَامةِ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٠].

أفَمَن يُطرَح في عذاب جهنم الشديد خائفًا مَذعورًا ذليلًا، أفضل أَم مَن يكون في الجنة آمِنًا مِن عذاب الله ؟. لا مُقارَنة بينهما، ولا يَستويان عند الله تعالى، وشَتَّان بين الثَّرى والثُّرَيَّا . والمُقَابَلَة بين إلقاء الكافر في النار ، وإتيان المؤمن آمِنًا ، تدل على سُوء حال الكافر الذليل ، الذي يُطرَح في النار كأيِّ شَيء تافه مُهْمَل ، ويُلقَى فيها بكل خِزي وعار . وفي نفْس الوقت ، تدل على رِفعة مكانة المؤمن، وعَظَمَة قَدْره ، وسُمُوِّ مَنْزلته ، حيث يأتي آمِنًا عزيزًا كريمًا بكل ثقة . والآيةُ عامة وشاملة . والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والاستفهام للتقرير ، والهدف منه بيان أن الكافر المُكذِّب بآيات الله يُلقَى في النار مُجَلَّلًا بالخِزي والعار والذُّل والمهانة ، في حين أن المؤمن المُصَدِّق بآيات الله ، يأتي آمِنًا مُطْمَئِنًّا عزيزًا كريمًا يوم القيامة ، بلا خَوف ولا قلق .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٤) : ((أفهذا الذي يُلقَى في النار خَير ، أَم الذي يأتي يوم القيامة آمِنًا مِن عذاب الله ، لإيمانه بالله جَلَّ جَلالُه ؟ . هذا الكافر إنه إن آمنَ بآيات الله ، واتَّبعَ أمرَ الله ونَهْيَه ، أَمَّنه يوم القيامة مِمَّا حَذَّره مِنه، مِن عقابه إن ورد عليه يومئذ به كافرًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَمَن كانَ على بَيِّنةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ١٤] . الهمزة للإنكار. هل مَن كان على حُجَّة وبُرهان ويقين مِن أمر دِينه ، والعِلم بوَحدانية الله ، ووُجوب طاعته ، فهو يَعبده مُخْلِصًا له ، كَمَن حسَّن له الشَّيطانُ عَمَلَه القبيح فرآه

جميلًا ، فهو يَعمل بِه باستمرار ؟ . واتَّبعوا ما دَعَتْهُم إليه أنفسهم مِن عبادة الأصنام والمعاصي بلا دليل . لا يَستويان. وشَتَّان بينهما. لا يَستوي مَن كان على دليل وثبات ويقين مِن الوَحْي والنُّبوَّة ، ومَن خَدَعَه الشَّيطان وزيَّن له عبادةَ الأصنام،وحسَّن له المعاصي،والغرق في الشهوات والضَّلالات.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٠٠) : ((﴿ واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُم ﴾ .أي: ما اشْتَهَوْا هذا التَّزيين ، مِن جهة الله خَلْقًا . ويجوز أن يكون مِن الشيطان دُعاءً ووَسْوَسَة . ويَجوز أن يكون مِن الكافر ، أي : زَيَّنَ لنَفْسه سُوءَ عمله ، وأصَرَّ على الكُفر)) .

وقال المفسِّرون إن المقصود بِ ﴿ كَانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ ﴾ هو النبيُّ ﷺ والمؤمنون . والمقصود بِ ﴿ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أبو جهل وكفار قُرَيش . ولا وَجه لتخصيص الآية بلا مُخصِّص ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . لا سِيَّما أن المراد هو توضيح الفرق بين مَن يَعبد اللهَ وَحْدَه على عِلم وبصيرة ويقين ثابت ، ومَن يَعبد الأصنامَ ويتَّبع شهوات نفْسه ، بلا دليل ولا بُرهان.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَسْتوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجَنَّةِ أصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائزون ﴾ [الحَشْر : ٢٠] . لا يتساوى يوم القيامة الكافرون الأشقياء الخالدون في عذاب جهنم الأبديِّ ، والمؤمنون السُّعداء الخالدون في نعيم الجنة الأبديِّ. لا يتساوى أهلُ النار وأهلُ الجنة في الشرف والفضل والمكانة. المؤمنون أصحاب الجنة هُم الفائزون برضا الله ، والنعيمِ الدائم والسعادة الأبدية في جنَّته. وهذا هو الشرف الرفيع ، والفوز العظيم ، والمجد السَّامي ، فقد نَجَوْا مِن عذاب النار ، وحقَّقوا هدفهم ، وحصلوا على مطلوبهم ، وظَفِرُوا بِمُرادهم .

وخَصَّ اللهُ أصحابَ الجنة بالذِّكر : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائزون ﴾ لبيان أن أصحاب الجنة وَحْدَهم هُم الفائزون ، وأن أصحاب النار هُم الخاسرون ، وليس لهم فَوز ولا نجاة . ولا يَستحقون شَرَفَ ذِكْرهم، أي إن وجودهم كعدمه ، وهُم مَنْسِيُّون مُهْمَلُون خاسرون هالكون في عذاب النار.

وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٢٣٤): ((هذا تَنبيه للناس، وإيذان بأنهم لِفَرْط غَفْلتهم ، وقِلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتِّباع الشَّهوات ، كأنهم لا يَعرفون الفرق بين الجنة والنار، والبَوْن (الفَرْق) العظيم بين أصحابهما، وأن الفَوز العظيم مع أصحاب الجنة، والعذاب الأليم مع أصحاب النار . فمِن حَقِّهم أن يَعْلَموا ذلك ، ويُنَبَّهوا عليه، كما تقول لِمَن يَعُقُّ أباه : هو أبوك . تَجعله بمَنْزلة مَن لا يَعرفه ، فَتُنَبِّهه بذلك على حق الأُبُوَّة ، الذي يقتضي البِر والتَّعطف. وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المُسْلِم لا يُقْتَل بالكافر، وأن الكافر لا يَملك مالَ المسلم بالاستيلاء)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ أهدى أمَّن يمشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُستقيم ﴾ [المُلْك : ٢٢] .

هذا مَثَلٌ دقيق وواضح ضَرَبَه اللهُ تعالى لبيان حال الكافر التَّائه الحائر الضَّال الذي يمشي مُنْحَنِيًا في طريقه غَير مُبصِر ، لا يعرف أين يذهب، لأنه اتَّخذَ مِن الضلالة منهجًا حياتيًّا، وبيانِ حال المؤمن الذي يمشي في درب واضح مستقيم مُنتصِب القامة يَعرف نُقطتَي البداية والنهاية ، ويُبصِر الطريقَ بوضوح . هذا حالهم في الدُّنيا . وأيضًا حالهم في الآخرة ، فالمؤمنُ مُبصِر ومستقيم ويمشي على طريق مستقيم مُوصِل إلى نعيم الجنة ، والكافرُ يَمشي على وجهه إلى عذاب النار .

إنَّ الكافرَ عاشَ حياته غارقًا في الشَّهوات، ومُكِبًّا على المَلَذَّات، وتائهًا في الجهل والضلال ، فهو يَمشي ساقطًا على وجهه، يَمشي ويَتعثَّر ، لأنه لا يُبصِر طريقَه ، ولا يَعرف مسارَه ولا مصيرَه. ولا يَذهب بعيدًا مَن لا يَعرف إلى أين هو ذاهب . والجَزاءُ مِن جِنس العمل .

أمَّا المؤمنُ فعاشَ حياته في طاعة اللهِ ، على بصيرة وعِلْم ويقين ، يَعرِف مَسارَه ومَصيرَه ، يُدرِك طريقَه في الحياة، ويُفكِّر بما بعد الموت، فهو يَمشي مُستقيمًا مُنتصِبًا ، لا يَتعثَّر ، ولا يَتخبَّط ، ولا يَتردَّد ، فالمؤمنُ مُستقيم في ذاته ، ويَمشي على طريق مستقيم . وهذا هو نُور الهداية في أسمى مَعانيه .

والسِّياقُ القُرآنيُّ لَم يُورِد جوابَ الاستفهام الإنكاري ، لأن العقل يعرف أن الأهدى هو الذي يمشي سَوِيًّا على صِراط مستقيم . والأمرُ الواضحُ لا يَحتاج إلى توضيح. والآيةُ تَدفع السامعَ إلى التفكر والتفكير ، ومعرفة الفروقات بين المؤمن والكافر عبر استحضار الأمثلة القرآنية في ذهنه وتحليلها ، وربطها بالواقع ، ليكون التأثير بالغًا وبليغًا في آنٍ مَعًا .

وكُل هذه المُقابَلات بين المؤمن والكافر ، إنما تهدف إلى تمييز الصالح مِن الطالح ، والتفريق بين أهل الإيمان (أصحاب النُّور) وأهلِ الكفر (أصحاب الظُّلمات) . وبِضِدِّها تتبيَّن الأشياءُ ، والأشياءُ المُتَعَارِضة يُوضِّح بَعْضُها بعضًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٢٣) : ((ضرب مَثَلًا ، فقال تعالى : ﴿ أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أي لا يُبصِر يَمينًا ولا شِمالًا ، ولا مِن بَيْن يَدَيْه . يُقال : أَكَبَّ فُلان على وجهه _ بالألِف _ ، وَكَبَّهُ اللهُ لوجهه ، وأراد : الأعمى . قال المُفسِّرون : هذا مَثَل للمؤمن والكافر ، والسَّوِيُّ المُعتدِل أي الذي يُبصِر الطريقَ . وقال قَتادة : هذا في الآخِرة ، يَحشر اللهُ الكافرَ مُكِبًّا عَلى وَجْهه ، والمُؤمِن يَمشي سَوِيًّا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفنجعلُ المُسلمينَ كالمُجرمين ﴾ [القَلَم : ٣٥] .

الاستفهام للإنكار والتَّوبيخ . أفَنُسَاوي بين المسلم والكافر ، والمطيع والعاصي ؟ . كَلَّا ، لا يُمكن المساواة بينهما. إن اللهَ حَكَمٌ عادلٌ لا يُساوي بين المسلم والكافر . والمساواة بينهما ظُلم وعبث ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم والعَبَث .

لقد اغترَّ الكفارُ في الحياة الدنيا بكثرة أموالهم وأولادهم ، ورَغَد عَيْشهم ، في حِين أن المسلمين كانوا يُعانون من الفقر والحاجة . وكان الكفار يقولون : إذا كان هُناك آخرة ، فإنَّنا سنكون أفضل حالًا مِن المسلمين . وقد قاسوا الغائب (الآخرة) على الشَّاهد (الدنيا) . وهؤلاء الكفار وثنيون لا يُؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر . واعتقدوا أن حالهم في الآخرة _ على فرض وجودها _ ، ستكون مِثل حالهم في الدنيا، حيث الرَّخاء والغِنى ورَغَد العَيش . وقد كذَّبهم اللهُ ، وفضحَ جَهْلَهم. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٣) : ((﴿ أفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرمين ﴾ إنكار لِقَول الكَفَرة ، فإنهم كانوا يقولون : إن صَحَّ أنَّا نُبعَث كما يَزعم مُحمَّد ومَن معه ، لَم يَفضلونا، بل نكون أحسن حالًا منهم كما نحن عليه في الدنيا)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٥): ((يقول تعالى ذِكْرُه : أفنجعل أيها الناس في كرامتي ونِعمتي في الآخرة الذين خَضعوا لي بالطاعة ، وذَلُّوا لي بالعبودية ، وخشعوا لأمري ونَهْيي، كالمُجرمين الذين اكتسبوا المَآثِم وركبوا المعاصي ، وخالفوا أمري ونَهْيي ؟ . كَلَّا ، ما الله بفاعل ذلك)) .

٥_ الفَرْق بَيْن الإيمان والإسلام

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالت الأعرابُ آمنَّا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أَسْلَمْنا ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبكم ﴾ [الحُجُرات : ١٤]. إنَّ الآية تدلُّ على وُجود فَرْق بين الإسلام والإيمان . وهذه قضية مشهورة عند أهل العِلْم . وهؤلاء الأعراب الذين ادَّعَوا الإيمانَ لَم يصلوا إلى هذه الرُّتبة ، فجاء الأمرُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ بأن يقول لهم : ﴿ لم تؤمنوا ﴾، أي لَم تصلوا إلى مَنْزلة المؤمنين، ولَم تنالوا رُتبةَ الإيمان ، ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنا ﴾ ، ولَمَّا تدخل شعائر الإيمان وحقيقته في قلوبكم . فالإسلام قَوْلٌ ، وهو الاستسلام والخضوع لله تعالى، والنُّطق بالشَّهادَتَيْن. أمَّا الإيمان فما وَقَرَ في القلب ، وصدَّقه اللسان ، وظَهَرَ على الجوارح . والإيمانُ تصديقٌ معَ ثِقة وطُمأنينة قَلْب ، وقَولٌ ، وعملٌ . وهذا يشير إلى أن الإيمان مكانة مُمَيَّزة أخص من الإسلام ، وأعلى مِنه . والقاعدة المُستمدة مِن الآية : كُل مؤمن مُسْلِم ، وليس كُلُّ مُسْلِم مُؤمِنًا .

وهؤلاء الأعراب مُسْلِمون لا مُنافقون . ولكنَّ الإيمان لَم يَدخل في قلوبهم . ولو كانوا منافقين لَفَضَحَهم اللهُ تعالى،وكشفَ باطلَهم.كما أن اللهَ قالَ: ﴿ قالت الأعرابُ ﴾ وَلَم يَقُلْ: قال المنافقون. واللهُ تعالى أمَرَهم أن يقولوا : ﴿ أَسْلَمْنا ﴾ ، والمُنافق لا يُقال له ذلك .

إنهم أسْلَموا خَوْفًا مِن القتل والسَّبْي ، ولم يُصدِّقوا تصديقًا سليمًا ، فقلوبُهم خاليةٌ من العقيدة الصحيحة ، ونيَّاتهم غير خالصة . لقد اسْتَسْلَموا حِفاظًا على أرواحهم ومُمتلكاتهم، ثم زَعَموا أنهم مؤمنون.أي إنهم وَضَعوا أنفسَهم في رُتبة الإيمان التي هي أعلى مِن مستواهم الحقيقي (الإسلام). فأدَّبهم اللهُ تعالى ، وأعْلَمَهم بضرورة معرفة مستواهم الحقيقي ، ولا يَجوز أن يَمنحوا أنفسَهم مكانةً لا يَستحقونها، ولا يحق لهم أن يَرفَعوا أنفسَهم مِن تِلقاء أنفسهم ، فاللهُ هو الخافضُ الرَّافعُ .

والجديرُ بالذِّكر أن " لَمَّا " تفيد التَّوَقُّع . والمعنى : عندما تُدرِكون أيُّها الأعرابُ عَظَمَةَ الإسلام وفضائله ومحاسنه ، وتَذوقون حلاوة الإيمان ، ويَثبت في قلوبكم ، سَيَحصل لكم الإيمان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٧٥ و٤٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ قالت الأعرابُ آمنَّا ﴾ . قال مُجاهد : نَزلت في أعراب بني أسَد بن خُزَيمة ، ووَصَفَ غَيْرُه حالَهم ، فقال : قَدِمُوا المدينةَ في سَنَة مُجْدِبة ، فأظهروا الإسلامَ ، ولم يكونوا مؤمنين ، وأفسَدوا طُرُقَ المدينة بالعَذِرات، وأغْلَوْا أسعارهم، وكانوا يَمُنُّون على رسول الله ﷺ ، فيقولون : أتيناك بالأثقال والعِيال، ولم نُقاتلك. فنزلت فيهم هذه الآية . وقال السُّدي : نزلت في أعراب مُزَينة وجُهَينة وأسْلَم وأشْجَع وغِفَار ، وهُم الذين ذَكَرَهم اللهُ تعالى في سُورة الفَتْح ، وكانوا يقولون : آمَنَّا بالله ، لِيَأمَنُوا على أنفسهم ، فلمَّا اسْتُنْفِرُوا إلى الحُدَيبية تَخَلَّفوا ، فنزلت فيهم هذه الآية . وقال مُقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، فكانوا إذا مَرَّت بهم سَرِيَّة مِن سَرَايا رسول الله ﷺ ، قالوا : آمَنَّا ، لِيَأمَنُوا على دِمائهم وأموالهم ، فلمَّا سار رسولُ الله ﷺ إلى الحُدَيبية ، استنفرهم ، فلم يَنفِروا معه . قَوله تعالى : ﴿ قُل لم تؤمنوا ﴾ أي : لَم تُصدِّقوا . ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنا ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أي اسْتَسْلَمْنَا مِن خَوف السَّيف ، وانْقَدْنا . قال الزَّجاج : الإسلام إظهار الخُضوع والقَبول لِمَا أتى به رسولُ الله ﷺ ، وبذلك يُحقَن الدم ، فإن كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الإيمان ، فأخرجَ اللهُ هؤلاء مِن الإيمان بقَوله : ﴿ ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبكم ﴾ أي : لَم تُصدِّقوا ، إنما أسلمتم تَعَوُّذًا مِن القتل . وقال مُقاتل : ﴿ ولَمَّا ﴾ بمعنى " وَلَم " يَدخل التَّصديقُ في قُلوبكم)) .

وفي حديث جِبريل الشهير في صحيح مسلم (١/ ٣٦) : أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف الإسلامَ بقوله : ((أن تشهدَ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وتُقيمَ الصلاة ، وتُؤتِيَ الزكاة ، وتصومَ

رمضان ، وتَحُجَّ البَيتَ إن استطعتَ إليه سبيلًا)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإيمان فقال ﷺ : ((أن تُؤمِنَ باللهِ ، وملائكتِه ، وكُتُبِه ، ورُسُلِه ، واليومِ الآخِرِ ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإحسان فقال ﷺ : ((أن تَعبدَ اللهَ كأنَّكَ تَراه ، فإن لَم تكن تَراه فإنه يَراك)) [١٤].

إنَّ النبيَّ ﷺ انتقل من العام (الإسلام) إلى الخاص (الإيمان) إلى الأخص (الإحسان) ، وفرَّق بين هذه المفاهيم الثلاثة في التعريف. مِمَّا يدل_ بلا رَيْب_ على اختلاف معنى الإسلام عن معنى الإيمان . إذن ، هناك فرق جوهري بين الإسلام (الظاهر) والإيمان (الباطن) . وكُل مَن نطق الشهادتين يُحكَم له بالإسلام ، ويصبح معصومَ الدم ، بغض النظر عَن صِدْقه أو كذبه ، وتُجرَى عليه الأحكام حَسَبَ ظاهره ، وحِسابه عند الله تعالى الذي يَعْلَم الظاهرَ والباطنَ . أمَّا الإيمان فباطنٌ مكانه القلب لا سبيل لمخلوق للاطلاع عليه لأنه مخفي عن عيون الناس، ولا يَعْلَم حقيقتَه إلا اللهُ تعالى الذي يُحاسِب الناسَ ، ليس بالنظر إلى صُوَرِهم ، بل إلى قلوبهم .

إن الإسلام هو الاستسلام لله ، والخُضوع له ، والانقياد لأمره وحُكمه . وأركان الإسلام خمسة : ١_ الشهادتان . ٢_ الصلاة . ٣_ الزكاة . ٤_ الحَج . ٥_ صَوم رمضان .

والإيمانُ قَوْلٌ باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعملٌ بالجوارح . يَزيد بالطاعة ، ويَنقص بالمعصية. وأركان الإيمان سِتَّة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكُتبه ، ورُسله ، واليوم الآخِر ، والقَدَر خَيْرِه وشَرِّه.

---

١٤ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٥٧و١٥٨):((هذا مِن جَوامع الكَلِم التي أُوتِيها ﷺ لأنَّا لَوْ قَدَّرْنا أن أحدنا قام في عبادة، وهو يُعَايِن رَبَّه سُبحانَه وتعالى، لم يترك شيئًا مما يَقْدِر عليه مِن الخضوع والخشوع وحُسن السَّمْت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به ، فقال ﷺ : اعبد اللهَ في جميع أحوالك كعبادتك في حال العِيان، فإن التتميم المذكور في حال العِيان إنما كان لِعِلْم العبد باطِّلاع الله سُبحانَه وتعالى عليه، فلا يُقْدِم العبدُ على تقصير في هذا الحال، للاطِّلاع عليه . وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ، فينبغي أن يَعمل بمقتضاه،فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومُراقبة العبد رَبَّه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك. وقد نَدَبَ أهلُ الحقائق إلى مجالسة الصالحين، ليكون ذلك مانعًا مِن تَلَبُّسه بشيء من النقائص احترامًا لهم واستحياء مِنهم، فكيف بمن لا يزال اللهُ تعالى مُطَّلِعًا عليه في سِرِّه وعلانيته. قال القاضي عِياض رحمه الله: وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة مِن عُقود الايمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتَّحفظ مِن آفات الأعمال،حتى إن علوم الشريعة كُلَّها راجعة إليه، ومُتَشَعِّبة مِنه)) .

والإحسانُ أن تَعبد اللهَ كأنَّك تراه ، أي أن تكون مُرَكِّزًا في عبادة الله ، حاضرَ الذهن ، مُسْتَجْمِع القلب ، عَالِمًا مُتيَقِّظًا مُنْتبِهًا ، مُخْلِصًا في النِّية ، بعيدًا عن السَّهْو والغفلة ، كما لَوْ كُنْتَ تُشَاهِد اللهَ بعينيك . وهذا يدل على مُرَاقَبَة الله في السِّر والعَلَن ، واستحضار مَعِيَّته وعَظَمَته .

وعن سَعْد بن أبي وَقَّاص _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ أعطى رَهْطًا وسعد جالس ، فترك رسولُ الله ﷺ رَجُلًا هو أعجبهم إلَيَّ ، فقلتُ : يا رسول الله ، ما لكَ عَن فُلان ؟ ، فوالله إنِّي لأراه مُؤمِنًا ، فقال : ((أَوْ مُسْلِمًا)) [15].

لا يَنبغي القَطْعُ بإيمان هذا الرَّجل ، فالإيمان باطنٌ مكانه القلب لا سبيل لمخلوق للاطِّلاع عليه لأنه مخفي عن عيون الناس ، ولا يعلم حقيقته إلا اللهُ تعالى الذي يُحاسب الناس ، ليس بالنظر إلى صُوَرهم، بل إلى قلوبهم. والحديثُ يدلُّ على وجود فرق جوهري بين الإسلام والإيمان. وكُل مَن نَطَقَ الشَّهَادَتَيْن يُحْكَم له بالإسلام، ويُصبح مَعصومَ الدم، بغض النظر عن صِدْقه أو كَذِبه، وتُجرَى عليه الأحكام حَسَب ظاهره ، وحِسابه عند الله تعالى الذي يَعْلَم السِّرَّ والعلانيةَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٨١) : ((فليس فيه إنكار كَوْنه مُؤمِنًا ، بَل مَعناه : النَّهْي عن القَطْع بالإيمان ، وإن لَفْظة الإسلام أوْلَى به ، فإن الإسلام مَعلوم بحُكم الظاهر ، وأمَّا الإيمان فباطن لا يَعْلَمه إلا اللهُ تعالى)) .

٦_ تفضيل الإيمان على سِقاية الحاج وعِمارة المَسجد الحَرَام

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحاجِّ وعِمَارةَ المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ في سَبيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ واللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظالمين ﴾ [التَّوبة : ١٩] .

هذه الآية تُؤسِّس لِفِقْه الأولويات ، وتردُّ على مُنكِريه بشكل واضح وحاسم. وهي تقريعٌ وتوبيخ لأولئك المُفتخرين بسِقاية الحاج وسِدانة البَيت . فأعلمهم _ سُبحانَه وتعالى _ أن الفخر الحقيقي والشرف الرفيع في الإيمان بالله واليوم الآخِرِ والجهادِ . وهنا تبرز الأولويات الشرعية التي تُعطي كل قضية مكانتها اللائقة بها .

والآيةُ للإنكار عليهم ، وتقديرها : أجعلتم أصحابَ سِقاية الحاج وعِمارة المسجد أو أهلهما ، مِثْل مَن آمنَ بالله واليوم الآخِر وجاهدَ في سبيله . لا مُقارَنة بينهما ، ولا يُمكن التَّسوية بينهما ، لأن أعمال المشركين عُبَّاد الأصنام _ مهما امتازت بالصلاح الظاهري _ لا تتساوى مَعَ أعمال

١٥ متفق عليه . البخاري (١/ ١٨) برقم (٢٧) ، ومسلم (١/ ١٣٢) برقم (١٥٠) .

المؤمنين الذين صَدَّقوا بِوَحدانية الله وأقَرُّوا بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . إن أعمال المشركين باطلة ، لأن أساسها باطل ، وهو الشِّرك ورَفض وَحدانية الله تعالى . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . والمعنى : إنكار المُقَارَنَة بين المشركين وأعمالهم الباطلة الزائلة ، وبين المؤمنين وأعمالهم الصالحة الباقية .

واللهُ لا يَهدي الذين ظَلموا أنفسَهم باختيار الشِّرك ورَفض الإيمان ، فَهُم أهل ضَلال لا يَستحقون شَرَفَ الهداية . لذلك تركهم اللهُ في كُفرهم وضلالهم وغرورهم . والشِّرك هو أسوأ أنواع الظُّلم ، لأن المُشْرِك _ عندما اختارَ الكُفْرَ على الإيمان _ قادَ نَفْسَه إلى العذاب الأبديِّ والهلاكِ الحتميِّ ، وهذا مُنتهى الظُّلم ، ظُلْم الإنسان لنفْسه ، وإضاعته لمصيره ، ولا فُرصة للتَّعويض .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٠٠) : ((والمعنى: أن الله أنكرَ عليهم التَّسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صُورتها صورة الخير ، وإن لَم ينتفعوا بها ، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله. وقد كان المشركون يفتخرون بالسِّقاية والعِمارة ، ويُفضِّلونهما على عمل المسلمين، فأنكرَ اللهُ عليهم ذلك. ثُمَّ صَرَّحَ سُبحانَه بالمُفَاضَلة بين الفريقين، وتفاوتهم، وعدم استوائهم، فقال : ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ ﴾ أي: لا تُساوي تلك الطائفة الكافرة السَّاقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخِر المُجَاهِدة في سبيله . ودَلَّ سُبحانَه بِنَفْي الاستواء على نَفْي الفضيلة التي يَدَّعيها المشركون.أي:إذا لَم تبلغ أعمالُ الكفار إلى أن تكون مُساوية لأعمال المسلمين،فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟، ثُمَّ حَكَمَ عليهم بالظلم ، وأنهم مَعَ ظُلمهم بما هم فيه مِن الشِّرك ، لا يستحقون الهداية مِن الله سُبحانَه)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٢١) : [سِقاية الحاج كانت في بني هاشم ، وكان العباس يتولاها. قال الحسن:وَلَمَّا نَزلت هذه الآية، قال العباس: ما أراني إلا أترك السِّقاية، فقال النبيُّ ﷺ: ((أَقيموا عليها فهي خير لكم)) . وَعِمارة المسجد الحرام، قيل هي حِفْظه مِمَّن يَظْلم فيه، أو يقول هُجْرًا ، وكان ذلك إلى العباس ، وقيل : هي السِّدانة وخدمة البيت خاصة ، وكان ذلك في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عُثمان بن طلحة وابن عَمِّه شَيْبة ، وأقرَّها النبيُّ ﷺ لهما ثاني يوم الفَتْح وقال : ((خُذاها خالدةً تالدة ، لا يُنازعكموها إلا ظالم)) [16]] .

١٦ روى الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٠)[عن ابن عباس _رضي الله عنهما_قال: قال رسول الله ﷺ: ((خُذوها يا بني طلحة خالدةً تالدة ، لا يَنْزعها مِنكم إلا ظالم)) ، يعني حِجابة الكَعْبة].قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٢٠) : ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن المؤمَّل، وثَّقه ابن حِبَّان=

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) : عن النُّعمان بن بشير _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ عند مِنبر رسول الله ﷺ . فقال رَجُلٌ : ما أُبالي أن لا أعمل عَمَلًا بعد الإسلام إلا أن أسقيَ الحاج . وقال آخر: ما أُبالي أن لا أعمل عَمَلًا بعد الإسلام إلا أن أَعْمُرَ المَسْجِدَ الحَرام. وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مِمَّا قُلتم . فزجرهم عُمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند مِنبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجُمُعة ، ولكن إذا صَلَّيْتُ الجُمُعة دخلتُ فَاسْتَفْتَيْتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَن آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إنَّ التَّوجيه الإلهيَّ قد رسَّخ في النفوس أن الإيمان بالله واليومِ الآخِر والجهادَ أعلى وأفضل وأعظم من سِقاية الحاج وخِدمةِ بيت الله الحرام . وفي الآية توجيهٌ إلى أهمية جعل الأعمال خالصةً لوجه الله تعالى. ولا يخفى أن القبائل العربية اتَّخذت مِن سِدانة البَيت سُلَّمًا لتحقيق مصالحها الشخصية ، وبسطِ نفوذها بين قبائل العرب، والتطاولِ على الناس بالباطل، وَفْق عقلية العصبية القَبَلية والتفاخر الجاهلي بالحَسَب والنَّسَب . فجاءَ القرآنُ ليجعل النوايا خالصةً لوجه الله تعالى، عن طريق تجذير الإيمان الصافي في النفوس، والذي لا تشوبه شائبة شِرك أكبر أو أصغر (رِياء).

وهؤلاء الرِّجال أرادوا التَّقَرُّبَ إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة،وَفْقَ منظورهم الذاتي واجتهادهم الشخصي . وقد وجَّههم عُمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه _ إلى ضرورة التَّأدُّب عِند المِنبَر النبويِّ الشريف ، وخفض أصواتهم ، لأن رفع الصَّوت دليل على سُوء الأدب وضَعف الإيمان . وأعلمهم أنه سَيَسأل النبيَّ ﷺ لِيَفْصِلَ بينهم فيما اختلفوا فِيه . وقد نَزلت الآيةُ حاملةً الحُكْمَ الإلهيَّ .

=وقال : يُخطِئ . ووثَّقه ابن معين في رواية ، وضَعَّفه جماعة)) اهـ . وقد وَردت روايات كثيرة جِدًّا تُفيد بإبقاء مِفتاح الكَعبة بأيديهم إلى الأبد ، وهذا ما قَرَّره النبيُّ ﷺ ، والمسْلمون مُتَّفقون على هذا. وما زالَ المفتاح بأيدي بني طلحة حتى يَوْمنا هذا.وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٩٨): ((يُقال للشيء الدائم الذي لا يَزول : تالِد)) اهـ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٨٣و٨٤) : ((وثبت في الصحيح قَوله ﷺ : " كُل مَأثُرَةٍ كانت في الجاهلية فهي تحت قَدَمَيَّ إلا سِقايةَ الحاج وسِدانةَ البَيت". قال القاضي عِياض : قال العلماء: لا يجوز لأحد أن يَنْزعها مِنهم. قال: وهي وِلاية لهم عليها من رسول الله ﷺ ، فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبدًا ، ولا يُنازَعون فيها ، ولا يُشارَكون ، ما داموا موجودين صالحين لذلك ، والله أعلم)) .

قالَ اللهُ تعالى:﴿وأمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ فَيُوَفِّيهِم أُجُورَهُم واللهُ لا يُحِبُّ الظالمين﴾ [آل عِمران : ٥٧] .

وأمَّا المؤمنون بِوَحدانيةِ الله ، وأُلوهيته ، ورُبوبيته ، المُتَّبعون للإسلام (الدِّين السَّماويِّ الوحيد) المُلْتزِمون بأوامر الله ، والمُجْتَنِبُون لِنواهيه ، الذين يَعملون الطاعات ، ويُؤَدُّون العبادات على أكمل وجه ، ويَبتعدون عن المعاصي والذنوب ، فإن الله _ بِفَضله وكَرَمه _ يُعطيهم جَزاءَ أعمالهم كاملًا غَير منقوص.واللهُ لا يُحِبُّ مَن ظَلَمَ غَيْرَه وأخذَ حَقَّه،فكيفَ يَظلم عبادَه ؟.والمعنى: إن الله لا يحب الكافرين ، ولا يَرحمهم ، ولا يَمدحهم ، وإنما يُعاقبهم ويُعذِّبهم . والكفر أسوأ أنواع الظلم ، لأن الكافرَ ظَلَمَ نَفْسَه بأن قادها إلى الهلاك والخلود في عذاب النار . واللهُ يَمنح المؤمنين في الدُّنيا النَّصْرَ والتمكين ، ويَمنحهم في الآخِرة الدرجات الرفيعة مِن الجنة .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٩٢) : ((فنفى جَل ثناؤه عن نَفْسه بذلك أن يَظلم عبادَه ، فَيُجَازِيَ المُسِيء مِمَّن كَفر جَزاءَ المُحسنين مِمَّن آمنَ به ، أو يُجازيَ المُحْسِنَ مِمَّن آمنَ به واتَّبعَ أمره وانتهى عمَّا نهاه عنه فأطاعه جَزاءَ المُسيئين مِمَّن كَفر به، وكَذَّب رُسُلَه ، وخالفَ أمْرَه ونَهْيَه. فقال : إني لا أُحِبُّ الظالمين ، فكيف أظلم خَلْقي ؟ . وهذا القول مِن الله تعالى ذِكْرُه ، وإن كان خَرج مَخرج الخبر ، فإنه وعيد مِنه للكافرين به وبرُسُله ، ووعد منه للمؤمنين به وبرُسُله ، لأنه أعلمَ الفريقين جميعًا أنه لا يَبخَس هذا المؤمن حَقَّه، ولا يظلم كرامته فيضعها فيمن كفر به، وخالفَ أمرَه ونَهْيَه ، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالِمًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأمَّا مَنْ آمنَ وعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنا يُسْرًا ﴾ [الكَهْف : ٨٨]. وأمَّا مَن صدَّق بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعَلَ الطاعات ، فجزاؤه الجَنَّة (الحُسْنَى)، يتنعَّم فيها، ثوابًا على عبادته، ومُكافأةً على طاعته ، وسنُخفِّف عنه في الحياة الدُّنيا ، فلا نُكلِّفه بالأوامر الصعبة ، ولا نُحمِّله فوق طاقته ، ولا نَفرِض عليه التكاليف الشاقة ، ولا نُلْزِمه بالأحكام العسيرة.وإنَّما نُكلِّفه بالعبادات السهلة، والطاعات اليسيرة. أي : نأمره بما يَسهُل عليه.
وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٢٧٥):((وأمَّا مَن صدَّق اللهَ مِنهُم ووحَّده،وعَمِل بطاعته،فله عند الله الحُسنى وهي الجَنَّة جَزَاءً،يعني ثوابًا على إيمانه وطاعته رَبَّه...وقوله:﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنا يُسْرًا ﴾ يقول: وسَنُعَلِّمه نَحْن في الدُّنيا ما تيسَّر لنا تعليمه مِمَّا يُقرِّبه إلى الله ، ويلين له من القَول)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا ﴾[مَرْيَم: ٩٦] .

إن الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفعلوا الطاعات ، سيجعل اللهُ لهم في قُلوب عباده الصالحين مَحَبَّةً لهم ، أي إن الله يُحِبُّهم ، ويَجعل الناسَ يُحِبُّونهم ويَقبلونهم ويَميلون إلَيهم . ومَن أقبلَ على الله بقلب مُخلِص ونِيَّة صادقة ، جَعَلَ اللهُ قُلوبَ المؤمنين تُقْبِل عَليه ، وتُحِبُّه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٨٨) : ((يُخْبِر تعالى أنه يَغرِس لعباده المُؤمنين الذين يَعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لمُتابعتها الشريعة المُحمَّدية . يَغرِس لهم في قلوب عباده الصالحين مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً ، وهذا أمر لا بُد منه ، ولا مَحِيد عنه)) .

وروى التِّرمذي في سُننه (٥/ ٣١٧) وصحَّحه : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ، نادى جِبريلَ ، إنِّي قد أحببتُ فُلانًا فَأَحِبَّه . قال : فيُنادي في السَّماء ، ثم تَنْزِل له المَحَبَّةُ في أهل الأرض ، فذلك قَول الله : ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا ﴾ . وإذا أبغضَ اللهُ عبدًا ، نادى جِبريلَ ، إنِّي أبغضتُ فُلانًا ، فيُنادي في السماء ، ثُمَّ تَنْزِل له البَغضاءُ في الأرض)) .

إن اللهَ إذا أحبَّ عبدًا ، جَعل الناسَ يُحِبُّونه ، ويَميلون إلَيه . ومَن أخلصَ لله ، جَعل قلوبَ عباده الصالحين تَميل إلَيه بالمحبة والرحمة والمَوَدَّة ، ويُوضَع له القَبول في الأرض ، أي : يُحِبُّه الناس ، ويُقْبِلُون عليه . وإذا أبغضَ اللهُ عبدًا ، جَعل الناسَ يَكْرَهونه ، ويَهْرُبون مِنه ، ولا يُطيقونه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٨٤) : ((مَحَبَّة الله تعالى لِعَبْده هي إرادته الخير له ، وهِدايته ، وإنعامه عَلَيه ، ورحمته . وبُغْضُه إرادة عِقابه أو شقاوته ونَحْوه . وحُب جِبريل والملائكة يحتمل وجهين: أحدهما استغفارهم له،وثناؤهم عليه،ودُعاؤهم.والثاني أن مَحَبَّتهم على ظاهرها المعروف مِن المخلوقين، وهو مَيْل القلب إلَيه ، واشتياقه إلى لقائه، وسبب حُبِّهم إيَّاه كَوْنه مُطِيعًا لله تعالى، مَحبوبًا له. ومعنى : " يُوضَع له القَبول في الأرض " أي الحُب في قُلوب الناس ورضاهم عنه، فتميل إليه القلوب وترضى عنه. وقد جاء في رواية" فتُوضَع له المَحَبَّة ")).

٨_ الهِداية إلى الإيمان

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَهْدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾[البقرة : ٢١٣] .

إنَّ الله يُرشِد مَن يَشاء مِن خَلْقه إلى طريق الحق ، الذي لا يَضِل سالكه ، ويُوفِّقه إلى الصواب والرَّشاد والهُدى ، وله الحِكْمة الجليلة ، والحُجَّة البالغة . والصِّراطُ المُستقيم هو دِين الإسلام ، فهو طريق الحق الذي لا لَبْس فيه ، ولا اعوجاج .

واللهُ وَحْدَه هو الهادي ، وبيده الهِداية إلى الإيمان. أمَّا الرُّسل فهم يَهدون إلى طريق الإيمان ، ولا يَقْدِرون على إدخال الإيمان إلى قلوب العباد . إن هداية التوفيق والقَبول بيد الله وَحْدَه،أمَّا الرُّسل فَهُم مُعلِّمون ومُرْشِدُون وهُداة مَهْدِيُّون ، وهِدايتهم هي هِداية الدَّلالة والبيان والتوضيح والإرشاد . وكُل رسول مُبلِّغ عن الله، ومُبيِّن عنه ، ودال على دِينه وشَرْعه . وهدايةُ العبد خاضعة لمشيئة الله ، والعبد لا يَهدي نَفْسَه بنفْسه، مهما كان ذَكِيًّا أو مَوهوبًا. والإيمانُ شرف لا يَمنحه اللهُ لكل شخص. والهِدايةُ مخصوصة لأشخاص مُعيَّنين يَختارهم اللهُ تعالى، ويَشاء لهم الهِداية معَ استغنائه عنهم،ولله الفضل والمِنَّة.والآية تردُّ على المُعتزلة الذين قالوا إن العبد يَهدي نَفْسَه بنفْسه.

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٤٧):((واللهُ يُسدِّد مَن يَشاء مِن خَلْقه، ويُرشده إلى الطريق القويم على الحق، الذي لا اعوجاج فيه ،كما هدى الذين آمنوا بمُحمَّد ﷺ لِمَا اختلف الذين أُوتوا الكتاب فِيه بَغيًا بينهم ، فَسَدَّدهم لإصابة الحق والصواب فيه . وفي هذه الآية البيان الواضح على صِحَّة ما قاله أهل الحق مِن أن كل نِعْمة على العباد في دِينهم أو دُنياهم فَمِنَ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم ولكنَّ اللهَ يَهْدي مَن يشاء ﴾[البقرة : ٢٧٢] [١٧] .

ليس بواجب على النبيِّ ﷺ أن يَجعلهم مَهْديين ومؤمنين ، لأن هذا الأمر ليس بيد النبيِّ ﷺ ، وإنما بيد الله وَحْدَه، الذي يُوفِّق مَن يَشاء إلى الإيمان. وللهِ هِدايةُ التَّوفيق،وللنبيِّ ﷺ هِدايةُ الدَّعوة. والنبيُّ ﷺ لا يستطيع أن يُدْخِلَ الناسَ في الإسلام ، ولَيست هذه وظيفته . وإنما وَظيفته الدَّعوة والبيان والإرشاد والتعليم والبلاغ. والقُلوبُ بيد الله وَحْدَه، وهو يَهْدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٧٢) : ((﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم ﴾ لا يجب عليك أن تَجعل الناس مهديين، وإنَّما عليك الإرشاد ، والحَث على المَحاسن ، والنَّهْي عن المقابح، كالمَن والأذى وإنفاق الخبيث ، ﴿ ولكنَّ اللهَ يَهْدي مَن يشاء ﴾ صريح بأن الهِداية من الله تعالى وبمشيئته ، وأنها تُخَصُّ بقَوم دُون قَوم)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((كانوا يَكْرَهُون أن يرضَخوا لأنسابهم وهُم مشركون ، فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم ولكنَّ اللهَ يَهْدي مَن يشاء ﴾ حتى بَلَغَ : ﴿ وأنتم لا تُظلَمون ﴾ .

---

١٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/٣٢٧):((قَوله تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم﴾ في سبب نزولها قَولان: أحدهما أن المسلمين كَرِهوا أن يَتَصَدَّقوا على أقربائهم مِن المشركين،فنزلت هذه الآية، هذا قَول الجمهور. والثاني أن النبيَّ ﷺ قال : " لا تَتَصَدَّقوا إلا على أهل دِينكم " ، فنزلت هذه الآية،قاله سعيد بن جُبَير)).

قال : فرخَّص لهم)) [18]. كان المسلمون يَكْرَهُون أن يتصدَّقوا على أقاربهم المُشركين بسبب شِركهم وكُفرهم ، فنزلت الآية لتُوضِّح أن هِداية المُشركين لَيست على النبيِّ ﷺ ، ولا يَحِقُّ له أن يَمنعهم صدقةَ التَّطَوُّع ، ليَدفعهم إلى اعتناق الإسلام ، فلا إكراه في الدِّين ، ووظيفة النبيِّ محصورةٌ في التبليغ وهِداية الدَّلالة لا هِداية التوفيق . ولا يَجوز الضغط على الناس بأيَّة وسيلة لإجبارهم على اعتناق الإسلام . وقد رخَّص اللهُ للمؤمنين وسمح لهم أن يتصدَّقوا على أقربائهم مِن المُشركين . وهذا يدل على حِرص الإسلام على صِلَة الإرحام معَ المسلمين وغير المسلمين ، لِمَا في ذلك مِن استقطاب القلوب، ونشر المحبة بين الناس ، وتَلطيف الأجواء . وهذه أفضل وسيلة للدَّعوة إلى الإسلام . والجديرُ بالذِّكر أن المقصود بالصَّدقة _ في هذا السياق _ صدقة التَّطَوُّع ، أمَّا الصَّدقة المفروضة (الزَّكاة) ، فلا يجوز إعطاؤها لكافر ، إلا إذا كان مِن المُؤلَّفة قلوبُهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكافرين ﴾[المائدة : ٦٧] .

على الرَّسول البَلاغُ ، أمَّا الهِداية فهي بيد الله وَحْدَه . يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِلُّ مَن يَشاء . واللهُ لا يُرْشِدُ الكافرين إلى طَريق الخَير ، لأنَّهم لَيسوا أهْلًا للهِداية ، ولا يَستحقون شَرَفَ الإيمان . ولا يَهْدِيهم إلى طَريق الجَنَّة ، لأنَّهم لَم يُطهِّروا قُلوبَهم . ونُورُ الإيمانِ لا يَهبط في القلب النَّجِس . ولَن يُمكِّنهم اللهُ تعالى مِن إلحاق الأذى بالنبيِّ ﷺ . إنَّهم مَخذولون أيْنَما تَوَجَّهوا .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٤٦) : ((إنَّ اللهَ لا يُوفِّق للرُّشد مَن حَادَ عن سبيل الحق ، وجارَ عن قَصْد السَّبيل ، وجَحد ما جِئْتَه بِه مِن عِند الله ، وَلَم يَنْتَهِ إلى أمر الله وطاعته فِيما فَرض عَلَيه وأَوْجَبَه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكافرين ﴾ فِيه قَولان . أحدهما : لا يَهديهم إلى الجَنَّة ، والثاني : لا يُعينهم على بُلوغ غَرَضهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم على الهُدى ﴾[الأنعام : ٣٥] .

وَلَوْ أرادَ اللهُ لَوَفَّقَ الكافرين إلى الإيمان، وهَداهم إلى الحق، لكنَّ اللهَ لَم يَفعل ذلك لسابق عِلمه فِيهم ، ونافذِ قضائه . إن الأمرَ كُلَّه للهِ تعالى ، فهو خالقُ الناسِ ، وأعلمُ بِهم مِن أنفسهم ، ويَعرف ما فِيه المَصلحة ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظُّلم والعَبث. إنْ هَدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله تعالى وله المِنَّة . وإنْ هَداه إلى الكُفر فَبِعَدْله ، وللهِ على العبد الحُجَّة .

١٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣) برقم (٣١٢٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقد كانَ النبيُّ ﷺ شَديدَ الحِرص على إيمان الناس كُلِّهم ، وكان يُريد أن يُرِيَهم اللهُ كُلَّ آيةٍ يَطلبونها طَمَعًا في إسلامهم . وكانَ يَحزن بِشِدَّة ويتضايق مِن كُفر قَومه ، فَخَفَّفَ اللهُ عنه ، وأعلَمَه أنه لَن يُؤمن إلا مَن أرادَ اللهُ له السعادة،وإيمانُ الناسِ أو كُفرهم، كِلاهُما خاضع لمشيئة اللهِ تعالى . والنبيُّ ﷺ لا يستطيع أن يَهديَ الناسَ إلا إذا أَذِنَ اللهُ بذلك .

ولله حِكمةٌ في كُلِّ شَيء ، عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها . واللهُ قادرٌ على إجبار الناس كُلِّهم على الإيمان . ولكنْ في هذا الحالة ، يُصبح التَّكليف بلا معنى ، ولا جَدْوَى للامتحان ، ولا معنى للجنة والنار ، ما دامَ الناس مؤمنين اضطرارًا ، ورغم أنوفهم ، وليس باختيارهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٨٢) : ((﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم على الهُدى ﴾ ، أي لَخَلقهم مؤمنين ، وطَبَعهم عَلَيه. بَيَّنَ تعالى أنَّ كُفرهم بمَشيئة الله رَدًّا على القَدَرِيَّة ، وقِيل المعنى : أي لأراهم آيةً تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه أراد عَزَّ وجَلَّ أن يُثيب مِنهم مَن آمنَ ومَن أحسنَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٣٢ و٣٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم على الهُدى ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها لَوْ شاءَ أن يَطبعهم على الهُدى لَطَبَعَهُم. والثاني: لَوْ شاءَ لأنزلَ ملائكة تضطرهم إلى الإيمان ، ذَكَرهما الزَّجاج. والثالث : لَوْ شاءَ لآمَنوا كُلُّهم ، فَأخبرَ إنَّما تركوا الإيمان بمشيئته ونافذ قضائه)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ مَن يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأ يَجْعَلْهُ عَلى صِرَاطٍ مُستقيم ﴾[الأنعام: ٣٩] .

إن اللهَ يَفعل ما يَشاء في مُلكه ومَلَكُوته ، وهو سُبحانَه المُتَصَرِّف في خَلْقه كما يَشاء . ومَن يَشَأ اللهُ إضلالَه ، يُضْلِلْهُ ، ويَخذُله ، ويَمنعه مِن معرفة الحق ، ويَتركه في متاهة الكفر والضلال ، فيموت على الكُفر ، ويَدخل النار . ومَن يَشأ اللهُ هِدايته ، يُرْشِدْه إلى الهدى ، ويُوفِّقه لمعرفة الحق واعتناقِ دِين الإسلام ، فيموت على الإسلام ، ويَدخل الجَنَّة . والآيةُ تَحمل ردًّا واضحًا على المُعتزلة . كما أن في الآية دَليلًا على خَلْق أفعال العِباد ، وإرادة الله للمَعاصي ، ونَفْي الأصلح .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٨٦) : ((﴿ مَن يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ ، دَلَّ على أنه شاءَ ضَلالَ الكافر ، وأراده، لِيَنفذ فيه عَدْلُه، ألا ترى أنه قال:﴿ وَمَن يَشَأ يَجْعَلْهُ عَلى صِرَاطٍ مُستقيم ﴾ أي : على دِين الإسلام ، لِيَنفذ فيه فَضْلُه . وفيه إبطال لمذهب القَدَرِيَّة . والمَشيئة راجعة إلى الذين كذَّبوا ، فَمِنهم مَن يُضِلُّه ، ومِنهُم مَن يَهْدِيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى ﴾[الأنعام : ٧١] .

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء الكافرين : إنَّ دِيننا الإسلام هو الهُدى وَحْدَه ، وما سِواه كُفر وضلال .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٨٨) : ((قَوله : ﴿ قُل إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى ﴾ أمَرَه اللهُ سُبحانَه بأن يقول لهم : ﴿ إنَّ هُدى اللهِ ﴾ أي : دِينه الذي ارتضاه لعباده ﴿ هُوَ الهُدى ﴾ وما عَدَاه باطل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[الأنعام : ٨٨] .

ذلك دِين اللهُ (الإسلام) ، يُرشِد بِه مَن أرادَ مِن خَلْقه ، وهم الذين وفَّقهم للحق والصواب واتِّباع الحق . وقد حَصل لهم ذلك بهداية الله وتَوفيقه ورعايته وعِنايته .

والإضافة في ﴿ هُدى اللهِ ﴾ للتشريف والتفخيم . والآيةُ تدل على أن الله مُتَفَضِّل على عِباده بالهِداية ، وَلَوْلاه لَكَفُروا وضَلُّوا .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٥٨) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله : ﴿ ذَلِكَ هُدى اللهِ ﴾ هذا الهُدى الذي هَدَيْتُ به مَن سَمَّيْتُ مِن الأنبياء والرُّسُل ، فوفَّقتهم به لإصابة الدين الحق ، الذي نالوا بإصابتهم إيَّاه رِضى ربِّهم ، وشرف الدنيا ، وكرامة الآخرة ، هو ﴿ هُدى اللهِ ﴾ . يقول : هو توفيق الله ولُطْفه الذي يُوفِّق به مَن يَشاء،ويَلْطُف به لِمَن أحبَّ مِن خَلْقه، حتى يُنيب إلى طاعة الله، وإخلاص العمل له ، وإقراره بالتَّوحيد ، ورفض الأوثان والأصنام)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل فللهِ الحُجَّةُ البالغةُ فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُم أجمعين ﴾[الأنعام : ١٤٩].

قُل يا مُحمَّد : فللهِ الحِكمةُ الكاملةُ ، والحُجَّةُ التَّامَّة على الناس بالقُرآن والسُّنة ، وكِلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ . يَهدي مَن يشاءُ ، وَيُضِلُّ مَن يشاء . ولَهُ سُبحانه الحِكمة في الهداية والإضلال ، ولهُ الحُجَّة البالغة على خَلْقِه بالوَحْيِ والنُّبُوَّةِ ، ولَيْسَ لِخَلْقِه الحُجَّةُ عَلَيه بمشيئته وإرادته .

وَلَوْ شاءَ اللهُ لَهَدى الناسَ كُلَّهم إلى الإيمان ، ولكنَّه سُبحانَه مَنَحَ الإرادةَ الحُرَّةَ للإنسان ، وأعطاه القُدرةَ على اختيار الإيمان أو الكُفر ، لِيَتحقَّق معنى التكليف . والإيمانُ والكفرُ خاضعان لمشيئة اللهِ ، وهذا لا يتعارض مع حقيقة أنَّ اللهَ يُحِب المؤمنين ، ويُبغِض الكافرين .

واللهُ سُبحانَه إن هدى الإنسانَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِه ، ويَكون اللهُ قد وفَّقه. وإن هداه إلى الكُفرِ فَبِعَدْلِه، ويَكون اللهُ قد خَذَلَه. واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظُّلم، لا يُسأل عمَّا يَفعل، والإنسانُ يتحمَّل مسؤوليةَ أعماله في الدُّنيا والآخرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٣) : ((﴿ قُل فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ البَيِّنة الواضحة التي بَلَغَت غاية المتانة والقوة على الإثبات ، أو بَلَغَ بها صاحبُها صِحَّةَ دَعْواه ، وهي مِنَ الحَجِّ ، بمعنى القَصْد ، كأنها تَقْصِد إثباتَ الحُكم وتَطْلُبه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١١٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُل فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ أي التي تَقطع عُذر المَحْجُوج ، وتُزيل الشَّكَّ عمَّن نظر فيها ، فَحُجَّتُه البالغة على هذا تبيينه أنَّه الواحد ، وإرسالُه الرُّسُل والأنبياء ، فَبَيَّنَ التوحيدَ بالنظر في المخلوقات ، وأيَّدَ الرُّسُلَ بالمُعجِزات ، ولَزِمَ أمرُه كُلَّ مُكلَّف، فأمَّا عِلْمُه وإرادتُه وكلامُه فَغَيْبٌ لا يَطَّلع عليه العبد ، إلا مَن ارتضى مِن رسول، ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لَوْ أراد أن يَفعل ما أُمِرَ بِه لأمكنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتدي ﴾ [الأعراف : ١٧٨] .

مَن هداه اللهُ وأرشده إلى الحق والصواب ، واعتناقِ الإسلام ، والتزامِ شرائعه وتعاليمه ، فهو السَّعيد المُوفَّق الناجي . وهذا دليل على أن الهِداية بيد الله وَحْدَه ، وأن هِداية الله تختصُّ ببعض دُون بعض ، وأن العبدَ لا يَستطيع أن يَهْدِيَ نَفْسَه بنفسه ، مهما بَلَغَ مِن الذكاء والعبقرية .

وقال النَّسفي في تفسيره (٢/ ٤٧) : ((وَلَوْ كان الهُدى مِن اللهِ البيان ، كما قالت المُعتزلة، لاستوى الكافر والمؤمن ، إذ البَيان ثابت في حق الفريقين ، فدلَّ أنه مِن الله تعالى التوفيق والعِصمة والمَعونة ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفاسقين ﴾[التَّوبة : ٢٤] .

واللهُ لا يُوفِّق للخَير العُصَاةَ البَعِيدين عن عبادته وطاعته ، ولا يُرشِد إلى الحقِّ الغارقين في الذُّنوب، ولا يَهْدي إلى الصواب المُعْرِضِين عن امتثال أوامره ونَوَاهيه . والآيةُ تَحمل تهديدًا شديدًا بِحِرْمان الهِداية . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٣٩): ((يَقول: واللهُ لا يُوفِّق للخَير الخارجين عن طَاعته ، وفي معصيته)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إذْ هَدَاهُم حتَّى يُبَيِّنَ لَهُم ما يتَّقون﴾[التَّوبة: ١١٥].

إن اللهَ لا يَخذُل قَوْمًا ، ولا يُضِلُّهم ، ولا يَحْرِمهم مِن التوفيق والهِداية ، بعد أن هَداهم إلى الإسلام ، ووفَّقهم للعمل بتعاليمه وأحكامه وشرائعه ، ما لَم يَرتكبوا الذُّنوبَ والآثامَ ، ويَقترفوا المُحرَّمات ، بعد أن يتَّضح لهم أنها مُحرَّمة ، وتُقام عليهم الحُجَّة . وأمَّا قبل أن يتَّضح لهم ذلك ، فلا حَرَج عليهم ، ولا إثم ، ولا لَوْم . واللهُ يُبيِّن للناس ما يجب أن يتَّقوه مِن المُحرَّمات والمحظورات ، وإذا لم يَتَّقُوه ، استحقوا الضَّلال . وأمَّا قَبْل العِلْم والبيان والتَّوضيح ، فليس ضَلالًا ما قاموا به ، واللهُ لا يُؤَاخذهم بِه . ومِن رحمة الله بهم أنه يُعلِّمهم ، ويُرشدهم ، ويُنبِّههم ، ويُبيِّن لهم ما يَحذرون به الضَّلال، ويخافون عاقبته، وما يجب اتِّقاؤه والابتعاد عنه للنَّهْي والتحريم.

والآيةُ رَد على المُعتزلة الذين يقولون بِخَلْق هُداهم وإيمانهم .

والآيةُ تُوضِّح حُكْمَ اللهِ العادلَ ، إذ إنه سُبحانَه لا يُضِلُّ قَوْمًا بعد إبلاغ الدَّعوة والرسالة إلَيهم، إلا بعد اتِّضاح الحق أمامهم ، وتبيين المُحرَّمات لهم ، وقِيام الحُجَّة عَلَيهم ، وانقطاع عُذرهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٢٥٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إذْ هَدَاهُم ﴾ ، أي : ما كانَ اللهُ لِيُوقِع الضَّلالةَ في قلوبهم بعد الهُدى ﴿ حتَّى يُبَيِّنَ لَهُم ما يتَّقون ﴾ ، فلا يتَّقوه ، فعِند ذلك يَستحقون الإضلال . قُلْتُ : ففي هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارْتُكِبَتْ وانتُهِكَ حِجابُها كانت سببًا إلى الضَّلالة والرَّدى ، وسُلَّمًا إلى ترك الرَّشاد والهُدى . نسأل اللهَ السَّدادَ والتوفيق والرَّشاد بِمَنِّه.وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله في قوله:﴿ حتَّى يُبَيِّنَ لَهُم ﴾ أي: حَتَّى يَحْتَجَّ عليهم بأمره)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/٥١٠و٥١١):((قَوله تعالى:﴿ وما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ الآية . سبب نزولها أنه لمَّا نزلت آيةُ الفرائض ، وجاء النَّسْخ ، وقد غاب قَوم وهُم يَعْلَمون بالأمر الأول مِثْل : أمر القِبْلة والخَمْر ، ومات أقوام على ذلك ، سألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال قَوم: المعنى أنه بيَّن أنه لم يكن لِيَأخذهم بالاستغفار للمُشركين قبل تحريمه ، فإذا حرَّمه ولم يَمتنعوا عنه ، فقد ضَلُّوا . وقال ابن الأنباري : في الآية حَذف واختصار ، والتأويل : حتى يَتَبَيَّنَ لهم ما يتَّقون فلا يتَّقونه ، فعِند ذلك يَستحقون الضَّلال ، فحذف ما حذف لبيان معناه ، كما تقول العرب : أمرتُكَ بالتِّجارة فكسبتَ الأموال ، يُريدون فَتَجَرْتَ فكسبتَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ [يُونُس : ٩٩] .

اللهُ قادرٌ على جَعْل العِباد كُلِّهم مُؤمنين على شريعة واحدة ، وعلى قلب رَجل واحد ، دُون وجود للأديان ولا المذاهب ولا المِلَل ولا النِّحَل . لَكِنَّه سُبحانَه شَرَّفَ العقلَ البشري بأن مَنَحَه حريةَ الاختيار وَفْقَ ما يَراه مُناسِبًا دُون ضغط ولا تهديد ولا إكراه. إذ إن العقيدة والإكراه ضِدَّان ، لا يجتمعان في قلب إنسان ، ولا يَلتقيان في نَفْسه . والاختيارُ الذاتي دون ضغوط _ وَحْدَه _ القادر على جَعْل العقيدة تستقر في القلب . والإكراه على الإيمان لا يَصِحُّ ، وليس له معنى ، لأن الإيمان عمل القلب . ولا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق آخَر . والقُلوبُ بيد الله وَحْدَه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((وهو دليل على القَدَرِيَّة ، في أنه تعالى لَم يَشَأ إيمانَهم أجمعين، وأن مَن شاء إيمانَه يُؤمن لا مَحَالة. والتَّقييد بمَشيئة الإلجاء خِلاف الظاهر)) .

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ يا مُحمَّد لأجبرَ الناس _بلا استثناء_على الإيمان، فَصَدَّقوا بالإسلام وبرسالتك. واجتمعوا على الإيمان لا يَختلفون فيه . لكنَّ اللهَ لا يَشاء إجبارَ الناس على الإيمان ، لأنه مُخالِف للحِكمة الإلهية التي هي جوهر التشريع . والآيةُ تُشير إلى أنَّ مَن شَاءَ اللهُ إيمانَه يُؤمِن لا مَحَالة .

إنَّ اللهَ حكيمٌ في أفعاله ، له حِكمة فيما يَفعله تعالى ، عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها . وقد جعل اللهُ العبدَ حُرًّا في اختياره ، ووَفْق اختياره يَتقرَّر مصيرُه . والعبدُ يختار الإيمانَ أو الكفرَ بكل حرية ودُون ضغط ولا إكراه ، وهو يَتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة.واللهُ بنى الأمرَ على الاختيار لا الإجبار. ولو كانَ هناك إجبار على الإيمان، فلا معنى لإرسال الأنبياء ، ولا معنى للحساب والجنة والنار . وجاءت﴿ جميعًا﴾ بعد ﴿كُلُّهم ﴾ للتأكيد .

والآيةُ تدلُّ على كَمال قُدرة الله ، ونفاذ مشيئته في كُل شَيء ، ولا شَيء يقف أمام إرادته .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : ﴿ وَلَوْ شاءَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا ﴾ بِكَ ، فَصَدَّقُوك أنَّكَ لِي رسول، وأنَّ ما جئتهم به ، وما تدعوهم إليه مِن تَوحيد الله ، وإخلاص العُبودة له حق ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سَبَقَ مِن قضاء الله قبل أن يَبعثك رسولًا أنه لا يُؤمِن بِكَ ، ولا يَتَّبعك فَيُصَدِّقك بما بَعثك اللهُ بِه مِن الهُدى والنُّور إلا مَن سَبَقَتْ له السعادة في الكتاب الأول ، قَبل أن تُخْلَق السموات والأرض وما فيهنَّ . وهؤلاء الذين عَجِبوا مِن صِدق إيحائنا إلَيك هذا القرآن لِتُنذِر به مَن أَمَرْتُكَ بإنذاره ، مِمَّن قد سَبَقَ له عِندي أنهم لا يؤمنون بِكَ في الكتاب السابق)) .

﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ .

أفأنتَ يا مُحمَّد تُجْبِر الناسَ على الإيمان ، وتضطرهم إلَيه ، وتُلْزِمهم بِه ؟ . هذه لَيست وظيفتك ولا مهمتك، ولَسْتَ مُطَالَبًا بذلك ، وَلَسْتَ مسؤولًا عن ذلك . لَيْسَ لَكَ يا مُحمَّد مشيئة الجبر والإكراه في الإيمان، فمصيرُ العبد يتحدَّد وَفْق اختياره الشخصي، بدون إجبار ، ولا إكراه . واللهُ وَحْدَه يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء ، لِعِلْمه وحِكمته وعَدْله .

والاستفهام في ﴿ أفأنتَ ﴾ بمعنى النَّفْي . أي : لا تَمْلِك يا مُحمَّد أن تُجْبِرهم على الإيمان ، ولا تَقْدِر أن تُكْرِههم على التَّصديق ، لأن التصديق عمل القلب ، والقلبُ بيد الله وَحْدَه .

وقال النَّسفي في تفسيره (٢/ ١٤٣) : ((لأن الإيمان فِعل العبد ، وفِعله ما يَحصل بِقُدرته ، ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار . وتأويله عِندنا أنَّ للهِ تعالى لُطْفًا ، لَوْ أعطاهم لآمَنوا كُلُّهم عَن اختيار ، ولكن عَلِمَ مِنهم أنهم لا يُؤمنون ، فلم يُعْطِهم ذلك ، وهو التوفيق)) .

وقد أخطأ مَن اعتبرَ الآية منسوخة بآية السَّيف ، فلا يوجد نَسْخ ، لأن الإكراه على الإيمان غَير معقول ولا منطقي ، لأن الإيمان عمل القلب. والإجبارُ يُؤَثِّر على الجوارح الظاهرية ، ولا يُؤَثِّر على القلب ، لأنه داخلي ، لا سُلطة لمخلوق عَلَيه . واللهُ وَحْدَه مَالِكُ قُلوبِ العِباد .

والآيةُ تخفيف عن النبيِّ ﷺ وتَسليةٌ له، لأنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمان الناس ، وإنقاذهم من عذاب النار ، وإرشادهم إلى رِضا اللهِ ونعيمِ الجنة . فأخبره الله أنه لا يُؤمِن إلا مَن قد سَبَقَ له من الله السعادة ، ولا يَضِل إلا مَن سَبَقَ له الشَّقاوة . وكُل شيء خاضع للمَشيئة الإلهية .

والآيةُ أيضًا مديحٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ ، لأنها تُبَيِّن أنَّ النبيَّ ﷺ يَقوم بواجب الدَّعوة والتَّبليغ على أكْمَل وَجْه بلا مَلَل ولا كَسَل ولا تقصير ، ويَبذل قُصارى جُهده لهداية الناس إلى الإيمان ، وهو مُتأثِّر بِشِدَّة وحزين لعدم إيمان قَومه. وقد خَفَّفَ اللهُ عنه، وأعْلَمَه أن لا أحد يُؤمِن إلا بإذن الله ، لأن الإيمان شَرَف، واللهُ لا يُعطي هذا الشرفَ إلا لأشخاص مُحَدَّدين ، وغالبية الناس لا يستحقون هذا الشرف،لذلكَ تَرَكَهم اللهُ ضائعين في متاهات الجهل والضلال والكُفر. وَمَن شَاءَ اللهُ أن يَمنحه شَرَفَ الإيمان سَيُؤمِن لا مَحَالة، فلا شيء يقف أمام مشيئة الله تعالى، ومشيئته نافذة في كُل شيء.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ ﴾ بما لَم يشأ منهم ﴿ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ . وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء ، وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفِعل للدَّلالة على أن خِلاف المشيئة مُستحيل ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلًا عَن الحَث والتَّحريض عليه)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٨٦) : ((ولَمَّا كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس ، أخبرَه اللهُ بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحِكمة البالغة والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال : ﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ ، فإن ذلك ليس في وُسعك يا مُحمَّد، ولا داخل تحت قُدرتك . وفي هذا تَسلية له ﷺ ، ودَفْع لِمَا يَضيق به صدرُه مِن طلب صلاح الكُل الذي لو كان،لَم يكن صلاحًا مُحَقَّقًا ، بل يكون إلى الفساد أقرب ، وللهِ الحِكْمة البالغة)) .

إنَّ اللهَ قَد أكرمَ الإنسانَ وَكَرَّمه،بأن مَنحه حقَّ الاختيار بين الإيمان والكُفر،بلا إجبار ولا إكراه، ولا يمكن للنبيِّ ﷺ إكراه الناس على الدخول في الإسلام وإجبارهم على اعتناقه ، لأن الإنسان حُر في اختياره ، كما أن العقيدة مبنية على حرية الاختيار ، والقَبولِ الطَّوْعي ، والتصديقِ القلبي بدون ضغط. ولا يمكن للجوارح أن تعمل بأريحية ذاتية إلا إذا كان عملُها نابعًا من القلب ، وهذا القلب لا سُلطة بشرية لأحد عَلَيه ، فهو لا يخضع للسَّيف ، ولا التهديد ، ولا الوعيد .

والقلوبُ بيد الله وَحْدَه. وكلُّ تعاليم الإسلام وعباداته تعتمد على النِّية التي مَحَلُّها القلب ، والنِّيةُ الصادقة في العبادة والإكراهُ نقيضان لا يَجتمعان ، وضِدَّان لا يَلتقيان ، وبالتالي فالذين يعتنقون الإسلام فكرًا وتطبيقًا لا يمكن أن يكونوا مُكْرَهين. فلا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق. قد يتمُّ إجبار الإنسان على القَول والفِعل ، ولكن لا يمكن إجبار قلبه ، لأنه شيء داخلي . وهذا يَدحض الشُّبهاتِ التي يُثيرها المغرِضون حول انتشار الإسلام ، ويَنسُبون إليه الدموية والوحشية، وأنه يجبر الناسَ على اعتناقه بالسَّيف . وهذا كلام بلا دليل ، ولا تقوم له قائمة لأنه لا يستند على أدلة معرفية وحُججٍ منطقية.والذي يَتَّهم الإسلامَ بأنه دموي انتشر بالسَّيف عليه أن يُقدِّم البراهين ، بأن يُحْضِر نصوصًا شرعية تحضُّ على قَتْل رافضي اعتناق الإسلام ، أو يُثبِت أن الناس اعتنقوه مُكْرَهين ، أو أن الإسلام اعتمد منهجية " إمَّا تُؤمِن أو تُقتَل " ، أو يُحضِر أدلةً تاريخية تُفيد بقتل الناس لأنهم لَم يختاروا الإسلام دِينًا . كما أن الذين يَتَّهمون الإسلامَ بالدموية وإجبار الناس على اعتناقه عليهم أن يُفسِّروا وجود الأقليات الدينية في العَالَم الإسلاميّ ، مع أن المسلمين كانوا قادرين على قتلهم أو فرض الإسلام عليهم بكل سهولة ، حين كانت الحضارة الإسلامية تبسط سيطرتها على كوكبنا، وكانت الأُمَّة الإسلامية أقوى الأمم،ولا أحد يَجرؤ على تَحَدِّيها أو مُعارضتها.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَنِ اهتدى فإنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ ﴾[يُونُس : ١٠٨] .

فَمَن صدَّق بوَحدانية الله ، وآمنَ بالقُرآن ، وأقرَّ بِنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، واتَّبعه ، فهو الفائز والرابح في الدُّنيا والآخِرة ، لأنَّ نفع إيمانه يَعود إلَيه ، وله ثواب اهتدائه ، وأجْر إيمانه . واللهُ غنيٌّ عن إيمانه. وهو سُبحانَه لا يَنفعه الإيمان ، ولا يَضُرُّه الكُفر. ونفعُ إيمان العبد يَعود إلَيه ، وضَرَرُ كُفر العبد يَرجع إلَيه. واللهُ غنيٌّ عن كُلِّ شَيء ، وهو سُبحانَه يُرشِد العبادَ لإنقاذهم ، ومَنحهم السعادة في الدَّارَيْن رَحمةً بِهم ، وهو غنيٌّ عنهم ، ولا يَحتاجهم ، بَل هُمُ الذينَ يَحتاجونه . والنبيُّ ﷺ ليس رقيبًا على الناسِ ، ولا يَستطيع إجبارهم على اعتناق الإسلام. إنما هو يُبلِّغ الوَحْيَ الإلهيَّ . واللهُ يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِلُّ مَن يَشاء ، واللهُ وَحْدَه يُحاسِب الناسَ. أمَّا النبيُّ ﷺ فلا يَملك سُلطة حساب الناس ، إنما هو بشير ونذير. وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٤٤): ((﴿ فَمَنِ اهتدى ﴾ أي : صَدَّقَ مُحَمَّدًا وآمنَ بما جاء به ، ﴿ فَإنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ ﴾ أي : لِخَلاص نَفْسِه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن هادٍ ﴾[الرَّعْد : ٣٣] .

ومَن يُضْلِلْهُ اللهُ ويَخذُله ، فليسَ له أحد يُوفِّقه للهُدى ، ولا أحد يَقْدِر على هِدايته إلى الحق ، وإرشاده إلى الصواب .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٩٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ومَن أضَلَّه اللهُ عن إصابة الحق والهُدى بخِذلانه إيَّاه ، فما له أحد يَهْديه لإصابتهما ، لأن ذلك لا يُنال إلا بتوفيق الله ومَعونته ، وذلك بيد الله وإلَيه ، دُون كُل أحد سِواه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾[إبراهيم : ٤] .

وظيفةُ الأنبياء مَحصورة في التَّبليغ والبيان وإقامة الحُجَّة على الناس . وبعد ذلك ، يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاء عن الإيمان، ويَهدي مَن يشاء إلى الإيمان ، وَفْق عِلْم الله السابق ، وقضائه المُحْكَم. والآيةُ تردُّ على القَدَرِيَّة ، وتُبيِّن أن مشيئة الله نافذة في كُل شيء ، وأن الإنسان خاضع لها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٣٤) : ((أي : يُضِلُّ مَن يَشاء إضلالَه ، ويَهْدي مَن يَشاء هِدايته ... . فإنَّ المُضِلَّ والهادي هو الله عَزَّ وَجَلَّ. والبيانُ لا يُوجب حُصول الهِداية، إلا إذا جَعله اللهُ سُبحانَه واسطةً وسببًا . وتقديمُ الإضلال عن الهِداية ، لأنه مُتَقَدِّم عليها ، إذْ هو إبقاء على الأصل ، والهِداية إنشاء ما لم يَكُن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[مريم : ٧٦] .

ويَزيد اللهُ المؤمنين المُهتدين المُصَدِّقين بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّة مُحمَّد ﷺ إيمانًا معَ إيمانهم ، وبصيرةً ويقينًا وثباتًا على الإيمان والحق والهُدى والرَّشاد، مُكافأةً لهم . والهُدى يَقُود إلى الهُدى ، والخَيْرُ يَدعو إلى الخَير . وهذا يدل على رِضا الله عنهم ، وإكرامه لهم ، وإحسانه إلَيهم .

وقال الطبري في تفسيره (٨ / ٣٧٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ويَزيد اللهُ مَن سَلَكَ قَصْدَ المَحَجَّة ، واهتدى لسبيل الرُّشد ، فآمنَ بربِّه ، وصدَّق بآياته ، فعمل بما أمره به ، وانتهى عمَّا نهاه عنه هُدًى ، بما يتجدَّد له من الإيمان بالفرائض ، التي يَفرِضها عليه ، ويُقِر بلزوم فَرْضها إيَّاه ، ويعمل بها ، فذلك زيادة مِن الله في اهتدائه بآياته هُدًى على هُداه ... . وقد كان بعضُهم يتأوَّل ذلك : ويَزيد اللهُ الذين اهْتَدَوْا هُدًى بناسخ القرآن ومَنسوخه ، فيؤمن بالناسخ ، كما آمنَ مِن قَبْل بالمَنسوخ ، فذلك زيادة هُدى مِن الله له على هُداه مِن قَبْل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٢٥٩):((قَوله تعالى:﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها ويَزيد اللهُ الذين اهْتَدَوْا بالتَّوحيد إيمانًا، والثاني يَزيدهم بَصيرةً في دِينهم. والثالث يَزيدهم بزيادة الوَحْي إيمانًا ، فكُلَّما نَزلت سُورةٌ زاد إيمانُهم. والرابع يَزيدهم إيمانًا بالنَّاسِخ والمَنسوخ . والخامس يَزيد الذين اهْتَدَوْا بالمَنسوخ هُدًى بالنَّاسِخ . قال الزَّجاج : المعنى إن الله تعالى يَجعل جَزاءهم أن يَزيدهم يقينًا ، كما جَعل جَزاء الكافر أن يَمُدَّه في ضَلالته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّ اللهَ يَهْدي مَن يُريد ﴾[الحج : ١٦] .

اللهُ وَحْدَه هو الهادي ، ولا تكون الهِداية إلا بإرادته سُبحانَه . يَهدي مَن يَشاء إلى الحق والصواب ، ويُضِل مَن يشاء . والهِدايةُ شرفٌ عظيم، لا يَمنحها اللهُ إلا لأصحاب القلوب النَّقِيَّة ، واللهُ يَهدي الذين يَعْلَم أنهم يُؤمنون ، ويُثبِّت الذين آمَنوا على الحق برحمته وفَضْله وكَرَمه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٣) : ((أي : يُضِل مَن يشاء ، ويَهدي مَن يشاء ، وله الحِكمة التَّامَّة ، والحُجَّة القاطعة في ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللهَ يَهْدي مَن يَشاءُ وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهْتَدِين ﴾ [القَصَص : ٥٦] .

إنَّكَ يا مُحمَّد لا تَهْدي مَن أحببتَ هِدايته أو أحْبَبْتَهُ لقرابته ، ولا تَقْدِر على إدخال الإيمان في قلبه ، مَهْما حاولتَ وبذلتَ مِن جُهود . ومهمتك مَحصورة في تبليغ الرسالة الإلهية . وَحْدَهُ اللهُ هو القادر على هِداية الناس ، فاعتمِدْ عليه في كُل شُؤونك ، وتَوَكَّلْ عليه ، فهو أعلمُ بأهل الإيمان والسعادة ، وأهلِ الكفر والشقاء . يَهدي مَن يَشاء ، وله الحِكمة البالغة والحُجَّة الواضحة .

واللهُ أعلمُ بالقابلين للهِداية ، المُستعدين لها . يَعْلَم مَن يستحقها ومَن لا يَستحقها. واللهُ تعالى أعْلَم بِمَن يختار الهِدايةَ وَيَقْبلها ، ويتَّعظ بالآياتِ والمواعظ ، ويَخضع للحُجَج والبراهين .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ٢٤١) : ((والآية حُجَّة على المُعتزلة ، لأنهم يقولون : الهُدى هو البيان ، قَد هَدى الناسَ أجمع ، ولكنهم لَم يَهتدوا بِسُوء اختيارهم ، فَدَلَّ أنَّ وراء البيان ما يُسمَّى هِداية ، وهو خَلْق الاهتداء ، وإعطاء التوفيق والقُدرة)) .

وقد نزلت الآية في أبي طالب ، وكان النبيُّ ﷺ حريصًا على إسلام عمِّه ، لكنَّه لَم يُسلِم ، وماتَ على الكُفر. وقَدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فَعل. ومعَ أنَّ الآية نزلت في أبي طالب إلا أنها عامَّة شاملة ، لأنَّ العِبرة بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٥)عن أبي هريرة قال:قال رسول اللهﷺ لِعَمِّه : ((قُل : لا إلهَ إلا الله، أشهدُ لَكَ بِها يوم القيامة)). قال : لَوْلا أن تُعيِّرني قُرَيش ، يَقولون : إنما حَمَلَه على ذلك الجَزَع ، لأقررتُ بها عَيْنَك ، فأنزلَ اللهُ : ﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللهَ يَهْدي مَن يَشاءُ ﴾ .

كان أبو طالب يُحب النبيَّ ﷺ لأنه ابنُ أخيه ، ويُدافع عنه ويَحميه لاعتبارات عائلية ، وبدافع الحَمِيَّة والعصبية القَبَلِيَّة.وقد حاولَ النبيُّ ﷺ بكل ما أُوتيَ مِن قُوَّة أن يَهديَ عَمَّه أبا طالب إلى الإسلام ، لكنَّه لَم يَستطع ، وماتَ أبو طالب كافرًا ، ورَفض الإسلامَ عِندَ مَوْته، خَوْفًا أن تُعيِّره

قُرَيش بذلك ، وتقول إنه جبان، خافَ مِن الموت، وأصابه الرُّعب والجَزَع ، فأسلمَ بدافع الخوف، وليس عن قناعة ويقين ، وتُصبح قِصَّتُه منتشرة بين قبائل العرب ، وتصير فضيحةً على كُلِّ لسان ، ووصمة عار في تاريخه الشخصيِّ_حَسَبَ تفكيره ورُؤيته_.وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣): ((وقد كان يَحُوطُه، ويَنصرُه ، ويَقوم في صَفِّه ، ويُحِبُّه حُبًّا شديدًا طَبْعِيًّا لا شَرْعِيًّا ، فلمَّا حضرته الوفاةُ ، وحانَ أجلُه ، دعاه رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فَسَبَقَ القَدَرُ فِيه ، واخْتُطِف مِن يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحِكمة التَّامَّة)) .

ولا تعارُض بين هذه الآية والآية : ﴿ وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾[الشُّورى : ٥٢] . فالنبيُّ ﷺ يَهدي إلى الحق ، ويُرشِد إلى طريق الإيمان ، ويَدُلُّ الناسَ على سعادة الدنيا والآخرة . لكنَّه لا يَقْدِر أن يَخْلُقَ الهِداية في نفوس الناس ، ولا يَستطيع أن يُدخِل الإيمانَ في قلوبهم . إذ إن مهمة النبيِّ ﷺ محصورة في تبليغ الرسالة الإلهية،واللهُ يَهْدي مَن يَشاء،ويُضِلُّ مَن يشاء. فإن هَدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله وله المِنَّة . وإن هداه إلى الكُفر فَبِعَدْله ، ولله على العبد الحُجَّة. والإيمانُ شَرَفٌ عظيمٌ لا يَستحقه غالبية الناس،لذلكَ مَنعهم اللهُ مِنَ الإيمان لأنهم لَيسوا أهْلًا له.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدي مَن أضَلَّ اللهُ ﴾[الرُّوم : ٢٩] .

لا أحد يَستطيع أن يُوفِّق للإيمان مَن أرادَ اللهُ إضلالَه ، ولا أحد يَقْدِر أن يُرشِد إلى الحق مَن خَذَلَه اللهُ ، وأعمى بصيرته . وإذا كَتَبَ اللهُ ضَلالَ العَبْد ، لا أحد يَستطيع هِدايته إلى الإيمان ، لأن الهِداية بتقدير الله وإرادته . والآيةُ تدلُّ على أنهم كَفروا وأشْرَكُوا بإضلال الله إيَّاهم ، وتردُّ على القَدَرِيَّة (نُفَاة القَدَر). وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٢) : ((يقول : فَمَن يُسدِّد للصَّواب مِن الطُّرُق ، يعني بذلك مَن يُوفِّق للإسلام مَن أضلَّ اللهُ عَن الاستقامة والرَّشاد ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍ ﴾ [الزُّمَر : ٣٧] .

وَمَن يُوفِّقه اللهُ للإيمان،ويُرشده إلى الهُدى،ويُثبِّته على طريق الحق،فلن يَقْدِر أحدٌ على إضلاله، ولن يستطيع أحد إخراجه مِن الإيمان ، وإيقاعه في الكُفر . واللهُ لا راد لفِعْله ، ولا مُعَارِض لإرادته. وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٧):((يقول: ومَن يُوفِّقه الله للإيمان به، والعمل بكتابه، ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍ ﴾ يقول : فما له مِن مُزِيغ يُزيغه عن الحق الذي هو عليه ، إلى الارتداد إلى الكُفر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَهْدي إلَيْهِ مَن يُنيب ﴾ [الشُّورى : ١٣] .

اللهُ يَهْدي إلى الإسلام (الدِّين الحق) مَن يَتُوب مِن الذُّنُوب والمعاصي، ويَرجع إلى عبادة الله وطاعته ، فيُوفِّقه ، ويُرشده ، ويُقرِّبه ، رَحمةً به ، وإحسانًا إليه ، وتَفَضُّلًا عَلَيه ، وإكرامًا له .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٥٤) : ((أي : يُوفِّق لدِينه ، ويَستخلص لعِبادته مَن يَرجع إلى طاعته ، ويُقْبِل إلى عبادته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدًى وآتَاهُم تَقْوَاهُم ﴾[مُحمَّد : ١٧] .

وأمَّا المؤمنون المُتَّقون الذين صدَّقوا بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، فقد زادهم اللهُ إيمانًا إلى إيمانهم ، ويقينًا إلى يقينهم ، ووفَّقهم إلى طريق الحق والهُدى ، وثبَّتهم عليه ، وألهمهم رُشدهم ، وأعانهم على عبادة الله وطاعته ، ومَنحهم الأجرَ العظيم والثوابَ الجزيل على عبادتهم وطاعتهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٠٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ اهْتَدَوْا ﴾ أي: للإيمان، زادهم اللهُ هُدى . وقِيل : زادهم النبيُّ ﷺ هُدى . وقِيل : ما يَستمعونه مِن القُرآن هُدى ، أي: يَتضاعف يقينُهم . وقال الفَرَّاء : زادهم المُنافقين واستهزاؤهم هُدى. وقِيل : زادهم نزولُ النَّاسِخ هُدى . وفي الهُدى الذي زادهم أربعة أقاويل ، أحدها : زادهم عِلْمًا، قاله الربيع بن أنس. الثاني : أنهم عَلِمُوا ما سَمِعُوا ، وعَمِلُوا بما عَلِمُوا ، قاله الضَّحاك . الثالث : زادهم بصيرةً في دِينهم وتصديقًا لِنَبِيِّهم ، قاله الكلبي. الرابع: شَرَحَ صُدورَهم بما هُم عَلَيه مِن الإيمان ﴿ وآتَاهُم تَقْوَاهُم ﴾ أي : ألهمهم إيَّاها . وقِيل : فيه خمسة أوجه ، أحدها : آتاهم الخَشية ، قاله الربيع. الثاني : ثواب تَقْوَاهُم في الآخِرة ، قاله السُّدي . الثالث : وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم، قاله مقاتل. الرابع : بيَّن لهم ما يتَّقون ، قاله ابن زياد والسُّدي أيضًا . الخامس : أنه تَرْك المَنسوخ والعمل بالناسِخ ، قاله عطية الماوردي . ويُحتمل سادسًا : أنه تَرْك الرُّخَص ، والأخذ بالعزائم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ [البَلَد : ١٠] .

بيَّن اللهُ للإنسان طريقَ الخَير (الهُدى) وطريقَ الشَّر (الضلال)، المُفْضِيَيْن إلى الجَنَّة والنار، بما أنزلَ مِن الآيات، وأرسلَ مِن الرُّسُل ، لِيَسْلُك طريقَ السعادة ، ويتجنَّب طريقَ الشقاء .

والنَّجْدَان الطريقان العاليان المُرتفعان . وقد استُعِيرا لبيان طريقَي الخير والشَّر بشكل واضح وظاهر أمام الجميع، لا لَبْسَ فيه، ولا غُموض.وهذا يعني إقامة الحُجَّة على الناس، وقَطْع أعذارهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها سبيل الخَير والشَّر ، قاله علي والحسن والفَرَّاء ، وقال ابن قُتَيبة : يُريد طريق الخَير والشَّر . وقال الزَّجاج : النَّجْدان الطريقان الواضحان ، والنَّجْد المُرْتَفَع مِن الأرض . فالمعنى : ألم نُعرِّفه طريقَ الخير والشر كَتَبَيُّن الطريقَيْن العاليَيْن . والثاني سبيل الهُدى والضَّلال ، قاله ابن عباس ، وقال مُجاهد : هو سبيل الشَّقاوة والسَّعادة . ... _ إلخ _)) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عنه:_ ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ ، قال:((الخَير والشَّر)) [19].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى ﴾[الليل : ١٢] .

على اللهِ بيانُ الحق مِن الباطل ، وتوضيحُ الهُدى مِن الضَّلال ، وإظهارُ الحلال والحرام والطاعة والمعصية بشكل واضح ، لا لَبْسَ ولا غُموض . واللهُ يَهْدي إلى الحق بإظهار الأدلة والحُجَج والبراهين ، وإبراز الشرائع والتعاليم والأحكام . وهو سُبحانَه يُرْشِد إلى الإيمان بمُقْتَضَى قَضائه المُحْكَم، وحِكْمته البالغة، وعِلْمه السابق . والجديرُ بالذِّكر أنَّ مَن سَلَكَ طَريقَ الهُدى ، وَصَلَ إلى الله تعالى . وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خَيْرًا ، هَداه إلى طريق الحق المُوصِل إلى الله تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٧٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى ﴾ أي : إنَّ عَلَيْنا أن نُبيِّن طريقَ الهُدى مِن طريق الضَّلالة. فالهُدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزَّجاج. أي على الله البيانُ ، بيانُ حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، قاله قَتادة. وقال الفَرَّاء: مَن سَلَكَ الهُدى، فعلى الله سَبيله ... وقِيل : معناه : إنَّ عَلَيْنا للهُدى والإضلال ، فَتَرَكَ الإضلالَ ... . وقِيل : أي إن عَلَيْنا ثواب هُداه الذي هَدَيْناه)) .

٩_ مِثال الإيمان

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [التَّحريم : ١١] .

هذا مَثَلٌ إلهيٌّ جليل يُبيِّن عدم تضرُّر المؤمن الصادق الثابت على الحق مِن قريبه الكافر ، مهما بَلغت درجة القرابة . فقد كانت آسِيَة بنت مُزَاحِم زوجةً لِفِرْعَوْن أكبر أعداء الله ، الكافر الخالد في جهنَّم ، وهي مؤمنة في أعلى درجات الجَنَّة .

وآسِيَة بنت مُزَاحِم (امرأة فِرْعَوْن) كانت مُؤمنةً بالنبيِّ مُوسى ﷺ ورسالته ، ولم يُؤثِّر عليها كَوْنها زوجةً لِفِرْعَوْن اللعين، لأن الإيمان قد تجذَّرَ في قلبها ، ودِينها راسخ ، وطهارتها مُتماسكة ، وصِلَتها بالله وثيقة ، فهي تَعبده وَحْدَه ، بلا شريك ، وَتَدْعوه ، وتتوجَّه إلَيه ، بإخلاص ويقين ثابتَيْن.

وحِين عَرَفَ فِرْعَوْن بإيمانها ،أمرَ بقتلها، فأنقذها اللهُ، ونجَّاها مِن شَر فِرْعَوْن(زَوْجها الكافر)، ولم تَضُرَّها قرابتها مِنه ، واتِّصالها به ، وهو زعيم الكافرين ، الذي ادَّعى الأُلوهيةَ .

١٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٠) برقم (٣٩٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا المِثَالُ الإيماني الباهر يُعتبر قُدوةً عُظمى ليس للنساء فَحَسْب ، بل أيضًا للرِّجال . فهذه المرأة عانت مِن كُفر زوجها وظُلْمه ، لكنها بَقِيَتْ قوية ، ومُتماسكةً ، وثابتةً على الحق ، وراسخة الإيمان رغم ضَعف الأُنثى ، وبُنيتها العاطفية الرقيقة .

وعلاقةُ امرأة فِرْعَوْن المتينةُ معَ اللهِ تعالى ، جَعَلَتْ مِنها قُرآنًا مُقَدَّسًا يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأُنموذجًا طاهرًا شريفًا خالد الذِّكْر ، وقُدوةً تُحْتَذَى في كُل زمان ومكان إلى الأبد . إنها مِثَال لِشَحْذ الهِمَم ، وحَث النُّفوس على الصبر في طريق الإيمان ، والثباتِ على الحق ، مهما كانت المُعاناة والأزمات والتهديد والترهيب والعذاب والعِقاب .

وفي هذا المَثَل الإلهيِّ العظيم دُروس جليلةٌ مِنها : إن مُخالَطة الكافرين لا تَضُرُّ إذا وُجدت ضرورة لذلك . وإن اللهَ تعالى لا يُؤاخِذ شَخْصًا بذَنْب شخص آخَر ، مهما كان قريبًا مِنه . فامرأةُ فِرْعَوْن كانت زَوجةً لإمام الكافرين ، فلم تتأثر ، لأنها كانت مؤمنة مُتمسِّكة بعلاقتها مع الله تعالى . واللهُ حَكَمٌ مُنْصِف وحاكم عادل ، لا يُؤَاخِذ أحَدًا إلا بِذَنْبه . ومعصيةُ الآخرين لا تضرُّ الطائعَ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٢) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للذين صدَّقوا اللهَ ووحَّدوه ، امرأةَ فِرْعَوْن التي آمنت بالله ، ووحَّدته ، وصدَّقت رسوله مُوسى ، وهي تحت عدو من أعداء الله كافر ، فلم يَضُرَّها كُفْرُ زوجها ، إذْ كانت مؤمنة بالله ، وكان مِن قَضاء الله في خَلْقه أن لا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أُخرى ، وأن لكل نَفْس ما كَسَبَتْ)) .

إن الآية مَثَل لحال المؤمنين ، فقد يَخرجون أحيانًا مِن باطن الكُفر والضلال ، ولا يَضُرُّهم إذا كان لديهم أقارب من الكفار ، وأرحام مِن الضَّالين . وهذا الأمرُ لا يُؤَثِّر فيهم ، ولا يُنقِص من أجرهم وثوابهم ، ولا يَقطع علاقتهم مع الله تعالى ، فهم مُتمسِّكون بالإيمان ، ثابتون على الحق . وقد ضَرَبَ اللهُ هذا المَثَلَ العظيم بامرأة فِرْعَوْن _ رضي اللهُ عنها _ ، فصارت قُدْوَةً للناس جميعًا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٨) : ((أي: جَعَلَ اللهُ حَالَ امرأة فِرْعَوْن مَثَلًا لحال المؤمنين ، ترغيبًا لهم في الثبات على الطاعة، والتَّمَسُّك بالدِّين ، والصَّبر في الشِّدة ، وأن صَوْلة الكُفر لا تَضُرُّهم كما لم تَضُرَّ امرأةَ فِرْعَوْن ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين ، وصارت بإيمانها بالله في جَنَّات النَّعيم)) اهـ . ﴿ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ . حِينَ دَعَتْ امرأةُ فِرْعَوْن قائلةً: يا رَب، اجعل لي قصرًا بجوار رحمتك في الجَنَّة. وقد اختارت الجارَ قبل الدار . وهذا يدل على إخلاصها لله ، فهي تَطمع في جِوَار الله قبل القُصور . وهذا يدل على إيمانها ويقينها وتصديقها بالبَعْث . وقد استجابَ اللهُ لها ، فبنى لها قصرًا في الجَنَّة .

إنَّ دُعاء امرأة فِرْعَوْن ــ رضي اللهُ عنها ــ : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ يَدُلُّ على كَمال عَقْلها ، وقُوَّةِ إيمانها ، لأنها قدَّمت ذِكْرَ الله على البَيت ، فَلَم تقل : ابْنِ لي بيتًا في الجَنَّة عِندَك ، وإنما قالت : ﴿ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ ، أي بِجِوَار رحمتك، أو في أعلى درجات المُقَرَّبين في الجَنَّة ، فاللهُ مُنَزَّهٌ عن المكان ، لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياءُ فيه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٧٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، واسمها آسِيَة بنت مُزَاحِم ... . وقِيل: هذا حَث للمؤمنين على الصَّبْر في الشِّدة، أي : لا تكونوا في الصَّبْر عِند الشِّدة أضعف مِن امرأة فِرْعَوْن ، حِين صَبَرَتْ على أذى فِرْعَوْن ، وكانت آسِيَة آمنتْ بمُوسى ، وقِيل : هي عمَّة مُوسى، آمنت به. قال أبو العالية : اطَّلَعَ فِرْعَوْنُ على إيمان امرأته ، فخرج على الملأ ، فقال لهم : ما تَعْلَمون مِن آسِيَة بنت مُزَاحِم ؟ ، فأثنَوْا عليها ، فقال لهم : إنها تَعبد ربًّا غَيْري ، فقالوا له : اقتلها . فأوتدَ لها أوتادًا، وشَدَّ يَدَيْها ورِجْلَيْها، فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ ، ووافقَ ذلك حُضور فِرْعَوْن، فَضَحِكَتْ حين رأت بَيْتَها في الجَنَّة ، فقال فِرْعَوْن : ألا تَعْجَبُون مِن جُنونها !، إنَّا نُعذِّبها وهي تضحك ، فقبض روحها)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٨) : ((ومِن فَضائل آسِيَة امرأة فِرْعَوْن أنها اختارت القَتْل على المُلْك ، والعذاب في الدُّنيا على النعيم الذي كانت فيه . وكانت فِراستها في مُوسى ــ عليه السلام ــ صادقة ، حين قالت :﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ﴾ [القَصَص : ٩])) .

﴿ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ . وأنقذني مِن كُفر فِرْعَوْن ، وضَلاله ، وعمله السَّيئ ، فإنِّي أبرأ إلَيْكَ مِن عمله ، ﴿ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . وأنقذني من الأقباط (أهل مِصْر) أتباع فِرْعَوْن الكافرين ، وعذابهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣١٦) : ((﴿ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أن عَمَله جِمَاعه ، والثاني أنه دِينه ، رُوِيَا عن ابن عباس. ﴿ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، يعني أهلَ دِينه المُشركين)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللهُ عنه ــ : أن فِرْعَوْن أوْتَدَ لامرأته أربعة أوتاد في يَدَيْها ورِجْلَيْها ، فكان إذا تفرَّقوا عنها ، ظَلَّلَتْهَا الملائكةُ ، فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، فكُشِفَ لها عن بيتها في الجَنَّة [٢٠].

---

٢٠ رواه أبو يعلى (١١/ ٣١٦) برقم (٦٤٣١).وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٠) : ((ورجاله رجال الصحيح)).وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٨/ ٢٢٩): أخرجه أبو يعلى والبَيهقي بسند صحيح.

هذا يُشير إلى شِدَّة العذاب الذي لَقِيَتْهُ امرأةُ فِرْعَوْن _ رضي اللهُ عنه _ ، وقُوَّةِ تحمُّلها ، وصَبْرها على الألم في سبيل الله ، الذي أكرمها بأن جَعل الملائكة تُظلِّلها كَرامةً لها ، مِمَّا يدل على وُصولها إلى رُتبة إيمانية سامية ، نالتها بفِعل ثباتها على طاعة الله في أصعب الظروف ، وأشد الأزمات النَّفْسية والجسدية . وقد صارت مَضْرِبَ المَثَل في الصَّبر على الطاعة ، والثبات على العقيدة ، فأضحت _ بذلك _ قُدْوَةً للرجال والنِّساء على السَّواء . وقد أكرمها اللهُ بأن جَعلها قُرْآنًا يُتلَى آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، وخلَّد ذِكْرَهَا الطَّيب إلى الأبد . وصَدَقَ القائل :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِي   لَفُضِّلَت النِّسَاءُ على الرِّجَالِ

وقد وردت بعض الأوصاف لطريقة تعذيبها ، وصَبْرها على العذاب ، وقُوَّة تحمُّلها ، وثباتها على الحق . فعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((وتَّد فِرْعَوْنُ لامرأته أربعة أوتاد ، ثُمَّ جَعَلَ على ظَهْرِها رَحًى عَظِيمًا حتى ماتت)) [٢١].

وعن سَلْمان _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((كانت امرأةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بالشَّمْس)) [٢٢].

إن دُعاء السَّيدة آسِيَة بنت مُزَاحِم بأن يُنَجِّيَها اللهُ مِن فِرْعَوْن وعَمَله وقَوْمه الظالمين ، يدل على رفضها للكافرين وأعمالهم السَّيئة بكل أشكالها ، وهذا يَعكس حِرْصها على الإيمان ، والتَّمَسُّك بالحق، والتزامها بالهُدى ، حتى اللحظة الأخيرة، بدُون تردُّد ولا قلق ولا حَيْرة ولا شَك.

وقد قال النبيُّ ﷺ : ((إنَّ أفضلَ نِسَاءِ أهل الجَنَّة: خَدِيجة بنت خُوَيلد ، وفاطمة بنت مُحمَّد، ومريم بنت عِمران ، وآسِيَة بنت مُزَاحِم امرأة فِرْعَوْن ، مَعَ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنا مِن خَبَرها في القُرآن، ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظالمين﴾))[٢٣]. وذِكْرُ هؤلاء النِّساء على هذا النَّحْو لا يَعني ترتيبهن حَسَب الأفضلية والمنزلة في الجنة، لأن حرف"الواو" لا يُفيد التَّرتيب. والحديثُ يدل على عَظَمَة هؤلاء النِّساء ، وقُوَّة إيمانهن، وكثرة عبادتهم وطاعتهن لله، وعلاقتهن المتينة به، ولا شَك أنهنَّ سيِّدات النِّساء في الدُّنيا والآخِرة.

---

٢١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٨) برقم (٣٩٢٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٨) برقم (٣٨٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٩) برقم (٣٨٣٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهؤلاء النِّساءُ العظيمات لم يَصِلْنَ إلى هذه المَكانة السَّامية ، والمَنْزِلة الرفيعة ، إلا بالإيمان بالله تعالى ، وإخلاص العبادة له ، والصَّبر على الشدائد ، والثبات على الحق ، والتَّحَلِّي بالأخلاق الفاضلة . وَهُنَّ بذلك يُقَدِّمْنَ المَثَلَ الأعلى والقُدْوَةَ الحسنة للنِّساء في كُل زمان ومكان . والمرأةُ الحريصة على رضا الله تعالى، تقتفي آثارهنَّ ، وتَتَشَبَّه بِهِنَّ ، بَدَلًا مِن التَّشَبُّه بالمُمثِّلات والمُطربات في الشرق والغرب .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٣) : ((هؤلاء الأربعة أفضل حتَّى مِن الحُور العِين ، ولو قال: النِّساء، لَتُوُهِّمَ أن المُراد نساء الدنيا فقط (خديجة بنت خُوَيلد) تصغير خالد (وفاطمة بنت مُحمَّد ﷺ). قال الشارح العلقمي : هِيَ وأخُوها إبراهيم أفضل مِن جميع الصَّحْب لِمَا فِيهما مِن البَضْعَة الشريفة، أي: وإن كان الخُلفاء الأربعة أفضل مِن حَيث جُموع العُلوم وكثرة المعارف، ونُصرة الدِّين ، (ومَرْيَم بنت عِمران) الصِّدِّيقة بنَص القُرآن، (وآسِيَة بنت مُزَاحِم امرأة فِرْعَوْن). والثانية والثالثة أفضل مِن الأُولَى والرابعة . والأُولَى أفضل مِن الأخيرة. وفي الثانية والثالثة خِلاف مَشهور، فرجَّح البعضُ تفضيل فاطمة لِمَا فِيها مِن البَضْعَة الشريفة، وبعضُهم مَرْيَم لِمَا قِيل بنُبُوَّتها، ولأنه تعالى ذَكَرَها معَ الأنبياء في القُرآن. قال القرطبي: ظاهر القرآن والأحاديث يَقتضي أن مَرْيَم أفضل مِن جميع نِساء العَالَم مِن حَوَّاء إلى آخر امرأة عليها ... . قال ابن حجر في الفتح : هذا نص صريح في تفضيل خديجة على عائشة ، لا يحتمل التأويل . " تنبيه" سُئِل السُّبكي: هل قال أحد إن أحَدًا مِن نِساء النبيِّ ﷺ غَير خَديجة وعَائشة أفضل مِن فاطمة، فقال: قال به مَن لا يُعْتَدُّ بقَوله، وهو ابن حَزْم ، فضَّل نِسَاءه على جميع الصحابة، لأنهنَّ في درجته في الجَنَّة . قال : وهو قول ساقط مردود ، قال : ونساؤه بعد خَديجة وعَائشة ، مُتساويات في الفَضْل)) .

وهناك مِثَالٌ إيمانيٌّ باهر يَتجاوز مِثَالَ السَّيدة آسِيَة بنت مُزَاحِم ــ رضي اللهُ عنها ــ ، وهو السَّيدة مَرْيم بنت عِمران الصِّدِّيقة ــ رضي اللهُ عنها ــ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وكُتُبِهِ وكانتْ مِنَ القانتين ﴾[التَّحريم : ١٢] .

إن هذا الكلام الإلهيَّ المُقدَّس مَديحٌ عظيم للسيدة مريم ــ رضي اللهُ عنها ــ ، حيث أثبتَ القُرآنُ طهارتها وإحصانها لفَرْجها ، أي إنها حَفِظَتْهُ مِن الشُّبهات والشُّكوك والفُجور ، وحافظت على وَرَعها وطهارتها وشرفها وأخلاقها وأُنوثتها. لا كما زعم اليهود بأنها زانية ، وأن المسيح ابن زنا. فهي الصِّدِّيقةُ الشريفةُ الطاهرةُ النَّقِيَّةُ ، المُنَزَّهَة عن الشَّك والشُّبهة والرِّيبة والعَيْب والإثم .

وقد اختارها اللهُ وأكرمها بأن جَعلها تَحْبَل بالنبيِّ عِيسى المسيح ﷺ مِن غَيْر زَوْج ، وذلك عن طريق المَلَك جِبريل _ عليه السلام _ ، الذي نَفَخَ في فَتحة جَيْبها فَحَبِلَتْ .

ومريم مَعطوف على امرأة فِرْعَوْن . والمعنى : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للذين آمنوا ، مَرْيَمَ ابنةَ عِمران، فهي مَثَلٌ آخَر في الإيمان ، ومِثَال عظيم ، وقُدوة سامية ، حَفِظَتْ فَرْجَها مِن الفواحش ، وصانته مِن كُل سُوء ، فهي شريفة طاهرة عفيفة . والإحصانُ هو العَفَاف والحُرِّية . وقد أرسلَ اللهُ جِبريلَ إلى مَرْيَم ، وتَمَثَّلَ لها في صُورة بَشَر ، وأمَرَه اللهُ أن يَنفُخ في جَيْبِ دِرْعِها ، فنزلت النَّفخة ، فدخلت في فَرْجِها ، فَحَبِلَتْ بالمسيح عِيسى بن مَرْيَم ﷺ . وقد صَبَرَتْ على أذى اليهود ، الذين اتَّهموها بالزِّنا ، وتمسَّكت بعبادة الله وَحْدَه ، والتزمت أوامره ، واجتنبت نَوَاهيه، بكل يقين وثبات.

والمقصودُ بالفَرْج في هذا السِّياق ، هو الجَيْب (فَتحة الثَّوْب في منطقة الصَّدْر) ، لأن اللهَ قال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ ، وجبريل _ عليه السلام_ نَفَخَ في جَيْبِها، ولم يَنفُخ في فَرْجِها. وكُلُّ فتحة في الثَّوب تُسمَّى جَيْبًا أو فَرْجًا . نَفَخَ جِبريلُ ، وهو الرُّوح، في جَيْب دِرْعِها، وآمَنَتْ مَرْيَمُ بعِيسى، وهو كَلِمَة الله، والتَّوراةِ، والإنجيلِ، وكانت مِنَ القوم المُطيعين ، الخاضعين لله ، العابدين له بإخلاص ويقين . وهذا مَدْحٌ إلهيٌّ عظيم، وثناء عليها بكثرة العبادة والطاعة والخُشوع .

وقد شَهِدَ اللهُ بأن مَرْيَم صِدِّيقة في قَوله : ﴿ وصدَّقتْ بكلمات ربِّها وكتبه ﴾ ، أي آمَنَتْ بقَدَر الله وشَرْعِه وكُتبه السماوية . وفي هذا إشارة واضحة إلى عِلْم السَّيدة مريم بالكُتب السماوية ، وقراءتها لهذه الكُتب. فلا يُعقَل أن تُؤمِن بشيء تَجْهله . وهذا غَير مُستغرَب ، فهي العَالِمَة العابدة التَّقِيَّة الطاهرة التي اختارها اللهُ ، وفضَّلها على نِساء العَالَمِين . وهي القانتة العابدة لخالقها ، والمُطيعة له ، والمُلتزِمة بأوامره ، والمُجْتَنِبَة لِنَوَاهيه. والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ لَم يقل : مِن القانتات، بل قال : ﴿ مِنَ القانتين ﴾ لتغليب الذُّكور على الإناث ، ولتوضيح أن طاعة مريم ، وهي امرأة ، ليست أقلَّ مِن طاعة الرجال الكاملين (أولياء الله الصالحين) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٨) : ((﴿ وَمَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ مَعطوف على ﴿ امرأةَ فِرْعَوْنَ ﴾ . أي : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للذين آمَنُوا مَرْيَمَ ابنةَ عِمران ، أي : حالها وصِفتها . وقِيل : إن النَّاصِب لمريم فِعل مُقدَّر ، أي : واذكُر مَرْيَمَ ، والمقصود مِن ذِكْرها أن الله سُبحانَه جَمَعَ لها بين كرامة الدُّنيا والآخِرة ، واصطفاها على نِساء العَالَمِين ، مَعَ كَوْنها بين قَوم كافرين ، ﴿ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، أي : عن الفواحش . قال المُفسِّرون : المُراد بالفَرْج هُنا الجَيْب لِقَوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ ، وذلك أن جِبريل نَفَخَ في جَيْب دِرْعها ، فَحَبِلَتْ

بعيسى ، ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ يعني : شرائعه التي شَرَعَها لعباده ... وقال مُقاتل : يعني بالكلمات عيسى ... ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ ... وهي الكُتب المُنْزَلَة على الأنبياء ، ﴿ وكانتْ مِنَ القانتين ﴾ . قال قَتادة : مِن القَوم المُطيعين لِرَبِّهم . وقال عطاء : مِن المُصَلِّين ، كانت تُصَلِّي بين المغرب والعِشاء ، ويجوز أن يُراد بالقانتين رَهْطها وعشيرتها ، الذين كانت منهم، وكانوا مُطيعين، أهل بيت صلاح وطاعة. وقال: ﴿ مِنَ القانتين ﴾ ولم يَقُل: مِن القانتات، لتغليب الذكور على الإناث)) .

إنَّ الله قد كَرَّمَ المَرأةَ كامرأة ، وذَكَرَ امرأتين عابدتَيْن (امرأة فِرْعَوْن ومَرْيَم) ، وجَعَلَهما مَثَلًا خَالِدًا للتَّمَسُّك بالإيمان ، والصَّبر على الأزمات والشَّدائد ، والثبات على طريق الحق والهُدى .

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ _ رضي اللهُ عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال : ((كَمَلَ مِنَ الرِّجال كثير ، ولم يَكْمُلْ مِن النِّساءِ إلا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمران ، وآسِيَةُ امرأةُ فِرْعَوْن)) [٢٤].

أثبتَ النبيُّ ﷺ الكَمَالَ لمريم وآسِيَة _ رضي اللهُ عنهما _ ، وهذا يعني وُصولهما إلى رُتبة الوَلاية العُظمى ، ومنزلة الصِّدِّيقية الرفيعة ، وقِمَّة الإيمان والشرف والطهارة والأخلاق الحميدة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٨ و١٩٩) : ((قال القاضي : هذا الحَديث يَستدل به مَن يَقول بنُبُوَّة النِّساء ونُبُوَّة آسِيَة ومَرْيَم ، والجمهورُ على أنهما لَيْسَتا نَبِيَّتَيْن ، بل هُما صِدِّيقتان ووَلِيَّتان مِن أولياء الله تعالى . ولفظةُ الكَمَال تُطْلَق على تَمَام الشَّيء ، وتَنَاهيه في بابه . والمُراد هُنا التَّناهي في جميع الفضائل ، وخِصال البِر والتَّقوى . قال القاضي : فإن قُلْنا : هما نَبِيَّتان ، فلا شَك أن غَيرهما لا يَلحق بهما ، وإن قُلنا : وَلِيَّتان ، لم يَمتنع أن يُشاركهما مِن هذه الأُمَّة غَيرهما . هذا كلام القاضي ، وهذا الذي نقله مِن القَول بنُبُوَّتهما غريب ضعيف . وقد نقل جماعة الإجماع على عدمها ، والله أعلم)) .

١٠_ اليقين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾[البقرة : ١١٨] .

أظهرَ اللهُ الحقَّ ، ووضَّح الأدلةَ على صِدْقِ الرُّسُل ، وأقامَ على الناسِ الحُجَّةَ ، وقَطَعَ أعذارَهم ، ولا مَعنى لطلب أسئلةٍ أُخرى ، لأنَّ الأمورَ قَد تَمَّت، وانتهى الأمرُ. ولا عُذر للكافرين في كُفرهم لأنَّ الحقَّ ظاهرٌ أمامَهم ، أمَّا العِنادُ فَيَحجب نُورَ الإيمان .

---

٢٤ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٠٦٧) برقم (٥١٠٢) ، ومسلم (٤/ ١٨٨٦) برقم (٢٤٣١).

والآياتُ ظاهرةٌ للحريصين على اتِّباع الحقِّ ، ولا يَتَّبعون أهواءهم الذاتية ، ولا يَركضون وراء مصالحهم الدُّنيوية الشخصية . هؤلاء الذينَ يُوقِنون بآياتِ اللهِ ، ويُصدِّقون كلامَه ، ويَنتفعون بأحكامه. وقلوبُ المؤمنين عامرةٌ باليقين ، يَعلمون حقيقةَ آياتِ اللهِ فَيُؤمنون بِها ، ويَخضعون لها ، ولا يَطلبون آياتٍ أُخرى ، لأنَّ هذا تَعَنُّت وعِناد وإضاعة للوقت .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ١٠٣) : ((وقَوْله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ قرينة تقتضي أنَّ اليقين صِفة لِعِلْمِهم ، وقرينة أخرى أنَّ الكلام مَدْحٌ لهم)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٢٨): ((مَن أيقنَ وَطَلَبَ الحقَّ ، فقد أَتَتْهُ الآياتُ ، لأنَّ القُرآنَ بُرهان شافٍ)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٢) : ((﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ أي : يطلبون اليقين ، أو يُوقِنون الحقائقَ ، لا يَعتريهم شُبهة ولا عِناد. وفيه إشارة إلى أنهم _ أي الكفار _ ، ما قالوا ذلك لِخَفاء في الآيات ، أو لطلب مزيد اليقين ، وإنما قالوه عُتُوًّا وعِنادًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾[المائدة : ٥٠] .

هذا استفهام إنكاري. والمعنى : لا أحد أحسن مِنَ اللهِ حُكْمًا عِندَ أهل اليقين والإيمان لا أهل الشَّك والجهل . وحُكْمُ اللهِ هو قِمَّة العَدْل ، وبيانُه ذِرْوَةُ الصِّدق ، وشريعته في غاية الإحكام .

والمُوقِنُون باللهِ وقُرآنِه يَعْلَمُون عَدْلَ اللهِ في أحكامه، لذلك خَصَّهم اللهُ بالذِّكر، لأنهم القادرون على تمييز الحق من الباطل ، وبالتالي هُم _ وَحْدَهم _ المُنتفعون بكلامِ اللهِ ، والقادرون على رؤية حِكمة اللهِ في الشرائعِ ببصائرهم . أمَّا الجُهَّالُ أصحابُ الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية والمنافع المادية، فلا يَقْدِرُون على إدراكِ حِكمة اللهِ وعَدْلِه ، لأنهم عُميان أصحاب قلوب نجسة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((أي:ومَن أعدلُ مِن الله في حُكمه لِمَن عَقَلَ عن الله شَرْعَه، وآمنَ به وأيقنَ ، وعَلِمَ أن اللهَ أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ بِخَلْقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العَالِم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُم تُوقِنُون ﴾ [الرَّعْد : ٢] .

يَقضي اللهُ أمورَ الدنيا والآخِرة وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا مُساعِد ، ويُصرِّف شُؤونَ الخلائق وأمورَ الملَكُوت بِحكمته وقُدرته وَفْقَ ما يُريد . وعَبَّرَ بالتدبير تقريبًا للأفهام . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٦): ((﴿ يُدبِّر الأمرَ ﴾ أمرَ مَلَكُوته مِن الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة ، وغَير ذلك)) اهـ . ﴿ يُفصِّل الآياتِ ﴾ . يُبيِّن اللهُ الآياتِ لإقامة الحُجَّة عليكم أيها الناس، ويُوضِّح الدَّلالات التي تُشير إلى وُجوده ، ووَحدانيته ، وقُدرته المُطْلَقة . ومَن يَقْدِر على هذه الأشياء ،

يَقْدِر على بَعْثكم بعد الموت ، وإعادةِ الخلق كما بَدَأه . لقد نَصَبَ اللهُ أمام الناس الدلائلَ التي تدل على التَّوحيد والبعث ، للإيمانِ والاعتبار وإخلاص العبادة لله تعالى . ﴿ لعلكم بلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنون ﴾. لعلكم عِند مُشاهَدة هذه الآيات العظيمة والدلائل الواضحة، والبراهين الجَلِيَّة، تُصدِّقون بلقاء الله وكمالِ قُدرته ، ولا تَشُكُّون في ذلك، ولا ترتابون في صِدْقه . وبالتالي ، تَعْلَمون أنَّ القادر على خَلْق هذه الأشياء والسَّيطرة عليها والتحكم بها ، وتَدبيرها بلا شريك ولا مُساعِد ، قادر على البعث والجزاء ، أي : إعادة الناس بعد مَوتهم ومُحاسبتهم . وبعبارة أخرى ، لعلكم تُوقِنون بأن هذا الخالق العظيم مُدبِّر الأمر ، مُفصِّل الآيات ، لا بُدَّ أن تَرجعوا إلَيه ، ولا فُرصة للهرب .

إنَّ اللهَ أنزلَ الكتبَ ، وأرسلَ الأنبياءَ ، كي يُصدِّق الناسُ بِوَعده ووعيده ، ويُؤمنوا بِلقائه ، ولَم يُنْزِل الكُتُبَ عَبَثًا ولا لَعِبًا ، ولَم يُرسِل الأنبياءَ مَضيعةً للوقت،أو لإقامة علاقات صداقة مع الناس . وينبغي معرفة الغاية مِن أقوال الله وأفعاله ، لأن أقواله وأفعاله حكيمة مُنَزَّهة عن العبث .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٢٧) : ((﴿ يُفصِّل الآياتِ ﴾ يَقول : يُفصِّل لكم رَبُّكم آياتِ كتابه ، فَيُبَيِّنها لكم احتجاجًا بِها عليكم أيها الناس ﴿ لعلكم بلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنون ﴾ . يقول : لِتُوقنوا بلقاء الله ، والمَعاد إليه ، فَتُصدِّقوا بوعده ووعيده ، وتَنْزَجِروا عن عبادة الآلهة والأوثان ، وتُخْلِصُوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[الحِجْر : ٩٩] .

واعْبُدْ رَبَّكَ يا مُحمَّد حتى يَأتِيَكَ المَوت ، لأنه مُوقِن بِه . والمعنى : اعْبُدْ رَبَّكَ يا مُحمَّد طِيلة فترة حياتك بشكل مُتواصل دُون كَسَل ، ولا مَلَل . واللهُ لَم يَقُل : " واعبُد رَبَّكَ " فقط . فَلَوْ عَبَدَه النبيُّ ﷺ مَرَّةً واحدةً في العُمر لكان كافيًا.ولكنَّ الله تعالى قال:﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقينُ ﴾، يعني: إنَّ فترةَ العبادة هي حياةُ الإنسان كُلُّها بلا انقطاع. فَدَاوِمْ يا مُحمَّد على عبادة رَبِّكَ بشكل مُتواصل ومستمر بلا انقطاع حتى المَوت .

وإسناد الإتيان إلى المَوت في قَوْله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقينُ ﴾ يُشير إلى استحالة الهروب مِن المَوْت، فهو آتٍ إلى كُلِّ حَيٍّ، ومُتَوَجِّهٌ إلَيه، وسَيَصِل إلَيه لا مَحَالة . والمَوْتُ لا يُخطِئ هَدَفَه .

وقد قالَ النبيُّ ﷺ بعد وفاة عُثمان بن مَظعون رضي اللهُ عنه: ((أمَّا هُوَ فقد جاءه اليَقينُ))[٢٥].

يعني : جاءه المَوْتُ . والمَوْتُ هو اليقين ، الذي لا شَكَّ فِيه .

٢٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٣) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((وهو في البخاري مُخْتَصَرًا)) .

والإنسانُ قَد تنهار عقيدته فَيَجحد وُجودَ اللهِ تعالى. ولكن لا يُمكنه أن يَجحد وُجودَ الموت . والمَلاحدةُ يُنكِرون وُجودَ اللهِ تعالى ، لكنَّهم يُؤمنون بالموت، ولا يُنكِرونه . وهكذا ، صارَ التصديقُ بالمَوت في نفوسهم أعظمَ مِن التصديق بوجود اللهِ تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٥٩) : ((وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رَأيتُ يقينًا أشبهَ بالشَّك مِن يَقين الناس بالمَوت ، ثُمَّ لا يَستعدون له . يعني : كأنهم فيه شَاكُّون . وقد قِيل : إنَّ اليقين هنا الحق الذي لا رَيْبَ فِيه مِن نَصْرِك على أعدائك ، قاله ابن شجرة . والأول أصَح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن ، والله أعلم)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٣٧) : ((ويُستدل بهذه الآية الكريمة ، وَهِيَ قَوْلُه: ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقينُ ﴾ على أنَّ العبادة كالصلاة ونَحْوِها واجبة على الإنسان ، ما دام عقلُه ثابتًا ، فَيُصلِّي بِحَسَب حاله)) .

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:((ما أُوحِيَ إِلَيَّ أن أجمعَ المالَ، وأكونَ من التاجرين، ولكن أُوحِيَ إِلَيَّ أن سَبِّحْ ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ السَّاجِدِين(٩٨)واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقينُ (٩٩) ﴾))[٢٦] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وهُم بالآخرةِ هُم يُوقِنُون ﴾[النَّمْل : ٣] .

إن المُؤمنين الأتقياء يُصدِّقون بالآخِرَةِ تصديقًا كاملًا جازمًا ، بلا شَك ولا تردُّد ولا ارتياب .
وقال القرطبي في تفسيره(١/ ٢٢٧): ((بالبَعْث والنَّشْر هُم عَالِمُون.واليقين: العِلْم دُون الشَّك)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقِنين ﴾[الذاريات : ٢٠] .

وفي الأرض أدلة باهرة ، وبراهين جَلِيَّة ، ودلائل واضحة ، على وجود الله ، ووَحدانيته ، وقُدرته ، وإبداعه ، للمُصدِّقين بالله ، المُوقِنين بعَظَمَته وقُدرته ، العارفين بديعَ صُنْعه وخَلْقه .

وتَمَّ تخصيص المُوقِنين بالذِّكر، لأنهم وَحْدَهم المُنتفعون بالآيات وفَهْمها ، والمُستفيدون مِنها.
وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٢٩٧):((وقَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقِنين ﴾ أي فِيها مِن الآيات الدَّالة على عَظَمَة خالقها وقُدرته الباهرة،مِمَّا قد ذَرَأ فيها مِن صُنوف النبات والحيوانات والمِهاد والجِبال والقِفار والأنهار والبِحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جُبِلُوا عليه مِن الإرادات والقُوى،وما بينهم مِن التَّفَاوُت في العقول والفُهوم والحركات والسَّعادة والشَّقاوة، وما في تركيبهم مِن الحِكَم في وَضْع كُل عُضْو مِن أعضائهم في المَحَل الذي هو مُحتاج إلَيه فيه)) .

---

٢٦ قال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٧٧) : ((رواه ابن مَرْدَوَيْه في التفسير ، من حديث ابن مسعود بسند فيه لِين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾[الواقعة : ٩٥] .

إنَّ ما أخبرَ اللهُ بِه مِن أحوال أهل الجَنَّة (السُّعداء)وأحوال أهل النار (الأشقياء) في هذه السُّورة،لَهُوَ الحق الثابت الأكيد،الذي لا شَك فِيه ولا رِيبة،وهو عَيْن اليَقين الذي لا يُمكن جَحْده.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٦٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إن هذا الذي أخبرتكم به أيُّها الناس مِن الخَبَر عَن المُقرَّبين وأصحاب اليَمين ، وعن المُكذِّبين الضَّالين ، وما إليه صائرة أمورهم ، ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ . يقول : لَهُوَ الحق مِن الخَبَر اليقين ، لا شك فيه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢٠١) : ((﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ أي : هذا الذي قَصَصْناه مَحْض اليقين وخالصه . وجاز إضافة الحق إلى اليَقين، وهُما واحد ، لاختلاف لفظهما . قال المُبَرِّد : هو كقَوْلك : عَيْن اليَقين، ومَحْض اليَقين، فهو مِن باب إضافة الشيء إلى نفْسه عند الكوفيين. وعِند البصريين حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين . وقِيل : هُوَ توكيد، وقِيل: أصل اليقين أن يكون نَعْتًا للحق، فأُضيف المَنعوت إلى النَّعْت على الاتِّساع والمَجَاز . وقال قَتادة : في هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدًا مِن الناس حتى يُوقِفَه على اليَقين مِن هذا القُرآن، فأمَّا المؤمن فأيقنَ في الدُّنيا ، فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأمَّا الكافر فأيقنَ يوم القيامة حِين لا يَنفعه اليقين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴾[التكاثُر : ٥] .

ارْتَدِعُوا ، وانْزَجِرُوا، وهذا تنبيه شديد . لَوْ عِلَمْتُم العِلْمَ الحقيقي ، الذي لا شك فيه ولا ريبة ، لَمَا ألهاكم التكاثرُ ومَتَاعُ الدُّنيا الفاني عن طاعة الله ، وما بعد المَوْت مِن أهوال وشدائد ، ولَخِفْتُم وانزجرتم، وبادرتم إلى العبادة والطاعة لإنقاذ أنفسكم من العذاب والهلاك ، واستعددتُم للآخِرة ، وما فيها مِن صُعوبات . واليقينُ أعلى مراتب العِلْم . وجوابُ ﴿ لَوْ ﴾ مَحذوف للتَّخويف والتَّهويل والتفخيم ، حتى يَذهب السامعُ بفكره وخياله إلى أبعد مدى مُمكن، وأقصى ما يَخطُر بباله . وهذا يَحمل معنى الوعيد الشديد والتهديد الأكيد . أي : لَوْ تَعْلَمُون عِلْمَ اليقين لرأيتُم ما تَشيب له الرؤوس ، وتَطير بسببه القُلوبُ ، وتَرتجف له الأبدان ، وتَفْزع له النُّفوس ، مِن الأهوال والشدائد والأحوال القاسية .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٧٩) : ((وقَوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيَكم التكاثرُ أيها الناسُ، لَوْ تَعْلَمُون أيها الناس عِلْمًا يقينًا أن الله باعثكم يوم القيامة مِن بعد مَماتكم مِن قُبوركم، وما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله رَبِّكم، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره ونَهْيه، ورفض الدنيا إشفاقًا على أنفسكم مِن عُقوبته)) .

وعن أنس رضي اللهُ عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : ((لَوْ تَعْلَمُونَ ما أعْلَمُ ، لَضَحِكْتُم قليلًا ، ولَبَكَيْتُم كثيرًا)) [٢٧]. لَوْ يَعْلَم الناسُ ما يَعْلَمه النبيُّ ﷺ مِن عَظَمَة الله ، وقُدرته ، وعذابه الشديد ، وعُقوبته الأليمة، وانتقامه مِن أصحاب الذُّنوب وأهل المعاصي ، وما يَعْلَمه مِن أهوال يوم القيامة وأحوالها القاسية، لَمَا استمتعوا بشيء في حياتهم، ولَقَضَوْا عُمرهم خائفين من الله تعالى ، ومُرتعبين من عذابه الأليم، وباكين على ذُنوبهم ، ومُتحسِّرين على معاصيهم ، ولَقَدَّموا الخوفَ على الرجاء .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٢٧) : ((" لو تَعْلَمُون ما أعلم ، لَضَحِكْتُم قليلًا، ولَبَكَيْتُم كثيرًا " ، دَلالة على اختصاصه بمعارف بصرية وقلبية . وقد يُطْلِع اللهُ عليها غَيْرَه مِن المُخْلِصين مِن أُمَّته ، لكن بطريق الإجمال ، وأمَّا تفاصيلها فاختصَّ بها النبيُّ ﷺ ، فقد جَمَعَ اللهُ له بين عِلْم اليقين وعَيْن اليقين مع الخَشية القلبية، واستحضار العَظَمَة الإلهية على وَجْه لم يجتمع لغَيره)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٢٠١): ((قَوله ﷺ : " يا أُمَّةَ مُحمَّد ، واللهِ لو تَعْلَمُون ما أعلم ، لَبَكَيْتُم كثيرًا ، ولَضَحِكْتُم قليلًا " (رواية أُخرى للحديث) معناه: لو تَعْلَمُون مِن عِظَم انتقام الله تعالى مِن أهل الجرائم وشِدَّة عقابه،وأهوال القيامة وما بعدها كما عَلِمْتُ،وتَرَوْنَ النارَ كما رَأَيْتُ في مَقَامي هذا وفي غَيره، لَبَكَيْتُم كثيرًا، وَلَقَلَّ ضَحِكُكُم لِفِكْرِكم فيما عَلِمْتُموه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ﴾[التكاثُر : ٦].

واللهِ لَتُشَاهِدُون الجحيمَ عِيانًا بأبصاركم في الآخِرة.وهذا وعيدٌ شديد،وهو جواب قَسَم محذوف . وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٥٢٤) : ((جواب قَسَم مَحذوف ، أَكَّدَ به الوعيد ، وأوضحَ به ما أنذرهم مِنه ، بعد إبهامه تفخيمًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ﴾[التكاثُر : ٧] .

ثُمَّ لَتَرَوُنَّ الجحيمَ رؤيةً حقيقية بالعَين المُجرَّدة ، وتَمَّ التَّوكيد بقَوله : ﴿ عَيْنَ اليَقِينِ ﴾ لإثبات أن الرؤية حقيقية عَيْنِيَّة، ونَفْي تَوَهُّم المَجَاز في الرؤية الأُولَى. وعِلْمُ المُشَاهَدَة أعلى مراتب اليقين.

وتَكرار الفِعْل ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ ،﴿ لَتَرَوُنَّهَا ﴾، لبيان شِدَّة الهَوْل ، وصُعوبة الموقف .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٦٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ﴾ أي : مُشَاهَدَةً . وقِيل : هو إخبار عن دَوام مُقامهم في النار ، أي : هي رؤية دائمة مُتَّصلة ، والخِطاب على هذا للكفار . وقيل : معنى ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴾ ، أي : لَوْ تَعْلَمُون اليَوْمَ في الدُّنيا

---

٢٧ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٣٧٩) برقم (٦١٢١) ، ومسلم (٤/ ١٨٣٢) برقم (٢٣٥٩).

عِلْمَ اليقين فيما أمامكم مِمَّا وَصَفْتُ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ﴾ بعُيون قلوبكم ، فإن عِلْم اليقين يُريك الجحيمَ بعَين فؤادك، وهو أن تتصوَّر لك تَارَات القيامة (أحوالها المختلفة) وقَطْع مسافاتها، ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ﴾ ، أي : عِند المُعَايَنَة بعَين الرأس ، فتراها يقينًا ، لا تغيب عَن عَينك)) .

١١_ النِّفاق

النِّفَاقُ إظهارُ عَكْس الباطن ، أو إظهار الإيمان وإخفاء الكُفر ، أو إظهار الصَّداقة وإخفاء العَداوة. لذلك فهو شديد الخطورة في المجتمع الإنساني عمومًا ، والمجتمع الإسلامي خُصُوصًا . فمِن شأنه تفتيت أوصال المجتمع ، وتدمير معنويات أبنائه، والقضاء على المُكتسبات الوطنية . وكُل هذه العوامل تقضي على تماسك الجبهة الداخلية ، وتجعل من البلاد والعباد لقمةً سائغة للأعداء . فالشَّيء لا يمكن أن يَسقط ، إلا إذا سقط مِن الداخل . وكُل مياه البحر لا تَقْدِر على إغراق السفينة ، ولكن إذا دَخلت المياهُ إلى السفينة أغرقتها .

إن المُنافق (العدو الخفي) أشد خطورة من الكافر (العدو الواضح) ، لأن العدو الخفي لا يُمكن معرفة مِن أين تأتي ضَربته وخيانته ، وعُنصر المفاجأة شديد الخطورة، خُصوصًا مع انعدام إمكانية التَّوَقُّع ، وعدم وُجود احتياطات . أمَّا العدو الواضح فمعلومٌ مكانه وإمكانياته ونقاط قُوَّته ونقاط ضَعْفه ، وبالتالي لا فُرصة للمُباغتة ، ولا مجال للمُفاجأة . ويُمكن أخذ الحَيطة والحَذر والاستعدادات ، بسبب معرفة العدو وقدراته وارتباطاته ، فيكون الوضع تحت السيطرة .

قالَ اللهُ تعالى:﴿ ألَم تَرَ إلى الذينَ يَزْعُمُونَ أنَّهُم آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ وما أُنزلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أن يَتَحَاكَمُوا إلى الطاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُروا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُم ضَلالًا بعيدًا﴾ [النِّساء : ٦٠] . هذا إنكار مِن الله على هؤلاء المُنافقين الذين يَزْعُمون الإيمانَ بما أُنزِلَ على مُحمَّد ﷺ والأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _. ومعَ هذا لم يَرْضَوْا بحُكم القُرآن والسُّنَّة النبوية، بَل يُريدون التَّحَاكُم إلى غَيرهما .

والآيةُ تَعجيب مِن حال الذين يدَّعون الإيمان ، ثُمَّ يَرفضون الحُكْمَ الإلهيَّ في القُرآن ، ويُعْرِضُون عن قضاء النبيِّ ﷺ العادل ، الذي يَهدف إلى علاج المشكلات ، وإزالة الخُصومات.

ألا تَعْجَب يا مُحمَّد مِن أمر هؤلاء المُنافقين ، الذين يدَّعون الإيمان ، ويَزْعُمون أنهم مُصدِّقون بالله ورسوله ﷺ ، ومُؤمنون بالقُرآن الذي أُنزِل عَلَيك ، والتوراةِ والإنجيل اللذين أُنزلا مِن قَبْلِك ، يُريدون أن يتحاكموا في خُصومتهم ونِزاعهم إلى الطاغوت ، وهو كَعْب بن الأشرف زعيم اليهود . وسُمِّيَ بهذا لكُفره الشديد ، وضلاله المُبين ، وإفراطه في الطُّغيان ، وشِدَّة عداوته للنبيِّ ﷺ .

وقد أُمِرُوا بالإيمان بالله وَحْدَه ، والكُفْرِ بما سِواه ، ويُرِيد الشَّيطانُ بإغرائه وإغوائه وتزيينه للمعاصي أن يُبعِدهم عن الإيمان والحق والهُدى. والاستفهامُ للتَّعَجُّب في الآية ﴿ ألَم تَرَ إلى الذينَ يَزْعُمُونَ ﴾ . أمَّا سبب نزول الآية ، فعن الشَّعبي قال : ((كان بين رَجل من اليهود ورَجل من المنافقين خُصومة ، فدعا اليهوديُّ المُنافقَ إلى النبيِّ ﷺ ، لأنه عَلِمَ أنه لا يَقْبَل الرِّشوة ، ودَعا المُنافقُ اليهوديَّ إلى حُكَّامهم ، لأنه عَلِمَ أنهم يأخذونها)) [٢٨].

إن المُنافقين ينتهجون الأساليب المُلتوية ، ولا يُحِبُّون أن يَسْلكوا الطريقَ المُستقيم ، لأنه يتعارض معَ مصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية ، لذلك يتَّبعون أهواءهم ، ويَسْلُكون كُلَّ الطُّرق المُنحرفة ، التي مِن شأنها أن تُحقِّق أطماعهم ، وتُوفِّر لهم شرعيةً مُصْطَنَعَة للحفاظ على مكاسبهم المادية ومكانتهم الاجتماعية. وهُم يتحرَّكون في المجتمع خاضعين لأهوائهم ومصالحهم الشخصية بغض النظر عن موقف الشريعة منها .

والطاغوتُ _ بشكل عام _ هُو كُل مَعبود من دون الله تعالى. والمقصود به في الآية على قَوْلَيْن: الأول_ أنه حاكم اليهود أبو بَرْزَة الأسلمي قبل أن يُسْلِم ويَصْحَب (يُصبح صحابيًّا)[٢٩].
والثاني _ أنه كعب بن الأشرف [٣٠]. وهو من أكبر زعماء اليهود وقد سُمِّيَ بالطاغوت لشِدَّة طُغيانه وعداوته للنبيِّ ﷺ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٧) : ((سُمِّيَ بذلك لِفَرْط طُغيانه ، أو لِتَشَبُّهه بالشَّيطان ، أو لأن التَّحَاكُم إليه تَحَاكُم إلى الشَّيطان مِن حيث إنه الحامل عَلَيه)) .

وقد أُمِرُوا بأن يكفروا بالطاغوت، ويؤمنوا بالله وَحْدَه ، ويتحاكموا إلى حُكم الله في القُرآن ، وقضاء النبيِّ ﷺ . لَكِنَّهم رَفضوا ذلك اتِّبَاعًا لأهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ، وساروا في طريق الشَّيطان ، الذي يُريد إضلالَهم وإغواءهم وإبعادهم عن طريق الحق ، وحَرْفهم عن منهج الهُدى ، وقيادتهم إلى عذاب النار .

وهؤلاء المُنافقون إذا دُعوا إلى القُرآن والسُّنَّة لِيَحْكُما بينهم بالحَق والعدل والخَير ، فإنهم يُعْرِضون عن النبيِّ ﷺ رافضين الاحتكام إلى الشريعة الإلهية . وهذا سقوطٌ مُريع يجعل من الإنسان كائنًا شاذًّا عن مَسار الحق ، ومُنحرفًا عن طريق الرَّشاد ، ومُتَمَرِّدًا على الشريعة الإلهية المعصومة .

---

٢٨ قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧) : رواه إسحاق بن رَاهَوَيْه في تفسيره بسند صحيح .

٢٩ قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس [المرجع السابق ، نفْس الصفحة] .

٣٠ قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح إلى مجاهد [المرجع السابق ، نفْس الصفحة] .

والإنسانُ بذلك يُلقي بنَفْسه إلى الهاوية السحيقة ، ويجب عليه أن يُدرِك أن الله هو خالق الإنسان وواضع الشريعة ، وهو سُبحانَه أعلم بالإنسان مِن نَفْسه ، وما يُصْلِحه ، وما يُفْسِده .

والمؤمنون يَحملون صفاتٍ مُعاكسة لصفات المُنافقين . إذ إن الإيمان يُوجب على الإنسان أن يَحتكم إلى القُرآنِ (حُكم الله) والسُّنَّةِ (قضاء النبيِّ ﷺ) ، وأن يَرضى بحُكمهما ، وهذه صفة عظيمة ، لا تستقر إلا في قلب المؤمن الصادق . كما أن الاعتراض على الحُكمِ الإلهيِّ والحُكْمِ النبويِّ ، ورفضهما، كارثة حقيقية تقضي على الإنسان ، وتجعل منه ظلًّا للجهل والضلال والهوى.

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٥٥) : ((يَعني بذلك جَلَّ ثناؤه : ﴿ أَلَم تَرَ ﴾ يا مُحمَّد بقلبك فَتَعْلَم ﴿ إلى الذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا ﴾ صَدَّقُوا ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ مِن الكِتاب ، وإلى الذين يَزْعُمُون أنهم آمنوا بما ﴿ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ مِن الكُتب ، ﴿ يُرِيدُونَ أن يَتَحَاكَمُوا ﴾ في خُصومتهم ﴿ إلى الطاغُوتِ ﴾ ، يعني : إلى مَن يُعظِّمونه ويَصْدُرون عن قَوله ، ويَرْضَوْن بحُكمه مِن دُون حُكم الله ، ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُروا بِهِ ﴾ ، يقول : وقد أمَرَهم اللهُ أن يُكذِّبوا بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكمون إليه ، فتركوا أمرَ الله ، واتَّبعوا أمرَ الشَّيطان ، ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُم ضَلالًا بعيدًا ﴾ ، يعني : أن الشَّيطان يُريد أن يَصُدَّ هؤلاء المُتَحَاكِمين إلى الطاغوت ، عن سبيل الحق والهُدى ، فَيُضِلَّهم عنها ضلالًا بعيدًا . يعني : فيَجُور بهم عنها جَوْرًا شديدًا. وقد ذُكِرَ أن هذه الآية نَزلت في رَجل مِن المُنافقين دعا رَجُلًا مِن اليهود في خُصومة كانت بينهما، إلى بعض الكُهَّان لِيَحْكُم بينهم ، ورسول الله ﷺ بين أظْهُرِهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٨ و١١٩ و١٢٠) : ((قَوله تعالى: ﴿ أَلَم تَرَ إلى الذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أنها نزلت في رَجل مِن المنافقين، كان بينه وبين يهودي خُصومة ، فقال اليهودي : انطَلِقْ بِنا إلى مُحمَّد ، وقال المُنافق: بَل إلى كعب بن الأشرف، فأبى اليهودي، فأتَيَا النبيَّ ﷺ ، فقضى لليهودي ، فلمَّا خَرجا ، قال المُنافق : ننطلق إلى عُمر بن الخطاب، فأقبلا إلَيه، فَقَصَّا عليه القِصَّة، فقال: " رُوَيْدًا حتى أخرج إليكما " ، فدخل البيتَ ، فاشتمل على السَّيف ، ثُمَّ خَرج فضربَ به المُنافق حتى بَرَدَ (مات) ، وقال : " هكذا أقضي بَيْنَ مَن لم يَرْضَ بقضاء الله ورسوله " ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أن أبا بردة الأسلمي كان كاهنًا يقضي بين اليهود، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثالث أن يَهوديًّا ومُنَافِقًا كانت بينهما خُصومة ، فدعا اليهوديُّ المُنافقَ إلى النبيِّ ، لأنه لا يأخذ الرِّشوة ، ودعا المُنافقُ إلى حُكَّامهم لأنهم يأخذون

الرِّشوة ، فلمَّا اختلفا اجتمعا أن يُحَكِّما كاهنًا، فنزلت هذه الآية ، هذا قول الشَّعبي . والرابع أن رَجُلًا من بني النَّضير قَتل رَجُلًا من بني قُرَيظة، فاختصموا، فقال المنافقون مِنهم : انطَلِقُوا إلى أبي بُرْدة الكاهن، فقال المُسلمون مِن الفريقين:بَل إلى النبيِّ ﷺ ، فأبى المنافقون، فانطَلَقُوا إلى الكاهن،فنزلت هذه الآية، هذا قول السُّدي . والزعم أكثر ما يُستعمَل في قَول ما لا تتحقق صِحَّته، وفي الذين يَزْعُمون أنهم آمَنوا بما أُنزِل إليه،وما أُنزِل مِن قَبْله قَولان:أحدهما أنه المُنافق، والثاني أن الذي زَعَمَ أنه آمنَ بما أُنزِل إليه المُنافق،والذي زَعَمَ أنه آمن بما أُنزِل مِن قَبْله اليهودي. والطاغوت كَعْب بن الأشرف، قاله ابن عباس ومُجاهد والضَّحاك والربيع ومُقاتل . قَوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُروا بِهِ ﴾ ، قال مُقاتل : أن يَتَبَرَّؤُوا مِن الكَهَنَةِ ، والضَّلالِ البعيد الطويل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إلى ما أَنزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النِّساء : ٦١] .

وإذا قِيل للمُنافقين : تَعَالَوْا فتحاكموا إلى القُرآنِ وإلى الرَّسول، لِيَفْصِلَ بينكم فيما اختلفتم فِيه ، ويَقْضِيَ بينكم بأحكام الشريعة الإلهية ، رَأيتَ المُنافقين بسبب نِفاقهم وضلالهم ، يُعْرِضُون عَنكَ إعراضًا ، عنادًا ، واستكبارًا ، ورفضًا للحق ، وعداوةً للدِّين . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٢٠): ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إلى ما أَنزَلَ اللهُ ﴾ . قال مُجاهد: هذه الآية والتي قَبْلها نزلتا في خُصومة اليهوديِّ والمُنافق. والهاء والميم في ﴿ لَهُم ﴾ إشارة إلى الذين يَزْعُمون، والذي ﴿ أَنزَلَ اللهُ ﴾ أحكام القرآن ، ﴿ وإلى الرَّسُولِ ﴾ أي : إلى حُكمه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَا لَكُم في المُنافقينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أركَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النِّساء: ٨٨].

هذه الآيةُ تشير إلى انقسام المؤمنين في أمر المُنافقين إلى فِرْقَتَيْن : فِرقة تُؤَيِّد قَتْلَهُم ، وفِرقة تُعَارِض قَتْلَهُم . والحال أنهم مُنافقون ، نكَّسهم اللهُ ، وردَّهم إلى الكُفر بسبب نِفاقهم ومعاصيهم.

وهذا الاختلاف عائد إلى اجتهاد المؤمنين وَفْق العِلْم الذي لَدَيْهم.والاستفهام للإنكار والتوبيخ. ويجب على المؤمنين ألا يَختلفوا في أمر المُنافقين، فقد حَكَمَ اللهُ بكُفرهم وضلالهم وهلاكهم .

والآيةُ تُشير إلى صُعوبة التعامل مع المُنافقين، لأنهم أعداء يَمتازون بالخَفَاء والاستتار والسِّرية، والتلاعب بالألفاظ، وتَنميق الكلام ، والمُتاجرة بالشِّعارات البَرَّاقة. لذلك حصل الاختلافُ حَوْلهم. ولو كانت عداوتهم ظاهرةً لَمَا خَفِيَتْ على أحد ، ولَمَا حَصل الاختلافُ بشأنهم .

حَكَمَ اللهُ على المُنافقين ، ولا رادَّ لحُكمه ، فقد نكَّسهم ، وردَّهم إلى أحكام الكُفار ، بما كَسبوا مِن الذنوب والآثام والمعاصي . ولا معنى لاختلاف المؤمنين فِيهم ، لأن الأمر واضح .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٩٤) : ((يَعني جَلَّ ثناؤه بقَوله : ﴿ فَمَا لَكُم في المُنافقينَ فِئَتَيْنِ ﴾ . فما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النِّفاق فئتين مختلفتين، ﴿ واللهُ أركَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني بذلك: والله رَدَّهم إلى أحكام أهل الشِّرْك في إباحة دمائهم وسَبْي ذَراريهم. والإركاس الرد)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٤ و١٥٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُم ﴾ خِطاب للمؤمنين ، والمعنى : أيُّ شيء لكم في الاختلاف في أمرهم ، والفِئة الفِرْقة . وفي معنى ﴿ أركَسَهُم ﴾ أربعة أقوال : أحدها رَدَّهم ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن قُتيبة : رَكَسْتُ الشَّيءَ وأركَسْتُه لُغتان ، أي : نكَّسهم وردَّهم في كُفرهم ، وهذا قول الفَرَّاء والزَّجاج . والثاني أوقعهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث أهلكهم ، قاله قَتادة . والرابع أضَلَّهم ، قاله السُّدي . فأمَّا الذي كَسبوا فهو كُفرهم وارتدادهم)) اهـ . وعن زيد بن ثابت_ رضي الله عنه_ قال: ((لَمَّا خَرج النبيُّ ﷺ إلى أُحُد،رَجَعَ ناسٌ مِن أصحابه،فقالت فِرقة:نَقتلهم،وقالت فِرقة : لا نَقتلهم. فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُم في المُنافقينَ فِئَتَيْنِ ﴾))[٣١]. مَعناه : أيُّ شيء لكم في الاختلاف في أمرهم وشأنهم . وهذا إنكار وتوبيخ للمؤمنين الذين يَحكمون وَفْق عِلْمهم الشَّخصي القاصر ، فيأتي التوجيه الإلهيُّ الكامل المَعصوم لِيُرشِد المؤمنين ، ويُصحِّح أخطاءهم ، ويَقودهم إلى الطريق المُستقيم . فاللهُ يَتَوَلَّى أمرَ عباده الصادقين، ولا يتركهم لآرائهم الشخصية. واللهُ أركسَ المُنافقين ، أي ردَّهم إلى الكُفر والضلال، جزاء أعمالهم السَّيئة ، وعُقوبة لهم على أفعالهم القبيحة. ولا يمكن هِداية مَن أضَلَّهم اللهُ تعالى ، وخَتم على قلوبهم . فهُم يستحقون ذلك بما كَسبت أيديهم،فقد ظَلموا أنفسَهم، وما ظلمهم اللهُ تعالى . ومَن أضَلَّه اللهُ، لا يَقْدِر أحد على هِدايته . ومَن طَرَدَه اللهُ ، لا يَستطيع أحد أن يُجيره ويُؤْويه . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَشِّرِ المُنافقينَ بأنَّ لَهُم عَذَابًا أليمًا ﴾ [النِّساء : ١٣٨] . أخْبِر المُنافقين يا مُحمَّد بأن لهم عذاب النار الشديد في الآخرة . وهذا تَهَكُّم بالمُنافقين ، وسُخرية مِنهم،واستهزاء بهم، لأن البِشارة إنما تكون في الأشياء الجميلة ، وليس العذاب والهلاك. وقد وُضِعت البِشارة مكان الإنذار تَهَكُّمًا ، وهذا يُؤَدِّي إلى تحطيم معنويات المُنافقين وإذلالهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٨) : ((يدل على أن الآية في المُنافقين ، وهُم قد آمنوا في الظاهر ، وكفروا في السِّر مَرَّةً بعد أخرى ، ثم ازدادوا بالإصرار على النِّفاق ، وإفساد الأمر على المؤمنين . ووضعُ ﴿ بَشِّرِ ﴾ مكان " أنذِر" تَهَكُّم بهم)) .

---

٣١ متفق عليه. البخاري (٢/ ٦٦٦) برقم (١٧٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٤٢) برقم (٢٧٧٦).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ المُنافقينَ ﴾ . زَعَمَ مُقاتل أنَّه لمَّا نزلت المغفرة في سُورة الفَتْح للنبيِّ والمؤمنين ، قال عبد الله بن أُبَي ونَفَر معه : فما لنا ؟ ، فنزلت هذه الآية . وقال غَيْرُه : كان المُنافقون يَتَوَلَّوْنَ اليهودَ ، فأُلْحِقُوا بهم في التَّبشير بالعذاب . وقال الزَّجاج : معنى الآية : اجْعَلْ مَوْضِعَ بِشارتهم العذاب . والعربُ تقول : تَحِيَّتُكَ الضَّرْب ، أي : هذا بدل لك مِن التَّحِيَّة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إِنَّ المُنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ وَلَن تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا﴾[النِّساء : ١٤٥].

إن المُنافقين (الأعداء المَخْفِيِّين) أشد خُطورةً وضررًا مِن الكافرين (الأعداء الواضحين) ، لذلك كان عذاب المنافقين أشد بكثير مِن عذاب الكافرين ، واستحقوا أن يكونوا في أسفل النار يوم القيامة ، عُقوبةً لهم على كُفرهم الشديد ، وجزاءً لهم على خِيانتهم وغَدْرهم وحَرْبهم السِّرية .

إن المُنافقين في الطبقة السُّفلى في قاع جَهَنَّم ، لأنهم جَمعوا بين الكُفر والاستهزاء بالإسلام وخِداع المسلمين . ولن تجد لهؤلاء المُنافقين ناصرًا يَنصرهم مِن عذاب الله ، ويُنقِذهم مِن عُقوبته الشديدة ، ويُخرجهم مِن النار . والجديرُ بالذِّكر أن النار دَرَكَات ، كما أن الجَنَّة دَرَجَات .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٩) : ((فالمُنافق لَمَّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين ، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل، لأنه هو الذي غرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين . ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شَرُّه أخف. ولو أخلص العملَ لله وتطابقَ قَوْلُه وعمله لأفلح ونجح)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٤٠٣) : ((والنار دَرَكَات سَبْع أي طبقات ومنازل، إلا أن استعمال العرب لكل ما تَسَافَلَ أدراك، يُقال : للبئر أدراك، وَلِمَا تَعَالَى دَرَج، فللجَنَّة دَرَج، وللنار أدراك. فالمُنافق في الدَّرْك الأسفل وهي الهاوية، لِغِلَظ كُفره وكثرة غوائله، وتَمَكُّنه من أذى المؤمنين. وأعلى الدَّرَكَات جَهَنَّم، ثُمَّ لَظَى، ثم الحُطَمَة ، ثم السَّعِير، ثم سَقَر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد يُسمَّى جميعها باسم الطبقة الأولى، أعاذنا اللهُ مِن عذابها بِمَنِّه وكَرَمه. وعن ابن مسعود في تأويل قَوله تعالى: ﴿إِنَّ المُنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ﴾ قال : " توابيت مِن حديد مُقْفَلَة في النار ، تُقْفَل عليهم ". وقال ابن عمر :" إن أشد النار عذابًا يوم القيامة ثلاثة : المُنافقون ، ومَن كَفر مِن أصحاب المائدة، وآل فِرْعَوْن، تصديق ذلك في كتاب الله تعالى . قالَ اللهُ تعالى : ﴿إِنَّ المُنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ﴾ . وقال تعالى في أصحاب المائدة : ﴿ فإِنِّي أُعذِّبه عذابًا لا أُعذِّبه أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ١١٥]. وقال في آل فِرْعَوْن : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشدَّ العذاب ﴾ [غَافِر : ٤٦])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا الذينَ تابوا وأصْلَحُوا واعْتَصَمُوا باللهِ وأخْلَصُوا دِينَهُم للهِ فأُولئكَ مَعَ المُؤمنين ﴾ [النِّساء : ١٤٦] [٣٢]. هذا استثناء يَشمل المُنافقين الذين أرادوا التَّوْبة . يجب عليهم أن ينتهوا عن نِفاقهم، ويتوبوا ، ويُصلِحوا نِيَّاتهم وأفعالهم وأقوالهم ، ويَعتصموا بالشريعة الإلهية ، ويتمسَّكوا بالقُرآن والسُّنة ، ويلتزموا بتعاليم الإسلام وأحكامه ، ويَجعلوا عبادتهم وطاعتهم طلبًا لرضا الله وَحْدَه ، ويُطهِّروا قُلوبَهم مِن كل الشوائب ، لأن النِّفاق كُفر القلب ، وإزالته لا تتم إلا بإخلاص القلب لله وَحْدَه،بلا شريك ولا نِد.وبذلك يُصبِحون في عِداد المؤمنين في الدُّنيا والآخرة.

والجديرُ بالذِّكر أن الله لَم يقل: فأولئك هُم المؤمنون ، بَل قال : ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ كَي يُشْعِرهم بعِظَم جريمتهم (النِّفاق) ، وتشديد الله عليهم ، وبيان غضبه الذي لا يُطيقه أحد .

والآيةُ تدلُّ على رحمة الله الواسعة ، وفضله العظيم ، وإحسانه إلى خَلْقه ، ومُساعدته لهم ، فقد جَعَلَ بابَ التَّوبة مفتوحًا . والمنافقُ أمامه فرصة ذهبية للتَّوبة ، والعَودة إلى الله تعالى كَي يَنْجُوَ في الدَّارَيْن . ولخطورة موضوع النِّفاق كانت التَّوبة مِنه أشد مِن التَّوبة مِن الكُفر . فالكافر يَدخل الإسلامَ بنُطق الشَّهَادَتَيْن ، أمَّا المُنافق فعليه أن يُحقِّق أربعة شروط معًا لدُخول الإسلام : التَّوبة ، والإصلاح ، والاعتصام بالله ، وإخلاص الدِّين لله .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٣٧) : ((فتأويل الآية : ﴿ إلا الذينَ تابوا ﴾ أي : راجعوا الحَقَّ ، وآبُوا إلى الإقرار بوَحدانية الله ، وتصديق رسوله ، وما جاء به من عند ربِّه ، مِن نفاقهم ، ﴿ وأصْلَحُوا ﴾ يعني : وأصْلَحُوا أعمالَهم ، فعملوا بما أمرهم اللهُ به ، وأدُّوا فرائضه ، وانتَهَوْا عمَّا نهاهم عنه ، وانزجروا عن مَعَاصيه ، ﴿ واعْتَصَمُوا باللهِ ﴾ يقول : وتَمَسَّكُوا بعَهْد الله ... . الاعتصام التَّمَسُّك والتَّعَلُّق ، فالاعتصام بالله التَّمَسُّك بعَهْده ومِيثاقه ، الذي عَهِدَ في كتابه إلى خَلْقه مِن طاعته وترك معصيته ﴿ وأخْلَصُوا دِينَهُم للهِ ﴾ يقول: وأخْلَصُوا طاعتهم وأعمالهم التي يَعْمَلونها لله ، فأرادوه بها ، ولم يَعْمَلوها رِئاءَ الناس ، ولا على شك مِنهم في دِينهم وامتراء مِنهم ، في أن الله مَحَّصَ عليهم ما عَمِلوا ، فمُجَازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسِيء بإساءته ، ولكنَّهم عَمِلُوها على يقين مِنهم في ثواب المُحسِن على إحسانه، وجَزاء المُسِيء على إساءته ، أو يتفضَّل عليه ربُّه

---

٣٢ يُستفاد من هذه الآية صِحَّة تَوبة الزِّنديق وقَبولها، على ما عليه الجمهور ، فإنها مُستثناة مِن المنافقين، مِن قَوله : ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ ﴾ . وقد استدل بذلك جماعة منهم أبو بكر الرازي في أحكام القُرآن ، والله أعلم [فتح الباري لابن حجر ، ص (٨/ ٢٦٧)] .

فيعفو ، مُتقرِّبين بها إلى الله ، مُريدين بها وجه الله ، فذلك معنى : إخلاصهم لله دِينهم ، ثم قال جَلَّ ثناؤه: ﴿ فأُولئكَ مَعَ المُؤمنين ﴾ يقول: فهؤلاء الذين وَصف صِفتهم من المنافقين بعد تَوْبتهم، وإصلاحهم ، واعتصامهم بالله ، وإخلاصهم دِينهم ، أي : مع المؤمنين في الجَنَّة ، لا معَ المُنافقين الذين ماتوا على نِفاقهم ، الذين أوعدهم الدَّرْكَ الأسفل من النار)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ والمنافقينَ واغْلُظْ عَلَيهم ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾ [التَّوبة : ٧٣] . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، وأُمَّته داخلة فيه . يا أيها النبيُّ ، جاهِد الكفارَ بالسَّيف والسِّلاح ، وجَاهِد المُنافقين باللسان وإلزام الحُجَّة وإقامة الحدود عليهم، وشَدِّدْ عليهم فيما تُجاهدهم بِه ، وكُن صَلْبًا خَشِنًا في التعامل معهم ، ولا تُجاملهم ، ولا تُداهنهم ، ولا تأخذك بهم رأفة ولا رحمة . وهذا من أجل إظهار عَظَمَة الإسلام ، ورِفعة شأنه ، وعُلُوِّ مكانته ، وعِزَّة المسلمين ومَجْدهم. ومصيرُ الكفار والمنافقين في الآخرة إلى عذاب جهنم ، وبِئس المرجع الذي يرجعون إليه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٦٩و٤٧٠): ((قَوله تعالى: ﴿ جَاهِدِ الكُفارَ والمنافقينَ ﴾ أمَّا جهاد الكفار فبالسَّيف، وفي جهاد المنافقين قَولان: أحدهما أنه باللسان، قاله ابن عباس والحسن والضَّحاك والربيع بن أنس . والثاني جهادهم بإقامة الحدود عليهم ، رُوِيَ عن الحسن وقَتادة . فإن قِيل : إذا كان رسول الله ﷺ قد أُمِرَ بجهادهم وهو يَعْلم أعيانهم ، فكيف تركهم بين أظْهُر أصحابه فلم يَقْتلهم ؟ . فالجواب أنه إنما أُمِرَ بقتال مَن أظهرَ كلمةَ الكفر، وأقام عليها ، فأمَّا مَن إذا أُطْلِعَ على كُفره أنكرَ وحَلَف، وقال إني مسلم، فإنه أُمِرَ أن يأخذه بظاهر أمره، ولا يبحث عن سِرِّه . قَوله تعالى : ﴿ واغْلُظْ عَلَيهم ﴾ . قال ابن عباس: يُريد شِدَّة الانتهار لهم والنظر بالبِغضة (شدة البُغض) والمَقْت . وفي الهاء والميم مِن ﴿ عَلَيهم ﴾ قَولان : أحدهما أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس . والثاني إلى المنافقين ، قاله مُقاتل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويُعَذِّبَ المُنافقينَ إن شَاءَ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِم ﴾[الأحزاب : ٢٤] .

ويُعذِّب اللهُ المُنافقين بسبب كُفرهم ونِفاقهم وضَلالهم ونقضهم للعَهْد الإلهيِّ ، بأن يُميتهم على النِّفاق ، فيُدخلهم النار ، حيث العذاب الشديد ، والعِقاب الأليم ، أو يَتوب عليهم مِن نِفاقهم ، فيهديَهم إلى الإيمان والحق والهدى ، ويَرحمهم . والعذابُ والرحمةُ بيد الله وَحْدَه ، ومَوْكُولان إلى مَشيئته . وكُل شيء خاضع للمشيئة الإلهية المُقدَّسة. إن شاءَ اللهُ أن يُعذِّب المُنافقين خَذَلَهم ، ولم يُوفِّقهم للتَّوبة والإيمان ، وأماتهم على نِفاقهم ، وإن شاءَ تابَ عليهم في الدُّنيا قبل المَوت ، وأخرجهم مِن النِّفاق إلى الإيمان ، وغفر لهم ، ورحمهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٢٧) : ((﴿ ويُعَذِّبَ المُنافقينَ ﴾ وهُم الناقضون لعَهْد الله، المُخَالِفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عِقابَه وعذابَه ، ولكن هُم تحت مَشيئته في الدنيا ، إن شاء استمرَّ بهم على ما فَعلوا حتى يَلْقَوْهُ ، فيُعذِّبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النُّزوع عن النِّفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفُسوق والعِصيان)) .

١٢_ الرَّيْب والشَّك

إن الشَّك إذا دخل في القلب سيُحيله إلى أنقاض ، وينقل صاحبَه من الطمأنينة إلى القلق القاتل الذي يُدمِّر الحياةَ الإنسانية ويُفقِدها معناها ، فيُصبح الفردُ مِعْوَلَ هدم في مجتمعه ، فيخسر الجميع ، وتذهب الجهود أدراج الرياح ، حيث يفقد الفردُ نَفْسَه في هاوية الألم والضياع والحَيرة ، ويخسر المجتمعُ طاقاتِ أبنائه، وهو في أمسِّ الحاجة إليها. وهذا الضياع الشامل يَقُود المجتمعَ إلى التفكك والانتحار التدريجي، بحيث يَفقد القُدرةَ على الوقوف على قَدَمَيْه ، فيحصل الانهيار .

وما أجملَ قَول الشاعر :

إذا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنونُهُ ... وَصَدَّقَ ما يَعْتَادُهُ مِن تَوَهُّمِ
وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ ... وأصبحَ في لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإن كُنتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذينَ يَقْرَؤونَ الكِتابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين ﴾[يُونُس : ٩٤] .

الخِطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمُراد غيره مِن الشَّاكِّين في الدِّين . والنبيُّ ﷺ معصوم ، ومُنَزَّه عن الشَّك في القُرآن . وهذا الأسلوب على عادة العرب ، فهُم يُخاطبون الرَّجُلَ ، ويُريدون غَيْرَه . فإن كُنتَ يا مُحمَّد في شَك مِن القُرآن (الوَحْي الإلهيِّ الذي أنزله اللهُ إلَيْكَ) ، فاسأل عُلماء أهل الكِتاب ، الذين يَقرؤون التَّوراة ، ويَدرسونها ، إذْ إن صِفتك يا مُحمَّد ثابتة فيها، وهُم يَعْلَمُون بها، ومُطَّلِعُون عليها، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، فيَشْهَدون على صِدْقك يا مُحمَّد. والمقصود إثبات صِحَّة نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ بشهادة الأحبار ، كما هو ثابت في كُتبهم الدينية المُقدَّسة ، ومكتوب فيها .

لقد جاءَك الحق مِن رَبِّكَ واضحًا بالأدلة القاطعة ، لا لَبْسَ فيها ولا رِيبة ، وثَبَتَ عِندَك بالآيات الجَلِيَّة أن الوَحْيَ الإلهيَّ الذي أنزله اللهُ إلَيْكَ هو الحق ، الذي لا مجال فيه للشَّك .

فلا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّين ، ولا تنحرف عن اليقين ، وكُن واثقًا بالله وما أنزله إلَيْك .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦٠٩):((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ: فإن كُنتَ يا مُحمَّد في شَك مِن حقيقة ما اخترناك فأنزَلْنا إلَيْك ، مِن أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نُبُوَّتك قبل أن تُبعَث رَسُولًا إلى خَلْقه ، لأنهم يَجِدونك عِندهم مكتوبًا، ويعرفونك بالصِّفة التي أنتَ بها مَوصوف في كتابهم في التَّوراة والإنجيل ، ﴿ فَاسْأَلِ الذينَ يَقْرَؤونَ الكِتابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ مِن أهل التَّوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام ونَحْوِه من أهل الصِّدق والإيمان بِك مِنهم دُون أهل الكَذِب والكفر بك مِنهم ... . وأمَّا قَوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ ﴾ الآية ، فهو خَبر مِن اللهِ مُبتدأ . يَقول تعالى ذِكْرُه : أُقْسِم لقد جاءك الحق اليَقين مِن الخَبر ، بأنك لله رسول،وأن هؤلاء اليهود والنصارى يَعْلَمون صِحَّة ذلك،ويَجِدون نَعْتَك عِندهم في كُتبهم﴿فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين ﴾ يقول: فلا تَكُونَنَّ مِن الشَّاكِّين في صِحَّة ذلك وحقيقته)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦٣و٦٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ فإن كُنتَ في شَكٍّ ﴾ في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها أن الخِطاب للنبيِّ ﷺ ، والمُراد غَيره مِن الشَّاكِّين ... وهذا قول الأكثرين . والثاني أن الخِطاب للنبيِّ ﷺ ، وهو المُراد بِه ، ثُمَّ في المعنى قَولان : أحدهما أنه خُوطِب بذلك ، وإن لم يكن في شَك، لأنه مِن المُستفيض في لغة العرب أن يقول الرَّجل لولده : إن كُنتَ ابني فَبِرَّني ، ولعبده إن كُنتَ عبدي فأطِعْني ، وهذا اختيار الفَرَّاء . وقال ابن عباس : " لم يكن رسول الله ﷺ في شَك ولا سأل . والثاني أن تكون " إن " بمعنى " ما " فالمعنى: مَا كُنتَ في شَك ﴿ فَاسْأَلِ ﴾ ،المعنى:لَسْنا نريد أن نأمرك أن تَسأل لأنك شَاك، ولكن لتزداد بصيرة، ذَكَرَه الزَّجاج . والثالث أن الخِطاب للشَّاكِّين فالمعنى:إن كُنتَ أيُّها الإنسان في شك مِمَّا أُنزِل إلَيْك على لسان مُحمَّد فَسَلْ،رُوِيَ عن ابن قُتَيبة. وفي الذي أُنزِل إلَيه قَولان:أحدهما أنه أُنزِل إليه أنه رسول الله،والثاني أنه مَكتوب عِندهم في التَّوراة والإنجيل.قَوله تعالى:﴿فَاسْأَلِ الذينَ يَقْرَؤونَ الكِتابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ وهُم اليهود والنصارى.وفي الذين أُمِرَ بسؤالهم مِنهم قَولان: أحدهما مَن آمنَ كعبد الله بن سلام، قاله ابن عباس ومُجاهد في آخرين. والثاني أهل الصِّدق مِنهم، قاله الضَّحاك، وهو يَرجع إلى الأوَّل، لأنه لا يُصدِّق إلا مَن آمنَ)) اهـ .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٧٥٠) عن أبي زُمَيْل قال : سألتُ ابنَ عباس ، فقُلْتُ: ما شَيْءٌ أجِدُه في صَدْري ؟، قال: ((ما هُوَ ؟)). قُلت: واللهِ ما أتكلَّمُ بِه، قال: فقال لي:((أشَيْءٌ مِن شَك ؟)). قال : وضَحِكَ . قال : ((ما نجا مِن ذلك أحد حتى أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فإن كُنتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنا إلَيْكَ فَاسْأَلِ الذينَ يَقْرَؤونَ الكِتابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية)). قال : فقال لي: ((إذا وَجَدْتَ في نَفْسِك شيئًا،فَقُلْ:﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ٣])).

يجب على العبد أن يَدفع الوَسْوَسة بالقُرآن وذِكْر الله تعالى، ولا يَستسلم لها،ولا يتعاطى معها. وينبغي أن يُغلِق الطريقَ أمام الشَّيطان ، لئلا يُسيطر عليه ، ويُخرجه من الإيمان إلى الكفر ، بالوساوس والشُّبهات.وهذه هي لعبة الشَّيطان المُفضَّلة. والقلوبُ ضعيفة ، والشُّبَه خطَّافة ، والعاقلُ لا يُعرِّض نَفْسَه للامتحان والفِتنة والوساوس والشُّبهات، ولا أحد يَعرِف قَلْبَه عند الفِتن والشُّبهات، هل يَصمد أم يَسقط؟. ولا تَأمَن على حيٍّ فِتنة . ولن يَثبت إلا مَن ثبَّته اللهُ تعالى . والجديرُ بالذِّكر أن الخواطر إذا كانت تَدعو إلى الرذائل فهي وَسْوَسة ، وإن كانت تَدعو على الفضائل فهي إلهام .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّهُم كانوا في شَكٍّ مُريب ﴾ [سَبَأ : ٥٤] .

إن المُشركين كانوا في شَك في الدِّين والتَّوحيد وأمر الرُّسل والبعث والجنة والنار.و﴿ مُرِيب ﴾ موقع لهم الرِّيبة والتُّهمة . وقال ابن كثير (٣/ ٧١٨) : ((أي : كانوا في الدنيا في شَك وريبة ، فلهذا لم يُتقبَّل منهم الإيمان عِند مُعايَنة العذاب . قال قَتادة : إيَّاكم والشَّك والريبة، فإن مَن مات على شَك بُعِثَ عَلَيه ، ومَن مات على يقين بُعِثَ عَلَيه)) .

١٣_ الفِتنة

الفِتنةُ هي الابتلاء والاختبار الذي مِن شأنه تمييز الصالح من الطالح، والصادق من الكاذب . وفي اللغة : فَتَنَه يَفْتِنُه فَتْنًا _ إذابةُ الذهب بالنار كَي يتميَّز عن الشوائب العالقة به ، ويُصبح خالصًا نقيًّا [٣٣]. والفِتَنُ تُميِّز الخيرَ مِن الشَّر، وتفصل الصالحين عن الفاسدين . إنها عملية غَرْبَلة في غاية الدِّقة والأهمية . والفِتَنُ حَصاد المُنافقين ، تَفضحهم على رؤوس الأشهاد ، وتُعْلِي شأنَ الصادقين الذي ثبتوا على الحق ، في أصعب الظروف ، وأقسى المواقف .

وهذا الامتحان الشديد لِيَعْلَم اللهُ الصادقَ مِن الكاذب ، ويَحصل كُلُّ فرد على نصيبه الذي يستحقه . فإن كان صالحًا واثقًا ثابتًا، فالفِتَن طريقه إلى نعيم الجَنَّة ، وإن كان فاسِدًا مهزوزًا مُضْطَرِبَ العقيدة ، فالفِتن طريقه إلى عذاب النار . وبالتأكيد ، لا أحد يَعرف قَلْبَه عِند الفِتَن ، وثباتُ العبد ونجاحه في الامتحان لَيْسَا بذكائه ومهاراته ومواهبه، إنَّ الثبات والتثبيت مِن الله وَحْدَه.

---

٣٣ قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣):((قال الراغب: أصْلُ الفَتن إدخال الذهب في النار لِتَظهر جَودته مِن رداءته...وقال أيضًا:الفِتنة تكون من الأفعال الصادرة مِن الله،ومِن العبد كالبَلِيَّة والمصيبة والقتل والعذاب والمعصية وغَيرها مِن المكروهات،فإن كانت مِن الله فهي على وجه الحِكمة،وإن كانت مِن الإنسان بغير أمر الله فهي مذمومة،فقد ذَمَّ اللهُ الإنسانَ بإيقاع الفِتنة كَقَوله:﴿ واحْذَرْهُم أن يَفْتِنُوكَ ﴾ [المائدة: ٤٩])).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصَّةً واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

احذروا غَضَبَ اللهِ وانتقامه وعذابه ، إن خالفتم أمْرَه ، وعَصَيْتُموه ، ولم تُطيعوه ، واحذروا أن يُنْزِل اللهُ بكم فِتنةً عامَّةً شاملة ، لا تستثني أحدًا ، ولا تقتصر على الظالم فَقط . بَل تعمُّ الجميعَ بلا تمييز : الصادق والكاذب ، والطائع والعاصي ، والمُحسِن والمُسِيء ، والصالح والطالح ، والظالم وغير الظالم . الظالم يَهْلِك بسبب ظُلمه وذُنوبه ومَعَاصيه ، وغَير الظالم يَهْلِك بسبب سُكوته وعدم إنكاره على الظالم .

والآيةُ تَحْمِل أمرًا إلهيًّا للمؤمنين بوجوب الإنكار على الظالم ، وعدم السُّكوت على ظُلمه ، لئلا يَعُمَّهُم اللهُ بعذاب عام ، يَشمل الظالمَ وغير الظالم ، لا يَستثني أحدًا ، ولا يُفرِّق بين أحد .

واعلموا أن الله شديد العذاب للعُصاة المُذنبين . وهذا وعيدٌ شديد . ومِن شِدَّة العِقاب الإلهيِّ أنه يُصيب مَن اقترفَ الذُّنوب ، ومَن لم يَقترفها ، ولكنه ترك الأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المُنكر . لذلك ، يجب تغيير المُنكَر وعدم إقراره ، ولُزوم طاعة الله ، والاستقامة على منهجه القويم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤١ و٣٤٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا فِتنةً ﴾ اختلفوا فِيمَن نزلت على أربعة أقوال : أحدها أنها نزلت في أصحاب النبيِّ ﷺ خاصَّة ، قاله ابن عباس والضَّحاك . وقال الزُّبَير بن العَوَّام: لقد قرأناها زمانًا وما نرى أنَّا مِن أهلها ، فإذا نحن المَعْنِيُّون بها . والثاني أنها نَزلت في رَجُلَيْن مِن قُرَيش، قاله أبو صالح عن ابن عباس ولم يُسَمِّهما. والثالث أنها عامَّة ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في هذه الآية أمرَ اللهُ المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المُنكَر بين أظْهُرهم ، فَيَعُمَّهُم اللهُ بالعذاب. وقال مجاهد: هذه الآية لكم أيضًا . والرابع أنها نزلت في عليٍّ وعمَّار وطلحة والزُّبَير، قاله الحسن. وقال السُّدي : نزلت في أهل بَدْر خاصَّة، فأصابتهم يوم الجَمَل . وفي الفِتنة هاهُنا سبعة أقوال : أحدها القِتال ، والثاني الضَّلالة ، والثالث السُّكوت عن إنكار المُنكَر ، والرابع الاختبار، والخامس الفِتنة بالأموال والأولاد، والسادس البَلاء ، والسابع ظُهور البِدَع . فأمَّا قَوله : ﴿ لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصَّةً ﴾ ، فقال الفَرَّاء: أمَرَهُم ثُمَّ نهاهم، وفيه طَرَف مِن الجَزَاء ، وإنْ كان نَهْيًا ... . وقال الأخفش : ﴿ لا تُصِيبَنَّ ﴾ ليس بجواب ، وإنَّما هو نَهْي بعد نَهْي ، ولو كان جوابًا ما دخلت النُّون . وذَكَرَ ابن الأنباري فيها قَوْلَيْن : أحدهما أن الكلام تأويله تأويل الخَبَر، إذ كان المعنى : إن لا يتَّقوها تُصِب الذين ظَلموا ، أي : وغَيرهم ، أي: لا تقع بالظالمين دُون غَيرهم ، لكنها تقع بالصالحين والطالحين ، فلمَّا ظَهر الفِعْل ظُهور النَّهْي،

والنَّهْي راجع إلى معنى الأمر ، إذ القائل يقول : لا تَقُم ، يُريد : دَع القِيام . ووقع مع هذا جوابًا للأمر أو كالجواب له ، فأكَّد له شِبه النَّهْي ، فدخلت النُّون المعروف دُخولها في النَّهْي ، وما يُضارعه . والثاني أنها نَهْي مَحْض ، معناه : لا يَقْصِدَنَّ الظالمون هذه الفِتنة فيَهلِكوا ، فدخلت النُّون لتوكيد الاستقبال. وللمُفسِّرين في معنى الكلام قَولان: أحدهما لا تُصِيبَنَّ الفِتنة الذين ظَلموا. والثاني لا يُصِيبَنَّ عِقاب الفِتنة . فإن قِيل : فما ذَنْب مَن لَم يَظلِم ، فالجواب أنه بموافقته للأشرار، أو بسُكوته عن الإنكار ، أو بتركه للفِرار ، استحق العُقوبة)) .

وعن أبي بكر الصِّديق ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الناس إذا رَأَوا الظالمَ فلم يأخذوا على يَدَيه ، أَوْشَكَ أن يَعُمَّهم اللهُ بعِقاب مِنه)) [٣٤].

هذا يُشير إلى أن عدم إيقاف الظالم عِند حَدِّه ، سببٌ لعُموم العِقاب الشامل للصالح والطالح في المُجتمع. وهذا العذاب لا يُفرِّق بين المُحسِن والمُسيء ، لأن غياب منظومة الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر، أدخلَ الجميعَ في دائرة العُقوبة . وهنا تتجلَّى أهمية النُّصح والإرشاد والتَّوجيه.

إنَّ الناس إذا استمرؤوا الظُّلْمَ ، ولَم يَقوموا بمُقاومة الظالم والتَّصدي له ، فهم مُعرَّضون للعذاب الإلهيِّ جَزَاءَ تقاعسهم ، وابتعادهم عن الدَّعوة المُشتملة على الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر. وانتشارُ الظُّلْم دون نكير أو مُقاومة ، مِن شأنه إحالة الحياة إلى جحيم لا يُطاق ، وتضييع كُل المُكتسبات الإنسانية ، وتحطيم الإنجازات البشرية ، وإبادة المعاني البشرية الراقية . مِمَّا يدفع باتجاه إفساد الدنيا، وفقدانِ معنى إعمارها بالفضائل ، وهذا يُؤثِّر سَلْبًا على الفرد والجماعة ، فيضعف الإيمانُ في النُّفوس ، وتفقد الحياةُ معناها وجَدْواها .

والظالمُ مَهْمَا كان سفَّاحًا وقاسيًا وطاغيةً، فهو شخص ضعيف مَهزوز، مُنهار مِن الداخل، وخائف مِمَّن حَوْله، ويَشُك في الجميع. وهو يَحرِق نَفْسَه بنفْسه، وبِذرة الضعف كامنة فيه، ومُسيطرة عليه.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٩٩) : (((إن الناس) المُطيقين لإزالة الظُّلم مع سلامة العافية (إذا رَأَوا الظالم) أي عَلِموا بظُلمه (فلم يأخذوا على يَدَيه) أي لَم يَمنعوه مِن الظُّلم بفِعل أو قَول . قال ابن جرير : وخُص الأيدي لأن أكثر الظُّلْم بها كقتل وجرح وغَصْب (أَوْشَكَ) بفتح الهمزة والشِّين ، أي: قَارَبَ أو أسرعَ (أن يَعُمَّهم اللهُ بعِقاب منه) إمَّا في الدنيا أو الأُخرى ، أو فيهما ، لتضييع فَرْض الله بغير عُذر)) .

---

٣٤ رواه الترمذي(٤/ ٤٦٧)برقم(٢١٦٨) وصحَّحه،وابن حِبَّان في صحيحه(١/ ٥٣٩)برقم(٣٠٤).

إن المعاصي إذا ظَهَرت ، ولَم يَتم تغييرها ، ولا مُكافحتها ، كانت سببًا لهلاك الجميع . وعندئذٍ يأتي العذابُ دون تفريق بين المُحسِن والمُسِيء . وإذا كَثُرت المعاصي والآثام عَمَّت العُقوبة الصالح والطالح . وعن زَينب بنت جَحْش ــ رضي اللهُ عنهاــ أنها سألت النبيَّ ﷺ : أنهلِكُ وفِينا الصالحون ؟، قال: ((نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ)) [35]. والخَبَثُ هو الفُسوق والفُجور والمَعَاصي.

يكون الإهلاكُ عامًّا وشاملًا ، حِين تعمُّ المَعاصي ، ويَكثُر الفُجور ، وتَبرُز المعاصي علانية . ولا يتم الوصول إلى هذه المرحلة السَّيئة إلا بغياب النُّصح الفَعَّال ، واختفاءِ مظاهرِ الإصلاح الشاملة ، وعدم ردع الظالمين وإيقافِهم ، وعَدْم كَبْح جِماح المُفسِدين . والسَّاكِتُ عن الحق ــ في واقع الأمر ــ يُساهم في انتشار الباطل . فبسبب تقصيره وعدم قيامه بواجبه استطاع الباطلُ أن يكسب مواقعَ جديدة، ويجتاح أماكن عديدة، لأنه لم يَجِد أمامه سدًّا منيعًا،ولا مُقاوَمة مِن أيِّ نوع.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٣/١٨): ((وفسَّره الجمهور بالفُسوق والفُجور. وقِيل : المراد الزِّنى خاصَّة ، وقيل :أولاد الزِّنى . والظاهر أنه المعاصي مُطْلَقًا . معنى الحديث أن الخَبَث إذا كَثُرَ فقد يَحصل الهلاك العام ، وإن كان هناك صالحون)) .

وعن مُطَرِّف قال : قُلْنا للزُّبَير ــ رضي اللهُ عنه ــ : يا أبا عبد الله ، ما جاء بكم ؟ ، ضَيَّعْتُم الخَليفةَ حتى قُتل ، ثُمَّ جِئتم تَطْلُبون بدمه . قال الزُّبَير ــ رضي اللهُ عنه ــ : ((إنَّا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمر وعُثمان ــ رضي اللهُ عنهم ــ : ﴿ واتَّقُوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصَّةً ﴾ ، لَم نَكُن نَحْسَبُ أنَّا أهْلُها ، حتى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ)) [36].

إنَّ الفِتَن قد تَعُمُّ الجَمِيعَ بدون تمييز ، وتَشمل الكُلَّ بلا تفريق.وإنَّ جيل الصحابة ــ رضي اللهُ عنهم ــ وهو الجِيل الذهبي، قد أُصِيب بِفِتَن شديدة للغاية مِثل : مَوْقِعة صِفِّين ، ومَوْقِعة الجَمَل. وعلى المَرْءِ أن يَدور مَعَ الحَقِّ حَيْث دار ، بغض النظر عن شُخوص الرجال ومكانتهم . فالحَقُّ أحَقُّ أن يُتَّبع . والرِّجالُ يُعرَفون بالحق ، والحق لا يُعرَف بالرِّجال . والفِتَنُ امتحان وعملية غَرْبَلة وتمحيص ، حيث تعمل على تمييز الصالح مِن الفاسد ، ولن يَثْبُت إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى .

---

٣٥ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣١٧) برقم (٣٤٠٣) ، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) .

٣٦ رواه أحمد في مسنده (١/ ١٦٥)برقم(١٤١٤). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٩) : ((رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح)). وسكت عنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤) وقال إن المقصود بالخليفة هو عثمان رضي اللهُ عنه، الذي قُتِلَ بالمدينة ، أمَّا قَوْله " تَطْلُبون بدمه " أي في البَصرة .

١٤_ الجَزَاء

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمثالِها ومَن جاءَ بالسَّيئةِ فلا يُجزَى إلا مِثْلَهَا وهُم لا يُظلَمون ﴾ [الأنعام : ١٦٠] [٣٧].

مَن جاء يوم القيامة بحسنة واحدة ، جَزَاه اللهُ عنها عشر حسنات أمثال حسنته ، رحمةً بِه ، وتفضُّلًا عليه ، وإكرامًا له، وإحسانًا إلَيه . وهذا هو الحد الأدنى مِن مُضَاعَفَة الحسنات ، وأقل ما وَعَدَ اللهُ مِن مُضَاعَفَة الحسنات. واللهُ قد يُضَاعِف الحسنةَ إلى سبعمائة ضِعف وأكثر،وبلا حساب.

ومَن جاءَ بالسَّيئة عُوقِب بمِثْلِها ، بلا زيادة ولا مُضَاعَفَة . واللهُ لا يَظْلِم الفريقَيْن (فريق الطاعة وفريق المعصية) ، فهو سُبحانَه يُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، لا يُنقِص مِن حَسنات الطائعين،ولا يزيد في سَيِّئات العاصين. أي إنه سُبحانَه لا يُنقِص الثواب، ولا يَزيد العِقاب. ولا يُجازي أحدًا إلا بما يستحق مِن الجَزَاء . واللهُ حكيمٌ وعادلٌ وصاحب الفَضْل العظيم . والزيادةُ في الحسنات هي الفَضْل الإلهيُّ ، والمُعَامَلَةُ بالمِثْل في السَّيئات هي العَدْل الإلهيُّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٩و١٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمثالِها ﴾ . قال ابن عباس : " يُريد مَن عَمِلَها كُتِبت له عَشْر حسنات ، ومن جاء بالسَّيئة فلا يُجزَى إلا جَزاء مِثْلها.وفي الحسنة والسَّيئة هاهُنا قَولان:أحدهما أن الحسنة قول لا إله إلا الله، والسَّيئة الشِّرك ، قاله ابن مسعود ومجاهد والنَّخعي .والثاني أنه عام في كل حَسنة وسَيِّئة ... . فإن قِيل : إذا كانت الحسنة كلمة التَّوحيد ، فأيُّ مِثْل لها حتى يَجعل جَزاء قائلها عَشْر أمثالها ؟، فالجواب أن جزاء الحسنة معلوم القَدْر عند الله،فهو يُجازي فاعلها بعَشْر أمثاله، وكذلك السَّيئة...

---

٣٧ في لسان العرب(١/ ٧١٦): ((قال ابن جِنِّي: قَوْلُه تعالى: ﴿ لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . عَبَّر عن الحسنة بِكَسَبَتْ وعن السيئة باكْتَسَبَتْ ، لأَن معنى كَسَبَ دُون معنى اكْتَسَبَ ، لِمَا فيه من الزيادة ، وذلك أَن كَسْبَ الحسنة بالإِضافة إِلى اكْتِسابِ السيئة أَمْرٌ يسير ومُسْتَصْغَرٌ ، وذلك لقَوله عَزَّ اسْمُه : ﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمثالِها ومَن جاءَ بالسَّيئةِ فلا يُجزَى إلا مِثْلَهَا ﴾ ، أفلا تَرى أَن الحسنةَ تَصْغُر بإِضافتها إِلى جَزائها ضِعْف الواحدِ إِلى العشرة ؟، ولَمَّا كان جَزاءُ السيئة إِنما هو بمِثْلها لم تُحْتَقَرْ إِلى الجزاء عنها فعُلِمَ بذلك قُوَّةُ فِعْلِ السَّيئة على فِعْلِ الحسنة، فإِذا كان فِعْل السيئة ذاهبًا بصاحبه إِلى هذه الغاية البعيدة الْمُترامية ، عُظِّمَ قَدْرُها ، وفُخِّمَ لفظ العبارة عَنها ، فقِيل لها: ﴿ ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ ﴾ فزيدَ في لفظ فِعْل السيئة وانْتُقِصَ من لفظ فِعْل الحسنة لِمَا ذَكَرْنا)) .

فإن قِيل : المِثْل مُذكَّر ، فَلِمَ قال : ﴿ عَشْرُ أمثالِها ﴾ والهاء إنما تسقط في عدد المُؤنَّث؟ فالجواب أن الأمثال خُلِقَت حسنات مُؤنَّثة ، وتلخيص المعنى : فله عَشْر حسنات أمثالها ، فسَقطت الهاء مِن ﴿ عَشْرُ ﴾ لأنها عدد مُؤنَّث)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٨) : عن أبي ذَر قال : قال رسول الله ﷺ : ((يقول اللهُ عَزَّ وجَلَّ: مَن جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها وأزِيدُ، ومَن جاء بالسَّيئة فجزاؤه سَيِّئة مِثْلُها أو أغْفِرُ)) .

هذا يُشير إلى فضل الله على الطائعين ، وتكرُّمه عليهم ، وعَدْله معَ العاصين ، وهُم تحت المَشيئة الإلهية،إن شاءَ جازى المُسيء بإساءته (السَّيئة بسَيِّئة)، وإن شاءَ غَفَرَ السَّيئةَ،وتجاوزَ عنه.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٢): ((قَوله تعالى: فَلَهُ عَشر أمثالها أو أزِيدُ ، معناه أن التَّضعيف بعشرة أمثالها لا بُدَّ بفضل الله ورحمته ، ووَعْده الذي لايُخلَف . والزيادة بعد بكثرة التضعيف إلى سبعمائة ضِعْف ، وإلى أضعاف كثيرة يحصل لبعض الناس دون بعض ، على حَسَب مَشيئته سُبحانَه وتعالى)) .

وعن عبد الله بن مسعود_رضي اللهُ عنه_:﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ ﴾، قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿ ومَن جاءَ بالسَّيئةِ ﴾ ، قال : بالشِّرك [٣٨].

والظاهرُ أن الآية لفظ عام في جميع الحسنات والسَّيئات ، ولا يُمكن تخصيصها .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤].

كُل صاحب ذَنْب مُعَاقَب بِذَنْبه وَحْدَه،ولا يَكون إثمُ نَفْس إلا عليها،ولا يَحمل أحدٌ ذَنْبَ أحد. وهذا يدل على حِكمة الله وعَدْله ، فكُل إنسان يُجازَى بأعماله الشخصية، إنْ خَيْرًا فخير، وإنْ شَرًّا فَشَر . وهذا يعني انتفاء مسؤولية الإنسان عن عَمل غَيْره ، فلا أحد يَحمل إثمَ غَيْرِه، ولا يُؤاخَذ الإنسان بأفعال الآخرين . كُل إنسان بعمله رهينٌ ، لا تُفارقه حسناته ولا سَيِّئاته . وهذا هو العدلُ الإلهي المُقدَّس المُنَزَّه عن الظُّلم ، وتحميلِ الناس فوق طاقاتهم ، وأخذِهم بآثام غَيرهم .

والنقلُ والعقلُ مُتَّفقان على أن الإنسان يُجَازَى بما كَسَبَتْ يَداه ، وليس عليه خطايا الآخرين مهما كانوا قريبين مِنه . وهذا بالتأكيد لا يتنافى مع مبدأ الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر ، وإرشاد الآخرين ، ومُساعدتهم ، والإشفاق عليهم ، وتقديم النُّصح لهم ، والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير وبَر الأمان . والجديرُ بالذِّكر أن الوِزْر هو الثِّقْل ، ثُمَّ اسْتُعمل في الإثم تَجَوُّزًا واستعارةً .

---

٣٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤١) برقم (٣٥٢٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٢١):((﴿ ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا ﴾ يقول: ولا تجترح نَفْس إثمًا إلا عليها، أي:لا يُؤخَذ بما أتت مِن معصية الله تبارك وتعالى،وركبت مِن الخطيئة، سِواها، بَل كُل ذِي إثم فهو المُعَاقَب بإثمه، والمأخوذ بذَنْبه ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ يقول : ولا تأثم نَفْس آثِمة بإثم نَفْس أُخرى غَيرها، ولكنها تأثم بإثمها ، وعليه تُعَاقَب دُون إثم أُخرى غَيرها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١٦٢/٣):((قَوله تعالى:﴿ ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا﴾ أي:لا يُؤخَذ سِواها بعملها.وقِيل:المعنى إلا عَليها عِقاب مَعْصيتها،ولها ثواب طاعتها.﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.قال الزَّجاج:لا تُؤخَذ نَفْس آثمة بإثم أخرى والمعنى لا يُؤخَذ أحد بذَنْب غَيْره)).

وهناك حالةٌ خاصَّة يتحمَّل فيها المَرْءُ ذَنْبَه وذُنوبَ الآخرين ، إذا أرشدهم إلى الباطل ، وساهمَ في إضلالهم . ففي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨) أن النبيَّ ﷺ قال : ((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئة ، فعُمِلَ بها بَعْده ، كُتِبَ عَلَيه مِثْلُ وِزْر مَن عَمِلَ بها ، ولا يَنقُص مِن أوزارهم شيء)) .

هذا الحديث لا يُعارض الآيةَ . فالفرد يتحمَّل إثمَه وآثامَ غَيْره إذا كان سببًا في إضلالهم ، وإبعادهم عن الحق ، فهو يتحمَّل الذُّنُوبَ مِن جهة فِعْله وجهةِ تسبُّبه . فقد ظَلَمَ نَفْسَه مرَّتَيْن ، الأُولَى: حين ارتكب الذَّنْبَ، والثانية: حِينَ قام بإضلال الناس وإغوائهم، وفَتَحَ لهم طريقَ الآثام.

والحديثُ دليل على تحريم سَن الأمورِ السَّيئة ، والطُّرُقِ المُخالِفة للشريعة . وهو مَحمول على مَن لم يَتُب مِن ذلك الذَّنْب. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٢٧) : ((ومَن سَنَّ سُنَّة سَيِّئة كان عليه مِثْل وِزْر كُل مَن يَعمل بها إلى يوم القيامة، وأن مَن دعا إلى هُدى كان له مِثْل أُجور مُتابعيه،أو إلى ضلالة كان عليه مِثل آثام تابعيه،سَواء كان ذلك الهُدى والضَّلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم عِلْم أو عبادة أو أدب أو غَير ذَلك. قَوله ﷺ : " فَعُمِلَ بها بَعْده " ، معناه : إنْ سَنَّها سَواء كان العمل في حياته ، أو بعد مَوْته، والله أعلم)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّهُ مَن يَأتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيَى ﴾[طه: ٧٤].

هذا كلام سَحَرَة فِرْعَوْن ، الذين آمَنوا بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُوسى ﷺ ، وهُم يَعِظُون فِرْعَوْنَ ، ويُعلِّمونه، ويُنبِّهونه، ويُحذِّرونه مِن عذاب الله وعُقوبته ونِقمته ، ويُرشِدونه إلى الحق والصواب .

إنَّه مَن يَمُتْ على الكُفر ، ويَلْقَ اللهَ يوم القيامة مُجْرِمًا عاصيًا غارقًا في الذُّنوب والآثام ، فإنَّ له العذاب الشديد الأبدي في نار جهنَّم ، جَزَاءً على كُفره . لا يَموت في جهنم فينتهي عذابُه ، ولا يَخرج مِنها، فتزول عُقوبته ويستريح، ولا يَحيا حياةً طَيِّبَةً كريمةً هانئة تَنفعه ويستمتع بها . والآيةُ مُختصة بالكافرين ، أمَّا المؤمنون العُصاة الذين يَدخلون النارَ ، فيُعذَّبون ، ثُمَّ يَخرجون بالشَّفاعة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٣٨) : ((المُجرِم هو المُتَلَبِّس بالكُفر والمعاصي . ومعنى ﴿ لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيَى ﴾ أنه لا يَموت فيستريح ، ولا يَحيا حياةً تَنفعه . قال المُبَرِّد : لا يموت مِيتة مُريحة ، ولا يَحيا حياةً مُمْتِعة ، فهو يَألَم كما يَألَم الحَي ، ويَبلُغ به حال الموت في المَكروه ، إلا أنه لا يَبطُل فيها عن إحساس الألم . والعرب تقول : فلان لا حَي ولا مَيت، إذا كان غير مُنتفع بحياته . وأنشد ابن الأنباري في مِثل هذا : ألا مَن لنفْسٍ لا تموتُ فينقضي ... شَقَاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ . وهذه الآية مِن جُملة ما حَكاه اللهُ سُبحانَه مِن قَول السَّحَرة ، وقِيل : هو ابتداء كلام ، والضمير في ﴿ إنَّهُ ﴾ على هذا الوجه للشأن)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن يَأتِهِ مُؤمِنًا قَدْ عَمِلَ الصالحاتِ فأُولئكَ لَهُمُ الدَّرجاتُ العُلَى﴾[طه: ٧٥].

ومَن يَمُتْ على الإيمان ، ويَلْقَ اللهَ يوم القيامة مُوَحِّدًا طائعًا ، التزمَ أوامرَ الله ، وفَعَلَ الطاعات، واجتنبَ نَوَاهيه ، وابتعدَ عن المعاصي ، فأُولئكَ المؤمنون الصادقون لهم المنازل الرفيعة في الجَنَّة.

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٠٤) : ((ومعنى ﴿وَمَن يَأتِهِ مُؤمِنًا ﴾ أي : يَمُتْ عَلَيه ، ويُوافيه مُصَدِّقًا به ، ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ ، أي : وقد عَمِلَ ﴿ الصالحاتِ ﴾ أي : الطاعات ، وما أُمِرَ به ، ونُهِيَ عنه ، ﴿ فأُولئكَ لَهُمُ الدَّرجاتُ العُلَى﴾ ، أي : الرفيعة التي قَصُرَتْ دُونَها الصِّفات . ودَلَّ قَوله : ﴿وَمَن يَأتِهِ مُؤمِنًا ﴾ على أن المُراد بالمُجْرِم المُشْرِك)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فالذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[الحَج : ٥٠].

فالمؤمنون الصادقون الذين صدَّقوا بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي. أي إنهم جَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، فآمنت قُلوبُهم ، وصدَّقوا إيمانَهم بالعبادات والطاعات والأعمال الصالحة ، لهم مغفرة مِن الله على ذُنوبهم السابقة ، ورِزق حَسَن دائم لا يَنقطع ولا يَزول ، وهو نعيم الجَنَّة الأبدي .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٣/ ٤٧) : ((بيَّن سُبحانَه أن مَن جَمع بينهما _ يعني الإيمان والعمل الصالح _ فاللهُ تعالى يَجمع له بين المغفرة والرِّزق الكريم)) اه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤٤٠): ((قَوله تعالى : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني به الرِّزق الحَسَن في الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والذينَ سَعَوْا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئكَ أصحابُ الجَحِيمِ ﴾[الحَج : ٥١].

والذينَ كذَّبوا بآياتِ الله ، وجَحدوا نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، وأبْعَدُوا الناسَ عن الإيمان به ، وسَعَوْا في إبطال آيات الله مُغَالِبين مُشَاقِّين مُعَانِدِين ، أُولئك أصحاب النار الحَارَّة المُؤلِمة ، الشديد عذابها . وبسبب الدَّوام والبقاء والخُلود ، شبَّههم اللهُ بالصاحب . فهُم أصحاب النار ، المُخْتَصُّون بها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٢) : ((﴿والذينَ سَعَوْا في آيَاتِنَا ﴾ أي : عَمِلُوا في إبطال آياتنا ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ . قرأ ابن كثير وأبو عمرو : (مُعَجِّزين) بالتَّشديد هاهُنا وفي سورة سَبَأ، أي : مُثبِّطِين الناسَ عن الإيمان . وقرأ الآخرون : ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ بالألف ، أي : مُعَانِدِين مُشَاقِّين . وقال قَتادة : معناه : ظَانِّين ومُقدِّرين أنهم يُعْجِزُوننا بزَعْمهم أن لا بَعْث ولا نُشُور ولا جنة ولا نار . ومعنى يُعْجِزوننا ، أي : يَفُوتوننا فلا نَقْدِر عليهم ... وقيل : ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مُغَالِبِين ، يُرِيد كُلُّ واحد أن يُظْهِرَ عَجْزَ صاحبه)) اهـ . وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٣/ ٤٧) : ((فإن قِيل : إنه عليه السلام بشَّر المؤمنين أوَّلًا ، وأنذرَ الكافرين ثانيًا في هذه الآية ، فكانَ القِياس أن يُقال : " إنما أنا لكم بشير ونذير "، والجواب أن الكلام مَسُوق إلى المُشركين ، وهُم الذين استعجلوا العذابَ ... ، وإنما ذُكِرَ المؤمنين وثوابهم زيادةً لغَيظهم وإيذائهم)) .

١٥_ التَّوْبة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما التَّوْبَةُ عَلى اللهِ للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فأُولئكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِم وكانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النِّساء : ١٧] [٣٩].

أوجبَ اللهُ على نفْسه ، وألزمَ ذاته المُقدَّسةَ ، رحمةً بالعباد ، وإحسانًا إليهم ، وتفضُّلًا عليهم ، أن يَقْبَل التَّوبةَ مِن الذين فَعلوا المعصية وارتكبوا الذَّنْب جَهْلًا وسَفَهًا ، عارفين بسُوء المعصية ، ومُدْرِكين لقُبح الذَّنْب ، ثُمَّ أقلعوا ، ونَدِموا ، وأنابوا ، وتابوا إلى الله سريعًا قبل حُضور المَوت . فأُولئكَ يَقْبَل اللهُ توبتهم ، وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ واقع وثابت ، لا يتخلَّف ، ولا يَزول .

---

٣٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦و٣٧) : ((قال الحسن : إنما التَّوْبة التي يَقْبَلها اللهُ ، فأمَّا السُّوء فهو المعاصي ، سُمي سُوءًا لسُوء عاقبته . قَوله تعالى : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ ، قال مجاهد : كُل عَاصٍ فهو جاهل حِين معصيته . وقال الحسن وعطاء وقَتادة والسُّدي في آخرين : إنما سُموا جُهَّالًا لمعاصيهم، لا أنهم غير مُمَيِّزين . وقال الزَّجاج : ليس معنى الآية أنهم يَجْهَلون أنه سُوء ، لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يُوقِع سُوءًا ، وإنما يحتمل أمرين : أحدهما أنهم عملوه وهُم يجهلون المكروه فيه . والثاني أنهم أقدموا على بصيرة وعِلم بأن عاقبته مَكروهة ، وآثروا العَاجِلَ على الآجِل ، فسُمُّوا جُهَّالًا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعاقبة الدائمة . وفي القريب ثلاثة أقوال : أحدها أنه التَّوبة في الصِّحة، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال السُّدي وابن السائب . والثاني أنه التَّوْبة قبل مُعَايَنَة مَلَك الموت ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو مِجْلَز . والثالث أنه التَّوبة قبل الموت ، وبه قال ابن زيد في آخرين)) .

وكانَ اللهُ عليمًا بخَلْقه ، حكيمًا في شَرْعه. يَعْلَم إخلاصَ التائبين ، ويَقْبَلهم ، ولا يُعاقبهم .

والجديرُ بالذِّكر أن كُل مَن عصى اللهَ فهو جاهل ، سواءٌ كان مُتَعَمِّدًا أَم لا ، حتى يَترك المعصية ، ويُقلِع عن الذَّنْب .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّما التَّوْبَةُ عَلى اللهِ ﴾ ، قيل : هذه الآية عامَّة لكل مَن عَمِلَ ذَنْبًا . وقِيل : لِمَن جَهِلَ فقط ، والتَّوبة لكل مَن عَمِلَ ذَنْبًا في موضع آخَر . واتَّفقت الأُمَّة على أن التَّوبة فَرْض على المؤمنين لقَوله تعالى: ﴿ وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أيُّها المؤمنون ﴾ [النُّور : ٣١]. وتَصِحُّ مِن ذَنْب معَ الإقامة على غَيْره مِن غَيْر نَوْعه ، خِلافًا للمُعْتَزِلة في قَولهم : لا يكون تائبًا مَن أقام على ذَنْب ولا فرق بين معصية ومعصية. هذا مذهب أهل السُّنة. وإذا تاب العبدُ فالله سُبحانَه بالخِيار ، إن شاء قَبِلَها ، وإن شاء لَم يَقْبَلْها ، وليس قَبول التَّوبة واجبًا على الله مِن طريق العقل ، كما قال المُخَالِف ، لأن مِن شَرْط الواجب أن يكون أعلى رُتبة مِن المُوجَب عَلَيه ، والحق سُبحانَه خالق الخَلْق ، ومالكهم ، والمُكلِّف لهم ، فلا يَصِحُّ أن يُوصَف بوجوب شيء عليه ، تعالى عَن ذلك ، غَير أنه قد أخبر سُبحانَه وهو الصادق في وَعْده بأنه يَقبَل التَّوبة عن العاصين مِن عباده بقَوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَعْفُو عَنِ السَّيئاتِ﴾ [الشُّورى :٢٥]. وقَوله:﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ﴾[التَّوبة : ١٠٤]. وقَوله : ﴿ وإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تاب ﴾ [طه : ٨٢] . فإخباره سُبحانَه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفْسه يقتضي وُجوب تلك الأشياء ، والعقيدة أنه لا يجب عليه شيء عَقْلًا ، فأمَّا السَّمْع فظاهره قَبول تَوبة التائب . قال أبو المعالي وغَيره : وهذه الظواهر إنما تُعطِي غَلَبَة ظَن لا قَطْعًا على الله تعالى بقَبول التَّوبة . قال ابن عطية : وقد خُولِف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى ، فإذا فَرَضْنا رَجُلًا قد تاب تَوْبَةً نَصُوحًا تامَّة الشروط ، فقال أبو المعالي : يَغلِب على الظَّن قَبول تَوبته . وقال غَيره : يُقطَع على الله تعالى بقَبول تَوبته، كما أخبر عن نفْسه جَلَّ وَعَزَّ. قال ابن عطية: وكان أبي رحمه الله يَميل إلى هذا القَول، ويُرجِّحه، وبه أقول. والله تعالى أرحم بعباده مِن أن ينخرم (يَذهب)في هذا التائب المفروض معنى قَوله: ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ،وقَوله تعالى: ﴿وإنِّي لَغَفَّارٌ﴾ . وإذا تقرَّرَ هذا ، فاعلم أن في قَوله : ﴿ عَلى اللهِ ﴾ حَذفًا ، وليس على ظاهره ، وإنَّما المعنى: على فضل الله ورحمته بعباده ... . وقيل : ﴿ عَلى ﴾ هاهُنا معناها : عِند . والمعنى واحد. التقدير : عِند الله ، أي إنه وَعَدَ ولا خُلْف في وَعْده أنه يَقبَل التَّوبة إذا كانت بشروطها المُصَحِّحَة لها ، وهي أربعة: النَّدم بالقلب، وترك المَعصية في الحال، والعَزْم على ألا يعود إلى مِثْلها، وأن يكون ذلك

حَياء من الله تعالى لا مِن غَيْره ، فإذا اختلَّ شرط من هذه الشروط لم تَصِح التَّوبة ، وقد قِيل : مِن شروطها : الاعتراف بالذَّنْب، وكثرة الاستغفار... . ولا خِلاف فيما أعْلَمه أن التَّوبة لا تُسقِط حَدًّا . ولهذا قال عُلماؤنا : إن السارق والسارقة والقاذف متى تابوا وقامت الشَّهادة عليهم ، أُقِيمَت عليهم الحُدود . وقِيل : ﴿ عَلى ﴾ بمعنى " مِن " أي : إنَّما التوبة مِن الله للذين ، قاله أبو بكر ابن عبدوس ، والله أعلم ... . قَوله تعالى : ﴿ للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ السُّوء في هذه الآية يَعُمُّ الكُفر والمعاصي ، فكُل مَن عَصى رَبَّه فهو جاهل ، حتى يَنزِع عن معصيته . قال قَتادة : أجمعَ أصحابُ النبيِّ ﷺ على أن كُل معصية فهي بجَهَالة ، عَمْدًا كانت أو جَهْلًا ، وقاله ابن عباس وقَتادة والضَّحاك ومُجاهد والسُّدي ، ورُوِيَ عن الضَّحاك ومُجاهد أنهما قالا : الجَهَالة هُنا العَمْد. وقال عِكرمة: أمور الدنيا كُلها جَهَالة، يريد الخاصة به الخارجة عن طاعة الله. وقال الزَّجاج : يعني قَوله : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية . وقِيل : بجهالة ، أي : لا يَعْلَمون كُنه العُقوبة ، ذَكَرَه ابن فُورَك ... . قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ . قال ابن عباس والسُّدي : معناه قبل المرض والمَوت . ورُوِيَ عن الضَّحاك أنه قال : كُل ما كان قبل الموت فهو قريب . وقال أبو مِجْلَز والضَّحاك أيضًا وعِكرمة وابن زيد وغَيرهم : قَبل المُعَايَنَة للملائكة والسَّوْق ، وأن يُغلَب المَرء على نفْسه . ولقد أحسن مُحمَّد الوَرَّاق حيث قال : قَدِّمْ لنفْسكَ تَوْبَةً مَرْجُوَّةً ... قَبْل المَماتِ وقَبْل حَبْسِ الأَلْسُنِ... بَادِرْ بها غَلْقَ النُّفوسِ فإنها ... ذُخْرٌ وغُنم للمُنيبِ المُحْسِنِ . قال عُلماؤنا رحمهم الله : وإنَّما صحَّت التَّوبة له في هذا الوقت ، لأن الرجاء باقٍ ، ويَصِح مِنه النَّدم والعَزْم على تَرْك الفِعل ... . وقِيل : المعنى: يتوبون على قُرب عَهْد مِن الذَّنْب مِن غَير إصرار . والمُبَادِر في الصِّحة أفضل ، وألحَق لأمله من العمل الصالح ، والبُعد كُل البُعد المَوت ... . وروى صالح المُرِّي عن الحسن قال : مَن عَيَّرَ أخاه بذَنْب قد تاب إلى الله مِنه ، ابتلاه اللهُ به . وقال الحسن أيضًا : إن إبليس لمَّا هبط قال: بعزَّتك لا أُفَارِق ابنَ آدم ما دام الرُّوح في جسده. قال الله تعالى: " فبِعِزَّتي ألا أحْجُبَ التَّوبةَ عن ابن آدم ما لم يَتَغَرْغَرْ نَفْسُه ")) .

وعن ابن عُمر ـ رضي اللهُ عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله تعالى يَغفِر لعبده ، أو يَقبَل تَوبة عَبده ، ما لم يُغَرْغِرْ)) [٤٠] . أي:ما لم تَبلُغ الرُّوح إلى الحُلقوم، يعني ما لم يُوقِن بالمَوت. والتَّوبةُ بعد التأكُّد من المَوت والتَّيَقُّن به ، لا فائدة مِنها ، ولا يُعْتَد بها .

---

٤٠ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨٦) برقم (٧٦٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن اللهَ يَقبَل توبةَ العبد ما لم تَصِل رُوحُه إلى حُلقومه ، لأنه لَم يَرَ مَلَكَ المَوت ، ولم يَيأس مِن الحياة ، فتصحُّ تَوبته بشروطها، وهي: ١_ تَرْك الذَّنْب. ٢_ النَّدم عليه. ٣_ الاستغفار. ٤_ العَزْم الأكيد على عدم العَودة . أمَّا إذا وصل إلى مرحلة الغَرْغَرَة ، فلا تُقبَل تَوبته . ومِن شُروط التَّوبة : تَرْك الذَّنْب والعَزم على عدم العَودة إلَيه . وهذا يعني امتلاك العبد للقُوَّة والوقت والقُدرة على الاختيار، والقُدرة على النَّدم بالقلب ، والاستغفار باللسان . وهذا إنما يَكون قبل مرحلة الغَرْغَرَة، لذلك تُقبَل تَوبته . أمَّا إذا وَصل إلى مرحلة الغَرْغَرَة ، فقد فَقَدَ السيطرةَ على نفْسه ، ولم يعد قادرًا على الاختيار، لذلك لا تُقبَل تَوبته. وهذا يُفسِّر عدم استفادة فِرْعَوْن مِن تَوبته وإيمانه. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٤٥) : ((وقد أجمعَ العلماءُ رضي اللهُ عنهم على قَبول التَّوبة ما لم يُغَرْغِرْ، كما جاء في الحديث. وللتَّوبة ثلاثة أركان: أن يُقْلِع عن المعصية، ويَندم على فِعلها ، ويَعزم أن لا يعود إليها. فإن تابَ مِن ذَنْب ثُم عاد إليه لم تَبطُل تَوبته، وإن تاب مِن ذَنْب وهو مُتَلَبِّس بآخَر صحَّت تَوبته،هذا مذهب أهل الحق،وخالفت المُعتزلة في المسألتين، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الذينَ يَمُوتُونَ وهُم كُفَّارٌ أُولئكَ أعْتَدْنا لَهُم عَذَابًا أليمًا ﴾[النِّساء : ١٨] .

إنَّ التَّوبة مَرفوضة وغَير مَقبولة مِن الذين يَرتكبون المعاصي ، ويقترفون الذنوبَ والآثام ، ويتمسَّكون بها ، ويستمرون عليها ، حتى إذا فاجأهم الموتُ ، تابوا وأنابوا . هذه تَوبة المُضْطَر المرفوضة، فهو لَم يعد يَملِك وقتًا لارتكاب المعاصي، ولا يُوجد في حياته مجال لاقتراف الذُّنوب. وهذه التَّوبة الباطلة لا تَجعل العبدَ صالحًا ، ولا تُنقِّي قَلْبَه ، ولا تَعمل على تغيير حياته للأفضل ، وليس لها أثر في صلاح العبد ، وإصلاح أُموره. لذلك، لا فائدة مِن هذه التَّوبة الشَّكلية ، ولا قيمة لها . واللهُ يَرفضها ، ولا يَقبَلها .

والتَّوبةُ _ أيضًا _ مرفوضة وغَير مَقبولة مِن الذين يَمُوتون على الكُفر . فإيمانهم عند احتضارهم مرفوض ، وتَوبتهم مردودة . وحِين تُساق رُوح العبد ، لا يُقْبَل من كافر إيمان ، ولا مِن عاصٍ تَوبة . لذلك لَم ينتفع فِرْعَوْن مِن إيمانه حِين أدركه الغرق ، ولم يُقبَل مِنه . ولا فائدة مِن التَّوبة بعد إغلاق باب التَّوبة . وكُل قرار صحيح يجب أن يكون في التَّوقيت الصحيح . والقرارُ الصحيحُ في التَّوقيت الخاطئ خطأ مرفوض. أُولئكَ هيَّأ اللهُ لهم عذابًا شديدًا مُؤلِمًا في نار جهنم .

وإذا زالَ حال التَّكليف بظُهور أسباب المَوت ورُؤية مَلَك الموت،فإن التَّوبة مرفوضة،لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار. والتائبُ يجب أن يَكون مُختارًا لا مُضْطَرًّا، حتى تُقْبَل توبته ، ويُمنَح أجره.

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ ﴾ ، نَفَى سُبحانَه أن يَدخل في حُكم التائبين مَن حَضَرَه المَوت ، وصار في حِين اليأس ، كما كان فِرْعَوْن حين صار في غَمرة الماء والغرق ، فلم يَنفعه ما أظهرَ من الإيمان ، لأن التَّوْبة في ذلك الوقت لا تنفع ، لأنها حال زوال التكليف ، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المُفسِّرين . وأمَّا الكفار يَموتون على كُفرهم فلا تَوْبة لهم في الآخرة ، وإليهم الإشارة بقَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ أعْتَدْنا لَهُم عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، وهو الخُلود ، وإن كانت الإشارة بقَوله إلى الجميع ، فهو في جِهة العُصاة عذاب لا خُلود معه ، وهذا على أن السَّيئات ما دُون الكفر ، أي : لَيست التَّوْبةُ لِمَن عَمِلَ دُون الكُفر مِن السَّيئات ، ثُمَّ تاب عند الموت ، ولا لِمَن مات كافرًا فتاب يوم القيامة . وقد قِيل : إن السَّيئات هنا الكُفر ، فيكون المعنى: وليست التَّوْبة للكفار الذين يتوبون عند الموت ، ولا للذين يموتون وهُم الكُفَّار . وقال أبو العالية : نزل أَوَّلُ الآية في المؤمنين : ﴿ إنَّما التَّوْبَةُ عَلى اللهِ ﴾ ، والثانية في المنافقين : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ ﴾ ، يَعني: قَبول التَّوْبة للذين أصَرُّوا على فِعلهم. ﴿ حتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ ﴾ ، يعني: الشَّرِق والنَّزْع، ومُعَايَنَة مَلَك الموت، ﴿ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ فليس لهذا تَوبة ، ثُمَّ ذَكَرَ تَوبة الكُفار ، فقال تعالى: ﴿ ولا الذينَ يَمُوتُونَ وهُم كُفَّارٌ أُولئكَ أعْتَدْنا لَهُم عَذَابًا أليمًا ﴾ ، أي : وَجِيعًا دائمًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ ﴾ ، في السَّيئات ثلاثة أقوال : أحدها الشِّرك ، قاله ابن عباس وعِكرمة . والثاني أنها النِّفاق ، قاله أبو العالية وسعيد بن جُبَيْر . والثالث أنها سَيِّئات المُسلمين، قاله سُفيان الثَّوري، واحتجَّ بقَوله : ﴿ ولا الذينَ يَمُوتُونَ وهُم كُفَّارٌ ﴾ . قَوله تعالى: ﴿ حتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ ﴾ في الحُضور قَولان : أحدهما أنه السَّوْق، قاله ابن عمر . والثاني أنه مُعَايَنَة الملائكة لقَبض الرُّوح، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال:أنزل الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، فحرَّم المَغفرة على مَن مات مُشْرِكًا، وأرجأ أهل التَّوحيد إلى مشيئته فلم يُؤَيِّسهم من المغفرة ، فعلى هذا تكون منسوخة في حَق المؤمنين)) .

وعن عبد الرحمن بن البيلماني قال : سمعتُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، يقول : قال رسول الله ﷺ : ((مَن تابَ قَبْلَ مَوته بعام تِيبَ عَلَيه)) ، حتى قال : ((بشَهْر)) ، حتى قال : ((بجُمُعة))، حتى قال : ((بيَوم)) ، حتى قال : ((بساعة)) ، حتى قال : ((بفَوَاق))، فقُلت: سُبحانَ الله ، أوَ لَم يَقُل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ

أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ . قال عبد الله: إنَّما أُحدِّثك بما سَمِعْتُ من رسول الله ﷺ [41].

والفَوَاقُ ما بين الحَلْبَتَيْن مِن الوقت . والحديثُ يُرغِّب في التَّوبة ، وضرورة المُبَادَرَة إلَيها ، والإسراع في تحقيق شُروطها على الوجه الأكمل ، وعدم التَّسويف، حتى يَقبل اللهُ التائبَ ، ويُثيبه . ووعدُ الله بالتَّوبة على العُصاة إذا حقَّقوا شُروطَ التَّوبة ، واقع وثابت ، ولا يتخلَّف ، ولا يتبدَّل .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ عَمِلُوا السَّيئاتِ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِها وآمَنُوا إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ [الأعراف: ١٥٣] .

هذا وَعْدٌ إلهيٌّ بأن الله يَغفر للتائبين . ووعدُ الله واقع ، لا يتخلَّف .

والذين اقترفوا الذُّنوبَ ، وارتكبوا المعاصي ، ثُمَّ تابوا ، ورجعوا إلى الله نادمين بعد القِيام بها ، وتمسَّكوا بالإيمان،والتزموا بالعبادات والطاعات، مُخلِصين لله تعالى، ثابتين على الطريق المُستقيم، إنَّ رَبَّكَ يا مُحمَّد مِن بَعد تَوْبتهم ، لَغفور لذنوبهم ، رحيم بهم ، مُحسِن إليهم ، مُتَفَضِّل عليهم .

والآيةُ دليل واضح على أن عَفْو الله ورحمته وكَرَمه أعظم مِن كُل الذنوب والآثام مهما كانت كبيرة وكثيرة. والآيةُ تُشير إلى أن الأعمال الصالحة مِن لوازم الإيمان ومُقتضياته، ولا فَصْل بينهما .

وذِكر الرُّبوبية والإضافة إلى ضمير النبيِّ ﷺ : ﴿ رَبَّكَ ﴾ ، لتعظيم النبيِّ ﷺ وتشريفه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٦٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ عَمِلُوا السَّيئاتِ ﴾ فِيها قَولان: أحدهما أنها الشِّرك، والثاني الشِّرك وغَيره مِن الذنوب ، ﴿ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِها ﴾ يعني: السَّيئات . وفي قَوله : ﴿ وآمَنُوا ﴾ قَولان : أحدهما آمَنُوا باللهِ ، وهو يخرج على قَول مَن قال: هي الشِّرك . والثاني آمنوا بأن الله تعالى يَقبَل التوبة ، ﴿ إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها ﴾ يعني السَّيئات)) .

وما أجملَ قَول أبي نُوَاس _ غَفَرَ اللهُ له _ :

يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنوبي كَثرةً ... فلقد عَلِمْتُ بأن عَفْوَكَ أعظمُ
أدْعُوكَ رَبِّ كما أمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فإذا رَدَدْتَ يَدي فَمَن ذا يَرْحَمُ
إنْ كان لا يَرْجُوكَ إلا مُحْسِنٌ ... فَمَن الذي يَرْجُو المُسِيءُ المُجْرِمُ
ما لي إلَيْكَ وَسِيلةٌ إلا الرَّجا ... وجَمِيلُ ظَنِّي ثُمَّ إنِّي مُسْلِمُ

٤١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨٧) برقم (٧٦٦٤) . وسكت عنه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومَن تابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فإنَّهُ يَتُوبُ إلى اللهِ مَتابًا ﴾[الفُرقان : ٧١] .

ومَن تابَ عن ذُنوبه وآثامه ومَعَاصيه ، وفَعَلَ الطاعات ، فإنه يَتوب حَقَّ التَّوبة (وهي التَّوبة النَّصُوح بشروطها) ، ويَقبَل اللهُ تَوبته ، ويُجازيه خيرًا . أي إنه يَرجع إلى الله رُجوعًا صحيحًا جميلًا حسنًا مَرْضِيًّا ، مُزيلًا للخطايا ، ومُحَصِّلًا للأجر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٠٨ و١٠٩): ((قَوله تعالى : ﴿ فإنَّهُ يَتُوبُ إلى اللهِ مَتَابًا ﴾ . قال ابن الأنباري : معناه : مَن أراد التَّوبةَ، وقَصَدَ حقيقتها ، فينبغي له أن يُريد اللهَ بها ، ولا يَخلِط بها ما يُفسِدها ، وهذا كما يقول الرَّجل : مَن تجر فإنه يتَّجر في البَز (نوع مِن الثياب)، ومَن ناظرَ فإنه يُناظر في النَّحْو ، أي : مَن أراد ذلك فينبغي أن يَقصِد هذا الفن. قال : ويجوز أن يكون معنى هذه الآية: ومَن تاب وعمل صالحًا ، فإن ثوابه وجزاءه يَعظُمان له عند رَبِّه الذي أراد بتوبته ، فلمَّا كان قَوله : ﴿ فإنَّهُ يَتُوبُ إلى اللهِ مَتَابًا ﴾ يؤدِّي عن هذا المعنى كفى منه ، وهذا كما يقول الرَّجل للرَّجل: إذا تَكَلَّمْتَ فاعلم أنَّك تُكلِّم الوزير، أي: تُكلِّم مَن يَعرف كلامك ويُجازيك ... وقال قَوم : معنى الآية: فإنه يَرجع إلى الله مرجعًا يَقبَله مِنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[الزُّمَر : ٥٣] [٤٢].

هذه دعوة إلهية كريمة للناس كُلِّهم إلى التَّوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، فهو سُبحانَه يَقبل التائبين ، ويَعفو عنهم ، ويَمنحهم الأجرَ الجزيل ، والكرامة العُظمى في جَنَّته الخالدة الباقية .

---

٤٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٩٠) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أن ناسًا من المشركين كانوا قد قَتلوا فأكثروا، وزَنَوْا فأكثروا ، ثم أَتَوْا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن الذي تدعو إليه لَحَسَن لَو تُخبِرنا أن لِمَا عَمِلْنا كفَّارة ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس .[والحديث مُتَّفق عليه]. والثاني أنها نزلت في عَيَّاش بن أبي ربيعة والوليد، ونَفَر من المسلمين،كانوا قد أسلموا ثُمَّ عُذِّبوا فافتتنوا، فكان أصحاب رسول الله يَقولون: لا يَقبل اللهُ مِن هؤلاء صَرْفًا ولا عَدْلًا، قوم تركوا دِينهم بعذاب عُذِّبوه، فَنَزلت هذه الآية ، فكتبها عمر إلى عَيَّاش والوليد وأولئك النَّفَر ، فأسلموا وهاجروا ، وهذا قَول ابن عمر . والثالث أنها نزلت في وَحْشِيٍّ ، عن ابن عباس . والرابع أن أهل مكة قالوا : يَزعم محمَّد أنَّ مَن عبد الأوثان وقتل النَّفْس التي حَرَّم اللهُ لَم يُغفَر له ، فكيف نهاجر ونُسلِم وقد فَعَلْنا ذلك ؟ ، فَنَزلت هذه الآية ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا)) .

وهذه الآيةُ عامَّة وشاملة لجميع الناس إلى يوم القيامة ، غير مُقيَّدة ولا مُخصَّصة . حيث إن تَوبة الكافر تَمحو ذَنْبَه ، والإسلامُ يهدم ما قَبْلَه . وتَوبةُ العاصي تَمحو ذَنْبَه ، وتُعيده نظيفًا طاهرًا.

أخْبِرْ عِبادي يا مُحمَّد ، الذين ظلموا أنفسهم وأهلكوها بكثرة المعاصي والآثام والذنوب ، والغرق في الكبائر والفواحش والشَّهوات المُحرَّمة ، والاستكثار منها ، أن لا يَيأسوا مِن رحمة الله ومغفرته ، ولا يَفقدوا الأملَ، ولا يُصابوا بالإحباط، إن الله يَعفو عن الذنوب جميعًا لِمَن شَاء ، مهما كانت كبيرة وكثيرة ، والرحمة الإلهية أكبر مِن كُل الذنوب ، وأعظم مِن جميع المعاصي .

إن الله واسع المغفرة ، عظيم الرحمة . والآيةُ تَدعو الناسَ إلى عدم اليأس من رحمة الله . ولا شَكَّ أن باب الرحمة والتوبة واسع . وهذه الآيةُ أرجى آية في القُرآن على الإطلاق ، لأنها تتضمَّن وعدًا إلهيًّا قاطعًا وجازمًا بمغفرة كُل الذنوب مهما كانت ، لِمَن تابَ وأنابَ وعادَ إلى الله تعالى . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، ورأفته بِخَلْقه ، وإحسانه إليهم ، وتكرُّمه وتفضُّله عليهم .

لقد أضافَ اللهُ عباده إلى نَفْسِه المُقدَّسة : ﴿ عِبادِيَ ﴾ وهذا تشريفٌ لهم ، ورفعٌ لمكانتهم ، وإشعارٌ لهم بالقُرب والكرامة والشرف والرِّفعة . ووَفْق عُرف القُرآن فإن كلمة ﴿ عِبادِيَ ﴾ خاصة بالمؤمنين . ثُمَّ ذَكَرَ الغارقين في الآثام والذنوب ﴿ الذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم ﴾ ، وهذا يدل على الضعف الإنساني أمام الشَّهوات والمُحرَّمات والمعاصي . وجاءَ النَّهْيُ الإلهيُّ : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾ ، وهذا تحذير شديد من اليأس من رحمة الله ، فرحمة الله أعظم من كل الصغائر والكبائر . وجاءَ التأكيدُ الإلهيُّ على سَعَة رحمة الله ، ووعده الأكيد بغُفران الذنوب بلا استثناء، ومَهما كانت هائلة : ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ﴾. وبيَّن اللهُ أنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة : ﴿ إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحيم ﴾ كَي يطمئن عباده، وترتاح قلوبهم، ولا يقلقوا ولا يَنْزعجوا ولا يتضايقوا .

والآيةُ تدل على أن الله أرحم بالعباد من أمهاتهم ، وأن الإسراف في المعاصي يضرُّ الإنسانَ ، ولا يضرُّ اللهَ تعالى . فاللهُ لا تضرُّه المعاصي ، ولا تنفعه الطاعات . وهو سُبحانَه يَدعو الناس إلى التوبة من المعاصي ، وعمل الطاعات ، لمصلحتهم ومنفعتهم ، فهو غنيٌّ عنهم ، لا يَحتاج إليهم ، ولا يَحتاج إلى تَوبتهم ، ولا يَحتاج إلى طاعاتهم . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، فهو سُبحانَه يَتَوَدَّد إلى خَلْقه ، وهو لا يَحتاجهم ، إنما هُم الذين يَحتاجونه . هو الغنيُّ عنهم ، وهُم الفقراء إليه. واللهُ تعالى لَم يقل : إنه يغفر الذنوب جميعًا . بَل قال : ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ﴾ . ووضعُ لفظ الجلالة ﴿ اللهَ ﴾ موضع الضمير ، لبيان عَظَمته تعالى ، وسَعَة رحمته ، وكَرَمه الذي يتجلى في غُفران جميع الذنوب بلا استثناء. وهذا يعني أن الله هو المُستغني المُنعِم على الإطلاق.

واللهُ يغفر الذنوب جميعًا ولا يُبالي ، وهذه المغفرة لا تُنقِص مِن مُلْكه شيئًا . وينبغي على الدُّعاة أن يُبشِّروا الناسَ بمغفرة الله وعَفْوه، ويَفتحوا أمامهم باب التوبة ، ولا يَدفعوهم إلى اليأس من رحمة الله . وينبغي أن يُرشدوا الناسَ إلى محبة الله ، والتزام أوامره، دُون أن يُبسِّطوا لهم المعاصي والآثام، ويُميِّعوا الشريعة ويتلاعبوا بها بذريعة أن الله رحمن رحيم . فلا بد من التوازن والمُوازنة بين الأمور. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) : ((هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العُصاة مِن الكَفَرة وغَيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يَغفر الذنوب جميعًا لِمَن تاب منها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كَثُرت ، وكانت مِثل زَبَد البحر ، ولا يَصِح حَمْل هذه على غَير توبة ، لأن الشِّرك لا يُغفَر لِمَن لَم يَتُبْ مِنه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٦٧) : ((واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سُبحانَه ، لاشتمالها على أعظم بِشارة ، فإنه أوَّلًا أضاف العباد إلى نَفْسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم ، ثُمَّ وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ، ثُم عَقَّب ذلك بالنهي عن القُنوط مِن الرحمة لهؤلاء المُستكثرين من الذنوب ، فالنَّهي عن القنوط للمُذنبين غير المُسرفين من باب الأَوْلَى وبفحوى الخطاب ، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلبَ عند سماعه ظَن، فقال: ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ ﴾ فالألف واللام قد صَيَّرت الجمع الذي دخلت عليه للجِنس، الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة ، إن الله يغفر كُل ذَنْب كائنًا ما كان ، إلا ما أخرجه النَّص القُرآني وهو الشِّرك . ثم لَم يَكتفِ بما أخبر عباده به من مغفرة كُل ذنب ، بل أكَّد ذلك بقوله : ﴿ جَميعًا ﴾ فيا لها من بِشارة ترتاح لها قلوب المُؤمنين المُحسنين ظَنَّهم بربهم ، الصادقين في رجائه ، الخالعين لثياب القُنوط ، الرافضين لسُوء الظن بِمَن لا يتعاظمه ذَنْب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المُتَوَجِّهين إليه في طلب العَفْو ، وما أحسنَ ما عَلَّلَ سُبحانَه به هذا الكلام قائلًا: ﴿ إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحيم ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة ، عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضُّل العظيم والعطاء الجسيم ، وظنَّ أن تقنيط عباد الله وتأييسهم مِن رحمته أَوْلَى بِهم مِمَّا بشَّرهم اللهُ بِه ، فقد رَكِبَ أعظمَ الشَّطَط ، وغَلِطَ أقبحَ الغَلَط)) .

وعن ثَوبان مَوْلى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما أُحِبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿ يا عِبادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾)) [٤٣] .

---

٤٣ رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٦٢) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٠) .

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَختار الدنيا وما فيها بديلًا عن هذه الآية ، لأنها أرجى آية في القُرآن ، وهي تشتمل على الطمع في رحمة الله والثقة المُطْلقة المُبصِرة بِه ، وهذا هو طريق الخلود في الجنة الباقية . أمَّا الدنيا وما فيها ، فزائلة وفانية . والحديثُ يُشير إلى معرفة النبيِّ ﷺ بِرَبِّه ، ورجاحة عقله ، وبُعد نظره، وتعلُّقه بنعيم الجنة في الدار الآخرة ، الذي لا يَفنى ولا يَزول ، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية ، وحُطامها الزائل ، ومُتعتها المُؤقَّتة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤١١) : ((قال ابن حجر : واستدل بعموم هذه الآية على غُفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ، سواءٌ تعلَّقت بحق الآدميين أَم لا ، والمشهور عند أهل السُّنة أن الذنوب كُلَّها تُغفَر بالتوبة وبدونها لِمَن شاء الله، لكنَّ حق الآدمي لا بُد مِن رَدِّه لصاحبه، أو مُحاللته ، وهي أرجى آية في القرآن على الأصح من أقاويل كثيرة ، وذلك لأنه عُرِض على قاتل حمزة (وحشي) آيات كثيرة ، فما اطمأنَّ ولا آمنَ إلا بها . (فائدة) رُئِيَ الشبلي في النَّوم فقيل له : ما فَعل اللهُ بِك . قال : حاسبونا فدقَّقوا ... ثُمَّ مَنُّوا فأعتقوا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَعْفُو عَنِ السَّيئاتِ ويَعْلَمُ ما تَفْعَلُون ﴾ [الشُّورى : ٢٥] .

يَمُنُّ اللهُ على عباده ، ويُبيِّن لهم سَعَةَ رحمته ، وعظيمَ فَضْله وكَرَمه ، فهو سُبحانَه يَقْبَل التَّوبةَ مِن عباده ، إذا حقَّقوا شُروطها (تَرْك الذَّنْب ، والندم ، والاستغفار ، والعَزْم على عدم العَودة) ، ورجعوا إلى الله مُخلِصين صادقين ، والتزموا أوامرَ الله ، وعملوا الطاعات ، واجتنبوا نَوَاهيه ، وابتعدوا عن المعاصي.ويَصْفَحُ اللهُ بِمَنِّه وفَضْله وكَرَمه عن الذُّنوب والآثام كُلِّها (الصغائر والكبائر) إذا تابوا . أي إنه سُبحانَه يَعفو عن الذُّنوب في الماضي ، ويتجاوز عمَّا سَلَفَ مِنها، ولا يُؤَاخِذ بها، ويَقْبَل التَّوبة في المستقبل ، ويَعْلَم جميعَ أعمالكم ، ويَعرِف أقوالكم وأفعالكم ، وما تَصنعونه مِن خَير أو شَر . ومع هذا ، يَتوب على التائبين ، ويتجاوز عنهم ، ويَقْبلهم إذا رَجعوا إلَيه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٦١) : ((﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ، أي: يَقْبَل مِن المُذنبين مِن عباده تَوبتهم إلَيه ، مِمَّا عَمِلوا مِن المعاصي ، واقترفوا مِن السَّيئات . والتَّوبة النَّدم على المعصية ، والعَزْم على عدم المُعَاوَدَة لها . وقِيل : يَقْبَل التَّوبة عن أوليائه ، وأهلِ طاعته . والأول أوْلَى ، فإن التَّوبة مَقبولة مِن جميع العِباد ، مُسْلِمهم وكافرهم، إذا كانت صحيحة صادرة عن خُلوص نِيَّة وعزيمة صحيحة ، ﴿ ويَعْفُو عَنِ السَّيئاتِ ﴾ على العُموم لِمَن تاب عَن سَيِّئته ، ﴿ ويَعْلَمُ ما تَفْعَلُون ﴾ مِن خَير وشَر ، فيُجازي كُلًّا بما يَستحقه)) .

وعن أنس _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((اللهُ أفرحُ بتَوبة عَبده مِن أحدكم سَقَطَ على بَعِيره ، وقد أضَلَّه في أرضٍ فَلاةٍ)) [٤٤].

إن اللهَ _ وهو الغنيُّ عن كُل شيء _ يَفْرَح بتوبة عبده أكثر مِن فَرح الشخص الذي صادفَ بعيرَه مِن غَير قَصْد ، وقد أضاعه في الصحراء . ولا شَك أن فرح الشخص حين يعثُر على بعيره الذي فَقَدَه في الصحراء عظيمًا وهائلًا ، لا يُمكن وصفه ، ولا تقديره ، لأن هذا الأمر يعني نجاة الشخص مِن الهلاك الحتمي والموتِ الأكيد . والشخصُ لا يَملِك شيئًا أغلى من حياته ونفْسه .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٥٢) : ((فإطلاق الفرح في حَق الله مَجَاز عَن رِضَاه، وبَسْط رحمته ، ومزيد إقباله على عبده وإكرامه له ، (مِن أحدكم إذا سقط على بعيره) أي صادفه وعَثَرَ عليه بلا قَصْد، فَظَفِرَ به ، ومِنه قَولهم : على الخبير سَقَطْتَ ، (قد أضَلَّه) أي ذهب منه ، أو نَسِيَ مَحِلَّه (بأرضٍ فلاةٍ) أي مَفَازة ، والمراد أن التوبة تقع مِن الله في القَبول والرِّضى مَوقعًا يقع في مِثْله ما يُوجِب فَرْطَ الفرح مِمَّن يُتَصَوَّر في حَقِّه ذلك ، فعبَّر بالرِّضى عن الفرح تأكيدًا للمعنى في ذِهن السامع ، ومُبالغةً في تقديره ، وحقيقة الفرح لغةً انشراح الصدر بلَذَّة عاجلة ، وهو مُحَال في حَقِّه (يعني في حَق الله) تَقَدَّسَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُم أن يُكَفِّرَ عَنكُم سَيِّئاتِكُم ويُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ ﴾[التَّحريم : ٨] .

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، تُوبوا إلى الله توبةً صادقةً جازمة ، بقُلوب مُخلِصة، ونوايا صافية. والتَّوبةُ النَّصُوح هي التي تَنصَح صاحبَها ، حتى لا يَعُود إلى الذُّنُوب التي تابَ مِنها . و﴿ نَصُوحًا ﴾ تعني بالغةً في النُّصْح . والتَّوْبَةُ النَّصُوح تقوم على أربعة أركان : تَرك الذَّنْب ، والنَّدم ، والاستغفار ، والعَزْم على عدم العَودة إلَيه . وإذا كان هناك حُقوق للعباد ، يُضاف رُكن خامس ، وهو رَد المظالم لأصحابها ، أو التَّحَلُّل مِنهم .

لعلَّ اللهَ يَرحمكم ، ويتجاوز عنكم ، ويَغفِر لكم ذُنوبكم . و"عسى" مِن الله واجبة التَّحَقُّق والوُقوع ، وهذا إطماعٌ مِن الله لعباده بقَبول التَّوبة ، رحمةً بهم ، وإحسانًا إليهم ، وتفضُّلًا عليهم . والكريمُ إذا أطمعَ أوصلَ إلى الغاية ، والعظيمُ إذا وَعَدَ وفَّى ، لأنه لا يُغيِّر كلامَه ، ولا يَتلاعب به ، ولا يُخلِف الوعد . واللهُ لا يَدَع إعطاءَ عباده ما أطمعهم فيه .

---

٤٤ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٣٢٥) برقم (٥٩٥٠)، ومسلم (٤/ ٢١٠٤) برقم (٢٧٤٧) .

وهذا على ما جَرَتْ به عادة المُلوك مِن الإجابة بِ عسى ، ولعلَّ ، وهُم يَقصِدون التأكيد والقَطْع . وصِيغةُ الإطماع تدل على كِبرياء الله وعَظَمَته ، وتُوضِّح أن قَبول التَّوبة تفضُّل مِن الله على العبد ، ولَيست واجبةً على الله تعالى . ويجب على العبد أن يكون بين الخوف والرَّجاء ، مهما فَعَلَ مِن العبادات والطاعات والقُرُبَات . والتائبُ مِن الذَّنْب كَمَن لا ذَنْبَ له . والتَّوبةُ تَهدِم ما قَبْلَها ، كما يَهْدِم الإسلامُ ما قَبْلَه .

ويُدخِلكم في الآخرة بساتين جميلة وحدائق رائعة ، تجري من تحت قُصورها أنهارُ الجَنَّة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٦٩) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ أي : تَوبة ذات نُصْح تَنصَح صاحبها بترك العَوْد إلى ما تابَ مِنه . واختلفوا في معناها . قال عُمر وأُبَي ومُعاذ : التَّوبة النَّصُوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذَّنْب ، كما لا يعود اللبنُ إلى الضَّرْع . قال الحسن : هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى ، مُجْمِعًا على ألا يَعود فيه . قال الكلبي : أن يَستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويُمسِك بالبدن . قال سعيد بن المُسيِّب : تَوبة تَنصَحون بها أنفسَكم . قال القُرَظي : يَجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار تَرْك العَوْد بالجَنَان (القلب) ، ومُهَاجَرَة سَيِّئ الإخوان)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٥) أن النبيَّ ﷺ قال : ((يا أيُّها الناس ، تُوبوا إلى الله ، فإنِّي أتوبُ في اليوم إلَيه مائة مَرَّة)) .

هذا الأمرُ النبويُّ بالتَّوبة مُوَافِق للأمر الإلهيِّ بالتَّوبة : ﴿ وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أيُّها المؤمنون ﴾ [النُّور : ٣١] . والتَّوبةُ أعظم قواعد الإسلام ، وهي بداية الطريق إلى الآخرة .

ولكنَّ السؤال الذي يَطرح نَفْسَه : لماذا كان النبيُّ ﷺ يَتُوب وهو مَعصوم مِن الذُّنوب ؟[٤٥] .

---

٤٥ في شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣و٢٤) : ((باب استحباب الاستغفار والاستكثار مِنه . قَوله ﷺ : " إنه لَيُغَانُ على قلبي ، وإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائة مَرَّة " [صحيح مسلم]... والمراد هنا ما يَتَغَشَّى القلب. قال القاضي: قِيل المراد الفَتَرات والغَفَلات عن الذِّكْر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فَتَرَ عنه ، أو غَفَلَ ، عَدَّ ذلك ذَنْبًا واستغفرَ مِنه . قال : وقِيل : هو هَمُّه بسبب أُمَّته ، وما اطَّلع عليه مِن أحوالها بعده فيستغفر لهم . وقِيل : سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أُمَّته وأمورهم ومحاربة العدو، ومُداراته ، وتأليف الْمُؤلَّفة ، ونحو ذلك فيشتغل بذلك مِن عظيم مَقَامه ، فيراه ذَنْبًا بالنسبة إلى عظيم منزلته ، وإن كانت هذه الأمور مِن أعظم الطاعات وأفضل الأعمال ، فهي نُزول عن عالي درجته ورفيع=

وعن عُمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عنه ـ : ـ ﴿ تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ ، قال : ((أن يُذنِب العبدُ ثُمَّ يتوب ، فلا يَعُود فيه)) [٤٦].

هذا يدل على أهمية أن تكون التَّوبة صادقة جازمة خالصة،مع العَزْم على عدم العَودة إلى الذَّنْب.

وفي تفسيره ابن كثير (٤/ ٥٠٢) : ((قال العلماء : التَّوبة النَّصُوح هو أن يُقلِع عن الذَّنْب في الحاضر ، ويَندَم على ما سَلَفَ مِنه في الماضي ، ويَعزِم على أن لا يَفعل في المُستقبل ، ثُمَّ إن كان الحق لآدميٍّ ردَّه إليه بطريقه)) .

وفي زاد المسير (٨/ ٣١٤): ((وسُئِلَ الحسن البصري عن التَّوبة النَّصُوح، فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وتَرْك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود)) .

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ : ((التَّوْبَةُ النُّصُوحُ تُكفِّر كُلَّ سَيِّئة ، وهو في القرآن)) ، ثُمَّ قرأ : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُم أن يُكَفِّرَ عَنكُم سَيِّئاتِكُم ﴾ [٤٧]**. هذا يدل على فَضْل الله ، ورحمته ، وكَرَمه ، وإحسانه إلى خَلْقه ، وتفضُّله عليهم.**

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ أنه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول : ((النَّدَمُ تَوْبَة)) [٤٨].

هذا حَض على النَّدَم ، وبيان لأهميته ، فهو الرُّكن الأعظم في التَّوبة ، وليس التَّوبة نفْسها، لأن هناك شُروط أُخرى للتَّوبة. والنَّدَمُ هو الهَمُّ والغَمُّ والحَسْرَة، ويجب أن يكون خالصًا لله،وتعظيمًا له، وخوفًا مِن عَذابه وعِقابه . وقد يكون " النَّدَم تَوبة " مِن خصائص الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية التي لم تُشارَكْ فيها .

=مَقامه مِن حُضوره مع الله تعالى ، ومُشاهدته ، ومُراقبته ، وفراغه مِمَّا سِواه ، فيستغفر لذلك. وقِيل : يحتمل أن هذا الغَيْن هو السَّكينة التي تغشى قَلْبَه لقَوله تعالى: ﴿ فَأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِم ﴾ [الفتح: ١٨]. ويكون استغفاره إظهارًا للعُبودية ، والافتقار ، ومُلازَمة الخُشوع ، وشُكْرًا لِمَا أولاه . وقد قال المحاشي : خَوف الأنبياء والملائكة خَوْف إعظام ، وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى . وقِيل : يحتمل أن هذا الغَيْن حال خَشية وإعظام يَغشى القلب ، ويكون استغفاره شُكْرًا كما سَبق . وقِيل : هو شيء يَعتري القلوبَ الصافية مِمَّا تتحدَّث به النَّفْس ، فهو شأنها ، والله أعلم)) .

٤٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٧) برقم (٣٨٣٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٤٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٧) برقم (٣٨٣١) وصحَّحه .

٤٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧١) برقم (٧٦١٢) ، وصحَّحه الذهبي .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٢٩٨) : (((النَّدَمُ تَوْبة) أي هو مُعظَم أركانها ، لأن الندم وَحْدَه كافٍ فيها مِن قَبيل : (الحَجُّ عَرَفَة)، وإنَّما كان أعظم أركانها لأن النَّدم شيء مُتعلِّق بالقلب، والجوارح تَبَع له ، فإذا نَدِمَ القلب انقطعَ عن المعاصي، فرجعت برجوعه الجوارح . قال في الحِكَم : مِن علامة مَوت القلب عدم الحُزن على ما فاتك مِن المُرافقات، وترك النَّدم على ما فعلته مِن الزَّلات . فائدة : مِن ألفاظهم البليغة: مِخْلَب المَعصية يُقَصُّ بالنَّدامة، وجَناح الطاعة يُوصَل بالإدامة . قال الغزَّالي : إنما نَصَّ على أن النَّدَم تَوْبة، ولم يَذكُر جميعَ شروطها ومُقدِّماتها ، لأن النَّدَم غَير مَقدور للعبد ، فإنه قد يَندَم على أمر ، وهو يريد أن لا يكون . والتَّوْبة مَقدورة له ، مأمور بها ، فعُلِم أن في هذا الخبر معنى لا يُفهَم مِن ظاهره، وهو أن النَّدَم لتعظيم الله وخَوف عِقابه، مِمَّا يَبعث على التَّوْبة النَّصُوح،فإذا ذكر مُقدِّمات التَّوبة الثلاث،وهي ذِكْر غاية قُبح الذُّنوب، وذِكر شِدَّة عُقوبة الله وأليم غضبه، وذِكر ضَعْف العبد وقِلَّة حيلته، يَندَم، ويَحمِله النَّدَمُ على ترك اختيار الذَّنْب، وتبقى ندامته بقلبه في المستقبل، فتحمله على الابتهال والتَّضَرُّع،ويَجزِم بعدم العَوْد إليه ، وبذلك تتمُّ شُروط التَّوبة الأربعة ، فلمَّا كان النَّدَمُ مِن أسباب التَّوْبة سمَّاه باسمها)) .

١٦_ الاستغفار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النِّساء : ١٠٦] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ بالاستغفار ، إنَّ اللهَ كان مُبَالِغًا في المغفرة والرحمة لِمَن يَستغفره .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٤٥٩) : ((ذَهَبَ الطبري إلى أن المعنى : استغفِر اللهَ مِن ذَنْبِك في خِصامك للخائنين ، فأمَرَه بالاستغفار لمَّا هَمَّ بالدَّفْع عنهم ، وقَطع يد اليهودي . وهذا مذهب مَن جوَّز الصغائر على الأنبياء صلوات الله عليهم . قال ابن عطية : وهذا ليس بذَنْب ، لأن النبيَّ ﷺ إنما دافع على الظاهر ، وهو يعتقد براءتهم . والمعنى: واستغفِر اللهَ للمُذنبين مِن أُمَّتك والمُتخاصمين بالباطل ، ومَحِلُّك من الناس أن تسمع مِن المُتداعيين ، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمُذنِب . وقِيل : هو أمر بالاستغفار على طريق التسبيح كالرَّجل يقول : استغفِر اللهَ ، على وجه التسبيح مِن غَير أن يَقْصِد توبة مِن ذَنْب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النِّساء : ١١٠] . ومَن يَقترف ذَنْبًا ، أو يَظلِم نَفْسَه بارتكاب مَعصية يستحق بها عذاب الله، ثم يتوب مِن ذَنْبه،يجد اللهَ عظيم المغفرة، واسع الرحمة،يَقبَل التائبين العائدين إلَيه، ويتجاوز عنهم.

والآية تدل على رحمة الله الواسعة ، وفضله العظيم ، وإحسانه إلى خَلْقه ، وتفضُّله عليهم ، وتحثُّ الناسَ على التَّوبة، وتَدعوهم إلى الاستغفار. والآيةُ تُبيِّن أن رحمة الله أعظم مِن كُل الذنوب. وكُلُّ مَن تابَ إلى الله ، ورَجَعَ إلَيه نادمًا ومُسْتَغْفِرًا ، تابَ اللهُ عليه مِن أيِّ ذَنْب ، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا . والمقصود بالآية هو تحقيق شُروط التَّوبة،وليس مُجرَّد الاستغفار باللسان،لأن هذا لا يَنفع من غير توبة ، ولا فائدة مِنه . ولا يَخفى أن العاصي يضرُّ نَفْسَه بمعصيته ، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا .

والآيةُ عامَّة وشاملة ومُطْلَقة ، والعِبرة بعُموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٢٧٢): ((يعني بذلك جَلَّ ثناؤه : ومَن يَعمل ذَنْبًا ، وهو السُّوء ، ﴿ أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ بإكسابه إيَّاها ما يستحق به عقوبة الله ، ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ﴾ يقول : ثُمَّ يتوب إلى الله بإنابته مِمَّا عَمِلَ مِن السُّوء وظُلْم نفْسه ، ومُراجعته ما يُحِبه الله من الأعمال الصالحة التي تمحو ذَنْبَه وتُذهِب جُرْمَه ، ﴿ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يقول : يَجِد رَبَّه ساترًا عليه ذَنْبَه بصَفْحه له عَن عُقوبة جُرْمه ، رحيمًا به)) .

وفي مسند أحمد(١/ ٨): عن أبي بكر _ رضي اللهُ عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما مِن مُسلِم يُذنِب ذَنْبًا ، ثُمَّ يتوضَّأ، فيُصلِّي ركعتين ، ثُمَّ يَستغفر اللهَ تعالى لذلك الذَّنْب ، إلا غُفِرَ له)). وقرأ هاتين الآيتين : ((﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾، ﴿ والذينَ إذا فَعلوا فاحشةً أوْ ظَلموا أنفُسَهُم ﴾ _ الآية _)) .

هذا الحديث يَدعو إلى التَّوبة ، ويحثُّ على الاستغفار . والتَّوبةُ تتحقَّق بالإقلاع عن الذَّنْب ، والنَّدم، والاستغفار، والعَزْم الصادق على عدم العَودة إلى الذَّنْب، حتى لو لم يُصَلِّ هاتَيْن الركعتين. ولكنَّه إذا صلَّى الرَّكعتين، ثُمَّ استغفرَ اللهَ ، كان جديرًا بأن يَتوب الله عليه ، ويتجاوز عنه ، ويَرحمه ، ويَغفر له ، ويَعفو عنه . والمُراد بالاستغفار في الحديث هو الاستغفار النافع المصحوب بتحقيق شروط التَّوبة . أمَّا مُجرَّد الاستغفار باللسان ، فليس له فائدة ولا منفعة ، ولا يَجعل العبدَ تائبًا .

ووعدُ الله بالمغفرة ، واقع لا مَحَالة ، وثابت بلا شَك ، لا يتخلَّف ، ولا يَزول .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾[مُحمَّد : ١٩] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : واطلب المغفرةَ لَكَ وللمؤمنين والمؤمنات . واستغفر اللهَ يا مُحمَّد أن يقع مِنك ذَنْب ، أو استغفره لِمَا فَعَلْتَهُ مِن تَرْك الأوْلَى ، واستغفر اللهَ لأُمَّتك ، وادْعُ لهم بمغفرة ذُنوبهم وآثامهم . وهذا تشريفٌ للأُمَّة المُحمَّدية وإكرام لها ، حيث أمرَ اللهُ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يَستغفر لذنوبهم، وهو النبيُّ الكريم الطاهر الشفيع صاحب الدُّعاء المُستجاب ، وحبيب الله تعالى.

والنبيُّ مُحمَّد ﷺ معصوم ، ومَغفور له ، ولكنه أُمِرَ بالاستغفار لبيان خُضوعه لله تعالى ، وليكون قُدوةً لأُمَّته، ومثالًا أعلى لها ، تستنُّ به ، وتسير على خُطاه. والتَّعبير بالذَّنْب عن " خِلاف الأوْلَى"، بسبب مكانة النبيِّ العظيمة ، ومنزلته الرفيعة ، ومنصبه الجليل ، وحسناتُ الأبرار سَيِّئات المُقرَّبين، وأيضًا لتعليم النبيِّ ﷺ التَّواضع ، واستصغار عباداته وطاعاته أمام عَظَمَة الله تعالى. والتَّدقيقُ الإلهيُّ على الأنبياء في كل التفاصيل ، لأنهم سادة البشرية ، وزعماء الإنسانية ، وقادة الحضارة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٠٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما يعني استغفِر اللهَ أن يقع مِنك ذَنْب . الثاني : استغفِر اللهَ لِيَعْصِمَكَ مِن الذُّنوب. وقِيل : لمَّا ذَكَرَ له حال الكافرين والمؤمنين ، أمره بالثبات على الإيمان ، أي : اثبُت على ما أنتَ عليه مِن التَّوحيد ، والإخلاص ، والحذر عمَّا تحتاج معه إلى استغفار. وقِيل : الخِطاب له ، والمُراد به الأُمَّة ، وعلى هذا القَول تُوجِب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يَضِيق صَدْرُه مِن كُفر الكُفَّار والمُنافقين ، فنزلت الآية ، أي : فاعلم أنه لا كاشف يَكشِف ما بِكَ إلا الله ، فلا تُعلِّق قَلْبَك بأحد سِواه . وقِيل : أُمِرَ بالاستغفار لِتَقْتَدِيَ به الأُمَّة ، ﴿ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ ، أي : ولذنوبهم . وهذا أمر بالشَّفاعة)) .

وروى التِّرمذي في سُننه (٥/ ٣٨٣)وصحَّحه: عن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _: ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾، فقال النبيُّ ﷺ : ((إنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليوم سبعين مَرَّة)) .

إن النبيَّ ﷺ مَعصوم ، وطاهر ، ومُطهَّر ، ومُنَزَّه عن العُيوب والنقائص والذنوب والآثام . وهو يَستغفر اللهَ ، ويَطلب مِنه العَفو والمغفرة والصَّفْح ، تعظيمًا لله تعالى ، وخُضوعًا له ، وإظهارًا للعُبودية والافتقار إلى الله ، والتواضع له، وليس لأن النبيَّ صاحب ذُنوب وآثام ، حاشاه مِن ذلك.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٥٩) عن إحدى روايات الحديث : (((واللهِ إنِّي لأستغفرُ اللهَ) أي: أطلب مِنه المغفرة (وأتوب إليه) ظاهره أنه يطلب ويَعزِم على التَّوبة.والمُراد أنه يقول هذا (في اليوم أكثر مِن سبعين مَرَّة) تصفية للقلب ، وإزالة للغاشية ، وهو وإن لم يكن له ذَنْب ، لكنه يجب أن يكون دائم الحضور ، فإذا التفتت نَفْسُه إلى ما هو صُورة حَظ بشري كأكل وشُرب ونَحْو ذلك، مِمَّا قد يَخِلُّ بكَمال الحُضور ، عَدَّه ذَنْبًا ، واستغفرَ اللهَ مِنه ، والمُراد بالسَّبعين التَّكثير لا التَّحديد)) اهـ. وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٣) : ... حدثنا عاصم عن عبدالله ابن سَرْجِس قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ ، وأكلتُ معه خُبْزًا ولَحْمًا، أو قال: ثَرِيدًا، قال: فقلتُ له: أستغفرَ لك النبيُّ ﷺ ؟ . قال: نعم، ولَكَ، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ .

هذا يدل على امتثال النبيِّ لأوامر الله تعالى ، وتطبيقها على أرض الواقع . فقد أمره اللهُ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، ونفَّذ النبيُّ ﷺ هذا الأمرَ بكل إخلاص وأمانة وصِدق وتواضع ، مِمَّا يدل على مكانة النبيِّ العظيمة ، ومنزلته الجليلة ، وأنه صَفْوة الله مِن خَلْقه ، وأحب عباده إلَيه.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وبالأسحارِ هُم يَسْتَغْفِرُون ﴾[الذاريات : ١٨] .

هذه صِفة عظيمة للمؤمنين الصادقين ، وهي الاستغفار في الأسحار (جمع سَحَر ، وهو وقت ما قبل الفجر) . والآيةُ تشتمل على مدح لهم، حيث إنهم يَطلبون المغفرةَ مِن اللهِ في آخر الليل ، ومَحْو ذُنوبهم ، والتجاوز عن سيئاتهم . إنهم يَعتبرون أنفسهم مُقصِّرين ومُذنِبين ، معَ أنهم يَقضون وقتهم في الطاعة والعبادة . وهذا يدل على تعظيمهم لله تعالى ، واعترافهم بالتقصير والذُّنُوب ، لذلك يَستغفرون اللهَ بكثرة في الأسحار (أواخر الليل) ، وكأنهم قَضَوا الليلَ في المعاصي ، عِلْمًا بأنهم قليلو النَّوم، كثيرو التهجُّد، يُكثِرون مِن الاستغفار في الأسحار . وهذا يدل على عُلُوِّ هِمَّتهم.

لقد مدحهم اللهُ ووصفهم بأنهم يُحْيُون الليلَ في الصلاة مُتَهَجِّدين ، فإذا وَصَلوا إلى وقت السَّحَر، انتقلوا إلى كثرة الاستغفار، وكأنهم قَضَوا لَيْلَهم في الذُّنُوب والمعاصي والآثام . وهذا يدل على تعظيمهم للهِ تعالى ، وخَشيته ، وشِدَّة خَوفهم مِنه ، واعترافهم بالتقصير في أداء الطاعات . والمؤمنُ دائمًا يتَّهم نَفْسَه بالتقصير في حَق اللهِ تعالى ، وإذا رَضِيَ عَن نَفْسَه اضطره ذلك إلى الخُمول وفساد العمل . والسَّحَرُ هو السُّدُس الأخير مِن الليل .

وقِيل : إنهم يُصَلُّون بالأسحار ، لأن صلاتهم في هذه الأوقات لطلب المغفرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٣٦) : ((﴿ وبالأسحارِ هُم يَسْتغفرون ﴾ . أي أنهم مع قِلَّة هُجُوعهم وكثرة تهجُّدهم، إذا أسْحَرُوا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسْلَفوا في ليلهم الجرائم . وفي بناء الفِعل على الضمير إشعارًا بأنهم أحِقَّاء بذلك ، لِوُفور عِلمهم بالله وخَشيتهم مِنه)) .

وهذه الأوقاتُ العظيمة (الأسحار) يُرجَى فيها استجابة الدعاء . كما تدل على إخلاص المؤمن وحِرصه على العبادة في وقت يكون فيه الناس نائمين ، أمَّا هو فمستيقظ لأداء العبادة المُقدَّسة ، مُتفوِّقًا على شهواته الطينية ، والنَّزعةِ الإنسانية نحو الراحة والنَّوم. وعلى قَدْر المشقة يكون الأجرُ . وينبغي للمؤمن أن يختار الأوقات المُبَارَكة والأزمنة الشريفة لأداء عباداته وطاعاته ، لكي تكون أشد تأثيرًا في القلب ، وأدعى للقَبول .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٩٧) : ((قال مجاهد وغَير واحد : يُصَلُّون. وقال آخرون : قاموا الليل ، وأخَّرُوا الاستغفارَ إلى الأسحار)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٢٠) : ((أي : يطلبون أوقات السَّحَر مِن الله سُبحانَه أن يَغفر ذنوبهم ... وقال الكلبي ومُقاتل ومُجاهد : هُم بالأسحار يُصَلُّون ، وذلك أن صلاتهم طلب مِنهم للمغفرة . وقال الضَّحاك : هي صلاة الفجر)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وبالأسحارِ هُم يَسْتغفرون ﴾ . مدحٌ ثانٍ . أي : يستغفرون مِن ذُنوبهم ، قاله الحسن . والسَّحَر وقت يُرجَى فيه إجابة الدعاء . وقال ابن عمر ومُجاهد: أي يُصَلُّون وقت السَّحَر، فَسَمُّوا الصلاةَ استغفارًا.وقال الحسن : في قوله تعالى: ﴿كانوا قَليلًا مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ : مَدُّوا الصلاةَ مِن أول الليل إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السَّحَر ... . قال الأحنف بن قيس : عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجَنَّة ، فإذا قوم قد باينونا بَوْنًا بعيدًا لا نَبلُغ أعمالَهم : ﴿كانوا قَليلًا مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ ، وعَرَضْتُ عملي على أعمال أهل النار ، فإذا قوم لا خَير فيهم ، يُكذِّبون بكتاب الله ، وبرسوله ، وبالبَعْث بعد الموت ، فوجدنا خَيْرَنا مَنْزلةً ، قَوْمًا خلطوا عملًا صَالِحًا وآخَر سَيِّئًا)) .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((يَنْزِلُ رَبُّنا تباركَ وتعالى كُلَّ لَيْلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخِر ، يقول : مَن يدعوني فأستجيب له ؟ ، مَن يَسألني فَأُعطيه ؟ ، مَن يَستغفرني فأغفر له ؟)) [٤٩].

هذا يدل على أهمية قيام الليل في الصلاة والتسبيح وقراءة القُرآن والدعاء ، واللهُ أقرب إلى العبد مِن نَفْسِه التي بين جَنْبَيْه ، وهو سُبحانَه كريم جواد ، يتودَّد إلى خَلْقه ، وهو غنيٌّ عنهم ، يَحُثُّهم على دُعائه ، ويَعِدهم بالإجابة ، ووَعْدُ الله واقع لا مَحَالة ، ولا يَتخلَّف ، ويَدعوهم إلى سُؤاله والطلب مِنه ، ويَعِدهم بإعطائهم ما يُريدون وما يَطلبون وما يَحتاجون إليه ، ويَدعوهم إلى طلب المغفرة مِنه ، ويَعِدهم بغُفران ذُنوبهم ، والتجاوز عن خطاياهم ، ومَنحهم الثوابَ العظيم ، كَي يَفوزوا بنعيم الجنة ، ويَنجوا مِن عذاب النار .

ويجب استغلال هذه الفُرص الذهبية على أكمل وجه، ويجب أيضًا استغلال الأوقات المُبَارَكة مِن الليل ، لأن الزمنَ إذا ذَهب لا يَعود . وإذا أضاعَ الإنسانُ عُمره سيَندَم يوم لا يَنفع الندم ، وتكون حياته الضائعة وَبالًا عليه، وسببًا في هلاكه وعذابه. والوقتُ للعابد كرأس المال للتاجر . يجب استغلاله واستثماره على أحسن صورة .

---

٤٩ متفق عليه. البخاري (١/ ٣٨٤) برقم (١٠٩٤) ، ومسلم (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) .

إنَّ اللهُ مُنَزَّهٌ عن الحَركة والانتقال من مكان إلى مكان . والمعنى أن اللهَ قريبٌ من العبد تتنزَّل رحمته في هذا الوقت الفضيل ، فيقول تعالى : " مَن يدعوني فأستجيب له ؟ " ، وهو غنيٌّ عن العالَمين. لكنَّ اللهَ يُذكِّر عبادَه بأهمية الدعاء،ويَعِدهم بالاستجابة لهم، مع أنه سُبحانَه لا يحتاجهم، بل هُم الذين يحتاجونه . فالدعاءُ هُوَ العبادة ، وتتزايد أهميته في هذا الوقت العظيم آخر الليل . ويقول تعالى : " مَن يَسألني فَأُعطيه ؟ " . واللهُ لا تَنفَد خزائنُه ، وهو يُنفِق في الليل والنهار ، فلم يُصَبْ بالفقر أو التعب . والإنسانُ العادي يغضب إذا سألتَه ، أمَّا الخالق العظيم فيغضب إذا لَم تسأله . فلا شيء يُعجِزه ، وكلُّ شيء خاضع له ، فيُعطي كُلَّ صاحب مسألة مسألته دون أن يَنقص مِن مُلْكه شيء. ويقول تعالى : " مَن يَستغفرني فأغفر له ؟ " . كُلُّ الذنوب مهما كانت كبيرة وكثيرة هي أصغر مِن رحمة الله التي وَسِعَتْ كُلَّ شيء . والكبائرُ مِثل الصغائر في المَغفرة. والمغفرةُ الإلهية أعظمُ مِن أن تُحصَر في صغيرة أو كبيرة . والعَفْوُ قرارٌ إلهيٌّ ، لا يَخضع لحجم الإثم . إنَّه مَحْضُ فَضْل مِن الله تعالى . وما أجملَ قَول الشاعر :

يا نَفْسُ لا تَقْنَطي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ إنَّ الكبائرَ في الغُفرانِ كاللمَمِ

إنَّ الله مُنَزَّه عن الحركة ، لأن الحركة انتقال من مكان إلى مكان ، ومن كان هكذا شأنه فهو حادث، والله قديم.كما أنه تعالى مُنَزَّه عن المكان والزمان،فكان الله ولا أين، وهو الآن حيث كان، وهو الآن كما كان. وأيضًا، إن الله لا يَحُلُّ في الأشياء، ولا تَحُلُّ الأشياء فيه، وما كان مَحَل الحوادث فهو حادث ، وما خالطته الحوادث فهو حادث ، وكُل الحوادث مُفتقِرة إلى مُوجِد ، واللهُ غنيٌّ عن كل شيء ، وهذا يَنفي صِفة الحُدُوث عن ذاته العَلِيَّة المُقدَّسة .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٠و٣١): ((قَوله :" يَنْزل رَبُّنا إلى السماء الدنيا ". استدل به من أثبت الجهة ، وقال : هي جهة العُلُو . وأنكر ذلك الجمهور ، لأن القول بذلك يُفضي إلى التَّحَيُّز _ تعالى الله عن ذلك _. وقد اخْتُلِف في معنى النُّزول على أقوال : فَمِنهم مَن حمله على ظاهره وحقيقته ، وهم المُشبِّهة _تعالى الله عن قَولهم _ . ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جُملة،وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مُكابَرة. والعجب أنهم أوَّلوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث، إمَّا جهلًا وإمَّا عنادًا . ومِنهم مَن أجراه على ما ورد ، مؤمنًا به على طريق الإجمال مُنَزِّهًا الله تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف.ونقله البَيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسُّفْيَانَيْن (الثَّوري وابن عُيَينة) والحَمَّادَيْن (ابن زَيد وابن سَلَمَة) والأوزاعي والليث وغَيرهم. ومنهم مَن أوَّله على وجه يليق مُستعمَل في كلام العرب ، ومِنهم مَن أفرط في

التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف، ومِنهم مَن فصَّل بين ما يكون تأويلُه قريبًا مُسْتَعْمَلًا في كلام العرب ، وبين ما يكون بعيدًا مهجورًا ، فأَوَّلَ في بعض، وفوَّض في بعض، وهو منقول عن مالك ، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد ...والحاصل أن تأوُّله بوجهَيْن : إِمَّا بأن المعنى يَنْزِل أمرُه، أو المَلَكُ بأمره، وإمَّا بأنه استعارة بمعنى التَّلَطُّف بالداعين والإجابة لهم ونَحْوه. وقد حكى أبو بكر بن فُورَك أن بعض المشايخ ضبطه بِضَم أوَّله على حذف المفعول، أي يُنْزِل مَلَكًا [50]... . وقال البَيضاوي : ولَمَّا ثبت بالقواطع أنه سُبحانه مُنَزَّه عن الجِسمية والتَّحيُّز ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد نور رحمته، أي ينتقل من مُقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة)) .

وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٩٤و١٩٦) : ((وقد روى حديث النُّزول عشرون صحابِيًّا ، وقد سبق القول أنه يستحيل على الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ الحَركة والنُّقْلة والتَّغَيُّر ... والواجب على الخَلْق اعتقاد التَّنْزيه ، وامتناع تجويز النُّقْلة ، وأن النَّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام: جسم عالٍ، وهو مكان الساكن، وجسم سافل، وجسم ينتقل من عُلُو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعًا . فإن قال العامي : فما الذي أراد بالنُّزول ؟، قيل: أراد به معنى يليق بجلاله لا يَلزَمك التفتيش عنه ، فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟، قُلنا: قد علمتَ أن النازل إليك قريب مِنك ، فاقتنع بالقُرب ، ولا تَظُنَّه كَقُرب الأجسام)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إنَّهُ كانَ غَفَّارًا ﴾[نُوح : ١٠] . هذا كلام النبيِّ نُوح ﷺ ، فقد دعا قَوْمَه بإخلاص وأمانة وصِدق وكفاءة ونشاط ، ورغَّبهم في التَّوبة لمصلحتهم . آمِنوا باللهِ، وصدَّقوا بوَحدانيته، وأقِرُّوا بنُبُوَّة رسوله إلَيكُم (نُوح ﷺ) ، وتُوبوا عن الكُفر والمعاصي، وارجعوا إلى الله بإخلاص النِّية ، فإنَّ رَبَّكم كثير المغفرة ، يَغفِر الذُّنوبَ ، ويَقبَل التائبين . ومَن تابَ إلى الله تابَ عليه، مهما كان غارقًا في الكُفر والضلال ، ومهما كانت ذُنوبه كبيرة وكثيرة .

٥٠ يُؤَيِّد هذا الرأيَ ما رواه النَّسائي في سُننه الكبرى(٦/ ١٢٤): عن أبي هريرة وأبي سعيد_ رضي الله عنهما_ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إن الله _ عز وجل_ يُمهل حتى يمضيَ شَطرُ الليل الأول ، ثم يأمر مُناديًا يُنادي، يقول: هل مِن داعٍ يُستجاب له ؟، هل مِن مُستغفرٍ يُغفَر له ؟، هل مِن سائل يُعطَى ؟)) . قال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٣٤) : ((صحَّحه أبو محمد عبد الحق)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٤٩) : ((يَقول : فقلتُ لهم : سَلُوا رَبَّكم غُفرانَ ذُنوبكم، وتُوبوا إليه مِن كُفركم ، وعِبادةِ ما سِواه مِن الآلهة ، ووَحِّدوه ، وأخْلِصوا له العبادة ، يَغفِر لكم . إنه كان غَفَّارًا لذُنوب مَن أناب إليه ، وتاب إليه مِن ذُنوبه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾[المُزَّمل : ٢٠] .

واطلبوا مِن الله غُفران ذُنوبكم ، والتجاوز عن آثامكم ، في كل زمان ومكان ، وفي جميع أحوالكم ، فإنَّ الإنسان ضعيف أمام المعاصي ، ومُعرَّض لاقتراف الذنوب ، وارتكاب المعاصي ، ولا يُوجد إنسان بلا ذُنوب ، ولا يَخلو إنسان من تقصير وتفريط، فهو مَخلوق خطَّاء وغَير مَعصوم. واللهُ يَغفِر الذُّنوبَ كُلَّها مهما كانت كبيرة وكثيرة،وهو سُبحانَه يَصفح عن المُستغفرين،ويُسامح التائبين . إن اللهَ غَفُور لذُنوبكم قبل التَّوبة ، رحيم بكم بعدها . وهو سُبحانَه واسع المغفرة لِمَن استغفره ، وعظيم الرحمة لِمَن استرحمه . وهو سُبحانَه لا يَرُدُّ مَن يَأتيه تائبًا مُسْتَغْفِرًا ، ولا يَطْرُده .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٩٣): ((﴿ واسْتَغْفِرُوا اللهَ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : وَسَلُوا اللهَ غُفرانَ ذُنوبكم ، يَصْفَحْ لكم عنها ، ﴿ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ ، يقول : إن الله ذُو مغفرة لذُنوب مَن تاب مِن عباده مِن ذُنوبه ، وذُو رحمة أن يُعاقبهم عليها مِن بعد تَوبتهم مِنها)) .

١٧_ الشَّفاعة

إنَّ الشَّفاعة نِعمة عظيمة مِن نِعَم الله تعالى على خَلْقه ، فهي مُساعدة الأعلى للأدنى والأخذ بيده بعد أن تقطَّعت به السُّبُل ، فهي مِن تَجَلِّيات الرَّحمة الإلهية غير المَحدودة .

والشَّفاعةُ إحدى العلاقات في منظومة الأسباب والمُسَبِّبات الخاضعة للإرادة الإلهية . فالقويُّ يُساعد الضعيف ، والغنيُّ يَدعم الفقيرَ ، والصالح يأخذ بيد المُذنِب ، وصاحب الجاه يُوظِّف منزلته الرفيعة لتحقيق مصالح الضُّعفاء والمحتاجين والمنبوذين ، دُون إضاعة للحُقوق أو تحايُل على القوانين . أمَّا تعريفها الدَّقيق: ((قال الزرقاني : هي انضمام الأدنى _ أي لُجُوؤه وقَصْده _ إلى الأعلى ، ليَستعين به على ما يَرُومُه (يَطلبه ويُريده) ، أي جَلْب مَنفعة ، أو دفع مَضَرَّة)) [٥١].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٤٣) : ((فالشَّفاعة : ضَم غَيرك إلى جَاهِك ووسيلتك)) .

---

٥١ سفينة النجاة في عقيدة الأئمة الهُداة ، ص ٣٥٧ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلا بإذنه ﴾[البقرة : ٢٥٥] .

لا أحد يَشفع عند الله إلا بأمره ، ولا أحد يَجرؤ على الشَّفاعة لأحد إلا بعد أن يَأذن اللهُ بذلك، ويَسمح به . وهذا يدل على عَظَمَة الله وجَلاله وكِبريائه . ولا يوجد إنسان يملك تأثيرًا مُسْتَقِلًّا عن إرادة الله تعالى.وفي هذا إبطال لعقيدة المُشركين الذين يَزعُمون أن الأصنام تَشفع لهم.

والاستفهامُ في الآية للإنكار والتقريع وتوبيخ الذينَ يَزعُمون أن أحدًا مِن البشر يَملِك الشَّفاعة، ويَستطيع أن يتحكَّم بمصائر الخَلْق ، ويَنفعهم ، ويُنقِذهم مِن العُقوبة والعذاب .

ولو استطاعَ مخلوق أن يَشفع لمخلوق بدون إذن الله تعالى ، فهذا يعني أنه شريك لله ، واللهُ ليس له شريك في مُلكه وسُلطانه ، وكُلُّ ما سِوى الله عبدٌ ذليل لله ، وخاضع له .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٥٦) : ((وتقرَّرَ في هذه الآية أن الله يَأذن لِمَن يَشاء في الشَّفاعة، وهُم الأنبياء والعُلماء والمُجاهدون والملائكة وغَيرهم مِمَّن أكرمهم وشرَّفهم اللهُ ، ثُمَّ لا يَشْفَعُون إلا لِمَن ارتضى، كما قال : ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨])) .

إن الشَّفاعة لا تكون إلا بإذن الله وأمْرِه، واللهُ وَحْدَه هو المُتَصَرِّف في مَلَكُوته وسُلطانه وخَلْقه. والآيةُ ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارتضى ﴾ تتحدَّث عن شَفَاعة الملائكة _ عليهم السلام _ ، وأنهم لا يشفعون إلا لِمَن رضي اللهُ عنه ، تعظيمًا لله ومهابةً مِنه . وهؤلاء هُم أهل الإيمان (أهل شهادة أن لا إله إلا الله) .

وتدلُّ هذه الآية على عَظَمَة الله وسَعَة رحمته ، فقد جَعل الملائكةَ يَشفعون للمؤمنين ، ويُساعدونهم في الموقف الصعب الذين هُم فيه بأمسِّ الحاجة إلى الشَّفاعة والمساندة . وشفاعةُ الملائكة للمؤمنين تُشير إلى مكانة الملائكة العظيمة، ومنزلتهم الرفيعة، وتكريمِ المؤمنين وإنقاذهم.

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٧): ((يقول : ولا تَشفَع الملائكةُ إلا لِمَن رَضِيَ اللهُ عنه)).

وعن جابر بن عبد الله _ رضي اللهُ عنهما _ : أن رسول الله ﷺ تلا قولَ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ ولا يَشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، فقال ﷺ : ((إنَّ شفاعتي لأهل الكبائر مِن أُمَّتي)) [٥٢].

يُوضِّح الحديثُ رحمةَ النبيِّ ﷺ بأُمَّته وشفقته عليها . فهو ﷺ لَن يَترك أُمَّته تَضيع يوم القيامة ، فتأتي شَفاعته كطَوْق نَجاة للغَرقى أهلِ الكبائر ، الذين ماتوا على التَّوحيد ، لكنهم ارتكبوا ذُنوبًا عظيمة.ولا شَك أن شَفاعة النبيِّ ﷺ إنما هي بإذن الله وأمره.والفضلُ كُلُّه لله وَحْدَه لا شريك له .

---

٥٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٤) برقم (٣٤٤٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٢٨) : ((قال ابن بطَّال : سَلَّمَ بعضُ المُعتزلة وُقوع الشَّفاعة ، لكن خصَّها بصاحب الكبيرة الذي تاب مِنها ، وبصاحب الصغيرة الذي مات مُصِرًّا عليها ، وتُعُقِّبَ بأن مِن قاعدتهم أن التائب مِن الذَّنْب لا يُعذَّب ، وأن اجتناب الكبائر يُكفِّر الصغائر ، فيَلزَم قائله أن يُخالِف أصْلَه ، وأُجيب بأنه لا مُغَايَرَة بين القَوْلَيْن ، إذْ لا مانع مِن أن حُصول ذلك للفريقين إنما حصل بالشَّفاعة ، لكن يحتاج مَن قَصَرَها على ذلك إلى دليل التَّخصيص. وقد تقدَّم في أول الدَّعَوَات الإشارة إلى حديث : " شفاعتي لأهل الكبائر مِن أُمَّتي " ، ولم يَخُصَّ بذلك مَن تاب . وقال عِياض : أثبتت المعتزلةُ الشَّفاعةَ العامة في الإراحة مِن كَرْب المَوقِف ، وهي الخاصَّة بِنَبِيِّنا ، والشَّفاعة في رَفْع الدَّرجات ، وأنكرتْ ما عَداهما . قُلْتُ : وفي تسليم المعتزلة الثانية نظر . وقال النَّووي تَبَعًا لعِياض : الشَّفاعة خَمْس : في الإراحة مِن هَوْل المَوقِف ، وفي إدخال قوم الجَنَّة بغَير حساب ، وفي إدخال قوم حُوسِبوا فاستحقوا العذاب أن لا يُعذَّبوا ، وفي إخراج مِن أُدْخِل النار مِن العُصاة ، وفي رَفْع الدَّرَجَات)) .

وفي حديث الشَّفاعة الطويل يُقال للنبيِّ ﷺ يوم القيامة : ((وقُلْ يُسْمَعْ ، وسَلْ تُعْطَه ، واشْفَعْ تُشَفَّع))[٥٣]. لا يخفى أن هذه الرُّتبة السامية التي لم يصل إليها أيُّ مخلوق سوى النبيِّ ﷺ ، تُشير إلى الكَرَم الإلهيِّ الجليل ، والمَقَامِ النبويِّ العظيم . فاللهُ تعالى مَنَحَ النبيَّ ﷺ شَرَفَ الشَّفاعة لأُمَّته لإنقاذهم من النار في موقف بالغ الصعوبة ، حيث تقطَّعت بهم السُّبُل ، ولا ناصر لهم سوى الله تعالى . كما يدل الحديث على مكانة المؤمنين الذين أحَبَّهم اللهُ تعالى ، لذلك أنقذهم من النار ، وجَعَلَ لهم مِن هَمِّهم مَخْرَجًا ، ومِن ضِيقهم فَرَجًا .

كما أن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ أصحاب المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة ، لهم شفاعة تدل على فضلهم وشرفهم وكرامتهم عند الله تعالى . ففي صحيح مسلم (١/ ١٦٧) : أن الله تعالى يقول يومَ القيامة : ((شَفَعَت المَلائكةُ ، وشَفَعَ النَّبِيُّون ، وشَفَعَ المؤمنون ، ولَم يَبْقَ إلا أرحمُ الراحمين)) . وعندئذ يُخرِج اللهُ مَن شاء مِن النار . فرحمته وَسِعَتْ كُلَّ شيء . كما أن طاعات العباد لا تنفعه _ سُبحانَه _ ، ومعاصيهم لا تَضُرُّه . وَلَوْ ألقى اللهُ كُلَّ المَخلوقاتِ في النار لَمَا كان ظالمًا لأيِّ واحد فيهم ، ولو أبقى العُصَاةَ في النَّار خالدين لَمَا قَدِرَ أحدٌ على إخراجهم . لكنَّ اللهَ _ الذي خَلَقَ العبادَ _ هو أرحم بهم مِن أمهاتهم ، ومُتَفَضِّل عليهم ، ومُحسِن إلَيهم .

---

٥٣ متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٦٩٥) برقم (٦٩٧٥) ، ومسلم (١/ ١٨٠) برقم (١٩٣).

والعجيبُ أن المُعتزلة أنكرت الشَّفاعةَ تَمَسُّكًا بقَول الله تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ ﴾[البقرة : ٤٨] .

هذه الآية خاصَّة بالكافرين جَمْعًا بين الأدلة ، أي إنهم لا شَفَاعة لهم ولا قَبول ، ولا أحد سيُنقِذهم مِن عذاب الله وعُقوبته . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٧٦) : ((قال الزَّجاج: كانت اليهود تَزعُم أن آباءها الأنبياء تَشفَع لهم يوم القيامة فآيَسَهُم اللهُ بهذه الآية من ذلك)).

وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فما تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِين ﴾ [المُدَّثر : ٤٨] . أي : إن الكافرين لا تَنفعهم شفاعةُ الأنبياء والملائكة ، كما تنفع المؤمنين . وهذا دليلٌ على أن الشَّفاعة خاصَّة بالمؤمنين ، وتَنفعهم وَحْدَهم دُون غَيرهم ، وأن الكافرين لا شَفاعة لهم ، وهُم خالدون في النار .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣١٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ فما تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِين ﴾ يقول : فمَا يَشفَع لهم الذين شَفَّعهم اللهُ في أهل الذُّنوب مِن أهل التَّوحيد ، فتنفعهم شَفاعتهم . وفي هذه دَلالة واضحة على أن الله تعالى ذِكْرُه مُشفِّع بَعْضَ خَلْقه في بعض)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٣٥ و٣٦):((قال القاضي عِياض رحمه الله : مذهب أهل السُّنة: جَواز الشَّفاعة عَقْلًا ، ووجوبها سَمْعًا ، بصَريح قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَئذٍ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ إلا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] ، وقَوله : ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارتضى ﴾ ، وأمثالهما ، وبخبر الصادق ﷺ . وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التَّواتر بصِحَّة الشَّفاعة في الآخرة لمُذنِبي المؤمنين . وأجمعَ السَّلَفُ والخَلَفُ ومَن بَعْدهم مِن أهل السُّنة عليها، ومَنعت الخوارج وبعضُ المُعتزلة مِنها ، وتعلَّقوا بمذاهبهم في تخليد المُذنبين في النار ، واحْتَجُّوا بقَوله تعالى : ﴿ فما تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِين ﴾ ، وبقَوله تعالى: ﴿ ما للظالمينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾[غافِر : ١٨] . وهذه الآيات في الكُفَّار ، وأمَّا تأويلهم أحاديث الشَّفاعة بكَوْنها في زيادة الدرجات فباطل ، وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغَيره صريحة في بُطلان مذهبهم ، وإخراج مَن اسْتَوْجَبَ النار ، لكنَّ الشَّفاعة خمسة أقسام : أوَّلها مُختصة بِنَبِيِّنا ﷺ ، وهي الإراحة مِن هَوْل المَوقِف ، وتَعجيل الحِسَاب ... الثانية في إدخال قوم الجَنَّة بغير حساب ، وهذه وردت أيضًا لِنَبِيِّنا ﷺ، وقد ذَكَرَها مُسلم رحمه الله. الثالثة الشَّفاعة لقَوم اسْتَوْجَبُوا النارَ، فيَشْفَع فِيهم نَبِيُّنا ﷺ، ومَن شاء اللهُ تعالى ... الرابعة فِيمَن دَخَلَ النارَ مِن المُذنِبين ، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم مِن النار بشفاعة نَبِيِّنا ﷺ والملائكة وإخوانهم مِن المُؤمنين ، ثُمَّ يُخرِج اللهُ تعالى كُلَّ مَن قال : لا إله إلا الله ، كما جاء في الحديث، لا يبقى فيها إلا الكافرون.الخامسة في زيادة الدَّرَجات

في الجَنَّة لأهلها ، وهذه لا يُنكِرها المُعتزلة ، ولا يُنكِرون أيضًا شَفاعة الحَشْر الأول . قال القاضي عِياض : وقد عُرِفَ بالنَّقْل المُستفيض سؤال السَّلَف الصالح رضي اللهُ عنهم شفاعةَ نَبِيِّنا ﷺ ، ورغبتهم فيها. وعلى هذا لا يُلْتَفَت إلى قَول مَن قال إنه يُكرَه أن يَسأل الإنسانُ اللهَ تعالى أن يَرزقه شفاعةَ مُحمَّد ﷺ ، لكَوْنها لا تكون إلا للمُذنِبين، فإنها قد تكون كما قَدَّمْنا لتخفيف الحساب، وزيادة الدَّرَجَات، ثُم كُل عاقل مُعترف بالتقصير، مُحتاج إلى العَفْو، غَير مُعْتَد بعمله، مُشفِق مِن أن يكون من الهالكين. ويَلزَم هذا القائل ألا يَدْعُوَ بالمغفرة والرحمة، لأنها لأصحاب الذنوب . وهذا كُلُّه خِلاف ما عُرِفَ مِن دُعاء السَّلَف والخَلَف،هذا آخر كلام القاضي رحمه الله ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾[النِّساء : ٨٥]. مَن يَشفع بين الناس شفاعةً حسنةً ، وهي الشَّفاعة المُوافقة للشَّرع ، وتكون في البِر والطاعة ، يَكُن له نصيب من الأجر والثواب . ومَن يَشفع شفاعةً سَيِّئَةً ، وهي الشَّفاعة المُخَالِفة للشَّرع ، وتكون في الشَّر والمعاصي ، يَكُن له نصيب مِن الوِزْر والإثم بسببها . وكان اللهُ على كل شيء مُقْتَدِرًا ، يُجازي كُل امرئ بعمله ، إنْ خيرًا فخير ، وإنْ شرًّا فشر . أي إنه تعالى يُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته .

مَن يَسْعَ في عمل صالح يُؤَدِّي إلى حصول خَير وتحصيل مَنفعة ، يَكُن له نصيب مِن ذلك الخَير . ومَن يَسْعَ في أمر باطل يُؤَدِّي إلى حُصول شَر وفساد ، يَكُن له نصيب مِن ذلك الإثم ، ويتحمَّل جُزْءًا مِن المسؤولية . والآيةُ تُشير إلى أن الشَّفاعة قِسْمان : شَفاعة حسنة (تكون في أعمال الخير والصلاح) ، وشفاعة سَيِّئة (تكون في أعمال الشر والفساد) .

وليس كُل شَفاعة تُؤدِّي إلى تحصيل أجر لصاحبها ، فالشَّفاعةُ الحسنة وَحْدها هي التي يُؤْجَر عليها العبد ، وهي ما أَذِنَ فيه الشَّرع ، وسَمَحَ به . أمَّا ما لم يَأذن به الشَّرع ، فهو شفاعة سَيِّئة مرفوضة . وهكذا ، نجد أن الشَّرْع قد رغَّب في الشَّفاعة الحسنة التي تُشجِّع على أعمال البِر والخَير، وتُعزِّز العملَ الخيري والتكافلي في المجتمع الواحد المُتماسك، وجَعل للشَّافع نصيبًا مِن الخَير ،كما جرَّم الشَّفاعةَ السيئة التي تُؤدِّي إلى نشر الشَّر والباطل والفساد ، وتقطيع الروابط الاجتماعية ، وتشتيت كلمة المجتمع ، وحمَّل فَاعِلَها الإثمَ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥٦) : ((قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ ، أي : نصيب منها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشَّفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس ، والشَّفاعة السَّيئة هي المَشْي بالنميمة

بين الناس . وقِيل : الشَّفاعة الحسنة هي حُسن القَول في الناس يُنال به الثواب والخير ، والسَّيئة هي : الغِيبة وإساءة القَول في الناس يُنال به الشر . وقَوله : ﴿ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ ، أي : مِن وِزْرها . وقال مجاهد : هي شفاعة الناس بعضهم لبعض ، ويُؤْجَر الشَّفيع على شَفَاعته وإن لم يُشفَّع . قَوله تعالى: ﴿ وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مُقْتَدِرًا مُجَازِيًا)) .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٥١و٤٥٢) : ((الأجر على الشَّفاعة ليس على العُموم ، بَل مَخصوص بما تَجوز فيه الشَّفاعة ، وهي الشَّفاعة الحسنة ، وضابطها ما أَذِنَ فيه الشَّرْعُ دون ما لَم يَأذَن فيه، كما دلَّت عليه الآية.وقد أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال:"هي في شَفاعة الناس بَعْضِهم لبعض " . وحاصله أن مَن شَفَعَ لأحد في الخير ، كان له نصيب من الأجر. ومَن شَفَعَ له بالباطل كان له نصيب مِن الوِزْر. وقِيل : الشَّفاعة الحسنة الدُّعاء للمؤمن ، والسَّيئة الدُّعاء عليه.قَوله:﴿ كِفْلٌ ﴾ نصيب، هو تفسير أبي عُبَيدة.وقال الحسن وقَتادة:الكِفْل الوِزْر والإثم)) .

وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل ، أو طُلبت إليه حاجة ، قال : ((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، ويَقضي اللهُ على لِسان نَبِيِّه ﷺ ما شاء)) [٥٤].

اشفعوا للناس في الخير، وتوسَّلوا في قضاء حاجاتهم، وتحقيق رغباتهم ، وعلاج مُشكلاتهم ، وحَل أزماتهم ، تحصلوا على الثواب العظيم ، ويكن لكم مِثل أجر قضاء حاجة المُحتاج ، سواءٌ قُضِيَتْ حاجته أَم لا. والأجرُ حاصلٌ بمُجرَّد الشَّفاعة، ونَيَّةُ المؤمن أبلغُ مِن عمله. ويُجري اللهُ على لسان نَبِيِّه ﷺ ما شاءَ مِن مُوجِبات قضاء الحاجة أو عدم قضائها . وكُل شيء بتقدير الله وقضائه .

هذه دَعوة صريحة وحَض على الشَّفاعة الحسنة التي تَعكس تكافلَ أبناء المجتمع الواحد ، ومساعدتهم لبعضهم البعض . والناسُ متفاوتون في السُّلطة والثروة والنفوذ والمكانة الاجتماعية . وحِين يُساعد القويُّ الضعيفَ ، ويَدعم الغنيُّ الفقيرَ ، ويعطف الكبير على الصغير ، ... إلخ . عندئذ سيختفي الحقدُ مِن النُّفوس ، وتزول الكراهية مِن المجتمع ، ويصبح المجتمعُ على قلب رَجل واحد ، لا مجال لاختراقه أو تفتيته . وهذه هي نقطة القوة المركزية في التكافل الاجتماعي .

والتَّفَاوُتُ مَبْدَأ كَوْني ، والناسُ دَرَجاتٌ ومراتب، يختلفون في قدراتهم وإمكانياتهم، وهذا البناء الاجتماعي ذو الطبقات المُتفاوتة في كل شيء ، يَدعو إلى تعاون الناس فيما بينهم ، كَي يَقْدِروا على التحرك إلى الأمام . والقطارُ لا يسير إلا إذا تكاملت حركة مَقطوراته بشكل مُتناسق .

---

٥٤ متفق عليه واللفظ للبخاري(٢/ ٥٢٠)برقم (١٣٦٥).ومسلم(٤/ ٢٠٢٦) برقم(٢٦٢٧).

وقال المُناوي في فيض القدير (١/ ٥٢٥) : (((اشْفَعُوا) أمر مِن الشَّفاعة ، وهي الطلب والسؤال بوسيلة أو ذِمَام _ يعني حُرمة _. (تُؤْجَرُوا) أي يُثيبكم الله على الشَّفاعة، وإن لَم تُقْبَل، والكلام فيما لا حَد فيه مِن حدود الله لوُرود النَّهْي عن الشَّفاعة في الحدود. قال القرطبي : وقَوله: (تُؤْجَرُوا) بالجزم جواب الأمر المُتضمِّن لمعنى الشرط،وفيه الحث على الخير بالفعل وبالتَّسَبُّب . قال في الأذكار : يُستحب الشَّفاعة إلى وُلاة الأمر وغَيرهم مِن ذِي الحقوق ، ما لم تكن في حَد ، أو في أمر لا يجوز تركه ، كالشَّفاعة إلى ناظر طفل أو مجنون ، أو وقف في ترك بعض حق مَن في وِلايته ، فهذه شَفاعة مُحرَّمة . (اشفعوا) أي لِيَشْفَع بعضُكم في بعض (تُؤْجَرُوا) أي يُثِبْكُم اللهُ تعالى (ويقضي الله على لِسان نَبِيِّه ما شاء) وفي رواية " ما أحب " : أي يُظهِر اللهُ تعالى على لِسان رسوله بوَحْي أو إلهام ما قدَّره في عِلْمه أنه سيكون ، مِن إعطاء وحِرمان ، أو يُجْرِي اللهُ على لِسانه ما شاء مِن مُوجبات قضاء الحاجة أو عدمها ، فإذا عَرَضَ صاحبُ حاجة حاجته عليَّ ، فاشفعوا له، يَحْصُل لكم أجر الشَّفاعة،أي: ثوابها، وإن لم تُقبَل، فإن قُضِيَتْ حاجة مَن شفعتُم له ، فبتقدير الله ، وإن لم تُقْضَ فبتقدير الله . وهذا مِن مكارم أخلاق المُصطفى ﷺ ، ليصلوا جناح السائل وطالب الحاجة، وهو تخلُّق بأخلاقه تعالى، حيث يقول لِنَبِيِّه:" اشْفَعْ تُشَفَّعْ "، وإذا أُمِرَ ﷺ بالشَّفاعة عِنده مَعَ استغنائه عنها ، لأن عنده شافعًا مِن نفْسه ، وباعثًا مِن وجوده ، فالشَّفاعة عِند غَيره مِمَّن يحتاج إلى تحريك داعية الخير أَوْلَى ، ففيه حَث على الشَّفاعة ، ودَلالة على عظيم ثوابها . والأمر للنَّدْب ، ورُبَّما يَعرِض له ما يُصيِّر الشَّفَاعة واجبة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما مِن شَفيعٍ إلا مِن بَعْدِ إذنه ﴾[يُونُس : ٣] .

لا يَشفع أحدٌ لأحدٍ عند الله في يوم القيامة،إلا مِن بَعد أن يَأذَن الله في الشَّفاعة، ويَسمح بها. وإذن الله قائم على الحِكمة العظيمة المُنَزَّهة عن العبث والفوضى . وهذا يدل على عَظَمَة الله وجلاله وكِبريائه وجبروته وسُلطانه ، وسَيطرته على كُل شيء ، فلا أحد يتصرَّف في ملكوته إلا مِن بعد إذنه وأمره ، سُبحانه وتعالى . والآيةُ تردُّ على المُشركين الذين زعموا أن الأصنام تَشفَع لهم يوم القيامة ، وتَحميهم مِن عذاب الله ، وتُنقِذهم مِن عُقوبته. وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٨٠) : ((﴿ ما مِن شَفيعٍ ﴾ في موضع رفع . والمعنى : ما شفيع ﴿ إلا مِن بَعْدِ إذنه ﴾ ، فلا يشفع أحد، نبيٌّ ولا غَيْرُه ، إلا بإذنه سُبحانَه . وهذا رَد على الكُفار في قَولهم فيما عبدوه مِن دُون الله تعالى : ﴿ هَؤلاءِ شُفَعَاؤنا عِندَ اللهِ ﴾ [يُونُس : ١٨] ، فأعلمهم الله أن أحدًا لا يَشفَع لأحد ، إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تَعقِل ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعةَ إلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهْدًا ﴾[مَرْيم : ٨٧] .

لا أحد يَشفَع أو يُشفَع له إلا من اعتنق شهادة التوحيد . فالعهد شهادة أن لا إله إلا الله .

والاستثناء في الآية مُنقطع . والمعنى : هؤلاء الكُفَّار لا يَملِكون الشَّفاعةَ لأحدٍ، لكن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، واتَّخذوا عند الله عَهْدًا (شهادة أن لا إله إلا الله) ، وقاموا بحَقِّها ، يَملِكون الشَّفاعةَ . والعَهْدُ هو تَوحيد الله والإيمان به وطاعته وعدم معصيته .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٨١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لا يَملِك هؤلاء الكافرون بربِّهم يا مُحمَّد _ يوم يَحشُر اللهُ المُتَّقين إلَيه وَفْدًا _ الشَّفاعةَ ، حِين يَشفَع أهلُ الإيمان بعضُهم لبعض عند الله ، فيَشفَع بعضُهم لبعض ﴿ إلا مَنِ اتَّخَذَ ﴾ مِنهم ﴿ عِندَ الرَّحمنِ ﴾ في الدنيا ﴿ عَهْدًا ﴾ بالإيمان به ، وتصديق رَسوله ، والإقرار بما جاء به ، والعمل بما أَمَرَ به)) .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : أنه قرأ : ﴿ إلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهْدًا ﴾ ، فقال : ((اتَّخِذُوا عِند الرحمن عهدًا، فإن الله يقول يوم القيامة: مَن كان له عندي عهد فَلْيَقُمْ)) ، قال : فقُلنا : فَعَلِّمْنا يا أبا عبد الرحمن ، قال : ((قُولوا : اللهُمَّ فاطرَ السماوات والأرض ، عَالِمَ الغَيب والشهادة ، إنِّي أعهدُ إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وَحْدَك ، لا شريك لك ، وأن محمدًا عبدك ورسولك ، فإنك إنْ تَكِلْني إلى نَفْسي تُقَرِّبْني مِن الشَّر ، وتُباعِدْني مِن الخَير ، وإني لا أثقُ إلا برحمتك ، فاجعله لي عندك عهدًا ...))[٥٥] .

تتَّضح أهميةُ شهادة التَّوحيد في نجاة صاحبها يوم القيامة ، ونَيْله الشَّرف الجليل ، وحُصوله على المُساعدة الكُبرى (الشَّفاعة) بإذن الله تعالى . واللهُ تعالى لَم يَخلُق العبادَ ليُعذِّبهم ، بل ليُدخلهم الجنةَ إلا مَن رفض ذلك . أي رفض الإقرارَ بتوحيد الله تعالى . وعندئذ على الفرد أن يَلُوم نَفْسَه لأن اللهَ تعالى هَداه إلى طريق الخَير، لكنه استحبَّ العَمى على الهُدى ، وارتضى لنفسه أن يكون عَدُوًّا لخالقه ، وعليه أن يتحمَّل مسؤوليةَ قراره الذي اختاره بمَحْض إرادته دُون إجبار .

وعن عُبادة بن الصامت_رضي اللهُ عنه_قال:سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:((مَن جاء بالصَّلَوَات الخَمْس ، قد أكملهنَّ ، لَم يُنقِص مِن حَقِّهِنَّ شيئًا ، كان له عند الله عهد أن لا يُعذِّبه، ومَن جاء بهِنَّ وقد انتقصَ مِن حَقِّهِنَّ شيئًا، فليس له عند الله عهد، إنْ شاءَ رَحِمَه، وإنْ شاءَ عذَّبه))[٥٦] .

---

٥٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٩) برقم (٣٤٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٥٦ رواه ابن حِبَّان(٥/٢١).قال الحافظ في الفتح(١٢/٢٠٣):((صحَّحه ابن حِبَّان وابن السَّكَن)) .

إنَّ الصَّلَوَات الخَمْس هي العهد الوثيق عند الله تعالى . والحِرْصُ عليها ، وأداؤها في أوقاتها على أكمل وجه ، تكون عهدًا عند الله تعالى أن يَحْمِيَ العبدَ من العذاب ، أمَّا إن انتقصَ منها ، وأخلَّ بأدائها فقد خسر عَهْدَه عند الله تعالى، وهو تحت المَشيئة الإلهية ، إمَّا الرحمة أو العذاب .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَن شَهِدَ بالحَقِّ وهُم يَعْلَمُون﴾ [الزُّخْرُف : ٨٦] [٥٧].

ولا تَملِك الآلهةُ التي عَبَدُوها مِن دُون الله أن تَشفع لأحدٍ عند الله ، لأنه لا شَفاعة إلا بإذن الله وأمره ، واللهُ وَحْدَه هو المُتَصَرِّف في خَلْقه وسُلطانه ومَلَكُوته ، ﴿ إلا مَن شَهِدَ بالحَقِّ ﴾ ، إلا مَن شَهِدَ بالحق ، وآمنَ مُخْلِصًا عن عِلْم وبصيرة ، وهؤلاء تكون شفاعتهم مَقبولة عند الله ، ونافعة لعباده . وهُم يَعْلَمُون أن الشَّفاعة تَكون بإذن الله وأمره ، وَحْدَه لا شريك له .

لا تَقْدِرُ الأصنامُ على الشَّفاعة للذين عَبَدُوها ، لأنها لا تَضُرُّ ولا تَنفَع . أمَّا مَن آمَنَ باللهِ وأطاعه، وشَهِدَ بالحق عَن عِلْمٍ وبَصيرةٍ ويَقين ، فإنَّ شَفاعته نافعة ومقبولة عِندَ اللهِ بإذنه، وخاصَّةً بالمؤمنين دُون غَيرهم . والذينَ شَهِدوا بالحق (التَّوحيد) هُم عِيسى وعُزَير والملائكة، فهؤلاء تَنفَع شفاعتُهم للمُؤمنين لا الكُفَّار ، معَ أنَّهم عُبِدُوا مِن دُونِ اللهِ ، واتَّخذهم الجُهَّالُ آلهةً .

إنَّ عِيسى وعُزَير والملائكة يَشْهَدُون بالحقِّ والوَحدانية لله تعالى ، وهُم يَعْلَمُون حقيقةَ ما شَهِدُوا به . وهذا دليلٌ على أن عِلْم الشَّاهد بما يَشْهَد بِه ، مِن شُروط صِحَّة شَهادته .

---

٥٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٣٣ و٣٣٤) : ((سبب نزولها أنَّ النَّضْر بن الحارث ونَفَرًا معه قالوا: إنْ كان ما يَقول محمد حقًّا ، فنحن نَتَوَلَّى الملائكةَ ، فَهُم أحق بالشَّفاعة مِن محمَّد ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . وفي معنى الآية قولان : أحدهما أنه أراد بالذين يَدْعُون مِن دونه آلهتهم ، ثم استثنى عِيسى وعُزَيْرًا والملائكة ، فقال : ﴿ إلا مَن شَهِدَ بالحَقِّ ﴾ ، وهو أن يَشْهَدَ أن لا إله إلا الله ، وهُم يَعْلَمُون بقلوبهم ما شَهِدُوا به بألسنتهم . وهذا مذهب الأكثرين ، مِنهم قَتادة. والثاني أن المراد بالذين يَدْعُون عيسى وعُزَيْر والملائكة ، الذين عَبَدَهم المشركون بالله ، لا يملِك هؤلاء الشفاعة لأحد ، إلا مَن شَهِدَ ، أي : إلا لمن شَهِدَ بالحق ، وهي كلمة الإخلاص ، وهُم يَعْلَمُون أن الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ عيسى وعُزَيْرًا والملائكة ، وهذا مذهب قوم منهم مجاهد. وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عَالِمًا بما يَشهد به))اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٥) : ((والاستثناء مُتَّصل إن أُريد بالموصول كُل مَا عُبِدَ مِن دُون الله ، لاندراج الملائكة والمسيح فِيه ، ومُنفصِل إن خُصَّ بالأصنام)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٠٦) : ((وأراد بِ ﴿ الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ عِيسى وَعُزَيْرًا والملائكة . والمعنى : ولا يَملِك هؤلاء الشَّفاعةَ إلا لِمَن شَهِدَ بالحق ، وآمنَ على عِلْمٍ وبصيرة ، قاله سعيد بن جُبَير وغَيْرُه . قال : وشهادة الحق : لا إلهَ إلا اللهُ)) اهـ .

١٨_ الابتلاء والفِتَن اختبار لإيمان المؤمن

إنَّ الابتلاء يُجسِّد اختبارًا حقيقيًّا لإيمان المؤمن ، ومَدى التزامه بالشريعة ، وقُدرته على الصَّبر والتَّحَمُّل والعملِ تحت ضغط الأزمات . والشدائدُ تكشف عن معادن الرجال ، تمامًا كما تَكشف النارُ عن الذهب الحقيقي ، وتَفصِله عن الشوائب . ولا توجد درجات إيمانية في الجَنَّة مَجَّانِيَّة ، بدون امتحانات دُنيوية صعبة ، وعملياتِ تَمْحِيص وفَرْز وغَرْبَلة . والفِتَنُ حَصَاد المُنافقين .

ومنظومةُ الاختبارات في الدُّنيا تكشف عن قوة القلب الحامل للعقيدة . وفي السَّراء يكون كُلُّ الناس ثابتين واثقين ضاحكين ، لكنَّ الأزمات هي المِحَك الحقيقي للكَشْف عن المَعدِن النَّفِيس .

وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثُمَّ الذين يَلُونهم في المَنزلة ، وهكذا . كما أن الإنسان كُلما عَلَتْ مكانته الإيمانية كان بلاؤه أشد ، وامتحانه أصعب ، وحسنات الأبرار سَيِّئات المُقرَّبين. وكُلَّما ارتفعَ مَقامُ العَبدُ ومنزلته عِند الله تعالى ، ازدادَ التَّدقيقُ عَلَيه ، وازداد اختبارُه صُعُوبةً وشِدَّةً .

وعن سَعْد بن أبي وقَّاص قال : سألتُ رسول الله ﷺ : مَن أشَدُّ الناسِ بَلاءً ؟، قال : ((النَّبِيُّونَ ثُمَّ الأمثل ، فالأمثل ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينه ، إنْ كان صَلْبَ الدِّين اشتدَّ بلاؤه ، وإنْ كان في دِينه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حَسَبِ دِينه ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاءُ على العبد حتى يَدَعَه يَمْشي على الأرض لَيْسَ عليه خطيئة)) [٥٨].

إن البَلاءُ يكون حَسَب إمكانيات الشخص ، والامتحان يكون وَفْق قُدراته . وهذه عملية تطهير للنَّفْس الإنسانية مِمَّا عَلِقَ بِها مِن ذُنوب وآثام ، وتنقية للجسد مِمَّا عَلِقَ به مِن خطايا وأوساخ معنوية جَرَّاء تتابُع الذُّنوب والمعاصي عبر الأزمنة . وبذلك تكون الفِتَن للصابرين فُرصةً ذهبية لتكفير ذُنوبهم ، والعَودة أنقياء طاهرين ، بعد أن يَخلعوا ثَوْبَ الخطيئة .

وبما أنَّ الأنبياء هُم صَفوة اللهِ مِن خَلْقِه ، وسادة البشرية ، كان التدقيق عليهم شديدًا، لأنَّ اللهَ يُحِبُّهم ، ويُريد أن يُوصلهم إلى الكمال البشريِّ عبر تَطهيرهم مِن كُلِّ مُخالَفة، وتنقيتهم بالبلاء

٥٨ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٠٠) ، وصَحَّحه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٦) .

والامتحانات الشديدة.وكُلُّ الامتحانات التي يَتعرَّضون لها، إنما هي لزيادة إيمانهم، ورَفْعِ درجاتهم. والجديرُ بالذِّكر أن إيمان الناس يَزيد بالطاعات ، ويَنقُص بالمعاصي . أمَّا إيمانُ الأنبياء فَيَزداد ، ولا يَنقُص . يزداد بكثرة العبادة مَعَ الإخلاص الشديد الذي لا تَشُوبه شائبة . لذلك ، كانت قلوبُ الأنبياء في قِمَّة الصَّفاء والطهارة . وهذا يَعني أنها بيئة نظيفة لاحتضان الإيمان والأسرار الإلهية .

إنَّ الوجود البشري يتأسَّس في مركز الاختبار الإلهيِّ الذي يَرمي إلى تنقية البشر من الشوائب، وتخليصهم مِن عِبْء الخطايا ، من أجل رَفْع درجاتهم ، وقيادتهم إلى النجاح بتفوق في الدَّارَيْن . فلا بُدَّ مِن تَجاوز الامتحان للحصول على دُرجة عُليا ، ونَيْلِ المكانة الرفيعة . وصدق القائل :

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكتسَب المَعَالي ... وَمَن طَلَبَ العُلا سَهِرَ الليالي
وَمَن طَلَبَ العُلا مِن غَيْرِ كَدٍّ ... أضاعَ العُمُرَ في طَلَبِ المُحَالِ

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥١٨ و٥١٩) : (((أشد الناس بلاءً) أي مِحْنَةً . ويُطلَق على المِنْحَة، لكن المُراد هُنا بقَرينة السِّياق المِحْنة، فإن أصله الاختبار ، لكن لمَّا كان اختبار الله تعالى لعباده تارةً بالمِحْنَة ، وتارةً بالمِنْحَة ، أُطْلِق عليهما . (الأنبياء) المُراد بهم ما يَشمل الرُّسُل ، وذلك لتتضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم ، ويظهر للناس صَبْرُهم ورضاهم ، فيُقْتَدَى بهم ، ولئلا يفتتن الناس بدوام صِحَّتهم فيعبدوهم ، (ثُمَّ الأمثل فالأمثل) أي الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى ، لأن البَلاء في مُقَابَلة النِّعمة ، فمن كانت نِعمة الله عليه أكثر ، فبلاؤه أشد ، ولهذا ضُوعِف حَد الحُر على العَبْد ، فهُم مُعرَّضون للمِحَن والمصائب ، وطُروق المُنَغِّصَات والمتاعب ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ ﴾ . وقال بعضُهم : جَعل مَقَامَ المُبْتَلَى يَلِي مَقام النُّبُوَّة، ولم يَفصِل بين بَلاء الأبدان وبلاء الأعراض ، فيشمل كُل ما يتأذى به الإنسان . قال الطيبي : وثُمَّ للتَّراخي في الرُّتبة ، والفاء للتَّعَاقُب على سبيل التوالي ، تَنَزُّلًا من الأعلى إلى الأسفل . وقَوله: (يُبْتَلَى الرَّجُل) بيان للجُملة الأولى ، والتعريف في الأمثل للجِنس ، وفي الرَّجُل للاستغراق في الأجناس المتوالية (على حَسَبِ دِينه) أي بقَدْر قُوَّة إيمانه وشِدَّة إبقائه وضَعْف ذلك (فإن كان في دِينه صَلْبًا) أي قَوِيًّا (اشتدَّ بلاؤه) أي عَظُمَ للغاية (وإن كان في دِينه رِقَّة) أي ضَعْف ولِين (ابْتُلِيَ على قَدْر دِينه) أي ببَلاء هيِّن ليِّن ، والبَلاء في مُقابلة النِّعمة ، كما مَرَّ ، ومَن ثَمَّ قِيل لأُمَّهات المؤمنين: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذابُ ضِعْفَيْنِ وكانَ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠]. (فما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعبد)

أي الإنسان (حتى يَتركه يمشي على الأرض وما عليه مِن خطيئة) كِناية عن سلامته مِن الذُّنوب وخَلاصه منها ، كأنه كان محبوسًا فأُطْلِق ، وخُلِّيَ سبيله ، فهو يمشي وما عليه بأس . ومَن ظَنَّ أن شِدَّة البَلاء هَوَان بالعبد، فقد ذَهَبَ لُبُّه ، وعَمِيَ قلبُه ، فقد ابْتُلِيَ من الأكابر ما لا يُحصَى. ألا ترى إلى ذَبْح نبيِّ الله يحيى بن زكريا ، وقَتْل الخُلفاء الثلاثة والحُسَين وابن الزُّبَيْر وابن جُبَيْر ، وقد ضُرِبَ أبو حنيفة، وحُبِسَ،ومات بالسِّجْن.وجُرِّدَ مالك وضُرِبَ بالسِّياط، وجُذِبَت يده حتى انخلعت مِن كَتفه . وضُرِبَ أحمد حتى أُغْمِيَ عليه، وقُطع مِن لحمه وهو حَي، وأُمِرَ بصَلْب سُفيان الثَّوري فاختفى،ومات البُوَيطي مسجونًا في قُيوده، ونُفِيَ البخاري من بلده ، إلى غير ذلك مِمَّا يَطُول)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأموالِ والأنفُسِ والثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

الخِطابُ الإلهيُّ مُوَجَّه للصَّحابة _ رضي اللهُ عنهم _ ، إن الله سيبتليكم بشَيء مِن الخَوف ، حيث تَفقدون الأمنَ ، وتفتقدون إلى الأمان ، والجُوعِ حيث لا تجدون الطعامَ ، وتَقِل الأموال في أيديكم، وتَنقُص القُوى البشرية (يَقِل عدد الأنفُس)، وتَقِل الثَّمَرَاتُ حيث يَضعُف إنتاجُ الأشجار، أو لا تَعود تُنتج ، لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يتَّبع النبيَّ ﷺ مِمَّن يَنقلب على عَقِبَيْه . وبَشِّر يا مُحمَّد الصابرين على البَلاء والشَّدائد والأزمات والمصائب والكوارث بأن لهم نعيمَ الجَنَّة في الآخرة مُكافأةً لهم .

والآيةُ تدل على أن الدُّنيا دار بَلاء واختبار وامتحان ، نَعِيمها مَشُوب بالكَدَر ، ونُعومتها مُخْتَلِطَة بالخُشُونة ، وفرحها مَمزوج بالحُزن ، وسعادتها ضئيلة وزائلة . والدُّنيا شديدة الخطورة ، لأنها أكبر تجسيد لمبدأ " دَس السُّم في العسل " . ومِن مَأمنه يُؤْتَى الحَذِرُ . ولَيْسَ العَجَبُ مِمَّن هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ، إنَّما العَجَبُ مِمَّن نَجا كَيْفَ نَجا . وصدقَ القائل :

أحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيام إذْ حَسُنَتْ ... ولَم تَخَفْ سُوءَ ما يأتي بِهِ القَدَرُ
وسَالَمَتْكَ الليالي فاغْتَرَرْتَ بِها ... وعِندَ صَفْوِ الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

وقال المتنبي : أُرِيدُ مِن زَمَني ذَا أن يُبَلِّغَني ... ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِن نَفْسِهِ الزَّمَنُ
لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... ما دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُرُورٌ ما سُرِرْتَ بِهِ ... ولا يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَائِتَ الحَزَنُ

[المعنى العام : أطلُبُ مِن الزمن استقامة الأحوال ، والزمنُ لا يَبلُغ هذا مِن نَفْسه ، لأنه دائم التقلُّب والتغيُّر . وما دُمْتَ حيًّا فلا تُبالِ بالزمن ولا تعبأ بأحداثه ومصائبه ، لأنها زائلة وغير باقية . والمَسرورُ لا يَدُوم فَرَحُه وسُروره،لأن بقاء الحال مِن المُحَال.والحَزَنُ على الغائب لا يَرُدُّه عَلَيْكَ].

إنَّ الله يَختبر المؤمنين ويَمتحنهم بالمصائب والكوارث لِيَعْلَم الصادقين الثابتين على الحق والهُدى، مِن المُنافقين الكاذبين أهلِ الشَّك والارتياب. والبَلاءُ تارةً يَكون حسنًا، وتارةً يكون سَيِّئًا.

وامتحانُ الله للعباد لكشف مستوى إيمانهم ، وإظهارهم صادقين أم كاذبين ، بالحُجَّة الواقعية والبُرهان العملي ، وهل يَصبرون على الشَّدائد والكوارث ويَسْتسلمون للقضاء أَم يَنهارون ويَسْخَطُون ؟ . وليس لِيَعْلَمَ اللهُ شيئًا لم يكن يَعْلَمه . فاللهُ يَعْلَم كُلَّ شَيء ، قبل وُقوعه ، وأثناء وُقوعه ، وبعد وُقوعه . وهو سُبحانَه غنيٌّ عن العباد وإيمانهم وامتحانهم ، لا يَحتاج إليهم ، ولا إلى إيمانهم. وإيمانُ العبد يَعود بالنَّفْع على العبد، وكُفره يعود بالضَّرر عليه.واللهُ لا يَنفعه إيمان المؤمن، ولا يَضُرُّه كُفر الكافر . ومَن صَبَرَ على البلاء استحق الثَّوابَ ، ومَن سَخِطَ استحق العِقاب .

وهو سُبحانَه يَبتلي عبادَه ويَختبرهم بشيء قليل مِن خَوف العَدُوِّ في المعارك، والمَجاعةِ والجَدْبِ والقَحْطِ ، وخسارةِ بعض أموالهم بسبب الانشغال بقتال الكافرين والجهادِ في سبيل الله، أو بسبب الكوارث المُهْلِكَة ، ومَوتِ أقاربهم وأحبابهم وأصحابهم في الجِهاد وغَيْره، وضَعْفِ إنتاج المزارع والبساتين.وتَنكيرُ "شَيء" في الآية للتَّقليل، أي : بشيء قليل مِن هذه الشَّدائد والمَصائب. وقد قَلَّلَهُ اللهُ ، وأعلمهم بقِلَّته ، لِيُريحهم ، ويُطَمْئِنهم ، ويُخفِّف عنهم ، ويَعْلَموا أن الله رحيمٌ بهم، وأن البَلاء لرَفْع دَرَجَات المؤمنين ، وليس لتدميرهم والقضاءِ عليهم . وقد أخبرهم اللهُ بالبلاء قبل وُقوعه ، كي يَستعدوا له ، ويأخذوا الحَيطةَ والحَذَر، ويُوطِّنوا عليه أنفسَهم ، ويُدرِكوا أنه امتحان يسير له نتيجة رائعة . والدُّنيا قائمة على الامتحانات ،كما أن المدرسة قائمة على الامتحانات .

وبَشِّر الصابرين على المصائب يا مُحمَّد بالثوابِ العظيم والأجلِ الجَزيل ونعيمِ الجَنَّة الدائم .

وعن أنس ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((الصَّبْرُ عِندَ الصَّدْمَةِ الأُولَى)) [59].

الصَّبْرُ الحقيقيُّ الكاملُ الذي يستحق صاحبه الأجر العظيم لِعِظَم المشقَّة والألمِ ، إنما يَكون عِند تَلَقِّي خَبر المُصيبة الذي يَصدِم القلبَ فجأةً. والقلبُ القويُّ وَحْدَه قادرٌ على امتصاص هذه الصَّدمة الحارقة، أمَّا بعد أن تصير المُصيبة باردة ، ويمر عليها الزمن ، فجميع الناس يَصبِرون ، حتى إنهم يَنْسَوْنَها .

---

٥٩ متفق عليه. البخاري (١/ ٤٣٨) برقم (١٢٤٠) ، ومسلم (٢/ ٦٣٧) برقم (٩٢٦) . قال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٢٢٧/٦):((معناه:الصَّبْر الكامل الذي يترتَّب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقَّة فيه. وأصل الصَّدْم الضَّرْب في شيء صُلْب ، ثم اسْتُعْمِل مجازًا في كُل مَكروه حَصل بَغْتةً)).

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٦٩) : ((إنَّما الصَّبْر الشَّاق على النَّفْس الذي يَعْظُم الثواب عليه، إنما هو عند هُجوم المُصيبة وحرارتها، فإنه يدل على قُوَّة القلب ، وتَثَبُّتِه في مَقام الصَّبْر ، وأمَّا إذا بَردت حرارةُ المُصيبة ، فكُل أحد يَصبِر إذْ ذاك، ولذلك قِيل: يجب على كل عاقل أن يَلتزم عِند المُصيبة ما لا بد للأحمق مِنه بعد ثلاث. وقال سَهْل بن عبد الله التُّسْتَري: لمَّا قالَ تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ صار الصَّبْر عَيْشًا ، والصَّبْر صَبْرَان : صَبْر عن معصية الله ، فهذا مُجَاهِد، وصَبْر على طاعة الله،فهو عابد، فإذا صَبَرَ عن معصية الله، وصَبَرَ على طاعة الله، أورثه اللهُ الرِّضا بقضائه . وعلامة الصَّبْر سُكون القلب بما ورد على النَّفْس مِن المَكروهات والمَحبوبات. وقال الخَوَّاص : الصَّبْر الثبات على أحكام الكِتاب والسُّنة. وقال رُوَيْم : الصَّبْر تَرْك الشَّكوى. وقال ذُو النُّون المصري : الصَّبْر هو الاستعانة بالله تعالى.وقال الأستاذ أبو علي : الصَّبْر حَدُّه ألَّا تعترض على التقدير ، فأمَّا إظهار البَلْوى على غَير وجه الشَّكوى ، فلا يُنافي الصَّبْر)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٦٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أي : ولنختبرنَّكم يا أُمَّة مُحمَّد ، واللام لجواب القَسَم ، تقديره : واللهِ لَنَبْلُوَنَّكُم . والابتلاءُ مِن الله لإظهار المُطيع مِن العاصي ، لا لِيَعْلَمَ شيئًا لم يكن عَالِمًا به ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ ﴾ ، قال ابن عباس : يَعْني خَوْف العَدُو ، ﴿ وَالجُوعِ ﴾ يَعْني القَحْط ، ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأموالِ ﴾ بالخُسران والهَلاك ، ﴿ والأنفُسِ ﴾ يَعْني بالقَتْل والمَوْت ، وقِيل : بالمَرض والشَّيْب ﴿ والثَّمَرَاتِ ﴾ يَعْني الجَوَائح في الثِّمار . وحُكِيَ عن الشَّافعي أنه قال: الخَوف خَوْف الله تعالى ، والجُوع صِيام رمضان ، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصَّدَقَات ، والأنفُس الأمراض ، والثَّمَرَات مَوت الأولاد ، لأن وَلد الرَّجُل ثَمَرَة قَلْبه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٦٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأموالِ ﴾ . قال الفَرَّاء : ﴿ مِنَ ﴾ تدلُّ على أن لكل صِنف مِنها شيئًا مُضْمَرًا ، فتقديره : بشيء مِنَ الخَوف ، وشيء مِن الجُوع ، وشيء مِن نقص الأموال . وفِيمَن أُريد في هذه الآية أربعة أقوال : أحدها أنهم أصحاب النبيِّ خَاصَّة ، قاله عطاء . والثاني أنهم أهل مَكَّة، والثالث أن هذا يكون في آخِر الزمان. قال كَعْب: يأتي على الناس زمان لا تَحمِل النَّخلة إلا ثمرة. والرابع أن الآية على عُمومها.فأمَّا ﴿ الخَوْفِ﴾، فقال ابن عباس:وهو الفَزَع في القِتال﴿ وَالجُوعِ ﴾ المَجَاعة التي أصابت أهل مَكَّة سبع سنين ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأموالِ ﴾ ذهاب أموالهم ﴿ والأنفُسِ ﴾ بالمَوت ، والقتلِ الذي نزل بهم ، ﴿ والثَّمَرَاتِ ﴾ ، لم تُخرج كما كانت تُخرِج، وحكى أبو سُلَيمان الدمشقي عن بعض أهل العِلْم أن الخَوف في الجِهاد ، والجُوع في فَرض الصَّوْم ، ونقص الأموال

ما فُرِضَ فيها من الزكاة والحَج ، ونَحْو ذلك ، والأنفُس ما يستشهد مِنها في القتال ، والثمرات ما فُرِض فيها مِن الصَّدَقَات ، ﴿ وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ على هذه البلاوي بالجَنَّة ، واعْلَمْ أنه إنَّما أخبرهم بما سيُصيبهم ليُوطِّنوا أنفسَهم على الصَّبْر ، فيكون ذلك أبعد بِهم مِن الجَزَع)) .

ومَن صَبَرَ على البَلاء ، فله البُشرى والفوز في الدنيا والآخرة ، ورَفْع الدَّرَجَات ، ومَن سَخِطَ وضَجِرَ ، فقد هَلَكَ وخَسِرَ ، ورجع خائبًا صِفْر اليَدَيْن في الدُّنيا والآخرة .

وروى التِّرمذي في سُننه (٤/ ٦٠١) وحسَّنه : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا أرادَ اللهُ بعبده الخَيْرَ ، عَجَّلَ له العُقوبة في الدُّنيا ، وإذا أرادَ اللهُ بعبده الشَّرَّ ، أمسكَ عنه بذَنْبه ، حَتَّى يُوَافِيَ بِه يَوْمَ القِيامة)) . وبهذا الإسناد عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ عِظَمَ الجَزاء مَعَ عِظَمِ البَلاء ، وإنَّ الله إذا أحبَّ قَوْمًا ابتلاهم ، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا ، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخْط)) .

إذا أحبَّ اللهُ العبدَ ، وفَّقه إلى الحق والخير والهُدى ، وعجَّل له عُقوبةَ ذُنوبه في الدُّنيا ، كَي يُطهِّره ، ويأتيَ يوم القيامة طاهرًا مِن الذُّنُوب ، ومُطَهَّرًا مِن الخطايا ، ونظيفًا ، بلا شوائب ولا آثام، ويُدخِله الجَنَّةَ بلا عذاب ولا عُقوبة. وإذا كَرِهَ اللهُ العبدَ، خَذَلَه،وقاده إلى الهلاك والشَّر والخُسران، ولم يُعاقبه بذَنْبه في الدُّنيا ، وتركه يَسْرَح ويَمْرَح ويَلْعب فيها بلا حساب ولا عِقاب ، حتى يأتيَ يوم القيامة بذَنْبه ، مُجَلَّلًا بالإثم والخِزي والعار ، وغارقًا في المعاصي والخطايا ، ويُعذِّبه في النار .

وإنَّ عَظَمَة الأجر مُرتبطة ومُقترنة مَعَ عِظَمِ البَلاء وشِدَّته ، فإذا زادَ البلاءُ زاد الأجر ، وإذا قَلَّ البلاءُ قَلَّ الأجر ، جَزَاءً وِفَاقًا . فَمَن صَبَرَ على البلاء ، واستسلمَ للقضاء ، مُخْلِصًا لله تعالى ، فلهُ رِضا الله ورِضوانه وثوابه العظيم جزاءً لرضاه . ومَن سَخِطَ ، وجَزِعَ ، وتمرَّد على القضاء ، فلهُ السُّخْط ، وعليه الإثم ، وله عذابٌ شديد في الدُّنيا والآخرة .

والمُراد بالحديث هو الحَث على الصَّبر بعد وُقوع المُصيبة ونُزولِ البلاء ، والحَض على التماسك وعدم الانهيار ، وليس تمنِّي المُصيبة ، أو طلب البَلاء . والعبدُ يَسأل اللهَ العَفْوَ والعافية .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٧/ ٦٥ و٦٦) : ((قَوله: (إذا أراد اللهُ بعبده الخَير عَجَّلَ) بالتَّشديد أي أسرع (له العُقوبة) أي الابتلاء بالمَكاره (في الدُّنيا) ليَخرج مِنها وليس عليه ذَنْب ، ومَن فَعَلَ ذلك معه ، فقد أعظمَ اللطف به والمِنَّة عليه . (أمسكَ) أي أخَّرَ (عنه) ما يَستحقه مِن العُقوبة (بذَنْبه) أي بسببه (حتى يُوَافِيَ به يوم القيامة) أي حتَّى يأتيَ العبدُ بذَنْبه يوم القيامة . قال الطيبي : يعني : لا يُجازيه بذَنْبه حتى يجيء في الآخرة مُتَوَفِّر الذُّنوب وافيها ، فَيَسْتَوْفِيَ حَقَّه مِن العِقاب . قَوله : (إنَّ عِظَمَ الجَزاء) أي كَثرته (مع عِظَمِ البَلاء) فَمَن ابتلاؤه

أعظم فجَزاؤه أعظم . (ابتلاهم) أي اختبرهم بالمِحَن والرَّزايا (فَمَن رَضِيَ) بما ابتلاه به (فَلَهُ الرِّضى) مِنه تعالى وجَزيل الثَّواب (ومَن سَخِطَ) أي : كَرِهَ بلاءَ الله ، وفزِعَ ولَم يَرْضَ بقِضائه(فَلَهُ السُّخْط) مِنه تعالى وأليم العذاب . ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النِّساء : ١٢٣] . والمقصود الحَث على الصبر على البلاء بعد وُقوعه لا التَّرغيب في طَلَبه ، للنَّهْي عنه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٢٥٨) : (((إذا أرادَ اللهُ بعبده الخَير) ... (عَجَّلَ) بالتشديد أسرعَ (له العُقوبة) بصَبِّ البَلاء والمصائب عليه (في الدُّنيا) جَزاءً لِمَا فَرَطَ مِنه مِن الذُّنوب ، فيَخْرُج منها ، وليس عليه ذَنْب يُوَافي به يوم القيامة ... . ومَن فَعَلَ ذلك معه فقد أعظَمَ اللطف به ، لأنَّ مَن حُوسِب بعمله عاجلًا في الدُّنيا خَفَّ جزاؤه عليه ، حتى يُكفَّر عنه بالشَّوكة يُشَاكها ، حتى بالقلم الذي يَسقط مِن الكاتب ، فيُكفَّر عَن المؤمن بكل ما يَلحقه في دُنياه ، حتى يموت على طهارة مِن دَنَسِه، وفراغ مِن جِنايته ، كالذي يتعاهد ثَوْبَه وبدنه بالتنظيف . قاله الحَرَّاني: (وإذا أرادَ بعبده الشَّر) وفي رواية شرًّا (أمسكَ عنه بذَنْبه) أي أمسكَ عنه ما يَستحقه بسبب ذَنْبه مِن العُقوبة في الدُّنيا (حتى يُوَافِيَ به يوم القيامة) إنْ لَم يُدركه العَفْو ، ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٧]. واللهُ تعالى لَم يَرْضَ الدُّنيا أهْلًا لعُقوبة أعدائه ، كما لَم يَرْضها أهْلًا لِمَثَابة أحبابه...قال الغزَّالي:والذَّنْب عِبارة عَن كُل ما هو مُخَالِف لأمر الله تعالى مِن قَول أو فِعْل)).

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٥٩) : (((إنَّ عِظَم الجَزاء) أي كَثرته (مَعَ عِظَم البَلاء)... فمَن بلاؤه أعظم فجَزاؤه أعظم، (وإن الله تعالى إذا أحبَّ قَوْمًا ابتلاهم) أي: اختبرهم بالمِحَن والرَّزايا، وهو أعلم بحالهم . قال لُقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، الذهب والفِضة يُختبَران بالنار ، والمؤمن يُختبَر بالبَلاء (فمَن رَضِيَ) قَضاءً بما ابْتُلِيَ به (فله الرِّضى) من الله تعالى وجَزيل الثواب (ومَن سَخِطَ) أي كَرِهَ قَضاء ربِّه ، ولَم يَرْضَه (فله السُّخْط) مِنه تعالى وأليم العذاب... .

وقَوله : (ومَن رَضِيَ فلهُ الرِّضى) شرط وجزاء ، فُهِمَ مِنه أن رِضى الله تعالى مَسبوق برِضى العبد ، ومُحَال أن يَرضى العبدُ عن الله إلا بعد رِضى الله عنه ، كما قال : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ ﴾ [البَيِّنة : ٨] . ومُحَال أن يحصل رِضى الله ، ولا يَحصل رِضى العبد في الآخرة ، فعَن اللهِ الرِّضى أزلًا وأبدًا، وفيه جُنوح إلى كراهة اختيار الصِّحة على البَلاء ، والعافية على السَّقَم،ولا يُنافيه ما مَرَّ ويجيء مِن الأمر بسؤال العافية، وأنها أفضل الدُّعاء، لأنه إنَّما كَرِهَه لأجل الجرائم واقتراف العظائم ، كَيْلا يَلْقَوْا رَبَّهم غَير مُطهَّرين مِن دَنَس الذُّنوب ، فالأصلح لِمَن كَثُرت خطاياه السُّكوت والرِّضى ، لِيَخِفَّ . والتَّطهيرُ بقَدْر التَّمْحيص ، والأجرُ بقَدْر الصَّبْر ، ذَكَرَه ابن جرير)) .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٦٣١) : عن أُم سَلَمَة أنها قالت : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : ((ما مِن مسلم تُصيبه مُصيبة ، فيقول ما أمَرَه اللهُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون . اللهُمَّ أجُرْني في مُصيبتي ، وأخْلِفْ لي خَيْرًا مِنها ، إلا أخلفَ اللهُ له خَيْرًا مِنها)) .

وأمرُ اللهِ هو ما وردَ ضِمن مَدْح الصابرين: ﴿ الذينَ إذا أصابَتْهُم مُصيبةٌ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ [البقرة : ١٥٦] . وكُل خِصلة مَمدوحة في القُرآن تتضمَّن الأمر بها، وكُل خِصلة مذمومة تتضمَّن النَّهْيَ عنها . وبعد أن يَسترجع المؤمن ، يَطلب مِن الله أن يُعطيَه الأجرَ وجَزاءَ صَبره ، وأن يَرُدَّ عليه أفضلَ مِمَّا أُخِذَ مِنه ، مِثل ذهاب مال ، أو مَوت ولد ، ... إلخ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٢٢٠) : ((قَوله ﷺ : " ما مِن مسلم تُصيبه مُصيبة ، فيقول ما أمَرَه اللهُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ". فيه فضيلة هذا القَول، وفيه دليل للمذهب المختار في الأصول أن المندوب مأمور به ، لأنه ﷺ مأمور به ، معَ أن الآية الكريمة تقتضي نَدْبه ، وإجماع المسلمين مُنعقد عليه . قَوله ﷺ : " أجُرْني في مُصيبتي، وأخْلِفْ لي خَيْرًا مِنها "... ومعنى أجَرَه اللهُ : أعطاه أجره وجزاء صبره وهَمِّه في مصيبته . وقَوله ﷺ : " وأخْلِفْ لي " ... قال أهل اللغة: يُقال لِمَن ذهب له مال أو ولد، أو قريب أو شيء يتوقع حصول مِثْله : أخلفَ اللهُ عليك، أي رَدَّ عليك مِثْلَه ، فإن ذَهَبَ ما لا يتوقع مِثْله ، بأن ذهب والد أو عَم ، أو أخ لِمَن لا جَد له ، ولا والد له ، قِيل : خَلَفَ اللهُ عليك ، بغَير ألف ، أي : كان الله خليفة مِنه عليك)) .

وإذا أصابَ المُؤمنَ مُصيبةٌ ، فليتذكر مُصيبته بموت النبيِّ ﷺ الذي يُمثِّل أعظم المصائب على الإطلاق، فقد انقطعَ الوَحْيُ إلى الأبد، واختفت النُّبُوَّةُ مِن العَالَم ، لأن مُحَمَّدًا ﷺ هو خَاتَم الأنبياء، ولا نبيَّ بَعْده ،كما ارتدَّت العربُ عن الإسلام بعد مَوت النَّبِيِّ ﷺ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٧٠) : ((قال أبو سعيد : ما نَفَضْنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكَرْنا قُلوبَنا)) .

وصَدَقَ أبو العَتَاهِيَة إذْ يقول :

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلَّدِ	وَاعْلَمْ بأن المرءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
أوَمَا ترى أن المصائب جَمَّة	وترى المَنِيَّة للعبادِ بِمَرْصَدِ
مَن لَم يُصَبْ مِمَّن ترى بِمُصيبة ؟	هذا سبيلٌ لَسْتَ فيه بأوحدِ
فإذا ذَكَرْتَ مُصيبةً تَسْلُو بِها	فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

والمُؤمنُ مُتَّصل بالله في السَّراء والضَّراء . وهو يَعبد خالقَه ، لأنه أهلٌ لأن يُعبَد ، لا لنَيل مكاسب دنيوية دنيئة ، أو تحقيق أرباح مالية ، أو تحصيل مكانة اجتماعية . والعِبادةُ التي هي حق الله على العبيد غير مُرتبطة بالسَّراء والضَّراء في حياة المُؤمن ، وعليه أن يَعبد خالقَه تعالى، ويلتزم أوامره ، ويَجتنب نَواهيه ، بغض النظر عمَّا يحصل له في الدنيا ، خَيْرًا أو شَرًّا . والإيمانُ ليس بُورصةً يتحدَّد شكلُها وَفْق الرِّبح الدُّنيوي أو الخسارة . إن الإيمان نظام متكامل لا يَخدِشه مَتَاع الدُّنيا الزائل ، كما أن حُطَام الدنيا الفاني ليس حُجَّةً على الإسلام ، ولا دليلًا على الإيمان .

وفي صحيح مُسلِم (٤/ ٢٢٩٥) : عَن صُهَيب قال : قال رسول الله ﷺ : ((عَجَبًا لأمرِ المؤمن ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيْر ، ولَيْسَ ذَاكَ لأحدٍ إلا للمُؤمِن ، إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خَيْرًا له ، وإن أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فكانَ خَيْرًا له)) .

المؤمنُ فَطِنٌ مُتماسكٌ ، لا يَهتزُّ أمام الصعوبات ، ولا يستسلم في وجه الأزمات ، ولا ينهار أمام التَّحديات الجسيمة . فهو شخصيةٌ مُتميِّزة وواثقة . إنْ أصابته سَرَّاء لم يَنْسَ شُكْرَ الله تعالى ، بَل يَلُوذ بالشُّكر الحارس للنِّعَم ، وهنا يَحصل على خَير عظيم ، وثواب جزيل ، وأجر كبير .

وإذا أصابته ضَرَّاء لم يَسخَط، ويُعَاتِب خالقَه تعالى _ كما يَفعل بعضُ الجُهَّالِ والعَوَامِ _ ، بل يَستعين بالصَّبر ، فتتحوَّل المِحْنَة إلى مِنْحَة ، وتصير المُصيبةُ نِعمةً عظيمة لرفع الدَّرَجات ، وتُصبح الشِّدَّةُ خَيْرًا له . والمؤمنُ يَنظر إلى السَّرَّاء والضَّرَّاء باعتبارهما اختبارَيْن مِن الله تعالى ، ولا يُمكن النَّجاح فيهما إلا بالشُّكر على الرَّخاء ، والصَّبْر على المُصيبة . وبالتأكيد ، إن الشَّكْر والصَّبْر هُما الجناحان اللذان يطير بهما المؤمن إلى المكانة العظيمة ، والمَنْزِلةِ الرفيعة . وهكذا يَكون المؤمنُ رابحًا وفائزًا في الحالتَيْن . وكُل قضاء الله للمُؤمن خَير وبَرَكَة .

والمُؤمنُ الحقيقيُّ الكامل في إيمانه وتَقْواه وأخلاقه مَحفوظ بِحِفْظ الله ، وعلى خَير عظيم في كُل أحواله . إن أصابته نِعمة ورخاء وكثرة أموال وأولاد ، وغَير ذلك ، شَكَرَ اللهَ قَوْلًا وفِعْلًا ، واعترفَ بفضله، وأطاعه ، وابتعدَ عن معصيته . وإن أصابته مُصيبة وكارثة وشِدَّة ، صَبَرَ ، وتماسكَ، ولم يَجْزَعْ ، ولم يَسخَط على الله تعالى . بَل يرضى بقضاء الله وقَدَره ، فيكون له أجرٌ بهذه المُصيبة . ومعنى الشُّكر يتجلَّى في التزام أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه ، وعدم معصية الله بِنِعَم الله. والمؤمنُ يُسخِّر كُلَّ طاقاته وإمكانياته والنِّعَم التي أعطاها اللهُ له في سبيل الله وطاعته ، وليس في المجالات المُحرَّمة . والشُّكْرُ الحقيقيُّ يَكون باللسان والقلب والجوارح ، وذلك بأن يَحمَد العبدُ رَبَّه تعالى ، ويَشكره ، ويُطيعه ، ولا يَعصيَه .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٠٢) : (((عَجَبًا) قال الطيبي : أصله أعْجَبُ عَجَبًا، فَعَدَلَ عن الرَّفْع إلى النَّصْب للثبات ، كقَولك : سَلامٌ عَلَيْك ، (لأمر المؤمن ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن) ، وليس ذلك للكافرين ولا للمُنافقين ، ثُمَّ بيَّن وَجْهَ العَجَب بقَوله : (إنْ أصابته سَرَّاء) كصِحَّة وسلامة ومال وجاه (شَكَرَ) اللهَ على ما أعطاه ، (فكانَ خَيْرًا له) فإنَّه يُكتَب في ديوان الشاكرين ، (وإن أصابته ضَرَّاء) كمُصيبة (صَبَرَ ، فكانَ خَيْرًا له) ، فإنه يَصير مِن أحزاب الصابرين ، الذين أثنى اللهُ عليهم في كتابه المُبين ، فالعبد ما دام قلم التَّكليف جاريًا عليه ، فمَناهج الخَير مفتوحة بين يَدَيْه ، فإنَّه بين نِعمة يجب عليه شُكر المُنعِم بها، ومُصيبة يجب عليه الصبر عليها ، وأمر يُنفِّذه ، ونَهْي يَجتنبه ، وذلك لازم له إلى الممات)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أن تَدخلوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البَأسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] . أَم حَسِبْتُم أن تَدخلوا الجَنَّةَ مِن غَير بلاء ولا امتحان ولا شِدَّة ، ولم يَأتكم شَبَهُ مِحْنَة وابتلاء الذين مِن قَبْلكم مِن المُؤمنين (مُؤمني الأُمم السابقة)، ولم يُصِبْكُم مِن البلاء كما أصابهم ، ولم تُمْتَحَنُوا بِمِثْل ما امْتُحِنُوا بِه، فتصبروا كما صبروا . مسَّتهم الشِّدة والمرض والجُوع والخَوف ، وحُرِّكُوا بأنواع البلاء بشكل عنيف شبيهًا بالزَّلزلة ، وأُزْعِجُوا إزعاجًا شديدًا بما أصابهم من الكوارث ، وزُلْزِلُوا خَوْفًا من الأعداء ، وتعرَّضوا لاختبار شديد وامتحان عظيم ، حتَّى استبطأ الرسولُ والمؤمنون نَصْرَ الله ، بسبب شِدَّة البلاء ، وعِظَمِ المُصيبة ، وطُولِ المُدَّة الزمنية ، وسألوا عن مَوعد النَّصْر الإلهيِّ استبطاءً له لتأخُّره وعدم مجيئه ، وطَلبوا استعجالَ النَّصْر ، مُوقِنين بِه ، بدون شَك ولا ارتياب فِيه . أي: متى يأتي نصرُ الله الذي وُعِدْناه ؟، فأعلمهم اللهُ أن نَصْرَه قريب ، وبشَّرهم بمَجيئه حَتْمًا، وكُل آتٍ قَرِيبٌ، وأنه سُبحانَه ناصرُ أوليائه وأحبابه في الوقت الذي يَختاره ، ولن يتخلَّى عنهم ، ولن يَتركهم فريسةً سهلةً للأعداء ، وضَحِيَّةً للظروف الصعبة . ووعدُ اللهِ واقع لا مَحَالة ، وآتٍ في الوقت المُناسب ، لا يتخلَّف ، ولا يَزول . وهذا دليل على أن الصَّبْر على الشَّدائد هو طريق الوُصول إلى الله تعالى ، ونَيْل جَنَّته .

والآيةُ تشجيعٌ للنبيِّ مُحمَّد ﷺ وأصحابه على الصَّبْر، والتَّحَمُّل، والثبات على الحق ، وتقويةٌ لقلوبهم ، ورفعٌ لمعنوياتهم ، رغم كُل الصعوبات والشدائد والكوارث والأزمات والمصائب . كما أن الآية تُوضِّح أن الفِتَن آتية لا مَحَالة ، والبَلاء حَتمي ، ولا مَفَر مِن الامتحان، كَمَا فَعَلَ اللهُ بمُؤمني الأُمم السابقة ، وذلك لتمييزهم ، وتمحيصهم ، ومَنحهم الدَّرَجَات التي يستحقونها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٣١ و٢٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أن تَدخلوا الجَنَّةَ ﴾ ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن الصَّحابة أصابهم يوم الأحزاب بَلاء وحَصْر ، فنزلت هذا الآية ، ذَكَرَه السُّدي عن أشياخه ، وهو قَول قَتادة . والثاني أن النبيَّ ﷺ لمَّا دَخَلَ المدينةَ هو وأصحابه اشتدَّ بهم الضُّر ، فنزلت هذه الآية ، قاله عطاء . والثالث أن المُنافقين قالوا للمؤمنين : لَوْ كان مُحمَّد نَبِيًّا لَم يُسلِّط عليكم القَتل ، فأجابوهم : مَن قُتِلَ مِنَّا دَخل الجَنَّةَ ، فقالوا : لِمَ تُمَنُّونَ أنفسَكم بالباطل ؟ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مُقاتل ، وزعم أنها نزلت يوم أُحُد . قال الفَرَّاء : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم ﴾ بمعنى أظننتم . وقال الزَّجاج : ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى " بَل " . والمَثَل بمعنى الصِّفة . ﴿ وزُلْزِلُوا ﴾ خُوِّفوا وحُرِّكوا بما يُؤْذي ... ، فالمعنى أنه تكرَّرَ عليهم التَّحريك بالخَوف. قاله ابن عباس: البَأساء الشِّدة والبُؤس ، والضَّراء البلاء والمرض ، وكُل رسول بُعِثَ إلى أُمَّته يقول: متى نَصْرُ الله ؟ ... . ومعنى الآية أن البَلاء والجَهْد (المَشَقَّة) بَلَغَ بالأمم المُتقدِّمة إلى أن استبطؤوا النَّصْرَ ، لشِدَّة البلاء . وقد دَلَّت على أن طريق الجَنَّة إنما هو الصَّبْر على البلاء)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٥٣) : ((فمعنى الكلام : أَم حَسِبْتُم أنكم أيها المؤمنون بالله ورُسله تدخلون الجَنَّةَ ، ولم يُصِبْكُم مِثْلُ ما أصاب مَن قَبْلكم مِن أتباع الأنبياء والرُّسُل ، مِن الشَّدائد والمِحَن والاختبار ، فَتُبْتَلُوا بما ابْتُلُوا واختُبِرُوا به مِن ﴿ البَأْسَاءُ ﴾ وهو شِدَّة الحاجة والفَاقَة ، ﴿ والضَّرَّاءُ ﴾ ، وَهِيَ العِلَل والأوصاب (جَمْع وَصَب وهو الوَجَع والمرض) ، ولَم تُزَلْزَلُوا زِلزالهم ، يعني : ولَم يُصِبْهُم مِن أعدائهم مِن الخَوف والرُّعب شِدَّة وجَهْد (مَشَقَّة) حتى يستبطئ القَوْمُ نَصْرَ الله إيَّاهم ، فيقولون : متى اللهُ ناصرنا ؟ ، ثُمَّ أخبرهم الله أن نصره منهم قريب ، وأنه مُعْلِيهم على عدوهم، ومُظْهِرهم عليه، فَنَجَزَ لهم ما وَعَدَهم ، وأعلى كلمتهم ، وأطفأ نار حرب الذين كفروا . وهذه الآية _ فيما يَزعُم أهل التأويل _ نزلت يوم الخندق حين لَقِيَ المؤمنون ما لَقُوا مِن شِدَّة الجَهْد مِن خَوف الأحزاب، وشِدَّة أذى البَرْد، وضِيق العَيش الذي كانوا فيه يومئذ)) .

إن الله إذا أحبَّ عبدًا ، صَبَّ عليه البَلاءَ صَبًّا ، ليُطهِّره مِن ذُنوبه وآثامه ، ويَجعله نظيفًا طاهرًا مُطَهَّرًا، ويَقبِضه على طهارة تامَّة وكاملة ، ويُميته نقيًّا مِن كُل الشَّوائب والنَّقائص والعُيوب والذُّنوب، ويَمنحه نعيمَ الجَنَّةِ الأبديَّ ، بلا حِساب ولا عِقاب . لذلك ، ينبغي فهم منهج البلاء ، واستيعاب فلسفة الابتلاء ، فهو امتحان إلهيٌّ عظيم لرفع درجات المؤمن في الجَنَّة ، وليس لتدميره وإهلاكه، والبلاءُ علامة حُب الله للعبد ، وتطهيره ، وتنقيته ، وتنظيفه ، وجَعْله مِن صَفوة أولياء الله تعالى، وليس علامة كُره الله للعبد أو إهانته أو القضاء عليه .

وعن عَطاء بن يَسَار : أن أبا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ دَخَلَ على رسول الله ﷺ ، وَهُوَ مَوْعُوك ، عَلَيه قَطِيفة ، ووَضَعَ يَدَه عليها ، فوجد حرارتها فوق القَطِيفة ، فقال أبو سعيد : ما أشَدَّ حَرَّ حُمَّاكَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: ((إنَّا كذلك يُشدَّد عَلَينا البَلاءُ ، ويُضَاعَفُ لَنَا الأجرُ))، ثُمَّ قال : يا رسولَ الله ، مَن أشدُّ الناسِ بَلاءً ؟ ، قال : ((الأنبياء)) ، قال : ثُمَّ مَن ؟، قال : ((العُلَماء))، قال : ثُمَّ مَن ؟ ، قال : ((ثُمَّ الصَّالِحُون ، كان أحَدُهُم يُبْتَلَى بالفَقْر ، حَتَّى ما يَجِدُ إلا العَبَاءَةَ يَلْبَسُها ، ويُبْتَلَى بالقُمَّلِ حتى يَقْتُلَه ، ولأحَدُهُم كانَ أشدَّ فَرَحًا بالبَلاءِ مِن أحَدِكم بالعَطاء)) [٦٠].

هذا دليل على أن البَلاء علامة حُب الله للعبد ، وأن العبد كُلَّما ارتفعت قيمته ، وعَلَتْ مَنزلته، وقَوِيَ إيمانه ، ازداد التدقيق عليه ، وصارَ مُعَرَّضًا للبلاء والاختبار والامتحان والشَّدائد والمصائب أكثر مِن غَيره ، وذلك مِن أجل تطهيره ، ورفع درجته عِند الله تعالى . والقَطِيفةُ غِطَاء مُخمَل .

ويجب على المؤمن أن يصبر على جميع ما يُصيبه مِن أمراض وأوجاع وأحزان وكوارث ، فهي تَحرِق آثامَه وخطاياه ، وتُكفِّر عنه ذُنوبَه ، وتُطهِّره مِن أثر المعاصي ، وتَجعله مُؤهَّلًا لنَيل رضا الله ، والحصول على أعلى الدَّرجَات في الجَنَّة . والصَّبْرُ على البَلاء مُر ، لكنَّ عاقبته جميلة ورائعة .

والأنبياءُ أشدُّ الناس بَلاءً ، لأنهم القُدوة العُليا ، والمَثَل الأسمى ، وسادة البشرية ، وزُعماء الإنسانية . وعلى العبد أن يسير على خُطاهم ، ويقتفيَ أثرَهم . وأيضًا ، لمنع الناس مِن عبادتهم ، واتِّخاذهم آلهةً مِن دُون الله تعالى ، لأن الناس عندما يُدرِكون مُعاناة الأنبياء وآلامهم ، والشَّدائد التي أصابتهم ، والمصائب التي أحاطت بحياتهم ، يُوقِنون أن الأنبياء بَشَر يُوحَى إلَيهم ، يَنتمون إلى الجِنس البشري ، ويُعانون كما يُعاني الناس ، ويتألَّمون ويَتعبون مِثْلَهم ، ولَيسوا آلهةً ، أو أبناء لله تعالى، وهذه رسالة عظيمة يُوجِّهها اللهُ للناس، كَي يَحترموا الأنبياء، ويَقتدوا بِهم ، ويتشبَّهوا بهم، ويَصبروا كما صَبروا ، ويُوقِنوا بأن الأنبياء بَشَر كباقي الناس ، ولكن يَمتازون عنهم بأنهم يأتيهم وَحْيُ السَّماء.وهذه الحقيقةُ تَمنع مِن تأليه الأنبياء وعبادتهم ، كما ألَّهت النصارى المَسيحَ وعَبَدَتْهُ.

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٢٠) عن إحدى روايات الحديث : (((أشد الناس بَلاءً الأنبياء) ، قالوا : ثُمَّ مَن يا رسول الله ؟ ، قال : (ثُمَّ الصالحون) لأن أعظم البَلاء سَلْب المَحبوب ، وحَمْل المَكروه . والمَحبوبات مَسكون إليها ، ومَن أحبَّ شيئًا شُغِلَ بِه ، والمَكروه مَهروب مِنه ، ومَن هَرَبَ مِن شيء أدبرَ عنه ، والأمثلون أحِبَّاء الله ، فَيَسْلُبهم مَحبوبهم في العَاجِل

---

٦٠ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٩٩) برقم (١١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لِيَرفع درجتهم في الآجِل . (لقد) بلام التأكيد (كان أحَدُهم يُبْتَلَى بالفقر) الدُّنيوي ، الذي هو قِلَّة المال وعدم المَرَافِق (حتى ما يَجِدُ إلا العَبَاءَةَ يَجُوبُها) ، أي يَخرِقها ويَقطعها ، وكُل شيء قُطِعَ وسطه فهو مَجْبوب ، (فَيَلْبَسُها) ومع ذلك يرى أن ذا مِن أعظم النِّعَم عليه ، عِلْمًا مِنه بأن المال ظِل زائل ، وعَارِيَّة مُسْتَرْجَعَة ، وليس في كثرته فضيلة ، ولو كان فيه فضيلة لَخَصَّ اللهُ بِه مَن اصطفاه لرسالته ، واجتباه لوَحْيه . وقد كان أكثر الأنبياء مع ما خَصَّهم بِه مِن كرامته ، وفضَّلهم على سائر خَلْقه فُقراء ، لا يجدون بُلغة ، ولا يَقْدِرون على شيء ، حتى صاروا في الفقر مَثَلًا . قال البُحتري : فَقْرٌ كفقر الأنبياء وغُربة . . . وصَبَابة ليس البلاءُ بواحد . (ويُبْتَلَى بالقُمَّل) فيأكل مِن بَدَنه (حتى يَقتله) حقيقةً أو مُبالغة عَن شِدَّة الضَّنا ، ومَزيد النُّحُول والأذى (ولأحَدُهُم كان أشدَّ فَرَحًا بالبلاء مِن أحدكم بالعَطاء) ، لأن المعرفة كُلَّما قَوِيَتْ بالمُبْتَلَى ، هَانَ عليه البلاء ، وكُلَّما نَظَرَ إلى الأجر الناشئ عَنه سَهُلَ ، فلا يَسألون رِفعةً ، بل يَحصُل التَّرَقِّي لبعضهم ، حتى يَتَلَذَّذَ بالضَّراء فوق تَلَذُّذ أحدنا بالسَّراء ، ويَعُد عَدَمَه مُصيبةً)) .

وعن أبي أُمَامَة ــ رَضِيَ اللهُ عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ لَيُجَرِّبُ أحَدَكُم بالبَلاء ، وهو أعلمُ به ، كما يُجَرِّبُ أحَدُكُم ذَهَبَهُ بالنار ، فمِنهُم مَن يَخْرُجُ كالذَّهَب الإبريز ، فذلك الذي نَجَّاه اللهُ تعالى مِن السَّيئات ، ومِنهُم مَن يَخْرُجُ كالذَّهَبِ دُونَ ذلك ، فذلك الذي يَشُكُّ بَعْضَ الشَّك ، ومِنهُم مَن يَخْرُجُ كالذَّهَبِ الأسْوَدِ ، فذلك الذي قد افْتُتِن)) [٦١] .

إن سُنَّة الله في خَلْقه ثابتة ، لا تبديل لها ، ولا تغيير لماهِيَّتِها . فهو سُبحانَه يَمتحن عبادَه ، ويَختبرهم، ويَبتليهم بأنواع مُختلفة مِن الشدائد والمصائب والكوارث ، لِيُميِّز المُؤمن مِن الكافر أو المُنافق ، والصادق مِن الكاذب ، والمُخلِص مِن الخائن . والمؤمنُ الصادق يَصبر عند البلاء ، ويَستسلم لقضاء الله تعالى ، ويرضى بقَدَره ، والخِيرةُ فيما اختاره الله ، فيزداد المؤمنُ إيمانًا ويقينًا وثباتًا ، ويَخرج مِن نار البلاء كالذَّهَب الخالص (الإبريز)، لامعًا بَرَّاقًا وهَّاجًا . أمَّا الكافرُ أو المُنافق ، فإذا أصابته مُصيبة ، أو نزل به بَلاء ، انهارَ وجَزِعَ وثارَ وغضب ، وسَخِطَ على الله ، ورفض قَضَاءَه وقَدَرَه ، ونَكَصَ على عَقِبَيْه ، وخسر الدُّنيا والآخرة . والمؤمنُ لا يَحصل على الجَنَّة إلا بعد نجاحه في الامتحان ، وَصَبْره على البلاء ، وهو كفَّارة لذُنوبه ، وطريقه إلى رَضا الله . واللهُ قد يَبتلي المؤمنَ بدُون ذَنْب مِنه ولا معصية ، وذلك لِيَزيد حسناته ، ويرفع درجته .

---

٦١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٠) برقم (٧٨٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن أنس بن مالك _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((حُفَّت الجَنَّةُ بالمَكَارِه ، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهَوَات)) [٦٢]. إنَّ العبدَ لا يَحصل على الجَنَّة إلا بعد نجاحه في الاختبارات ، وصَبْره على المصائب . والجَنَّةُ غالية ، وكُل غاية نبيلة يكون الطريقُ إلَيها صعبًا ، وبحاجة إلى جُهود جبَّارة،وتَعَب. والطريقُ إلى النار سهل وبسيط، ومُزيَّن بالذُّنوب والمعاصي، ومليء بالشهوات والنزوات. والرُّسُوبُ في الامتحان سهل، ولا يحتاج إلى دراسة . لكنَّ النجاح يحتاج إلى تعب وجُهْد وإنجاز. والمَكَارِهُ هي المَشَاقُّ التي تستلزمها العبادات والطاعات ، وتركُ الذُّنوب والمعاصي والحرام . وسُمِّيَت مَكَارِه لمشقَّتها وصُعوبتها . والشَّهَوَاتُ هي المَلَذَّاتُ المُحرَّمة التي مَنَعَ الشَّرْع مِن تعاطيها والتعامل معها، والتي قد تُؤَدِّي إلى ترك الواجبات ، أو الوقوع في المُحرَّمات . كما أن الإكثار مِن المُباحات قد يُؤدِّي إلى الحرام. ولا يَصل العبدُ إلى عذاب النار إلا بتعاطي الشَّهَوات ، ولا يصل إلى نعيم الجَنَّة إلا بارتكاب المشقَّة وتجاوُز الصعوبات . وهُما مَحجوبتان ، ومَن هَتَكَ الحِجَابَ اقتحمَ . والحديثُ يدلُّ على فصاحة النبيِّ ﷺ وبلاغته ، حيث أُوتِيَ جوامع الكَلِم ، ودِقَّة التعبير،ورَوعة التَّمثيل.وقد ذَمَّ الشَّهَوَاتِ، وحذَّر مِنها،مهما كانت جميلةً وبرَّاقة ومُحبَّبة إلى النُّفوس، لأن الشهوات طريق النار . وفي الوقت ذاته ، حَضَّ على العبادات والطاعات ، وإن كانت شاقَّةً ومُتعِبة ، وكَرِهَتْها النُّفوس ، لأن المَكَاره طريق الجَنَّة . والغايةُ الجميلةُ تُنْسِي العبدَ مَشَقَّةَ الطريق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٦٥) : ((قال العلماء : هذا مِن بديع الكلام ، وفصيحه ، وجوامعه ، التي أُوتيها ﷺ مِن التَّمثيل الحَسَن ، ومعناه : لا يُوصِل الجَنَّة إلا بارتكاب المَكَاره ، والنار بالشَّهَوات . وكذلك هُما مَحجوبتان بهما ، فَمَن هَتَكَ الحِجَابَ ، وَصَلَ إلى المَحجوب ، فَهَتْك حِجاب الجَنَّة باقتحام المَكَاره ، وهَتْك حِجاب النار بارتكاب الشَّهَوات. فأمَّا المَكَاره فيَدخل فيها الاجتهاد في العبادات ، والمُوَاظَبَة عليها ، والصَّبْر على مَشَاقِّها ، وكَظْم الغَيْظ، والعَفْو، والحِلْم ، والصَّدَقة ، والإحسان إلى المُسِيء ، والصَّبر عن الشَّهَوات، ونَحْو ذلك. وأمَّا الشَّهَوات التي النار مَحفوفة بها ، فالظاهر أنها الشَّهَوات المُحرَّمة كالخمر والزنا ، والنظر إلى الأجنبية ، والغِيبة ، واستعمال المَلاهي ، ونَحْو ذلك . وأمَّا الشهوات المُباحة فلا تدخل في هذه، لكن يُكرَه الإكثار مِنها مخافة أن يَجُرَّ إلى المُحرَّمة، أو يُقَسِّيَ القلبَ، أو يَشغل عن الطاعات، أو يُحْوِج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصَّرْف فيها ، ونَحْو ذلك)) .

---

٦٢ متفق عليه،واللفظ لمسلم(٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٢).والبخاري (٥/ ٢٣٧٩) برقم (٦١٢٢).

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٥٤٦) : عن خَبَّابِ بن الأرَتِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : شَكَوْنا إلى رسول الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظِل الكَعْبة، فقُلنا: ألا تَستنصِرُ لَنا ألا تَدْعُو لَنا؟، فقال : ((قد كان مَن قَبْلَكُم يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَر له في الأرض ، فيُجعَل فيها ، فيُجاء بالمِنشار فيُوضَع على رأسه فيُجعَل نِصْفَيْن ، ويُمشَط بأمْشَاطِ الحديد ، ما دُونَ لَحْمِه وعَظْمِه ، فَمَا يَصُدُّه ذلك عن دِينه ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتَّى يَسِيرَ الراكبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوْت ، لا يَخافُ إلا اللهَ ، والذِّئْبَ على غَنَمِه ، ولكنكم تستعجلون)) .

إنَّ الأنبياءَ أشدُّ الناس بلاءً ، ثُمَّ يأتي بعدهم أصحابهم الذين حَمَلُوا دَعوتهم . ويُبْتَلَى المَرْءُ على قَدْر دِينه وقُوَّةِ إيمانه . وبما أن صحابة النبيِّ مُحمَّد ﷺ أعظم البشر بعد الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فَمِن الطبيعي أن يُلاقوا صُنوفَ البلاء والألم والعذاب والمصائب والشدائد، لتمييزهم ، وتَمحيصهم ، ورفع درجاتهم في الجَنَّة . وقد أرادَ النبيُّ ﷺ تثبيتهم على الحق ، ورفع معنوياتهم ، وحثِّهم على التَّمَسُّك بالإسلام ، دون تردُّد ولا تراجُع ولا ضعف ولا انهيار ، فأخبرهم بأن المؤمنين في الأمم السابقة قد لاقوا أشدَّ أنواع العذاب ، ومعَ هذا صبروا على البلاء ، وتمسَّكوا بِدِينهم . ثُمَّ بشَّرهم النبيُّ ﷺ بانتشار الإسلام ، وأن النصر سيكون للمؤمنين ، وأن العاقبة الحَسَنة لهم دُون غيرهم ، حتى يُعبَد اللهُ في الأرض وَحْدَه لا شريك له ، فيسيرُ الراكبُ مِن صَنعاء إلى حضرموت ، وهُما مدينتان في اليمن ، لا يخافُ إلا اللهَ ، لعدم الخَوف مِن السَّرقة أو قُطَّاع الطُّرُق أو وُجود الكافرين ، وما يَخاف إلا الذئبَ على غنمه . وهذه مُبالَغة واضحة لتصوير انتشار الإسلام والأمن والأمان، واختفاء تهديد الكافرين، حيث إنهم دَخلوا في الإسلام، أو قُتِلُوا ، أو هُزِمُوا وصاروا ضِعَافًا أذِلَّة، لا حَوْلَ لهم ولا قُوَّة. ولكنكم تستعجلون نَصْرَ اللهِ الحتميَّ الأكيد .

والحديثُ يدلُّ على صِدق مُحمَّد ﷺ وصِحَّة رسالته ، وأنه نبيٌّ يُوحَى إلَيه ، لأنه أخبرَ بأُمور غَيْبِيَّة قبل وُقوعها ، وحَدثت على أرض الواقع كما أخبرَ بها ، فقد انتشرَ الإسلام ، وعَمَّ الأمن والأمان ، ودَخل كثيرٌ مِن الكُفَّار في الإسلام ، وانكسرت شَوكة الكافرين ، وحقَّق اللهُ وَعْدَه لَنَبِيِّه، ووعدُ الله لا يتخلَّف . والحديثُ علامة باهرة مِن علامات النُّبُوَّة .

وبشكل عام ، يجب على المؤمن الصَّبْر على البلاء ، مهما كان شديدًا ، وقد يصل البلاء إلى درجة القتل . ورغم هذا ، ينبغي أن يستعد المؤمن للامتحان ، ويُجهِّز نَفْسَه للبلاء ، ويُوطِّن نَفْسَه على تحمُّل الشدائد والمصائب ، والصبر على البلاء والكوارث . والعاقبةُ الحَسَنة للإسلام وأهْلِه ، ومَن يَضحك أخيرًا يَضحك كثيرًا . والعِبرةُ بالخواتيم . ومَن أرادَ الجَنَّةَ بلا امتحان فهو أحمق .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ١٦٧) : ((قال ابن التِّين : كان هؤلاء الذين فُعِلَ بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم . قال : وكان في الصحابة مَن لَو فُعِلَ به ذلك لَصَبَر ، إلى أن قال : وما زال خَلْق مِن الصحابة وأتباعهم فَمَن بَعْدَهم ، يُؤْذَوْنَ في الله ، ولو أخذوا بالرُّخصة لَسَاغَ لهم . ... مَساق الحديث إنما هو للأمن مِن عُدوان بعض الناس على بعض ، كما كانوا في الجاهلية ، لا للأمن مِن عُدوان الذئب ، فإن ذلك إنما يكون في آخِر الزَّمان عِند نُزول عِيسى)) .

وقال العظيم آبادي في عَون المَعبود (٧/ ٢٢٢) : (((مُتَوَسِّد بُرْدَة) أي كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعل البُردة وِسادة له ، مِن تَوَسَّدَ الشيء ، جَعَلَه تحت رأسه (فَشَكَوْنا) أي الكفار ، (ألا تدعو الله لنا؟) أي على المُشركين فإنهم يُؤْذُوننا (مُحْمَرًّا وَجهه) أي: مِن أثر النَّوْم ، ويُحتمل أن يكون مِن الغضب ، وبِه جَزم ابن التِّين ، قاله الحافظ (فيُحفَر له) بصيغة المَجهول، أي : يُجعَل له حُفرة (بالمِنشار) بكسر المِيم هو آلة يُشَقُّ بها الخَشَبة (فيُجعَل فِرْقَتَيْن) أي : يُجعَل الرَّجُلُ شِقَّيْن يعني يُقْطَع نِصْفَيْن(ما يَصْرِفه ذلك) أي: لا يَمنعه ذلك العذاب الشديد (ويُمشَط) بصيغة المجهول (بأمشاط الحديد) جَمْع المُشْط ، وهو ما يتمشَّط به الشَّعْر وهو بالفارسية شانه، (ما دُون عَظْمه مِن لَحْم وعَصَب) والمعنى ما عِند عَظْمه، و" مِن " بيانية ، وفي رواية للبخاري : (ما دُون لحمه مِن عظم أو عَصَب) قال القاري : أي : ما تحت لحم ذلك الرَّجل أو غَيْره ، وهو الظاهر. وقال الطيبي:" مِن " بيان لِمَا ، وفيه مُبالَغة بأن الأمشاط لِحِدَّتها وقُوَّتها كانت تَنفُذ مِن اللحم إلى العَظْم ، وما يلتصق به مِن العَصَب (واللهِ) الواو للقَسَم (ليُتِمَّنَّ اللهُ) بضم حرف المُضارعة وكسر التاء (هذا الأمرَ) أي أمرَ الدِّين (الراكب) أي رَجل أو امرأة وَحْدَه (ما بين صَنعاء) بلد باليمن(وحَضْرَمَوْت) هو مَوضع بأقصى اليمن ، وهو بفتح الميم غير مُنصرِف للتركيب والعَلَمِيَّة ، وقِيل: اسم قبيلة ، وقِيل: مَوضع حَضَرَ فيه صالح عليه السلام فمات فيه ، وحَضَرَ جِرْجِيس(نبيٌّ) فمات فيه، كذا في المِرقاة (ما يخاف إلا الله)لعدم خَوْف السَّرقة ونَحْوه(والذئبَ على غنمه) أي ما يخاف إلا الذئبَ على غنمه ، ولا يخفى ما فيه مِن المُبالَغة في حُصول الأمن وزوال الخَوف (ولكنكم تَعْجَلُون) أي سَيَزُول عذابُ المشركين ، فاصبروا على أمر الدِّين كما صَبَرَ مَن سَبَقَكُم. قال ابن بطَّال: أجمعوا على أنَّ مَن أُكْرِه على الكُفر واختار القتل أنه أعظم أجرًا عِند الله مِمَّن اختار الرُّخصة، وأمَّا غَير الكُفر فإن أُكْرِه على أكل الخِنزير مَثَلًا فالفِعْل أَوْلَى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُم خَلائِفَ الأرضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُم في ما آتَاكُم ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

إن الأُمم تتعاقب ، والحضاراتُ تتوالى ، والناسُ يَخْلُفون بعضَهم البعض . وهذه الحركةُ المستمرة على كوكب الأرض تُشير إلى حِكْمة الخالق المُسَيْطِر على هذه الحَركة، وقُدرته على الخَلْق والإفناء ، والإحياءِ والإماتة . وقد أهلكَ اللهُ الأممَ السابقة،وجعل الأُمَّةَ المُحمَّديةَ الإسلاميةَ تَخْلُفُهم بعد زوالهم ، وتَعمُر الأرضَ بعدهم. ومُحمَّد ﷺ هو خاتَم النَّبيين، وأُمَّته هي آخِر الأمم التي وَرِثَت الأرضَ بعد انتهاء الأمم السابقة. وخَلَفَت أُمَّتُه سائرَ الأمم. وهذا يشير إلى مبدأ تعاقُب الحضارات والأمم في هذه الدنيا التي هي دار امتحان واختبار وابتلاء .

والأرضُ لله يُورِثها مَن يشاء مِن عباده ، والعاقبةُ للمُتقين. وكل الحضارات الإنسانية ذاهبة إلى نهايتها الأكيدة لأنها إسهامات بشرية. والحضارةُ _كالإنسان _ تمرُّ في مرحلة الولادة ، ثم الطفولة ، ثم الشباب، ثم الكُهولة، ثم الشَّيخوخة، ثم الموت.وتتجلى عَظَمةُ الله في جَعْل الناس يَعمُرون الأرضَ ضمن دائرة تعاقُب الأجيال ، وتعاقُب الحضارات. وفي هذا إشارةٌ إلى التنوع الإنساني ، واختلافِ الشُّعوب ، وتعدُّدِ الهُوِيَّات العِرْقية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٢): ((﴿ وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ﴾ ، يَخْلُف بعضُكم بعضًا ، أو خُلَفَاء الله في أرضه تتصرَّفون فيها ، على أن الخطاب عام . أو خُلَفَاء الأمم السالفة، على أن الخطاب للمؤمنين)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٢٦٨):((أي جعلكم تعمُرونها جِيلًا بعد جِيل ، وقَرْنًا بعد قرن، وخَلَفًا بعد سَلَف)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦٣): ((وللمُفسِّرين فِيمَن خَلَفُوه ثلاثة أقوال: أحدها أنهم خَلَفوا الجِنَّ الذين كانوا سُكان الأرض ، قاله ابن عباس . والثاني أن بعضهم يَخْلُف بَعْضًا، قاله ابن قُتَيبة . والثالث أن أُمَّة مُحمَّد خَلَفَتْ سائرَ الأمم ، ذَكَره الزَّجاج)) .

ومهما كانت الأحداثُ والتقلباتُ في هذه الحياة ، سيظل الإنسانُ هو خَليفةَ الله في الأرض. والجديرُ بالذِّكر أن﴿خَلائِفَ﴾جَمْع"خليفة"[٦٣] .وكُل مَن جاء بعد مَن مضى فهو خليفة لأنه يَخْلُفُه.

---

٦٣ قال القلقشندي في صُبح الأعشى (٥/ ٤١٨):((وقد أجازوا أن يُقَال في الخليفة خليفة رسول الله لأنه خَلَفَه في أُمَّته.واختلَفوا هل يجوز أن يُقال فيه : خليفة الله ، فجوَّز بعضُهم ذلك لقِيامه بحقوقه في خَلْقه محتجين بقَوْله تعالى:﴿وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض﴾. وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك مُحتجين بأنه إنما يُسْتَخْلَف مَن يَغيب أو يموت، واللهُ تعالى باقٍ موجود إلى الأبد،لا يَغيب ولا يموت.ويُؤيِّد ما نُقل عن الجمهور بما رُوِيَ أنه قِيل لأبي بكر رضي الله عنه : يا خليفة الله ، فقال: لستُ بخليفة الله ، ولكني =

﴿ ورَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرجاتٍ ﴾ . إن اللهَ تعالى قد خَالَفَ بين أحوال العباد من حيث الغِنى والفقر، والعِلْم والجهل ، والذكاء والغباء ، والقوة والضعف ، والشَّرف والضَّعَة . فالدنيا مبنية على التفاوت والاختلاف بين العباد . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٨) : ((فَاوَتَ بينكم في الأرزاق ، والأخلاق ، والمحاسن، والمساوئ ، والمناظر ، والأشكال ، والألوان ، وله الحِكمة في ذلك)) اهـ . ﴿ لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم ﴾ . خَالَفَ اللهُ بين أحوالكم في الخَلْق والخُلُق والرِّزق والعِلم والشَّرف والقوة وغير ذلك، لِيَختبركم فِيما مَنحكم مِن فضله وَرِزقه،ويَعلم المُطيع مِنكم والعاصي،والصابر والساخط، والشاكر والجاحد ، فَيُجازي المحسِن بإحسانه ويُثيبه ، ويُجازي المُسيء بإساءته ويُعاقبه . وعلى المَرء أن يستغل نقاطَ قُوَّته ، ويحاول قَدْر الاستطاعة تحويل نِقاط ضَعْفه إلى نقاط قُوَّة . واللهُ لا يُعطي الإنسانَ كُلَّ شيء ، ولا يأخذ مِنه كُلَّ شيء . والكمالُ للهِ وَحْدَه. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٨):((لِيَختبركم في الذي أنعم به عليكم ، وامتحنكم به ، لِيَختبر الغنيَّ في غِناه ، ويسأله عن شُكره ، والفقير في فقره ، ويسأله عن صبره)).

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((يعني : يبتلي الغنيَّ والفقير ، والشريف والوضيع ، والحُر والعبد ، لِيَظهر منكم ما يكون عليه مِن الثواب والعقاب)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إن الدنيا حُلْوةٌ خَضِرة ، وإن اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها فينظر كيف تعملون)) . إنَّ الدُّنيا منظرها فتَّان ومُحبَّب للنَّفْس بما فيها من زينة ولمعان. وهي دار ابتلاء واختبار .وإن الله جَعل الناسَ مُسْتَخْلَفين فيها، أي إنهم خَلَفوا الأممَ السابقة ، ووصلت إليهم الأمور ، من أجل الامتحان والابتلاء . وكما قِيل : لَوْ دامت لِغَيرك ما وَصلت إلَيْك . وإن الله ناظر إليهم كيف يعملون (مَن الذي سَيُؤدِّي شُكرَ النِّعَم فيفوز ، ومن الذي سَيَجْحدها فَيَخسر). ومَن جَرَّعَتْهُ الدنيا حلاوتها ، جَرَّعَتْهُ الآخرةُ مرارتها. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٥٥) عن معنى الدنيا " حُلوة خَضِرة " : ((يُحْتَمَل أن المراد به شيئان : أحدهما حُسْنها للنُّفُوس ونَضَارتها ولَذَّتها، كالفاكهة الخضراء الحُلوة، فإن النُّفوس تطلبها طلبًا حثيثًا فكذا الدنيا ، والثاني سُرعة فَنائها كالشَّيء الأخضر)) .

=خليفة رسول الله.وقال رَجل لعمر بن عبد العزيز: يا خليفة الله،فقال: وَيْلَك لقد تناولتَ مُتناوَلًا بعيدًا ، إن أُمِّي سَمَّتْني عُمر ، فلو دَعَوْتَني بهذا الاسم قَبِلْتُ ، ثم كَبُرْتُ فَكُنِّيتُ أبا حَفْص فلو دعوتني به قبلتُ ، ثم وَلَّيْتُموني أمورَكم فَسَمَّيْتُموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني به كَفاك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء : ٣٥] .

إن الله يَختبر الناسَ ، ويَمتحنهم بالشِّدة تارةً ، والرَّخاءِ تارةً أُخرى ، وكِلاهما بَلاء ، لِيَعْلَم مَن يَصبِر في الشِّدة ، ومَن يَشكر في الرَّخاء . وهذا يدل على أن البَلاء يكون بالشَّر (المصائب) لبيان الصابرين ، ويكون بالخَير (النِّعَم) لبيان الشاكرين . وهكذا يتَّضح الشاكر من الكافر ، والصابر مِن السَّاخط ، والصادق من الكاذب . واللهُ يُجازي الناسَ حَسَب أعمالهم ، ونتائج امتحانهم ، هل شَكروا أم كَفروا ، وهل صَبَرُوا أم جَزِعُوا . وفي الآية إشارة إلى أن الغاية مِن الدُّنيا هي الابتلاء والامتحان، لإظهار النتيجة في الآخِرة ، إمَّا الثواب (الجَنَّة) ، وإمَّا العِقاب (النار) .

وقُدِّمَ الشَّر على الخَير ، لأن أصل الفِتنة إنما يَكون في الشَّر والمصائب . كما أن مِن عادة العرب في كلامهم أن يُقدِّموا الأقل والأسوأ ، ومِنه قَول الله تعالى : ﴿ فَمِنهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنهُم سابقٌ بالخَيْرَاتِ بإذنِ اللهِ ﴾ [فَاطِر: ٣٢]، فبدأ في تقسيم الأُمَّة المُحمَّدية بالظالم.

في الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٥/ ٦٢٩) : ((أخرج ابن جرير وابن المُنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السُّنة عن ابن عباس في قَوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، قال: نَبتليكم بالشِّدة، والرَّخاء، والصِّحة، والسَّقَم، والغِنى، والفَقر، والحَلال، والحَرام، والطاعة، والمعصية ، والهُدى ، والضَّلالة)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٨) : ((﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ نَختبركم ﴿ بالشَّرِّ والخَيْرِ ﴾ بالشِّدة والرَّخاء والصِّحة والسَّقَم والغِنى والفَقْر . وقِيل : بما تُحِبُّون وما تَكْرَهون ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاءً ، لننظر كيف شُكركم فِيما تُحِبُّون ، وصَبْركم فِيما تَكْرَهُون)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٥٠) : ((قال ابن زَيد : نَختبركم بما تُحِبُّون لنَنظر كَيف شُكركم، وبما تَكْرَهون لنَنظر كَيف صَبْركم))اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير(١/ ٣٥٥): ((فإنَّ النِّعَم مِحَن ، والله يَبْلُو بالنِّعْمَة كما يَبْلُو بالنِّقْمَة . ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ومِن ثَمَّ قال أبو حازم : كُل نِعمة لا تُقرِّب مِن الله فهي بَلِيَّة ، ومَن وُسِّعَ عَلَيه في دُنياه ولم يَعْلَم أنه مَكْر به فهو مَخدوع . وفي تاريخ الخطيب عن الحِصرمي : لا يَغُرَّنَّكُم صَفاء الأوقات ، فإن تَحْتها آفات ، ولا يَغُرَّنَّكُم العَطاء ، فإنه عند أهل الصَّفاء مَقْت. وفي تاريخ ابن عساكر : كان عيسى عليه السلام إذا أصابته شِدَّة فَرِحَ واستبشر،وإذا أصابه رَخاء خَافَ وحَزِنَ))اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٦١) : ((الفِتْنَة المِحْنَة ، وكُل ما يَشُقُّ على الإنسان ، وكُل ما يَبتلي اللهُ به عِباده فِتنة . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ كذا في الكَشَّاف. وقال ابن القَيِّم : الفِتنة نَوْعان : فِتنة الشُّبُهَات وهي العُظمى ، وفِتنة الشَّهَوَات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما)) .

وقد كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله تعالى ، فيقول : ((وأعوذ بِكَ مِن فِتنة الغِنى ، وأعوذ بِكَ مِن فِتنة الفَقْر)) [٦٤]. هذا يدل على أن الغِنى والفَقْر يتساويان في كَوْنهما اختبارًا إلهيًّا للعبد ، لبيان درجة إيمانه في السَّراء والضَّراء ، وقُدرة قَلْبه على الثبات عِند الفِتَن . والمؤمنُ يَثْبُت عِند الغِنى ، فيقوم بشُكر النِّعْمَة على أكمل وجه ، ليس باللسان فَحَسْب ، بل أيضًا بالعمل التطبيقي . فيُخرِج الزكاةَ ، ويُساعد الفقراء ، ولا يتكبَّر عليهم ، ولا يُبذِّر ثَرْوته . أمَّا الفقير فعليه بالصبر قَوْلًا وفِعْلًا ، والاستسلام لقضاء الله تعالى ، فلا يَسخَط ، وعليه أن يسعى في طلب الرِّزق، فلا يَقنَط،ولا يَعجَز، ولا يَشكو ربَّه إلى الناس . ومَن التزم بالمُثابرة والقناعة فهو على خَير ، ومن هَاجَ وثار على قضاءِ الله ، فقد خابَ وخَسِرَ دُنياه وآخرته معًا . والناجح في الدنيا والآخرة هو الذي يَثْبُت عِند الفِتَن ، ولا يترك الشدائدَ والمصائب تَلعب به يَمْنَةً ويَسْرَةً . والدَّهْرُ يَومان : يَومٌ لَك ، ويَوم عَلَيك . فإذا كان لك فلا تَبْطَر ، وإذا كان عليك فاصْطَبِر . فكِلاهما سينحسر . ولن يَثْبُت إلا مَن ثبَّته اللهُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٨): ((وأمَّا استعاذته ﷺ مِن فِتنة الغِنى وفِتنة الفَقْر ، فلأنهما حالتان تُخشَى الفِتنة فيهما بالتَّسَخُّط ، وقِلَّة الصَّبْر ، والوُقوع فى حرام ، أو شُبهة للحاجة ، ويُخاف في الغِنى مِن الأشَر (شِدَّة المَرَح) ، والبَطَر ، والبُخل بحقوق المال ، أو إنفاقه في إسراف ، وفي باطل ، أو في مَفَاخِر)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أحَسِبَ الناسُ أن يُترَكوا أن يَقولوا آمَنَّا وهُم لا يُفْتَنُون ﴾[العنكبوت: ٢].

هذا الاستفهام الإنكاري معناه: هل يَظُنُّ الناسُ أن لا يتعرَّضوا للبلاء والامتحان والشِّدة بمُجرَّد أن يقولوا بألسنتهم : نَحْن مؤمنون ؟. لا بد للعمل أن يُصَدِّق قَوْلَهم . والفِتنةُ هي الكاشفة عن صِدْق إيمانهم مِن عَدَمِه . والآيةُ تدل على حتمية البلاء ، وأن لا مَفَر مِنه . واللهُ يَبتلي عبادَه المؤمنين في أنفسهم وأحبابهم وأقاربهم وأموالهم ومُمتلكاتهم ، حتى تنكشف حقيقةُ إيمانهم ، وقُدرتهم على التَّحَمُّل ، ويَظهر الصادق مِن الكاذب ، والمُخلِص مِن المُنافق . لا بُد مِن البلاء ، ولا مَهْرَب مِنه، والعبد سيُواجهه عاجلًا أو آجِلًا.واللهُ يَمتحن عبادَه بالتكاليف الشرعية، والعبادات، والطاعات ، والشُّبُهَات والشَّهَوَات ، وأصناف العذاب ، وأنواع المصائب ، لتمييز المؤمنين ، وتَمحيصهم ، ومَنحهم الدَّرَجات التي يَستحقونها . والأجرُ على قَدْر المَشَقَّة . والجديرُ بالذِّكر أن كثيرًا مِن الناس يعتقدون أن البلاء مُرتبط بالضَّراء فقط . وهذا فَهْمٌ قاصر ، لأن البلاء مُرتبط

---

٦٤ متفق عليه واللفظ للبخاري (٥/ ٢٣٤٤) برقم (٦٠١٥).ومسلم (٤/ ٢٠٧٨)برقم(٥٨٩) .

بالسَّراء والضَّراء ، والعِلْمِ والجَهْل ، والغِنى والفَقْر ، والصِّحة والمرض . وفي أحيان كثيرة ، يكون الابتلاءُ بالنِّعْمَة أشد وأصعب وأكثر خُطورةً مِن الابتلاء بالنِّقْمَة. وروى التِّرمذي في سُننه(٤/ ٦٤٢) وحسَّنه: عن عبد الرحمن بن عَوْف_ رضي اللهُ عنه_ قال : ((ابْتُلِينا مع رسول الله ﷺ بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا ، ثُمَّ ابْتُلِينا بالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَم نَصْبِرْ)) . يعني : اخْتُبِرْنا بالفَقْر والشِّدة والعذاب فَصَبَرْنا عَلَيه ، فلمَّا جاءتنا السَّرَّاءُ ، وهي الدُّنيا والسَّعَة والراحة ، بَطِرْنا وَلَم نَصْبِرْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٥٤ و٢٥٥): ((في سبب نزولها (الآية) ثلاثة أقوال : أحدها أنه لمَّا أُمِرَ بالهِجرة ، كَتب المسلمون إلى إخوانهم بمَكَّة أنه لا يُقْبَل مِنكم إسلامكم حَتَّى تُهاجروا ، فَخَرجوا نحو المدينة ، فأدركهم المشركون ، فَرَدُّوهم ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِن أوَّل هذه السُّورة عَشْرَ آيات ، فكتبوا إليهم يُخبرونهم بما نَزَلَ فيهم ، فقالوا : نخرج ، فإن اتَّبَعَنَا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتَّبعهم المُشركون ، فقاتلوهم ، فمِنهُم مَن قُتِلَ ، ومِنهُم مَن نجا ... . هذا قَول الحسن والشَّعبي . والثاني أنها نزلت في عَمَّار بن ياسر، إذْ كان يُعذَّب في الله عَزَّ وَجَلَّ ، قاله عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير . والثالث أنها نزلت في مِهْجَع مَوْلى عُمر بن الخطاب حِين قُتِلَ ببَدْر ، فَجَزِعَ عليه أبواه وامرأته،فأنزلَ اللهُ تعالى في أبوَيه وامرأته هذه الآية. قَوله تعالى:﴿ أَحَسِبَ الناسُ ﴾ قال ابن عباس : يُريد بالناس الذين آمنوا بمكة كعَيَّاش بن أبي رَبيعة وعَمَّار بن ياسر وسَلَمَة ابن هشام وغَيرهم . قال الزَّجاج : لفظ الآية استخبار ، ومعناه معنى التقرير والتوبيخ ، والمعنى : أَحَسِبَ الناسُ أن يُترَكوا بأن يقولوا : آمَنَّا ، ولأن يقولوا : آمَنَّا . أي : أَحَسِبُوا أن يُقنَع مِنهُم بأن يَقولوا : إنَّا مؤمنون فقط ، ولا يُمْتَحَنُون بما يُبَيِّن حقيقةَ إيمانهم ، ﴿ وهُم لا يُفْتَنُون ﴾ ، أي : لا يُخْتَبَرُون بِمَا يُعلَم بِه صِدْق إيمانهم مِن كَذِبه . وللمُفسِّرين فيه قَولان : أحدهما لا يُفْتَنُون في أنفسهم بالقتل والتعذيب ، قاله مُجاهد . والثاني لا يُبْتَلُون بالأوامر والنَّوَاهي)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٧٣) : ((والاستفهام في قَوله : ﴿ أَحَسِبَ الناسُ ﴾ ، للتَّقريع والتَّوبيخ ، و ﴿ أن يُترَكوا ﴾ في مَوضِع نَصْب بـ حَسِبَ ... ﴿ أن يَقولوا ﴾ في موضع نَصْب على تقدير: لأن يَقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يَقولوا، وقِيل : هو بَدَل مِن ﴿ أن يُترَكوا ﴾ ومعنى الآية : أن الناس لا يُتْرَكُون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿ أن يَقولوا آمَنَّا وهُم لا يُفْتَنُون ﴾ ، أي : وهُم لا يُبْتَلُون في أموالهم وأنفسهم ، وليس الأمر كما حَسِبُوا ، بَل لا بُد أن يَختبرهم حَتَّى يتبيَّن المُخلِص مِن المُنافِق ، والصادق مِن الكاذب ، فالآية مَسُوقة لإنكار ذلك الحُسبان واستبعاده ، وبيان أنه لا بُد من الامتحان بأنواع التكاليف وغَيرها . قال الزَّجاج : المعنى: أحَسِبُوا أن نقنع مِنهُم

بأن يقولوا : إنَّا مؤمنون فقط ، ولا يُمْتَحَنُون بما تتبيَّن به حقيقة إيمانهم ، وهو قَوله : ﴿ أن يُترَكوا أن يَقولوا آمَنَّا وهُم لا يُفْتَنُون ﴾ ، قال السُّدي وقَتادة ومُجاهد: أي لا يُبْتَلُون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، ... ، وظاهرها شُمول كُل الناس مِن أهل الإيمان ، وإنْ كان السَّبب خاصًّا ، فالاعتبار بعُموم اللفظ كما قَرَّرْناه غَيْر مَرَّة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص ، فهي باقية في أُمَّة مُحمَّد ﷺ ، مَوجود حُكمها بَقِيَّة الدَّهْر ، وذلك أن الفِتنة مِن الله باقية في ثُغور المسلمين بالأَسْر ، ونِكاية العدو ، وغَير ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم حتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُم والصَّابرينَ وَنَبْلُوَ أخبارَكُم ﴾ [مُحمَّد : ٣١]. إن اللهَ سيختبركم أيُّها المؤمنون بالجهاد ، والقتل ، وموت الأحباب ، والتكاليف الشرعية ، والأوامر والنَّواهي ، والعبادات ، والطاعات ، والشَّدائد ، والمَصائب ، وغَيرها ، حتَّى يَعْلَم ـ عِلْمَ وُقوع وظُهور ـ أهلَ الجِهاد الثابتين على الحق ، والصابرين على قتال الأعداء ، ويُميِّز المؤمنين مِن المُنافقين ، والصادقين مِن الكاذبين . ويَختبر أعمالَكم الحسنة والقبيحة ، ويَكشف أسرارَكم . واللهُ يَعْلَم الأشياءَ قبل وُقوعها، ولكنَّه أرادَ إظهار أعمال عباده وكشفها، لإقامة الحُجَّة عليهم، وقَطْع أعذارهم، ولمُجَازَاة الصادق بإيمانه وصِدْقه ، والمُنافق بنِفاقه وكَذِبه . واللهُ يَأمرُ المؤمنين بالجِهاد حتَّى يرى أعمالَهم ، ويُظهِرها في الوُجود، ويَكشفها في الواقع ، ويَعْلَم العِلْمَ (عِلْم الوُقوع والوُجود والظُّهور) ، وبه يَقع الجَزاء . ويَبْلُو أخبارَهم ، وذلك بإظهار مَن يَرفض القِتال ، ولا يَصبر على الجِهاد . وبشكل عام ، إن اللهَ وَعَدَ عبادَه في البلاء والمصائب والفِتَن بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، إذا صَبروا عَلَيها ، مُخلِصين لله ، راضين بقضائه ، ومُسْتَسْلِمِين لأمره وحُكمه . ويجب على المؤمن أن يَستغل هذه الفُرص الذهبية ، للحُصول على الدَّرَجات الرفيعة في الجَنَّة. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ، أي : نَتَعَبَّدكم بالشَّرائع ، وإنْ عَلِمْنا عَوَاقِبَ الأمور . وقِيل : لِنُعَامِلَنَّكُم مُعاملة المُخْتَبِرِين ، ﴿ حتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُم والصَّابرينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : ﴿حتَّى نَعْلَمَ ﴾ حتى نَميِزَ . وقال عليٌّ رضي الله عنه : ﴿حتَّى نَعْلَمَ ﴾ حتى نَرَى ... وهذا العِلْم هو العِلْم الذي يقع به الجَزاء ، لأنَّه إنَّما يُجازيهم بأعمالهم، لا بعِلْمه القديم عليهم ، فتأويله : حتى نَعْلَمَ المُجاهدين عِلْمَ شَهادة ، لأنهم إذا أُمِرُوا بالعمل ، يَشهد مِنهم ما عَمِلُوا ، فالجَزاء بالثواب والعِقاب يقع على عِلْم الشَّهادة ، ﴿ وَنَبْلُوَ أخبارَكُم ﴾ ، نَختبرها ، ونُظهِرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضَيل بن عِياض إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهُمَّ لا تَبْتَلِنا ، فإنَّكَ إذا بَلَوْتَنا ، فَضَحْتَنا ، وهَتَكْتَ أستارَنا)) .

ثالثًا : المُؤمنون

١ـ صِفات المُؤمنين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ يأمرونَ بالمَعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورَسُولَهُ أُولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوبة : ٧١] .

المُجتمعُ الإيمانيُّ قويٌّ ومُتماسك ، والمؤمنون والمؤمنات الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ، يَتناصرون ويَتعاونون ويَتعاضدون، قلوبهم مُتَّحدة في المَحَبَّة والتعاطف بسبب إيمانهم ، وهُم يَدٌ واحدة. يَنتمون إلى دِينٍ واحد ، وكَلِمتهم واحدة . تَجمعهم رابطةُ العقيدة الإسلامية ، ورابطةُ الإنسانية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ ، أي : بعضهم يُوالِي بَعْضًا ، فهُم يَد واحدة ، يأمرون بالإيمان ، ويَنْهَوْنَ عن الكُفر)) .

يَأمرون بعبادة الله وطاعته وتَوحيده والتزام أوامره واجتناب نَوَاهيه . والمعروفُ كُل ما عَرَفَه الشَّرْع ولم يُنكِره . ويَنْهَوْن عن الكُفر والشِّرْك والضَّلال والذنوب والمعاصي . والمُنكَر ما يُنكِره الشَّرْعُ ولا يَعرِفه . ويُؤَدُّون الصَّلاةَ المَفروضةَ بشُروطها وأركانها على أكمل وَجْه ، ويُخرِجون الزكاةَ المَفروضة في أموالهم ، ويُساعدون الناسَ، ويُحسِنون إلَيهم. وتَمَّ تخصيص الصلاة والزكاة بالذِّكْر ، لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام العملية ، والزَّكاة أعظم أركان الإسلام المالية . ويُطيعون اللهَ في أوامره ونَوَاهيه ، ويُطيعون رَسُولَه في سُننه، ولا يُفرِّقون بين طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

أُولئك سَيَرحمهم اللهُ ، ويُؤَيِّدهم ، ويَنصرهم ، وهذا وعدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة . و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، يَدُل على عُلُوِّ مكانتهم الإيمانية ، وبُعد درجتهم في الفضل والشرف والمجد .

والسِّينُ في ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ﴾ مُؤكِّدة للوُقوع ، وتُشير إلى وجود الرحمة حَتْمًا ، وفيها تأكيد للوَعْد الإلهيِّ .

﴿ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ لكل شيء ، وقاهر له ، لا يُعجِزه شيء ، ولا يُغالَب ، ولا يُقْهَر . يُعِزُّ أولياءه، ويُذِل أعداءه ، وقادر على الثواب والعِقاب . ﴿ حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله ، يَضع الأشياء في نِصابها الصحيح .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤١٥): ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأمَّا ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ ﴾ وهُم المُصَدِّقُون بالله ، ورسوله ، وآيات كتابه ، فإن صِفتهم : أن بعضهم أنصار بَعْض وأعوانهم ، ﴿ يأمرونَ بالمَعروفِ ﴾ ، يقول : يَأمرون الناسَ بالإيمان بالله ورسوله ، وبما جاء به مِن عِند الله ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، ﴿ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ﴾ ، يقول : ويُؤَدُّون الصلاةَ المفروضة ، ﴿ ويُؤتُونَ الزكاةَ ﴾ ، يقول: ويُعْطُون الزكاةَ المَفروضة أهْلَها ، ﴿ ويُطيعونَ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾ فيأتمرون لأمر الله ورسوله ، ويَنْتَهُون عمَّا نهاهم عنه ، ﴿ أُولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾ ، يقول : هؤلاء الذين هذه صِفتهم الذين سَيَرحمهم الله ، فيُنقذهم مِن عذابه ، ويُدخِلهم جَنَّته ، لا أهل النِّفاق والتكذيب بالله ورسوله، النَّاهون عن المعروف ، الآمِرُون بالمُنكَر ، القابضون أيديهم عن أداء حق الله مِن أموالهم ، ﴿ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ ، يقول: إن الله ذُو عِزَّة في انتقامه مِمَّن انتقمَ مِن خَلْقه على معصيته وكُفره به، لا يَمنعه مِن الانتقام مِنه مانع ، ولا يَنصره مِنه ناصر، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في انتقامه مِنهم ، وفي جميع أفعاله)) .

وقال ابن عبد البَر في التمهيد (١٩/ ٩٣): ((والمُؤمنون في الجُملة، هكذا يَرِثُ بعضُهم بعضًا، فلو أن رَجُلًا مات لا وارث له، لكان ميراثه للمسلمين، ولو جَنى جِنايةً ، لَعَقَلَ عنه المسلمون ــ قاموا بتأدية جِنايته ــ، ثم تكون وَلاية أقرب مِن وَلاية ، وقرابة أقرب مِن قرابة)) .

وقال الحِصْني في كِفاية الأخيار (١/ ٤٧٣) : ((لا يجوز أن يكون وَلِيُّ المُسلمة كافرًا . قال اللهُ تعالى:﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ . فالكافر ليس بناصر لها لاختلاف الدِّين ، فلا يكون وَلِيًّا ، وكذا أيضًا لا يَجوز لمُسلم أن يكون وَلِيًّا لكافرة ، لِقَوْله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ ، فَقَطَعَ سُبحانَه وتعالى المُوالاةَ بين المؤمنين والكافرين، وهذا هو المذهب ، ويُؤخَذ مِن الآية وَلاية الكافر للكافرة)) .

وعن أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ : عن النبيِّ ﷺ قال: ((المُؤمن للمؤمن كالبُنيان ، يَشُدُّ بَعْضُه بَعضًا)) [٦٥]. إن المؤمنين كِيانٌ واحد، يَسُوده العدل والإخاء والرحمة والمَحَبَّة ، يَأمرون بالمَعروف ، ويَنْهَوْنَ عن المُنكَر ، ويُساعد بَعْضُهم بعضًا في الطاعات والمُباحات ، ويَستر أحدُهم على الآخَر ولا يَفضحه . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٩) : ((... تعظيم حُقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وحثُّهم على التَّرَاحُم والمُلاطَفة والتَّعَاضُد ، في غَير إثم ولا مَكروه . وفيه جواز التَّشبيه ، وضَرْب الأمثال لتقريب المَعاني إلى الأفهام)) .

---

٦٥ متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٦٣) برقم (٢٣١٤) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٩) برقم (٢٥٨٥).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم وأُولئكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾[التَّوبة : ٨٨] .

إن المُنافقين لَم يَنصروا الإسلامَ ، ولم يُجاهدوا في سبيل الله،وهذا لا يضرُّ الإسلام،ولا يُؤَثِّر في فريضة الجِهاد. وإذا تَخَلَّفَ المُنافقون عن نُصرة الإسلام وجِهاد الكافرين، فقد جاهدَ مَن هُم أعظم مِنهُم .

إنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابه حَمَلُوا رسالةَ الإسلام ، بإخلاص وصِدق ، وجَاهَدوا الكافرين باذلين أموالهم وأرواحهم رخيصةً لإعلاء كلمة التَّوحيد ، وأُولئكَ لهم مَنَافع الدُّنيا والدِّين ، أي : الغنائم في الدُّنيا ، والكرامة في العُقْبَى ، وأُولئكَ هُم الفائزون بسعادة الدنيا ونعيمِ الآخرة .

﴿ وأُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، يدل على عُلُوِّ مكانتهم ، وبُعد منزلتهم في الفضل والشرف. وتَكريرُ اسم الإشارة لتعظيم أمرهم ، وتفخيم شأنهم ، ورَفْع قَدْرهم، وإعلاء رُتبتهم، وتشريفهم.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٤٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لَم يُجَاهِد هؤلاء المُنافقون الذين اقتصصتُ قَصصهم المُشركين ، لكنِ الرَّسولُ مُحمَّد ﷺ، والذي صَدَّقوا اللهَ ورسولَه معه هُم الذين جاهدوا المُشركين بأموالهم وأنفسهم ، فأنفَقُوا في جِهادهم أموالَهم ، وأتعَبُوا في قتالهم أنفسَهم وبذلوها ، ﴿ وأُولئكَ ﴾ يقول : وللرَّسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴿ الخَيْرَاتُ ﴾ ، وَهِيَ خَيْرَات الآخِرة ، وذلك : نِساؤها وجَنَّاتها ونَعيمها . واحدتها (خَيْرة) . و (الخَيْرة) مِن كُل شيء الفَاضِلة . ﴿ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ ، يقول : وأولئك هُم المُخَلَّدُون في الجَنَّات ، الباقون فِيها ، الفائزون بها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنون ﴾ [المُؤمنون : ١] .

قد فازَ بالأماني وظَفِرَ بالخَير وحَصَلَ على الفلاحِ المُصَدِّقُون بوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ .

و﴿ قَدْ ﴾ لتأكيد فلاح المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وحُصولهم على المَطلوب ، ونَيلهم سعادة الدُّنيا ، ونعيم الآخِرة الدائم .

وفي زاد المسير (٥/ ٤٥٩): ((قال الفَرَّاء : ﴿ قَدْ ﴾ هاهُنا يجوز أن تكون تأكيدًا لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريبًا للماضي مِن الحال ، لأن " قد " تُقَرِّب الماضي مِن الحال حتى تُلحقه بحُكمه ، ألا تراهم يَقولون: قد قامت الصلاة قبل حال قِيامها ، فيكون معنى الآية : إن الفلاح قد حَصل لهم، وإنهم عليه في الحال... قال الزَّجاج : ومعنى الآية: قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخَير)) .

وعن يزيد بن بَابَنُوس قال : قُلنا لعائشة _ رضي اللهُ عنها _ : يا أُمَّ المؤمنين ، كيف كان خُلُقُ رسول الله ﷺ ؟. قالت: ((كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القُرآنَ))، ثُمَّ قالت : ((تَقرأ سُورةَ المؤمنين ؟، اقرأ : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنون ﴾))، حتى بَلَغَ العَشْرَ، فقالت:((هكذا كان خُلُقُ رسول الله ﷺ))[٦٦].

إنَّ مَقام النُّبُوَّة هو مَقام أخلاقيٌّ مستقيم . وهذه الاستقامة الخُلُقية ضرورية لتثبيت المرجعية الإيمانية الواضحة التي يعود إليها الأتباع واثقين بها ، ومُسترشدين بمنهجها، حيث يرسمون خطواتهم الحياتية على ضَوئها . والنبيُّ ﷺ قَد وَصل إلى ذِروة الأخلاق الحميدة ، ووصلَ إلى الكمال البشريِّ ، فلا يُوجد مَخلوق فوق مَنْزلته الشريفة . ولا شَكَّ أنَّ الأخلاق الفاضلة تَنشأ عن ثباتِ القلب على الحق ، وكمالِ العقل ، وقُوَّةِ الإرادة . والنبيُّ ﷺ التزمَ المنهجَ القُرآنِيَّ ، فصارت حياته نابعةً من الأخلاق القُرآنية الجليلة، حيث تثبيت الفضيلة، ورفض الرذيلة. لقد آمَنَ مُحمَّد ﷺ بالقُرآن إيمانًا مُبْصِرًا ومُطْلَقًا . آمنَ بالقُرآن لَفْظًا ومَعْنًى ، وصارَ القُرآنُ واقعًا ملموسًا في حياته ، يَلتزم بأوامره ، ويَجتنب نَواهيه . لذلك ، كانت أقوالُ النبيِّ ﷺ وأفعالُه تَطبيقًا عمليًّا لتعاليم القُرآن وأحكامه الشريفة . قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٤) : ((ومعنى هذا أنه _ عليه الصلاة والسلام _ صار امتثالُ القرآنِ _ أمرًا ونَهْيًا _ سَجِيَّةً له ، وخُلُقًا تَطَبَّعه ، وتَرَكَ طَبْعَه الجِبِلِّيَّ . فمهما أمَرَه القرآنُ فَعَلَه ، ومهما نَهاه عنه تَرَكَه ، هذا مَعَ ما جَبَلَه اللهُ عَلَيه مِن الخُلُق العظيم ، مِن الحَياء والكَرَم والشَّجاعة والصَّفْح والحِلْم وكُل خُلُق جميل)) .

وعن ابن عباس يَرفعه قال: ((خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بيده ، وخَلَقَ فِيها ثِمارَها، وشَقَّ فيها أنهارَها، ثُمَّ نظر إليها، فقال: تَكَلَّمِي ، فقالت : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنون ﴾ ، فقال: وعِزَّتي وجَلالي لا يُجاورني فِيكِ بخيل))[٦٧].

هذا يدل على عِظَمِ نعيم الجَنَّة الذي أعَدَّه اللهُ لعباده المؤمنين ، فهُم خالدون في الجَنَّة ، ويتمتَّعون بثمارها ، ويستمتعون بأنهارها . مِمَّا يدل على عظيم فضل الله تعالى ، وعنايته بالمؤمنين ، ورعايته لهم ، وتوفيقهم إلى الإيمان والعمل الصالح في الدُّنيا ، والحصول على سعادة الآخِرة ، ونعيمِ الجنة الدائم بلا انقطاع .

---

٦٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٤٨١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٦٧ رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٤٩) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٣١) : ((رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جَيِّد)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩٨) : (((لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ ، خَلَقَ فِيها ما لا عَيْن رأت) زاد في رواية : ولا أُذُن سَمِعَتْ (ولا خَطَر على قلب بَشَر ، ثُمَّ قال لها) خِطاب رضا وإكرام (تَكَلَّمِي) أي : أذِنْتُ لَكِ في الكلام (فقالت : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنون ﴾) وفي رواية : "خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بيده ، ودَلَّى فيها ثمارها ، وشَقَّ فيها أنهارها ، ثُمَّ نظر إلَيها ، فقال لها : تَكَلَّمي فقالت : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنون ﴾ ، فقال : وعِزَّتي وجَلالي لا يُجاورني فِيكِ بخيل ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خاشعون ﴾ [المؤمنون : ٢] .

الخُشُوعُ في الصلاة علامة المؤمن الصادق البعيد عن النِّفاق والرِّياء ، فما كانت أعضاؤه لَتَخْشَع لَوْلا خُشوع قلبه. وهذا يدل على ارتباط القلب بالله تعالى، وهو علامة الصلاح والتقوى. أمَّا تصنُّع الخُشوع فهو الرِّياء بِعَينه ، حيث إظهار الصفات الحميدة دون وجودها في القلب ، وذلك لِنَيل الحظوة عند الناس ، والمديح ، والشُّهرة ، والسُّمعة ، وتحقيق منافع شخصية .

والمؤمنون الصادقون خائفون ساكنون في صَلاتهم،تعظيمًا للهِ تعالى، وخُضوعًا لجَلاله وسُلطانه وعَظَمَته ، وهَيْبَةُ الله مُسيطرة على قلوبهم بشكل تام وكامل . والخُشُوعُ مكانه القلب ، ويَظهر أثَرُه على الحواس والجوارح والأعضاء . وخُشُوعُ القلب هو استقرار الخَوف والرَّهبة فِيه . وهذا ينعكس على الجوارح ، وخُشوع الجوارح يتجلى في سُكونها وترك الالتفات والعبث . والجديرُ بالذِّكر أن العبد ليس له مِن صَلاته إلا ما عَقَلَ مِنها ، وخَشَعَ فِيها . والخُشُوعُ في الصلاة واجبٌ ، ولا يُمكن تدبُّر القُرآن إلا بفهم مَعناه ، ولا يُمكِن فهم مَعناه إلا بالخُشوع والتركيز وترك الغَفْلة .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩٦) : ((والذين هُم في صلاتهم مُتَذَلِّلُون للهِ بإدامة ما ألزمهم مِن فَرضه وعبادته، وإذا تَذَلَّلَ للهِ فيها العبدُ، رُئِيَت ذِلَّة خُضوعه في سكون أطرافه، وشُغله بفَرْضه، وتركه ما أُمِرَ بتركه فيها)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩٥) : ((اختلف الناس في الخُشوع ، هل هو مِن فرائض الصلاة ، أو من فضائلها ومُكمِّلاتها ؟ . على قَولين ، والصحيح الأول)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥٩): ((وأصل الخُشوع في اللغة الخُضوع والتواضع. وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة اقوال: أحدها أنه النظر الى موضع السُّجود. روى أبو هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى رَفَع بَصَرَه إلى السماء ، فَنَزلت : ﴿ الذينَ هُم في صَلاتِهِم خَاشِعُون ﴾ فَنَكَّسَ رَأسَه [٦٨] . وإلى هذا المعنى ذهب مُسلِم بن يَسَار

٦٨ في المستدرَك للحاكم (٢ / ٤٢٦) : [عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أن

وقتادة.والثاني أنه ترك الالتفات في الصلاة وأن تُلِينَ كَتِفَكَ للرَّجل المسلم،قاله عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه . والثالث أنه السُّكون في الصلاة، قاله مجاهد وإبراهيم والزُّهري . والرابع أنه الخَوف، قاله الحسن)) .

وقد أُضيفت الصلاة في الآية إلى المُصلِّين لا إلى المُصَلَّى له ، وهو الله تعالى ، لأن المُصلِّي وَحْدَه هو المُستفيد مِن صلاته ، والمُنتفع بها ، وهي سعادته في الدنيا ، ونجاته في الآخرة . أمَّا اللهُ تعالى فغنيٌّ عن الصلاة والمُصلِّي ، لا تنفعه الطاعة ، ولا تضرُّه المعصية . وقال الغزَّالي في الإحياء (١/ ١٦٧): ((واعلم أن مِن مكائد الشيطان أن يُشغِلك في صلاتك بِذِكْر الآخرة وتدبير فِعل الخيرات ، لِيَمنعك عن فَهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يُشغِلك عن فهم معاني قراءتك فهو وَسْواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود معانيها)) اهـ . وعن عليّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ : أنه سُئِل عن قَوله _ عز وجل _ :﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ . قال: ((الخُشوع في القلب ، وأن تُلِينَ كَتِفَكَ للمَرْءِ المُسلِم ، وأن لا تلتفِت في صلاتك)) [٦٩].

هذا تعريفٌ دقيق للخُشوع في الصلاة ، ينبغي الالتزام بِه وتطبيقه على أرض الواقع .

إن القلبَ هو مَلِك الأعضاء ، والحاكم عليها . وما وَقَرَ فيه ، لا بُد أن يَظهر على الجوارح بقصد أو بغير قصد . والخُشوعُ مكانه في القلب (المركز / المنبع / الأساس) ، والخُضوع مكانه البدن،وإذا خَشَعَ القلبُ خَشعت الجوارح ، لأن الجوارح تابعة لما استقرَّ في القلب (مَلِك الأعضاء). ويقتضي الخشوعُ التعاملَ مع المسلم بِلِين وأدب ، وعدم الالتفات في الصلاة ، لأنه يُشتِّت التركيز، ويُؤثِّر سَلْبًا على حُضور القلب وتماسكِ الأعضاء. والمؤمنون خائفون مِن الله، مُتَذَلِّلون له، ساكنون في صلاتهم، لا يَرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم. إنهم خائفون بالقلب، وساكنون بالجوارح. وحِينَ يستقر الخُشوع في القلب ، فإن تغييرًا هائلًا سَيَطرأ على باقي الأعضاء. فيغدو المسلمُ كائنًا مُتَّزِنًا يضع الكلمةَ في موضعها الصحيح ، لا تأخذه فَوْرة الغضب ، ولا يستسلم للاستفزاز وسَفَاهة الجُهَّال، ويمشي بِسَكِينة ووَقَار ، يُساعد الآخرين ويأخذ بأيديهم نحو

رسول الله ﷺ كان إذا صَلَّى رَفَعَ بَصَرَه إلى السماء ، فَنَزَلت : ﴿ الذينَ هُم في صَلاتِهِم خَاشِعُون ﴾ ، فطأطأ رأسه "] . صحَّحه الحاكم ، وقال : لَولا خِلاف فيه على محمد ، فقد قِيل عنه مُرْسَلًا ، ولَم يُخرِجاه . وقال الذهبي : الصحيح مُرسَل .

٦٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٤٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بَر الأمان . وعندئذ يُصبِح المسلمُ شُعلةَ نشاط ، ومنارةً تهدي الحيارى وتُرشِد الضائعين . كما أنه سيتعامل مع الناس باحترام ، فلا يتطاول عليهم ولا يحتقرهم ، ولا ينظر إليهم نظرةً دُونية أو يُعاملهم كالشياطين الذين ضَلُّوا السبيلَ . فالخُشوعُ أساسٌ للسَّكِينة واللين وسهولة التعامل . وإلانةُ الكَتِف للمسلم تُشير إلى معاملته بالأدب لا الوقاحة ، واحتوائه لا رفضه .

وفي صحيح البخاري (١/ ٢٦١) : عن عائشة قالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة ؟ ، فقال : ((هو اختلاس يَخْتَلِسُه الشَّيطانُ مِن صلاة العبد)) .

إن الشيطان لا يرتاح إلا عِندما يُشوِّش على صلاة العبد ، ويَجعلها تغرق في السَّهْو والنِّسيان والعبث وغياب الخُشوع ، وتشتُّت الأفكار ، وكثرة الوساوس والهواجس . والاختلاسُ هو أخذ الشَّيء بسرعة ، وعلى وجه الغَفْلة . والالتفاتُ في الصلاة عبارة عن سرقة شيطانية بسرعة من الصلاة. وذلك كَي يَحْرِمَ المُصلِّي مِن أجر الخُشوع، ويُبعده عن السَّكِينة والطمأنينة في الصلاة. وهذا هو طبعُ الشيطان الرجيم الذي يتركز منهجُه في إفساد العبادات، وجَعْلها خالية مِن المعنى عبر تشتيت ذِهن المُصلِّي ، وطرحِ القضايا المتشعبة في نَفْسه كَي ينشغل بها بعيدًا عن صلاته ، وهذا يُؤثِّر سَلْبًا على أجره ، ويُفقِده لذة الطاعة ، ويَجعله فاقدًا للشعور بحقيقة العبادة ورُوحها .

والالتفاتُ في الصلاة مكروهٌ ، ويُبطِل الصلاةَ إذا بلغ حَد استدبار القِبلة . والحِكمةُ مِن كراهة الالتفات ، أنه يُنقِص الخُشوعَ ، ويُشتِّت الذهن ، ويَمنع من فهم آيات القرآن . كما أنه يتضمَّن معنى الإعراض عن اللهِ وآياته ، والاستسلام أمام وساوس الشَّيطان والتَّعاطي معها . والمُصلِّي الحقيقيُّ يُخالِف وساوسَ الشَّيطان ، ويُهْمِلها ، ويَخشع في صلاته ، ويُركِّز في طاعته وعبادته .

وفي سُبُل السلام (١/ ٣٣) : ((قال الطيبي : سَمَّاه اختلاسًا لأن المُصلِّي يُقْبِل على رَبِّه تعالى، ويترصَّد الشيطانُ فَواتَ ذلك عليه ، فإذا التفتَ استلبه ذلك ، وهو دليل على كراهة الالتفات في الصلاة، وحَمَله الجمهور على ذلك إذا كان التفاتًا لا يَبلُغ إلى استدبار القِبلة بصدره أو عُنقه كُلِّه، وإلا كان مُبْطِلًا للصلاة.وسبب الكراهة:نُقصان الخُشوع _ كما أفاده إيراد المُصنِّف للحديث في هذا الباب_أو ترك استقبال القِبلة ببعض البدن،أو لِمَا فيه مِن الإعراض عن التَّوجه إلى الله تعالى)) اهـ . وعن أبي ذَر قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يَزال اللهُ مُقْبِلًا على العبد ما لَم يلتفت ، فإذا صَرَفَ وَجْهَه ، انصرفَ عنه)) [٧٠].

---

٧٠ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٦١) برقم (٨٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اللهَ يَنظر إلى العبد بالرحمة ، وإعطاء الأجر العظيم ، ما دامَ خاشعًا في صلاته ، ناظرًا إلى مكان سُجوده ، لا يَلتفت يَمنةً ولا يَسرةً ، فإذا التفتَ العبدُ بِعُنُقه ، أعرضَ اللهُ عنه . والمعنى أن الالتفات في الصلاة يُنقِص الأجرَ ، ويُقلِّل الثواب . والأجرُ على قَدْر الخُشوع . وفي عَون المَعبود (٣/ ١٢٥) : ((والحديث يدل على كراهة الالتفات في الصلاة ، وهو إجماع، لكن الجمهور على أنها للتَّنْزيه . وقال المُتولِّي: يَحْرُم إلا للضرورة ، وهو قول أهل الظاهر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ عَنِ اللغْوِ مُعْرِضُون ﴾ [المؤمنون : ٣] .

والذينَ هُم عَن الباطل،واللهو، والهَزْل،والمَعصية، وما لا فائدة فيه مِن قَوْل أو عمل، مُعْرِضُون.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٦٠) : ((وفي المُراد باللغو هاهُنا خمسة أقوال : أحدها الشِّرْك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني الباطل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث المَعَاصي ، قاله الحسن . والرابع الكَذِب ، قاله السُّدي . والخامس الشَّتْم والأذى الذي كانوا يَسمعونه مِن الكُفَّار ، قاله مُقاتل . قال الزَّجاج : واللغو كُل لَعِب ولَهْو ، وكُل معصية ، فهي مُطَّرَحَة مُلغاة ، فالمعنى : شَغَلَهم الجِد فِيما أمرهم اللهُ به عن اللغو)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٧٨) : ((واللغو ، قال الزَّجاج : هو كُل باطل ولَهْو وهَزْل ومعصية ، وما لا يُحمَل مِن القَول والفِعل . وقال الضَّحاك : إن اللغو هُنا الشِّرْك . وقال الحسن : إنه المَعَاصي كُلُّها ، ومعنى إعراضهم عنه : تَجَنُّبهم له ، وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتِّصافهم بصفة الإعراض عن اللغو في كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دُخُولًا أوَّلِيًّا ، كما تُفيده الجُملة الاسميَّة ، وبناء الحُكم على الضمير)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ للزكاةِ فاعلون ﴾ [المؤمنون : ٤] .

هذا مدحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين يُؤَدُّون الزكاةَ (الصَّدَقة المفروضة) طلبًا لرضا الله وَحْدَه . وعبَّر عن التَّأدية بالفِعل، لأنها فِعل. لقد التزموا بالطاعات البدنية والمالية،ووصلوا إلى قِمَّة التقوى التي تتجلى في اجتناب المُحرَّمات ، وفِعل الطاعات ، فاستحقوا المدح والإشادة وخُلود الذِّكْر .

وقِيل : المقصود بالزكاة في الآية العملُ الصالح . أي : والذين هُم للعمل الصالح فاعلون .

والزَّكاةُ هي طُهرة للأموال ، كما أنها تُطهِّر النَّفْسَ مِن البُخل والأخلاقِ الذميمة ، وتُطهِّر الجسدَ مِن الأمراض والعِلَل . وكثيرٌ مِن الأمراض العُضوية سببها مشكلات نفسية ورُوحية .

والآيةُ تدل على النَّماء ، والزيادة ، والبَرَكات ، والخَيْرات ، والطهارة المعنوية والمادية ، والنَّقاء الروحي والجسدي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/٣١٩):((وقَوله:﴿ والذينَ هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلُون ﴾.الأكثرون على أن المراد بالزَّكاة هَهُنا زكاة الأموال، معَ أن هذه الآية مكية،وإنما فُرِضَت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة.والظاهر أن التي فُرِضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصُب(جَمْع نِصاب وهو القَدْر الذي عِنده تجب الزَّكاة) والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة،كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ . وقد يُحتمَل أن يكون المراد بالزكاة هَهُنا زكاة النَّفْس مِن الشِّرك والدَّنَس ، كَقَوله: ﴿ قَد أفلحَ مَن زَكَّاها (٩) وقد خابَ مَن دَسَّاها (١٠) ﴾ [الشَّمْس]،وكَقَوله: ﴿ وَوَيْلٌ للمُشركين (٦) الذينَ لا يُؤتونَ الزَّكاةَ ﴾ [فُصِّلَتْ] على أحد القَولين في تفسيرهما . وقد يُحتمَل أن يكون كِلا الأمرين مُرَادًا، وهو زكاة النُّفوس وزكاة الأموال، فإنه مِن جُملة زكاة النُّفوس.والمؤمن الكامل هو الذي يَفعل هذا وهذا ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حافظون ﴾ [المؤمنون : ٥] .

إن المؤمنين الأطهار الشُّرَفاء يَلتزمون أوامرَ الله تعالى ، ويَجتنبون ما نهى عنه . وهُم يَحْفظون فُروجَهم مِن الإثم والحرام ، ويَتَمَسَّكُون بالشَّرَف والطهارة والعَفاف عمَّا لا يَحِل لهم ، فلا يَزْنُون ، ولا يَعْملون عَمَلَ قَوْم لُوط . إنهم يَمنعون فُرُوجَهم مِن الوُصول إلى الحرام ، فيُحافظون عليها في وجه كُل المُغْرَيات والشَّهَوَات المُحرَّمة ، فيبقون أنقياء أطهارًا ، لا يُلوِّثون أجسامَهم بالحرام .

والفَرْجُ يُطلَق على فَرْج الرَّجل والمَرأةِ . وحِفْظ الفَرْج يعني التَّعَفُّف عن الحرام والمعاصي .

وفي تحفة الأحوذي (٦/ ١٢٠): ((وأمَّا الفَرْج فصَوْنه من أعظم مراتب الدِّين، قالَ تعالى: ﴿ والذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حافظون ﴾ ، لأن هذه الشَّهْوَة أغلب الشَّهَوَات على الإنسان ، وأعصاها على العقل عِند الهَيَجَان . ومَن تَرَكَ الزنى خَوْفًا من الله تعالى مع القُدرة ، وارتفاع الموانع ، وتيسُّر الأسباب ، لا سِيَّما عِند صِدق الشَّهْوة ، وَصَلَ إلى درجة الصِّديقين)) .

وعن بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جَدِّه _ رضي اللهُ عنه _ قال : قُلتُ : يا رسول الله ، عَوْراتنا ما نأتي منها وما نَذَر ؟، قال: ((احْفَظْ عَوْرَتك إلا مِن زوجتك أو ما مَلَكَتْ يَمِينُك)) ، قُلت : أرايتَ إن كان قَوْمٌ بَعْضُهم فوق بعض ؟ ، قال : ((إن استطعتَ أن لا يراها أحد فلا يَرَيَنَّها)) ، قُلتُ : أرايتَ إن كان خاليًا ، قال : ((فاللهُ أحقُّ أن يُسْتَحْيَى مِنه)) [٧١].

الحديثُ دليل على وُجوب سَتْر عَورة الرَّجل إلا مِن زوجته ، أو ما مَلَكَتْ يمينُه .

---

٧١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩) برقم (٧٣٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هـذا يُشير إلى قُـوَّة مـنهج الانضباط الأخلاقيِّ في المجتمع الإسلامي المحروس بقوانين الشريعة التي حالت دون غرق الأفراد في الفوضى الجنسية، وانتشارِ الفواحش، وشيوعِ الأمراض التناسلية . والمجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعٌ نظيف طاهر يضع الشهواتِ في نِصابها الصحيح ، ويُغلِق كُلَّ الذرائع المُوصِلة إلى الحرام . وفي الحلال ما يُغني عن الحرام . وحِفْظُ العَورات هو الأساس لتجنُّب الانسياق وراء العلاقات المُحرَّمة بين الذَّكَر والأنثى ، والضَّمانةُ الأكيدة لحماية المجتمع مِن الكَبت الجنسي والفوضى الأخلاقية والأمراض الجنسية الخطيرة . وهُنا تتجلى أهمية التوازن ، والسَّيْرِ على الطريق المستقيم ، بلا انحراف عن الشريعة ، ولا تحايُل على الحرام .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ١٩٥ و١٩٦): (((احْفَظْ عَوْرَتك) صُنها عَن العُيون، لأنها خُلِقَت من آدم مَستورة ، وقد كانت مستورة عن آدم وحَوَّاء ، ودَخَلا الجَنَّة ولَم يَعْلَما بها ، حتى أكلا مِن الشَّجرة ، فانكشفت ، فأُمِرَا بسَتْرها ... (إلا مِن زَوجتك) بالتاء لُغةً، وبدونها جاء القرآن (أوْ مَا) أي : وإلا الأمَة التي (مَلَكَتْ يمينُك) وَحَلَّ لك وَطْؤُها ، وعبَّر باليمين للغالب ، إذْ كانوا يتصافحون بها عند العُقود . والخِطابُ وإن كان لمُفرَد ، لكن المراد العموم لِمَن حَضَرَ وغَابَ مِن جميع الأُمَّة بقرينة عُموم السؤال . والمرأةُ تَحفظ عَورتها حتى مِمَّا مَلَكت يمينُها إلا من زَوجها . قال الطيبي : وعَدَلَ عن اسْتُر إلى (احْفَظْ) لِيَدُلَّ السياق على الأمر بسَتْرها استحياءً عمَّن ينبغي الاستحياء مِنه ، أي : مِن الله ، ومِن خَلْقه ، يُشير به معنى قَوله تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حافظون (٥) إلا على أزواجِهِم أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُم ﴾ ، لأن عدم السَّتْر يُؤَدِّي إلى الوَقاحة ، وهي إلى الزِّنا ، وفيه أن للزَّوج النظر إلى فَرْج زوجته وحَلْقة دُبُرها ، وأخذ بعضُهم منه أنه يجب على الرَّجل تمكين حليلته مِن الاستمتاع به ، ورُدَّ بأن معنى قَوله : (إلا مِن) إلى آخره ، أي: فهو أوْلَى أن لا تَحفظ عَورتك مِنها ، وذاك لأن الحق في التَّمَتُّع له لا لها ، فيَلزَمها تمكينه ولا عَكْس ... . (إذا كان القوم) أي الجماعة (بعضهم في) ... (بعض) كأب وُجِدَ وابن وابنة أو المُراد : المِثْل لمِثْله كرَجل لرَجل ، وأنثى لأنثى ، وعليه فالقَوم اسم كان ، وبعضهم بدل منه ... (قال) أي رسول الله ﷺ : (إن استطعتَ أن لا يَرَيَنَّهَا أحد) ... اجتهد في حِفظها ما استطعتَ، وإن دعت ضرورة للكشف جاز بقَدْرها (قِيل) أي قُلتُ : يا رسول الله (إذا كان أحدُنا خاليًا) أي : في خَلْوة ، فما حُكم سَتْر عَوْرته حينئذ ؟ (قال) أي رسول الله ﷺ : (الله أحق) أي أوْجَب (أن يُسْتَحْيَا مِنه مِن الناس) عن كَشف العَورة ، وهو تعالى وإن كان لا يَحْجُبه شَيء ويرى المَستور كما يرى العاري ، لكن رعاية الأدب تقتضي السَّتْر . قال العلائي وغيره : وهذا إشارة إلى مَقام

المُرَاقَبَة ، فإن العبد إذا امتنع عن كَشف عَورته حَيَاءً مِن الناس ، فلأن يستحيي مِن رَبِّه المُطَّلِع عليه في كل حال وكل وقت أوْلَى ، والداعي إلى المُرَاقَبَة أمور أعظمها الحَياء . قِيل : إن إبراهيم ابن أدهم صَلَّى قاعدًا ، ثُمَّ مَدَّ رِجْلَه ، فهتف به هاتف : أهكذا تُجَالِس المُلوك ، فما مَدَّها بَعْد أبدًا . وقال الحكيم : مَن تَعَرَّى خاليًا ولم يحتشم فهو عبد قلبه ، غافل عن الله ، لم يَعْلَم بأن الله يرى عِلْمَ اليقين ، ولذلك كان الصِّدِّيق رضي اللهُ تعالى عنه يُقنِّع رَأسَه عند دخوله الخَلاء حَيَاءً مِن الله تعالى ، وكان عثمان رضي اللهُ تعالى عنه يَغتسل في بيت مُظلِم حتى لا يرى عَورة نَفْسه. قال الماوردي: ومِن خصائص نَبِيِّنا ﷺ أنه لَم تُرَ عَوْرته قَط ، ولو رآها أحد عَمِيَ ، وعَدُّوا من خصائص هذه الأُمَّة حُرمة كَشْف العَوْرة ، وكما يُؤْمَر بحِفظ عورته يُؤْمَر بحِفظ عَورة غَيره بترك النظر إليها . قال ابن جرير: إلا لعُذر كحَد يُقام عليه ، وعُقوبة تُدرأ. وظاهر الخبر وُجوب سَتْر العَورة في الخَلْوة لكن المُفْتَى به عند الشافعية جواز كشفها فيها لأدنى غرض كتبريد وخوف غبار على نَحْو ثوب، فينزل الخبر على نَدْب السَّتْر في الخَلْوة ، لا وُجوبه ، ومِمَّن وافقهم ابن جرير ، فأوَّلَ الخَبَرَ في الآثار على النَّدْب ، قال : لأن الله تعالى لا يَغيب عنه شيء مِن خَلْقه عُراة أو غَير عُراة)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إلا على أزواجِهِم أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُم فإنَّهُم غَيْرُ مَلُومِين﴾[المؤمنون: ٦]. المؤمنون الأطهار الشُّرفاء حافظون لفُروجهم في كُل الأحوال إلا مِن زَوجاتهم أو إمائهم(السَّراري)، فإنهم غَير مُؤَاخَذِين،ولا لَوْمَ عليهم ولا إثم.إنهم لا يَقْرَبُون إلا زوجاتهم أو مَا مَلَكتْ أيمانُهم(الإماء المَمْلُوكات).وهُم غَير مَلُومين على هذا الفِعْل،ولا إثم عليهم في ذلك.فالزَّوْجَةُ والأمَةُ ضِمن دائرة الحَلال . وفي الحَلالِ ما يُغني عن الحَرام . ومَن تَعَامَلَ مَع ما أحَلَّه اللهُ فلا حَرَجَ عليه ولا ذَنْب .

والآيةُ في الرِّجال خاصَّةً ، بدليل قَوله تعالى : ﴿ أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُم ﴾ ، والمرأة لا يَجوز أن تستمتع بفَرْج مَمْلُوكها (العبد الذي تَمْلِكُه) . والجديرُ بالذِّكر أن الله قالَ : ﴿ ما ﴾ ، ولم يَقُل : " مَن " ، لأن المَمْلُوك جرى مَجرى غَير العُقَلاء ، لذلك يُباع ويُشْتَرَى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجِهِم ﴾ قال الفَرَّاء : أي: مِن أزواجهم اللاتي أحَلَّ اللهُ لهم لا يُجَاوِزُون ، ﴿ أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُم ﴾ في مَوضع خَفْض مَعطوفة على ﴿ أزواجِهِم ﴾ و﴿ ما ﴾ مَصدرية ، وهذا يَقتضي تحريم الزِّنى وما قُلناه مِن الاستمناء ونِكاح المُتعة ، لأن المُتَمَتِّع بها لا تَجْري مَجْرى الزَّوْجات ، لا تَرِثُ ، ولا تُورَث ، ولا يَلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يُستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المُدَّة التي عقدت عليها وصارت كالمُسْتَأجَرَة . ابن العربي : إنْ قُلنا إن نكاح المُتعة جائز فهي زوجة إلى أجل ينطلق عليها

اسم الزَّوْجية ، وإنْ قُلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأُمَّة مِن تحريم نِكاح المُتعة لَمَا كانت زوجة ، فَلَم تدخل في الآية . قُلْتُ : وفائدة هذا الخِلاف: هل يجب الحَد ، ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يُدفَع الحَد للشُّبهة ويَلحق الولد ، قَولان لأصحابنا . وقد كان للمُتعة في التحليل والتحريم أحوال ، فَمِن ذلك أنها كانت مُباحة ثُمَّ حَرَّمها رسول الله ﷺ زمن خَيْبَر ، ثُمَّ حَلَّلَها في غَزاة الفَتْح ، ثُمَّ حَرَّمها بَعْد ، قاله ابن خُوَيْزمَنْدَاد مِن أصحابنا وغَيره وإليه أشار ابن العربي)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجِهِم ﴾ ، قال الفَرَّاء : ﴿ على ﴾ بمعنى : " مِن " . وقال الزَّجاج : المعنى أنهم يُلامون في إطلاق ما حُظِرَ عليهم وأُمِرُوا بحِفْظه ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم ، فإنهم لا يُلامُون)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤١٠): ((﴿ فإنَّهُم غَيْرُ مَلُومِين ﴾ يعني : يَحفظ فَرْجَه إلا مِن امرأته أو أمَتِه ، فإنَّه لا يُلام على ذلك ، وإنَّما لا يُلام فِيهما إذا كان على وَجْه أَذِنَ فيه الشَّرْعُ ، دُون الإتيان في غَير المَأتى ، وفي حال الحَيْض والنِّفَاس ، فإنه مَحظور ، وهو على فِعْله مَلُوم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ العادون ﴾ [المؤمنون : ٧] .

فَمَن أرادَ نِكاحَ غَيْرِ الزَّوْجات والإمَاء (السَّراري المَمْلُوكات) ، وطَلَبَ ما حرَّمه اللهُ تعالى ، فأُولئكَ هُم الظالمون لأنفسهم لأنهم تجاوزوا إلى ما لا يَحِلُّ، الخارجون مِن دائرة الحلال إلى دائرة الحرام ، الكاملون في العُدوان ، المُجَاوِزُون للحَد في الإثم والظُّلْم والفساد .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١١٧) : ((﴿ فَمَن ابتغى وراءَ ذلك ﴾ ، طَلَبَ قَضاءَ شهوة مِن غَير هَذين ، فأولئك هم العادون الكاملون في العُدوان)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤١٠) : ((﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ ، أي : التمسَ وطَلَبَ سِوى الأزواج والولائد المَمْلُوكة ، ﴿ فأُولئكَ هُمُ العادون ﴾ الظالمون المُتَجَاوِزُون مِن الحَلال إلى الحَرام ، وفيه دَليل على أن الاستمناء باليَد حرام ، وهو قَول أكثر العُلماء)) .

ولا شَكَّ أن كُلَّ مَن تَجَاوَزَ الزَّوجاتِ والإمَاءَ ، وبَحَثَ عن قضاء الشَّهوة الجنسية بعيدًا عنهنَّ ، فقد خَالَفَ الشَّرْعَ ، واقتحم الحَرامَ ، وهو ظالِمٌ لنفْسه ولغَيره ، لأنَّه وَضَعَ الأمرَ في غَير مَوضعه .

والآيةُ دليلٌ واضح على تحريم الاستمناء ، لأنه ليس من هذين القِسْمَيْن (الزَّوجات والإمَاء).

قال الشافعي في الأُم (٥/ ١٣٧) : ((فلا يَحِلُّ العمل بالذَّكَر إلا في الزوجة أو في مِلْك اليمين ، ولا يَحِلُّ الاستمناء ، واللهُ تعالى أعْلم)) .

كما أن الآيةَ دليلٌ على تحريم نِكاح المُتعة لِنَفْس السبب .

وعن ابن أبي مُلَيْكة قال : سألتُ عائشة _ رضي اللهُ عنها _ عن مُتعة النساء ؟ ، فقالت : ((بَيْني وبَيْنَكُم كِتابُ الله)) ، وقرأتْ هذه الآية : ((﴿ والذين هُم لِفُروجهم حافِظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم فإنهم غَيْرُ مَلُومين (٦) فَمَن ابتغى وراءَ ﴾ ما زَوَّجه اللهُ ، أو مِلْكِه ، فقد عَدا)) [٧٢].

مُتعةُ النِّساء هي زواج المرأة لمُدَّة مُعيَّنة بلفظ التَّمَتُّع على مَبلغ مِن المال . وقد كان مُباحًا ، ثُمَّ نُسِخَ ، وحُرِّمَ تحريمًا أبديًّا ، وأُغلِق هذا الباب إلى الأبد . فهو مُحرَّم بالإجماع ، فالصَّحابةُ قد حَفِظوا التَّحريمَ وعَمِلوا به . ولا عِبْرة بِمَن خَالَفَ ذلك . ومَن يَعْلم حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلم .

ومَن طَلَبَ نِكاحَ غير الزَّوجات والسَّراري (مِلْكِ اليمين) ، فقد تجاوزَ إلى الحرام والإثم .

وفي عَون المَعبود (٦/ ٥٩):((قال الإمام الخطابي في المعالم: تَحريم نِكاح المُتعة كالإجماع بين المسلمين،وقد كان ذلك مُبَاحًا في صَدْر الإسلام،ثُمَّ حَرَّمه في حَجَّة الوداع،فلم يَبْقَ اليوم فيه خِلاف بين الأُمَّة إلا شيئًا ذهب إليه بعض الروافض. وكان ابن عباس يتأوَّل في إباحته للمُضْطَر إليه بطُول العُزبة (العُزوبية)، وقِلَّة اليَسَار والجِدَة (قِلَّة المال)، ثُمَّ تَوَقَّفَ عنه، وأمسكَ عن الفَتوى به)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ لأماناتِهِم وعَهْدِهِم رَاعُون ﴾ [المؤمنون : ٨] .

والذينَ يَحفظون أماناتهم ، ويُؤَدُّونها إلى أهلها ، ولا يَخونون ، ويَحرِصون على عُهودهم وعُقودهم ، ويُوفُون بِها ، ولا يَنقضونها . والآيةُ عامَّة وشاملة لكل الأمانات الدينية والدُّنيوية .

إنهم يَحفظون ما ائتمنهم اللهُ عليه مِن قَول وفِعل واعتقاد ، ويحفظون ما ائتمنهم عليه الناس مِن ودائع وأمانات . ويجب على العبد أداءُ الأمانات بينه وبين الله ، وهي العبادات والطاعات ، كالصلاة والصيام ، التي فرضها اللهُ على العبد ، وأوجبها عليه . ويجب على العبد أيضًا أداءُ الأمانات بينه وبين الناس ، كرد الودائع ، والوفاء بوُعودهم وعُهودهم وعُقودهم ، وعدم خيانتها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤١٠) : ((يَحفظون ما ائتُمِنوا عليه والعُقود التي عَاقَدوا الناسَ عليها، يقومون بالوفاء بها. والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العبد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه ، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٣٤١) : ((وقَوله سُبحانَه : ﴿ والذينَ هُمْ لأماناتِهِم وعَهْدِهِم رَاعُون ﴾ ، جَمْع الأمانة مِن حَيث إنها مُتنوِّعة في الأموال والأسرار ، وفيما بين

٧٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧) برقم (٣٤٨٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

العبد وربِّه فيما أمَرَه به ، ونَهَاه عنه . والعَهْد كُل ما تَقَلَّدَه الإنسان مِن قَول أو فِعْل أو مَوَدَّة إذا كانت هذه الأشياء على مِنهاج الشريعة فهو عَهْد ينبغي رَعْيُه وحِفْظُه)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩٩) : ((الأمانةُ والعَهْدُ يَجمع كُلَّ ما يَحْمله الإنسانُ مِن أمر دِينه ودُنياه قَوْلًا وفِعْلًا ، وهذا يَعُمُّ مُعاشرةَ الناس ، والمواعيد ، وغَير ذلك ، وغاية ذلك حِفظه والقِيام به، والأمانة أعَم مِن العَهْد، وكُل عَهْد فهو أمانة فيما تقدَّم فيه قَول أو فِعل أو مُعْتَقَد)) .

إن المؤمنين الحقيقيين يَرُدُّون الأماناتِ إلى أصحابها ، ويُوفُون بعهدهم ، مُبتعدين كُل البُعد عن الخِيانة والغدر ونَقْض العهد . إنهم يمتازون بالصدق والإخلاص والأمانة في مُعاملاتهم ، فيُصبحون_ بذلك_ محل ثقة الآخرين، ويفرضون احترامهم على الجميع ، لأن الصفات الأخلاقية مُلتصقة بالجوارح . والناسُ يَحكمون على الإنسان تَبَعًا لأخلاقه الظاهرة التي لا يُمكن إخفاؤها مَهما حاول التَّكَلُّفَ والتَّصَنُّع ، وتمثيل دَور التَّقِيِّ المُحسِن ، وتقمُّص الصفات الحسنة . وطَبْعُ الإنسان يَظهر في حركاته وسَكَناته . والطَّبْعُ غَلَبَ التَّطَبُّعَ . ومن غير المُمكن أن يتصنَّع الإنسانُ الصفاتِ الحسنة في كل زمان ومكان ، فلا بُد أن يُكْتَشَف أمره ويتم فضحه _ عاجلًا أو آجِلًا_ مهما كان بارعًا في التَّمثيل والتَّحايُل ، وسوف يَسقط قِناعُه ، ويَظهر على حقيقته .

ومَهْمَا تَكُنْ عِندَ امرئٍ مِن خَليقةٍ وإن خَالَها تَخفَى عَلى النَّاسِ تُعْلَمِ [73]

وينبغي على الإنسان أن يتحلَّى بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة ، لأنها تعكس شخصيته وخَلْفيته ، وتُساهم في تحسين العلاقات التواصلية بين الناس ، ونَيل قَبولهم ورضاهم وثقتهم . كما أن الصِّفات الحميدة مُضادة تمامًا لصفات المنافقين. عن أبي هُرَيرة_رضي اللهُ عنه_عن النبيِّ ﷺ قال : ((آيةُ المُنافقِ ثلاث : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا أُؤتُمِنَ خَان)) [٧٤].

---

٧٣ قائل البيت هو الشاعر زُهَير بن أبي سُلمى. ومعناه : ومَهْما كان للإنسان مِن خُلُق أو صِفة أو طَبْع، يظنُّ أنه يَخفَى على الناس ، ولا يَعْلَمونه ، عُلِمَ ، وكُشِفَ ، وظَهَرَ . أي إنَّ الأخلاق واضحة لا تَخفَى ، والتَّكَلُّف والتَّصَنُّع والتَّخَلُّق لا يَبقى ولا يَدُوم .

٧٤ متفق عليه . البخاري (١/ ٢١) برقم (٣٣) ، ومسلم (١/ ٧٨) برقم (٥٩) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٤٦و٤٧) : ((هذا الحديث ممَّا عدَّه جماعة من العلماء مُشْكِلًا من حيث إن هذه الخِصال توجد في المسلم المصدِّق الذي ليس فيه شك . وقد أجمع العلماء =

هذه العلاماتُ الثلاث هي من خصائص المنافقين وصفاتهم . فالكذبُ في الحديث يؤدِّي إلى قلب الحق باطلًا ، وتحويل الباطل إلى حق . وهذه الصفةُ القبيحة لها آثار مدمرة في النسيج الاجتماعي لأنها تعمل على تفتيته ، وخَلْط الأمور بشكل عبثي كارثي يقود إلى تضليل الناس، وإطلاق الأحكام جُزَافًا دون التثبُّت منها . وهنا تبرز الأوهام في المجتمع ، وتنتشر الإشاعات ، ويَسُود الشَّك بين الناس ، ويَختفي اليقين في القِيل والقَال . ولا تَخفَى الأبعاد الكارثية لهذا الانهيار الاجتماعي المُرعِب .

ومِن صِفات المُنافقين عدم الوفاء بالوعد، وهذه الصِّفة القَبيحة تُزيل الثقةَ بين الناس ، فيصبح الجَميعُ خائفين مِن بعضهم البعض،ولا يَثقون بأنفسهم ومجتمعهم . وإذا انتهى التواصل الاجتماعي وتفكَّكت الروابط الإنسانية فعندئذ تتحوَّل القِيَمُ المجتمعية إلى كوابيس ، ويُصبح كلُّ فردٍ مُتَرَبِّصًا بالآخَر ، ويتحوَّل المجتمعُ الإنساني إلى غابة، لا قانون لها سِوى القوة والظُّلم والحِقد والكراهية، والابتزاز ، والاستغلال ، والانتقام .

أمَّا خيانةُ الأمانة فآيةٌ واضحة مِن آيات المنافق.وإذا عَجَزَ المَرْءُ عن حفظ الأمانة وتأديتها على أكمل صورة فهذا مؤشر على انهياره ، وسُقوطه في مُستنقع الابتزاز والغَدْر ، والاستحواذ على مُمتلكات الآخرين دون وجه حق،فيُصبح المُجتمعُ مكانًا للكراهية والحِقد والانتقام،وتَعُمُّ الفَوضى، ويَزول التكافل الاجتماعي، فتتمزَّق الأواصر الإنسانية ، ويتحوَّل الفردُ إلى خَنجر غَدْر في ظَهْر أخيه ، ويَصير المُجتمعُ جُزُرًا مَعزولة . الكُلُّ يَكره الكُلَّ ، ويَفقد المُجتمع شرعيةَ وجوده بسبب عَجْزه عن ترك بصمة إيجابية مُؤثِّرة في تاريخ الأخلاق والحضاراتِ، فيَزول، ويُصبح أثَرًا إثرَ عَيْن .

=على أن مَن كان مُصَدِّقًا بقلبه ولسانه وفَعَلَ هذه الخِصال، لا يُحكَم عليه بكُفر، ولا هو منافق يَخلُد في النار، فإن إخْوَة يُوسُف ﷺ جمعوا هذه الخِصال ، وكذا وُجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كُله . وهذا الحديث ليس فيه ــ بحمد الله تعالى ــ إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه . فالذي قاله المحقِّقون والأكثرون ، وهو الصحيح المختار ، أن معناه أن هذه الخِصال خِصال نِفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخِصال ، ومُتخلِّق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو إظهار ما يُبطِن خِلافَه ، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخِصال،ويكون نِفاقه في حق مَن حدَّثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه مُنافق في الإسلام فيُظهِره وهو يُبطِن الكُفْرَ . ولم يُرد النبيُّ ﷺ بهذا أنه منافق نِفاق الكُفَّار المخلَّدين في الدَّرْك الأسفل مِن النار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُون ﴾ [المؤمنون : ٩] .

مِن صفات المؤمنين الصادقين أنهم يُحافظون على أوقات الصلاة،فلا يُضيِّعونها، ولا ينشغلون عنها . فهم يحرصون على أداء الصَّلَوَات الخَمْس في أوقاتها بدون نقص ولا خَلَل . إنهم يُقيمون الصَّلوات المفروضة بفرائضها وسُننها وحُدودها وآدابها،وبشكل كامل وتام، لا نقص فيه ولا تهاون ولا تكاسل . والصلاةُ على وقتها أعظم قُربة إلى الله تعالى.فعن ابن مسعود قال: سألتُ النبي ﷺ : أيُّ العمل أحب إلى الله ؟ ، قال : ((الصَّلاة على وقتها)) [٧٥].

والمحافظةُ على الصلاة تعني إقامتها على أكمل وجه ، والمُوَاظَبة على أدائها بشكل صحيح في أوقاتها ، وإتمام رُكوعها وسُجودها وقراءة الآيات ، والأذكار المشروعة .

والفِعل المضارع ﴿ يُحَافِظُون ﴾ يدل على تجدُّد الصلاة وتكرُّرها في اليوم والليلة ، وهذا هو سبب مجيء الصلاة بصيغة الجمع : ﴿ صَلَوَاتِهِم ﴾ ، وليس بصيغة المُفرَد : صلاتهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٠) : ((والذين هُم على أوقات صلاتهم يُحافظون ، فلا يُضيِّعونها ، ولا يشتغلون عنها حتى تَفوتهم ، ولكنهم يُراعونها حتى يُؤَدُّوها فِيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْنًا وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٣] .

هذه الآية تتضمَّن مَظْهَرَيْن لِحُسن سُلوك المؤمنين الذين هُم عِباد الرحمن وصَفوته مِن خَلْقه . المَظهر الأوَّل هو المَشْي على الأرض بوَقار وسَكِينة بدون تكبُّر أو خُيلاء. وهذه طبيعتهم بلا رِياء أو تصنُّع . والمَظهر الثاني هو مُقابلة الإساءة بالإحسان والعَفْو عَن الجُهَّال ، ومُقابلة كلامهم القبيح بالكلام الطَّيب . والجديرُ بالذِّكر أن الإضافة في ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ ﴾ للتخصيص والتفضيل والتعظيم والتشريف والتفخيم.أي إنهم أولياءُ الله وصَفوته مِن خَلْقه،وإلا فالناسُ كُلُّهم عباد الرحمن.

إنَّ عباد الله المؤمنين الصالحين هُم نُخبة المجتمع ، وسادة الناس ، وأشرافهم ، يَمشون على الأرض بهُدوء وتواضع وطُمأنينة بدون استكبار ولا غُرور ولا عَجْرفة ولا سَعْي بالفسادِ والمعاصي ، ويتحمَّلون تفاهةَ الجُهَّال وسَفاهتهم وكلامهم السَّيئ ، ويَصفحون عنهم ، ولا يَرُدُّون الإساءةَ بالإساءة ، وإنما يَقولون لهم كلامًا جميلًا طَيِّبًا بِرِفْق ولِين . وبعبارة أخرى ، إذا خاطبهم الجاهلون السُّفهاءُ بما يَكْرَهونه ، قالوا لهم قَوْلًا لَيِّنًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم ، ويَنْجُون مِن أذاهم وشَرِّهم .

---

٧٥ متفق عليه. البخاري (١/ ١٩٧) برقم (٥٠٤) ، ومسلم (١/ ٨٩) برقم (٨٥) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/١٠١):((قَوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ﴾. وقال ابن قُتَيبة : إنَّما نَسَبَهم إليه لاصطفائه إيَّاهم . ومَعنى : ﴿ هَوْنًا ﴾ مَشْيًا رُوَيْدًا ، ومِنه يُقال : أحْبِبْ حَبيبك هَوْنًا ما . وقال مُجاهد : يَمشون بالوَقار والسَّكِينة ، ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ ، أي: سَدَادًا. وقال الحسن: لا يَجْهَلُون على أحد، وإن جَهِلَ عليهم حَلِمُوا. وقال مُقاتل ابن حَيَّان قالوا : سَلامًا، أي قَوْلًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم. وهذه الآية مُحْكَمَة عِند الأكثرين، وزعم قَوم أن المُراد بها أنهم يقولون للكفار:ليس بيننا وبينكم غَير السلام، ثُم نُسِخَت بآية السَّيف)) .

والنبيُّ ﷺ كان قُرآنًا يَمشي بين الناس ، وكان يُطبِّق الآياتِ على نفْسه ، ويتمثَّلها في أدق تفاصيل حياته . وهو ﷺ سَيِّد المؤمنين الصالحين ، وكان القُدوة العُليا في التواضع والأدب والاحترام ، وكان المَثَل الأسمى في الوَقَار والسَّكِينة والحِلْم والصَّفْح والتسامح ، بدون ضَعف ، ولا ذُل ، ولا رياء ، ولا تصنُّع ، ولا ضَغط مِن أحد .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ : ((إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤًا ، كأنَّما انحطَّ مِن صَبَب)) [٧٦].

إن النبيَّ ﷺ كان يَمشي بوَقار وسَكِينة بلا رياء ولا تكلُّف ، وكانت مِشيته هادئة متوازنة واثقة، بلا إسراع ولا إبطاء.وفي تُحفة الأحوذي (٥/ ٣٦١): (((إذا مَشى يتكفَّأ) أي يَتمايل إلى قُدَّام . وقِيل: أي يَرفع القَدَمَ مِن الأرض ثُم يضعها ولا يَمسح قَدَمه على الأرض كمَشْي المُتَبَخْتِر ، (كأنَّما ينحطُّ مِن صَبَب) أي يَرفع رِجْلَه مِن قُوَّة وجَلادة،والأشبه أن تكفَّأ بمعنى صَبَّ الشَّيء دَفعة)) .

لقد كان النبيُّ ﷺ يمشي باتِّزان وتواضع ووَقار ، ويتعامل مع الناس بأدب واحترام ، ويُسامح الجاهلين ، ويَتجاوز عن السُّفهاء ، ويُقابل الإساءةَ بالإحسان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْنًا ﴾ ، أي : بسَكِينة ووَقار مِن غَير جبرية ولا استكبار ... فأمَّا هؤلاء فإنَّهم يَمْشُون مِن غير استكبار ، ولا مَرَح ، ولا أشَر ، ولا بَطَر . وليس المُراد أنهم يمشون كالمرضى تَصَنُّعًا ورِيَاءً ، فقد كان سيِّد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنَّما ينحطُّ مِن صَبَب ، وكأنَّما الأرض تُطوَى له ، وقد كَرِهَ بعضُ السَّلَف المَشْيَ بتضعُّف وتصنُّع ، حتى رُوِيَ عن عُمر أنه رأى شابًّا يَمشي رُوَيْدًا ، فقال : "ما بالك أأنتَ مريض ؟ " ، قال : لا ، يا أمير المؤمنين . فعَلاه بالدِّرَّة ، وأمره أن يمشيَ بقوة ،

---

٧٦ رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٥٩٨) برقم (٣٦٣٧) وصحَّحه ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦٢) برقم (٤١٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وإنما المراد بالهَوْن هُنا السَّكينة والوَقار ... . وقال عبد الله بن المُبارك عن مَعْمَر عن يحيى ابن المختار عن الحسن البصري في قَوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ ﴾ الآية ، قال : إن المؤمنين قَوم ذُلُل ، ذَلَّت مِنهم _ واللهِ _ الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تَحْسَبَهم مرضى ، وما بالقَوم مِن مَرَض ، وإنَّهم واللهِ أصِحَّاء ، ولكنهم دَخَلَهم مِن الخَوف ما لم يَدخل غَيْرَهم ، ومنعهم من الدنيا عِلْمُهم بالآخرة ، فقالوا: الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحَزَنَ، أمَا واللهِ ما أحزنهم ما أحزنَ الناس، ولا تَعَاظَمَ في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخَوف من النار ، إنه مَن لم يَتَعَزَّ بِعَزاء الله تَقَطَّعَ نفْسُه على الدنيا حَسَرَات ، ومَن لَم يَرَ لله نِعمة إلا في مَطْعَم أو مَشْرَب ، فقد قَلَّ عِلْمُه ، وحَضَرَ عذابُه . ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ أي : إذا سَفِهَ عليهم الجُهَّال بالقَول السَّيئ لَم يُقابلوهم عليه بمِثْله ، بل يَعْفُون ويَصْفَحون ، ولا يقولون إلا خَيْرًا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شِدَّة الجاهل عليه إلا حِلْمًا)) .

وما أجملَ قَول الإمام الشافعيّ :

يُخاطِبُني السَّفِيهُ بكلِّ قُبْحٍ فَأكْرَهُ أن أكونَ لَهُ مُجِيبا
يَزِيدُ سَفَاهَةً وأزِيدُ حِلْمًا كَعُودٍ زادَهُ الإحراقُ طِيبا

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٤] .

هذه الآيةُ دَعوةٌ إلهيةٌ كريمةٌ إلى قيام الليل بالصلاة ، وحَث على أداء هذه العبادة باستمرار.

هؤلاء المؤمنون الصادقون يَقْضُون لَيْلَهُم في طاعة الله وعبادته ، بلا كسل ولا مَلَل ولا ضَجَر. لقد وَصَفَ اللهُ لَيْلَهُم ، فَهُم يَبيتون لربهم بالليل في الصلاة ، سُجَّدًا على وجوههم ، وقِيامًا على أقدامهم . والبَيْتُوتةُ هي أن يُدْرِكك الليل ، سواءٌ نِمْتَ أم لَم تنم . ولا تَكون إلا مَعَ سَهَر الليل . وقد تَمَّ تشريع البَيْتُوتة للهِ والصلاةِ له ، مِن أجل إخلاص العمل للهِ ، والابتعاد عن السُّمعة والرِّياء.

و﴿ سُجَّدًا ﴾ جمع ساجد ، و﴿ قِيَامًا ﴾ جمع قائم . إنهم يَقضون الليلَ في طاعة الله وعبادته ، بين سُجود على وُجوههم في صلاتهم ، والقِيام على أقدامهم ، يُصَلُّون الليلَ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((وتخصيص البَيْتُوتة ، لأن العبادة بالليل أحزم ، وأبعد عن الرِّياء)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((بيان لحالهم في مُعاملتهم مع ربِّهم ، أي : يكونون ساجدين لربِّهم وقائمين . أي يُحْيُون الليلَ كُلًّا أو بَعْضًا بالصلاة ، وقِيل : مَن قَرأ شيئًا مِن القرآن في صلاة وإن قَلَّ، فقد باتَ ساجدًا وقائمًا. وقِيل : هُما الركعتان بعد المغرب ، والركعتان بعد العِشاء ، وتقديم السُّجود على القِيام لرعاية الفواصل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يَقُولونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كانَ غَرَامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٥] . هذا مَدْحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين يَعبدون اللهَ وَحْدَه ، ويحرصون على طاعته ، ويَجتنبون المعاصي . ومعَ هذا ، فهم خائفون مِن غضب الله، ومُشْفِقون مِن عذابه، ويَدْعُون اللهَ أن يَحميَهم مِن عِقابه ، ويُجيرهم مِن عذاب جهنم ، إن عذابها كان دائمًا مُلازِمًا غَير مُفارِق . ومِنهُ سُمِّيَ الغريم لِمُلازمته . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((وهو إيذان بأنهم مَعَ حُسن مُخالطتهم مع الخَلْق ، واجتهادهم في عبادة الحق ، وَجِلُون من العذاب ، مُبْتَهِلون إلى الله تعالى في صَرْفه عنهم ، لعدم اعتدادهم بأعمالهم ، ووثُوقهم على استمرار أحوالهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿كانَ غَرَامًا ﴾ فيه خمسة أقوال مُتقارب معانيها : أحدها دائمًا ، رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ عن رسول الله ﷺ . والثاني مُوجِعًا، رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثالث مُلِحًّا،قاله ابن السائب. وقال ابن جُرَيج: لا يُفَارِق. والرابع هَلاكًا ، قاله أبو عبيدة . والخامس أن الغرام في اللغة أشد العذاب ... ، قاله الزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٦] . إنَّ جهنَّم ساءت مَنْزِلًا ومُقَامًا ، وبِئسَ مَوْضِع الاستقرار ومَوْضِع الإقامة هِيَ . والآيةُ تُبيِّن سُوء حال النار ، وتُنفِّر مِنها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٢٥) : ((وجُملة ﴿ إنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ تَعليل لِمَا قَبْلها ، والمَخصوص مَحذوف، أي : هِيَ . وانتصاب ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ على الحال أو التَّمييز ، وكذا ﴿ مُقَامًا ﴾ . قِيل : هُما مُترادفان ، وإنما عَطَفَ أحدهما على الآخر لاختلاف لَفْظَيْهما ، وقِيل : بَل هُما مُختلفان ، معنى : فالمُسْتَقَر للعُصاة فإنهم يَخرُجون ، والمُقَام للكُفَّار فإنهم يَخْلُدون، و﴿ سَاءَتْ ﴾ مِن أفعال الذَّم كَبِئْسَت ، ويجوز أن يكون هذا مِن كلام الله سُبحانَه، ويَجوز أن يكون حِكاية لكلامهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفُرقان: ٦٧].

هؤلاء هُم المؤمنون الصادقون ، حيث إنهم مُعْتَدِلُون في إنفاقهم ، يلتزمون المنهج الوسطيَّ في العلاقات المالية . وهُم لا يُنفِقون مالَهم في معصية الله وإن قَلَّ . ولا يَمنعون حقَّ الله تعالى .

والإسرافُ هو مُجاوَزة الحد في الإنفاق ، والتَّقتيرُ هو التقصير عن الأمور الضرورية ، ومنع الواجب . وقِيل : الإسراف هو الإنفاق في معصية الله وإن قَل . والإقتار هو منع حق الله تعالى .

إنهم لا يُجاوِزون حَدَّ الكَرَم، فيصيرون مُبذِّرين، ولا يُضيِّقون على أنفسهم وغَيرهم، فيصيرون بُخَلاء . وخَير الأُمور أوسطها .

إنهم يُنفِقون أموالَهم باعتدال وتوازن بين الإسراف والإقتار: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وَسَطًا عَدْلًا . سُمِّيَ بِه لاستقامة الطرفين . والقَوَامُ هو العَدْل بين الشَّيئين . وصدق القائل :

ولا تَغْلُ في شَيء مِن الأمرِ واقْتَصِدْ كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((أي : لَيْسوا بِمُبذِّرين في إنفاقهم فيَصرِفون فوق الحاجة ، ولا بُخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقهم فلا يَكفونهم ، بل عَدْلًا خِيَارًا ، وخَير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا)) .

إن الشريعة المُحمَّدية الإسلامية أسَّست المبدأ الأصيل في عِلم الاقتصاد، وهو التوازن بين الطرفَيْن ، والاعتدال بين الإفراط والتفريط . فالإنفاقُ ينبغي أن يكون بلا إسراف ولا تقتير . وإنما بشكل معتدل لا تطرُّف فيه إلى أيَّة جهة . وهذا من شأنه الحفاظ على سَيْر الأمور دون مشكلات غير محسوبة. فالاقتصاد في الإنفاق هو الضمانة الأكيدة للاستمرارية وعدمِ تعطُّل المشاريع التي فيها صلاح معيشة الناس . كما أن التوسُّط في الإنفاق يمنع حدوث مفاجآت غير سارة ، لأن الأمور تكون محسوبةً بدِقَّة مع وجود هامش لحالات الطوارئ ، وهذا يَحُول دون انبعاث صدمات قاتلة. وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧١) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ . اختلفَ المفسِّرون في تأويل هذه الآية . فقال النَّحاس : ومِن أحسن ما قِيل في معناه أن مَن أنفقَ في غَير طاعة الله ، فهو الإسراف . ومَن أمسكَ عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الإقتار ، ومَن أنفقَ في طاعة الله تعالى فهو القَوَام . قال ابن عباس : مَن أنفق مائة ألف في حق فليس بِسَرَف ، ومَن أنفقَ دِرهمًا في غَير حَقِّه فهو سَرَف، ومَن مَنَعَ مِن حق عليه، فقد قَتَّرَ . وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما. ... والوجه أن يُقَال : إن النفقة في معصية أمر حَظرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه ، وكذلك التَّعدي على مال الغَير ، وهؤلاء المَوصوفون مُنَزَّهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المُباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يُفْرِط الإنسان حتى يُضيِّع حَقًّا آخَر أو عِيالًا ، ونَحْو هذا ، وألا يُضيِّق أيضًا ويُقتِّر حتى يُجِيع العِيال ، ويُفْرِط في الشُّح . والحُسن في ذلك هو القَوَام ، أي العَدْل . والقَوَام في كُل واحد بحَسَب عِياله وحاله وخِفَّة ظَهْره وصَبْره وجَلَده على الكسب ، أو ضد هذه الخِصال، وخَير الأمور أوساطها، ولهذا تَرك رسولُ الله ﷺ أبا بكر الصِّديق أن يَتصدَّق بجميع ماله ، لأن ذلك وَسَط بنِسبة جَلَده وصَبْره في الدِّين ، ومَنع غَيْرَه مِن ذلك ، ونِعْمَ ما قال إبراهيم النَّخعي:هو الذي لا يُجِيع ولا يُعرِّي ، ولا يُنفِق نفقةً يَقول الناس : قد أسرفَ . وقال يزيد بن أبي حبيب: هُم الذين لا يَلبَسون الثياب لجَمَال ، ولا يأكلون طعامًا لِلَذَّة ، وقال يزيد

أيضًا في هذه الآية: أولئك أصحاب مُحمَّد ﷺ ، كانوا لا يأكلون طعامًا للتَّنعُّم واللذة، ولا يَلبَسون ثيابًا للجَمَال ، ولكن كانوا يُريدون مِن الطعام ما يَسُدُّ عنهم الجُوع ، ويُقوِّيهم على عِبادة ربِّهم ، ومِن اللباس ما يَستُر عَوراتهم ، ويُكِنُّهم (يَحفظهم) مِن الحَر والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعُمر بن عبد العزيز حين زوَّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟، فقال له عُمر : الحَسَنة بين سَيِّئتين ، ثُمَّ تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرءِ سَرَفًا ألا يَشتهيَ شيئًا إلا اشتراه فأكله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ ولا يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٨] .

والذينَ لا يَعبدون مع الله إلَهًا آخَر ، ولا يُشرِكون في عبادته وطاعته، وإنما يَعبدون اللهَ وَحْدَه، غَير مُشركين به ، ويُوحِّدونه ، ويُخلِصون له العبادةَ والطاعةَ والدَّعوةَ ، ولا يَقتلون النَّفْسَ المَعصومةَ التي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها إلا مُحِقِّين في قَتْلها ، أي : بُكفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قَتْل نَفْس بغير نَفْس فتُقتَل بها ، ولا يَأتون فُروجَ النِّساءِ المُحرَّمةَ بغَير زواج ولا مِلْك يمين ، ومَن يَفعل شيئًا مِن هذه المُحرَّمات ، يَلْقَ في الآخرة عذابًا شديدًا وعِقابًا أليمًا .

لقد نَفى اللهُ هذه الكبائر والذنوب العظيمة عن عباده المؤمنين الصالحين ، وهذا تَعريض بالمُشركين وتَوبيخ لهم . والمعنى : إن الله طهَّر المؤمنين مِن الذنوب والمعاصي التي تَغرَقون فيها يا كُفَّار قُرَيش، ولا مُقارَنة بين المؤمنين الأطهار أهل العبادات والطاعات والقُرُبَات، وبين الكافرين الأنجاس أهل الكفر والضلال والمعاصي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٨) : ((نفى عنهم أُمَّهات المعاصي بعدما أثبت لهم أُصول الطاعات ، إظهارًا لكمال إيمانهم ، وإشعارًا بأن الأجر المَذكور مَوعود للجامع بين ذلك ، وتعريضًا للكَفَرة بأضداده ، ولذلك عقَّبه بالوعيد تهديدًا لهم، فقال: ﴿ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا ﴾ جَزَاءَ إثم ، أو إثمًا بإضمار الجَزاء)) .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٤١٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: والذين لا يَعبدون مع الله إلَهًا آخَر، فيُشركون في عبادتهم إيَّاه، ولَكِنَّهم يُخلِصون له العِبادةَ، ويُفرِدونه بالطاعة ، ﴿ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ ﴾ قَتْلَها ﴿ إلا بالحقِّ ﴾ إمَّا بكُفر بالله بعد إسلامها ، أو زنا بعد إحصانها ، أو قَتْل نَفْس فتُقتَل بها ﴿ ولا يَزْنُونَ ﴾ فيَأتون ما حرَّم اللهُ عليهم إتيانَه مِن الفُرُوج ﴿ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ يقول : ومَن يَأتِ هذه الأفعال فدعا مع الله إلَهًا آخَر، وقَتَلَ النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ بغير الحَق وزنى ﴿ يَلْقَ أثَامًا ﴾ يقول: يَلْقَ مِن عِقاب الله عُقوبةً ونَكَالًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٠٣و١٠٤و١٠٥):((قَوله تعالى:﴿ والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود قال : سألتُ رسولَ الله ﷺ : أيُ الذَّنْب أعظم ؟ ، قال : " أن تَجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَك "، قُلتُ : ثُمَّ أي ؟ ، قال : " أن تَقتل ولدك مَخافة أن يَطعَم مَعَك " ، قُلتُ : ثُمَّ أي ؟ ، قال : " أن تُزَانِيَ حَلِيلةَ جارك "، فأنزلَ اللهُ تعالى تصديقَها : ﴿ والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ الآية [٧٧].

---

٧٧ النِّد هو الضِّد ، ونظير الشيء الذي يُعارضه في أموره . وأعظم ذَنْب أن يَجعل الإنسانُ لله نِدًّا وضِدًّا ونظيرًا ، لأن الله وَحْدَه هو الخالق الرازق ، لا شريك له ، ولا نِد . ومَن جَعل لله نِدًّا أو شريكًا حرَّم اللهُ عليه الجَنَّة ، وهو خالد في عذاب النار إذا مات على كُفره وشِركه وضلاله . وبعد هذا الذَّنْب العظيم ، يأتي ذَنْب شنيع ، وهو أن يَقتل الإنسانُ ابنَه مَخافة أن يَأكل معه ، يعني أن يَقتل ابنَه خَوْفًا مِن الفقر والحاجة ، وهذا يدل على غياب الإيمان وفقدان اليقين وعدم الثِّقة بأن الله هو الخالق الرازق . ثُمَّ يأتي ذَنْب في غاية السُّوء ، وهو أن يَزنِيَ الإنسانُ بزوجة جاره برضاها ، وهذه الكبيرة تتضمَّن الزنا ، والفساد، والخِيانة الاجتماعية ، وإفساد الرابطة الزَّوجية ، وتفكيك الأُسرة. وهذا الأمر في غاية السُّوء والقُبح ، وهو مع زوجة الجار أشد سُوءًا وقُبحًا ، لأن الجار ينتظر من جاره أن يُدافع عن أهله ، ويَحميَهم ، ولا يَطعنه في الظَّهْر . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٨١) : ((وقَوله ﷺ : " أن تُزَانِيَ حَلِيلةَ جَارك".وهي زوجته سُميت بذلك لكَونها تَحِلُّ له. وقِيل: لكَونها تَحُلُّ مَعَه، ومعنى تُزَانِي أي تزني بها برضاها، وذلك يتضمَّن الزِّنى ، وإفسادها على زَوجها ، واستمالة قلبها إلى الزاني ، وذلك أفحش ، وهو مع امرأة الجار أشد قُبْحًا ، وأعظم جُرْمًا ، لأن الجار يتوقَّع من جاره الذَّبَّ عنه ، وعن حريمه ، ويَأمن بَوائقه ، ويطمئن إليه ، وقد أُمِرَ بإكرامه والإحسان إليه ، فإذا قابلَ هذا كُله بالزنى بامرأته وإفسادها عليه مع تمكُّنه منها على وجه لا يتمكَّن غَيره مِنه ، كان في غاية مِن القُبح ... . أمَّا أحكام هذا الحديث ففيه أن أكبر المعاصي الشِّرك ، وهذا ظاهر لا خَفاء فيه ، وأن القَتل بغير حَق يَليه، وكذلك قال أصحابنا: أكبر الكبائر بعد الشِّرك القتل ، وكذا نصَّ عليه الشافعي رضي اللهُ عنه في كتاب الشَّهادات من مختصر الْمُزَنِي ، وأمَّا ما سِواهما من الزنى، وفِعل قَوم لُوط،وعُقوق الوالدين، والسِّحْر، وقذف الْمُحْصَنَات، والفِرار يوم الزَّحْف ، وأكل الرِّبا، وغَير ذلك مِن الكبائر، فلها تفاصيل وأحكام، تُعرَف بها مراتبها، ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتَّبة عليها، وعلى هذا يُقَال في كل واحدة مِنها هي مِن أكبر الكبائر، وإن جاء في موضع أنها أكبر الكبائر، كان المراد مِن أكبر الكبائر ، ... ، والله أعلم)) .

والثاني أن ناسًا مِن أهل الشِّرْك قَتلوا فأكثروا ، وزَنَوْا فأكثروا ، ثُمَّ أَتَوْا رسولَ الله ﷺ ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَن لَو تُخبِرنا أن لِمَا عَمِلْنا كَفَّارة ، فنزلت هذه الآية ... . أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جُبَير عن ابن عباس[٧٨]. والثالث أن وحشيًّا أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا مُحمَّد، أتَيْتُكَ مُستجيرًا فأجِرْني حتى أسمع كلامَ الله ، فقال رسول الله ﷺ : " قَد كُنتُ أُحِبُّ أن أراك على

---

٧٨ إن الإسلام يَهدم ما قَبله . ومَن أسلمَ عادَ كيَوم وَلدته أُمُّه . وعلى العبد أن يتوب ويعود إلى الله ، مهما فَعل مِن الذنوب والمعاصي ، ولا يَقنَط من رحمة الله ، ولا ييأس مِن مغفرته ، فإن الله تعالى يَغفِر الذنوبَ جميعًا بعد التَّوبة مِنها ، ورحمة الله وَسِعَتْ كُلَّ شيء ، وباب التَّوبة واسع ، ومغفرة الله أعظم مِن كُل الذنوب صغيرها وكبيرها . وفي تحفة الأحوذي (٩/ ٨٠) : ((﴿ يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنفُسِهِم ﴾ ، أي : أفرَطوا عليها وتجاوزوا الحدَّ في كُل فِعل مَذموم، ﴿ لا تَقْنَطُوا ﴾ ، أي: لا تيأسوا ﴿ مِن رَحمةِ اللهِ ﴾ ، أي : مِن مَغفرته ، ﴿ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ . قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية الكريمة دَعوة لجميع العُصاة مِن الكَفَرَة وغَيرهم إلى التَّوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يَغفِر الذنوبَ جميعًا لمن تاب مِنها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت، وإن كَثُرت وكانت مِثل زَبَد البحر ، ولا يَصِح حمل هذه على غير تَوبة ، لأن الشِّرك لا يُغفَر لمن لم يَتُبْ مِنه ، ثُم ذَكَرَ حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا مِن أهل الشِّرك كانوا قد قَتلوا وأكثروا وزَنَوْا وأكثروا، فأتَوْا مُحَمَّدًا، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَن ، لو تخبرنا أن لِمَا عَمِلْنا كَفَّارة ، فنزلَ : ﴿ والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ ولا يَزْنُونَ ﴾ ، ونزل: ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾ ، أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنَّسائي، ثم قال بعد ذِكر أحاديث أخرى ما لفظه:فهذه الأحاديث كُلها دالة على أن المراد أنه يَغفِر جميع ذلك مع التَّوبةولا يَقْنَطَنَّ عبد من رحمة الله ، وإن عَظُمَت ذُنوبه وكَثُرت ، فإن باب الرحمة والتوبة واسع . انتهى . قال صاحب فتح البيان نقلًا عن القاضي الشَّوكاني : والحق أن الآية غير مُقيَّدة بالتَّوبة بل هي على إطلاقها ، قال : والجمع بين هذه الآية وبين قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشاء ﴾ هو أن كُل ذَنْب كائنًا ما كان ما عدا الشِّرك بالله ، مَغفور لمن شاء اللهُ أن يَغفِر له ، على أنه يمكن أن يُقال : إن إخباره لنا بأنه يَغفِر الذنوب جميعًا يدل على أنه يشاء غُفرانها جميعًا ، وذلك يستلزم أنه يَشاء المغفرةَ لكل المذنبين مِن المسلمين ، فلم يَبْقَ بين الآيتين تعارُض من هذه الحيثية . قُلتُ : كُلٌّ مُحتمَل ، وما قال ابن كثير هو الظاهر عِندي ، والله تعالى أعلم)) .

غَير جِوار ، فأمَّا إذا أتيتني مُستجيرًا فأنتَ في جِواري حتى تَسمع كلامَ الله " ، قال : فإنِّي أشركتُ بالله ، وقَتلتُ التي حرَّم اللهُ ، وزَنَيْتُ ، فهل يَقبل اللهُ مِنِّي تَوبةً ، فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ ، حتى نزلت هذه الآية، فتلاها عَلَيه، فقال: أرى شرطًا، فَلَعَلِّي لا أعمل صالحًا، أنا في جِوارك حتى أسمع كلامَ الله،فنزلت:﴿إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشاء﴾[النِّساء: ٤٨]، فدعاه فتلاها عليه، فقال : ولعلِّي مِمَّن لا يَشاء اللهُ ، أنا في جِوارك حتى أسمع كلامَ الله ، فنزلت: ﴿يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾ الآية [الزُّمَر: ٥٣].فقال: نعم، الآن،لا أرى شرطًا،فأسلمَ،رواه عطاء عن ابن عباس،وهذا وَحْشي هو قاتل حَمْزة.وفي هذا الحديث المذكور عنه نظر ، وهو بعيد الصِّحة، والمحفوظ في إسلامه غير هذا، وأنه قَدِمَ مع رُسُل الطائف فأسلمَ من غير اشتراط، وقَوله: ﴿ يَدْعُونَ ﴾ معناه: يَعْبُدون... . قَوله تعالى: ﴿ يَلْقَ أثَامًا﴾ قال ابن عباس:يَلْقَ جَزاء.وقال مُجاهد وعِكرمة: وهو واد في جهنم. وقال ابن قُتَيبة: يَلْقَ عُقوبةً)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهُم بالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾[النَّمْل: ٣].

إن المؤمنين الصادقين الصالحين يُقيمون الصلاةَ المفروضة (الصلوات الخَمْس) على أكمل وجه، بشروطها وآدابها وأركانها وحدودها ، ويَدفعون زَكاةَ أموالهم (الصَّدقة المفروضة في أموالهم) عن طِيب نَفْس، ويُصدِّقون بالآخرة تصديقًا كاملًا وتامًّا وجازمًا، بلا أدنى شَك ولا تردُّد ولا ارتياب.

وتَمَّ تخصيص الصلاة والزَّكاة بالذِّكر ، لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام العملية (البدنية) ، والزَّكاة أعظم أركان الإسلام المالية . كما أن الصلاة والزكاة أعظم الأدلة على قُوَّة الإيمان ، وهُما قرينتا الإيمان ، إن زالتا زال ، وإن ثَبَتَتا ثَبَتَ .

وتَكرار الضمير في الآية:﴿ وهُم بالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾ لإفادة الحَصْر والاختصاص ، أي : لا يُوقِن بالآخرة حقَّ الإيقان ، ولا يُصدِّق بها حقَّ التَّصديق ، إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح . وتعظيمُ الله ، والإخلاصُ له ، وطلبُ رِضاه ، والخَوْفُ مِن عذابه الأليم، يَحْملهم على تحمُّل الصُّعوبات والمشاق والتعب ، والصبر على العبادات والطاعات . وسِياق الآية يدل على قُوَّة يقينهم ، وثباتهم على الحق ، وحِرصهم على أداء العبادات والطاعات ظاهرًا وباطنًا .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٤٩٤) : ((﴿ وهُم بالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾ ، يقول : وهُم مَعَ إقامتهم الصلاة، وإيتائهم الزَّكاة الواجبة، بالمَعَاد إلى الله بعد المَمَات يُوقِنون، فَيَذِلُّون في طاعة الله رَجاء جَزيل ثوابه ، وخَوف عظيم عِقابه ، ولَيسوا كالذين يُكذِّبون بالبَعْث ، ولا يُبالون أحْسَنُوا أم أساؤوا ، وأطاعوا أم عَصَوْا ، لأنهم إن أحسنوا لم يَرْجوا ثوابًا ، وإن أساؤوا لم يخافوا عِقابًا)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٤ / ١٧٨) : ((والجُملة اعتراضية ، كأنه قِيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويَعملون الصالحات،هُم المُوقِنون بالآخرة ، فما يُوقِن بالآخرة حقَّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح،لأن خَوف العاقبة يَحْملهم على تحمُّل المشاق))اهـ .

وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٧/ ٥٣): ((ولمَّا كان ﴿ يُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ ﴾ مِمَّا يتجدَّد ، ولا يَستغرق الأزمانَ ، جاءت الصِّلة فِعْلًا ، ولمَّا كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومُستقر ، جاءت الجُملة اسمية ، وأُكِّدَت بتَكرار الضَّمير : ﴿ وهُم بالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾ ، وجاء خبر المُبتدأ فِعْلًا ، ليَدل على الدَّيمومة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرتابوا وجَاهَدُوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم في سَبيلِ اللهِ أُولئكَ هُمُ الصادقون ﴾[الحُجُرات : ١٥] .

إنَّما المؤمنون الحقيقيون الصادقون في إيمانهم ، الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بأُلوهيته ورُبوبيته ، وصدَّقوا بِنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ورسالته ، عن إيمان كامل ، ويقين راسخ ، واقتناع تام ، ثُمَّ لم يَشُكُّوا في إيمانهم ، بَل تمسَّكوا بدِينهم ، وثبتوا على الحق واليقين ، والتزموا الهُدى والصواب والتَّصديق ، وبَذلوا أموالهم وأرواحهم رخيصةً في طاعة الله ، طلبًا لرضاه ، وابتغاء رِضوانه . أُولئك هُم المؤمنون حقًّا ، الصادقون في ادِّعاء الإيمان . والجديرُ بالذِّكر أن الجهاد دليل على صِدق الإيمان ، وقُوَّة اليقين . والإيمانُ ما وَقَرَ في القلب ، وصدَّقه اللسان ، وظَهَرَ على الجوارح .

والآيةُ تُبيِّن ثلاث صِفات للمؤمنين الصادقين : ١_ التصديق الكامل الجازم بوَحدانية الله ونُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . ٢_ عدم الشَّك في الإيمان . ٣_ الجهاد بالأموال والأنفُس .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٩٧) : ((﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ﴾ ، يعني إيمانًا صحيحًا خالصًا عَن مُواطَأة القلب واللسان ، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرتابوا ﴾ ، أي : لَم يَدخل قُلوبَهم شيء مِن الرَّيْب ، ولا خالطهم شَك مِن الشُّكوك ، ﴿ وجَاهَدُوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم في سَبيلِ اللهِ ﴾ ، أي : في طاعته ، وابتغاء مَرضاته ، ويَدخل في الجهاد الأعمالُ الصالحة التي أمرَ اللهُ بها، فإنها مِن جُملة ما يُجَاهِد المَرْءُ نَفْسَه، حتى يقوم به ويُؤَدِّيَه، كما أمرَ اللهُ سُبحانَه ، والإشارة بقَوله : ﴿ أُولئكَ ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المَذكورة، وهو مُبتدأ، وخَبره قَوله: ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ ، أي: الصَّادقون في الاتِّصاف بصِفة الإيمان ، والدُّخول في عِداد أهله ، لا مَن عَدَاهم مِمَّن أظهرَ الإسلامَ بلسانه ، وادَّعى أنه مؤمن ، ولم يطمئن بالإيمان قلبُه ، ولا وَصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهُم الأعراب الذين تَقَدَّمَ ذِكْرُهم [الحُجُرات : ١٤] ، وسائر أهل النِّفاق)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا ﴾[البقرة : ٢٥٧] .

اللهُ ناصرُ المؤمنين ، ومُعينهم ، ومُؤيِّدهم ، يَرعاهم ، ويَعتني بِهم ، ويتولى أمورهم ، ولا يَكِلُهم إلى غَيْره ، ويُوفِّقهم إلى الحق والهدى والخير . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٣) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بِقَوله : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنوا ﴾ نصيرهم وظَهيرهم، ويتولاهم بِعَونه وتوفيقه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾[يُونُس : ٦٢] .

ألا إنَّ أنصارَ الله وأحبابه وصَفوته مِن خَلْقه ، لا خَوف عليهم في الآخرة مِن عذاب الله وعُقوبته ، لأن الله رَضِيَ عنهم ، ورحمهم ، وحَمَاهم مِن العذاب ، ولا هُم يَحزنون على ما فاتهم مِن حُظوظ الدُّنيا ، لأن الله يُعوِّضهم خيرًا مِنها ، فهو وَلِيُّهم ومَوْلاهم . ولا مُقارَنة بين نعيم الآخرة الباقي وحُطام الدُّنيا الفاني . وَمَن تَوَلَّاه اللهُ وأحبَّه وحَفِظَه ورَضِيَ عنه ، لا يَخاف يوم القيامة ، ولا يَحزن. وأولياءُ الله لا خَوف عليهم فيما يَستقبلونه أمامهم ، ولا هُم يَحزنون على ما يَتركونه وراءهم.

وأولياءُ الله هُم نُخبة المؤمنين وصَفوة الله مِن خَلْقه ، القريبون مِن الله بطاعته وترك معصيته . مَن رآهم ذَكَرَ اللهَ بسبب صِفتهم الإيمانية ، وهَيئتهم الحسنة ، ومَن جالسهم أحبَّهم ، وقرَّبوه مِن الله وطاعته ، وأبعدوه عن الذنوب والمعاصي . والوَلِيُّ هُوَ العَالِمُ العَامِلُ بعِلْمِه . وما اتَّخذَ اللهُ وَلِيًّا جاهلًا ، ولو اتَّخذه جاهلًا لَعَلَّمَه . والعملُ بالعِلْم النافع هو الطريق الوحيد إلى الله تعالى .

والآيةُ تَحْمل أشرف صِفة وأعظم وَصْف ، فهي تتضمَّن مُوالاة الله ، وانتفاء الخَوف والحزن ، وحُصول البُشرى والكرامة في الدُّنيا والآخرة .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إلا إن أنصار الله لا خَوْف عليهم في الآخرة مِن عِقاب الله ، لأن الله رَضِيَ عنهم ، فآمنهم مِن عِقابه ، ولا هُم يَحْزنون على ما فاتهم مِن الدنيا. و (الأولياء) جمع (وَلِي) وهو النَّصير ... . واختلف أهل التأويل فيمن يستحق هذا الاسم ، فقال بعضهم : هُم قوم يُذكَر اللهُ لرُؤيتهم لِمَا عَلَيهم مِن سِيما الخَير والإخبات)).

وقال أبو السعود في تفسيره(٤/ ١٥٨):((﴿ألا إنَّ أولياءَ اللهِ ﴾ بيان على وجه التَّبشير والوَعْد لِمَا هو نتيجة لأعمال المؤمنين... وصُدِّرَت الجُملة بحَرْفَي التَّنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مَضمونها . والوَلِيُّ لُغةً القريب ، والمُراد بأولياء الله خُلَّص المؤمنين لقُربهم الروحاني مِنه سُبحانَه وتعالى ، كما سيُفصِح عنه تفسيرُهم : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾ في الدَّارَيْن مِن لُحوق مَكْرُوه ﴿ ولا هُم يَحْزَنُون ﴾

مِن فَوات مَطلوب، أي : لا يَعتريهم ما يُوجِب ذلك، لا أنه يَعتريهم لكنهم لا يَخافون ولا يَحزنون ، ولا أنه لا يَعتريهم خَوف وحُزن أصْلًا ، بل يَستمرون على النشاط والسُّرور ، كيف لا واستشعار الخَوف والخَشية استعظامًا لجَلال الله سُبحانَه وهَيبته ، واستقصارًا للجِد والسَّعْي في إقامة حُقوق العُبودية ، مِن خصائص الخواص والمُقرَّبين . والمُراد بَيان دَوام انتفائهما ، لا بيان انتفاء دوامهما ، كما يُوهمه كَوْن الخبر في الجُملة الثانية مُضَارِعًا ، لِمَا مَرَّ مِرارًا مِن أن النَّفْي إن دَخل على نَفْس المضارع يُفيد الاستمرار والدوام بحَسَب المَقام ، وإنما يَعتريهم ذلك لأن مَقصِدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ، ونَيل رِضوانه المُستتبِع للكرامة والزُّلفى (القُربى) وذلك مِمَّا لا رَيْب في حُصوله ، ولا احتمال لفَواته ، بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى . وأمَّا مَا عَدا ذلك من الأمور الدُّنيوية المترددة بين الحُصول والفَوات ، فهي بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك مَقصِدهم وُجودًا وعَدَمًا ، حتى يخافوا مِن حُصول ضارِّها ، أو يَحزَنوا بفَوات نافعها)) .

وعن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ مِن عِباد الله عِبادًا لَيسوا بأنبياء ، يَغْبِطُهُم الأنبياءُ والشُّهداء)) . قِيل : مَن هُم لَعَلَّنا نُحِبُّهم ؟ ، قال : ((هُم قَوم تَحَابُّوا بنُور اللهِ مِن غَير أرحام ، ولا انتساب . وُجوههم نُور على منابر مِن نُور، لا يخافون إذا خَاف الناسُ، ولا يَحْزَنُون إذا حَزِنَ الناسُ)) ، ثُمَّ قرأ : ((﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾)) [٧٩].

إنَّ الأنبياء والشُّهداء يَتَمَنَّوْنَ أن لهم مِثْلَ الذي لهم مِن الكرامة العظيمة ، والمنزلة الرفيعة . أي إنهم يَستحسنون حالَهم ، وليس المعنى أنهم أفضل مِن الأنبياء والشُّهداء .

والغِبْطَةُ تمنِّي النِّعمة دُون تمنِّي زوالها عن صاحبها ، أمَّا الحسدُ فهو تمنِّي زوال النِّعمة عن صاحبها . وفي هذا السِّياق ، يتَّضح معنى الغِبطة ، وهو استحسان الحال والمَسَرَّة ، والإعجاب بالنَّعيم الذي هُم فِيه . وهذا يدل على قُربهم مِن الله تعالى ، وفضلهم ، وشرفهم ، وعُلُوِّ منزلتهم .

وهؤلاء القَوم أصحاب هذه المكانة السَّامية تحابُّوا بنُور الله ، وجمعهم الإيمان بالله وعبادته وطاعته، وكانت محبتهم خالصةً لوجه الله ، مِن غَير قَرابة، ولا أرحام، ولا رابطة دَم ، ولا أنساب ، ولا أسباب ، ولا مصالح شخصية ، ولا علاقات مادية ، ولا منافع مالية . لقد جَمَعَهم حُب الله وطاعته . وُجوههم بَيضاء مُشرقة مُنوَّرة ، على مَنابر مِن نُور . إنهم نُور على نُور . وهذا يدل على مكانتهم العظيمة ، ومنزلتهم الرفيعة .

---

٧٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٢/ ٣٣٢) برقم (٥٧٣) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢١١) : ((قال القاضي : يُحتمل أن يكونوا على منابر حقيقةً على ظاهر الحديث ، ويُحتمل أن يكون كِناية عن المنازل الرفيعة . قُلْتُ : الظاهر الأول ، ويكون مُتَضَمِّنًا للمنازل الرفيعة ، فهُم على منابر حقيقة ، ومنازلهم رفيعة)) .

هؤلاء المؤمنون المُتَحَابُّون المُتَّقون أولياء الله ، وصَفوته مِن خَلْقه ، لا يخافون إذا خافَ الناسُ مِن العذب في الآخرة ، ولا يَحزَنون إذا حَزِنَ الناسُ على ما تركوه في الدُّنيا ، لأن الله رَضِيَ عنهم ، وتولَّاهم ، وحَفِظَهم مِن كُل سُوء ، وحَمَاهم مِن كُل شَر .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٨٥) : ((يعني أن حالهم عند الله يوم القيامة بمَثابة لو غَبَطَ النَّبِيُّون والشُّهداء يومئذ معَ جَلالة قَدْرهم ونَباهة أمرهم حَالَ غَيرهم لَغَبَطُوهم . وقال البيضاوي: كُل ما يتحلى به الإنسان ويتعاطاه مِن عِلْم وعمل،فإن له عند الله تعالى منزلة لا يُشاركه فيها مَن لَم يتَّصف بها ، وإن كان له مِن نوع آخَر ما هو أرفع قَدْرًا ، وأعز ذُخْرًا ، فيَغبِطه بأن يتمنَّى ويُحب أن يكون مِثل ذلك مَضمومًا إلى ما له مِن المَراتب الرفيعة الشريفة، فذلك معنى قَوله: " يَغبِطهم النَّبِيُّون " ، لأن الأنبياء قد استغرقوا فيما هو أعلى مِن ذلك مِن دَعوة الخَلْق ، وإظهار الحق، وإعلاء الدِّين، وإرشاد العامَّة، وتكميل الخاصَّة، إلى غير ذلك مِن كُلِّيات تُشْغِلهم عن العُكوف على مِثل هذه الجُزئيات والقيام بحُقوقهم. والشُّهداءُ وإن نالوا رُتبة الشَّهادة لكنهم إذا رَأَوْا يوم القيامة منازلَهم وشاهدوا قُربهم وكرامتهم عِند الله، وَدُّوا لو كانوا ضامِّين خِصالهم إلى خِصالهم فيكونوا جامعين بَيْن الحُسْنَيَيْن فائزين بالمَرتبتَيْن. هذا مِن أوْلَى ما قِيل في التأويل)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ١٥٩) : ((فإنَّ مَا ذُكِرَ مِن حُسْن السَّمْت والسَّكِينة المُذكِّرة لله تعالى، والتَّحاب في الله سُبحانَه ، مِن الأحكام الدُّنيوية اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذِّكْر، لظهورها وقُربها من أفهام الناس. قد أورد رسول الله ﷺ كُلًّا مِن ذلك حَسْبما يَقتضيه مَقام الإرشاد والتَّذكير، ترغيبًا للسائلين أو غَيرهم مِن الحاضرين فيما خصَّه بالذِّكْر هُناك من أحكامهما، فلعلَّ الحاضرين أوَّلًا كانوا مُحتاجين إلى إصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونَحْو ذلك، والحاضرين ثانيًا مُفتقرين إلى تأليف قلوبهم وعَطْفها نَحْو المؤمنين، الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النَّسَب والقَرَابة ، وتأكيد ما بينهم من الأُخُوَّة الدينية ببيان عِظَم شأنها، ورِفعة مكانتها ، وحُسن عَاقبتها، ليُراعوا حقوقها، ويَهْجُروا مَن لا يُوافقهم في الدِّين مِن أرحامهم . وأمَّا ما ذُكِرَ مِن أنه يَغبِطهم الأنبياءُ ، فتصوير لحُسن حالهم على طريقة التمثيل . قال الكواشي : وهذا مُبالَغة ، والمعنى: لَوْ فُرِضَ قَوم بهذه الصِّفَة لكانوا هؤلاء)) .

وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ : _ ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ . قال: ((يُذكَر اللهُ بذِكْرهم)) [٨٠].

هذه صِفة أولياء الله وأحبابه وأنصاره وصَفْوته مِن خَلْقه . والمؤمنُ إذا رأى أولياءَ الله ، عظَّمه ، وذَكَرَه ، وتَحَمَّسَ لأداء العبادات والطاعات . وإذا ذُكِرَ أولياء الله ، ذُكِرَ الله بالتَّعظيم والتَّقديس والتَّنزيه والتَّمجيد ، لأن أولياء الله نُخبة المؤمنين ، وسادة الناس ، وهُم الذين يُرشِدونهم إلى عبادة الله وطاعته ، ويَدُلُّونهم على الطريق المُوصِل إلى الله تعالى . وأولياء الله هُم أعمدة دَولة الإيمان في الأرض ، وحَمَلَة الشريعة ، والمُدافِعون عن القُرآن والسُّنة ، الصالحون في أنفسهم ، والمُصْلِحُون لغَيرهم ، وهُم العُلماء الرَّبَّانِيُّون ، العاملون بعِلْمهم النافع ، والقائمون بحقِّ الإسلام قَوْلًا وفِعْلًا .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٣) : (((أفضلكم الذين إذا رُؤوا) أي بالبصر أو البصيرة (ذُكِرَ اللهُ تعالى لرُؤيتهم) أي عِندها ، يعني أنهم في الاختصاص بالله ، بحيث إذا رُؤوا خَطَرَ اللهُ تعالى ببال مَن رآهم ، لِمَا فيهم مِن سِيما العِبادة ، وظُهور المُرَاقَبَة ، والفقر على شمائلهم ، أو أنَّ مَن رآهم يَذكر اللهَ)) .

إن أولياء الله الذي يَتَوَلَّوْنَه بالعبادة والطاعة ، ويتولَّاهم بالكرامة والتَّوفيق والهِداية ، هُم الذين يُذكَر الله برُؤيتهم ، يعني : بسَمْتهم وهيئتهم وخُشوعهم وسَكِينتهم وإخباتهم وتواضعهم وإشراقهم ، ونُور وجوههم ، وجَمَال صُوَرهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون ﴾[يُونُس : ٦٣] .

إن أولياء الله وأحبابه وأنصاره الذينَ صدَّقوا بوَحدانيته ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وكانوا يتَّقون اللهَ بامتثال أوامره ، وأداء فرائضه ، واجتناب نَوَاهيه ، وتَرك مَعَاصيه .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١٥٩) : ((وقِيل : أولياء الله الذين يَتَوَلَّوْنَه بالطاعة ، ويَتَوَلَّاهم بالكرامة . وجُعل قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الذينَ آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون ﴾ تفسيرًا لِتَوَلِّيهم إيَّاه تعالى)) .

والآيةُ تُعرِّف أولياءَ الله ، وتُوضِّح صِفتهم ، وتَمدحهم : إنَّ المُؤمنين الأتقياء هُم أولياء الله . وأيضًا، تُبيِّن الآيةُ أنَّ وُصولهم إلى رُتبة أولياء الله، وفَوزهم بهذا الشرف العظيم، والمكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة ، والكرامة الجليلة، بسبب جَمْعهم بين الإيمان والتَّقوى .

---

٨٠ قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٠) : ((رواه الطبراني ، ورجاله ثقات)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٢/ ٦٦٢):((وقد فَسَّرَ سُبحانَه هؤلاء الأولياء بقَوله: ﴿ الذينَ آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون ﴾ ، أي : يؤمنون بما يجب الإيمان به ، ويتَّقون ما يجب عليهم اتِّقاؤه مِن معاصي الله سُبحانَه . والمُراد بنَفْي الخَوف عَنهم أنهم لا يَخافون أبدًا كما يخاف غَيْرُهم ، لأنهم قد قاموا بما أوجبَ اللهُ عليهم ، وانتهَوْا عن المعاصي التي نَهَاهُم عنها ، فهُم على ثِقة مِن أنفسهم وحُسن ظَن بربِّهم ، وكذلك لا يَحْزَنُون على فَوْت مَطلَب مِن المطالب ، لأنهم يَعْلَمون أن ذلك بقضاء الله وقَدَره ، فيُسلِّمون للقضاء والقَدَر ، ويُريحون قلوبَهم عَن الهَم والكَدَر ، فصدورهم مُنشرحة ، وجوارحهم نَشِطة ، وقلوبهم مسرورة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهُمُ البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [يُونُس: ٦٤]. لأولياءِ الله الذين آمنوا وكانوا يتَّقون، البُشرى في الدُّنيا، وهي الرُّؤيا الصالحة يَراها المؤمنُ، أو تُرى له، والثَّنَاء الحَسَن، ومَحَبَّة الناس، وتأتيهم الملائكةُ_ عِند المَوت_ بالبُشرى مِن الله. ولهم أيضًا البُشرى في الآخرة، بنَيل رضا الله، والحُصول على ثوابه،والفَوز بجَنَّته.

وهذا الوَعْدُ الإلهيُّ المُقدَّس واقع لا مَحَالة،وكائن بلا شَك. لا يُخلِف اللهُ وَعْدَه،ولا يُغيِّر قَوْلَه، ولا يَتراجع في كلامه.وكَوْنهم مُبشَّرين في الدُّنيا والآخرة هو الفَوز العظيم، الذي لا يُساويه أيُّ فَوز.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٦٢): ((﴿ لَهُمُ البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ﴾ تَفسير لمعنى كَوْنهم أولياء الله : أي لهم البُشرى مِن الله ما داموا في الحياة بما يُوحيه إلى أنبيائه ، ويُنزله في كُتبه مِن كَوْن حال المؤمنين عِنده هو إدخالهم الجنة ورِضوانه عنهم ، كما وقع كَثير مِن البِشارات للمؤمنين في القُرآن الكريم،وكذلك ما يَحصل لهم مِن الرُّؤيا الصالحة، وما يتفضَّل اللهُ به عليهم مِن إجابة دُعائهم ، وما يُشاهدونه مِن التَّبشير لهم عِند حُضور آجالهم ، بِتَنَزُّل الملائكة عليهم قائلين لهم : لا تخافوا ، ولا تَحزَنوا ، وأبشِروا بالجَنَّة . وأمَّا البُشرى في الآخِرة ، فَتَلَقِّي الملائكة لهم مُبشِّرين بالفَوز بالنعيم والسلامة من العذاب . والبُشرى مَصْدَر ، أُريد به المُبشَّر به . والظَّرفان في مَحل نَصْب على الحال : أي حَال كَوْنهم في الدُّنيا، وحَال كَوْنهم في الآخرة، ومعنى: ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ ، لا تغيير لأقواله على العُموم ، فيدخل فيها ما وَعَدَ به عِبادَه الصالحين دُخولًا أوَّليًّا. والإشارة بقَوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى المَذكور قَبْله مِن كَوْنهم مُبشَّرين بالبِشارتَيْن في الدارَيْن ﴿ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ الذي لا يُقَادَر قَدْرُه ، ولا يُماثله غَيْرُه ، والجُملتان : أعني ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ و ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ ، اعتراض في آخر الكلام عِند مَن يُجوِّزه ، وفائدتهما تحقيق المُبشَّر به ، وتعظيم شأنه ، أو الأُولَى اعتراضية ، والثانية تذييلية)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البُشرى في الحياةِ الدُّنيا ﴾ فيها ثلاثة أقوال : أحدها أنها الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح أو تُرى له ... . والثاني أنها بِشارة الملائكة لهم عند الموت،قاله الضَّحاك وقَتادة والزُّهري.والثالث أنها ما بَشَّرَ اللهُ به في كتابه، مِن جَنَّته وثوابه ، ... . وهذا قول الحسن ، واختاره الفَرَّاء والزَّجاج ، واستدلا بقوله : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ ، قال ابن عباس : لا خُلْف لمواعيده ، وذلك أن مواعيده بكلماته ، فإذا لم تُبدَّل الكلمات لم تُبدَّل المواعيد . فأمَّا بُشراهم في الآخرة ففيها ثلاثة أقوال : أحدها أنها الجَنَّة، رواه أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ ، واختارة ابن قُتَيبة . والثاني أنه عِند خُروج الروح تُبشَّر برضوان الله ، قاله ابن عباس . والثالث أنها عِند الخُروج مِن قُبورهم ، قاله مُقاتل)) اهـ . وعن عُبادة ابن الصَّامت _ رضي اللهُ عنه _ قال : سألتُ رسولَ الله ﷺ عَن قَول الله عَزَّ وَجَلَّ:﴿لَهُمُ البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ﴾قال:((هِيَ الرُّؤيا الصالحة يَراها الرَّجل أو تُرى له))[٨١]. والرُّؤيا الصالحة هي الجميلة الصادقة، يَراها الرَّجل بنفْسه ، أو يَراها أحدُهم له، فيُبشِّره بها. والبِشارةُ هي الخَبَر الصادق السَّار . والرُّؤيا الصالحةُ بِشارة مِن الله للرَّائي أو المَرئي له ، لتشجيعه ، وإسعاده ، وتَثبيته على الحق. وقد انقطعَ الوَحْيُ الإلهيُّ بمَوت النبيِّ ﷺ ، ولم يَبْقَ مِنه إلا الرؤيا الصالحة التي تَحْمِل إخبارًا بالغَيْب . ورُؤيا المؤمن جُزء مِن أجزاء النُّبُوَّة . وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٣٥٠): ((وقال بعضهم: ... الرُّؤيا الصالحة آدابها ثلاثة:حَمْد الله، وأن يَستبشر بها ، وأن يتحدَّث بها لِمَن يُحِب لا لغَيره . وآداب الحُلْم الرَّديء أربعة : التَّعَوُّذ مِن شَرِّه، وشَر الشَّيطان، ويَتفُل حين يَنتبه، ولا يَذكرها لأحد)) اهـ . وفي فَيض القدير (٣/ ٢٠١): ((قال بعضُهم: الرُّؤيا الصالحة مِن أقسام الوَحْي فيُطلِع اللهُ النائمَ على ما جَهِلَه مِن معرفة الله والكَون في يَقظته ، ولهذا كان المُصطفى ﷺ إذا أصبحَ سَأَلَ:" هل رأى أحد مِنكم رؤيا هذه الليلة ؟". وذلك لأنها آثار نُبُوَّة في الجُملة، فكان يُحِب أن يَشهدها في أُمَّته. قال : والناس في غاية مِن الجَهل بهذه المرتبة التي كان المُصطفى ﷺ يعتني بها ، ويَسأل عنها كُل يوم، وأكثرهم يَهزَأ بالرَّائي إذا رآه يَعتمد الرُّؤيا)) اهـ . وفي فَيض القدير(٣/ ٥٦٧):((... الرؤيا الصالحة وإن اخْتُصَّت غالبًا بأهل الصلاح لكن قد يقع لغَيرهم. قال عُلماء التعبير : إذا رأى كافر أو فاسق رؤيا صالحة كانت بُشرى بهدايته أو توبته أو إنذار مِن بقائه على حاله ، وقد يَرى ما يدل على الرِّضى بما هو فيه ابتلاءً وغُرورًا ومَكْرًا ، نعوذ بالله)) .

---

٨١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٠) برقم (٣٣٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذينَ آمَنُوا ﴾[الحَج : ٣٨] .

إنَّ الله يُؤَيِّد المؤمنين الذين صدَّقوا بوَحدانية الله،وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّدﷺ،ويَنصرهم على أعدائهم، ويَدفع عنهم بَأسَ الكُفَّار ومَكرهم وقُوَّتهم . وهذه بِشارة إلهية بانتصار المؤمنين على الكُفَّار .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إن الله يَدفع غَائِلَةَ المُشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله)) اهـ . والغائلةُ هي الفساد والشَّر .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واعْتَصِمُوا باللهِ هُوَ مَوْلاكُم فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[الحَج : ٧٨] .

وَثِقُوا بالله ، وتَوَكَّلُوا عليه ، واستعينوا به في جميع أُمُوركم وأحوالكم ، ولا تَطلُبوا النُّصرةَ والغَوث والنَّجاة والإعانة إلا مِنه، هُوَ سُبحانه سَيِّدُكُم ومالككم وحافظكم ومُؤيِّدكم وناصركم على أعدائكم ، ومُتَوَلِّي أُموركم ، فَنِعْمَ الوَلِيُّ ، ونِعْمَ الناصر . لا مَثِيل له في الوَلاية والنُّصرة ، ولا مَوْلى في الحقيقة سِوَاه. وقد فازَ وأفلحَ ورَبِحَ، ولا يَذِل ولا يَخْزَى ولا يَضيع، مَن كان اللهُ مَوْلاه ونصيرَه .

والاعتصامُ بالله يتجلَّى في التَّمَسُّك بالقُرآن والسُّنة ، وتطبيقهما على أرض الواقع .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٧٣) : ((﴿ واعْتَصِمُوا باللهِ ﴾ ، أي : اجعلوه عِصْمَةً لكم مِمَّا تَحْذَرُون، والتجئوا إلَيه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا مِنه، ﴿ هُوَ مَوْلاكُم ﴾ ، أي: ناصركم ، ومُتَوَلِّي أموركم دَقِيقِها وجَليلها ، ﴿ فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ، أي : لا مُمَاثِل له في الوَلاية لأموركم ، والنُّصرة على أعدائكم . وقِيل : المُراد بقَوله : ﴿ واعْتَصِمُوا باللهِ ﴾ تَمَسَّكُوا بدِين الله ، وقِيل : ثِقُوا به تعالى)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ مَوْلى الذينَ آمَنُوا وأنَّ الكافرينَ لا مَوْلى لَهُم﴾[مُحمَّد : ١١].

إنَّ الله وَلِيُّ المؤمنين الذينَ صدَّقوا بوَحدانيته وأطاعوا رسوله، وناصرهم، وحافظهم ، ومُؤَيِّدهم، أمَّا الكافرون بالله ، فلا وَلِيُّ لهم ، ولا مُعِين ، ولا يَنصرهم أحد مِن الله ، ولا يَدفع عنهم عُقوبته .

وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ١٤٦) : ((فإنَّ الله مَوْلَى العِباد جميعًا مِن جِهة الاختراع ، ومِلْك التَّصَرُّف فِيهم ، ومَوْلَى المؤمنين خاصَّة مِن جِهة النَّصْر)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٣) : ((﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ مَوْلى الذينَ آمَنُوا وأنَّ الكافرينَ لا مَوْلى لَهُم ﴾ ، ولهذا لَمَّا قال أبو سُفيان صَخْر بن حَرْب رئيس المشركين يوم أُحُد حِين سَأل عن النبيِّ ﷺ ، وعن أبي بكر وعُمر _ رضي اللهُ عنهما _ فلم يُجَبْ ، وقال : أمَّا هؤلاء فقد هَلَكُوا ، وأجابه عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ فقال : كَذَبْتَ يا عَدُوَّ الله ، بل أبقى اللهُ تعالى لَكَ ما يَسُوؤك ، وإن الذين عَدَدْتَ لأحياء ، فقال أبو سُفيان : يَوم بيَوم بَدْر ، والحَرْب سِجَال ، أمَا إنكم

ستجدون مُثْلَةً _ تَشويهًا لجُثث المسلمين _ لم آمُر بها ، ولم أنْهَ عنها ، ثُم ذهب يرتجز ويقول : اعْلُ هُبَل ، اعْلُ هُبَل ، فقال رسول الله ﷺ : " ألا تُجيبوه ؟ " ، فقالوا : يا رسول الله، وما نقول ؟، قال ﷺ : " قُولوا : اللهُ أعْلَى وأجَلُّ " ، ثُم قال أبو سُفيان : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم ، فقال ﷺ : " ألا تُجيبوه ؟"، قالوا: وما نقول يا رسول الله ؟ ، قال : " قولوا : اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلَى لكم ")) .

يجب الرَّد على الكافرين بشكل حازم وحاسم ، وإظهار عِزَّة المسلمين ، وصِحَّة عقيدتهم ، وفَضْح ضَعْف الكافرين، وبيان فساد عقيدتهم . وهذا يُحطِّم معنويات الكافرين ، ويَكسر إرادتهم .

٣_ حُبُّه إيَّاهم ومَحَبَّتُهم إيَّاه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافرينَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الخِطابُ الإلهيُّ للمؤمنين للإنذار والتحذير والوعيد : يا أيها الذين صَدَّقوا بِوَحدانيةِ الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ : مَن يَرجع مِنكم عن الإسلام (الدين الحق) ، ويَتركه ، ويَعتنق أيَّ دِينٍ آخر مِن أديان الكُفر ، فإنه يَضُرُّ نَفْسَه ، ولن يَضُرَّ اللهَ شيئًا ، لأنه اختار الكفر على الإيمان ، ورجع عن الحق إلى الباطل ، وهذا يعني خُلوده في عذاب النار . وسيأتي اللهُ مكانهم وبَدَلهم بمؤمنين صادقين ثابتين على الإسلام ، يُحِبُّهم اللهُ ، ويُحِبُّون اللهَ ، ويُريد بهم خَيْرَ الدنيا ونعيم الآخرة .

وقد قَدَّمَ اللهُ محبته لهم على محبتهم له ، لأنها هي الأساس والمحبة الحقيقية . ولَوْلا سَبْق مَحَبَّته لَمَا أحَبُّوه . إن حُبَّ الله لهم قادهم إلى الهداية والتوفيق وخير الدنيا والآخرة ، كما قادهم إلى حُبِّهم لله تعالى . والفضلُ كُلُّه لله أوَّلًا وآخِرًا.والآيةُ تدل على أن القُرآن كلام الله، وأن النبيَّ ﷺ صادق وأمين، لأن في الآية إخبارًا بالغَيْب قبل وُقوعه ، فقد أخبرَ اللهُ أن بعض المسلمين سيرتدون عن الإسلام ، وهذا ما حصل فِعْلًا على أرض الواقع [٨٢].

٨٢ ((في الآية إعلام بارتداد بعض المسلمين ، فهو إخبار بالغَيب قبل وقوعه ، وقد ارتد عن الإسلام فِرَق كثيرة، مِنهم مَن ارتد في عهد رسول الله ﷺ ، ومِنهم في عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حَنيفة قوم مُسَيلمة الكذاب، وكَتب مُسَيلمة إلى رسول الله ﷺ: مِن مُسَيلمة رسول الله إلى محمَّد رسول الله ، أمَّا بعد ، فإن الأرضَ نِصْفَها لي، ونِصْفَها لك. فأجابه عليه السلام:"مِن محمَّد رسول الله إلى مُسَيلمة الكذاب،أمَّا بَعْد، فإن الأرض لله ، يُورثها مَن يَشاء مِن عِباده، والعاقبة للمُتَّقين ")) [صَفوة التفاسير (٣/ ٢٩)] .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ٢٨٨) : ((﴿ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ يرضى أعمالهم ، ويُثني عليهم بها ، ويُطيعونه ، ويُؤثرون رِضاه . وفيه دليل نُبُوَّته _ عليه السلام _ حيث أخبرهم بما لَم يكن ، فكان ، وإثبات خِلافة الصِّديق لأنه جاهدَ المُرتدين ، وفي صِحَّة خِلافته، وخِلافة عُمر _ رضي اللهُ عنهما _)) .

وعن عِيَاض الأشعريِّ قال : لَمَّا نزلت : ﴿ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ:((هُم قَوْمُكَ يا أبا موسى)).وأومأ رسولُ الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعريِّ [٨٣].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨١) : ((وفي المراد بهؤلاء القَوم سِتَّة أقوال : أحدها أبو بكر الصِّديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الرِّدة، قاله عليُّ بن أبي طالب والحسن عليهما السلام، وقَتادة والضَّحاك وابن جُرَيج . قال أنس بن مالك: كَرِهت الصحابةُ قِتالَ مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القِبلة ، فتقلَّد أبو بكر سَيْفَه وخرج وَحْدَه، فلم يجدوا بُدًّا مِن الخروج على أثره . والثاني أبو بكر وعمر، رُوِيَ عن الحسن أيضًا . والثالث أنهم قَوم أبي موسى الأشعريِّ، روى عِيَاض الأشعريُّ أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : " هُم قَوم هذا "، يعني أبا موسى . والرابع أنهم أهل اليمن، رواه الضَّحاك عن ابن عباس وبه قال مجاهد.والخامس أنهم الأنصار، قاله السُّدي. والسادس المهاجرون والأنصار ، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي.قال ابن جرير: وقد أنجزَ اللهُ ما وَعَدَ ، فأتى بقوم في زمن عُمر ، كانوا أحسن موقعًا في الإسلام مِمَّن ارتد)) .

﴿ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافرينَ ﴾ . رُحَماء مُتواضعين للمؤمنين ، كالولد لوالده ، أشِدَّاء مُتعالين على الكافرين ، كالأسد على فريسته . أي إنهم يَرأفون بالمؤمنين، ويَرحمونهم ، ويتواضعون لهم ، ويَعطِفون عليهم ، ويَغلُظون على الكافرين، ويُعادونهم، ويَسْتعلون عليه بإيمانهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٧) : ((هذه صِفات المُؤمنين الكُمَّل ، أن يكون أحدُهم مُتواضعًا لأخيه وَوَلِيِّه ، مُتَعَزِّزًا على خَصْمه وعَدُوِّه ... . وفي صِفة رسول الله ﷺ أنه الضَّحُوك القَتَّال ، فهو ضَحُوك لأوليائه ، قَتَّال لأعدائه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ ﴾ . قال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام : أهل رِقَّة على أهل دِينهم ، أهل غِلْظة على مَن خَالفهم في دِينهم . وقال الزَّجاج : معنى ﴿ أذِلَّةٍ ﴾ جَانبهم لَيِّن على المؤمنين ، لا أنهم أذِلَّاء)) .

---

٨٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

﴿ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾ . يُقاتلون الأعداءَ لإعلاء كلمة الله ، ونشر الإسلام، ولا يَخافون في ذات الله أحدًا. وهذا ما يُميِّزهم عن المُنافقين الذين كانوا يُراقبون الكُفَّارَ، ويَخافون لَوْمَهم وعِتابَهم وتَوبيخَهم . وقد وضَّح اللهُ أن المؤمن الحقيقي هو الذي لا يَخاف في ذات اللهِ لَوْمَةَ لائم ، ولا عِتاب مُعَاتِب . وهذا لا يَكون إلا بفضل الله وتَوفيقه .

وتَنكيرُ ﴿ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾ للمُبالَغة .

وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٩٧): ((أي لا يَرُدُّهم عمَّا هُم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكَر، لا يَرُدُّهم عن ذلك راد، ولا يَصُدُّهم عنه صاد، ولا يَحِيك فيهم لَوم لائم، ولا عَذل عاذل)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٦): ((﴿ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾ عطف على ﴿ يُجَاهِدُونَ ﴾ ، بمعنى أنهم الجامعون بين المُجاهدة في سبيل الله ، والتَّصَلُّب في دِينه. أو حال بمعنى أنهم مُجَاهِدون،حالهم خِلاف حال المنافقين فإنهم يَخرجون في جيش المسلمين خائفين مَلامة أوليائهم من اليهود فلا يَعْملون شيئًا يَلحقهم فيه لَوم مِن جهتهم)) .

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ . إن صفات المؤمنين العظيمة (مَحَبَّتهم لله ، وتواضعهم للمؤمنين ، وشِدَّتهم على الكافرين ، والجهاد في سبيل الله ، وعدم الخَوف مِن اللوم والعِتاب) مِن فَضل الله عليهم ، وليس بذكائهم ومهاراتهم الشخصية . واللهُ يَمنح فَضْلَه مَن يَشاء ، ويُوفِّق له ، وَفْقَ ما تَقتضيه الحِكمة والمَصلحة .

و﴿ ذَلِكَ ﴾ تدل على بُعد المَنزلة في الفضل ، وعُلُوِّ المكانة ، وفضلُ الله هو لُطفه وإحسانه وكَرَمه وإنعامه .

﴿ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . واللهُ واسع الفضل ، كثير العطاء ، عليمٌ بِمصالح خَلْقه ومنافعهم ، والمُستحقين لفضله وغير المُستحقين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٥) عن المعنى العام للآية : ((يُظهِرون العَطْفَ والحُنُوَّ والتواضع للمؤمنين ، ويُظهِرون الشِّدة والغِلْظة والتَّرَفُّع على الكافرين ، ويَجْمعون بين المُجَاهَدَة في سبيل الله ، وعدم خوف المَلامة في الدِّين ، بل هُم مُتَصَلِّبُون ، لا يُبالون بما يَفعله أعداء الحق ، وحِزب الشَّيطان ، مِن الإزراء بأهل الدِّين ، وقَلْب محاسنهم مساوئ ، ومناقبهم مثالب ، حسدًا وبُغْضًا وكراهةً للحق وأهله . والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما تَقَدَّمَ مِن الصِّفات التي اخْتَصَّهم اللهُ بها . والفَضْل : اللطف والإحسان)) .

٤ـ استجابتهم لله ورسوله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ استجابوا للهِ والرَّسُولِ مِن بَعْدِ ما أصابهمُ القَرْحُ للذينَ أحْسَنُوا مِنهُم واتَّقَوْا أجْرٌ عظيمٌ ﴾ [آل عِمران : ١٧٢] .

الذينَ أطاعوا اللهَ وأطاعوا الرسولَ ، أي أطاعوا الأمرَ ، وأجابوا النِّدَاءَ ، مِن بعد ما نالتهم الجِرَاح يَوم أُحُد . وذلك أن أبا سُفيان وأصحابة لَمَّا انصرفوا مِن أُحُد ، نَدِمُوا لأنهم لم يَستأصلوا المسلمين ، وهَمُّوا بالرُّجوع لقتل المسلمين وإنهاء أمرهم مَرَّةً واحدة ، وإلى الأبد . فَبَلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ ، فأرادَ أن يُخيفهم ويُرِيَهم مِن نفْسه وأصحابة قُوَّةً وبأسًا شديدًا ورباطة جَأش ، فَنَدَبَ (دَعَا) النبيُّ ﷺ أصحابَه للخُروج في طلب أبي سُفيان والمُشركين ، فخرجوا حتى بَلغوا حَمْرَاءَ الأسَد ، وهي تَبعد عن المدينة ثمانية أميال ، وكان أصحابُه يُعانون مِن الجِرَاح والآلام ، فألقى اللهُ الرُّعْبَ في قلوب المُشركين ، فذهبوا .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((هذا كان يوم حَمْراء الأسَد ، وذلك أن المشركين لَمَّا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كَرُّوا راجعين إلى بلادهم ، فلمَّا استمروا في سَيرهم نَدِموا لِمَ لا تمَّموا على أهل المدينة وجَعلوها الفَيْصلة ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ نَدَبَ المُسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرعبهم ويُرِيَهم أن بهم قوة وجَلَدًا ، ولَم يأذن لأحد سِوى مَن حَضر الوَقْعة يَوْم أُحُد ، سِوى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ، ...، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجِراح والإثخان طاعةً لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله ﷺ)) .

لِمَن أطاعَ مِنهم أمرَ الرسول ، وأجابه إلى الغَزْو ، رغم ما به مِن جِرَاح وآلام وشدائد ، الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، ونعيم الجَنَّة الدائم .

والآيةُ تُوضِّح صِفات المؤمنين (الاستجابة لله والرسولِ ، والإحسان ، والتَّقْوى) ، وهذا مدح إلهيٌّ عظيم لهم ، وإشادة بهم ، وتعظيم لشأنهم. كما أن الآية ﴿ للذينَ أحْسَنُوا مِنهُم ﴾ للمدح ، وليس للتَّقييد، لأن المُستجيبين لله والرسولِ جميعهم مُحسنون مُتَّقون . و " مِن " في الآية للبيان ، وليس للتَّبعيض. وقد أحسنوا جميعًا واتَّقَوْا لا بعضهم . وفي صحيح البخاري(٤/ ١٤٩٧) : عن عائشة رضي الله عنها:ـ ﴿ الذينَ استجابوا للهِ والرَّسُولِ مِن بَعْدِ ما أصابهمُ القَرْحُ للذينَ أحْسَنُوا مِنهُم واتَّقَوْا أجْرٌ عظيمٌ ﴾، قالت لعُروة: يا ابنَ أُختي ، كان أبوك مِنهم الزُّبَيْر وأبو بَكْر ، لمَّا أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد ، وانصرف عنه المُشركون ، خَاف أن يَرجعوا ، قال : ((مَن يَذهب في إثرهم ؟)) . فانتدبَ (فأجابه) مِنهم سبعون رَجُلًا . قال : كان فِيهم أبو بَكْر والزُّبَيْر .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٧٣ و٣٧٤) : ((أي : سبب نزولها وأنها تتعلق بأُحُد . قال ابن إسحاق : كان أُحُد يوم السَّبْت للنِّصْف مِن شَوَّال ، فلمَّا كان الغد يوم الأحد سادس عشر شَوَّال، أَذَّنَ مُؤذِّن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأن لا يخرج معنا إلا مَن حَضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخُروج معه ، فأذِنَ له ، وإنَّما خَرج مُرْهِبًا للعدو ، وليظنوا أن الذي أصابهم لَم يُوهنهم عن طلب عَدُوِّهم ، فلمَّا بَلغ حمراء الأسَد ، لَقِيَه سعيد بن أبي مَعْبَد الخُزاعي ، فِيما حدَّثني عبد الله بن أبي بَكْر ، فعَزَّاه بمُصاب أصحابه ، فأعلمه أنه لَقِيَ أبا سُفيان ومن معه ، وهم بالرَّوْحاء _ مَوضع بين مكة والمدينة _ ، وقد تَلَوَّمُوا في أنفسهم ، وقالوا : أصَبْنا جُل أصحاب مُحمَّد وأشرافهم ، وانصرفنا قبل أن نستأصلهم ، وهَمُّوا بالعَوْد إلى المدينة ، فأخبرهم مَعْبَد أن مُحمَّدًا قد خرج في طَلبكم في جَمْع لم أرَ مِثْلَه مِمَّن تَخَلَّفَ عَنه بالمدينة ، قال : فثناهم ذلك عن رأيهم ، فرجعوا إلى مكة ، وعند عَبْد بن حُمَيد مِن مُرسَل عِكرمة نَحْو هذا)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى:﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا استجيبوا للهِ وللرَّسُولِ إذا دعاكُم لِمَا يُحييكُم﴾[الأنفال:٢٤].

يا أيُّها الذين صدَّقتم بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، أطيعوا اللهَ والرسولَ ، وأجيبوا دُعاءه إذا دَعاكم إلى الإيمان الذي به حياة القُلوب والنُّفوس ، وبِه تَحصلون على الحياة الأبدية في الجَنَّة .

والحياةُ الحقيقية هي شريعة الإسلام ، لأنها حياة للقُلوب في الدُّنيا، وسبب النجاة في الآخرة. وقد أحياهم اللهُ بالإسلام (الحياة) بعد المَوت (الكُفر) . والاستجابةُ هي الإجابة والطاعة والامتثال ، والمؤمن حَي ، والكافر مَيت ، يَحيا بالإيمان .

وتَوحيد الضمير في ﴿ دعاكُم ﴾ لأن دَعوة الله يَحملها النبيُّ ﷺ ، ويَنشرها ، وتُسمَع مِنه ، وأيضًا ، إن الاستجابة للنبيِّ ﷺ هي استجابة لله تعالى ، ومَن أطاعَ النبيَّ ﷺ ، فقد أطاعَ اللهَ تعالى. والامتثالُ لأوامر الرسول ، امتثالٌ لأوامر المُرْسِل الذي أرسله ، وهو الله تعالى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٣٨ و٣٣٩): ((قَوله تعالى: ﴿ استجيبوا ﴾ ،أي: أجيبوا . قَوله تعالى : ﴿ إذا دعاكُم ﴾ يعني الرَّسول ﴿ لِمَا يُحييكُم ﴾ وفيه سِتَّة أقوال : أحدها أن الذي يُحييكم كُل ما يَدعو الرسول إليه ... . والثاني أنه الحق ، رواه شِبْل عن ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد . والثالث أنه الإيمان ، رواه ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مُجاهد ، وبه قال السُّدي . والرابع أنه اتِّباع القُرآن ، قاله قَتادة وابن زَيد . والخامس أنه الجِهاد ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن قُتَيبة : هو الجهاد الذي يُحيي دِينَهم ويُعْلِيهم . والسادس أنه إحياء أُمورهم ، قاله الفَرَّاء ، فيخرج في إحيائهم خمسة أقوال : أحدها أنه إصلاح أُمورهم في الدُّنيا والآخرة . والثاني بقاء الذِّكْر

الجميل لهم في الدنيا ، وحياة الأبد في الآخرة . والثالث أنه دَوام نَعيمهم في الآخرة . والرابع أنه كَوْنهم مؤمنين ، لأن الكافر كالميت . والخامس أنه يُحييهم بعد مَوْتهم ، وهو على قَول مَن قال : هو الجِهاد ، لأن الشُّهداء أحياء ، ولأن الجهاد يُعِزُّهم بعد ذُلِّهم ، فكأنهم صاروا به أحياء)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٣) : عن أبي سعيد بن المُعَلَّى ، قال : كُنتُ أُصلِّي في المَسجد ، فدعاني رسولُ الله ﷺ ، فلم أُجِبْهُ ، فقُلتُ : يا رسول الله ، إنِّي كُنتُ أُصلِّي ، فقال : ((ألَم يَقُل اللهُ : ﴿ استجيبوا للهِ وللرَّسُولِ إذا دعاكُم لِمَا يُحييكُم ﴾)) .

يجب الاستجابة لله وللرَّسول، وعدم التَّأخُّر عن ذلك.ودَعوة الله تُسمَع مِن الرسول مُحمَّد ﷺ، فهو الدَّاعي إلى الإيمان الذي فيه حياة القلوب ، والحصول على الحياة الدائمة في الجَنَّة ، وهو الدَّاعي أيضًا إلى القُرآن الذي فيه الحياة والنَّجاة واليقين والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة . فاستجيبوا أيها المؤمنون لِمَا يُحيي قُلوبَكم ، ويَقُودكم إلى الحياة الأبدية ، والمَجد الدائم ، والعِز المُستمر بلا نهاية ولا انقطاع .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَستجيبُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِه ﴾[الشُّورى: ٢٦] .

ويَستجيب اللهُ دُعاءَ الذين صدَّقوا بوَحدانيته ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي . أي إنهم جَمَعُوا بين الإيمان والعمل الصالح . ويَزيدهم اللهُ مِن كَرَمه وجُوده فوق ما سَألوا وطَلبوا، ويَزيدهم على ما استحقوا مِن الثواب تَفَضُّلًا مِنه عليهم، وإحسانًا إليهم، ورحمةً بهم، لأنه الكريم المُتَفَضِّل على عباده ، يُنفِق في الليل والنهار ، ولا تَنفَد خزائنُه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٥) : ((ويَستجيب اللهُ الذين آمنوا ، أي : يَقبَل عِبادةَ مَن أخلصَ له بقلبه ، وأطاعَ ببدنه . وقِيل : يُعطيهم مَسألتهم إذا دَعَوْهُ . وقِيل : ويُجيب دُعاءَ المؤمنين بعضهم لبعض)) .

وفي تفسير النسفي(٤/ ١٠٣):((عن إبراهيم بن أدهم أنه قِيل له: ما بالنا نَدْعُوه فلا نُجاب؟، قال : لأنه دَعاكم فلم تُجيبوه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٨٧) : ((﴿وَيَستجيبُ ﴾ بمعنى يُجيب . وفيه قَولان: أحدهما أن الفِعْل فيه لله ، والمعنى : يُجيبهم إذا سألوه ، وقد روى قَتادة عن أبي إبراهيم اللخمي: ﴿وَيَستجيبُ الذينَ آمَنُوا ﴾ ، قال: يُشَفَّعُون في إخوانهم ، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِه﴾ ، قال: يُشَفَّعُون في إخوان إخوانهم . والثاني أنه للمُؤمنين ، فالمعنى : يُجيبونه . والأول أصح)) .

وعن سَلَمَة بن سَبْرَة قال : خَطَبَنا مُعاذ بن جبل _ رضي اللهُ عنه _ فقال : ((أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجَنَّة ، واللهِ إنِّي لأطمعُ أن يَكونَ عَامَّةُ مَن تُصيبون بفارسَ والرُّومِ في الجَنَّة ، فإنَّ أحَدَهُم يَعمل الخَيْرَ ، فيقول : أحسنتَ ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ ، أحسنتَ ، رَحِمَكَ اللهُ ، واللهُ يَقول : ﴿وَيَستجيبُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِه﴾)) [٨٤].

هذا يدل على أهمية الدعاء للمؤمنين والإحسان إليهم والتعامل معهم بأدب ولِين والثناء عليهم ومدحهم بلا إفراط ولا تفريط، واللهُ يَستجيب دُعاء المؤمنين ، ويَقبَل عبادتهم وطاعتهم ، ويُشفِّعهم في بعضهم البعض . وهذا يدل على كَرَمِ الله وفضله وجُوده وعَطائه ورحمته بالمؤمنين خاصَّةً .

٥_ ما أعَدَّه اللهُ لهم

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ أنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ولَهُم فِيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ وهُم فِيها خالدون﴾[البقرة : ٢٥] .

البِشارة هي الخَبَر الصادق السَّار المُفرِح، ويَظْهَر به أثر السعادة على البَشَرَة . والحِكمة مِنها بَث رُوح النشاط في نُفوس المؤمنين، ورفع معنوياتهم ، وتشجيعهم على فِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، والثبات على الحق . والعملُ الصالح له أربعة أركان : العِلْم والنِّية والصَّبر والإخلاص .

يأمرُ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ أن يُخبِر الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، أي جَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح (صدَّقوا إيمانَهم باللسان بفِعل الطاعات) ، أنَّ لهم وَحْدَهم حدائق وبساتين تَجْري مِن تحت أشجارها ومساكنها مِيَاهُ الأنهار ، لأن النهر لا يَجْري .

وسُمِّيت جَنَّات لأنها تَجُنُّ مَا فيها، أي : تَستُره وتُغطِّيه وتُخفيه بأشجارها . وتنكيرُ ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ لأن الجَنَّات مُتعدِّدة ومُتفاوتة في الدرجات والمراتب حَسَب أعمال العِباد .

كُلَّمَا أُطْعِمُوا مِن تِلك الجَنَّات ثَمَرة (مِن أيِّ نَوع من أنواع الثمرات) ، قالوا : هذا مِثْل ما أُطْعِمْنا قَبْلَه في الجَنَّة ، لتشابُه ثمارها . إنهم يَعتبرونه ويَظُنُّونه مِن نَوع ما رُزِقُوا بِه مِن قَبْل .

وجِيئوا بالرِّزق يُشبِه بعضُه بعضًا في اللون والشكل ، ويختلف في الطَّعْم والمَذاق . وهذا أبلغ في الإعجاب وإثارة الدَّهشة . والطعامُ في الدُّنيا للتَّغذية والحماية مِن ضَرر الجُوع ، أمَّا الطعام في الجَنَّة فهو لَذَّة خالصة ومُتعة مُجرَّدة .

---

٨٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٢) برقم (٣٦٦١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أو: إن ثمار الجَنَّة تُشبِه ثمار الدُّنيا في اللون والشَّكل ، ولَيست أنواعًا أُخرى، وأجناسًا غريبة، والإنسان يَميل إلى المَعهود والمألوف ويأنس به ، ويبتعد عن الأشياء الغريبة عنه ، والتي لا يَعرفها. وإذا رأى الثَّمارَ في الجَنَّة التي يَعرِفها في الدُّنيا ، ولكن بطَعْم جديد ومَذاق خاص ، تَعَجَّبَ واستغربَ بِشِدَّة ، وهذا أقوى في إثارة الدَّهشة . وتَكريرهم القَول: ﴿ هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ عِند كُل ثمرة يُرزقونها، يدل على عَظَمَة الأمر، وشِدَّة الانبهار والإعجاب والدَّهشة . وتشابُه الثَّمَرَات في اللون والصورة، واختلافها في الطَّعْم والمَذَاق ، هو الذي يُثير إعجابهم في كُل لحظة.

ولهم في الجَنَّات نساءٌ وحُور عِين مُطهَّرة مِن الحَيض والولادة والنِّفاس والبَول والغائط والبُصاق والمُخاط والمَنِيِّ والولد ، وسائر أقذار نساء الدُّنيا ، ومُطهَّرة أيضًا مِن الأخلاق السَّيئة والصفات الذميمة وآفات الشَّيْب والشَّيخوخة . وفي الجَنَّة جِمَاع بلا ولد . والجِمَاعُ في الدنيا للتَّوالد وحِفظ النَّوْع ، أمَّا الجِمَاع في الجَنَّة فهو لَذَّة خالصة ومُتعة مُجرَّدة .

وهُم في الجَنَّات خالدون ، مُنعَّمون إلى الأبد ، بلا انقطاع ولا نهاية ولا مَوْت . لا يَموتون في الجَنَّة ، ولا يَخْرُجون مِنها . وتمام النِّعمة ببقائها . والخُلودُ البقاء الأبدي الدائم بلا انقطاع [٨٥].

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩٥) : ((لَمَّا ذَكَرَ تعالى ما أعَدَّه لأعدائه مِن الأشقياء الكافرين به وبرُسله مِن العذاب والنَّكال، عَطَفَ يَذكر حال أوليائه مِن السُّعداء المؤمنين به وبرُسله، الذين صدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تَسمية القرآن مَثَاني على أصح أقوال العُلماء ... ، وهو أن يَذكر الإيمانَ ، ويُتبع بذِكْر الكُفر أو عَكْسه ، أو حال السُّعداء ثم الأشقياء أو عَكْسه ، وحاصله ذِكْر الشيء ومُقَابِله . وأمَّا ذِكْر الشيء ونظيره ، فذاك التَّشابه ، ... . فلهذا

---

٨٥ قال النسفي في تفسيره (١/ ٣٢) : ((وفيه بُطلان قول الجَهْمية ، فإنهم يقولون بفَناء الجنَّة وأهلها، لأنه تعالى وُصِفَ بأنه الأوَّل والآخِر ، وتحقيق وَصْف الأوَّلِيَّة بسَبْقه على الخَلْق أجمع ، فيجب تحقيق وَصْف الآخِرِيَّة بالتأخُّر عن سائر المخلوقات ، وذا إنما يتحقق بعد فناء الكُل ، فَوَجَبَ القَول به ضرورةً ، ولأنه تعالى باق ، وأوصافه باقية ، فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق ، وذا مُحال . قُلنا : الأوَّل في حَقِّه هو الذي لا ابتداء لوجوده ، والآخِر هو الذي لا انتهاء له . وفي حَقِّنا الأوَّل هو الفرد السابق ، والآخِر هو الفرد اللاحق . واتِّصافه بهما لبيان صِفة الكَمال ، ونَفْي النقيصة والزوال ، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء ، لا فيما قالوه ، وأنَّى يَقع التشابه في البقاء ، وهو تعالى باقٍ لذاته ، وبقاؤه واجب الوجود ، وبقاء الخَلْق به ، وهو جائز الوجود)) .

قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ أنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ ﴾ ، فوصفها بأنها تَجري من تحتها الأنهار ، أي : مِن تحت أشجارها وغُرَفها... . وقَوله تعالى: ﴿ كُلَّما رُزِقُوا مِنها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ . قال السُدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرَّة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة : ﴿ قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ ، قال إنهم أُتوا بالثَّمَرة في الجَنَّة ، فلمَّا نظروا إليها ، قالوا : هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْل في الدنيا ، وهكذا قال قَتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم ، ونَصْرَة بن جرير ، وقال عِكرمة : ﴿ قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ ، قال : معناه مِثْل الذي كان بالأمس ، وكذا قال الربيع بن أنس ، وقال مجاهد يقولون : ما أشبهه به. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ﴿ هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ ثِمار الجنة مِن قَبْل هذا لِشِدَّة مُشابهة بَعْضِه بعضًا ، لقَوله تعالى : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ . قال سَنيد بن داود حَدَّثنا شيخ من أهل المَصِيصة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال : يُؤْتَى أحَدُهُم بالصَّحْفَة (القَصْعَة) من الشيء ، فيأكل منها ، ثم يُؤتَى بأخرى، فيقول : هذا الذي أُتِينا بِه مِن قَبْل ، فتقول الملائكة : كُلْ ، فاللون واحد ، والطَّعْم مختلف. وقال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا سعيد بن سُلَيمان حَدَّثنا عامر بن يَسَاف عن يحيى بن أبي كثير ، قال : عُشب الجنة الزَّعفران ، وكُثبانها المِسْك ، ويَطوف عليهم الوِلْدان بالفواكه ، فيأكلونها ، ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِمِثْلها ، فيقول لهم أهل الجنة : هذا الذي أتَيْتُمُونا آنِفًا به ، فتقول لهم الوِلْدان : كُلوا ، فاللون واحد ، والطَّعْم مُختلف ، وهو قَول الله تعالى : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ . قال : يُشْبِه بعضُه بعضًا ، ويَختلف في الطَّعْم . قال ابن أبي حاتم : ورُوِيَ عن مُجاهد والربيع بن أنس والسُدي نَحْو ذلك ، وقال ابن جرير بإسناده عن السُدي في تفسيره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرَّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قَوله تعالى : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ ، يعني في اللون والمَرْأى ، وليس يَشتبه في الطَّعْم ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال عِكرمة : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ . قال : يُشْبِه ثمر الدنيا ، غَير أن ثمر الجَنَّة أطْيَب . وقال سُفيان الثَّوري عن الأعمش عن أبي ظَبْيَان عن ابن عباس : لا يُشبِه شيئًا مِمَّا في الجَنَّة ما في الدُّنيا إلا في الأسماء ، وفي رواية : ليس في الدُّنيا مِمَّا في الجَنَّة إلا الأسماء . ورواه ابن جرير من رواية الثَّوري وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلاهما عن الأعمش به. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم في قَوله تعالى: ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾. قال : يَعرِفون أسماءه كما كانوا في الدُّنيا ، التُّفاح بالتُّفاح ، والرُّمَّان بالرُّمَّان ، قالوا في الجنة : هذا

الذي رُزِقْنا مِن قَبْل في الدنيا ، وأُتُوا به مُتَشَابِهًا يَعرفونه ، وليس هو مِثْلَه في الطَّعْم . وقَوله تعالى : ﴿ ولَهُم فِيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ . قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: مُطهَّرة مِن القَذَر والأذى . وقال مجاهد : مِن الحَيْض والغائط والبَوْل والنُّخام والبُزاق والمَنِيِّ والوَلَد . وقال قَتادة : مُطهَّرة مِن الأذى والمَأثم... ورُوِيَ عن عطاء والحسن والضَّحاك وأبي صالح وعطية والسُّدي نَحْو ذلك ... .

وقَوله تعالى : ﴿ وهُم فِيها خالدون﴾ ، هذا هو تَمام السَّعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مَقام أمين مِن المَوت والانقطاع ، فلا آخِر له ، ولا انقضاء ، بل في نَعيم سَرْمدي أبدي على الدَّوام ، والله المسؤول أن يَحشُرنا في زُمرتهم ، إنه جواد كريم بَر رحيم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢ و٥٣): ((قَوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذينَ آمَنُوا ﴾. البِشارة أوَّل خَبَر يَرِد على الإنسان ، وسُمِّيَ بِشارة لأنَّه يُؤَثِّر في بَشَرَته ، فإن كان خَيْرًا أثَّرَ المَسَرَّةَ والانبساط ، وإنْ شَرًّا أثَّرَ الانجماع (الانقباض) والغَم . والأغلب في عُرف الاستعمال أن تكون البِشارة بالخَير ، وقد تُسْتَعْمَل في الشَّر ... . قَوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ ﴾ ، يَشمل كُل عمل صالح . وقد رُوِيَ عن عُثمان بن عفان أنه قال : أخْلَصُوا الأعمال . وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : أقاموا الصَّلَوَات المَفروضات . فأمَّا الجَنَّات فجَمْع جَنَّة ، وسُمِّيَت الجَنَّة جَنَّة لاستتار أرضها بأشجارها ، وسُمِّيَ الجِن جِنًّا لاستتارهم ، والجَنين مِن ذلك ، والدِّرْع جُنَّة ، وجَنَّ الليل إذا سَتَرَ . وذُكِرَ عن المُفضَّل أن الجَنَّة كُل بُستان فيه نَخْل . وقال الزَّجاج : كُل نَبْت كَثُفَ وكَثُرَ ، وسَتَرَ بعضُه بعضًا فهو جَنَّة . قَوله تعالى : ﴿ تَجْري مِن تَحْتِهَا ﴾ ، أي : مِن تَحْت شجرها ، لا مِن تحت أرضها . قَوله تعالى : ﴿ هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه هذا الذي طَعِمْنا مِن قَبْل ، فرِزْق الغَداة كرِزْق العَشِيِّ ، رُوِيَ عن ابن عباس والضَّحاك ومُقاتل . والثاني هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْل في الدُّنيا ، قاله مجاهد وابن زَيد . والثالث أن ثَمَرَ الجَنَّة إذا جُنِيَ خَلَفَه مِثْلُه ، فإذا رَأَوْا ما خَلَفَ الجَنَى (الثَّمَر) اشتبه عليهم ، فقالوا : هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْل ، قاله يحيى ابن أبي كثير وأبو عُبَيدة . قَوله تعالى : ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه مُتشابه في المنظر واللون ، مُختلف في الطَّعْم ، قاله مُجاهد وأبو العالية والضَّحاك والسُّدي ومُقاتل . والثاني أنه مُتشابه في جَوْدته لا رديء فيه ، قاله الحسن وابن جُرَيج . والثالث أنه يُشبِه ثِمارَ الدُّنيا في الخِلْقة والاسم ، غَير أنه أحسن في المَنظَر والطَّعْم ، قاله قَتادة وابن زيد . فإن قال قائل : ما وجه الامتنان بمُتشابهه ، وكُلَّما تنوَّعت المطاعم واختلفت ألوانها كان أحسن ؟ فالجواب أنَّا إنْ قُلنا إنه مُتشابه المنظر مُختلف الطَّعْم ، كان أغرب عند الخَلْق وأحسن ، فإنَّك لو رَأيتَ

تُفَّاحة فيها طَعْم سائر الفاكهة كان نهاية في العَجَب ، وإنْ قُلنا إنه مُتشابه في الجَودة ، جَاز اختلافه في الألوان والطُّعوم ، وإنْ قُلنا إنه يُشبِه صُورة ثِمار الدنيا مع اختلاف المعاني كان أطْرَف وأعْجَب . وكُل هذه مَطالب مُؤثِّرة . قَوله تعالى : ﴿ ولَهُم فِيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ ، أي : في الخَلْق ، فإنهنَّ لا يَحِضْنَ ، ولا يَبُلْنَ ، ولا يَأتين الخَلاءَ . وفي الخُلُق ، فإنهنَّ لا يَحْسُدْنَ ، ولا يَغِرْنَ ، ولا يَنْظُرْنَ إلى غَير أزواجهنَّ . قال ابن عباس : نَقِيَّة عن القذى والأذى . قال الزَّجاج : ومُطهَّرة أبلغ من طاهرة ، لأنه للتكثير . والخُلود البقاء الدائم الذي لا انقطاع له)) اهـ .

وفي الحديث أن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((لَيْسَ في الجَنَّةِ شَيْءٌ مِمَّا في الدُّنيا إلا الأسماء)) [٨٦].

إن نعيم الجَنَّة مِن ثمار وأشجار وأنهار وغَيرها ، يَختلف عمَّا في الدُّنيا ، وإنما تَمَّ ذِكر هذه الأسماء لتقريب المعنى إلى ذِهن السامع . فاللفظُ واحد ومُشْتَرَك ، لكنَّ المُعنى مُختلف تمامًا ، وما في الجَنَّة لا يُمكن وصفه بكلمات اللغة ، ولا يُمكن للعقول البشرية القاصرة أن تتخيَّله . وفي الجَنَّة ما لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطر على قلبِ بَشَر . فالذوات غَير الذوات ، واللذات غير اللذات . ولا مُقارَنة بين نعيم الجَنَّة الباقي وحُطام الدُّنيا الفاني .

والإنسانُ لا يَخطُر شيء بباله إلا ما رآه واستعمله بحواسِّه ، لأنه كائن ضعيف ، ومحدود القدرات ، وخياله مبني على تجاربه البسيطة وخبراته القليلة . ولا يُمكن قياس مُحتويات الجَنَّة على مُحتويات الدُّنيا، لأنَّه لَيس عِندَنا أصل نَقِيس عليه، لذلك يكون قياسُ الغائب على الشاهد باطلًا ، والتشابه في الأسماء فقط ، والاشتراك في الألفاظ فقط .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٧٣):((وأمَّا المُسَمَّيَات، فبينها مِن التفاوُت ما لا يَعْلمه البشر ، فمطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما يُشارك نظائرها الدُّنيوية في بعض الصِّفات والاعتبارات ، وتُسمَّى بأسمائها على منهج الاستعارة والتمثيل ، ولا يُشاركها في تمام حقيقتها . لا يقال هذا يُناقضه قَوله تعالى : ﴿ كُلَّما رُزِقُوا مِنها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ ، لأن التماثل هو التشابه في الصِّفة ، لأنَّا نقول التَّشابه بينهما حاصل في الصُّورة ، التي هي مَناط الاسم دون القَدْر والطَّعْم ، وهو كافٍ في إطلاق التشابه ، والمراد التشابه في الشَّرف والمَزِيَّة وعُلُوِّ الطبقة)) .

---

٨٦ قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣١٦) : ((رواه البَيهقي مَوقوفًا بإسناد جيِّد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساورَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئينَ فِيها عَلى الأرائكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكَهْف: ٣١]. إنَّ الذينَ جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وصدَّقوا إيمانَهم القَولي بفِعل الطاعات، لهم بساتين إقامة في الآخرة. وسُمِّيَت عَدْنًا لإقامة المؤمنين بها ، وخُلودهم فيها . تَجري مِن تَحت منازلهم وغُرَفهم أنهارُ الجَنَّة . يَلْبَسُون مِن الحُليِّ أساورَ الذهب، ويَلْبَسُون مِن الثياب السُّندسَ (الحرير الرقيق) والإستبرقَ (الحرير الغليظ). والجَمْعُ بين النَّوْعَيْن لبيان أن في الجَنَّة كُل ما تشتهيه الأنفُس، وجميع الرغبات مُحقَّقة . ورغباتُ الناس مُختلفة ، وأذواقهم مُتباينة . وكُل ما يَطْلُبونه ويُريدونه مَوجود ، ومُتَوَفِّر أمامهم . وتَنكير ﴿ أساورَ ﴾ لتعظيم حُسنها وجَمَالها . واللونُ الأخضر أحسن الألوان ، وأكثرها راحةً لعَين الناظر . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٤٣) : ((وخُص الأخضر بالذِّكْر ، لأنه المُوَافِق للبصر ، لأن البياض يُبدِّد النظر ويُؤْلِم ، والسَّواد يُذَم ، والخُضرة بين البَياض والسَّواد ، وذلك يَجمع الشُّعاعَ ، والله أعلم)) .

مُتَّكئين في الجَنَّة على الأسِرَّة الذهبية المُزيَّنة بالثِّياب والسُّتور مُنعَّمين مُرفَّهين . والاتِّكَاءُ على الأسِرَّة هَيئة المُلوك والأثرياء والغارقين في النَّعِيم والرَّفَاهِيَة والبَذَخ . نِعْمَ الجَزاء جَنَّات عَدْن ، أو : نِعْمَ ذلك جَزاء المؤمنين المُتَّقين . وحَسُنَتْ الجَنَّةُ مَنْزِلًا ومُقَامًا لهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٣) : ((لمَّا ذَكَرَ تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذِكْر السُّعداء، الذين آمنوا بالله ، وصدَّقوا المُرسَلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عَدْن. والعَدْن : الإقامة ﴿تَجْري مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ ﴾ ، أي : مِن تَحت غُرَفهم ومنازلهم... . ﴿يُحَلَّوْنَ ﴾ أي مِن الحِلْية ﴿ فِيها مِن أساورَ مِن ذَهَبٍ ﴾ . وقال في المكان الآخَر: ﴿ ولُؤلُؤًا وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾[الحَج : ٢٣] . وفصَّله هَهُنا ، فقال : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ ﴾ . فالسُّندس ثياب رِفَاع رِقَاق كالقُمصان وما جرى مَجْراها ، وأمَّا الإستبرق فغليظ الدِّيباج، وفيه بريق. وقَوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلى الأرائكِ ﴾ الاتِّكَاء قِيل: الاضطجاع. وقِيل: التَّرَبُّع في الجُلوس، وهو أشبه بالمُراد هَهُنا ... . والأرائك جمع أريكة وهي السَّرير تحت الحَجَلَة (القُبَّة المُزَيَّنة بالثياب والسُّتور) ... . قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن قَتادة : ﴿ عَلى الأرائكِ ﴾ قال : هي الحِجَال (جَمْع حَجَلَة). قال مَعْمَر، وقال غَيره : السُّرُر في الحِجَال . وقَوله : ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾ ، أي: نِعْمَت الجَنَّة ثوابًا على أعمالهم ، ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ، أي : حَسُنَتْ مَنْزِلًا ومَقِيلًا ومُقَامًا)) .

وفي زاد المسير (٥/ ١٣٧): ((قال المُفسِّرون : لَمَّا كانت المُلوك تَلبَس في الدُّنيا الأساور في اليد، والتِّيجان على الرؤوس، جَعل اللهُ ذلك لأهل الجَنَّة. قال سعيد بن جُبَيْر: يُحَلَّى كُل واحد منهم بثلاثة مِن الأساور: واحد مِن فِضَّة، وواحد مِن ذهب ، وواحد مِن لُؤلُؤ ويواقيت)) .

كُل واحد مِن أهل الجَنَّة في يده ثلاثة أساور : ١ــ سِوَار مِن ذهب : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [الكَهْف: ٣١].٢ــ سِوَار مِن فِضَّة ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١] . ٣ــ سِوَار مِن لُؤلُؤ ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤًا ﴾[الحَج : ٢٣] .

وفي صحيح مسلم (١/ ٢١٩): عن أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللهُ عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ)) .

إنَّ المؤمنين والمؤمنات يُحَلَّوْنَ في الجَنَة بهذه الحِلْيَة، وتَكون إلى حَيث يَبلُغ ماءُ الوُضوء . وتَكون الحِلْيةُ في يَدَي المؤمن إلى ما خَلْف المِرْفَقَيْن . أي إنها تمتدُّ على ذِراعه إلى ما وراء المِرْفَق ، لأن الوُضوء يَنتهي بغُسل المِرْفَقَيْن ، والحِلْيَةُ تُغطِّي مَوضع الوُضوء بالكامل .

وهذا يدل على رحمة الله بالأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، وتفضُّله عليها ، وإحسانه إلَيها ، حيث جَعَلَها أعظم الأُمَم وأفضلها ، وذات فَضْل على باقي الأُمَم . وهذا يدل على شرفها الرفيع ، ومكانتها العظيمة .كما أن الحديث يُوضِّح أهمية الوُضوء وفضله ومنزلته الجليلة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٢٧) : (((تَبْلُغُ الحِلْية) بكسر الحاء ، أي التَّحَلِّي بأساور الذَّهَب والفِضَّة المُكَلَّل بالدُّر والياقوت (مِنَ المؤمن) يوم القيامة . قال الطيبي : ضِمن (تَبْلُغ) معنى تتمكن ، وعَدَّى بِمِن ، أي : تتمكَّن مِنَ المؤمن الحِلْيةُ مَبْلَغًا يتمكَّن الوُضوء مِنه . قال الحسن : الحُلِيُّ في الجَنَّة على الرجال أحسن مِنه على النِّساء (حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ) بفتح الواو، ماؤه. وقال أبو عُبَيد: الحِلْية هُنا التَّحجيل، لأنه العلامة الفارقة بين هذه الأُمَّة وغَيرها . اهـ . وجزم به الزمخشري ، فقال : أراد التَّحجيل يوم القيامة مِن أثر الوضوء . وقد استدل بالخبر على نَدْب التحجيل (استحبابه) . وزعم ابن القَيِّم أنه لا يدل ، لأن الحِلْية إنما تكون في الساعد والمِعْصَم ، لا في العَضُد والكَتِف ، في حَيِّز المَنْع ، لأن كُل ما في الجَنَّة مُخَالِف لِمَا في الدُّنيا مِن صَنعة العِباد ، كما في خَبَر : " ليس في الدنيا شيء مِمَّا في الجَنَّة إلا الأسماء ")) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى أُولئكَ عَنْها مُبْعَدُون﴾[الأنبياء: ١٠١].

إن الذين سَبقت لهم مِنَ الله الرحمة ، أو السعادة ، أو التوفيق بالطاعة ، أو البُشرى بالجَنَّة ، هُم عن النار مُبعَدون ، لا يَشعرون بِحَرِّها ، ولا يَمَسُّهم عذابُها ، لأنهم قد صاروا في نعيم الجَنَّة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٩٢ و٣٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى ﴾ . سبب نزولها أنه لمَّا نزلت : ﴿إنكم وما تَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. شَقَّ ذلك على قُرَيش، وقالوا: شَتَمَ آلهتنا ، فجاء ابن الزِّبَعْرِي ، فقال: ما لكم؟، قالوا : شَتَمَ آلهتنا ، قال : وما قال ؟ ، فأخْبَرُوه ، فقال : ادْعُوه لي ، فلمَّا دُعِيَ رسول الله ﷺ ، قال: يا مُحمَّد ، هذا شيء لآلهتنا خاصَّة أو لكل مَن عُبِدَ مِن دُون الله ؟ ، قال : " لا ، بَل لِكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُون الله " . فقال ابن الزِّبَعْرِي : خُصِمْتَ ورَبِّ هذه البَنِيَّة (الكعبة) ، ألستَ تَزعُم أن الملائكة عِباد صالحون ، وأن عيسى عبد صالح ، وأن عُزَيْرًا عبد صالح، فهذه بنو مُلَيح يَعبدون الملائكة ، وهذه النصارى تَعبد عيسى ، وهذه اليهود تَعبد عُزَيْرًا ، فَضَجَّ أهلُ مكة ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال الحسين بن الفضل : إنما أراد بقَوله : ﴿ وما تَعْبُدونَ ﴾ الأصنام دُون غَيرها ، لأنه لو أراد الملائكة والناس لقال : " ومَن " . وقِيل : ﴿ إنَّ ﴾ بمعنى " إلا " فتقديره : إلا الذين سَبقت لهم مِنَّا الحُسنى ... . ورُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أنا مِنهم ، وأبو بَكْر ، وعُمَر ، وعُثمان ، وطَلْحة ، والزُّبَير ، وسَعْد ، وعَبْد الرَّحمن . وفي المُراد بالحُسنى قَولان : أحدهما الجَنَّة ، قاله ابن عباس وعِكرمة . والثاني السَّعادة ، قاله ابن زَيد . قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ عَنها ﴾ ، أي: عَن جَهَنَّم ... ﴿ مُبْعَدُون﴾ ، والبُعد طُول المَسافة)) .

وعن عِكرمة عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : لَمَّا نزلت: ﴿ إنكم وما تَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنتم لها وَارِدُون ﴾ ، فقال المشركون : الملائكة وعيسى وعُزَير ، يُعبَدون مِن دُون الله ، فقال : لَوْ كانَ هَؤلاءِ الذين يُعبَدون آلِهَةً ما وَرَدُوها . قال: فَنَزلت: ﴿ إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى أُولئكَ عَنْهَا مُبْعَدُون ﴾ ، عيسى ، وعُزَير ، والملائكة [٨٧].

إنَّ السياق القُرآنِيَّ يتحدَّث عن مُشركي مكة عَبَدَةِ الأصنام والأوثان . وقد حاولَ المشركون إقامة الحُجَّة على النبيِّ ﷺ وإفحامه ، والرد على القُرآن ، وذلك بِذِكْر الملائكة وعيسى وعُزَير ، حيث إن مُشركي العرب اعتبروا الملائكة بنات الله ، وعبدوها، والنصارى اعتبروا عيسى ابن الله، وعبدوه مَعَ الله ، واليهود اعتبروا عُزَيْرًا ابن الله ، وعبدوه مَعَ اللهِ تعالى . وقد أكرمَ اللهُ الملائكةَ وعيسى وعُزَيْرًا ، ونزَّههم عن كُفر المشركين ، وأبعدهم عن النار ، فَضْلًا مِنه ، وتَكَرُّمًا عليهم ، وتشريفًا لهم . وهذا رَد إلهيٌّ بليغ على أوهام المشركين وأعذارهم الباطلة وحُجَجهم الداحضة .

---

٨٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤١٦) برقم (٣٤٤٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وهُم في ما اشتَهَتْ أنفُسُهُم خالدون﴾[الأنبياء: ١٠٢].

هؤلاء المؤمنون السُّعداء الذين سَبقت لهم مِنَ الله الحُسنى،لا يَسمعون حِس النار، ولا صَوتها، ولا حركة لهبها ، لأنهم نَزلوا منازلهم في الجَنَّة . والحَسِيس (الحِس) الصَّوت الخفي ، تَسمعه مِن الشيء يمرُّ قريبًا مِنك. وهذه مُبالَغة في الإبعاد عن النار . إنهم بَعيدون عنها بحيث لا يَسمعون صَوْتَ حركة لهبها ، معَ أنه يُسمَع مِن مسافات بعيدة . وهُم في الجَنَّة دائمون وباقون ومُقيمون ومُنعَّمون إلى ما لا نهاية.ولهم فيها ما تشتهيه الأنفُس، وتلذ الأعين ، جَزاءً وِفاقًا على إيمانهم وعمل الصالحات وفِعل الطاعات واجتناب المعاصي . والشَّهوةُ طلب النَّفْس اللذة .

لقد أنجاهم اللهُ مِن عذاب النار والهلاك الأكيد ، ومَنَحَهم نعيمَ الجَنَّةِ الأبديَّ . أي إنهم فازوا بالمطلوب (نعيم الجَنَّة) بعد نجاتهم مِن المَحذور (عذاب النار) . وتقديم الظَّرْف في﴿ وهُم في ما اشتَهَتْ أنفُسُهُم خالدون﴾ للاختصاص والاهتمام به .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٩٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لا يَسمع هؤلاء الذين سَبقت لهم مِنَّا الحُسنى حَسِيسَ النار ، ويعني بالحَسِيس : الصَّوت والحِس . فإن قال قائل : فكيف لا يَسمعون حَسيسها ، وقد عَلِمْتَ ما رُوِيَ مِن أن جَهَنَّم يُؤتَى بها يوم القيامة فَتَزْفِر زَفْرَة ، لا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ، ولا نبيٌّ مُرسَل ، إلا جَثا على رُكبتيه خَوْفًا مِنها ؟ ، قِيل : إن الحال التي يَسمعون فيها حَسِيسها هي غَير تلك الحال ، بل هي الحال التي : حَدَّثني محمد بن سعد قال : ثني أبي قال : ثني عَمِّي قال : ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس ، قَوله : ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وهُم في ما اشتَهَتْ أنفُسُهُم خالدون﴾ . يقول : لا يَسمع أهلُ الجَنَّة حَسِيسَ النار إذا نزلوا مَنزِلهم مِن الجَنَّة . وقَوله : ﴿ وهُم في ما اشتَهَتْ أنفُسُهُم خالدون﴾ ، يقول : وهُم فِيما تشتهيه نُفُوسُهم مِن نعيمها ولَذَّاتها ماكثون فيها ، لا يخافون زَوالًا عَنها ، ولا انتقالًا عنها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكبرُ وتتلقَّاهُمُ الملائكةُ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتم تُوعَدُون﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

لا تُصيبهم أهوال يوم القيامة (البَعْث والحِساب والعِقاب) ، لأنهم في مَأمَن مِنها ، ومَحْمِيُّون مِن خَطرها. وتستقبلهم الملائكةُ على أبواب الجَنَّة بالسلام عليهم ، والتَّبشير لهم، حيث يُهَنِّئونهم قائلين : هذا يوم الكرامة والنعيم والثواب العظيم الذي وعدكم اللهُ به في الدُّنيا ، جَزاءً لكم على إيمانكم وطاعتكم ، فأبشِروا بالهناء والسرور والسعادة . وقِيل : تَستقبلهم ملائكةُ الرحمة عِند خُروجهم مِن القُبور .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٩٤) : ((وفي الفَزَع الأكبر أربعة أقوال: أحدها أنه النَّفخة الآخِرة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وبهذه النَّفخة يَقوم الناسُ مِن قُبورهم ، ويدل على صِحَّة هذا الوجه ، قَوله تعالى : ﴿ وتتلقَّاهُمُ الملائكةُ ﴾ . والثاني أنه إطباق النار على أهلها ، رواه سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك . والثالث أنه ذَبْح الموت بين الجَنَّة والنار ، وهو مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا ، وبه قال ابن جُرَيج . والرابع أنه حِين يُؤْمَر بالعبد إلى النار ، قاله الحسن البصري. وفي مكان تلقِّي الملائكة لهم قَولان: أحدهما إذا قاموا مِن قُبورهم، قاله مُقاتل . والثاني على أبواب الجَنَّة ، قاله ابن السائب . قَوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ ﴾ فيه إضمار ، يقولون: هذا يومكم الذي كُنتم تُوعَدون فيه الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساورَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤًا وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾[الحَج : ٢٣] .

إنَّ اللهَ برحمته وفضله وكَرَمه يُدخِل الذين صدَّقوا بوَحدانيته ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، في الآخرةِ جَنَّاتٍ تَجْري من تحت أشجارها وقُصورها الأنهارُ . يُلبِس اللهُ المؤمنين ، أو تُلبِسهم الملائكةُ بأمره في الجَنَّة الأساور الذهبية كحِلْية وزينة يَتَزَيَّنُون بها . والأساور جَمْع سِوَار ، وهو ما يُوضَع في مِعْصَم اليد . ويُحَلَّوْنَ أيضًا باللؤلؤ (نوع من الجواهر النفيسة) ، إكرامًا مِن الله لهم ، وتفضُّلًا مِنه عليهم ، وإحسانًا إليهم . ولباسهم في الجنة الحرير ، وهو أعظم مِن حَرير الدنيا وأفضل مِنه ، ولا مُقارنة بينهما . والحريرُ الذي كان مُحَرَّمًا عليهم في الدُّنيا ، صارَ حلالًا لهم في الآخِرة . وفي الجَنَّة ما تشتهيه الأنفُس ، وتَلَذ الأعين ، وكُل واحد يَحصل على ما يَشتهيه ، ويَنال ما يُريده . والآيةُ تُعظِّم شأن المؤمنين، وتُبيِّن منزلتهم الرفيعة ، وتُوضِّح مكانتهم الجليلة ، وتكشف حُسن حالهم . واللهُ لم يقل : ويَلبَسون فيها حريرًا ، وإنما قال : ﴿ وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾ للدَّلالة على أن الحرير ثيابهم المُعتادة،أو أن لِباسهم الحرير أمرٌ مُحقَّق وأكيد،ولا حاجة للبيان والتوضيح.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٣٦): ((فَبَيَّنَ سُبحانَه حَالَ المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه بعضَ ما أعَدَّه لهم مِن النعيم بعد دخولهم الجَنَّة ، فقال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها ﴾ ، ... ، أي : يُحَلِّيهم اللهُ أو الملائكةُ بأمره . و"مِن " في قَوله : ﴿ مِن أساورَ ﴾ للتَّبعيض ، أي يُحَلَّوْنَ بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، و"مِن " في ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ للبيان ... ﴿ ولُؤلُؤًا ﴾ أي : وَيُحَلَّوْنَ لُؤلُؤًا ... . ولا يَبْعُد أن يكون في الجَنَّة سِوار مِن لُؤلؤ مُصْمَت ، كما أن فيها أساور مِن ذهب ، ﴿ وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾ ، أي : جميع ما يَلبَسونه حرير ، كما تُفيده هذه الإضافة.

ويجوز أن يُراد أن هذا النوع من الملبوس الذي كان مُحَرَّمًا عليهم في الدنيا حَلال لهم في الآخرة، وأنه مِن جُملة ما يَلبَسونه فِيها ، ففيها ما تشتهيه الأنفُس ، وكُل واحد مِنهم يُعطَى ما تَشتهيه نَفْسُه، ويَنال ما يُريده)) .

وفي الحديث أن النبيِّ ﷺ قال : ((مَن لَبِسَ الحريرَ في الدنيا لَم يَلْبَسْهُ في الآخرة)) ، وقال عبد الله بن الزُّبَيْر مِن عِنده: ومَن لم يَلبَسه في الآخرة لَم يَدخل الجنةَ ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُم فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [88].

مَن لَبِسَ الحريرَ مِن الرِّجال في الدُّنيا عَامِدًا عَالِمًا بلا عُذر ، جَزاؤه أن لا يَلبَسه في الآخرة ، عُقوبةً له ، لأنه استعجل الشَّيءَ قبل أوانه ، فعُوقِب بحِرمانه .

وفي تحفة الأحوذي (٥/ ٤٨٧) : ((قال ابن العربي : ... ولا يَلبَس الحرير فيها ، وذلك لأنه استعجل ما أُمِرَ بتأخيره ، ووُعِدَ به ، فحُرِمَه عِند مِيقاته ، كالوارث فإنه إذا قَتل مُوَرِّثَه ، فإنه يُحرَم مِيراثَه لاستعجاله ، وبهذا قال نَفَر مِن الصحابة ومِن العلماء)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ خَيْرٌ مِنها وهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون﴾[النَّمْل : ٨٩].

مَن جاء يوم القيامة بحسنة واحدة ، فإن الله يُضاعفها ويُكثِّرها ، ويُعطَى عَشْر أمثالها ، واللهُ يُضَاعِف لِمَن يَشاء . وله مِن الأجر والثواب والجَزاء عِند الله خَيْرٌ مِن هذه الحسنة ، وأعظم مِنها . واللهُ يُعطي الأجرَ العظيمَ على العمل القليل ، وهذا يدل على رحمة الله بعباده ، وتفضُّله عليهم، وإحسانه إلَيهم . وهُم مِن خَوف عذاب يَوم القيامة الشديد آمِنُون ، لأن الله يَحميهم مِن أهوال يوم القيامة، ويُبعِدهم عن عذاب النار الأليم . والجمعُ بين الإيمان والعمل الصالح هو رأس الحسنات.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٨٣) : ((﴿مَن جاءَ بالحسنةِ ﴾ بكلمة الإخلاص ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله.قال أبو مَعْشَر: كان إبراهيم يحلف ولا يستثني : أن الحسنة لا إله إلا الله. وقال قَتادة : بالإخلاص . وقِيل : هِيَ كُل طاعة . ﴿ فلهُ خَيْرٌ مِنها ﴾ . قال ابن عباس : فمِنها يَصل الخير إلَيه ، يعني : له مِن تلك الحسنة خَير يوم القيامة ، وهو الثواب والأمن مِن العذاب ، أمَّا أن يكون له شيء خَير من الإيمان فلا ، لأنه ليس شيء خَيْرًا مِن قَوله : لا إله إلا الله . وقِيل : فله خَير مِنها ، يعني : رِضْوان الله ، قالَ تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ﴾[التَّوبة : ٧٢] . وقال محمد بن كَعْب وعبد الرحمن بن زَيد : ﴿ فلهُ خَيْرٌ مِنها ﴾ ، يعني : الأضعاف ، أعطاه اللهُ

٨٨ رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٧) برقم (٢٥١) . وحديث النبيِّ ﷺ مُتَّفق عليه في الصحيحَيْن .

تعالى بالواحدة عَشْرًا ، فصاعدًا ، وهذا حسن ، لأن للأضعاف خصائص ، مِنها : أن العبد يُسأل عن عمله ، ولا يُسأل عن الأضعاف ، ومِنها : أن للشيطان سبيلًا إلى عمله ، وليس له سبيل إلى الأضعاف ، ولا مَطْمَع للخُصوم في الأضعاف ، ولأن الحسنة على استحقاق العبد، والتضعيف كما يَليق بكَرَم الرَّب تبارك وتعالى . ﴿ وهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون﴾ . قرأ أهل الكوفة :﴿ مِن فَزَعٍ ﴾ بالتَّنوين . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح الميم ، وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعَمُّ ، فإنه يقتضي الأمن مِن جميع فَزَع ذلك اليوم . وبالتنوين كأنه فَزَع دُون فَزَع ، ويَفتح أهلُ المدينة المِيم مِن ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وأعَدَّ لَهُم أجْرًا كَرِيمًا ﴾[الأحزاب : ٤٤] .

تَحِيَّةُ المؤمنين يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللهَ في الجَنَّة سَلامٌ . أي إن اللهَ يُسَلِّمُ عليهم ، أو تكون تَحِيَّة المؤمنين بعضهم لبعض هي السلام . والسلامُ أمانٌ للمؤمنين مِن عذاب الله تعالى ، وإخبار بالسلامة مِن كُل شَر ، والنجاة مِن كُل مَكروه ، وتَسليمٌ لهم مِن الآفات والأهوال والشدائد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٧٦) : ((اخْتُلِفَ في الضمير الذي في ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ على مَن يَعود.فقِيل: على الله تعالى، أي كان بالمؤمنين رحيمًا،فهو يُؤَمِّنهم من عذاب الله يوم القيامة وفي ذلك اليوم يَلْقَوْنه ، و ﴿ تحيتُهُم ﴾ أي : تَحِيَّة بعضهم لبعض ﴿ سَلامٌ ﴾ ، أي سلامة لنا ولكم مِن عذاب الله ، وقِيل : هذه التَّحِيَّة من الله تعالى . المعنى : فَيُسَلِّمهم من الآفات ، أو يُبشِّرهم بالأمن مِن المَخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، أي يوم القيامة بعد دُخول الجَنَّة، قال معناه الزَّجاج)) .

وهيَّأ اللهُ لهؤلاء المؤمنين أجرًا حسنًا ، وثوابًا كريمًا على طاعتهم إيَّاه في الدُّنيا ، وهو الجَنَّة ، وما فيها من النعيم الدائم ، والسعادة المُستمرة ، وما تَشتهيه أنفسُهم ، وتَلَذُّه أعينُهم .

وهذا يدل على رحمة الله بالمؤمنين ، وتفضُّله عليهم ، وإحسانًا إلَيهم ، وعِنايته بِهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٥٣) : ((وقَوله تعالى : ﴿ وأعَدَّ لَهُم أجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعني: الجَنَّة ، وما فيها مِنَ المَآكِل ، والمَشَارِب ، والملابس ، والمساكن ، والمَنَاكِح ، والمَلاذ ، والمناظر ، مِمَّا لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٩٨ و٣٩٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُم ﴾ الهاء والميم كِناية عَن المؤمنين . فأمَّا الهاء في قَوله : ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ففِيها قَولان : أحدهما أنها تَرجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه تَحِيَّتهم مِن الله يَوْمَ يَلْقَوْنَه سَلام . ورَوى صُهَيب عن النبيِّ ﷺ : " أن الله يُسلِّم على أهل الجَنَّة".والثاني تحيتهم من الملائكة يَوْم يَلْقَوْنَ اللهَ سلام ، قاله مُقاتل . وقال أبو حمزة الثُّمالي : تُسلِّم عليهم الملائكةُ يوم القيامة ، وتُبشِّرهم حِين

يَخرجون مِن قُبورهم . والثالث تحيتهم بينهم يَوم يَلْقَوْنَ رَبَّهم سلام ، وهو أن يُحَيِّيَ بَعْضُهُم بعضًا بالسلام ، ذَكَرَه أبو سليمان الدمشقي . والقول الثاني أن الهاء تَرجع إلى مَلَك الموت ، وقد سَبق ذِكْرُه في ذِكْر الملائكة. قال ابن مسعود: إذا جَاء مَلَكُ المَوت لقَبْض رُوح المؤمن ، قال له : رَبُّك يُقْرِئك السَّلامَ . وقال البَرَاء بن عَازِب في قَوله: ﴿ تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، قال: مَلَك المَوت ، لَيس مؤمن يَقبِض رُوحَه إلا سَلَّمَ عَلَيه ، فأمَّا الأجر الكريم فهو الحَسَن في الجَنَّة)) .

وعن البَرَاء بن عَازِب رضي الله عنه : ـ ﴿ تحيتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ ، قال : ((يَوْمَ يَلْقَوْنَ مَلَكَ المَوْتِ ، لَيس مِن مُؤمِن يَقبِض رُوحَه إلا سَلَّم عَلَيه)) [89].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا عِبَادَ اللهِ المُخْلَصِين ﴾ [الصَّافَّات : ٤٠] .

استثنى اللهُ المؤمنين مِن العذاب والعُقوبة ، وهذا يدل على إيمانهم وإخلاصهم وصِدْقهم وتميُّزهم عن الكافرين ، وتفوُّقهم عليهم . إنَّ عِبادَ الله المُوحِّدين الذين اختارهم وأخلصهم لرحمته، وكَتب لهم السعادةَ في الأزل ، لا يَذوقون العذاب ، لأنهم مؤمنون صالحون ، أخْلَصُوا لله التَّوحيدَ والعبادةَ ، وفَعلوا الطاعات ، واجتنبوا المَعَاصي . واللهُ يَحْمي أهلَ طاعته ، ويَحفظ المؤمنين المُصدِّقين بوَحدانيته وكُتبه ورُسُله .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠) : ((أي : لَيسوا يَذوقون العذابَ الأليم ، ولا يُنَاقَشُون في الحساب ، بل يتجاوز عن سَيِّئاتهم ، إن كان لهم سَيِّئات ، ويُجْزَوْنَ الحسنة بعَشْر أمثالها ، إلى سَبعمائة ضِعْف إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما شاء الله تعالى مِن التَّضعيف)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٥٥) : ((وفي ما استثناهم مِنه قَولان : أحدهما مِن الجَزاء على الأعمال ، فالمعنى : إنَّا لا نُؤاخذهم بسُوء أعمالهم ، بَل نَغفِر لهم ، قاله ابن زَيد . والثاني مِن دُون العذاب ، فالمعنى : فإنهم لا يَذُوقون العَذابَ ، قاله مُقاتل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ لَهُم رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ [الصَّافَّات : ٤١] .

إنَّ المؤمنين المُوحِّدين (عباد الله المُخْلَصِين) لهم عَطاء مَعلوم لا يَزول ، ولا يَنقطع . له طَعْمٌ طَيِّب ، ورائحة رائعة ، ولَذَّة عظيمة ، ومنظر حَسَن ، وله وقت مُحدَّد ، وتَميل إلَيه النُّفوس . وهذا رِزق إلهيٌّ عظيم ، يَرزقهم اللهُ إيَّاه في الجَنَّة صباحًا ومساءً .

---

٨٩ رواه الحاكم في المستدرك(٢/ ٣٨٣) برقم (٣٣٤٠) وصحَّحه ، وقال الذهبي عَقِبَه : ((عبد الله ابن واقد ، قال ابن عَدِي : مُظلِم الحديث . ومحمد بن مالك ، قال ابن حِبَّان : لا يُحْتَج به)) .

و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد . يدل على بُعد منزلتهم في الشرف والفضل ، وعُلُوِّ مكانتهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٥٥ و٥٦): ((قَوله تعالى: ﴿ أُولئكَ لَهُم رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه الجَنَّة ، قاله قَتادة . والثاني أنَّه الرِّزق في الجَنَّة ، قاله السُّدي . فعلى هذا في مَعنى ﴿ مَعْلُومٌ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه بمِقدار الغَدَاة (الصباح) والعَشِيِّ (المساء) ، قاله ابن السائب . والثاني أنهم حِين يَشتهونه يُؤْتَوْنَ بِه ، قاله مُقاتل)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٩٠) : ((وقَوله تعالى : ﴿ مَعْلُومٌ ﴾ ، أي : مَعْلُوم الخصائص مِن حُسن المَنظر ، ولَذَّة الطَّعْم ، وطِيب الرائحة ، ونَحْوها مِن نُعُوت الكَمَال . وقِيل: مَعلوم الوقت كقَوله تعالى : ﴿ وَلَهُم رِزْقُهُم فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٦٢])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَوَاكِهُ وهُم مُكْرَمُون ﴾ [الصَّافَّات : ٤٢] .

فواكهُ مُتنوِّعة مِن كُل الأنواع والأصناف ، مِن جَميع ما يُحِبُّون ويَشتهون . وفواكه جَمْع فاكهة. وهي الثِّمار كُلها رَطْبها ويابسها ، وهي كُل طعام يُؤكَل للتَّلَذُّذ والاستمتاع ، لا للتغذية والقُوت وحِفظ الصِّحة . وأهل الجَنَّة مُستغنون عن الغِذاء ، لأن أجسامهم مَحفوظة إلى الأبد ، وكُل ما يَأكلونه في الجَنَّة على سبيل التَّلَذُّذ والاستمتاع . وهذا سبب تَخصيص الفواكه بالذِّكْر .

وهُم في الجَنَّة مُكْرَمون بثواب الله ، وكَرامته التي أكرمهم بها، ومُنعَّمون، ومُرفَّهون،بما أنعمَ اللهُ عليهم . واللهُ يُكْرِمهم بمَنحهم الدَّرجات العُليا ، والمَنازل الرفيعة ، وسَماع كَلامه ، ورُؤيته .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٥٨) : ((﴿ فَوَاكِهُ ﴾ فإنه بَدَل مِن ﴿ رِزْقٌ ﴾ أو خَبر مُبتدأ مَحذوف، أي: هُوَ فَواكه، وهذا هو الظاهر . والفواكه جمع الفاكهة ، وهي الثمار كُلُّها رَطْبها ويابسها . وخُصِّصَ الفواكه بالذِّكْر، لأن أرزاق أهل الجَنَّة كُلَّها فواكه ، كذا قِيل. والأَوْلَى أن يُقال : إنَّ تخصيصها بالذِّكْر لأنها أطْيَب ما يأكلونه، وألذ ما تشتهيه أنفسهم، وقِيل: إنَّ الفواكه مِن أتباع سائر الأطعمة، ذِكْرها يُغني عن ذِكْر غَيرها،وجُملة ﴿ وهُم مُكْرَمُون ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال، أي: ولَهُم مِن الله عَزَّ وَجَلَّ إكرامٌ عظيم برَفْع درجاتهم عِنده، وسَماع كَلامه، ولِقائه في الجَنَّة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في جَنَّاتِ النَّعيمِ ﴾ [الصَّافات : ٤٣] . في حدائق ورِياض وبساتين ، يتنعَّمون فِيها ، ويَستمتعون بِها. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨٤) : ((يعني : في بساتين النعيم)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١١) : ((في جَنَّات ليس فيها إلا النعيم)) .

وفي تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٦) : ((وقال ابن عباس: الجِنَان سَبْع : دار الجَلال، ودار السلام ، وجَنَّة عَدْن ، وجَنَّة المأوى ، وجَنَّة الخُلْد ، وجَنَّة الفِرْدَوْس ، وجَنَّة النَّعيم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ [الصَّافَّات : ٤٤] .

على أسِرَّة مُكلَّلة بالدُّر والياقوت، تدور بهم كيف شاؤوا. بعضُهم يُقابل بعضًا، ولا يَنظر بعضُهم إلى قَفا بعض، تواصلًا وتحابُبًا. والسُّرُر جَمْع سرير. وقِيل: هُوَ المجلس الرفيع المُهَيَّأ للسُّرور .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٧١) : ((قَوله تعالى : ﴿ عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ . قال عِكرمة ومُجاهد : لا يَنظر بعضُهم في قَفا بَعض تواصلًا وتحابُبًا. وقِيل : الأسِرَّة تَدور كيف شاؤوا فلا يرى أحد قفا أحد. وقال ابن عباس : على سُرُر مُكَلَّلة بالدُّر والياقوت والزَّبَرْجَد. السَّرير ما بين صَنعاء إلى الجَابِيَة (مَدينة بالشَّام) ، وما بين عَدَن إلى أيْلَة (بلد بين مِصْر والشام) . وقِيل : تَدور بأهل المنزل الواحد ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأسٍ مِن مَعِين ﴾ [الصَّافَّات : ٤٥] .

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ طعامَ أهل الجَنَّة ، أعقبه بذِكر شَرابهم . يَطُوفُ عليهم خَدَمُ الجَنَّة بكأس مِن خَمر جارية في الأنهار، ظاهرة أمام العُيون. والكأسُ كُل إناء فيه شراب.وإذا كان فارغًا فهو إناء لا كأس. وكُل كأس في القُرآن فهي الخَمْر. والمَعِين الماء الجاري.وُصِفَ به خَمر الجَنَّة لأنها تَجْري كالماء.

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٧١) : ((لمَّا ذَكَرَ مطاعمهم ذَكَرَ شرابهم . والكأس عِند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مَعَ شرابه ، فإن كان فارغًا فليس بكأس. قال الضَّحاك والسُّدي : كُل كأس في القرآن فهي الخمر ، والعرب تَقول للإناء إذا كان فيه خَمْر كأس ، فإذا لم يكن فيه خَمْر قالوا : إناء وقَدَح . النَّحاس : وحكى مَن يُوثَق به مِن أهل اللغة أن العرب تقول للقَدَح إذا كان فيه خمر ، كأس ... . وقال الزَّجاج : ﴿ بِكَأسٍ مِن مَعِين ﴾ ، أي : مِن خَمْر تَجْري كما تَجْري العُيون على وجه الأرض . والمَعِين : الماء الجاري الظاهر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ للشاربين ﴾ [الصَّافَّات : ٤٦] .

هذه الخَمْر بَيضاء ، يلتذُّ بِها شاربُها ، ويَستمتع بِها . وهذا يدل على طِيب مَذاقها ورائحتها ، وجَمَال لَوْنها،بِخِلاف خَمْر الدُّنيا ذات الطَّعْم السَّيئ والرائحة الكريهة. واللذيذ كُل شَيء مُستطاب.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٥٦) : ((قَوله تعالى : ﴿بَيْضَاءَ ﴾ . قال الحسن : خَمْر الجَنَّة أشد بياضًا مِن اللبن . قال أبو سُلَيمان الدمشقي : ويَدل على أنه أراد بالكأس الخَمْر ، أنه قال: ﴿بَيْضَاءَ ﴾ ، فَأُنِّثَ. ولو أراد الإناءَ على انفراده أو الإناء والخَمْر لقال: أبيض . وقال ابن جرير:إنَّما أراد بقَوله:﴿بَيْضَاءَ ﴾ الكأس. ولتأنيث الكأس أُنِّثَت البَيضاء. قَوله تعالى: ﴿ لَذَّةٍ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أي لذيذة ، يُقال : شراب لِذَاذ ، إذا كان طَيِّبًا. وقال الزَّجاج: أي ذات لَذَّة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا فِيها غَوْلٌ ولا هُم عَنها يُنزَفُون ﴾ [الصَّافَّات : ٤٧] .

ليس في خَمر الجَنَّة ما يَغتال عُقولَ شاربيها ويُفسِدها ، ولا يُصيبهم مِنها مرض ولا صُداع . ولا تَذهب عُقولُهم بشُربها ، ولا يَسْكَرُون كما تَفعل خَمر الدُّنيا . وخَمْرُ الدُّنيا تنتج عنها أنواع كثيرة من الفساد والضَّرر ، كالسُّكر ، وذهاب العقل ، ووجع البطن ، والصُّداع ، والقَيء ، والبَوْل . وكُل هذه الأضرار غير موجودة في خمر الجَنَّة ، فهو خَمْر لذيذ رائع ، بلا ضَرَر ولا فساد ، لا يُسبِّب صُداعًا ولا وجعًا ، ولا يَنتج عنه سُكر ولا عَربدة ، تُزيل لَذَّةَ الاستمتاع ، وتَنشر الآلمَ والحَسْرَةَ ، كما هو حال خَمْر الدُّنيا . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠) : ((وقَوله تعالى : ﴿ لا فِيها غَوْلٌ ﴾ ، يعني : لا تُؤَثِّر فِيها غَوْلًا ، وهو وجع البطن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومُجاهد وقَتادة وابن زيد ، كما تفعله خَمْر الدنيا مِن القُولَنْج ونَحْوه لكثرة مائيتها . وقِيل : المُراد بالغَول هَهُنا صُداع الرأس، ورُوِيَ هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال قَتادة : هُوَ صُداع الرأس ووَجَع البَطْن ، وعنه وعن السُّدي : لا تَغتال عُقولَهم ، كما قال الشاعر: فما زالت الكأس تغتالنا ... وتذهب بالأول الأول . وقال سعيد بن جُبَير : لا مَكروه فيها ، ولا أذى . والصَّحيح قَول مُجاهد أنه وجع البطن. وقَوله تعالى: ﴿ ولا هُم عَنها يُنزَفُون ﴾ . قال مُجاهد : لا تذهب عُقولهم ، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كَعْب والحسن وعطاء بن أبي مسلم الخُراساني والسُّدي وغَيرهم . وقال الضَّحاك عن ابن عباس: في الخَمْر أربع خِصال : السُّكر ، والصُّداع ، والقَيْء ، والبَوْل ، فَذَكَرَ اللهُ خَمْرَ الجَنَّة ، فَنَزَّهَها عن هذه الخِصال ، كما ذَكَرَ في سُورة الصَّافَّات)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٥٦ و٥٧) : ((﴿ لا فِيها غَوْلٌ ﴾ ، فيه سَبعة أقوال : أحدها لَيس فِيها صُداع، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني لَيس فِيها وَجع بطن، رواه العَوفي عن ابن عَبَّاس، وبه قال مجاهد وابن زيد. والثالث لَيس فِيها صُداع رأس ، قاله قَتادة . والرابع لَيس فِيها أذى ، ولا مَكروه ، قاله سعيد بن جُبَير . والخامس لا تَغتال عُقُولَهم ، قاله السُّدي . وقال الزَّجاج: لا تَغتال عُقُولَهم ، فتذهب بها ، ولا يُصيبهم مِنها وجع . والسادس لَيس فيها إثم،حكاه ابن جرير. والسابع لَيس فيها شيء مِن هذه الآفات، لأن كُل مَن ناله شيء من هذه الآفات قِيل : قد غالته غَوْل ، فالصواب أن يكون نَفْي الغَوْل عنها يَعُمُّ جَمِيعَ هذه الأشياء ، هذا اختيار ابن جرير . قَوله تعالى : ﴿ ولا هُم عَنها يُنزَفُون ﴾ . قرأ حمزة والكِسائي بكسر الزَّاي هاهُنا ... وفَتَحَ عاصم الزَّاي هاهُنا... قال الفَرَّاء: فَمَن فَتَحَ، فالمعنى: لا تذهب عُقولهم بشُربها. يُقال للسَّكران نزيف ومنزوف. ومَن كَسَرَ ففِيه وَجْهان: أحدهما لا يُنفِدون شرابهم، أي هو دائم أبدًا. والثاني لا يَسْكَرُون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ [الصَّافَّات : ٤٨] .

وعِندَ هؤلاء المؤمنين المُخْلَصِين الحُورُ العِين العفيفات الشريفات الطاهرات اللواتي لا يَنظرن إلى غَيْر أزواجهن . وهذا يَدل على عِفَّتهن وشرفهن ، كما يدل على فُحولة أزواجهن وحُسنهم .

وهُنَّ مَعَ عِفَّتهن وشرفهن وطهارتهن ، واسعات جميلات العُيون . واتِّساع عَيْن المرأة مَعَ الحُسن والجَمَال، أفضل صِفة في العُيون. والعِين جَمْع عَيناء، أي : نَجْلاء واسعة العَين في جَمَال.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ٥٧و٥٨):((قَوله تعالى:﴿ وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنهن النساء قد قَصَرْنَ طَرْفَهن على أزواجهن ، فلا يَنظرنَ إلى غَيرهم . وأصل القَصْر الحَبْس . قال ابن زيد : إن المرأة منهن لَتَقول لزوجها : وَعِزَّةِ رَبِّي ما أرى في الجَنَّة شيئًا أحسنَ مِنك ، فالحمد لله الذي جَعلني زَوْجَك ، وجَعلك زَوْجي . والثاني أنهن قد قَصَرْنَ طَرْفَ الأزواج عَن غَيرهن لكَمال حُسنهن ، سَمِعْتُه من الشيخ أبي محمد بن الخَشَّاب النَّحْوي . وفي العِين ثلاثة أقوال: أحدها حِسان العُيون، قاله مجاهد. والثاني عِظام الأعين، قاله السُّدي وابن زيد. والثالث كِبار العُيون حِسانها . وواحدتهن عَيناء ، قاله الزَّجاج)) .

وصدق القائل :

مِن قَاصرات الطَرْفِ لا تَبْغي سِوى ... مَحْبوبها مِن سائر الشُّبَّانِ
قَصَرَتْ عَليه طَرْفَها مِن حُسْنِه ... والطَّرْفُ مِنهُ مُطْلَقٌ بأمانِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ [الصَّافَّات : ٤٩] .

كأنهن اللؤلؤ المَكنون في أصدافه . وهُنَّ مَعَ جَمالهن الباهر ، وحُسنهن الأخَّاذ ، مَصُونات ومَحفوظات كالدُّر في أصدافه ، مَعَ نُعومة ورِقَّة ولُطف وجَمَال وحُسْن ، وغَير مُبْتَذَلات ، ولا تصل إليهن الأيدي ولا العُيون ، ولم يَمَسَّهُن إنس ولا جان . أبدانهن جميلة ، وألوانهن حسنة .

أو : كأنهن بَيض النَّعَام ، تَحميه النَّعَامة بريشها مِن الريح والغُبار . ولَوْنُه أبيض في صُفرة ، وهو أحسن ألوان النِّساء ، وأكثرها جاذبية وبهاءً وإشراقًا . والعربُ تُشبِّه المرأةَ ببَيضة النَّعَامة لصفائها وبياضها ونظافتها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٥٨) : ((قَوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ . في المُراد بالبَيْض هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها أنه اللؤلؤ ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عُبَيدة . والثاني بَيض النَّعَام ، قاله الحسن وابن زيد والزَّجاج . قال جماعة من أهل

اللغة : والعرب تُشبِّه المرأةَ الحَسناء في بَياضها وحُسن لَوْنها ببَيْضة النَّعامة ، وهو أحسن ألوان النساء ، وهو أن تكون المرأة بَيضاء مُشْرَبَة صُفرة . والثالث أنه البَيض حين يُقَشَّر قبل أن تَمَسَّه الأيدي ، قاله السُّدي . وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جُبَير وقَتادة وابن جرير . فأمَّا المَكْنُون فهو المَصُون ، فعلى القَول الأول هو مَكْنُون في صَدَفِه ، وعلى الثاني هو مَكنون برِيش النَّعَام . وعلى الثالث هو مَكْنُون بقِشْرة)) .

وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٧/ ٣٥٩) : ((ذَكَرَ تعالى في هذه الآيات أوَّلًا الرِّزق ، وهو ما تتلذَّذ به الأجسام ، وثانيًا الإكرام ، وهو ما تتلذَّذ به النُّفوس ، ثم ذَكَرَ المَحِل ، وهو جَنَّات النعيم ، ثُمَّ لذَّة التآنس والاجتماع : ﴿ عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ ، وهو أتم للسُّرور وآنَس ، ثُمَّ ذَكَرَ المشروب وهو الخَمْر ، التي تُدار عليهم بالكؤوس ، ولا يتناولونها بأنفسهم ، ثُمَّ خَتَمَ باللذَّة الجسدية _ أبلغ المَلاذ _ وهي التآنُس بالنساء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أنتم تَحْزَنُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٨].

إن عباد الله المؤمنين المُتَّقين الذينَ جَمعوا بين التَّصديق القلبي والعمل الصالح ، لا خَوْفٌ عليهم في يوم القِيامة الرهيب ، لأن الله رَضِيَ عنهم ، وأمَّنهم مِن عذابه وعُقوبته . ولا هُم يَحْزَنون على ما فاتهم مِن الدُّنيا ، لأن نعيم الآخرة الباقي خَير لهم مِن حُطام الدُّنيا الفاني .

وهُوَ حِكاية لِمَا يُنادى به المُتَّقون المُتَحابُّون في الله يوم القِيامة ، تعظيمًا لهم ، وتشريفًا لقَدْرهم ، وتطييبًا لقُلوبهم ، ورَفْعًا لشأنهم ، فيَذهب عندئذ خَوْفُهم ، ويَزول حُزْنُهم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٠٩): ((وقَوله: ﴿ يا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أنتم تَحْزَنُون ﴾ . وفي هذا الكلام مَحذوف ، اسْتَغْنَى بدَلالة ما ذُكِرَ عليه . ومعنى الكلام : ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا المُتَّقِين ﴾ ، فإنَّهم يُقال لهم : يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكم اليَوم مِن عِقابي ، فإنِّي قد أمَّنتكم مِنه برِضَايَ عَنكم ، ولا أنتم تَحْزَنون على فِراق الدُّنيا ، فإن الذي قَدِمْتُم عليه خَير لكم مِمَّا فارقتموه مِنها . وذُكِرَ أن الناس يُنَادَوْنَ هذا النِّداء يوم القيامة ، فيَطمع فِيها مَن لَيس مِن أهلها حتَّى يَسمع قَوْلَه : ﴿ الذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين ﴾ ، فيَيْأس مِنها عِند ذلك. حَدَّثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثَور عن مَعْمَر عن قَتادة ، قال : ثنا المُعتمر عن أبيه قال: سَمِعْتُ أن الناس حِين يُبْعَثُون ليس مِنهم أحد إلا فَزِعَ ، فيُنادي مُنَادٍ : يا عِبَادَ الله ، لا خَوْفٌ عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون ، فيَرْجُوها الناسُ كُلُّهم . قال : فَيُتْبِعها ﴿ الذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين ﴾ . قال : فَيَيْأس الناسُ مِنها غَير المُسلمين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٩] .

بيَّن اللهُ مَن هُم الذين لا خَوْفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنُون . إنهم الذين صدَّقوا بالقُرآن ، وأخْلَصُوا تَوحيدَهم وعبادتهم لله ، وخَضعوا لأمره، واستسلموا لحُكمه، وفَعلوا الطاعات، واجتنبوا المعاصي . لقد آمنت قلوبُهم بوَحدانية الله ، وخَضعت جوارحُهم لشرع الله تعالى ، فهُم مُؤمنون باطنًا وظاهرًا.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٠٩) : ((وقَوله : ﴿ الذينَ آمَنُوا بآياتِنا ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه: يا عِبَادي الذين آمنوا ، وهُم الذين صدَّقوا بكتاب الله ورُسله ، وعملوا بما جاءتهم به رُسلهم ﴿ وكانوا مُسْلِمِين ﴾ . يقول : وكانوا أهلَ خُضوع لله بقلوبهم، وقَبول مِنهم لِمَا جاءتهم به رُسُلُهم عن ربِّهم على دِين إبراهيم خليل الرَّحمن ﷺ حُنَفاء، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٢٧): ((فإذا وَقَعَ الخَوْفُ يوم القيامة نادى مُنَادٍ : ﴿ يا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أنتم تَحْزَنُون ﴾ ، فيَرفع الخلائقُ رُؤوسَهم ، فيقول : ﴿ الذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين ﴾ ، فيُنكِّس الكُفَّارُ رُؤوسَهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ أنتم وأزواجُكُم تُحْبَرُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٧٠] .

يُقال لهم : ادخلوا الجَنَّةَ أنتم وزَوجاتكم المؤمنات ، فَرِحين بنِعمة الله ، مَسرورين بكرامته . والفرحُ والسُّرور ناتجان عَن النِّعمة والكرامة . تُنعَّمون في الجَنَّة ، وتَسْعَدُون بها ، وتُسَرُّون سُرورًا يَظهر أثرُه على وجوهكم. والحَبْرَةُ السُّرور. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٩٧): ((﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ ﴾ ، أي : يُقال لهم : ادْخُلوا الجَنَّة ، أوْ : يا عِبَادِيَ الذين آمَنوا ادْخُلوا الجَنَّةَ ﴿ أنتم وأزواجُكُم ﴾ المُسلمات في الدُّنيا . وقِيل : قُرَناؤكم مِن المُؤمنين . وقِيل : زَوجاتكم مِن الحُور العِين ﴿ تُحْبَرُون ﴾ تُكْرَمُون ، قاله ابن عباس ، والكرامة في المَنزلة . الحَسَن : تَفْرَحُون . والفَرَح في القلب . قَتادة : يُنعَّمون . والنعيم في البدن . مُجاهد : تُسَرُّون . والسُّرور في العَين . ابن أبي نَجيح: تُعْجَبُون. والعَجَبُ هاهُنا دَرْك ما يُسْتَطْرَف. يحيى بن أبي كثير : هو التَّلَذُّذ بالسَّماع)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٢) : ((﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ أنتم وأزواجُكُم ﴾ نِساؤكم المُؤمنات ﴿ تُحْبَرُون ﴾ تُسَرُّون سُرُورًا يَظهر حَبَارُه، أي: أثَرُه ، على وُجوهكم. أو تُزَيَّنُون،مِن الحَبَر وهو حُسن الهَيئة . أو تُكْرَمُون إكرامًا يُبَالَغ فِيه . والحَبْرَةُ المُبالَغة فِيما وُصِفَ بجميل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وأكوابٍ وفِيها ما تَشْتهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ وأنتم فِيها خالدون ﴾ [الزُّخْرُف : ٧١] . يُطاف على أهل الجَنَّة الذين آمنوا بآيات الله في الدُّنيا ، بأوانٍ مِن الذهب فيها الطعام ، وأكواب (جَمْع كُوب) مِن ذهب فيها الشراب .

ولم يتم ذِكْر الأطعمة والأشربة لتشويق السامع ، وإثارةِ فُضوله . وأيضًا ، لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب على المؤمنين ، بدُون وجود شيء فِيها . لا بُد مِن وُجود الطعام والشراب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٢٨): ((قَوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ ﴾، قال الزَّجاج: واحدها صَحْفَة وهي القَصْعَة. والأكواب واحدها كُوب، وهو إناء مُستدير لا عُروة له. قال الفَرَّاء : الكُوب الكُوز المُستدير الرأس الذي لا أُذُن له... . وقال ابن قُتَيبة: الأكواب الأباريق التي لا عُرى لها . وقال شيخنا أبو منصور اللغوي : وإنما كانت بغَير عُرى ليَشرب الشاربُ مِن أين شاء ، لأن العُروة تَرُدُّ الشاربَ مِن بعض الجهات)) .

وعن حُذَيفة _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشْرَبوا في آنِيَةِ الذهب والفِضَّة ، ولا تأكلوا في صِحَافها ، فإنها لهم في الدُّنيا ، ولنا في الآخرة)) [٩٠].

نهى النبيُّ ﷺ عن لِبْس الحرير والدِّيباج (نَوع مِن الثياب المُتَّخذة مِن الحرير) ، والشُّربِ في أوعية الذهب والفِضَّة ، والأكلِ في الأواني المصنوعة مِن الذهب والفِضَّة، فإنها للكُفَّار في الدُّنيا، وهي للمؤمنين في الآخرة عندما يَدخلون الجَنَّةَ المُحرَّمة على الكُفَّار .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٣٦و٣٧): ((أي: إنَّ الكُفَّار إنما يَحصل لهم ذلك في الدُّنيا ، وأمَّا الآخِرة فما لهم فيها مِن نَصيب . وأمَّا المسلمون فلهم في الجَنَّة الحرير والذهب ، وما لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر . وليس في الحديث حُجَّة لِمَن يَقول: الكُفار غَير مُخَاطَبِين بالفُروع ، لأنه لَم يُصرِّح فيه بإباحته لهم، وإنما أخبر عن الواقع في العادة أنهم هُم الذين يَستعملونه في الدُّنيا، وإن كان حرامًا عليهم، كما هو حرام على المسلمين . قَوله ﷺ : " وهو لكم في الآخرة يوم القيامة " ، إنَّما جَمع بينهما ، لأنه قد يُظَن أنه بمُجرَّد مَوْته ، صَار في حُكم الآخِرة في هذا الإكرام ، فبيَّن أنه إنَّما هو في يوم القيامة وبَعْده في الجَنَّة أبدًا. ويُحتمل أن المراد أنه لكم في الآخِرة مِن حِين المَوت،ويستمر في الجَنَّة أبدًا. قَوله ﷺ: " ولا تأكلوا في صِحافها " ، جَمْع صَحْفَة ، وهي دُون القَصْعَة)) .

﴿ وفِيها ما تَشْتهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ وأنتم فِيها خالدون ﴾ . وفي الجَنَّة كُل ما تشتهيه النُّفوس مِن أنواع الملذات ، وتُسَرُّ به الأعيُن مِن المناظر الرائعة والمَشَاهد الجميلة . وأنتم أيُّها المؤمنون في الجَنَّة باقون دائمون ، لا تَموتون ، ولا تَخرجون مِنها .

---

٩٠ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٠٦٩) برقم (٥١١٠) ، ومسلم (٣/ ١٦٣٧) برقم (٢٠٦٧) .

وهذا إتمام للكرامة ، وإكمال للنِّعمة ، لأن كُل نعيم زائل يَجلب الخَوْفَ والقلقَ مِن زواله ، ويُسبِّب الحَسرةَ عِند فِقْدانه . ونعيمُ الجَنَّة باقٍ لا يَزول ، ودائم لا يَفنَى .

والالتفاتُ في ﴿ وأنتم ﴾ لتشريف المؤمنين ، وتعظيم قَدْرهم ، وتفخيم شأنهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٢٨) : ((والمعنى : ما مِن شيء اشتهته نَفْسٌ أو اسْتَلَذَّتْهُ عَيْن، إلا وهو في الجَنَّة، وقد جَمع اللهُ تعالى جَمِيعَ نَعِيم الجَنَّة في هذين الوصفَيْن ، فإنَّه ما مِن نِعمة إلا وهي نصيب النَّفْس أو العَيْن . وتَمام النَّعيم الخُلود، لأنه لو انقطع لَم تَطِبْ)).

وفي حاشية زادة على البيضاوي (٣/ ٣٠٤) : ((لمَّا ذَكر الجَنَّة ، وأنها موضع الحُبُور ، ذَكر ما فيها مِن النِّعَم ، فذكر أوَّلًا المَطَاعِم ، ثُم ذكر المَشَارِب ، ثُم بعد ذلك التفصيل ذكر بيانًا كُلِّيًّا بقَوله : ﴿ وفِيها ما تَشْتهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ ، ثُمَّ ذَكر تمام النِّعمة بالخُلود في دار النعيم ، وهذا حَصْر لأنواع النِّعَم ، لأنها إمَّا مُشتهاة في القُلوب ، أو مُستلذة في العُيون)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٠) عن جابر قال : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقول : ((إنَّ أهل الجَنَّة يَأكلون فِيها، ويَشْرَبُون، ولا يَتفُلُون،ولا يَبُولُون،ولا يَتَغَوَّطُون،ولا يَمْتَخِطُون)).قالوا:فَمَا بَالُ الطَّعام؟. قال : ((جُشَاءٌ ، وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْك ، يُلْهَمُونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ ، كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ)).

إنَّ أهل الجَنَّة يأكلون فيها ويَشربون ، ويتنعَّمون بذلك ، وبكل أنواع الملذات إلى ما لا نهاية . ولا يَبصُقون، ولا يَبُولُون، ولا يتغوَّطون، ولا يَمتخطون (لا يكون مِنهم مُخاط) كحال أهل الدُّنيا . ويَكون رجيعُ طعامهم جُشَاءً ، وهو صوت مع ريح تَخرج مِن الفَم عِند الشِّبَع ، وعَرَق يَخرج مِن أبدانهم رائحته كرائحة المِسْك . يُوفَّقون للتسبيح والتحميد ، ويَجْرِيان معَ أنفاسهم ، فيصير ذلك صِفة لازمة لهم . والعَرَقُ الذي يَتَرَشَّح مِنهم رِيحه كالمِسْك ، وهو مِثْل البَول والغائط مِن غَيرهم ، لأن طعام أهل الجَنَّة وشرابهم لَطيف ورائع ، بلا فَضَلات قَذِرة ، لذلك تَمَّ التعبير عنها بالمِسْك الطَّيب الذي هُوَ أفضل طِيب الدُّنيا ، لبيان أنها تُستطاب وتُستلذ ، ولا تُسْتَقْذَر ، ولا تُنفِّر مِنها .

وقدكان النبيُّ ﷺ يُخبِر عَن الجَنَّة ونعيمها الدائم ، مِن أجل تَشويق النُّفوس ، وشَحْذ الهِمَم، وتقوية عزائم المؤمنين لعمل الطاعات ، طلبًا لرضا الله ، وحِرْصًا على جَنَّته .

والحديثُ يتضمَّن وصف أهل الجَنَّة ، وبيان حالهم ، فهُم يَأكلون ويَشربون للمُتعة والتَّلَذُّذ ، وليس بدافع الجوع والعَطَش . ولا يَكون مِنهم شيء مِن أوساخ الدُّنيا وقاذوراتها الناتجة عن الأكل والشُّرب . إنهم يَأكلون ويَشربون ، ولا يَبُولُون ، ولا يتغوَّطون ، ولا تَوجد فضلات لطعامهم ، الذي يتحوَّل إلى جُشاء ورَشْح كرَشْح المِسْك . والحديثُ يدل على أن نعيم الجَنَّة باقٍ دائم إلى الأبد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٧٣) : ((مَذهب أهل السُّنة وعامَّة المُسلمين أن أهل الجَنَّة يأكلون فيها،ويَشربون، يتنعَّمون بذلك وبغَيره مِن مَلاذ وأنواع نعيمها تَنَعُّمًا دائمًا لا آخِرَ له ، ولا انقطاع أبدًا ، وإن تَنَعُّمَهم بذلك على هَيئة تَنَعُّم أهل الدُّنيا إلا ما بينهما مِن التَّفَاضُل في اللذة والنَّفَاسة التي لا يُشارك نعيم الدُّنيا إلا في التَّسمية وأصل الهيئة ، وإلا في أنهم لا يَبُولُون ، ولا يَتغَوَّطُون ، ولا يَتَمَخَّطُون ، ولا يَبْصُقُون . وقد دلَّت دلائل القرآن والسُّنة في هذه الأحاديث التي ذَكَرَها مُسلم وغَيره أن نعيم الجَنَّة دائم ، لا انقطاع له أبدًا)) اهـ .

وفي نَفْح الطِّيب (٥/ ٣٠٤) : ((سَمِعَ إياس يهوديًّا يقول : ما أحمق المُسلمين ، يَزعُمون أن أهل الجَنَّة يأكلون، ويَشْربون، ولا يَبُولُون،ولا يتغوَّطون. فقال: أوَ كُل ما تأكله تُحْدِثه ، قال: لا، لأن الله تعالى يَجعل أكثره غِذاءً. قال: فما تُنكِر أن يَجعل جَميعَ ما يأكل أهلُ الجنة غِذاءً)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثتُمُوها بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٧٢] .

وتِلك الجَنَّة المَوصوفة بالأوصاف العظيمة الرائعة ، استحققتموها وأُعطيتموها ونِلْتموها أيها المؤمنون بسبب فِعْلكم للطاعات واجتنابكم للمَعَاصي في الدُّنيا .

لقد صارت الجَنَّةُ إلى المؤمنين كما يصير المِيراثُ إلى الوارث ، وهي دائمة وباقية على أهلها كالمِيراث الباقي على الوَرَثة ، وهذا بسبب تَوحيدهم لله ، وعمل الصالحات في الدُّنيا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٠): ((ثُمَّ قِيل لهم على وَجه التَّفَضُّل والامتنان: ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثتُمُوها بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ، أي : أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشُمول رحمة الله إيَّاكم ، فإنه لا يُدخِل أحدًا عَمَلُه الجَنَّةَ ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنَّما الدرجات يُنال تفاوتها بحَسَب الأعمال الصالحات)) .

والآيةُ ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ ﴾ تدل على بُعد الجَنَّة في الشرف والفضل ، وعُلُوِّ قَدْرها ومكانتها .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢١١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : يُقال لهم : وهذه الجَنَّة التي أَوْرَثَكُمُوهَا اللهُ عَن أهل النار الذين أدخلهم جَهَنَّم ، بما كنتم في الدُّنيا تَعملون مِن الخَيرات)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٠٠): ((قَوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ ﴾ ، أي : يُقال لهم : هذه تِلك الجَنَّة التي كانت تُوصَف لكم في الدُّنيا. وقال ابن خَالَوَيْه : أشارَ تعالى إلى الجَنَّة بتِلك، وإلى جَهَنَّم بهذه ، لِيُخوِّف بجهنم ، ويُؤكِّد التحذيرَ مِنها ، وجَعَلَها بالإشارة القريبة كالحاضرة التي يُنظَر إليها ﴿ التي أُورِثتُمُوها بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ . قال ابن عباس : خَلَقَ اللهُ لكل نَفْس جَنَّةً ونارًا ، فالكافر يَرِثُ نارَ المُسلِم ، والمُسلِم يَرِثُ جَنَّةَ الكافر)) .

وفي الدُّر المنثور (٧/ ٣٩٤) : ((أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مَرْدَوَيْه ، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ﷺ قال : " مَا مِن أحد إلا وله مَنزِل في الجَنَّة ، ومَنزِل في النار ، فالكافرُ يَرِثُ المُؤمِنَ مَنْزِلَه في النار ، والمؤمنُ يَرِثُ الكافرَ مَنْزِلَه في الجَنَّة ، وذلك قَوله : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثتُمُوها بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ")) .

جَعل اللهُ لكل إنسان مَنْزِلَيْن : مَنْزِلًا في الجَنَّة ، ومَنْزِلًا في النار . والكافرُ الذي كُتِبَ له الشَّقاء في الأزل، يَرِثُ مَنْزِلَ المؤمن الذي كان له في النار. والمؤمنُ الذي كُتِبَتْ له السَّعادة في الأزل يَرِثُ مَنْزِلَ الكافر الذي كان له في الجَنَّة . والمؤمنون (أهل الجَنَّة) يَرِثُون منازلَ الكُفَّار ، ويأخذون نصيبَهم في الجَنَّة ، لأنهم وحَّدوا اللهَ ، وعَبَدُوه بلا شريك ، وفعلوا الطاعات ، واجتنبوا المعاصي ، فاستحقوا أن يَرِثُوا نصيبَ الكُفَّار في الجَنَّة . في حِين أن الكُفَّار (أهل النار) اختاروا الكُفرَ والضلالَ والمعاصي ، فخسروا نصيبهم في الجَنَّة ، ووَرِثُوا نصيبَ المؤمنين في النار .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٢) عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، وأبي هُرَيرة ، عن النبيِّ ﷺ قال: ((يُنادي مُنَادٍ : إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبدًا ، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَمُوتوا أبدًا ، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا ، وإنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأسُوا أبدًا ، فذلك قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَنُودُوا أن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِمَا كُنتُم تَعْمَلُون ﴾ [الأعراف : ٤٣])) .

يُخبِر النبيُّ ﷺ عن عَظَمَة الجَنَّة ونعيمِ أهلها ، لتشويق النُّفوس ، وتَشجيع الناس على عبادة الله وطاعته ، والإقبال على جَنَّته . وقد بيَّن النبيُّ ﷺ صِفة حياة أهل الجَنَّة وعَيشهم الرغيد إلى الأبد ، حيث يُنادي مُنَادٍ على أهل الجَنَّة ، ويكون نِداؤه حاملًا للبُشرى والسُّرور والفرح لهم . إنَّ أهل الجَنَّة يتمتَّعون بالصِّحة والعافية والحيوية ، ولا يَمرَضون ، ولا يُعانون مِن أيَّة مُشكلة صِحِّية ، وهُم في حياة دائمة مُستمرة باقية بلا مَوت ولا انقطاع ولا زوال . وهُم في شباب دائم ، فلا يُصابون بالشَّيخوخة والهَرَم ، وما يُرافقهما مِن آفات ومُشكلات . وهُم في نعيم دائم وسُرور باقٍ وفرح مُستمر ، فلا يُصابون بالبؤس والشقاء والتعاسة . والحديثُ يدل على أن نعيم الجَنَّة دائم وباقٍ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٦٠و١٦١) : ((اعْلَمْ أن مذهب أهل السُّنة أنه لا يَثبت بالعقل ثواب، ولا عِقاب، ولا إيجاب، ولا تَحريم ، ولا غَيرها من أنواع التَّكليف، ولا تَثبت هذه كُلُّها ولا غَيرها إلا بالشَّرْع . ومذهب أهل السُّنة أيضًا أن الله تعالى لا يَجب عليه شيء . تعالى اللهُ . بَل العَالَم مِلْكُه والدُّنيا والآخرة في سُلطانه ، يَفعل فيهما ما يَشاء ، فَلَوْ عَذَّبَ المُطيعين والصالحين أجمعين ، وأدخلهم النارَ كان عَدْلًا مِنه ، وإذا أكرمهم ونعَّمهم وأدخلهم

الجَنَّة ، فهو فَضْل مِنه . وَلَوْ نَعَّمَ الكافرين وأدخلهم الجَنَّةَ ، كان له ذلك ، ولَكِنَّه أخبرَ ، وخَبَرُه صِدق أنه لا يَفعل هذا ، بل يَغفر للمؤمنين ، ويُدخِلهم الجَنَّة برحمته ، ويُعذِّب المُنافقين ويُخلِّدهم في النار عَدْلًا مِنه. وأمَّا المُعْتَزِلة فيُثبِتون الأحكامَ بالعقل ، ويُوجِبون ثوابَ الأعمال ، ويُوجِبون الأصلحَ ، ويَمنعون خِلافَ هذا في خَبْط طويل لهم ، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المُنابذة لنُصوص الشَّرع. وفي ظاهر هذه الأحاديث (أحاديث أُخرى) دَلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثوابَ والجَنَّة بطاعته. وأمَّا قَوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ، ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثتُمُوها بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ، ونَحْوهما مِن الآيات الدَّالة على أن الأعمال يُدخَل بها الجَنَّة ، فلا يُعارِض هذه الأحاديث ، بل معنى الآيات أن دخول الجَنَّة بسبب الأعمال، ثُمَّ التوفيق للأعمال والهِداية للإخلاص فيها وقَبولها ، برحمة الله تعالى وفضله ، فيَصِح أنه لم يَدخل بمُجرَّد العمل ، وهو مُراد الأحاديث. ويَصِح أنه دَخل بالأعمال ، أي: بسببها ، وهي مِن الرحمة، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَكُم فِيها فَاكِهَةٌ كثيرةٌ مِنها تأكُلون ﴾ [الزُّخْرُف : ٧٣] .

الخِطابُ الإلهيُّ للمؤمنين.لَكُم في الجَنَّة فاكهة كثيرة مِن كُل الأنواع، وثِمار مِن كُل الأصناف، تَختارون مِنها ما تُريدون،وتأكلون مِنها ما تَشْتَهُون . وكُل ما يُؤكَل يَظهر بَدَلُه . والثِّمار دائمة على الأشجار ، لا تَزول، ولا تَنتهي . أي إن الأشجار مُزيَّنة بالثِّمار أبدًا . وقد ذَكَرَ اللهُ الفاكهةَ بعد ذِكْر الطعام والشَّراب، لإتمام النِّعمة ، وإكمال المُتعة ، وتحقيق رغبات أهل الجَنَّة . والجديرُ بالذِّكر أن الأكل في الجَنَّة إنَّما هو للاستمتاع والتَّلَذُّذ ، وليس بدافع الجُوع أو حماية الأبدان مِن الأضرار. ففي الجَنَّة،لا جُوع ولا عَطَش، كما أن أبدان أهل الجَنَّة مَحفوظة وخالدة، لا يُصيبها سُوء ولا ضَرَر.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٣) : ((﴿ لَكُم فِيها فَاكِهَةٌ كثيرةٌ مِنها تأكُلون ﴾ . بعضها تأكلون ، لكَثرتها ودَوام نوعها.ولعلَّ تفصيل التَّنَعُّم بالمَطَاعِم والمَلابِس،وتكريره في القرآن، وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجَنَّة ، لِمَا كان بهم مِن الشِّدة والفَاقَة (الحاجة))) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره(٨/ ٥٥):((﴿لَكُم فِيها فَاكِهَةٌ كثيرةٌ﴾ بحَسَب الأنواع والأصناف، لا بحَسَب الأفراد فقط ﴿ مِنها تأكُلون﴾ أي:بعضها تأكلون في كل نَوبة،وأمَّا الباقي فعلى الأشجار على الدَّوام، لا ترى فيها شجرة خَلَت عَن ثمرها لحظةً، فهي مُزيَّنة بالثِّمار أبدًا، مُوقَرَة بها)) اه .

وقد قالَ النبيُّ ﷺ:((لا يَنْزِعُ رَجُلٌ مِن أهْلِ الجَنَّةِ مِن ثَمَرِها شيئًا، إلا أخلفَ اللهُ مَكَانَهَا مِثْلَهَا))[٩١].

٩١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٦) برقم (٨٣٩٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن المؤمنين (أهل الجَنَّة) لا يأكلون إلا بعض الثِّمار ، والباقي على الأشجار ، فهي مُزيَّنة بالثِّمار أبدًا ، ولا تُوجد شجرة عُريانة مِن ثمرها كما في الدُّنيا . وإذا تناولَ المؤمنُ مِن ثمر الجَنَّة شيئًا ، خَلَقَ اللهُ مَكَانَهَا ثَمَرَةً مِثْلَهَا ، فلا يُوجد فراغ ولا مَنطقة خالية . والأشجارُ مُوقَرة بالثَّمر أبدًا.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم وما أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطُّور : ٢١] .

والذين آمَنُوا بالله ، واتَّبعتهم ذُرِّيتهم في الإيمان ، ألحقَ اللهُ الأبناءَ بالآباء في المَنزلة والدَّرَجة في الجَنَّة ، وإن لم يَصِلوا إلى مُستوى أعمالهم ، لِتَقَرَّ أعينُ الآباء بالأبناء ، وتَطِيب أنفسُهم ، ويَجتمعوا بهم في الجَنَّة، ويَفرحوا بوجودهم.وهذا إكرام للآباء لِتقرَّ بذلك أعينُهم، ويَسعَدوا بأبنائهم معهم وبينهم . وتَنكير ﴿ بإيمانٍ ﴾ للتعظيم ، أو لبيان أن أصل الإيمان كافٍ لإلحاق الأبناء بالآباء.

وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٥٩) أن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهماــ قال: ((إنَّ الله لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّة المؤمن معه في دَرجته في الجَنَّة ، وإن كانوا دُونَه في العمل ، لِتَقَرَّ بهم عَيْنُه)) ، وتلا هذه الآية .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (٤/ ٢٧٢) : ((فيَجمع اللهُ لأهل الجَنَّة أنواعَ السُّرور ، بسعادتهم في أنفسهم ، وبمُزاوَجة الحُور العِين ، وبمُؤانَسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونَسْلهم بهم)) .

﴿ وما أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ ﴾ . أي : ما نَقَصْنا الأبناءَ مِن ثواب أعمالهم لِقِصَر أعمارهم ، وما نَقَصْنا الآباءَ مِن ثواب أعمالهم شيئًا بإلحاق ذُرِّياتهم بهم . أي إن الله يُلحِق المُقصِّر (الأدنى) بالمُحسِن (الأعلى) فضلًا وتكرُّمًا عليه ، وإحسانًا إلَيه ، ولا يُنقِص مِن أجر المُحسِن شيئًا ، ولا يُقلِّل من درجته ، ولا يُنْزِل مكانته .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ . كُل إنسان مُرْتَهَن بعمله ، لا يتحمَّل ذَنْبَ غَيره ، مهما كان قريبًا مِنه، وسواءٌ كان أبًا أو ابنًا. فإن عَمِلَ صالحًا نَجَّاه وفكَّه وحرَّره، وإن عَمِلَ سُوءًا أهلكه ودمَّره.

وبعبارة أُخرى ، كُل إنسان بِمَا فَعَلَ مِن خَير أو شَر مَرهون ، والمُحسِن يُجازَى بإحسانه ، والمُسيء يُجازَى بإساءته . مِمَّا يُشير إلى أن عمل الإنسان دائم ، وثابت ، ومُلتصق به ،لا يَتركه ، ولا يُفارقه . وهذا يعني بالضرورة أن ثواب الآباء دائم ، ولا يُنقَص مِنه شيئًا ، ولا تَضيع حسناتهم .

والآية تدل على رحمة الله بعباده ، وإكرامه لهم ، وتفضُّلهم عليهم ، وإحسانه إلَيهم .

وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٥٩) : ((قال ابن عباس : ارتهنَ أهل جهنَّم بأعمالهم ، وصار أهل الجَنَّة إلى نعيمهم)) .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢٠٨) : ((المُراد بالآية الكافر ، أي كُل كافر بما عمل مِن الشِّرك مُرتَهَن بعمله في النار ، والمؤمن لا يكون مُرتَهَنًا بعمله ، لقَوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إلا أصحابَ اليمين (٣٩) ﴾ [المُدَّثر])) .

وهناك مَثَل شعبي يقول : " مَن جاور السعيد يَسعد " . وكذلك مَن رافقَ المؤمنين الصالحين ، والتصق بهم ، ودَخل بينهم ، رَفعوه ، وأخذوه معهم إلى أعلى الدَّرَجَات والمنازل ، واستفادَ مِنهُم حتى لو لم يكن صالحًا مِثلَهم ، وحتى لو كان دُونهم في العمل ، وأقل مِنهم في المستوى . وهؤلاء الأبناء استفادوا مِن إيمان آبائهم ، ورافقوهم إلى منزلتهم الرفيعة في الجَنَّة ، معَ أن الأبناء لم يصلوا إلى مستوى أعمال آبائهم ، وكانوا أقلَّ مِنهُم في الإيمان والعبادات والطاعات ، ولكن الالتصاق بالصالحين أفادهم . والمؤمنُ الصالحُ يَسحب أبناءه وأُسرته إلى درجته في الجَنَّة ، ويَرفعهم ، ويُرقِّيهم . والفضلُ كُلُّه لله تعالى ، فهو الكريم الأكرم ، والمُحسِن المُتَفَضِّل .

وكما قال الإمام الشافعي :

أُحِبُّ الصَّالحينَ وَلَسْتُ مِنهُم   لَعَلِّي أن أنالَ بهم شَفاعة
وأكرهُ مَن تِجارتُهُ المَعاصي   وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً في البِضاعة

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٠ و٥١) : ((واختلفوا في تفسيرها _ يعني الآية_ على ثلاثة أقوال : أحدها أن معناها : واتَّبعتهم ذُرِّيتهم بإيمان ، ألْحَقْنا بهم ذُرِّياتهم مِن المؤمنين في الجَنَّة ، وإن كانوا لَم يَبْلُغوا أعمالَ آبائهم ، تَكْرِمَةً مِن الله تعالى لآبائهم المؤمنين ، باجتماع أولادهم معهم . روى هذا المعنى سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس . والثاني واتَّبعتهم ذُرِّيتهم بإيمان ، أي : بَلَغَتْ أن آمَنَتْ ، ألْحَقْنا بهم ذُرِّيتهم الصِّغار الذين لَم يَبْلُغوا الإيمانَ . وروى هذا المعنى العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك . ومعنى هذا القَول أن أولادهم الكِبار تَبِعُوهم بإيمان مِنهم ، وأولادهم الصِّغار تَبِعُوهم بإيمان الآباء، لأن الوَلَد يُحكَم له بالإسلام تَبَعًا لوالده. والثالث وأتبعناهم ذُرِّياتهم بإيمان الآباء ، فأدخلناهم الجَنَّة . وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا . قَوله تعالى: ﴿ وما أَلَتْنَاهُم ﴾ ... والمعنى: ما نَقَصْنا الآباءَ بما أَعْطَيْنا الذُّرِّيةَ . ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي: مُرتَهَن بعمله، لا يُؤَاخَذ أحد بذَنْب أحد. وقِيل: هذا الكلام يختصُّ بصِفة أهل النار، وذلك الكلام قد تَمَّ)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ: ـ ﴿ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم وما أَلَتْنَاهُم﴾ ، قال : ((إنَّ الله يَرفع ذُرِّيَةَ المؤمن معه في درجته في الجَنَّة ، وإن كانوا دُونَه في العَمَل))، ثُمَّ قرأ : ((﴿ والذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم وما أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم ﴾ ، يقول: وما نَقَصْناهم))[٩٢] .

إنَّ اللهَ يَجعل الولدَ الصغير يوم القيامة في درجة أبيه المؤمن ، ويُشفِّع اللهُ الآباءَ في الأبناء . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، وفضله العظيم ، وإحسانه الدائم . والآيةُ تدل على أن أطفال المسلمين في الجَنَّة، وقد أجمعَ العلماءُ على ذلك . وهذا إكرام مِن الله للآباء ، وتطييب لقلوبهم، وجَبْر لخواطرهم ، وإسعاد لهم . وأولادُ المسلمين إن كانوا كِبارًا فهُم مُوحِّدون ومُسلمون ، ومِن أهل الجَنَّة ، وإن كانوا صِغَارًا ، فقد ماتوا على فِطرة التَّوحيد السليمة ، ويَدخلون الجَنَّةَ بلا عمل . وهذا يدل على رحمة الله الواسعة ، وفضله عليهم . ويَدخل الأبناءُ الجَنَّةَ بصلاح آبائهم ، ويَكون الابنُ مع أبيه المؤمن في نفْس درجته في الجَنَّة ، لا يَفترقان . وهكذا ، تَقَرُّ أعينُ الآباء بالأبناء .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٨٣): ((وفي هذه الأحاديث ـ أحاديث أُخرى ـ دليل على كَوْن أطفال المسلمين في الجَنَّة. وقد نقل جماعة فيهم إجماع المسلمين.وقال المازري: أمَّا أولاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فالإجماع مُتحقِّق على أنهم في الجَنَّة، وأمَّا أطفال مَن سِواهم مِن المؤمنين، فجماهير العلماء على القَطْع لهم بالجَنَّة.ونقل جماعةٌ الإجماعَ في كَوْنهم مِن أهل الجَنَّة قَطْعًا ، لقَوله تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ . وتوقَّفَ بعضُ المُتكلمين فيها، وأشار إلى أنه لا يُقطَع لهم كالمُكلَّفين ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأَمْدَدْناهُم بِفَاكِهَةٍ ولَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُون ﴾ [الطُّور : ٢٢] .

يُبيِّن اللهُ فضله العظيم ونِعمته الجليلة على المؤمنين الذي صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، واتَّبعتهم ذُرِّيتهم بإيمان .

وزِدناهم فوق نعيمهم في الجَنَّة ، وألحقناهم بفواكه ولُحوم مِن كُل الأنواع الأصناف ، مِمَّا يُستطاب ويُشتهى . وقد زادهم اللهُ على ما كان لهم مِن النعيم بفاكهة مُتنوِّعة ولَحْم طَيِّب ، مِمَّا تَشتهيه أنفسُهم . وكُل ما يَشتهونه يَجِدونه عِندهم ، وإن لَم يُصرِّحوا بطلبه . وهذه زِيادة على ما كان لهم .

---

٩٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٩) برقم (٣٧٤٤) . وسكت عنه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٦١): ((قَوله تعالى: ﴿ وأمْدَدْناهُم بِفَاكِهَةٍ ولَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُون ﴾ ، أي : أكْثَرْنا لهم مِن ذلك زِيادةً مِن الله ، أمَدَّهم بها غَير الذي كان لهم)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٤٧): ((أي: وزِدْناهم وَقْتًا بعد وقت ما يَشتهون من أنواع التَّنَعُّم)).

وعن أبي الدَّرْداء قال: قال رسول الله ﷺ : ((سَيِّدُ طَعَامِ أهلِ الدُّنيا وأهلِ الجَنَّةِ اللحْمُ)) [٩٣].

وفي فَيض القدير للمُناوي (٤/ ١٢٤) : ((قال الغزَّالي : وينبغي أن لا يُواظب على أكل اللحم . قال عليٌّ ــ كرَّم الله وجهه ــ : مَن تَرَكَ اللحمَ أربعين يَوْمًا ، سَاءَ خُلُقُه . ومَن دَاوَمَ عليه أربعين يَوْمًا قَسَا قَلْبُه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيها كَأسًا لا لَغْوٌ فِيها ولا تأثِيمٌ ﴾ [الطُّور : ٢٣] .

يَتَعَاطَوْنَ في الجَنَّة كأسًا مِن الخَمر، ويَتداولونها بينهم ، ويتجاذبونها ، أُنْسًا وتَلَذُّذًا ، ومُلاعَبة، كما يَفعل النَّدامى في الدُّنيا لشِدَّة فَرحهم ، وعظيمِ سُرورهم ، وقُوَّةِ نَشوتهم . إنهم يَجلسون مع أقاربهم وأحبابهم ، ويَتناول هذا الكَأسَ مِن يَد هذا ، وهذا مِن يَد هذا . والكأسُ إناء الخَمْر ، ويُطلَق على كُل إناء مَملوء مِن خَمْر أو غَيره . وإذا كان فارغًا لا يُسمَّى كأسًا .

لا يتكلَّمون بكلام تافه وساقط وهَذَيان وفُحْش وشتائم ، ولا يَلْحَقهم إثم ، ولا يَقعون في الذَّنب، كحال شاربي الخمر في الدُّنيا.وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٣٠٨):((قَوله: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيها ﴾ ، أي : يَتَعَاطَوْنَ فيها ﴿ كَأسًا ﴾ ، أي : مِن الخَمْر ، قاله الضَّحاك . ﴿ لا لَغْوٌ فِيها ولا تأثيمٌ ﴾ ، أي : لا يَتَكَلَّمُون فِيها بكلام لاغٍ، أي هَذَيَان، ولا إثم، أي: فُحش، كما يتكلَّم به الشُّرَبَة (جَمْع شارب) مِن أهل الدُّنيا. قال ابن عباس : اللغو الباطل ، والتَّأثيم الكَذِب . وقال مُجاهد : لا يَسْتَبُّون ولا يُؤْثَمُون . وقال قَتادة: كان ذلك في الدُّنيا مع الشَّيطان ، فنزَّه اللهُ خَمْرَ الآخرة عَن قاذورات خَمْر الدُّنيا وأذاها ، ....، فنفى عَنها صُداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العَقْل بالكُلِّية . وأخبرَ أنها لا تَحْمِلهم على الكلام السَّيئ الفارغ عن الفائدة ، المُتضمِّن هَذَيَانًا وفُحْشًا . وأخبرَ بحُسن مَنظرها ، وطِيب طَعْمها ومَخبرها، فقال:﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ للشاربين(٤٦)لا فِيها غَوْلٌ ولا هُم عَنها يُنزَفُون (٤٧) ﴾[الصَّافَّات]. وقال: ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنزِفُون ﴾ [الواقعة: ١٩]. وقال هھُنا: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيها كَأسًا لا لَغْوٌ فِيها ولا تأثيمٌ ﴾)) .

---

٩٣ رواه ابن ماجة في سُننه(٢/ ١٠٩٩).قال العجلوني في كشف الخفاء(١٧٣/١):((رواه ابن ماجة وابن أبي الدُّنيا بسند ضعيف بَل موضوع بلفظ: "سَيِّد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم"، لكن له شواهد)).

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٠):((﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ يَتَعَاطَوْنَ ويتناولون ﴿ فِيها كَأسًا لا لَغْوٌ فِيها ﴾ ، وهو الباطل.ورُوِيَ ذلك عن قَتادة. وقال مُقاتل بن حَيَّان: لا فُضول فيها. وقال سعيد ابن المُسيِّب: لا رَفَثَ فيها. وقال ابن زيد: لا سِباب ولا تخاصُم فيها. وقال القُتَيبي: لا تذهب عقولهم فَيَلْغُوا ويَرْفُثُوا ، ﴿ ولا تأثيمٌ ﴾ ، أي : لا يَكون مِنهم ما يُؤْثِمهم . قال الزَّجاج : لا يَجْري بينهم ما يَلْغي ، ولا ما فيه إثم ، كما يَجْري في الدُّنيا لشَرَبة الخمر . وقيل : لا يَأثَمون في شُربها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِم غِلْمَانٌ لَهُم كَأنَّهُم لُؤْلُؤٌ مَكْنُون ﴾ [الطُّور : ٢٤] .

ويَطُوف على المؤمنين في الجَنَّة للخِدمة غِلْمان مَماليك مُخصَّصون لخدمتهم وتَلبية طلباتهم والعمل على راحتهم ، حَيث يُقدِّمون لهم الطعام والشراب والفواكه وغَير ذلك . كأنَّ الغِلْمانَ في الجَمَال والحُسن والبَهاء والبَياض والصفاء والنظافة لُؤْلُؤٌ مَصُون ومَستور في الصَّدَف ، لم تَمَسَّه الأيدي ، لأنَّه رَطْبًا أحسن وأصفى . أو مَخزون ، لأنه لا يُخزَّن إلا الشَّيء الثمين الغالي القيمة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦١) : ((قِيل : هُم الأطفال مِن أولادهم الذين سَبَقُوهم ، فأقرَّ اللهُ تعالى بهم أعينَهم . وقِيل : إنهم مَن أخدمهم اللهُ تعالى إيَّاهم مِن أولاد غَيْرهم . وقِيل : هُم غِلْمان خُلِقوا في الجَنَّة . قال الكلبي : لا يَكْبُرون أبَدًا)) .

إنَّ اللهَ يَخلُق هؤلاء الغِلْمان كالحُور العِين في الجَنَّة خَدَمًا لأهلها.ولا يُعقَل أن يكونوا أولادَهم، لأنَّ مِن إكرام الله لهم ، وتمام نِعمته ، أن يَجعل المؤمنين وأولادَهم مَخدومين معًا ، ولا يَجعلهم خدمًا لهم . وليس في الجَنَّة تعب ، ولا حاجة إلى خِدمة ، ولكنَّه إخبار عن نهاية النَّعيم والمُتعة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٠): ((﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِم ﴾ بالخِدمة ﴿ غِلْمَانٌ لَهُم كَأنَّهُم ﴾ في الحُسن والبَياض والصَّفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُون ﴾ مَخزون مَصُون ، لم تَمَسَّه الأيدي . قال سعيد ابن جُبَير : يعني في الصَّدَف . قال عبد الله بن عُمر : وما مِن أحد مِن أهل الجَنَّة إلا يَسعى عليه ألف غُلام ، وكُل غُلام على عَمل ما عليه صاحبه . ورُوِيَ عن الحسن أنَّه لَمَّا تلا هذه الآية قال: قالوا يا رسول الله : الخادم كاللؤلؤ المَكنون ، فكيف المَخدوم ؟ . وعن قَتادة أيضًا قال : ذُكِرَ لنا أن رَجُلًا قال: يا نَبِيَّ الله ، هذا الخادم ، فكيف المَخدوم ؟ ، قال : " فَضْلُ المَخدوم على الخادم ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ")) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَة ﴾ [الحَاقَّة : ٢١] . المُؤمِنُ في عِيشة هنيئة مَرْضِيَّة (ذات رِضَا) لا مَكروهة ، يَرضى بها ، ويَفرح بنعيمها،لكَوْنها جميلة ورائعة وعظيمة ، وصافية بلا شوائب ولا مُشكلات ولا مُنغصِّات ولا مصائب. والمقصودُ هو المؤمن صاحب العِيشة لا العِيشة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٦) : ((﴿ فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَة ﴾ ، أي: في عَيْش يَرضاه ، لا مَكْرُوه فيه ، أي : مَرْضِيَّة قد رَضِيتُها . وقال أبو عُبَيد والفَرَّاء : ﴿ رَاضِيَة ﴾ ، أي : مَرْضِيَّة ، كقَوْلك : ماء دافق ، أي مَدْفُوق . وقِيل : ذات رِضا، أي: يَرْضَى بها صاحبُها، مِثل: لابن وتامر، أي: صاحب اللبن والتَّمْر. وفي الصحيح: عن النبيِّ ﷺ " أنهم يَعيشون فلا يموتون أبدًا ، ويَصِحُّون فلا يَمرَضون أبدًا ، ويَنعَمون فلا يَرَوْنَ بُؤْسًا أبدًا ، ويَشِبُّون فلا يَهرَمون أبدًا ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَة ﴾ [الحَاقَّة : ٢٢] .

في جَنَّة عظيمة في النُّفُوس ، جليلة القَدْر ، رفيعة الشأن ، عالية المَنازل، مُرتفعة المكان لأنها في السماء ، ومُرتفعة الدرجات والقُصور . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٣) : ((أي : رَفيعة قُصورها ، حِسَان حُورها ، نعيمة دُورها ، دائم حُبُورها)) .

وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:((الجَنَّة مائة درجة، بَيْن كُل دَرَجَتَيْن كما بين السماء والأرض، والفِرْدَوْسُ مِن أعلاها دَرَجَة ، ومِنها تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّة، فإذا سألتم اللهَ فاسألوه الفِرْدَوْس)) [٩٤].

هذا يدل على عَظَمَة الله الخالق ، وقُدرته المُطْلقة على الخَلْق والإبداع والإيجاد ، كما يدل على رِفعة شأن الجَنَّة وعظيمِ قَدْرها . فهناك درجات مُتفاوتة بحَسَب أعمال العباد ، وجَنَّات كثيرة مُتعدِّدة مُختلفة في المكانة . ودُخول الجَنَّة إنما هو برحمة الله وفضله ، وليس بعمل العبد . والعبدُ يَحصل على درجته حَسَب عمله ، وما قدَّمه في الدُّنيا من عبادات وطاعات .

وجَنَّةُ الفِرْدَوْس هي أعظمُ الجَنَّات لأنها تحت عرش الله . ومِنها تنشقُّ أُصول الأنهار الأربعة مِن الماء واللبن والخَمْر والعسل . وعلى المؤمن أن يَطلب مِن الله الفِرْدَوْس لأنها أفضل الجَنَّات وأعلاها . وهذا يدل على هِمَّة المؤمن ، وطُموحه ، وسَعْيه وراء الأفضل والأحسن .

والجَنَّةُ ذات درجات مُختلفة ومُتفاوتة ، بعضها أرفع مِن بعض . وهذا المعنى الحقيقي. وهو يتَّفق مع المعنى المَجَازي والرِّفعةِ المعنوية،حيث إن الجَنَّة تمتاز بكثرة النعيم. والمَعْنَيَان مَقصودان.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٢٨) : ((قال القاضي عِياض رضي اللهُ عنه : يُحتمل أن هذا على ظاهره ، وأن الدرجات هُنا المنازل التي بعضها أرفع من بعض في الظاهر . وهذه صِفة منازل الجَنَّة ، كما جاء في أهل الغُرَف أنهم يَتَرَاءَوْنَ كالكَوكب الدُّرِّي . قال: ويُحتمل أن المراد الرِّفعة بالمعنى مِن كثرة النعيم ، وعظيم الإحسان ، مِمَّا لم يَخطُر على قلب بَشَر

---

٩٤ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٥٣) برقم (٢٦٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ولا بصِفة مخلوق ، وأن أنواع ما أنعمَ اللهُ به عليه مِن البِر والكرامة يتفاضل تفاضلًا كثيرًا ، ويكون تباعده في الفضل كما بين السماء والأرض في البُعد . قال القاضي : والاحتمال الأول أظهر ، وهو كما قال . والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَة ﴾ [الحَاقَّة : ٢٣] .

ثمرُ الجَنَّة قريبٌ، يتناوله المُؤمن كَيْف شاء، قائمًا أو قاعدًا أو مُضْطَجِعًا(على أيَّة حال كان). وبعبارة أُخرى، ثمرُ الجَنَّة قريبٌ مِمَّن يَتناوله، لا شيء يَمنعه، ولا يُضايقه شَوْك ، ولا تعب ولا مَشَقَّة في الحُصول عليه . والقُطُوفُ جَمْع قِطْف ، وهو ما يُقْطَف مِن الثِّمار كالعُنقود .

وعن أنس بن مالك قال : بَيْنَما النبيُّ ﷺ يُصلِّي ذَاتَ لَيْلة صلاةً إذْ مَدَّ يَدَهُ ثُمَّ أخَّرها ، فقُلنا : يا رسول الله ، رَأيناكَ صَنَعْتَ في هذه الصلاة شيئًا لَم تكن تَصنَعه فِيما قَبْله ؟ ، قال : ((أجَل ، إنَّه عُرِضت عليَّ الجَنَّة ، فرأيتُ فيها دَالِيَةً قُطُوفُها دَانِيَة ، فأردتُ أن أتناولَ مِنها شيئًا ، فَأُوحِيَ إلَيَّ أن اسْتَأخِرْ فَاسْتَأخَرْتُ ، ...)) [٩٥].

هذا يدل على عَظَمَة الجَنَّة ، ونعيمها الباهر ، ولَذَّتها الدائمة ، ومُتعتها الفائقة . حيث إن ثمرها قريبٌ مِن المؤمن، وفي مُتناول يده ، بلا تعب ولا إرهاق ولا مَشَقَّة ولا بَذل جُهد ولا عوائق.

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢١٨) : ((وقَوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَة ﴾ . يَقول : ما يُقطَف مِن الجَنَّة مِن ثِمارها دَانٍ قَريب مِن قَاطفه . وذُكِرَ أن الذي يُريد ثَمَرَها يتناوله كيف شاء ، قائمًا وقاعدًا، لا يَمنعه مِنه بُعْد، ولا يَحُول بَينه وبَينه شَوْك)) اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٥٣٣): ((وقَوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَة ﴾ . قال البَرَاء بن عَازِب : أي قَرِيبة يَتَنَاولها أحَدُهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غَير واحد)) اهـ . وفي التَّسهيل لعلوم التَّنزيل (٤/ ١٤٣) : ((رُوِيَ أن العبد يأخذها بفمه _ يعني القُطُوف _ مِن شجرها ، وهو قائم ، أو قاعد ، أو مُضْطَجِع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أسْلَفْتُم في الأيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ [الحَاقَّة : ٢٤] .

يُقَال لهم تفضُّلًا وإحسانًا وإنعامًا وتكرُّمًا:كُلوا واشرَبوا في الجَنَّة أكلًا وشُربًا هنيئًا،لا تَكْدير فيهما ولا تَنغيص ، ولا مَكروه ، ولا أذى ، بسبب ما قدَّمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة (العبادات والطاعات) في الدُّنيا.والجديرُ بالذِّكر أن دُخول الجَنَّة إنما يَكون برحمة الله وفضله ، وليس بأعمال العبد،ولكن أعمال العبد سبب ظاهري لدُخول الجَنَّة.ورحمةُ اللهِ المَخصوصةُ لا تَكون إلا للطائعين.

٩٥ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٠٣) برقم (٨٤٠٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن أبي هُرَيرة_رضي اللهُ عنه_قال:قال رسول الله ﷺ:((لَن يُدْخِلَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُه الجَنَّةَ)). قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ . قال : ((ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ مِنه بفضلٍ ورحمة)) [٩٦].

إنَّ عمل الإنسان وَحْدَه لا يُؤهِّله لدُخول الجَنَّة ، ولا يَجعله مُستحِقًّا لها ، لأنه لا يُكافِئ نِعَمَ الله على الإنسان. والأعمالُ الصالحةُ إنما هي بفضل الله وتوفيقه، وليست بذكاء الإنسان ومهاراته. ودُخول الجَنَّة إنما هو بفضل الله ورحمته ، والعملُ سبب ظاهري لا يقوم بنفْسه ، وإنما يتوقف على توفيق الله وهدايته . ومعنى " يَتَغَمَّدَني " يَغمُرني ويَستُرني .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢١٨) : ((وقَوله : ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا ﴾ . يقول لهم رَبُّهم جَلَّ ثناؤه : كُلُوا مَعْشَرَ مَن رَضِيتُ عَنه ، فأدخلتُه جَنَّتي ، مِن ثِمارها وطِيب ما فِيها مِن الأطعمة، واشرَبوا مِن أشربتها ، هنيئًا لكم ، لا تَتَأذَّوْنَ بِما تَأكلون ولا بما تَشربون ، ولا تحتاجون مِن أكل ذلك إلى غائط ولا بَوْل ، ﴿ بِمَا أسْلَفْتُم في الأيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ . يقول: كُلُوا واشرَبوا هنيئًا ، جَزَاءً مِن الله لكم ، وثوابًا بما أسلفتُم ، أو على ما أسلفتُم ، أي : على ما قَدَّمْتُم في دُنياكم لآخرتكم ، مِن العمل بطاعة الله في الأيام الخالية . يقول : في أيام الدُّنيا التي خَلَتْ فَمَضَتْ ... عن قَتادة : قال الله : ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أسْلَفْتُم في الأيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ ، إنَّ أيامكم هذه أيام خالية ، هي أيام فانية ، تُؤَدِّي إلى أيام باقية ، فاعملوا في هذه الأيام ، وقَدِّمُوا فيها خَيْرًا إن استطعتُم ، ولا قُوَّةَ إلا بالله ... . قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ بِمَا أسْلَفْتُم في الأيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ ، قال: أيَّام الدُّنيا بِمَا عَمِلُوا فِيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ [القِيامة : ٢٢] .

وُجوه المؤمنين المُخلِصين أهل السَّعادة يَوم القِيامة بَيضاء مُشرقة مُضيئة حسنة جميلة ناعمة ، مِن أثر النعيم والسُّرور والهَنَاء .

والمُراد بالوُجوه الذوات . وخُصَّت الوُجوه بالذِّكر لشرفها ومكانتها ، وظُهور أثر النِّعمة والفرح عليها . ومَحاسنُ الإنسان مُجتمعة في وَجْهه . والنَّضْرَةُ هي بَهَاءُ الوَجْهِ وجَمَال البَشَرَة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٤) : ((﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ . قال ابن عباس : حَسَنَة . وقال مُجاهد : مَسرورة . وقال ابن زَيد : ناعمة . وقال مُقاتل : بِيض يَعْلُوها النُّور . وقال السُّدي : مُضيئة . وقال يَمَان : مُسْفِرة . وقال الفَرَّاء : مُشْرِقة بالنَّعيم)) .

---

٩٦ متفق عليه . مسلم (٤/ ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦)، والبخاري (٥/ ٢١٤٧) برقم (٥٣٤٩) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلى ربِّها نَاظِرَةٌ ﴾ [القِيامة : ٢٣] [٩٧].

٩٧ رؤية الله ثابتة في الآخِرة ، ومُستحيلة في الدُّنيا. ورُؤيةُ الله قد طَلَبَها مُوسى ﷺ فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣]. ولم تَنْزِل عليه صاعقة، ولم يَحْدُث له شيء. ولو كانت الرؤية مُستحيلة لَمَا طَلَبَها أعظم أنبياء بني إسرائيل،مُوسى ﷺ كليم الله،وهو ــ في زمانه ــ أعْلم أهل الأرض بالله تعالى. وعن جرير بن عبد الله قال: قال النبيُّ ﷺ:((إنكم سَتَرَوْنَ رَبَّكم عِيَانًا))[متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٠٣) ، ومسلم (١/ ٤٣٩)] . ورؤيةُ الله في الآخِرة ثابتة نَقْلًا وعَقْلًا، من غير تحديد ، ولا تكييف ، ولا تحيُّز . واللهُ مَوجود لا كالموجودات ، ومَعْلوم لا كالمعلومات ، وهو مرئيٌّ لا كالمرئيات . وقال الأشعري في الإبانة (١/ ٤٨) : ((فإن قال قائل : قد استكبرَ اللهُ تعالى سؤالَ السائلين له أن يُرى بالأبصار فقال: ﴿ يَسألُكَ أهلُ الكتابِ أن تُنزِّلَ عَلَيهِم كِتابًا مِنَ السماءِ فقد سألوا مُوسَى أكبرَ مِن ذلكَ فقالوا أرِنا اللهَ جَهْرَةً ﴾ . فيُقال لهم : إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ على طريق الإنكار لِنُبُوَّة مُوسى ﷺ ، وتركِ الإيمان به حتى يَرَوا اللهَ ، لأنهم قالوا : ﴿ لَن نُؤمِنَ لَكَ حتى نرى اللهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] . فلمَّا سألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموسى ﷺ، حتى يُرِيَهم اللهُ نَفْسَه ، استعظم اللهُ سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليهم ، كما استعظم سؤالَ أهل الكتاب أن يُنَزِّل عليهم كتابًا مِن السَّماء، مِن غَير أن يكون ذلك مُستحيلًا . ولكن لأنهم أبَوا أن يُؤمنوا بنبيِّ الله حتى يُنَزِّل عليهم من السماء كتابًا))اهـ. وفي فتح الباري(١٣/ ٤٢٦):((وقال ابن بطَّال : ذَهَبَ أهل السُّنة وجمهور الأُمَّة ، إلى جَواز رؤية الله في الآخِرة، ومنعَ الخوارجُ والمعتزِلة وبعض الْمُرجِئة ، وتمسَّكوا بأن الرؤية تُوجِب كَوْن المرئي مُحْدَثًا ، وحَالًّا (بتشديد اللام) في مَكان ، وأوَّلوا قَوْلَه : ﴿ ناظِرة ﴾ [القِيامة : ٢٣] بِمُنْتَظِرة ، وهو خطأ لأنه لا يتعدَّى بإلى ...، ثُمَّ قال: وما تمسَّكوا به فاسد، لقيام الأدلة على أن الله تعالى موجود ، والرؤية في تعلُّقها بالمرئي بمنْزلة العِلْم في تعلُّقه بالمعلوم، فإذا كان تعلُّق العِلْم بالمعلوم لا يُوجب حُدوثَه، فكذلك المرئي. قال: وتعلَّقوا بقَوْله تعالى:﴿ لا تُدرِكُهُ الأبصارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وبقَوْله تعالى لموسى : ﴿ لَن تراني ﴾ [الأعراف : ١٤٣] . والجواب عن الأول أنه لا تُدركه الأبصار في الدنيا جمعًا بين دليلَي الآيتَيْن ، وبأن نفْي الإدراك لا يَستلزم نَفْيَ الرؤية ، لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطة بحقيقته . وعن الثاني : المراد لن تراني في الدنيا جمعًا أيضًا، ولأن نَفْيَ الشيء لا يَقتضي إحالته مَعَ ما جاء من الأحاديث الثابتة على وَفق الآية ، وقد تلقَّاها المسلمون بالقَبول مِن لَدُن الصحابة والتابعين ، حتى حَدَثَ مَن أنكرَ الرؤيةَ ، وخالَفَ السَّلَفَ . وقال القرطبي: اشترط النُّفاةُ في الرؤية شروطًا عقلية، كالبُنية المخصوصة، =

تَنظُر إلى الله خالقها ومالك أمرها، وتَراه عِيَانًا في الآخرة . وأعظمُ نعيم وأفضل كرامة للمؤمنين في الجَنَّة، رؤيةُ الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، بلا حِجَاب ولا كَيْف ولا تحيُّز ولا على جهة.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٥) : ((قال ابن عباس : وأكثر الناس تنظُر إلى ربِّها عِيَانًا بلا حِجاب. قال الحَسَن : تَنظُر إلى الخالق ، وحُق لها أن تَنضُر، وهي تَنظُر إلى الخالق)) .

وأنكرَ المُعتزلةُ رُؤيةَ الله تعالى في الآخرة ، وأَوَّلوا الآية ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ بمعنى مُنتظرة ، تنتظر ثوابَ ربِّها . وهذا التأويل باطل . ووَفْق قواعد اللغة العربية ، نَظَرْتُ إلى فُلان ، يعني : رَأيْتُه رُؤية عَيْن . أَمَّا نَظَرْتُهُ ، فيعني : انتَظَرْتُه . ولا يتعدَّى بحَرف الجَر " إلى " إلا بمعنى الرُّؤية . وأيضًا ، لا يَليق الانتظار للمؤمنين في الآخِرة، لأن الله يُكرِم عبادَه المؤمنين الصالحين،ولا يَتركهم يَنتظرون ويُعانون.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٧٧) : ((وقد ثَبتت رؤيةُ المؤمنين لله عَزَّ وَجَلَّ في الدَّار الآخرة في الأحاديث الصِّحاح مِن طُرق مُتَوَاترة عند أئمة الحديث ، لا يُمكن دفعها ولا منعها... . وهذا بحمد الله مُجمَع عليه بين الصحابة والتابعين وسَلَف هذه الأُمَّة ، كما هو مُتَّفق عليه بَيْن أئمة الإسلام وهُداة الأنام)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلى رَبِّهَا ﴾ إلى خالقها ومالكها ، ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ ، أي : تنظُر إلى ربِّها ، على هذا جُمهور العلماء . وفي الباب حديث صُهَيب خرَّجه مُسلِم، وقد مضى في يُونُس عِند قَوله تعالى: ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يُونُس: ٢٦]. وكان ابن عُمر يقول: أكرمُ أهلِ الجَنَّة على الله مَن يَنظُر الى وَجْهه غُدْوَةً وعَشِيَّةً، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القِيامة] . وروى يزيد النَّحْوي عن عِكرمة قال: تنظُر إلى ربِّها نَظَرًا . وكان الحسن يَقول : نَضَرَتْ وُجُوهُهم ، ونظروا إلى ربِّهم. وقِيل : إن النظر هُنا انتظار ما لهم عِند الله مِن الثواب . ورُوِيَ عن ابن عمر ومُجاهد . وقال عِكرمة : تنتظر أمرَ ربِّها ، حكاه الماوردي عن ابن عُمر وعِكرمة أيضًا . وليس معروفًا إلا عن مجاهد وَحْدَه ، واحْتَجُّوا بقَوله تعالى : ﴿ لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] . وهذا القَول ضعيف جدًّا خارج عن مُقتضى ظاهر الآية والأخبار... . قال الثعلبي : وقَول مُجاهد أنها بمعنى:

=والْمُقابَلة ، واتِّصال الأشعة، وزوال الموانع كالبُعد والحُجُب في خَبْط لهم وتحكُّم.وأهل السُّنة لا يَشترطون شيئًا مِن ذلك سِوى وجود المرئي ، وإن الرؤية إدراك يَخلقه اللهُ تعالى للرائي فيرى المرئيَّ ، وتَقترن بها أحوال يَجوز تبدُّلها، والعِلْمُ عند الله تعالى)) .

تنتظر الثوابَ مِن ربِّها ، ولا يَراه شَيء مِن خَلْقِه ، فتأويل مَدخول ، لأن العرب إذا أرادت بالنَّظَر الانتظار ، قالوا : نَظَرْتُهُ ، كما قالَ تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إلا السَّاعَةَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٦]. ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إلا تَأوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] . و ﴿ ما يَنظُرُونَ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس : ٤٩] . وإذا أرادت به التفكُّر والتدبُّر ، قالوا : نَظَرْتُ فِيه . فأمَّا إذا كان النظر مَقرونًا بذِكْر " إلى " وذِكْر الوَجْه، فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان . وقال الأزهري : إن قَول مُجاهد تنتظر ثواب ربِّها خطأ، لأنه لا يُقال: نَظَرَ إلى كذا، بمعنى الانتظار. وإن قول القائل : نَظَرْتُ إلى فُلان ليس إلا رؤية عَيْن . كذلك تَقوله العرب، لأنهم يَقولون : نَظَرْتُ إليه ، إذا أرادوا نَظَرَ العَيْن ، فإذا أرادوا الانتظار، قالوا: نَظَرْتُهُ . قال : فإنَّكما إن تنظُراني ساعةً ... مِن الدهر تَنفعني لدى أُمِّ جُندُبِ . لمَّا أراد الانتظار قال : تنظُراني ، ولَم يَقُل : تنظُران إلَيَّ . وإذا أرادوا نَظَرَ العَيْن ، قالوا : نَظَرْتُ إلَيه . قال : نَظَرْتُ إلَيها والنُّجوم كأنَّها ... مَصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ (يعني الراجعين من أسفارهم) . وقال آخَر : إنِّي إلَيكَ لِمَا وَعَدتَ لَنَاظِرٌ ... نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ . أي : إنِّي أنظر إليك بذُل ، لأن نظر الذُّل والخضوع أرق لقلب المسؤول . فأمَّا ما استدلوا به مِن قَوله تعالى : ﴿ لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإنَّما ذلك في الدُّنيا... . وقال عطية العَوفي: يَنظرون إلى الله، لا تُحِيط أبصارُهم به مِن عَظَمَته ، ونظره يُحِيط بها ، يَدُل عليه : ﴿ لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] . قال القُشَيري أبو نصر : وقِيل : ... والمُنتظِر للشيء مُتنغِّص العَيش ، فلا يُوصَف أهل الجَنَّة بذلك)) .

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٦٠٨ و٦٠٩) : ((وقال عِياض : رُؤية الله سُبحانَه وتعالى جائزة عَقْلًا ، وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخِرة ، وأمَّا في الدُّنيا، فقال مالك : إنَّما لَم يُرَ سُبحانَه في الدُّنيا ، لأنَّه باقٍ ، والباقي لا يُرى بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصارًا باقية رَأَوا الباقي بالباقي . قال عِياض : وليس في هذا الكلام استحالة الرُّؤية إلا مِن حيث القُدرة ، فإذا قَدَّرَ اللهُ مَن شاء مِن عِباده عليها لم يمتنع . قُلْتُ : ووقع في صحيح مسلم ما يُؤَيِّد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه : " واعلموا أنكم لن تَرَوْا رَبَّكم حتى تموتوا " ، وأخرجه ابن خُزَيمة أيضًا مِن حديث أبي أُمَامة ، ومِن حديث عُبادة بن الصامت ، فإن جَازت الرُّؤية في الدنيا عَقْلًا ، فقد امتنعت سَمْعًا ، لكن مَن أثبتها للنبيِّ ﷺ له أن يقول : إن المُتكلِّم لا يَدخل في عُموم كَلامه. وقد اختلف السَّلَف في رؤية النبيِّ ﷺ رَبَّه ، فذهبت عائشة وابن مسعود إلى إنكارها، واختلف عن أبي ذَر . وذهب جماعة إلى إثباتها . وحكى عبد الرَّزاق عن مَعْمَر عن الحسن أنَّه

حَلَفَ أن مُحَمَّدًا رأى رَبَّه ، وأخرج ابن خُزَيمة عن عُروة بن الزُّبَيْر إثباتها ، وكان يَشتد عليه إذا ذُكِرَ له إنكار عائشة ، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس ، وجَزَمَ به كعبُ الأحبار والزُّهري وصاحبه مَعْمَر وآخرون ، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه ، ثُم اختلفوا : هل رآه بعَيْنه أو بقَلْبه ، وعن أحمد كالقولَيْن)) .

وعن جرير بن عبد الله ـرضي اللهُ عنه_ قال: كُنَّا جُلوسًا عِندَ رسول الله ﷺ، إذْ نَظر إلى القمر ليلة البَدْر، فقال: ((أمَا إنكم سَتَرَوْنَ رَبَّكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، لا تَضَامُّونَ في رُؤيته)) [٩٨].

إنَّ المؤمنين سَيَرَوْنَ اللهَ في الآخِرة . و" كما تَرَوْنَ هذا القمر " لا تعني أن اللهَ تعالى يُشبِه القمرَ ، والعِياذُ بالله . ولكن المعنى أنَّ الرؤية تكون واضحةً ويقينية بلا شَك ولا لَبْس ولا غَبَش ، كما تَرَوْنَ هذا القمرَ بوضوح ، ولا تَشْتَبِه عليكم الرُّؤية ، ولا تَشُكُّون في الأمر .

و" لا تَضَامُّون في رؤيته " تَنفي الازدحام عِند الرؤية ، والمعنى : لا يَنْضَمُّ بَعضُكم إلى بَعْض وتَزْدَحِمون وقتَ النَّظَر إلَيه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٣٤) : ((والرُّؤية مُختصَّة بالمؤمنين ، وأمَّا الكُفَّار فلا يَرَوْنَه سُبحانَه وتعالى . وقِيل : يَراه مُنافقو هذه الأُمَّة ، وهذا ضعيف. والصحيح الذي عليه جمهور أهل السُّنة أن المُنافقين لا يَرَوْنَه ، كما لا يَراه باقي الكُفَّار باتفاق العلماء)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٦٣) : عن صُهَيب عن النبيِّ ﷺ قال : ((إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، قال : يَقول اللهُ تباركَ وتعالى : تُريدون شيئًا أزيدكم ؟ ، فيقولون : ألَم تُبَيِّضْ وُجُوهَنا ؟ ، ألَم تُدْخِلْنا الجَنَّةَ ، وتُنَجِّنا مِن النار ؟ . قال : فيَكشِف الحِجَابَ ، فما أُعْطُوا شيئًا أحبَّ إلَيهم مِن النَّظَرِ إلى ربِّهم عَزَّ وَجَلَّ)) .

هذا يدل على رحمة الله بالمؤمنين ، وفضله عليهم ، وإحسانه إلَيهم . فقد عاملهم بما هُوَ أهْلُه ، وأكرمهم ، وشرَّفهم بالنَّظَر إلى وجهه الكريم . وهذه هي الكرامة العُظمى ، والمجد الباقي . واللهُ لا يَحجُبه شَيء ، ولا يَمنعه شيء . والمعنى إن الله قوَّى أبصارَهم وقلوبَهم، وأزالَ مانعَ الرُّؤية، وسَمَحَ لهم برُؤيته ، وشرَّفهم بهذه المَكْرُمَة العظيمة ، تفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم . وليس المعنى أن هناك حِجَابًا يُغطِّي على الله تعالى ، أو يَحصُره ، أو يُحيط به . وقد كان النبيُّ ﷺ يُخَاطِب العربَ بما تَفهَم، ويُقَرِّب لهم الأشياء المعنوية إلى الحِس ، كي يصل المعنى إلى عقولهم.

---

٩٨ متفق عليه . مسلم (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣) ، والبخاري (١/ ٢٠٩) برقم (٥٤٧) .

واللهُ مُنَزَّهٌ عن المكان ، فلا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياءُ فيه . فقد ثبتت استحالةُ أن يكون اللهُ جِسْمًا، أو حَالًّا في مكان . لذلك، لا معنى للتعلُّق بمِثْل هذه الأحاديث لإثبات المكان.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٣٣) : ((قال القرطبي : ... ، مُقْتَضَى عِزَّة الله واستغنائه أن لا يَراه أحد ، لكن رحمته للمُؤمنين اقتضت أن يُرِيَهم وَجْهَه كَمَالًا للنِّعمة ، فإذا زال المانعُ ، فَعَلَ مَعَهم خِلاف مُقْتَضَى الكِبرياء ، فكأنه رَفَعَ عَنهُم حِجَابًا كان يَمْنَعُهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ [عَبَسَ : ٣٨] .

هؤلاء المؤمنون أهل السَّعادة في يوم القِيامة . وُجُوههم في ذلك اليوم مُضيئة مُشرقة مِن البَهجة والفرح والسُّرور ، بسبب عبادتهم وطاعتهم وأعمالهم الصالحة في الدُّنيا . قد عَلِمُوا أنهم فازوا بالجَنَّة ، وأن لهم النعيم والكرامة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٥٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وُجوه يَومئذ مُشرقة مُضيئة ، وهي وجوه المؤمنين الذين قد رَضِيَ اللهُ عَنهُم . يُقال : أسفرَ وَجْهُ فُلان : إذا حَسُنَ ، ومنه أسفرَ الصُّبْحُ : إذا أضاءَ . وكُل مُضِيء فهو مُسْفِر. وأمَّا سَفَرَ بغير ألف،فإنَّما يُقال للمرأة إذا ألقت نِقابَها عن وَجهها أو بُرقعها . يُقال : قد سَفَرَت المرأةُ عَن وجهها ، إذا فعلت ذلك ، فهي سَافِر)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾[عَبَسَ: ٣٩]. فَرِحَة بما نالته مِن الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ومَسرورة بما رَأتْهُ مِن كرامة الله ورِضوانه ، ومُسْتَبْشِرة بالنعيم الدائم والبهجة الأبدية. وهؤلاء هُم المؤمنون أهل الجَنَّة، قلوبُهم عامرة بالسعادة، والإشراق ظاهر على وُجوههم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٦): ((قَوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ ، أي : مُضيئة ، قد عَلِمَتْ ما لها مِن الخَير ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ لسرورها ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ ، أي : فَرِحَة بما نالها مِن كَرامة الله عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٢٦) : ((قال بَعْضُ العارفين : التَّبَسُّم والبِشْر مِن آثار أنوار القلب ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاليَوْمَ الذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون ﴾ [المُطَفِّفين : ٣٤] .

في يوم القِيامة يَضحك المؤمنون الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، مِن الكُفَّار، حِين يَرَوْنهم أذِلَّاء صاغرين مَغلوبين مقهورين في عذاب النار ، قد أصابهم الذُّل بعد العِز ، والصَّغار بعد الاستكبار ، والعذاب بعد النعيم . وقِيل: يُفْتَح للكُفَّار باب إلى الجَنَّة ، ويُطلَب مِنهُم أن يَخرجوا إلَيها،فإذا وَصلوا إلى الباب، أُغْلِق أمامهم، فيَضحك المؤمنون مِنهُم،كما ضَحِكَ الكُفَّارُ مِنهُم في الدُّنيا.والجَزاءُ مِن جِنس العمل.ومَن يَضحك أخيرًا يَضحك كثيرًا.والعِبرةُ بالخواتيم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((﴿ فاليَوْمَ ﴾ يعني في الآخِرة ﴿ الذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون ﴾ . قال أبو صالح : وذلك أنه يُفتَح للكُفَّار في النار أبوابها ، ويُقال لهم : اخْرُجوا ، فإذا رَأَوْها مفتوحةً ، أقْبَلُوا إليها لِيَخرجوا ، والمؤمنون ينظرون إلَيهم ، فإذا انتهَوْا إلى أبوابها غُلِّقَت دُونَهم ، يُفعَل ذلك بهم مِرارًا ، والمؤمنون يَضحكون . وقال كَعْب: بين الجَنَّة والنار كُوَى (نوافذ صغيرة) ، فإذا أراد المؤمن أن يَنظر إلى عَدُوٍّ له كان في الدُّنيا ، اطَّلَعَ عليه من تلك الكُوَى ، كما قال : ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ في سَوَاءِ الجَحِيمِ ﴾ [الصَّافَّات : ٥٥] . فإذا اطَّلَعُوا مِن الجَنَّة إلى أعدائهم وهُم يُعذَّبون في النار ، ضَحِكوا ، فذلك قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فاليَوْمَ الذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون ﴾)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٧٠) : ((﴿ فاليَوْمَ الذينَ آمَنُوا ﴾ المُراد باليَوم : اليَوم الآخِر ﴿ مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون ﴾ . والمعنى : أن المؤمنين في ذلك اليوم يَضْحَكون مِن الكُفَّار حِين يَرَوْنَهم أذِلَّاء مَغلوبين ، قد نَزَلَ بِهم ما نَزَلَ مِن العذاب ، كما ضَحِكَ الكُفَّارُ مِنهُم في الدُّنيا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلى الأرائكِ يَنظُرُون ﴾ [المُطَفِّفين : ٣٥] .

المؤمنون في الجَنَّة على أسِرَّة الدُّر والياقوت آمِنُون فَرِحُون ، يَنظرون مِن منازلهم إلى أعدائهم الكافرين في النار ، وهُم يُعذَّبون ، ويَضحكون مِنهُم ، كما ضَحِكَ الكُفَّارُ مِنهُم في الدُّنيا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٧٠) : ((وجُملة ﴿ عَلى الأرائكِ يَنظُرُون ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال مِن فَاعِل ﴿ يَضْحَكُون ﴾ ، أي : يَضْحَكُون مِنهُم ناظرين إلَيهم ، وإلى ما هُم فيه مِن الحال الفظيع ... . قال الواحدي : قال المُفسِّرون : إن أهل الجَنَّة إذا أرادوا نظروا مِن منازلهم إلى أعداء الله ، وهُم يُعذَّبون في النار ، فضحكوا مِنهُم كما ضَحِكوا مِنهُم في الدُّنيا . وقال أبو صالح : يُقال لأهل النار : اخرُجوا ، ويُفتَح لهم أبوابها ، فإذا رَأَوْهَا قد فُتِحت أقبلوا إليها يُريدون الخُروج ، والمؤمنون يَنظرون إلَيهم على الأرائك ، فإذا انتهَوْا إلى أبوابها غُلِّقَت دُونَهم ، فذلك قَوْله : ﴿ فاليَوْمَ الذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الانشقاق : ٧] .

فأمَّا مَن أُعْطِيَ كتابَ أعماله بيمينه،وهو المؤمن. وهذه علامة السعادة والسُّرور والفَوز بالجَنَّة .
وقال الطبري في تفسيره(١٢/ ٥٠٧):((يقول تعالى ذِكْرُه: فأمَّا مَن أُعْطِيَ كِتَابَ أعماله بيمينه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق : ٨] . فَسَوْفَ يَكون حِسابُه سهلًا بسيطًا هَيِّنًا ، لا مُنَاقَشَة فيه. يُجازى على حسناته ، وتُغفَر سَيِّئاته . وهذا هو العَرْض .

إن الحِساب اليسير هو عَرْض عمل العبد عليه ، بدُون مُناقشة. وبعد العَرْض يتجاوز اللهُ عنه ، ويَغفِر سيِّئاته، ومَن نُوقِش الحِساب عُذِّبَ وهَلَكَ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ، وهو أن تُعرَض عليه سَيِّئاته ، ثُمَّ يَغفِرها اللهُ له)) .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((مَن حُوسِبَ عُذِّبَ)) . قالت عائشة : فقلتُ : أوَلَيْسَ يقول اللهُ تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ . قالت : فقال : ((إنَّما ذلك العَرْض ، ولكن مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِك)) [٩٩].

مَن نُوقِشَ الحِساب ، ودُقِّقَ على أعماله ، كبيرها وصغيرها ، ولم يُسَامَح بشيء ، عُذِّبَ . والحِسَابُ هو طريق العذاب،وحَسَنَات العبد لا مَعنى لها إذا لم يَقبَلها اللهُ تعالى . وإذا لم يَرحم اللهُ العبدَ هَلَكَ ، وعُذِّبَ في النار . والإنسانُ بطبيعته مُقصِّر وكثير الذُّنوب وغارق في الآثام ، وعباداته وطاعاته فيها الكثير مِن النقص . والحِساب اليسير هو العَرْض على الله ثُمَّ المغفرة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ١٢٢) : ((والمراد هُنا المُبَالَغة في الاستيفاء. والمعنى: تحرير الحِساب يُفضي إلى استحقاق العذاب، لأن حسنات العبد مَوقوفة على القَبول، وإن لم تقع الرحمةُ المُقتضية للقَبول ، لا تَحصُل النَّجاة)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٨ و٢٠٩) : ((قَوله ﷺ : " مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يوم القيامة عُذِّبَ ". معنى" نُوقِش" استقصى عليه. قال القاضي: وقَوله : " عُذِّبَ" له مَعنيان أحدهما أن نَفْس المُنَاقَشَة وعَرْض الذُّنوب والتوقيف عليها هو التعذيب، لِمَا فيه مِن التَّوبيخ. والثاني أنه مُفْضٍ إلى العذاب بالنار. ويُؤَيِّده قَوله في الرواية الأُخرى : " هَلَكَ" مكان "عُذِّبَ"، هذا كلام القاضي . وهذا الثاني هو الصحيح ، ومعناه أن التقصير غالب في العباد ، فَمَن استقصى عليه ، ولم يُسَامَح هَلَكَ ، ودَخل النارَ ، ولكن الله تعالى يَعفو ، ويَغفِر ما دُون الشِّرْك لِمَن يَشاء)) .

وعن عائشة قالت : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقول في بَعْض صَلاته : ((اللهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا)) ، فلمَّا انصرفَ قُلْت : يا رسول الله ، ما الحِسَابُ اليَّسِير ؟ ، قال : ((يُنظَر في كتابه ، ويُتَجَاوَز عَنه)) [١٠٠].

---

٩٩ متفق عليه. البخاري (١/ ٥١) برقم (١٠٣) ، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤) برقم (٢٨٧٦) .

١٠٠ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٨٥) برقم (٩٣٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الحِسابُ اليَّسيرُ هو عَرْض ذُنوب العبد المؤمن على الله، والنظر في كتاب أعمال، ثُمَّ يَغفِر اللهُ له ، ويَتجاوز عنه .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ الله يُدْني المُؤمِنَ فيضع عليه كَنَفَه ، ويَستُره ، فيقول : أتعرِفُ ذَنْبَ كذا ، أتعرِفُ ذَنْبَ كذا ؟، فيقول: نعم، أي رَب، حتى إذا قرَّره بذُنوبه ، ورأى في نفْسه أنه هَلَكَ ، قال : سَتَرْتُهَا عليك في الدُّنيا ، وأنا أغفِرُها لَكَ اليَوْمَ ، فيُعطَى كِتَابَ حَسَنَاته)) [101] .

إنَّ اللهَ يُطلِع العبدَ المؤمن على مَعاصيه وذُنوبه يوم القيامة سِرًّا ، فضلًا مِنه ورحمة . واللهُ يُقَرِّبُ المؤمنَ ، فيضع عليه سِتْره وحِفْظه ، ويُقَرِّره بذُنوبه وآثامه ، ويعترف المؤمنُ بكل ذُنوبه ، بدون عِناد ولا تحايُل ولا إنكار ولا مُكَابَرَة . وعندئذ ، يُدرِك أنه مُستحق للعذاب على ذُنوبه ، وهالك لا مَحَالة . واللهُ يُبشِّره بمغفرة ذُنوبه يوم القيامة ، والسَّتْر عليه، وعدم فَضْحه، كما سَتَرَ ذُنوبَه في الدُّنيا ، ولم يَفضحه بها ، فيُعطَى كتاب حسناته، وهذه علامة السعادة والنجاة والفَوز بالجَنَّة. وهكذا، يَظهر فضل الله على العبد، ورحمته به ، وإحسانه إليه ، حيث سَتَرَ ذُنوبَه وآثامه ومعاصيه، ولم يَنشرها ، ولم يَفضحه أمام أهل الموقف . وعفا اللهُ عنه ، وغَفَرَ له ، وتَرَكَ مُحاسبته فضلًا مِنه.

والدُّنُوُّ (القُرب) في الحديث هو قُرب الإحسان والكرامة ، لا قُرب المسافة ، لأن الله مُنَزَّه عن المكان والمسافة ، والقُرب الماديِّ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٠١): (((إنَّ الله تعالى يُدْني المؤمنَ) أي يُقَرِّبه مِنه، (فيضع عليك كَنَفَه) أي سِتْرَه فيَحفظه (ويَستُره) به (مِن الناس) أهل المَوقِف صِيانةً له مِن الخِزْي والتَّفضيح . مُستعار مِن كَنَف الطائر ، وهو جَناحه يَصُون به نَفْسَه ، ويَستُر به بَيْضَه ، (ويُقَرِّره بذُنوبه) أي يَجعله مُقِرًّا بها بأن يُظْهِرها له ، ويُلْجِئه إلى الإقرار بها (فيَقول) تعالى له : (أتعرِفُ ذَنْبَ كذا أتعرِفُ ذَنْبَ كذا ؟) مَرَّتَيْن (فيقول) المُؤمن (نعم) أعرِفُه ، وفي رواية أعرف، (أي رَب) أي : يا رَب ، أعرِفُ ذلك . وهكذا كُلَّما ذَكَرَ له ذَنْبًا أقَرَّ به (حق إذا قرَّره بذُنوبه) أي جَعَلَه مُقِرًّا بها كُلِّها ، بأن أظهرَ له ذُنوبه، وألجأه إلى الإقرار بها (ورأى في نفْسه) أي عَلِمَ اللهُ في ذاته (أنَّه) أي المُؤمن (قد هَلَكَ) باستحقاقه العذاب ، لإقراره بذُنوب لا يجد لها مَدْفَعًا، ولا عنها جوابا مُنْجِعًا (نافعًا) ... . (قال) أي الله (فإنِّي) أي فإذْ قَد أقررتَ وخِفْتَني، إنِّي (قَد سَتَرْتُهَا) أي الذُّنوب (عَلَيك في الدُّنيا) هذا استئناف جواب عمَّن قال : ماذا قال الله ؟ ، (وأنا

---

١٠١ متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٦٢) برقم (٢٣٠٩) ، ومسلم (٤/ ٢١٢٠) برقم (٢٧٦٨).

أغْفِرُها لَكَ اليَوم) قُدِّمَ " أنا " ليُفيد الاختصاص ، إذ الذُّنوب لا يَغفِرُها غَيْرُه ، ولم يَقُل: أنا سَتَرْتُهَا عَلَيك ، لأن السِّتْر في الدنيا كان باكتساب مِن العبد أيضًا . قال الغزَّالي رحمه الله تعالى : وهذا إنَّما يُرجَى لعبد مؤمن سَتَرَ على الناس عُيوبَهم ، واحتمل في حق نفْسه تقصيرَهم،ولم يَذْكُرهم في غَيْبتهم بما يَكْرَهُون ، فهو جدير بأن يُجَازَى بذلك ، (ثُمَّ يُعطَى) بالبناء للمجهول ، أي : يُعْطِي اللهُ المؤمنَ إظهارًا لكرامته ، وإعلامًا بنَجاته ، وإدخالًا لكمال السُّرور عليه ، وتحقيقًا لقَوله تعالى : ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ (كِتاب حَسَنَاته بيَمينه) أي : بِيَدِه اليُمنى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إلى أهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٩] .

ويَرجع المؤمنُ الذي حاسبه اللهُ حِسَابًا يسيرًا ، إلى أهله في الجَنَّة فَرِحًا سعيدًا مُبْتَهِجًا بما أعطاه اللهُ مِن الخَير والفَضل والكَرامة. وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٥٧٥):((أي: ويَنصرف بعد الحِساب اليَسير إلى أهله، الذين هُم في الجَنَّة مِن عَشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدُّنيا مِن الزَّوجات والأولاد، وقد سَبَقُوه إلى الجَنَّة ، أو إلى مَن أعَدَّه اللهُ له في الجَنَّة مِن الحُور العِين، والوِلْدان المُخلَّدين، أو إلى جميع هؤلاء ، مَسرورًا مُبْتَهِجًا بِما أُوتيَ مِن الخَير والكرامة)) .

وعن ثَوبان : عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّكُم تَعْمَلُونَ أعمالًا لا تُعرَف ، ويُوشِكُ العَازِبُ أن يَثُوبَ إلى أهله ، فمَسرورٌ ومَكظوم)) [١٠٢] . يَعمل الناسُ أعمالًا في الدُّنيا غَير مَعروفة . وفي يوم القيامة ، تَظهر نتيجة هذه الأعمال ، إن خَيْرًا فخَير ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ويُوشِك العَازِبُ (البعيد عن أهله) أن يَرجع إلى أهله . وإذا كانت أعمالُه صالحة ، فهو سَعيد ومُبْتَهِج ومَسرور . وإذا كانت أعمالُه سَيِّئة فهو شقيٌّ وحزين ونادم . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ [الغاشية : ٨] . وُجوه المؤمنين (أهل السعادة وأصحاب الجَنَّة) يَوم القِيامة ناعمة ومُتَنَعِّمة وجميلة ومُشرقة، بما شَاهَدوا مِن النعيم ، وما أعدَّه اللهُ لهم مِن الخَير والكرامة ، بسبب عباداتهم وطاعاتهم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٠٨) : ((ثُمَّ شَرَعَ سُبحانَه في بيان حال أهل الجَنَّة بعد الفراغ مِن بيان حال أهل النار ، فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ، أي : ذات نِعمة وبَهجة ، وهي وُجوه المؤمنين . صارت وجوههم ناعمةً لِمَا شاهدوا مِن عاقبة أمرهم ، وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن الخَير الذي يَفُوق الوَصْف ، ومِثْله قَوله : ﴿ تَعْرِفُ في وُجُوهِهِم نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٤])) .

---

١٠٢ رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٤) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٠) : ((وفيه يحيى ابن عبد الحميد الحِمَّاني ، وهو ضعيف)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾[الغاشِية:٩]. لِعَمَلِها الذي عَمِلَتْهُ في الدُّنيا، وعبادتها لله، وطاعتها له ، مُطمئنة وراضية في الآخِرة ، لأن عملها الصالح قادها إلى الخُلود في نعيم الجَنَّة.وهذا يَعني أنها راضية بثواب عملها وأجر عبادتها. وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٤٨٣): ((﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ رَضِيَتْ بعملها لمَّا رَأتْ ثَوابَه)) اهـ. وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٣٣٤): ((رَضِيَتْ بعملها وطاعتها لمَّا رأت ما أدَّاهم إلَيه مِن الكرامة والثواب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشِية : ١٠] . في بُستان وحديقة مُرتفعة مكانًا ، لأنها فوق السماوات ، وعظيمة القَدْر ورفيعة الشأن ، لأن فيها ما تشتهيه الأنفُس ، وتَلَذ الأعيُن . وهُم في الغُرُفَات آمِنُون وخالدون . وهذه الجَنَّة عالية المكان (المَحِل) والمكانة (القَدْر) معًا . وعُلُوُّها يَشمل المَعْنَيَيْن الحقيقي (الحِسِّي) والمَجَازي (المعنوي) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٠٨) : ((﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ ، أي : عالية المَكان ، مُرتفعة على غَيرها مِن الأمكنة ، أو عالية القَدْر ، لأن فيها ما تَشتهيه الأنفُس ، وتَلَذ الأعيُن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً ﴾ [الغاشِية : ١١] .

لا تَسمع في الجَنَّة التي يُوجد فيها المؤمنون كلامًا قبيحًا،ولا ألفاظًا ساقطة، ولا عِبارات سَيِّئة، ولا لَغْوًا ، ولا شَتْمًا ، ولا فُحْشًا ، ولا باطلًا . وأهلُ الجَنَّة لا يتكلَّمون إلا بالأذكار والحِكمة وحَمْد الله وشُكره على ما رزقهم مِن النعيم الدائم ، والراحة الأبدية ، والاستمتاع المُتواصل .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً ﴾ أي: كِلامًا ساقطًا غَير مَرْضِيٍّ. وقال:﴿ لاغِيَةً ﴾ واللغو واللغا واللاغية بمعنى واحد... وقال الفَرَّاء والأخفش : أي : لا تَسْمع فيها كلمة لَغْو . وفي المُراد بها سِتَّة أوجه ، أحدها : يَعني كَذِبًا وبُهتانًا وكُفْرًا بالله عَزَّ وَجَلَّ، قاله ابن عباس . الثاني : لا بَاطل ولا إثم ، قاله قَتادة. الثالث : أنه الشَّتْم، قاله مجاهد. الرابع : المَعصية ، قاله الحسن . الخامس : لا يُسمَع فيها حَالِف يَحلِف بكَذِب، قاله الفَرَّاء . وقال الكلبي : لا يُسمَع في الجَنَّة حالف بيمين بَرَّة ولا فاجرة . السادس : لا يُسمَع في كلامهم كلمة بلَغْو ، لأن أهل الجنة لا يتكلَّمون إلا بالحِكمة ، وحَمْدِ الله على ما رزقهم مِن النعيم الدائم ، قاله الفَرَّاء أيضًا ، وهو أحسنها ، لأنه يَعُمُّ ما ذُكِرَ)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٠٩) : ((وهذا أرجح الأقوال لأن النَّكِرة في سِياق النَّفْي مِن صِيَغ العُموم ، ولا وَجْه لتخصيص هذا بنوع مِن اللغو خاص ، إلا بمُخصِّص يَصلُح للتَّخصيص . و ﴿ لاغِيَةً ﴾ إمَّا صِفَة مَوصوف مَحذوف : أي كلمة لاغية ، أو نَفْس لاغية ، أو مَصدَر : أي لا تَسْمع فيها لَغْوًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ ﴾ [الغاشِية : ١٢] .

في الجَنَّة العالية _ مكانًا ومكانةً _ عُيونٌ كثيرةٌ تَجْري بالماء العَذب بلا انقطاع . والتَّنوينُ في ﴿ عَيْنٌ﴾ للتَّكثير ، والتَّنكير للتعظيم ، والنَّكِرة في سِياق الإثبات تدل على أنها عيون كثيرة جارية ، وليس عَيْنًا واحدة . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٠٩) : ((ومعنى ﴿ جَارِيَةٌ ﴾ أنها تَجْري مِياهُها ، وتتدفَّق بأنواع الأشربة المُستلذة . قال الكلبي : لا أدري بمَاء أو بغَيره)) اهـ . وفي الدُّر المَنثور(٨/٤٩٤):((وأخرج ابن أبي شَيْبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ بن حِبَّان في التَّفسير والبَيهقي في البَعْث وصحَّحه عن ابن مسعود قال: " إنَّ أنهار الجَنَّة تَفَجَّرُ مِن جَبَلِ مِسْك ")) .

هذا مَوقوف صحيح ، وله حُكم المَرفوع ، لأنَّه أمر غَيْبي ، لا يُمكن للصحابي أن يَقوله اعتمادًا على رأي شخصي . وإنما سَمِعَه مِن النبيِّ ﷺ . والحديثُ يدل على عَظَمَة الجَنَّة ، وجَمَال أنهارها ، والمُتعة الأبدية ، واللذة المُتواصلة ، والنعيم الدائم ، الذي أعَدَّه اللهُ للمُؤمنين .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشِية : ١٣] .

في الجَنَّة أسِرَّة مُرتفعة وناعمة ومَفروشة ، عالية القَدْر ، ومُكلَّلة بالزَّبَرْجَد والياقوت ، عليها الحُور العِين ، فإذا أرادَ المؤمنُ وَلِيُّ الله أن يجلس على الأسِرَّة العالية تواضعت له . وهذه الأسِرَّةُ عالية ومُرتفعة كَي يَرى المؤمنُ جَميعَ ما أعطاه اللهُ في الجَنَّة مِن النعيمِ الدائم والمُلْكِ العظيم .

وقال البغوي في تفسيره (٤/ ٤٠٩) : ((قال ابن عباس : ألواحها مِن ذَهَب ، مُكَلَّلَة بالزَّبرجد والدُّرَر والياقوت ، مُرتفعة ما لم يَجِئْ أهْلُها ، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له ، حتَّى يجلس عليها ، ثُمَّ ترتفع إلى مواضعها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأكوابٌ مَوْضُوعةٌ ﴾ [الغاشِية : ١٤] .

وأباريق (أقداح) لا آذان لها ، مَوضوعة على حَافَات العُيون الجارية ، مُخصَّصة لهم ، وَمُعَدَّة لشرابهم ، لا تَحتاج إلى مَن يَملؤها . وهذه الأقداحُ مَوضوعة بين أيديهم ، يَشربون مِنها بلا تعب.

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٥٥): ((وقَوله : ﴿ وأكوابٌ مَوْضُوعةٌ ﴾ وَهِيَ جَمْع كُوب، وهي الأباريق التي لا آذان لها ... وعُنِيَ بقَوله : ﴿ مَوْضُوعةٌ ﴾ أنَّها مَوضوعة على حَافَة العَيْن الجارية ، كُلَّما أرادوا الشُّرْب ، وَجَدُوها ملأى مِن الشَّراب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ [الغاشِية : ١٥] .

ووسائد _ مخدَّات _ مَصفوفة ، كُل واحدة بجانب الأُخرى ، كَي يَستندوا إلَيها . والنَّمَارِق جَمْع نُمْرُقَة (وِسادة صغيرة) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٣٣٤) : ((﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وَسَائِد ﴿مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جَنْب بَعْض . مساند ومطارح أينما أراد أن يَجلِس جلس على مُوسَّدة، واستند الى الأُخرى)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشِية : ١٦] .

وبُسُط فاخرة ذات خَمْل رقيق ، كثيرة ومُتفرِّقة ومَبسوطة في أنحاء الجَنَّة ، مِن أجل راحة المؤمنين ، وإسعادهم ، وتَوفير المُتعة لهم. والزَّرَابِيُّ جَمْع زَرْبِيَّة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٢):((قال أبو عُبَيدة: الزَّرابي : البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابي : الطَّنَافِس التي لها خَمْل رقيق ، واحدتها : زَرْبِيَّة ، وقاله الكلبي والفَرَّاء . والمَبثوثة : المَبسوطة ، قاله قَتادة . وقِيل : بعضها فوق بعض ، قاله عِكرمة . وقِيل : كثيرة ، قاله الفَرَّاء . وقِيل : مُتَفَرِّقَة في المجالس، قاله القُتَبي . قُلْتُ : هذا أصْوَب ، فهي كثيرة مُتَفَرِّقة)) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١٦/ ٣٩٦) أنَّ الصحابة قالوا: يا رسول الله، حَدِّثْنَا عن الجَنَّة، ما بِنَاؤها ؟، قال: ((لَبِنَةٌ مِن ذَهَب ، ولَبِنَةٌ مِن فِضَّة ، ومِلاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَر ، وحَصْبَاؤها اللؤلؤُ أو الياقوتُ ، وتُرَابُها الزَّعْفَرَان ، مَنْ يَدْخُلْها يَنْعَمْ ، فلا يَبْؤُس ، ويَخْلُدْ لا يَمُوت ، لا تَبْلَى ثِيَابُه ، ولا يَفْنَى شَبَابُه)) .

كان الصَّحابةُ الكِرام ــ رضي اللهُ عنهم ــ مُتَعَلِّقين بنعيم الجَنَّة الدائم ، غَير مُلتفتين إلى حُطام الدُّنيا الفاني وزينتها الوهمية . وقد سألوا النبيَّ عن وَصْف الجَنَّة ، هَل هِيَ مَبنية مِن حَجر أو خَشب أو شَعْر كبُيوت الناس في الدُّنيا . وقد أجابهم النبيُّ ﷺ بأن الجَنَّة عبارة عَن لَبِنة مِن ذَهَب ، ولَبِنة مِن فِضَّة ، وهذا البناء حقيقي، وليس تَمثيلًا أو تشبيهًا . ومِلاطُها (الطِّين ما بين اللبنتَيْن) المِسْك الشَّديد الرِّيح ، وحَصباؤها (الحَصَى الصغيرة) اللؤلؤ والياقوت ، حيث اللون الجميل ، والصَّفاء الباهر ، ومكان تُرابها الزَّعْفَرَان الناعم الأصفر الطَّيب الرِّيح . وهذا يعني أن الجَنَّة تشتمل على ألوان الزِّينة الثلاثة : البَياض (اللؤلؤ) والحُمرة (الياقوت) والصُّفرة (الزَّعْفَرَان) . مَن يَدخل الجَنَّةَ يَنعَم ويَفرح ويَسعَد ويَستمتع ، فلا يُصاب بالبُؤسِ والشَّقاءِ والتعاسةِ . ويَخلُد ويَدُوم ، فلا يَمُوت ولا يَفنَى،ويَظل في الجَنَّة دائمًا باقيًا إلى الأبد، ولا يَخرُج مِنها.لا تَخْلَق ثِيَابُه ولا تتقطَّع، ولا يُصاب بالهَرَم والشَّيخوخة،ولا يُغيِّره طُول البقاء،بَل يَظل شابًّا نشيطًا مُفْعَمًا بالحيوية والقُوَّة أبدًا.

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ١٩٤) : ((قال القاضي : معناه أن الجَنَّة دار الثبات والقَرَار ، وأن التغيُّر لا يتطرَّق إلَيها ، فلا يَشُوب نعيمَها بُؤس ، ولا يَعتريه فساد ، ولا تغيير، فإنها ليست دارَ الأضداد ، ومَحل الكَون والفَساد)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٣٦٣) : (((الجَنَّة) أي أبنيتها (لَبِنة مِن ذَهَب ، ولَبِنة مِن فِضَّة) بَيَّنَ به أنها مبنية بِناءً حقيقيًّا دَفْعًا لتوهُّم أن ذلك تمثيل ، وأن ليس هناك بناء ، بل تتصوَّر النُّفوس غُرَفًا مبنية كالعلالي ، بعضها فوق بعض ، حتى كأنها تنظر إليها عِيانًا . وهل المراد بناء قُصورها ودُورها ، أو بِناء حائطها وسُورها . احتمالات رجَّح الحافظ ابن حجر الثاني لخَبَر "جَنَّتان مِن ذهب ، آنيتهما وما فِيهما ")) .

وفي نفْس المرجع السابق (٣/ ٣٦٤) : (((الجَنَّة بِناؤها لَبِنة مِن فِضَّة ، ولَبِنة مِن ذَهَب ومِلاطها) بكسر الميم طِينها ، الذي يكون بَيْن كل لبنتَيْن أو تُرابها الذي يُخالطه الماء (المِسْك الأَذْفَر) أي الذي لا خَلْط فيه ، أو الشِّديد الرِّيح . قالوا : لكن لَوْنه مُشرِف لا يُشبِه مِسْكَ الدُّنيا بل هو أبيض (وحَصباؤها) أي حَصاؤها الصِّغار (اللؤلؤ والياقوت) الأحمر والأصفر (وتُربتها الزَّعْفَرَان) ... . قَول مُجاهد : أرض الجَنَّة مِن فِضَّة ، وتُرابها مِسْك ، فاللون في البياض لَون الفِضَّة، والرِّيح رِيح المِسْك مِثل كُثبان الرَّمل ... (مَن يدخلها يَنعَم لا يَبْأس)أي لا يفتقر ولا يحتاج يعني أن نعيم الجنة لا يَشُوبه بُؤس ، ولا يَعقُبه شِدَّة تُكدِّره . يُقال : بَئِسَ الرَّجل ، إذا اشتدَّت حاجته ، أي : لا يكون في شِدَّة وضِيق (لا تَبْلَى ثِيابُهم، ولا يَفْنَى شبابُهم) إشارة إلى بقاء الجَنَّة وجميع ما فيها ، ومَن فيها ، وأن صفات أهلها مِن الشباب ونَحْوه لا يتغيَّر ، وملابسهم لا تَبْلَى ، وقد نطق بذلك التَّنزيل في عِدَّة آيات : ﴿ لَهُم فِيها نَعِيمٌ مُقِيم ﴾ [التَّوبة : ٢١] . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرَّعْد : ٣٥] . وفي طَي ذلك تعريض بذَم الدُّنيا ، فإنَّ مَن فيها وإن نَعِمَ يَبْأس ، ومَن أقامَ فيها لم يَخلُد ، بل يَمُوت ، ويَفنى شبابُه ، ويَبلَى جَسَدُه وثِيَابُه)) .

وروى ابن ماجة في سُننه(٢/ ١٤٤٨) بسند ضعيف أنَّ أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ ذات يَوم لأصحابه : ((ألا مُشَمِّرٌ للجَنَّة ؟ ، فإن الجَنَّةَ لا خَطَرَ لها . هِيَ ورَبِّ الكعبة نورٌ يتلألأ ، ورَيحانةٌ تهتز ، وقَصْرٌ مَشِيد ، ونَهَرٌ مُطَّرِد ، وفاكهةٌ كثيرة نَضِيجة ، وزَوجةٌ حَسناءُ جميلةٌ ، وحُلَلٌ كثيرة . في مُقَامٍ أبدًا . في حَبْرَةٍ ونَضْرَةٍ . في دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ)) . قالوا : نَحْنُ المُشَمِّرُون لها يا رسول الله . قال : ((قُولوا : إن شاء الله)) .

المعنى : هل فِيكم ساعٍ للجَنَّة عن صِدق ورغبة ؟ . فإن الجَنَّة لا مِثْلَ لها . وهذا يدل على عَظَمتها وتميُّزها . وهِيَ نُور يتلألأ ، ورَيحانة تتحرَّك بهُبوب الرِّياح عليها، وقَصر عظيم، ونهر جارٍ ، وفاكهة كثيرة وناضجة ولذيذة ، وزَوجة في غاية الحُسن والجَمَال ، وحُلَل (جَمْع حُلَّة) كثيرة ، في إقامة دائمة أبدية ، في حَبْرَة (نِعمة وسَعَة عَيش) ، ونَضْرة (حُسن وجه) .

وقال السُّيوطي في شرح سُنن ابن ماجة (١/ ٣٢٢) : ((" ألا مُشمِّر للجنة ؟ " إلخ ، مِن التَّشمير، وهو التَّهَيُّؤ ... ، أي : ألا مُستعد مُطَالَبَةً للجَنَّة ، فإن الجَنَّة لا خطر لها في القلب، أي: لا تَخطُر لذاتها بخيالكم ، لأن الخَطْرة تكون بالمُشبَّهة ، والجَنَّة ونعيميها ليس لها شَبَه ... . قَوله: " لا خَطَرَ لها " ، قال في النهاية : أي لا عِوَض لها، ولا مِثْل ... . قَوله : " ورَيحانة تهتز " أي تتحرك ... . والمَشِيد المُجصَّص . نهر مُطرَّد أي جارٍ . الحَبْرة بالحاء السُّرور والنِّعمة ، والنَّضْرة النِّعمة والعَيْش والغِنى والحُسن . بَهِيَّة مِن البَهاء ، وهو الحُسن)) .

٦_ وَعْده إيَّاهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيها أبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾ [النِّساء : ١٢٢] .

والذين صدَّقوا بوَحدانية الله، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، وفَعلوا الطاعات، وابتعدوا عن المَعَاصي، سيُدخِلهم اللهُ يوم القِيامة بسبب أعمالهم الصالحة جَنَّاتٍ (بساتين وحدائق) تَجْري مِن تحت قُصورها الأنهارُ ، خالدين فيها إلى الأبد، بلا زوال ولا انتقال ، ولا يَخرجون مِنها . وهذا وعدُ الله حقًّا وصِدْقًا، وهو واقع لا مَحَالة ، بلا شَك ولا ارتياب . ووعدُ اللهِ الصادقُ لأوليائه المؤمنين ، ليس كوعد الشَّيطان الكاذب لأوليائه الكافرين . وهُنا يَظهر الفرق بين وعد الله ووعد الشَّيطان .

ومَن أصدقُ مِن الله قَوْلًا ؟ . وهذا الاستفهام معناه النَّفْي، أي: لا أحد أصدق مِن الله، فهو الصادق ، ووَعْده حق وصِدق ، لا يتخلَّف . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٦) : ((﴿ وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾ جُملة مُؤَكَّدة بليغة . والمقصود مِن الآية مُعارَضة المواعيد الشَّيطانية الكاذبة لقُرنائه بوَعْد الله الصادق لأوليائه . والمُبالَغة في تَوكيده ترغيبًا للعباد في تحصيله)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٢٨٦) : ((يعني جَلَّ ثناؤه بقَوله : ﴿ والذينَ آمَنُوا ﴾ ، والذين صدَّقوا اللهَ ورسوله ، وأقَرُّوا له بالوَحدانية ، ولرسوله ﷺ بالنُّبُوَّة ، ﴿ وَعَمِلُوا الصالحاتِ ﴾ . يقول : وأدُّوا فَرائضَ الله التي فَرَضَها عليهم ، ﴿ سَنُدْخِلُهُم ﴾ يقول : سَوْفَ نُدخِلهم يوم القيامة إذا صاروا إلى الله جَزاءً بِما عملوا في الدُّنيا مِن الصالحات ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ يعني : بساتين ﴿ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيها ﴾ ، يقول : باقين في هذه الجَنَّات التي وَصَفَها ﴿ أبَدًا ﴾ دائمًا . وقَوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ ﴾ ، يعني:عِدَة مِن الله لهم ذلك في الدُّنيا ﴿حَقًّا ﴾ يعني : يقينًا صادقًا لا كعِدَة الشَّيطان الكاذبة ، التي هي غُرور مَن وُعِدها مِن أوليائه، ولكنها عِدَة مِمَّن لا يَكْذِب، ولا يكون منه

الكذب ، ولا يُخلِف وَعْدَه ، وإنَّما وَصَفَ جَلَّ ثناؤه وَعْدَه بالصِّدْق والحق في هذه ، لِمَا سَبَق مِن خَبَره جَلَّ ثناؤه عَن قَول الشيطان الذي قصَّه في قَوله : ﴿ وقالَ لأتَّخِذَنَّ مِن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) ولأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهُم ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ﴾ ، ثُمَّ قال جَلَّ ثَناؤه : ﴿ يَعِدُهُم ويُمَنِّيهِم وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا ﴾ . ولكنَّ اللهَ يَعِدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّه سيُدخِلهم جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، وَعْدًا مِنه حَقًّا ، لا كوَعْد الشيطان الذي وَصَفَ صِفتَه ، فَوَصَفَ جَلَّ ثناؤه الوَعْدَيْن والوَاعِدَيْن ، وأخبرَ بحُكم أهل كل وَعْد مِنهما ، تنبيهًا مِنهُ جَلَّ ثناؤه خَلْقَه على ما فيه مصلحتهم وخلاصهم مِن الهَلَكَة والمَعْطَبَة ، ليَنزجروا عن مَعصيته ، ويعملوا بطاعته ، فيفوزوا بما أعدَّ لهم في جنَّاته مِن ثَوَابه، ثُمَّ قال لهم جَلَّ ثناؤه: ﴿ وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾ . يقول: ومَن أصدقُ أيُّها الناس مِن الله قِيلًا؟، أي: لا أحد أصدق مِنه قِيلًا ! فكيف تتركون العمل بما وعدكم على العمل به رَبُّكم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، وتكفرون به وتخالفون أمره وأنتم تعلمون أنه لا أحد أصدق مِنه قِيلًا ، وتعملون بما يأمركم به الشيطان ، رَجاءَ لإدراك ما يَعِدكم مِن عِدَاته الكاذبة وأمانيه الباطلة ، وقد علمتم أن عِدَاته غُرور لا صِحَّة لها ، ولا حقيقة ، وتتَّخذونه وليًّا مِن دُون الله ، وتَتركون أن تُطيعوا اللهَ فِيما يأمركم به ، ويَنهاكم عنه فتكونوا له أولياء ؟ . ومعنى القِيل والقَوْل واحد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤمنينَ أجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النِّساء : ١٤٦] .

وسَوْفَ يُعطي اللهُ المؤمنين في الآخرة ثوابًا كبيرًا ، بسبب إيمانهم وطاعاتهم . وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة ، بإعطاء المؤمنين الجَنَّة . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٣٧): ((يَقول : وسَوْفَ يُعطي اللهُ هؤلاء الذين هذه صِفتهم على تَوبتهم، وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينَهم له ، وعلى إيمانهم، ثوابًا عظيمًا . وذلك : درجات في الجَنَّة ، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاق مَنَازِلَ في النَّار ، وَهِيَ السُّفلى مِنها ، لأن الله جَلَّ ثناؤه وَعَدَ عِبَادَه المؤمنين أن يُؤْتِيَهم على إيمانهم ذلك ، كما أوعدَ المُنافقين على نِفاقهم ما ذَكَرَ في كِتابه . وهذا القَول هو معنى قول حُذَيفة بن اليَمان الذي: حدَّثنا به ابن حُمَيد وابن وكيع ، قالا : حدَّثنا جرير عن مُغِيرة عن إبراهيم، قال: قال حُذَيفة : " لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ قَوْمٌ كانوا مُنافقين " ، فقال عبد الله : وما عِلْمُك بذلك ؟، فغضب حُذَيفة ، ثم قام فتنحَّى ، فلمَّا تفرَّقوا ، مَرَّ به عَلْقَمة ، فدعاه ، فقال : ((أمَا إنَّ صاحبك يَعْلَم الذي قُلْت ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إلا الذينَ تابوا وأصْلَحُوا واعْتَصَمُوا باللهِ وأخْلَصُوا دِينَهُم للهِ فأُولئكَ مَعَ المُؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤمنينَ أجْرًا عَظِيمًا ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وأجْرٌ عظيمٌ﴾[المائدة: ٩].

وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي، لهم في الآخرة مغفرة لذنوبهم ، أي إنَّ الله يَستُرها عليهم ، ويتجاوز عنهم، ولا يُعاقبهم ، ولهم مَع العَفْو عن ذُنوبهم ثوابٌ عظيم ودائم ، لا يَنقطع ، ولا يَزول ، وهو الجَنَّة .

ووَعْدُ الله واقع لا مَحَالة . وسَوْفَ يَحصل المؤمنون على ما وَعَدَهم اللهُ بِه كاملًا غَير مَنقوص .

وطاعاتُ العِباد سبب ظاهري لدُخولهم الجَنَّة ، ولكن الجَنَّة لا تُنال بالطاعات ، وإنما تُنال برحمة الله وفضله وكَرَمه . وهو سُبحانَه واسع الفَضْل وأكرم الأكرمين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٠٨) : ((في معناها _ يعني الآية _ قَولان : أحدهما أنَّ المعنى وَعَدَهم اللهُ أن يَغفِر لهم ، ويَأجُرهم ، فاكتفى بما ذَكَرَ عن هذا المعنى . والثاني أنَّ المعنى وَعَدَهم ، فقال : لهم مَغفرة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ الجَنَّةِ أصحابَ النارِ أن قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا قالوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

ونادى أصحابُ الجَنَّةِ أصحابَ النار بعد دُخولهما(أهل الجَنَّة في الجَنَّة، وأهل النَّار في النَّار): يا أهلَ النار ، قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا في الدُّنيا على ألسنة رُسله مِن الأجر والكرامة والنعيم على الإيمان والعبادات والطاعات صِدْقًا ، فهل وَجَدْتُم ما وَعَدَ رَبُّكم مِن العِقاب والعذاب والخِزي على الكُفر والضلال والمَعاصي صِدْقًا ؟ . فأجابهم أهلُ النار : نعم ، وَجَدْنا ما وَعَدَ رَبُّنا صِدْقًا .

والغايةُ مِن هذا السؤال ليس الاستخبار ومعرفة الحال ، وإنَّما إظهار سعادة المؤمنين (أهل الجَنَّة)، والشَّماتة بالكافرين (أهل النار) ، وتوبيخهم ، وتَقريعهم ، وزيادة هَمِّهم وغَمِّهم وحُزنهم.

والتعبيرُ بالفِعل الماضي ﴿ نادى ﴾ عن المُستقبل لتحقُّق وُقوعه بلا شَك، وحُصوله لا مَحَالة ، فصارَ المُستقبلُ في حُكم الماضي الذي تَمَّ وانقضى .

وينبغي التفريق بين الصِّيغة اللغوية ﴿ وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ الخاصَّة بأهل الجَنَّة ، و﴿ وَعَدَ رَبُّكُم ﴾ الخاصَّة بأهل النار . إنَّ الوَعْد للمؤمنين (أهل الجَنَّة) خاصٌّ بهم وَحْدَهم ، ولا يُشاركهم فيه باقي الناس . أمَّا الوَعْدُ للكافرين (أهل النار) فليسَ مُخَصَّصًا لهم ، بَل هُوَ لكل الناس ، كالبعث والحِساب والعِقاب . وأيضًا ، إن الكافرين لا يَستحقون التَّشريف بالخِطاب عِند الوَعْد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٠٢) : ((مُناداة أصحاب الجَنَّة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقَصْد تَبكيتهم ، وإيقاع الحَسْرة في قلوبهم، و﴿ أن قَدْ

وَجَدْنا ﴾ هو نفْس النِّداء : أي إنَّا قد وَصَلْنا إلى ما وَعَدَنا اللهُ به مِن النَّعيم ، فهل وصلتُم إلى ما وعدكم اللهُ به مِن العذاب الأليم ؟. والاستفهام هو للتَّقريع والتَّوبيخ. وحذف مَفعول (وَعَدَ) الثاني لكَوْن الوَعْد لَم يكن لهم بخُصوصهم ، بل لكل الناس ، كالبَعْث والحِساب والعِقاب . وقِيل : حُذف لإسقاط الكُفَّار عن رُتبة التَّشريف بالخِطاب عِند الوَعْد ﴿ قالوا نَعَمْ ﴾ أي : وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٣/ ٢٢٩) : ((﴿ ونادى أصحابُ الجَنَّةِ أصحابَ النارِ ﴾ تَبَجُّحًا بحالهم ، وشَماتةً بأصحاب النار ، وتَحسيرًا لهم ، لا لمُجرَّد الإخبار بحالهم ، والاستخبار عن حال مُخاطبيهم ﴿ أن قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ ، حَيث نِلْنا هذا المَنال الجليل ، ﴿ فَهَلْ وَجَدتم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا ﴾ ، حُذِفَ المَفعول مِن الفِعل الثاني ، إسقاطًا لهم عن رُتبة التَّشريف بالخِطاب عِند الوَعْد . وقِيل : لأنَّ ما سَاءهم مِن المَوعود ، لَم يكن بأسره مَخصوصًا بهم وَعْدًا كالبَعْث والحِساب ونعيم أهل الجَنَّة ، فإنهم قد وَجدوا جميع ذلك حقًّا ، وإن لم يكن وَعْدُه مَخصوصًا بهم ، ﴿ قالوا نَعَمْ ﴾ ، أي : وَجَدْناه حقًّا)) .

وفي صحيح مُسلم (٤/ ٢٢٠٣): عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ تَرَكَ قَتْلى بَدْرٍ ثلاثًا، ثُمَّ أتاهم ، فقامَ عَلَيهم ، فناداهم ، فقال : ((يا أبا جَهْلِ بنَ هِشام ، يا أُمَيَّةَ بنَ خَلَف ، يا عُتْبَةَ ابنَ رَبيعة، يا شَيْبَةَ بن رَبيعة ، أليسَ قد وَجَدْتُم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقًّا ؟ ، فإنِّي قَد وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبِّي حَقًّا))، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النبيِّ ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، كيف يَسمعوا وأنَّى يُجيبوا وقد جَيَّفُوا؟. _ يعني صاروا جِيَفًا _ قال : ((والذي نَفْسِي بيده ما أنتُم بأسمعَ لِمَا أقولُ مِنهُم ، ولَكِنَّهم لا يَقْدِرُون أن يُجيبوا)) ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِم فسُحِبوا ، فأُلْقُوا في قَلِيبِ بَدْر .

لقد نادى النبيُّ ﷺ على قَتْلى كُفَّار قُرَيش، كُل واحد باسمه واسم أبيه ، توبيخًا وتقريعًا وفَضْحًا وإهانةً لهم . وقد وَصلوا إلى عذاب الله ، وكُلُّهم حَسرة وندم على كُفرهم وضلالهم ومَعاصيهم ، ووجدوا ما وَعَدَ اللهُ مِن العذاب على الكُفر حقًّا وصِدْقًا . وعلى الجِهَة المُقابِلة ، أظهرَ اللهُ الإسلامَ على كافَّة الأديان ، ونَصَرَ المؤمنين ، وهَزَمَ الكافرين . والمؤمنون (على رأسهم النبيُّ ﷺ) وَجدوا ما وَعَدَهم اللهُ بالنصر على الأعداء حقًّا وصِدْقًا . واستغربَ عُمر بن الخَطَّاب_ رضي اللهُ عنه_ مُخاطبة النبيِّ ﷺ لأجساد لا أرواح لها ، وجِيَف قذرة مُنْتِنة. وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أن الله أحياهم حتى أسمعهم قَوْلَه ، تَوبيخًا وحَسْرةً ونَدَمًا ، وأن المؤمنين لَيسوا بأعلم مِن قَتلى كُفَّار قُرَيش أنه حق وصِدق . واللهُ يُسْمِع مَن يَشاء مِن خَلْقه ما شَاء مِن كلام خَلْقه ، سواءٌ كانوا أحياءً أَم أمواتًا .

والقليبُ حُفرة رُمِيَت فيها جِيَف المشركين . والحديثُ يُثبِت أنَّ قَتلى المُشركين يَسمعون ما يَقوله النبيُّ ﷺ ، لكنَّهم لا يُجيبون ، بسبب عَجْزهم عن ذلك ، وعدم قُدرتهم عليه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٦و ٢٠٧): ((قَوله ﷺ في قَتلى بَدْر: " ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقُول مِنهُم ". قال المازري: قال بعض الناس: المَيْت يَسمع، عَمَلًا بظاهر هذا الحديث ، ثُمَّ أنكره المازري ، وادَّعى أن هذا خاص في هؤلاء ، ورَدَّ عليه القاضي عِياض ، وقال: يُحمَل سَماعهم على ما يُحمَل عليه سَمَاع المَوتى في أحاديث عذاب القَبْر وفِتْنته ، التي لا مَدْفَع لها، وذلك بإحيائهم ، أو إحياء جُزء مِنهُم يَعقِلون به ويَسْمعون ، في الوقت الذي يُريد اللهُ . هذا كلام القاضي ، وهو الظاهر المُختار الذي يَقتضيه أحاديث السلام على القُبور ، والله أعلم ... . وقَوله : (جَيَّفُوا)، أي: أنْتَنُوا ، وصَاروا جِيَفًا ... . قَوله: (فسُحِبوا ، فأُلْقُوا في قَلِيب بَدْر) ... . قال أصحابُنا : وهذا السَّحْب إلى القَلِيب ليس دَفْنًا لهم ، ولا صيانة وحُرْمة ، بل لدفع رائحتهم المُؤذِية ، والله أعلم)) .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٣٤ و٢٣٥):((قَوله ﷺ : " ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقُول مِنهُم". ... حديث عائشة قالت : إنَّما قال النبيُّ ﷺ : " إنَّهُم لَيَعْلَمُونَ الآنَ أنَّ ما كُنتُ أقول لهم حَق". وهذا مُصيِّر من عائشة إلى رَد رواية ابن عُمر المذكورة ، وقد خالفها الجمهور في ذلك ، وقَبِلُوا حديث ابن عُمر لمُوافَقة مَن رواه غَيْرُه عليه.وأمَّا استدلالها بقَوله تعالى: ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ﴾ [النَّمْل : ٨٠] . فقالوا : مَعناها : لا تُسْمِعهم سَمَاعًا يَنفعهم ، أو لا تُسْمِعهم إلا أن يشاء الله . وقال السُّهَيلي : عائشة لَم تَحضُر قَوْلَ النبيِّ ﷺ ، فغَيرها مِمَّن حَضَرَ أحفظ للفظِ النبيِّ ﷺ . وقد قالوا له : يا رسول الله ، أتخاطِبُ قَوْمًا قد جَيَّفُوا ؟ ، فقال : " ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقُول مِنهُم " . قال : وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عَالِمِين ، جاز أن يكونوا سامعين ، إمَّا بآذان رُؤوسهم ، كما هو قَول الجمهور ، أو بآذان الرُّوح ، على رأي مَن يُوجِّه السؤال إلى الرُّوح مِن غَير رُجوع إلى الجسد. قال:وأمَّا الآية فإنَّها كقَوله تعالى:﴿أفأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي العُمْيَ﴾[الزُّخْرُف: ٤٠] . أي : إنَّ الله هو الذي يُسْمِع ويَهْدِي . انتهى . وقَوله إنَّها لم تَحضُر، صحيح ، لكن لا يَقدَح ذلك في روايتها، لأنه مُرسَل صَحابي، وهو مَحمول على أنها سَمِعت ذلك مِمَّن حَضَره أو مِن النبيِّ ﷺ بَعْد . ولو كان ذلك قادحًا في روايتها لَقَدَحَ في رواية ابن عُمر ، فإنَّه لم يَحضُر أيضًا ، ولا مانع أن يكون النبيُّ ﷺ قال اللفظَيْن معًا ، فإنه لا تعارُض بينهما . وقال ابن التين : لا مُعارضة بين حديث ابن عُمر والآية ، لأن المَوتى لا يَسْمَعُون بلا شَك ، لكن إذا أراد الله إسماعَ ما ليس مِن شأنه

السَّماع لم يمتنع ،كقَوله تعالى : ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانةَ ﴾ الآية . وقَوله : ﴿ فقالَ لها وللأرضِ ائتيَا طَوْعًا أو كَرْهًا ﴾ الآية... قَول قَتادة: إنَّ اللهَ أحياهم حتى سَمِعُوا كلامَ نَبِيِّه ، توبيخًا ونِقمةً، انتهى. وقد أخذ ابن جرير وجماعة مِن الكَرَّامِيَّة مِن هذه القصة أن السؤال في القبر يَقع على البَدَن فقط، وأن الله يَخلق فيه إدراكًا ، بحيث يَسْمع ، ويَعْلم ، ويَلَذ ، ويَألَم . وذهب ابن حَزْم وابن هُبَيرة إلى أن السؤال يقع على الرُّوح فقط ، مِن غَير عَود إلى الجَسد ، وخالفهم الجمهور، فقالوا : تُعاد الرُّوح إلى الجسد أو بَعْضه ، كما ثبت في الحديث . ولو كان على الرُّوح فقط ، لم يكن للبدن بذلك اختصاص ، ولا يمنع مِن ذلك كَوْن المَيْت قد تتفرَّق أجزاؤه ، لأن الله قادر أن يُعيد الحياةَ إلى جُزء مِن الجَسَد ، ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يَجْمَع أجزاءه . والحامل للقائلين بأن السؤال يقع على الرُّوح فقط أن المَيْت قد يُشاهَد في قبره حال المسألة ، لا أثر فيه مِن إقعاد ولا غَيره ولا ضِيق في قَبره ، ولا سَعَة ، وكذلك غَير المَقبور كالمصلوب . وجوابهم أن ذلك غَير مُمتنع في القدرة ، بل له نظير في العادة ، وهو النائم ، فإنَّه يَجِد لَذَّة وألَمًا لا يُدركه جليسُه ، بل اليَقظان قد يُدرِك ألمًا أو لَذَّةً لِمَا يَسْمَعه ، أو يُفَكِّر فيه ، ولا يُدرِك ذلك جليسُه ، وإنما أتى الغلط مِن قياس الغائب على الشاهد، وأحوال ما بعد المَوت على ما قَبله. والظاهر أن الله تعالى صَرَفَ أبصارَ العِباد وأسماعهم عن مُشاهَدَة ذلك، وسَتَرَه عنهم إبقاءً عليهم لئلا يتدافنوا،وليست للجوارح الدُّنيوية قُدرة على إدراك أمور المَلَكُوت إلا مَن شاء الله . وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور، كقَوله : " إنَّه لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالهم "، وقَوله :" تختلف أضلاعُه لِضَمَّة القَبْر". وقَوله: "يُسمَع صَوْتُه إذا ضَرَبَه بالمِطراق"، وقَوله:" يُضرَب بَيْن أُذُنَيه". وقَوله:" فيُقعِدانه". وكل ذلك من صِفات الأجساد)) اهـ . وفي نفْس المرجع (٧/ ٣٠٢) : ((أُمَيَّة بن خَلَف، لم يكن في القَلِيب، لأنه كان ضخمًا فانتفخ ، فألقَوْا عليه مِن الحجارة والتراب ما غيَّبه . وقد أخرج ذلك ابن إسحاق من حديث عائشة ، لكن يُجمَع بينهما بأنه كان قريبًا مِن القَلِيب ، فنُودِيَ فِيمَن نُودِيَ لكَوْنه كان مِن جُملة رُؤسائهم ، ومِن رُؤساء قُرَيش ... . قال قَتادة : ... أحياهم اللهُ . زاد الإسماعيلي بأعيانهم . قَوله : توبيخًا وتصغيرًا ونِقمةً وحَسْرةً ونَدَمًا ، في رواية الإسماعيلي وتندُّمًا وذِلَّةً وصَغَارًا . والصَّغار الذِّلَّة والهَوان . وأراد قَتادة بهذا التأويل الرَّد على مَن أنكرَ أنَّهم يَسْمَعُون ، كما جاء عن عائشة أنها استدلت بقَوله تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[التَّوبة : ٧٢] .

وَعَدَ اللهُ الذينَ صدَّقوا بوَحدانيته ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، مِن الرِّجال والنِّساءِ، حدائقَ وبساتينَ تَجْري مِن تحت أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ ، مُقيمين فيها إلى الأبد ، وماكثين فيها لا يَخرُجون مِنها ، ولا يَزُول عنهم نعيمُها ، وقُصورًا جميلة ورائعة مِن الدُّر والياقوت ، تُحِبُّها النُّفُوس ، وتَرتاح فيها الأجساد ، ويَطِيب فيها العَيش ، وتَفْرَح بها القُلوب ، وتستلذ ببهجتها الحواس، يَسْكُنونها في دار إقامة وخُلود، ورِضا الله عنهم أعظم مِن ذلك كُلِّه، وأكبر مِمَّا يُوصَف . ورِضا الله سبب كُل سعادة ونعيم . وغايةُ العبد هي رِضَا الله وَحْدَه . والمؤمنُ المُخلِص يَعبد اللهَ طَلَبًا لرِضاه ، ولأنَّه المُستحق وَحْدَه للعبادة ، ولا يَعبده طلبًا للجَنَّة ، أو خَوْفًا مِن النار . والمؤمنُ المُخلِص لا يَكون كالعَبْد السُّوء ، إنْ خاف عَمِلَ ، ولا كالأجير السُّوء ، إنْ لَم يُعْطَ أجرًا لم يَعمل. يجب العمل طلبًا لرضا الله وَحْدَه . ولو لم يكن هناك جَنَّة ونار ، لكانَ اللهُ مُسْتَحِقًّا للعبادة . وهذا لا يتعارض معَ الطمع في الجَنَّة ، والخَوف مِن النار . وإذا عَرَفَ العبدُ أنَّ مَوْلاه وسيِّده راضٍ عنه ، فَرِحَ بذلك أكثر مِن فَرَحه بالجَنَّة وما فِيها،لأن رِضا الله هو قِمَّة المجد والشرف والعَظَمَة. ذلك هو الفَوز العظيم،الذي تستحقر معه الدُّنيا وما فيها.وحُطَامُ الدُّنيا الفاني لا يُذكَر معَ نعيم الآخرة الباقي.

واللهُ يُخبِر في الآية بما أعدَّه للمؤمنين والمؤمنات مِن الخَير والفضل والكرامة والنعيم الدائم،كَي يَحرصوا على أداء العبادات والطاعات بكل هِمَّة ونِشاط،فهي الطريق الوحيد إلى الجَنَّة. والنعيمُ الذي يَحصل عليه المؤمنون في الجَنَّة ، لا مَزِيد عليه ، ولا يُوجد أفضل وأعظم مِنه إطلاقًا.

وتَنكيرُ ﴿ رِضْوَانٌ ﴾ للتَّقليل والتَّصغير . أي : وشَيْءٌ ما مِن رِضوان الله أكبر مِن ذلك كُلِّه . وهذا يعني أن جميع النِّعَم في الجَنَّة لا تُعَدُّ شيئًا بجَنْب رِضوان الله ، وأن رِضا الله أعظم مِن كُل شيء بلا استثناء . وفي الإيضاح في عُلوم البلاغة (ص ٥٠) : ((﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ﴾ ، أي: وشَيء ما مِن رِضوانه أكبر مِن ذلك كُلِّه ، لأن رِضاه سَبب كُل سعادة وفلاح ، ولأن العبد إذا عَلِمَ أنَّ مَوْلاه راضٍ عنه ، فهو أكبر في نفْسه مِمَّا وراءه مِن النِّعَم ، وإنَّما تَهْنَأ له برضاه ، كما إذا عَلِمَ بسَخَطِه تنغَّصت عليه ، ولم يجد لها لَذَّةً وإن عَظُمَت)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٣) : ((﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ منازل طَيِّبة ﴿ في جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : بساتين خُلْد وإقامة . يُقال : عَدَنَ بالمكان ، إذا أقامَ به . قال ابن مسعود : هي بُطْنان الجَنَّة ، أي : وَسَطها . قال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن في الجَنَّة قَصْرًا يُقال له : عَدْن ، حَوله البُروج والمُروج ، له خمسة آلاف باب، لا يَدخله إلا نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد . وقال الحسن: قَصْر مِن ذَهَب لا يَدخله

إلا نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد أو حَكَم عَدْل . وقال عطاء بن السائب : ﴿ عَدْنٍ ﴾ نَهر في الجَنَّة جِنَانه على حَافَتَيْه . وقال مُقاتل والكلبي : ﴿ عَدْنٍ ﴾ أعلى درجة في الجَنَّة ، وفيها عَين التَّسنيم ، والجِنان حَوْلها مُحْدِقة بها ، وهي مُغطَّاة مِن حِين خَلَقَهَا اللهُ تعالى حتى يَنزِلها أهلُها : الأنبياء والصِّديقون والشُّهداء والصالحون ، ومَن شاء الله . وفيها قُصور الدُّر واليواقيت والذهب ، فتهبُّ رِيح طَيِّبة مِن تَحت العَرْش، فتَدخل عليهم كُثبان المِسك الأَذْفَر الأبيض.﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ﴾ أي : رِضا الله عَنهُم أكبر مِن ذلك ، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٨ و٤٦٩): ((قَوله تعالى: ﴿ في جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ . قال أبو عُبَيدة : في جَنَّات خُلْد . يُقال : عَدَنَ فُلان بأرض كذا ، أي : أقام . ومِنه المَعْدِن ، وهو في مَعْدِن صِدْق ، أي: في أصل ثابت... . قال ابن عباس: جَنَّات عَدْن هي بُطْنان الجَنَّة، وبُطْنانها وسطها، وهي أعلى درجة في الجنة، وهي دار الرحمن عَزَّ وَجَلَّ، وسَقْفها عَرْشه، خَلَقَها بيده، وفيها عَيْن التَّسنيم،والجِنان حَوْلها مُحْدِقة بها. قَوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ﴾ . قال ابن عباس: أكبر مِمَّا يُوصَف. وقال الزَّجاج: أكبر مِمَّا هُم فيه مِن النَّعيم . فإن قِيل: لِمَ كان الرِّضوانُ أكبرَ مِن النَّعيم، فعنه جوابان: أحدهما أنَّ سُرور القلب بِرِضى الرَّب نعيم يختص بالقلب،وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب...والثاني أنَّ المُوجِب للنَّعيم الرِّضوان،والمُوجَب ثمرة المُوجِب ، فهو الأصل)) .

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال: قال النبيُّ ﷺ : ((إنَّ الله يَقول لأهل الجَنَّة: يا أهْلَ الجَنَّة ، فيقولون : لَبَّيْكَ ، وسَعْدَيْكَ ، والخَيْرُ في يَدَيْكَ ، فيقول: هَل رَضِيتُم؟، فيَقُولون: وما لنا لا نَرضى يا رَب ، وقد أعْطَيْتَنَا ما لَم تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِك ؟ ، فيَقُول : ألا أُعْطِيكُم أفضلَ مِن ذلك ؟ ، فيَقُولون : يا رَب ، وأيُّ شَيء أفضل مِن ذلك ؟ ، فيَقول : أُحِلُّ عَلَيْكُم رِضْوَاني ، فلا أسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا)) [١٠٣].

شرَّف اللهُ المؤمنين أهلَ الجَنَّة بكلامه معهم ومُخاطبتهم ، وقد أنعمَ عليهم بالنِّعَم العظيمة الكثيرة. واللهُ أكرم الأكرمين، وفضله دائم لا يَنقطع،وإحسانه إلى عباده المؤمنين مُستمر، لا يَزُول. وأعطاهم اللهُ أفضلَ مِن نعيم الجَنَّة الدائم، وهو إنزال رِضوانه بِهم، فلا يَرَوْنَ بعد رِضوان الله سَخَطًا (غضبًا). سَوْفَ يستمتعون في الجَنَّة الأبدية بالنعيم الذي لا شَقاء بعده، وبالرَّاحة التي لا تعب بعدها،وبالرِّضوان الإلهيِّ الذي لا غَضَب بعده. وهذا يدل على كَرَم الله وفضله العظيمَيْن الدائمَيْن.

١٠٣ متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٧٣٢) برقم (٧٠٨٠) ، ومسلم (٤/ ٢١٧٦) برقم (٢٨٢٩).

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣١١) : (((إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجَنَّة) وهُم فيها (يا أهل الجَنَّة، فيقولون: لَبَّيْكَ) أي إجابة بعد إجابة لك يا (رَبَّنا) مِن أَلَبَّ بالمكان أقام ، أي : نُقِيم لامتثال أمرك إقامةً كثيرة (وسَعْدَيْكَ) بمعنى الإسعاد، وهو الإعانة، أي: نطلُب مِنكَ إسعادًا بعد إسعاد (والخَير في يَدَيْكَ) أي :في قُدرتك ، ولَم يُذكَر الشَّر ، لأن الأدب عدم نِسبته إليه صريحًا (فيقول) سُبحانَه وتعالى لهم (هَل رَضِيتُم ؟) بما صِرْتُم إليه من النعيم المُقيم ، (فيقولون : وما لنا) أي : أيُّ شيء لنا (لا نرضى) وهو حال من الضمير في الظَّرْف ، والاستفهام لتقدير رِضاه (وقد أعْطَيْتنا)، وفي رواية : وهل شيء أفضل مِمَّا أعْطَيْتَنا ؟ أعْطَيْتنا (ما لَم تُعْطِ أحدًا مِن خَلْقِك ؟) الذين لَم تُدخِلهم الجَنَّةَ (فيقول) تعالى (ألا) بالتخفيف (أُعطيكم) بضَم الهَمزة. وفي رواية: أنا أُعطيكم (أفضلَ مِن ذلك) الذي أنتم فيه مِن النَّعيم (فيقولون: يا رَب وأي شيء أفضل من ذلك ؟) قال : يا رَب ، في المَوْضِعَيْن ، ولم يَقُل : رَبَّنا ، مَعَ كَوْن الجَمْع مَذكورًا قَبله إشعارًا بأن ذلك قَول كُل واحد منهم، لا أن طائفة تكلَّموا ، وطائفة سَكتوا، إذ الكلام مِن كُل واحد على حُصول الرِّضى (فيَقول : أُحِل) بضم أوله وكَسْر المُهملة ، أي: أُنزِل (عليكم رِضواني) بكسر أوَّله وضَمِّه أي رِضَايَ ، ورِضَاه سبب كُل سعادة . وفيه أن النعيم الحاصل لأهل الجَنَّة لا يزيد على رِضى الله (فلا أسخَط عليكم بعده أبدًا) مفهومه أن الله تعالى لا يَسخَط على أهل الجَنَّة ، لأنه مُتفضِّل عليهم بالإنعام كُلها دُنيوية وأُخروية . فظاهر الحديث أن الرِّضى أفضل من اللقاء . وأُجِيب بأنه لم يَقُل : أفضل مِن كُل حال ، بل أفضل مِن الإعطاء . واللقاء يَستلزم الرِّضى ، فهو مِن إطلاق اللازم ، وإرادة الملزوم . وفيه أن السعادة أي الرُّوحانية أفضل مِن الجِسمانية . ونِعَم للمؤمنين عَظيمة ، وهي سَماع كلام رَب العَالَمِين ، وأعظم مِنه خطابهم إيَّاه ، بتقريره نِعَمه عليهم ، وتعريفه إيَّاهم فَضْلَه لديهم ، وإن رِضى الله أفضل مِن نَعيم الجَنَّة)) .

وعن عبد الله بن قيس : عن النبيِّ ﷺ قال : ((جَنَّتَانِ مِن فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُما ، وما فِيهما ، وجَنَّتَانِ مِن ذَهَبٍ ، آنِيَتُهُما ، وما فِيهما ، وما بَيْنَ القَوْمِ وبَيْنَ أن يَنْظُروا إلى رَبِّهم ، إلا رِدَاءُ الكِبْرياءِ على وَجْهه في جَنَّةِ عَدْن)) [١٠٤]. هذا يدل على تفاوُت منازل الجَنَّة ، واختلاف الدَّرَجَات فيها،فبعضها أعلى مِن بعض حِسًّا ومعنى.جَنَّتان مَبْنِيَّتان مِن فِضَّة، أوانيهما وكُل ما فِيهما مِن فِضَّة، وجَنَّتان مَبْنِيَّتان مِن ذهب ، أوانيهما وكُل ما فِيهما مِن ذَهَب .

---

١٠٤ متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧١٠) برقم (٧٠٠٦) ، ومسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٠) .

والذَّهَبُ والفِضَّة في الجَنَّة يَختلفان عن الذهب والفِضَّة في الدُّنيا ، فهُما مُشتركان في اللفظ ، مُختلفان في المعنى ، لأن نعيم الآخرة دائم وباقٍ ، أمَّا حُطام الدُّنيا فزائل وفانٍ . واللهُ خَاطَبَ العربَ بما يَعقِلون ويَعرِفون ، وهُم يَعرِفون أن الذهب أغلى المعادن وأنفَسُها . وذَهَبُ الجَنَّة أعظم وأعلى مِن ذَهَب الدُّنيا ، ولا مَجال للمُقارَنة ، لأن في الجَنَّة ما لا عَيْن رَأتْ ، ولا أُذُن سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر .

وكان النبيُّ ﷺ يُخاطِب العربَ بما يَفهمونه ، ويُقرِّب الكلام إلى عقولهم ، ويَستعمل الاستعارة لِيُوصِل لهم المَعنى ، فعبَّر ﷺ عن زوال المانع ورَفْعه بإزالة الرِّداء في جَنَّة عَدْن . والمؤمنون الناظرون في جَنَّة عَدْن، وليس اللهُ فيها، فهو سُبحانَه لا تَحْويه الأمكنة، ولا يَحُلُّ في المخلوقات .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٣١) : ((قَوله في الحديث : " وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رِداءُ الكِبرياء على وَجْهه " ، فإن ظاهره ليس مُرَادًا قطعًا ، فهي استعارة جَزْمًا ، وقد يكون المُراد بالحِجاب في بعض الأحاديث الحِجاب الحِسِّي ، لكنَّه بالنِّسبة للمَخلوقين ، والعِلْم عِند الله تعالى ... . وأصل الحِجاب السِّتْر الحائل بين الرائي والمَرئي ، والمراد به هُنا مَنْع الأبصار مِن الرؤية له بما ذُكِرَ ، فقام ذلك المَنع مَقام السِّتْر الحائل، فعبَّر به عنه ، وقد ظَهَرَ مِن نُصوص الكِتاب والسُّنة أن الحالة المُشار إليها في هذا الحديث هي في دار الدُّنيا المُعَدَّة للفَناء دُون دار الآخرة المُعَدَّة للبَقاء . والحِجاب في هذا الحديث وغَيره يَرجع إلى الخَلْق ، لأنَّهُم هُم المَحْجُوبون عنه. وقال النووي: أصل الحجاب المَنْع من الرؤية، والحِجاب في حقيقة اللغة السِّتْر، وإنَّما يكون في الأجسام ، واللهُ سُبحانَه مُنَزَّه عن ذلك ، فعُرِف أن المراد المَنْع مِن رُؤيته ... . قَوله : " جنتان من ذهب ، آنيتهما ، وما فيهما ، وجنتان من فضة ، آنيتهما ، وما فيهما " . في رواية حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَاني عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه ، قال حماد : لا أعْلَمُه إلا قد رَفَعَه ، قال : جنتان من ذهب للمُقرَّبين ، ومِن دُونهما جنتان مِن وَرِق (فِضَّة) لأصحاب اليمين . أخرجه الطبري وابن أبي حاتم ، ورجاله ثقات ... وفيه رَد على ما حَكَيْتُه على الترمذي الحكيم أن المُراد بقَوله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَان ﴾ [الرَّحمن : ٦٢] ، الدُّنُوُّ بمعنى القُرب، لا أنهما دُون الجَنَّتين المَذكورتين قَبْلهما . وصرَّح جماعة بأنَّ الأوْلَيَيْن أفضل من الأُخْرَيَيْن ، وعَكَسَ بعضُ المُفسِّرين ، والحديث حُجَّة للأوَّلين . قال الطبري : اخْتُلِف في قَوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَان ﴾،فقال بعضُهم:معناه في الدَّرَجة. وقال آخرون: معناه في الفَضْل . وقَوله : " جَنَّتان" إشارة إلى قَوله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَان ﴾ ، وتفسير له ، وهو خَبَر مُبتدأ مَحذوف ، أي :

هُما جَنَّتان ... . قَوله : " وما بَيْنَ القَوم وبَيْنَ أن يَنظروا إلى ربِّهم إلا رِداءُ الكِبرياء على وجهه " . قال المازري : كان النبيُّ ﷺ يُخَاطِب العربَ بما تَفهم ، ويُخرِج لهم الأشياءَ المعنوية إلى الحِس ، ليُقرِّب تناوُلَهم لها ، فعبَّر عن زوال الموانع ورفعه عن الأبصار بذلك . وقال عِياض : كانت العربُ تستعمل الاستعارة كثيرًا ، وهو أرفع أدوات بديع فَصاحتها وإيجازها ... . فمُخاطبة النبيِّ ﷺ لهم برِدَاء الكِبرياء على وَجْهه ، ونَحْو ذلك مِن هذا المعنى . ومَن لَم يَفهم ذلك تَاهَ ، فَمَن أجرى الكلامَ على ظاهره ، أفضى به الأمر إلى التَّجسيم . ومَن لَم يتَّضح له وعَلِمَ أن الله مُنَزَّه عن الذي يَقتضيه ظاهرها ، إمَّا أن يُكَذِّب نَقَلَتَها ، وإمَّا أن يُؤَوِّلها ، كأن يقول : استعارَ لعظيم سُلطان الله وكِبريائه وعَظَمَته وهَيْبَته وجَلاله المانع إدراك أبصار البشر مع ضعفها لذلك، رِداء الكِبرياء.فإذا شاء تقوية أبصارهم وقلوبهم كشف عنهم حِجاب هَيْبته ، وموانع عَظَمَته ، انتهى مُلَخَّصًا . وقال الطيبي: قَوله : " على وجهه " حال مِن رِداء الكِبرياء . وقال الكرماني : هذا الحديث مِن المُتَشَابِهَات ، فإمَّا مُفَوِّض ، وإمَّا مُتَأَوِّل بأن المُراد بالوَجْه الذات ، والرِّداء صِفة مِن صِفة الذات اللازمة المُنَزَّهة عمَّا يُشبِه المخلوقات ، ثُمَّ استشكل ظاهره بأنه يَقتضي أن رؤية الله غير واقعة ، وأجاب بأن مَفهومه بيان قُرب النَّظَر ، إذْ رِداء الكِبرياء لا يكون مانعًا مِن الرُّؤية ، فعبَّر عَن زَوال المَانع عن الإبصار بإزالة المُراد انتهى . وحاصله أن رِداء الكِبرياء مانع عن الرُّؤية ، فكأن في الكلام حَذفًا تقديره : بعد قَوله : " إلا رِداءُ الكِبرياء " ، فإنَّه يَمُنُّ عليهم برَفْعه ، فيَحصُل لهم الفَوز بالنظر إلَيه ، فكأنَّ المُراد أن المؤمنين إذا تَبَوَّؤا مقاعدَهم مِن الجَنَّة ، لَوْلا ما عِندهم مِن هَيْبَة ذِي الجِلال ، لَمَا حَالَ بَيْنَهم وبين الرُّؤية حائل ، فإذا أراد إكرامَهم حفَّهم برأفته ، وتَفَضَّلَ عَلَيهم بتقويتهم على النظر إليه سُبحانَه ... ثُمَّ وَجَدْتُ في حديث صُهَيب في تفسير قَوله تعالى : ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يُونُس: ٢٦] ، ما يدلُّ على أن المراد برِداء الكِبرياء في حديث أبي مُوسى الحِجاب المَذكور في حديث صُهَيب ، وأنَّه سُبحانَه يَكشِف لأهل الجنة إكرامًا لهم ... . والحديث عِند مُسلم والتِّرمذي والنَّسائي وابن خُزَيمة وابن حِبَّان ، ولفظ مُسلِم أن النبيَّ ﷺ قال : " إذا دَخَلَ أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، يقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : تُريدون شيئًا أزيدكم ؟ ، فيقولون : ألم تُبَيِّضْ وُجُوهَنا ، وتُدْخِلْنا الجنةَ ؟ ، قال : فيَكشف لهم الحِجَابَ ، فما أُعْطُوا شيئًا أحبَّ إلَيهم مِنه " . ثُمَّ تلا هذه الآية :" ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ "، أخرجه مُسلِم عَقِب حديث أبي مُوسى . ولَعَلَّه أشار إلى تأويله به . وقال القرطبي في المُفهِم : الرِّداء استعارة ، كَنَّى بها عن العَظَمَة ، كما في الحديث الآخَر : " الكِبرياءُ رِدائي ، والعَظَمَةُ إزاري " ، وليس المُراد الثياب المَحسوسة ، لكن

المناسبة أن الرِّداء والإزار لَمَّا كانا مُتلازِمَيْن للمُخَاطَب مِن العرب، عبَّر عن العَظَمَة والكِبرياء بهما. ومعنى حديث الباب أن مُقْتَضَى عِزَّة الله واستغنائه أن لا يراه أحد ، لكن رحمته للمؤمنين اقتضت أن يُرِيَهم وَجْهَه كَمَالًا للنِّعمة ، فإذا زال المانع ، فَعَلَ مَعهم خِلافَ مُقْتَضَى الكِبرياء ، فكأنه رَفَعَ عنهم حِجَابًا كان يَمنعهم . ونقل الطبري عن عليٍّ وغَيره في قَوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ . قال : هو النَّظَر إلى وَجْه الله . قَوله : " في جَنَّة عَدْن " . قال ابن بَطَّال : لا تعلُّق للمُجسِّمة في إثبات المَكان لِمَا ثَبَتَ مِن استحالة أن يكون سُبحانَه جِسْمًا ، أو حَالًّا في مكان ، فيكون تأويل الرِّداء الآفة الموجودة لأبصارهم المانعة لهم مِن رُؤيته ، وإزالتها فِعل مِن أفعاله يَفعله في مَحِلِّ رُؤيتهم ، فلا يَرَوْنَه ما دام ذلك المانع موجودًا ، فإذا فَعَلَ الرُّؤيةَ ، زال ذلك المَانع ، وسمَّاه رِدَاءً لتنزُّله في المَنع منزلة الرِّداء ، الذي يَحجُب الوَجْهَ عن رؤيته ، فأطلق عليه الرِّداء مَجَازًا . وقَوله : " في جَنَّةِ عَدْن" راجع إلى القَوم. وقال عِياض: معناه راجع إلى الناظرين، أي: وهُم في جَنَّة عَدْن، لا إلى الله. فإنه لا تَحويه الأمكنة سُبحانَه . وقال القرطبي : يتعلَّق بمَحذوف في مَوضِع الحال مِن القَوم مِثل: كائنين في جَنَّة عَدْن . وقال الطيبي : قَوله : " في جَنَّةِ عَدْن " مُتعلِّق بمعنى الاستقرار في الظَّرْف، فيُقيَّد بالمفهوم انتفاءُ هذا الحَصْر في غير الجَنَّة ، وإلَيه أشار التُّورِبِشْتِي بَقوله : يُشير إلى أن المؤمن إذا تبوَّأ مَقعَده ، والحُجُب مُرتفعة ، والموانع التي تَحجُب عن النظر إلى ربِّه مُضْمَحِلَّة ، إلا ما يَصُدُّهم مِن الهَيْبَة ، كما قِيل : أشتاقُه فإذا بدا ... أطرقتُ مِن إجلاله . فإذا حفَّهم برأفته ورحمته ، رَفَعَ ذلك عنهم تفضُّلًا مِنه عليهم)) .

وعن عبد الله بن قيس عن النبيِّ ﷺقال:((إنَّ للمُؤمنِ في الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِن لُؤلُؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُها سِتُّونَ مِيلًا ، للمُؤمن فيها أهْلُون ، يَطُوفُ عَلَيهم المؤمنُ فلا يرى بَعْضُهم بعضًا)) [١٠٥].

هذا يدل على رحمة الله وفضله وكَرَمه وإحسانه إلى عباده المؤمنين . فقد أنعمَ عليهم بالنِّعَم العظيمة الجليلة في الجَنَّة . وللمؤمن في الجَنَّة خَيمة مِن لؤلؤة واحدة ، في غاية الحُسن والجَمَال والبهاء ، واسعة الجَوف وفارغة مِن الداخل ، طُولها سِتُّون مِيلًا . ولا يُمكن وجود خَيمة في الدُّنيا بهذا الحجم المُذهِل . للمؤمن في الجَنَّة زوجات كثيرة ، يَدُور عليهنَّ جميعًا لجِمَاعِهِنَّ . وبسبب سَعَة الخَيمة وجَمَالها وكثرة مرافقها ، لا يَرى بعضُهم بعضًا . وهذه الخِيَام غَير القُصور والمنازل والغُرَف. والحديثُ يُبيِّن عِظَمَ نعيم الجَنَّة الدائم ، بلا زوال ، ولا انقطاع .

---

١٠٥ متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ٢١٨٢)برقم(٢٨٣٨). والبخاري (٤/ ١٨٤٩) برقم (٤٥٩٨).

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٠٢) : (((إنَّ للمؤمن في الجَنَّةِ لَخَيْمَةً) بفتح لام التَّوكيد ، أي : بَيْتًا شريف المِقدار ، عالي المَنار . وأصل الخيمة بيت تَبنيه العرب مِن عِيدان الشَّجَر (مِن لُؤلُؤة) بهمزتين وبحذفهما ، وبإثبات الأولى لا الثانية وعَكْسه (واحدة) تأكيد (مُجَوَّفة) واللؤلؤ معروف (طُولها سِتُّونَ مِيلًا) أي : في السماء. وفي رواية: عَرْضها ثلاثون مِيلًا، ولا مُعارَضة ، إذْ عَرْضها في مساحة أرضها ، وطُولها في العُلُوِّ . نَعَم ، وَرَدَ طُولها ثلاثون مِيلًا ، وحينئذ يمكن الجَمْع بأن ارتفاع تلك الخَيمة باعتبار دَرَجَات صاحبها (للمُؤمِن فيها أهْلُون) أي : زَوجات مِن نِساء الدُّنيا والحُور (يَطوف عليهنَّ المؤمنُ) أي : لِجِمَاعِهِنَّ وما هنالك (فلا يرى بَعْضُهُنَّ بَعْضًا) أي : مِن سَعَة الخيمة وعِظَمِها ، ثم إن ما ذُكِرَ مِن كَوْن تِلك الخَيمة في النَّفاسة والصفاء كاللؤلؤ ، لا أنها مِنه حقيقة ، فهو مِن قَبيل : ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّة ﴾ [الإنسان : ١٦] . والقارورة لا تكون فِضَّة ، بل المراد أن بَياضها كالفِضَّة. إلى هنا كلامه، وفيه ما فيه، إذْ لا مانع شَرْعًا ولا عقلًا مِن إجرائه على ظاهره،والفاعلُ المُختار لا يُعجِزه جَعل الخَيْمَةَ لُؤلؤةً مُجوَّفةً)) .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧٠٠) : عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : ((مَن آمنَ بالله ورسوله، وأقامَ الصلاة ، وصامَ رَمَضَان ، كان حَقًّا على الله أن يُدخِله الجَنَّةَ ، هَاجَرَ في سبيل الله ، أو جَلَسَ في أرضه التي وُلِدَ فيها)) .

مَن صدَّق بوَحدانية الله ، وأقرَّ بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وأدَّى العباداتِ ، وفَعَلَ الطاعات ، والتزمَ أوامرَ الله ، واجتنبَ نَوَاهيه ، كانَ حقًّا على الله أن يُدخِله الجَنَّةَ ، سواءٌ هاجرَ في سبيل الله أم جَلَسَ في بلده (مَسقَط رأسه) ولم يُهاجر . والحديثُ يدل على أهمية الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان عقيدة مُستقرة في القلب ، وتَصديق باللسان ، وعمل بالجوارح والأعضاء . والإيمانُ أساس العبادات ، وبدونه لا معنى للعبادات . وتَمَّ تخصيص الصَّلاة والصَّوم بالذِّكْر لمكانتهما العظيمة ، وشرفهما الرفيع ، وأهميتهما الكبيرة . ومَفهوم العبادة غَير مَحصور في الصلاة والصَّوم ، فالعبادةُ هي كُل ما يُحِبُّه اللهُ ويَرْضاه مِن الأقوال والأعمال .

وقد ألزمَ اللهُ ذَاتَه العَلِيَّةَ بإدخال المؤمن الطائع الجَنَّة ، فضلًا مِنه ورحمة . ولا أحد يُجبِر اللهَ على فِعل شَيء . ولا تُوجَد سُلطة أعلى مِن سُلطة الله وسُلطانه وعَظَمَته .

إنَّ إدخال المؤمن الطائع الجَنَّة ، صارَ كالواجب على الله ، نظرًا إلى صِدْقه في كلامه ووعده ، واللهُ لا يُغيِّر كلامَه ، ولا يُخلِف وَعْدَه . وليس الحقُّ هُنا بمعنى الواجب والفَرْض ، فاللهُ لا يَجِب عليه شَيء ، ولا أحد يَفْرِض عليه شيئًا . فاللهُ يَأمر ، ولا يُؤْمَر ، ويَفْرِض الأشياءَ ، ولا تُفْرَض عليه.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤١٣) : ((قَوله : " كان حقًّا على الله " ، وإنَّ مَعناه معنى قَوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] . وليس معناه أن ذلك لازم له، لأنه لا آمِرَ له ، ولا ناهي يُوجِب عَلَيه ما يَلزَمه المُطالبة به ، وإنَّما معناه : إنجاز ما وَعَدَ به مِن الثَّواب ، وهو لا يُخلِف المِيعادَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾[يُونُس : ١٠٣] .

إنَّ إنجاء المؤمنين وإنقاذهم حَق أوجبه اللهُ على نفْسه المُقدَّسة ، تفضُّلًا مِنه على المؤمنين، ورحمةً بهم. وهذا واجبٌ على الله تعالى، لأنَّه أخبرَ، وخَبَرُه صِدْق، ووَعَدَ ، ووَعْدُه واقع لا مَحَالة .

وَعَدَ اللهُ بإنقاذ النبيِّ مُحمَّد ﷺ وأصحابه المؤمنين مِن عذاب الكافرين ، كما أنقذَ الرُّسُلَ والمؤمنين مِن قَبْلهم. وقد أنجزَ اللهُ وَعْدَه، وَتَمَّ على أرض الواقع كما أخبرَ . واللهُ لا يُخلِف وَعْدَه.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٧) : ((﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾ . يقول : كَمَا فَعَلْنا بالماضين مِن رُسُلنا،فأنجيناها والمؤمنين مَعَها، وأهلكنا أُمَمَها، كذلك نفعل بِكَ يا مُحمَّد وبالمؤمنين ، فنُنجِيك ونُنجِي المؤمنين بِكَ حقًّا عَلَينا غَير شك)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦٩): ((في هذا الإنجاء قَولان: أحدهما نُنجِيهم مِن العذاب إذا نزل بالمُكذِّبين، قاله الربيع بن أنس. والثاني نُنجِيهم في الآخرة مِن النار،قاله مُقاتل)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى:﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ﴾[إبراهيم:٢٧].

يُؤَيِّد اللهُ الذين جَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بالحُجَّة الواضحة ، ويُثَبِّتهم على كلمة التَّوحيد " لا إله إلا الله " في الدُّنيا، فلا يَنحرفون، ولا يَزِيغون ، ولا يَضِلُّون طريقَهم ، ولا يَسقطون عِند الفِتَن ، وفي الآخِرة عِند سُؤال المَلَكَيْن في القبر . والقبر أوَّل منازل الآخرة . ولن يَثْبُت على الحق ، إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى . والعِبرةُ لَيست بذكاء العبد ومهاراته ، وإنما بهداية الله وتَثبيته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦١) : ((قَوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنُوا ﴾ أي : يُثبِّتهم على الحق ﴿ بالقَوْلِ الثابتِ ﴾ ، وهو شَهادة أن لا إله إلا الله . قَوله تعالى : ﴿ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ﴾ فيه قَولان : أحدهما أن الحياة الدُّنيا زَمَان الحياة على وَجْه الأرض، والآخرة زَمَان المُسَاءَلة في القبر . وإلى هذا المعنى ذهب البَرَاء بن عَازِب ، وفيه أحاديث تُعضِّده. والثاني أن الحياة الدُّنيا زمن السؤال في القبر ، والآخرة السؤال في القيامة . وإلى هذا المعنى ذهب طاووس وقَتادة . قال المُفسِّرون : هذه الآية وردت في فِتْنَة القبر ، وسُؤالِ المَلَكَيْن ، وتَلقينِ الله تعالى للمؤمنين كَلِمةَ الحق عِند السُّؤال ، وتثبيته إيَّاهم على الحق)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠١) : عن البَرَاء بن عَازِب عن النبيِّ ﷺ قال: ((﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ ﴾)) . قال: ((نزلت في عذاب القَبْر ، فيُقال له : مَن رَبُّك ؟ ، فيقول: رَبِّيَ الله ، ونَبِيِّي مُحمَّد ﷺ ، فذلك قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ﴾)) .

هذا الحديثُ يُثبِت عذابَ القبر . ويُثبِت وجود امتحان صعب في القبر ، ولكنَّ اللهَ يُثبِّت المؤمنين الذين صدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، وعملوا الطاعات،واجتنبوا المعاصي.يُثبِّتهم على كلمة التَّوحيد (شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله) . وكلمةُ التَّوحيد هي الحُجَّة الواضحة ، والقَول الثابت ، واليقين الراسخ ، الذي تمكَّنَ مِن قلوب المؤمنين ، وثَبَتَ فيها .

وقال عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _: ((إذا حَدَّثْتُكُم بحديث أنْبَأْتُكُم بتصديق ذلك. إن العبد المسلم إذا مات أُجلِس في قبره، فَيُقال له:مَن رَبُّك ؟،ما دِينك ؟، مَن نَبِيُّك ؟ ، فَيُثَبِّته الله ، فيقول : رَبِّيَ الله ، ودِيني الإسلام، ونَبِيِّي مُحمَّد ﷺ ، فَيُوَسَّع له في قبره ، ويُفرَّج له فيه)) . ثُمَّ قرأ عبد الله : ((﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ [إبراهيم : ٢٧])) [١٠٦].

هذا الحديث مَوقوف لفظًا ، مَرفوع حُكْمًا، لأن هذه الأمور الغَيْبِيَّة لا مَجال لمعرفتها بدون الوَحْي ، فنَجزِم أن الصحابي قد سَمِعه مِن النبيِّ ﷺ .

ومَن نَجَحَ في الإجابة عن هذه الأسئلة المصيرية بشكل صحيح ، فإنَّ قبره سيُصبح روضةً مِن رياض الجَنَّة ، ومَن فَشِلَ في الإجابة ، فإنَّ قبره سيُصبح حُفرةً مِن حُفَر النار . واللهُ يُؤَيِّد المؤمنين بالحُجَّة الواضحة ، ويُثبِّتهم على الحق ، وهذا سبب نجاحهم وفلاحهم ونعيمهم . أمَّا الكافرون ، فإن الله يَخذُلهم ، ويَتركهم لمصيرهم الكارثي ، وهذا سبب فشلهم وتعاستهم وعذابهم . والثباتُ في القبر عِند سؤال المَلَكَيْن لا يَكون بذكاء العبد ، ومهاراته اللغوية ، وقُدرته على الحِوار والمُناقشة ، وإنَّما يَكون بتثبيت الله وتَوفيقه. ولَن يَثبُت إلا مَن ثبَّته اللهُ تعالى . ومَن ثَبَتَ على الإسلام في الدُّنيا،وأطاعَ اللهَ قَوْلًا وفِعْلًا، فإنَّ الله يُثبِّته في الدُّنيا والآخرة.والجَزاء مِن جِنس العمل.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئاتِهِم وَلَنَجْزِيَنَّهُم أحْسَنَ الذي كانوا يَعْمَلُون ﴾ [العنكبوت : ٧] .

---

١٠٦ رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٣٣) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٣/ ١٧٨) .

والذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بنُبُـوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات ، واجتنبوا المَعَاصي، أي إنهـم جَمعوا بين الإيمان والعمـل الصـالح ، لَنَمْحُوَنَّ ذُنوبَهم الماضية ، ولَنُبْطِلَنَّ سيِّئاتهم التي عَمِلُوها ، حتى تَصير كأنها لم تُعمَل أصلًا ، وذلك بسبب إيمانهم وعباداتهم وطاعاتهم . والتَّكفيرُ إذهـاب السَّـيئة بالحسـنة. ولَنَجْـزِيَنَّهُم بأحسـن أعمـالهم (طاعـاتهم)، ولـيس بمسـاوئ أعمـالهم (مَعَاصيهم) . وهذا يدل على فضل الله وكَرَمه وإحسانه إلى عباده المؤمنين الطائعين .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا ﴾ ، أي : صدَّقوا، ﴿ وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئاتِهِم ﴾ ، أي : لَنُغَطِّيَنَّهَا عنهم بالمَغفرة لهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُم أحْسَنَ الذي كانوا يَعْمَلُون ﴾ ، أي : بأحسن أعمالهم ، وهو الطاعات . ثُمَّ قِيل : يُحتمل أن تُكَفَّر عنهم كُل مَعصية عَمِلوها في الشِّرك ، ويُثابوا على ما عَمِلوا مِن حَسَنة في الإسلام . ويُحتمل أن تُكَفَّر عنهم سَيِّئاتهم في الكُفر والإسلام ، ويُثابوا على حسناتهم في الكُفر والإسلام)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٧٤) : ((﴿ والذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئاتِهِم ﴾ ، أي : لَنُغَطِّيَنَّهَا عَنهُم بالمَغفرة ، بسبب ما عَمِلُوا مِن الصالحات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُم أحْسَنَ الذي كانوا يَعْمَلُون ﴾ ، أي : بأحسن جَزاء أعمـالهم . وقِيل : بجَزاء أحسنِ أعمـالهم . والمُراد بأحسن مُجرَّد الوَصْف،لا التَّفضيل،لِئلا يَكون جَزاؤهم بالحَسَن مَسْكُوتًا عَنه. وقِيل: يُعطيهم أكثرَ مِمَّا عَمِلُوا ، وأحسنَ مِنهُ ، كما في قَوله : ﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمثالِها ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها نِعْمَ أجْرُ العاملين ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

والذينَ صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وعَمِلوا الطاعات ، واجتنبوا المَعَاصي ، لَنُنْزِلَنَّهُم أعالي الجَنَّة ، وَلَنُسْكِنَنَّهُم منازلَ رفيعة فيها ، تَجْري مِن تَحت أشجارها وقُصورها الأنهارُ، ماكثين فيها إلى الأبد ، ولا يَخرُجون مِنها ، ولا يَمُوتون . نِعْمَ هذه المَنَازل الرفيعة (غُرَف الجَنَّة) أجرًا على طاعات المؤمنين وأعمالهم الصالحة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٦) : ((قال تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ ﴾ ، أي : لَنُسْكِنَنَّهُم مَنَازِلَ عاليةً في الجَنَّة ، تَجْري مِن تحتها الأنهارُ على اختلاف أصنافها ، مِن ماء وخَمْر وعَسَل ولَبَن ، يُصَرِّفُونها ويُجْرُونها حَيث شاؤوا ، ﴿ خالدينَ فِيها ﴾ ، أي : مَاكِثِينَ فيها أبدًا ، لا يَبْغُون عَنها حِوَلًا ، ﴿ نِعْمَ أجْرُ العاملين ﴾ ، نِعْمَت هذه الغُرَف أجرًا على أعمال المؤمنين)) .

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ أهل الجَنَّة يَتَـرَاءَوْنَ أهلَ الغُـرَفِ مِـن فَـوقهم ، كما تَتَـرَاءَوْنَ الكَوكَبَ الـدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ ، مِـن المَشـرِقِ أو المَغـرِب ، لِتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُم)). قالوا : يا رسول الله ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأنبياء ، لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهم . قال : ((بَلَى، والذي نَفْسي بيده ، رِجَالٌ آمَنُوا بالله ، وصَدَّقوا المُرْسَلِين)) [107].

إنَّ أهـل الجَنَّـة يَنظـرون ويُشـاهدون أهـلَ الغُـرَف ، وهُـم أصـحاب المنـازل الرفيعـة ، والقُصـورِ العالية في الجَنَّة ، كَمَا تُشاهدون في الدُّنيا النَّجْمَ الشديد الإضاءة ، الذاهب في أطراف السَّماء ، بسبب بُعد منازل أهل الغُرَف ، وسُمُوِّ مكانتهم ، وعُلُوِّ درجاتهم ، وتميُّزهم ، وتفوُّقهم على باقي أهل الجَنَّة.وقد اعتبرَ الصحابةُ أن الغُرَف (القُصور العالية) منازل الأنبياء،لا يُشاركهم فيها غَيْرُهم. وصـحَّح النبيُّ ﷺ هـذه الفكـرة الخاطئـة ، وبيَّـن أنهـا منـازل الأنبيـاء ، وأيضًـا منـازل المـؤمنين الـذين صدَّقوا بوَحدانية الله ورُسُلِه حَقَّ التَّصديق ، فهي لَيست خاصَّة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والحـديثُ يـدل علـى أن أهـل الجَنَّـة مُتفـاوتون فـي المنـازل والـدَّرَجَات ، بحَسَـب أعمـالهم وعباداتهم،حتَّى إن أهل الدَّرَجَات الرفيعة يَراهم مَن هُوَ أقل مِنهُم وأسفل مِنهم كالنُّجوم في السماء. ومَن صَدَّقَ بالمُرْسَلِين قَوْلًا وفِعْلًا ، بَلَغَ منازلهم الرفيعة ، ووصلَ إلى قُصورهم العالية . وأعلى دَرَجَة في الجَنَّة هي دَرَجَة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، لأنَّه أعظم مخلوقات الله على الإطلاق . والجديرُ بالذِّكر أن دُخول الجَنَّة إنَّما يَكون برحمة الله تعالى، والحُصول على الدَّرَجَات والمَنَازل بحَسَب أعمال العباد.

وقـال الحـافظ فـي الفـتح (٦/ ٣٢٧ و٣٢٨) : ((والمعنـى أن أهـل الجَنَّـة تتفـاوَت مَنـازلُهم بحَسَب دَرَجَاتهم في الفَضْل ، حتى إنَّ أهل الدَّرَجَات العُلا ، لَيَـرَاهُم مَن هو أسفل مِنهُم كالنجوم. وقد بيَّن ذلك في الحديث بقوله : " لِتَفَاضُـل ما بَينهم " . قَوله : " الدُّرِّي " هـو الـنجم الشـديد الإضاءة . وقال الفَرَّاء : هو النجم العظيم المِقدار ... . قَوله : " الغابر " ... قال عِياض : كأنَّه الداخل في الغُروب ... . الغابر هُنا الذاهب ، وقد فسَّره في الحديث بقَوله : " مِن المَشرق إلى المَغـرب " ، والمـراد بـالأُفق السـماء ... . قَولـه : قـال : " بَلَـى " ، قـال القرطبـي : بَلَـى ، حـرف جـواب وتصـديق ، والسـياق يَقتضـي أن يكـون الجـواب بالإضـراب عـن الأول ، وإيجـاب الثـاني ، فلعلَّها كانت بَل فغُيِّرت ببَلَى . وقَوله : " رجال " خبر مُبتدأ مَحذوف ، تقديره : وهُم رجال ، أي : تِلك المنـازل منـازل رِجـال آمَنُـوا . قُلْـتُ : حكـى ابـن التـين أن فـي روايـة أبـي ذَر بَـلْ بـدل بَلَـى ،

---

١٠٧ متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٨٨) برقم (٣٠٨٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧) برقم (٢٨٣١) .

ويُمكن تَوجيه بَلَى ، بأن التقدير نَعَم ، هي منازل الأنبياء ، بإيجاب الله تعالى لهم ذلك ، ولكن قد يتفضَّل اللهُ تعالى على غَيرهم بالوُصول إلى تِلك المنازل . وقال ابن التين : يُحتمل أن تكون بَلَى جواب النَّفْي في قَولهم : لا يَبْلُغها غَيْرُهم ، وكأنه قال : بلى يَبْلُغها رِجالٌ غَيْرُهم . قَوله : "وصدَّقوا المُرْسَلِين " أي : حَق تَصديقهم ، وإلا لكانَ كُل مَن آمنَ بالله ، وصدَّق رُسُلَه ، وَصَلَ إلى تِلك الدَّرَجَة ، وليس كذلك . ويُحتمل أن يكون التَّنكير في قَوله : " رجال " يُشير إلى ناس مَخصوصين مَوصوفين بالصِّفة المذكورة ، ولا يَلزَم أن يكون كُل مَن وُصِفَ بها كذلك ، لاحتمال أن يكون لِمَن بلغ تلك المنازل صِفة أخرى ، وكأنه سكت عن الصِّفة التي اقتضت لهم ذلك . والسِّر فيه أنه قد يَبلُغها مَن له عَمَل مَخصوص،ومَن لا عَمَلَ له كان بلوغها إنما هو برحمة الله تعالى ... .

ويُحتمل أن يُقال إنَّ الغُرَف المذكورة لهذه الأُمَّة ، وأمَّا مَن دُونَهم فهُم المُوحِّدون مِن غَيرهم ، أو أصحاب الغُرَف الذين دخلوا الجَنَّةَ مِن أوَّل وَهْلَة ، ومَن دُونَهم مَن دَخَلَ بالشَّفَاعة . ويُؤَيِّد الذي قَبْله قَوْلُه في صِفتهم : " هُم الذين آمنوا بالله ، وصَدَّقوا المُرْسَلين " ، وتَصديق جَميع المُرْسَلين إنَّما يتحقَّق لأُمَّة مُحمَّد ﷺ ، بخِلاف مَن قَبْلهم مِن الأُمَم ، فإنهم وإن كان فيهم مَن صدَّق بمَن سيجيء مِن بَعْده مِن الرُّسُل ، فهو بطريق التَّوَقُّع لا بطريق الواقع ، والله أعلم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٣٤) : (((إنَّ أهل الجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ أهلَ الغُرَف مِن فَوْقهم كَمَا تَرَاءَوْنَ) أنتم يا أهلَ الدُّنيا فيها (الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ) بضَم فَكَسْر مُشَدَّدًا ، نِسبةً إلى الدُّر لصَفاء لَوْنه ، وخُلوص نُوره (الغابر) مِن الغُبُور ، أي : الباقي في الأُفُق ، وهو مِن الأضداد ، ويُقال للماضي وللباقي غَابِر ، والمُراد الباقي بعد انتشار الفَجْر ، وحينئذ يُرى أضْوَأ ... . وفي التمثيل به دون بقية الكواكب ... وهي أعلى (فائدتان) إحداهما بُعده عن العُيون ، والثانية أن الجَنَّة دَرَجَات بعضها أعلى من بعض،وإن لم تسامت العليا السُّفلى، كالبساتين المُمتدة من رأس الجبل إلى ذَيْله ، ذَكَرَه ابن القَيِّم ... . (مِن المَشرق والمغرب) شبَّه رُؤية الرائي في الجَنَّة صاحبَ الغُرفة برؤية الرائي الكوكبَ المُضِيءَ في جانب الشرق والغرب في الإضاءة مع البُعد ، (لِتَفَاضُل ما بَيْنَهم) يعني : يُرى أهلُ الغُرَف كذلك ، لتزايُد دَرَجَاتهم على مَن عَدَاهم ، وإنَّما قال: (مِن المشرق أو المغرب) ، ولَم يَقُل : في السماء ، أي : في كَبِدِها ، لأنه لَوْ قِيل : في السماء، كان القَصْد الأوْلَى بيان الرِّفعة ، ويَلزَم مِنه البُعد . وفي ذِكْر المشرق والمغرب القَصْد الأوَّل مِنه البُعْد ، ويَلزَم مِنه الرِّفعة . وفيه سَمْت مِن معنى التقصير ، بخِلاف الأول فإن فيه نوع اعتذار . ذَكَرَه الطيبي)) .

٧ـ وَعْده إيَّاهم بورَاثة الأرض

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ إن كُنتم مؤمنين ﴾[آل عِمران : ١٣٩].

الآيةُ تَعزية وتَسلية لصحابة النبيِّ ﷺ على ما أصابهم مِن القتل والجِراح في أُحُد ، وتَشجيع لهم على قتال الأعداء لإعلاء كلمة الله تعالى ، ونَهْي لهم عَن العَجْز والحزن والفشل واليأس .

يُخَاطِب اللهُ الصَّحَابَةَ ـ رضي اللهُ عنهم ـ رَفْعًا لمعنوياتهم ، وتعظيمًا لشأنهم : لا تَضعُفوا عَن الجهاد في سبيل الله ، وقتالِ الأعداء ، بسبب ما أصابكم مِن القَتل والجِراح في أُحُد ، ولا تحزنوا على ما أصابكم مِن المُصيبة في ذلك اليوم (القتل أو الهزيمة) أو فَوَاتِ الغنيمة . وهذا تَخفيف عن المؤمنين ، وتَقوية لقلوبهم ، وتَشجيع لهم. وأنتم الغالبون للأعداء ، القاهرون لهم ، المُتَفَوِّقُون عليهم بالنَّصْر والظَّفَر والغَلَبَة ، بعد أُحُد ، فإن ظَهَرُوا عليكم يوم أُحُد ، فقد انتصرتُم عليهم يَوْم بَدْر ، والنصرُ سَيَكُون حَلِيفَكم في المُستقبل أيها المؤمنون ، والعاقبة لكم . وهذه بِشارة إلهية للمؤمنين بالعُلُوِّ والنَّصْر والغَلَبَة ، وإخبار بارتفاع كلمة الإسلام . واللهُ لا يُخلِف وَعْدَه ، ولا يُغيِّر كلامَه . كما أن المؤمنين غالبون وظاهرون بالحُجَّة في الدُّنيا والآخِرة . وأنتم الأعلى قَدْرًا ، والأعظم شأنًا ، لأنَّك قِتالكم لله ، ولإعلاء كلمته ، وقِتالهم للشَّيطان، ولإعلاء كلمة الكُفر ، وقَتلاكم في الجَنَّة، وقَتلاهم في النار، واللهُ مَوْلاكم، ولا مَوْلَى لهم. إن كُنتم حقًّا مؤمنين،فلا تَهِنُوا ، ولا تَحْزَنُوا. والإيمانُ يُوجِب قُوَّةَ القلب والثِّقَةَ بوَعْد الله ، ويَدْعُو إلى تركِ الضَّعف والحزن واليأس. وهذا شَحْذ لِهِمَم المؤمنين ، وتَقوية لعزائمهم ، وتَدعيم لإرادتهم . ورفع لمعنوياتهم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا ﴾ ، هذا حَث لأصحاب النبيِّ ﷺ على الجِهاد،زِيادةً على ما أصابهم مِن القَتل والجِراح يوم أُحُد. يقول الله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا ﴾ ، أي : لا تَضعُفوا ، ولا تَجبُنوا عَن جِهاد أعدائكم بما نالكم مِن القَتْل والجَرح ، وكان قد قُتِلَ يومئذ خمسة مِنهُم : حمزة بن عبد المطلب، ومُصعَب بن عُمَير، وقُتِلَ من الأنصار سَبعون رَجُلًا ، ﴿ ولا تَحْزَنُوا ﴾ فإنكم ﴿ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾ ، أي : تكون لكم العَاقبة بالنُّصرة والظَّفَر ، ﴿ إن كُنتم مؤمنين ﴾ ، يعني: إذْ كُنْتُم مؤمنين : أي : لأنكم مؤمنون . قال ابن عباس ـرضي اللهُ عنهما ـ : لمَّا انهزمَ أصحابُ رسول الله ﷺ في الشِّعْب ، فأقبلَ خالد بن الوليد بِخَيْل المُشركين ، يُريد أن يَعْلُوَ عليهم الجبل ، فقال النبيُّ ﷺ : " اللهُمَّ لا يَعْلُوَنَّ عَلَينا ، اللهُمَّ لا قُوَّةَ لنا إلا بِك " . وثَابَ نَفَرٌ مِن المسلمين رُماة ، فَصَعِدُوا الجبل ، ورَمَوْا خَيْلَ المشركين حتى هَزموهم

فذلك قَوله تعالى : ﴿ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾)) اهـ. وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٩٥):((﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا ﴾ تَسلية لهم عمَّا أصابهم يوم أُحُد . والمعنى : لا تَضعُفوا عن الجهاد بما أصابكم ، ولا تَحْزَنُوا على مَن قُتِلَ مِنكُم ﴿ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾ وحالكم أنكم أعلى مِنهم شأنًا ، فإنكم على الحق ، وقِتالكم لله ، وقَتلاكم في الجَنَّة، وإنهم على الباطل، وقِتالهم للشَّيطان، وقَتلاهم في النار، أو : لأنكم أصَبْتُم مِنهُم يوم بَدْر أكثر مِمَّا أصابوا مِنكُم اليوم ، أو : وأنتُم الأعْلَوْنَ في العَاقِبَة ، فيكون بِشارة لهم بالنَّصْر والغَلَبَة ﴿ إن كُنتم مؤمنين ﴾ مُتعلِّق بالنَّهْي ، أي : لا تَهِنُوا إن صَحَّ إيمانكم ، فإنه يقتضي قُوَّة القلب بالوُثوق بالله ، أو بالأعْلَوْن)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٤٦٥و٤٦٦): ((قَوله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا ﴾ سبب نُزولها أن أصحاب رسول الله ﷺ لمَّا انهزموا يوم أُحُد، أقبلَ خالد بن الوليد بخَيل المُشركين، يريد أن يَعْلُوَ عليهم الجبل، فقال النبيُّ ﷺ : " اللهُمَّ لا يَعْلُوَنَّ عَلَينا ، اللهُمَّ لا قُوَّةَ لنا إلا بِك". فنزلت هذه الآيات ، قاله ابن عباس . قال ابن عباس ومُجاهد : ﴿ ولا تَهِنُوا ﴾ ، أي: ولا تَضعُفوا. وفِيما نُهُوا عن الحزن عليه أربعة أقوال : أحدها أنه قَتْل إخوانهم مِن المُسلمين ، قاله ابن عباس . والثاني أنه هزيمتهم يوم أُحُد ، وقَتْلهم ، قاله مُقاتل . والثالث أنَّه ما أصاب النبيَّ ﷺ مِن شَجِّه ، وكَسْر رَبَاعِيَته ، ذَكَره الماوردي . والرابع أنه ما فات مِن الغنيمة، ذَكَرَه علي بن أحمد النَّيسابوري . قَوْله تعالى : ﴿ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾ ، قال ابن عباس : يقول : أنتم الغالبون ، فآخِر الأمر لكم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُم إنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [الأنعام : ١٣٥] .

الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : قُل يا مُحمَّد لِمُشركي قَومك الذين يَعبدون الأصنامَ ، ويتَّخذونها آلهةً مِن دُون الله : اعملوا على طريقتكم ومنهجكم القائم على الكفر والضلال والعِناد والمكر والتكذيب ، واثبُتوا على كُفركم وعداوتكم . وهذا وعيد أكيد ، وتهديد شديد ، لا إطلاق لهم في فِعل المعاصي وارتكابِ الذُّنُوب . إنِّي عاملٌ على طريقتي ومنهجي القائم على تَوحيد الله والدَّعوة إلى الإسلام،وثابتٌ على دِين الله وأوامره. والإسلامُ هو الدِّين السَّماويُّ الوحيد، ولا يَقبل اللهُ غَيْرَه. وهذا يدل على أن النبيَّ ﷺ يزداد ثقةً بالله ، وقُوَّةً وتأييدًا مِنه ، لأن اللهَ ناصره ومُعينه ومُؤيِّده .

والمعنى : اثبُتوا على كُفركم وضلالكم وعداوتكم لي ، فإنِّي ثابتٌ على الإسلام ومُقاومتكم . فَسَوْفَ تَعْلَمُون أيُّنَا تكون له العاقبةُ المَحمودة، والنتيجة السعيدة، والمُستقبل المُشرِق ، والنَّصْر ، والغَلَبَة، والتَّمكين، ووِرَاثة الأرض، ومَن له الدار الآخِرة ، يعني الجَنَّة ، أنحن أم أنتم ؟ .

إنَّه لا يَنجح ولا يَفوز ، ولا يَسعَد مَن كَفَرَ بالله . والكُفْرُ بالله أسوأ أنواع الظُّلْم ، ظُلْمِ العبد لنفْسه ، لأنَّه قادها إلى الخُلود في عذاب النار. والظُّلْمُ وَضْع الشَّيء في غَير مَوضعه. والكافرُ ظالم لنفْسه، لأنَّه وَضَعَ العبادةَ في غَير مَوضعها. والآيةُ تُشير إلى أن الكافرين لا يَنجحون، بسبب اتِّصافهم بالظُّلْم. ووضعُ الظالمين مَوضع الكافرين، لأنَّه أعمُّ وأشْمَل ، وأدق تعبيرًا ، وأكثر فائدةً .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (١/ ٣٧٩): ((في الآية طريق من الإنذار لَطيف المَسلَك فيه إنصاف في المَقال،وأدب حَسَن مع تضمُّن شِدَّة الوعيد والوُثوق بأن المُنذِر مُحِق،والمُنذَر مُبطِل)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣٩) : ((وقد أنجزَ اللهُ مَوعِده لرسوله صلوات الله عليه ، أي : فإنه تعالى مَكَّنه في البلاد ، وحَكَّمه في نَوَاصي مُخالفيه مِن العباد ، وفَتَحَ له مكة ، وأظهره على مَن كذَّبه مِن قَومه ، وعاداه ، وناوأه ، واستقرَّ أمْرُه على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكُل ذلك في حياته ، ثُمَّ فُتِحت الأمصار ، والأقاليم ، والرَّسَاتِيق (المواضع التي فيها زَرْع وقُرى أو بيوت مُجتمعة) بعد وفاته ، في أيام خُلَفائه ــ رضي اللهُ عنهم أجمعين ــ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ عَلى مَكانَتِكُم ﴾ ... . قال ابن قُتَيبة : أي على مَوْضِعكم . يُقَال : مَكَان ، ومَكَانَة ، ومَنْزِل ، ومَنْزِلَة . وقال الزَّجاج : اعملوا على تَمَكُّنِكم . قال : ويَجُوز أن يكون المعنى : اعْمَلُوا على ما أنتم عليه . تقول للرَّجل إذا أمَرْتَهُ أن يَثْبُت على حال : كُن عَلى مَكَانتك . قَوله تعالى : ﴿ إنِّي عَامِلٌ ﴾ ، أي : عَامِلٌ ما أمَرَني به رَبِّي ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ، ... . وعاقبة الدار الجَنَّة . والظالمون هاهُنا المُشركون . فإن قِيل : ظاهر هذه الآية أمْرُهم بالإقامة على ما هُم عليه ، وذلك لا يَجوز . فالجواب أن معنى هذا الأمر المُبَالَغَة في الوعيد ، فكأنَّه قال : أقيموا على ما أنتُم عليه إنْ رَضِيتُم بالعذاب ، قاله الزَّجاج)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣٤٨/٥): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحمَّد لقَوْمِك مِن قُرَيش الذين يَجعلون مع الله إلهًا آخَر : ﴿ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُم ﴾ ، يقول : اعْمَلُوا على حِيَالكم وناحيتكم ... . ﴿ إنِّي عَامِلٌ ﴾ . يقول جَلَّ ثناؤه لِنَبِيِّه : قُل لَهُم : اعملوا ما أنتم عاملون ، فإنِّي عامل ما أنا عَامِلُه مِمَّا أمَرَني به رَبِّي ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، يقول: فَسَوْفَ تَعْلَمُون عِندَ نُزول نِقمة الله بكم أيُّنَا كان المُحِق في عمله والمُصِيب سبيل الرشاد ، أنا أم أنتم . وقَوله تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : قُل لقَومك : ﴿ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُم ﴾ . أمرٌ مِنه له بوعيدهم وتهدُّدهم، لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا مِن مَعَاصي الله. قال أبو جعفر (الطبري): يعني بقَوله جَلَّ ثناؤه :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُون أيُّها الكَفَرَة بالله عِند مُعاينتكم العَذاب مَن الذي تكون له عَاقِبَة الدَّار مِنَّا ومِنكُم. يَقول: مَن الذي تُعْقِبه دُنياه ما هو خَير له مِنها، أو شَر منها ، بما قدَّم فيها مِن صالح أعماله ، أو سَيِّئها ، ثُمَّ ابتدأ الخَبَرَ جَلَّ ثناؤه ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ . يقول: إنَّه لا يَنجَح ولا يَفوز بحاجته عِند الله مَن عَمِلَ بخِلاف ما أمَرَه اللهُ به مِن العمل في الدُّنيا ، وذلك معنى : (ظُلم الظالم) في هذا المَوضع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

كَتَبَ اللهُ في جَميع الكُتب السَّماوية ، مِن بَعْد ما كَتَبَ في اللوح المَحفوظ أزَلًا ، أنَّ أرض الأُمَم الكافرة يَفتحها، ويأخذها ، ويُسيطِر عليها المؤمنون الصالحون ، الذين صدَّقوا بوَحدانية الله، والتزموا أوامرَه، واجتنبوا نَوَاهيه. وهذه بِشارة إلهية للأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية بوِرَاثة أرض الكافرين، وإظهار الإسلام ، وإعزاز المُسلمين . أي إنَّ أرض الدُّنيا تَصِير للمؤمنين مِن أُمَّة مُحَمَّد ﷺ .

والزَّبُورُ جميع الكُتب السَّماوية المُنْزَلَة . والذِّكْر أُم الكِتاب ، يعني اللوح المَحفوظ ، الذي عِند الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٧٠) : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عمَّا حَتَمَه وقَضَاه لعباده الصَّالحين مِن السَّعادة في الدُّنيا والآخرة ، ووِرَاثة الأرض في الدُّنيا والآخِرة ، كقَوله تعالى : ﴿ إنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقين ﴾ [الأعراف : ١٢٨]. وقال : ﴿ إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ ﴾ [غَافِر : ٥١]. وقال : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ ﴾ [النُّور: ٥٥] . وأخبرَ تعالى أن هذا مَسْطُور في الكُتب الشَّرعية والقَدَرِيَّة، وهو كائن لا مَحَالة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾. قال الأعمش : سألتُ سعيد بن جُبَير عن قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ، فقال : الزَّبُور : التَّوراة والإنجيل والقُرآن . وقال مُجاهد : الزَّبُور الكِتاب. وقال ابن عباس والشَّعبي والحَسَن وقَتادة وغَير واحد : الزَّبُور الذي أُنزِل على داود ، والذِّكْر التَّوراة. وعن ابن عباس : الذِّكْر القُرآن ، وقال سعيد بن جُبَير: الذِّكْر الذي في السماء ، وقال مجاهد : الزَّبُور الكُتب بعد الذِّكْر، والذِّكْر أُم الكتاب عِند الله . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : هو الكتاب الأول . وقال الثَّوري : هو اللوح المحفوظ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الزَّبُور

الكُتب التي أُنزِلَت على الأنبياء ، والذِّكْر أم الكتاب الذي يُكتَب فيه الأشياء قَبل ذلك . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى في التَّوراة والزَّبُور وسَابِق عِلْمِه قبل أن تكون السَّماوات والأرض ، أن يُورِث أُمَّةَ مُحمَّد ﷺ الأرضَ ، ويُدخِلهم الجَنَّةَ ، وهُم الصالحون . وقال مُجاهد عن ابن عباس : ﴿ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ . قال : أرض الجَنَّة ، وكَذا قال أبو العالية ومُجاهد وسعيد بن جُبَير والشَّعبي وقَتادة والسُّدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثَّوري . وقال أبو الدَّرداء : نَحْنُ الصالحون . وقال السُّدي : هُم المؤمنون)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٠٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ ﴾ ، الزَّبُور والكِتاب واحد ، ولذلك جاز أن يُقال للتَّوراة والإنجيل زَبُور . زَبَرْتُ أي كَتَبْتُ . وجَمْعه زُبُر . وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ الزَّبُورِ ﴾ التَّوراة والإنجيل والقُرآن ، ﴿ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذي في السماء ﴿ أنَّ الأرضَ ﴾ أرض الجَنَّة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ ، رواه سُفيان عن الأعمش عن سعيد بن جُبَير. الشَّعبي:﴿ الزَّبُورِ ﴾ زَبُور داود، و﴿ الذِّكْرِ ﴾ تَوراة موسى عليه السلام.مُجاهد وابن زيد:﴿ الزَّبُورِ ﴾ كُتُب الأنبياء عليهم السلام، و ﴿ الذِّكْرِ ﴾ أم الكِتاب الذي عِند الله في السَّماء. وقال ابن عباس: ﴿ الزَّبُورِ ﴾ الكُتب التي أنزلها اللهُ مِن بَعْد مُوسى على أنبيائه ، و ﴿ الذِّكْرِ ﴾ التَّوراة المُنْزَلَة على مُوسى ... ﴿ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ أحسنَ ما قِيل فيه إنَّه يُراد بها أرض الجَنَّة ،كما قال سعيد بن جُبَير ، لأن الأرض في الدُّنيا قد وَرِثَها الصالحون وغَيْرُهم ، وهو قول ابن عباس ومُجاهد وغَيرهما . وقال مُجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قَوله تعالى : ﴿ وَقالوا الحَمْدُ للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأوْرَثَنَا الأرْضَ ﴾ [الزُّمَر : ٧٤] . وعن ابن عباس : أنَّها الأرض المُقدَّسة . وعنه أيضًا: أنَّها أرض الأُمَم الكافرة تَرِثُها أُمَّةُ مُحَمَّد ﷺ بالفُتُوح. وقِيل:إنَّ المُراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قَوله تعالى:﴿ وَأوْرَثْنَا القَوْمَ الذينَ كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . وأكثر المُفسِّرين على أن المُراد بالعِباد الصالحين أُمَّة مُحَمَّد ﷺ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها أنَّ الزَّبُور جَميع الكُتب المُنْزَلَة مِن السَّماء ، والذِّكْر أم الكِتاب الذي عِند الله ، قاله سعيد بن جُبَير في رواية ، ومجاهد وابن زيد . وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جُبَير ، فإنَّه قال : الزَّبُور: التَّوراة والإنجيل والقُرآن، والذِّكْر الذي في السَّماء . والثاني أنَّ الزَّبُور الكُتب ، والذِّكْر التَّوراة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أنَّ الزَّبُور القُرآن ، والذِّكْر التَّوراة والإنجيل، قاله سعيد بن جُبَير في رواية . والرابع أنَّ الزَّبُور زَبُور داود ، والذِّكْر ذِكْر

مُوسى ، قاله الشَّعبي . وفي الأرض المَذكورة هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها أنه أرض الجَنَّة ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون . والثاني أرض الدُّنيا ، وهو مَنقول عن ابن عباس أيضًا . والثالث الأرض المُقدَّسة ، قاله ابن السائب. وفي قَوله تعالى: ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهم أُمَّة مُحَمَّد ﷺ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي رواية : تَرِثُ أُمَّةُ مُحَمَّد أرضَ الدُّنيا بالفُتُوح . والثاني بنو إسرائيل ، قاله ابن السائب . والثالث أنَّه عام في كُل صالح ، قاله بعض فُقهاء المُفسِّرين)) .

وعن الشَّعبي: في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ . قال : في زَبُور داود ، مِن بَعد ذِكْر مُوسى ، ﴿ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ . قال: الجَنَّة [١٠٨].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا يَعْبُدُونني لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ [النُّور: ٥٥] .

وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين صَدَّقوا بوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ مِنكُم أيُّها الناس ، وفَعلوا الطاعات، وابتعدوا عن المَعَاصي، أي إنَّهم أخْلَصُوا دِينَهم الله،وجَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لَيُوَرِّثَنَّهُم اللهُ أرضَ الكُفَّار ، ويَجْعلهم مُلوكَها ومالكيها وسادتها ، كما ورَّث المؤمنين مِن الأُمم السابقة أرضَ الكُفَّار، وجَعلها لهم، وتحت سيطرتهم ونُفوذهم. أو : كما فَعَلَ مِن قَبلهم ببني إسرائيل ، فقد أهلكَ اللهُ الجبابرةَ بمِصْر والشام ، وأورثهم أرضَهم وديارَهم ومُمتلكاتهم ، فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الذينَ كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . وقد كان الصحابةُ ضُعفاء وخائفين، فأمَّنهم اللهُ، وقوَّاهم، ومَنَحَهم أرضَ الكُفَّار،وصاروا مالكينَ لها، وسادةً عليها . والآيةُ عامَّة في الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، ولا يُمكن تخصيصها بجيل دُون آخَر .

إن وَعْدَ الله واقع لا مَحَالة ، وقد تحقَّق على أرض الواقع بالفُتوحات الإسلامية التي انتشرت في كل مكان . وقد أورثَ اللهُ الصحابةَ بلادَ الكُفَّار مِن العَرَبِ والعَجَم . والآيةُ لَيست خاصَّةً بالصحابة ، لأن الإيمان والعمل الصالح لَيس خاصًّا بهم . وهذا يعني أنَّ الآية عامَّة وشاملة لكل المؤمنين الذين جَمعوا بين الإيمان والعمل الصالح. والعِبرةُ بعُموم اللفظ، وليس بخُصوص السبب.

---

١٠٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٤٢) برقم (٤١٣٦) ، وسكت عنه الذهبي .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥) : عَن ثَوبان قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ زَوى لِيَ الأرضَ ، فَرَأيتُ مَشارقَها ومَغاربَها ، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زَوى لي مِنها ، ...)) .

جَمَعَ اللهُ للنبيِّ ﷺ الأرضَ ، فرأى مشارقَها ومغاربَها ، وإنَّ مُلْكَ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية سَيَمْتَدُّ على هذه المساحة الهائلة ، وسَيَفتح اللهُ للمسلمين الأرضَ، ويَنتشر الإسلام في كُل مكان .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٣) : ((أمَّا " زَوى " فمعناه جَمَعَ ، وهذا الحديث فيه مُعجِزات ظاهرة ، وقد وَقعت كُلُّها بحمد اللهِ كَما أخبرَ بِه ﷺ)) اهـ . وروى الحاكم في المستدرك(٤/ ٤٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ مَبْلَغَ الليلِ والنهارِ، ولا يَترك اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلا أدخله هذا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزيزٍ ، أوْ بِذُلِّ ذَليلٍ)).

سَيَنتشر مُلْكُ الإسلامِ في أنحاءِ العالَم.وسَوْفَ يُدْخِلُ اللهُ الإسلامَ في كُلِّ البُيوت في الحواضرِ والبوادي . وبَيْتُ المَدَرِ (الطين اليابس) يَدُلُّ على الأماكن الحَضَرِيَّة . وبَيْتُ الوَبَر يَدُل على الصحاري والبَوادي. يُعِزُّهُم اللهُ بالإسلامِ فَيَجعلهم مِن أهْلِه، أو يُذِلُّهُم بالكُفر فَيُؤدُّون الجِزيةَ.

والإسلامُ هُوَ الدِّينُ الأسرعُ انتشارًا على كَوكب الأرض، رَغْمَ الهجمات ضِدَّه ، والتَّضييق عَلَيه، والعمليات المنهجية لِتشويه صُورته المُشرقة ، ورغم ضَعف المسلمين ، وخِيانةِ كثير مِن حُكَّامهم . وهذه مُعجِزة إلهية بِحَدِّ ذاتها تَستحق التَّأمل . فالمسلمون أُمَّةٌ ضَعيفة لا وَزْنَ لهم على الساحة العالمية، ومَعَ هذا، فالإسلامُ يَنتشرُ في أنحاء العالَم بِسُرعة فائقة.فما هِيَ القُوَّة التي تَقف وَراءَه وتَنشُره في العالَم؟. إنَّ الإسلامَ دِينٌ مُتماسِك، وعوامل قُوَّته كامنة فِيه. وهو دِينُ اللهِ الذي لا يَقْبَلُ غَيْرَه . وقَد تَكَفَّلَ اللهُ بِحِفْظه ونَشْره ، سَواءٌ كان المسلمون أقوياء أَم ضُعَفاء . وقُوَّةُ الإسلامِ تتجلى في عَقيدة التَّوحيد الموافِقة للفِطْرة الإنسانية السَّليمة ، والأدلةِ النَّقليةِ ، والحُجَجِ العقلية .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ ﴾ . سَيَجعل اللهُ دِينَهُم الإسلامَ الذي لا يَقْبَل غَيْرَه ، والذي ارتضاه لهم ، عزيزًا عاليًا على كل الأديان ، ومُنتشرًا في كُل مكان ، ويُوسِّع لهم في البلاد فيَملكونها ، ويُسيطرون عليها ، ويُصبحون سادتها وساستها . وقد ذَكَرَ اللهُ الاستخلافَ ، وهو جَعْلهم مُلوكًا ومالكين وسادةً وزُعماء، ثُمَّ ذَكَرَ التَّمكين ، وهو التَّثبيت والتَّقرير ، وهذا يدل على ثبات مُلك المؤمنين ورُسوخه واستقراره لهم ، واستمراره في عَقِبِهم .

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا ﴾ . سيُغيِّر اللهُ حَالَ الصحابة التي كانوا عليها مِن الخَوف والضَّعْف إلى الأمن والقُوَّة ، فلا يَخْشَوْنَ إلا الله ، ولا يَرْجُون غَيْرَه . وقد كان الصحابةُ ضُعفاء وخائفين مِن المشركين ، ولا يَتركون السِّلاحَ استعدادًا لهجوم المشركين في أيَّة لحظة ، ثُمَّ صاروا

آمنين مُطمئنين ، وفَتَحَ اللهُ لهم البلادَ ، وسلَّمهم مصائرَ العِباد ، وهَزَمَ أعداءهم المُشركين . لقد أنجزَ اللهُ وَعْدَه ، فسيطرَ المؤمنون على جَزيرة العرب بالكامل ، وفَتحوا بلادَ المشرق والمغرب ، وهَزموا الفُرْسَ والرُّومَ ، وأزالوها سُلطانهم ومُلكهم ، ومَلَكوا خزائنهم ، وأخذوا بِلادَهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((وكان رسول الله ﷺ وأصحابُه مَكثُوا بمَكَّة عَشْرَ سنين خائفين ، ثُمَّ هاجروا إلى المدينة ، وكان يُصْبِحون في السِّلاح ، ويُمْسُون فيه ، حتى أنجزَ اللهُ وَعْدَه ، فأظهرهم على العرب كُلِّهم ، وفَتَحَ لهم بلاد الشرق والغرب. وفيه دليل على صِحَّة النُّبُوَّة، للإخبار عن الغَيب على ما هو به، وخِلافةِ الخُلَفاء الرَّاشدين، إذْ لم يَجتمع المَوعود والمَوعود عليه لغَيرهم بالإجماع . وقِيل : الخَوف من العذاب ، والأمن مِنه في الآخرة)) .

والجديرُ بالذِّكر أن اللام في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم ﴾، إنَّما جاءت لتحقيق الأمر وترسيخه ، وإثباته في نُفوس المؤمنين ، وترسيخ اليقين في قلوبهم ، وبيان أن الوَعْد الإلهيَّ واقعٌ لا مَحَالة ، بلا شَك ولا رَيْب . واللهُ لا يُخلِف وَعْدَه ، ولا يَتراجع في كلامه .

﴿ يَعْبُدُونني لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . استئناف بطريق الثناء عليهم ، كالتعليل للاستخلاف في الأرض . أي : يُوَحِّدونني ، ويُخلِصون لِيَ العبادة ، لا يَعبدون إلهًا غَيْري .

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ . ومَن جَحَدَ شُكر هذه النِّعَم . والمُراد كُفران النِّعَم ، أو ارتدَّ عن الإسلام بعد هذا الوَعْد الذي أنجزه اللهُ ، وجَعله وَاقِعًا مَلموسًا .

﴿ فأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ . فأُولئك هُم الكاملون في الفِسْق ، الخارجون عن طاعة الله ، العاصون أمر الله ، حَيث جَحدوا هذه النِّعَمَ العظيمة وأنكرُوها ، أو ارتدُّوا بعد وُضوح هذه الآيات، وظُهور الحُجَج ، وانقطاعِ الأعذار . وأوَّل مَن كَفَرَ به قَتَلَة عُثمان _ رضي اللهُ عنه _ ، فصاروا يَقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا وأحبابًا ، فعادوا في الخَوف ، وظَهر الشَّر ، وعَمَّ النِّزاعُ والخِلاف .

والآيةُ دليل واضح على صِحَّة خِلافة الخُلَفاء الراشدين (أبي بكر ، وعُمر ، وعُثمان ، وعليٍّ) _ رضي اللهُ عنهم _ لأنَّ المُسْتَخْلَفِين في الأرض الجامعين بين الإيمان والعمل الصالح، كانوا هُم. وهذه حقيقة ثابتة دينيًّا وتاريخيًّا ، ومُجمَع عليها ، والشمسُ لا تُغطَّى بغِربال .

وعن أُبَيِّ بن كَعْب _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ وأصحابُه المدينةَ ، وآوَتْهُم الأنصارُ ، رَمَتْهُم العربُ عَن قَوس واحدة . كانوا لا يَبِيتُون إلا بالسِّلاح ، ولا يُصْبِحُون إلا فيه ، فقالوا : تَرَوْنَ أنَّا نعيش حتى نَبِيتَ آمنين مُطمئنين ، لا نخافُ إلا الله ؟، فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا﴾ إلى ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يَعني بالنِّعمة ﴿ فأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾)) [١٠٩] . وعن أُبَيِّ بن كَعْب قال: ((لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه المدينةَ ، وآوَتْهُم الأنصارُ ، رَمَتْهُم العَرَبُ عَن قَوس واحدة ، فنزلت : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ ﴾ ، الآية [١١٠].

عِندما هَاجَرَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه مِن مَكَّة إلى المدينة ، اتَّفَقَ العربُ عَلى مُواجهتهم وقِتالهم ، وأعلنوا الحربَ عليهم. و " رَمَوْهُم عَن قَوس واحدة " مَثَل في الاتِّفاق على أمر واحد . وكانوا الصحابةُ ضُعفاء وفُقراء وخائفين . وكانوا مُتَمَسِّكين بالسِّلاح في المَساء والصباح ، يَبِيتون بِه ، ويُصبحون فِيه ، لا يَتركونه مِن شِدَّة الخَوف ، وحَذَرًا مِن هُجوم المُشركين المُفَاجِئ . وكانوا يتساءلون فيما بينهم ، هَل سَيَأتي عليهم يَوم يبيتون آمنين مُطمئنين بلا خَوف مِن المُشركين ، ولا يَخافون إلا اللهَ ؟.وقد وَعَدَهم اللهُ بالاستخلاف في الأرض والتَّمكين والأمن والأمان والانتصار. وأنجزَ اللهُ وَعْدَه،وفَتح لهم البِلادَ، وأخضعَ لهم العِبادَ،ومَنَحَهم الأمنَ والقُوَّةَ بعد الخَوف والضَّعف.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٠١) في تفسير الآية كاملةً : ((هذا وَعْد مِن الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بأنَّه سَيَجعل أُمَّتَه خُلَفاء الأرض ، أي : أئِمَّة الناس والوُلاة عليهم ، وبِهم تَصلُح البلاد ، وتَخضع لهم العباد . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم ﴾ مِن الناس ﴿ أمْنًا ﴾ وحُكْمًا فِيهم. وقد فَعَلَه تبارك وتعالى، وله الحَمْد والمِنَّة ، فإنَّه ﷺ لَم يَمُتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عليه مَكَّةَ وخَيْبَر والبَحْرَيْن ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجِزْية مِن مَجُوس هَجَر (اسم منطقة) ، ومِن بعض أطراف الشام ، وهاداه هِرَقْل مَلِك الرُّوم وصاحب مِصْر وإسكندرية ، وهو المُقَوْقِس ، ومُلوك عُمَان والنَّجَاشي مَلِك الحَبَشَة ، الذي تَمَلَّكَ بعد أصْحَمَة رحمه اللهُ وأكرمه ، ثُمَّ لمَّا مات رسولُ الله ﷺ ، واختارَ اللهُ له ما عِنده مِن الكرامة ، قام بالأمر بَعْده خليفته أبو بَكْر الصِّديق ، فَلَمَّ شَعَثَ ما وَهَى بَعْد مَوْته ﷺ ، وأطَّد جزيرةَ العرب ، ومَهَّدها ، وبَعَثَ الجُيُوشَ الإسلامية إلى بلاد فَارِس صُحبة خالد بن الوليد _ رضي اللهُ عنه _ ففتحوا طَرَفًا مِنها ، وقَتلوا خَلْقًا مِن أهلها ، وجَيْشًا آخَر صُحبة أبي عُبَيدة _ رضي اللهُ عنه _ ومَن اتَّبعه مِن الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صُحبة عمرو بن العاص _ رضي اللهُ عنه_ إلى بلاد مِصْر، ففَتَحَ اللهُ

---

١٠٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٤) برقم (٣٥١٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١١٠ رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ١١٩). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣) : ((رجاله ثقات)).

للجَيش الشامي في أيامه بُصرى ودِمَشْق ومخاليفهما مِن بلاد حُوران ، وما والاها ، وتَوَفَّاه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، واختار له ما عِنده مِن الكرامة ، ومَنَّ على أهل الإسلام بأن ألهمَ الصِّديق أن يَستخلف عُمر الفاروق ، فقام بالأمر بَعْده قِيامًا تامًّا ، لَم يَدُر الفَلَكُ بعد الأنبياء على مِثْله في قُوَّة سِيرته ، وكَمال عَدْله ، وتَمَّ في أيامه فَتْحُ البلاد الشَّامِيَّة بكَمالها ، ودِيار مِصْر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فَارِس ، وكَسَرَ كِسْرى ، وأهانه غاية الهَوان ، وتقهقرَ إلى أقصى مَملكته ، وقَصَرَ قَيْصَر ، وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القُسْطَنْطِينِيَّة ، وأنفقَ أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ، ووعد به رسولُ الله عليه مِن رَبِّه أتَم سلام ، وأزكى صلاة . ثُمَّ لمَّا كانت الدولة العُثمانية ، امتدَّت المَمَالِكُ الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففُتِحَت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك ، الأندلس ، وقُبْرُص ، وبلاد القَيْرَوَان ، وبلاد سَبْتَة ، مِمَّا يلي البَحْر المُحيط ، ومن ناحية المشرق، إلى أقصى بلاد الصِّين ، وقُتِلَ كِسْرى ، وباد مُلْكه بالكُلِّية ، وفُتِحَت مدائن العراق، وخُرَاسان، والأهواز، وقَتَلَ المُسلمون مِن التُّرك مَقتلةً عظيمة جِدًّا ، وخَذَلَ اللهُ مَلِكَهُم الأعظم خاقان ، وجَبَى الخَرَاجَ من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عُثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تِلاوته ودِراسته وجَمْعه الأُمَّة على حِفظ القرآن،ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول اللهﷺ قال: " إنَّ الله زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارقها ومغاربها ، ويَبْلُغ مُلْكُ أُمَّتي ما زَوَى لي مِنها ". فها نحن نتقلَّب فِيما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه ، وصَدَقَ اللهُ ورسولُه ، فنسأل اللهَ الإيمانَ به وبرسوله ، والقِيام بشُكره على الوَجْه الذي يُرضيه عَنَّا.قال الإمام مُسلم بن الحَجَّاج في صحيحه:حَدَّثَنا ابن أبي عُمر، حَدَّثنا سُفيان عن عبد الملك بن عُمَير عن جابر بن سَمُرة ، قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : " لا يَزَالُ أمْرُ الناس ماضيًا ، مَا وَلِيَهُم اثنا عَشَرَ رَجُلًا " ، ثُمَّ تَكَلَّمَ النبيُّ ﷺ بكلمة خَفِيَتْ عَنِّي، فسألتُ أبي : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ ، فقال : قال : " كُلُّهم مِن قُرَيش " . ورواه البُخاري مِن حديث شُعبة عن عبد المَلِك بن عُمَير به . وفي رواية لمسلم أنه قال ذلك عَشِيَّة رَجْم مَاعِز ابن مالك ، وذَكَرَ معه أحاديث أُخَر . وفي هذا الحديث دَلالة على أنه لا بُدَّ مِن وُجود اثنَي عَشَر خليفة عادلًا ، ولَيسوا هُم بأئمة الشِّيعة الاثنَي عَشَر ، فإنَّ كثيرًا مِن أُولئك لم يكن إليهم مِن الأمر شيء ، فأمَّا هؤلاء فإنَّهُم يَكُونون مِن قُرَيش ، يَلُون ، فيَعدِلون . وقد وَقعت البِشارةُ بهم في الكُتب المُتقدِّمة ، ثُمَّ لا يُشترط أن يكونوا مُتتابعين ، بَل يكون وُجودهم في الأُمَّة مُتَتَابِعًا ومُتَفَرِّقًا . وقد وُجِدَ مِنهُم أربعة على الوَلاء : وهُم أبو بَكْر ، ثُمَّ عُمَر ، ثُمَّ عُثمان ، ثُمَّ عَلِيٌّ ، رضي الله عنهم ، ثُمَّ كانت بعدهم فترة ، ثُمَّ وُجِدَ مِنهم مَن شاء اللهُ ، ثُمَّ قد يُوجَد منهم مَن بَقِيَ في الوقت الذي يَعْلَمه

اللهُ تعالى ، ومِنهُم المَهدي الذي اسمه يُطابق اسم رسول الله ﷺ ، وكُنيته كُنيته ، يَملأ الأرض عَدْلًا وقِسْطًا ، كَمَا مُلِئَت جَوْرًا وظُلْمًا . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والتِّرمذي والنَّسائي من حديث سعيد بن جَهمان عن سَفينة مَوْلى رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال : " الخِلافةُ بَعْدي ثلاثون سَنَة ، ثُمَّ تكون مُلْكًا عَضُوضًا " . وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا ﴾ الآية . قال : كان النبيُّ ﷺ وأصحابُه بمَكَّة نَحْوًا مِن عَشْر سِنين ، يَدْعُون إلى الله وَحْدَه ، وإلى عبادته وَحْدَه لا شريك له سِرًّا، وهُم خائفون لا يُؤْمَرون بالقِتال ، حتَّى أُمِرُوا بَعْد بالهِجْرة إلى المدينة ، فقَدِمُوها ، فأمرهم اللهُ بالقِتال ، فكانوا بها خائفين ، يُمْسُون في السِّلاح ، ويُصْبِحون في السِّلاح ، فَصَبروا على ذلك ما شاء اللهُ ، ثُمَّ إنَّ رَجُلًا من الصحابة قال : يا رسول الله ، أبَدَ الدَّهْرِ نحن خائفون هكذا ؟ ، أمَا يأتي عَلَينا يَوم نَأمَن فيه ، ونضع عنَّا السِّلاح ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : " لَن تَصْبِرُوا إلا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنكُم في الملأ العظيم مُحْتَبِيًا [111]، لَيْسَتْ فِيه حديدة " . وأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، فأظهرَ اللهُ نَبِيَّه على جزيرة العرب ، فأمِنُوا ، ووَضَعُوا السِّلاحَ ، ثُمَّ إنَّ الله تعالى قَبَضَ نَبِيَّه ﷺ ، فكانوا كذلك آمِنين في إمَارة أبي بَكْر وعُمر وعُثمان ، حَتَّى وَقَعُوا فيما وَقَعُوا فيه ، فأدخل عليهم الخَوف ، فاتَّخذوا الحَجَزَة [112]، والشُّرَط (الشُّرطة) ، وغيَّروا ، فغيَّر بهم . وقال بَعْضُ السَّلَف : خِلافة أبي بَكْر وعُمر _ رضي اللهُ عنهما _ حَق في كتاب الله ، ثُمَّ تلا هذه الآية . وقال البَرَاء ابن عَازِب : نَزلت هذه الآيةُ ونَحْن في خَوف شديد ، وهذه الآية الكريمة كقَوله تعالى : ﴿ واذْكُرُوا إذْ أنتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الأرْضِ تَخَافُونَ أن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فآوَاكُم وأيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ [الأنفال : ٢٦]. وقَوله تعالى: ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، كما قال تعالى عن مُوسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم في الأرْضِ ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ ﴾ الآيَتَيْن . وقَوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ ﴾ الآية ، كما قال رسول الله ﷺ لِعَدِيِّ

١١١ في القاموس المحيط (١/ ٦٧٠) : ((والرَّجُل : جَلَسَ جِلْسَةَ الْمُحْتَبي ، ضامًّا رُكْبَتَيْهِ وفَخِذَيْهِ ، كالذي يَهُمُّ بأمرٍ)) .

١١٢ في القاموس المحيط (١/ ٦٥٢) : ((الحَجَزَة : الظَّلَمَةُ الذينَ يَمنعون بَعْضَ الناسِ مِن بَعْضٍ)) .

ابن حاتم حِين وَفَدَ عَلَيه : " أتعرِفُ الحِيرةَ ؟ " ، قال : لَم أعرفها ، ولكن قد سَمِعْتُ بها ، قال : " فوالذي نَفْسي بيده ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ ، حتَّى تَخرج الظَّعِينةُ مِن الحِيرة ، حتى تَطُوفَ بالبيت في غَير جِوار أَحَد ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنوزُ كِسْرى بن هُرْمُز " . قُلْتُ : كِسْرى بن هُرْمُز ؟ ، قال : " نَعَم ، كِسْرى بن هُرْمُز ، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحد " . قال عَدِيُّ بن حاتم : فهذه الظَّعينة تَخرج مِن الحِيرة ، فتطوف بالبيت في غَير جِوار أحد ، ولقد كُنتُ فِيمَن افتتح كُنوزَ كِسْرى بن هُرْمُز ، والذي نَفْسي بيده،لتكوننَّ الثالثة،لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال الإمام أحمد:حدَّثنا عبد الرزاق أخبرنا سُفيان ، عن أبي سَلَمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبَي بن كعب ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : " بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّنا ، والرِّفعة ، والدِّين ، والنَّصْر ، والتَّمكين في الأرض ، فمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخرة للدُّنيا ، لم يكن له في الآخرة نصيب " . وقَوله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونني لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . قال الإمام أحمد : حَدَّثنا عَفَّان حَدَّثنا هَمَّام حَدَّثنا قَتادة عن أنس أن مُعاذ ابن جبل حَدَّثه قال : بَيْنَا أنا رديف النبيِّ ﷺ على حِمَار ، لَيْسَ بَيْني وبَيْنه إلا آخِرَةُ الرَّحْل ، قال : " يا مُعاذ " ، قُلت : لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك ، قال : ثُمَّ سار ساعة ، ثُمَّ قال : " يا مُعاذُ ابنَ جَبَل " ، قُلت : لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك ، ثُمَّ سار ساعة ، ثُمَّ قال : " يا مُعاذ بن جبل " ، قُلت : لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك . قال : " هل تدري ما حَق الله على العِباد ؟ " ، قُلت : الله ورسوله أعلم . قال : " فإن حق الله على العِباد أن يَعبدوه ، ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئًا " ، قال : ثُمَّ سار ساعة ، ثُمَّ قال : " يا معاذ بن جبل " ، قُلت : لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك ، قال : " فهل تدري ما حَق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ " ، قال : قُلتُ : الله ورسوله أعلم ، قال : " فإنَّ حَق العِباد على الله أن لا يُعَذِّبَهُم " . أخرجاه في الصحيحَيْن مِن حديث قَتادة . وقَوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ ، أي : فَمَن خَرَجَ عن طاعتي بعد ذلك، فقد خَرَجَ عن أمر رَبِّه ، وكفى بذلك ذَنْبًا عظيمًا ، فالصحابة رضي الله عنهم لمَّا كانوا أقْوَمَ الناس بعد النبيِّ ﷺ بأوامر الله عَزَّ وَجَّل ، وأطْوَعَهُم لله ، كان نَصْرهم بحَسَبهم . أظهروا كلمةَ الله في المشارق والمغارب، وأيَّدهم تأييدًا عظيمًا، وحَكَمُوا في سائر العباد والبلاد، ولمَّا قصَّر الناسُ بعدهم في بعض الأوامر، نَقص ظُهورهم بحَسَبهم. ولكن قد ثبت في الصحيحَيْن مِن غَير وجه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : "لا تَزال طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهرين على الحق،لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهُم،ولا مَن خَالَفَهم إلى يوم القيامة". وفي رواية: " حَتَّى يَأتِيَ أمرُ الله، وهُم كذلك " . وفي رواية : " حَتَّى يُقَاتِلُوا الدَّجَّالَ " . وفي رواية: " حَتَّى يَنْزِلَ عِيسى ابنُ مَرْيَم، وهُم ظاهرون ". وكُل هذه الروايات صحيحة،ولا تعارُض بينها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٥٧ و٥٨): ((قال أبو العالية: لمَّا أظهرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسولَه على جزيرة العرب ، وَضعوا السِّلاحَ ، وأمِنُوا ، ثُمَّ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّه ، فكانوا آمنين كذلك في إمَارة أبي بَكْر وعُمر وعُثمان ، حتَّى وَقَعُوا فِيما وَقَعُوا فيه ، وكفروا بالنِّعمة، فأدخلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عليهم الخَوف ، فغيَّروا ، فغيَّر اللهُ تعالى ما بِهِم . وروى أبو صالح عن ابن عباس أنَّ هذا الوَعْد، وَعَدَه اللهُ أُمَّةَ مُحمَّد في التَّوراة والإنجيل . وزعم مُقاتل أن كُفار مَكَّة لمَّا صَدُّوا رسولَ الله ﷺ والمُسلمين عَن العُمرة عام الحُدَيبية ، قال المسلمون : لَوْ أنَّ الله تعالى فَتَحَ عَلَينا مَكَّة ، فنزلت هذه الآية . قَوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ، أي : لَيَجْعَلَنَّهُم يَخْلُفُون مَن قَبْلَهم ، والمعنى : لَيُوَرِّثَنَّهُم أرضَ الكُفَّار مِن العرب والعَجَم ، فيَجعلهم مُلوكَها وسَاسَتَهَا وسُكَّانَها . وعلى قَول مُقاتل: المُراد بالأرض مَكَّة . قَوله تعالى : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، ...، يعني : بني إسرائيل، وذلك أنَّه لمَّا هَلكت الجبابرةُ بِمِصْر،أوْرَثَهُم اللهُ أرضَهم ودِيَارَهم وأموالَهم. قَوله تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ ، وهو الإسلام ، وتَمْكِينه إظهارُه على كُل دِين ، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا ﴾ لأنَّهُم كانوا مَظلومين مَقهورين،﴿ يَعْبُدُونني ﴾ هذا استئناف كلام في الثَّناء عليهم، ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بهذه النِّعَم، أي : جَحَدَ حَقَّها . قال المُفسِّرون : وأوَّل مَن كَفَرَ بهذه النِّعَم قَتَلَة عُثمان)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِين ﴾ [الصَّافَّات : ١٧١] .

لقد وَعَدَ اللهُ المُرْسَلين (صَفوة اللهِ مِن خَلْقه) بالثَّبات والتَّمكين والنصر على الأعداء . وهذا الوعدُ الإلهيُّ ثابتٌ، وواقعٌ لا مَحالة، وكائنٌ بلا شَك، لا يَتخلَّف ولا يَتأخَّر. وإنَّما يجيء في الوقت المُناسب وَفْقَ إرادة الله وحِكمته البليغة . لقد سَبَقَ الوعدُ الإلهيُّ بنصر الرُّسل بالحُجَّة والبُرهان.

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٢٣) : ((قال الفَرَّاء : أي بالسعادة . وقِيل : أرادَ بالكلمة قَوْلَه _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي ﴾ [المُجادِلة : ٢١]. قال الحسن : لَم يُقتَل من أصحاب الشرائع قَط أحَد)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّهُم لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٢] . مَضَى القَضَاءُ الإلهيُّ بأنَّ رُسُلَ اللهِ لهم النَّصْر والغَلَبَة بالحُجَّة والبُرهان ، وهُم المنصورون على أعدائهم. وفي تفسير البغوي (١/ ٦٢) : ((قال الزَّجاج : غَلَبَة الرُّسُل على نَوْعَيْن : مَن بُعث منهم بالحرب ، فهو غالب بالحرب . وَمَن لَم يُؤْمَر بالحرب ، فهو غالب بالحُجَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغالِبُون ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٣] .

وإنَّ حِزْبَ اللهِ وصَفْوَتَه مِن خَلْقه (الرُّسل وأتباعهم) لَهُمُ الغالبون المُنتصرون على الكافرين . لَهُم النَّصْرُ في الدُّنيا بالحُجَّة والبُرهان ، وفي الآخِرة لَهُم نعيم الجنة الأبديُّ .

والعَاقِبَةُ الحَسَنَةُ للمُؤمنين، رَغْمَ انهزامهم في بعض المواطن بسبب تقصيرهم وارتكابهم للأخطاء. وهذا امتحانٌ إلهيٌّ لهم . وفي الأغلب الأعَم ، يَكون النصرُ للمؤمنين في المعارك . أمَّا هزائمهم فهي نادرة ، والنادرُ لا حُكْم له .

وقال النسفي في تفسيره(٤/ ٣٠و٣١): ((﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبَادِنا المُرْسَلِين ﴾ الكَلِمة قَوْلُه:﴿إنَّهُم لَهُمُ المنصورون(١٧٢)وإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغالِبُون (١٧٣)﴾ ، وإنما سَمَّاها كلمة، وهي كلمات، لأنها لَمَّا انتظمَت في معنى واحد ، كانت في حُكم كلمة مُفرَدة ، والمراد الوَعد بِعُلُوِّهم على عدوهم فى مَقام الحِجَاج، ومَلاحِم القتال في الدنيا ، وعُلُوِّهم عليهم في الآخرة. وعن الحسن : ما غُلِبَ نبيٌّ في حَرْب، وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ: إن لَم يُنصَروا في الدُّنيا ، نُصروا في العُقْبَى (الآخِرة) . والحاصل أنَّ قاعدةَ أمْرِهم وأساسَه ، والغالبَ مِنه ، الظَّفَر والنُّصرة ، وإن وَقع في تضاعيف ذلك شَوْب من الابتلاء والمِحنة ، والعِبرةُ للغالب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ﴾[غَافِر: ٥١].

إنَّ الله يَنصُر رُسُلَه والمؤمنين بالحُجَج والأدلة والبراهين ، والانتقام مِن أعدائهم الكافرين ، بالقَتْل والأسْر والقَهْر ، والتغلُّب عليهم في الحياة الدُّنيا . ولا يُعارض ذلك ما كان للكافرين مِن الغَلَبَة في بعض الأحيان ، لأنَّ العِبرة بالخواتيم وعاقبةِ الأُمور ، والحُكم حَسَب الأغلب الأعَم ، والنادرُ لا حُكم له . ومَن يَضحك أخيرًا ، يَضحك كثيرًا . وأيضًا، يَنصُرهم في يَوم القِيامة (الآخِرة) يَوم يَحضُر الملائكةُ للشَّهادة ، حيث يَشهَدون للرُّسُل بتَبليغ وَحْي السَّماء للناس ، ويَشهَدون على الأُمم الكافرة بالتَّكذيب . أو : يَشهَد الرُّسُلُ عِند الله على الكافرين بالتَّكذيب ، ويَشهَد الملائكةُ الحَفَظَةُ على العِباد بما عَمِلُوا مِن الأعمال. والأشهادُ جَمْع شَهِيد أو شَاهِد ، وكِلاهما صحيح .

واللهُ يُجازي المُؤمنَ بإحسانه ، ويُدخِله الجَنَّةَ، ويُجازي الكافر بإساءته ، ويُدخِله النارَ .

وهذه الآيةُ وعد مِن الله للنبيِّ مُحمَّد ﷺ أن يَنصُره على أعدائه في الدنيا والآخرة . ووَعْد الله حَق، وصِدق، وواقع لا مَحَالة ، بلا شَك ، ولا رَيْب . واللهُ لا يُخلِف وَعْدَه ، ولا يَتراجع في كلامه.

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨٤) : عن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ قَالَ : مَن عَادَى لِي وَلِيًّا ، فقد آذَنْتُهُ بالحَرْب)) .

وَلِيُّ الله هو العَالِمُ بالدِّين ، الذي أخلصَ العبادةَ لله، والتزمَ أوامرَه، وفَعَلَ الطاعات، واجتنبَ نَوَاهيه ، وابتعدَ عَنَ المَعَاصي . وهو حَبيب الله والقريب مِنه ، ومَن عاداه أو آذاه أو أساءَ إلَيه ، فقد أعْلَمَه اللهُ بالهَلاك والنَّكال ، ومَن حاربه اللهُ تعالى ، هَلَكَ لا مَحَالة ، وخَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٤٠) : (((إن الله تعالى قال : مَن عَادَى) مِن المُعاداة ضِد المُوالاة (لي) مُتعلِّق بقَوله (وَلِيًّا) ، وهو مَن تَوَلَّى الله بالطاعة ، فَتَوَلَّاه اللهُ بالحِفظ والنَّصْر ، فالوَلِيُّ هُنا القَريب مِن الله، باتِّباع أمره ، وتجنُّب نَهْيه ، وإكثار النَّفْل مَعَ كَوْنه لا يَفْتُر عن ذِكْره، ولا يرى بقلبه سِواه (فقد آذَنْتُهُ بالحَرب) أي : أعْلَمْتُه بأنِّي سأُحَارِبه ... ، ومَن حاربه اللهُ ، أي : عامله مُعاملة المُحَارِب ، مِن التَّجَلِّي عليه بمَظاهر القَهْر والجَلال ، وهذا في الغاية القُصوى من التهديد . والمُراد : عَادَى وَلِيًّا لأجل وَلايته ، لا مُطْلَقًا ، فَخَرَجَ نَحْو مُحاكمته لخَلاص حَق ، أو كَشْف غامض... . وإذا عَلِمَ ما في مُعاداته مِن الوَعيد، عَلِمَ ما في مُوالاته مِن الثواب)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٩) : ((يقول القائل : وما معنى : ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ﴾ ، فَقَد عَلِمْنا أنَّ مِنهم مَن قَتَلَه أعداؤه ومَثَّلوا به كشعياء (إشَعْياء) ويَحيى بن زكريا ، وأشباههما ، ومِنهُم مَن هَمَّ بقَتْله قَوْمُه ، فكان أحسن أحواله أن يَخْلُصَ مِنهُم حتى فارقهم ناجيًا بنفْسه ، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام مِن أرضه مُفَارِقًا لقَومه ، وعِيسى الذي رُفِعَ إلى السماء إذْ أراد قَوْمُه قَتْلَه ، فأين النُّصرة التي أخبرنا أنَّه يَنصُرها رُسُلَه والمؤمنين به في الحياة الدُّنيا ، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم مِن قَومهم ما قد عَلِمْت ، وما نُصِرُوا على مَن نالهم بما نالهم به ؟ . قِيل : إنَّ لِقَوْله : ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ﴾ وَجْهَيْن ، كِلاهما صحيح مَعناه ، أحدهما أن يكون مَعناه : إنَّا لَنَنْصُر رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدُّنيا ، إمَّا بإعلائنا لهم على مَن كَذَّبَنا ، وإظفارنا بهم حتى يَقهروهم غَلَبَةً ، ويُذِلُّوهم بالظَّفَر ذِلَّةً كالذي فَعَلَ مِن ذلك بداود وسُلَيمان ، فأعطاهما مِن المُلْك والسُّلطان ما قَهَرَا به كُلَّ كافر ، وكالذي فَعَلَ بمُحمَّد ﷺ بإظهاره على مَن كَذَّبَه مِن قَوْمه ، وإمَّا بانتقامنا مِمَّن حَادَّهم وشاقَّهم بإهلاكهم ، وإنجاء الرُّسُل مِمَّن كَذَّبَهم وعاداهم ، كالذي فَعَلَ تعالى ذِكْرُه بنُوح وقَومه مِن تَغريق قَومه ، وإنجائه مِنهُم ، وكالذي فَعَلَ بمُوسَى وفِرْعَوْن وقَوْمه، إذْ أهلكهم غرَقًا ، ونَجَّى مُوسى، ومَن آمنَ به من بني إسرائيل وغَيرهم، ونَحْو ذلك ، أو بانتقامنا في الحياة الدُّنيا مِن مُكَذِّبيهم بعد وفاة رَسُولنا مِن بَعد مَهْلِكِهم، كالذي فَعَلْنا مِن نُصرتنا شَعْياء بعد مَهْلِكِه ، بتسليطنا على قَتَلَتِه مَن سَلَّطْنا حَتَّى انتصرنا بهم مِن قَتَلَته ، وكفِعْلنا بقَتَلَة يَحيى مِن تَسليطنا بُخْتُنَصَّر عليهم حتى انتصرنا به مِن قَتَلَتِه ، وكانتصارنا لعيسى مِن مُريدي قَتْله بالرُّوم ، حتى أهلكناهم بهم ، فهذا أحد وَجْهَيْه. وقد كان بعضُ أهل التأويل يُوجِّه معنى ذلك إلى هذا الوَجْه. ذِكْر مَن قال ذلك: حَدَّثَنا مُحمَّد بن الحُسَين قال : ثنا أحمد ابن المُفَضَّل،قال: ثنا أسباط عن السُّدي، قَول الله: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ﴾،

وقد كانت الأنبياء والمؤمنون يُقْتَلُون في الدُّنيا ، وهُم مَنصورون ، وذلك أن تلك الأُمَّة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين ، لا تذهب حتى يَبْعَثَ اللهُ قَوْمًا فينتصر بهم لأُولئك الذين قُتِلُوا مِنهُم .
والوجه الآخر : أن يكون هذا الكلام على وَجْه الخَبَر عن الجميع مِن الرُّسُل والمؤمنين، والمُراد واحد ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : إنَّا لَنَنصُر رَسُولَنا مُحَمَّدًا ﷺ ، والذي آمنوا به في الحياة الدُّنيا ، ويَوم يَقوم الأشهادُ ، كما بَيَّنا فيما مضى أن العرب تُخرِج الخَبَرَ بلفظ الجميع ، والمُراد واحد ، إذا لم تَنْصُبْ للخبر شَخْصًا بعَينه ... . وعَنَى بقَوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ ﴾ ، يَوم يَقوم الأشهادُ مِن المَلائكة والأنبياء والمؤمنين على الأُمَم المُكَذِّبة رُسُلَهَا بالشَّهادة بأن الرُّسُل قد بلَّغتهم رِسَالاتِ رَبِّهم ، وأن الأُمَم كَذَّبَتْهُم . والأشهاد : جَمْع شهيد ، كما الأشراف: جَمْع شريف)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٦) : ((قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ﴾ سُؤالًا ، فقال : قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قَتله قَوْمُه بالكُلِّية كيَحيى وزكريا وشَعْياء ، ومِنهُم مَن خَرَجَ مِن بين أظْهُرِهم ، إمَّا مُهَاجِرًا كإبراهيم ، وإمَّا إلى السماء كعِيسى ، فأينَ النُّصرة في الدُّنيا ؟ ، ثُمَّ أجاب عن ذلك بجوابَيْن (أحدهما) أن يكون الخَبَر خَرَجَ عَامًّا ، والمراد به البَعْض . قال : وهذا سائغ في اللغة (الثاني) أن يكون المُراد بالنَّصْر والانتصار لهم مِمَّن آذاهم ، وسَواء كان ذلك بحَضْرتهم ، أو في غَيْبهم ، أو بعد مَوْتهم ، كما فُعِلَ بقَتَلَة يَحْيى وزكريا وشَعْياء ، سُلِّطَ عليهم مِن أعدائهم مَن أهانهم ، وسَفَكَ دِماءهم ، وقد ذُكِرَ أن النمرود أخذه اللهُ تعالى أخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِر ، وأمَّا الذين راموا صَلْبَ المسيح عليه السلام مِن اليهود ، فسلَّط اللهُ تعالى عليهم الرُّوم ، فأهانوهم ، وأذَلُّوهم ، وأظهرهم اللهُ تعالى عَلَيهم ، ثُمَّ قَبْل يوم القيامة ، سَيَنزل عِيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إمامًا عادلًا ، وحَكَمًا مُقْسِطًا ، فيَقتل المَسِيحَ الدَّجَّالَ وجُنودَه مِن اليَهود ، ويَقتل الخِنزيرَ ، ويَكسِر الصَّلِيبَ ، ويضع الجِزْيَةَ ، فلا يَقْبَل إلا الإسلام ، وهذه نُصرة عظيمة ، وهذه سُنَّة الله تعالى في خَلْقه في قَدِيم الدَّهْر وحديثه ، أنَّه يَنصُر عِبادَه المؤمنين في الدُّنيا ، ويُقِرُّ أعينَهم مِمَّن آذاهم ... . ولهذا أهلكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَ نُوح وعاد وثَمُود ، وأصحاب الرَّس ، وقَوم لُوط ، وأهل مَدْيَن ، وأشباههم وأضرابهم مِمَّن كَذَّبَ الرُّسُلَ ، وخَالَفَ الحَقَّ ، وأنجى اللهُ تعالى مِن بَيْنهم المؤمنين ، فلم يُهْلِكْ مِنهُم أحدًا ، وعَذَّبَ الكافرين ، فلم يُفْلِتْ مِنهُم أحدًا . قال السُّدي : لَم يَبْعَث اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولًا قَط إلى قَوم فيَقتلونه ، أو قَوْمًا من المؤمنين يَدْعُون إلى الحق فيُقْتَلُون ، فيذهب ذلك القَرْن حتى يَبْعَثَ اللهُ تبارك وتعالى لهم مَن يَنصُرهم ، فيَطلُب بدِمائهم مِمَّن فَعل ذلك بهم في

الدُّنيا . قال : فكانت الأنبياءُ والمؤمنون يُقْتَلُون في الدُّنيا ، وهُم مَنصورون فيها ، وهكذا نَصَرَ اللهُ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه على مَن خَالَفَه ، وناوَأه ، وكَذَّبه ، وعاداه ، فجَعل كلمته هِيَ العُليا ، ودِينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمَرَه بالهِجرة مِن بَيْن ظَهْراني قَوْمه إلى المدينة النبوية ، وجَعل له فيها أنصارًا وأعوانًا ، ثُمَّ مَنَحه أكتافَ المشركين يوم بَدْر ، فنَصَرَه عليهم ، وخَذَلَهم ، وقَتَلَ صناديدهم، وأَسَرَ سُرَاتهم (أشرافهم) ، فاستاقهم مُقرَّنين في الأصفاد ، ثُمَّ مَنَّ عليهم بأخذه الفِداء مِنهُم،ثُمَّ بعد مدة قريبة فَتَحَ عليه مَكَّة، فقرَّت عَيْنُه ببلده وهو البلد المُحَرَّم الحرام المُشَرَّف المُعظَّم،فأنفذه اللهُ تعالى به مِمَّا كان فيه مِن الكُفر والشِّرك،وفَتَحَ له اليَمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودَخَلَ الناس في دِين الله أفواجًا، ثُمَّ قَبَضَه اللهُ تعالى إلَيه لِمَا له عِنده مِن الكَرامة العظيمة فأقامَ اللهُ تبارك وتعالى أصحابَه خُلَفاء بَعْدَه ، فبلَّغوا عنه دِينَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ودَعَوْا عِبَادَ الله تعالى إلى الله جَلَّ وعلا، وفتحوا البلادَ والرَّساتيق والأقاليم والمَدائن والقُرى والقُلوب حتى انتشرت الدَّعوة المُحمَّدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثُمَّ لا يزال هذا الدِّين قائمًا مَنصورًا ظاهرًا إلى قِيام السَّاعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ﴾ ، أي : يَوم القِيامة تكون النُّصرةُ أعظمَ وأكبرَ وأجَلَّ . قال مُجاهد : الأشهاد الملائكة)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسيـر (٧/ ٢٣٠ و٢٣١) : ((﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن ذلك بإثبات حُجَجهم. والثاني بإهلاك عَدُوِّهم . والثالث بأن العَاقِبة تكون لهم، وفَصْل الخِطاب أن نَصْرهم حاصل لا بُد مِنه ، فتارةً يكون بإعلاء أمْرِهم، كما أعطى داود وسُلَيمان مِن المُلْك ما قَهَرَا به كُلَّ كافر ، وأظهرَ مُحَمَّدًا ﷺ على مُكَذِّبيه، وتارةً يكون بالانتقام مِن مُكَذِّبيهم بإنجاء الرُّسُل وإهلاك أعدائهم، كما فعل بنُوح وقَومه ومُوسى وقَومه، وتارةً يكون بالانتقام مِن مُكَذِّبيهم بعد وَفاة الرُّسُل كتَسليطه بُخْتُنَصَّر على قَتَلَة يحيى بن زكريا، وأمَّا نَصْرهم يَوم يَقوم الأشهادُ، فإن الله مُنَجِّيهم مِن العذاب، وواحد الأشهاد شاهد، كما أن واحد الأصحاب صاحب. وفي الأشهاد ثلاثة أقوال : أحدها المَلائكة شَهِدُوا للأنبياءَ بالإبلاغ، وعلى الأُمَم بالتَّكذيب، قاله مُجاهد والسُّدي. قال مُقاتل: وهُم الحَفَظَة مِن المَلائكة . والثاني المَلائكة والأنبياء،قاله قَتادة. والثالث أنَّهُم أربعة:الأنبياء والمَلائكة والمُؤمنون والجَوارح، قاله ابن زَيد)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعْلَوْنَ واللهُ مَعَكُم وَلَن يَتِرَكُم أعْمَالَكُم ﴾ [مُحمَّد : ٣٥] . فلا تَضعُفوا أيُّها المؤمنون عن جِهاد الكافرين ، وتَخافوا مِن قِتال الأعداء ، وتَدْعُوهم إلى الصُّلح والمُسالَمَة والمُهَادَنَة ابتداءً مِنكُم ، فإنَّ ذلك لا يَكون إلا في حالة الضَّعْف .

وأنتُم الأعَزُّ مِنهُم ، الغالبون لهم ، العَالُون عَلَيهم ، بالحُجَّة والسَّيف ، لأنَّكُم مؤمنون ، وإن انتصروا عليكم في الظَّاهر في بعض الحالات ، فإنَّ العاقبة للمؤمنين ، والعِبرة بالخواتيم .

واللهُ معكم بالعَون والنَّصْر والتأييد ، وهو ناصركم على أعدائكم. ومَن كان اللهُ مَعَه ، فهو عزيزٌ مُنتصر ، فلا مَعنى للذُّل والضَّعْف .

ولن يُنقِصكم اللهُ شيئًا مِن ثواب أعمالكم، ولَن يَظلمكم أجُورَ عباداتكم، ولن يُضيِّع طَاعاتكم.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣١) : ((قال جَلَّ وعَلا لعباده المؤمنين : ﴿ فلا تَهِنُوا ﴾ ، أي: لا تَضعُفوا عَن الأعداء ، ﴿ وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ ﴾ ، أي : المُهَادَنَة ، والمُسَالَمَة ، ووَضْع القتال بَينكم وبَين الكُفَّار في حَال قُوَّتكم ، وكَثرة عَددكم وعُددكم ، ولهذا قال: ﴿ فلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾ ، أي : في حال عُلُوِّكم على عَدُوِّكم ، فأمَّا إذا كان الكُفَّار فِيهم قُوَّة وكَثْرة بالنِّسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المُهَادَنَة والمُعَاهَدَة مَصلحةً ، فله أن يفعل ذلك ، كما فَعل رسولُ الله ﷺ حِين صَدَّه كُفَّار قُرَيش عَن مَكَّة ، ودَعَوْهُ إلى الصُّلح ، ووَضْع الحَرْب بَينهم وبَينه عَشْر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقَوله جَلَّتْ عَظَمَتُه : ﴿ واللهُ مَعَكُم ﴾ ، فِيه بِشارة عَظيمة بالنَّصْر والظَّفَر على الأعداء ، ﴿ وَلَن يَتِرَكُم أعْمَالَكُم ﴾ ، أي : وَلَن يُحْبِطَها ويُبْطِلَها ويَسْلُبَكم إيَّاها ، بَل يُوَفِّيكم ثوابَها ، ولا يُنقِصكم مِنها شَيْئًا ، والله أعلم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤١٣ و٤١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ فلا تَهِنُوا ﴾ ، أي: فلا تَضعُفوا ﴿ وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ ﴾ ، ... . والمعنى : لا تَدْعُوا الكُفَّارَ إلى الصُّلح ابتداءً . وفي هذا دَلالة على أنه لا يَجوز طَلب الصُّلح مِن المُشركين، ودَلالة على أنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَدخل مَكَّةَ صُلْحًا ، لأنَّه نَهَاه عن الصُّلح . قَوله تعالى : ﴿ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ﴾ ، أي : أنتُم أعَزُّ مِنهُم ، والحُجَّة لكم، وآخِر الأمر لكم، وإن غَلَبُوكم في بعض الأوقات، ﴿ واللهُ مَعَكُم ﴾ بالعَون والنُّصرة ، ﴿ وَلَن يَتِرَكُم ﴾ ، قال ابن قُتَيبة : أي : لَن يُنقِصكم ، ولن يَظلِمكم . يُقال : وَتَرْتَني حَقِّي ، أي : بَخَسْتَنيه . قال المُفسِّرون : المعنى : لن يُنقِصكم مِن ثَواب أعمالكم شيئًا)) .

٨ _ لا خَوف عَلَيهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ [البقرة : ٣٨] .

فَمَن صدَّق بوَحدانية الله ، وأطاعه ، ولم يَعْصِه ، فلا خَوف عليهم مِن أهوال الآخرةِ وعذابِ النار ، لأنَّهُم آمِنُون مُطمئنون بسبب طاعاتهم ، ولا هُم يَحْزَنُون على ما فاتهم مِن أُمور الدُّنيا .

والخَوْفُ على المُتَوَقَّع، والحُزن على الواقع.أي: إن الخوف لأمر مُستقبَل،والحزن لأمر ماضٍ، فلا خَوف عليهم فيما يَستقبلون مِن عذاب الآخرة ، لأنَّ الله أمَّنُهم مِنه ، وحَمَاهُم مِن شَرِّه ، ولا هُم يَحزَنون عِند المَوت على ما فاتهم مِن الدُّنيا ، لأنَّ الله عوَّضهم خَيْرًا مِنه . لقد أنقذهم اللهُ مِن العذاب ، وحَمَاهُم مِن العِقاب ، وأثبتَ لهم الأجرَ والثَّواب . وهذا أعظم تكريم ، وأفضل تشريف.

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٨٠) : ((وقَوله : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ ، يعني : فَمَن اتَّبَعَ بَيَاني الذي آتَيْتُهُ على ألسُن رُسُلي ، أو مَعَ رُسُلي ... . وقَوله : ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾ ، يعني : فهُم آمِنُون في أهوال القيامة مِن عِقاب الله ، غَير خَائفين عَذَابَه ، بما أطاعوا اللهَ في الدُّنيا ، واتَّبعوا أمْرَه وهُداه وسَبيله ، ﴿ ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ يَوْمَئِذ على ما خَلَّفُوا بعد وَفاتهم في الدُّنيا ، كما حدَّثني يُونُس بن عبد الأعلى ، قال: أخبرنا ابن وَهْب قال : قال ابن زَيد : ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾، يقول : لا خَوف عَلَيكم أمامكم . ولَيس شيء أعظم في صَدْر الذي يَمُوت مِمَّا بَعْد المَوت ، فأمَّنَهُم مِنه ، وسَلَّاهم عَن الدُّنيا ، فقال : ﴿ ولا هُم يَحْزَنُون ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وهو مُحسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عِندَ رَبِّه ولا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾[البقرة : ١١٢] . هذه الآيةُ تكذيبٌ لِمَا قاله اليهود والنصارى إنه لَن يَدخل الجنةَ غَيْرُهم . ﴿ وقالوا لن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان هُودًا أو نصارى ﴾[البقرة : ١١١] [١١٣].

١١٣ أهلُ الكتاب يخترعون الأماني الكاذبة ، فهُم يخدعون أنفسهم فيعيشون في دُنيا الخيال وعوالِم الأحلام التي لا حقيقة لها . فاليهودُ قالوا : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان يهوديًّا ، والنصارى قالوا : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان نصرانيًّا. لكنَّ الله أفحمهم وفَضَحَ باطلَهم. فهذه الأماني الواهية لا أساس لها مِن الصِّحة ، كما أن أهل الكتاب لَم يُقدِّموا دليلًا على كلامهم . فإن كانوا صادقين في زَعْمهم فَلْيُحْضِروا البرهانَ الساطع، وليُقدِّموا الحُجَّةَ الباهرةَ لِيَكون موقفهم قَوِيًّا ، لكن هذا لَم يحدث، ولن يحدث . فاليهودُ والنصارى عائشون في عوالِمِ الأحلام والأوهام بلا حُجَّة مُعْتَبَرَة ، وهذه الأحلام ستؤول إلى كوابيس . وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢١٤) : ((يُبيِّن ـ تعالى ـ اغترارَ اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى ، أنه لن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان على مِلَّتها)) اهـ . وقال ابن حجر في العُجاب (١/ ٣٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وهو مُحسِنٌ ﴾ الآية.قال السُّدي وغَيره: نزلت في الذين قالوا: لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان هُودًا أو نصارى. أي قالت اليهود : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان يهوديًّا ، وقالت النصارى : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان نصرانيًّا)) .

لقد فَضح اللهُ غُرورَهم، وأزالَ باطلَهم، وَكَذَّبَهم . فَزَعْمُهم باطل ، وَحُجَّتهم داحضة ، وليس الأمرُ كما زَعَموا. إنَّ مَن عَبَدَ اللهَ وَحْدَه، بلا شَريك ولا نِد ، وأخلصَ دِينَه للهِ ، واستسلمَ لأمره ، وخَضع لِحُكمه ، وأطاعه في السِّر والعَلَن ، وهو مُحسِن مُصدِّق بالقُرآن ، وَحَقَّقَ الشَّرْطَيْن لقَبول الأعمال : الإخلاص للهِ ، واتِّباع النبيِّ ﷺ ، وآمنَ وَصَدَّقَ بالقُرآن . فهو الذي سَيَدخل الجنةَ، وله ثوابٌ عظيم عِند الله بسبب عمله الصالح، وأجرُه ثابتٌ عِند الله، لا يَضيع ولا يَنقُص،وهذا وعدُ الله واقع لا مَحالة . وثوابُ عمله النجاة مِن النار ، والفَوز بالجنة . ولا خَوْف عَلَيهم فيما يَستقبلونه، ولا هُم يَحْزَنون عَلى ما مضى مِمَّا يتركونه . لا خَوْفٌ عليهم مِن العذاب الإلهيِّ ، ولا هُم يَحْزَنون على ما تَركوا وراءهم في الدُّنيا . لا خَوْفٌ عليهم في الآخِرة ، ولا يَحْزَنون للمَوت .

والمقصودُ بالوجه الدِّين أو العمل. والإسلامُ هو الاستسلام والخُضوع لله تعالى، والتزام أوامره، واجتناب نَواهيه . والمُسْلِمُ هو المُسْتَسْلِمُ للهِ بِقَلبه وجَوَارحه ، الخاضع لأوامر اللهِ ونَواهيه .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٤٠) : ((وأمَّا قوله : ﴿ مَن أسلمَ وَجْهَهُ لله ﴾ ، فإنه يعني بِـ " إسلام الوَجْه " التَّذلُّل لطاعته ، والإذعان لأمره . وأصل الإسلام الاستسلام، لأنه مِن استسلمت لأمره ، وهو الخُضوع لأمره ، وإنما سُمِّيَ " المُسْلِم " مُسْلِمًا بخُضوع جَوارحه لطاعة رَبِّه)) .

وتَمَّ تخصيص "الوجه" بالذِّكر لأنه أكرم أعضاء الإنسان وأشرفها. وإذا خَضع الوجهُ للهِ تعالى ، وهو مَجْمَع الحُسن والجَمَال والبَهَاء ، وأكرم أجزاء الإنسان ، وأعظمها ، فالأَوْلَى والأحرى أن تَخضع باقي أجزاء الإنسان وأعضائه ، وهي الأقل شَرَفًا مِن الوجه ، ودُونه في المنْزلة والكرامة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٧٣) : ((وَخُصَّ الوجه بالذِّكر لِكَوْنه أشرف ما يُرى مِن الإنسان ، ولأنه موضع الحواس . وفيه يظهر العِز والذُّل . والعرب تُخبر بالوجه عن جُملة الشيء. ويَصِح أن يكون الوَجْه في هذه الآية المَقصِد)) .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٤٠) : ((وإنما قال جَلَّ ثناؤه : ﴿ ولا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ ، وقد قال قَبْل : ﴿ فلهُ أجْرُهُ عِندَ رَبِّه ﴾ ، لأن ﴿ مَن ﴾ التي في قَوْله : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ ﴾ في لفظ واحد ومعنى جميع . فالتَّوحيد في قوله: ﴿ فلهُ أجْرُهُ ﴾ للفظ . والجَمْعُ في قوله : ﴿ ولا خَوْفٌ عَلَيهم ﴾ للمعنى)) .

والجديرُ بالذِّكر أن هناك شَرْطَيْن لقَبول العمل : الإخلاص للهِ وَحْدَه ، واتِّباع النبيِّ ﷺ . فيجب الالتزام بِسُنَّة النبيِّ ﷺ ، والسَّير وَفْقَ مِنهاجه وشريعته ، وتحويل أقواله وأفعاله إلى واقع مَلموس. ومَن خَالَفَ سُنَّةَ النبيِّ ﷺ ، فمُخالفته مرفوضة، ومَردودة عَلَيه ، كائنًا مَن كان .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣) : عن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : ((مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أمرُنا فَهُوَ رَد)) .

مَن خَالَفَ سُنَّةَ النبيِّ ﷺ ، وعَمِلَ عَمَلًا لَم يَعْمَلْه النَّبِيُّ ﷺ، فَعَمَلُه (بِدعته) باطل ، ومَردود ، ولا يُعْتَدُّ به. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٦) : ((وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام،وهو مِن جَوامع كَلِمه ﷺ،فإنَّه صريح في رَد كُل البِدَع والمُخْتَرَعَات)).

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((فَعَمَل الرُّهبان ومَن شابههم ، وإن فُرِض أنهم مُخلِصون فيه لله ، فإنه لا يُتقبَّل منهم حتى يكون ذلك مُتابِعًا للرسول ﷺ ، المَبعوث إليهم ، وإلى الناس كافة ... ، وأمَّا إن كان العمل مُوَافِقًا للشَّريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لَم يُخلِص عَامِلُه القَصْدَ لله ، فهو أيضًا مَردود على فاعله ، وهذا حال المُرائين والمُنافقين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن آمَنَ وأصلحَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ [الأنعام : ٤٨].

فَمَن آمَنَ بالرِّسالةِ السماويةِ ، واتَّبَعَ الرَّسُولَ قَوْلًا وفِعْلًا ، وأصلحَ نَفْسَه وعَمَلَه بالإيمان والتَّقوى ، وأصلحَ غَيْرَه بالنصيحة والإرشاد والتَّوجيه ، فلا خَوْفٌ عَلَيهم حِينَ يَخافُ أهلُ النار ، ولا هُم يَحْزَنُون إذا حَزِنوا . لقد أجارَ اللهُ المؤمنين مِن الخَوف والحزن ، بِما أعدَّ لهم في الآخرة مِنَ النعيم الأبديِّ ، الذي لا يَزول ، ولا يَنقطع ، فلا خَوْفٌ عَلَيهم مِن العذاب ، ولا هُم يَحزنون بِفَوات الأجر ، فلا شَيء يَضيع عِند الله تعالى .

والآيةُ بِشارة إلهية للمؤمنين المُصْلِحِين ، الذين تركوا المُحَرَّمات ، وفعلوا الطاعات ، بأن لا خَوْف عليهم في الآخرة ، ولا هُم يَحْزَنُون على ما فاتهم مِن الدُّنيا .

إن الذين آمنوا بالله ، وعبدوه وَحْدَه لا شريك له ، والتزموا أوامره ، واجتنبوا نَواهيه ، وأخلَصوا له النِّية ، وأصلحوا أعمالَهم وأنفسهم باتِّباع الرُّسُل والتَّصديق بآيات الله ، فلا خَوْفٌ عليهم يوم القيامة مِن عِقاب الله وعَذابه ، ولا هُم يَحْزَنُون على ما فاتهم مِن الدُّنيا مِن الشَّهَوَات والمَلَذَّات المُحَرَّمة التي تركوها لوَجْه الله تعالى ، وذلك حِين يَرَوْنَ ما أَعَدَّه اللهُ لهم مِن النعيم والسعادة في الجَنَّة التي لا تزول ولا تفنى . إنهم لا يَخافون إذا خاف الناس ، ولا يَحزنون إذا حَزِنوا . ونَفْيُ الخَوف والحزن ، يعني بالضرورة نَفْي جميع ما تَكرهه النَّفْس على الإطلاق .

والآيةُ دليلٌ على أن المؤمنين يوم القيامة لا يَخافون ولا يَحزنون ، وهذا يعني أنهم آمِنُون مِن أهوال يوم القيامة .

وقِيل: قد يَخافون ويَحزنون مِن أهوال يوم القيامة، ولكن مآلهم الأمن والأمان .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٦) : ((﴿ فَمَن آمَنَ وأصلحَ ﴾ ، يقول : فَمَن صَدَّقَ مَن أرْسَلْنا إلَيه مِن رُسُلنا إنذارَهم إيَّاه ، وقَبِلَ مِنهُم ما جاؤوه به مِن عِند الله ، وعَمِلَ صالحًا في الدُّنيا ، ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾ عِندَ قُدومهم على ربِّهم مِن عِقابه وعَذابه ، الذي أعَدَّه اللهُ لأعدائه ، وأهلِ مَعَاصيه ، ﴿ ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ عِند ذلك على ما خَلَّفُوا وراءهم في الدُّنيا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٨٠) : ((﴿ فَمَن آمَنَ وأصلحَ ﴾ أي : فَمَن آمَنَ قَلْبُه بِما جَاؤوا بِه ، وأصلح عَمَلَه باتِّباعه إيَّاهم ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾ أي بالنِّسبة لِمَا يَسْتقبلونه ﴿ ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ أي بالنِّسبة إلى ما فَاتَهم وتَركوه وراء ظُهورهم مِن أمر الدُّنيا وصنيعها . اللهُ وَلِيُّهم فِيما خَلَّفوه ، وحافظُهم فِيما تَرَكوه)) .

***

رابعًا : الملائكة

١ـ الإيمان بهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلٌّ آمنَ باللهِ ومَلائِكَتِهِ ﴾[البقرة : ٢٨٥] .

إن المؤمنين يُصدِّقون بوَحدانية الله، وأنَّه واحد أحد ، فَرْد صَمَد ، لا إلهَ غَيْرُه ، ولا شَريك له في أُلوهيته ورُبوبيته ، ويُصدِّقون بملائكته ، مِن حَيث كَوْنهم عباد الله المُكْرَمين ، المُتَوَسِّطِين بينه وبين أنبيائه في إنزال كُتبه . وقال أبو السُّعود في تفسيره (١/ ٢٧٤) : ((﴿ ومَلائِكَتِهِ ﴾ ، أي: مِن حَيث إنَّهم عِباد مُكْرَمُون له تعالى، مِن شأنهم التَّوَسُّط بينه تعالى وبين الرُّسُل بإنزال الكُتب ، وإلقاء الوَحْي ، فإنَّ مَدَار الإيمان بهم لَيس مِن خُصوصيات ذَوَاتهم في أنفسهم ، بل هو مِن إضافتهم إليه تعالى ، مِن الحَيثية المَذكورة ، كما يَلُوح به التَّرتيب في النَّظْم)) .

والملائكةُ مَخلوقات لله ، نُورانية (مَخلوقة مِن نُور) ، عظيمة ، قَوِيَّة ، عاقلة ، مُتكلِّمة ، مُريدة، مَجبولون على طاعة الله ، مَربوبون ، مُسخَّرون ، عِباد مُكْرَمُون ، أعطاهم اللهُ القُدرةَ على التَّشَكُّل بالصُّوَر الحَسَنَة والظهور بأشكال مُختلفة، ومَسكنهم السَّماوات. لا يَعصون اللهَ ما أمرهم، ويَفعلون ما يُؤْمَرُون، لا يُوصَفون بذُكورة ولا أُنوثة. لا يَأكلون،ولا يَشربون،ولا يتزوَّجون ، ولا يَتعبون، ولا يَمَلُّون ، ولا يَعلم عَدَدَهم إلا الله تعالى .

إنَّ وجود الملائكة مِن المَعلوم مِن الدِّين بالضرورة . بحيث إن مُنكِرهم كافر. وقد ذُكروا في القرآن الكريم مَرَّات كثيرة . وهذا الأمر معروف للقاصي والداني ، والعالم والجاهل .

٢ـ صِفاتهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ﴾[الشُّعَراء : ١٩٣] .

نَزَلَ بالقُرآنِ أمينُ الوَحْي جِبريل ـعليه السلامـ. وهو أعظمُ الملائكةِ على الإطلاق،وأمينٌ على وَحْي اللهِ إلى أنبيائه. وسُمِّيَ جِبريل رُوحًا لأنَّ الدِّينَ يحيا بِه وبوَحْيِه. وكان جِبريلُ ـعليه السلام ـ يأتي النبيَّ ﷺ في صُورة دِحْية الكَلبيِّ ـرضي اللهُ عنهـ، وهو صحابيٌّ جَميلُ الوَجْه، حَسَنُ الصورة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٢) : ((وهو جِبريل ـ عليه السلام ـ. قاله غَير واحد من السَّلَف : ابن عباس ومُحمَّد بن كَعْب وقَتادة وعطية العَوفي والسُّدي والضَّحاك والزُّهري وابن جُرَيج ، وهذا مِمَّا لا نِزاع فيه ... وقال مُجاهد : مَن كَلَّمه الرُّوحُ الأمين ، لا تأكله الأرض)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الحمدُ للهِ فَاطِرِ السماواتِ والأرضِ جَاعِلِ الملائكةِ رُسُلًا أُولي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فَاطِر : ١] .

الحَمْدُ الكاملُ ، والشُّكر التام ، والذِّكْر الحَسَن ، والتَّعظيم والتَّمجيد والتَّقديس للهِ المَعبودِ الذي لا إلهَ غَيْرُه ، ولا يستحق العبادةَ سِوَاه ، خَالِقِ السماوات والأرض مِن العَدَم ، ومُبْدِعهما مِن غَير مِثال سابق ، جَاعِلِ المَلائكةِ وَسَائط بَيْنَه وبَيْن أنبيائه لتبليغ أوامر الله ، مِنهُم جِبريل ومِيكائيل وإسرافيل ومَلَك المَوْت _ عَلَيهم الصلاة والسلام _ ، أصحاب أجنحة ، بَعْضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، يَطيرون بها ، لتبليغ الأوامر الإلهية سريعًا بلا تأخير ، يَنزلون بالأجنحة مِن السماء إلى الأرض ، ويَعْرُجُون من الأرض إلى السماء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٧٩) : ((أي : جَعَلَهُم رُسُلًا . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء . وقال السُّدي : إلى العِباد برَحْمة أو نِقْمة)) .

يزيد في خَلْق المَلائكة كَيْف يَشَاء ، مِن ضَخَامة الأجسام ، واختلاف الأشكال ، وتعدُّد الأجنحة. وكُل مَلَك له وَظيفة مُعيَّنة ، وقُدرات مُحدَّدة. وقد رأى النبيُّ ﷺ جِبريلَ _ عليه السلام _ لَيلة الإسراء ، وله سِتمائة جَناح .

وعن ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ رَأى جِبريلَ له سِتمائة جَناح [١١٤].

هذا الأمرُ الغَيْبِيُّ لا يُمكن للصحابيِّ أن يَعرفه إلا إذا سَمِعَه مِن النبيِّ ﷺ . لذلك ، فالحديثُ له حُكْم المرفوع . وهو يُشير إلى عَظَمَة هذا المَلَك ومكانته الجليلة وقُوَّته الكبيرة ، التي لا يُمكن للعقل البشريِّ أن يُجسِّدها أو يَتصوَّرها، لأنها فَوق قَدرته على التَّحَمُّل أو التَّخَيُّل . فالملائكة أعظم مخلوقات الله من ناحية القُوَّة الجُسْمانية التي لا تنهار مُطْلَقًا ، ولا يَعتريها التعب والإرهاق ، ولا تُصاب بالمَلَل . فهم كائنات مَخلوقة مِن النُّور ، أي إنهم يَتميَّزون عن البشر المخلوقين من التراب ، والجِنِّ المخلوقين من النار .

وقد ورد في صحيح البخاري (٣/ ١١٨١) عن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ أنَّ جِبريلَ جَاءَ النبيَّ ﷺ في صُورته الحقيقية فَسَدَّ الأُفُقَ .

جِبريلُ _ عليه السَّلام _ هو رُوح القُدُس الأمين المُختص بالنُّزول على الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لإخبارهم بالوَحْي ، فهو أمينُ الوَحْي .

---

١١٤ متفق عليه . البخاري (٣/ ١١٨١) برقم (٣٠٦٠) ، ومسلم (١/ ١٥٨) برقم (١٧٤).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٩): ((﴿ جَاعِلِ الملائكةِ رُسُلًا ﴾ وَسَائط بَيْن الله وبَيْن أنبيائه والصَّالحين مِن عِباده يُبَلِّغون إلَيهم رِسالاته بالوَحْي ، والإلهام ، والرُّؤيا الصادقة ، أو بَيْنه وبَيْن خَلْقه يُوصِلون إلَيهم آثارَ صُنعه ﴿ أُولي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ ذَوِي أجنحة مُتعدِّدة ، مُتفاوتة بتفاوُت ما لهم مِن المَراتب ، يَنزِلون بها ، ويَعرُجون ، أو يُسْرِعون بها نَحْو ما وَكَّلهم اللهُ عَلَيه ، فيتصرَّفون فِيه على أمرهم به ... ﴿ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ استئناف للدَّلالة على أن تفاوُتهم في ذلك بمُقْتَضَى مَشيئته ، ومُؤدَّى حِكمته ، لا أمر تَستدعيه ذَواتهم ، لأن اختلاف الأصناف والأنواع بالخَواص والفُصول، إن كان لذواتهم المُشْتَرَكَة، لَزِمَ تنافي لوازم الأمور المُتَّفقة ، وهو مُحَال . والآية مُتناوِلة زِيادات الصُّوَر والمَعاني ، كمَلاحة الوَجْه ، وحُسن الصَّوْت ، وحَصافة العَقْل ، وسَماحة النَّفْس)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٧٣) : ((يُرْسِلهم إلى الأنبياء ، وإلى ما يَشاء مِن الأمور ، ﴿ أُولي أجنحةٍ ﴾ ، أي : أصحاب أجنحة ﴿ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ ، فبعضهم له جَناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، و﴿ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها أنه زاد في خَلْق الملائكة الأجنحة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني يزيد في الأجنحة ما يَشاء ، رواه عَبَّاد بن منصور عن الحسن ، وبه قال مُقاتل . والثالث أنه الخَلْق الحَسَن ، رواه عَوف عن الحَسَن . والرابع أنه حُسن الصَّوت ، قاله الزُّهري وابن جُرَيج . والخامس المَلاحة في العَينين، قاله قَتادة)) اهـ. وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٣٣٥) : ((﴿ يَزِيدُ في الخَلْقِ ﴾ ، أي : يَزيد في خَلْق الأجنحة وغَيْرِه ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ . وقِيل : هو الوجه الحَسَن ، والصَّوْت الحَسَن ، والشَّعْر الحَسَن ، والخَط الحَسَن ، والمَلاحة فى العَينين . والآية مُطْلَقَة تتناول كُلَّ زِيادة في الخَلْق مِن طُول قَامَة ، واعتدال صُورة ، وتَمَام في الأعضاء ، وقُوَّة في البَطْش ، وحَصافة في العَقْل ، وجَزالة في الرأي ، وذَلاقة في اللسان ، ومَحَبَّة في قُلوب المؤمنين ، وما أشبَه ذلك)) اهـ . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٥٧) : ((فيُقال له سُبحانَه وتعالى : رَب السَّماوات والأرض ، رَب العَرْش الكريم ، ورَب المَلائكة والرُّوح ، رَب المَشرقَيْن ، ورَب المغربَيْن ، رَب الناس ، مَالِك الناس ، إله الناس ، رَب العَالَمِين ، رَب كُل شيء ، رَب النَّبيين ، خَالق السَّماوات والأرض ، فَاطِر السَّماوات والأرض ، جَاعِل المَلائكة رُسُلًا ، فكُل ذلك وشَبَهه وَصْف له سُبحانَه بدَلائل العَظَمَة ، وعَظِيم القُدرة والمُلْك ، ولَم يُستعمَل ذلك فِيما يُحتقَر ويُستصغَر ، فلا يُقال : رَب الحشرات ، وخَالق القِرَدة والخَنازير ، وشَبَه ذلك على الإفراد ، وإنَّما يُقال : خَالِق المَخلوقات ، وخَالِق كُل شيء . وحِينئذ تدخل هذه في العُموم ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين ﴾[الانفطار : ١٠] .

وإنَّ عَلَيكم مَلائكة حَفَظَة رُقَباء ، يَحفَظون أعمالكم ، ويُراقبون تصرُّفاتكم ، ويُحْصُون أقوالَكم وأفعالَكم عليكم ، فابتعدوا عن المَعاصي ، ولا تُقابلوهم بالذُّنوب والآثام .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ كِرَامًا كاتبين ﴾[الانفطار : ١١] .

كِرَامًا عَلى الله ، يَكْتُبون أقوالَكم وأعمالَكم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٥٩) : ((والحافظين الرُّقَباء مِن المَلائكة الذين يَحْفَظُون على العِباد أعمالَهم ، ويَكْتُبونها في الصُّحُف . ووَصَفَهُم سُبحانَه بأنهم كِرَام لَدَيه ، يَكْتُبون ما يَأمرهم بِه مِن أعمال العِباد)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٨٩) عن سبب تسميتهما ﴿ كِرَامًا كاتبين ﴾ : ((أمَّا الكِرَام ، فلانتفاع العَبد بهما ، ولأنَّ المَلائكة كُلَّهم بَرَرَة ، وأمَّا " الكاتبين " فلإثباتهما الحَسَنَات والسَّيئات بالكتابة)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون ﴾[الانفطار : ١٢] .

يَعْلَم هؤلاء المَلائكةُ الحَفَظَة ما تَقُومون بِه مِن خَير أو شَر ، ويُحْصُونه عَلَيكم ، ويُسَجِّلونه في صَحَائف أعمالكم ، لِتُحَاسَبُوا به يوم القيامة ، ولا يَخفى عليهم شيء من أعمالكم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٤٩) : ((قَال تعالى : ﴿ وإنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين ﴾ ، أي: مِن المَلائكة ، يَحْفَظُون عَلَيكم أعمالَكم ﴿ كِرَامًا ﴾ عَلى رَبِّهم ﴿ كاتبين ﴾ يَكْتُبون أعمالَكم . ﴿ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون ﴾ مِن خَير وشَر ، فَيَكْتُبونه عَلَيكم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢١٥) : ((واختلف الناس في الكُفَّار ، هَل عَلَيهم حَفَظَة أَم لا ؟ ، فقال بعضُهم : لا ، لأن أمْرَهم ظاهر ، وعملهم واحد . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُم ﴾ [الرَّحمن: ٤١]. وقِيل : بَل عَلَيهم حَفَظَة ، لقَوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَل تُكَذِّبُونَ بالدِّين (٩) وإنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين (١٠) كِرَامًا كاتبين (١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون (١٢) ﴾)) .

وقال ابن القَيِّم في الجواب الكافي (ص ٧٥) : ((قال بعضُ الصحابة رضي اللهُ عنهم : إنَّ مَعَكُم مَن لا يُفاركم ، فاستحيوا مِنهم ، وأكرموهم ، ولا ألأم مِمَّن لا يَسْتحيي من الكريم العظيم القادر، ولا يُكْرِمه، ولا يُوقِّره.وقد نبَّه سُبحانَه على هذا المعنى بقَوله:﴿وإنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين (١٠) كِرَامًا كاتبين (١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون (١٢) ﴾ ، أي : استحيوا مِن هؤلاء الحافظين الكِرام ، وأكرموهم ، وأجِلُّوهم أن يَرَوْا مِنكم ما تَسْتحيون أن يَراكم عَلَيه مَن هُوَ مِثْلُكم . والملائكة تتأذَّى مِمَّا يَتأذَّى مِنه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذَّى مِمَّن يَفْجُر ويَعْصي بين يَدَيه ، وإن كان قد يَعمل مِثْلَ عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكِرام الكاتبين ، واللهُ المُستعان)) .

٣ـ عِبادتهم لله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] .

إنَّ الملائكةَ الأطهارَ خاضعون للهِ ، لا يَترفَّعون عن عبادته ، ولا يتكبَّرون عَنها ، ويُعظِّمونَه ويُنَزِّهونه عَن كُلِّ النقائصِ، ولا يَسْجُدُون إلا لَه . والسُّجودُ أشرفُ العبادات . إنهم في غاية الخضوع والتَّذَلُّل للهِ تعالى ، يُوحِّدون اللهَ ، ولا يُشرِكون بِه شيئًا ، ولا يَعْصُونه مُطْلَقًا .

وقد ذُكر الملائكة الأطهار في هذا السياق القُرآنِيِّ ، من أجل الاقتداء بهم في كثرة الطاعة والعبادة ، واتِّخاذِهم قُدوةً عُليا . فالملائكةُ الذين هُم أعظم مِنَ البَشَر ، يَخضعون للهِ ، فحريٌّ بالإنسانِ الأدنى أن يَقتديَ بالملائكة أصحاب المَنْزلة العُليا ، في الخُضوع لله وعبادته .

والمَلائكةُ عِند الله مَكَانَةً لا مَكَانًا ، لأن الله مُنَزَّه عن المكان ، لأن المكان مَخلوق ، واللهُ لا يَحُلُّ في مَخلوقاته، ولا يُحصَر في مكان، فهو سُبحانَه أكبر مِن كُل شيء. كان اللهُ، ولا مكان، ولا زمان ، وهو الآن حَيث كان ، وهو الآن كما كان .

وهذه الآيةُ آية سَجْدة . وفي هذا إشارة واضحة إلى ضرورة الاقتداء بالمَلائكة في طاعة الله ، والتواضع له ، والخُضوع لأوامره ، والتَّذَلُّل لعَظَمَته ومَجْده وسُلطانه والسُّجود له .

قال الشَّوكاني في فتح القدير(٢/ ٤٠٩):((﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ﴾ المُراد بهم المَلائكة ، قال القرطبي : بالإجماع . قال الزَّجَّاج : وقال : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ واللهُ عَزَّ وَجَلَّ بكل مكان ، لأنهم قَريبون مِن رحمته ، وكُل قريب مِن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ فهو عِندَه ، وقال غَيْرُه : لأنهم في مَوْضِع لا يَنفُذ فيه إلا حُكم اللهِ ، وقِيل : إنهم رُسُلُ اللهِ ، كما يُقال : عِندَ الخليفة جَيْشٌ كثير ، وقِيل : هذا على جِهة التشريف والتكريم لهم)) .

وفي صحيح مسلم(١/ ٨٧) عن أبي هُرَيرة قال:قال رسولُ الله ﷺ:((إذا قَرَأَ ابْنُ آدمَ السَّجدةَ فَسَجَدَ، اعتزلَ الشَّيطانُ يبكي، يَقول: يا وَيْلَه_ يعني يا وَيْلَ الشَّيطان_، أُمِرَ ابنُ آدم بالسُّجود فسجدَ فَلَهُ الجنة ، وأُمِرْتُ بالسجود فَأَبَيْتُ فَلِيَ النار)) . والمَقصودُ بالسَّجدةِ آيةُ السَّجدة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٧١) : ((وَقَوْلُه : " يا وَيْلَه " هو من آداب الكلام ، وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغَير ما فيه سُوء ، واقتضت الحكاية رُجوع الضمير إلى المُتكلِّم ، صَرف الحاكي الضميرَ عن نفْسه تصاوُنًا عن صورة إضافة السُّوء إلى نفْسه)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٦) : ((﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، يَعني : مَلائكة الملأ الأعلى ، ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ ، ويُنَزِّهُونه ، ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ ، ويَخُصُّونه بالعِبادة والتَّذَلُّل ، لا يُشركون به غَيْرَه . وهو تعريض بمَن عَدَاهم مِن المُكلَّفين ، ولذلك شُرِع السُّجود لقراءته)) اهـ . وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٢٢٦) : ((﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، أي : المَلائكة ، ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ لا يتكبَّرون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ يُنَزِّهُونه عمَّا لا يَلِيق به ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ ، أي : يَخُصُّونه بالخُضوع والعِبادة ، فكونوا مِثْلَهُم)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٢٩) : ((﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، يَعني : المَلائكة ، وهُم بالقُرب مِن رَحمة الله ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ ، أي : هُم مَعَ مَنزلتهم ودَرَجتهم يَعْبُدون اللهَ ، كأنَّه قِيل : مَن هو أكبر مِنك أيها الإنسان لا يَستكبر عن عبادة الله ، ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ ، ويُنَزِّهُونه عَن السُّوء ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣١٤ و٣١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، يَعني: المَلائكة ، ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، أي : لا يتكبرون ويتعظَّمون﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ . وفي هذه العِبادة قَولان: أحدهما الطاعة ، والثاني الصَّلاة والخُضوع فيها . وفي قَوله : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ قَولان : أحدهما يُنَزِّهُونه عَن السُّوء . والثاني يَقولون: سُبحانَ الله . قَوله تعالى : ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ ، أي : يُصَلُّون . وقِيل : سبب نزول هذه الآية أن كُفَّار مَكَّة قالوا : أنسجد لِمَا تأمرنا ؟ ، فنَزلت هذه الآية تُخبِر أن المَلائكة ، وهُم أكبر شأنًا مِنكُم لا يتكبَّرون عن عبادة الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى :﴿ وَلَهُ مَن في السماواتِ والأرضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُون﴾ [الأنبياء : ١٩] .

وللهِ جَمِيعُ المَخلوقاتِ مُلْكًا وخَلْقًا وعبيدًا وتصرُّفًا ، وهو خالقهم ، ورازقهم ، فكيفَ يَجُوز أن يُشرَك بالله ما هو عبدٌ ومَخلوق له ؟ . والملائكةُ الذينَ عَبَدَهُم المُشركون ، واتَّخذوهم بناتٍ لله تعالى ، لا يتكبَّرون عن عبادته ، ولا يَستنكفون عنها ، ولا يَتعبون ، ولا يَمَلُّون مِنها .

والآيةُ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ لتشريف الملائكة ، وتعظيمهم ، وبيان قُربهم مِن الله تعالى . وهذا القُرب ليس في المَسَافات ، وإنَّما هو المنزلة الرفيعة ، والمكانة السامية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٧٤) : ((﴿ وَلَهُ مَن في السماواتِ والأرضِ ﴾ عَبِيدًا ومُلْكًا، وهو خالقهم ، ورازقهم ، ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكًا يُعبَد كما يُعبَد . وهذه الجُملة مُقرِّرة لِمَا قَبْلها . ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ ، يَعني : الملائكة . وفيه رَد على

القائلين بأن الملائكة بنات الله . وفي التَّعبير عَنهُم بكَوْنهم ﴿ عِندَهُ ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمَنزلة المُقرَّبين عِند الملوك ، ثُمَّ وصفهم بقَوله : ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ ، أي: لا يَتعاظمون ولا يَأنَفُون عن عبادة الله سُبحانَه والتَّذَلُّل له ﴿ ولا يَسْتَحْسِرُون﴾ ، أي لا يَعْيَوْن. مأخوذ مِن الحَسِير ، وهو البَعِير المُنقطع بالإعياء والتَّعَب ... . قال أبو زيد : لا يَكِلُّون . وقال ابن الأعرابي : لا يَفشَلون . قال الزَّجاج : معنى الآية أن هؤلاء الذين ذَكَرْتُم أنهم أولاد الله عِباد الله ، لا يَأنَفُون عن عبادته ، ولا يتعظَّمون عَنها ، كقَوله : ﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ . وقِيل المعنى : لا يَنقطعون عن عِبادته . وهذه المعاني مُتقاربة)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُون ﴾[الأنبياء : ٢٠] .

الملائكة في طاعة دائمة ، وعبادة مُتواصلة ، وعمل دؤوب ، يُصَلُّون للهِ ، ويُعظِّمونه ، ويُنَزِّهُونه عن كُل ما لا يَلِيق به ، ويَذكرونه لَيْلًا ونهارًا ، لا يَتعَبون ، ولا يَمَلُّون ، ولا يَضْعُفون . إنهم لا يَفْتُرُون عَن تَسبيح الله في كل الأوقات . وتسبيحُ المَلائكة كالنَّفَس مِن البَشَر ، لا يَشغَلهم عنه شيء . وقد استدل بهذه الآية مَن قال : إن الملائكة أفضل مِن بني آدم .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٧٧) : ((أي : تَسبيحهم مُتَّصل دائم في جميع أوقاتهم ، لا تَتَخَلَّله فَتَر (ضَعْف) بفراغ ، أو بشُغُل آخَر ، فتسبيحهم جارٍ مَجرى التَّنَفُّس مِنَّا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٤٥): ((قَوله تعالى: ﴿ لا يَفْتُرُون ﴾ . قال قَتادة : لا يَسْأمُون . وسُئِلَ كَعْب : أمَا يَشغَلهم شَأن ؟ ، أمَا تَشغَلهم حاجة ؟ ، فقال للسائل : يا ابنَ أخي، جُعِلَ لهم التَّسبيح ، كَمَا جُعِلَ لكم النَّفَس ، ألستَ تأكل وتَشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتتكلم وأنت تتنفَّس ؟ ، فكذلك جُعِلَ لهم التَّسبيح)) .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جَزَّأ الخَلْقَ عَشْرَةَ أجزاء ، فَجَعَلَ تِسعةَ أجزاءِ الملائكةَ ، وجُزْءًا سَائِرَ الخَلْقِ ، وجَزَّأ المَلائكةَ عَشرةَ أجزاء ، فَجَعَلَ تِسعةَ أجزاءٍ يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ، لا يَفْتُرُون ، وجُزْءًا لرسالته ، وجَزَّأ الخَلْقَ عَشرةَ أجزاء ، فَجَعَلَ تِسعةَ أجزاءِ الجِنَّ ، وجُزْءًا بني آدم ، وجَزَّأ بني آدمَ عَشرةَ أجزاء ، فَجَعَلَ تِسعةَ أجزاءٍ يَأجوجَ ومَأجوج ، وجُزْءًا سَائِرَ الناسِ ، ... [١١٥]. هذا يدل على عَظَمَة الله ، وطَلاقة قُدرته ، وإبداعه في الخَلْق والإيجاد والتَّكوين. فهو الخالقُ الذي أحسنَ كُلَّ شَيء خَلَقَه . والمَصنوعُ يدل على الصَّانع.

١١٥ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٦) برقم (٨٥٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾[الصَّافَّات : ١٦٤] .

هذا اعترافٌ واضح مِن الملائكة بالعُبودية لله تعالى، وإقرار مِنهُم بأنَّ اللهَ إلَهُهُم، وأنهم عبيده. والآيةُ تدل على تعظيم الملائكة لله تعالى ، وإنكارهم لعبادة مَن عَبَدَهم .

كُلُّ مَلَك له مَوضع مُحدَّد في السماوات، ومكان معلوم في عبادة الله ،لا يتجاوزه، ولا يتعدَّاه، ورُتبة مُعيَّنة ، ووظيفة مَخصوصة . فَمِن المَلائكة المُوكَّل بالأرزاق ، ومِنهُم المُوكَّل بالآجال ، ومِنهُم مَن يَتَنَزَّل بالوَحْي . والمَلائكةُ يَتفاوتون في الشَّرَف والمَكانة والقُرب مِن الله تعالى .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦٣) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ . يقول جَبْرائيلُ للنَّبيِّ ﷺ : وما مِنَّا مَعْشَرَ الملائكة إلا له مَقام مَعلوم ، أي : ما مِنَّا مَلَك إلا له مَقام مَعلوم في السماوات يَعبد اللهَ فيه . قال ابن عباس : ما في السماوات مَوضع شِبْر إلا وعليه مَلَك يُصلِّي أو يُسبِّح ... . قال السُّدي: إلا له مَقام مَعلوم في القُربة والمُشَاهَدَة. وقال أبو بكر الوَرَّاق : إلا له مَقام مَعلوم يَعبد اللهَ عليه ،كالخَوف ، والرَّجاء ، والمَحَبَّة ، والرِّضا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٩٢و٩٣): ((أخبرَ عَن المَلائكة بقَوله: ﴿ وما مِنَّا ﴾ والمعنى: مَا مِنَّا مَلَك إلا له مَقام مَعلوم ، أي: مكان في السماوات مَخصوص يَعبُد اللهَ فِيه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٩٠) : ((﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ . وفي الكلام حَذف، والتقدير : وما مِنَّا أَحَد ، أو : وما مِنَّا مَلَك إلا له مَقام مَعلوم في عِبادة الله . وقِيل: التقدير : وما مِنَّا إلا مَن له مَقام مَعلوم . رجَّح البصريون التقدير الأول ، ورجَّح الكوفيون الثاني . قال الزَّجاج : هذا قول الملائكة ، وفيه مُضْمَر ، المعنى : وما مِنَّا مَلَك إلا له مَقام مَعلوم)) .

وعن أبي ذَر ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنِّي أرى ما لا تَرَوْن ، وأسمعُ ما لا تَسْمَعُون ، أطَّت السَّماءُ ، وحُقَّ لها أن تَئِط ، ما فِيها مَوْضِعُ أربعِ أصابع ، إلا ومَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ ساجدًا لله ، واللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ ما أعْلَم ، لَضَحِكْتُم قليلًا ، وَلَبَكَيْتُم كثيرًا ، وما تَلَذَّذْتُم بالنِّساء على الفُرُش ، وَلَخَرَجْتُم إلى الصُّعُداتِ تَجْأرُون إلى الله)) [١١٦].

إنَّ اللهَ يُطلِع النبيَّ ﷺ على بعض أمور الغَيب ، فيرى ما لا يَراه الناس، ويَسْمَع ما لا يَسْمَعُون . وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ وهو الصادق المَصدوق أن السَّماء أطَّت ، والأطيط صَوت الأقتاب ، وأطيط الإبل حنينها وأصواتها ، أي إن كثرة الملائكة في السَّماء ، قد أثقلها حتى أطَّت . وهذا تصوير

١١٦ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٣) برقم (٨٧٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

تقريبي لبيان عَظَمَة الله ، وقُوَّةِ عِبادة الملائكة _ عليهم السلام _ ، ولَيس ثَمَّة أطيط . وحُق للسماء أن تَئِط ، وهي جديرة بذلك ، لأن ما فيها موضع أربعة أصابع ، إلا ومَلَك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى ، خَوْفًا مِنه ، وطلبًا لرِضاه . وهذا يدل على شرف السماء على الأرض ، لأن السماء مكان العبادة والطاعة .

وأعدادُ الملائكة لا يَعْلَمها إلا الله تعالى ، وهُم يَعبدونه بلا تعب ولا كَلَل ولا مَلَل . أمَّا الناس فيُصيبهم التعب والضعف والكسل والإعراض عن عبادة الله ، والتقصير في طاعته . والملائكةُ على عِظَم أجسامهم ، وشَرَف منزلتهم ، ورِفعة قَدْرهم ، وقُوَّتهم الهائلة ، وقُدراتهم الفائقة ، وقُربهم مِن الله، يَعبدونه بكل تواضع وخُضوع وذُل.ويجب على الناس أن يَقتدوا بالملائكة ، ويتشبَّهوا بهم.

وَلَوْ يَعْلَم الناسُ ما يَعْلَمه النبيُّ ﷺ مِن الأهوال والعذاب والعُقوبة ، لَضَحِكُوا قليلًا ، وبَكَوْا كثيرًا، وما استمتعوا بِجِمَاع النساء، ولا وَجَدُوا لَذَّةً فيه ، لأن الإنسان الخائف أو الحزين ، لا يَجِد لَذَّةً في أيِّ شَيء، ولا يَعرِف مُتعةً في أيِّ أمر ، سواءٌ كان طعامًا أم شرابًا أم جِمَاعًا أم مَالًا ... إلخ. وَلَخَرَجُوا إلى الصُّعُدات (الطُّرُقات) ، يَرفعون أصواتهم بالاستغاثة والضَّراعة لله تعالى .

وهذا الحديثُ يَدعو إلى الإقبال على عبادة الله ، والحِرص على طاعته ، والتزام أوامره ، والابتعاد عن المعاصي والذنوب والآثام . وإذا تَذَكَّرَ العبدُ قُوَّةَ الملائكة في العبادة والطاعة _ معَ شَرَف مكانتهم وعَظِيم قَدْرهم وقُوَّة أجسامهم _ ، أقبلَ على العبادة بكل نشاط وحيوية ، وحَرَصَ على الطاعة قَوْلًا وفِعْلًا . والشَّرَف كُل الشَّرَف ، والمَجد كُل المَجد ، في عبادة الله وطاعته .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٥) : ((قوله (إنِّي أرى ما لا تَرَوْن)، أي : أُبْصِر ما لا تُبْصِرون بقرينة قَوله : (وأسمع ما لا تَسْمَعُون) . (أطَّت السماءُ) بتشديد الطاء من الأطيط ، وهو صوت الأقتاب . وأطيط الإبل أصواتها وحنينها على ما في النهاية ، أي صَوَّتت . (وحُق) بصيغة المَجهول ، أي : ويَستحق ويَنبغي (لها أن تَئِط) أي تُصَوِّت (ما فِيها) أي لَيس في السماء جِنسها (مَوضعُ أربع أصابع) بالرَّفع على أنه فاعل الظرف المُعتمد على حرف (إلا ومَلَك) أي فِيه مَلَك (واضع جبهته لله ساجدًا) . قال القاري : أي مُنْقَادًا ، ليَشمل ما قِيل أن بعضهم قِيام ، وبعضهم رُكوع ، وبعضهم سُجُود ، كما قال تعالى حِكايةً عَنهُم : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ ، أو خَصَّه باعتبار الغالب مِنهُم، أو هذا مُختص بإحدى السماوات... . قال الطيبي رحمه الله : أي أن كثرة ما فِيها مِن الملائكة قد أثقلها ، حتى أطَّت ، وهذا مَثَل ، وإيذان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثَمَّة أطِيط ، وإنما هو كلام تقريب أُريد به تقرير عَظَمَة الله تعالى ، انتهى .

قال القاري : ما المُحْوِج عن عُدول كلامه ﷺ مِن الحقيقة إلى المَجَاز ، مع إمكانه عَقْلًا ونَقْلًا ، حيث صرَّح بقَوله : (وأسمع ما لا تَسْمَعُون) ، معَ أنَّه يُحتمل أن يكون أطِيط السماء صَوتها بالتَّسبيح والتَّحميد والتَّقديس، لقَوله سُبحانَه:﴿ وإن مِن شَيءٍ إلا يُسبِّح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤]. (على الفُرُش) بضَمَّتَيْن ، جَمْع فِرَاش (لَخَرَجْتُم) أي: مِن مَنازلكم (إلى الصُّعُدات) بضَمَّتَيْن أي الطُّرُق ... . وقِيل : المُراد بالصُّعُدات هُنا البراري والصحاري (تَجْأرُون إلى الله) أي تتضرَّعون إلَيه بالدُّعاء ليَدفع عَنكم البَلاء)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٣٦ و٥٣٧): (((أطَّت السماءُ) صَاحَت ، وأنَّت، وصَوَّتت، مِن ثِقْل ما عليها من ازدحام الملائكة ، وكثرة الساجدين فيها مِنهم ، مِن الأطيط ، وهو صَوت الرَّحْل والإبل مِن حَمْل أثقالها . وأل للجِنس (وحُق لها) ، ... ، (أن تئط) ... ، أي: صَوَّتت، وحُق لها أن تُصوِّت ، لأن كثرة ما فِيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطَّت.قال ابن الأثير : وهذا مَثَل ، وإيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يَسَعُها عَقْل البشر ، وإن لم يكن ثَمَّ أطِيط ، وإنَّما هو تقريب أُريد به تقرير عَظَمَة الله تعالى . قال ابن حجر : وقَوْله (تَئِط) بفتح أوله وكَسْر الهمزة ، والأطِيط صَوت البَعير المُثقَل (والذي) أي : واللهِ الذي (نَفْسُ مُحمَّد بيده) أي بقُدرته وإرادته وتصريفه (ما فيها موضع بَشَر) ولا أقل مِنه بدليل رواية (ما فيها موضع أربع أصابع) ، (إلا وفيه جبهة مَلَك ساجد يُسبِّح اللهَ ويَحْمَده) أي : يقول حال سُجوده : سُبحانَ اللهِ وبحَمْده ، فهذا هو الذِّكْر المأثور للملائكة فيه ، والذِّكر المأثور للبَشَر : سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى . وهذا على طريق الاستعارة بالكِناية، شَبَّه السَّماءَ بذِي صَوت مِن الإبل المقتوبة، فأطلقَ المُشبَّه وهو السماء ، وأراد المُشبَّه به وهو الإبل ، ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن لوازم الإبل والأقتاب ، وهو الصوت المُعبَّر عَنه بقَوله : (أطَّت السماء) ينتقل الذهن مِنه. روى ابن عساكر أن في السَّماء ملائكة قِيَامًا،لا يَجْلِسُون أبدًا ، وسُجودًا لا يَرْفَعُون أبدًا ، ورُكوعًا لا يَقومون أبدًا ، يقولون : رَبَّنَا ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبادتك . اهـ . وقال ابن الزملكاني : وقد دَلَّ هذا الخَبَر ونَحْوه على أن الملائكة أكثر المخلوقات عددًا ، وأصنافهم كثيرة . وقد وَرد في القُرآن مِن ذلك ما يُوضِّحه . ومعرفة قَدْر كَثْرتهم ، وتَفصيل أصنافهم ، مَوكُول إلَيه سُبحانَه وتعالى : ﴿ وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ ﴾ [المُدَّثر : ٣١] .وقِيل: إن المُكَلَّفين أربعة أصناف : الإنسان ، والمَلَك ، والجِن ، والشَّياطين ، وبَنُو آدم عُشْر الجِن ، والجِن عُشْر حَيَوَان البَحْر والطَّيْر ، والكُل عُشْر ملائكة سَماء الدُّنيا ، وكُلُّهم عُشْر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى ملائكة الكُرْسِيِّ ثُمَّ العَرْش . وفي كتاب الزاهر وغَيره عن الأوزاعي وغَيره أن في

مُناجاة موسى ، قال : يا رَب ، مَن عَبَدَكَ قَبْلَ آدم ؟ ، قال : الملائكة ، قال : يا رَب، كَم هُم ؟، قال : اثنَي عَشَر ألف سِبْط ، قال : كَم السِّبْط ؟ ، قال : مِثْل الجِن والإنس والطَّير والبهائم اثنَي عَشَر ألف مَرَّة . وفي رواية : كَم عدد كُل سِبْط ؟ ، قال : عَدَد التُّراب . وفي تَذكرة الإمام الرازي أن رسول الله ﷺ لَمَّا عُرِجَ به إلى السماء، رأى ملائكة في مَحِلٍّ عالٍ مُشرِف، ورأى بَعْضَهم يَمشي تُجاه بعض، فسأل جِبريل : أين تذهبون ؟، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحق لا أدري،إلا أنِّي أراهم هكذا مُنْذُ خُلِقْتُ، ولا أرى واحدًا مِنهُم قَد رَأيْتُه قبل ذلك . وفي الفُتوحات : لا يَزال الحَق يَخلُق مِن أنفاس العَالَم ملائكةً ما داموا مُتَنَفِّسِين.والأخبار والآثار الدَّالة على أكثريتهم لا تكاد تُحصَى)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون ﴾[الصَّافَّات : ١٦٥] .

إن المَلائكة هُم الواقفون في عبادة الله ومواقف طاعته صُفُوفًا . ولهم مَراتب يقومون عليها صُفوفًا كصُفوف المُصَلِّين في الدُّنيا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٩٣) : ((قال قَتادة: صُفُوف في السماء. وقال السُّدي:هو الصَّلاة. وقال ابن السائب: صُفُوفهم في السَّماء كصُفُوف أهل الدُّنيا في الأرض)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٧١) عَن حُذَيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ((فُضِّلْنا على الناس بثلاث : جُعِلَتْ صُفُوفُنا كصُفُوفِ المَلائكة ، ...)) .

خَصَّ اللهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بالصَّف في الصَّلاة كصُفُوف الملائكة ، وهذا تعظيمٌ إلهيٌّ لأُمَّة التَّوحيد ، وتشريف لقَدْرها ، ورَفْع لشأنها . كما يدل على رَفع دَرَجات المُصَلِّين مِن أُمَّة مُحمَّد ﷺ ، حيث يقفون بين يَدَي الله ، وهُم صَافُّون صُفوف الملائكة المُقرَّبين .

وهذا يدل على أهمية العِناية بصُفوف الصلاة في الجماعة . ويجب أن تكون صُفوف المُصَلِّين في المساجد مِثْل صُفوف الملائكة في السماء، حيث يُتمَّم الصف الأول ثُمَّ الذي يَلِيه ، مع سَد الفُرَج ، حتى تَكون كالبُنيان المَرصُوص ، لأن الحِكمة من صلاة الجماعة هي توحيد قُلوب المسلمين ، وجَمْع شَمْلهم ، وتعزيز الأُخُوَّة والمحبة بينهم ، بحَيث يكونون على قَلْب رَجل واحد، ورأيهم واحد بلا تشتُّت ، وكلمتهم واحدة بلا تفرُّق . وقُوَّة المسلمين كامنة في تَوَحُّد قلوبهم على الحَق والخَير والمَحَبَّة والأُخُوَّة .

وقال الشَّوكاني في نَيل الأوطار (١/ ٣٣١) : ((قَوله : (صُفوفنا كصُفوف الملائكة) ، وهي أنَّهم يُتِمُّون المُقدَّم ، ثُمَّ الذي يَلِيه مِن الصُّفُوف ، ثُم يُرَاصُّون الصَّف ، كما ورد التصريح بذلك في سُنن أبي داود وغَيرها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾[الصَّافَّات : ١٦٦] .

إنَّ الملائكة هُم المُنَزِّهُون اللهَ عن العُيوب والنقائص ، وكُلِّ ما لا يَلِيق بعَظَمَته ومَجْده وكبريائه، ويُسبِّحون اللهَ في كُل الأوقات ، ويُقدِّسونه عمَّا أضافه إلَيه المُشركون ، الذين زعموا أن الملائكة بنات الله . والآيةُ تدل على أن الملائكة عباد لله ، يَعبدونه بالصَّلاة والتَّسبيح، بل مَلَل ولا تَعَب ، ولَيسوا آلهةً ولا مَعبودين كما زَعَم المُشركون .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣١) : ((﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ ، أي : نَصْطَف فنُسبِّح الرَّبَّ ، ونُمجِّده ، ونُقَدِّسه ، ونُنزِّهه عن النَّقائص ، فنحن عبيد له ، فُقَراء إليه ، خاضعون لَدَيه . وقال ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ ومُجاهد : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ الملائكة ، ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون ﴾ الملائكة ، ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ الملائكة تُسبِّح اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وقال قَتادة: ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ ، يعني : المُصَلُّون يَثبُتون بمَكانهم مِن العبادة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٢٢) : ((﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ ، أي : المُصَلُّون، قاله قَتادة.وقِيل:أي المُنَزِّهُون اللهَ عَمَّا أضافه إليه المشركون.والمُراد أنهم يُخبِرون أنهم يَعْبُدون اللهَ بالتسبيح والصلاة ، ولَيسوا مَعبودين ولا بَنات الله . وقِيل : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ مِن قَول الرَّسول ﷺ والمؤمنين للمُشركين ، أي : لِكُلِّ واحد مِنَّا ومِنكُم في الآخِرة مَقام مَعلوم ، وهو مَقام الحِساب . وقِيل : أي مِنَّا مَن له مَقام الخَوف ، ومِنَّا مَن له مَقام الرَّجاء ، ومِنَّا مَن له مَقام الإخلاص ، ومِنَّا مَن له مَقام الشُّكر ، إلى غَيرها مِن المَقامات . قُلتُ : والأظهر أن ذلك راجع إلى قَول الملائكة : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ﴾ ، والله أعلم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ ، فيه قَولان : أحدهما المُصَلُّون ، والثاني المُنَزِّهُون لله عَزَّ وَجَلَّ عن السُّوء . وكان عُمر بن الخطاب إذا أُقِيمت الصَّلاة أقبلَ على الناس بوَجْهه ، وقال : يا أيُّها الناس ، اسْتَوُوا ، فإنَّما يُريد اللهُ بكم هَدْيَ المَلائكة ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون (١٦٥) وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون (١٦٦) ﴾)) .

وقال ابن جُزَي في التَّسهيل في عُلوم التَّنزيل (٣/ ١٧٧) : ((وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة رَد على مَن قال إنهم بناتُ الله ، وشُركاء الله ، لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعُبودية ، والطاعة لله ، والتَّنزيه له جَلَّ وعَلا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وتَرَى الملائكةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾[الزُّمَر : ٧٥] .

وترى يا مُحمَّد الملائكةَ مُحيطين بعَرْش الله ، ومُطِيفين به ، ومُحْدِقين به مِن كُل جانب ، يُسبِّحون اللهَ ، ويُمجِّدونه ، ويُعظِّمونه ، ويُنزِّهونه عن العُيوب والنقائص ، ويُصَلُّون له طلبًا لرِضاه ، وشُكرًا له . وقِيل : هذا تَسبيح تَلَذُّذ ، لا تَسبيح تَعَبُّد ، لأن التَّكليف يَزُول في ذلك اليوم .

وقَضَى اللهُ بين العِباد بإدخال بعضهم الجَنَّة ، وإدخال بعضهم النار، أو: قَضَى بين أهل الجَنَّة وأهل النار ، أو : قَضَى بين الأنبياء وأُممهم بالحَق والعَدْل .

وقِيل : الحَمْدُ لله على عَدْله وقَضائه . والقائل هُم المؤمنون والكافرون. المؤمنون (أهل الجَنَّة) يَحمَدون اللهَ على فَضْله وإحسانه ونِعَمه ونَصْره وإتمام وَعْده لهم ، والكافرون (أهل النار) يَحمَدون اللهَ على عَدْله . أو : القائلون هُم المُؤمنون خاصَّةً ، حيث حَمِدُوا اللهَ على إدخالهم الجَنَّة ، وإتمام وَعْده لهم . أو : القائلون هُم المَلائكة ، حَيث خَتَمَ استقرارَ الفريقَيْن بالحَمْد مِن المَلائكة ، ولَم يَذكُرهم ، لَتَعَيُّنهم وتعظيمهم .

والجديرُ بالذِّكْر أن اللهَ افتتحَ الخَلْقَ بالحَمْد في قَوْله : ﴿ الحَمْدُ للهِ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ ﴾ [الأنعام : ١] . واختتمَ بالحَمْد في قَوله : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [الزُّمَر : ٧٥] .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠٢ و٢٠٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وتَرَى الملائكةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ ﴾ ، أي : مُحْدِقِين به . يُقال : حَفَّ القَوْمُ بفُلان ، إذا أحْدَقُوا به ، ودَخلت " مِن " للتَّوكيد ، كقَولك : ما جاءني مِن أَحَد ، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ . قال السُّدي ومُقاتل: بأمر ربِّهم . وقال بعضُهم : يُسبِّحون بالحَمْد له ، حيث دَخل المُوحِّدون الجَنَّةَ . وقال ابن جرير: التَّسبيح هاهُنا بمعنى الصلاة . قَوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ ، أي : بَيْن الخَلائق ﴿ بالحَقِّ ﴾ ، أي: بالعَدْل . ﴿ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ ، هَذا قَول أهل الجَنَّة شُكْرًا لله تعالى على إنعامه. قال المُفسِّرون : ابتدأَ اللهُ ذِكْرَ الخَلْق بالحَمْد ، فقال : ﴿ الحَمْدُ للهِ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ ﴾ [الأنعام : ١] . وخَتَمَ غايةَ الأمر ، وهو استقرار الفريقَيْن في منازلهم ، بالحَمْد لله ، بهذه الآية ، فنبَّه على تَحْميده في بداية كُل أمر وخاتمته)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٨١): ((﴿ وتَرَى الملائكةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ ﴾، أي: مُحِيطِين مُحْدِقِين بِه. يُقال: حَفَّ القَوْمُ بفُلان ، إذا أطافوا به ، و"مِن" مَزيدة ، قاله الأخفش ، أو للابتداء ، والمعنى : أن الرائي يراهم بهذه الصِّفة في ذلك اليوم ، وجُملة ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال : أي حَال كَوْنهم مُسَبِّحين لله ، مُلْتَبِسِين بحَمْده . وقِيل :

معنى يُسبِّحون يُصَلُّون حَوْل العَرْش شُكْرًا لربِّهم، والحَافِّين جَمْع حَافٍّ، قاله الأخفش.وقال الفَرَّاء : لا واحد له ، إذْ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مُجتمعين ، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ ﴾ ، أي: بَيْن العِباد بإدخال بعضهم الجَنَّة ، وبعضهم النار . وقِيل : بين النَّبيين الذين جِيء بهم مع الشُّهداء وبين أُمَمهم بالحق. وقِيل:بين الملائكة بإقامتهم في مَنازلهم على حَسَب دَرَجاتهم،والأول أوْلَى، ﴿ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمين﴾القائلون هُم المُؤمنون حَمِدُوا اللهَ على قَضائه بينهم وبين أهل النار بالحق. وقِيل القائلون هُم الملائكة حَمِدُوا اللهَ تعالى على عَدْله في الحُكم وقَضائه بين عباده بالحق)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٩) : ((﴿ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ ، أي : نَطَقَ الكَوْنُ أجْمَعُه ، ناطقه وبَهيمه ، لله رَب العَالَمِين بالحَمْد في حُكْمه وعَدْله ، ولهذا لم يُسنِد القَوْلَ إلى قائل ، بل أطلقه ، فدلَّ على أن جميع المَخلوقات شَهِدَتْ له بالحَمْد)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فإنِ اسْتَكْبَرُوا فالذينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليلِ والنَّهارِ وهُم لا يَسْأمون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٨]. فإن استكبرَ الكافرون عن السُّجود لله، ورَفضوا تَوحيدَه، وأصَرُّوا على الشِّرْك ، وأعْرَضُوا عن عبادته ، فالملائكة الأبرار يَعبدون الله بالليل والنهار ، وهُم لا يَمَلُّونَ عِبادته .

وقال الطبري في تفسيره(١١/ ١١٣):((يقول تعالى ذِكْرُه: فإن استكبر يا مُحمَّد هؤلاء الذين أنتَ بين أظْهُرهم مِن مُشركي قُرَيش، وتعظَّموا عن أن يَسْجُدوا لله الذي خَلَقَهم وخَلَقَ الشمسَ والقمرَ، فإن الملائكة الذين عِند رَبِّكَ لا يَستكبرون عن ذلك، ولا يتعظَّمون عنه، بَل يُسبِّحون له ، ويُصَلُّون لَيْلًا ونهارًا ﴿ وهُم لا يَسْأمون﴾ يقول:وهُم لا يَفْتُرُون عن عِبادتهم،ولا يَمَلُّون الصلاةَ له)).

٤ـ عُروجهم

قالَ اللهُ تعالى:﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾[المَعَارِج: ٤].

تَصعَد المَلائكةُ وجِبريلُ أمينُ الوَحْي إلى الله ، في يَوم طُوله خَمسون ألف سنة مِن سَنوات الدُّنيا التي يتعامل بها الناسُ. وهو مِقدار يوم القيامة،مِن وَقت البَعْث إلى أن يَفصِل اللهُ بين الخَلْق.

والآيةُ تدل على عَظَمَة الله وقُدرته المُطْلَقَة ، وسَيطرته على الزمان والمكان ، اللذين يتحكَّم بهما كما يُريد، وَحْدَه ، لا شريك له . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥): ((... هذه مسافة ما بين العَرْش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السَّلَف والخَلَف ، وهو الأرجح إن شاء الله)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٤) : ((وقال ابن عباس : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار . قلت : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله)) .

وتَمَّ إفراد جِبريل _ عليه السلام _ بالذِّكْر لشرفه ومكانته وفضله ، ولأنَّه أعظم المَلائكة ، وأمين الوَحْي. والآيةُ ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ ﴾ مِن ذِكْر الخاص بعد العام ، لتعظيمه وتشريفه.

وجبريل هُو الرُّوح : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٣] . وسُمِّيَ رُوحًا لأن النُّفُوس تَحيا به كما تَحيا بالأرواح، ولأنَّه نجاة الخَلْق في مَجال الدِّين، فهو كالرُّوح الذي تَثبُت معه الحياة، ولأنَّه خُلِقَ مِن الرُّوح، والملائكة مِن عَالَم الرَّوحانيات . والأمين : لأنَّ اللهَ أمَّنه على وَحْيِه ، وهو مُؤْتَمَن على ما يُؤَدِّيه إلى الأنبياء وغَيرهم .

وهذا اليَوم طويل جِدًّا على الكافر لِمَا يَجِد فيه مِن الشدائد والأهوال ، ويَكون خفيفًا وسهلًا على المؤمن . عن أبي سعيد الخُدري قال : قِيل لرسول الله ﷺ : ﴿ يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، ما أطْوَلَ هذا اليوم ! . فقال رسول الله ﷺ : ((والذي نَفْسي بيده ، إنَّه لَيُخفَّف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عَلَيه مِن صَلاة مَكتوبة يُصلِّيها في الدُّنيا)) [١١٧].

هذا اليوم العصيب الشديد مِن أُمور الآخِرة ، التي لا تُقَاس على أمور الدُّنيا . فلا يُقال : كيف يأكل الشخص أو يَشرب في هذه المُدَّة الطويلة ؟. وهذا الحديثُ يَحُثُّ على عبادة الله وطاعته ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، والابتعاد عن الذُّنوب والمعاصي ، مِن أجل النجاة من شدائد يوم القيامة وأهوالها الرهيبة . والمؤمنُ الطائعُ يكون هذا اليَوم بالنِّسبة إلَيه قصيرًا وسهلًا ، لأنَّ اللهَ يُسهِّله ويُخفِّفه بسبب أعمال العبد الصالحة . أمَّا الكافرُ ، فيكون هذا اليَوم شديدًا عليه ، وصعبًا للغاية . وقد جَعَلَ اللهُ هذه المُدَّة الطويلة (خمسين ألف سنة) على الكافرين دُون المؤمنين ، مِن وَقت البَعْث إلى أن يَفصِل بَيْن الخَلْق . وهذا يدل على خُطورة يوم القيامة ، وضرورة العمل له .

---

١١٧ رواه أحمد في مسنده (٣/ ٧٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦١٠) : ((رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه))اهـ. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٢٩): ((حديث : سُئِل عن طُول ذلك اليوم ، فقال : " والذي نَفْسي بيده ، إنَّه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكون أهونَ عليه من الصلاة المكتوبة يُصلِّيها في الدنيا " . أخرجه أبو يَعلى والبَيهقي في الشُّعَب مِن حديث أبي سعيد الخُدري ، وفيه ابن لَهِيعة ، وقد رواه ابن وَهْب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة ، وهو حَسَن . ولأبي يَعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيِّد:" يَهُون ذلك على المؤمن كَتَدَلِّي الشمس للغروب إلى أن تَغرُب". ورواه البَيهقي في الشُّعَب إلى أن قال : أظنُّه رَفَعَه بلفظ " إن الله ليُخفِّف على مَن يشاء مِن عباده طُولَه، كوقت صلاة مفروضة " .

وقال المُفسِّرون : والجَمْع بين هذه الآية : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، وبين الآية : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ ﴾ [السَّجدة : ٥] ، أن القِيامة مَواقف ومَواطن ، فيها خَمسون مَوْطِنًا ، كُل مَوْطِن ألف سنة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٧) : ((وقَوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ ﴾ . قال عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتادة : تَعرُج تَصعَد . وأمَّا الرُّوح ، فقال أبو صالح : هُم خَلْق مِن خَلْق الله يُشْبِهون الناس ، ولَيسوا ناسًا . قُلتُ : ويُحتمل أن يكون المُراد به جِبريل ، ويكون مِن باب عَطْف الخاص على العام ، ويُحتمل أن يكون اسم جِنس لأرواح بني آدم ، فإنَّها إذا قُبِضَت يُصعَد بها إلى السماء ... . وقَوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها : أنَّ المُراد بذلك مَسافة مَا بَيْن العَرْش العظيم ، إلى أسفل السَّافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العَرْش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتِّساع العَرْش مِن قُطر إلى قُطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وإنَّه مِن ياقوتة حَمراء ، كما ذَكَرَه ابن أبي شَيبة في كتاب صِفة العَرْش . وقد قال ابن أبي حاتم عِند هذه الآية : حَدَّثنا أحمد بن سَلَمَة ، حَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخْبَرَنا حكَّام عن عُمر بن معروف عن ليث عن مُجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : مُنتهى أمْره مِن أسفل الأرضِين إلى مُنتهى أمْره مِن فَوق السماوات خمسين ألف سنة . ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِند رَبِّكَ كألف سنة مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، يعني بذلك حين يَنزِل الأمرُ مِن السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء ، في يوم واحد ، فذلك مِقداره ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مِقدار مَسيرة خمسمائة عام . وقد رواه ابن جرير عن ابن حُمَيد عن حكَّام بن سالم عن عمرو بن معروف عن ليث عن مُجاهد، قَوله، لَم يَذكر ابنَ عباس ... . (القَول الثاني) أنَّ المُراد بذلك مُدَّة بقاء الدُّنيا، مُنذ خَلَقَ اللهُ هذا العَالَمَ إلى قِيام الساعة . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أبو زُرعة أخبرنا إبراهيم ابن موسى أخْبَرَنا ابن أبي زائدة عن ابن جُرَيج عن مُجاهد في قَوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : الدُّنيا عُمُرها خَمسون ألف سنة ، وذلك عُمُرها يوم سَمَّاها اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَوْمًا : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ ﴾ . قال : اليَوم الدُّنيا . وقال عبد الرَّزاق : أخْبَرَنا مَعْمَر عن ابن أبي نَجيح عن مُجاهد عن الحَكَم بن أبان عن عِكرمة : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : الدُّنيا مِن أوَّلها إلى آخِرها مِقدار خَمسين ألف سنة ، لا يدري أحد كَم مضى ، ولا كَم بَقِيَ ، إلا الله عَزَّ وَجَلَّ . (القَول الثالث) أنَّه اليَوم الفاصل بين الدُّنيا والآخِرة،

وهو قول غَريب جِدًّا . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أحمد بن محمد بن يَحيى بن سعيد القَطَّان حدثنا بُهْلُول بن المُوَرِّق ، حَدَّثنا مُوسى بن عُبَيدة ، أخبرني مُحمَّد بن كَعْب: ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : هو يَوم الفَصْل بين الدُّنيا والآخِرة . (القَول الرابع) أنَّ المُراد بذلك يَوم القِيامة ، قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أحمد بن سِنان الواسطي حَدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : يَوم القِيامة . وإسناده صحيح ، ورواه الثَّوري عن سِماك بن حَرْب عن عِكرمة : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ يَوم القِيامة ، وكَذا قال الضَّحاك وابن زَيد ، وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ قال : هو يَوم القِيامة ، جَعَلَه اللهُ تعالى على الكافرين مِقدارَ خمسين ألف سنة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٤) : ((﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ ﴾ ، أي : تَصعَد في المَعَارِج التي جَعَلَها اللهُ لهم ... . والرُّوح جِبريل عليه السلام ، قاله ابن عباس . دَليله قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٣] . وقِيل : هو مَلَك آخَر عظيم الخِلْقة ، وقال أبو صالح : إنَّه خَلْق مِن خَلْق الله كهَيئة الناس ، وليس بالناس . قال قَبِيصة بن ذُؤَيب : إنه رُوح المَيت حين يُقبَض ، ﴿ إلَيْهِ ﴾ أي : إلى المَكان الذي هو مَحِلُّهم ، وهو في السماء ، لأنها مَحِلُّ بِرِّه وكَرامته ، ... . ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، قال وَهْب والكلبي ومُحمَّد ابن إسحاق : أي عُرُوج المَلائكة إلى المَكان الذي مَحِلُّهم في وَقت كان مِقداره على غَيرهم لَوْ صَعِدَ خَمسين ألف سنة ، وقال وَهْب أيضًا : ما بَين أسفل الأرض إلى العَرْش مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو قول مُجاهد.وجمع بين هذا الآية وبَين قَوله:﴿في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ﴾[السَّجدة : ٥] في سُورة السَّجدة ، فقال : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ مِن مُنتهى أمْرِه مِن أسفل الأرضِين إلى مُنتهى أمْرِه مِن فوق السماوات خَمسون ألف سنة ، وقَوله تعالى : ﴿في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، يعني بذلك نُزول الأمر مِن سَماء الدُّنيا إلى الأرض، ومِن الأرض إلى السماء، في يوم واحد ، فذلك مِقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وعن مُجاهد أيضًا والحَكَم وعِكرمة : هو مُدَّة عُمر الدُّنيا مِن أوَّل ما خُلِقَت إلى آخِر ما بَقِيَ خَمسون ألف سنة ، لا يَدري أحد كَم مضى ، ولا كَم بَقِيَ ، إلا الله عَزَّ وَجَلَّ . وقِيل : المُراد يَوم القِيامة ، أي : مِقدار الحُكْم فِيه لَوْ تَوَلَّاه مَخلوق خمسون ألف سنة ، قاله عِكرمة أيضًا والكلبي ومُحمَّد ابن كَعْب . يَقول سُبحانَه وتعالى : وأنا أَفْرُغُ مِنه في ساعة . وقال الحسن : هو يوم القِيامة ، ولكن

يوم القيامة لا نَفَادَ له، فالمُراد ذِكْر موقفهم للحساب ، فهو في خمسين ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا، ثُمَّ حِينئذ يَستقر أهلُ الدَّارَيْن في الدَّارَيْن (يعني الجَنَّة والنار) . وقال يَمَان : هو يَوم القِيامة فيه خَمسون مَوْطِنًا ، كُل موطن ألف سنة . وقال ابن عباس : هو يَوم القِيامة ، جَعَلَه اللهُ على الكافرين مِقدار خَمسين ألف سنة ، ثُمَّ يَدخلون النارَ للاستقرار . قُلتُ : وهذا القول أحسن ما قِيل في الآية إن شاء الله)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٢٠) : ((﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مِن سِنِيِّ الدُّنيا لو صَعِدَ غَيْرُ المَلَك ، وذلك أنها تَصعَد مُنتهى أمر الله تعالى مِن أسفل الأرض السابعة، إلى مُنتهى أمر الله تعالى مِن فوق السماء السابعة . رَوى لَيث عن مُجاهد أنَّ مِقدار هذا خَمسون ألف سَنَة . وقال مُحمَّد بن إسحاق : لَوْ سار بنو آدم مِن الدُّنيا إلى مَوضع العَرْش لساروا خَمسين ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا . وقال عِكرمة وقَتادة : هو يوم القيامة ، وقال الحسن أيضًا : هو يوم القيامة ، وأراد أن موقفهم للحساب حتى يَفصِل بين الناس ، خمسون ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا ، لَيس يعني به مِقدار طُوله هذا دُون غَيره ، لأن يوم القيامة له أوَّل وليس له آخِر ، لأنه يوم مَمدود ولو كان له آخِر لكان مُنقطِعًا . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هو يَوم القيامة يكون على الكافرين مِقدار خمسين ألف سنة ... . وقِيل : معناه : لَوْ وَلِيَ مُحاسبة العباد في ذلك اليوم غَير الله ، لم يَفرُغ مِنه خمسين ألف سنة، وهذا معنى قَول عَطاء عن ابن عباس ومُقاتل. قال عطاء: ويَفرُغ اللهُ مِنه في مِقدار نِصف يَوم مِن أيام الدُّنيا)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٢٧٨) : ((﴿ والرُّوحُ ﴾ ، أي : جِبريل عليه السلام ، خصَّه بالذِّكْر بعد العُموم لفَضْله وشَرَفه، أو خَلْق هُم حَفَظَة على المَلائكة ، كما أن المَلائكة حَفَظَة عَلَيْنا، أو أرواح المؤمنين عِند المَوت ﴿ إلَيْهِ ﴾ ، إلى عَرْشِه ومَهْبِط أمْرِه ﴿ في يَوْمٍ ﴾ مِن صِلَة ﴿تَعْرُجُ ﴾. ﴿ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مِن سِنِيِّ الدُّنيا لَوْ صَعِدَ فيه غَيْرُ المَلَك أوْ مِن صِلَة ﴿ واقع ﴾، أي : يَقع في يَوم طَوِيل مِقداره خمسين ألف سَنَة مِن سِنينكم ، وهو يوم القيامة ، فإمَّا أن يكون استطالة له لشِدَّته على الكفار ، أو لأنَّه على الحقيقة كذلك ، فقد قِيل فيه : خمسون مَوْطِنًا ، كُل مَوْطِن ألف سنة ، وما قَدْر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظُّهْر والعَصْر)) .

وعن عبد الله بن أبي مُلَيكة : أن رَجُلًا سأل ابنَ عباس _ رضي اللهُ عنهما _ عن قَوله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [الحج : ٤٧].فقال: ((مَن أنتَ ؟)) ، فذَكَرَ له أنَّه رَجل مِن كذا وكذا ، فقال ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما_ : ((فما يَوم كان مِقداره

خمسين ألف سنة ؟)) ، فقال الرَّجل : رَحِمَكَ اللهُ ، إنَّما سألتُكَ لتُخبِرنا ، فقال ابن عباس : ((يَوْمَان ذَكَرَهُما اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ في كِتابه ، اللهُ أعْلَمُ بِهما)) ، فَكَرِهَ أن يقول في كتاب الله بغَير عِلْم [118].

لا يُوجد تعارُض بين آيات القُرآن ، وإنَّما التعارُض يُوجَد في أذهان الذين ليس عِندَهم عِلْم، أو يُعانون مِن مُشكلة في الفَهْم والاستيعاب .

والآيةُ : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، لا تتحدَّث عن طُول يوم القِيامة ، وإنَّما تتحدَّث عن طُول الأيام عِند الله تعالى،وقَدْرها بالنِّسبة لأيام الدُّنيا التي يَعُدُّها الناس.والأيامُ عِند الله هي التي يُحْدِث اللهُ فيها الخَلْقَ والتَّدبير . ووضَّح اللهُ أن اليَوم عِندَه يُساوي ألف سنة مِن أيام الناس في الدُّنيا .

أمَّا الآيةُ ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، فهو يوم القِيامة، جَعَلَه اللهُ على الكافرين خمسين ألف سنة عُقوبةً لهم ، وتشديدًا عليهم .

---

١١٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥٢) برقم (٨٨٠٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .
والحديث يدل على تقوى ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ ووَرَعه ، حيث امتنع عن الإجابة بغَير عِلْم ، لأن تفسير كلام الله تعالى والوقوف على دَلالاته وأبعاده ليس قضيةً سهلة ، فهو يحتاج إلى تَقوى وعِلْم ، أمَّا الذين يُحكِّمون أهواءهم وآراءهم الشخصية في كتاب الله دون بَيِّنة ، فهم على خطر عظيم . والعالِمُ الصادق لا يَخجل من قَول: لا أدري، ورَد العِلْم إلى الله تعالى . ومَن قال: لا أدري، فقد أفتى. وللأسف، إن كثيرًا مِن الذين يُقدِّمون أنفسَهم كعُلَماء يَخجل الواحدُ مِنهُم أن يقول: لا أدري ، فتراه يُفْتي بغير عِلْم ليَحفظ مكانته عِند الناس ، فيَضِل، ويُضِل الناسَ . وهذا يَدل على غياب النِّية الصادقة . فالعالِمُ الراسخ لا يُفْتي بغَير عِلْم مهما حصل ، وهكذا يُريح نَفْسَه ، ويُريح الآخرين . وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر (١/ ٢٠٦) : ((وقد رُوِيَ عن مالك بن أنس أن رَجُلًا سأله عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال : سافرتُ البُلدانَ إلَيك ، فقال : ارجع إلى بلدك ، وقُل : سألتُ مَالِكًا ، فقال : لا أدري)) اه . وهكذا يكون العَالِم الرَّباني ، فهو لا يخترع فتاوى مِن بنات أفكاره ليُخْفِيَ جَهْلَه أمام الناس ، ويَحفظ مكانته بَيْنهم . بل يُفتي بما يَعْلَمه ، ويَعترف بما لا يَعْلَمه ، وهذا ليس عَيْبًا أو مَنقصة . فالعِلْمُ بحرٌ واسع وعميق لا أحدٌ يَبلُغ شَاطِئَهُ مَهما عَلا كَعْبُه . فالرَّجُلُ يظلُّ عَالِمًا ما دام يَطلب العِلْمَ ، فإن قال : قَد عَلِمْتُ ، فقد جَهِلَ . والرَّجُلُ يظلُّ يَطلب العِلمَ حتى وفاته . ومَن سَمَّى نَفْسَه عَالِمًا ، فهو الجاهل الحقيقي .

والجديرُ بالذِّكر أن المسافة بين السماء الدُّنيا والأرض خمسمائة سنة، ونُزولُ الأمر مِن السماء إلى الأرض ، وصُعوده مِن الأرض إلى السماء ، في يَوم واحد ، وهو يُساوي ألف سنة مِن أيام الناس في الدُّنيا . لذلك كان اليَوم عِند الله كألف سَنَة مِمَّا يَعُدُّ الناسُ . وسِياق الآية الأُولَى يَختلف تمامًا عن سياق الآية الثانية ، ولا علاقة بينهما،وكُل آية تتحدَّث عن أمر مُختلف ، فلا تعارُض .

٥_ تنزُّلهم بأمر ربِّهم

قالَ اللهُ تعالى:﴿يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِن أمْرِهِ عَلى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أن أنذِرُوا أنَّهُ لا إلهَ إلا أنا فاتَّقُون ﴾ [النَّحْل : ٢]. يُنَزِّلُ اللهُ المَلائكةَ بالوَحْي بأمْرِه على مَن يَشاء مِن رُسله ، لِيُخَوِّفوا أهلَ الكفر الذين أشرَكوا باللهِ تعالى ، وجعلوا له أندادًا، وعبدوا الآلهةَ والأوثانَ ، فإنَّه لا إلهَ إلا الله ، واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفاته، لا شريك له ولا نِد ، ولا تَنبغي الأُلوهية إلا لَه ، ولا مَعبود بحق إلا الله سُبحانَه. فاتَّقُوا العِقابَ الإلهيَّ لِمَن يُخالِف أمرَ اللهِ تعالى، ويَعبد غَيْرَه، وهنا يتجلى معنى التحذير مِنَ الشِّرك. والمعنى : مُرُوهم بِتَوحيد اللهِ تعالى مَعَ إنذارهم بالقُرآنِ إنْ لَم يُقِرُّوا بالتَّوحيد، فإنَّ الإنذار يَحمل معاني التَّخويف والتَّهديد ، وله وَقْع شديد في النَّفْس البشرية . وسُمِّيَ الوَحْيُ رُوحًا ، لأنَّه يُحيي القُلوبَ والحقَّ . والآيةُ تُثبِت أنَّ النُّبُوَّة عطائية، يُعطيها اللهُ لِمَن يَشاء مِن عباده، ولا تُكتسَب اكتسابًا باجتهاد العبد أو ذكائه أو صفاء قلبه . فاللهُ يَختارُ مَن يَشاءُ لحمل كلمته إلى الناس . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٥٥٧): ((﴿ فاتَّقُون ﴾ يقول : فاحذروني بأداء فرائضي ، وإفراد العبادة وإخلاص الرُّبوبية لي ، فإنَّ ذلك نجاتكم مِنَ الهَلَكة)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٤) : ((والآية تدل على أنَّ نزول الوَحْي بواسطة الملائكة ، وأنَّ حاصله التنبيه على التَّوحيد الذي هو مُنتهَى كمال القوة العِلْمية ، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العَمَلية)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢٨) : ((قال ابن عباس : يُريد بالملائكة جِبريل عليه السلام وَحْدَه . وفي المراد بالرُّوح ستة أقوال : أحدها الوَحْي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني أنه النُّبُوَّة ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثالث أنَّ المعنى تَنَزَّلُ الملائكة بأمره، رواه العَوفي عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى أنَّ أمرَ اللهِ كُلَّه رُوح . قال الزَّجاج : الرُّوح ما كان فيه مِن أمر الله حياة النُّفوس بالإرشاد . والرابع أنه الرحمة ، قاله الحسن وقَتادة . والخامس أنَّه أرواح الخَلْق ، لا يَنْزِل مَلَكٌ إلا ومعه رُوح ، قاله مجاهد . والسادس أنه القُرآن ، قاله ابن زَيد. فعلى هذا سَمَّاه رُوحًا ، لأنَّ الدِّين يَحيا به ، كما أنَّ الرُّوح تُحيي البَدن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكةُ ألا تخافوا ولا تَحْزَنُوا وأبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنتم تُوعَدُون ﴾[فُصِّلَتْ : ٣٠] .

إنَّ الذين آمَنُوا باللهِ حقًّا وصِدْقًا ، وأقَرُّوا بوَحدانيته ، واعترفوا بأُلوهيته ورُبوبيته ، وعَبَدُوه وَحْدَه لا شريكَ له ، وأخلَصوا العملَ له ، والتزموا أوامرَه ، وأطاعوه ، واجتنبوا نَوَاهيه ، وابتعدوا عَن مَعصيته ، ثُمَّ استقاموا على تَوحيد الله وعبادته وطاعته، ولم يُشرِكوا به شيئًا ، وثَبَتُوا على ذلك حتى المَوت ، تَتَنَزَّل عليهم مَلائكةُ الرَّحمة عِند المَوت ، بأن لا تخافوا مِمَّا تُقْدِمون عليه من أحوال القيامة ، ولا تَحزَنوا على ما فاتكم مِن أمور الدُّنيا مِن أهل ومال وولد ، فإنَّا نَخْلُفُكم فِيه . وهذه بُشرى عظيمة من الملائكة . أوْ : لا تَخافوا ذُنوبكم ، ولا تَحزَنوا عليها ، فإنَّ اللهَ يَغفِرها لكم ، ويتجاوز عنكم.وأبشِروا بأنَّ لكم في الآخرة الجَنَّةَ التي وَعَدَكم اللهُ بها في الدُّنيا على ألسنة الرُّسُل، وأنَّكم خالدون في نعيمها ، بسبب إيمانكم بالله ، واستقامتكم على عبادته وطاعته .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٩٠) : ((أي : لا تَخافوا ما تُقْدِمُون عَلَيه ، ولا تَحْزَنُوا على ما خَلَّفْتُم ، فالخَوْفُ غَم يَلحَق الإنسان لِتَوَقُّع المَكروه ، والحُزن غَم يَلحَق لوُقوعه مِن فَوات نافع، أو حُصول ضار . والمعنى : إن الله كَتب لكم الأمنَ مِن كُل غَم ، فلن تذوقوه ، ﴿ وأبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنتم تُوعَدُون ﴾ في الدُّنيا . وقال مُحمَّد بن علي الترمذي : تتنزَّل عليهم ملائكةُ الرحمن عِند مُفارَقة الأرواح الأبدان ، أن لا تخافوا سَلْبَ الإيمان ، ولا تَحْزَنُوا على ما كان مِن العِصيان ، وأبشِروا بدُخول الجِنان التي كُنتم تُوعَدون في سَالِف الزَّمان)) .

والاستقامةُ هي الثباتُ على الإيمان ، وإخلاص العمل لله تعالى ، وأداء العبادات والطاعات على أكْمَل وَجْه.والاستقامةُ أعظم كَرامة. وحَقيقة الاستقامة القَرَار بعد الإقرار لا الفِرَار بعد الإقرار.

وفي حاشية شيخ زادة على البيضاوي (٣/ ٢٦١) : ((إن الملائكة تتنزَّل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البِشارة أن لا تخافوا من هَول المَوت، ولا من هَول القبر، وشدائد يوم القيامة ، وإن المؤمن يَنظر إلى حافظَيْه ، قائمَيْن على رأسه ، يقولان له : لا تَخَف اليَوْمَ ، ولا تَحزَن ، وأبشِرْ بالجَنَّة التي كنتَ تُوعَد، وإنك سترى اليوم أُمورًا لم تَرَ مِثْلَها ، فلا تَهُولَنَّك، فإنَّما يُراد بها غَيْرُك)).

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٧٢) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ . سُئِلَ أبو بكر الصِّديق ــ رضي اللهُ عنه ــ عن الاستقامة ، فقال : أن لا تُشرِك بالله شيئًا . وقال عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ : (الاستقامة) أن تستقيم على الأمر والنَّهْي ، ولا تَرُوغ رَوَغان الثَّعْلَب . وقال عُثمان بن عَفَّان ــ رضي اللهُ عنه ــ : أخْلَصُوا العملَ لله . وقال

عليٌّ ـ رضي اللهُ عنه ـ : أدَّوا الفَرائضَ . وقال ابن عباس : استقاموا على أداء الفرائض . وقال الحَسَن : استقاموا على أمر الله تعالى ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا مَعصيته . وقال مُجاهد وعِكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لَحِقُوا بالله . وقال مُقاتل : استقاموا على المعرفة ، ولم يرتدوا . وقال قَتادة : كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال : اللهُمَّ أنتَ رَبُّنا ، فارْزُقْنا الاستقامة . قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكةُ ﴾ ، قال ابن عباس : عِند المَوت. وقال قَتادة ومُقاتل : إذا قاموا مِن قُبورهم . قال وكيع بن الجَرَّاح : البُشرى تكون في ثلاثة مواطن : عِند المَوت ، وفي القَبْر ، وعِند البَعْث ، ﴿ ألا تخافوا ﴾ مِن المَوت . وقال مُجاهد : لا تخافوا على ما تُقْدِمُون عليه مِن أمر الآخرة ، ﴿ ولا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خَلَّفْتُم مِن أهل وولد ، فإنَّا نَخْلُفُكم في ذلك كُلِّه . وقال عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا ولا تَحزَنوا على ذُنوبكم ، فإنِّي أغفِرُها لكم ، ﴿ وأبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنتم تُوعَدُون ﴾)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٥٣و٢٥٤) : ((ذَكَرَ المؤمنين فقال : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ ، أي : وَحَّدُوه ، ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها استقاموا على التَّوحيد، قاله أبو بكر الصِّديق ومُجاهد . والثاني على طاعة الله وأداء فرائضه ، قاله ابن عباس والحَسَن وقَتادة . والثالث على الإخلاص والعمل إلى المَوت، قاله أبو العالية والسُّدي. وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصِّدِّيق، وذلك أن المشركين قالوا : رَبُّنا الله، والملائكة بناته ، وهؤلاء شُفَعاؤنا عِند الله ، فلم يَستقيموا . وقالت اليهود : رَبُّنا الله ، وعُزَيز ابنه ، ومُحمَّد ليس بنبيٍّ ، فلم يَستقيموا ، وقالت النصارى : رَبُّنا الله ، والمَسيح ابنه ، ومُحمَّد ليس بنبيٍّ ، فلم يَستقيموا . وقال أبو بكر : رَبُّنا الله وَحْدَه ، ومُحمَّد عبده ورسوله ، فاستقام . قَوله تعالى: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكةُ ألا تخافوا ﴾ ، أي : بأن لا تَخافوا ، وفي وقت نُزولها عَلَيهم قَولان : أحدهما عِند المَوت ، قاله ابن عباس ومُجاهد . فعلى هذا في معنى : ﴿ ألا تخافوا ﴾ قَولان: أحدهما لا تخافوا المَوت ﴿ ولا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم ، قاله مُجاهد . والثاني لا تخافوا ما أمامكم، ﴿ ولا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خَلَّفْتُم ، قاله عِكرمة والسُّدي . والقول الثاني تتنزَّل عليهم إذا قاموا مِن القُبور، قاله قَتادة، فيكون معنى : ﴿ ألا تخافوا ﴾ أنهم يُبشِّرونهم بزَوال الخَوف والحزن يوم القِيامة))اهـ. وعن سُفيان بن عبد الله الثَّقَفي ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قُلْتُ : يا رسول الله ، حَدِّثْني بأمر أعتصِمُ بِه ، قال: ((قُل : رَبِّيَ اللهُ ، ثُمَّ استقِمْ)) [١١٩].

١١٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٩) برقم (٧٨٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الاستقامةُ مَفهوم جامع لأوامر الله ونَوَاهيه ، وهي أعظم كرامة ، وهي لا تتحقَّق إلا بعبادة الله وَحْدَه ، لا شريك له ، وفِعل الطاعات ، والابتعاد عن المَعَاصي . والاستقامةُ هي الإيمان بالله ، والتزام طاعته قَوْلًا وفِعْلًا . وهي تَجْمَع معاني الإسلام والإيمان معًا ، حيث الاستسلام لله وَحْدَه ، والخُضوع لأوامره ، والانصياع لإرادته ومَشيئته ، والتَّصديق بوَحدانيته باللسان ، واستقرار الإيمان في القلب ، والتزام العبادات والطاعات ، والابتعاد عن الذُّنوب والآثام والمعاصي . ولا نجاة للعبد إلا بالإيمان بالله وَحْدَه وطاعته ، والاستقامة على ذلك حتى المَوت .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٨و٩) : (((باب جامع أوصاف الاسلام) قَوله : قُلْتُ: يا رسول الله ، قُل لي في الإسلام قَوْلًا لا أسألُ عَنه غَيْرَك ، قال : " قُل: آمنتُ بالله، ثُمَّ استقِمْ " . قال القاضي عِياض _ رحمه الله _ : هذا مِن جوامع كَلِمه ﷺ ، وهُو مُطَابِق لقَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ ، أي : وَحَّدُوا اللهَ ، وآمنوا به ، ثُمَّ استقاموا ، فلم يَحِيدوا عن التَّوحيد ، والتزموا طاعته سُبحانَه وتعالى ، إلى أن تُوُفُّوا على ذلك . وعلى ما ذَكَرْناه أكثر المُفسِّرين مِن الصَّحابة فَمَن بَعْدَهم)) اهـ . وقال السُّيوطي في شَرْحه على سُنن ابن ماجة (١/ ٢٨٦):((" قُل: رَبِّيَ اللهُ ، ثُمَّ استقِمْ ". وفي رواية مسلم : " قُل : آمنتُ بالله ، ثُمَّ استقِمْ ". قال ابن حجر:وهاتان الجُملتان مُنْتَزَعَتَان مِن قَوله تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾. وجاء عن أبي بكر رضي اللهُ عنه أنَّه فسَّرها بأنهم لَم يَلتفتوا إلى غَيْر الله تعالى ، وهذا هو غاية الاستقامة ونهايتها، فهذا الأصل مَا خُذ التصوف والإحسان ، لأنها هي الدَّرجة القُصوى التي بها كمال للعارف والأحوال ، وصفاء القلوب في الأعمال، وتَنْزيه العقائد عن مَفاسد البِدَع والضَّلال. ومِن ثَمَّ قال الأستاذ أبو القاسم القُشَيري : مَن لَم يَكن مُستقيمًا في حاله ، ضَاع سَعْيُه ، وخابَ جِدُّه ، ونقل أنَّه لا يُطيقها إلا الأكابر ، لأنها الخروج عن المألوفات ، ومُفارَقة الرُّسوم والعادات ، والقِيَام بين يَدَي الله تعالى على حقيقة الصِّدق)) اهـ. وقال المُناوي في فَيض القدير(٤/ ٥٢٣) : (((قُل : آمنتُ بالله) أي جَدِّدْ إيمانك بالله ذِكْرًا بقلبك ، ونُطْقًا بلسانك ، بأن تستحضر جميع معاني الإيمان الشَّرْعي (ثُمَّ استقِمْ) أي الْزَمْ عَمَلَ الطاعات، والانتهاء عن المُخَالَفَات، إذْ لا تتأتَّى مَعَ شَيء مِن الاعوجاج، فإنها ضِدُّه . وانتزاع هاتَيْن الجُمْلَتَيْن مِن آية : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ . وهذا مِن بَدائع جَوَامِع الكَلِم، فقد جَمَعَتَا جميعَ معاني الإيمان والإسلام اعتقادًا وقَوْلًا وعملًا، إذ الإسلام توحيد ، وهو حاصل بالجُملة الأُولَى ، والطاعة بسائر أنواعها في ضِمْن الثانية ، إذ الاستقامة امتثال كُل مأمور ، وتجنُّب كُل مَنْهِيٍّ ، وعرَّفها بَعْضُهم بأنها المُتَابَعَة للسُّنَن

المُحمَّدية مع التَّخَلُّق بالأخلاق المَرْضِيَّة ، وبعضُهم بأنها الاتِّباع مع ترك الابتداع . وقِيل : حَمْل النَّفْس على أخلاق الكِتاب والسُّنة . قال القُشَيري : وهي درجة بها كمال الأمور وتَمامها ، وبوجودها حُصول الخَيرات ونظامها . وقال بعضهم : لا يُطيقها إلا الأكابر ، لأنها الخروج عن المَعهودات ، ومُفارَقة الرُّسوم والعادات)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فِيها بإذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أمْر ﴾[القَدْر : ٤] .

تَهبِط الملائكةُ وجِبريلُ إلى السماء الدُّنيا أو إلى الأرض ، في لَيْلَة القَدْر بأمر الله ، بكل أمر قدَّره اللهُ وقضاه في تلك السَّنة إلى السَّنة الآتية . وهذا يدل على عَظَمَة لَيْلَة القَدْر ، وفَضْلها ، ومكانتها الجليلة ، ومنزلتها الرفيعة . وسُمِّيَت لَيْلة القَدْر بهذا الاسم ، لِعِظَم قَدْرها وشرفها ، ولأنَّه تُقَدَّر فيها الأرزاق ، وتُقضَى الآجال ، وتُكْتَب الأحكام ، في تلك السَّنة إلى السَّنة الآتية .

وذِكْر جِبريل بعد الملائكة _ عَلَيهم جميعًا الصلاة والسلام _، لتعظيم شأنه ، وتشريف قَدْره ، وبيان فَضْله ومكانته ، باعتباره أعظم الملائكة وأمين الوَحْي ، وهو مِن ذِكْر الخاص بعد العام .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٨٤) : ((وقَوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فِيها بإذْنِ رَبِّهِم ﴾ ، أي : يَكْثُر تَنَزُّل المَلائكة في هذه الليلة لكَثرة بَركتها، والمَلائكة يَتَنَزَّلُون مع تَنَزُّل البَركة والرَّحمة، كما يَتَنَزَّلون عِند تِلاوة القُرآن ، ويُحيطون بحِلَق الذِّكْر ، ويَضَعُون أجنحتهم لطالب العِلْم بصِدْق، تعظيمًا له ، وأمَّا الرُّوح ، فقِيل : المُراد به هَهُنا جِبريل عليه السلام، فيكون مِن باب عَطْف الخاص على العام.وقِيل: هُم ضَرْب مِن المَلائكة... . وقَوله تعالى:﴿ مِن كُلِّ أمْر ﴾ قال مُجاهد : سَلام هِيَ مِن كُل أمر ... . وقال قَتادة وغَيْرُه : تُقْضَى فيها الأمور، وتُقَدَّر الآجال والأرزاق)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٩٢ و١٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ ﴾ قال أبو هريرة : المَلائكة لَيْلَةَ القَدْر في الأرض أكثر مِن عدد الحَصَى. وفي الرُّوح ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه جِبريل ، قاله الأكثرون . وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : " إذا كانت لَيْلة القَدْر نَزَل جِبريلُ في كَبْكَبَة مِن المَلائكة _ يعني جماعة مِن الملائكة _ ، يُصَلُّون ، ويُسلِّمون على كُل عَبْد قائم أو قاعد يَذكُر اللهَ عَزَّ وَجَلَّ . والثاني أنَّ الرُّوح طائفة مِن المَلائكة لا تَراهم المَلائكة إلا تِلك الليلة ، يَنزلون مِن لَدُن غُروب الشَّمس إلى طُلوع الفَجْر ، قاله كَعْب ومُقاتل بن حَيَّان . والثالث أنَّه مَلَك عظيم يَفِي بخَلْق مِن الملائكة ، قاله الواقدي . قَوله تعالى : ﴿ فِيها ﴾ ، أي : في لَيْلَة القَدْر ﴿ بإذْنِ رَبِّهِم ﴾ ، أي: بِمَا أَمَرَ به وقَضَاه مِن كُل أمر . قال ابن قُتَيبة : أي بكُل أمر. قال المُفسِّرون : يَتَنَزَّلُون بكل أمر قَضَاه الله في تلك السَّنة إلى قَابِل _ يعني السَّنة الآتية _)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٥٧) : ((قال العُلَماء : وسُمِّيَتْ لَيْلَة القَدْر لِمَا يُكْتَب فيها للملائكة مِن الأقدار، والأرزاق، والآجال، التي تكون في تلك السَّنة، كقَوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدُّخَان : ٤]، وقَوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فِيها بإذْنِ ربِّهِم مِن كُلِّ أمْر ﴾ . ومعناه : يُظهِر للملائكة ما سَيَكُون فِيها ، ويَأمرهم بفِعْل ما هو مِن وَظيفتهم . وكُلُّ ذلك مِمَّا سَبَقَ عِلْمُ الله تعالى به ، وتقديره له . وقِيل: سُمِّيَت لَيْلة القَدْر لِعِظَم قَدْرها وشَرَفها ، وأجمعَ مَن يُعْتَدُّ به على وُجودها ودَوامها إلى آخر الدَّهْر ، للأحاديث الصحيحة المشهورة)) .

٦_ قِيامهم بأمر ربِّهم

أ_ تَوَفِّي النُّفوس

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِي أنفُسِهِم ﴾[النِّساء : ٩٧].

إنَّ الذينَ تَقْبِض أرواحَهم المَلائكةُ عِندَ وفاتهم بالقَتْل أو غَيْره (مَلَكُ المَوتِ وأعوانُه أو مَلَكُ المَوت وَحْدَه ، والعرب قد تُخاطِب الواحد بلفظ الجَمْع) حال كَوْنهم ظالمي أنفسهم ومُستحقين لغضب اللهِ، بالإقامة معَ المُشركين في دار الكُفر (مَكَّة) وترك الهجرة إلى دار الإيمان (المدينة).

أمَّا سببُ نزول الآية ، فقد قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٦و١٧٧) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ أُناسًا كانوا بمَكَّة قد أَقَرُّوا بالإسلام، فلمَّا خَرج النبيُّ ﷺ إلى بَدْر ، لَم تَدَعْ قُرَيش أحَدًا إلا أَخرجوه مَعهم ، فَقُتِلَ أولئك الذين أقَرُّوا بالإسلام ، فَنَزلت فيهم هذه الآية ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . وقال قَتادة : نزلت في أُناس تكلَّموا بالإسلام ، فخرجوا مع أبي جَهْل ، فَقُتِلوا يَوْم بَدْر ، واعْتَذَروا بغَير عُذْر ، فأبى اللهُ أن يَقبل منهم . والثاني أنَّ قَوْمًا نَافقوا يَوْم بَدْر ، وارْتَابوا ، وقالوا : غَرَّ هؤلاء دِينُهم ، وأقاموا مع المشركين حتى قُتلوا ، فَنَزلت فيهم هذه الآية،رواه أبو صالح عن ابن عباس.والثالث أنها نزلت في قوم تَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ، ولَم يَخرجوا معه ، فَمَن مات مِنهم قَبل أن يَلْحَق بالنبيِّ ، ضَربت الملائكةُ وَجْهَه ودُبُرَه ، رواه العَوفي عن ابن عباس)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٩٦) عن ابن عباس_رضي اللهُ عنهما_ أنَّ أُناسًا مِن المُسلمين كانوا مَعَ المُشركين ، يُكَثِّرُونَ سَوادَ المُشركين على رسول الله ﷺ ، فَيَأتي السَّهْمُ ، فَيُرْمَى ، فَيُصِيب أحَدَهم فيَقتله، أو يَضربه فيَقتله، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهِم ﴾ .

إنَّ هؤلاء مجموعة من المسلمين كانوا في دار الكُفر ، يَعيشون مَعَ المشركين ويُخالطونهم . ومَعَ أنهم لا يُوافقونهم في قلوبهم ، إلا أنهم كانوا ظالمين ، لأنهم أفادوا المشركين بالقُوَّة ، وكَثَّرُوا عَدَدَهم بوجودهم معهم . والسَّوادُ هو العدد الكثير ، وسَواد الناس أكثرُهم ومُعظَمهم .

لقد فَعلوا المُحرَّم مع قُدرتهم على تَركه ، فاستحقوا العذابَ . وَلَوْ كانوا غَير قادرين على تَركه، بعد اتِّخاذ جميع الإجراءات المُمكنة ، فلا شَيء عَلَيهم .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ إقامة شعائر الدِّين واجبة ، ولا يُمكِن أن تتم إلا بالهِجرة . وما لا يتم الواجب إلا بِه فهو واجب .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨): ((قال الخطابي وغَيْرُه: كانت الهِجرة فَرْضًا في أول الإسلام على مَن أسلمَ ، لِقِلَّة المُسلمين بالمدينة ، وحاجتهم إلى الاجتماع ، فلمَّا فَتح اللهُ مكةَ ، دَخل الناس في دِين الله أفواجًا ، فَسَقط فَرْضُ الهِجرة إلى المدينة ، وبَقِيَ فَرْضُ الجِهاد والنِّية على مَن قَام بِه أو نزل به عدو . انتهى . وكانت الحِكمة أيضًا في وُجوب الهِجرة على مَن أسلمَ لِيَسْلَمَ مِن أذى ذَويه من الكفار ، فإنهم كانوا يُعذِّبون مَن أسلمَ منهم إلى أن يَرجع عن دِينه ، وفِيهم نزلت : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهم قالوا فِيمَ كُنتُم قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرضِ قالوا أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها ﴾ الآية . وهذه الهِجرة باقية الحُكْم في حق مَن أسْلَمَ في دار الكُفر ، وقَدَرَ على الخروج مِنها)) .

((وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : كان ناس من أهل مكة قد أسلَموا ، وكانوا مُسْتَخْفِين بالإسلام ، فلمَّا خرج المشركون إلى بَدْر أَخْرَجُوهُم مُكْرَهِين ، فَأُصِيبَ بَعْضُهم يَوْمَ بَدْر مَعَ المشركين ، فقال المسلمون : أصحابُنا هؤلاء مُسلِمون ، أَخْرَجُوهُم مُكْرَهِين، فاسْتَغفِرُوا لهم . فَنَزلت هذه الآية : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهم ﴾ _ الآية _)) [١٢٠].

إنَّ هؤلاء استحقوا العذابَ ، لأنهم تركوا الهِجرة مَعَ قُدرتهم عَلَيها . وتَرْكُهم للهجرة جعلهم غَير قادرين على إقامة شعائر الدِّين . وبالتالي سَقطوا في الإثم ، واستحقوا العذابَ . وكانت الهِجرةُ واجبةً عَلَيهم، فهي تَمنحهم فُرصة جديدة للعَيش بهدوء وسلام وطُمأنينة ، دُون خَوْف ، ولا تَضييق. وبالتالي، يَعبدون اللهَ بقلوب مُخلِصة ومُطمئنة ، ويُقيمون شعائرَ الدِّين على أكمل وجه.

---

١٢٠ مجمع الزوائد (٧/ ٦٨) . وقال الهيثمي : ((رواه البَزَّار ، ورجاله رجال الصحيح ، غير محمد ابن شَريك ، وهو ثقة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذِ الظالمونَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ والملائكةُ بَاسِطُو أيْدِيهِم أخْرِجُوا أنفُسَكُم ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

وَلَوْ تَـرَى يا مُحمَّد هؤلاء الكافرين في سَكَرَات المَوت وغَمَرَاته وكُرَباته وشَدائده . والغَمْرَةُ الشِّدة ، وأصلها الشَّيء الذي يَغمُر الأشياءَ ويُغطِّيها ، ومِنه غَمْرَة الماء ، ثُمَّ وُضِعت في معنى الشَّدائد والأزمات .

وقد شبَّه اللهُ الكافرين الذين يُعانون مِن سَكَرَات المَوت وشدائده ، بالغَرْقى الذين تتقاذفهم غَمَرَات البَحْر وأمواجه ولُجَجه . وهذا تَصوير بليغ . وسُمِّيَتْ غَمْرَة ، لأنَّها تَغمُر قَلْبَ الإنسان .

ووَصْفُ الكافرين بالظالمين، لأنهم ظَلَموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان، وقادوها إلى الهلاك والخُلود في عذاب النار . والظُّلْمُ وَضْع الشَّيء في غَير مَوضعه ، والكافرُ ظالم لنفْسه ، لأنَّه وَضع العِبادةَ في غَير مَوضعها .

وجواب ﴿ لَوْ ﴾ مَحذوف للتَّهويل ، والمعنى : لَرَأيْتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا في غاية البَشاعة . وبعبارة أُخرى : لَرَأيْتَ عَجَبًا وهَوْلًا . وحَذف هذا الجواب أبلغ وأشد تأثيرًا في نَفْس السامع .

ومَلائكةُ العَذاب يَضرِبون وُجُوهَهم وأدبارَهم ، لتَخرج أرواحُهم مِن أجسادهم ، قائلين لهم : خَلِّصُوا أرواحَكم مِن العذاب إن استطعتم. أو : أخْرِجُوا أرواحَكم مِن هذه الغَمَرَات التي وَقَعْتُم فِيها إن أمكنكم . أو : أخْرِجُوا أرواحَكم كُرْهًا . وَرُوح الكافر تَخرج بصعوبة ومَشَقَّة وكُره ، لأنها تصير إلى عذاب النار الشديد ، والملائكةُ يُكْرِهونهم على نَزْع الرُّوح، أمَّا رُوح المؤمن فتَنشَط للقاء الله ، وتَخرج بسُرعة وسُهولة دون عوائق. أو : أخرِجوا أرواحَكم إلَينا مِن أجسادكم لنَقبِضها ، وهذا تَعنيف وتَغليظ عليهم ، وتَوبيخ لهم ، وإهانة وإذلال وتَخويف لهم . وكُل هذا يدل على الشِّدة في قَبْض أرواحهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١١) : ((﴿ والملائكةُ بَاسِطُو أيْدِيهِم ﴾ ، أي: بالضَّرْب لهم حتَّى تَخرج أنفسُهم مِن أجسادهم ، ولهذا يَقولون لهم : ﴿ أخْرِجُوا أنفُسَكُم ﴾ ، وذلك أن الكافر إذا احْتُضِر بشَّرته المَلائكةُ بالعذاب والنَّكال والأغلال والسَّلاسل والجحيم والحميم، وغَضَب الرحمن الرحيم ، فتتفرَّق رُوحُه في جسده ، وتَعْصي ، وتأبى الخُروج ، فتَضرِبهم المَلائكةُ حتَّى تَخرج أرواحُهم من أجسادهم)) اهـ. وقال الزمخشري في الكَشَّاف (٢/ ٣٦): ((المعنى : يقولون : هَاتوا أرواحَكم ، أخْرِجُوها إلَينا مِن أجسادكم . وهذه عِبارة عن العُنف في السِّياق ، والإلحاح الشَّديد في الإزهاق ، مِن غَير تَنفيس وإمهال)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذِ الظالمونَ ﴾ ، فِيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهم قَوم كانوا مُسلمين بمَكَّة ، فأخرجهم الكُفَّارُ مَعَهم إلى قِتال بَدْر ، فلمَّا أبصَروا قِلَّةَ أصحاب رسول الله ﷺ ، رَجعوا عَن الإيمان ، فنزل فيهم هذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنَّهم الذين قالوا : ﴿ ما أنزلَ اللهُ على بَشَرٍ مِن شَيْء ﴾ [الأنعام : ٩١] ، قاله أبو سُلَيمان . والثالث المَوصوفون في هذه الآية ، وهُم المُفترون والمُدَّعون الوَحْي إلَيهم ، ومُمَاثَلة كلام الله ، قاله الزَّجاج : وجَواب : ﴿ لَوْ ﴾ مَحذوف . والمعنى : لَوْ تَرَاهُم في غَمَرَات المَوت ، لَرَأيْتَ عذابًا عظيمًا . ويُقال لكُل مَن كَان في شَيء كَبير ، قد غَمَرَ فُلانًا ذلك . قال ابن عباس : ﴿ غَمَرَاتِ المَوْتِ ﴾ سَكَرَاته ، قاله ابن الأنباري . قال اللغويون : سُمِّيَتْ غَمَرَات ، لأن أهوالها يَغْمُرْنَ مَن يَقَعْنَ بِه . قَوله تعالى : ﴿ والملائكةُ بَاسِطُو أيْدِيهم ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها بالضَّرْب ، قاله ابن عباس . والثاني بالعذاب ، قاله الحَسَن والضَّحاك . والثالث باسطوها لقَبْض الأرواح مِن الأجساد ، قاله الفَرَّاء . وفي الوقت الذي يكون هذا ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها عِند المَوت . قال ابن عباس : هذا عِند المَوت ، المَلائكة يَضربون وُجُوهَهم وأدبارَهم ، ومَلَك المَوت يَتَوَفَّاهم . والثاني يَوم القِيامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث في النار ، قاله الحَسَن . قَوله تعالى : ﴿ أخْرِجُوا أنفُسَكُم ﴾ ، فِيه إضمار يَقولون ، وفي مَعناه قَولان : أحدهما اسْتَسْلِمُوا لإخراج أنفسكم . والثاني أخْرِجُوا أنفُسَكُم مِن العذاب إنْ قَدَرْتُم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ حَتَّى إذا جاءتْهُم رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُم قالوا أيْنَ ما كُنتم تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قالوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أنفُسِهِم أنَّهُم كانوا كافرين ﴾[الأعراف : ٣٧] .

إذا جاءت مَلائكةُ المَوت (مَلَك المَوت وجُنده) تَقبض أرواحَ الكافرين، قالت لهم المَلائكةُ: أينَ الآلهةُ التي كُنتم تَعبدونها مِن دُون اللهِ ؟ ادْعُوهم ليُخلِّصُوكم مِن العذاب،ويُنقِذوكم مِن العِقاب، والسؤال للتَّوبيخ والتَّقريع والتَّبكيت . فأجابَ الكافرون الأشقياء : ذَهَبَ الأندادُ والآلهةُ ، وغابوا عَنَّا ، فلا نَرجو نَفْعَهم ولا خَيْرَهم ، ولَن يأتوا لمُساعدتنا وإنقاذنا ، وأقَرُّوا واعترفوا على أنفسهم عِند مُعَايَنة المَوت بالكُفر والضَّلال . والاعتراف سَيِّد الأدلة . واعترافُهم يدلُّ على حَسْرتهم وخَيْبتهم ، وفقدانهم الأمل في النَّجاة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩٣ و١٩٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا جاءتْهُم رُسُلُنَا ﴾ ، فِيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهم أعوان مَلَك المَوت ، قاله النَّخعي . والثاني مَلَك المَوت وَحْدَه ، قاله مُقاتل . والثالث مَلائكة العذاب يوم القِيامة . وفي قَوله: ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُم ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها يَتَوَفَّوْنَهُم بالمَوت ، قاله الأكثرون . والثاني يَتَوَفَّوْنَهُم بالحَشْر إلى النار يوم القيامة ، قاله الحسن. والثالث يَتَوَفَّوْنَهُم عذابًا ، كما تَقول : قَتَلْتُ فُلانًا بالعذاب ، وإن لَم يَمُتْ، قاله الزَّجاج. قَوله تعالى : ﴿ قالوا أيْنَ ما كُنتم تَدْعُونَ ﴾ ، أي : تَعْبُدُون ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، وهذا سُؤال تَبكيت وتَقريع. قال مُقاتل: المَعنى: فليمنعوكم مِن النار. قال الزَّجاج: ومعنى ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ بَطَلُوا وذهبوا، فيعترفون عِند مَوتهم ﴿ أنَّهُم كانوا كافرين ﴾ . وقال غَيره: ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذْ يَتَوَفَّى الذينَ كَفروا الملائكةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وأدْبَارَهُم وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وَلَوْ عَايَنْتَ يا مُحمَّد وَقْتَ تَوَفِّي الملائكة للكافرين ، حِينَ تَنْتَزِع مَلائكةُ العذابِ أرواحَ الكافرين مِن أجسادهم بشِدَّة ، لَرَأيْتَ أمرًا فظيعًا في غاية البَشاعة . وجَواب ﴿ لَوْ ﴾ مَحذوف للتَّهويل ، وهذا أبلغ وأشد تأثيرًا في نَفْس السامع .

تَضْرِبُ الملائكةُ وُجوهَهم وظُهورَهم بمَقَامِع مِن حَديد عِند المَوت ، بدليل ذِكْر التَّوَفِّي . تَضربهم الملائكةُ مِن أمامهم وخَلْفهم ، أي : تَضرب ما أقبلَ مِنهُم وما أدبرَ .

وتقول الملائكةُ للكافرين الأشقياء : ذُوقُوا عَذابَ النار التي تُحْرِقُكم يوم وُرودكم جَهَنَّم . وهذا إخبار لهم بأنَّ مصيرهم عذاب النار في الآخِرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٦٨ و٣٦٩) : ((قال المُفسِّرون : نزلت في الرَّهْط الذين قالوا : ﴿ غَرَّ هَؤلاءِ دِينُهُم ﴾ [الأنفال : ٤٩] . وفي المُراد بالمَلائكة ثلاثة أقوال : أحدها مَلَك المَوت وَحْدَه ، قاله مُقاتل . والثاني مَلائكة العَذاب ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي . والثالث المَلائكة الذين قَاتَلُوا يَوْم بَدْر ، ذَكَرَه الماوردي . وفي قَوله : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وأدْبَارَهُم ﴾ أربعة أقوال : أحدها يَضْرِبُون وُجُوهَهم ببَدْر لَمَّا قَاتَلُوا ، وأدبارَهم لمَّا انهزموا . والثاني أنهم جَاؤوهم مِن بَين أيديهم ، ومِن خَلْفهم ، فالذين أمامهم ضَرَبُوا وُجُوهَهم ، والذين وَراءهم ضَربوا أدبارَهم . والثالث يَضْرِبُون وُجُوهَهم يَوم القِيامة إذا لَقُوهم ، وأدبارَهم إذا سَاقُوهم إلى النار . والرابع أنهم يَضْرِبُون وُجُوهَهم وأدبارَهم عِند المَوت بسِيَاط مِن نار . وهل المُراد نَفْس الوُجوه والأدبار ، أم المُراد ما أقبلَ مِن أبدانهم وأدبرَ ، فِيه قَولان . وفي قَوله: ﴿ وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه في الدُّنيا ، وفيه إضمار يَقولون ، فالمعنى : يَضْرِبُون ويَقولون ... . والثاني أن الضَّرْب لهم في الدُّنيا ، فإذا وَرَدُوا يوم القيامة إلى النار ، قال خَزَنتها : ذُوقوا عذاب الحريق . هذا قَول مُقاتل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِي أنفُسِهِم فألْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [النَّحْل : ٢٨] .

تُبيِّن الآيةُ حالَ المُشركين في حالة الاحتضار،الذي ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان، وقادُوها إلى الخُلود في عذاب النار، ومجيء الملائكة إلَيهم لانتزاع أرواحهم الخبيثة مِن أجسادهم القَذِرة . الذينَ تَقبِض المَلائكةُ (مَلَك المَوت وأعوانه) أرواحَهم الخبيثةَ ، وهُم على كُفرهم وشِركهم ، فاسْتَسْلَمُوا لأمر الله ، وانقادوا له ، وأظْهَرُوا السَّمْعَ والطاعةَ ، وأقَرُّوا بالرُّبوبية ، حِينَ نَزَلَ بِهم المَوْتُ، وعَايَنُوه بأُمِّ أعينهم، على خِلاف عادتهم في الدُّنيا مِن العِناد والتَّمَرُّد والمُكَابَرَة . وقالوا وهُم كاذبون : مَا أشْرَكْنا ولا عَصَيْنا ، وجَحدوا ما كان مِنهُم مِن كُفر وضَلال ، وذلك على أمل أن يَنجوا ، كما يَقولون يوم القيامة : ﴿ واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكين ﴾ [الأنعام : ٢٣] . فكذَّبهم اللهُ وأخزاهم : بَل كَذَّبْتُم، وكَفَرْتُم ، وعَصَيْتُم، وارتكبتم الذُّنوب والجرائم، واقترفتم الآثام ، وصَدَدْتُم عن سبيل الله. واللهُ عليمٌ بما كُنتم تَعملون في الدُّنيا مِن المَعَاصي ، لا يَخفى عليه شيء . واللهُ مُجازيكم على كُفركم وضلالكم وذُنوبكم ومعاصيكم ، ولَن يَنفعكم هذا الكَذِب شيئًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٤٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِي أنفُسِهِم ﴾ . قال عِكرمة: هؤلاء قَوم كانوا بمَكَّة ، أقَرُّوا بالإسلام ، ولَم يُهاجِروا ، فأخرجهم المُشركون كُرْهًا إلى بَدْر ، فقُتِلَ بعضُهم . وقد شَرَحْنا هذا في سورة النِّساء ٩٧ . قَوله تعالى : ﴿ فألْقَوُا السَّلَمَ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : انقادُوا ، واسْتَسْلَمُوا ، والسَّلَم الاستسلام . قال المُفسِّرون: وهذا عِند المَوت ، يتبرَّؤون مِن الشِّرْك ، وهو قَولهم : ﴿ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ ، وهو الشِّرْك ، فترد عليهم المَلائكةُ ، فتقول : ﴿ بَلَى ﴾ . وقِيل : هذا رَد خَزَنَة جَهَنَّم عَلَيهم : ﴿ بَلَى إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ مِن الشِّرْك والتَّكذيب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [النَّحْل : ٣٢] .

تُبيِّن الآيةُ حالَ المؤمنين المُتَّقين عِند الاحتضار . تَقبِض الملائكةُ أرواحَهم الطاهرةَ بكل سهولة ، ودُون ألم. وهُم أبرار طَيِّبُون طاهرون مِن الشِّرْك، ومُطهَّرون مِن الذُّنوب والآثامِ والمعاصي، فقد عَصَمَهم اللهُ مِن الكُفر والضلالِ ، وطيَّبهم بالإيمان، فعاشوا مؤمنين ، وماتوا مؤمنين. نُفُوسُهم طَيِّبة بلقاء الله، والملائكةُ تُسلِّم عليهم ، وتُبشِّرهم بنعيم الجَنَّة الأبديِّ، بما كانوا يَعْمَلُون في الدُّنيا مِن العبادات والطاعات والأعمال الصالحة ، طلبًا لرضا الله ، وابتغاءَ وَجْهه الكريم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٥): ((﴿ الذينَ تَتوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين مِن ظُلم أنفسهم بالكُفر والمَعاصي،لأنَّه في مُقَابَلَة ﴿ ظَالِمِي أنفُسِهِم ﴾ . وقِيل:فَرِحين بِبشَارة المَلائكة إيَّاهم بالجَنَّة، أو طَيِّبين بقَبْض أرواحهم، لتَوَجُّه نُفوسهم بالكُلِّية إلى حَضْرة القُدُس، ﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ ، لا يَحِيقكم بَعْد مَكْروه ، ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ حِين تُبعَثون ، فإنَّها مُعَدَّة لكم على أعمالكم. وقِيل : هَذا التَّوَفِّي وَفاة الحَشْر ، لأن الأمر بالدُّخول حِينئذ)) .

إن هؤلاء المؤمنين المُتَّقين الذين تَقبِض أرواحَهم الملائكةُ ، يَكونون في أحسن حال ، حيث إن عملية قَبْض أرواحهم تكون سهلةً ، لا ألم فيها ، بِخِلاف عملية قَبْض أرواح الكافرين . وهؤلاء المُؤمنون يَتَلَقَّوْنَ تحيةَ المَلائكة الكِرام . فالمَلائكةُ يقولون لهم : سلام عليكم ، ادْخُلوا الجَنَّةَ بسبب أعمالكم الصالحة . ولا شَكَّ أن الملائكة لا يَقومون بأعمالهم مِن تِلقاء أنفسهم ، فَهُم عِبادٌ مأمورون يُنفِّذون أوامرَ الله تعالى ، بلا زيادة ولا نُقصان . وما سَلامهم على المؤمنين إلا دليل واضح على الأمان الإلهيِّ لهم مِن العذاب . والسلامُ بُشرى لهم بالجَنَّة ، لأن السلام أمان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٤٣ و ٤٤٤): ((وفي مَعنى : ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ خمسة أقوال : أحدها مؤمنين . والثاني طاهرين مِن الشِّرْك . والثالث زاكية أفعالهم وأقوالهم. والرابع طَيِّبة وَفاتهم، سَهْل خُروج أرواحهم.والخامسة طَيِّبة أنفسهم بالمَوت ثِقَةً بالثَّوَاب. قَوله تعالى:﴿ يَقُولُونَ﴾ يعني الملائكة ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ . وفي أي وقت يكون هذا السَّلام ، فِيه قَولان : أحدهما عِند المَوت. قال البَرَاء بن عَازِب: يُسلِّم عَلَيه مَلَكُ المَوت إذا دَخَلَ عَلَيه، وقال القُرَظي: ويقول له: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقرأ عليك السلامَ ، ويُبَشِّره بالجَنَّة . والثاني عِند دُخول الجَنَّة . قال مُقاتل : هذا قَول خَزَنة الجَنَّة لهم في الآخرة ، يَقولون : سَلام عَلَيكم)) .

ب _ كِتابة أعمال بني آدم

يُوجد ملائكة يَضطلعون بمُهِمَّة كِتابة أعمال البشر . وهذه هي وظيفتهم التي حَدَّدَها اللهُ لهم . مَلائكة يَكتبون الحَسَنات، ومَلائكة يَكتبون السَّيئات . واللهُ تعالى لا يَحتاج إلى مَن يُسجِّل أعمالَ البشر ، لأنه _ سُبحانَه وتعالى _ أحصاها قبل أن يُولَدُوا . فعِلْمُه شاملٌ لكل شيء . ولكن مِن أجل إقامة الحُجَّة على البشر ، ولإشعارهم أنَّ هناك مَلائكةً يُراقبونهم ، ومُلازِمين لهم في حَرَكَاتهم وسَكَنَاتهم . وهؤلاء المَلائكةُ كِرامٌ على الله ، يَكتبون أقوالَ البشر وأفعالَهم . كما قال اللهُ تعالى عنهم : ﴿ كِرَامًا كاتِبين ﴾ [الانفطار : ١١] . وهؤلاء الرُّقَباء يَحفظون على العِباد أعمالَهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُون ﴾[يُونُس : ٢١] .

المَلائكةُ الحَفَظَة يَكتبون ما تَمْكُرون في آيات الله ، ويُسجِّلونه كاملًا غَير مَنقوص ، ليَكُون حُجَّةً عليكم، تُدينكم ، وتَفضحكم ، وتَكشف باطلكم. وسَوْفَ يَنتقم اللهُ مِنكُم، ويُعذِّبكم أشدَّ العذاب يوم القيامة . وتَدبيركم في الخفاء (مَكْركم) لا يَخفى على الملائكة الحَفَظَة ، فكيفَ يَخفى على الله تعالى ؟ .

والإضافة في ﴿ رُسُلَنا ﴾ لتشريف المَلائكة الحَفَظَة وتعظيمهم.فقد أضافهم اللهُ إلى ذاته المُقدَّسة، وهذا مُنتهى التكريم والتَّفخيم والتَّعظيم. وتَوجيه الخطابُ للمشركين مُباشرةً : ﴿ إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾ لتوبيخهم وتقريعهم وتخويفهم ، وبث الرُّعب والهَلَع في قلوبهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٨) : ((﴿ إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾. والمعنى أن رُسل الله، وهُم المَلائكة، يَكتبون مَكْر الكُفَّار، لا يخفى ذلك على المَلائكة الذين هُم الحَفَظَة، فكيف يَخفى على العَلِيم الخبير ؟. وفي هذا وعيد لهم شديد)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٧و١٨): ((﴿إنَّ رُسُلَنا﴾ يعني الحفَظَة ﴿يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾ أي : يَحفظون ذلك لِمُجَازاتكم عَلَيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُم بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِم يَكْتُبُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٨٠] .

أَم يظنُّ هؤلاء المُشركون أنَّ اللهَ لا يَسْمَع سِرَّهم وعَلانيتهم . بلى ، إنَّ اللهَ يَسْمَع ما يُسِرُّونه في أنفسهم ، ويَتَنَاجَوْن به بينهم ، ويَعْلَم سِرَّهم وعَلانيتهم ، ولا يَخفى عليه شيء . وسِرُّهم حديث أنفسهم ، ونَجْوَاهُم ما يتحدَّثون فيما بَينهم ، ويُخفونه عَن غَيرهم .

والملائكةُ الحَفَظَة عِندهم ، مُلازِمُون لهم ، يَكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها . ولا مَجال للهُروب منهم ، لأنهم يُسجِّلون أقوالَهم وأفعالَهم ، سواءٌ كانت صغيرة أم كبيرة ، ويُحْصُون عليهم أعمالَهم ، ويَكتبونها في صُحُفهم ، لإشعارهم بأنَّهم تحت المُرَاقَبَة، ومِن أجل إقامة الحُجَّة عَلَيهم، وقَطْع أعذارهم ، بحيث لا يُمكنهم الإنكار ، أو التَّهَرُّب ، أو التَّنَصُّل مِن تحمُّل المسؤولية .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢١٤) : ((وقَوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُم ﴾ . يقول : أَم يظنُّ هؤلاء المُشركون بالله أنَّا لا نَسْمَع ما أَخْفَوْا عن الناس مِن مَنطِقهم ، وتشاوروا بينهم ، وتناجَوْا به دُون غَيرهم ، فلا نُعاقبهم عليه لخَفائه عَلَينا . وقَوله : ﴿ بَلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : بَل نحنُ نَعْلَم ما تناجَوْا به بَينهم ، وأخْفَوْه عن الناس مِن سِر

كَلامهم، وحَفَظَتنا لَدَيهم، يعني: عِندهم . يَكتبون ما نَطَقُوا به مِن مَنطِق ، وتكلَّموا به مِن كلامهم . وذُكِرَ أن هذه الآية نَزلت في نَفَر ثلاثة تدارءوا (تَدَافعوا) في سَماع الله تبارك وتعالى كَلامَ عباده . ذِكْر مَن قال ذلك:حَدَّثني عمرو بن سعيد بن يَسار القُرَشي ، قال : ثنا أبو قُتَيبة ، قال : ثنا عاصم ابن محمد العُمَري عن محمد بن كَعْب القُرَظي قال:بَيْنا ثلاثة بين الكَعْبة وأستارها، قُرَشِيَّان وثقفي، أو ثقفيان وقُرَشي ، فقال واحد من الثلاثة : أتَرَوْنَ اللهَ يَسمَع كَلامَنا ؟، فقال الأول : إذا جَهَرْتُم سَمِعَ ، وإذا أسْرَرْتُم لَم يَسمع. قال الثاني : إنْ كان يَسمع إذا أعلنتُم، فإنه يَسمع إذا أسْرَرْتُم.قال : فنزلت : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُم بَلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُون ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق : ١٧] .

يُوجد مَلَكَان مُوَكَّلان بالإنسان ، يَكتبان أقوالَه وأفعالَه. مَلَكٌ عَن يَمينه قَعِيد (مُتَرَصِّد) يَكتب الحَسنات، ومَلَك عن شِماله قَعِيد (مُتَرَصِّد) يَكتب السِّيئات ، وذلك مِن أجل إقامة الحُجَّة على الإنسان ، وإلزامه بها ، وقَطْع أعذاره . واللهُ أعلمُ بالعبد مِن نفْسه ، ويَعْلَم جميعَ أعماله قبل أن يَخْلُقَه، ولا يَحتاج إلى ملائكة حَفَظَة لكتابة أعمال العبد ، ولكنَّه سُبحانَه جَعَلَ ذلك إلزامًا للحُجَّة، وتَوكيدًا للأمر ، ولعَرْض صحائف المَلَكَيْن يوم القيامة . وإذا أدركَ العبدُ ذلك ، وأدركَ أنَّ اللهَ مُطَّلع عليه ، ويَعْلَم سِرَّه وعلانيته، حَرَصَ على فِعل الطاعات، وكَسْب الحسنات، والابتعاد عن المعاصي، وعدم اكتساب السَّيئات.والجديرُ بالذِّكر أن الله قال: ﴿ قَعِيدٌ ﴾، ولم يَقُل: قَعِيدان، وهُما مَلَكَان ، لأن المعنى : عن اليمين قَعِيد ، وعن الشِّمال قَعِيد . فحُذِفَ الأوَّل لدَلالة الثاني عليه .وقال القرطبي في تفسيره(١٢/١٧):((قَوله تعالى:﴿إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، أي:نَحْن أقرب إلَيه مِن حَبْل وَريده حين يتلقَّى المُتَلَقِّيَان وهُما المَلَكَان المُوكَّلان به، أي نَحْن أعلم بأحواله،فلا نحتاج إلى مَلَك يُخبِر،ولكنهما وُكِّلا به إلزامًا للحُجَّة وتوكيدًا للأمر عليه. وقال الحسن ومُجاهد وقَتادة:﴿المُتَلَقِّيَانِ ﴾ مَلَكَان يَتَلَقَّيَان عَمَلَك،أحدهما عن يَمينك،يَكتب حَسناتك، والآخَر عَن شِمالك يَكتب سَيِّئاتك.قال الحسن:حتَّى إذا مِتَّ طُوِيَتْ صحيفة عَمَلك، وقِيل لك يوم القيامة: ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤]. عَدَلَ واللهِ عَلَيك مَن جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِك. وقال مُجاهد : وَكَّلَ اللهُ بالإنسان مع عِلْمه بأحواله مَلَكَيْن بالليل ومَلَكَيْن بالنهار،يَحْفَظان عَمَلَه،ويَكْتُبان أثَرَه إلزامًا للحُجَّة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات،والآخَر عن شِماله يَكتب السَّيئات،فذلك قَوْله تعالى:﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السَّيئات، فإذا أذنبَ العبدُ قال: لا تَعْجَلْ لعلَّه يَستغفر اللهَ)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٦) : ((اللهُ هو أعلم بحاله مِن كُل قريب ، حِين ﴿ يَتَلَقَّى ﴾ ، أي : يَتَلَقَّن الحَفِيظان ما يتلفَّظ بِه ، وفيه إيذان بأنه غنيٌّ عن استحفاظ المَلَكَيْن ، فإنَّه أعلم مِنهما ، ومُطَّلع على ما يَخفَى عَلَيهما ، لكنَّه لحِكمة اقتضته ، وهي ما فيه مِن تشديد ، يُثبِّط العبدَ عن المعصية ، وتأكيد في اعتبار الأعمال ، وضَبْطها للجزَاء ، وإلزام للحُجَّة ، يَوم يَقوم الأشهاد. ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ، أي: ﴿ عَنِ اليَمِينِ ﴾ قَعِيد ﴿ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي : مُقاعِد ، كالجليس ، فحُذِفَ الأوَّل لدَلالة الثاني عليه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق : ١٨] .

ما مِن كلمة يَنطِق بها الإنسانُ مِن خَير أو شَر ، إلا وعِندَه مَلَك يُلازمه ، ويَرقُب قَوْلَه ، ويُسجِّله في صحيفته، وهو حاضر معه في كُل مكان ، ومُهَيَّأ لكتابة ما أُمِرَ به بلا زيادة ولا نُقصان.

والرَّقِيبُ هو المَلَك الذي يَرقُب قَوْلَ الإنسان ويَكْتبه ، وهو أيضًا المَلَك الحافظ المُتَتَبِّع لأمور الإنسان الذي يَكتب ما يَقوله مِن خَير أو شَر . والعَتِيدُ الحاضرُ المُهَيَّأ . والمُراد المَلَكَان اللذان يُلازمان الإنسانَ، ويَكْتُبان كُلَّ ما يَصْدُر عنه مِن خَير أو شَر ، ولا يَنْسَيَان شيئًا ، ولا يَزيدان، ولا يُنقِصان. وما يتكلَّم الإنسانُ مِن شَيء إلا كُتِبَ عَلَيه ، وجَميع ما يَقوله مَحفوظ عَلَيه ، ومَكتوب عليه ، ومسؤول عنه. وكلامُه إمَّا له أو عَلَيه.وكَم مِن كَلِمة لا يُلْقي لها الإنسانُ بالًا، ويَعتبرها بسيطةً وتافهةً وعاديةً، تَقُوده إلى نار جَهَنَّم.وكاتبُ الخَير هُوَ مَلَك اليمين، وكاتب الشَّر هُوَ مَلَك الشِّمال.

وهذا يعني أن الإنسان تحت مُرَاقَبَة شديدة لَيْلًا ونهارًا ، بدون انقطاع . فيجب عليه أن يُفكِّر بالكَلِمة قبل أن يَقُولها، وبالفِعل قَبل أن يَقوم به. فإن كان خَيْرًا فليتقدَّم ، وإن كان شَرًّا فَلْيُمْسِكْ . وحريٌّ بالإنسان أن يَختار أقوالَه وأفعالَه بِدِقَّة مُتناهية ، وأن يَحرِص على تَحصيل الأجر والثواب قَدْر الاستطاعة ، والابتعاد عن الذُّنوب والآثام والمَعَاصي التي تُؤَدِّي إلى عذاب النار الأليم .

وقال القرطبي في تفسيره(١٣/١٧):((قَوله تعالى:﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي : ما يتكلَّم بشَيء إلا كُتِبَ عليه . مأخوذ مِن لَفْظ الطعام ، وهو إخراجه مِن الفَم. وفي الرَّقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنَّه المُتَّبع للأمور . الثاني أنَّه الحافظ ، قاله السُّدي . الثالث أنَّه الشَّاهِد ، قاله الضَّحاك . وفي العَتِيد وَجْهَان : أحدهما أنَّه الحَاضِر الذي لا يَغِيب . الثاني أنَّه الحَافِظ المُعَد ، إمَّا للحفظ ، وإمَّا للشَّهادة . قال الجوهري : العتيد الشَّيء الحاضر المُهَيَّأ)) .

والسؤال الذي يَطرح نَفْسَه في هذا السِّياق : هَل يَكتب المَلَكَان كُلَّ شيء أَم ما فِيه ثواب وعِقاب فقط ؟. هذه قضية خِلافية بين العُلَماء .

عن عِكرمة عن ابن عباس ـــ رضي اللهُ عنهما ـــ: أنَّه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . قال : فقال ابن عباس : ((إنما يَكتب الخَيْرَ والشَّر . لا يَكتب يا غُلامُ أسْرِج الفَرَسَ ، ويا غُلامُ اسْقِني المَاءَ . إنَّما يَكتب الخَيْرَ والشَّر)) [١٢١].

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٥) : ((وقد اختلف العلماء : هل يَكتب المَلَكُ كُلَّ شيء من الكلام ، وهو قَول الحَسَن وقَتادة . أو إنَّما يَكتب ما فيه ثواب وعِقاب ، كما هو قَول ابن عباس ـــ رضي اللهُ عنهما ـــ. فعلى قَوْلَيْن. وظاهر الآية الأوَّل ، لِعُموم قَوله ـــ تبارك وتعالى ـــ : ﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٠و١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ ما يَلْفِظُ ﴾ يعني الإنسان، أي: ما يتكلَّم مِن كلام فيَلفِظه، أي يَرْمِيه مِن فَمِه ﴿ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ، أي: حافظ، وهو المَلَك المُوكَّل به ، إمَّا صاحب اليمين ، وإمَّا صاحب الشِّمال ﴿ عَتِيدٌ ﴾ . قال الزَّجاج : العَتِيد : الثابت اللازم. وقال غَيره: العتيد الحاضر معه أينما كان. وروى أبو أُمَامة قال: قال رسول الله ﷺ : "كاتب الحَسَنات على يَمين الرَّجل،وكاتب السَّيئات على يَساره،فكاتب الحسنات أمين على كاتب السَّيئات، فإذا عَمِلَ حَسنةً كتبها له صاحبُ اليمين عَشْرًا، وإذا عَمِلَ سَيِّئةً وأراد صاحب الشِّمال أن يكتبها، قال صاحبُ اليمين: أمْسِكْ، فيُمسِك عنه سَبْعَ ساعات، فإن استغفرَ مِنها لم يُكتَب عليه شيء،وإن لَم يستغفر كُتِبَ عَلَيه سيئة واحدة".وقال ابن عباس:جَعل اللهُ على ابن آدم حافظَيْن في الليل، وحافظَيْن في النهار. واختلفوا هَل يَكتبان جميع أفعاله وأقواله، على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّهما يَكتبان عليه كل شيء، حتى أنينَه في مَرَضه، قاله مجاهد. والثاني أنَّهما لا يَكتبان إلا ما يُؤْجَر عليه أو يُوزَر ، قاله عِكرمة . فأمَّا مَجلسهما فقد نَطَقَ القُرآنُ بأنَّهما عن اليمين وعن الشِّمال)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٩) : ((وأمَّا قَوله ﷺ : " فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمِتْ " [مُتَّفق عليه]. فمعناه أنَّه إذا أراد أن يتكلَّم ، فإن كان ما يتكلَّم به خيرًا مُحَقَّقًا يُثاب عَلَيه ، واجبًا أو مَندوبًا ، فليتكلَّم . وإن لم يَظهر له أنه خَير يُثاب عليه ، فَلْيُمْسِكْ عن الكلام ، سَواءٌ ظَهَرَ له أنَّه حرام ، أو مَكروه ، أو مُباح مُستوي الطرفَيْن . فعلى هذا يكون الكَلام المُباح مَأمورًا بتَركه ، مَندوبًا إلى الإمساك عنه ، مخافة مِن انجراره إلى المُحرَّم أو المَكروه . وهذا يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . واختلف

---

١٢١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) برقم (٣٧٣٠) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

السَّلَف والعُلَماء في أنَّه هَل يُكتَب جميع ما يَلفِظ به العبدُ، وإن كان مُباحًا لا ثَواب فيه ولا عِقاب لعُموم الآية، أم لا يُكتَب إلا ما فيه جَزاء مِن ثَواب أو عِقاب.وإلى الثاني ذَهب ابن عباس رضي اللهُ عنهما ، وغَيره من العلماء. وعلى هذا تكون الآية مَخصوصة، أي: ما يَلفِظ مِن قَول يترتَّب عليه جَزاء. وقد نَدَبَ الشَّرْعُ إلى الإمساك عن كثير مِن المُباحات، لئلا ينجرَّ صاحبُها إلى المُحرَّمات أو المَكروهات . وقد أخذ الإمام الشافعي رضى الله عنه معنى الحديث ، فقال : إذا أرادَ أن يتكلَّم فليُفكِّر، فإن ظَهَرَ له أنه لا ضَرَر عليه تكلَّمَ ، وإن ظَهَرَ له فيه ضَرَر أو شَكَّ فيه ، أمْسَكَ)) .

يجب على الإنسان أن يتذكَّر نَظَرَ الله إلَيه ، وأن يَستحي مِن المَلَكَيْن المُلازِمَيْن له في كل أحواله، حيث يُحْصِيان أقوالَه وأفعالَه . والتفكير قبل اتِّخاذ أيِّ قرار ، وعَرْضه على القُرآن والسُّنة ، هو الحَل الأمثل لتَجَنُّب الخطأ والإثم . وكما قِيل : لِسَانُ الأحمق أمام قَلْبه (يَرْمي الكلمةَ ثُمَّ يُفكِّر فيها) ، ولِسَانُ العاقل وراء قَلْبه (يُفكِّر بالكلمة ثُم يَقولها) . ويبقى الحَيَاءُ من الله تعالى هو الذي يَردع الإنسانَ عن ارتكاب الذُّنوب والآثام، وهو الوازع الداخلي المَانع مِن اقتراف المَعَاصي.

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٢٦٨) : أن النبيَّ ﷺ قال : ((إذا لَم تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ))[١٢٢] .

---

١٢٢ قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٢٣) : ((قال الخطابي: الحِكمة في التعبير بلفظ الأمر دُون الخبر في الحديث أن الذي يكفُّ الإنسانَ عن مُواقَعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعًا بارتكاب كُل شر ... . قال النووي في الأربعين : الأمر فيه للإباحة ، أي : إذا أردتَ فِعْلَ شيء ، فإن كان مما لا تَستحي إذا فعلته من الله ، ولا من الناس ، فافعله ، وإلا فلا . وعلى هذا مَدار الإسلام . وتوجيه ذلك أن المأمور به الواجب والمندوب يستحي مِن تركه ، والمنهي عنه الحرام والمكروه يستحي مِن فِعْله ، وأمَّا الْمُباح فالحياء مِن فِعْله جائز ، وكذا مِن تَرْكِه ، فتضمَّن الحديث الأحكام الخمسة . وقِيل : هو أمر تهديد كما تقدَّم توجيهه ، ومعناه : إذا نُزِع مِنك الحياء فافعل ما شِئت ، فإن الله مُجازيك عليه . وفيه إشارة إلى تعظيم أمر الحياء . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر ، أي مَن لا يستحي يَصنع ما أراد)) اهـ . وفي مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢١١): ((قال بعضُهم : جعل الحياء وهو غريزة مِن الإيمان وهو اكتساب ، لأن المستحي يَنقطع بحيائه عن المعاصي ، وإن لم يكن له تَقِية (مَهابة)، فصار كالإيمان الذي يقطع بينها وبينه . ومنه الحديث .. " إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شِئتَ " ، أي مَن لم يَسْتَحِ صَنَعَ ما شاء . لفظُه أمر ، ومعناه الخبر)) .

إذا لم يَسْتَحِ الإنسانُ ، فلا شيء سَيَرْدعه، لذلك سَيَفعل ما يَحلو له غير عابئ بلَوْمٍ أو عِتاب. والحَيَاءُ هو الوازع الداخلي ، فإذا زال ، زالَ صَمَّامُ الأمان . ويُمكن فهم الحديث بأن المَرْء إذا لم يَسْتَحِ مِن شَيء فليفعله ، فَعَدَمُ الاستحياء مِنه دليلٌ على أنَّه أمرٌ شرعيٌّ ، ومَقبول اجتماعيًّا .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وجاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[ق : ٢١] .

وجاءَ كُل إنسان ، صالحًا كان أم فاسدًا ، ومعه مَلَكَان ، أحدهما يَسُوقه إلى المَحْشَر ، أو إلى أمر الله تعالى . والمَلَكُ الآخَرُ يَشهَد عليه بعمله في الدُّنيا مِن خَير أو شَر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ مَعَهَا سَائِقٌ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّ السَّائق مَلَك يَسُوقها إلى مَحْشَرِها ، قاله أبو هُرَيرة . والثاني أنَّه قَرِينها مِن الشَّياطين ، سُمِّيَ سائقًا ، لأنَّه يَتبعها وإن لم يَحُثَّها . وفي الشَّهيد ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه مَلَك يَشْهَد عَلَيها بعملها، قاله عُثمان بن عَفَّان والحَسَن. وقال مُجاهد: المَلَكَان سائق وشهيد. وقال ابن السائب: السَّائق الذي كان يَكتب عَلَيه السَّيئات، والشَّهيد الذي كان يَكتب الحَسَنَات . والثاني أنَّه العَمَل يَشْهَد على الإنسان، قاله أبو هريرة . والثالث الأيدي والأرْجُل تَشْهَد عَلَيه بعمله، قاله الضَّحاك)).

ج ـ حِفْظهم

هناك قِسْم مِن الملائكة وَظيفتهم حِفْظ الإنسان والاعتناء به.وهذا مَظْهَر مِن تَجَلِّيات رحمة الله بعباده، حَيث يُحيطهم بحمايته ورعايته، فهو خالقهم الذي يعتني بهم. وهو أرحم بهم مِن أُمَّهاتهم.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيكم حَفَظَةً حتى إذا جاءَ أحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُم لا يُفَرِّطون ﴾[الأنعام : ٦١] .

إنَّ الله هو الغالبُ العالي على عباده بِقُدرته وعَظَمَته وسُلطانه ، قَهَرَ كُلَّ شَيء ، وخَضع لمَجده وجَلاله كُلُّ شيء . يَتصرَّف في مُلكه وخَلْقه كما يشاء ، ويَفعل بهم ما يشاء ، إحياءً وإماتةً ، وتعذيبًا وإثابةً . وهذه الفَوقيةُ هي فَوقية المكانة لا فَوقية المكان ، لأن اللهَ مُنَزَّهٌ عن المكان . كما يُقَال : الحاكم فوق الرَّعية . ويُرسِل عليكم ملائكةً يَتَعَاقَبُون ليلًا ونهارًا ، جَعَلَهم اللهُ حافظين، وهُم الكرام الكاتبون. يَحْفَظُون أعمالَكم كائنةً ما كانت، ويُحصونها عليكم ، ويُسجِّلونها في الصَّحائف كاملةً ، بلا زيادة ولا نُقصان ، ويَحفظونكم مِن الآفات والمصائب والكوارث .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٥): ((وفِيما يَحفظونه قَولان: أحدهما أعمال بني آدم، قاله ابن عباس . والثاني أعمالهم وأجسادهم ، قاله السُّدي)) .

ووجودُ هؤلاء الملائكة الكِرَام الكاتبين، كَي يَرتدع الناسُ عن المعاصي والآثام، ويَبتعدوا عن الذنوب ، ويَرتدعوا عن ارتكاب الفساد ، لأنهم يَعلَمون أن صحائفهم تُقْرَأ على رؤوس الأشهاد.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٨٠) : ((و ﴿ عَلَيكم ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿ يُرْسِلُ ﴾ لِمَا فيه مِن معنى الاستيلاء . وتقديمه على ﴿ حَفَظَةً ﴾ لِيُفيد العِناية بشأنه ، وأنه أمر حقيق بذلك . وقِيل : هو مُتعلِّق بـ ﴿ حَفَظَةً ﴾)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٧) : ((والحِكمة فيه أن المُكَلَّف إذا عَلِمَ أن أعماله تُكتَب عليه ، وتُعرَض على رُؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي ، وأن العبد إذا وَثِقَ بِلُطف سَيِّده واعتمد على عَفْوه وسَتْره ، لَم يَحتشِم مِنه احتشامه مِن خَدَمه المُطَّلعين عليه)) .

حتى إذا انتهى عُمُرُ الإنسان ، وحانَ أجلُه ، تَوَفَّتْهُ المَلائكةُ المُوَكَّلُون بقبض الأرواح . وهذا دليل على أن لِمَلَك الموت أعوانًا من الملائكة . وهُم لا يُقصِّرون فِيما يُؤمَرون بِه، ولا يُفرِّطون في رُوح المَيْت ، ولا يُضيِّعونها. وإنَّما يَحفظونها، ويُنْزِلونها حيث شاء الله . إن كان مُؤمنًا ففي عِلِّيين ، وإن كان كافرًا ففي سِجِّين . وهذا يَعني أن حِفْظ الملائكة للإنسان مُستمر طيلة حياته ، فإذا انتهت حياة الإنسان ، انتهى حِفظ الملائكة له، ولَم يعد له وجود في هذه الحياة الدُّنيا . ومجيء الموت يعني مجيء أسبابه وعلاماته . والتأنيث في ﴿ تَوَفَّتْهُ ﴾ باعتبار الجَمْع ، أي إن المَلائكة جَماعة ، وليس لأن الملائكة إناث . فالملائكةُ لا يُوصَفون بِذُكورة ولا أُنوثة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٥و٥٦) : ((في المُراد بالرُّسُل ثلاثة أقوال : أحدها أنهم أعوان مَلَك المَوت، قاله ابن عباس . وقال النَّخعي: أعوانه يَتوَفَّوْنَ النُّفوس، وهو يأخذها منهم. والثاني أن المُراد بالرُّسُل مَلَك الموت وَحْدَه ، قاله مُقاتل . والثالث أنهم الحَفَظَة ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى: ﴿ وَهُم لا يُفرِّطون ﴾ . قال ابن عباس: لا يُضيِّعون . فإن قِيل: كيف الجَمْع بين قَوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ﴾ وبين قَوله : ﴿ قُلْ يتوفَّاكم مَلَكُ المَوت ﴾[السَّجدة : ١١]. فعنه جوابان : أحدهما أنه يجوز أن يُريد بالرُّسُل مَلَك الموت وَحْدَه ، وقد يقع الجَمْع على الواحد.والثاني أن أعوان مَلَك المَوت يَفعلون بأمره، فأُضِيف الكُل إلى فِعْله. وقِيل: تَوَفِّي أعوان مَلَك المَوت بالنَّزْع، وتَوَفِّي مَلَك المَوت بأن يأمر الأرواح فَتُجِيب ويَدعوها فَتَخرج . وتَوَفِّي الله تعالى بأن يَخلُق المَوت في المَوت)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أمْرِ اللهِ ﴾[الرَّعْد : ١١].

للعَبْدِ ملائكة مُوكَّلة به، يَتَعَاقَبُون (يَعقُب بعضُهم بعضًا) بالليل والنهار على حِفْظه وحمايته ، مِن أمامه ، ومِن ورائه ، يَحفظونه مِن الشُّرور والأخطار والمصائب والكوارث بأمر الله تعالى .

وهذا يدل على رحمة الله بعباده، وفَضْله عليهم،وعِنايته بهم، ورعايته لهم،وإحسانه إلَيهم [١٢٣].

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٦٢) : ((وقَوله : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أمْرِ اللهِ ﴾ . أي : للعبد ملائكة يَتَعَاقَبُون عليه ، حَرَس بالليل ، وحَرَس بالنهار ، يَحفظونه مِن الأسْواء والحادثات ،كما يَتَعَاقَب ملائكة آخرون ، لحفظ الأعمال مِن خَير أو شَر ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشِّمال يَكتبان الأعمالَ، صاحب اليمين يَكتب الحسنات، وصاحب الشِّمال يَكتب السَّيئات، ومَلَكَان آخَران يَحفظانه ويَحرسانه، واحد مِن ورائه، وآخَر مِن قُدَّامه،فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة أملاك بالليل بدلًا حافظان وكاتبان)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٠و٣١١و٣١٢): ((قَوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ في هاء ﴿ لَهُ ﴾ أربعة أقوال: أحدها أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ ، رواه أبو الجَوْزَاء عن ابن عباس. والثاني إلى المَلِك مِن مُلوك الدُّنيا ، رواه سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس . والثالث إلى الإنسان ، قاله الزَّجاج . والرابع إلى الله تعالى ذِكْرُه ، قاله ابن جرير وأبو سُلَيمان الدمشقي . وفي المُعَقِّبَات قَولان : أحدهما أنَّها الملائكة ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد والحَسَن وقَتادة في آخرين . قال الزَّجاج : والمعنى : للإنسان مَلائكة يَعْتَقِبُون ، يأتي بعضُهم بعَقِب بعض . وقال أكثر المُفسِّرين : هُم الحَفَظَة ، اثنان بالنهار ، واثنان بالليل . إذا مضى فريق خَلَفَ بَعْده فريق ، ويَجتمعون عِند صلاة المَغرِب والفَجْر.وقال قَوم مِنهُم ابن زَيد: هذه الآية خاصَّة في رسول الله ﷺ. عَزَمَ عامر بن الطُّفَيل وأربد بن قَيْس على قَتْله ، فمنعه اللهُ منهما ، وأنزل هذه الآية . والقول الثاني أنَّ المُعَقِّبَات حُرَّاس المُلوك الذين يتعاقبون الحرس ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وعِكرمة. وقال الضَّحاك: هُم السَّلاطين المُشركون المُحْتَرِسُون مِن الله تعالى. وفي قَوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِن أمْرِ اللهِ ﴾ سبعة أقوال: أحدها يَحرُسونه مِن أمر الله ، ولا يَقْدِرُون . هذا على قَول مَن قال: هي في المشركين المُحترسين من أمر الله . والثاني أنَّ المعنى حِفْظهم له من أمر الله ، قاله ابن عباس وابن جُبَير ، فيكون تقدير الكلام : هذا الحِفْظ مِمَّا أمَرَهم اللهُ به . والثالث يَحفَظونه بأمر الله ، قاله الحسن ومُجاهد وعِكرمة. قال اللغويون: والباء تَقوم مَقام " مِن"، وحُروف الصِّفات يقوم بعضُها مَقام بعض.

---

١٢٣ ذهب البعضُ إلى أن "الْمُعقِّبات" تعني الحرَس الذي يتعاقب على الأمير.فعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما في قَوله تعالى: ﴿ له مُعَقِّباتٌ من بين يَدَيْه ومِن خَلْفه ﴾ قال : ((ذلك مَلِك من ملوك الدُّنيا له حَرَس مِن دُونه حَرَس)) [تفسير الطبري ٧/ ٣٥٠].وصحَّح إسنادَه الحافظُ في الفتح (٨/ ٣٧٢) .

والرابع يَحفَظونه مِن الجِن ، قاله مُجاهد والنَّخعي . وقال كَعْب: لَوْلا أن الله تعالى وَكَّل بكم ملائكة يَذُبُّون عَنكُم في مَطعَمكم ومَشرَبكم وعَوراتكم إذًا لَتَخَطَّفتكم الجِن ، وقال مُجاهد : ما مِن عَبْد إلا ومَلَك مُوكَّل به ، يَحفظه في نَوْمه ويَقَظته مِن الجِن والإنس والهَوَام، فإذا أراده شيء، قال: وراءك وراءك،إلا شيء قد قُضِيَ له أن يُصيبه . وقال أبو مِجْلَز: جَاء رَجل مِن مراد ، إلى عليٍّ عليه السلام، فقال: احترِسْ، فإن ناسًا مِن مراد يُريدون قَتْلَك ، فقال : " إنَّ مع كُل رَجُل مَلَكَيْن يَحفَظانه مِمَّا لَم يُقَدَّر ، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَه وبَيْنَه، وإن الأجل جُنَّة حَصِينة ". والخامس أنَّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، والمعنى: له مُعَقِّبَات مِن أمر الله يَحفَظونه ، قاله أبو صالح والفَرَّاء . والسادس يَحفَظونه لأمر الله فيه ، حتى يُسْلِمُوه إلى ما قُدِّرَ له ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي . واستدلَّ بما روى عِكرمة عن ابن عباس أنَّه قال:" يَحفَظونه من أمر الله ، حتى إذا جاء القَدَرُ خَلُّوا عنه". وقال عِكرمة : يَحفَظونه لأمر الله . والسابع يَحفَظون عَلَيه الحَسَنَات والسَّيئات ، قاله ابن جُرَيج : قال الأخفش : وإنَّما أنَّث المُعَقِّبَات لكثرة ذلك مِنها ، نَحْو : النَّسَّابة ، والعَلَّامة ، ثُمَّ ذَكَرَ في قَوله : ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ ، لأن المَعنَى مُذَكَّر)) .

وعن أبي هُرَيرة أن رسول الله ﷺ قال : ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُم مَلائكةٌ بالليل ، ومَلائكةٌ بالنهار ، ويَجتمعون في صَلاة الفَجْر وصَلاةِ العَصْر ، ثُمَّ يَعْرُجُ الذين باتوا فِيكُم ، فيَسْأَلُهُم وهو أعلمُ بهم : كيف تركتُم عِبادي ؟ ، فيقولون : تركناهم وهُم يُصَلُّون ، وأتيناهُم وهُم يُصَلُّون)) [١٢٤].

يَتَعَاقَب المَلائكةُ على حراسة الناس ، ويتناوبون على حمايتهم ، وتأتي طائفة تحرُسهم لَيْلًا ، وطائفة أُخرى تحرُسهم نهارًا، ويَجتمع ملائكةُ النهار بملائكة الليل في صلاة الفجر،حيث يَنزِل ملائكةُ النهار عند أوَّل الصلاة، ولا زالَ ملائكةُ الليل مَوجودين فيلتقون بهم. ويَجتمع ملائكةُ الليل بملائكة النهار في صلاة العَصْر.وهذا يدل على عِظَم هاتَيْن الصلاتَيْن، ومنزلتهما الرفيعة. ثُمَّ يَصعَد ملائكةُ الليل بعد صلاة الفَجْر، فيسألهم اللهُ: كيف تركتُم عبادي ؟. واللهُ أعلم بهم،وغنيٌّ عن سُؤالهم . وسؤالُ اللهِ لهم من أجل رَفْع شأن عباده المؤمنين وتشريفهم وتعظيمهم في المَلأ الأعلى، وإظهار شَهادة الملائكة لهم بالخَيْر، فيقول المَلائكةُ: تركناهم وهُم يُصَلُّون صلاةَ الفَجْر ، وأتيناهم وهُم يُصَلُّون صلاةَ العَصْر. وهذا يدل على أنهم في صلاة دائمة، وعبادة مُستمرة، وطاعة متواصلة، وأنهم مؤمنون أتقياء . والحديثُ يُشير إلى أهمية الصلاة ، وعِظَم شأنها ، وضرورة الاعتناء بها .

١٢٤ متفق عليه . البخاري (١/ ٢٠٣) برقم (٥٣٠) ، ومسلم (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٢) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٣٣) : ((قَوله ﷺ : " يَتعَاقَبُونَ فِيكُم مَلائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويَجتمعون في صلاة الفَجْر وصلاة العَصْر " . فيه دليل لِمَن قال مِن النَّحْويين : يَجوز إظهار ضَمير الجَمْع والتَّثنية في الفِعل إذا تَقَدَّمَ ، وهو لغة بني الحارث ، وحَكَوْا فِيه قَولهم : أكلوني البراغيث . وعليه حَمَلَ الأخفشُ ومَن وافقه قَول الله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الذينَ ظَلَمُوا ﴾ [الأنبياء : ٣] . وقال سِيبَوَيْه وأكثر النَّحْويين : لا يَجوز إظهار الضَّمير مع تقدُّم الفِعل ، ويتأوَّلون كُل هذا ، ويَجعلون الاسمَ بَعْدَه بدلًا مِن الضَّمير ، ولا يَرفعونه بالفِعْل ، كأنَّه لمَّا قِيل : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ . قِيل : مَن هُم ؟ ، قِيل : ﴿ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وكذا . يَتَعَاقَبُون ونظائره ، ومعنى يَتَعَاقَبُون : تأتي طائفةٌ بعد طائفة ، ومِنه تَعقُب الجُيوش ، وهو أن يذهب إلى ثَغْر قَوم ، ويجيء آخَرُون . وأمَّا اجتماعهم في الفَجْر والعَصْر، فهو مِن لُطف الله تعالى بعباده المؤمنين،وتَكْرَمة لهم،أن جعل اجتماع الملائكة عِندهم ومُفارقتهم لهم في أوقات عباداتهم، واجتماعهم على طاعة ربِّهم، فيكون شهادتهم لهم بما شاهدوه مِن الخَير.وأمَّا قَوله ﷺ: " فيسألهم ربُّهم وهو أعلمُ بهم : كيف تركتم عبادي ؟ " . فهذا السؤال على ظاهره ، وهو تَعَبُّد مِنه لمَلائكته كما أمرهم بكَتْب الأعمال ، وهو أعلم بالجميع.قال القاضي عِياض رحمه الله : الأظهر وقَول الأكثرين أن هؤلاء المَلائكة هُم الحَفَظَة الكُتَّاب. قال: وقِيل: يُحتمَل أن يكونوا مِن جُملة الملائكة بجُملة الناس غَير الحَفَظَة)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[الطارق:٤].

كُل نَفْس عليها مِنَ اللهِ حافظ مِنَ المَلائكة ، يَحفَظ عَمَلَها مِن خَير أو شَر ، ويَحرُسها مِن الأخطار والمصائب والكوارث . ووظيفةُ هذا المَلَك أن يَحفظ عَمَلَها ، ورِزْقَها ، وأجَلَها ، فإذا اسْتَوْفَت ذلك ماتت. والحافظُ على الحقيقة هو الله وَحْدَه ، وحِفْظ الملائكة مِن حِفْظ الله ، لأنَّهم لا يَعْمَلُون شيئًا إلا بأمره تعالى. وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٧) : ((قال قَتادة : حَفَظَة يَحفَظون عَلَيك رِزْقَك ، وعَمَلَك ، وأجَلَك . وعنه أيضًا قال : قرينه يَحفَظ عليه عَمَلَه ، مِن خَير أو شَر)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة : ﴿ لَمَّا ﴾ بالتَّشديد ، يَعْنُون : ما كُل نَفْس إلا عليها حافظ، وهي لغة هُذَيل. يجعلون لَمَّا بمعنى إلا. يقولون : نَشَدْتُكَ اللهَ لَمَّا قُمْتَ، أي: إلا قُمْتَ. وقرأ الآخرون بالتَّخفيف، جعلوا ما صِلَة مَجازه : إن كُل نَفْس لَعَلَيْهَا حافظ مِن ربِّها. وتأويل الآية : كُل نَفْس عليها حافظ مِن ربِّها ، يَحفظ عَمَلَها، ويُحْصِي عَلَيها ما تكتسب مِن خَير وشَر. قال ابن عباس: هُم الحَفَظَة مِن المَلائكة . قال الكلبي : حافظ من الله يَحفَظها،ويَحفَظ قَوْلَها وفِعْلَها،حتَّى يَدفعها ويُسْلِمها إلى المَقادير، ثُمَّ يُخَلِّي عنها)).

د ـ دُعاؤهم

إنَّ دُعَاء المَلائكة للعبد يُشير إلى الرَّحمة الإلهية الشاملة ، وطهارةِ الملائكة الأبرار الذين يَدْعُون للعباد ، ويَستغفرون لهم ، بأمر بالله تعالى . إذ إنهم لا يَفعلون شيئًا مِن تِلْقاء أنفسهم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ وكانَ بالمُؤمنينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

إنَّ اللهَ يُصَلِّي على المُؤمنين ، أي : يَرحمهم ، ويُباركهم ، ويَرْعاهُم ، ويَتَوَلَّاهم ، ويعتني بهم ، ويُصلِح أُمورَهم . والمَلائكةُ أيضًا ، يُصَلُّون على المؤمنين ، أي : يَدْعُون لهم ، ويَستغفرون لهم ، ويَطلبون لهم الرحمة . والصَّلاةُ مِن الله على العِباد ثناؤه عليهم ، وتكريمهم ، وتشريفهم ، ورحمته لهم ، وبَركته عليهم . والصَّلاةُ مِن المَلائكةِ الدُّعاءُ للعِباد ، والاستغفار لهم ، وطلب الرحمة لهم .

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ ﴾ ، ليُخرِجكم اللهُ مِن ظُلمات الجَهل والكُفر إلى نُور العِلْم والإيمان ، ومِن الضَّلال إلى الهُدى ، ومِن المعاصي إلى الطاعات . ومعنى الآية : التَّثبيت على الإيمان والهُدى والطاعات ، لأنهم كانوا في وَقت الخِطاب مؤمنين مُهتدين مُطيعين .

﴿ وكانَ بالمُؤمنينَ رَحِيمًا ﴾ . واللهُ واسع الرَّحمة بالمؤمنين ، يَقبل العملَ القليل ، ويتجاوز عن الذُّنوب الكثيرة . وهو سُبحانَه رحيم بعباده، هداهم إلى الصراط المستقيم، وفتح لهم باب التَّوبة ، وأمرَ الملائكةَ بالدُّعاء والاستغفار لهم. وهذا يدل على رعاية الله للمؤمنين، وعِنايته بصلاح أمرهم، وتعظيم منزلتهم ، وتشريف قَدْرهم ، وإعلاء شأنهم، والتَّنويه بذِكْرهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلائِكَتُهُ ﴾ . في صَلاة الله عَلَينا خَمسة أقوال : أحدها أنَّها رحمته ، قاله الحَسَن. والثاني مَغفرته، قاله سعيد بن جُبَير. والثالث ثناؤه، قاله أبو العالية . والرابع كَرامته، قاله سُفيان. والخامس بَرَكته ، قاله أبو عُبَيدة . وفي صلاة المَلائكة قَولان : أحدهما أنَّها دُعاؤهم ، قاله أبو العالية . والثاني استغفارهم ، قاله مُقاتل . وفي الظُّلُمَات والنُّور هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها الضَّلالة والهُدى ، قاله ابن زَيد . والثاني الإيمان والكُفر ، قاله مُقاتل . والثالث الجَنَّة والنار ، حكاه الماوردي)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٥٣): ((وقَوله تعالى: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ ﴾ أي : بسبب رحمته بِكُم ، وثَنائه عليكم ، ودُعاء مَلائكته لكم ، يُخرِجكم مِن ظُلمات الجَهْل والضَّلال إلى نُور الهُدى واليَقين ﴿ وكانَ بالمُؤمنينَ رَحِيمًا ﴾ ، أي : في الدُّنيا والآخرة . أمَّا في

الدُّنيا ، فإنَّه هداهم إلى الحق الذي جَهِلَه غَيْرُهم ، وبصَّرهم الطريقَ الذي ضَلَّ عنه وحَادَ عنه مَن سِواهم مِن الدُّعاة إلى الكُفر أو البُدعة ، وأتباعهم مِن الطُّغاة . وأمَّا رَحمته بهم في الآخرة فآمَنهم مِن الفَزَع الأكبر ، وأمرَ ملائكته يَتَلَقَّوْنَهم بالبِشارة بالفَوز بالجَنَّة ، والنَّجاة مِن النار ، وما ذاك إلا لِمَحَبَّته لهم ، ورَأفته بهم)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٢) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ مرفوعًا : ((إذا خَرَجَتْ رُوحُ المؤمن تَلَقَّاها مَلَكَانِ يُصْعِدَانها _ قال حمَّاد: فَذَكَرَ مِن طِيب رِيحها وذَكَرَ المِسْكَ _ قال : ويقول أهل السَّماء:رُوح طَيِّبة جاءت مِن قِبَل الأرض صلى اللهُ عَلَيْكِ، وعلى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينه)).

إنَّ المَلائكة _ عليهم السلام _ يُصَلُّون على رُوح المؤمن الطاهرة التي جاءت مِن الأرض، ويُصَلُّون على الجسد الشريف الذي كانت الرُّوح الطاهرة تَعْمُرُه . أي إن الملائكة يَدْعُون للمؤمن ، ويَستغفرون له، ويَطلبون مِن الله أن يَرحمه، ويتجاوز عنه، لأنَّه عاش في الدُّنيا عبدًا لله ، مُوَحِّدًا له ، ومُلْتَزِمًا بالعبادات والطاعات ، ومُبْتَعِدًا عن الذُّنوب والمَعاصي . وطاعةُ الله هي سبب طهارة الرُّوح والجسدِ ، ومعصيةُ الله هي سبب نجاسة الرُّوح والجسدِ .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٦٩ و١٧٠):((قَوله: باب هَل يُصلِّي على غَير النبيِّ ﷺ. أي : استقلالًا أو تَبَعًا ، ويَدخل في الغَير الأنبياءُ والمَلائكةُ والمؤمنون ... . وقد ثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبيِّ ﷺ . أخرجه ابن أبي شَيبة من طريق عُثمان بن حَكِيم عن عِكْرِمة عنه، قال : " ما أعْلَمُ الصَّلاةَ تنبغي على أحد مِن أحد إلا على النبيِّ ﷺ " . وهذا سند صحيح. وحُكِيَ القول به عن مالك ، وقال : ما تَعَبَّدَنَا به . وجاء نَحْوه عن عُمر بن عبد العزيز ، وعن مالك: يُكرَه. وقال عِياض : عامَّة أهل العِلم على الجَواز . وقال سُفيان : يُكرَه أن يُصَلِّيَ إلا على نبيٍّ . ووجدت بخط بعض شيوخي مذهب مالك: لا يَجوز أن يُصَلِّيَ إلا على مُحمَّد. وهذا غير معروف عن مالك، وإنَّما قال : أكرهُ الصلاةَ على غير الأنبياء ، وما ينبغي لنا أن نتعدَّى ما أُمِرْنا به . وخالفه يحيى ابن يحيى فقال : لا بأس به ، واحتجَّ بأن الصلاة دُعاء بالرحمة ، فلا يُمنَع إلا بنَص أو إجماع . قال عِياض : والذي أميل إليه قَول مالك وسُفيان ، وهو قَول المُحقِّقين مِن المُتكلِّمين والفقهاء، قالوا: يُذكَر غَير الأنبياء بالرِّضا والغُفران ، والصلاة على غير الأنبياء يعني استقلالًا لم تكن من الأمر المعروف ، وإنَّما أُحْدِثَت في دولة بني هاشم . وأمَّا الملائكة فلا أعرف فيه حديثًا نَصًّا ، وإنَّما يُؤخَذ ذلك مِن الذي قَبْله إن ثَبَتَ ، لأن الله تعالى سمَّاهم رُسُلًا ، وأمَّا المؤمنون فاختُلِف فِيه ، فقِيل : لا تَجوز إلا على النبيِّ ﷺ خاصَّة . وحُكِيَ عن مالك كما تقدَّمَ . وقالت طائفة : لا تجوز

مُطْلَقًا استقلالًا ، وتجوز تَبَعًا فيما ورد به النَّص أو أُلْحِق به ، لقَوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بَيْنَكُم كَدُعاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النُّور : ٦٣]. ولأنَّه لمَّا علَّمهم السلام ، قال : " السلام عَلَينا وعلى عباد الله الصالحين " . ولمَّا علَّمهم الصَّلاة قَصَرَ ذلك عَلَيه وعلى أهل بيته . وهذا القول اختاره القرطبي في المُفهَم وأبو المعالي مِن الحنابلة ... . وهو اختيار ابن تَيْمِيَّة مِن المُتأخرين ، وقالت طائفة : تجوز تَبَعًا مُطْلَقًا ، ولا تجوز استقلالًا ، وهذا قول أبي حنيفة وجماعة. وقالت طائفة : تُكرَه استقلالًا لا تَبَعًا ، وهي رواية عن أحمد . وقال النووي : هو خِلاف الأَوْلَى . وقالت طائفة : تجوز مُطْلَقًا ، وهو مُقْتَضَى صنيع البخاري ، فإنه صدَّر بالآية وهي قَوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِم ﴾ [التَّوبة : ١٠٣] ... . عن قَيس بن سعد بن عُبادة أنَّ النبيَّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْه ، وهو يقول :" اللهُمَّ اجْعَلْ صَلواتك ورحمتك على آل سَعْدِ بن عُبادة "،أخرجه أبو داود والنَّسائي ، وسنده جيِّد . وفي حديث جابر أن امرأته قالت للنبيِّ ﷺ : صَلِّ عَلَيَّ وعلى زَوْجي ، فَفَعَلَ. أخرجه أحمد مُطَوَّلًا ومُخْتَصَرًا ، وصحَّحه ابن حِبَّان ، وهذا القول جاء عن الحسن ومجاهد ، ونَصَّ عليه أحمد في رواية أبي داود ، وبه قال إسحاق وأبو ثَور وداود والطبري ، واحتجُّوا بقَوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلائِكَتُهُ ﴾ . وفي صحيح مسلم مِن حديث أبي هُرَيرة مَرفوعًا أن المَلائكة تقول لروح المؤمن :" صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وعلى جَسَدِك ".وأجاب المانعون عن ذلك كُلِّه بأن ذلك صَدَرَ مِن الله ورسوله ، ولهما أن يَخُصَّا مَن شاءا بما شاءا ، وليس ذلك لأحد غَيرهما . وقال البَيهقي : يُحمَل قول ابن عباس بالمَنْع إذا كان على وجه التعظيم ، لا ما إذا كان على وجه الدُّعاء بالرَّحمة والبَرَكة . وقال ابن القَيِّم : المُختار أن يُصَلِّيَ على الأنبياء والملائكة وأزواج النبيِّ ﷺ وآله وذُرِّيته ، وأهل الطاعة ، على سبيل الإجمال . وتُكرَه في غَير الأنبياء لشَخص مُفرَد بحيث يَصير شِعارًا ، ولا سِيَّما إذا تُرِك في حق مِثْله أو أفضل منه ، كما يَفعله الرافضة ، فلو اتَّفق وُقوع ذلك مُفْرَدًا في بعض الأحايين مِن غَير أن يُتَّخذ شِعَارًا ، لَم يكن به بأس ، ولهذا لَم يَرِدْ في حَق غَير مَن أمرَ النبيُّ ﷺ بقَول ذلك لهم ، وهُم مَن أدَّى زَكاته إلا نادرًا ، كما في قصة زوجة جابر وآل سَعْد ابن عُبادة . تنبيه: اخْتُلِف في السلام على غير الأنبياء بعد الاتِّفاق على مشروعيته في تحية الحَيِّ. فقِيل : يُشرَع مُطْلَقًا . وقِيل : بَل تَبَعًا ، ولا يُفرَد لواحد لكَوْنه صار شِعارًا للرافضة ، ونقله النووي عن الشيخ أبي محمد الجويني)) .

وجاء رَجل إلى أبي أُمَامة _ رضي اللهُ عنه _ قال : يا أبا أُمَامة ، إنِّي رَأيْتُ في مَنامي أن المَلائكة تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ ، وكُلَّمَا خَرَجْتَ، وكُلَّمَا قُمْتَ، وكُلَّمَا جَلَسْتَ . قال أبو أُمَامة :

((... ، وأنتم لَو شِئتُم صَلَّتْ عليكم الملائكةُ ، ثُمَّ قَرَأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذِكْرًا كثيرًا (٤١) وسبِّحوه بُكْرةً وأصيلًا (٤٢) هو الذي يُصلِّي عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمًا (٤٣) ﴾)) [١٢٥].

ذِكْرُ الله مِفتاح كُل خير، حيث يُذكَر العبدُ في الملأ الأعلى ، ويُصلِّي عليه اللهُ وملائكته . وهذه المنزلة الرفيعة لها تأثير إيجابي على حياة العبد في الدُّنيا والآخرة ، حيث يَحصل على سعادة الدُّنيا ونعيمِ الآخرة معًا .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن في الأرضِ ﴾[الشُّورى:٥].

والمَلائكةُ _ عليهم السَّلام _ يُنَزِّهون اللهَ عمَّا لا يَلِيق به ، ويَطلبون المغفرةَ للمؤمنين في الأرض ، مِن أجل زيادة حسناتهم ودرجاتهم . والمَلائكةُ مُطَّلِعُون على أقوال الإنسان وأفعاله ، ويَعرِفون الخَلَلَ والنقصَ فيها، ويُدرِكون الذُّنوبَ والمَعاصي التي اقترفها العبدُ. وهُم لا يُسجِّلون أعمالَ الإنسان بدافع كُرهه أو تَدمير مستقبله، أو إفساد مصيره . إنهم كِرام رُحَماء يقومون بتنفيذ الأمر الإلهيِّ دُون زيادة أو نُقصان ، لإقامة الحُجَّة على العبد ، وإلزامه بها ، وقَطْع أعذاره ، ولكي يُدرِك أنَّه لَم يتعرَّض للظُّلْم . فأعماله مِن كَسْب يَدَيه ، دُون إجبار من أحد ، ولكي يَستشعر وُجود مُراقِبين ومُلازِمين له ، لا يُفارقونه ، فيرتدع ، ويستحي من الله تعالى وملائكته الكِرام .

والآيةُ : ﴿ لِمَن في الأرضِ ﴾ عُموم ، يُراد بها الخُصوص ، لأن الملائكة يَستغفرون للمؤمنين فقط . أمَّا الكافرون فلا يَستحقون هذا الشَّرف والكرامة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٢) : ((﴿والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ . قال بعضُهم : يُصَلُّون بأمر ربِّهم . وقال بعضُهم : يُنَزِّهُونه عمَّا لا يَجوز في صِفته ، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن في الأرضِ ﴾ ، فيه قَولان : أحدهما أنَّه أراد المؤمنين ، قاله قَتادة والسُّدي . والثاني أنَّهم كانوا يَستغفرون للمؤمنين ، فلمَّا ابْتُلِيَ هاروت وماروت ، استغفَروا لِمَن في الأرض . ومعنى استغفارهم سُؤالهم الرِّزق لهم ، قاله ابن السائب . وقد زَعَمَ قَوْمٌ مِنهُم مُقاتل أن هذه الآية مَنسوخة بقَوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ [غَافِر : ٧] ، ولَيس بشَيء ، لأنَّهم إنَّما يَستغفرون للمؤمنين دُون الكُفَّار ، فلفظ هذه الآية عام ، ومَعناها خاص ، ويدل على التَّخصيص قَوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ ، لأن الكافر لا يَستحق أن يُسْتَغْفَر له)) .

---

١٢٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣) برقم (٣٥٦٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((إنَّ الناس بعد آدمَ وَقَعُوا في الشِّرْك . اتَّخَذُوا هذه الأصنامَ ، وعَبَدُوا غَيْرَ الله . فَجَعلت الملائكةُ يَدْعُون عليهم، ويقولون : رَبَّنا خَلَقْتَ عِبَادَك ، فأحسنتَ خَلْقَهم، ورزقتهم فأحسنتَ رِزْقَهم، فَعَصَوْكَ، وعَبَدُوا غَيْرَك. اللهُمَّ اللهُمَّ ، يَدْعُونَ عَلَيهم. فقالَ لهم الرَّبُّ _ عَزَّ وَجَلَّ _: إنَّهُم في غَيْب ، فجَعلوا لا يَعْذِرُونهم . فقال : اختاروا مِنكُم اثْنَيْنِ أُهْبِطُهما إلى الأرض ، فآمُرُهما وأنهاهُما . فاختاروا هاروت وماروت ... ، فلمَّا شَرِبَا الخَمْرَ وانتشيا وَقَعَا بالمَرأة ، وقَتَلا النَّفْسَ ، فَكَثُرَ اللغطُ فِيما بَيْنَهما وبَيْنَ المَلائكة ، فنَظَرُوا إليهما وما يَعْمَلان ، ففي ذلك أُنزلت : ﴿ والملائكةُ يُسبِّحون بحمد ربِّهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ الآية . فَجَعَلَ بَعْدَ ذلك المَلائكةُ يَعْذِرُون أهلَ الأرض ، ويَدْعُونَ لهم))[١٢٦]. إنَّ المَلائكة _ عليهم السَّلام _ مَخلوقات نُورانية ، لا يَعْصُون اللهَ تعالى ، وهُم غَير مُكلَّفين ، ولا يَمْلِكُون حُرِّيَةَ الاختيار بين الإيمان والكفر، أو الخير والشر، لأنهم خُلِقُوا للطاعة فقط دُون وُجود أيَّة فرصة للمَعصية . أمَّا الإنسانُ فكائن ترابي مُكلَّف، يَختار الإيمانَ أو الكُفْرَ، وتتنازعه الشَّهوات والرَّغبات . وبعد آدم ﷺ وَقَعَ الناسُ في الشِّرْك ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا ، فَدَعَتْ عَلَيهم الملائكةُ، ولم يَعْذِرُوهم ، فأرادَ اللهُ إظهارَ أن الناس يَختلفون عن المَلائكة، فجاءت قِصَّة هاروت وماروت.ومُنذ ذلك الحِين،صَارت المَلائكةُ يَستغفرون لِمَن في الأرض ، ويَدْعُون لهم ، لِعِلْمِهِم بأن الإنسان يُعاني ويُجاهد أعداءً في غاية الخطورة (الشَّيطان، النَّفْس، الشَّهوات) من أجل الطاعة ، أمَّا المَلائكةُ فهُم مُطِيعُون رَغْمًا عَنهُم.

---

١٢٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٠) برقم (٣٦٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٥) عن قصة هاروت وماروت : ((وأطنب الطبري في إيراد طُرقها بحيث يَقضي بمجموعها على أن للقصة أصْلًا ، خِلافًا لمن زعم بُطلانها كعِياض ومَن تَبِعَه . ومُحصِّلها أن الله ركَّب الشهوةَ في مَلَكَيْن مِن الملائكة اختبارًا لهما ، وأمرهما أن يَحكما في الأرض ، فنزلا على صورة البشر ، وحَكَمَا بالعدل مُدَّة، ثم افتتنا بامرأة جميلة، فعُوقبا بسبب ذلك بأن حُبِسَا في بئر ببابل مُنَكَّسَيْن ، وابْتُلِيَا بالنُّطْق بعِلْم السِّحْر ، فصار يَقصِدهما مَن يطلب ذلك ، فلا يَنطِقان بحضرة أحد حتى يُحذِّراه ويَنهياه ، فإذا أصرَّ تكلَّما بذلك ، ليتعلَّم منهما ذلك ، وهما قد عَرفا ذلك ، فيتعلَّم مِنهما ما قَصَّ اللهُ عَنهما ، والله أعلم)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٨٧) : ((فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد مِن الدَّلائل على عِصْمة الملائكة أن هَذَيْن سَبَقَ في عِلْم الله لهما هذا فيكون تخصيصًا لهما ، فلا تعارُض حينئذ ، كما سبق في عِلْمه مِن أمر إبليس ما سَبَق)) .

هـ _ شَفَاعتهم

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكَم مِن مَلَكٍ في السَّماواتِ لا تُغْني شَفَاعَتُهُم شَيْئًا إلا مِن بَعْدِ أن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النَّجْم : ٢٦] .

كثيرٌ مِن مَلائكة الله الأبرار الأطهار المُنتشرين في السَّماوات ، لا تَنفع شفاعتهم أحدًا إلا بإذن الله ، معَ شَرَف مكانتهم ، ورِفْعة منزلتهم ، وعِظَم قَدْرهم ، وكرامتهم عند الله ، وعبادتهم الدائمة له ، وطاعتهم المتواصلة له ، بلا كَسَل ، ولا مَلَل ، ولا تَعَب ، ولا ذُنوب ، ولا آثام . فكيفَ تَشفع الأصنامُ التافهة العاجزة (الجَمَادات الفاقدة للعَقْل) لعابديها المُشركين الضَّالِّين ؟ .

﴿ وكَم ﴾ خَبرية تُفيد التَّكثير .

وهذا توبيخٌ شديدٌ مِن الله تعالى لِمَن عَبَدَ الملائكةَ والأصنامَ ، وزَعَمَ أنَّ ذلك يُقَرِّبه إلى الله . والآيةُ تردُّ على المُشركين الذين زَعَمُوا أن الأصنامَ والأوثام شُفعاؤهم عِند الله ، وتُقَرِّبهم إلَيه .

وقد بيَّن اللهُ أن الملائكة معَ شرفهم الرفيع، وكرامتهم على الله، ومكانتهم العظيمة عنده ، لا يَشفعون إلا لِمَن أَذِنَ اللهُ أن يُشفَع له. وهذا يدل على أن الأمر كُلَّه بيد الله وَحْدَه، والمَخلوقات لا تَملِك مِن أمرها شيئًا ، مَهما كانت عظيمةً وكريمة وشريفة وطاهرة ، ومُقرَّبة مِن الله تعالى .

﴿ إلا مِن بَعْدِ أن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ . إلا مِن بَعد أن يَأذن اللهُ في الشَّفاعة لِمَن يَشاء أن يَشفعوا له مِن أهل التوحيد والإيمان ، ويَرضى ، أي : يَراه أهْلًا للشَّفاعة ، ومُسْتَحِقًّا لها . والملائكةُ لا يَشفعون إلا لِمَن رَضِيَ اللهُ عنهم ، وهُم المؤمنون المُوحِّدون لا الكافرون المُشركون . كقَوله تعالى : ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . وليس للمُشركين نصيب في هذه الشَّفاعة ، لأن الشفاعة للمؤمنين فقط .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٣) : ((فإذا كان هذا في حَق المَلائكة المُقرَّبين ، فكيف تَرْجُون أيُّها الجاهلون شفاعةَ هذه الأصنام والأنداد عِند الله ، وهو تعالى لَم يَشْرَعْ عِبادتها، ولا أَذِنَ فيها ، بَل قد نهى عنها على ألسنة جميع رُسُله ، وأنزلَ بالنَّهْي عن ذلك جَميعَ كُتبه ؟)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٢٤):((كثير من ملائكة الله لا تَنفَع شفاعتهم شيئًا عند الله لِمَن شَفَعُوا له شيئًا ، إلا أن يَشْفَعُوا له مِن بَعْد أن يَأذن اللهُ لهم بالشَّفاعة لِمَن يَشاء مِنهُم أن يَشْفَعُوا له ، ويَرْضَى . يقول : ومِن بَعْد أن يَرضى لملائكته الذين يَشْفَعُون له أن يَشْفَعُوا له، فتنفعه حِينئذ شفاعتهم . وإنَّما هذا توبيخ مِن الله تعالى ذِكْرُه لعَبَدَة الأوثان والمَلأ مِن قُرَيش وغيرهم ،

الذين كانوا يَقولون : ﴿ ما نَعْبُدُهُم إلا لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزُّمَر: ٣].فقال اللهُ جَلَّ ذِكْرُه لهم : ما تَنفع شفاعةُ مَلائكتي الذين هُم عِندي لِمَن شَفَعُوا له ، إلا مِن بَعْد إذني لهم بالشَّفاعة له ورِضَايَ ، فكيف بشَفاعة مَن دُونَهم ، فأعلمهم أن شفاعة ما يَعْبُدُون مِن دُونه غَير نافعتهم)) .

و ـ حَمْلهم العَرْش

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ويؤمنونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ [غَافِر : ٧] .

المَلائكةُ الأطهارُ الأبرارُ (حَمَلَة العَرْش) الذين يَحْمِلُون العَرْشَ ، ومَن حَوْل العَرْش ، مِن سادة الملائكة وأشرافهم ، الذين يَطُوفون به مُهلِّلين مُكبِّرين ، الذين لا يَعرِف عَدَدَهم إلا الله ، هُم في طاعة مُستمرة ، يُصَلُّون لله بحَمْده وشُكره ، ويُنَزِّهُونه عمَّا لا يَلِيق به ، ويُثْنُون عليه بصفات الكمال، ويُصدِّقون بوُجوده، ويُقِرُّون بوَحدانيته، ويَعترِفون بأُلوهيته ورُبوبيته ، وبأنَّه لا إلهَ لهم سِواه، ويَخضعون لأمره وحُكمه ، ولا يَتكبَّرون على عبادته وطاعته، فهُم عِباد مُقرَّبون لله ، ومُلتزمون بالعبادة الدائمة ، والطاعةِ المُطْلَقة، ولا يَعْصُون اللهَ ما أمَرَهم . وهُم مع عبادتهم الدائمة وطاعتهم المُستمرة ، واستغراقهم في تَسبيح الله وتَعظيمه وتَمجيده وتَقديسه وتَنزيهه عن صفات النَّقْص ، يَطْلُبون مِنَ اللهِ أن يَغفِر للمؤمنين ، ويَتجاوز عن ذُنوبهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٢): ((يُخبِر تعالى عَن المَلائكة المُقرَّبين مِن حَمَلَة العَرْش الأربعة ، ومَن حَوْله مِن المَلائكة الكَرُوبيين [١٢٧]، بأنَّهم يُسبِّحون بحَمْد ربِّهم ، أي: يَقرِنون بين التَّسبيح الدَّال على نَفْي النقائص ، والتَّحميد المُقتضي لإثبات صِفات المَدْح ، ﴿ ويؤمنونَ بِهِ ﴾ ، أي : خاشعون له، أذِلَّاء بين يَدَيه ، وأنَّهم ﴿ ويَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ ، أي : مِن أهل الأرض مِمَّن آمَنُوا بالغَيْب، فقيَّض اللهُ تعالى مَلائكته المُقرَّبين أن يَدْعُوا للمُؤمنين بظَهْر الغَيْب)) .

والجديرُ بالذِّكر أن حَمَلَة العَرْش وجَميع الملائكة يؤمنون بالله تعالى ، وفائدة ﴿ ويؤمنونَ بِهِ ﴾ هي إظهار شرف الإيمان ، وفَضيلته ، وعَظَمَته ، والترغيب فيه ، والدَّعوة إليه . وقد أخبرَ اللهُ عن المَلائكة بالإيمان لإظهار فَضْله ، وبيان أهميته ، وتَشريف أهله ، وتعظيمهم . وأيضًا ، قالَ تعالى :

---

١٢٧ الكَرُوبِيُّون: سَادَة الملائكة الْمُقرَّبون. قال ابن منظور في لسان العرب(١/ ٧١١):((وروى أَبو الرَّبيع عن أَبي العالية أَنه قال: الكَرُوبيُّون سَادَةُ الملائكةِ، مِنهُم: جِبريلُ ومِيكائيلُ وإِسرافيل، هُم الْمُقَرَّبُون)).

﴿ ويَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ ، وهذا يدل على منزلة المؤمنين الرفيعة ، ومكانتهم العظيمة ، وعُلُوِّ شأنهم ، وكرامتهم عِند الله تعالى ، حيث إن المَلائكة يَستغفرون لهم ، وهذا امتثال لأمر الله تعالى.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٤) : ((﴿ الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ الكَرُوبِيُّون أعلى طبقات الملائكة وأوَّلهم وُجودًا، وحَمْلهم إيَّاه وحَفِيفهم حَوْله مَجَاز عن حِفْظهم وتَدبيرهم له، أو كِناية عن قُربهم مِن ذِي العَرْش ، ومَكانتهم عِنده ، وتوسُّطهم في نَفَاذ أمْره ، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ ، يَذكُرون اللهَ بمجامع الثَّناء مِن صِفات الجلال والإكرام ، وجُعِلَ التَّسبيح أصْلًا ، والحَمْد حالًا ، لأن الحَمْد مُقْتَضَى حالهم دُون التسبيح أصْلًا ، ﴿ ويؤمنونَ بِهِ ﴾ ، أخبرَ عَنهُم بالإيمان ، إظهارًا لفَضْله، وتَعظيمًا لأهله.ومَسَاق الآية لذلك كما صرَّح به بقَوله: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ وإشعارًا بأن حَمَلَة العَرْش وسُكَّان الفَرْش (الأرض) في مَعرفته سَوَاء ، ردًّا على المُجسِّمة . واستغفارهم شفاعتهم ، وحَمْلهم على التَّوْبة ، وإلهامهم ما يُوجب المَغفرة. وفيه تنبيه على أن المُشاركة في الإيمان تُوجب النُّصْح والشَّفقة ، وإن تخالفت الأجناس ، لأنها أقوى المُناسبات، كما قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[الحُجُرات : ١٠])) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٦٧) : ((﴿ الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ويؤمنونَ بِهِ ﴾ الآية . أخبرَ اللهُ سُبحانَه بخبر يتضمَّن تشريف المؤمنين ، ويُعظِّم الرَّجاءَ لهم ، وهو أن الملائكة الحاملين للعَرْش ، والذين حَوْل العَرْش ، وهؤلاء أفضل المَلائكة يَستغفرون للمؤمنين ، ويسألون اللهَ لهم الرحمة والجَنَّة ، وهذا مَعنى قَوله تعالى في غَير هذه الآية : ﴿ كانَ على رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤولًا ﴾ [الفُرقان : ١٦]. أي : سألته الملائكةُ . قال ع (المقصود ابن عَطِيَّة في المُحرَّر الوجيز) : وفسَّر في هذه الآية المُجمَل الذي في قَوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن في الأرضِ ﴾[الشُّورى:٥] ، لأن الملائكة لا تَستغفر لكافر . وقد يجوز أن يُقَال إن استغفارهم لهم بمعنى طلب هدايتهم . وبلغني أنَّ رَجُلًا قال لبعض الصالحين : ادْعُ لي ، واستغفِرْ لي . فقال له : تُبْ واتَّبِعْ سبيلَ الله يَستغفِرْ لَكَ مَن هو خَير مِنِّي ، وتلا هذه الآية . وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير : وَجَدْنا أنصحَ العباد للعباد الملائكة ، وأغشَّ العباد للعباد الشياطين ، وتلا هذه الآية . وروى جابر أن النبيَّ ﷺ قال : " أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن مَلَك مِن حَمَلَة العَرْش ، ما بَيْنَ شَحْمة أُذُنه وعاتقه مَسيرةُ سبعمائة سنة " . قال الداوودي : وعن هارون بن رِيَاب قال : حَمَلَةُ العَرْش ثمانية ، يتجاوبون بصَوت حَسَن ، فأربعة يَقولون : سُبحانَك وبحَمْدك على حِلْمك بعد عِلْمك ، وأربعة يقولون : سُبحانَك وبحَمْدك على عَفْوِك بعد قُدرتك)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠٨) :((أخبرَ بفَضْل المؤمنين، فقال: ﴿ الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ﴾ . وهُم أربعة أملاك ، فإذا كان يوم القيامة جُعِلوا ثمانية ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ . قال وَهْب بن مُنبِّه : حَوْل العَرْش سبعون ألف صَف مِن المَلائكة يَطوفون به ، ومِن وراء هؤلاء مائة ألف صَف من الملائكة ، ليس فيهم أحد إلا وهو يُسبِّح بما لا يُسبِّحه الآخَرُ . وقال غَيْرُه : الذين حَوْل العَرْش هُم الكَرُوبِيُّون ، وهُم سادة الملائكة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٥٨) عن العَرْش : ((جِسْم مُجَسَّم خَلَقَه اللهُ _عَزَّ وَجَلَّ _ وأمرَ ملائكةً بحَمْله ، وتعبَّدهم بتعظيمه والطَّواف به ، كما خَلَقَ في الأرض بَيْتًا ، وأمرَ بني آدم بالطَّواف به ، واستقباله في الصلاة)) .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي اللهُ عنهما_ عن النبيِّ ﷺ قال: ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عَن مَلَكٍ مِن مَلائكةِ اللهِ مِن حَمَلَةِ العَرْش، إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبعمائةِ عام)) [١٢٨].

هذا يدلُّ على عَظَمَة ملائكة الله عُمومًا ، وعَظَمَة حَمَلَة العَرْش خُصوصًا ، والذين هُم العِباد الكِرام المُقرَّبون . وهذه المَسيرة العظيمة بين شَحْمة أُذُنه إلى عاتقه ليست مِن الخِيال العِلْمي ، فاللهُ تعالى الذي يُمسِك السَّمَاءَ أن تقع على الأرض، لَن يَعجَز أن يَصنع مخلوقًا بهذا الحجم .

لقد سَمَحَ اللهُ للنبيِّ ﷺ أن يُخبِر أُمَّتَه بأمرٍ غَيْبيٍّ ، وهو وَصْف مَلَك عظيم مِن ملائكة الله، الذين يَحمِلون عَرْشَه ، الذي هو أعظم المخلوقات ، حيث إن المسافة بين شَحْمة أُذُنه (المَوضع اللَيِّن في أسفل أُذُنه) إلى أسفل عُنُقه مسيرة سبعمائة عام . والعَاتِقُ ما بَيْن المَنكِب والعُنُق . فكيفَ سيكون حَجَمُ المَلَك بشكل كامل ، أو كيف سيكون بَقِيَّة جِسْمه ؟ .

والحديثُ يدلُّ على أن الله وَحْدَه يَعْلَم الغَيْبَ ، وهو سُبحانَه يُطلِع مَن شاءَ مِن رُسُله على ما شاء . ولا يَجوز لأيِّ رَسُول أن يَتحدَّث بالأمور الغَيْبِيَّة ، إلا بإذن الله تعالى . والحديثُ يُثبِت وُجودَ العَرْش والملائكة الذين يَحمِلونه ، وهُم مَخلوقات عظيمة قوية ذات أحجام هائلة . لا يَعْلَم عَدَدَها إلا اللهُ تعالى . وعِظَمُ المخلوقات دليل على عَظَمَةِ اللهِ خَالِقِها ، وأنَّه ذُو قُدْرة مُطْلَقة ، وهو على كل شيء قدير . والكلامُ عن هذه المخلوقات العظيمة لبيان عَظَمَة الله الذي خَلَقَها وأوجدها مِن العَدَم، ومَن عَرَفَ عَظَمَةَ الله الخالق، وَجَبَ عليه أن يُعظِّمه، ويَعبده، وَحْدَه لا شريك له. وإذا كانت المخلوقات بهذه العَظَمَة ، فكيفَ بعَظَمَة الله الذي هُوَ أكبر مِن كُل كبير وأعظم مِن كُل عظيم ؟.

---

١٢٨ رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٦٤٥) برقم (٤٧٢٧).وصحَّحه الحافظ في الفتح (٨/ ٦٦٥).

وقال المُناوي في فَيض القدير(١/ ٤٥٨):(((أُذِنَ لي) بالبِناء للمَفعول، والآذِن له هو الله . ولَوْلا الإذْن لم يَجُزْ له التَّحديث ، فهو تَنبيه على أنَّ مَن أطلعه اللهُ على شيء من الأسرار ، ثُمَّ أفشاه بغَير إذْن عُذِّبَ بالنار . وهذا مُحتمل لأن يكون رآه ، وأن يكون أوْحَى إليه به (أن أُحدِّث أصحابي) أو أُمَّتي (عن مَلَك) بفتح اللام : أي عَن شأنه أو عِظَم خَلْقه (مِن مَلائكة الله تعالى) قِيل: هو إسرافيل ، أُضِيف إليه لمزيد التَّفخيم والتَّعظيم (مِن حَمَلَة العَرْش) أي : مِن الذين يَحمِلون عَرْشَ الرحمن ، الذي هو أعظم المخلوقات المُحيط بجميع العوامل . والعَرْش السَّرير . (ما بين شَحْمة أُذُنه إلى عَاتِقه مَسِيرةُ سَبْع مئة سنة) وفي رواية سبعين عامًا . أي بالفَرَس الجَوَاد كما في خَبَر آخر ، فما ظَنُّك بطُوله وعِظَم جُثَّته ؟ . قال الطيبي : والمُراد بسبع مئة عام هُنا التَّكثير لا التحديد ، لأنه ألْيَق بالكلام ، وأدْعَى للمَقَام . وقال : " أُذِنَ لي " ليُفيد أن عِلْم الغَيْب مُخْتَص به تعالى، لكنَّه يُطلِع مِنه مَن شاء على ما شاء . وليس على مَن أطلعه أن يُحدِّث إلا بإذْنه . وشَحْمة الأُذُن ما لانَ مِن أسفلها، وهو مِعْلَق القِرْط ، والعَاتِق ما بَيْن المَنكِب والعُنُق ، وهو مَوْضِع الرِّداء ، يُذكَّر ويُؤنَّث . فإن قُلْتَ : الملائكة أجسام نُورانية ، والأنوار لا تُوصَف بالأُذُن والعُنُق . قُلْتُ : لا مانع مِن تشكُّل النُّور على هَيئة الإنسان، وأن ضَرْب الأُذُن والعَاتِق مَثَلًا مُقَرِّبًا للأفهام . تنبيه . قال الإمام الرازي : اتَّفق المُسلمون على أن فَوق السماء جِسْم عظيم هو العَرْش)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[الحَاقَّة : ١٧] .

ويَحمِل عَرْشَ اللهِ يَوْمَ القِيامة ثمانيةٌ مِن المَلائكة العِظَام فوق رُؤوسهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٢): ((أي : يَوم القِيامة ، يَحمِل العَرْشَ ثمانيةٌ مِن المَلائكة . ويُحتمَل أن يكون المُراد بهذا العَرْش العظيم ، أو العَرْش الذي يُوضَع في الأرض يوم القيامة لفَصْل القَضاء ، والله أعلم بالصَّواب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٠): ((قَوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها فَوق رُؤوسهم، أي العَرْش على رُؤوس الحَمَلَة،قاله مُقاتل.والثاني فَوْق الذين على أرجائها، أي أن حَمَلَة العَرْش فَوق المَلائكة الذين هُم على أرجائها. والثالث أنَّهم فَوق أهل القِيامة، حكاهما الماوردي. ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يَوم القِيامة ﴿ ثَمَانِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها ثمانية أملاك. وجاء في الحديث أنَّهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أمَدَّهم اللهُ بأربعة أملاك آخرين، هذا قول الجمهور . والثاني ثمانية صُفوف مِن المَلائكة لا يَعلَم عِدَّتَهم إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قاله ابن عباس وابن جُبَير وعِكْرمة . والثالث ثمانية أجزاء مِن الكَرُوبِيِّين لا يَعْلَم عَدَدَهم إلا اللهُ ، قاله مُقاتل)) .

وعن سِمَاك بن حَرْب عن عبد الله بن عُمَيرة عن الأحنف بن قَيْس عن العباس بن عبد المُطَّلب رضي اللهُ عنه : في قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ، قال: ((ثمانية أملاك على صُورة الأوعال ، بين أظلافهم إلى رُكَبهم مسيرة ثلاث وسِتِّين سنة)) [129].

---

١٢٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣) برقم (٣٨٤٨). وقال:هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقد أسند هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ شُعَيب بن خالد الرازي ، والوليد بن أبي ثَور وعمرو ابن ثابت بن أبي المقدَّم عن سِماك بن حَرْب ، وَلَمْ يحتج الشيخان بواحد مِنهم ، وقد ذكرتُ حديث شُعَيب بن خالد، إذْ هو أقربهم إلى الاحتجاج به. تعليق الذهبي قي التلخيص: على شرط مسلم . انتهى. عن العباس بن عبد المطلب ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((تَدرون كم بين السماء والأرض ؟)) ، فقُلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : ((بَينهما مسيرة خمس مائة سنة ، وبين كل سماء إلى السماء التي تليها مسيرة خمس مائة سنة ، وكُثُف كل سماء مسيرة خمس مائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين رُكَبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء)) [رواه الحاكم (٢/ ٤١٠) في المستدرَك برقم (٣٤٢٨) وصحَّحه ! ووافقه الذهبي ! . اهـ . قلتُ : وتَعَجَّبْتُ من تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له . ففي سنده يحيى بن العلاء ، فقد اعترف الحاكم نفْسه بأن يحيى واهٍ (المستدرك ٢/ ٣١٦) ، واعترف الذهبي كذلك بأن يحيى واهٍ ، ومع هذا فقد صحَّحاه !]. قلتُ : هذا الحديث الواهي سَنَدًا ومَتْنًا فيه كوارث كثيرة ، وهو مَكذوب قَطْعًا. وعلى فرض أن سند هذا الحديث صحيح فإنَّه مرفوض لأن مَتْنَه شاذ.وهناك أحاديث صحيحة سَنَدًا، شاذة مَتْنًا ، وهذا النوع من الأحاديث لا يستطيع أن يَكتشفه إلا فقهاء الْمُحَدِّثين ، وهُم العلماء الذين جَمَعوا بين عِلْمِ الفِقْه وعِلْمِ الحديث معًا. وللحديث الصحيح خمسة شروط : ١) اتصال السند ٢) عدالة الراوي ٣) ضَبْطه ٤) عدم الشذوذ ٥) عدم العِلَّة القادحة . مع الانتباه إلى أن الشرطَيْن الأخيرَيْن لا يُدركهما إلا العُلماء الذين جمعوا بين الفقه والحديث مُستندين إلى عقيدة راسخة مِن القُرآن والسُّنة المتواترة ، أمَّا غَيْرُهم فلن يتمكَّنوا من اكتشاف الشذوذ والعِلَّة القادحة. ذَكَرَ الخطيب البغدادي في الكفاية في عِلْم الرواية (١/ ١٤١) أن الإمام الشافعي قال : ((ليس الشاذُّ من الحديث أن يَرويَ الثقةُ حديثًا لَم يَرْوِه غَيْرُه ، إنما الشاذ من الحديث أن يَرويَ الثقات حديثًا فيشذ عنهم واحد فيخالفهم)) اهـ . فما بالك إذا خَالَفَ الحديثُ القُرآنَ أو حديثًا مُتواترًا ؟! . ففي هذه الحالة لا بُد أن يُضْرَب به عُرْض الحائط ، لأن القُرآن والسُّنة المتواترة لهما صِفة قَطْعي الوُرود =

=وقال الحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ١١٩) : ((فإن المعلول ما يُوقَف على عِلَّته أنه دخل حديث في حديث ، أو وَهِمَ فيه رَاوٍ ، أو أرسله واحد، فوصله واهم)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٧) مُوَضِّحًا قَبول الحديث الصحيح سندًا إلا إذا اتَّضحت العِلَّة القادحة : ((إلى أن تتبيَّن العِلَّة القادحة بأن تكون مُفَسَّرة ، ولا تَقبل التأويل)) اهـ . وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٤٣) : ((اعلم أن للأحاديث دقائق وآفات لا يعرفهما إلا العلماء الفقهاء ، تارة في نَظْمها ، وتارة في كَشف معناها)) اهـ . ولنرجع إلى خُرافة الأوعال لتفنيد هذا الحديث المكذوب ، فنقول : [أ] يحيى ابن العلاء ، وهو أحد الرُّواة في السند الذي عند الحاكم وأحمد وأبي يعلى . قال الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٦) : ((يحيى واهٍ)) اهـ . قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ١٧٩): ((قال يحيى بن مَعين: ليس بشيء. قال عمرو بن علي: متروك الحديث جدًّا)) اهـ.قال البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٢٩٧): ((كان وكيع يتكلَّم فيه)) اهـ . وقال ابن عَدِي في الكامل (٧/ ١٩٨): ((قال النَّسائي : متروك الحديث)) اهـ . قال المِزِّي في تهذيب الكمال (٣١/ ٤٨٧): ((وقال أبو حاتم : سمعتُ أبا سَلَمة ضعَّف يحيى بن العلاء)) اهـ. وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٥٩٥): ((رُمِيَ بالوَضْع)) اهـ . وقال الذهبي في الكاشف (٢/ ٣٧٢): ((تركوه)) اهـ . [ب] السند الذي عند أبي داود والترمذي وابن ماجة، فيه"عبد الله بن عُمَيرة عن الأحنف بن قيس " . قال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٥٩) عن عبد الله بن عُمَيرة:((ولا نعلم له سماعًا من الأحنف))اهـ. وقال ابن عَدِي في الكامل (٤/ ٢٣٢) : ((لا يُعلَم له سماع من الأحنف)) اهـ. ومَتنُ الحديث شاذ،وفيه كوارث لا يَعلَمها إلا الله تعالى والراسخون في العِلم،وإليكَ الأدلة: [أ] القُرآنُ يُفيد أن حَمَلَة العَرْش يوم القيامة ثمانية لا اليَوم . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقَّة : ١٧] . [ب] القرآنُ نعى على الكفار تسمية الملائكة إناثًا . فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الملائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء : ٤٠]، والحديث يُفيد أنهم أوعال ، والإناث أشرف مِن الأوعال .[ج] الوَعِل هو التَّيْس الجبلي.قال المرداوي في الإنصاف(٣/ ٥٣٦) : ((وهو التَّيس الجبلي، قاله الجوهري وغيره)) اهـ. والوصف به يدل على الذم ، فقد سمَّى النبيُّ ﷺ الْمُحَلِّلَ تَيْسًا مُستعارًا ، فقد قال عُقبة بن عامر الجُهَنِيُّ ــرضي اللهُ عنهــ: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أُخبِرُكم بالتَّيس المستعار))، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((هُوَ الْمُحَلِّلُ ، فَلَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ له))[رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢١٧)برقم (٢٨٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وابن ماجة في سُننه (١/ ٦٢٣) برقم (١٩٣٦) . وقال الذهبي في الكبائر (ص ١٥٧):((رواه ابن ماجة بإسناد صحيح)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٤ / ٤٩٠) : =

هذا الحديثُ باطل ومَرفوض ، لأنَّه يَحمل إهانةً للملائكة الكِرام _ عليهم السلام _ ، حيث يتم تصويرهم كأوعال . والأوعالُ جَمْع وَعِل ، وهو التَّيس الجبلي . والأظلافُ جَمْع ظِلْف . والظِّلْفُ للبقر والغنم ، كالحافر للفَرَس والبَغْل ، والخُف للبَعِير . وَلَوْ قُلْتُ لشخص : أنتَ تَيْس ، سيغضب ، ويَعتبرها شتيمةً وإهانةً . والملائكةُ الكِرامُ أصحابُ المنزلة الرفيعة ، والمكانة العظيمة ، يجب احترامهم وتقديرهم ، ولَيس تصويرهم بأنَّهم تُيُوس . فهذا الأمرُ كُفْريٌّ مُخرِج مِن الإسلام.

والجديرُ بالذِّكر أن بَعْض الجُهَّال والعَوَام يَعتقد أن الله جالس على العَرْش ، والملائكة يَحمِلون العَرْشَ الذي فَوْقَه الله تعالى . وهذه العقيدةُ الكُفرية الباطلة نتجت مِن عقائد التَّشبيه والتَّجسيم . والواجب اعتقاده أن الله اسْتَوَى على عَرْشه كما ذَكَرَ لا كما يَخطُر للبشر . وعلى العبد أن يؤمن بلا تشبيه، ويُصدِّق بلا تمثيل ، ويُمسِك عن الخوض فيما لا عِلْمَ له به . قال الغَزَّالي في قواعد العقائد في التَّوحيد (ص ٩) : ((وأنَّه مُسْتَوٍ على العَرْش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواءً مُنَزَّهًا عن المُمَاسَّة والاستقرار والتمكُّن والحُلول والانتقال . لا يَحْمِلُه العَرْش ، بل العَرْش وحَمَلَتُه مَحمُولون بلُطف قُدرته ، ومَقهورون في قَبضته. وهو فوق العَرْش والسماء، وفَوق كُل شيء... فَوْقِيَّةً لا تزيده قُرْبًا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بُعْدًا عن الأرض والثرى)) .

إن الله مُنَزَّه عن الحُلول في الأشياء ، فلا مَكان يَحتويه ، ولا زمان يَحُدُّه ، لأنه _ سُبحانَه _ خالق المكان والزمان . والخالقُ لا يَحُلُّ في شيء من مخلوقاته . وكان اللهُ مَوجودًا قَبل العَرْشِ والمكانِ والزمانِ وكُلِّ المخلوقات. كانَ اللهُ ، ولا شَيء معه. وهو الآن كما كان ، يُغيِّر ، ولا يتغيَّر، وهو الآن حَيث كان ، بلا مكان ولا زمان .

=((عن أبي هريرة قال: لَعَنَ رسولُ اللهِ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ له ". رواه أحمد والبَزَّار ، وفيه عُثمان بن محمد الأخنسي ، وثَّقه ابن مَعين وابن حِبَّان . وقال ابن المديني : له عن أبي هريرة أحاديث مناكير)) اهـ] . ووَصَفَ النبيُّ ﷺ الذين يتخلَّفون في نساء المجاهدين بالفاحشة بأنهم يَنِبُّون نَبيبَ التَّيس . فقد روى مسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٩) أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((كُلما نَفَرْنا غازين في سبيل اللهِ ، تَخَلَّفَ أحدُكم يَنِبُّ نَبيبَ التَّيس)). وبالتالي فإن الوَصْف بالوَعِل (التَّيس الجبلي) يدل على الذم والتحقير،وهذا مُحال في حق الملائكة الكِرام عليهم السلام،الذين هُم عِباد مُكرَمون أصحاب مكانة رفيعة . [د] القرآنُ يَصِفُ الملائكةَ بأنهم ذَوُو أجنحة ، فقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : ١] . أمَّا الحديث فجعلهم أوعالًا _ والعِياذُ بالله تعالى _ .

المَلائكةُ_عليهم السلام_ يُغيثون المؤمنين، ويُساعدونهم في السَّراء والضَّراء بأمر الله تعالى. ولا يَتركونهم في الشدائد يُواجهون الأعداءَ وحيدين.واللهُ يَنصُر عباده بإمدادهم بالملائكة . وهذا يبعث الطُّمأنينة في نُفُوس المؤمنين ، ويَجعلهم مُقتنعين بأنهم لَيْسُوا وحيدين في أرض المعركة .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذْ تَقُولُ للمؤمنينَ ألَن يَكْفِيَكُم أن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُنزَلِين ﴾ [آل عِمران : ١٢٤] .

هذه الآية تُشير إلى العَوْن الإلهيّ ، فقد أمدَّ اللهُ المؤمنين بثلاثة آلاف مِن المَلائكة مُنْـزَلِين لنُصرة المؤمنين،ومُساعدتهم في حَرْبهم ضِد المُشركين.واخْتُلِف هل كان ذلك يَوم بَدْر أم يَوم أُحُد.

ونُزول الملائكة سبب من أسباب النَّصْر ، والمَخلوق يَحتاج إلَيه ، واللهُ غنيٌّ عنه ، وهو سُبحانَه الناصرُ والمُعِين، فيجب على المؤمن أن يَعتمد على خالق الأسباب ، وليس على الأسباب. واللهُ يَنصر بسبب ، وبدُون سبب . وقد أقامَ اللهُ الدُّنيا على منظومة الأسباب والمُسبِّبات . واللهُ وَحْدَه هو الفاعل على الحقيقة ، لأنَّه يُسيطر على كُل شيء ، وكُل شيء خاضع لإرادته وحُكمه .

قال الطبري في تفسيره(٣/ ٤٢١): ((يعني تعالى ذِكْرُه : ولقد نَصَرَكُم اللهُ ببَدْر وأنتم أذِلَّة ، إذْ تقول للمؤمنين بِك مِن أصحابك : ألن يَكْفِيَكُم أن يُمِدَّكم رَبُّكم بثلاثة آلاف مِن الملائكة مُنْزَلِين ؟ . وذلك يوم بَدْر . ثُم اختلفَ أهلُ التأويل في حُضور الملائكة يَوْم بَدْر حَرْبَهم ، في أيِّ يوم وُعِدوا ذلك ؟. فقال بعضهم : إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ كان وَعَدَ المؤمنين يوم بَدْر أن يُمِدَّهم بملائكته إن أتاهم العدو مِن فَوْرهم ، فلم يَأتوهم ، ولم يُمَدُّوا)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٨) : ((﴿ أَلَن يَكْفِيَكُم أن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُنزَلِين ﴾ ، إنكارًا أن لا يَكْفِيَهم ذلك ، وإنَّما جِيء بلن إشعارًا بأنهم كانوا كالآيسين مِن النَّصْر لضَعْفهم، وقِلَّتهم ، وقُوة العدو وكثرتهم . قِيل : أَمَدَّهم اللهُ يوم بَدْر أوَّلًا بألف مِن الملائكة، ثُم صاروا ثلاثة آلاف ، ثُم صاروا خمسة آلاف)) .

وعن الشَّعبي أنَّ المُسلمين بَلَغَهم يوم بَدْر أن كُرْز بن جابر المُحاربي يُمِدُّ المُشركين ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَن يَكْفِيَكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف ﴾ الآية [١٣٠].

١٣٠ ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٥) وقال : رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح .

إنَّ الله لا يتخلَّى عن عباده المؤمنين ، ولا يَتركهم في مُواجهة مصيرهم وحيدين، وإنَّما يَرعاهم، ويَعتني بهم ، ويَكون معهم بالنَّصْر والعَوْن والتأييد والتَّمكين ، ويُمِدُّهم بالمَلائكة لنُصرتهم ومُساعدتهم . ومَهْما جَمَعَ الأعداءُ مِن عُدَد وعَتَاد ، فعلى المؤمن أن يظل دائمَ الصِّلة بالله ، مُتَعَلِّقًا به، وواثقًا بنَصْره، ومُؤمنًا بأنَّه سُبحانَه لا يتخلَّى عن عِباده الصَّادقين. واللهُ وَحْدَه هو الناصر.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذْ تَقُولُ للمؤمنينَ ألَن يَكْفِيَكُم أن يُمِدَّكُم رَبُّكُم ﴾ . قال الشَّعبي : قال كُرْز بن جابر لمُشركي مَكَّة : إنِّي أُمِدُّكم بقَوْمي، فاشتدَّ ذلك على المسلمين ، فنزلت هذه الآية . وفي أيِّ يوم كان ذلك ، فِيه قَولان : أحدهما يَوم بَدْر ، قاله ابن عباس وعِكرمة ومُجاهد وقَتادة . والثاني يَوم أُحُد . وَعَدَهم فيه بالمَدَد إنْ صَبروا ، فلمَّا لم يَصبِروا ، لَم يُمَدُّوا . رُوِيَ عَن عِكرمة والضَّحاك ومُقاتل . والأوَّل أصح . والكافية مِقدار سَد الخَلَّة (الحاجة)، والاكتفاء الاقتصار على ذلك، والإمداد إعطاء الشَّيء بعد الشَّيء)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم فاستجابَ لَكُم أنِّي مُمِدُّكُم بألْفٍ مِنَ الملائكةِ مُرْدِفِين﴾ [الأنفال : ٩] .

المؤمنون الذين كانوا _ يَوْم بَدْر _ يَستغيثون اللهَ تعالى ، ويَستجيرون به ، ويَدْعُونه طالبين العَوْنَ والغَوْثَ والتأييدَ والنَّصْرَ على المُشركين ، قد استجاب اللهُ لهم ، فأيَّدهم بألف مِن المَلائكة مُتتابعين ، يَرِدُف بَعْضُهم بَعْضًا (يَتْبَع بعضُهم بعضًا). والإمدادُ إعطاء الشَّيء بعد الشَّيء .

وكُل ذلك لطَمْأنة المؤمنين، وتثبيتهم على الحق، وتقوية قلوبهم في مُواجهة الأعداء، وبَث رُوح القِتال فيهم، وتعزيز إرادتهم وثقتهم بأنفسهم .

أدركَ المسلمون وعَلِمُوا أنَّه لا بُد مِن قِتال الطائفة ذات الشَّوكة (المُشركين المُسلَّحين) ، ولا مَفَر مِن ذلك ، لأنَّ الله أمَرَهم بذلك ، وأراده مِنهم ، ولكنَّهم تضايقوا مِن قِلَّة عددهم ، وكثرةِ عدد الأعداء ، لذلك استغاثوا بالله تعالى ، وطلبوا مِنه العَوْنَ والغَوْثَ والنَّصْرَ على المُشركين .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّه أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة ، وذَكَرَ في سُورة آل عِمران أنَّه أمَدَّهم بثلاثة آلاف ، ولا يُوجد تعارُض ، لأنَّه تعالى ذَكَرَ هُنا لَفْظَ ﴿ مُرْدِفِين﴾ ، أي : مُتتابعين، بعضهم في إثْر بعض ، فأمدَّهم أوَّلًا بألف ثُمَّ بثلاثة آلاف . وفي حاشية الصاوي على الجلالَيْن (٢/ ١١٨) : ((قال المُفسِّرون : وَرَدَ أن جِبريل نَزَلَ بخمسمائة، وقاتلَ بها في يَمين الجَيش ، ونَزَلَ مِيكائيل بخمسمائة ، وقاتلَ بها في يَسار الجَيش ، ولم يَثبُت أن الملائكة قاتلت في وَقْعَة إلا في بَدْر ، وأمَّا في غَيرها فكانت تَنزِل المَلائكةُ لتكثير عَدد المُسلمين ، ولا تُقَاتِل)).

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : عن عُمر بن الخَطَّاب _ رَضِيَ اللهُ عنه _ قال : لَمَّا كان يوم بَدْر ، نظر رسولُ الله ﷺ إلى المُشركين وهُم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رَجُلًا ، فاستقبلَ نبيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ ، ثم مَدَّ يَدَيه ، فَجَعَلَ يَهتِف بربِّه : ((اللهُمَّ أَنجِزْ لي ما وَعَدْتَني ، اللهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَني ، اللهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العُصابةُ مِن أهل الإسلام لا تُعْبَدْ في الأرض)) . فما زالَ يَهتِف بربِّه مَادًّا يَدَيه ، مُسْتَقْبِلَ القِبْلة ، حتى سَقَطَ رِداؤه عن مَنْكِبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذَ رِدَاءَه، فألقاه على مَنْكِبَيْه ، ثُمَّ التزمه مِن ورائه . وقال : يا نَبِيَّ الله ، كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فإنَّه سيُنجِز لَكَ ما وَعَدَكَ . فأنزلَ اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنِّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفِين ﴾ ، فأمَدَّه اللهُ بالملائكة .

هُنا تَظهر أهميةُ الدُّعاء ، ولا يمكن لأحد أن يَستغنيَ عنه مَهْما بَلغ مِن المنزلة الرفيعة . فها هو النبيُّ ﷺ الصادق المَصدوق المُؤيَّد بالوَحْي الإلهيّ ، يَدعو بكل إلحاح ، وذلك كي يَزداد ثباتًا، ويزداد أصحابُه إيمانًا ورُسوخًا وتمسُّكًا بالحق . وَوَعْدُ الله لا يتخلَّف ، كما أنَّه سُبحانَه لا يَخْذُل أنبياءه وأتباعهم ، ولا يَترك إغاثتهم ونُصرتهم ، وإنَّما يُؤَيِّدهم بنَصْره ، ولا يَجعلهم فريسةً لأعداء الحق يَسومُونهم سُوءَ العذاب . والنبيُّ ﷺ أعلم المَخلوقات بالله ، وواثقٌ به ثقة مُبصِرة مُطْلَقة ، لكنَّه كان يدعو بإلحاح وذُل واستكانة، لأن حال العَبْد مع خالقه ينبغي أن تكون وَفْق هذا الشَّكل. كما أن دور أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ يُشير إلى ثِقته بربِّه، وسَعَة عِلْمه، ودِرايته بالأمور، وإشفاقه على النبيِّ ﷺ ، وهذا هو حال المُسَاعِد المُخْلِص ، والصَّحابي المُقرَّب .

وقال النَّووي في شرحه على مسلم (١٢/ ٨٥) : ((قال العُلماء : هذه المُنَاشَدَة إنَّما فَعَلَها النَّبِيُّ ﷺ لِيَراه أصحابُه بتلك الحال، فتقوى قلوبهم بدُعائه وتضرُّعه،مع أن الدُّعاء عِبادة ، وقد كان وَعَدَه اللهُ تعالى إحدى الطائفتين، إمَّا العِير وإمَّا الجَيْش ، وكانت العِير قد ذَهبت وفاتت، فكان على ثِقة مِن حُصول الأخرى،لكن سأل تعجيل ذلك وتنجيزه، مِن غَير أذى يَلحَق المُسلمين)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٤٥٦) : عن ابن عباس قال : قال النبيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْر : ((اللهُمَّ إني أنشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللهُمَّ إنْ شِئتَ لَم تُعْبَدْ)) . فأخذَ أبو بكر بيده ، فقال : حَسْبُكَ ، فخرجَ وهو يقول : ((﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القَمَر : ٤٥])) .

معنى : " أنشُدُكَ " أي : أسألك .

لقد أَلَحَّ النبيُّ ﷺ بدعاء الله وسؤاله وإنجاز وَعْده . وهذا يدل على كمال عبادة النبيِّ ﷺ واستسلامه المُطْلَق لأمر الله ، وخُضوعه التام لإرادته وحُكمه ، وثِقته الكاملة بوَعْد الله وإنجازه ،

وتعظيمه لعبادة الدُّعاء، والإلحاح في السؤال بلا مَلَل ولا ضَجَر ولا تَعَب . وَلَوْ هُزِمَ المؤمنون يَوم بَدْر لانتهى الإسلام ، واختفى وُجوده من الأرض ، ولَمَا قامت له قائمة بعد ذلك . وهذا معنى قَول النبيِّ ﷺ : " اللهُمَّ إنْ شِئتَ لَم تُعْبَدْ ". ولكنَّ اللهَ أرسلَ النبيَّ مُحَمَّدًا بالإسلام ، كَي يَنتشر الإسلام في أنحاء العَالَم . ولا تُوجد قوة على الأرض تستطيع إطفاء نُور الإسلامِ دِينِ التَّوحيد ، لأنَّه الدِّين السماويُّ الوحيد ، ولا يَقبل اللهُ غَيْرَه . ومَن إرادَ إنهاءَ الإسلامِ ، فهو كالنافخ على الشمس لإطفاء نُورها .

وقد أرادَ أبو بكر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ التخفيفَ عن النبيِّ ﷺ ، قال له : حَسْبُك . يعني : يَكفيك . أي إن الله يَكفيك أمرَ المشركين ، وينصرك عليهم . وهنا تتجلى ثقة أبي بكر بالله، وهي ثِقة مُستمدة مِن ثِقة النبيِّ ﷺ باللهِ ومعرفته التامَّة به . والنبيُّ ﷺ بالغَ في الدعاء ، وأطالَ فِيه ، لأن الدعاءَ مِن أعظم العبادات،والنبيُّ ﷺ هو أعظم العابدين لله، وأكمل العارفين بِه. وهو ﷺ يُؤدِّي حقَّ العبادة على أكمل وجه، كما أنه هو القائد ورأس جماعة المسلمين والمسؤول عنهم ، والقائد دائمًا يكون مُشْفِقًا على أتباعه ، وحريصًا على إنقاذهم وانتصارهم وعُلُوِّ شأنهم .

وقال الحافظ في الفتح (٧/٢٨٩):((قال السُّهَيلي:سبب شِدَّة اجتهاد النبيِّ ﷺ ، ونَصَبه في الدعاء ، لأنه رأى الملائكة تَنصِب في القتال ، والأنصار يخوضون غِمار الموت ، والجهاد تَارَةً يكون بالسلاح ، وتَارَةً بالدُّعاء . وَمِن السُّنة أن يكون الإمام وراء الجيش ، لأنه لا يُقاتِل معهم ، فلم يكن لِيُريح نَفْسَه ، فتشاغلَ بأحد الأمْرَيْن ، وهو الدعاء. قَوْلُه :" اللهُمَّ إنْ شِئتَ لَم تُعْبَدْ " . في حديث عُمر : " اللهُمَّ إن تَهلِك هذه العُصابةُ مِن أهل الإسلام لا تُعْبَدْ في الأرض " ... . وإنَّما قال ذلك لأنه عَلِمَ أنه خاتَم النَّبيين، فَلَوْ هَلَكَ هو ومَن معه حينئذ لَم يُبعَث أحد مِمَّن يدعو إلى الإيمان، ولاستمرَّ المشركون يَعبدون غَيْرَ الله ، فالمعنى : لا يُعبَد في الأرض بهذه الشريعة ... . قال الخطابي : لا يجوز أن يَتوهَّم أحد أن أبا بكر كان أوثق بِرَبِّه من النبيِّ ﷺ في تلك الحال ، بَل الحامل للنبيِّ ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه ، وتقوية قلوبهم ، لأنه كان أول مَشْهَد شَهِدَه ، فبالغَ في التَّوجه والدُّعاء والابتهال ، لِتَسكن نُفُوسُهم عِند ذلك، لأنهم كانوا يَعلمون أن وسيلته مُستجابة. فلمَّا قال له أبو بكر ما قال كَفَّ عن ذلك، وعَلِمَ أنه اسْتُجِيب له لِمَا وَجد أبو بكر في نَفْسِه مِن القوة والطمأنينة ، فلهذا عَقَّبَ بِقَوله:" ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ﴾ ". انتهى مُلَخَّصًا. وقال غَيْرُه: وكان النبيُّ ﷺ في تلك الحالة في مَقام الخَوف، وهو أكمل حالات الصلاة، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ،لأن وَعْده بالنَّصْر لَم يكن مُعَيَّنًا لتلك الواقعة، وإنما كان مُجْمَلًا ، هذا الذي يَظهر)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أَنِّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا سَأُلْقِي في قُلُوبِ الذينَ كَفروا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعناقِ واضْرِبُوا مِنهُم كُلَّ بَنَانٍ ﴾[الأنفال : ١٢] .

يُذَكِّر اللهُ المؤمنين بنِعَمه عليهم . يُوحِي اللهُ إلى المَلائكة أَنِّي مَعَكُم بالعَوْن والنَّصْر والتأييد ، فثَبِّتُوا المؤمنينَ الذين صدَّقوا بوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، على القِتالِ والجِهادِ في سبيل الله ، وكَثِّروا سَوَادَهم ، وشُدُّوا مِن عزيمتهم ، وارفعوا معنوياتهم ، وقَوُّوا أنفسَهم على أعدائهم .

واللهُ سيُلقي في قُلوب الكافرين الخَوْفَ والتَّرَدُّدَ والارتباكَ ، حتى تنهار مَعنوياتهم ، وتسقط عزيمتهم ، ويَفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، فينهزموا ، ويَخسروا .

وقد أَمَرَ اللهُ المَلائكةَ أن يَضرِبوا على أعناق الكافرين ، وعلى أطرافِ الأصابع، حتى تَسقط السُّيوفُ . والمُقَاتِل إذا خسر أصابعَه توقَّف عن القتال وخسر حياته ، إمَّا قَتْلًا أو أَسْرًا . والأطراف هي العُنصر الأساسي في الأداء القتالي في المعارك، وإذا زالت زال خطرُ العدو ، وانكسرَ جَيْشُه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٢٩ و ٣٣٠): ((قال ابن عباس: وهذا الوَحْي إلهام. قَوله تعالى : ﴿ إلى الملائكةِ ﴾ ، وهُم الذين أمدَّ بهم المسلمين ، ﴿ أنِّي مَعَكُم ﴾ بالعَون والنُّصرة ، ﴿ فَثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا ﴾ ، فيه أربعة اقوال : أحدها قَاتِلوا معهم ، قاله الحسن . والثاني بَشِّرُوهم بالنَّصْر ، فكان المَلَكُ يَسير أمام الصَّف في صُورة الرَّجُل ، ويقول : أَبْشِرُوا، فإن الله ناصركم ، قاله مقاتل . والثالث ثَبِّتوهم بأشياء تُلقونها في قلوبهم تَقوَى بها ، ذَكَرَه الزَّجاج . والرابع صَحِّحوا عزائمهم ونِيَّاتهم على الجهاد ، ذَكَرَه الثعلبي. فأمَّا الرُّعب فهو الخَوف. قال السائب ابن يَسار : كُنَّا إذا سألنا يزيد بن عامر السُّوائي عن الرُّعب الذي ألقاه الله في قُلوب المشركين ، كيف كان ؟. يَأخذ الحصى فيرمي به الطَّسْت، فَيَطِن، فيقول: كُنَّا نجد في أجوافنا مِثل هذا. قَوله تعالى: ﴿ فاضْرِبوا فَوْقَ الأعناقِ ﴾ ، في المُخَاطَب بهذا قَولان: أحدهما أنهم الملائكة. قال ابن الأنباري: لَم تَعْلم المَلائكةُ أين تَقصِد بالضَّرْب مِن الناس، فعلَّمهم اللهُ تعالى ذلك . والثاني أنَّهم المؤمنون ، ذَكَرَه جماعة من المُفسِّرين . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما فاضربوا الأعناق ، و﴿ فَوْقَ ﴾ صِلة، وهذا قول عطية والضَّحاك والأخفش وابن قُتَيبة. وقال أبو عبيدة : ﴿ فَوْقَ ﴾ بمعنى على . تقول: ضربته فوق الرأس، وضربته على الرأس . والثاني اضربوا الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق، وبِه قال عِكرمة . وفي المراد بالبَنَان ثلاثة أقوال : أحدها أنه الأطراف، قاله ابن عباس والضَّحاك. وقال الفرَّاء: عَلَّمَهم مواضع الضَّرْب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال أبو عُبَيدة وابن قُتَيبة: البَنَان أطراف الأصابع . قال ابن الأنباري : واكتفى بهذا مِن جُملة اليد والرِّجْل .

والثاني أنه كل مَفْصِل، قاله عطية والسُّدي . والثالث أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء ، والمعنى أنه أباحهم قَتْلَهم بكل نوع ، هذا قَول الزَّجاج)) .

وعن أبي أيوب الأنصاريِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : ((إنِّي أُخْبِرْتُ عن عِير أبي سُفيانَ أنها مُقبِلة، فهل لكم أن نَخرج قِبَلَ هذا العِير ؟ ، لعلَّ الله يُغْنِمُنَاهَا))، فقُلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلمَّا سِرْنا يَوْمًا أو يومين قال لنا : ((ما تَرَوْنَ في القَوم فإنهم قد أُخْبِرُوا بمَخْرَجِكُم ؟)) ، فقُلنا : لا والله ، ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أرَدْنا العِير . ثم قال : ((ما تَرَوْنَ في قِتال القَوم ؟)) ، فقُلنا مِثْلَ ذلك . فقال المِقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قَوْمُ مُوسى لمُوسى:﴿ فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا هَهُنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] . قال : فَتَمَنَّيْنا مَعْشَرَ الأنصار لو أنَّا قُلنا كما قال المِقداد ، أَحب إلَينا من أن يكون لنا مال عظيم ... ثم أنزل اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ :﴿ أنِّي معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْق الأعناق واضْرِبوا مِنهم كلَّ بَنان ﴾ [١٣١].

إن إرادةَ الصَّحابة _ رضي اللهُ عنهم _ الخاضعة لإرادة النبيِّ ﷺ ، لا تَلِين ، ولا تنكسر أمام المُغريات المادية . وقد تداركَ الأنصارُ أمرَهم حِين سَمِعوا الردَّ الباهر من المِقداد ، حيث أعلنَ عَدَمَ التخلِّي عن النبيِّ ﷺ ، ومُسَانَدَتَه حتى اللحظة الأخيرة ، دُون تخاذُل أو فِرار . لذلك فإن هذا الجيل الذهبي استحق النصرَ الإلهيَّ ، والتأييدَ الرَّبَّانِيَّ ، بإرسال الملائكة، وأمْرِهم بتثبيت المؤمنين على الحق والجهاد. وعند الشدائد يظهر مَعْدِنُ الرجال الحقيقي ، لأن الأزمات هي الحاكمة على مستوى إخلاص الأفراد والجماعات .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : بينما رَجل من المسلمين يومئذ يَشتدُّ في أثر رَجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضَربةً بالسَّوْط فوقه ... فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مُستلقيًا ، فنظرَ إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُه ، وشُقَّ وَجْهُه كَضَرْبة السَّوْط ... فجاء الأنصاريُّ،فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال : ((صَدَقْتَ ، ذلك مَدَدُ السَّماءِ الثالثة)).

مِن خلال هذا الحديث تتجلى بعضُ تفاصيل قِتال المَلائكة مع المؤمنين ، وتأثيرهم البالغ في سَير المعركة عَبر استئصالهم لِشَوكة الكافرين . فهذا المُشركُ الذي سقط صريعًا قد خُطِمَ أنفُه ،

---

١٣١ رواه الطبراني(٤/ ١٧٤) برقم (٤٠٥٦).وحسَّنه الهيثمي في المجمع(٦/ ٩٤) برقم (٩٩٥٠) .
(عِير أبي سُفيان) : هي الإبل والدَّواب التي تَحمل الطعام وغَيره مِن التجارات .

أي صارت علامة على أنفه إذلالًا له، وصارَ مُجَلَّلًا بالخِزْي والعار، ووجهُه قد شُقَّ كضَربة السَّوط ، كَي يذوق جَزاء أعماله الشريرة . ولَم يسقط المُشرك صريعًا فَحَسْب ، بل صارت هناك علامة على أنفه كي يموت ذليلًا كسيرًا. والأنفُ عند العرب هو رمز الشُّموخ ، وحدوث علامة عليه يُعتبَر إهانةً عظيمة للشخص. وهذا المُشرك قد مات مُهَانًا وضيعًا حقيرًا بسبب العقيدة الباطلة التي يعتنقها .

وعن الربيع بن أنس _ رضي الله عنه _ قال : ((كان الناس يوم بَدْر يَعرِفون قتلى الملائكة عليهم السلام مِمَّن قتلوهم، بِضَرْب على الأعناق وعلى البَنَان ،مِثل سِمَةِ النار قد أُحرِق به))[١٣٢].

إنَّ المؤمنين الصادقين الذين يُدافعون عن شرف الدَّعوة الإسلامية ، والمُنْجَزَاتِ الحضارية المُنبثقة عن عقيدتهم، لا بُد أن ينصرهم اللهُ تعالى ، ويُثبِّتهم في المواطن الشديدة ، والأزمات الصعبة ، لأنَّه سُبحانَه لا يَترك حَمَلَةَ دَعوته المُخلِصين، ولا يترك رسالته تضيع بِفِعل جُحود الكافرين وشِدَّةِ بأسهم . فالنصرُ قادم لا مَحَالة في الوقت الذي يَختاره اللهُ تعالى . ﴿ وكان حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الرُّوم :٤٧] .

ح _ مَلائكة العَذاب

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلا فِتنةً للذينَ كَفَرُوا ﴾ [المُدَّثر] .

خَزَنَة النار المُوَكَّلون عليها تسعة عشر مِن المَلائكة الأشِدَّاء الغِلاظ يُلقون أصحابَ النار فيها.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((أي : على النار تسعة عشر مِن الملائكة ، وهُم خَزَنتها : مالك ومعه ثمانية عَشَر)) .

خَزَنَةُ النار مَلائكة كِرَام أقوياء شديدو البأس، مُختصون بتعذيب المُستحقِّين للنار، لا يمكن الإفلات منهم . وهُم يُنفِّذون أوامرَ الله تعالى ، فيُعاقِبون مَن غَضِبَ اللهُ عَلَيه . ومَن قضى حياته مُستهزئًا بالله وشريعته ، ورافضًا لمنهج الأنبياء ، لا بُد أن يَدفع ثَمَنَ كُفْرِه وضَلاله ومَعَاصيه .

وما جَعَلَ اللهُ خَزَنَةَ النار إلا مِن المَلائكة الأقوياء الغِلاظ الشِّدَاد ، ولم يَجعلهم مِن البشر حتَّى يُصارعوهم ويُغالبوهم . وما جَعَلَ اللهُ ذلك العدد إلا سببًا لِفتنة المُشركين وضلالهم ، حيث استقَلُّوا بعددهم ، واستهزؤوا به ، وسَخِرُوا مِنه، واسْتَبْعَدُوا أن يتولَّى هذا العَدَدُ القليلُ تعذيبَ أكثر الثَّقَلَيْن.

---

١٣٢ الدُّر المنثور للسُّيوطي(٤/٣٥).وتفسير ابن كثير(٢/٣٨٦)،وفتح الباري لابن حجر(٧/ ٣١٢).

ذَكَرَ اللهُ أنَّ عددهم تسعة عَشَر اختبارًا مِنه للناس ، وامتحانًا لهم . وقَد جَعَلَهم اللهُ ملائكةً ، ولَم يَجعلهم مِن الإنس أو الجِن ، لأنَّهم أقوى الخَلْق بأسًا ، وأشدُّهم غضبًا لله تعالى ، ولا تأخذهم شفقة ولا رحمة ، ولا يَشعرون بالحُزن أو الألم أو الرَّأفة أو الرِّقة ، لأنهم خِلاف جِنس المُعذَّبين . ومَلائكةُ العذاب_ عليهم السلام _ لا يُمكن مُقاومتهم ، أو التغلُّب عليهم ، أو طَلَب مِنهُم الرَّحمة والعَطْف وتخفيف العذاب ، لأنَّهم لا يَملِكون من أمرهم شيئًا . فهُم يُنفِّذون أوامرَ الله كاملةً غَير مَنقوصة، دُون نقاش أو استدراك. وقال القرطبي في تفسير القرطبي (١٩/ ٧٤): ((قَوله تعالى : ﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً ﴾ . أي : لَم نَجعلهم رِجَالًا فتتعاطَوْن مُغالبتهم. وقِيل : جَعلهم ملائكةً لأنَّهم خِلاف جِنس المُعذَّبين مِن الجِن والإنس ، فلا يَأخذهم ما يأخذ المُجَانِس مِن الرَّأفة والرِّقة ، ولا يَسْتَرْوِحُون إلَيهم ، ولأنهم أقْوَم خَلْق الله بحق الله ، وبالغضب له ، فتُؤمَن هَوَادتهم ، ولأنهم أشد خَلْق الله بَأسًا ، وأقواهم بَطْشًا. ﴿ وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلا فِتنةً ﴾ أي: بَلِيَّة. ورُوِيَ عن ابن عباس مِن غَير وَجه، قال : ضَلالةً للذين كفروا. يُريد أبا جَهْل وذَوِيه. وقِيل: إلا عذابًا ... أي: جَعَلْنا ذلك سَبَبَ كُفرهم وسَبَبَ العذاب))اهـ.وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٤٦٢): ((﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً ﴾ ، يعني: ما جَعَلْنا المُدبِّرين لأمر النار القائمين بعذاب مَن فيها إلا ملائكة،فمَن يُطيق الملائكة، ومَن يَغلِبهم، فكيف تتعاطَوْن أيُّها الكُفَّار مُغالبتهم. وقيل: جَعَلَهم ملائكةً لأنهم خِلاف جِنس المَخلوقين مِن الجِن والإنس، فلا يَأخذهم ما يَأخذ المُجَانِس مِن الرِّقة والرَّأفة. وقِيل: لأنهم أقْوَم خَلَق الله بحَقِّه ، والغضب له ، وأشدهم بَأسًا ، وأقواهم بَطْشًا . ﴿ وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلا فِتنةً ﴾ ، أي : ضَلالةً ﴿ للذينَ ﴾ اسْتَقَلُّوا عَدَدَهم، ومِحْنَةً لهم. والمعنى : ما جَعَلْنا عَدَدَهم هذا العَدَد المَذكور في القُرآن إلا ضَلالةً ومِحنةً لهم حتى قالوا ما قالوا،ليتضاعف عذابُهم، ويَكثُر غَضَبُ الله عليهم.وقِيل:معنى ﴿ إلا فِتنةً ﴾ إلا عذابًا)) اهـ . وفي سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٥): ((فقال أبو جهل يَوْمًا وهو يَهْزَأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يا مَعْشَرَ قُرَيش، يَزعُم مُحمَّد أنَّما جُنود الله الذين يُعذِّبونكم في النار ويَحبِسونكم فيها تِسعة عَشَر ، وأنتم أكثر الناس عددًا وكَثرة، أفَيَعْجَزُ كُلُّ مائة رَجُل مِنكم عَن رَجُل مِنهُم ؟. فأنزل الله تعالى عليه في ذلك مِن قَوله:﴿وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلا فِتنةً للذينَ كَفَرُوا﴾))[١٣٣] .

---

١٣٣ انظر تفسير الطبري (١٢/ ٣١٢) ، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١) ، ولُباب النُّقول للسُّيوطي (١/ ٢٢٣) ، والْمُوَافَقَات للشاطبي (٣/ ٣٨٥) .

إن الكافرين في كل زمان ومَكان لا يَقْدِرُون على مُواجهة الحُجَّة بالحُجَّة ، ولا يَستطيعون تقديمَ البراهين الساطعة ، لذلك يَختبئون وراء الاستهزاء والسُّخرية ، كَي يَخدعوا أنفسَهم بأنهم في موقف القُوَّة والغَلَبَة والانتصار. كَما أن سُخريتهم مستندة إلى جَهْلهم المُفرِط وعِنادهم الشديد .

وأبو جَهْل _ لَعَنَه اللهُ _ كان يَعتقد بسُخرية وجَهْل أن خَزَنَة النار (مَلائكة العَذاب) هُم رِجال عاديون يُمكن مُقاومتهم بمَزيد مِن العُدَّة والعَدَد والعَتاد والقُوَّة الجُسمانية . فالمسألة بالنسبة إليه : غالب ومغلوب ، ومعركة بين رجال أقوياء أشِدَّاء . لكنَّ اللهَ فَضَحَ جَهْلَ هذا المُتكبِّر المَغرور وسُخريته، بأن ذَكَرَ أن خَزَنة النار هُم مَلائكة لا طاقة لبني البشر بمُقاومتهم ، أو التغلُّب عليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٠٧ و٤٠٨): ((قَوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وهُم خُزَّانها : مَالِك ، ومعه ثمانية عَشَر . أعينهم كالبرق الخَاطِف ، وأنيابهم كالصَّياصي (قُرون البَقَر) ، يَخرج لهبُ النار من أفواههم ، ما بَيْن مَنْكِبَي أحدهم مسيرة سنة ، يَسَع كَفُّ أحدهم مِثل رَبيعة ومُضَر ، قد نُزِعَت منهم الرحمة ، فلمَّا نزلت هذه الآية ، قال أبو جَهْل: يُخوِّفكم مُحمَّد بتسعة عشر ، أمَا له مِن الجُنود إلا هؤلاء ، أيَعْجَزُ كُلُّ عشرة مِنكُم أن يَبطِش بواحد مِنهُم ، ثُمَّ يَخرجون مِن النار ، فقال أبو الأشَدَّيْن. قال مُقاتل: اسْمُه أُسَيد بن كَلَدَة ، وقال غَيْرُه: كَلَدَة بن خَلَف الجُمَحي:يا مَعْشَرَ قُرَيش، أنا أمشي بَيْنَ أيديكم، فأرفع عَشْرَةً بمَنْكِبي الأيمن وتسعة بمَنْكِبي الأيسر، فندخل الجَنَّة، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً ﴾ لا آدميين، فمَن يُطيقهم، ومَن يَغلِبهم، ﴿ وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم ﴾ في هذه القِلَّة ﴿إلا فِتنةً﴾ أي ضَلالة ﴿للذينَ كَفَرُوا ﴾ حتى قالوا ما قالوا)) اهـ . وقال العسكري في جَمهرة الأمثال (١/ ٢٦٨) : ((قَولهم : تَقِيسُ المَلائكةَ إلى الحَدَّادين . الحَدَّادون السَّجَّانون ، وكُل مانع عند العرب حَدَّاد ، والحَد المَنْع ، والمَحدود المَمنوع مِن الرِّزق . وأصلُ المَثَل أنَّه لمَّا أنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال أبو جَهْل : ما تسعة عَشَر ، الرَّجُل مِنَّا بالرَّجُل مِنهُم ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلا مَلائكةً ﴾ ، أي : فمَن يُطِيق الملائكةَ ، فقال له المسلمون : تَقِيس المَلائكةَ بالحَدَّادين . أي : السَّجَّانين مِن الناس ، فجرى مَثَلًا في الصَّغير، يُقاس بالكبير)) .

ط _ مَلائكة الرَّحمة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَاتِهِم وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَاب ﴾[الرَّعْد : ٢٣] .

جنَّات إقامة خالدة ودائمة ومُستمرة ، بلا انقطاع ولا زوال ، يَدخلها المؤمنون الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وفَعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المَعَاصي ، ومَن كان صالحًا مِن آبائهم ونسائهم وأولادهم ، وصلاحُهم إيمانُهم بالله وعَمَل الصالحات ، ليأنسوا بلقائهم ، ويَفرحوا باجتماعهم ، وإن لم يكونوا يَستحقون هذه المنازل الرفيعة بأعمالهم ، فإنَّ اللهَ يَرفع درجاتهم إكرامًا لأقاربهم الصالحين أصحاب الدَّرَجَات العُليا.أي: وإن لَم يَعْمَلوا بعملهم يَكونون في دَرَجاتهم العُليا ومنازلهم الرفيعة، تَكرمةً لهم، ولِتَقَرَّ أعينُهم بهم. وهذا تفضُّل مِن الله عليهم ، ورحمة بهم ، وإحسان إلَيهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧١) : ((أي : يَجْمَع بَينهم وبَين أحبابهم فِيها مِن الآباء والأهْلِين والأبناء ، مِمَّن هو صالح لدُخول الجَنَّة مِن المؤمنين ، لِتَقَرَّ أعينُهم بِهم ، حتى إنَّه تُرفَع دَرَجة الأدنى إلى دَرَجة الأعلى ، امتنانًا مِن الله وإحسانًا ، مِن غَير تَنقيص للأعلى عَن دَرَجته ، كما قال تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ الآية)) .

والآيةُ : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّياتِهِم ﴾ تدل على أن صَلاحهم شَرْط لدُخولهم الجَنَّة ، ولا تَنفع هذه القَرَابات بدُون صَلاح . وهذا يعني أنَّ النَّسَب لا يَنفع إذا لَم تَحصل معه الطاعات . وهذا رَد واضح على المُتمسِّكين بالأنساب فقط دُون عمل صالح ، وقَطْع لأطماعهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٧) : ((﴿ وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّياتِهِم ﴾ عَطْف على المَرفوع في يَدْخُلون، وإنما ساغ للفَصْل بالضَّمير الآخِر أو مَفعول معه. والمعنى أنَّه يَلحَق بهم مَن صَلَحَ مِن أهلهم، وإن لم يَبلُغ مَبلَغ فَضْلهم ، تَبَعًا لهم ، وتعظيمًا لشأنهم. وهو دليل على أنَّ الدَّرَجة تعلو بالشَّفاعة ، أو أنَّ المَوصوفين بتلك الصِّفات يُقْرَن بعضُهم ببعض لِمَا بَينهم مِن القَرَابة والوَصْلة ، في دُخول الجَنَّة ، زِيادةً في أُنْسِهم . وفي التَّقييد بالصَّلاح دَلالة على أن مُجرَّد الأنساب لا تَنفَع)) .

وقد أكرمَ اللهُ المؤمنين إكرامًا آخَر ، وتفضَّلَ عليهم بنعمةٍ عظيمة أُخرى : ﴿ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَاب ﴾ ، والملائكة يَدخلون عليهم للتهنئة بدُخول الجَنَّة من كل باب مِن أبواب الجَنَّة ، وقِيل : مِن أبواب القُصور . يَدخلون عليهم بالتَّحِيَّة مِن الله والهدايا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧١) : ((وتَدخل عليهم الملائكةُ مِن هَهُنا ومِن هَهُنا للتَّهنئة بدُخول الجَنَّة ، فعِند دُخولهم إيَّاها تَفِد عليهم الملائكةُ مُسلِّمين مُهنِّئين لهم بما حَصل لهم مِن الله مِن التَّقريب ، والإنعام ، والإقامة في دار السلام، في جِوار الصِّديقين والأنبياء والرُّسُل الكرام)) .

إنَّ مَلائكـة الرَّحمـة يَـدخُلون على المـؤمنين مِـن أبـواب الجَنَّـة للسـلام عليهم وتَهنئـتهم بنَيْـل رِضوان الله وجَنَّته الخالدة، فيَبعثون في نُفوس المؤمنين الراحةَ والسعادةَ بما كَتَبَه اللهُ لهم مِن النَّعيم الدائم الذي لا يَنقطع ولا يَزول . وهذه الجائزةُ العُظمى تَجعل المؤمنين يَنْسَوْنَ كُلَّ أصناف العذاب التي يُكابدونها في الحياة الدُّنيا ، فتزداد ثقتهم بالله الذي لا يُخْلِف وَعْدَه ، ويزداد إصرارهم على التَّمَسُّك بالحق والسَّير في طَرِيق الدَّعوة بكل يقين وصَبْر حتى آخر العُمُر رَغْم كل الصُّعوبات .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي اللهُ عنه _ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : ((هَل تَدْرُونَ أوَّلَ مَن يَدخل الجَنَّةَ مِن خَلْق الله ؟)) ، قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلَم . قال : ((أوَّلُ مَن يَدخل الجَنَّةَ مِن خَلْقِ اللهِ الفُقراءُ والمهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثُّغور ، ويُتَّقى بهم المَكَارِه ، ويموت أحدُهم وحاجته في صَدْره لا يَستطيع لها قَضاءً، فيقول اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ لِمَن يَشاء مِن ملائكته: ائتوهم فحَيُّوهم، فتقول المَلائكة: نَحْنُ سُكَّانُ سمائك، وخِيرتك مِن خَلْقِك ، أفتأمرنا أن نأتيَ هؤلاء فنُسَلِّمَ عليهم؟، قال : إنَّهُم كانوا عِبَادًا يَعبدوني ، لا يُشرِكون بي شيئًا ، وتُسَدُّ بهم الثُّغور ، ويُتَّقى بهم المَكَارِه، ويموت أحدُهم وحاجته في صَدْره ، لا يَستطيع لها قَضَاءً . قال : فتأتيهم المَلائكةُ عِند ذلك ، فيَدخلون عليهم مِن كُل باب ، ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾)) [١٣٤].

تأتي الملائكةُ _ عليهم السلام _ إلى المؤمنين ، ويَدخلون عليهم مِن كُل أبواب الجَنَّة ، أو مِن كُل أبواب القُصور ، ويقومون بالسلام عليهم وتهنئتهم بفَوزهم برضا الله وجَنَّته. وقُدُومُ المَلائكة _ عليهم السلام _ لتهنئة الفُقَراء والمهاجرين الذين فازوا بالجَنَّة بعد مُعاناتهم الطويلة ، يُشير إلى عَظَمَة الله ، وفضله الكبير ، ورحمته الواسعة ، وإحسانه العميم ، وأن اللهَ لا يَنسَى مُعاناةَ المُؤمنين في الدُّنيا ، وتعبهم، وصَبْرهم ، بَل يُعوِّضهم خَيْرًا لتمسُّكهم بالحق والطاعة. والصَّبْرُ في الدُّنيا هو مِفتاح الفَرَج في الدُّنيا والآخِرة .

إنَّ الملائكة يَدخلون عليهم ، ويُهنِّئونهم بهذا الأجر العظيم ، والثوابِ الجزيل ، ويُسلِّمون عليهم بسبب صَبْرهم على الفَقْر في الدُّنيا ، والجهادِ في سبيل الله ، وتركِ الشَّهَوات ، والابتعادِ عَن المُحرَّمات ، والتزام الطاعات . ويجب على المؤمن أن لا يَحزَن إذا كان فقيرًا ، فصبرُه على الفقر ، وحِرْصه على اكتساب المال الحَلال ، وإنفاقه في طاعة الله ، سَوْفَ يَقُوده إلى الجَنَّة .

---

١٣٤ رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٨) برقم (٦٥٧٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٥٥) : ورجاله ثقات . اهـ . ورواه ابن حِبَّان في صحيحه (١٦/ ٤٣٨) برقم (٧٤٢١) .

والحديثُ يدل على فضل الفُقراء والمهاجرين ، وأنَّ لهم منزلة رفيعة ، ومكانة عظيمة ، وثواب جزيل ، إذْ إنَّهم أوَّل مَن يَدخل الجَنَّةَ مِن خَلْق الله تعالى . والمُهاجرون هُم الذين هاجروا مِن مَكَّة إلى المدينة ، ومِن صِفتهم أنَّهُم" تُسَدُّ بهم الثُّغور"، جَمْع ثَغْر: وهو الحَد الفاصل بين بلاد المسلمين والكافرين،ويَكون مَطْمَعًا للأعداء للمُرور فيه،والمُراد مُرابطتهم وحراستهم لتلك الأماكن. " ويُتَّقى بِهم المَكَارِه "، أي: يُحْتَمَى بهم في المصائب والشدائد ، ويموت أحدُهم وهو لا يَستطيع أن يَنال ما في نفْسه لفَقْره، وهُم مَشغولون بالدفاع عن الإسلام، ويموتون دُون أن تُقضَى حوائجهم.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرَّعْد : ٢٤] .

تَدخل عَلَيهم المَلائكةُ مُهنِّئين لهم بدُخول الجَنَّة، وتَقول لهم: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم ﴾ ، سلَّمكم اللهُ مِن الآفات التي كُنتم تخافون مِنها ، ونجَّاكم مِن المِحَن التي كُنتم تَقلَقون مِنها ، وأنقذكم مِن العذاب ، بسبب صَبْركم في الدُّنيا على طاعة الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه . وهذا يدل على أنَّ الصَّبْر على الشَّهَوات والمُحرَّمات هو الطريق إلى رضا الله ونَيْل جَنَّته . فَنِعْمَ هذه العاقبة الحميدة ، أي : فَنِعْمَ دار الجَنَّة .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٦٥) : ((﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ ، أي يَقولون : سلام عليكم . فأُضمِر القَول ، أي : قد سَلِمْتُم مِن الآفات والمِحَن. وقِيل: هو دُعاء لهم بدوام السلامة وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم اللهُ، فهو خبر معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعتراف بالعُبودية ﴿ بِمَا صَبَرْتُم ﴾ ، أي: بصَبْركم ف (ما) معَ الفِعْل بمعنى المَصْدَر،والباء في ﴿ بِمَا ﴾ مُتعلِّقة بمعنى ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ ويجوز أن تتعلق بمَحذوف،أي: هذه الكرامة بصَبْركم، أي: على أمر الله تعالى ونَهْيه،قاله سعيد ابن جُبَير.وقِيل: على الفقر في الدُّنيا، قاله أبو عِمران الجَوْني. وقِيل: على الجهاد في سبيل الله)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ . قال الزجاج : أُضمِر القَول هاهُنا، لأن في الكلام دليلًا عليه . وفي هذا السَّلام قَولان : أحدهما أنَّه التَّحِيَّة المعروفة، يَدخل المَلَكُ فيُسلِّم ويَنصرِف . قال ابن الأنباري : وفي قول المُسَلِّم : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ قَولان : أحدهما أنَّ السَّلام الله عَزَّ وَجَلَّ ، والمعنى : الله عَلَيكم ، أي : على حِفْظكم . والثاني أنَّ المعنى السَّلامة عَلَيكم ، فالسَّلام جَمْع سلامة . والثاني أنَّ معناه إنَّما سلَّمكم اللهُ تعالى مِن أهوال القيامة وشَرِّها بصَبْركم في الدُّنيا . وفِيما صَبروا عليه خمسة أقوال : أحدها أنَّه أمر الله ، قاله سعيد بن جُبَير . والثاني فُضول الدُّنيا ، قاله الحسن . والثالث الدِّين . والرابع الفَقْر ، رُوِيَا عن أبي عمران الجَوْني . والخامس أنَّه فَقْد المَحْبُوب ، قاله ابن زيد)) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ أوَّلَ ثُلَّةٍ تَدخل الجَنَّةَ الفُقراءُ المُهاجرون، الذين تُتَّقى بهم المَكَارِه، إذا أُمِرُوا سَمِعُوا وأطاعوا، وإن كانت لرَجُل مِنهُم حاجة إلى السُّلطان لم تُقْضَ له حتى يَموت وَهِيَ في صَدْره ، وأنَّ اللهَ تعالى يَدعو يَوْمَ القِيامة الجَنَّةَ، فتأتي بزُخْرُفِها وريِّها، فيقول: أينَ عِباديَ الذين قاتلوا في سَبيل الله، وقُتِلُوا في سَبيلي ، وأُوذُوا في سَبيلي، وجَاهَدُوا في سَبيلي ؟ ، ادْخُلوا الجَنَّةَ ، فيَدخلونها بغَير حِسابٍ ، ولا عَذابٍ، فتأتي الملائكةُ فيقولون : رَبَّنا نَحْنُ نُسبِّح لَكَ الليلَ والنَّهَارَ ، ونُقدِّس لَك ، مَن هؤلاء الذين آثَرْتَهُم عَلَينا؟، فيقول الرَّبُّ تباركَ وتعالى : هؤلاء الذين قاتلوا في سَبيلي، وأُوذُوا في سَبيلي، فتَدخل عليهم المَلائكةُ مِن كُل باب ، سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار)) [١٣٥].

هذا الحديثُ يَدعو إلى الصَّبْر ، والتَّحَمُّل ، والثبات على الحق، والتزام أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه ، والجهاد في سبيل الله بكل يقين وإصرار ، لأنَّ هذه الأمور تَقُود المؤمنَ إلى الجَنَّة ، والخُلود فيها ، والاستمتاع بزُخرُفها وحُسنها وجَمالها وزِينتها . ومَهْمَا عانى المؤمنُ في الدُّنيا ، ولَقِيَ الشدائدَ والمصائبَ في سبيل الله تعالى ، مُخْلِصًا له ، طالبًا لرِضَاه ، فهو على خَير عَظيم ، والمَوْتُ فَقط يَفصِله عَن نَيْلِ رِضَا الله وجَنَّته . والشَّجاعةُ صَبْر ساعة . والصَّبْرُ مِفتاح الفَرَج .

ي ـ النَّفْخ في الصُّور

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ ﴾[طه : ١٠٢]. في يوم القِيامة يَنفُخ المَلَكُ إسرافيلُ في القَرْنِ النَّفخةَ الثانية ، لبَعْث الأموات مِن قُبورهم للحِسَاب . ولم يُذكَر اسمُ المَلَك لشُهرته .

وقال الثعالبي في تفسيره (٥٣٣/١):((الجمهور أن الصُّور هو القَرْن الذي قال فيه النبيُّ ﷺ أنَّه يُنفَخ فيه للصَّعْق ، ثُمَّ للبَعْث)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٢٤٢) : (((الصُّور) المَذكُور في قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ ﴾ . (قَرْن) أي على هَيئة البُوق ، دائرة رأسه كعَرْض السَّماوات والأرض . وإسرافيل واضع فاه عليه يَنظُر نَحْوَ العَرْش أن يُؤْذَن له حتى (يَنفُخ فيه) فإذا نَفَخَ صَعِقَ مَن في السَّماوات ومن في الأرض، أي: ماتوا إلا مَن شاء الله. قال الحليمي : والظاهر أنَّ الصُّور وإن كان الذي يُنفَخ فيه النَّفختان جميعًا،فإن صَيحة الإصعاق تُخالِف صَيحةَ الإحياء.وجاء في أخبار أن فيه ثُقْبًا بعدد الأرواح كُلِّها، وأنها تَجتمع فيه في النَّفْخَة الثانية ، فيَخرج مِنه كُل رُوح نَحْو جسدها)) .

---

١٣٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٨١) برقم (٢٣٩٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في السَّماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُم قِيَامٌ يَنظُرُون ﴾[الزُّمَر : ٦٨] .

وَنَفخَ المَلَكُ إسرافيلُ في القَرْن بأمر اللهِ النَّفْخَةَ الأُولَى (نَفْخَة الصَّعْق) ، فَمَاتَ مَن في السَّماوات والأرضِ مِن الفَزَعِ وشِدَّةِ الصَّوت ، إلا مَن شاءَ اللهُ بَقَاءَه . قِيل : جبريل ومِيكائيل وإسرافيل ومَلَك المَوْت . وقِيل : حَمَلَة العَرْش وخَزَنة الجَنَّةِ والنارِ . وقِيل : الحُور العِين والوِلْدَان . وقِيل: الشُّهداء وهُم أحياء عِند ربِّهم. وعن أبي هُرَيرة ــرضي اللهُ عنهــ: عن رسول الله ﷺ أنَّه سَأَلَ جِبريلَــ عليه السلامــ عن هذه الآية﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في السَّماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ﴾.((مَن الذين لَم يَشأ اللهُ أن يَصْعَقَهُم ؟، قال: هُم شُهداءُ اللهِ ــعَزَّ وَجَلَّ ــ)) [١٣٦] .

هذا الحديثُ يُوضِّح مكانةَ الشُّهداء الجليلة ، ومَنزلتهم الرفيعة ، ودرجتهم العظيمة ، وكرامتهم عِند الله تعالى ، فقد ضَحُّوا بأرواحهم في سبيل الله ، طالبين رِضَاه ، وقد أكرمهم اللهُ ، وشرَّفهم ، وحَمَاهُم مِن الصَّعْق. وهذه فضيلة عُظمى لهم، تُشير إلى تميُّزهم عن باقي الخَلْق، وتفوُّقهم عليهم.

ثُمَّ نَفَخَ فيه النَّفْخَةَ الثانية (نَفْخة البَعْث)، فإذا جميع الأموات يَقومون مِن قُبورهم على أرجلهم،وقد أُعِيدت إلَيهم أبدانهم وأرواحهم ، يَنتظرون أمرَ الله فِيهم . ودلَّت الآيةُ أن النَّفْخَة اثنتان : نَفْخَة الصَّعْق (المَوت)، ونَفْخَة البَعْث (الإحياء) . وذهب بعضُ العلماء إلى أنها ثلاث نَفَخَات ، وهي : نَفْخَةُ الفَزَع ، ونَفْخَة الصَّعْق ، ونَفْخَة البَعْث .

والآيةُ تُبيِّن أهوالَ يَوم القِيامة ، وما فيه من الآيات العظيمة ، والأحداث الجسيمة .

المَلَكُ إسرافيل ــ عليه السلام ــ هو صاحب الصُّور (القَرْن) ، يُنفِّذ أمرَ اللهِ بالنَّفْخِ في الوقت الذي يُحدِّده اللهُ تعالى . وهذا الأمرُ مِن عِلْم الغَيْب المَخفي عن البشر ، لكي يظلُّوا على حَذَر واستعداد دائمًا.وهناك أهوال في غاية الشِّدة،وعلى المؤمن الحريص على مصيره بعد المَوت أن يستعد لتجاوز هذه الأهوال ، والنَّجاح في الاختبارات المُتوالية . وهذا لا يتأتَّى إلا بعد إتقان العَمَل في الدنيا ، لأنَّ الدُّنيا مزرعة الآخرة . وإتقانُ العَمل يعني تَوحيد الله ، والإخلاص له ، والقِيام بالعبادات والطاعات وَفْق سُنَّة النبيِّ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٢) : ((يَقول تباركَ وتعالى مُخْبِرًا عَن هَول يوم القيامة وما يكون فيه مِن الآيات العظيمة ، والزلازل الهائلة . فقَوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في

١٣٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٧) برقم (٣٠٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

السَّماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ﴾ . هذه النَّفْخَة هي الثانية ، وهي نَفْخَة الصَّعْق ، وهي التي يَموت بها الأحياء مِن أهل السَّماوات والأرض ، إلا مَن شاء الله ، كما جاء مُصَرَّحًا به مُفَسَّرًا في حديث الصُّور المَشهور ، ثُمَّ يَقبِض أرواحَ الباقين حتى يكون آخِر مَن يَموت مَلَك المَوت ، ويَنفرد الحَيُّ القَيُّومُ الذي كان أوَّلًا ، وهو الباقي آخِرًا ، بالدَّيمومة والبَقاء ، ويَقول : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ﴾ [غَافِر : ١٦] ، ثلاث مَرَّات ، ثُمَّ يُجيب نَفْسَه بنَفْسِه ، فيقول : ﴿ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ [غَافِر : ١٦] . أنا الذي كُنْتُ وَحْدي ، وقد قَهَرْتُ كُلَّ شيء ، وحَكَمْتُ بالفَناء على كُلِّ شيء . ثُمَّ يُحيي أوَّل مَن يُحْيي إسرافيل ، ويأمره أن يَنفُخ بالصُّور مَرَّةً أُخرى ، وهي النَّفْخَة الثالثة ، نَفْخَة البَعْث . قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُم قِيَامٌ يَنظُرُون ﴾ ، أي : أحياء بَعْدَما كانوا عِظَامًا ورُفَاتًا ، صاروا أحياء يَنظرون إلى أهوال يوم القيامة)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨):((اشْتُهِر أن صاحب الصُّور إسرافيل _عليه السلام_، ونقل فيه الحَليمي الإجماع)) اهـ .

و" الصُّور " قَرْنٌ عظيم يَنفُخ فيه المَلَكُ إسرافيلُ بأمر الله تعالى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي اللهُ عنه _ قال : جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال : ما الصُّور ؟ ، قال : ((قَرْنٌ يُنفَخُ فِيه)) [١٣٧].

وبعضُ العلماء يعتقد بوجود ثلاث نَفَخات : نَفْخَة الفَزَع (حَيث تَفزَع الخلائقُ وتخاف وتضطرب ويتغيَّر مَجرَى الحياة)، ونَفْخَة الصَّعْق (حَيث تَموت الخلائق إلا مَن استثناهم اللهُ تعالى)، ونَفْخَة البَعْث (حَيث تَقوم الخلائقُ مِن قُبورها وتُبعَث مِن أجل الحِسَاب) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٢١) : ((وقِيل : إنَّها نَفْخَتان، وإنَّ نَفْخة الفَزَع إمَّا أن تكون راجعة إلى نَفْخة الصَّعْق، أو إلى نَفْخة البَعْث . واختار هذا القُشَيري والقُرطبي وغيرهما)) .

وعن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أربعون)) [١٣٨].

---

١٣٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) برقم (٣٨٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه ابن حِبَّان في صحيحه (١٦/ ٣٠٣) برقم (٧٣١٢). وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨) : ((والصُّور إنما هو قَرْنٌ _ كما جاء في الأحاديث المرفوعة _. وقد وَقع في قِصَّة بَدْء الأذان بلَفْظ البُوق والقَرْن في الآلة التي يَستعملها اليهود للأذان. ويقال إن الصُّور اسم القَرْن بلغة أهل اليمن، وشاهده قَول الشاعر :

نحنُ نَفَخْنَاهُم غَدَاةَ النَّقِعَيْن   نَطْحًا شديدًا لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن)) .

١٣٨ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨١٣) برقم (٤٥٣٦) ، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٥).

هذا الحديثُ يُشير إلى وُجود نَفْخَتَيْن لا ثلاث نَفَخَات . والأربعون لم يتم تحديدها بالسنوات أو الأشهر أو الأيام ، لعدم عِلْم أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ بها. أو رُبَّما كان يَعْلَم بها ، لكنَّه أجَّل الموضوعَ فِيما بَعْد ، لانشغاله بشيء ما ، أو غياب الفِكرة عَن ذِهْنه .

وفي فتح الباري (٨/ ٥٥٢) أنَّ ابن التِّين قال : ((ويُحتمَل أيضًا أن يكون عَلِمَ ذلك ، لكن سكت ليُخبِرهم في وقت ، أو اشتغل عن الإعلام حينئذ)) .

وعن ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((يَقوم المَلَكُ بالصُّور بين السماء والأرض ، فيَنفُخ فيه ، والصُّورُ قَرْنٌ ، فلا يَبقى خَلْقٌ في السَّماوات والأرضِ إلا مات ، إلا مَن شاء ربُّك ، ثُمَّ يَكون بين النَّفْخَتَيْنِ ما شاء اللهُ أن يَكون)) [139].

هذا الحديث يُشير إلى أهوال يوم القيامة ، وفيه دليل على وجود نَفْخَتَيْن لا ثلاث نَفَخَات.

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقمَ القَرْنَ ، وحَنَى جَبهته يَسمع مَتى يُؤْمَر ، فيَنفُخ؟))، فقال أصحاب مُحمَّد : كيف نقول ؟، قال : ((قُولوا : حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ، على الله تَوَكَّلْنا)) [140].

هذا الحديثُ يُبيِّن هَوْلَ يوم القيامة ، ويجب الاستعداد لمُواجَهة هذا الخَطْب الشديد ، وذلك بعبادة الله وَحْدَه ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه . وإذا كانَ النبيُّ ﷺ يقول : ((كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقمَ القَرْنَ ؟)) ، وهو أعظم مَخلوقات الله ، وأحبُّ خَلْق الله إلى الله ، وهو المَغفور له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تَأخَّر . فما بالُكَ بالناس الذين لا يَعْلَمون هل مَصيرهم إلى الجَنَّة أم النار ؟! . وهذا يدل على صُعوبة المَوقف ، وشِدَّة الأمر . وهُنا تتجلَّى أهمية الاستعداد كي يَنْجُوَ العبدُ مِن هذا الكَرْب العظيم .

والمَلَكُ إسرافيل _ عليه السَّلام _ وَضَعَ طَرَفَ القَرْن (الصُّور) في فَمِه ، وهو على أُهبة الاستعداد ، وفي انتظار أمر الله بالنَّفْخ . وقد اشتدَّ هذا الأمرُ على الصحابة _ رضي اللهُ عنهم _، فأرشدهم النبيُّ ﷺ إلى الاستعانة بالله، والتَّوَجُّه إلَيه، وذِكْرِه، والتَّوكُّل عليه ، وهو يَكْفيهم ما أهَمَّهُم، ولا أحد يَقْدِر على كَشْف الغُمَّة، وإزالةِ الخَوف والاضطراب، وإزاحةِ الكُرُبَات إلا الله وَحْدَه .

---

١٣٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤١) برقم (٨٥١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٤٠ رواه أحمد في مسنده(١/ ٣٢٦) برقم (٣٠١٠)، والتِّرمذي في سُننه(٥/ ٣٧٢) برقم(٣٢٤٣) وحسَّنه . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((وهو حديث جيِّد)) .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ١٠٠) : ((وقال القاضي رحمه الله معناه : كيف يَطِيب عَيْشي وقد قَرُبَ أن يَنفُخ في الصُّور، فكنَّى عن ذلك بأن صاحب الصُّور وضع رأس الصُّور في فمه، وهو مُتَرَصِّد مُتَرَقِّب ، لأن يُؤْمَر فيَنفُخ فيه ، (فكأنَّ ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبيِّ ﷺ) . وفي التفسير قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟. (حَسْبُنا الله) مُبتدأ وخَبر، أي: كَافِينا الله (ونِعْمَ الوكيل) فَعِيل بمعنى المَفعول، والمَخصوص بالمَدْح مَحذوف، أي نِعْمَ المَوكُول إِلَيه الله)) .

وعن أبي هُرَيرة_ رضي اللهُ عنه_قال: قال رسول الله ﷺ:((إنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّور مُذ وُكِّلَ به مُستعد يَنظر نَحْوَ العَرْش، مَخافةَ أن يُؤْمَر قبل أن يَرْتَدَّ إليه طَرْفُه، كأنَّ عَيْنَيْهِ كَوكَبان دُرِّيان))[١٤١].

إنَّ المَلَكَ إسرافيلَ _ عليه السَّلام _ هو صاحب القَرْن ، ومُستعد للنَّفْخ فيه في أيَّة لَحظة ، ويَنتظر أمرَ الله له بالنَّفْخ، وهو على أُهبة الاستعداد لكَي يُنفِّذ أمرَ الله فَوْرًا، بلا تأخير ولا نِقاش. وتصويرُ عَيْنَي المَلَك بأنَّهما كوكبان دُرِّيان، يدل على عِظَم خَلْقه ، وضخامة حَجْمه ، وقُوَّته الهائلة، واستعداده التام لاستقبال أمر الله وتنفيذه فَوْرًا . والكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ عِند العرب هو العظيم المِقدار ، والشديد الإنارة ، والثاقب المُضيء . نُسِبَ إلى الدُّر لبياضه وصفائه . وحريٌّ بالبشر أن يَكونوا مُستعدين بشكل كامل ، لأنَّ المَوت يأتي فجأةً ، ومَن مَاتَ قامت قِيامته ، والأمر يتعلَّق بالمصير ، إمَّا الجَنَّة (النعيم الأبدي) أو النار (العذاب الأبدي) ، ولا يُوجد حَل وسط ، ولا شَيء آخَر .

والأنبياءُ والمَلائكةُ لا خَوْفٌ عَلَيهم ، ولا هُم يَحْزَنُون ، ومَصيرهم مَعلوم ، وهو العَيش في رحمة الله ونعيمه الأبديّ ، دُون أن يُمَسُّوا بأيِّ أذى أو عذاب . إذن ، الأمرُ يتعلَّق بالإنس والجِن الذين لا هُم مِن الأنبياء ولا المَلائكة. ومَصيرهم غَير مَضمون البَتَّة ، فهُم لَم يَحصُلوا على بِشارة إلهية بأنَّهم مِن أهل الجَنَّة. فينبغي أن يَكونوا شديدي الحَذَر ، ويَحرِصوا في الدُّنيا على تَوحيد الله، وطاعته ، وعدم مَعصيته ، كَي يَنالوا رضا الله ، ويَفوزوا بجَنَّته . والدُّنيا عَمَل بلا حِساب ، والآخرة حِساب بلا عَمَل . والدُّنيا مَزرعة الآخِرة . ومَن أضاعَ دُنياه في الذُّنوب والآثام والمعاصي ، فقد أضاعَ آخِرته ، ومصيره إلى عذاب النار يوم القيامة ، ولا يَنفَع النَّدَم ، ولا تُوجَد فُرصة للتَّعويض .

وروى التِّرمذي في سُننه (٥/ ٣٧٣) وصحَّحه : عن أبي هُرَيرة قال : قال يهوديٌّ بسُوق المَدينة : لا والذي اصطفى مُوسَى على البَشَر ، قال : فَرَفَعَ رَجُلٌ مِن الأنصار يَدَه ، فَصَكَّ بها وَجْهَه . قال: تقول هذا وفِينا نبيُّ الله ﷺ . فقال رسولُ الله ﷺ : ((﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن

١٤١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٣) برقم (٨٦٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

في السَّماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُم قِيَامٌ يَنظُرُون ﴾ ، فأكون أوَّلَ مَن رَفَعَ رَأسَه ، فإذا مُوسى آخذٌ بقائمةٍ مِن قَوَائِم العَرْش ، فلا أدري أَرَفَعَ رَأسَه قَبْلي ، أو كان مِمَّن استثنى اللهُ)) .

هذا الحديثُ يدلُّ على صِدْق النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّته ، وأخلاقه الحميدة ، فلم يَنتقِص مِن النبيِّ مُوسى ﷺ ، ولم يَتطاول عَلَيه ، ولم يُحاول إعلاء قَدْرِه فَوْقَه ، وإنَّما مَدَحَه ، وأظهرَ شَرَفَه الرفيع ، ومنزلته العالية ، وفضيلته العظيمة ، وكرامته الجليلة .

والنبيُّ مُحمَّد ﷺ لا يَدْري هل صَعِقَ النبيُّ مُوسى ﷺ ، وأفاقَ قَبْلَه ، وهذه فضيلة ظاهرة ، أو كان النبيُّ مُوسى ﷺ مِمَّن استثنى اللهُ في قَوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن في السَّماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ﴾ ، فلم يَصعَق ، وهي فضيلة ظاهرة أيضًا . والحديثُ يَنهَى عن التفضيل بين الأنبياء بشكل يُؤَدِّي إلى النِّزَاع والخُصومة والشِّقاق ، ولا شَكَّ أن النبيَّ مُحَمَّدًا أفضل الأنبياء وأعظم المُرْسَلِين على الإطلاق،وهو السَّيد المُتَواضِع.والحديثُ يُبيِّن مكانةَ النبيِّ مُوسىﷺالعظيمة.

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٥) : ((قَوله : " فلا أدري أكان مِمَّن صَعِقَ فأفاقَ قَبْلي ، أو كان مِمَّن استثنى اللهُ " ، أي : فلم يكن مِمَّن صَعِقَ ، أي : فإن كان أفاقَ قَبْلي فهي فضيلة ظاهرة ، وإن كان مِمَّن استثنى اللهُ ، فلم يَصعَق ، فهي فضيلة أيضًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بالحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾[ق : ٤٢] .

يَوم يَسمع الخَلْقُ كُلُّهم صَيحةَ البَعْث التي تأتي بالحق ، وهي النَّفْخَة الثانية في الصُّور مِن إسرافيل عليه السلام ، ذلك هو يوم الخُروج من القبور بأمر الله للحَشْر والحِساب والجَزاء . ويَوم الخُروج مِن أسماء يَوم القِيامة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ ، وهي هذه النَّفْخَة الثانية ﴿ بالحَقِّ ﴾ أي : بالبَعْث الذي لا شَكَّ فيه ، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾ مِن القُبور)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ ﴾[المُدَّثر : ٨] .

نُفِخَ في الصُّور ، وهو القَرْن الذي يَنفُخ فيه المَلَكُ إسرافيلُ _ عليه السلام _ نَفْخَةَ البَعْث (النَّفْخَة الثانية) . والنَّقْرُ في كلام العرب الصَّوْت ، وقد عبَّر عن النَّفْخ في الصُّور بالنَّقْر في الناقور ، لبيان شِدَّة الصَّوت ، وهَول الأمر . والصَّوْتُ الشَّديد يَكون مُخِيفًا ومُفْزِعًا ومُرْعِبًا .

والآيةُ تُوضِّح أهوالَ يوم القيامة ، وصُعوبة المَوقِف ، وشِدَّة الخَطْب .

وفي مُسند أحمد (١/ ٣٢٦): عن ابن عباس: في قَوله: ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ ﴾. قال: قال رسول الله ﷺ:((كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْنِ قد التقمَ القَرْنَ،وحَنى جَبهته يَسمع مَتى يُؤمَر فيَنفُخ؟))، فقال أصحاب مُحمَّد :كيف نَقول ؟ قال: ((قُولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ، على الله تَوَكَّلْنا)).

وعن بَهْز بن حَكِيم قال : أَمَّنَا زُرَارة بن أَوْفَى في مَسْجِد بني قُشَير ، فقرأ المُدَّثر ، فلمَّا انتهى إلى هذه الآية : ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ ﴾ خَرَّ مَيِّتًا . قال بَهْز : فكنتُ فِيمَن حَمَلَه [١٤٢].

هذا يدل على قُوَّة إيمان السَّلَف الصالح ، وتأثُّرهم الشديد بالقُرآن الكريم ، فلم يَقْدِر زُرَارة أن يتحمَّل هذه الآيةَ العظيمة ، التي تُشير إلى أهوال يَوم القِيامة ، وشِدَّة المَوقف ، فَسَقَطَ مَيِّتًا .

٧_ مَن وَرَدَ اسْمُه مِنهُم

أ _ جِبريل

قالَ اللهُ تعالى:﴿قُل مَن كان عَدُوًّا لِجبريلَ فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن الله ﴾[البقرة: ٩٧][١٤٣].

نَزلت هذه الآيةُ في اليهود الذين زعموا أنَّ جِبريل _ عليه السلام _ عدوٌّ لهم ، وأنَّ مِيكائيل _ عليه السلام _ وَلِيٌّ لهم . وهذا الزَّعْمُ الباطل ناتج عن طبيعة أهواء اليهود المُتضاربة . حيث إنهم يَخترعون العقائدَ تَبَعًا لأمزجتهم ومصالحهم . ولو استندوا إلى التوراة الصحيحة في أخذ عقائدهم لخرجوا مِن الظُّلمات إلى النُّور ، ولكنهم اتَّخذوا التَّوراةَ وراءهم ظِهْرِيًّا، وراحوا يَخترعون عقائدهم الدينية، ومواقفهم الاجتماعية ، وفلسفتهم الحياتية ، وَفْق أهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية الزائلة . وكُل تفكير اليهود مُركَّز على جَمْع حُطام الدُّنيا الفاني .

---

١٤٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) برقم (٣٨٧١) . وسكت عنه الذهبي . ورواه التِّرمذي في سُننه (٢/ ٣٠٦) وقال : ((حسن صحيح)) .

١٤٣ قال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٧) : ((سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ : إنه ليس نبيٌّ مِن الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة مِن عند ربِّه بالرِّسالة وبالوَحْي ، فمَن صاحبك حتى نُتابعك ؟، قال : "جِبريل " . قالوا : ذاك الذي يَنزِل بالحرب وبالقتال ، ذاك عَدُوُّنا !، لو قُلْتَ : ميكائيل الذي يَنزِل بالقَطْر وبالرحمة تابعناكَ ، فأنزل اللهُ الآية ... . أخرجه الترمذي . وقَوله تعالى: ﴿ فإنه نزَّله على قلبكَ ﴾ الضمير في " إنه " يحتمل معنيين : الأول فإن الله نزَّل جبريل على قلبك . الثاني فإن جِبريل نَزَلَ بالقُرآن على قلبك . وخُصَّ القلب بالذِّكْر ، لأنه موضع العقل والعِلْم وتلقِّي المعارف . ودلَّت الآية على شرف جِبريل عليه السلام ، وذَم مُعاديه . وقَوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ أي : بإرادته وعِلْمه)) .

قال الطبري في تفسيره (١/ ٤٧٦) : ((أجمعَ أهل العِلْم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زَعموا أن جِبريل عدوٌّ لهم، وأن مِيكائيل وَلِيٌّ لهم)) اهـ.

قُل لليهود يا مُحمَّد : مَن كان عَدُوًّا لجِبريل ، فإنَّه عدوٌّ لله ، لأنَّه أمينُ الوَحْي والواسطة بين الله ورُسله ، ومَن عاداه فقد عادى اللهَ . وجِبريل الأمين نزَّل القُرآنَ على قلبك يا مُحمَّد بأمر الله وعِلْمه وإرادته وتَيسيره ، لرفع معنوياتك ، وزيادة إيمانك ، وتقوية قَلبك ، وتَثبيتك على الحق . وخُصَّ القلب بالذِّكر ، لأنَّه موضع العَقْل والعِلْم وتلقِّي المعارف .

والآيةُ تُوضِّح مكانةَ جِبريل العظيمة ، ومَنزلته العالية ، وشرفه الرفيع . ولا مَعنى لعداوة اليهود لجِبريل ، فإنَّه يُنفِّذ أوامرَ الله تعالى ، ولم يَصدُر مِنه إلا ما يُوجِب المَحَبَّة والتعظيم .

إنَّ اليهود لا يَحترمون مَكانةَ المَلائكة _ عليهم السلام _ لذلك يَعْمَدُون إلى انتقاصهم والحَط من قَدْرهم ، والطعن فيهم. وهذا مرجعه إلى الأهواء الباطلة والأماني التافهة، والتَّنَصُّلِ من تحمُّل المسؤولية . فقد اتَّخذوا جِبريل الأمين _ عليه السلام _ عَدُوًّا لهم، وهُم بذلك يُعادون اللهَ تعالى ، لأن الملائكة لا يتصرَّفون مِن تِلْقاء أنفسهم ، بل يُنفِّذون أوامرَ الله بلا زيادة ولا نُقصان .

مَن كان عَدُوًّا لجِبريل ويَكْرهه ويُبغِضه ، فَلْيَمُتْ غَيْظًا ، إن جِبريل مَلَكٌ كريمٌ عظيم ، نزَّل القُرآنَ على قلبِ النبيِّ مُحمَّد ﷺ بأمر الله . والأنبياءُ والملائكةُ لا يَأتون بشيء مِن عِندهم ، وإنَّما يُنفِّذون أوامرَ الله كاملةً ، ويَخضعون لإرادته وحُكمه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٨٢) : ((هذه الآية قد أجمعَ المُفسِّرون على أنَّها نَزلت في اليهود . قال ابن جرير الطبري : وأجمعَ أهلُ التأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا على اليهود ، إذْ زَعموا أنَّ جِبريلَ عدوٌّ لهم ، وأنَّ مِيكائيل وَلِيٌّ لهم ، ثُمَّ اختلفوا ما كان سبب قَولهم ذلك؟، فقال بَعْضُهم: إنَّما كان سبب ذلك مِن أجل مُناظرة جَرَتْ بينهم وبين رسول الله ﷺ، مِن أمر نُبُوَّته ... . والضَّمير في قَوله : ﴿ فإنه ﴾ يحتمل وجهَيْن : الأول أن يكون لله ، ويكون الضَّمير في قَوله: ﴿ نزَّله ﴾ لجِبريل، أي: فإنَّ الله سُبحانَه نزَّل جِبريلَ على قلبك، وفيه ضَعْف ... . الثاني أنَّه لجِبريل ، والضَّمير في ﴿ نزَّله ﴾ للقُرآن ، أي : فإنَّ جِبريل نزَّل القُرآنَ على قلبك . وخُصَّ القلب بالذِّكْر ، لأنه مَوضِع العَقْل والعِلْم ، وقَوله : ﴿ بإذن الله ﴾ ، أي : بعِلْمه وإرادته وتَيسيره وتَسهيله ... . وفي هذا دليل على شَرَف جِبريل ، وارتفاع مَنزلته ، وأنَّه لا وَجْه لمُعاداة اليهود له ، حيث كان مِنه ما ذُكِرَ مِن تنزيل الكِتاب على قَلْبك ، أوْ مِن تَنزيل الله له على قلبك . وهذا هو وجه الربط بَيْن الشَّرط والجَواب، أي: مَن كان مُعَادِيًا لجِبريل مِنهُم، فلا وَجْه لمُعاداته له.

فإنَّه لم يَصدُر مِنه إلا ما يُوجِب المَحَبَّة دُون العَدَاوة ، أوْ مَن كان مُعَادِيًا له فإن سبب مُعاداته أنَّه وَقَعَ مِنه ما يَكرهونه مِن التَّنزيل ، وليس ذلك بذَنْب له ... ، فإنَّ هذه الكراهة مِنهم له بهذا السبب ظُلم وعُدوان ، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مُصدِّق لكتابهم ، وهُدى وبُشرى للمؤمنين)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٢٤) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿قُل مَن كان عَدُوًّا لِجِبريلَ ﴾ .

قال ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ : إنَّ حَبْرًا مِن أحبار اليهود يُقال له عبد الله بن صُورِيَا ، قال للنبيِّ ﷺ : أيُّ مَلَكٍ نَزَلَ من السماء ؟ ، قال : ((جِبريل)) . قال : ذلك عَدُوُّنا مِن المَلائكة، ولَو كان مِيكائيل لآمَنَّا بِك ، إنَّ جِبريل يَنزِل بالعذاب والقِتال والشِّدة ، وإنَّه عَادانا مِرَارًا ، وكان مِن أشدِّ ذلك عَلَينا ، أنَّ الله تعالى أنزلَ على نَبِيِّنا أنَّ بيت المَقدِس سيُخَرَّب على يَد رَجُل يُقال له : بُخْتُنَصَّر . وأخْبَرَنَا بالحِين الذي يُخرَّب فِيه ، فلمَّا كان وَقْته بَعَثْنا رَجُلًا من أقوياء بني إسرائيل في طَلَبه لقَتْله ، فانطلقَ حتَّى لَقِيَه ببَابِل غُلامًا مِسكينًا ، فأخذه لِيَقتله ، فدفع عنه جِبريل ، وكَبُرَ بُخْتُنَصَّر، وقَوِيَ ، وغَزَانا ، وخَرَّبَ بَيْتَ المَقدِس ، فلهذا نتَّخذه عَدُوًّا ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية.

وقال مُقاتل : قالت اليهود : إنَّ جِبريلَ عَدُوُّنا ، لأنه أُمِرَ بجَعْل النُّبُوَّة فِينا ، فجَعَلَهَا في غَيْرنا .

وقال قَتادة وعِكرمة والسُّدي : كان لعُمر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة ، ومَمَرُّها على مدارس اليهود ، فكان إذا أتى أرْضَه يأتيهم ويَسمع مِنهُم كِلامًا ، فقالوا له : ما في أصحاب مُحمَّد أحب إلَينا مِنكَ ، إنَّهم يَمُرُّون عَلَينا ، فيُؤذوننا ، وأنتَ لا تُؤذينا ، وإنَّا لَنَطْمَع فِيك ، فقال عُمر : واللهِ ما آتيكم لِحُبِّكم، ولا أسألكم لأنِّي شاكٌّ في دِيني،وإنَّما أدخل عليكم لأزدادَ بَصيرةً في أمر مُحمَّدﷺ، وأرى آثارَه في كتابكم ، وأنتم تَكْتُمونها ، فقالوا : مَن صاحب مُحمَّد الذي يأتيه مِن المَلائكة ؟، قال : جِبريل ، فقالوا : ذلك عَدُوُّنا ، يُطلِع مُحَمَّدًا على أسرارنا ، وهو صاحب كل عَذاب وخَسْف وسَنَة (جَدْب) وشِدَّة ، وإنَّ مِيكائيل إذا جَاءَ ، جَاءَ بالخِصْب والمَغنَم ، فقال لهم عُمر : تَعرِفون جِبريلَ وتُنكِرون مُحَمَّدًا ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فأخبروني عن مَنزِلة جِبريل ومِيكائيل مِن الله عَزَّ وَجَلَّ ؟ ، قالوا : جِبريل عن يَمينه ، ومِيكائيل عن يَساره ، قال عُمر : فإنِّي أشْهَدُ أنَّ مَن كان عَدُوًّا لجِبريل ، فهو عَدُوٌّ لِميكائيل ، ومَن كان عَدُوًّا لمِيكائيل ، فإنَّه عدوٌّ لجِبريل . ثُمَّ رَجَعَ عُمر إلى رسول الله ﷺ ، فَوَجَدَ جِبريلَ قد سَبَقَه بالوَحْي ، فقرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ، فقال : ((لقد وَافقك رَبُّكَ يا عُمر)) ، فقال عُمر : لقد رَأيْتُني بعد ذلك في دِين الله أصْلَبَ مِن الحَجَر . قال اللهُ تعالى : ﴿ قُل مَن كان عَدُوًّا لِجِبريلَ فإنه ﴾ يعني : جِبريل ﴿ نزَّله ﴾ ، يعني : القُرآن ، كِناية عَن غَير مَذكور ﴿ على قلبكَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ بإذن الله ﴾ بأمر الله)) .

وفي صحيح البخاري(٤/١٦٢٨):عن أنس قال: سَمِعَ عبد الله بن سَلام بِقُدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرضٍ يَخْتَرِفُ _ يعني يَجتني مِن ثمارها _ ، فأتى النبيَّ ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلا نبيٌّ، فما أوَّلُ شَرَطِ الساعة ؟،وما أوَّلُ طعامِ أهل الجنة ؟، وما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه أو إلى أُمِّه ؟،قال: ((أخبَرَني جِبريلُ آنِفًا)). قال: جِبريل ؟، قال:((نعم)). قال : ذاكَ عَدُوُّ اليهودِ مِنَ الملائكة، فقرأ هذه الآية : ((﴿ مَن كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن الله ﴾ ...)) [١٤٤].

عبد الله بن سلام كان حَبْرًا يهوديًّا باحثًا عن الحق، وعِندما وَجَدَه أعلنَ إسلامَه فصار صحابيًّا جليلًا_رضي اللهُ عنه_. وقد سَأل النبيَّ ﷺ عن ثلاث مسائل لا يَعْلَمُها إلا نبيٌّ ، وذلك لِكَي يتأكَّد مِن نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ. وهذا هو أسلوب الباحثين عن الحق، الساعين بكل إخلاص إلى النُّور الإلهيِّ.

وعبد الله بن سلام كان بإمكانه أن يَفعل مِثل قَومه اليهود ، فيتَّخذ موقفًا مُسْبَقًا مِن الدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية ، فيُكذِّب النبيَّ ﷺ مُباشرةً ، وبلا مُقدِّمات ولا حِوار . ولَكِنَّه اتَّخَذَ الحِوَارَ والتَّحَقُّق مِن أمر مُحمَّد ﷺ طريقًا له نحو الحق ، وهذا يدل على رجاحة عَقْله ، وثِقته بنفْسه . فالحِوَارُ لغة الأقوياء الواثقين مِن أنفسهم ، والهُرُوبُ مِنه أسلُوب الضُّعفاء العاجزين الذين لَيْسَ لَدَيهم ما يُقدِّمونه مِن أدلة وبراهين وحُجَج .

إنَّ عَداوة المَلائكة صَارت صِفَةً لازمة لليهود ، الذين لا يعرفون قَدْر الشريعة ومنزلة الأنبياء والملائكة ، لذلك يقتلون الأنبياءَ ، ويُحاولون تَشويه صُورتهم بكُل وسيلة ، ويَطعنون في الملائكة بدافع الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية والآراء العبثية التي ما أنزلَ اللهُ بِها مِن سُلطان . وهُم لا يُحاولون الخُروج مِن المُستنقع الذي يَغرقون فيه ، لأنَّهم رَضُوا بالحياة الدُّنيا واطْمَأنُّوا بها . وهي مَبْلَغُهم مِن العِلْم ، ونُقطة بدايتهم ونهايتهم .

ب _ مِيكال

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ [البقرة : ٩٨] . مَن عَادَى اللهَ وملائكته ورُسُلَه ، وبالأخص جِبريل ومِيكال (مِيكائيل) ، وهُما أعظم مَلَكَيْن ، فهو كافرٌ ضَال ، وعَدُوٌّ لله تعالى . واللهُ عدوٌّ للكافرين ، تَوَلَّى هذه العَدَاوة بنفْسه، ودافعَ عن ملائكته ورُسُله ، وكفاهم أمرَ مَن عاداهم . وهذا وعيدٌ أكيد ، وتهديد شديد .

١٤٤ قال الحافظ في الفتح(٨/ ١٦٥): ((قِيل: سبب عَدَاوة اليهود لجِبريل أنه أُمِرَ باستمرار النُّبُوَّة فيهم فنقلها لغَيرهم. وقيل: لكَوْنه يطَّلع على أسرارهم.قُلْتُ:وأصحُّ مِنهما لكَوْنه الذي يَنزِل عليهم بالعذاب)) .

ومَن كَان عَدُوًّا لأيِّ مَلَكٍ أو رسولٍ ، فإنَّه عدوٌّ لله ، واللهُ عَدُوٌّ له ، لأنَّ عَدُوَّ الواحد عدو الجميع ، والكافر بالواحد كافر بالكُل . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٤): ((وهذا خَبَر مِن الله جَلَّ ثناؤه : مَن كانَ عَدُوًّا لله ، مَن عاداه ، وعادى جَميعَ ملائكته ورُسله ، وإعلام مِنه أنَّ مَن عادى جِبريل ، فقد عاداه ، وعادى مِيكائيل، وعادى جَمِيعَ ملائكته ورُسُله ، لأنَّ الذين سمَّاهم اللهُ في هذه الآية هُم أولياء الله ، وأهل طاعته ، ومَن عادى لله وَلِيًّا فقد عادى اللهَ ، وبارزه بالمُحَارَبَة ، ومَن عَادى اللهَ ، فقد عادى جَمِيعَ أهل طاعته ووَلايته ، لأن العدو لله عدو لأوليائه ، والعدو لأولياء الله عدو له ، فكذلك قال لليهود الذين قالوا : إنَّ جِبريل عَدُوُّنا مِن المَلائكة ، ومِيكائيل وَلِيُّنا مِنهُم : ﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين﴾مِن أجل أن عَدُوَّ جِبريل عدو كُل وَلِيٍّ لله، فأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ مَن كان عدوًّا لجِبريل ، فهو لكُلِّ مَن ذَكَرَه مِن مَلائكته ورُسُله ومِيكال عَدُو، وكذلك عَدُوُّ بَعْضِ رُسُل الله ، عَدُو لله ، ولكُلِّ وَلِيٍّ)) .

واللهُ لَم يقل : فإنَّه عدوٌّ للكافرين ، بَل قال : ﴿ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ ، وإظهار اسم الله (لَفْظ الجَلالة) لتعظيم الله وتقديسه، وبيان أنَّ مَن عادى وَلِيًّا للهِ، فقد عادى اللهَ، ومَن عادى اللهَ، فاللهُ عدوٌّ له ، ومَن كان اللهُ عَدُوَّه ، فقد هَلَكَ ، وضَاعَ ، وخَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ ، وحياته ستكون تعيسة ، وهو في الآخِرة مِن أهل النار ، خالدٌ فيها ، ولَن يَخرُج مِنها أبدًا. وأيضًا ، إنَّ الله لَم يَقُل: فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ لهم، بَل قال:﴿فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين﴾ ، ووضع الظاهر مَوضِع المُضمَر لبيان سُوء حالهم، وتَسجيل صِفة الكُفر عليهم ، وأنَّهم بسبب عداوتهم للملائكة صاروا كافرين .

وقد أعادَ اللهُ ذِكْرَ جِبريل ومِيكال ، معَ أنَّهما داخلان في الملائكة ، لبيان شرفهما وفضلهما ومكانتهما العظيمة . وهذا مِن عَطْف الخاص على العام . والمَلَكُ مِيكال (مِيكائيل) _ عليه السلام _ يَأتي في المَنزلة بعد المَلَك جبريل _عليه السَّلام _، وهُما مَلَكَان كريمان عَظيمان .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٨١) : ((﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ وهذا مِن باب عَطْف الخاص على العام ، فإنَّهما دَخَلا في المَلائكة في عُموم الرُّسُل ، ثُمَّ خُصِّصَا بالذِّكْر ، لأنَّ السِّياق في الانتصار لجَبْرائيل،وهو السَّفير بَيْن الله وأنبيائه، وقَرَنَ معه مِيكائيل في اللفظ،لأن اليهود زَعموا أن جَبْرائيل عَدُوُّهم ، ومِيكائيل وَلِيُّهم ، فأعلمهم اللهُ تعالى أنَّ مَن عادى واحدًا مِنهما ، فقد عادى الآخَرَ ، وعادى اللهَ أيضًا ، ولأنَّه أيضًا يَنزل على أنبياء الله بَعْضَ الأحيان ، كما قُرِنَ برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر ، ولكنَّ جَبْرائيل أكثر ، وهي وظيفته ، ومِيكائيل مُوكَّل بالنَّبات والقَطْر ، هذا بالهُدى ، وهذا بالرِّزق ، كما أن إسرافيل مُوكَّل بالنَّفْخ في الصُّور للبَعْث يوم القيامة)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٣٤) أنَّ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن بن عَوف قال : سَألتُ عائشةَ أُمَّ المؤمنين، بأيِّ شيءٍ كان نبيُّ الله ﷺ يَفتتح صَلاتَه إذا قام مِن الليل ؟ ، قالت : ((كانَ إذا قَامَ مِن الليل افتتحَ صَلاتَه : اللهُمَّ رَبَّ جَبْرائيل ، ومِيكائيل ، وإسرافيل ، ...)) .

إنَّ الله رَبُّ جَميع المَخلوقات، ولكنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّ هؤلاء الملائكة الكِرام بالذِّكْر، لشرفهم ، وتعظيمًا لشأنهم ، وتفضيلًا لهم على غَيرهم ، ولأنهم عُظَماء الملائكة وأشرافهم معَ مَلَك المَوت .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٥٧) : ((قال العلماء : خَصَّهم بالذِّكْر وإن كان اللهُ تعالى رَبَّ كُلِّ المخلوقات ، كما تَقَرَّرَ في القُرآن والسُّنَّة مِن نظائره ، مِن الإضافة إلى كُل عَظيم المَرتبة ، وكبير الشَّأن، دُون ما يُسْتَحْقَر ويُسْتَصْغَر، فيُقال له سُبحانَه وتعالى: رَب السَّماوات والأرض، رَب العَرْش الكريم، ورَب المَلائكة والرُّوح ، رَب المَشْرِقَيْن ، ورَب المَغْرِبَيْن، رَب النَّاس، مَالِك الناس ، إله الناس ، رَب العَالَمِين ، رَب كُل شيء ، رَب النَّبيين ، خالق السماوات والأرض ، فَاطِر السماوات والأرض جاعل الملائكة رُسُلًا ، فكُل ذلك وشَبَهه وَصْف له سُبحانَه بدَلائل العَظَمَة ، وعظيم القُدْرة والمُلْك ، ولَم يُستعمَل ذلك فِيما يُحْتَقَر ويُسْتَصْغَر ، فلا يُقال : رَب الحشرات ، وخالق القِرَدة والخَنازير ، وشَبَه ذلك على الإفراد ، وإنَّما يُقال : خالق المخلوقات وخالق كُل شيء ، وحِينئذ تَدخل هذه في العُموم ، والله أعلم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ ﴾ شَرْط ، وجَوابه: ﴿ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ . وهذا وَعيد ، وذَم لِمُعَادي جِبريل _ عليه السلام_ وإعلان أن عَدَاوة البَعْض تَقتضي عداوة الله لهم ، وعداوة العبد لله هِيَ مَعصيته ، واجتناب طاعته ، ومُعاداة أوليائه ، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه . فإن قِيل : لِمَ خَصَّ اللهُ جِبريلَ ومِيكائيلَ بالذِّكْر وإن كان ذِكْر المَلائكة قد عَمَّهما ؟ ، قيل له : خَصَّهما بالذِّكْر تشريفًا لهما ... . وقِيل : خُصَّا لأن اليَهود ذكروهما ، ونزلت الآية بسببهما ، فذِكْرهما واجب ، لئلا تقول اليهود إنَّه لَم نُعَادِ اللهَ وجميعَ ملائكته ، فنصَّ اللهُ تعالى عليهما لإبطال ما يَتَأَوَّلونه مِن التَّخصيص ، ولعلماء اللسان في جِبريل ومِيكائيل عليهما السلام لُغات)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٨) : ((﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ . أرادَ بعداوة الله مُخالفته عِنَادًا ، أو مُعاداة المُقرَّبين مِن عباده . وصدَّر الكلامَ بذِكْره تفخيمًا لشأنهم، ...، وأفردَ المَلَكَيْن بالذِّكْر لفَضْلهما، كأنَّهما مِن جِنس آخَر، والتَّنبيه على أن مُعاداة الواحد والكُل سَواء في الكُفر ، واستجلاب العداوة من الله تعالى ، وأن مَن

عادى أحَدَهم ، فكأنَّه عادى الجميعَ ، إذ الواجب لعداوتهم ومَحَبَّتهم على الحقيقة واحد ، ولأن المُحَاجَّة كانت فيهما . ووَضْع الظاهر مَوضِع المُضْمَر للدَّلالة على أنَّه تعالى عاداهم لكُفرهم ، وأن عَداوة الملائكة والرُّسُل كُفر)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٨٣) : ((... ، ثُمَّ أتبعَ سُبحانَه هذا الكلام بجُملة مُشتملة على شَرْط وجَزاء يتضمَّن الذَّم لِمَن عادى جِبريلَ بذلك السَّبب والوعيد الشديد له، فقال : ﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ . والعَدَاوة مِن العَبْد هي صُدور المَعاصي مِنه لله ، والبُغض لأوليائه ، والعَدَاوة من الله للعَبْد هي تعذيبه بذَنْبه ، وعدم التجاوز عنه والمغفرة له . وإنَّما خَصَّ جِبريلَ ومِيكائيلَ بالذِّكْر بَعْد ذِكْر الملائكة ، لقَصْد التَّشريف لهما ، والدَّلالة على فَضْلهما ، وأنَّهما وإن كانا مِن الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما مِن المَزِيَّة بمَنزلة جِنس آخَر أشرف مِن جِنس المَلائكة ، تنزيلًا للتَّغَايُر الوَصْفي منزلة التغاير الذاتي، كما ذَكَرَه صاحب الكشَّاف ، وقرَّره عُلماء البيان . وفي جِبريل عَشْر لُغات ، ذَكَرَها ابن جرير الطبري وغَيره ...، وفي مِيكائيل سِت لغات ، وهُما اسمان عجميان ، والعرب إذا نَطقت بالعجمي تساهلت فيه. وحكى الزمخشري عن ابن جِنِّي أنَّه قال : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه ، وقَوله : ﴿ للكافرين ﴾ مِن وَضْع الظاهر مَوضِع المُضمَر ، أي : فإنَّ الله عدوٌّ لهم ، لقَصْد الدَّلالة على أن هذه العَداوة مُوجِبة لكُفر مَن وَقَعَتْ مِنه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٥٢) : ((أخذ الإمامُ الرازي مِن قَوله تعالى : ﴿ مَن كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ ، أنَّهما أشرف مِن جَميع الملائكة ، لقَولهم إنَّه إنَّما أفردهما بالذِّكْر لفَضْلهما ، لأنَّهما لكَمال فَضْلهما صارا جِنْسًا واحدًا سِوى جِنس المَلائكة . قال : فهذا يَقتضي كَونهما أشرف مِن جميعهم ، وإلا لم يَصِح هذا التأويل . قالوا : وإذا ثَبَتَ هذا، فنقول : يجب أن يَكون جِبريل أفضل مِن مِيكائيل ، لأنَّه تعالى قدَّم جِبريلَ في الذِّكْر ، وتقديم المَفضول على الفاضل في الذِّكْر مُسْتَقْبَح لفظًا ، فواجب أن يكون مُسْتَقْبَحًا وَضْعًا ، كقَوله : " ما رآه المؤمنون حَسَنًا ، فهو عند الله حَسَن " . ولأنَّ جِبريل يَنزِل بالوَحْي والعِلْم ، وهو مادة بقاء الأرواح ، ومِيكائيل بالخِصْب والمَطَر ، وهو مادة بقاء الأبدان . والعِلْم أشرف مِن الأغذية ، فيجب أن يكون جِبريل أفضل،ولأنَّه قال تعالى في صِفة جِبريل:﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[التَّكوير: ٢١]. فذَكَرَه بوَصْف المُطَاع على الإطلاق ، وهو يَقتضي كَوْنه مُطَاعًا بالنِّسبة إلى مِيكائيل ، فوجب كَوْنه أفضل منه)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٢): عن سَعْد بن أبي وقَّاص ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : ((رَأيْتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شِماله يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْن،عَلَيْهِما ثِيَابُ بَيَاضٍ،ما رَأيْتُهُمَا قَبْلُ ولا بَعْد)). يعني جِبريلَ ومِيكائيلَ ـ عليهما السلام ـ .

إنَّ اللهَ يعتني بالنبيِّ ﷺ ، ويَحْميه مِن كُل سُوء ، ويُدافع عنه ، وقد أمَدَّه بأعظم مَلَكَيْن ، جِبريل ومِيكائيل، ليَكُونا معه بالنَّصْر والحماية والرعاية والعناية والتأييد ، ورفع معنوياته ، وتَقوية قلبه ، وتثبيته على الحق . واللهُ قادرٌ على حماية النبيِّ ﷺ بدُون مَلائكة ، ولكنَّ سُنَّة الله في عباده ثابتة ، وقد أقامَ اللهُ الكَوْنَ على منظومة الأسباب والمُسبِّبات .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٦٦) : (((باب إكرامه ﷺ بقِتال المَلائكة معه ﷺ) . قَوله : رَأيْتُ عن يمين رسول الله ﷺ ، وعَن شِماله ، يوم أُحُد ، رَجُلَيْنِ عليهما ثِيَابُ بَيَاضٍ، ما رَأيْتُهُمَا قَبْلُ ولا بَعْد. يَعني جِبريلَ ومِيكائيلَ عليهما السلام . وفي الرواية الأخرى: أحدهما عن يَمينه ، والآخَر عَن يَساره ، يُقَاتلان عَنه كأشدِّ القِتال . فِيه بيان كرامة النبيِّ ﷺ على الله تعالى ، وإكرامه إيَّاه بإنزال المَلائكة ، تُقَاتِل معه ، وبيان أنَّ المَلائكة تُقَاتِل ، وأنَّ قِتالهم لم يَختص بيوم بَدْر ، وهذا هو الصَّواب ، خِلافًا لِمَن زَعَمَ الاختصاص ، فهذا صَريح في الرَّد عليه . وفيه فضيلة الثِّياب البِيض ، وأنَّ رُؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء ، بَل يَراهم الصَّحابة والأولياء . وفِيه مَنْقَبَة لسَعْد بن أبي وقَّاص ، الذي رأى المَلائكةَ ، والله أعلم)) .

ج ـ مَالِك

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قالَ إنَّكُم مَاكِثُون ﴾[الزُّخْرُف : ٧٧] .

المَلَكُ مَالِك ـ عليه السلام ـ هو خازن النار . وهؤلاء الذي يُنَادُون هُم الكُفَّار الذين يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ ، كَي يَستريحوا مِن العذاب الأبديِّ في نار جهنَّم .

ونادى الكُفَّارُ خَازِنَ النار:يا مَالِك، لِيُمِتْنَا اللهُ حتَّى نستريح من العذاب الشديد . ومعَ أنَّهُم غارقون في اليأس ، وفاقدون للأمل ، إلا أنَّهُم مِن شِدَّة العذابِ والألمِ طَمِعُوا في المَوْت ، وصارَ أُمْنِيَّةً لهم ، وحُلْمًا بعيدَ المَنال . لِيَقْبِضْ أرواحَنا حتى نتخلَّص مِن العذاب ونرتاح . لقد توسَّلوا بمَالِك إلى الله ، أن يَدْعُوَه ويَطلُب مِنه أن يُميتهم كَي يَرتاحوا مِن العذاب. وهذا يدلُّ على معرفتهم بأن المَلائكة عِبَاد كِرَام ، لهم مكانة عظيمة عِند الله ، ومُقرَّبون مِنه . أجابهم مَالِك بعد ألف سَنَة : إنَّكُم خالدون في النار ، ومُقيمون في العذاب أبدًا ، بلا انقطاع ولا مَوت . لا خُروج لكم مِن النار، ولا مَهْرَب لكم مِن العذاب. وهذا مُنتهى الخِزْي والعار والذُّل .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢١٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ونادى هؤلاء المُجرمون بَعْد ما أدخلهم اللهُ جَهَنَّمَ ، فنالهم فِيها مِن البَلاء ما نالهم، مَالِكًا خَازِنَ جَهَنَّم : ﴿ يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ . قال : لِيُمِتْنَا رَبُّكَ فيَفرُغ مِن إماتتنا. فذُكِرَ أن مَالِكًا لا يُجيبهم في وَقْت قِيلهم له ذلك ، ويَدَعهم ألف عام بعد ذلك ، ثُم يُجيبهم ، فيقول لهم : ﴿ إنَّكُم مَاكِثُون ﴾)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٣٠) : ((قال المُفسِّرون : يَدْعُون مَالِكًا خَازِنَ النار ، فيقولون : ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ . أي : لِيُمِتْنَا . والمعنى أنَّهُم توسَّلوا به لِيَسأل اللهَ تعالى لهم المَوت ، فيَستريحوا مِن العَذاب ، فيَسكُت عَن جَوابهم مُدَّة ، فيها أربعة أقوال: أحدها أربعون عامًا ، قاله عبد الله بن عمرو ومُقاتل . والثاني ثلاثون سنة ، قاله أنس . والثالث ألف سنة ، قاله ابن عباس . والرابع مائة سنة ، قاله كَعْب . وفي سُكوته عن جَوابهم هذه المُدَّة قَولان: أحدهما أنَّه سَكَتَ حتى أوحى اللهُ إلَيه أن أجِبْهُم ، قاله مُقاتل. والثاني لأنَّ بُعد ما بين النّداء والجواب أخْزَى لهم وأذل. قال الماوردي: فردَّ عليهم مَالِك، فقال : ﴿ إنَّكُم مَاكِثُون ﴾ أي: مُقيمون في العذاب)).

وعن ابن عباس ــرضي اللهُ عنهماــ: في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنَادَوْا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ قال : ((مَكَثَ عَنهُم ألفَ سَنَة ، ثُمَّ قال : ﴿ إنَّكُم مَاكِثُون ﴾)) [١٤٥].

هذا مُنتهى الإذلال، لقد هانت دَعوتهم على مَالِك ــ عليه السلام ــ، فأهملها، ولم يَعبَأ بها، وهي لا تَستحق الرَّد فَوْرًا. لذلك، تَرَكَهم ألفَ سَنَة قبل أن يُجيبهم.وهانت دَعوتهم على الله تعالى، الذي تركهم في العذاب ، جَزاء كُفرهم وضلالهم في الدُّنيا . وعليهم أن يَلُوموا أنفسَهم ، لأنَّ اللهَ لَم يَظلمهم ، وإنَّما عاملهم بعَدْله . وهُم الذين ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، فأهلَكوا أنفسَهم ، وقادوها إلى الخُلود في عذاب النار الشديد .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٨٢) : عن سَمُرة قال : قال النبيُّ ﷺ : ((رأيتُ الليلةَ رَجُلَيْنِ أتَيَاني ، قالا : الذي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ خازنُ النارِ ، وأنا جبريل ، وهذا مِيكائيل)) .

رُؤيا الأنبياء حَق ، وما يَرَوْنَه في المَنَام هو وَحْيٌ إلهيٌّ ، لا مجال لدُخول الشَّيطان فيه . والحديثُ يُثبِت أنَّ المَلَكَ مَالِك ــ عليه السلام ــ هو خازن النار. وقد أرسلَ اللهُ أشرفَ المَلائكة إلى النبيِّ ﷺ ، لتعريفه بِنَفْسَيْهِمَا ، وزيادة عِلْمه ، وتقوية قَلْبه ، ورفع معنوياته . والمعنى : إنَّ اللهَ لَن يَتركَكَ يا مُحمَّد وحيدًا ، فقد أرسلَ إلَيْكَ أعظم ملائكته لتتعرَّف عليهم، وتكون قريبًا مِنهُم .

---

١٤٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٧) برقم (٣٦٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

د ـ مَلَك المَوت

قالَ اللهُ تعالى:﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُون﴾[السَّجدة:١١].

هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا مُحمَّد للمُشركين رَدًّا على إنكارهم للبَعْث : يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوت المُخْتَص بقَبْض أرواحكم ، بأمر الله ، هُوَ وأعوانه عِندما تَحِين الآجال . ثُمَّ تُرَدُّون أحياء ، وتَعُودون إلى اللهِ يَوم القيامة ، مِن أجل الحِساب ونَيْل الجَزاء العادل ، حَيث يُجازي اللهُ المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسيء بإساءته . ومَلَكُ المَوْت له أعوان مِن مَلائكةِ الرَّحمة ، ومَلائكةِ العذاب .

والآيةُ تردُّ على المُشركين الذين يُنكِرون البَعْثَ ، ولا يَعترفون بوجود حياة بعد المَوت ، ويَعتبرون المَوْتَ مِن الأحوال الطبيعية المُتعلِّقة بخِلْقة البشر ، وهو نُقطة النهاية ، ولا شَيء بَعْده. وقد كذَّبهم اللهُ ، وأخزاهم ، وفَضَحَ باطلَهم ، ورَدَّ عَلَيهم ، وبيَّن لهم أنَّ مَلَكَ المَوت هو الذي يَقبِض أرواحَهم بأمر الله ، في الوقت الذي يُحدِّده اللهُ ، ولا يَترك مِنهُم أحدًا . وليس المَوت حالًا مِن أحوال الطبيعة الإنسانية ، وليس صُدفة تأتي بشكل عبثي .

وذِكْر المَوت يَحمل تهديدًا شديدًا للكافرين مُنكِري البَعْث ، وفيه تنبيه إلى ضرورة اغتنام الحياة الدُّنيا في عبادة الله وطاعته . والمَوْتُ هادم اللذات ، ومُفرِّق الجماعات ، ويَدعو إلى الزُّهد في الدُّنيا الفانية ، والحِرص على الآخرة الباقية . ونعيمُ الآخرة الدائم لا يُقَارَن بحُطام الدُّنيا الفاني.

وإسنادُ التَّوَفِّي إلى مَلَك المَوت : ﴿ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ ﴾ ، لأنَّه المُبَاشِر لِقَبْض الأرواح ، والمُوكَّل بهذه العملية . أمَّا القابضُ للأرواح على الحقيقة فهو الله وَحْدَه . وقِيل : يَقبِض مَلَكُ المَوت الرُّوح ، ثُمَّ يُسلِّمها إلى مَلائكة الرَّحمة ، أو إلى مَلائكة العذاب .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠٤) : ((قال تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ﴾ . الظاهر مِن هذه الآية أنَّ مَلَك المَوت شَخْص مُعيَّن مِن المَلائكة ... . وقد سُمِّيَ في بعض الآثار بعِزْرائيل ، وهو المَشهور ، قاله قَتادة وغَير واحد ، وله أعوان . وهكذا ورد في الحديث أنَّ أعوانه يَنتزعون الأرواحَ من سائر الجسد ، حتَّى إذا بَلغت الحُلقومَ ، تناولها مَلَكُ المَوت . قال مُجاهد : حُوِيَتْ له الأرض ، فجُعِلت مِثل الطَّسْت ، يَتناول منها متى يشاء ... . وقَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُون﴾ ، أي : يَوم مَعادكم وقِيامكم مِن قُبوركم لِجَزائكم)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٢) : ((﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم ﴾ يقبِض أرواحَكم ﴿ مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ﴾ . أي : وُكِّلَ بقَبْض أرواحكم ، وهو عِزْرائيل . والتَّوَفِّي استيفاء العَدَد ، معناه أنَّه

يَقبِض أرواحَهم حتى لا يَبقى أحد مِن العَدَد ، الذي كُتِبَ عَلَيه المَوت . ورُوِيَ أنَّ مَلَك المَوت جُعِلت له الدُّنيا مِثل راحة اليد ، يَأخذ مِنها صاحبَها ما أحبَّ مِن غَير مَشَقَّة ، فهو يَقبِض أنفُس الخَلْق في مَشارق الأرض ومَغاربها ، وله أعوان مِن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . وقال ابن عباس : إنَّ خُطوة مَلَك المَوت ما بين المَشرِق والمَغرِب . وقال مجاهد : جُعِلت له الأرض مِثل طَسْت يتناول مِنها حيث يشاء . وفي بعض الأخبار : أنَّ مَلَك المَوت على مِعراج بين السماء والأرض ، فيَنزِع أعوانُه رُوحَ الإنسان ، فإذا بَلَغَ ثُغْرَةَ نَحْرِه ، فقَبَضَه مَلَكُ المَوت . وروى خالد ابن مَعْدَان عن مُعاذ بن جبل قال : إنَّ لمَلَك المَوت حَرْبَةً تَبلُغ ما بين المَشرِق والمَغرِب ، وهو يتصفَّح وُجُوهَ الناس ، فما مِن أهل بَيت إلا ومَلَكُ المَوت يتصفَّحهم في كُل يَوم مَرَّتَيْن ، فإذا رأى إنسانًا قد انقضى أجَلُه ، ضَرَبَ رَأسَه بتِلك الحَرْبَة ، وقال : الآنَ يُزار بِكَ عَسكر الأموات . قَوله : ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُون﴾ . أي : تَصِيرون إلَيه أحياء ، فيَجزيكم بأعمالكم)) .

هـ ـ هاروت وماروت

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

وما أُلْهِمَاه مِن السِّحْر. أي إنهم يَعْمَلُون الذي أُنزِل على المَلَكَيْن ، أي إلهامًا وعِلْمًا وتعليمًا . والإنزالُ بمعنى الإلهام . ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بلد في العراق . ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ . ساحران كانا يُعلِّمان السِّحْرَ ، أو مَلَكَان أُنزِلا لتعليم السِّحْر ابتلاءً مِن الله للناس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٢٢): ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ ﴾ . وفي ﴿ مَا ﴾ قَولان : أحدهما أنها مَعطوفة على ﴿ مَا ﴾ الأُولَى ، فتقديره : واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطين ، وما أُنزِل على المَلَكَيْن . والثاني أنها معطوفة على السِّحْر ، فتقديره : يُعلِّمون الناسَ السِّحْرَ ، ويُعلِّمونهم ما أُنزِل على المَلَكَيْن ، فإن قِيل : إذا كان السِّحْرُ نزل على المَلَكَيْن ، فلماذا كُرِهَ ؟ فالجواب مِن وجهين ذكرهما ابن السَّري : أحدهما أنهما كانا يُعلِّمان الناسَ : ما السِّحْرُ ، ويأمران باجتنابه . وفي ذلك حِكمة ، لأن سائلًا لو قال : ما الزنى ؟ ، لوجب أن يُوقَف عليه ، ويَعْلَم أنه حرام. والثاني أنه مِن الجائز أن يكون الله تعالى امتحنَ الناسَ بالمَلَكَيْن ، فَمَن قَبِلَ التَّعَلُّمَ كان كافرًا ، ومَن لم يَقْبَلْه فهو مؤمن ، كما امتحنَ بنهر طالوت . وفي الذي أُنزِل على المَلَكَيْن قَولان : أحدهما أنه السِّحْر ، رُوِيَ عن ابن مسعود والحسن وابن زيد. والثاني أنه التَّفرقة

بين المَرء وزَوْجه لا السِّحْر، رُوِيَ عن مجاهد وقَتادة ، وعن ابن عباس كالقَوْلَيْن . قال الزَّجاج: وهذا من باب السِّحْر أيضًا . الإشارة إلى قصة المَلَكَيْن . ذَكَرَ العلماء أن المَلَكَيْن إنما أُنزِلا إلى الأرض لسبب، وهو أنَّه لمَّا كَثُرَتْ خطايا بني آدم دَعَتْ عليهم الملائكةُ ، فقال اللهُ تعالى : لَوْ أنزلت الشَّهوة والشياطين مِنكم منزلتهما من بني آدم لفعلتُم مِثل ما فَعلوا ، فحدَّثوا أنفسهم أنهم إن ابْتُلُوا اعتصموا ، فأوحى اللهُ إليهم أن اختاروا من أفضلكم مَلَكَيْن، فاختاروا هاروت وماروت، وهذا مرويٌّ عن ابن مسعود وابن عباس . واختلف العلماء ماذا فعلا مِن المعصية على ثلاثة أقوال: أحدها أنهما زَنَيَا وقتلا وشَرِبا الخمرة، قاله ابن عباس.والثاني أنهما جارا في الحُكم، قاله عُبَيد الله ابن عُتبة. والثالث أنهما همَّا بالمعصية فقط)) .

وفي نهاية هذا المَبحَث الذي يتحدَّث عَن الملائكة الكِرام _ عليهم الصَّلاة والسَّلام _ ، نَختِم بحديث عام عَنهُم ، مَنقول مِن شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٩٧) : ((ومِنهُم مَلائكة الرَّحمة ، ومَلائكة العَذاب ، ومَلائكة قد وُكِّلُوا بحَمْل العَرْش ، ومَلائكة قد وُكِّلُوا بعِمَارة السماوات بالصَّلاة والتسبيح والتَّقديس إلى غَير ذلك مِن أصناف الملائكة ، التي لا يُحصيها إلا اللهُ ، ولفظ المَلَك يُشعِر بأنَّه رسول مُنفِّذ لأمر مُرْسِله، فليس لهم مِن الأمر شيء، بل الأمر كُلُّه للواحد القَهَّار، وهُم يُنفِّذون أمْرَه : ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وهُم بأمْرِهِ يَعْمَلُون ﴾ [الأنبياء : ٢٧] . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارتضى وهُم مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون ﴾[الأنبياء : ٢٨] . ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾ [النَّحل : ٥٠] . فهُم عِباد مُكْرَمُون ، مِنهُم الصَّافُّون، ومِنهُم المُسبِّحون، لَيْسَ مِنهُم إلا له مَقام مَعلوم، ولا يتخطَّاه، وهو على عمل قد أُمِرَ به، لا يَقْصُر عَنه، ولا يتعدَّاه، وأعلاهم الذين عِنده ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُون (١٩) يُسَبِّحُونَ الليلَ والنَّهَارَ لا يَفْتُرُون (٢٠) ﴾ [الأنبياء] . ورُؤساؤهم الأملاك الثلاثة : جَبْرائيل ، ومِيكائيل ، وإسرافيل ، المُوكَّلون بالحياة . فجَبْرائيل مُوكَّل بالوَحْي الذي به حياة القُلوب والأرواح ، ومِيكائيل مُوكَّل بالقَطْر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، وإسرافيل مُوكَّل بالنَّفْخ في الصُّور الذي به حياة الخَلْق بعد مَماتهم ، فهُم رُسُل الله في خَلْقه وأمْرِه ، وسُفراؤه بَيْنَه وبَيْن عِباده ، يَنزِلون بالأمر مِن عِنده في أقطار العالَم ، ويَصعَدون إليه بالأمر ، قد أَطَّت السَّماواتُ بهم ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها مَوضِع أربع أصابع ، إلا ومَلَكٌ قائم ، أو راكع ، أو ساجد لله . ويَدخل البَيْتَ المَعمورَ مِنهُم كُلَّ يَوم سَبعون ألفًا لا يَعُودون إلَيه آخِرَ ما عَلَيهم . والقُرآن مَملوء بذِكْر المَلائكة ، وأصنافهم ، ومراتبهم ، فتَارَةً يَقْرِنُ اللهُ تعالى اسْمَه باسمهم ، وصَلاته بصَلاتهم ، ويُضيفهم إلَيه في

مواضع التشريف ، وتَارَةً يَذكُر حَفَّهُم بالعَرْش ، وحَمْلهم له ، وبراءتهم مِن الذُّنوب، ومَراتبهم مِن الدُّنُوِّ، وتَارَةً يصفهم بالإكرام والكَرَم ، والتَّقريب ، والعُلُوِّ ، والطهارة، والقوة، والإخلاص . قالَ تعالى : ﴿ كُلٌّ آمنَ باللهِ ومَلائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴾[البقرة : ٢٨٥]. ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ والمَلائكةُ وأُولُو العِلْمِ ﴾ [آل عِمران : ١٨] . ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . ﴿ الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ويؤمنونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا ﴾ [غَافِر : ٧] . ﴿ وتَرَى الملائكةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾[الزُّمَر : ٧٥] . ﴿ بَل عِبَادٌ مُكْرَمُون ﴾ [الأنبياء : ٢٦] . ﴿ إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] . ﴿ فإنِ اسْتَكْبَرُوا فالذينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليلِ والنَّهارِ وهُم لا يَسْأمون ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٨]. ﴿ كِرَامًا كاتبين ﴾[الانفطار : ١١]. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عَبَسَ: ١٦] . ﴿ يَشْهَدُهُ المُقرَّبون ﴾ [المُطَفِّفِين: ٢١]. ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلأ الأعْلَى ﴾ [الصَّافَّات : ٨] . وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذِكْرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان. وقد تكلَّمَ الناسُ في المُفَاضَلَة بَيْن الملائكة وصالحي البشر ، ويُنسَب إلى أهل السُّنَّة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على المَلائكة ، وإلى المُعتزلة تفضيل الملائكة . وأتباع الأشعري على قَوْلَيْن: مِنهُم مَن يُفَضِّل الأنبياءَ والأولياءَ ، ومِنهُم مَن يقف ولا يَقطع في ذلك قَوْلًا . وحُكِيَ عن بعضهم مَيْلُهم إلى تفضيل الملائكة . وحُكِيَ ذلك عَن غَيرهم مِن أهل السُّنَّة وبعض الصوفية. وقالت الشيعة : إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة ، ومِن الناس مَن فَصَّلَ تفصيلًا آخَر ، ولم يقل أحد مِمَّن له قول يُؤْثَر إن الملائكة أفضل مِن بعض الأنبياء دُون بَعْض. وكنت ترددتُ في الكلام على هذه المسألة لقِلَّة ثمرتها ، وأنَّها قريب مِمَّا لا يَعني ، و " مِن حُسْن إسلام المَرء تَرْكُه ما لا يَعنيه " . والشَّيخ رحمه الله لم يتعرَّض إلى هذه المسألة بنَفْي ولا إثبات ، ولعلَّه يكون قد ترك الكلام فيها قَصْدًا ، فإن الإمام أبا حنيفة رضي اللهُ عنه وقف في الجواب عنها على ما ذَكَرَه في (مَآل الفتاوى) ، فإنه ذَكَرَ مسائل لم يَقطَع أبو حنيفة فيها بجواب ، وَعَدَّ مِنها : التفضيل بَيْن الملائكة والأنبياء ، وهذا هو الحق ، فإن الواجب عَلَينا الإيمان بالملائكة والنَّبيين ، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقَيْن أفضل ، فإن هذا لو كان من الواجب لبُيِّنَ لَنَا نَصًّا . وقد قال تعالى : ﴿ اليَوْمَ أكملتُ لكم دِينَكم ﴾[المائدة : ٣] . ﴿ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٦٤] . وفي الصحيح : " إنَّ الله فَرَضَ فرائضَ ، فلا تُضيِّعوها ، وحَدَّ حُدودًا ، فلا تَعْتَدُوها ، وحَرَّمَ أشياءَ فلا

تَنْتهِكُوها ، وسَكَتَ عن أشياءَ _ رَحمةً بِكُم غَير نِسيان _ فلا تسألوا عنها " ، فالسُّكوت عن الكلام في هذه المسألة نَفْيًا وإثباتًا ، والحالة هذه أوْلَى ، ولا يُقَال : إن هذه المسألة نَظير غَيرها مِن المسائل المُسْتَنْبَطَة مِن الكِتاب والسُّنة ، لأن الأدلة هُنا متكافئة ، على ما أُشير إليه ، إن شاءَ اللهُ تعالى . وحَمَلَني على بَسْط الكلام هُنا أن بعض الجاهلين يُسيئون الأدب بقَولهم : كان المَلَكُ خَادِمًا للنبيِّ ﷺ ! ، أو : أن بعض الملائكة خُدَّام بني آدم ! . يَعْنُون الملائكة المُوكَّلين بالبشر، ونَحْو ذلك من الألفاظ المُخَالِفَة للشَّرع ، المُجَانِبة للأدب . والتَّفضيل إذا كان على وجه التَّنَقُّص، أو الحَمِيَّة والعَصبية للجِنس ، لا شكَّ في رَدِّه ، وليس هذه المسألةُ نظيرَ المُفَاضَلَة بين الأنبياء ، فإن تلك قد وُجِدَ فيها نَص ، وهو قَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ ﴾ الآية . [البقرة : ٢٥٣]، وقَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْض ﴾[الإسراء : ٥٥])).

***

خامسًا : الكُتُب

(أفردتُ للقُرآن الكريم كِتابًا مُسْتَقِلًّا)

١ـ الكُتُب المُقدَّسة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم وإنَّ فَريقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

عُلماء أهلِ الكِتاب يَعْرِفون وَصْفَ النبيِّ ﷺ وصِحَّةَ رِسالته تمامَ المعرفة، كما يَعرفون أبناءهم ، بحيث لا يَشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غَيرهم . ووَصْفُ النبيِّ ﷺ ثابتٌ في كُتبهم .

والعربُ تَضرب المَثَلَ في صِحَّة الشَّيء بمعرفة الرَّجل لابنه. والرَّجلُ قادرٌ على معرفة ابنه بين الناس ، وهذا يُشير إلى قُوَّة المَعرفة ، وكمالِ العِلْم ، وتمام اليقين .

والآيةُ : ﴿كَما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم ﴾ بيانٌ واضح للمَعرفة الأكيدة، والعِلْم الذي لا يَقْبَل الشَّك ، إذْ إنَّ معرفة الآباء للأبناء هي الغاية القُصوى في العِلْم والمَعرفة واليقين . وتخصيص الأبناء دُون البنات ، لأنَّ معرفتهم بأبنائهم أشدُّ وأقوى ، وهُم يُحِبُّونهم أكثر مِن بناتهم .

وقال العَيني في عُمدة القاري(١٨/ ٩٧): ((وإنما اخْتُصَّ الأبناء، لأنَّ الذكور أشهر وأعرف، وهُم لِصُحبة الآباء ألْزَم)) .

وفي تفسير القرطبي (٢/ ١٥٨): ((ورُوِيَ أنَّ عُمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرِفُ مُحَمَّدًا ﷺ كما تعرف ابْنَك ؟، فقال: نعم، وأكثر.بَعَثَ اللهُ أمينَه في سَمائه إلى أمينه في أرضه بِنَعته، فَعَرَفْتُه ، وابني لا أدري ما كان مِن أُمِّه)) .

إنَّ العلماء المُؤمنين يَعرفون النبيَّ ﷺ أكثر مِن معرفة أبنائهم ، لأنَّ النبيَّ ﷺ حَق لا شَك فِيه ، وجِبريل أمينُ اللهِ في سَمائه ، ومُحمَّد أمينُ اللهِ في أرضه . ومُحمَّد وجِبريل كِلاهُما مُنَزَّهٌ عن الغَدْر والكذب والخيانة . أمَّا المَرأةُ فقد تَخون زَوْجَها ، فَيُرَبِّي الزَّوْجُ ابْنَ غَيره ، وهو يظن أنه ابنُه .

ولا شَكَّ أنَّ الأم وَحْدَها هي التي تَعْلَم حقيقة ابنها الذي في أحشائها ، ومَن هُوَ أبوه. أمَّا الأبُ فَيُجري الأحكامَ على الظاهر ، ويَعتبر الولد ابنًا له ، وليس مُطَالَبًا بالشَّك وإثارة البلبلة ، لأنَّ هذا الباب إذا فُتح ، لا يُغلَق أبدًا .

ونحن في هذا العصر ، حيث التَّقدم المعرفي ، والتطور التكنولوجي ، صارَ البعضُ يَلجأ إلى تحليل الحِمض النوويِّ (DNA) في حالات إثبات النَّسَب .

وللأسف ، ففي هذا العَصْر ، زادت نِسبة الخيانة الزَّوجية من الطرفَيْن ، نتيجة ضعف الوازع الدينيِّ ، وبسبب الانفتاح الزائد ، وسهولة الوصول إلى الحرام ، وكثرة وسائل التواصل والتلاقي بين الجِنسَيْن في العالَم الواقعيِّ والعالَم الافتراضيِّ، والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

وقال ابن حجر في العُجاب (١/ ٣٩٩) : ((وقال يحيى بن سلام : قال الكلبيُّ : لَمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ المدينةَ ، قال عُمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : إنَّ اللهَ أنزلَ على نَبِيِّه وهو بمكة أن أهل الكتاب يَعرفونه كَما يعرفون أبناءهم، كيف هذه المعرفة يا ابن سلام ؟ ، قال : نَعْرِفُ نبيَّ اللهِ بالنَّعْت الذي نَعَتَه اللهُ بِه إذا رأيناه فِيكم ، كما يَعرف أحدُنا ابنَه إذا رآه معَ الغِلمان ، والذي يَحلِف به عبد الله بن سلام لأنَا بمُحمَّدٍ أشدُّ مِنِّي معرفةً بابني ، فقال له عُمر : كيف ذلك ؟ قال : عَرَفْتُه بما نَعَتَه اللهُ لنا في كتابنا أنَّه هُوَ ، وأمَّا ابني فلا أدري ما أحدثت أُمُّه ، فقال له عُمر : وَفَّقَكَ اللهُ ، فقد أصبتَ وصَدَقْتَ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٨) : ((في هاء ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها تَعود على النبيِّ ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني : تَعود على صَرْفه إلى الكعبة ، قاله أبو العالية وقتادة والسُّدي ومُقاتل)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٢٨) : ((يَعني جَلَّ ثناؤُه بِقوله : ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أحبار اليهود وعُلماء النَّصارى . يقول : يَعرِف هؤلاء الأحبارُ مِن اليهود والعلماء من النَّصارى أنَّ البَيت الحَرام قِبْلتهم وقِبْلة إبراهيم وقِبْلة الأنبياء قَبْلَك ، كما يَعرِفون أبناءهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٤٠) : ((﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ ، قِيل : الضمير لمُحمَّد ﷺ : أي يَعرِفون نُبُوَّته، رُوِيَ ذلك عن مُجاهد وقَتادة وطائفة مِن أهل العِلْم. وقِيل: يَعرِفون تَحويلَ القِبْلة عن بيت المَقدِس إلى الكَعْبة... وبه قال جَماعة مِن المفسِّرين،ورجَّح صاحب الكشَّاف الأولَ، وعِندي أنَّ الراجح الآخَر كما يدل عليه السياق الذي سِيقت له هذه الآيات)) .

وعن سَلْمان قال : خَرَجْتُ أبتغي الدِّينَ ، فَوَقَعْتُ في الرُّهبان بقايا أهل الكتاب ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم ﴾ ، وكانوا يقولون : هذا زمانُ نبيٍّ قد أظلَّ ، يَخرج مِن أرض العرب ، له علامات ، مِن ذلك : شَامةٌ مُدوَّرة بين كَتِفَيْه خَاتَم النُّبُوَّة ، فَلَحِقْتُ بأرض العرب ، وخَرَجَ النبيُّ ﷺ ، فرأيتُ ما قالوا كُلَّه ، ورأيتُ الخَاتَمَ ، فَشَهِدْتُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله [١٤٦].

---

١٤٦ رواه الطبراني(٦/ ٢٦٧)برقم (٦١٨٠).وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٣٦): ((رجاله ثقات)).

هذا يُشير إلى أهمية السَّعْي من أجل طلب الحق ، وضرورة السَّفَر بحثًا عن الإيمان والعِلم والخير. وسَلمان الفارسيّ ـ رضي اللهُ عنه ـ لَم يَجلس في بيته بَحثًا عن الراحة والهدوء والسَّكينة، بَل سافرَ ، وعانى أشدَّ المعاناة بَحثًا عن الدِّين الحق ، واستمعَ إلى كلام العُلماء ، لأنَّ العلماء هُم الذين يَعرفون حقائقَ الأمور ، ويُوضِّحون القضايا والمسائل ، ويَكشفون الطريقَ أمام الناس . والناسُ بِدُون العُلماء هُم مجموعة مِن العَوَام العُميان . وقد تَحَقَّقَ مِن أمرِ النبيِّ ﷺ بوجود علامات تُشير إلى صِدْقه وصِحَّةِ نُبُوَّته، فكانَ إيمانُ سلمان مَبْنِيًّا على العِلْم واليقين، وليس الجهل والتقليد.

﴿ وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ .

وإنَّ طائفة مِن أهل الكتاب يُخفون ما في كُتبهم مِن صفة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وهُم يَعْلَمُون أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حَق ، وما جاءَ بِه حَق. إذ إنَّ وَصْف مُحمَّد ﷺ ثابت في التَّوراة. وقد بَيَّنَ اللهُ لهم الحَقَّ الذي لا شَكَّ فِيه ، كَي يتَّبعوه ، ولَم يَتركهم للاحتمالات والشُّكوك والتَّخمينات ، ولكنَّ سيطرة حُب الدُّنيا على القلوب،والأهواء الذاتية، والمصالح الشخصية، أدَّت إلى انحراف الكثيرين مِنهم.

والآيةُ تُشير إلى أنَّ كُفرهم مبنيٌّ على عِلم ومعرفة ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر، فلم يَكونوا جُهَّالًا، ولَم يُسيطر عليهم الشَّك بخصوص نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . بَل كانوا مُتأكِّدين مِن صِدْق مُحمَّد ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته ، ولكنهم كَفروا بِه عِنادًا ، وحُبًّا للرئاسة والزَّعامة والسُّلطة والنفوذ ، وحسدًا لأنَّه مِن العرب ، وليس مِن بني إسرائيل . وصدقَ القائلُ :

فَإن كُنتَ لا تَدْري فَتِلْكَ مُصيبةٌ   وإنْ كُنتَ تَدْري فالمُصيبةُ أعظمُ

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٣):((﴿ وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾. تَخصيص لِمَن عَانَدَ ، واستثناء لِمَن آمَنَ)) .

واللهُ عادلٌ في أحكامه، ومُنصِف في كلامه، يُعطي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه . فقد قالَ : ﴿ وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُم ﴾ . والمعنى : إنَّ هناك فريقًا آخَر لَم يَكتموا الحقَّ . وهؤلاء هُم المؤمنون ، وقد أنصفَهم اللهُ تعالى . والآيةُ لا تَحمل تَعميمًا للجميع ، وإنما تَذُمُّ الصِّنفَ الكافر الذي كَتم الحقَّ بعد معرفته التامَّة بِه . لقد تَمَّ تخصيص فريق منهم ، لأنَّ مِن أهل الكتاب مَن أسلمَ ، ولَم يَكتم الحقَّ .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الآيةَ مُتعلِّقة بِعُلماء أهل الكتاب . فالعلماءُ هُم الذين يَقرؤون النصوصَ الدينية ، ويُفسِّرونها ، ويَعرفون الحقَّ مِن الباطل . فإمَّا أن يُظهِروا الحقَّ ويَنشروه ، وإمَّا أن يَكتموه ويَخدعوا الناسَ . والعَوَام لا علاقة لهم بالنصوص الدينية وتفسيرها ، فَهُم يَتَّبعون العلماءَ ،

ويَعتمدون كلامَهم . ولا شَكَّ أنَّ كُفر العوام مبنيٌّ على الجهل والتقليد واتِّباع العلماء الذينَ خانوا اللهَ تعالى ، وتلاعَبوا بكلامه ، للحفاظ على زعامتهم ، ورئاستهم ، ومناصبهم، وهيمنتهم على العوام ، من أجل استغلالهم واستعبادهم والاستحواذ على أموالهم بالباطل .

وقال أبو السُّعود في تفسيره(١/ ١٧٦): ((﴿ وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ هُم الذين كَابَروا وعانَدوا الحق، والباقون هُم الذين آمنوا مِنهم، فإنهم يُظهِرون الحقَّ، ولا يَكتمونه. وأمَّا الجَهَلَة مِنهم فليست لهم معرفة بالكتاب ، ولا بما في تضاعيفه ، فما هُم بِصَدَد الإظهار ، ولا بصَدَد الكَتْم ، وإنما كُفرهم على وجه التقليد)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٨) : ((وفي الحق الذي كَتموه قَولان : أحدهما أنَّه النبيُّ ﷺ، قاله مجاهد.والثاني أنَّه التَّوَجُّه إلى الكَعْبة،قاله السُّدي ومُقاتل.وفي قَوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ قَولان: أحدهما وَهُم يَعلمون أنَّه حَق، والثاني وهُم يَعْلَمُون ما على مُخَالِفه مِن العِقاب)) .

إنَّ العِلْم المُجَرَّد لا يَكفي لِصِحَّة الإيمان ، فهؤلاء الكافرون من عُلماء أهل الكتاب كانوا يَعلمون الحَقَّ ، ومعَ هذا لَم يُؤْمنوا . فلا بُدَّ أن يَقترن العِلْم بالتَّصديق والعمل الصالح ، كَي يصل الإنسانُ إلى حقيقة الإيمان. والإيمانُ مَا استقرَّ في القلب، وصدَّقه اللسانُ ، وظَهَرَ على الجوارح . ((وصَحَّ عن الحسن أنه قال: " لَيس الإيمان بالتَّمَنِّي ولا بالتَّحَلِّي ، ولكنْ ما وَقَرَ في القلب ، وصَدَّقه العملُ " . ونَحْوه عن سُفيان الثَّوري)) [١٤٧].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بالحَقِّ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦] [١٤٨]. لقد نزَّلَ اللهُ القُرآنَ بالصِّدْقِ والعَدْلِ والحُجَّةِ . وأقامَ الحُجَّةَ على الناس ، وقطع أعذارَهم . و﴿ ذَلِكَ ﴾ تعني:ذلك الأمر، وهو العذاب. واسمُ الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق (ما تَقَدَّمَ مِن الوَعيد بالعذاب) . وسِياقُ الآية يَتحدَّث عن اليهود . حيث إنهم رَفضوا أوامرَ اللهِ تعالى ، وكَتموا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ في التَّوراة حِرْصًا مِنهم على الرِّئاسة والشُّهرة والنُّفوذ والأموال . لقد قدَّموا مصالِحَهم الشخصيةَ على الإيمانِ باللهِ ورسوله ﷺ . فاستحقوا العذابَ الشديد.وذلك العذاب بسبب أن الله نزَّلَ القُرآنَ بالحق فَكَذَّبوه، واختلَفوا فِيه ، وكَفروا بِه.

---

١٤٧ حاشية ابن القَيِّم على سُنن أبي داود (١٢/ ٢٩٤) . وانظر تخريج الظِّلال (١/ ٤٠٧) .

١٤٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٧٧): ((وفي" الكتاب" قَوْلان: أحدهما أنَّه التَّوراة، والثاني القُرآن. وفي "الحق" قَولان، أحدهما أنَّه العَدْل، قاله ابن عباس، والثاني أنَّه ضِدُّ الباطل ، قاله مُقَاتِل)).

وقال ابنُ كثير في تفسيره(١/ ٢٨٠):((أي إنما استحقوا هذا العذابَ الشديد ، لأن الله تعالى أنزلَ على رسوله مُحمَّد ﷺ وعلى الأنبياء قَبْلَه كُتُبَه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتَّخَذُوا آياتِ الله هُزُوًا، فكتابهم أمَرَهم بإظهار العِلْم ونَشْرِه، فخَالَفُوه وكذَّبوه.وهذا الرسول الخَاتَم يَدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمَعروف ، ويَنهاهم عن المُنكَر ، وهُم يُكذِّبونه ويُخالفونه ويَجحدونه، ويَكتمون صِفَتَه، فاستهزؤوا بآيات الله المُنْزَلة على رُسُلِه ، فلهذا استحقوا العَذابَ والنَّكال)) .

﴿ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ . أهلُ الكِتاب (اليَهود والنَّصارى) اختلفوا في القُرآن ، وهُم في خِلاف للحق طويل ، وفي ضلال بعيد عن الحق والصواب ، مُسْتَوْجِب لعذاب النار الشديد .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٩٧) : ((وأمَّا قَوله : ﴿ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ . يعني بذلك اليَهود والنَّصارى ، اختلفوا في كِتاب الله ، فكفرت اليهودُ بما قَصَّ اللهُ فِيه مِن قِصَص عِيسى بن مريم وأُمِّه ، وصدَّقت النَّصارى ببعض ذلك ، وكفروا ببعضه ، وكفروا جميعًا بما أنزلَ اللهُ فيه مِن الأمر بتصديق مُحمَّد ﷺ . فقال لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : إنَّ هؤلاء الذين اختلَفوا فِيما أنزلتُ إلَيْكَ يا مُحمَّد لَفِي مُنَازَعَة ومُفَارَقَة للحَق بعيدة مِن الرُّشد والصَّواب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّه التَّوراة ، ثُمَّ في اختلافهم فيها ثلاثة أقوال : أحدها أن اليهود والنَّصارى اختلَفوا فيها ، فادَّعى النصارى فيها صِفَةَ عِيسى ، وأنكرَ اليهودُ ذلك . والثاني أنَّهم خَالَفُوا ما في التَّوراة مِن صِفة مُحمَّد ﷺ . والثالث أنَّهم خَالَفُوا سَلَفَهُم في التَّمَسُّك بها . والثاني أنَّه القُرآن ، فمِنهُم مَن قال : شِعْر ، ومِنهُم مَن قال : إنَّما يُعلِّمه بَشَر . والشِّقاق مُعَادَاة بَعْضِهم لبَعْض. وفي مَعنى : ﴿ بَعِيدٍ ﴾ قَولان : أحدهما أن بَعْضَهم مُتَبَاعِد في مُشَاقَّة بَعْض ، قاله الزَّجاج. والثاني أنَّه بَعيد مِن الهُدى)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾[لُقمان:٢٠].

ومِن أهل مَكَّة مَن يُخَاصِم ويُجَادِل في تَوحيد الله وصِفاته ، عِنَادًا ومُكَابَرَةً وتَعَنُّتًا ، بعد ظُهور الحق أمامه ، وقِيام الحُجَّة عليه ، وانقطاع عُذره ، بدون عِلْم ، ولا فَهْم ، ولا حُجَّة ، ولا بُرهان ، ولا دليل عَقْلي ، ولا دليل نَقْلي ، ولا بيان يَهتدي به إلى المعرفة والصواب ، ولا كِتاب مُضيء واضح بيِّن مُنقِذ مِن الجَهل والضلال ، وهادٍ إلى الإيمان والحق ، أنزله اللهُ تعالى . بَل مُجرَّد تقليد وعِناد واستكبار .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢١٧) : ((وقَوله : ﴿وَمِنَ النـاسِ مَن يُجَادِلُ في اللهِ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : ومِن الناس مَن يُخَاصِم في تَوحيد الله ، وإخلاص الطاعة والعبادة له ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ عِندَه بِمَا يُخَاصِم ، ﴿ ولا هُدًى ﴾ . يقول : ولا بَيان يَبين به صِحَّة ما يَقول ، ﴿ ولا كِتَابٍ مُنيرٍ﴾ . يقول : ولا بتَنْزيل مِن الله جاء بما يَدَّعي ، يُبيِّن حَقِّية دَعْواه . كما حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يَزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة : ﴿وَمِنَ النـاسِ مَن يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ . ليس مَعه مِن الله بُرهان ، ولا كِتاب)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٠) : ((﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . نزلت في النَّضْر بن الحارث، وأُبَي بن خَلَف، وأُمَيَّة بن خَلَف،وأشباههم. كانوا يُجَادِلُون النبيَّ ﷺ في الله ، وفي صِفاته ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَلَقَدْ أرْسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾[الحديد:٢٦].

لقد أرسلَ اللهُ نُوحًا وإبراهيم _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وجَعَلَ في نَسْلهما النُّبُوَّةَ والكُتُبَ السَّماويةَ ، أي إن اللهَ جَعَلَ فيهم النُّبُوَّةَ، وأنزلَ الكُتبَ السماوية على ذُرِّيتهما (الأنبياء مِنهُم) ، حَيث أنزلَ التَّوراةَ على مُوسى ، والزَّبُور على داود ، والإنجيلَ على عِيسى ، والقُرآنَ على مُحمَّد ، عليهم الصلاة والسلام . وتخصيص نُوح وإبراهيم بالذِّكْر ، تشريفًا لهما، وتعظيمًا لقَدْرهما، ولأنَّهما أبَوَان للأنبياء ، _ عليهم جميعًا الصلاة والسلام _ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٠٨) : ((وكُل مِنهما له خُصوصية عظيمة ، أمَّا نُوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لمَّا أغرقَ أهلَ الأرض إلا مَن آمنَ به ، وهُم الذين صَحِبُوه في السفينة ، جَعل اللهُ ذُرِّيته هُم الباقين ، فالناس كُلُّهم مِن ذُرِّيته. وأمَّا الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يَبعث اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَه نَبِيًّا إلا مِن ذُرِّيته)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿وَلَقَدْ أرْسَلْنا ﴾ أيُّها الناسُ ﴿ نُوحًا ﴾ إلى خَلْقِنا ، ﴿ وإبراهيمَ ﴾ خَلِيلَه إلَيهم رسولًا ، ﴿ وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾، وكذلك كانت النُّبُوَّة في ذُرِّيتهما ، وعليهم أُنزلت الكُتُبُ : التَّوراة ، والإنجيل ، والزَّبُور ، والفُرقان، وسائر الكُتب المعروفة)) .

وقال النَّجار في قِصص الأنبياء (ص ١٦٤) : ((وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أرْسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾ الآية . فكُل كِتاب أُنزل مِن السماء على نبيٍّ من الأنبياء بَعْد إبراهيم الخليل ، فَمِن ذُرِّيته وشِيعته . وهذه خِلْعة سَنِيَّة لا تُضَاهَى ، ومَرتبة عَلِيَّة لا تُباهَى ، وذلك أنه وُلِدَ له لصُلبه وَلَدَان ذَكَرَان عظيمان : إسماعيل مِن هَاجَر ، ثُمَّ إسحاق مِن سَارَة ، ووُلِدَ له

يَعقوب _ وهو إسرائيل _ الذي يَنْتَسِب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النُّبُوَّة ، وكَثُروا جِدًّا بحَيث لا يَعلم عَدَدَهُم إلا الذي بَعَثَهم ، واخْتَصَّهم بالرِّسالة والنُّبُوَّة ، وحتى خُتِموا بعيسى بن مريم مِن بني إسرائيل . وأمَّا إسماعيل عليه السلام فكانت مِنه العرب على اختلاف قبائلها ، ... . ولم يُوجَد مِن سُلالته مِن الأنبياء سِوَى خَاتَمهم على الإطلاق ، وسيِّدهم ، وفَخْر بني آدم في الدنيا والآخرة : مُحمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلِب بن هاشم، القُرَشي المَكِّي، ثُمَّ المَدَني ، صلوات الله وسلامه عليه . فلم يُوجَد مِن هذا الفَرْع الشريف ، والغُصن المُنيف ، سِوى هذه الجَوهرة الباهرة ، والدُّرَّة الزاهرة ، وواسطة العِقْد الفاخرة ، وهو السَّيد الذي يَفتخر به أهلُ الجَمْع ، ويَغبِطه الأوَّلون والآخِرُون يوم القيامة)) .

٢_ التَّوراة

إنَّ الكُتب السماوية لا تناقُض بينها مُطْلَقًا ، ولا تعارُض ، لأنَّ مَصدرها واحدٌ . وهي وَحْيُ الله لأنبياء مَخصوصين . وكُلُّها تُصَدِّق بَعْضَها بعضًا . ورفضُ أيِّ كِتاب سماويٍّ هو رفض لكُل الكُتب السماوية ، وطَعْن في الوَحْي، وتكذيب لله تعالى . ولا معنى لإيمان العَبْد بدون الإيمان بالكتب السماوية التي هي المِنهاجُ السماويُّ لصلاح الإنسان وإعمارِ الأرض .

وينبغي القَول إن التَّوراة والإنجيل كتابان سَمَاوِيَّان في الأصل ، ولكنْ طَرَأ عَلَيهما التَّحريف والتَّبديل والتلاعب البشري بنُصوصهما، مِمَّا أحدثَ فِيهما التناقض والتَّضارُب واختلاط الكلام الإلهيِّ بالكلام البشري ضِمن فوضى عارمة . أمَّا القُرآنُ الكريم فقد حَفِظَه اللهُ مِن النقص والزيادة والتحريف والتبديل والتغيير والتلاعب . والقرآنُ الذي بَيْن أيدينا الآن هُوَ ذاته الذي أُنزِل على النبيِّ مُحمَّد ﷺ دُون زيادة أو نقصان . والقُرآنُ هو الكتاب السماويُّ الوحيد المحفوظ مِن التغيير. والقُرآنُ هو الحَكَمُ والحاكم على جَميع الكُتب التي قَبْله،وما وافقه كان حقًّا،وما خالفه كان باطلًا.

قالَ اللهُ تعالى على لسان المسيح ﷺ:﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[آل عِمران: ٥٠].

لقد جاءَ المسيحُ مُصَدِّقًا لرسالة مُوسى وشريعته ، ومُؤيِّدًا للتَّوراة .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٠) : ((وإنما قِيل: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لأن عيسى صلوات الله عليه ، كان مؤمنًا بالتوراة، مُقِرًّا بها ، وأنها من عند الله ، وكذلك الأنبياء كُلهم يُصدِّقون بكل ما كان قَبْلَهم مِن كُتِب الله ورُسله ، وإن اختلف بعضُ شرائع أحكامهم ، لمُخَالَفَة الله بَيْنَهم في ذلك ، معَ أن عيسى كان _ فيما بَلَغنا _ عاملًا بالتَّوراة ، لَم يُخالِف شيئًا مِن أحكامها ، إلا ما خَفَّفَ اللهُ عن أهلها في الإنجيل ، مِمَّا كان مُشَدَّدًا عليهم فيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنا التَّوْرَاةَ فِيها هُدًى وَنُورٌ ﴾[المائدة : ٤٤] .

هذا مديحٌ إلهيٌّ عظيم للتَّوراة(الكتاب السماويّ المُقَدَّس الذي أنزله اللهُ على النبيِّ مُوسى ﷺ).

أنزلَ اللهُ التَّوراةَ على مُوسى ، فيها هُدى مِن الضَّلال ، يُرشِد إلى الحَق والصَّواب والرَّشاد ، ونُور يُستضاء به، ويُبيِّن الأحكامَ الإلهية ، ويُوضِّح الشرائعَ الدينية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٣ _ ٣٦٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ . قال المُفسِّرون : سبب نزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيَيْن . والهُدى البَيان ، فالتَّوراة مُبَيِّنة صِحَّة نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، ومُبَيِّنَة ما تحاكموا فيه إلَيه ، والنُّور الضِّياء الكاشف للشُّبُهات ، والمُوضِّح للمُشكلات)) .

<u>٣_ الإنجيل</u>

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُ الإنجيلَ فِيهِ هُدًى ونُورٌ ﴾[المائدة : ٤٦] .

أرسلَ اللهُ المَسِيحَ (عيسى بن مريم) مُتَتَبِّعًا آثار الأنبياء الذين سبقوه (أنبياء بني إسرائيل)، وسائرًا على خُطاهم . والنبيُّ عيسى ﷺ سائر على خُطى الأنبياء السابقين ، يُكمِل مسيرتهم ، ويُتمِّم منهجهم ، بكل إخلاص وإتقان ، وبلا تقصير ولا انحراف . وقد جاء عيسى مؤمنًا بالتوراة ، حاكمًا بما فيها ، يُصدِّق نصوصَها وأحكامَها ، ويَدعو إليها . وهذا يدل _ بلا شك _ على تضافر جهود الأنبياء الدعوية ، وانعدام فرصة تعارضها أو تصادمها . والجديرُ بالذِّكْر أن الإنجيل نَسَخَ بَعْضَ أحكام التَّوراة .

وأنزلَ اللهُ الإنجيلَ على عيسى ، فيه هُدى إلى الحق والرَّشاد ، ونُور يُزيل ظُلمات الكفر والضلال والجهل، ويُستضاء بِه في إزالة الشُّكوك والوساوس والشُّبهات والمشكلات، والإنجيلُ يُصدِّق أحكامَ التَّوراةِ وشرائعَها ، ولا يُكذِّبها . وقد جَعَلَ اللهُ الإنجيلَ هُدًى يُهْتَدَى بِه، وزاجرًا عن ارتكاب الذنوب والآثام والمعاصي لِمَن اتَّقَى الله، وخافَ عذابه وعِقابه، وأطاعَ أوامرَه، واجتنبَ نَوَاهيه . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٠٤) : ((﴿ وآتَيْنَاهُ الإنجيلَ ﴾ . يقول : وأنزَلْنا إلَيه كتابنا الذي اسْمُه الإنجيل ، ﴿ فِيهِ هُدًى ونُورٌ ﴾ . يقول : في الإنجيل ﴿ هُدًى ﴾ وهو بيان ما جَهِلَه الناسُ مِن حُكم الله في زمانه ﴿ ونُورٌ ﴾ . يقول : وضِياء مِن عَمَى الجَهَالة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٩): ((﴿ وآتَيْنَاهُ الإنجيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا ﴾ ، ... ، لأن عيسى كان يَدعو إلى التصديق بالتوراة ، والإنجيلُ أُنزِل وفيه ذِكْر التَّصديق بالتَّوراة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُم أهلُ الإنجيلِ بِمَا أنزلَ اللهُ فِيه ﴾[المائدة : ٤٧] .

أنزلَ اللهُ الإنجيلَ على النبيِّ عيسى ﷺ ، وأمَرَه وأتباعَه أن يَحكُموا بما أنزلَ اللهُ فيه مِن أحكام وتعاليم. لقد أمرَ اللهُ النصارى بالإيمان بالإنجيل كاملًا بدون اجتزاء ، وإقامة أحكامه وتعاليمه ، والتَّصديق بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ الثابتة فيه ، واتِّباعه ، ومُناصرته . والآيةُ تشتمل على أمرٍ إلهيٍّ عظيم لأهل الإنجيل (النصارى) أن يَحكُموا بما أنزلَ اللهُ فيه ، فهو حَق واجب التطبيق قبل البَعثة المُحمَّدية الإسلامية.وبعد هذه البَعثة المُبارَكة، أمرَ اللهُ النصارى أن يَحكُموا بالقُرآن الذي أنزله اللهُ على النبيِّ مُحمَّد ﷺ . واللهُ أنزلَ الكُتبَ السماوية للعمل بها ، وتطبيق أحكامها وتعاليمها على أرض الواقع . والقُرآنُ ناسخٌ لكل الكتب السماوية السابقة بلا استثناء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣١) : ((والآية تدل على أن الإنجيل مُشتمل على الأحكام ، وأن اليهودية مَنسوخة ببَعثة عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان مُسْتَقِلًّا بالشَّرْع . وحَمْلها على: وليحكموا بما أنزلَ اللهُ فيه مِن إيجاب العمل بأحكام التَّوراة، خِلافُ الظاهر)) .

إنَّ الأنبياء أصحاب منهج واحد ، وسائرون في طريق واحد ، ويَدْعُون إلى دِين واحد ، وهو الإسلام . ومُرسِلهم واحد ، وهو الله تعالى . لذلك كان تكذيبُ أي نبيٍّ تكذيبًا لكل الأنبياء ، وتكذيبًا لله الذي اختارهم ، واصطفاهم ، وأرسلهم ، وكلَّفهم بحمل النُّبُوَّة ، وشرَّفهم بها .

والأنبياءُ لا يَأتون بشيء مِن عِندهم ، ولا يَخترعون أديانًا ، ولا يُؤَلِّفون شرائع . إنما يُبلِّغون الوَحْيَ الإلهيَّ كاملًا ، ويُوصلون كلمةَ الله إلى الناس ، بلا زيادة ولا نُقصان .

٤ـ الزَّبُور

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَآتَيْنا دَاودَ زَبُورًا ﴾ [النِّساء : ١٦٣] . الزَّبُور هو اسم الكتاب السماويِّ الذي أنزله اللهُ على النبيِّ داود ﷺ ، وأوحاه إلَيه، وخصَّه به . وهذا تشريف عظيم للنبيِّ داود ﷺ ، وتعظيم لشأنه ، وإعلاء لقَدْره . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٤) : ((الزُّبُر الكُتُب . وأحدها زَبُور... وقال الكِسائي: زَبُور بمعنى مَزْبُور، تقول: زَبَرْتُه فَهُوَ مَزْبُور، مِثل: كَتَبْتُه فَهُوَ مَكْتُوب)) .

والزَّبُور ثناء على الله، وتَسبيح، ودُعاء علَّمه اللهُ داودَ، وتَحميد ، وتَمجيد . و ((الزَّبُور مائة وخمسون سُورة ، كُلُّها مَوَاعِظ وثَنَاء ، ليس فيه حَلال ، ولا حَرام ، ولا فرائض، ولا حدود)) [١٤٩].

---

١٤٩ ذكره الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٥) وقال : أخرجه ابن أبي حاتم وغَيره عن قَتادة . وانظر أيضًا تفسير القرطبي (١٠/ ٢٤٢) ، وتفسير الثعالبي (٢/ ٣٤٦) ، والإتقان للسيوطي (١/ ١٨٠) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨١١) : ((والزَّبُور : كتاب داود . قال القرطبي : وهو مائة وخمسون سُورة ، ليس فيها حُكم ، ولا حلال ، ولا حرام ، وإنَّما هِيَ حِكَم ، ومواعظ، انتهى. قُلْتُ : هو مائة وخمسون مَزْمُورًا . والمَزْمُور : فَصْل يشتمل على كلام لداود يَستغيث بالله مِن خُصومه ، ويَدعو اللهَ عليهم ، ويستنصره ، وتَارَةً يأتي بمواعظ ، وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة ، ويُستعمَل معَ تَكَلُّمِه بذلك شيئًا مِن الآلات ، التي لها نَغَمَات حَسَنة ، كما هو مُصرَّح بذلك في كثير مِن تلك المَزمُورات)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٠) : ((وكان فيه التَّحميد ، والتَّمجيد ، والثَّناء على الله عَزَّ وَجَلَّ ، وكان داود يَبْرُز إلى البَرِّية ، فيَقوم ، ويقرأ الزَّبُور، ويَقوم معه عُلَماء بني إسرائيل ، فيقومون خَلْفَه ، ويقوم الناسُ خَلْفَ العلماء ، ويقوم الجِن خَلْف الناس ، الأعظم فالأعظم ، والشياطين خَلْف الجِن ، وتجيء الدَّواب التي في الجبال ، فَيَقُمْنَ بَيْنَ يَدَيه تَعَجُّبًا لِمَا يَسْمَعْنَ مِنه ، والطَّير تُرفرِف على رُؤوسهم)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٥٦) : عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((خُفِّفَ على داودَ _ عليه السلام _ القُرآنُ ، فكان يَأمر بِدَوَابِّهِ فتُسْرَج ، فيَقرأ القُرآنَ قَبْلَ أن تُسْرَجَ دَوَابُّه)) [١٥٠].

إنَّ قُرآن كُل نبيٍّ هو الكتاب الذي أُنزِل عليه ، وقد يسَّر اللهُ على النبيِّ داود ﷺ قراءةَ الزَّبُور، فكانَ يَأمر خَدَمَه وعُمَّاله بوَضْع السُّرُج على دَابَّتِه ، ودوابِّ أتباعه ، فلا يَنتهون مِن هذا العمل ، إلا وقد قَرأ الزَّبُورَ كاملًا معَ التدبُّر والخُشوع وحُسن التِّلاوة . وهذه مُعجِزة للنبيِّ داود ﷺ . وهذا يدل على أنَّ البَرَكَة في الزمن القليل سبب العمل الكثير . والزَّبُورُ مَواعظ وثَناء . ولم يَكن الأمرُ والنَّهْي إلا في التَّوراة .

وقال العَيني في عُمدة القاري (١٩/ ٢٨) : ((فيه الدَّلالة على أن الله تعالى يَطْوي الزمانَ لِمَن شاء مِن عباده ، كما يَطْوي المكانَ)) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ١٢) : ((فكان يَقرأ الزَّبُورَ بمِقْدار ما تُسْرَج الدَّواب. وهذا أمر سريع مع التَدبُّر والتَّرنُّم والتَّغَنِّي به على وجه التَّخَشُّع صلوات الله وسلامه عَلَيه)) .

---

١٥٠ (خُفِّف) : سُهِّل . (القُرآن) : قراءة الكتاب الْمُنْزَل عليه . فلفظ القرآن في اللغة العربية مصدر قرأ . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾[القِيامة : ١٨]. (فتُسْرَج) : يُوضَع عليها السُّرُج، وهو ما يُوضَع على ظَهْر الفَرَس تحت الراكب .

وقال الحافظ في الفَتْح (٦/ ٤٥٥) : ((قِيل : المُراد بالقُرآن القِراءة ، والأصل في هذه اللفظة الجَمْع ، وكُل شيء جَمَعْتَه ، فقد قَرَأتَه . وقِيل : المُراد الزَّبُور، وقِيل: التَّوراة . وقراءة كُل نبيٍّ تُطلَق على كِتابه الذي أُوحِيَ إلَيه ، وإنَّما سَمَّاه قُرآنًا للإشارة إلى وُقوع المُعجِزة به ، كوُقوع المُعجِزة بالقرآن . أشار إليه صاحب المصابيح . والأول أقرب . وإنَّما تردَّدوا بين الزَّبُور والتَّوراة، لأن الزَّبُور كُلَّه مواعظ ، وكانوا يَتَلَقَّوْنَ الأحكامَ مِن التَّوراة . قال قَتادة : كُنَّا نتحدَّث أن الزَّبُور مائة وخمسون سُورة، كُلُّها مواعظ وثناء ، ليس فيه حلال ، ولا حرام ، ولا فرائض ، ولا حُدود . بل كان اعتماده على التَّوراة. أخرجه ابن أبي حاتم وغَيره. وفي الحديث أن البَرَكَة قد تقع في الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير. قال النووي: أكثر ما بَلَغَنا مِن ذلك مَن كان يَقرأ أربع ختَمَات بالليل، وأربعًا بالنهار. وقد بالغ بعض الصُّوفية في ذلك فادَّعى شيئًا مُفْرِطًا ، والعِلْم عند الله)) .

٥ــ صُحُف إبراهيم ومُوسى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ صُحُفِ إبراهيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى : ١٩] .

هذه الصُّحُف القديمة المُنْزَلة على إبراهيم ومُوسى ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ، كانت هُدًى ونورًا ، تَهْدي الخَلْق إلى تَوحيد الله وعبادته وطاعته . وصُحُف مُوسى غَير التَّوراة .وقال الواحدي في الوجيز(١/ ١١٩٥):((﴿ صُحُفِ إبراهيمَ وَمُوسَى ﴾ . يعني: ما أنزلَ اللهُ عليهما مِن الكُتُب)) .

وعن ابن عباس ــرضي اللهُ عنهماــقال: لمَّا نزلت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى: ١]. قال رسول الله ﷺ : ((كُلُّها في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسَى)) [١٥١].

وعن وَاثِلة بن الأسْقَع أن رسول الله ﷺ قال : ((أُنزِلَتْ صُحُفُ إبراهيمَ عليه السلام في أوَّل لَيْلةٍ مِن رمضان ، وأُنزلت التوراةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِن رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خَلَتْ مِن رمضان ، وأُنزِلَ الفُرقانُ لأربع وعشرين خَلَتْ مِن رمضان)) [١٥٢].

---

١٥١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٨) برقم (٢٩٣٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٥٢ رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) برقم (١٧٠٢٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤٦٥) : ((رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عِمران بن داود القَطَّان ، ضعَّفه يحيى ، ووَثَّقه ابن حِبَّان، وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبقية رجاله ثقات)) .

وعن أبي ذَر _ رضي اللهُ عنه _ : قُلْتُ : يا رسول الله ، ما كانت صحيفة إبراهيم ؟ قال : ((كانت أمثالًا كُلُّها : أيُّها المَلِكُ المُسلَّط المُبْتَلَى المَغرور ، إنِّي لم أبْعَثْكَ لتجمع الدُّنيا بَعْضَهَا على بعض ، ولكني بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعوةَ المظلوم ، فإنِّي لا أرَدُّها ولو كانت من كافر . وعلى العاقل ما لم يكن مَغلوبًا على عَقْله أن تكون له ساعات : ساعة يُناجي فيها رَبَّه ، وساعة يُحَاسِب فيها نَفْسَه ، وساعة يتفكَّر فيها في صُنع الله ، وساعة يَخلو فيها لحاجته مِن المَطْعَم والمَشْرَب. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزوُّدٍ لمَعَادٍ ، أو مَرَمَّةٍ لمَعَاش ، أو لَذَّةٍ في غَير مُحرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مُقْبِلًا على شأنه ، حافظًا للسانه . ومَن حَسَبَ كَلامَه مِن عَمَله ، قَلَّ كَلامُه إلا فيما يَعنيه)) . قُلت : يا رسول الله ، فما كانت صُحُفُ مُوسى ؟ قال : ((كانت عِبَرًا كُلُّها : عَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالمَوت ثُمَّ هُوَ يَفرَح ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالنار ، ثُمَّ هُوَ يَضحَك ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقن بالقَدَر ، ثم هو يَنْصَب . عَجِبْتُ لِمَن رأى الدُّنيا وتَقَلُّبَها بأهلها ، ثُمَّ اطمأنَّ إليها ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالحِساب غَدًا ، ثُمَّ لا يَعْمَل)) [١٥٣].

هذا الحديثُ ضعيف جِدًّا ، لكنَّها يَشتمل على حِكَم بليغة ، وأفكار رائعة ، ومواعظ مُؤثِّرة ، والحِكمةُ ضَالَّةُ المؤمن أنَّى وَجَدَها التقطها . وخُذ الحِكمةَ ، لا يَضُرُّكَ مِن أيِّ وعاء خَرَجَتْ .

إنَّ جميع الكُتب السماوية جاءت مِن عِند الله المُنَزَّه عن التناقض . وقد تشرَّف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحَمْل كلام الله ، وإيصاله_ دُون زيادة أو نقصان _ إلى الناس. لكنَّ البعض أبى إلا أن يَقوم بفِعْل التَّحريف في كلام الله ، اتِّبَاعًا للأهواء الذاتية، ومَن أجل تحقيق مصالح شخصية.

وقد حَفِظَ اللهُ كتابَه الخَاتَم (القُرآن الكريم) مِن التَّحريف ، رغم كُل المُحاولات المَسعورة للتلاعب به ، ليظلَّ دُستورًا كاملًا خالدًا مَعصومًا إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عَلَيها .

وفي فَيض القدير (٥/ ٣) : ((قال الغزَّالي : التَّوراة والإنجيل والزَّبُور والفُرقان وصُحُف مُوسى وصُحُف إبراهيم ، وكُل كِتاب مُنْزَل ، ما أُنزِل إلا لدَعوة الحق إلى المُلْك الدائم المُخلَّد . والمُراد مِنهُم أن يكونوا مُلُوكًا في الدُّنيا والآخِرة . أمَّا مُلْك الدُّنيا فبالزُّهد والقَناعة ، وأمَّا الآخِرة فبالقُرب مِنه تعالى . يُدرِك بَقَاءً لا فَنَاءَ فِيه ، وعِزًّا لا ذُل معه . والشَّيطان يَدعوهم إلى مُلْك الدُّنيا، ليُفوِّت عَلَيهم مُلْكَ الأُخْرَى ، إذْ هُمَا ضَرَّتان . ونَعِيم الدُّنيا لا يَسْلَم له أيضًا لكَدَرها ، ومُنازعتها ، وطُول الهَم والغَم)) .

---

١٥٣ رواه ابن حِبَّان في صحيحه(٢/ ٧٦).وقال الأرناؤوط في تحقيق ابن حِبَّان:((إسناده ضعيف جِدًّا)).

سادسًا : الأنبياء والرُّسل

١ـ الإيمان بهم

إنَّ الإيمان بالأنبياء والرُّسُل كُلِّهم يُعْتَبَر مِن أركان الإيمان . ومَن أسقطَ أيَّ نبيٍّ أو طعن فيه فهو كافر . وهؤلاء الرُّسُل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هُم سادة البشرية الذين اختارهم اللهُ تعالى لحَمْل كلمته ، وإيصالها إلى الخَلْق. واللهُ لن يختار إلا مَن كان مُؤَهَّلًا لحَمْل هذه الأمانة الجسيمة.

والجدير بالذِّكر أنَّ هُناك فَرْقًا بين الرَّسُول والنبيِّ . فالرسولُ أعظم من النبيِّ ، ومَقام الرِّسالة أخص مِن مَقام النُّبُوَّة . والرَّسُولُ بمعنى المُرْسَل ، وهو مَن أُوحِيَ إلَيه ، وأُمِرَ بالتَّبليغ . أمَّا إن أُوحِيَ إلَيه ، ولَم يُؤْمَر بالتَّبليغ ، فهو نبيٌّ فقط. وفي شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٩): ((مَن نبَّأه اللهُ بخَبَر السَّماء، إنْ أمَرَه أن يُبلِّغ غَيْرَه فهو نبيٌّ رسول، وإنْ لَم يَأمره أن يُبلِّغ غَيْرَه فهو نبيٌّ، وليس برسول. فالرَّسُولُ أخصُّ مِن النبيِّ. فكل رسول نبيٌّ، وليس كُل نبيٍّ رسولًا)) .

والرَّسُولُ هو نبيٌّ مأمورٌ بالتبليغ. أمَّا النبيُّ فلم يُؤْمَر بالتبليغ . وكُلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كُلُّ نبيٍّ رسولًا . وقِيل : الرَّسُول الذي أُرسِل إلى الخَلْق بإرسال جِبريل إلَيه عِيانًا ، ومُحاورته لفظيًّا . والنبيُّ يَكون بالإلهام أو المَنَام . وقِيل : الرَّسُول مَن بُعِثَ بشَرْع وأُمِرَ بتبليغه ، والنبيُّ مَن أُمِر أن يَدْعُوَ إلى شريعة مَن قَبْلَه ، ولَم يَنْزِل عليه كتاب ، وهو بالتأكيد مأمور بالتَّبليغ ، إذْ مِن المَعلوم أنَّ العُلماء مأمورون بالتَّبليغ ، والأنبياءُ أوْلَى بذلك . والرَّسُولُ والنَّبِيُّ كِلاهما مُؤيَّد بالمُعجِزة الواضحة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٧٥) : ((ـ ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ الآية ـ . قال العُلَماء : إنَّ هذه الآية مُشْكِلَة مِن جهتَيْن : إحداهما : أن قَوْمًا يَرَوْنَ أن الأنبياء صلوات الله عليهم ، فِيهم مُرسَلون ، وفِيهم غَير مُرسَلين . وغَيْرُهم يذهب إلى أنَّه لا يجوز أن يُقال نبيٌّ حتى يَكون مُرْسَلًا ، والدليل على صِحَّة هذا قَوله تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ [الحَج : ٥٢]. فأوجبَ للنبيِّ الرِّسالةَ ، وأنَّ معنى ﴿ نَبِيٍّ ﴾ أنبأ عن الله عَزَّ وَجَلَّ ، ومعنى أنبأ عن الله عَزَّ وَجَلَّ الإرسال بعَيْنه ، وقال الفَرَّاء : الرَّسُول الذي أُرسِل إلى الخَلْق بإرسال جِبريل عليه السلام إلَيه عِيَانًا ، والنبيُّ الذي تكون نُبُوَّتُه إلهامًا أو مَنَامًا ، فكُل رسول نبيٌّ ، وليس كُل نبيٍّ رَسُولًا . قال المهدوي : وهذا هو الصحيح أن كُل رسول نبيٌّ ، وليس كُل نبيٍّ رَسُولًا ، وكذا ذَكَرَ القاضي عِياض في كتاب الشِّفا ، قال : والصحيح والذي عليه الجَم الغفير أن كُل رسول نبيٌّ ، ولَيس كُلُّ نبيٍّ رَسُولًا)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٣) : ((الرَّسُول مَن بَعَثَه اللهُ بشريعة مُجدِّدة يَدعو الناسَ إليها ، والنبيُّ يَعُمُّه ، ومَن بَعَثَه لتقرير شَرْع سَابِق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام... وقِيل: الرَّسُول مَن جَمَعَ إلى المُعجِزة كِتابًا مُنْزَلًا عليه،والنبيُّ غَير الرَّسُول مَن لا كتاب له.وقِيل:الرَّسُول مَن يَأتيه المَلَكُ بالوَحْي،والنبيُّ يُقال له وَلِمَن يُوحَى إلَيه في المَنَام)).

وقال عِياض في الشِّفا (ص ١٩٢) : ((واختلف العُلَماء : هل النبيُّ والرَّسُولُ بمعنى أو بمعنيَيْن ؟ ، فقِيل : هُمَا سَواء ، وأصله من الإنباء ، وهو الإعلام ، واستدلوا بقَوله تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ [الحَج : ٥٢] . فقد أثبتَ لهما معًا الإرسال . قال: ولا يكون النبيُّ إلا رَسُولًا ، ولا الرَّسُول إلا نَبِيًّا . وقيل : هُما مُفترقان مِن وجه ، إذْ قد اجتمعا في النُّبُوَّة التي هي الاطِّلاع على الغَيْب ، والإعلام بخَوَاص النُّبُوَّة ، أو الرِّفعة لمعرفة ذلك ، وحَوْز درجتها ، وافترقا في زيادة الرِّسالة للرَّسول ، وهو الأمر بالإنذار والإعلام . وحُجَّتهم مِن الآية نفْسها التَّفريق بين الاسْمَيْن، وَلَوْ كانا شيئًا واحدًا لَمَا حَسُنَ تَكْرارهما في الكلام البليغ. قالوا: والمعنى : وما أرْسَلْنا مِن رَسُول إلى أُمَّة ، أو نبيٍّ ليس بمُرسَل إلى أحد . وقد ذهب بعضُهم إلى أن الرَّسُول مَن جاء بشَرْع مُبْتَدَأ ، ومَن لَم يَأتِ به نبيٌّ غَير رَسُول ، وإن أُمِرَ بالإبلاغ والإنذار . والصَّحيح، والذي عليه الجَمَّاء الغَفِير أن كُل رسول نبيٌّ ، وليس كُل نبيٍّ رَسُولًا. وأوَّل الرُّسُل آدم ، وآخرهم مُحمَّد ﷺ . وفي حديث أبي ذَر _ رضي اللهُ عنه _ : " إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ " . وذُكِرَ أنَّ الرُّسُل مِنهُم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أَوَّلُهم آدم عليه السلام)) .

المشهور أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا . والرُّسُلُ مِنهم : ثلاثمائة وثلاثة عشر. حتى قال بعضُ العلماء:إنَّ عدد الأنبياء كعَدَد أصحاب النبيِّ ﷺ، وعَدَد الرُّسُل كعَدَد أصحاب بَدْر.

وعددُ الرُّسُل والأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لا يَعْلَمه إلا الله تعالى . وهُم جَم غَفِير . وقد قَصَّ اللهُ عَلَينا أخبارَ بعضهم ، ولم يَقُصَّ عَلَينا أخبارَ البعض الآخَر، لحِكمته البليغة. ولا يُوجد حديث صحيح في عدد الرُّسُل والأنبياء . ولكنَّ الأنبياء كثيرون ، والرُّسُل هُم النُّخبة والصَّفوة ، وعددهم أقل . والرَّسُولُ يُوحَى إلَيه ، ويُؤْمَر بالبلاغ ، ويُرسَل إلى أُمَّة لتبليغها وإعلامها وإنذارها. أمَّا النبيُّ فيُوحَى إلَيه في نفْسه ، ولكن لا يُؤْمَر بتبليغ الناس . وهناك تعريف آخَر عِند العلماء ، وهو أنَّ الرَّسُول هو الذي يُبعَث إلى أُمَّة مُسْتَقِلًّا، أمَّا النبيُّ فهو الذي يُبعَث تابعًا لغَيره ، كأنبياء بني إسرائيل بعد مُوسى ، حيث إنَّهم تابعون له. والجديرُ بالذِّكر أنَّ الرَّسُولَ الذي يُبعَث إلى الناس يُسمَّى رَسُولًا، والنبيَّ الذي لم يُبعَث إلى الناس يُسمَّى رَسُولًا ، لأنَّه أُرسِل إلى نفْسه بالأمر والنَّهْي .

والآياتُ التي تتحدَّث عن نُبُوَّة الأنبياء تُشير بوضوح إلى إنهم معصومون فيما يُخبِرون به عن الله تعالى، ولا يَكون كلامُهم إلا حقًّا وصِدْقًا. وهذا معنى النُّبُوَّة، وهو يتضمَّن أن الله يُنْبِئه بالغَيْب ، وأنَّه يُنبِئ الناسَ بالغَيب. والرَّسُولُ مأمور بدَعْوة الناس ، وتَبليغهم الوَحْي الإلهيِّ ، وإيصال رسالة الله إليهم كاملةً بلا زيادة ولا نُقصان .

وقد يُوصَف النبيُّ بالإرسال المُقيَّد ، لأنَّه مُرسَل إلى نفْسه يَأمرها ويَنْهاها ، كما في قَوله تعالى: ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ [الحَج : ٥٢]. والمعنى: وما أرسلَ اللهُ مِن قَبْلِكَ يا مُحمَّد مِن نبيٍّ أُمِرَ بالتَّبليغ، ولا نبيٍّ لَم يُؤْمَر بالتَّبليغ ﴿ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ . أوْ : وما أرسلَ اللهُ مِن قَبْلِكَ يا مُحمَّد مِن نبيٍّ يَأتيه جِبريلُ عليه السلام بالوَحْي عِيَانًا ، ولا نبيٍّ تَكُون نُبُوَّتُه إلهامًا ومَنَامًا ﴿ إلا إذا تَمَنَّى ﴾ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ﴾[النِّسَاء : ١٧١] .

يَأمُرُ اللهُ بالتَّصديق بوَحدانيته ، وعِبادته وَحْده بلا شريك ، وتصديقِ رُسُلِه الكِرام الذين اصطفاهم ، وأوْحَى إلَيهم ، وحَمَّلَهم كلامَه المُقدَّس ، وأمرهم بتبليغ دَعوة التَّوحيد إلى الناس ، وقد فَعلوا ذلك على أكمل وَجْه . وجميعُ الرُّسُل بلا استثناء مُسْلِمُون ، وجاؤوا بِ " لا إلهَ إلا الله " .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٨٤): ((وقَوله: ﴿ فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ﴾ أي: فَصَدِّقُوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ، ولا صاحبة)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨١٥) : ((﴿ فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ﴾ ، أي : بأنَّه سُبحانَه إله واحد، لَم يَلِدْ، ولَم يُولَدْ ، ولَم يَكُن له كُفُوًا أحَد ، وبأنَّ رُسُلَه صادقون مُبَلِّغُون عَن الله ما أمَرَهُم بتبليغه ، ولا تُكَذِّبُوهم ، ولا تَغْلُوا فِيهُم ، فتَجعلوا بَعْضَهم آلهةً)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٧٢) : ((يعني بقَوْله جَلَّ ثناؤه : ﴿ فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ﴾ ، فَصَدِّقُوا يا أهل الكِتاب بوَحدانية الله ورُبوبيته ، وأنَّه لا وَلَدَ له ، وصَدِّقُوا رُسُلَه فِيما جاؤوكم به مِن عِند الله ، وفيما أخبرتكم به أن الله واحد ، لا شريك له ، ولا صاحبة له ، ولا وَلد له)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا باللهِ ورُسُلِهِ أُولئكَ هُمُ الصِّدِّيقون ﴾[الحديد : ١٩] .

والذينَ صَدَّقوا بوُجود الله،وأقَرُّوا بوَحدانيته،واعترَفوا بأُلوهيته ورُبوبيته،وعَبَدُوه وَحْدَه بلا شريك، وصَدَّقوا برُسُله الذين اختارهم ، وأوْحَى إلَيهم ، وبَعَثَهُم لنشر دَعوة التَّوحيد بين الناس ، وصَدَّقوا بما جاؤوهم بِه مِن عِند الله ، ولم يَشُكُّوا فيهم ، ولم يُكذِّبوهم ، أُولئكَ أصحاب القُرب والمكانة ، الذينَ وَصَلُوا إلى رُتبة الصِّدِّيقية العظيمة . والصِّدِّيقُون : المُبَالِغُون في الصِّدْقِ والتَّصديقِ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : والذين أقَرُّوا بوَحدانية الله ، وإرساله رُسُلَه، فَصَدَّقُوا الرُّسُلَ ، وآمَنُوا بما جاؤوهم به مِن عِند ربِّهم ﴿ أُولئكَ هُمُ الصِّدِّيقون ﴾)).

٢ـ تَفضيل بَعضهم على بَعض

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

هذه الآية تدلُّ على أن مراتب الرُّسُل مُتفاوتة ، فبعضُهم أفضل مِن بَعض . والآيةُ لَيس فيها تَعيين ، ولا ذِكْر أسماء . وكُل رَسُول له مَنزلته الخاصَّة به ، التي تعكس إمكانياته وإنجازاته وأداءه في تبليغ الرِّسالة . وسَادَةُ الأنبياء هُم أُولو العَزْم (مُحمَّد وإبراهيم ومُوسى وعِيسى ونُوح) ، وبعدهم يأتي باقي الأنبياء . وهذا الأمرُ لا يَقْدَح في شَرَف النُّبُوَّة ومَكَانَةِ الأنبياء، لأن ذوات الأنبياء الشريفة تختلف في الفضائل والدَّرَجَات ، وبَينهم تنافُس طَيِّب في فِعل الطاعات، وعَمَل الخَيرات ، ونيلِ رضا الله، وتنفيذِ أوامره بحذافيرها ، وهذا جَعل مَراتبهم مُختلفة حَسَب أعمالهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٠٧) : ((كَمَا ثَبَتَ في حديث الإسراء حِين رَأى النبيُّ ﷺ الأنبياءَ في السَّماوات بحَسَب تفاوُت مَنازلهم عِند الله عَزَّ وَجَلَّ)) .

فَضَّلَ اللهُ بَعْضَ الرُّسُل على بَعْض في الرِّفعة والشَّرف والفضيلة والكرامة والمكانة ، وتَمَّ تخصيص البَعض بمَنْقَبَة لَيست لغَيْره . مِنهُم مَن خصَّه اللهُ بالتَّكليم بلا واسطة كمُوسَى ﷺ، ورَفَعَ اللهُ بعضَ الرُّسُل دَرَجَاتٍ، وخصَّه بالمنزلة الرفيعة، كمُحمَّد ﷺ ، الذي أرسله اللهُ إلى الإنس والجِن، وجَعَلَه خَاتَمَ الأنبياء ، وسَيِّد الأوَّلين والآخِرين في الدُّنيا والآخرةِ ، وفضَّل أُمَّتَه على سائر الأُمَم إكرامًا له ، وأيَّده بالمُعجزات الباهرة ، والخصائص العظيمة .

والإشارةُ بالبعيد ﴿ تِلْكَ ﴾ لبُعد مَنزلتهم في الفضيلة ، وارتفاع مكانتهم في الكَمَال ، وعُلُوِّ قَدْرهم في الشَّرَف .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(١/ ٤٠٦): ((﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ . قِيل : هو إشارة إلى جميع الرُّسُل،فتكون الألف واللام للاستغراق.وقِيل:هو إشارة إلى الأنبياء المَذكورين في هذه السُّورة . وقِيل: إلى الأنبياء الذين بَلَغَ عِلْمُهم إلى النبيِّ ﷺ . والمُراد بتَفضيل بعضهم على بعض أن الله سُبحانَه جعل لبعضهم مِن مزايا الكمال فوق ما جعله للآخَر،فكان الأكثر مزايا فاضلًا،والآخر مفضولًا.وكما دلَّت هذه الآيةُ على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، كذلك دلَّت الآيةُ الأُخرى، وهي قَوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾[الإسراء: ٥٥])) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٨) : ((﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ﴾ . أي : كلَّمه اللهُ تعالى، يعني: مُوسَى عليه السلام ، ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ ﴾ ، يعني: مُحَمَّدًا ﷺ . قال الشيخ الإمام رحمة الله عليه: وما أُوتِيَ نبيٌّ آيةً إلا وقد أُوتِيَ نَبِيُّنا مِثْلَ تلك الآية، وفُضِّلَ على غَيره بآيات مِثل : انشقاق القمر، وحَنين الجِذع على مُفارقته، وتسليم الحَجَر والشَّجَر عَلَيه، وكلام البهائم والشَّهادة برسالته،ونَبْع الماء مِن بَين أصابعه،وغَير ذلك مِن المُعجِزات والآيات التي لا تُحصَى ، وأظْهَرُها القُرآن الذي عَجَزَ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ عن الإتيان بمِثْلِه)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤٩) : ((﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ ﴾ بأنَّ فَضْلَه على غيره مِن وُجوه مُتعدِّدة أو بمراتب مُتباعدة ، وهو مُحمَّد ﷺ ، فإنَّه خَصَّه بالدَّعوة العَامَّة والحُجَج المُتَكَاثِرَة ، والمُعجِزات المُستمرة ، والآيات المُتَعَاقِبَة بتعاقُب الدَّهْر ، والفضائل العِلْمِيَّة والعَمَلِيَّة الفائتة للحَصْر . والإبهام لتفخيم شأنه كأنه العَلَم المُتَعَيَّن لهذا الوَصْف المُستغني عَن التَّعيين)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠١) : ((وفي المُراد بقَوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ ﴾ قَولان : أحدهما عَنَى بالمَرفوع دَرَجَاتٍ مُحَمَّدًا ﷺ ، فإنَّه بُعِثَ إلى الناس كافَّة ، وغَيره بُعِثَ الى أُمَّته خاصَّة ، هذا قَول مُجاهد. والثاني أنَّه عَنى تَفضيلَ بعضهم على بعض فيما آتاه اللهُ ، هذا قَول مُقاتل . قال ابن جرير الطبري : والدَّرَجات جَمْع دَرَجَة ، وهي المَرتَبة ، وأصل ذلك مَراقي السُّلَّم ودَرَجه ، ثُمَّ يُستعمَل في ارتفاع المنازل والمراتب)) اهـ . أمَّا مَا رواه أبو سَعيد الخُدْرِيُّ ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : ((لا تُخَيِّروا بَيْنَ الأنبياء)) [١٥٤]. فيعني الابتعاد عن تفضيل الأنبياء بهدف الانتقاص مِن قَدْرهم ، أو الطَّعْن فِيهم ، أو الخُضوع للعَصبية والعِناد ، أو التَّمَسُّك بالرأي بدافع الهوى دُون حُجَّة . ولكن يجب اعتقاد التَّفاوُت بين الأنبياء ، لأنَّه مَذكور في القُرآن الكريم. ومُنكِرُ التفاضُل بين الأنبياء والرُّسُل كافرٌ لتكذيبه كلام الله تعالى .

---

١٥٤ متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٥٣٤)برقم (٦٥١٨)،ومسلم (٤/ ١٨٤٥) برقم (٢٣٧٤).

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٥/ ٣٧ و٣٨):((فجَوابه من خمسة أوجه: أحدهما أنه ﷺ قاله قَبْل أن يَعْلَم أنه سَيِّد وَلَد آدم ، فلمَّا عَلِمَ أخبرَ به . والثاني : قاله أدَبًا وتواضُعًا ، والثالث : أن النَّهْي إنما هو عن تفضيل يُؤدِّي إلى تنقيص المفضول . والرابع : إنما نهى عن تفضيل يُؤَدِّي إلى الخُصومة والفِتنة ... والخامس : أن النَّهْي مُختص بالتفضيل في نَفْس النُّبُوَّة ، فلا تفاضُل فيها ، وإنما التفاضُل بالخصائص وفضائل أخرى . ولا بُد مِن اعتقاد التفضيل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْض ﴾[الإسراء : ٥٥] .

فضَّل اللهُ بعض الأنبياء على بعض ، وَفْق عِلْمِه الشامل ، وحِكمته البليغة ، وخَصَّهم بمزايا فريدة ، وفضائل عظيمة ، وتَمَّ تَخصيص كُل واحد مِنهُم بفضيلة دُون الآخر ، فاتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيلًا، وكَلَّمَ مُوسَى تكليمًا ، وجَعَلَ عِيسَى كَلِمَتَه ورُوحَه ، وآتى سُلَيمان مُلْكًا عظيمًا، وأرسلَ مُحَمَّدًا إلى الإنس والجِن ، وغَفَرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبه وما تأخَّرَ، وجَعَلَه سَيِّدَ الأوَّلين والآخِرين في الدُّنيا والآخِرة . واللهُ حَكيمٌ في كُل أفعاله ، وعِلْمُه أحاطَ بكُل شيء .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٢) : ((﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْض ﴾ بالفضائل النَّفسانية ، والتَّبَرِّي عن العلائق الجُسمانية ، لا بكَثرة الأموال والأتباع ، حتى داود عليه الصلاة السلام فإنَّ شرَفَه بما أوحى إليه مِن الكتاب ، لا بما أُوتيه مِن المُلْك . قِيل : هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٨) : ((وكذلك فَضَّلَ بَعْضَ النَّبيين على بعض ، وذلك عَن حِكمة مِنه وعِلْم ، فَخَلَقَ آدمَ بِيَده ، ورَفَعَ إدريس ، وجَعَلَ الذُّرِّية لنُوح ، واتَّخَذَ ابراهيم خليلًا ، ومُوسى كَلِيمًا ، وجَعل عِيسى رُوحًا ، وأعطى سُلَيمان مُلْكًا جَسِيمًا ، ورَفَعَ مُحَمَّدًا ﷺ فوق السَّماوات ، وغَفَرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبه وما تأخَّرَ . ويجوز أن يكون المُفضَّلون أصحاب الكُتُب ، لأنَّه خَتَمَ الكلامَ بقوله : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾)) .

٣ـ المُصْطَفَوْنَ مِنهُم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنيا ﴾[البقرة : ١٣٠] .

اختارَ اللهُ إبراهيمَ مِن بَين الناس بالنُّبُوَّة والرِّسالة والحِكمة والإمامة ، حيث جَعله إمامًا للناس، وسَيِّدًا لهم. وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦٠٨) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوْله: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنيا ﴾ ، ولقد اصْطَفَيْنَا إبراهيمَ ، والهاء التي في قَوله : ﴿ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ مِن ذِكْر إبراهيم . والاصطفاء الافتعال مِن الصَّفوة ... . ويعني بقَوله : ﴿ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ : اخْتَرْنَاه واجْتَبَيْنَاه للخُلَّة ، ونُصَيِّره في الدُّنيا لِمَن بَعْدَه إمامًا . وهذا خَبَرَ مِن الله تعالى ذِكْرُه عَن أنَّ مَن خَالَفَ إبراهيمَ فيما سَنَّ لِمَن بَعْدَه ، فهو لله مُخَالِف ، وإعلام مِنه خَلْقَه أنَّ مَن خَالَفَ ما جاء به مُحمَّد ﷺ ، فهو لإبراهيم مُخَالِف ، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّه اصطفاه لخُلَّته ، وجَعَلَه للناس إمامًا ، وأخبرَ أنَّ دِينَه كان الحنيفية المُسْلِمة ، ففي ذلك أوضح البيان مِن الله تعالى ذِكْرُه عَن أنَّ مَن خَالَفَه فهو لله عدوٌّ ، لمُخَالَفته الإمام الذي نَصَبَه اللهُ لعباده)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدمَ وَنُوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ عَلى العَالَمِين ﴾ [آل عِمران : ٣٣] [١٥٥].

إنَّ الله اختارَ للنُّبُوَّةِ صَفْوَةَ الخَلْقِ ، ونُخبةَ الناس، مِنهُم آدم أبو البشر، الذي خَلَقَه اللهُ بيده ، وأسجدَ له الملائكةَ ، وعلَّمه الأسماءَ ، وخَلَقَ له زوجته ، وأسكنهما الجَنَّةَ ، ﴿ وَنُوحًا ﴾ شَيْخَ المُرسَلين ، وأوَّلَ رَسُول بَعَثَه اللهُ إلى أهل الأرض بعد آدم ، ﴿ وآلَ إبراهيمَ ﴾ وأتباعَه وقَوْمَه ومَن هُوَ على دِينه، أوْ : إسماعيل وإسحاق والأنبياء مِن أولادهما، ومِن جُملتهم مُحمَّد خَاتَم المُرسَلين، ﴿ وآلَ عِمرانَ ﴾ مُوسى وهارون ، أو عِيسَى بن مَرْيَم بنت عِمْران ، خَاتَم أنبياء بني إسرائيل ، ﴿ عَلى العَالَمِين﴾ على عَالَمِي زمانهم. وخُصَّ هؤلاء بالذِّكْر لأن الأنبياء والرُّسُل جميعًا مِن نَسْلهم.

ومعنى ﴿ اصْطَفى ﴾ اختارَ ، مِن الصَّفْوَة ، وهي الخَالِص مِن كُل شَيء .

---

١٥٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٤) : ((قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ونحن على دِينهم ، فنزلت هذه الآية . قال الزَّجاج : ومعنى اصطفاهم في اللغة اختارهم ، فجعلهم صَفوة خَلْقه . وهذا تمثيل بما يُرى ، لأن العرب تُمثِّل المعلومَ بالشيء المرئي ، فإذا سمع السامعُ ذلك المعلومَ، كان عِنده بمنزلة ما يُشَاهَد عِيَانًا ، فنحن نُعَايِن الشيءَ الصافي أنه النقي من الكَدَر، فكذلك صَفوة الله مِن خَلْقه ... . قال أبو سُلَيمان الدمشقي : اسم نُوح السَّكَن ، وإنما سُمي نُوحًا لكثرة نَوْحِه . وفي سبب نَوْحِه خمسة أقوال : أحدها أنه كان يَنُوح على نفسه ، قاله يزيد الرَّقَاشي ، والثاني أنَّه كان يَنُوح لمعاصي أهله وقومه، والثالث لمراجعته رَبَّه في وَلَده ، والرابع لدُعائه على قَومه بالهلاك، والخامس أنَّه مَرَّ بكَلْب مجذوم ، فقال : اخسأ يا قبيح ، فأوحى اللهُ إليه أعِبْتَني يا نُوح أم عِبْتَ الكَلْبَ ؟ . وفي آلِ إبراهيم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه مَن كان على دِينه ، قاله ابن عباس والحسن ، والثاني أنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، قاله مُقاتل،والثالث أن المراد بِ آل إبراهيم هو نَفْسُه ... ، ذَكَرَه بعضُ أهل التَّفسير. وفي عِمران قَولان: أحدهما أنه والد مَرْيَم ، قاله الحسن ووَهْب ، والثاني أنَّه والد مُوسى وهارون ، قاله مُقاتل . وفي آله ثلاثة أقوال : أحدها أنه عِيسى عليه السلام ، قاله الحسن ، والثاني أن آله مُوسى وهارون ، قاله مُقاتل ، والثالث أن المراد بِ آله نَفْسُه ، ذَكَرَه بعضُ المفسِّرين . وإنما خُصَّ هؤلاء بالذِّكْر لأن الأنبياء كُلَّهم مِن نَسْلِهم . وفي معنى اصطفاء هؤلاء المذكورين ثلاثة أقوال : أحدها أن المراد اصطفى دِينَهم على سائر الأديان ، قاله ابن عباس ، واختاره الفَرَّاء والدمشقي ، والثاني اصطفاهم بالنُّبُوَّة ، قاله الحسن ومجاهد ومُقاتل ، والثالث اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي مَيَّزهم بها على أهل زمانهم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٨) : ((يُخبِر تعالى أنَّه اختار هذه البُيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدمَ عليه السلام ، خَلَقَه بيده ، ونَفَخَ فيه مِن رُوحه ، وأسجدَ له مَلائكته ، وعَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شيء ، وأسكنه الجَنَّةَ ، ثُمَّ أهبطه مِنها لِمَا له في ذلك مِن الحِكمة ، واصطفى نُوحًا عليه السلام ، وجَعَلَه أوَّلَ رسول بَعَثَه إلى أهل الأرض، لَمَّا عَبَدَ الناسُ الأوثانَ وأشركوا بالله ما لَم يُنزِّل به سُلطانًا ، وانتقمَ له لَمَّا طالت مُدَّته بين ظَهْرَاني قَومه ، يَدعوهم إلى الله لَيْلًا ونهارًا ، سِرًّا وجِهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلا فِرَارًا ، فدعا عليهم فأغرقهم اللهُ عن آخِرهم ، ولم يَنْجُ مِنهُم إلا مَن اتَّبَعَه على دِينه ، الذي بَعَثَه اللهُ به ، واصطفى آلَ إبراهيم ، ومِنهُم سَيِّد البشر وخَاتَم الأنبياء على الإطلاق مُحمَّد ﷺ ، وآلَ عِمران ، والمُراد بعِمران هذا هو والد مَرْيَم بِنت عِمران ، أُم عِيسى ابن مَرْيَم عليه السلام)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٦٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدمَ وَنُوحًا ﴾ ... . والتقدير: إنَّ الله اصطفى دِينَهُم، وهو دِين الإسلام، فحذف المُضاف. وقال الزَّجاج: اختارهم للنُّبُوَّة على عَالَمِي زَمانهم ، ونُوحًا : قِيل إنَّه مُشتق مِن نَاحَ يَنُوح ، وهو اسم أعجمي ، إلا أنه انصرفَ لأنَّه على ثلاثة أحرف، وهو شيخ المُرسَلين ، وأوَّل رسول بَعَثَه اللهُ إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعَمَّات والخالات وسائر القَرَابات . ومن قال : إن إدريس كان قَبْلَه مِن المُؤرِّخين فقد وَهِمَ ... . قَوله تعالى : ﴿ وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ عَلى العَالَمِين ﴾ ... . وفي البخاري عن ابن عباس قال: " آل إبراهيم وآل عِمران المُؤمنون مِن آل إبراهيم وآل عِمران وآل ياسين وآل مُحمَّد ، يَقول اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤمِنِين ﴾ [آل عِمران : ٦٨] ". وقِيل : آل إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويَعقوب والأسباط ، وأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مِن آل إبراهيم . وقِيل: آل إبراهيم نَفْسُه ، وكذا آل عِمران ... . ومعنى قَوله : ﴿ عَلى العَالَمِين ﴾ أي : عَلى عَالَمِي زَمانهم ، في قَول أهل التفسير. وقال الترمذي الحكيم أبو عبدالله محمد بن علي: جميع الخَلق كُلِّهم.وقِيل: ﴿ عَلى العَالَمِين ﴾ على جميع الخَلْق كُلِّهم إلى يوم الصُّور ، وذلك أن هؤلاء رُسُل وأنبياء فهُم صَفوة الخَلْق ، فأمَّا مُحمَّد ﷺ ، فقد جازت مَرتبته الاصطفاءَ، لأنه حَبيب ورحمة . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رَحمةً للعَالَمِين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . فالرُّسُل خُلِقُوا للرَّحْمَة ، ومُحمَّد ﷺ خُلِقَ بنفْسه رَحْمَةً ، فلذلك صار أمانًا للخَلْق . لَمَّا بَعَثَه اللهُ أَمِنَ الخَلْقُ العذابَ إلى نَفْخَة الصُّور ، وسائر الأنبياء لَم يَحُلُّوا هذا المَحَلَّ ، ولذلك قال عليه السلام : " أنا رَحمة مُهداة " . يُخبر أنَّه بنفْسه رَحمة للخَلْق مِن الله . وقَوله : " مُهداة " أي : هَدِيَّة مِن الله للخَلْق . ويُقال : اختارَ آدمَ

بخمسة أشياء : أوَّلها أنَّه خَلَقَه بيده في أحسن صُورة بقُدرته . والثاني أنَّه عَلَّمَه الأسماءَ كُلَّها. والثالث أمرَ الملائكةَ بأن يَسجُدوا له. والرابع أسكنه الجنة. والخامس جَعَلَه أبا البَشَر.واختارَ نُوحًا بخمسة أشياء : أوَّلها أنَّه جَعَلَه أبا البشر، لأن الناس كُلَّهم غَرِقُوا ، وصار ذُرِّيته هُم الباقين . والثاني أنَّه أطالَ عُمُرَه ، ويُقال: طُوبَى لِمَن طَالَ عُمُرُه ، وحَسُنَ عَمَلُه . والثالث أنَّه استجاب دُعاءه على الكافرين والمؤمنين. والرابع أنَّه حَمَلَه على السَّفينة. والخامس أنَّه كان أوَّلَ مَن نَسَخَ الشرائعَ. وكان قَبْل ذلك لَم يَحْرُم تزويج الخالات والعَمَّات. واختار إبراهيم بخمسة أشياء: أوَّلها أنَّه جَعَلَه أبا الأنبياء، لأنَّه رُوِيَ أنَّه خَرَجَ مِن صُلبه ألفُ نبيٍّ مِن زمانه إلى زمن النبيِّ ﷺ.والثاني أنَّه اتَّخذه خَلِيلًا. والثالث أنَّه أنجاه مِن النار.والرابع أنَّه جَعَلَه إمَامًا للناس. والخامس أنَّه ابتلاه بالكَلِمَات،فَوَفَّقَه حتى أتمهنَّ، ثُمَّ قال: ﴿ وآلَ عِمرانَ ﴾ فإن كان عِمران أبا مُوسَى وهَارون، فإنَّما اختارهما على العَالَمِين، حيث بَعَثَ على قَومه المَنَّ والسَّلْوى ، وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العَالَم. وإن كان أبا مَرْيَم، فإنَّه اصطفى له مَرْيَم بولادة عِيسى بغَير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العَالَم ، والله أعلم)).

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩) : ((﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفى آدمَ وَنُوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ عَلى العَالَمِين ﴾ بالرِّسالة والخَصائص الرُّوحانية والجُسمانية ، ولذلك قَوُوا على ما لَم يَقْوَ عَلَيْه غَيْرُهم . لمَّا أوجبَ طاعةَ الرسول ﷺ ، وبَيَّنَ أنها الجالبة لمَحَبَّة الله ، عَقَّبَ ذلك ببيان مناقبهم تحريضًا عليها ، وبه اسْتُدِل على فَضْلهم على الملائكة ، ﴿ وآلَ إبراهيمَ ﴾ إسماعيل وإسحق وأولادهما ، وقد دَخل فيهم الرَّسُول ﷺ ، ﴿ وآلَ عِمرانَ ﴾ مُوسى وهارون ابنا عِمران ... أو : عِيسى وأُمَّه مَرْيَمَ بنت عِمران)) اهـ . وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٦): ((وتَخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذِّكْر ، لأنه أبو البشر ومَنْشَأ النُّبُوَّة ، وكذا حال نُوح عليه السلام ، فإنَّه آدم الثاني. وأمَّا ذِكْر آل إبراهيم فلترغيب المُعترفين باصطفائهم،في الإيمان بنُبُوَّة النبيِّ واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كَوْنه مِن زُمرتهم مَعَ ما مَرَّ مِن التنبيه على كَوْنه عليه الصلاة والسلام عَرِيقًا في النُّبُوَّة مِن زُمرة المُصْطَفَيْن الأخيار ، وأمَّا ذِكْر آل عِمران مع اندراجهم في آل إبراهيم ، فلإظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عِيسى عليه الصلاة والسلام ، لكمال رُسوخ الخِلاف في شأنه ، فإن نِسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحقُّقه في الآل ، وهو الداعي إلى إضافة الآل إلى إبراهيم دُون نُوح وآدم عليهم الصلاة والسلام. والاصطفاءُ أَخْذُ ما صَفَا مِن الشيء كالاستصفاء ، مَثَّلَ به اختيارَه تعالى إيَّاهم النُّفوسَ القُدْسِيَّة ، وما يليق بها مِن المَلَكَات الرُّوحانية والكمالات الجُسمانية المُستتبعة للرسالة في نفْس المُصطفى ، كما في كافة الرُّسُل عليهم الصلاة

والسلام ، أو فِيمَن يُلابسه ويَنشأ مِنه كما في مَرْيَم . وقِيل: اصطفى آدمَ عليه الصلاة والسلام بأن خَلَقَه بيده في أحسن تقويم ، وبتعليم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له ، وإسكان الجَنَّة ، واصطفى نُوحًا عليه الصلاة والسلام بكَوْنه أولَ مَن نَسَخَ الشرائعَ ، إذْ لَم يكن قبل ذلك تزويجُ المحارم حرامًا ، وبإطالة عُمُره ، وجَعْل ذُرِّيته هُم الباقين ، واستجابة دَعوته في حَق الكَفَرَة والمؤمنين ، وحَمْله على مَتْن الماء. والمُراد بآل إبراهيم إسماعيل وإسحاق والأنبياء مِن أولادهما الذين مِن جُملتهم النبيُّ، وأمَّا اصطفاء نَفْسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم مِن اصطفائهم بطريق الأولوية، وعدم التصريح به للإيذان بالغِنى عنه لكمال شُهرة أمره في الخُلَّة، وكَوْنه إمام الأنبياء قُدوة الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام، وكَوْن اصطفاء آله بدَعوته بقَوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولًا مِنهُم ﴾ الآية، [البقرة: ١٢٩] . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " أنا دَعوةُ أبي إبراهيم " . وبآل عِمران عِيسى وأُمُّه مريم ابنة عِمران ، ...)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالَ يا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلى الناسِ بِرِسَالاتي وبِكَلامي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وكُن مِنَ الشاكرين ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

قالَ اللهُ لمُوسى ﷺ : يا مُوسى ، إنِّي اخْتَرْتُكَ على جَميع الناس الموجودين في زمانك بالرسالة الإلهية إلى خَلْقِي ، بَعَثْتُكَ بِها إلَيهم ، وبتَكْليمي إيَّاك بلا واسطة ، وقد كلَّمه اللهُ وناجاه دُون غَيره مِن الخَلْق، فخُذ ما أعْطَيْتُكَ مِن شَرَفِ النُّبُوَّةِ والحِكمةِ ، وتَمَسَّكْ بأوامر الله ونَوَاهيه ، واعْمَلْ بها، واشكرَ رَبَّكَ على ما أعطاكَ مِن نِعَمه العظيمة وآلائه الجليلة ، وسَارِعْ إلى رِضَاه وطاعته . وبالشُّكْرِ تَدُوم النِّعَم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٩) : ((فإنْ قِيل : فما معنى قَوله : ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلى الناسِ بِرِسَالاتي ﴾ وقد أُعْطِيَ غَيْرُه الرِّسالةَ ؟ . قِيل : لَمَّا لَم تكن الرِّسالة على العُموم في حَق الناس كافة ، استقامَ قَوْلُه : ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلى الناسِ ﴾ وإنْ شاركه فيه غَيْرُه ، كما يَقول للرَّجُل : خَصَصْتُكَ بمَشُورتي ، وإنْ شاورَ غَيْرَه، إذا لم تكن المَشُورة على العُموم ، يكون مستقيمًا)) .

ومعَ أنَّ هارون ﷺ كان نبيًّا ورَسُولًا ، إلا أنَّه كان مَأمُورًا باتِّباع مُوسَى ﷺ ، ولم يَكُن كَلِيمًا ، ولا صاحب شَرْع ، لذلك تَمَّ تخصيص الاصطفاء بمُوسى ﷺ .

وهذه الآيةُ جاءت لرَفع معنويات مُوسى ﷺ ، وتَسليته ، وإزالة حُزنه ، لأنَّ اللهَ لم يُجِبْهُ إلى سؤال الرُّؤية ، وكأنَّ اللهَ يقول : إنْ مَنَعْتُكَ مِن رُؤيتي يا مُوسَى ، فقد اصْطَفَيْتُكَ على جميع الناس، وخَصَصْتُكَ بالنِّعَم العظيمة ، فخُذها ، واشكُر اللهَ عليها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٢٨) : ((يَذكر تعالى أنَّه خَاطبَ مُوسى بأنَّه اصطفاه على أهل زمانه برِسَالاته تعالى وبكَلامه ، ولا شك أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّد وَلَد آدم مِن الأوَّلين والآخِرين ، ولهذا اخْتَصَّه اللهُ تعالى بأن جَعله خَاتَمَ الأنبياء والمُرسَلين ، الذي تَستمر شريعته إلى قِيام السَّاعة ، وأتباعه أكثر مِن أتباع سائر الأنبياء والمُرسَلين كُلِّهم . وبَعْدَه في الشَّرَف والفَضْل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثُم مُوسَى بن عِمران كَلِيم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قالَ اللهُ تعالى له : ﴿ فَخُذْ ما آتَيْتُكَ ﴾ أي : مِن الكَلام والمُناجاة ، ﴿ وكُن مِنَ الشاكرين ﴾ أي : على ذلك ، ولا تَطْلُب ما لا طاقةَ لَكَ به)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ قالَ يا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلى الناسِ بِرِسَالاتي وبِكَلامي ﴾ . الاصطفاء : الاجتباء ، أي : فَضَّلْتُكَ. ولَم يَقُل: على الخَلْق ، لأنَّ مِن هذا الاصطفاء أنه كَلَّمه ، وقد كَلَّمَ المَلائكةَ ، وأرسله ، وأرسلَ غَيْرَه ، فالمُراد على الناس المُرسَل إلَيهم... . قَوله تعالى : ﴿ فَخُذْ ما آتَيْتُكَ ﴾ إشارة إلى القَناعة ، أي : اقْنَعْ بما أعْطَيْتُك ، ﴿ وكُن مِنَ الشاكرين ﴾ أي: مِن المُظْهِرِين لإحساني إلَيْك، وفَضْلي عَلَيك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائكةِ رُسُلًا وَمِنَ الناسِ ﴾[الحج : ٧٥] .

اللهُ يَختار رُسُلًا مِن الملائكة ليكونوا وُسطاء لتبليغ الوَحْي السماويّ إلى أنبيائه ، ويَختار رُسُلًا مِن البشر لتبليغ الحق وتعاليم الدِّين لعباده . والآيةُ رَد على مَن أنكرَ أن يكون الرَّسُول مِن البشر . واللهُ هو الفاعلُ المُختار ، يَفعل ما يشاء ، ولا يُسْأل عمَّا يَفعل . والاختيارُ إلَيه سُبحانَه وتعالى .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : اللهُ يَختار مِن الملائكة رُسُلًا كجِبريل ومِيكائيل اللذَيْن كان يُرسلهما إلى أنبيائه ، ومَن شاء مِن عِباده ، ومِن الناس ، كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عِباده مِن بني آدم . ومعنى الكلام : اللهُ يَصطفي مِن الملائكة رُسُلًا ، ومِن الناس أيضًا رُسُلًا . وقد قِيل : إنَّما أُنزِلت هذه الآية لَمَّا قال المُشركون : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : ٨]. فقال اللهُ لهم: ذلك إلَيَّ وبيدي دُون خَلْقي، أختار مَن شِئْتُ مِنهُم للرِّسالة)).

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٠٠) : ((﴿ اللهُ يَصْطَفي ﴾ يعني : يَختار ﴿ مِنَ المَلائكةِ رُسُلًا ﴾ ، وهُم : جِبريل ، ومِيكائيل ، وإسرافيل ، وعِزرائيل ، وغَيْرهم . ﴿ وَمِنَ الناسِ ﴾ ، أي : يَختار مِن الناس رُسُلًا ، مِثل : إبراهيم ومُوسى وعِيسى ومُحمَّد ﷺ ، وغَيرهم مِن الأنبياء ، عليهم السلام . نَزلت حِين قال المُشركون : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : ٨] . فأخبرَ أن الاختيار إلَيه ، يَختار مَن يَشاء مِن خَلْقِه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلِ الحَمْدُ للهِ وسَلامٌ عَلى عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفى ﴾[النَّمْل : ٥٩] .

قُل يا مُحمَّد: الحَمْدُ للهِ على نِعَمه العظيمة ، وآلائه الجليلة ، وفَضْله الكبير ، وسلامٌ على الأنبياءِ والرُّسُلِ الذينَ اجتباهم لرسالته، واختارهم لتبليغ الوَحْي السماويِّ وتعاليمِ الدِّين إلى الناس .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٠) : ((يقول تعالى آمِرًا رَسُولَه ﷺ أن يَقول : ﴿ الحَمْدُ للهِ ﴾ ، أي : على نِعَمه على عِباده مِن النِّعَم ، التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحصَى ، وعلى ما اتَّصَفَ بِه مِن الصِّفات العُلى ، والأسماء الحُسنى ، وأن يُسلِّم على عِباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهُم رُسُلُه وأنبياؤه الكِرام عليهم مِن الله أفضل الصلاة والسلام . وهكذا قال عبد الرحمن بن زَيد ابن أسلم وغَيْرُه : إنَّ المُراد بعباده الذين اصطفى ، هُم الأنبياء)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٨٤ و١٨٥) : ((قَوله تعالى: ﴿ قُلِ الحَمْدُ للهِ ﴾. هذا خِطاب لرسول الله ﷺ . أُمِرَ أن يَحْمَدَ اللهَ على هَلاك الأُمَم الكافرة . وقِيل : على جميع نِعَمه. ﴿ وسَلامٌ عَلى عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفى ﴾ ، فِيهم أربعة أقوال : أحدها الرُّسُل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وروى عنه عِكرمة ، قال : اصطفى إبراهيم بالخُلَّة ، ومُوسى بالكَلام ، ومُحَمَّدًا بالرُّؤية . والثاني أنَّهم أصحاب مُحمَّد ﷺ [١٥٦]، رواه أبو مالك عن ابن عباس، وبه قال السُّدي. والثالث أنَّهم الذين وحَّدوه ، وآمنوا به ، رواه عطاء عن ابن عباس . والرابع أنَّه مُحمَّد ﷺ ، قاله ابن السائب)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أوْرَثْنا الكِتَابَ الذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فَاطِر : ٣٢] .

أوْحَى اللهُ القُرآنَ إلى النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ حَكَمَ بِتَوريثه الذين اختارهم مِن عِباده ، وهُم عُلماء الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، وجَعَلَهم حاملين للقُرآن المُصَدِّق للكُتب السماوية السابقة . وقد جَعَلَ اللهُ القُرآنَ يَنتهي إلى الذين اختارهم واصطفاهم مِن عِباده ، وزَكَّاهم على الآخَرين ، وشَرَّفهم بحَمْل رسالة القُرآن .

وقد اختارَ اللهُ الصحابةَ والتابعين وتابعيهم بإحسان ، وفضَّلهم على سائر الناس . والأُمَّةُ المُحمَّديةُ الإسلاميةُ اختارها اللهُ وفضَّلها على سائر خَلْقِه، إذْ إنها أُمَّةُ الوَسَطِ المَنسوبةُ إلى أعظم المخلوقات النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، والشاهدةُ على باقي الأُمَم . وأفضليةُ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية

---

١٥٦ عن ابن عباس قال : ﴿ وسَلامٌ عَلى عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفى ﴾ . قال : هم أصحاب محمَّد ﷺ ، اصطفاهم اللهُ لِنَبِيِّه ﷺ . رواه البَزَّار ، وفيه الحَكَم بن ظُهَير ، وهو متروك [مجمع الزوائد (٧/ ١٩٩)].

بسبب إيمانها بالله، وفِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي، والأمر بالمَعروف ، والنَّهْي عن المُنكَر . وتَمَّ التعبيرُ بالماضي ﴿ أَوْرَثْنا ﴾ لِكَوْنه واقعًا مُحَقَّقًا لا شَكَّ فِيه . واللهُ تعالى لا يقف أمامَ إرادته شيء ، إذا أرادَ شَيئًا ، تَمَّ ذلك الشيء كما أراد دون عوائق ولا حواجز .

وقالَ الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٤٩٥):((﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ الذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ المفعول الأول لأورثنا الموصول (﴿ الذينَ ﴾) ، والمفعول الثاني ﴿ الكتابَ ﴾ . وإنما قَدَّمَ المفعولَ الثاني لِقَصْد التشريف والتعظيم للكتاب. والمعنى : ثُمَّ أَوْرَثْنا الذين اصْطَفَيْنَاهُم من عبادنا الكتابَ وهو القُرآن : أي قَضَيْنا وقَدَّرْنا بأن نُورِث العُلماءَ مِن أُمَّتك يا مُحمَّد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك . ومعنى اصطفائهم اختيارهم واستخلاصهم . ولا شَكَّ أن علماء هذه الأُمَّة مِن الصحابة فمَن بَعْدَهم قد شَرَّفهم اللهُ على سائر العباد ، وجعلهم أُمَّةً وَسَطًا ، لِيَكونوا شُهداء على الناس ، وأكرَمَهم بِكَونهم أُمَّةَ خَيرِ الأنبياء ، وسَيِّدِ وَلَدِ آدَم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٨٧و٤٨٨): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ ﴾ في ﴿ ثُمَّ ﴾ وجهان : أحدهما أنها بمعنى الواو ، والثاني أنها للترتيب . والمعنى : أنزَلْنا الكتبَ المُتقدِّمة ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ الذين اصْطَفَينا، وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم أُمَّة مُحمَّد ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني أنهم الأنبياء وأتباعهم ، قاله الحسن . وفي ﴿ الكتابَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه اسم جِنْس ، والمراد به الكُتب التي أنزلَها اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وهذا يَخرج على القَولين، فإن قُلنا : الذين اصْطُفُوا أُمَّة مُحمَّد ، فقد قال ابن عباس : إنَّ اللهَ أورثَ أُمَّةَ مُحمَّد ﷺ كُلَّ كتاب أنزَلَه ، وقال ابن جرير الطبري : ومعنى ذلك أوْرَثَهم الإيمانَ بالكُتب كُلِّها، وجميعُ الكتب تأمر باتِّباع القُرآن، فهم مؤمنون بها ، عاملون بِمُقتضاها . واستدلَّ على صِحَّة هذا القَول بأنَّ اللهَ تعالى قال في الآية التي قَبْلَ هذه : ﴿ والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ مِنَ الكتابِ هُوَ الحق ﴾ ، وأتْبَعَه بِقَوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ ﴾ فَعَلِمْنا أنهم أُمَّة مُحمَّد ، إذْ كان معنى المِيراث انتقال شَيء مِن قَوم إلى قَوم، ولم تكن أُمَّةٌ على عَهْد نَبِيِّنا انتقل إليهم كتاب مِن قَوم كانوا قَبْلَهم غَيْر أُمَّته ، فإن قُلنا : هُم الأنبياء وأتباعهم ، كان المعنى : أوْرَثْنا كُلَّ كتاب أُنزِلَ على نبيٍّ ذلك النبيَّ وأتباعَه . والقول الثاني أن المُراد بالكتاب القرآن ، وفي معنى ﴿ أَوْرَثْنا ﴾ قَولان ، أحدهما : أَعْطَيْنا ، لأن المِيراث عطاء ، قاله مجاهد . والثاني: أخَّرْنا ، ومِنه المِيراث ، لأنه تأخَّرَ عن المَيْت ، فالمعنى : أخَّرْنا القُرآنَ عن الأمم السالفة ، وأعْطَيْناه هذه الأُمَّةَ إكرامًا لها ، ذَكَرَه بعضُ أهل المعاني)) .

٤ـ أخذ المِيثاق مِنهُم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتابٍ وَحِكمةٍ ثُمَّ جاءَكم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم لَتُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أأقْرَرْتُم وأخَذْتُم عَلى ذَلِكُم إصْري قَالوا أقْرَرْنا قَالَ فَاشْهَدُوا وأنا مَعَكُم مِنَ الشَّاهدين ﴾ [آل عِمران : ٨١] .

لقد أخذَ اللهُ العَهْدَ على النبيين أن يُصدِّق بعضُهم بعضًا، لأنَّ النُّبُوَّةَ كِيانٌ واحد ، والنَّبيين إخوة يسيرون في طريق واحد ، ويَدعون الناسَ إلى تَوحيد الله تعالى . كما أخذَ اللهُ العهدَ على النَّبيين أن يَنصُروا مُحَمَّدًا ﷺ إنْ أدْرَكوه . وكُلُّ النَّبيين بَشَّروا بمُحمَّد ﷺ الذي خُتِمَتْ بِه النُّبُوَّة . وهذا يَدُل على مكانة النبيِّ مُحمَّد ﷺ الرفيعة ، كما يَدُل على صِدْقِ الأنبياء وأمانتهم في التَّبليغ . وكُلُّ الأنبياء جاؤوا بِدَعوة التَّوحيد ، ولا نِزاع بينهم ، ولا صِدام بين مناهجهم .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢/ ٣٤) : ((لَمَّا ذَكر تعالى خِيانةَ أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كُتبهم حتى لا يؤمنوا به ، ذَكر تعالى هنا ما تقوم بِه الحُجَّة عليهم ، وهو أنَّ الله قد أَخَذَ الميثاقَ على أنبيائهم ، أن يُؤْمنوا بمُحمَّد ﷺ إنْ أدْرَكوا حياته ، وأن يَكونوا مِن أتباعه وأنصاره ، فإذا كان الأنبياء قد أُخِذَ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويُبشِّروا بِمَبْعَثِه ، فكيف يَصِحُّ مِن أتباعهم التكذيب برسالته ؟)) اهـ .

﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيينَ ﴾ . أخذَ اللهُ مِيثاقَ النبيين أن يُصدِّق بعضُهم بعضًا، وهذا يَستلزم بالضرورة أن يَشهَدوا لمُحمَّد ﷺ أنَّه رَسولُ اللهِ . والمِيثاقُ قَد أُخِذَ مِنَ النَّبيين وأُممهم ، لكنَّ الأُمم لَم تُذكَر في الآية ، لأنَّ أخذ الميثاق على النَّبيين (المتبوعين) يُلْزِمُ الأتباع . وأخذ الميثاق على المتبوعِ يُشير إلى أخذه على التَّابع . والنَّبِيُّون هُمُ القادةُ ، والأُمم تابعةٌ لهم وخاضعة لأوامرهم. وإضافةُ الميثاق إلى النَّبيين هِيَ إضافة إلى الفاعل .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٢٢) : ((قِيل : أَخَذَ اللهُ تعالى مِيثاقَ الأنبياء أن يُصدِّق بعضُهم بعضًا ، ويأمر بعضُهم بالإيمان بعضًا ، فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهذا قول سعيد ابن جُبَير وقتادة وطاووس والسُّدي والحسن ، وهو ظاهر الآية)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٤) : ((وفي الذي أَخَذَ مِيثاقَهم عَلَيه قَولان: <u>أحدهما</u> أنه تصديق مُحمَّد ﷺ ، رُوِيَ عن عليٍّ وابن عباس وقَتادة والسُّدي. <u>والثاني</u> أنَّه أَخَذَ مِيثاقَ الأول مِنَ الأنبياء لَيُؤْمِنُنَّ بما جاء به الآخِر مِنهُم ، قاله طاووس)) .

﴿ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتابٍ وَحِكمةٍ ﴾ . للذي آتَيْتُكُم أيها النَّبيون مِن كتابٍ وحِكمة، بمعنى الخَبَر. قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٢): ((أي: لَمَهْمَا أعْطَيْتُكُم مِن كِتاب وحِكمة)) .

وقال ابن منظور في لسان العرب (١٢/ ٥٥٧): ((روى المنذري عن أبي طالب النَّحْوي أنَّه قال: المعنى في قَوله: ﴿ لَمَا آتَيْتُكُم ﴾ لَمَهْما آتَيْتُكُم، أي: أَيُّ كِتابٍ آتَيْتُكُم لَتُؤمِنُنَّ به ولَتَنصُرُنَّه. قال: وقال أحمد بن يحيى : قال الأخفش : اللام التي في " لَمَا " اسم)) .

وقد قَرأ البعضُ ﴿ لِمَا ﴾ بِكَسر اللام ، فصارَ المعنى: مِن أجلِ الذي آتَيْتُكُم مِن كتابٍ وحِكمة. وهذه قراءة غير صحيحة ، لأنَّها تُغيِّر معنى الآية . فاللهُ تعالى أخذَ مِيثاقَ جميع الأنبياء بِتَصديق بعضهم بَعضًا ، والأمر غَير مُرتبط بِنُزول الكُتب . وهناك أنبياء لَم تَنْزِل عَليهم كُتُب . ومَعَ هذا ، فَهُم مأمورون بِتَصديق بعضهم بعضًا [١٥٧].

﴿ ثُمَّ جاءكم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم ﴾ .المقصود هو مُحمَّد ﷺ الذي جاءَ مُصَدِّقًا للكُتب السَّماوية والأنبياء السابقين . والخِطابُ لأهل الكتاب المُعَاصِرِين للنبيِّ مُحمَّد ﷺ .

المعنى العام : اذكروا يا أهل الكتاب حِينَ أخذَ اللهُ العهدَ على النَّبيين للذي آتَيْتُكُم أيها النَّبِيُّون مِن كِتاب وحِكمة ، ثُمَّ جاءكم الرسول مُحمَّد ﷺ مُصَدِّقًا للكُتُب السماوية ، ومُؤيِّدًا للأنبياء السابقين .

وفي هذا إشارةٌ إلى صِدْقِ مُحمَّد ﷺ وصِحَّةِ نُبُوَّته ، وأنَّ جميع الأنبياء قَد أرسلهم اللهُ تعالى ، فلا تناقض بينهم ولا تعارُض . وكُلُّ الكُتب السماوية لها مَصدر واحد وهو السماء ، فلا تناقض بينها ولا تعارُض . ومَعَ أنَّ لفظ ﴿ رَسولٌ ﴾ نَكِرَةٌ ، إلا أنَّهُ يُشير إلى مُعَرَّف ومُعيَّن ، وهو النبيُّ مُحمَّد ﷺ .

---

١٥٧ قال الطبري في تفسيره (٣/ ٨١) : ((وأَوْلَى القراءتين في ذلك بالصواب قراءة مَن قرأ : ﴿ وإِذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيينَ لَمَا آتَيْتُكُم ﴾ بفتح اللام، لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أخَذَ مِيثاقَ جميع الأنبياء بتصديق كُل رسول له ابتعثه إلى خَلْقه فيما ابتعثه به إلَيهم، كان مِمَّن آتاه كتابًا أو مِمَّن لَم يُؤتِه كتابًا، وذلك أنه غير جائز وصف أحد من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ ورُسله بأنه كان مِمَّن أُبيح له التكذيب بأحد مِن رُسله، فإذْ كان ذلك كذلك ، وكان معلومًا أنَّ مِنهم مَن أُنزِل عليه الكتاب ، وأنَّ مِنهم مَن لَم يَنْزِل عليه الكتاب، كان بَيِّنًا أنَّ قراءة مَن قرأ ذلك : " لِمَا آتيتكم" بكسر اللام بمعنى: مِن أجل الذي آتيتكم مِن كتاب، لا وجه له مفهوم إلا على تأويل بعيد وانتزاع عميق)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٨١) : ((فتأويل الآية : واذكروا يا مَعْشَرَ أهل الكتاب ، إذْ أخذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيين، لَمَهْمَا آتَيْتُكُم أيُّها النَّبيون مِن كِتاب وحِكمة ثُمَّ جاءكم رسول مِن عِندي مُصَدِّق لِمَا مَعَكم)) .

﴿ لَتُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ . لَتُصَدِّقُنَّهُ وَلَتَنصُرُنَّهُ . وهذا احتجاج على اليهود . وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٢) : ((قال عليُّ بن أبي طالب وابنُ عمِّه ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ: ما بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا من الأنبياء إلا أَخَذَ عليه المِيثاق، لَئِن بَعَثَ اللهُ محمدًا وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤمِنُنَّ به ويَنْصُرُنَّه ، وأَمَرَه أن يَأخذ المِيثاقَ على أُمَّته ، لَئِن بُعِثَ مُحمَّد وهُم أحياء ، لَيُؤمِنُنَّ بِه وَلَيَنْصُرُنَّه)) .

والنبيُّ مُحمَّد ﷺ خَاتَمُ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وأعظمُهم بِلا مُنازِع . لذلك كانَ إمامًا للأنبياء في لَيلة الإسراء والمِعراج ، وإمامتُه لهم تُشير إلى أفضليته وتَفَوُّقِه عَلَيهم ، وهو الشَّفيعُ في المَحْشَرِ دُون سائر الأنبياء ـ عَلَيهم الصلاة والسلام ـ .

﴿ قَالَ أأقْرَرْتُم وأخَذْتُم عَلى ذَلِكُم إصْري ﴾ . قالَ اللهُ : قَبِلْتُم على ذلكم عَهْدي ؟ . والإصْرُ هو العَهد الثقيل المُؤَكَّد . والإصْرُ لُغةً هُوَ الثِّقْل ، وسُمِّيَ العَهْد إصْرًا لِمَا فِيه مِنَ التَّشديد .

وفي تاج العروس (١/ ٢٤٥٨) : ((الإِصْرُ بالكَسْر : العَهْدُ. وفي التَّنْزِيل العزيز : ﴿ وأخَذْتُم عَلى ذَلِكُم إِصْري ﴾ . قال ابن شُمَيل : الإِصْرُ : العَهْدُ الثَّقيلُ وما كان عن يَمينٍ وعَهْدٍ فهو إصْرٌ . وقال الفَرَّاءُ : الإصْرُ هَا هُنا إثْم العَقْدِ والعَهْدِ إذا ضَيَّعُوه كما شَدَّد على بني إسرائيل)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٨١): ((يقول: وأَخَذْتُم على ما واثقتموني عَلَيه مِنَ الإيمان بالرُّسُل التي تَأتيكم بتصديق ما مَعَكم مِن عِندي والقيام بِنُصرتهم ﴿ إصْري ﴾ ، يعني عَهْدِي وَوَصِيَّتي ، وقَبِلْتُم في ذلك مِنِّي ورَضِيتُمُوه ؟ . والأخذُ هو القَبول في هذا المَوْضِع ، والرِّضا)) .

﴿ قَالوا أقْرَرْنا ﴾ قالوا : قَبِلْنا . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وأنا مَعَكُم مِنَ الشَّاهدين ﴾ . قالَ اللهُ : لِيَشْهَدْ بَعْضُكم على بعض . وأنا على إقراركم واعترافكم وشهادة بعضكم على بعض شَاهِدٌ. أوْ: فاشْهَدُوا على أنفسكم وعلى أتباعكم، واللهُ شَاهِدٌ عَليكم وعَلَيهم . وهذا تَوكيدٌ وتَحذير لهم مِنَ التلاعب أو الخيانة . والشَّهادةُ هِيَ الإخبارُ بالشَّيء المُشَاهَد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٦) : ((وفِيمَن خُوطِب بهذا قَولان : أحدهما أنَّه خِطاب للنَّبيين، ثُمَّ فيه قَولان: أحدهما أنَّ معناه : فاشهدوا على أُممكم ، قاله عليُّ بن أبي طالب، والثاني: فاشهدوا على أنفسكم، قاله مُقاتل. والثاني أنه خِطاب للمَلائكة، قاله سعيد بن المُسيِّب ، فعلى هذا يكون كِناية عَن غَير مَذكور)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِنَ النَّبيينَ مِيثَاقَهُم وَمِنكَ ومِن نُوحٍ وإبراهيمَ وَمُوسى وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وأخَذْنا مِنْهُم مِيثاقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب : ٧] .

أخذَ اللهُ مِن الأنبياء عَهْدَهم المُؤكَّد، أن يَلتزموا بالحَق ، ويُقيموا الدِّينَ ، ويُبلِّغوا رسالةَ السماء، وأن يُصدِّق بعضُهم بعضًا . وخَصَّ هؤلاء الأنبياء بالذِّكر ، لشرفهم وفَضْلهم ومكانتهم العظيمة ، ولأنَّهُم أصحاب الشرائع والكُتب، وأُولو العَزْمِ مِن الرُّسُل . وقدَّم اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ في الذِّكر ، معَ أنَّه خَاتَم الأنبياء وآخِرهم زَمانًا، لتشريفه وتعظيمه وبيان أفضليته ، ثُمَّ رتَّبهم بحَسَب وُجودهم ، عليهم الصلاة والسلام . وأخذَ اللهُ مِنكَ يا مُحمَّد المِيثاقَ ، ومِن نُوح ، وإبراهيم ، ومُوسى ، وعِيسى ، وهؤلاء أُولُو العَزْمِ مِن الرُّسُل ، وسادة الأنبياء ومشاهيرهم . وأخذَ اللهُ مِن الأنبياء عَهْدًا وثيقًا عظيمًا شديدًا على الوفاء بما التزموا به مِن تَبليغ الوَحْي السماويِّ ، وإيصال الرِّسالة إلى الناس .

إنَّ الله تعالى قد أخذَ على الأنبياء العَهْدَ أن يكونوا يَدًا واحدة في نشر الإسلام ، مُتناصرين خاضعين للوَحْي الإلهيِّ . والأنبياءُ كِيان واحد لا يمكن تفتيته ، دِينهم واحد ، وهو الإسلام ، وشرائعهم مُتعدِّدة ، ومُختلفة لاختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . وكُلُّهم جاء بالتَّوحيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٥٤ و٣٥٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا ﴾ . المعنى : واذكُر إذْ أخَذْنا ﴿ مِنَ النَّبيينَ مِيثَاقَهُم ﴾ أي : عَهْدَهم . وفيه قَولان : أحدهما أخَذَ مِيثاقَ النَّبيين أن يُصدِّق بعضُهم بعضًا ، قاله قَتادة . والثاني أن يَعبدوا اللهَ ، ويَدْعُوا إلى عِبادته، ويُصدِّق بعضُهم بعضًا، وأن يَنصَحوا لقَومهم ، قاله مُقاتل . وهذا المِيثاق أُخِذَ مِنهُم حين أُخْرِجُوا مِن ظَهْر آدم كالذَّر . قال أُبَي بن كَعْب: لَمَّا أخذَ مِيثاقَ الخَلْق خَصَّ النَّبيين بمِيثاق آخَر . فإن قِيل: لِمَ خَصَّ الأنبياء الخمسة بالذِّكر دُون غَيْرهم مِن الأنبياء ، فالجواب أنَّه نبَّه بذلك على فَضْلهم ، لأنَّهم أصحاب الكُتب والشَّرائع، وقَدَّمَ نَبِيَّنا ﷺ بيانًا لفَضْله عليهم. قال قَتادة: كان نَبِيُّنا أوَّلَ النَّبيين في الخَلْق . وقَوله : ﴿ مِيثاقًا غَلِيظًا ﴾ أي : شَدِيدًا على الوَفاء بما حُمِّلُوا . وذَكَرَ المُفسِّرون أن ذلك العَهْد الشديد اليمين بالله عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ. وعن أُبَي بن كَعْب ــ رضي اللهُ عنه ــ : أنَّ آدمَ ﷺ نَظَرَ إلى بَنِيه ((فرأى فيهم الغنيَّ والفَقير، وحَسَنَ الصُّورة، وغَيْرَ ذلك، فقال: رَبِّ لَوْ سَوَّيْتَ بين عبادك، فقال : إنِّي أُحِبُّ أن أُشكَر . ورأى فيهم الأنبياء مِثل السُّرُج، وخُصُّوا بِمِيثاق آخَرَ بالرِّسالة والنُّبُوَّة فذلك قَوله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ: ﴿ وإذْ أَخَذْنا من النَّبيين ميثاقَهم ومنكَ ومِن نوح ﴾ الآية))[١٥٨].

---

١٥٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٣) برقم (٣٢٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا المِيثاق الغَليظ هو العَهْد الإلهيُّ الذي لا يَقبَل التلاعب أو التَّجاوز . والأنبياءُ الكِرام _ عليهم الصلاة والسلام _ ، باعتبارهم سادة البشرية ، هُم الأقدر على حَمْل هذا العَهْد ، وتنفيذه على أرض الواقع كاملًا، بلا زيادة ولا نُقصان ، ولا إفراط ولا تفريط . والإيمانُ لَيس قضيةً سهلةً، أو تحصيل حاصل ، إنَّها قضية مصيرية يتوقَّف عليها خُلود الإنسان في الجَنَّة أو النار .

٥_ نَفْي الغُلول عَنهُم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾[آل عِمران : ١٦١] [١٥٩].

لا يُعقَل ولا يَصِحُّ شرعًا ولا عقلًا أن يَخُونَ نبيٌّ في الغنيمة . والنَّفْيُ هُنا نَفْي الشأن، وهو أبْلَغ مِن نَفْي الفِعْل، أي: لا يُمكِن تصوُّر خِيانة نبيٍّ في الغَنيمة فضلًا عن أن تحصُل على أرض الواقع .

إنَّ الغُلول والنُّبُوَّة ضِدَّان لا يَجتمعان.والخِيانةُ فِعل مُضاد للنُّبُوَّة الطاهرة الصافية النَّقِيَّة ، وتتعارض مع مكانة النبيِّ المُنَزَّهة عن الغَدْر والخِيانة وكافة الصفات الذميمة ، التي يَنفِر مِنها الإنسانُ العادي، فما بالك بالنبيِّ المَعصوم المُؤيَّد بالله تعالى ، والذي يَنزِل عَلَيه الوَحْيُ السماويُّ ليُخْرِجَ الناسَ مِن الظُّلمات إلى النُّور ؟ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨٩ و٤٩٠ و٤٩١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما كانَ لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ . في سبب نزولها سبعة أقوال : أحدها أن قَطيفة مِن المَغنَم فُقِدَت يَوم بَدْر ، فقال ناسٌ : لعلَّ النبيَّ ﷺ أخذها ، فنزلت هذه الآية ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثاني أنَّ رَجُلًا غَلَّ مِن غَنائم هَوَازِن يَوم حُنَين ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثالث أنَّ قَوْمًا مِن أشراف الناس طَلبوا من رسول الله ﷺ أن يَخُصَّهم بشيء مِن الغنائم ، فنزلت هذه الآية ، نُقِلَ عن ابن عباس أيضًا . والرابع أنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ طَلائع ، فَغَنِمَ النبيُّ ﷺ غنيمةً ، ولَم يَقْسِم للطلائع ، فقالوا : قَسَمَ الفَيْءَ ، ولم يَقْسِمْ لنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضَّحاك . والخامس أنَّ قَوْمًا غَلُّوا يَوم بَدْر ، فنزلت هذه الآية ، قاله قَتادة . والسادس أنَّها نَزلت في الذين تَركوا مَركزهم يوم أُحُد طَلَبًا للغنيمة، وقالوا: نَخاف أن يقول النبيُّ ﷺ : مَن أَخَذَ شيئًا فهو له ، فقال لهم النبيُّ ﷺ : " أَلَم أعْهَدْ إلَيكم ألا تَبْرَحُوا ، أظننتم أنَّا نَغُلُّ ؟ " ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب ومُقاتل .

---

١٥٩ قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٨٥) عن الغُلول : ((أي الخِيانة في المغنَم . قال ابن قُتَيبة : سُمي بذلك لأن آخِذَه يَغُلُّه في مَتاعه ، أي : يُخفيه فيه . ونقل النووي الإجماع على أنَّه مِن الكبائر)) .

والسابع أنَّها نَزلت في غُلول الوَحْي ، قاله القُرَظي وابن إسحاق . وذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين أنَّهم كانوا يَكرهون ما في القرآن مِن عَيب دِينهم وآلهتهم ، فسألوه أن يَطْوِيَ ذلك ، فنزلت هذه الآية . واختلف القُرَّاءُ في ﴿ يَغُلَّ ﴾ ، فقرأ ابنُ كثير وعاصم وأبو عمرو بفَتْح الياء ، وضَم الغَيْن ، ومعناها: يَخُون . وفي هذه الخِيانة قَولان . أحدهما : خِيانة المال ، على قول الأكثرين . والثاني خِيانة الوَحْي ، على قول القُرَظي وابن إسحاق ، ... . وهذه الآية مِن ألطف التَّعريض ، إذ قَد ثَبَّتت بَراءةَ ساحة النبيِّ ﷺ مِن الغُلول ، فَدَلَّ على أنَّ الغُلول في غَيْرِه ومِثْلِه)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((نَزلت هذه الآية : ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ في قَطِيفة حمراء ، فُقِدَتْ يوم بَدْر ، فقال بعضُ الناس : لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخَذَها . فأنزلَ اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ _ إلى آخر الآية _)) [١٦٠].

نزَّه اللهُ تعالى نَبِيَّه عن الغُلول (الخِيانة في الغنيمة) لأنها تَطعَن في أخلاق النُّبُوَّة المَعصومة ، والنُّبُوَّةُ تُنافي الخِيانةَ جُمْلَةً وتفصيلًا . وَهِمَّةُ النبيِّ ﷺ عالية لا تَنزِل إلى مُستوى أخذ قَطِيفة (ثَوب مُخمَل) وإخفائها عن أصحابه . فهو الصادق الأمين الذي رَفَضَ مَتاعَ الدنيا الزائل وحُطامها الفاني في سَبيل الدَّعوة الإسلامية ، وتحدَّى كُلَّ الإغراءات التي تَمَّ تقديمها له مُتَمَسِّكًا بحَمْل أمانة تبليغ الرِّسالة الإلهية دُون تخاذُل أو تكاسُل ، وبلا زيادة أو نُقصان .

وقد عَرَضَ مُشركو قُرَيش على النبيِّ ﷺ أعظمَ العُروض الدُّنيوية التي تَجذِب ضِعَافَ النُّفوس وأصحابَ القلوب المريضة ، لكنَّه رَفَضَ ذلك بلا تردُّد أو ضَعْف ، فقالوا : ((فَإنْ كُنْتَ إنَّما جِئتَ بهذا الحديث تَطلُب مالًا ، جَمَعْنا لَكَ مِن أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالًا ، وإنْ كُنْتَ إنَّما تَطلُب الشَّرَفَ فِينا سَوَّدْنَاكَ عَلَينا ، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِه مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَينا)) [١٦١].

ومَن كان هذا حَالَه ودرجةَ صُموده ، فهل يَغترُّ بثَوب مُخمَل أحمر يُخفيه عن أعْيُن أصحابه ؟!.

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((بَعَثَ نبيُّ اللهِ ﷺ جَيْشًا فَرُدَّتْ رَايَتُه ، ثُمَّ بَعَثَ فَرُدَّتْ بغُلولِ رَأسِ غَزَالٍ مِن ذَهَب . فنزلت ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾)) [١٦٢].

---

١٦٠ رواه أبو داود (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٩٧١)،والترمذي (٥/ ٢٣٠) برقم (٣٠٠٩) وحسَّنه.

١٦١ تفسير الطبري(١٥/ ١٦٤)، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣)،والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٧).

١٦٢ رواه الطبراني (١٢/ ١٣٤) برقم (١٢٦٨٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٢): ((ورجاله ثقات)) . وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٢/ ٣٦١) : سنده جيِّد .

إنَّ تأثير الغُلول مُدَمِّر في صُفوف المؤمنين ، فهو يُضعِف الرُّوحَ المعنوية ، ويُؤثِّر سَلْبًا على مُجريات الأمور ، ويَعكس صُورةً سلبية عن الجَيش الذي تنتشر فيه هذه الآفة . لذلك فقد حاربها الإسلامُ بكل قوة للحفاظ على صورةِ الجهاد نَقِيَّةً مِن كُل شائبة ، وحِفْظِ نَقاء المُجَاهِدِين الذين يُقَاتِلون في سبيل الله تعالى ، ويُضَحُّون بحياتهم لإعلاء كلمة التَّوحيد ، وهُم لَيسوا مُرْتَزِقَة ، يُقاتلون لجَمْع حُطام الدُّنيا الفاني ، ويُحَارِبُون مِن أجل مَتاع دُنيوي زائل .

وفي مَجمَع الزوائد (٧/ ٥٢) : ((عن ابن عباس قال : ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ . قال : ما كانَ لنبيٍّ أن يَتَّهِمَه قَوْمُه . رواه البَزَّار ، ورجاله رجال الصحيح)) اهـ . وعن أبي هُرَيرة رضي اللهُ عنه قال : ((قَامَ فِينا النبيُّ ﷺ ، فَذَكَرَ الغُلُولَ ، فَعَظَّمَه ، وَعَظَّمَ أمْرَه)) [١٦٣] .

تعرَّضَ النبيُّ ﷺ لذِكْر الغُلُول (الخِيانة في الغنيمة) ، وبيانِ حُكمه ، وشدَّد في الإنكار على فاعله . والغُلُول مِن كبائر الذُّنوب . وإثمُه عظيم لاشتماله على الخِيانة والغَدْر والسَّرقة والأنانية . حيث يقوم فاعلُه بتقديم شَهوة نَفْسه الشريرة في حُب التَّمَلُّك بغَير حَق ، وهو لا يُقدِّر جُهودَ إخوانه ، حيث يقوم بخداعهم مُسْتَخْدِمًا وسائل التَّحايل الخَفِي ، وإيثار نَفْسه الأمَّارة بالسُّوء على المُؤمنين الذين يُمارسون فِعْلَ التَّضحية راجين الثوابَ مِن عند الله تعالى . كما أنَّ الغُلُول يُشير إلى نَفْسية بالغة السُّوء ، وقلبٍ أعمى مريض ، غارق في حُطام الدُّنيا دُون النَّظر إلى وَحْدة الصَّف الإسلاميِّ ، والتماسكِ الاجتماعي الإيماني. كما أنَّ تأثيره مُدمِّر، فهو يَزرع الحواجزَ بين المؤمنين، ويَجعلهم لا يَثقون ببعضهم البعض، كما أنَّه يُقيم السُّدُودَ المانعة مِن التواصل بين الجماعة المُؤمنة، وهذا يَجعل المُجتمعَ الإسلاميَّ جُزُرًا مُتباعدة مُتباغضة ، فتنهار قُوَّة المسلمين .

٦ـ مُهِمَّتُهم في البَلاغ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإن لَم تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكافرين ﴾ [المائدة : ٦٧] .

---

١٦٣ متفق عليه . البخاري (٣/ ١١١٨) برقم (٢٩٠٨)، ومسلم (٣/ ١٤٦١) برقم (١٨٣١) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢١٦) : ((هذا تصريح بغِلَظ تحريم الغُلُول . وأصل الغُلُول الخِيانة مُطْلَقًا ، ثُم غَلَبَ اختصاصه في الاستعمال بالخِيانة في الغنيمة . قال نَفْطَوَيْه : سُمي بذلك لأن الأيدي مَغلولة عنه ، أي : محبوسة . يُقَال : غَلَّ غُلُولًا ، وأغلَّ أغلالًا)) .

هذا تَشريفٌ إلهيٌّ لمُحَمَّد ﷺ وتَعظيم له . فقد ناداه اللهُ بالرَّسول ، فهو الحاملُ للرِّسالة الإلهية. وقد أمرَه اللهُ بِتبليغ الوَحْي كاملًا غَير مَنقوص ، وإذا لَم يُبَلِّغْ مُحمَّد ﷺ الوَحْيَ كاملًا ، فقد خانَ الأمانةَ وما بَلَّغَ الرِّسالةَ الإلهيةَ ، وَحَاشاه ، فَهُوَ الرسولُ الصادقُ الأمينُ في كُلِّ مراحل حياته . واللهُ يَحفظ رَسولَه مُحَمَّدًا مِن كُلِّ سُوء ، فلا داعي أن يَتَّخذ إجراءات لحمايته مِن الناس ، فاللهُ قد تَكَفَّلَ بِحِفْظه وحِمايته [١٦٤]. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٠٦) : ((يَقول تعالى مُخاطِبًا عَبْدَه ورَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ باسم الرِّسالة، وآمِرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله اللهُ بِه . وقد امتثلَ _ عليه أفضل الصلاة والسلام _ ذلك ، وقام بِه أتَمَّ القِيام)) .

﴿ يا أيُّها الرَّسولُ ﴾ . تَشريفٌ إلهيٌّ لمُحمَّد ﷺ ، وتَعظيمٌ لِقَدْرِه ، ورَفْعٌ لِشَأنه . فقد ناداه اللهُ باسمِ الرِّسالة الإلهية التي هِيَ أشرف الأسماء وأعظم الأوصاف ، ولَيْسَ باسمه المُجرَّد " مُحمَّد " .

﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ . أمرَ اللهُ رَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ بِتبليغ الوَحْي الإلهيِّ كاملًا ، كما هُوَ ، بِلا زِيادة ولا نُقصان ، ولا يَهتم بكلام الناس ، وإنما يُركِّز على تَبليغ الرسالة الإلهية كاملةً . بَلِّغْ جَميعَ ما أُنزِل إلَيك يا مُحَمَّد ، ولا تُراقِب أحَدًا ، ولا تُخْفِ شَيئًا مِمَّا أُنزِل إلَيك خَوْفًا مِنَ الناس، أو تَخَوُّفًا أن يَنالك مَكروه. بَلِّغ الوَحْيَ السماويَّ كاملًا للناسِ، وجَاهِرْ بِه، ولا تَخْشَ شَيئًا. ولا تترك التبليغَ لِمُخَالَفة مَن خَالَفَكَ ، ومُعاداةِ مَن عَادَاكَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ قِيل: معناه : أظْهِر التَّبليغَ ، لأنَّه كان في أوَّل الإسلام يُخفيه خَوفًا مِن المُشركين ، ثُم أُمِرَ بإظهاره في هذه الآية)) .

---

١٦٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٦) : ((روى الحسن أنَّ النبيَّ ﷺ قال : " لَمَّا بَعثني اللهُ برسالته ضِقْتُ بِها ذَرْعًا ، وَعَرفتُ أنَّ مِنَ الناس مَن يُكذِّبني ". وكان رسول الله ﷺ يَهاب قُرَيشًا واليهودَ والنَّصارى، فأنزل اللهُ هذه الآية. وقال مجاهد: لَمَّا نَزلت : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ قال : يا رَب ، كَيْفَ أصنعُ ؟ ، إنما أنا وَحْدي ، يَجتمع عليَّ الناس، فأنزل الله : ﴿ وإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .وقال مُقاتِل: لَمَّا دعا اليهودَ وأكثرَ عَلَيهم جَعلوا يستهزئون بِه، فَسَكت عنهم ، فَحُرِّضَ بهذه الآية. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُحرَس ، فَيُرْسِل معه أبو طالب كُلَّ يَوْم رِجالًا مِن بَني هاشم يَحْرُسُونه، حتى نَزلت عليه هذه الآية ، فقال: يا عَمَّاه ، إنَّ الله قَد عَصَمَني مِنَ الجِن والإنس)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ جميعَ ما أُنزِل إلَيك ، غَير مُراقِب أحدًا ، ولا خائف مَكروهًا)) .

وعن مسروق عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : ((مَن حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيئًا مِمَّا أُنزِل عَلَيه فقد كَذَبَ ، واللهُ يقول : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ ﴾ _ الآية_)) [165].

هذا يَدُلُّ على صِدْق النبيِّ ﷺ وأمانته في تَبليغ الوَحْي الإلهيِّ كاملًا غَير مَنقوص . وهذه الآيةُ دليلٌ على قَبول خَبَر الآحاد (خبر الواحد) لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُرسِل للناس كافةً، ويجب عَلَيه تَبليغهم. وَمِنَ المستحيل أن يُرْسِلَ عددَ التَّواتر إلى جميع الناس . وهذا يُشير إلى وُجوب قَبول خَبَر الآحاد.

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت: ((وَلَوْ كان مُحَمَّدًا ﷺ كَاتِمًا شَيئًا مِمَّا أُنزِل عَلَيه لَكَتَمَ هَذه الآيةَ : ﴿ وإذْ تَقولُ للذي أنعمَ اللهُ عَلَيْهِ وأنعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحَقُّ أن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧]))[166] .

ما قالته السَّيدة عائشة صحيحٌ تمامًا ، ويَدُل على فِطْنتها وذَكائها ، لأنَّ هذه الآية تَكشف عن الأمور الشخصية للنبيِّ ﷺ ، وتُبْرِز التفاصيل الدقيقة في حياته ، وتُوضِّح مَشاعرَه الداخلية ، التي لا يَعْلَمها مَخلوق . وتَبليغ الآية كاملةً بِدُون زيادة ولا نُقصان ، يَدُل على أمرَيْن :

الأول _ صِدْق النبيِّ ﷺ وأمانته في التَّبليغ .

والثاني _ القُرآنُ لَيْسَ مِن عِند مُحمَّد ﷺ ، وإنَّما مِن عِند الله صاحب السُّلطة المُطْلَقة ، وما مُحَمَّد ﷺ إلا رَسول يُبَلِّغ كَلامَ اللهِ ، وليس له مِنَ الأمر شَيء . واللهُ تعالى إذا أرادَ أن يَكشِف أمرًا ما ، فلا يَقْدِر النبيُّ ﷺ على إخفائه ، حَتَّى لَوْ كانَ مُتعلِّقًا بتفاصيل حياة النبيِّ ﷺ وأفكاره الداخلية ومشاعره الباطنية .

و [عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كُنَّا عند ابن عباس ، فجاء رَجل ، فقال له : إنَّ ناسًا يَأتونا فَيُخْبِرُوننا أنَّ عِندكم شَيئًا لَم يُبْدِه رسولُ الله ﷺ للناسِ ، فقال ابن عباس : ((أَلَم تَعْلَمْ أنَّ اللهَ تعالى قال : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ ، واللهِ مَا وَرَّثَنا رسولُ الله ﷺ سَوداءَ في بَيضاء))] [167].

---

١٦٥ رواه البخاري (٤/ ١٦٨٦) برقم (٤٣٣٦) . ومسلم (١/ ١٥٩) برقم (١٧٧) .

١٦٦ رواه مسلم (١/ ١٥٩) برقم (١٧٧) ، والبخاري (٦/ ٢٦٩٩) برقم (٦٩٨٤) .

١٦٧ تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٦) . وقال : ((هذا إسناد جيِّد)) .

ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ مِن كِبار عُلماء الصحابة ، ومِن أعمدة آل البَيت . وقد نفى بشكل واضح أن يَكون النبيُّ ﷺ قَد خَصَّهم بِشَيء دُون عامَّة المسلمين . والنبيُّ ﷺ لَم يَترُك لهم شَيئًا مَكتوبًا (سَوداء في بيضاء). والنبيُّ ﷺ إذا خَصَّ آل بَيته بِشَرائع خاصَّة دُون باقي المسلمين ، فقد خانَ الأمانةَ ، وحَوَّلَ الوَحْيَ الإلهيَّ إلى عَصبية قَبَلِيَّة ، وحَوَّلَ الدَّعوةَ الإسلاميةَ إلى حِزْبٍ هاشميٍّ . وبالتالي ، تَفقِد الرسالةُ الإلهيةُ مَعناها ، والنبيُّ ﷺ مَأمور بِتَبليغ الوَحْي كاملًا للناسِ كافَّةً ، دُون تَمييز على أساس دِيني أو قَبَلي أو عِرْقي .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١١٠) : عن أبي جُحَيفة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قلتُ لعليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ : هَل عِندكم شَيء مِنَ الوَحْي إلا ما في كتاب الله ؟ ، قال : ((والذي فَلَقَ الحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، ما أَعْلَمُه إلا فَهْمًا يُعطيه اللهُ رَجُلًا في القُرآن ، وما في هذه الصَّحيفة)) . قلتُ : وما في الصَّحيفة ؟ ، قال : ((العَقْل ، وفِكَاك الأسير ، وأن لا يُقتَل مُسلمٌ بكافر))[١٦٨].

عليُّ بن أبي طالب_ رضي اللهُ عنه_مِن كِبار عُلماء الصَّحابة،وزعيم آل البَيت بعد النبيِّ ﷺ. وقَد نفى أن يَكون النبيُّ ﷺ قد خصَّهم بِشَيء دُون باقي المسلمين .

وهذان الصحابيان الجليلان (عليُّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس) هُما شَيخا آل البَيت، مَعروفان بالتَّقوى والوَرَعِ والعِلْم الغزير والمكانة الاجتماعية المرموقة ، وقد نَفَيَا أن يَكون النبيُّ ﷺ قَد خَصَّ آل بَيته بتعاليم مُعيَّنة دُون باقي المسلمين ، وهذا يَرُدُّ بوضوح على الشِّيعة الروافض الذين يَزْعُمون أنَّ النبيَّ ﷺ قَد خَصَّ آلَ بَيته بِعُلوم مُعيَّنة دُون باقي المسلمين . ومَعلومٌ أنَّ التَّشيُّع نَزعة فارسية وِراثية كَهَنُوتية،وهذا يَتعارض تمامًا مَعَ الإسلام الذي جاءَ للناسِ كافَّةً دُون تمييز ولا طَبَقية.

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((وَقَبَّحَ اللهُ الروافضَ ، حيث قالوا : إنه ﷺ كَتم شَيئًا مِمَّا أَوْحَى اللهُ إلَيه ، كان بالناس حاجة إلَيه)) اهـ .

وقد شَهِدَت الأُمَّةُ للنبيِّ مُحمَّد ﷺ بأداء الرِّسالة على أكملِ وَجْه ، وتَبليغ الوَحْي كاملًا غَير مَنقوص . وَلَوْ قَصَّرَ النبيُّ ﷺ في أداء الرسالة أو خانَ الأمانةَ ، لَظَهَرَ مَن يَنتقِده ويتَّهمه بالتقصير والخيانة . لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ . وأجمعت الأُمَّةُ كُلُّها على أنَّ النبيَّ ﷺ بَلَّغَ الوَحْيَ الإلهيَّ للناس ،

---

١٦٨ "فَلَقَ الحبَّة": شَقَّها في الأرض حتى تُنبِت ثُمَّ تُثمِر."بَرأ ":خَلَقَ ."النَّسَمَة": النَّفْس ."العَقْل": الدِّيَة. وقال ابن قُتَيبة في في غريب الحديث(١/ ٢٢٣):((والعَقْل الدِّيَة،والأصل في ذلك إنَّ الإبل كانت تُجْمَع وتُعْقَل بِفِناء وَلِيِّ المقتول ثم سُميت الدِّيَة عَقْلًا ، وإن كانت دراهم ودنانير ، وقِيل لِمَن أدَّاها عَاقِلة)) .

كاملًا غَير مَنقوص ، وكانَ صَادقًا وأمينًا . ولا تُوجَد مناطق مُظلِمة في حياة النبيِّ ﷺ ، ولا تُوجَد أسرار في الدَّعوة الإسلامية، والإسلامُ لَيْسَ نِظامًا وِراثِيًّا ، ولا سُلطة كَهَنُوتية . كُلُّ شَيء مَكشوف ، ولا يُوجَد شَيء يَخجَل مِنه المسلمون . والإسلامُ مَبنيٌّ على النَّقْلِ والعَقْلِ مَعًا ، وقائمٌ على قُوَّة المَنطِق ومَنطِق القُوَّة مَعًا . فلا بُدَّ للعقيدة مِن قُوَّة تَحميها ، ولا بُدَّ للقُوَّة مِن عَقيدة تُوجِّهها . والإسلامُ مُصْحَفٌ وسَيْفٌ ، لا يُقبَل أحدهما دُون الآخَر . التسامحُ في مَوضِع التسامح ، والسَّيفُ في مَوضِع السَّيف .

والإسلامُ ليس دِينًا دمويًّا مُتعطِّشًا لِسَفْكِ دماء الناس . ولكنه دِينٌ واضح لا مكان فيه للتلاعب أو المُجَامَلات . فهو يحتوي على قواعد السلام والحرب معًا ، ويشتمل على البُنى الاجتماعية الخاصة بكل حالة. وهو يَضع السَّيفَ في مَوْضِع السَّيف ، ويضع الندى في موضع الندى . وهذا هو الحق الساطع . وإن أيَّ اختلال في هذه المنظومة ، سيؤدي إلى نتائج كارثية .

وكما قال الشاعر :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلا ... مُضِر كَوَضْع السَّيفِ في موضع النَّدَى

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧٣٧) : ((قال الزُّهريُّ : مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلى رسول الله ﷺ البَلاغُ ، وعَلَينا التَّسليم)) .

وقَد شَهِدَ الصحابةُ للنبيِّ ﷺ بِتَبليغ الرِّسالة الإلهية كاملةً بلا زِيادة ولا نُقصان في أعظم مُؤتمر شَهِدَه الإسلام، وهو حَجَّة الوَدَاع التي حَضَرَها عشرات الآلاف مِنَ الصَّحابة_ رضي اللهُ عنهم _.

ففي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) أنَّ النبيَّ ﷺ قال في حَجَّة الوَدَاع : ((وأنتُم تُسألون عَنِّي ، فما أنتُم قائلون ؟)) ، قالوا : نَشهَد أنَّكَ قَد بَلَّغْتَ ، وأدَّيْتَ ، ونَصَحْتَ ، فقال _ بإصبعه السَّبابة يَرفعها إلى السَّماء ويَنْكُتها إلى الناس _ : ((اللهُمَّ اشْهَدْ ، اللهُمَّ اشْهَدْ _ ثلاث مَرَّات _)) .

﴿ وإن لَم تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ . يجب تَبليغُ الوَحْي الإلهيِّ كاملًا غَير مَنقوص ، وإنْ كَتَمَ النبيُّ ﷺ آيةً وَاحدةً ، فما بَلَّغَ الوَحْيَ الإلهيَّ ، ويُعتبَر خائنًا للأمانة ، وحاشاه . وكِتمانُ آيةٍ واحدة يَهْدِمُ الإسلامَ بالكامل ، ويُلغي الرِّسالةَ الإلهية كُلَّها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٨) : ((ومعنى الآية : إنْ لَم تُبَلِّغ الجميعَ وَتَرَكْتَ بَعْضَه ، فما بَلَّغْتَ شَيئًا . أي : جُرْمُكَ في ترك تبليغ البعض كَجُرمك في ترك تبليغ الكُل)) .

والآيةُ توجيهٌ إلهيٌّ لِحَمَلَةِ العِلْمِ أن يُوصِلوا العِلْمَ للناسِ ، ولا يَكتموا مِنه شَيئًا . والجديرُ بالذِّكر أنَّ النبيَّ ﷺ قَد بَلَّغَ كُلَّ شَيءٍ أمَرَه اللهُ بِتَبليغه ، لكنَّ هُناك أشياء لَم يُبلِّغها رسول الله ﷺ لأنَّه لَم يُؤمَر بِتَبليغها ، والناسُ لا علاقة لهم بها . فَلَيْسَ كُلُّ ما يُعرَف يُقال .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((وظاهر الآية يُوجِب تَبليغ ما يتعلق به مصالح العِباد ، وقُصد بإنزاله إطْلاعُهم عَلَيه ، فإنَّ مِنَ الأسرار الإلهية ما يَحْرُم إفشاؤه)) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي اللهُ عنه ــ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((مَن كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ بِلِجَامٍ مِن نار)) [١٦٩] .

يجب العملُ بالعِلْم النافع ، ويجب نشرُ العِلْم النافع بين الناس ، وعَدم كِتمانه ، لأنَّه كِتمانه خِيانة ، ويُسبِّب ضررًا للناس ، ويُؤَثِّر سلبًا على حياتهم . وزكاةُ العِلْم نَشْره وإذاعته ، وهو يَجلِب المنافعَ للناس ، ويُحقِّق مصالَحهم . والمالُ يَنقُص بنشره بين الناس وتَوزيعه عليهم ، أمَّا العِلْمُ فيَكثُر ويَزداد بنشره بين الناس ، وبَثِّه فِيهم. ومَن كَتَمَ عِلْمًا ، وَضَعَ اللهُ في فمه قِطعةً مِن حديدٍ مِن نار يوم القِيامة عُقوبةً له . والجَزاءُ مِن جِنس العَمَل . واللجامُ : ما يُوضَع في فَم الفَرَس لتُقاد به . والحديثُ يُحذِّر مِن كِتمان العِلْم ، ويَدعو إلى نشره بين الناس ، وتعليمه لهم ، لنقلهم مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلْم [١٧٠] .

---

١٦٩ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٧٠ قال الْمُناوي في فيض القدير (٦/ ١٤٦) : (((مَن سُئِلَ عَن عِلْم) عَلِمَه قطعًا ، وهو عِلْم يحتاج إليه سائل في أمر دِينه . وقيل : ما يَلزَم عليه تعليمه كمُريد الإسلام ، يَقول : عَلِّمْني الإسلامَ . والمفتي في حلال أو حرام . وقيل: هو عِلْم الشهادتَيْن (فكتمه) عن أهله (ألجمه الله يوم القيامة بلِجَام) فارسي مُعرَّب (مِن نار) أي : أدخلَ في فيه لجامًا مِن نار مُكافأةً له على فِعْله ، حيث ألجَمَ نَفْسَه بالسُّكوت في مَحَل الكلام ، فالحديث خَرَجَ على مُشاكَلَة العُقوبة للذَّنْب ، وذلك لأنه سُبحانَه أخذَ الميثاقَ على الذين أُوتُوا الكِتابَ ، لَيُبَيِّنُنَّه للناس ، ولا يَكتمونه . وفيه حَث على تعليم العِلْم ، لأنَّ تَعَلُّمَ العِلْم إنما هو لنَشْره ، ودَعْوة الخَلْق إلى الحق ، والكاتم يُزاول إبطال هذه الحِكمة ، وهو بعيد عن الحكيم الْمُتقِن ، ولهذا كان جزاؤه أن يُلجَم ، تشبيهًا له بالحيوان الذي سُخِّرَ ومُنِعَ مِن قَصْد ما يُريده ، فإن العَالِم شأنه دُعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم)) اهـ . وفي نفْس المرجع (٦/ ٢١٢) : (((مَن كَتَمَ عِلْمًا عَن أهله أُلْجِمَ) بالبناء للمَفعول ، والفاعل الله . وفي رواية ألجمه اللهُ (يوم القيامة

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((وقِيل : بَلِّغْ مَا أُنزِل إلَيك مِن رَبِّك في أمر زَينب بنت جَحْش الأسدية ــ رضي اللهُ عنها ــ. وقِيل غَير هذا. والصحيح القَول بالعُموم . قال ابن عباس : المَعنى بَلِّغْ جَميعَ ما أُنزِل إلَيك مِن رَبِّك ، فَإنْ كَتَمْتَ شَيئًا مِنهُ فَمَا بَلَّغْتَ رِسالته . وهذا تأديب للنبيِّ ﷺ ، وتأديب لِحَمَلَةِ العِلْم مِن أُمَّته ألا يَكتموا شَيئًا مِن أمر شريعته ، وقد عَلِمَ اللهُ تعالى مِن أمرِ نَبِيِّه أنه لا يَكتُم شَيئًا مِن وَحْيه)) .

﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . اللهُ يَحفَظ مُحَمَّدًا ﷺ مِن كُلِّ سُوء ، فلا دَاعي أن يَقلق . عَلَيْهِ أن يُرَكِّز جُهودَه في الدَّعوة الإسلامية ، ولا يَنشغِل بوسائل حمايته ، لأنَّ اللهَ يَحميه مِن كُل أذًى . والآيَةُ دليلٌ واضحٌ على صِدْقِ مُحَمَّد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّته . فَمَن عَصَمَه اللهُ ، لا يُمكِن أن يَكون إلا نَبِيًّا يُوحَى إلَيه،ويُبلِّغ الوَحْيَ كاملًا بلا زيادة ولا نُقصان، لأنَّه مَعصوم مِنَ الخِيانة والخطأ في التَّبليغ.

لقد تَعَهَّدَ اللهُ بِحِفْظِ النبيِّ ﷺ، وتَكَفَّلَ بحمايته، وضَمِنَ لَهُ العِصمةَ مِنَ الأعداء ، واللهُ تعالى لا يَتراجعُ في كَلامه ، ولا يُخْلِفُ وَعْدَه . إذن ، لا داعي أن يَقلق النبيُّ ﷺ على حياته ، ولا داعي أن يَهتمَّ بِمُراقبة الكافرين، أو تَوفير حِراسة شخصية له. عَلَيْهِ أن يُرَكِّز على نشر الدَّعوة الإسلامية ، ولا يَهتم مُطْلَقًا بأمنه الشخصيِّ ، لأنَّ اللهَ يَحرُسه مِن أعدائه ، ويَحميه مِن كُلِّ شَر .

وقال ابن كثير في نفسيره (٢/ ١٠٦) : ((﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ أي : بَلِّغْ أنتَ رسالتي، وأنا حافِظُك ، وناصِرُك ، ومُؤيِّدُك على أعدائك ، ومُظَفِّرُك بهم ، فلا تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ، فلن يَصِلَ أحدٌ مِنهم إلَيكَ بِسُوء يُؤذيك)) اهـ .

لجامًا مِن نار) أي الْمُمْسِك عن الكلام ، مُثِّل بمن ألزم نَفْسَه بلِجَام ، وتنكير عِلْم في حَيِّز الشَّرْط يُوهِم شُمولَ العُموم لكل عِلْم حتى غَير الشَّرعي. وخصَّه كثير كالحَليمي بالشرعي . والمراد به ما أُخِذَ مِن الشَّرْع، أو تَوَقَّفَ هو عليه تَوَقُّف وُجود ، كعِلْم الكلام ، أو كمال كالنَّحْو والمنطِق . والحديث نَص في تحريم الكَتْم ، وخصَّه آخرون بما يَلزَمه تعليمه،وتَعَيَّنَ عَلَيه.واحْتُرِز بقوله:"عن أهله".كَتْمه عن غَير أهله فمطلوب بل واجب . فقد سُئِلَ بعض العلماء عن شيء فلم يُجب. فقال السائل: أمَا سَمِعْتَ خَبَرَ:"مَن كَتَمَ عِلْمًا" إلخ. قال: اترُك اللجَامَ واذْهَبْ، فإنْ جاء مَن يَفْقَهه،فكتمتُه، فَلْيُلْجِمْني.وقوله تعالى:﴿ ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكم ﴾ [النِّسَاء : ٥]. تنبيه على أن حِفْظ العِلْم عمَّن يُفسِده أو يضربه أوْلَى. وليس الظُّلْم في إعطاء غَير المستحِق بأقل مِن الظُّلْم في مَنع المستحِق. وجَعل بعضُهم حَبْسَ كُتب العِلْم مِن صُوَر الكَتْم سِيَّما إن عزَّت نُسَخُه . وأخرجَ البَيهقي عن الزُّهري: إيَّاك وغُلول الكُتب. قِيل : وما غُلولها؟، قال : حَبْسها)) .

وقدْ كانَ النبيُّ ﷺ قبل نُزول هذه الآية ، يَحميه الصحابةُ ويَحرُسونه مِن اليهود والكفار الطامحين إلى قَتْلِه ، وإنهاءِ دَعْوته .

وعن عائشةَ ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : كانَ النبيُّ ﷺ يُحْرَسُ حتى نَزلت هذه الآية : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾، فأخرجَ النبيُّ ﷺ رَأسَه مِنَ القُبَّة ، فقالَ لهم : ((أيُّها الناسُ ، انصَرِفوا ، فقد عَصَمَني اللهُ)) [١٧١].

هذا الحديثُ يُشير إلى صِدْقِ النبيِّ ﷺ ، وأنهُ مَبعوثٌ مِن عِندِ الله تعالى، لأنه لَوْ كانَ كاذبًا لَمَا تخلَّى عَن الحراسة والحماية . بَل اعتمدَ على الأسباب المادية فقط ، وما غامرَ بِحَياته، وعرَّضَ نَفْسَه للأخطارِ . وفي الحديثِ تَبْرُز أهميةُ الأخذ بالأسبابِ ، والاحتراس من العدو ، وتوفير الحراسة والحماية ، وعدم الإهمال في المواقف الحسَّاسة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٠٦) : ((وَمِن عِصمة الله لرسوله حِفْظُه له من أهل مكة وصناديدها وحُسَّادها ومُعانديها ومُترَفيها معَ شِدَّة العداوة والبِغضة، ونَصْبِ المُحارَبة له لَيلًا ونهارًا، بما يَخلُقه اللهُ من الأسباب العظيمة بِقُدرته وحِكمته العظيمة ، فَصَانه في ابتداء الرسالة بِعَمِّه أبي طالب إذْ كان رئيسًا مُطاعًا كبيرًا في قُرَيش ، وخَلق اللهُ في قلبه مَحبة طبيعية لرسول الله ﷺ ، لا شرعية . وَلَوْ كان أسلمَ لاجترأ عليه كُفارها وكِبارها ، ولكن لَمَّا كان بَيْنَه وبَيْنَهم قَدْرٌ مُشترَك في الكُفر هابوه واحترموه ، فلمَّا مات عَمُّه أبو طالب نال منه المشركون أذًى يسيرًا ، ثُمَّ قَيَّضَ اللهُ له الأنصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحوَّل إلى دارهم وهي المدينة ، فلمَّا صار إلَيها مَنعوه من الأحمر والأسود ، وكلما هَمَّ أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب بِسُوء كاده اللهُ وَرَدَّ كَيْدَه عَلَيه ، كما كاده اليهود بالسِّحْر ، فَحَمَاه اللهُ مِنهم ، وأنزل عَلَيه سُورَتَي المُعَوِّذَتَيْن دواء لذلك الداء ، وَلَمَّا سَمَّه اليهودُ في ذِراع تلك الشاة بِخَيْبَر ، أعْلَمَه اللهُ بِه ، وحَمَاه مِنه ، ولهذا أشباه كثيرة جِدًّا يَطُول ذِكْرُها)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٨) : ((﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ يَحفظك ، ويَمنعك من الناس . فإنْ قِيل : أليسَ قَد شُجَّ رَأسُه ، وكُسِرت رَبَاعِيَتُه ، وأُوذيَ بِضُروب من الأذى ؟ . قِيل : مَعناه يَعصمك مِنَ القتل ، فلا يَصِلُون إلى قَتْلِك . وقِيل : نَزلت هذه الآية بعد ما شُجَّ رأسُه ، لأنَّ

---

١٧١ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٥١) برقم (٣٠٤٦) بسند حسَّنه الحافظ في الفتح (٦/ ٨٢) .

سُورة المائدة مِن آخِرِ ما نَزل مِنَ القُرآن. وقِيل: واللهُ يَخُصُّكَ بالعِصمة مِن بين الناس لأنَّ النبيَّ ﷺ معصوم)) اهـ . و [عن أبي هريرة قال: كُنَّا إذا نَزَلْنا طَلَبْنا للنبيِّ ﷺ أعظمَ شَجرةٍ وأظَلَّها، فَنَزَلَ تحت شجرة، فجاء رَجُلٌ ، فأخذَ سَيفه _ يَعني سَيفَ النبيِّ ﷺ _ ، فقال : يا مُحَمَّد ، مَن يَمْنَعُكَ مِنِّي ، قال : ((الله)) . فأنزلَ اللهُ: ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾] [172].

وعن جابر بن عبد الله _ رضي اللهُ عنهما _ قال : قَاتلَ رسولُ الله ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ ، فَرَأَوْا مِنَ المسلمين غِرَّةً _ يعني غَفلة_، فجاء رَجل منهم يُقال له غَوْرَث بن الحارِث، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسَّيف،فقال:مَن يَمنعك مِنِّي؟،قال:((الله))، قال: فَسَقَطَ السَّيفُ مِن يَده، فأخذه رسولُ الله ﷺ، وقال: مَن يَمنعك ؟ قال : كُن خَيْرَ آخِذٍ ، قال : ((تَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنِّي رسولُ الله ؟)) ، قال: أُعاهِدك على أن لا أُقاتِلَك ، ولا أكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقاتلونك ، قال: فَخَلَّى رسولُ الله ﷺ سَبيلَه ، فجاء إلى قَومه ، فقال : جِئْتُكم مِن عِندِ خَير الناس [173].

قَاتَلَ النبيُّ ﷺ قبيلةَ مُحَارِب خَصَفَةَ في نَخْلٍ(مَوْضِع) . وأُضيف محارب إلى خصفة للتمييز، لأنَّ " محارب"في العرب جماعة . والمقصود هو محارب (ابن خصفة) . ورَأَوْا مِنَ المسلمين غَفلةً ، فقاموا باستغلالها ، وجاءَ رَجل مِنهُم حاملاً سَيْفَه ، يُهدِّد النبيَّ ﷺ بالقتل .

وهنا تتجلى عِصْمةُ اللهِ لرسوله ﷺ ، حيث مَنعه مِن هذا الكافر، وحَمَاه مِنَ القتل ، فَسَقَطَ السَّيفُ مِنهُ ، وأخذه النبيُّ ﷺ، وعَرَضَ عَلَيه الإسلامَ،لكنَّه رَفَضَه،وتَعَهَّدَ بعدم قتال النبيِّ ﷺ، فَعَفَا عنه ، وهنا يتجلى التسامحُ والعَفْوُ عِند المَقدرة (العَفْو مِن مَوقِف القُوَّة لا مَوقِف الضَّعْف) . وعادَ الرَّجُلُ إلى قَومه ذَاكِرًا لهم أخلاقَ النبيِّ الحميدة ، وصِفاته الحَسَنَة .

﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكافرين ﴾ .على الرَّسول البلاغُ، أمَّا الهِداية فهي بيد الله وَحْدَه . يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِلُّ مَن يَشاء . واللهُ لا يُرْشِدُ الكافرين إلى طَريق الخَير ، لأنَّهم لَيسوا أهْلًا للهِداية ، ولا يَهْدِيهم إلى طَريق الجنة ، لأنَّهم لَم يُطهِّروا قُلوبَهم . ونُورُ الإيمانِ لا يَهبط في القلب النَّجِس . والإيمانُ شرفٌ ، لا يَمنحه اللهُ لأيِّ شخص . ولَن يُمكِّنهم اللهُ تعالى مِن إلحاق الأذى بالنبيِّ ﷺ . إنَّهم مَخذولون أيْنَما تَوَجَّهوا .

---

١٧٢ ذَكَرَه الحافظ في الفتح (٦/ ٩٨) وحسَّنه . وقال : أخرجه ابن أبي شَيبة من طريق محمد بن عَمرو عن أبي سَلَمة عن أبي هُرَيرة .

١٧٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٣١) برقم (٤٣٢٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٤٦) : ((إنَّ اللهَ لا يُوفِّق للرُّشد مَن حَادَ عن سبيل الحق ، وجارَ عن قَصْد السَّبيل ، وجَحَدَ ما جِئْتَه بِه مِن عِند الله ، وَلَم يَنْتَهِ إلى أمر الله وطاعته فِيما فَرض عَلَيه وأَوْجَبَه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكافرين ﴾ فِيه قَولان.أحدهما: لا يَهديهم إلى الجَنَّة،والثاني:لا يُعينهم على بُلوغ غَرَضهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿فإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ [النَّحْل : ٨٢] .

فإن أعرضَ المُشركون عن النظر والاستدلال والإيمان ، بعد وُضوح الحق أمامَهم ، وإقامةِ الحُجَّة عَلَيهم ، وانقطاع أعذارهم ، فلا عَلَيْكَ يا مُحمَّد مِنهم ، ولا تتحمَّل مسؤوليةَ كُفرهم وإعراضهم ، فإنَّما عليك البلاغ الواضح لا غَيْر، وقد أدَّيْتَ أمانةَ التبليغ بكل أمانة وإخلاص . ولا يُوجد تقصير من النبيِّ ﷺ لأنَّ وظيفته هي البلاغ الواضح، وليس إجبار الناس على اعتناق الإسلام . فالهدايةُ بيد الله وَحْدَه . وتَوجيهُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ للتَّخفيف عنه ، ورفعِ معنوياته .

وقد أُقيم السَّبب (العِلَّة) مَقامَ المُسبَّب (المَعلول). وتقدير الكلام : فَإن تَوَلَّوْا ، فلا تقصير ولا مُؤاخَذة عَلَيك ، لأنَّكَ ما عَلَيْكَ إلا البلاغ الواضح .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((﴿ فَإن تَوَلَّوْا ﴾ أعرَضوا ولَم يَقبلوا مِنك ﴿ فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ ، فلا يَضُرُّكَ ، فإنَّما عليك البلاغ ، وقد بَلَّغْتَ . وهذا مِن إقامة السَّبب مَقام المُسبَّب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٤] .

النبيُّ ﷺ ليس حفيظًا على الناس ، ولا يُحاسبهم ، ولا يَملِك أن يُدخِل الإيمانَ في قلوبهم . إنَّ النبيَّ ﷺ بشيرٌ ونذير ، يُبلِّغ رسالةَ اللهِ ، بلا زيادة ولا نقصان ، ولا يَستطيع أن يُجبِر الناسَ على الإيمان ، ولا يَملِك سُلطةَ حساب الناس. وحسابُ العبادِ على رَب العباد ، واللهُ يَهدي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥١) : ((﴿ وما أرسلناكَ عَلَيْهِم وَكيلًا ﴾ مَوكولًا إلَيْكَ أمرُهم، تَقْسِرهم على الإيمان،وإنما أرسلناكَ مُبَشِّرًا ونذيرًا، فَدَارِهِم وَمُرْ أصحابك بالاحتمال منهم. ورُوِيَ أن المشركين أفرطوا في إيذائهم فَشَكَوا إلى رسول الله ﷺ فَنَزلت. وقِيل : شَتم عُمَرَ ــ رضي الله تعالى عنه ــ رَجُلٌ مِنهم ، فَهَمَّ به ، فأمَرَه اللهُ بالعَفْو)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٤٢): ((﴿ وما أرسلناكَ عَلَيْهِم وَكيلًا ﴾ أي : وما وَكَّلْنَاكَ في مَنعهم مِن الكفر،ولا جَعَلْنَا إلَيْكَ إيمانَهم.وقِيل:ما جَعلناكَ كَفيلًا لهم تُؤخَذ بِهم، قاله الكلبي)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا أيُّها الناسُ إنَّما أنا لَكُم نَذِيرٌ مُبِين ﴾[الحَج : ٤٩] .

الخِطابُ للمشركين الذين يَستعجلون العذابَ ، ويُريدون تدميرَ أنفسهم بأنفسهم ، ويَخلِطون استعجالَ العذاب بالسُّخرية والاستهزاء والعَبث واللعب ، وهُم يُريدون هلاكَ أنفسهم مِن حَيث لا يَشعرون ، وهكذا الحمقى في كُلِّ زمان ومكان، يَمشون إلى الهاوية بأقدامهم،والجاهلُ عَدُوُّ نفْسِه.

النبيُّ ﷺ لا يَملِك مِن أمره شَيئًا، فالأمرُ كُلُّه بِيَد الله تعالى. والنبيُّ ﷺ لا يُحاسِب أحدًا ، ولا يَقْدِر أن يُنْزِل العذابَ على الناسِ أو يُنْزِل عَلَيهم الرحمة. إنَّه يُنفِّذ أوامرَ اللهِ بلا زِيادة ولا نُقصان ، ويُخوِّف الناسَ مِن عذابِ اللهِ إن استمروا على المعاصي،وحسابُ العباد على رَبِّ العباد.والنبيُّ ﷺ نذير يُبيِّن للناس ما يَحتاجون إلَيه مِن أمر دِينهم . وقد خُصَّ " نذير " بالذِّكر مَعَ أنَّ النبيَّ ﷺ بشير أيضًا ، لأنَّ السياق يَتحدَّث عن المشركين وعِقابهم وتَخويفهم، فَظَهرت النِّذارة ولَم تَظهَر البِشارة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٧) : ((أي : إنما أرسلني اللهُ إلَيكم نذيرًا لكم بين يَدَي عذابٍ شديد ، وليس إلَيَّ مِن حسابكم مِن شَيء . أمْرُكُم إلى الله . إنْ شاءَ عَجَّلَ لكم العذابَ ، وإنْ شاءَ أخَّرَه عَنكم، وإنْ شاءَ تابَ على مَن يَتوب إلَيه ، وإنْ شاءَ أَضَلَّ مَن كَتب عَلَيْهِ الشَّقاوةَ ، وهو الفَعَّال لِمَا يَشاء ويُريد ويَختار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ فإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم وإن تُطيعوهُ تَهْتَدُوا وما على الرَّسولِ إلا البلاغُ المُبين ﴾ [النُّور : ٥٤] .

قُل يا مُحمَّد: أطيعوا اللهَ في أمْرِه ونَهْيِه، وأطيعوا الرسولَ، فإنَّ طاعته طاعةٌ للهِ تعالى ، فالرسولُ لا يَأتي بشيء مِن عِنده، إنَّه المُتحدِّث باسمِ اللهِ ، يَحمل الشريعةَ الإلهية ، وأقوالُه وأفعالُه وَحْيٌ إلهيٌّ مَعصوم.والطاعةُ تتجلى في اتِّباع القُرآن والسُّنة. وتكريرُ " أطيعوا " في الآية: ﴿ قُلْ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ ﴾ للتَّشديد على وُجوب الطاعة عليهم . وكان الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، وانتقلَ لهم: ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾ للتَّشديد عليهم في وجوب الطاعة والخضوع للهِ ولرسوله ﷺ ، وخُطورة الإعراض وترك ما جاء بِه مُحمَّد ﷺ. وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ١٨٩) : ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾ خِطاب للمَأمورين بالطاعة مِن جِهته تعالى ، وارد لتأكيد الأمر بها، والمُبالَغة في إيجاب الامتثال بِه ، والحَمْل عليه بالترهيب والترغيب)) .

فإن تُعرِضوا عَن الشَّريعة المُحمَّدية الإسلامية، وتتركوا الوَحْيَ الإلهيَّ الذي جاء بِه مُحمَّد ﷺ، فإنَّما على النبيِّ ﷺ تبليغ الرسالة،وقد أدَّى أمانةَ التبليغ كاملةً على أحسن وَجْه، وعليكم الاستجابة له ، والقَبول بالرسالة ، والعمل بِمُقتضاها. وهذا وعيدٌ وتهديد لهم .

والمعنى : إنكم مُلْزَمون بالإيمان بالرسالة والعمل بِها. وقد قامت عليكم الحُجَّةُ، وانقطعَ عُذْرُكم . فَإن أدَّيْتُم فلكم ، وإن أعْرَضْتُم فعليكم . إن آمَنْتُم بما جاء بِه مُحمَّد ﷺ وعملتُم بِه ، فقد فُزْتُم بالدَّارَيْن ، والفائدةُ تَعود إلَيكم ، وإن أعْرَضْتُم عنه ، فالضَّرر يَعود إلَيكم ، فقد ضَرَرْتُم أنفسَكم وعرَّضتموها لغضب الله وعذابه ، لأنكم لَم تَحملوا الشريعةَ . ولَم تَضُرُّوا النبيَّ ﷺ، لأنه أدَّى أمانةَ التبليغ كاملةً على أحسن وَجْه .

وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم ﴾ ولَم يَقُل : وعَلَيهم . والمعنى : يَجب عليكم القَبول ، وليس على النبيِّ ﷺ أن تَقْبَلوا ، لأنَّ النبيَّ ﷺ مُبلِّغ ، وليس رقيبًا على الناس ، فهو ﷺ لا يُجبِرهم على الإيمان ، ولا يُحاسِبهم على أقوالهم وأعمالهم . والنبيُّ ﷺ لَم يَحمل إيمانَكم ، وإنما حَمَلَ تَبليغَكم ، وقد أدَّى أمانةَ التَّبليغ بلا كَسَل ولا مَلَل ولا تقصير .

والمعنى العام: يَجب على كُل شخص ما كُلِّفَ بِه . واللهُ لا يُحمِّل الناسَ فوق طاقتهم ، ولا يَظلمهم . والشريعةُ جاءت لرفع الحَرَج. وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ١٨٩) : ((ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بِثِقْله ، وكَوْنه مُؤنة باقية في عُهدتهم بَعْد ، كأنه قِيل : وحيث تَوَلَّيْتُم عن ذلك ، فقد بَقِيتُم تحت ذلك الحِمْل الثقيل)) .

وإن تُطيعوا النبيَّ ﷺ فيما أمركم بِه ونهاكم عنه، تَرْشُدوا ، وتُصيبوا الحقَّ ، وتهتدوا إلى الخير ، وتَفوزوا بالسعادة الدُّنيوية ، وتنالوا النعيمَ الأبديَّ (الجنة)، لأنَّ النبيَّ ﷺ يَدعو إلى الإيمان والحق والأخلاق الحميدة والقيم النبيلة ، وهو على صِراط مستقيم ، لا يَنحرف ولا يَزيغ . والهدايةُ مُقترنة بطاعة النبيِّ ﷺ . ومهمةُ الرسول محصورة في تبليغ الرسالة بشكل كاملٍ وواضح ، بلا زيادة ، ولا نُقصان ، ولا غُموض . وفي زاد المسير (٦/ ٥٦): ((وكان بعض السَّلَف يَقول : مَن أمَّرَ السُّنَّةَ على نَفْسِه قَوْلًا وفِعْلًا ، نَطَقَ بالحِكمة ، ومَن أمَّرَ الهَوى على نَفْسِه قَوْلًا وفِعْلًا ، نَطَقَ بالبِدْعة ، لِقَوله : ﴿ وإن تُطيعوهُ تَهْتَدُوا ﴾)) .

وفي مسند أحمد(٤/ ٢٧٨) عن أبي أُمَامة الباهليِّ _ رضي اللهُ عنه_ قال : ((عَلَيكم بالسَّواد الأعظم))، قال رَجُل: ما السَّوادُ الأعظم ؟، فقال أبو أُمَامة: ((هذه الآية في سُورة النُّور : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم ﴾)) [١٧٤]. إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية مَعصومة عِصمة عامَّة ، ولا تَجتمع على ضَلالة ، ويَجب التزام الجَمَاعة ، ومَن شَذَّ شَذَّ في النار .

١٧٤ قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٥/٣٩٢):((رواه عبد الله بن أحمد،والبَزَّار،والطبراني،ورجالهما ثقات)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فإنْ أعْرَضُوا فَمَا أرسلناكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا إنْ عَلَيْكَ إلا البَلاغُ﴾[الشُّورى: ٤٨].

فإن أعرضَ المُشركون عن الإيمان ، وقَاوَمُوا الدَّعوةَ الإسلامية ، ورفضوا الهِدايةَ الإلهيةَ ، ولَم يَستجيبوا للحَّق، فما بَعَثَكَ اللهُ يا مُحمَّد رقيبًا على أعمالهم، تَحفظها وتُحصيها،ولا مُوكَّلًا بهم، ولا مُحَاسِبًا لهم . ما عَلَيْكَ إلا أن تُبلِّغ رسالةَ الله ، وتُوصِل إلَيهم الوَحْيَ السماويَّ ، وهذه هي مُهِمَّتُك ، وقد قُمْتَ بها ، وفَعَلْتَ ما عَلَيْكَ ، وأدَّيْتَ أمانةَ التَّبليغ كاملةً. وهِدايتهم بيد الله وَحْدَه .

والآيةُ تَسلية للنبيِّ ﷺ ، ورَفْع لمَعنوياته ، وإزالة لحُزنه وهَمِّه ، بسبب عدم إيمانهم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٦١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فإنْ أعرضَ هؤلاء المُشركون يا مُحمَّد عمَّا أتَيْتَهُم به مِن الحَق، ودَعَوْتَهُم إلَيه مِن الرُّشد، فلم يَستجيبوا لك، وأَبَوْا قَبوله مِنك، فَدَعْهُم،فإنَّا لَن نُرسلك لهم رقيبًا عليهم،تَحفظ عليهم أعمالَهم وتُحصيها ﴿ إنْ عَلَيْكَ إلا البَلاغُ﴾ يَقول : ما عَلَيْكَ يا مُحمَّد إلا أن تُبلِّغهم ما أرسلناكَ بِه إلَيهم مِن الرِّسالة ، فإذا بَلَّغْتَهُم ذلك ، فقد قَضَيْتَ ما عَلَيْكَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّار ﴾[ق : ٤٥] .

لَم تُبعَث يا مُحمَّد لِتُجبرهم على اعتناق الإسلام . لَسْتَ مَلِكًا مُسَلَّطًا تَقهرهم وتُكْرِهِهم على الإيمان. إنما بُعِثْتَ مُذَكِّرًا وواعظًا . والآيةُ تَنفي عن النبيِّ ﷺ التَّكبرَ والاستعلاءَ بِغَير الحق ، وهاتان الصِّفتان لا تَليقان بالنبيِّ ﷺ ، وهو السَّيد المتواضع والنبيُّ الكريم لا الطاغية المُتكبِّر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٢٥): ((﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ . قال ابن عباس : لَم تُبعَث لِتُجبرهم على الإسلام ، إنَّما بُعِثْتَ مُذَكِّرًا ، وذلك قَبل أن يُؤمَر بقتالهم . وأنكرَ الفَرَّاء هذا القول، فقال : العرب لا تقول : فَعَّال مِن أفعلت ، لا يقولون خَرَّاج يريدون مُخرِج ، ولا دَخَّال يريدون مُدخِل. إنَّما يَقولون: فَعَّال مِن فعلت ، وإنما الجَبَّار هنا في مَوضع السُّلطان مِن الجَبرية... وقال ابن قُتَيبة: ﴿ بِجَبَّارٍ ﴾ أي: بِمُسَلَّط. والجَبَّار المَلِك. سُمِّيَ بذلك لِتَجَبُّرِه. يَقول: لَسْتَ عَلَيهم بِمَلِكٍ مُسَلَّط.قال اليزيدي : لَسْتَ بِمُسَلَّط فَتَقهرهم على الإسلام ، وقال مُقاتل : لِتَقتلهم)).

وعن جرير بن عبد الله ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : أُتِيَ النبيُّ ﷺ بِرَجُلٍ تُرْعَدُ فَرائصُه ، فقال له : ((هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فإنما أنا ابنُ امرأةٍ مِن قُرَيشٍ ، كانت تَأكلُ القَديدَ في هذه البَطْحاء)) . ثُمَّ تلا جرير بن عبد الله البَجَلِيُّ : ﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعيدِ ﴾ [١٧٥].

---

١٧٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٠٦) برقم (٣٧٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عِندما رَأى الرَّجُلُ النبيَّ ﷺ ارتبكَ، وخافَ، وأصابته رِعْدةٌ شديدةٌ مِن هَيبة النبيِّ ﷺ ، ورَاحَ يَرتجف، ويَضطرب مِنَ الرُّعب. والفَرائصُ جَمْع فَريصة ، وهي اللحمة بين الجَنْب والكَتِف، وهي تَرجُف عِند الخَوف .

لَم يَستغل النبيُّ ﷺ هذا الموقف لِيُكرِّس سُلطته وهيمنته ، ويُقدِّم نَفْسَه كَمَلِكٍ جبَّار . وإنما أرادَ أن يُخفِّف عن الرَّجل المَذعور ، ويُساعده من أجل إعادته إلى الوضع الطبيعيِّ ، فقال له : خَفِّفْ عَن نَفْسِك ، ولا تَخَفْ ، ولا تَضطرِب ، فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ مِن قُرَيش .

وقد نَسَبَ النبيُّ ﷺ نَفْسَه إلى أُمِّه ، لأنَّه أرادَ التحدثَ عن صَبْرها وكِفاحها وفَقْرها ، حيث كانت تأكلُ القَديد (اللحمَ المُجَفَّف في الشمس) في البَطحاء (المَكان المُتَّسع يَسيل فِيه الماءُ، فَيُخلِّف فيه الترابَ والحَصَى الصِّغار) .

وهذه علامةٌ على الفقر ، وضِيق العَيش ، والمُعاناة الشديدة ، ودليلٌ باهر على أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنتمي إلى عائلة غَنِيَّة .

أرادَ النبيُّ ﷺ أن يَقول للرَّجل إنَّني ابنُ امرأةٍ قُرشية فقيرة عانت من صعوبة العَيش ، ولستُ مَلِكًا مِن عائلة ثَرِيَّة تَغرق في المَلَذَّات ورَغَدِ العَيش .

ولا شَكَّ أنَّ هذا الكلام يُخفِّف عن الرَّجُل ، ويُشعره أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إنسان كريم ومتواضع ، وليس مَلِكًا جبَّارًا مُتَسَلِّطًا ، ولا طاغيةً يَغرق في نعيم الدنيا وشَهَواتها .

وقال الأبشيهي في المُستطرَف (١/ ٢٨٣) عن النبيِّ ﷺ : ((وكان يَرْقَعُ ثَوْبَه ، ويَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخْدِم في مِهنة أهله ، ولَم يكن مُتكبِّرًا ، ولا مُتجبِّرًا . أشدُّ الناسِ حياءً ، وأكثرُهم تواضعًا. وكان إذا حَدَّثَ بِشَيء مِمَّا أتاه اللهُ تعالى قال : " ولا فَخْر ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إنَّما أنتَ مُذَكِّر ﴾[الغاشية : ٢١] .

فَذَكِّرْ يا محمد الناسَ بآياتِ اللهِ، ودلائلِ عَظَمته، وحُجَجِه البالغة، وعِظْهُم، وخَوِّفْهُم، ولا تَعبأ بِكُفر الكافرين، واستهزاءِ المُستهزئين ، إنَّما أنتَ واعظٌ ، وما عَلَيْكَ إلا الوَعْظ والإرشاد والتَّبليغ. ولَيْسَ مَطلوبًا مِنكَ أكثر مِن هذا ، لأنَّ الهِداية بيد الله وَحْدَه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٨٥) : ((فلا عَلَيْكَ إنْ لَم يَنظُروا ولم يَذَّكروا ، إذْ ما عَليك إلا البلاغ)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١١٩٧) : ((ذَكِّرْهم نِعَمَ اللهِ ودَلائلَ تَوحيده ، فإنَّك مَبعوث بذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية : ٢٢] [١٧٦].

يُخاطِبُ اللهُ رسولَه مُحَمَّدًا ﷺ : لَسْتَ عَلَيهم بِمُسَلَّط ، ولا أنتَ جَبَّار ، حتى تَفْرِض الإسلامَ عليهم فَرْضًا، وتُجبِرهم على اعتناقه.ووظيفةُ النبيِّ ﷺ هِيَ التبليغ، أمَّا الحسابُ فهو بيد الله وَحْدَه.

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٥٧) : ((لَسْتَ عَلَيهم بِمُسَلَّط ، ولا أنتَ بجَبَّار تَحْمِلهم على ما تُريد . يَقول : كِلْهُم إلَيَّ ، وَدَعْهُم وحُكْمي فِيهم)) .

هذه القاعدة الجليلة تدل على أن النبيَّ ﷺ داعيةٌ إلى الله تعالى ، لا يَملِك السُلطة على إكراه الناس على الدخول في الإيمان. وليس لديه القدرة على حساب الناس، وإرسالهم إلى الجنة أو النار، لأن هذه الأعمال اختصها الله تعالى لنَفْسه . فالدعوة النبوية إرشادية تُخرِج الناسَ من الظُّلمات إلى النُّور . وعند هذه النقطة تنتهي صلاحياتُ النبيِّ ﷺ. وسواءٌ آمَنَ الشخصُ أم كَفر،

---

١٧٦ قال بَعْضُ أهل العِلْم إنَّ هذه الآية منسوخة بآية السَّيف. راجع الناسخ والمنسوخ لابن حَزم (١/ ٦٥)، والناسخ والمنسوخ للكرمي (١/ ٢٢٤)، وناسخ القرآن العزيز ومَنسوخه لابن البازري (١/ ٥٨). لكن هذا الكلام فيه نظر.إذ إن هناك آياتٍ لا يمكن نسخها لِمَا تتضمَّنه من أحكام ثابتة . فقد قال ابن الجوزي في مُصفَّى الناسخ والمنسوخ (١/ ٥٩) : ((قيل: نُسِخت بآية السَّيف . وقيل: معناها لَسْتَ عليهم بِمُسَلَّط فَتُكْرِههم على الإيمان، فعلى هذا لا نَسْخ)) اهـ . والذي يَدحض فرضيةَ نَسْخها ما رواه الحاكم في المستدرَك(٢/ ٥٦٨)وصحَّحه ووافقه الذهبي: عن جابر_رضي الله عنه_قال:قال رسول اللهﷺ: ((أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عَصموا مِنِّي دماءهم وأموالهم إلا لِحَقِّها، وحسابهم على الله)) ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ((﴿ لستَ عليهم بمصيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾)). قلتُ: هناك أمران في المسألة ، الأول إنَّ القِتال في الإسلام يكون بضوابط تحدِّدها الشريعة ، ولا يُجبَر أحدٌ على اعتناق الإسلام . أمَّا الكُفار المحاربون والذين يَحُولون دُون وُصول الدَّعوة فهؤلاء يُقاتَلون . والثاني إن سياق الحديث يفيد بأن الحساب على الله تعالى، وحمل الأمور على الظاهر دون السيطرة على الخَلْق والتجبُّر عليهم، وإكراههم على الإيمان. ولو كانت ﴿ لستَ عليهم بمصيطر ﴾ منسوخة، فما فائدة أن يُوردها النبيُّ ﷺ في حديثه الذي يتحدث عن القتال وامتلاك الله وَحْدَه لسُلْطة الحساب ؟. بل إن النبيَّ ﷺ أراد أن يقول إنه يُنفِّذ تعاليمَ الله تعالى في القتال المنضبط لا العبثيِّ الهمجيِّ ، ومع هذا فهو ليس مُسيطِرًا على الخَلْق ، لأن حسابهم بيد الله وَحْدَه ، ودَوْرُ النبيِّ ﷺ هو إقامة الشعائر وَفق الظاهر لأنه لا يملك السيطرة على قلوب الناس وبواطنهم .

فإنه يتحمَّل تَبِعَاتِ اختياره أمام الله مَالِكِ أمور الخلائق ، والذي بيده الجنة والنار. حتى النبيُّ ﷺ شخصِيًّا لا يَقدر أن يَدخل الجنةَ بأعماله وإخلاصه إلا أن يتغمَّده الله برحمته . وهذا يعكس القُصور الإنساني ، والحاجة إلى الله تعالى في السَّراء والضَّراء .

وعن أبي هريرة_رضي اللهُ عنه_قال:قال رسول الله ﷺ:((لَن يُدْخِلَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُه الجَنَّةَ)). قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ . قال : ((ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ مِنه بفضلٍ ورحمة)) [١٧٧] .

إنَّ عمل الإنسان وَحْدَه لا يُؤهِّله لدُخول الجنة ، ولا يَجعله مُستحِقًّا لها ، لأنه لا يُكافئ نِعَمَ الله على الإنسان. والأعمالُ الصالحةُ إنَّما هي بفضل الله وتوفيقه، وليست بذكاء الإنسان ومهاراته. ودُخول الجَنَّة إنَّما هو بفَضْل الله ورحمته. والعَمَلُ دليل على وجود الرحمة، وعلامة على فَضْل الله، والعمل في غاية الأهمية، لكنَّه سبب ظاهري لا يَقوم بنفْسه، وإنَّما يتوقف على توفيق الله وهدايته . ومعنى " يَتَغَمَّدَني " يَغمُرني ويَستُرني .

وإذا كانَ النبيُّ ﷺ وهو أعظم مَخلوقات اللهِ تعالى ، والمَعروف بإخلاصه التام ، وكثرة العبادة والطاعة ، وهو سيِّد أهل الجَنَّة قَطْعًا ، لا يَستطيع أن يَغفِر لنفْسه ، ولا أن يُرْسِلَ نَفْسَه إلى الجَنَّة ، وإنَّما الأمرُ كُلُّه لله ، ودُخول الجَنَّة برحمته وفَضْله، فَكَيْفَ سَيُحَاسِبُ النبيُّ الناسَ ويَحكُم عَلَيهم بالجنة أو النار ؟!. وكما قال اللهُ تعالى: ﴿ فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنا الحِسابُ ﴾ [الرَّعْد: ٤٠] .

وفي فتح الباري (١١/ ٢٩٧) : ((قال الرافعي : في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتَّكل على عمله في طلب النَّجاة ، ونَيْلِ الدَّرَجات ، لأنَّه إنَّما عَمِلَ بتَوفيق الله ، وإنَّما تَرَكَ المَعصية بعِصْمة الله ، فكُل ذلك بفَضْله ورحمته)) .

وفي فَيض القدير (٤/ ١٠٣) : ((قال القاضي : أراد بيان أن النَّجاة مِن العذاب ، والفَوز بالثواب ، بفَضْل الله ورحمته ، والعمل غَير مُؤثِّر فيهما على سبيل الإيجاب والاقتضاء، بل غايته أنَّه يُعِدُّ العاملَ لأن يتفضَّل عليه ، ويُقرِّب إليه الرحمة ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ رَحمةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِين ﴾ [الأعراف : ٥٦] . وليس المُرادُ تَوهينَ العَمل ونَفْيَه ، بل تَوقيف العِباد على أن العمل إنَّما يتمُّ بفَضْل الله وبرحمته ، لئلا يَتَّكلوا على أعمالهم اغترارًا بها . ولا يُعارضه : ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُون ﴾ [النَّحْل : ٣٢]، لأنَّ الحديث في الدُّخول ، والآية في حُصول المَنازل فيها . وقال الكرماني: الباء في ﴿ بِمَا كُنتُم ﴾ لَيست سَببية ، بَل للمُلابَسَة ، أي: أُورثتموها مُلابَسَةً

١٧٧ متفق عليه.مسلم (٤/ ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦) ، والبخاري (٥/ ٢١٤٧) برقم (٥٣٤٩) .

لأعمالكم، أي: لثواب أعمالكم، أو للمُقَابَلة، نَحْو: أعطيتُه الشَّاةَ بدِرْهَم، أو المُراد جَنَّة خاصَّة بتلك الخاصية الرفيعة العالية بسبب الأعمال ، وأمَّا أصل الدُّخول فبالرَّحمة لا بالعمل . قال : وجواب النووي بأنَّ دُخول الجنة بسبب العمل، والعمل بالرَّحمة، فَيُرَدُّ بأنَّ المُقدِّمة الأُولَى خِلاف صريح للحديث،فلا يُلْتَفت إليها... (إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ بمَغفرته ورَحمته) أي:لِيَسْتُرَني،مأخوذ من غَمَدَ السَّيْفَ في غِمْده،ويجعل رحمته مُحيطة بي إحاطة الغِلاف بما يُحفَظ فيه، ذكره القاضي. قال بعضُ العارفين : مَن قابله بأفعاله قابله بعَدْله، ومَن قابله بإفلاسه قابله بفَضْله)) اهـ . وقال ابن القَيِّم في مدارج السالكين (١/ ١٧٩) : ((فصلواتُ اللهِ وسَلامُه على أعْلَمِ الخَلْق باللهِ ، وحُقوقِه ، وعَظَمته ، وما يَستحق جَلالُه مِنَ العُبودية ، وأعْرَفِهم بالعبودية ، وحقوقها ، وأقْوَمِهم بها)) .

٧_ أمْرُهم بالتَّذكير

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المؤمنين ﴾[الذاريات : ٥٥] .

لا تَتْرُكِ الموعظةَ والنصيحةَ والإرشادَ والتَّوجيهَ والدَّعوةَ إلى الحق يا مُحمَّد ، وَعِظْ ، فإنَّ المَوعظة تَنفع أصحابَ القُلوب المُؤمِنة . فَهُم يَستفيدون مِنها دُون غَيرهم ، لأنَّ قلوبَهم عامرةٌ بِنُور الإيمان. والمؤمنون وَحْدَهم هُم المنتفعون بالموعظة ، لذلك خُصُّوا بالذِّكر دُون غَيرهم .

ومُهِمَّةُ النبيِّ ﷺ تنحصر في الموعظة الحسنة، والتذكير، والدَّعوة . أمَّا القلوبُ فهي بيد الله وَحْدَه، وهو القادر على هِدايتها إلى الإيمان. والنبيُّ ﷺ لا يَقْدِر على إدخال الإيمان إلى القلوب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٣٠) : ((ثُمَّ لَمَّا أمَرَه اللهُ بالإعراض عنهم ، أمَرَه بأن لا يَترك التذكير والمَوعظة بالتي هي أحسن ، فقال : ﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تَنفعُ المؤمنين ﴾ . قال الكلبي:المعنى: عِظْ بالقرآن مَن آمنَ مِن قَومك، فإن الذكرى تَنفعهم. وقال مقاتل: عِظْ كُفارَ مكة، فإن الذكرى تَنفع مَن كان في عِلْم الله أنه يُؤمِن. وقِيل: ذَكِّرْهم بالعقوبة وأيامِ الله . وخَصَّ المؤمنين بالتذكير ، لأنهم المُنتفعون به)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ ﴾[الطُّور : ٢٩] .

يأمرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ أن يُذَكِّر الناسَ بالقُرآنِ ، وأن يَثْبُت على الوَعْظ والتذكير ، ولا يَعْبَأ بأقوال المُشركين المتناقضة التي تنبع من الحِقد والعِناد والجهل والأهواء والمصالح الشخصية .

ومُحمَّد ﷺ بحَمْد الله وفضله وعِصمته وإكرامه بالنُّبُوَّة والرِّسالة ، ليس كَاهِنًا يُخبِر بالغَيب مِن غَير وَحْي ، كَما يقول كفار قُرَيش ، ولا شخصًا فاقدًا لِقُواه العقلية . وإنما هو نبيٌّ كريم يُخبِر بالغَيب عن طَريق الوَحْي المعصوم ، وبالتالي لا يُمكن أن يَكون كاهنًا يعتمد على قُدراته الذاتية ،

ويَخلِط الحقَّ بالباطل . وهو أيضًا رَجل يَمتاز بالذكاء والفِطنة والفَصاحة ورَجَحان العقل. ومَن كان هذه صِفته، لا يُمكن أن يَكون مجنونًا فاقدًا لِقُواه العقلية ، أو يَتخبَّطه الشيطانُ مِنَ المَس . والآيةُ تردُّ على كفار قُرَيش ، وتُفحِمهم بالدليل والحُجَّة والبُرهان .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٣): ((فعُقبة بن أبي مُعَيط قال إنه مجنون ، وشَيبة ابن ربيعة قال إنه ساحر ، وغَيرهما قال كاهن ، فأكذبهم اللهُ تعالى ، وَرَدَّ عَلَيهم . ثُمَّ قِيل : إنَّ معنى ﴿ فَمَا أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ القَسَم. أي: وَبِنِعمة اللهِ ما أنتَ بكاهن ولا مجنون . وقِيل : لَيس قَسَمًا ، وإنما هو كما تقول : ما أنتَ بِحَمد الله بجاهل ، أي قد بَرَّأكَ اللهُ مِن ذلك)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٣): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : فَعِظ بالقرآن ، ﴿ فَمَا أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي : بإنعامه عَلَيْكَ بالنُّبُوَّة بكاهن ، وهو الذي يُوهِم أنه يَعْلَم الغَيْبَ ويُخبِر عَمَّا في غَدٍ مِن غَير وَحْي. والمعنى : إنما تَنطِق بالوَحْي ، لا كما يقول فيك كفار مكة)) .

وعن إبراهيم بن يزيد قال : سَمعتُ ابن أبي مُلَيكة يقول : سَمعتُ ابن عباس: إنَّ الوليد ابن المُغيرة صَنع لِقُرَيشٍ طعامًا، فلمَّا أكلوا ، قال : ما تقولون في هذا الرَّجل ؟ ، فقال بعضُهم : ساحر، وقال بعضُهم: ليس بساحر . وقال بعضُهم : كاهن ، وقال بعضُهم : ليس بكاهن. وقال بعضُهم : شاعر،وقال بعضُهم: ليس بشاعر.وقال بعضهم: سِحْرٌ يُؤثَر. فأجمعَ رَأيُهم على أنه سِحْرٌ يُؤثَر [١٧٨].

٨ ـ لا أجْرَ لهم على التَّبليغ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لا أسألُكُم عَلَيْهِ أجْرًا إنْ هُوَ إلا ذِكْرى للعَالَمِين ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

قُل يا مُحمَّد لقَومك: لا أطلبُ مِنكُم أجرًا على تَبليغ القُرآن ، ولا شيئًا مِن المال مُقابل نشر الرسالة. وهذا منهج الأنبياء جميعًا، فهُم لا يَطلُبون مِن الناس مالًا مُقابل تَبليغهم الوَحْي السماويِّ ، وإرشادهم إلى الإيمان. وما هذا القُرآن إلا مَوعظة وإرشاد وتَذكير للإنس والجِن ، المَوجودين عِند نُزوله ، ومَن سيُوجَد بَعْد ، إلى يَوم القِيامة .

---

١٧٨ رواه الطبراني (١١/ ١٢٥) . وفي سنده إبراهيم بن يزيد الخُوزي . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (١/ ١٥٧) : ((قال أحمد : متروك الحديث . وقال ابن مَعين : ليس بثقة وليس بشيء . وقال أبو زُرعة وأبو حاتم: مُنكَر الحديث ضعيف الحديث. وقال البخاري : سكتوا عنه. قال الدولابي: يعني تركوه . وقال النَّسائي : متروك الحديث)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٠٨) : ((أي : لا أَطْلُبُ مِنكُم على إبلاغي إيَّاكم هذا القُرآن أجْرًا ، أي أُجْرة ، ولا أُريد مِنكُم شَيئًا . ﴿ إِنْ هُوَ إلا ذِكرى للعالَمين ﴾ ، أي يتذكرون به ، فيَرشُدون مِن العَمى إلى الهُدى ، ومِن الغَي إلى الرَّشاد ، ومِن الكُفر إلى الإيمان)) .

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَأخذ أجْرًا على دَعْوته ، ولا يَطْلب مالًا مِنَ الناس مُقابِل تبليغه للقُرآنِ ، ولا يُريد مِنهم شَيئًا ، كما أنَّه ﷺ لا يُوَظِّف دَعْوَتَه للحصول على مَنافع دُنيوية ، وأرباح مالية ، ومناصب رفيعة،ولا يَستغل دَعوته لتحقيق الزَّعامة، وبَسْطِ النُّفوذِ والسيطرةِ والسِّيادةِ على القبائل .

إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسولُ اللهِ ، يُبَلِّغ كلامَ اللهِ إلى عباده ، بلا زيادة ولا نُقصان ، ويُوصِل إلَيهم رسالةَ السماء كاملةً . وعَمَلُ النبيِّ ﷺ لِوَجْهِ اللهِ تعالى، يَقوم به بكل إخلاص وإتقان. والقُرآنُ مَوعظةٌ للإنس والجِن، وتَذكيرٌ لهم ، وليس مشروعًا ماديًّا ، أو صَفقة تجارية ، أو وَجاهة عشائرية .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٦١) : ((﴿ لا أسألُكُم ﴾ على تَذكيري إيَّاكم والهُدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جِئتكم به عِوَضًا أعتاضه مِنكُم عليه، وأجرًا آخذه مِنكم، وما ذلك مِنِّي إلا تذكير لكم ولكُل مَن كان مِثْلَكم مِمَّن هو مُقيم على باطل، بأسَ الله أن يَحِلَّ بكم، وسَخَطه أن يَنزِل بكم على شِرككم به، وكُفركم، وإنذار لجميعكم بَين يَدَي عذاب شديد لتذكروا وتنزجروا)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجْرِيَ إلا على اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سَبَأ : ٤٧] .

قُل يا مُحمَّد للمشركين الذين يُكذِّبونك ويَطعنون في صِحَّة نُبُوَّتك : الأجرُ الذي طَلبتُه مِنكم مُقابل تبليغي للدَّعوة فهو لكم، خُذوه ، لا حاجة لِي بِه . وهذا تَوبيخٌ لهم ، وإقامة للحُجَّة عليهم ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَطلب أجرًا على تبليغ الدَّعوة. والمراد نَفْي السؤال رَأسًا . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٣٩) : ((كَقَول مَن قال لِمَن لَم يُعْطِه شَيئًا : إنْ أعطيتني شَيئًا فَخُذهُ)) .

والمعنى : لَم أطلب مِنكم أجرًا على تبليغ الدَّعوة ، فَتَشُكُّوا بِي ، وتتَّهموني بأنَّ هدفي من وراء الدَّعوة المال والأرباح . وهذا دليلٌ واضح على صِدق النبيِّ ﷺ ، فهو لَم يُحوِّل دَعوته إلى مشروع تجاري ، ولم يكن له غَرَض دُنيوي ، ولا أطماع في الأموال والمناصب ، ولا رغبة في مَتاع الدنيا الزائل وحُطَامها الفاني . وهذا يَقطع الشُّكوكَ والشُّبهاتِ . وَلَوْ كانَ النبيُّ ﷺ يطلب مالًا مِن الناس مُقابل الدَّعوة ، لَدَخَلَ الشَّك في قلوب الكثيرين ، وقالوا : إنَّ مُحَمَّدًا اخترعَ مَوضوع الدَّعوة ، وحوَّله إلى مشروع تجاري من أجل استغلالنا ، وأخذ أموالنا ، والسيطرة عَلَينا، وتحقيق مصالح شخصية له ولعائلته وأتباعه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١٧) : ((أي : لا أُريد منكم جَعْلًا ولا عطاء على أداء رسالة الله عَزَّ وَجَلَّ إلَيكم ، ونُصحي إيَّاكم ، وأمركم بعبادة الله)) .

ما ثوابي على أداء الرسالة إلا على اللهِ ، فهو وَحْدَه الذي يَمنحني الأجرَ . وبعبارة أخرى ، لا أطلُب أجْرًا ولا ثوابًا إلا مِن الله وَحْدَه ، ولا أطلُب عَرَضًا دُنيويًّا زائلًا .

واللهُ يَشهد على حقيقة كلامي ، وهو عَالِم بجميع الأمور ، ومُطَّلع عليها ، ولا يَخفى عليه شيء. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٦) : ((مُطَّلع ، يَعْلَم صِدْقي ، وخُلوصَ نِيَّتي)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٨٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : قُل يَا مُحَمَّد لقَومك المُكَذِّبيك الرَّادِّين عَلَيك ما أتَيْتَهُم بِه مِن عِند رَبِّك : ما أسألكم مِن جَعْل على إنذاركم عذابَ الله وتخويفكم به بأسَه ، ونصيحتي لكم في أمري إيَّاكم بالإيمان بالله والعِلْم بطاعته،فهو لكم لا حاجة لي به، وإنَّما معنى الكلام: قُل لهم: إنِّي لم أسألكم على ذلك جَعْلًا فتتهموني وتظنُّوا أنِّي إنَّما دَعَوْتُكم إلى اتِّباعي لِمَا آخذه مِنكُم ... . وقَوله : ﴿ إنْ أجْرِيَ إلا على اللهِ ﴾ يقول: ما ثَوابي على دُعائكم إلى الإيمان بالله والعِلْم بطاعته وتَبليغكم رسالته إلا على الله ﴿ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول : واللهُ على حقيقة ما أقول لكم شَهيد، يَشْهَد لي به، وعلى غَير ذلك مِن الأشياء كُلِّها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لا أسألُكُم عَلَيْهِ أجْرًا إلا المَوَدَّةَ في القُرْبى ﴾ [الشُّورى : ٢٣] .

قُل يا مُحمَّد لقَومك:لا أطلُب مِنكُم على تَبليغ الرسالة أجرًا ولا مالًا،إلا أن تَحفظوا حَقَّ القَرابة بَيْنَنا ، ولا تُؤذُوني حتى أقومَ بنَشْرِ الدَّعوة، وتَبليغِ الوَحْي الإلهيِّ،وإيصالِ رسالة السماء إلى الناس.

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يأخذ أُجْرَةً على الدَّعوة إطلاقًا ، ولا يَطمَح لنَيل أَجْر بسبب قِيامه بأعباء الرسالة. فهو يمتثل أمرَ الله تعالى في الدَّعوة والتَّبليغ،وينتظر المُكافأةَ الكُبرى مِن الله الذي أرسله. وإذا كَفَرْتُم بالنبيِّ ﷺ يا قُرَيش ، وأعرضتُم عَن دَعوته ، فاحفظوا قَرَابَةَ النبيِّ ﷺ ، ولا تُؤذوه .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الاستثناء مُنقطع ، والمَوَدَّةُ في القُربى ليست أجْرًا على الرِّسالة . لذلك ، يَكون المعنى: لا أسألكم أجْرًا قَط، ولَكِنِّي أسألكم حِفْظ قَرابتي وأن تُوَادُّوها، وهي قَرَابتكم أيضًا، وأن تَصِلُوا الرَّحِمَ بَيني وبَينكم . ولم يَكن حَي مِن قُرَيش إلا وللنبيِّ ﷺ فِيهم قَرَابة . والتَّركيزُ على رابطة الدَّم والقَرَابة والرَّحِم مِن أجل كَف شَر الكُفَّار ، ودَفْع أذى قُرَيش (قَبيلة النبيِّ ﷺ) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤٢) : ((أي : قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المُشركين مِن كُفَّار قُرَيش: لا أسألكم على هذا البَلاغ والنُّصْح لكم مالًا تَعطونيه ، وإنما أطلُب مِنكُم أن تَكُفُّوا شَرَّكم عَنِّي وتَذَرُوني أُبلِّغ رِسالاتِ رَبِّي . إنْ لَم تَنصروني فلا تُؤذوني بما بَيني وبَينكم مِن القَرَابة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٨٣ و٢٨٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُل لا أسألُكُم عَلَيْهِ أجْرًا ﴾ ، في سَبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال:أحدها أنَّ المُشركين كانوا يُؤذُون رسولَ اللهﷺ بمَكَّة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثاني أنَّه لمَّا قَدِمَ المَدينةَ كانت تَنُوبه نوائب، وليس في يده سَعَة ، فقال الأنصار : إنَّ هذا الرَّجُل قد هداكم الله به ، وليس في يده سَعَة، فاجمعوا له من أموالكم ما لا يَضُرُّكم ، ففعلوا، ثُم أَتَوْهُ بِه ، فنزلت هذه الآية ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا . والثالث أنَّ المُشركين اجتمعوا في مَجمَع لهم، فقال بعضُهم لبعض : أتَرَوْنَ مُحَمَّدًا يَسأل على ما يتعاطاه أجرًا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قَتادة . والهاء في ﴿ عَلَيْهِ ﴾كِناية عمَّا جاء به مِن الهُدى . وفي الاستثناء هاهُنا قَولان : أحدهما أنَّه مِن الجِنْس، فعلى هذا يكون سائلًا أجرًا ، وقد أشار ابن عباس في رواية الضَّحاك إلى هذا المعنى ، ثُم قال : نُسِخَتْ هذه بقَوله : ﴿ قُلْ ما سَألْتُكُم مِنْ أجْرٍ فَهُوَ لَكُم ﴾ الآية [سَبَأ : ٤٧] . وإلى هذا المعنى ذهب مُقاتل . والثاني أنَّه استثناء مِن غَير الأوَّل ، لأن الأنبياء لا يَسألون على تَبليغهم أجرًا ، وإنَّما المعنى : لَكِنِّي أُذَكِّرُكم المَوَدَّةَ في القُربى . وقد روى هذا المعنى جماعة عن ابن عباس ، مِنهم العَوفي ، وهذا اختيار المُحقِّقين ، وهو الصحيح ، فلا يتوجَّه النَّسْخ أصْلًا . وفي المُراد بالقُربى خمسة أقوال: أحدها أنَّ معنى الكلام: إلا أن تَوَدُّوني لقَرَابتي مِنكُم، قاله ابن عباس وعِكرمة ومُجاهد في الأكثرين. قال ابن عبَّاس: ولم يكن بَطْن مِن بُطون قُرَيش إلا ولرسول الله ﷺ فِيهم قَرَابة. والثاني إلا أن تَوَدُّوا قَرَابتي، قاله عليُّ بن الحُسَين، وسَعيد بن جُبَير، والسُّدي. ثُمَّ في المُراد بقَرَابته قَولان:أحدهما عليٌّ وفاطمة وولدها. وقد رَوَوْهُ مَرفوعًا إلى رسول الله ﷺ . والثاني أنَّهم الذين تَحرُم عليهم الصَّدَقة، ويُقسَم فِيهم الخُمْس، وهُم بنو هاشم وبنو المُطَّلب . والثالث أن المعنى إلا أن تَوَدَّدُوا إلى الله تعالى فيما يُقرِّبكم إليه مِن العمل الصالح، قاله الحسن وقَتادة . والرابع إلا أن تَوَدُّوني كما تَوَدُّون قَرابتكم، قاله ابن زيد.والخامس إلا أن تَوَدُّوا قَرابتكم وتَصِلُوا أرحامَكم،حكاه الماوردي ، والأول أصح)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٩) أن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ قال: ((إنَّ النَّبِيَّﷺ لم يكن بَطْنٌ مِن قُرَيْشٍ إلا وله فِيه قَرَابة ، فَنَزلتْ عليه ، إلا أن تَصِلُوا قَرابةَ بَيْني وبَيْنَكُم)) .

النبيُّ ﷺ ذو نَسَب رَفيع في قَومه، وهذا النَّسَب مُتشعِّب ومُرتبط ارتباطًا وثيقًا بعائلات قُرَيش، وقد كان النبيُّ ﷺ حريصًا على حماية الجَو الأُسَري والترابط الاجتماعي بين العائلات والقبائل ، فهو لم يجئ ليُفتِّت المُجتمعَ ، أو يُمزِّق الوشائجَ العائلية ، بل ليَحْمِيَ عَلاقاتِ القَرَابة ورابطة الدَّم، ويَبْنِيَهَا على أُسُس إسلامية متينة ، بعيدًا عن العَصَبِيَّة القَبَلِيَّة والصِّراعاتِ العشائرية .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٦٤ و٥٦٥): (((باب قَوله : ﴿ إلا المَوَدَّةَ في القُرْبى ﴾).
ذُكِرَ فيه حديث طاوس عن ابن عباس سُئِلَ عَن تفسيرها، فقال سَعيد بن جُبَير : قُرْبَى آل مُحمَّد .
فقال ابن عَبَّاس: عَجِلْتَ، أي: أسرعتَ في التفسير. وهذا الذي جَزَمَ به سعيد بن جُبَير قد جاء عنه مِن روايته عن ابن عباس مرفوعًا ، فأخرج الطبري وابن أبي حاتم من طريق قَيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جُبَير عن ابن عَبَّاس قال : لمَّا نَزلت قالوا : يا رسول الله، مَن قَرابتك الذين وَجَبَتْ عَلَينا مَوَدَّتُهم . الحديث ، وإسناده ضعيف . وهو ساقط لمُخالفته هذا الحديث الصحيح.
والمعنى:إلا أن تَوَدُّوني لقَرَابتي فَتَحفظوني.والخِطاب لقُرَيش خاصَّة،والقُربى قَرَابة العُصوبة والرَّحِم، فكأنَّه قال: احفظوني للقَرَابة إن لم تَتَّبعوني للنُّبُوَّة ، ثُمَّ ذُكِرَ ما تقدَّمَ عن عِكرمة في سبب نزول .
وقد جزم بهذا التفسير جماعة من المُفسِّرين ، واستندوا إلى ما ذكرته عن ابن عباس من الطبراني وابن أبي حاتم ، وإسناده واهٍ ، فيه ضعيف ورافضي . وذكر الزمخشري هنا أحاديث ظاهر وَضْعها وردَّه الزَّجاج بما صَحَّ عن ابن عباس من رواية طاوس في حديث الباب، وبما نقله الشَّعبي عنه وهو المُعتمَد، وجزم بأن الاستثناء مُنقطع ، وفي سبب نزولها قول آخَر ذكره الواحدي عن ابن عباس، قال : لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المَدينةَ كانت تَنُوبه نوائب ، وليس بيده شيء ، فَجَمَعَ له الأنصار مالًا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنَّكَ ابنُ أُختنا ، وقد هدانا اللهُ بِك ، وتَنُوبك النوائب وحقوق ، ولَيس لك سَعَة ، فجمعنا لكَ مِن أموالنا ما تستعين به عَلَينا، فنزلت . وهذه مِن رواية الكلبي ونَحْوه من الضعفاء. وأخرج من طريق مِقْسَم عن ابن عباس أيضًا قال : بَلَغَ النبيَّ ﷺ عن الأنصار شيء ، فَخَطَبَ ، فقال : " ألم تكونوا ضُلَّالًا فَهَداكم اللهُ بي " الحديث. وفيه : فَجَثَوْا على الرُّكَب ، وقالوا : أنفسنا وأموالنا لكَ ، فنزلت . وهذا أيضًا ضعيف ، ويُبطِله أن الآية مَكِّية . والأقوى في سبب نزولها عن قَتادة قال : قال المُشركون : لَعَلَّ مُحَمَّدًا يَطلُب أجرًا على ما يتعاطاه ، فنزلت .
وزعم بعضُهم أن هذه الآية مَنسوخة، وردَّه الثعلبي بأن الآية دالَّة على الأمر بالتَّوَدُّد إلى الله بطاعته، أو باتِّباع نَبِيِّه ، أو صِلَة رَحِمه بتَرك أذِيَّته ، أو صِلَة أقاربه مِن أجله . وكُل ذلك مُستمر الحُكم غَير منسوخ . والحاصل أن سعيد بن جُبَير ومن وافقه كعليِّ بن الحسين والسُّدي وعَمْرو بن شُعَيب، فيما أخرجه الطبري عنهم حَمَلُوا الآيَةَ على أمر المُخَاطَبِين بأن يُوادِدوا أقاربَ النبيِّ ﷺ . وابن عباس حَمَلَها على أن يُوادِدوا النبيَّ ﷺ مِن أجل القَرَابة التي بَيْنَهم وبَيْنَه ، فعلى الأول الخِطاب عام لجميع المُكَلَّفين . وعلى الثاني الخِطاب خاص بقُرَيش ، ويُؤَيِّد ذلك أن السُّورة مكية . وقد قِيل : إن هذه الآية نُسِخَتْ بقَوله : ﴿ قُل ما أسأُلُكُم عَلَيهِ مِن أَجر ﴾ . ويُحتمَل أن يكون هذا عامًّا

خُصَّ بما دلَّت عليه آية الباب . والمعنى أنَّ قُرَيْشًا كانت تَصِل أرحامَها ، فلمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ قَطَعُوه ، فقال : " صِلُوني كما تَصِلُون غَيْري مِن أقاربكم " . وقد روى سعيد بن منصور من طريق الشَّعبي قال: أَكْثَرُوا عَلَينا في هذه الآية،فكتبتُ إلى ابن عَبَّاس أسأله عَنها،فكَتَبَ إن رسول الله ﷺ كان وَاسِطَ النَّسَب في قُرَيش، لَم يكن حَي مِن أحياء قُرَيش إلا وَلَدَه، فقالَ اللهُ : ﴿ قُل لا أسألُكُم عَلَيْهِ أجْرًا إلا المَوَدَّةَ في القُرْبى ﴾ تَوَدُّوني بقَرَابتي مِنكُم وتَحفظوني في ذلك... وقَوله: ﴿ القُرْبى ﴾ هو مَصْدَر كالزُّلْفَى والبُشْرَى، بمعنى القَرابة، والمُراد في أهل القُربى، وعَبَّرَ بلفظ ﴿ في ﴾ دُون اللام ، كأنَّه جَعلهم مَكَانًا للمَوَدَّة ، ومَقَرًّا لها ، كما يُقَال : لِي في آل فُلان هَوى ، أي : هُم مَكَان هَوَاي. ويُحتمَل أن تكون ﴿ في ﴾ سَبَبِيَّة ، وهذا على أن الاستثناء مُتَّصِل . فإنْ كان مُنْقَطِعًا فالمعنى : لا أسألكم عليه أجْرًا قَط ، ولكن أسألكم أن تَوَدُّوني بسبب قَرَابتي فِيكُم)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((لا أسألُكُم على ما آتَيْتُكُم مِن البيِّنات والهُدى أجْرًا ، إلا أن تُوَادُّوا اللهَ ، وأن تَقَرَّبوا إلَيه بطاعته)) [١٧٩].

النبيُّ ﷺ لا يَطْلُب أجْرًا ، أو مَنْزِلَةً دُنيوية على تَبليغِ القُرآن، والدَّعوةِ الإسلامية، ونَشْرِ الهدى، فهو يَسعى مِن أجل هِداية الناس إلى تَوحيد الله وعبادته وطاعته ، وإرشادهم إلى الإيمان والتَّمَسُّك به قَوْلًا وفِعْلًا ، وأن يَتَقَرَّبُوا إلى الله تعالى ، بامتثال أوامره ، واجتنابِ نَوَاهيه ، ليَرْضَى عَنهم ، ويَمْنَحهم الجَنَّةَ . إنَّهُ لا يَسأل الناسَ أجْرًا وثوابًا على دَعوته،ولَكِنَّه يَسألهم المَوَدَّةَ في القُربى التي بَينه وبَينهم ، وأن يَصِلُوا رَحِمَه، ولا يُحاربوه، ولا يُؤذوه ، وأن يَتركوه لدَعوة الناس بلا عوائق .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُم أجْرًا فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُون ﴾ [الطُّور : ٤٠] .

أتسألُ يا مُحمَّد هؤلاء المُشركين أجْرًا على تَبليغ الرِّسالة ، وإيصال الدَّعوة ، فَهُم مُتْعَبُون ومُجْهَدُون بسبب الأجر الثقيل ، لذلك لا يَستجيبون لك ، ولا يُؤمنون بما جِئْتَ بِه ؟ .

وهذا تَوبيخٌ لهم ، وسُخريةٌ مِنهم ، واستهزاء بِهم . ومعروفٌ أنَّ الأنبياء لا يَأخذون أجْرًا مِن الناس على تَبليغ رسالاتِ رَبِّهم ، والدَّعوة إلى تَوحيده وعبادته وطاعته .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٧):((أتسألُ هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا مُحمَّد على ما تَدعوهم إلَيه مِن تَوحيد الله وطاعته ثوابًا ، عِوَضًا مِن أموالهم ، فَهُم مِن ثِقْل ما حَمَّلْتَهم مِنَ الغُرْم ، لا يَقْدِرُون على إجابتك إلى ما تَدْعُوهم إلَيه ؟)) .

---

١٧٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والعادةُ أنَّ الإنسانَ يَتثاقل ويَتهرَّب إذا فُرِضَت عليه أُجْرة ، أو أُلْزِم بِدَفْع مالٍ مُقابل شيء ما. فهل سَألتَ يا مُحمَّد هؤلاء المُشركين أجْرًا على الدَّعوة ، فأثقلتَ عَلَيهم ، فلا يَقْدِرون أن يُسْلِموا بسبب التكاليف المادية المرتفعة ؟ .

٩_ حِكْمتهم في الدَّعوة

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ [النَّحْل: ١٢٥] .

ادْعُ يا مُحمَّد الناسَ إلى الشريعة الإلهية (الإسلام) بالبراهين القطعية والأدلة الحاسمة الموجودة في القُرآن والسُّنة ﴿ والمَوْعِظَةِ الحسَنَةِ ﴾ ، وهي الدُّعاء إلى اللهِ بالترغيب والترهيب ، وذِكْر العِبَر الجميلة التي تُؤثِّر في نَفْسِ السامع ، وتَدخل إلى قلبه ، وتُغيِّر سُلوكَه . والحِكمةُ والموعظةُ الحسَنة هُما الرُّكنان اللذان تَقوم عليهما الدَّعوة الإسلامية .

وهُناك أفراد لا يَقبلون بهذين الرُّكنين، ولا يَخضعون للحق، ولا يُسلِّمون له.وهؤلاء يَحتاجون إلى جِدال ومُناظَرة ومُقارَعة الحُجَّة بالحُجَّة، فَجَادِلْهم يا مُحمَّد وخَاصِمْهم بأسلوبٍ جَميلٍ وهادئ ومُؤَيَّدٍ بالنصوص الدينية والحُجَج العقلية. وأعْرِضْ عَن أذاهم ، وَوَاصِل تَبليغَ الرسالةِ بكل نشاط وقُوَّة. والهدفُ من الجِدال بالأسلوب الحَسَن الطَّيب هو إظهار الحقِّ الذي جاءَ به مُحمَّد ﷺ ، وكَشف الباطل الموجود عِند الخِصْم . ولا شَكَّ أنَّ المُجادَلَة الحَسَنة تُوقِظ القلوبَ مِن غَفْلتها، وتُؤثِّر في النفوس بشكل إيجابي ، وتُنَقِّي العقلَ مِن الشَّوائب .

والآيةُ : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ رَدٌّ على الرافضين للمُناظَرة في الدِّين .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٢٧) : ((وقَوْلُه سُبحانَه : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحسَنَةِ ﴾ هذه الآية نَزلت بمكة . أُمِرَ _ عليه السلام _ أن يَدعوَ إلى دِين الله وشَرْعه بِتَلَطُّف ، وهكذا ينبغي أن يُوعِظ المُسلمون إلى يوم القيامة)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٦) : ((﴿ ادْعُ ﴾ مَن بُعِثْتَ إلَيهم ﴿ إلى سَبيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴿ بالحِكْمةِ ﴾ بالمَقالة المُحْكَمَة ، وهو الدليل المُوضِّح للحَق ، المُزيح للشُّبهة ﴿ والمَوْعِظَةِ الحسَنَةِ ﴾ الخِطابات المُقنِعة والعِبَر النافعة ، فالأُولَى لِدَعوة خَواص الأُمَّة الطالبين للحقائق، والثانية لِدَعوة عَوَامِّهم . ﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ وَجَادِلْ مُعانِديهم ﴿ بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طُرُق المُجادَلَة ، مِن الرِّفق واللين ، وإيثار الوَجْه الأيسر ، والمُقدِّمات التي هي أشهر ، فإن ذلك أنفع في تَسكين لَهبهم ، وتَبيين شَغَبهم)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٧٦): ((﴿ والمَوْعِظَةِ الحسَنَةِ ﴾ وهي التي لا يَخفى عليهم أنَّك تُناصحهم بها ، وتَقصِد ما يَنفعهم فيها ، أو بالقُرآن ، أي: ادْعُهم بالكِتاب الذي هو حِكمة ومَوعظة حَسَنة . والحِكمة المَعرفة بمراتب الأفعال ، والمَوعظة الحسنة أن يَخلِط الرَّغبة بالرَّهبة والإنذار بالبِشارة)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٦): ((فأمَّا السَّبيل، فقال مُقاتل: هو دِين الإسلام. وفي المراد بالحِكمة ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها القُرآن، والثاني الفِقْه، والثالث النُّبُوَّة . وفي المَوعظة الحَسَنة قَولان : أحدهما مَواعظ القرآن ، والثاني الأدب الجميل الذي يَعرفونه.قَوْلُه تعالى:﴿وجادِلْهم ﴾ في المُشار إلَيهم قَولان : أحدهما أنَّهم أهل مكة ، والثاني أهل الكِتاب . وفي قَوْله : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها جَادِلْهم بالقُرآن ، والثاني بِـ لا إله إلا الله ، والثالث جَادِلْهم غير فَظ ولا غَليظ ، وأَلِنْ لهم جَانِبَك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ لمُوسى وهَارون _ عليهما الصلاة والسلام _ أن يَقولا لِفِرْعَوْن الطاغية قَوْلًا لطيفًا رَقِيقًا بأسلوب جَذَّاب لا يُنفِّره، لَعَلَّه يتذكَّر عَظَمَةَ الله ، أو يَخاف عذابَه ، فيرتدع عن طُغيانه، ويَعبد اللهَ ، ويُطيعه . والآيةُ دليل على أهمية الأمر بالمعروف ، والنَّهْي عن المُنكر ، بأسلوب طَيِّب وهادئ ، بدون عصبية ولا خُشونة . والأسلوب الخَشِن يُؤثِّر سَلْبًا على الدَّعوة الإسلامية ، ويُؤدِّي إلى مشكلات كثيرة ، ومصائب عديدة ،كما أنَّه يَقُود إلى العِناد والإصرار على الكُفر والضلال.

وإذا كانَ اللهُ يَأمر بالقَول اللطيف في دَعوة فِرْعَوْن الذي ادَّعى الأُلوهيةَ ، فكيفَ تَكون دَعوة عُصاة المسلمين الذين يُقِرُّون بُوجود الله ووَحدانيته وأُلوهيته ، ويَعترفون أنَّه الإله الخالق الرازق ، وَحْدَه لا شريك له ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٠٧) : ((هذه الآية فيها عِبرة عظيمة، وهو أن فِرْعَوْن في غاية العُتُوِّ والاستكبار ، ومُوسَى صَفوة الله مِن خَلْقه إذْ ذاك ، ومعَ هذا أُمِرَ أن لا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إلا بالمُلاطَفَة واللين)) .

وق سَبَقَ في عِلْم الله أنَّ فِرْعَوْن لن يَتذكَّر ، ولن يَخشى ، وسيموت على الكُفر ، ومعَ هذا قال اللهُ تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . والمعنى : اذهبا على رجاء مِنكما وطَمَع في اتِّعاظ فِرْعَوْن وهِدايته . وكُلُّ شَيء خاضع لإرادة الله وحُكمه وحِكمته وقضائه وقَدَره . وهذه الدَّعوة ضرورية لإقامة الحُجَّة على فِرْعَوْن ، وقَطْع عُذره .

وصدق القائل :

يا مَن يَتَحَبَّبُ إلى مَن يُعاديه   فَكَيْفَ بمَن يَتَوَلَّاهُ ويُناديه ؟

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٨٧ و٢٨٨ و٢٨٩) : ((وللمفسرين فيه خمسة أقوال : أحدها قُولا له : قُل : لا إلهَ إلا الله ، وَحْدَه لا شريك له . رواه خالد بن مَعْدَان عن مُعاذ والضَّحاك عن ابن عباس.والثاني أنَّه قَولـه:﴿ هَل لَكَ إلى أن تَزَكَّى (١٨) وأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) ﴾ [النَّازِعَات]، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مُقاتل . والثالث كَنِّياه ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السُّدي ... . وفي كُنيته أربعة أقوال: أحدها أبو مُرَّة ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثاني أبو مُصعَب ، ذَكَره أبو سُلَيمان الدمشقي . والثالث أبو العباس ، والرابع أبو الوليد ، حكاهما الثعلبي . والقول الرابع قُولا له : إنَّ لَكَ رَبًّا ، وإنَّ لَكَ مَعَادًا ، وإنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّة ونَارًا ، قاله الحسن . والخامس أنَّ القول اللَيِّن أنَّ مُوسى أتاه فقال له : تُؤمِن بما جِئْتُ به ، وتَعبد رَبَّ العَالَمِين على أنَّ لَكَ شَبابك ، فلا تَهْرَم ، وتَكون مَلِكًا لا يُنزَع مِنك حتى تموت ، فإذا مِتَّ دَخَلْتَ الجَنَّةَ ، فأعجبه ذلك ، فلمَّا جاء هامان أخبره بما قال موسى، فقال : قَد كُنْتُ أرى أنَّ لَكَ رَأيًا ، أنتَ رَب ، أردتَ أن تكون مَرْبُوبًا ، فقلبه عن رأيه ، قاله السُّدي . وحُكِيَ عن يَحيى بن مُعاذ أنه قرأ هذه الآية ، فقال: إلهي هذا رِفْقُك بمن يقول: أنا الإله فكيف رِفْقُك بمَن يَقول: أنتَ الإله ؟. قَوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ . قال الزَّجاج : لَعَلَّ في اللغة تَرَجٍّ وطَمَع ، تقول : لَعَلِّي أصير إلى خَير ، فخاطبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ العِبادَ بما يَعقِلون. والمعنى عِند سِيبَوَيْه : اذهبا على رَجائكما وطَمَعكما ، والعِلْم مِن الله تعالى مِن وراء ما يَكون، وقد عَلِمَ أنه لا يَتذكَّر ولا يَخشَى ، إلا أن الحُجَّة إنَّما تجب عليه بالآية والبُرهان ، وإنَّما تُبعَث الرُّسُل وهي لا تَعْلَم الغَيْبَ ، ولا تَدْري أيُقبَل مِنها أم لا ، وهَم يَرْجُون ويَطْمَعون أن يُقبَل مِنهم . ومعنى لَعَلَّ مُتَصَوَّر في أنفسهم ، وعلى تَصَوُّر ذلك تَقوم الحُجَّة . قال ابن الأنباري : ومذهب الفَرَّاء في هذا كي يَتَذَكَّر ، وروى خالد بن مَعْدَان عن مُعاذ قال : واللهِ ما كان فِرْعَوْنُ لِيَخْرُجَ مِن الدُّنيا حتى يَتَذَكَّر أو يَخشَى لهذه الآية ، وإنَّه تَذَكَّرَ وخَشِيَ لمَّا أدركه الغَرَقُ . وقال كَعْب : والذي يَحْلِفُ به كعب إنَّه لمَكتوب في التَّوراة : فقُولا له قَوْلًا لَيِّنًا ، وسَأُقَسِّي قَلْبَه فلا يُؤمِن . قال المُفسِّرون : كان هارون يَومئذ غائبًا بمِصْر ، فأوحى اللهُ تعالى إلى هَارون أن يتلقَّى مُوسى ، فَتَلَقَّاه على مَرحلة، فقال له مُوسى : إنَّ الله تعالى أمَرَني أن آتِيَ فِرْعَوْنَ ، فَسَألْتُه أن يَجعلك مَعِي)) .

إنَّ بَثَّ المَعاني الطَّيبة الجميلة في النُّفوس بأسلوب ناعم وهادئ وسَلِس مِن شأنه أن يُلين قُلوبَ الناس ، ويعمل على استقطابهم إلى الإيمان بالله وعبادته وطاعته ، لأنَّ النُّفوس مَجبولة على حُب مَن أحسنَ إلَيها ، وقدَّم لها المُساعدة بأسلوب رقيق جذَّاب .

وكما قال الشاعر :

أَحْسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهُمُ   فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

والإحسانُ إلى الناس يَجعل المَرْءَ يُسيطر على قُلوبهم ، فتنقاد جوارحُهم إليه ، وتخضع له ، ويَسمعون كلامَه ، وكأنَّهم تَحت تأثير السِّحْر ، فالكلمةُ الطَّيبة لها وَقْعٌ عَميق مُؤثِّر في النُّفوس .

وقد أوصى النبيُّ ﷺ مُعَاذًا وأبا مُوسى حِين بَعَثَهما إلى اليمن قائلًا : ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، وَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، وتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا)) [180].

في هذا الحديث،تتَّضح أركانُ المنهج النبويِّ في الدَّعوة، حيث التَّيسير على الناس والتخفيف عنهم ، وتَبشيرهم ومُساعدتهم ، وعدم التَّشديد عَلَيهم وتَعقيدِ حياتهم . فالدَّعوةُ الإسلاميةُ لَم تجئ لِتُدمِّر حياةَ الناس وتجعلها جحيمًا لا يُطاق،وإنما جاءت لإنقاذ الناس،وإخراجهم مِن ضِيق الدُّنيا إلى سَعَة الدُّنيا والآخِرة. وقد جاءت الشريعةُ الإسلامية لرَفْع الحَرَج ، والأمرُ كُلَّمَا ضَاقَ اتَّسَع.

والتَّخفيف لا يعني بأيَّة حال مِن الأحوال تمييعَ الدِّين، أو لَوْيَ أعناق النصوص لتتناسب مع الهَوى والشَّهَوات الغريزية والمصالح الشخصية ، أو الهُروبَ مِن تَحَمُّل المَسؤولية . وإنَّما يَعني السَّيْر على الطريق المستقيم ، وهو المنهج الوَسَطِيُّ ، بلا إفراط ولا تفريط ، بلا غُلُوٍّ ولا تَسَيُّب .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٤١) : ((إنما جَمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضِدِّه لأنه قد يَفعلهما في وقتَيْن ، فَلَو اقتصرَ على يَسِّروا لَصَدَقَ ذلك على مَن يَسَّرَ مَرَّةً أو مَرَّات، وعَسَّرَ في مُعظم الحالات. فإذا قال : ولا تُعسِّروا، انتفى التَّعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب.وكذا يُقال في: يَسِّرا ولا تُنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا، لأنهما قد يتطاوعان في وقت ، ويختلفان في وقت، وقد يتطاوعان في شَيء ، ويختلفان في شيء . وفي هذا الحديث الأمر بالتَّبشير بفضل الله، وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسَعَة رحمته ، والنهي عن التنفير بِذِكر التخويف وأنواع الوعيد مَحضةً مِن غَير ضَمِّها إلى التَّبشير . وفيه تأليف مَن قَرُبَ إسلامُه ، وترك التشديد عليهم ، وكذلك مَن قَاربَ البُلوغ مِن الصِّبيان ومَن بَلَغَ ، ومَن تاب من المعاصي ، كلهم يتلطَّف بهم ، ويَدْرُجون في أنواع الطاعة قليلًا قليلًا ، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج. فمتى يُسِّرَ على الداخل في الطاعة، أو المُريد للدخول فيها ، سَهُلَت عليه ، وكانت

---

١٨٠ متفق عليه . البخاري (٣/ ١١٠٤) برقم (٢٨٧٣)،ومسلم (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٣).

عاقبته غالبًا التزايد منها.ومتى عُسِّرَت عليه أوشكَ أن لا يدخل فيها ، وإن دَخل أوشكَ أن لا يدوم أو لا يَسْتَحْليها. وفيه أمر الوُلاة بالرِّفق، واتفاق المُتشاركين في وِلاية ونَحْوها ، وهذا مِن المُهِمَّات، فإنَّ غالب المصالح لا يتمُّ إلا بالاتفاق ، ومتى حصل الاختلاف فاتَ . وفيه وَصِيَّة الإمام الوُلاة ، وإن كانوا أهلَ فضل وصلاح كمُعاذ وأبي موسى ، فإنَّ الذِّكرى تَنفع المؤمنين)) .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦١) : ((قَوله : " يَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، وَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا " . قال الطيبي : هو معنى الثاني مِن باب المُقابلة المعنوية ، لأن الحقيقية أن يُقال : بَشِّرا ولا تُنذِرا ، وآنِسَا ولا تُنفِّرا ، فَجَمَعَ بينهما لِيَعُمَّ البِشارة والنِّذارة ، والتَّأنيس والتَّنفير . قُلْتُ : ويَظهر لي أن النُّكتة في الإتيان بلفظ البِشارة وهو الأصل ، وبلفظ التَّنفير وهو اللازم ، وأتى بالذي بَعْده على العَكْس ، للإشارة إلى أن الإنذار لا يُنفَى مُطْلَقًا ، بخِلاف التَّنفير، فاكتفى بما يَلزَم عنه الإنذار ، وهو التَّنفير ، فكأنَّه قِيل: إنْ أنذرتم فليكن بغَير تَنفير كقَوله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾)) .

١٠ــ حُكمهم بين الناس

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أنزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اخْتَلَفُوا فِيهِ وهُدًى وَرَحْمَةً لِقَومٍ يؤمنون ﴾ [النَّحْل : ٦٤] . إنَّ اللهَ اختارَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا ورسولًا ، وأنزلَ عَليه القُرآنَ ، لِيُوضِّح للناسِ الذي اختلَفوا فيه مِن الدِّين والأحكام والبَعْث ــ وقَد كانَ هُناك مؤمنون بالبَعْث ــ ، فَيَفصِل الحَقَّ عَن الباطل ، وهذا البَيانُ النبويُّ التَّوضيحيُّ يُقيم الحُجَّةَ على الناس ، ويَقطع أعذارَهم ، فلا عُذر لهم ولا فُرصة للتَّهرُّب من الحقيقة . وكُلُّ الأمم الهالكة إنما هَلكت بعد أن أُقيمت الحُجَّة عَلَيها ، ولَم يَكونوا أبرياء ولا مَعذورين . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٤٨) : ((أي : ما أنزلناه عَلَيْكَ لحال من الأحوال ، ولا لِعِلَّة مِنَ العِلَل إلا لِعِلَّة التَّبيين لهم : أي للناس ، الذي اختلَفوا فيه مِنَ التوحيد ، وأحوال البَعْث ، وسائر الأحكام الشرعية)) .

﴿ وَهُدًى وَرَحمةً لقَومٍ يُؤمِنون ﴾ . ورُشدًا ورحمةً للمؤمنين باللهِ وكُتبه ورُسله . والهُدى والرحمةُ عَطْف على قَوْله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ . والمعنى: وما أنزلنا عليك الكتابَ إلا تَوضيحًا للناسِ، وتِبيانًا لهم ، ورُشدًا ورحمةً للمؤمنين . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٠٥) : ((وقَوله : ﴿ وَهُدًى وَرَحمةً لِقَومٍ يُؤمنون ﴾ . يقول : ﴿ وَهُدًى ﴾ بَيانًا مِنَ الضَّلالة ، يعني بذلك الكتاب. ﴿ وَرَحمةً لِقَومٍ يُؤمِنون ﴾ بِه ، فَيُصدِّقون بما فيه ، ويُقِرُّون بما تضمَّنَ مِن أمر اللهِ ونَهْيِه ، ويَعْمَلون به. وعَطَفَ بالهُدى على مَوضِع ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ لأنَّ مَوضِعها نَصْب ، وإنما معنى الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا للناس ، فيما اختلَفوا فيه ، هُدًى وَرَحمة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنَا بالبَيِّناتِ وأنزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

بَعَثَ اللهُ رُسُلَه بالأدلةِ الواضحة ، والبراهين الجَلِيَّة ، والحُجَج الدامغة ، والمُعجِزات الظاهرة ، والدلائلِ الهادية ، وأنزلَ معهم الكُتُبَ السَّماوية بالأحكام والشرائع ، التي فيها سعادة الدُّنيا ونعيم الآخرة، وأنزلَ العَدْلَ، ليَقوم الناسُ بالحق والعدل في مُعاملاتهم وشؤونهم ، ويُطَبِّقون الشريعةَ الإلهية في حياتهم، فتستقيم أمورُهم وَفْق مُراد الله تعالى، ويَعمُرون الأرضَ بالإيمان والخَير ، ويَحصُلون على جَنَّةِ الدُّنيا وجَنَّةِ الآخِرة معًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنَا بالبَيِّناتِ ﴾ ، أي : بالآيات والحُجَج ، ﴿ وأنزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ ﴾ ببيان الشرائع والأحكام . وفي المِيزان قَولان : أحدهما أنَّه العَدْل ، قاله ابن عباس وقَتادة . والثاني أنَّه الذي يُوزَن به ، قاله ابن زيد ومُقاتل . فعلى القَول الأول يكون المعنى : وأمَرْنا بالعَدْل ، وعلى الثاني : وَوَضَعْنا المِيزانَ ، أي : أمَرْنا به ﴿ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ ، أي : لِكَي يَقُوموا بالعَدْل)) .

وقد ضَمِنَ اللهُ السعادةَ للناس إذا اعتصموا بشريعته الكاملة المَعصومة التي لا يَأتيها الباطلُ مِن بَين يَدَيها ولا مِن خَلْفها . وإذا ساروا وَفْق المَنهج الإلهيِّ فإنَّهم سيجدون أنفسَهم ، ويكتشفون طاقاتِهم الإبداعية ، ويُصبحون عناصر فاعلة في إعمار الأرض وصناعةِ الحضارة . وبالتالي ، ينالون السعادةَ في الدُّنيا ، ويَفوزون بنعيم الآخرة الأبديِّ ، لأنَّ الدُّنيا مَزرعة الآخِرة . وفي الدار الآخِرة يَكون الحَصَادُ، وكَمَا تَزرَع تَحصُد . والدُّنيا عَمَل بلا جَزَاء ، والآخِرة جَزَاء بلا عَمَل . والدُّنيا امتحان بلا نتيجة ، والآخِرة نتيجة بلا امتحان . وفي الدُّنيا جَنَّة ، مَن لَم يَدخلها ، لَم يَدخل جَنَّةَ الآخرة ، وجَنَّة الدُّنيا هي عبادة الله وَحْدَه ، لا شريك له ، وامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٣) : ((يَقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنَا بالبَيِّناتِ ﴾ ، أي : بالمُعجِزات والحُجَج الباهرات ، والدَّلائل القاطعات ، ﴿ وأنزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ ﴾ وهو النَّقْل الصِّدْق ، ﴿ والمِيزانَ ﴾ وهو العَدْل ، قاله مُجاهد وقَتادة وغَيرهما ، وهو الحَق الذي تَشهَد به العُقولُ الصحيحة المُستقيمة المُخَالِفة للآراء السَّقيمة ، ... . ولهذا قال في هذه الآية : ﴿ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ ، أي : بالحَق والعَدْل، وهو اتِّباع الرُّسُل فِيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أَمَرُوا به ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي لَيْسَ وَراءه حَق كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] . أي : صِدْقًا في الأخبار ، وعَدْلًا في الأوامر والنَّواهي)) .

١١ـ لكُل أمَّة نذير

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيها نَذِيرٌ ﴾ [فَاطِر : ٢٤] .

كُلُّ الأُمَم قَد أرسلَ اللهُ إلَيهم الرُّسُلَ لِيُنذروهم ، وقد قَطَعَ اللهُ أعذارَ الناسِ ، وأقامَ عَلَيهم الحُجَّةَ. وما مِن أُمَّة مِن الأُمم السابقة ، إلا جاءها رسول مِن اللهِ ، يُنذِرهم عذابَ اللهِ وعُقوبته في حال اختيار الكُفر والضَّلال . والأُمَّةُ هي الجَمَاعةُ الكثيرةُ مِنَ الناس .

وقد ذُكر النَّذير دُون البَّشير ، لأنَّ النِّذارة مُرتبطة بالبِشارة ، كما أنَّ النِّذارةَ هي الهدف الأساسيُّ للرِّسالة النبوية . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٩١) : ((واقْتُصِر على ذِكر النذير دُون البشير ، لأنه ألصق بالمَقَام)) .

والعربُ قَد جاءها نذيرٌ ، لأنَّ دَعوة النبيِّ إبراهيم ﷺ وأبنائِه قَد وَصَلَتْهُم ، ولكنْ لَم يَأتهم نذير مُباشِر سِوى النبيِّ مُحمَّد ﷺ . وبعبارة أُخرى ، إن العرب لَم يَأتهم نذير في الفترة بين عِيسى ومُحمَّد ، عليهما الصلاة والسلام .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٢٥٦) : ((وقَوله تعالى : ﴿ وإن مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيها نَذِيرٌ ﴾ معناه أنَّ دَعوة الله تعالى قد عَمَّتْ جَمِيعَ الخَلْق،وإن كان فِيهم مَن لَم تُباشره النِّذارة،فهو مِمَّن بَلَغَتْهُ، لأن آدم بُعِثَ إلى بَنِيه، ثُمَّ لَم تنقطع النِّذارة إلى زمن مُحمَّد ﷺ)) .

١٢ـ بلِسَان قَومهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾[إبراهيم : ٤] .

وما أرسلَ اللهُ في الأُمَم السابقة رَسُولًا مِن الرُّسُل إلا بلغة قَومه ، لِيَفْهَمُوا عنه ، ويُوضِّح لهم شريعةَ الله ، ويُفهِمهم مُراده ، لتتحقَّق الغايةُ مِن الرسالة ، وتَكون الدَّعوة ذات مَعنَى ، ويَنقطع عُذرُهم، وتُقَام عليهم الحُجَّة ، ولا يكون لهم حُجَّة على الله تعالى، ولا يَقولوا لِنَبِيِّهم : لا نَفهَم ما تَقول . لذلك، لَم يَبعث اللهُ نَبِيًّا إلا بلُغة قَومه . والهِدايةُ والإضلال بيد الله وَحْدَه ، يُوفِّق اللهُ مَن يشاء إلى الحق، فيعتنق الإسلامَ ، ويُصبح مِن السُّعداء ، ويَكون مصيره الجَنَّة ، ويُضِلُّ اللهُ مَن يشاء ، فيَغرق في الكُفر ، ويُصبح مِن الأشقياء ، ويَكون مصيره النار . وَلَوْ كان النبيُّ يتحدَّث لُغةً مُختلفة عَن لُغة قَومه ، لَمَا فَهِمَ كلامَهم ، ولا فَهِمُوا كلامَه ، وبالتالي تَفقد الرسالةُ هَدَفَها ، وتُصبح بلا مَعنَى ولا جَدوَى .

والآيةُ نَزلت لأنَّ قُرَيْشًا قالوا : ما بالُ الكُتب كُلُّها أعجمية، وهذا القُرآن عربي ؟! .

والنبيُّ ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافَّة (العَرَب وغَير العَرَب) ، معَ أنَّه عربي، ويتحدَّث اللغةَ العربية، والناس تابعون للعرب في هذا الأمر ، وقد أرسلَ النبيُّ ﷺ رُسُلَه إلى غَير العَرَب ، يَدعونهم إلى تَوحيد الله ، وعبادته ، ويُترجمون لهم بلُغاتهم ، ومَن تُرْجِمَ له ترجمةً يَفهمها أُقِيمَت عليه الحُجَّة ، وانقطعَ عُذرُه . وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٩٠) : ((قَوله تعالى: ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَسُولٍ ﴾ أي : قَبْلَك يا مُحمَّد ﴿ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، أي : بلُغتهم ليُبيِّنوا لهم أمرَ دِينهم ، ووحَّد اللسانَ، وإن أضافه إلى القَوم ، لأن المُراد اللغة، فهي اسم جِنْس يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّة للعَجَم وغَيرهم في هذه الآية ، لأن كُل مَن تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يَفهمها لَزِمَتْهُ الحُجَّة)) .

إنَّ اللهَ يُرسِلُ الرَّسُولَ بنفْس لُغة قَومه ، كَي يَقدِر على دَعوتهم وتعليمهم وإرشادهم وإقامة الحُجَّة عليهم ، وقَطْع أعذارهم . وأيضًا ، حتى يَقدِر الناسُ على فَهْم كلام الرسول والتَّخاطب معه، فتتجذر لُغةُ التواصل دون حواجز أو عقبات لغوية. وهذا يُساهم في تحقيق مُرادِ الله في إنقاذ الناس ، ونشرِ الدَّعوة بصورة صحيحة على أكمل وجه ، لتصل الدَّعوةُ إلى كُل الشرائح الاجتماعية دُون حُدود لُغوية ، أو مُشكلات في طريقة التَّخاطب والدَّعوة .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٢٣) : ((﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ إلا مُتَكَلِّمًا بلُغتهم ، ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ما هو مَبعوث به وله، فلا يكون لهم حُجَّة على الله، ولا يقولون له لَم نَفهم ما خُوطِبنا به . فإنْ قُلْتَ : إنَّ رسولنا ﷺ بُعِثَ إلى الناس جميعًا بقَوله : ﴿ قُل يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . بَل إلى الثَّقَلَيْن ، وهُم على ألسنة مُختلفة ، فإن لم تكن للعرب حُجَّة ، فلغَيْرهم الحُجَّة. قُلْت : لا يَخلو إمَّا أن يَنزِل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نُزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تَنُوب عن ذلك وتكفي التطويل، فَتَعَيَّنَ أن ينزل بلسان واحد ، وكان لسان قَومه أوْلَى بالتَّعيين ، لأنهم أقرب إلَيه ، ولأنه أبعد مِن التَّحريف والتَّبديل)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٣٤) : ((ثُمَّ لمَّا مَنَّ على المُكلَّفين بإنزال الكِتاب وإرسال الرسول، ذَكَرَ مِن كَمال تِلك النِّعمة أن ذلك المُرسَل بلسان قَومه، فقال : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، أي : مُتَلَبِّسًا بلسانهم ، مُتَكَلِّمًا بلُغتهم ، لأنَّه إذا كان كذلك ، فَهِمَ عنه المُرسَل إلَيهم ما يَقوله لهم ، وسَهُلَ عليهم ذلك ، بخِلاف ما لَوْ كان بلِسان غَيرهم ، فإنهم لا يَدْرُون ما يَقول ، ولا يَفهمون ما يُخاطبهم به ، حتى يتعلَّموا ذلك اللسان دَهْرًا طويلًا ، ومعَ ذلك فلا بُد أن يَصعُب عليه فَهْم ذلك بعض صعوبة ، ولهذا علَّل سُبحانَه ما

امتنَّ به على العباد بقَوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ، أي : لِيُوَضِّحَ لهم ما أمَرَهم اللهُ به مِن الشريعة التي شرَعَهَا لهم . ووحَّد اللسانَ ، لأن المُراد بها اللغة . وقد قِيل: في هذه الآية إشكال لأنَّ النبيَّ ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس جميعًا ، بَل إلى الجِن والإنس ، ولُغاتهم مُتباينة ، وألسنتهم مُختلفة . وأُجِيبَ بأنه وإنْ كان ﷺ مُرْسَلًا إلى الثَّقَلَيْن كما مَرَّ ، لكن لمَّا كان قَومه العرب ، وكانوا أخص به ، وأقرب إليه، كان إرساله بلِسانهم أوْلَى مِن إرساله بلِسان غَيْرهم ، وهُم يُبَيِّنُونه لِمَن كان على غَير لِسانهم ، ويُوضِّحونه حتى يَصِير فاهمًا له كفَهْمهم إيَّاه ، ولو نَزَلَ القُرآنُ بجميع لُغات مَن أُرْسِلَ إلَيهم ، وبيَّنه رسولُ الله لكُل قَوم بلِسانهم ، لكان ذلك مَظَنَّة للاختلاف ، وفَتْحًا لباب التنازُع ، لأن كُل أُمَّة قد تَدَّعي مِن المعاني في لِسانها ما لا يَعرفه غَيْرُها ، ورُبَّما كان ذلك أيضا مُفْضِيًا إلى التَّحريف والتَّصحيف ، بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المُتعصِّبون)) .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٠) : ((لا يستلزم أن يكون النبيُّ ﷺ أُرْسِلَ بلِسان قُرَيش فَقط لكَوْنهم قَوْمَه ، بل أُرْسِلَ بلِسان جميع العرب ، لأنَّه أُرْسِلَ إليهم كُلِّهم ، بدليل أنه خاطبَ الأعرابيَّ الذي سأله بما يَفْهَمه بعد أن نَزَلَ الوَحْيُ عليه بجواب مسألته ، فدلَّ على أنَّ الوَحْيَ كان يَنزِل عَلَيه بما يَفْهَمه السائل مِن العَرَب قُرَشِيًّا كان أو غَير قُرَشِيٍّ)) .

والنبيُّ ﷺ أُرْسِلَ إلى الإنس والجِن . وهذا لا يستلزم أن يَتقن كُلَّ اللغات ، لأن لغته ﷺ هي لغة قَومه (العربية) ، وبعد ذلك تنطلق حركةُ الترجمة . ويَجب على المُسلمين أن يَحْمِلُوا أمانةَ الدَّعوة الإسلامية ، ويَنشروها في أنحاء العَالَم ، كُلًّا حَسَب طاقته وقُدرته وإمكانياته ومَوَاهبه ، والدَّعوةُ المُحمَّدية الإسلامية مُستمرة إلى يَوم القِيامة بلا انقطاع ولا تَوَقُّف .

وقال الجاحظ في البَيان والتَّبيين (ص ٢١) : ((قال تباركَ وتعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ، لأنَّ مَدَارَ الأمر على البيان والتَّبيين ، وعلى الإفهام والتَّفهيم ، وكُلَّما كان اللسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ ، كما أنَّه كُلَّما كان القلبُ أشدَّ استبانة ، كان أحْمَدَ ، والمُفَهِّم لَكَ والمُتَفَهِّم عَنْكَ شريكان في الفَضْل ، إلا أنَّ المُفَهِّم أفضل مِن المُتَفَهِّم ، وكذلك المُعلِّم والمُتعلِّم)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : ((إنَّ اللهَ فَضَّلَ مُحمَّدًا ﷺ على أهل السماء ، وفضَّله على أهل الأرض)) . قالوا : يا ابن عباس ، فَبِما فضَّله اللهُ على أهل السماء ؟ ، قال : ((قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنهُم إنِّي إلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزي الظالمين﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال لمُحمَّد ﷺ : ﴿ إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِن

ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ﴾ _ الآية _)) . قالوا : فَبِما فضَّله اللهُ على أهل الأرض ؟ ، قال : ((إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقول : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رسول إلا بلسان قَوْمه ﴾ _ الآية _ . وقال لمُحمَّد ﷺ : ﴿ وما أرسلناكَ إلا كافَّةً للناسِ بشيرًا ونذيرًا ﴾ [سَبَأ : ٢٨] ، فأرْسَلَه إلى الجِن والإنس)) [١٨١].

إنَّ اللهَ غَفَرَ للنبيِّ مُحمَّد ﷺ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبه وما تأخَّرَ ، وهذه خاصية للنبيِّ مُحمَّد ﷺ ، يتميَّز بها عن باقي الأنبياء الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ ، كما أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو النبيُّ الوحيد الذي بُعِثَ للناسِ جميعًا (العَرَب والعَجَم) ، بَل أيضًا بُعِثَ إلى الإنس والجِن . وهاتان الميِّزتان تُشيران بوضوح إلى عَظَمَة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وتميُّزه ، وأفضليته على سائر المخلوقات ، فهو أفضل مِن الملائكة (أهل السماء) ، وأفضل مِن الأنبياء (أهل الأرض). وهو أعظم مَخلوق خَلَقَه اللهُ تعالى ، وأحب خَلْق الله إلَيه ، وأعبدهم ، وأتقاهم ، وأكثرهم إخلاصًا ، وأعظمهم إيمانًا .

١٣_ هُم بَشَر يُوحَى إلَيهم

قالَ اللهُ تعالى:﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم فَاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ [الأنبياء : ٧] [١٨٢].

وما بَعَثَ اللهُ قَبْلَكَ يا مُحمَّد إلا رُسُلًا مِن البشر ، لا مَلائكة ، يُوحِي إلَيهم بواسطة المَلَك الشرائعَ والأحكامَ وبعضَ الأُمور الغَيْبِيَّة . فكيفَ يُنكِر المُشركون رسالتك يا مُحمَّد لأنَّكَ رَجُل مِن البَشَر ؟ . إنَّ جَميع الرُّسُل كانوا مِثْلَكَ يا مُحمَّد مِن البَشَر ، إلا أنَّهُم يُوحَى إلَيهم .

---

١٨١ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨١) برقم (٣٣٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٨٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٤٩و٤٥٠): ((... ، فاسألوا يا معشر المشركين أهلَ الذِّكْر ، وفيهم أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل التَّوراة والإنجيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أهل التَّوراة، قاله مجاهد. والثالث أهل القُرآن، قاله ابن زيد. والرابع العلماء بأخبار مَن سَلَفَ، ذَكَرَه الماوردي . وفي قَوله تعالى : ﴿ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ قَولان : أحدهما لا تَعْلَمُون أن الله تعالى بَعَثَ رَسُولًا مِن البَشر . والثاني لا تَعْلَمُون أن محمدًا رسول الله . فعلى القَول الأوَّل جائز أن يُسأل مَن آمنَ برسول الله ومَن كَفَر ، لأن أهل الكتاب والعِلْم بالسِّيَر مُتَّفقون على أن الأنبياء كُلَّهم مِن البشر . وعلى الثاني إنما يُسأل مَن آمنَ مِن أهل الكتاب . وقد رُوِيَ عن مجاهد : ﴿ فَاسْألُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ ، قال : عبد الله بن سلام . وعن قَتادة قال : سلمان الفارسي)) .

فاسألوا يا أهلَ مَكَّة عُلَماءَ اليَهُود والنصارى (أهل التَّوراة والإنجيل) ، هل كان الرُّسُل الذين جاؤوهم بَشَرًا أم مَلائكة ؟ ، إن كُنتم لا تَعْلَمُون ذلك .

وعلماءُ اليهودِ والنصارى يَعْلَمُون هذه الحقيقة ، ولا يُنكِرونها . وهذا يعني أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيس بِدْعًا مِن الرُّسُل ، ولم يجئ بشيء غريب أو شاذ ، كما أنَّ ما أُوحِيَ إلى مُحمَّد ﷺ لا يُعَارِض ما أُوحِيَ إلى الرُّسُل مِن قَبْله. وجميعُ الرُّسُل كانوا رِجَالًا يَنتمون إلى الجِنس البشريِّ ، ولَيسوا مَلائكة.

وقد أمرَ اللهُ المُشركين بسؤال علماء أهل الكِتاب _ مَعَ أنَّهُم يُنكِرون نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ _ ، لأنَّ المُشركين إلى تَصديق الكافرين بالنبيِّ ﷺ أقرب مِنهُم إلى تَصديق المؤمنين به . وأيضًا ، لقد كانَ المُشركون يُشاورون أهلَ الكتاب في أمر النبيِّ ﷺ ، ويَثِقون بكلامهم ، ويأخذون برأيهم ، وهذا يُفيد الإلزام ، وإقامة الحُجَّة على المُشركين ، وإزالة شُبهتهم . كما أنَّ إخبار العدد الكثير مِن الناس يُوجِب العِلْم ، وإن كانوا كُفَّارًا .

لقد كانَ الرُّسُلُ بَشَرًا، وهذا فضل ونِعمة مِن الله على الناس، إذْ بَعَثَ فِيهُم رُسُلًا مِنهُم(مِن جِنسهم) ، كَي يتمكَّنوا مِن الأخذ عنهم ، والتعامل معهم ، بلا حواجز ، ولا عوائق .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : وما أرْسَلْنا يا مُحمَّد رَسُولًا إلى أُمَّة مِن الأُمم التي خَلَتْ مِن قَبْل أُمَّتك إلا رجالًا مِثْلَهُم ، نُوحِي إليهم ما نُريد أن نُوحِيَه إلَيهم ، مِن أمْرِنا ونَهْيِنا ، لا ملائكة . فماذا أنكَروا مِن إرسالنا لَكَ إلَيهم وأنتَ رَجُل كسائر الرُّسُل الذين قَبْلك إلى أُمَمهم . وقَوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ . يقول للقائلين لمُحمَّد ﷺ في تَناجيهم بَيْنَهم : هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ، فإن أنكرتم وجَهِلْتُم أمرَ الرُّسُل الذين كانوا مِن قَبْل مُحمَّد ، فلم تَعْلَمُوا أيُّها القَوم أمْرَهم ، إنسًا كانوا أم ملائكة ، فاسألوا أهل الكُتب مِن التَّوراة والإنجيل ما كانوا يُخبروكم عَنهُم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم ﴾ . هَذا رَد عَلَيهم في قَولهم : ﴿ هَل هَذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ [الأنبياء : ٣] ، وتأنيس لِنَبِيِّه ﷺ . أي : لَم يُرسَل قَبْلَك إلا رِجَالًا ، ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ . يُريد أهلَ التَّوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ، قاله سُفيان. وسمَّاهم أهلَ الذِّكْر، لأنهم كانوا يَذْكُرون خَبَرَ الأنبياء مِمَّا لَم تَعْرِفْه العربُ،وكان كُفَّار قُرَيش يُراجعون أهلَ الكِتاب في أمر مُحمَّدﷺ وقال ابن زَيد : أراد بالذِّكْر القُرآن ، أي : فاسألوا المُؤمنين العَالِمين مِن أهل القُرآن . قال جابر الجُعفي : لمَّا نَزلت هذه الآية ، قال عليٌّ رضي اللهُ عنه : نَحْنُ أهل الذِّكْر . وقد ثبت بالتواتر أن

الرُّسُل كانوا مِن البَشَر ، فالمعنى : لا تَبدؤوا بالإنكار ، وبقَولكم : يَنبغي أن يَكون الرَّسول مِن الملائكة ، بَل نَاظِرُوا المؤمنين لِيُبَيِّنُوا لكم جَواز أن يَكون الرسول مِن البَشَر . والمَلَكُ لا يُسمَّى رَجُلًا ، لأن الرَّجُل يَقع على ما له ضِد مِن لَفْظه ، تقول : رَجُل وامرأة ، ورَجُل وصبي. فقَوله: ﴿ إلا رِجَالًا ﴾ مِن بَني آدم ... ﴿ نُوحِي إلَيْهِم ﴾ . مسألة : لَم يختلف العُلماء أن العامَّة عليها تقليد عُلمائها،وأنَّهُم المُراد بقَول الله عَزَّ وَجَلَّ:﴿ فَاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾[النَّحْل: ٤٣]. وأجْمَعُوا على أن الأعمى لا بُد له مِن تَقليد غَيْرِه مِمَّن يثق بمَيزه بالقِبلة إذا أُشكِلَتْ عَلَيه ، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَر ، بمعنى ما يَدين به ، لا بُد له مِن تَقليد عَالِمه ، وكذلك لَم يختلف العلماءُ أنَّ العامَّة لا يجوز لها الفُتيا لجَهْلها بالمعاني التي مِنها يَجوز التَّحليل والتحريم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٤) : ((يقول تعالى رادًّا على مَن أنكرَ بَعثةَ الرُّسُل مِن البشر : ﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم ﴾ ، أي : جَميع الرُّسُل الذين تَقَدَّمُوا كانوا رِجالًا مِن البَشَر ، لم يكن فيهم أحد مِن المَلائكة ، كما قال في الآية الأُخرى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم مِن أهْلِ القُرَى ﴾[يُوسُف : ١٠٩] . وقال تعالى : ﴿ قُل ما كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف : ٩] . وقال تعالى حِكايةً عمَّن تَقَدَّمَ مِن الأُمم ، لأنهم أنكَروا ذلك، فقالوا: ﴿ أبَشَرٌ يَهْدُوننا ﴾[التَّغابُن : ٦]. ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ أي : اسألوا أهلَ العِلْم مِن الأُمَم كاليَهود والنَّصارى وسائر الطوائف : هل كان الرُّسُل الذين أَتَوْهُم بَشَرًا أو مَلائكة ؟ ، وإنَّما كانوا بَشَرًا ، وذلك مِن تَمَام نِعمة الله على خَلْقه ، إذْ بَعَثَ فِيهِم رُسُلًا مِنهُم يتمكَّنون مِن تناوُل البَلاغ مِنهُم ، والأخذ عَنهُم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما جَعَلْنَاهُم جَسَدًا لا يَأكُلُونَ الطَّعَامَ وما كانوا خالدين ﴾[الأنبياء: ٨].

وما جَعَلَ اللهُ الرُّسُلَ الذين أوْحَى إلَيهم ، وأرسلهم إلى الأُمَم الماضية قبل الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، أجسادًا لا يَأكلون ولا يَشربون كالمَلائكة ، بل هُم مِثل باقي البَشَر ، يَأكلون ، ويَشربون ، ويَدخلون الأسواقَ . وما كانوا مُخلَّدين في الدُّنيا ، بَل كانوا يَعيشون ثُمَّ يَموتون ، كما يَموت غَيْرُهم مِن البَشَر.والجَسَدُ جِسْمُ الإنسان،ولم يَقُل: أجسادًا، لأنَّ ﴿ جَسَدًا ﴾ اسم الجِنس.

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وما جَعَلْنا الرُّسُلَ الذين أرْسَلْناهم مِن قَبْلِك يا مُحمَّد إلى الأُمَم الماضية قبل أُمَّتك ﴿ جَسَدًا لا يَأكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾. يقول: لَم نَجْعَلْهم ملائكةً لا يَأكلون الطعام ، ولكن جَعَلْناهم أجسادًا مِثْلَكَ يَأكلون الطعامَ ... وقال: ﴿ وما جَعَلْنَاهُم جَسَدًا ﴾ فَوَحَّدَ الجَسَدَ ، وجَعَلَه مُوَحَّدًا ، وهو مِن صِفة الجَمَاعة ، وإنَّما جاز ذلك لأن الجَسَد

بمعنى المَصْدَر، كَمَا يُقال في الكلام: وما جَعَلْناهم خَلْقًا لا يَأكلون. وقَوله: ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ يقول : ولا كانوا أربابًا لا يَمُوتون ، ولا يَفْنُون ، ولَكِنَّهم كانوا بَشَرًا أجسادًا فماتوا)) اهـ . وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥/ ٣٤١) : ((قَوله تعالى: ﴿ وما جَعَلْنَاهُم ﴾ يَعني الرُّسُل ﴿ جَسَدًا ﴾ قال الفَرَّاء : لَم يَقُلْ : أجسادًا ، لأنَّه اسم الجِنس. قال مُجاهد : وما جَعَلْناهم جسدًا لَيْسَ فِيهِم رُوح . قال ابن قُتَيبة : ما جَعَلْنا الأنبياءَ قَبْلَه أجسادًا لا تأكل الطعام، ولا تموت،فنجعله كذلك. قال المُبَرِّد وثعلب جميعًا: العرب إذا جاءت بين الكلام بجَحْدَيْن كان الكلام إخبارًا، فمعنى الآية: إنَّما جَعَلْناهم جسدًا ليَأكلوا الطعامَ. قال قَتادة: المعنى: وما جَعَلْناهم جسدًا إلا ليَأكلوا الطعامَ)) .

١٤_ لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوٌّ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام : ١١٢] [١٨٣].

في هذه الآية دعمٌ للنبيِّ ﷺ ، وتَسْلية له . فكما جَعل اللهُ للنبيِّ ﷺ أعداءً يُبارزونه بالعداوة العَملية والقَوْلية، جَعل _سُبحانَه وتعالى_ أعداءً مِن الإنس والجِن لكل الأنبياء_ عليهم السلام _. وهذا يدل على أن عداوة الكافرين للأنبياء بِفِعْل الله وخَلْقِه . وهؤلاء شياطين يُوَسْوِس بعضُهم لبعض _ بشكل خفيٍّ _ بالكلام المُزيَّن المَعسول ، كَي يَخدعوا الناسَ ، ويُغرُوهم ، ويُضِلُّوهم .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٧١) : ((إنَّ شياطين الجِن الذين هُم مِن جُند إبليس ، يُوحُون إلى كُفَّار الإنس ومَرَدَتهم ، فَيُغرونهم بالمؤمنين . وزُخْرُف القَوْل : باطله الذي زُيِّنَ وَوُشِّيَ بالكذب . والمعنى أنهم يُزيِّنون لهم الأعمال القبيحة غُرورًا)) .

---

١٨٣ في تفسير ابن كثير (١/ ١٦) : ((وقال سِيبَوَيْه : العرب تقول : تَشَيْطَنَ فُلان ، إذا فَعل فِعل الشياطين . ولو كان مِن شاط لقالوا : تشيَّط . فالشَّيطان مُشتق مِن البُعد ، على الصحيح . ولهذا يُسَمُّون كُل مَن تمرَّد مِن جِنِّي وإنسي وحيوان شيطانًا)) اهـ.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٠٨): ((وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال : أحدها أنهم مَرَدَة الإنس والجِن ، قاله الحسن وقَتادة . والثاني أن شياطين الإنس الذين مع الإنس ، وشياطين الجِن الذين مع الجِن ، قاله عِكْرمة والسُّدي . والثالث أن شياطين الإنس والجِن كُفَّارهم ، قاله مجاهد)) .

وقد قدَّم اللهُ ذِكْرَ الإنس على الجِن، لأن شياطين الإنس أشد خطورةً، لأنهم منتشرون بين الناس ، ويتم الاحتكاك بهم على الدوام ، ويتحركون في المجتمع طُولًا وعَرْضًا مِثل الآخرين ، ويتعاملون مع كافة الأصناف ، ويَنشرون الآثامَ والضلال في المجتمع ، ولا يُميِّزون بين فرد وفرد ، أو جماعة وجماعة . ورِفاقُ السُّوء أشد خطرًا من شياطين الجِن . ولا شَكَّ أن الإنسان يَحِنُّ إلى جِنْسه ، والنَّفْسُ البشرية تشتهي المعاصي والمُحرَّمات ، وتَميل إلى الراحة والمُتعة والانفلات .

وفي الكشَّاف للزمخشري (١/ ٣٧٤) : ((وعن مالك بن دينار : إن شَيطان الإنس أشد عليَّ من شَيطان الجِن ، لأني إذا تَعَوَّذْتُ بالله ذَهَبَ شيطان الجِن عنِّي ، وشيطان الإنس يجيئني ، فَيَجُرُّني إلى المَعاصي عِيانًا)) .

وَشَيطانُ الإنس أشدُّ خطرًا وضلالًا وسُوءًا من شيطان الجِن ، لأن شَيطان الجِن يَهْرب بقراءة القرآن عليه ، أمَّا شَيطان الإنس فقد يُفَسِّر لكَ القُرآنَ ، ويُناقِش مَعَك الطاعات والعبادات ! .

وفي تفسير القرطبي (٧/ ٦٠) : ((قال النَّحاس : ورُوِيَ عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال في قَوْل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يُوحي بعضُهم إلى بعض ﴾ قال : " معَ كُلِّ جِنِّيٍّ شَيطان ، ومعَ كُل إنسيٍّ شَيطان ، فَيَلقى أحدُهما الآخَر ، فيقول : إني قد أضللتُ صاحبي بكذا ، فأضِلَّ صاحبك بِمِثْلِه ، ويقول الآخَرُ مِثْلَ ذلك ، فهذا وَحْيُ بَعْضِهم إلى بعْض)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجرمينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هَادِيًا ونَصيرًا ﴾ [الفُرقان : ٣١] .

الآيةُ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ، واللهُ تعالى يُهيِّئ مُحَمَّدًا ﷺ نفسِيًّا من أجل الاستعداد لمواجهة الأعداء، وأخذ الحَيطة والحَذَر . لا تتفاجأ يا مُحمَّد ولا تتعجَّب ولا تستغرب ، فإنَّ اللهَ قَد جَعل لكل نبيٍّ من الأنبياء الذين يَدْعُون إلى عبادة الله وَحْدَه ، عَدُوًّا مُجْرِمًا مِن قَومه ، يُعاديه ويُحارِبه قَوْلًا وفِعْلًا . فلا تَخَفْ ولا تَقلق ، فهذه سُنَّةُ الأنبياء قَبْلك ، واصْبِرْ كما صَبروا ، فإنَّ اللهَ ناصرُك ومُؤيِّدك . ولَكَ بالأنبياء أُسْوَة حَسَنَة . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((وفيه دليل على أنَّ اللهَ خالق الشَّر . والعدوُّ يحتمل الواحد والجَمْع)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٣) : ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجرمينَ ﴾ ، أي : كما حَصل لَكَ يا مُحمَّد في قَومك مِن الذين هَجَروا القُرآنَ ، كذلك كان في الأُمَم الماضين ، لأنَّ اللهَ جَعل لكل نبيٍّ عَدُوًّا مِن المُجرمين ، يَدْعُون الناسَ إلى ضلالهم وكُفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عَدُوًّا شياطينَ الإنس والجن ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولهذا قال تعالى هَاهُنا : ﴿ وَكَفى بِرَبِّكَ هَادِيًا ونَصيرًا ﴾ أي : لِمَن اتَّبع رسولَه وآمنَ بكتابه ، وصَدَّقه ، واتَّبعه ، فإنَّ اللهَ هاديه وناصرُه في الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا ونَصيرًا ﴾ ، لأنَّ المُشركين كانوا يَصُدُّون الناسَ عن اتِّباع القرآن ، لِئَلا يَهتديَ أحدٌ به ، ولتَغلِب طريقتُهم طريقةَ القرآن ، فلهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجرمينَ ﴾ الآية)) .

١٥ـ شَهَادتهم على أُمَمهم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكونوا شُهداءَ على الناسِ ويَكونَ الرسولُ عَلَيْكم شَهيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

هذه الآية تأسيس دقيق للمنهج الوسطي بدون إفراط أو تفريط، لأن الوسط مِن كُل شيء هو المنهج العادل المتوازن الذي يُلبِّي احتياجاتِ الأفراد والجماعات باعتدال ، وتنسيق ، ومُراعاة للأحوال النَّفْسية بدون انحلال ، أو تمييع للأحكام الشرعية ، أو لَوْي أعناق النصوص .

ومن خلال هذا الفهم الوسطي يمكن تحديد معالم المنهج الإسلاميِّ في التعامل مع الأفكار والأشخاص والمجتمعات بكل إنصاف ، حيث يُعطَى كل ذي حق حَقَّه بدون إجحاف، مع بيان مواضع الصواب لدعمها والحَض عليها ، وكشف مواضع الانحراف للتحذير منها ودَحْضها .

وهذا هو الجوهر الأساسي للفكر الإسلاميِّ في التعامل مع الكِيانات الروحية ، والكِياناتِ المادية. فلم يأتِ الإسلام لتدمير المجتمع ، والقضاء على إبداعات العقل البشري . وإنما جاء لوضع الأمور في نِصابها الصحيح بدون تطرُّف. إذْ إن العقل البشري له حدود ، والمجتمع البشري له حدود . وقد جاء الإسلام لإبراز هذه الحدود ، وخطورة تجاوزها ، وبيانِ مدى الضرر الذي يترتب على وضع الأمور في غَير نِصابها الصحيح .

وكما قال الشاعر :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلا ... مُضِر كوَضْع السَّيفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

وروى التِّرمذي في سُننه (٥/٢٠٧) وصحَّحه: عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ في قَوْله: ﴿ وكذلكَ جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، قال : ((عَدْلًا)) .

والوَسَطُ هو العَدْل [184]، لأنه قيمة المعنى الفكري الدقيق ، والتأصيل الشرعي للحَيْلولة دون ممارسة التطرف ، إفراطًا أو تفريطًا . وسُمِّيَ الخِيار وَسَطًا ، لأنَّ الوسطَ محميٌّ بعكس الأطراف . وخَيرُ الأمور أوسطها ، والغُلُوُّ والتقصير مذمومان .

وقال الآمدي في الإحكام (١/ ٢٧٠) : ((ووجه الاحتجاج بالآية أنه عَدَّلهم ، وجعلهم حُجَّة على الناس في قَبول أقوالهم ، كما جَعل الرسولَ حُجَّةً عَلَيْنا في قَبول قَوْله عَلَيْنا)) .

وهذا المديح الإلهيُّ لجيل الصحابة وتعديلهم ،كشف قوة الإيمان الثابتة في نفوس هذا الجيل الذهبي الذي حمل أمانة تبليغ الوَحْي كما هو . فاستحق هذه الرُّتبة العظيمة بسبب حجم الإنجازات الخارقة في نشر الدعوة الإسلامية ، والثبات عليها .

وقال الرازي في المحصول (٤/ ٩٨) : ((وأمَّا المعنى ، فلأن الوسط حقيقة في البُعد عن الطَّرَفَيْن ، فالشيء الذي يكون بعيدًا عن طَرَفَي الإفراط والتفريط الذين هما رَدِيَّان كان مُتَوَسِّطًا فكان فضيلة ، ولهذا سُمِّيَ الفاضل في كل شيء وَسَطًا)) [185].

إنَّ قيمة الفضيلة تتمركز في موضعها الوسطي بين النقيض والنقيض. فالكَرَم ــ على سبيل المثالــ فضيلة متوسطة بين البُخل والإسراف، والشجاعة قيمة نبيلة تتوسط طَرَفَي الجُبْن والتَّهَوُّر. وهكذا ،كُل فضيلة هي تجسيد أخلاقي نبيل في منتصف الطريق .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٨) : ((يقول تعالى : إنَّما حَوَّلْنَاكُم إلى قِبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خِيار الأُمَم ، لتكونوا يوم القيامة شُهداء على الأُمم ، لأن

---

١٨٤ الدليل على هذا التعريف قول الله تعالى:﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسَبِّحون﴾[القلم: ٢٨]. وقد فسَّر الطبري ﴿ أوسطهم ﴾ : أعدلهم . ونقل هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضَّحاك [انظر تفسير الطبري ١٢/ ١٩٣]. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢١): ((قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَير وعِكْرِمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضَّحاك وقَتادة : أي أعدلهم وخَيرهم)) اهـ . وفي صحيح البخاري(٣/ ١٢١٥) أنَّ أبا سعيد الخُدْرِيَّ ــ رضي اللهُ عنهــ قد فسَّر الوَسَط بالعَدْل. اهـ. أمَّا في لغة العرب فقد قال الشاعر :

هُم وَسَطٌ يرضى الأنام بِحُكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالي بِمُعْظَمِ

١٨٥ هذا المعنى سبق أن أشار إليه أرِسْطُو (٣٨٤ ق.م ــ ٣٢٢ ق.م) الذي كان يرى أن الفضيلة هي اختيار الإنسان للحالة الوُسطى بين طرفَيْن كِلاهما رَذيلة ، وهما : الإفراط والتفريط .

الجميع مُعترفون لكم بالفضل . والوسط هَهُنا الخِيار والأجْوَد ، كما يُقال : قُرَيش أوسط العرب نَسَبًا ودارًا ، أي خَيْرها ، وكان رسول الله ﷺ وَسَطًا في قَومه ، أي أشرفهم نَسَبًا ، ومنه الصلاة الوُسطى التي هي أفضل الصلوات ، وهي العَصْر ، كما ثبت في الصِّحاح وغيرها . ولَمَّا جَعَلَ اللهُ هذه الأُمَّة وَسَطًا ، خَصَّها بأكمل الشرائع ، وأقْوَم المناهج ، وأوْضَح المذاهب)) .

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية أعظمُ الأمم وأفضلها . وهي أُمَّة الوَسَط والاعتدال بلا إفراط ، ولا تفريط ، بلا غُلُوٍّ ولا تقصير. لَم تَغْلُ غُلُوَّ النصارى الذين ألَّهوا عيسى بن مريم ، ولا قَصَّروا تقصيرَ اليهود الذين اعتبروا عيسى ابن زِنا . وإنما هي أُمَّة الاعتدال ، دِينها قائم على عبادة اللهِ وَحْدَه ، لا شريك له ، والإيمان بالأنبياء جميعًا بلا استثناء . وفي يوم القيامة ، تَشهد الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية للأنبياء بأنهم قد بَلَّغوا أقوامَهم ، ويكون النبيُّ مُحمَّد ﷺ شهيدًا على أُمَّته ، بأنهم قد فَعلوا ما أُمِرَ بتبليغه إلَيهم ، وحَملوا الإسلامَ عقيدةً ودَعوةً . أي إنَّ النبيَّ ﷺ يُعدِّلهم ويُزكِّيهم ، ويَشهد لهم بالإيمان والعِلْم والعمل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١٥٤و١٥٥) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ وكذلكَ جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . سبب نزولها أنَّ اليهود قالوا : قِبْلَتُنا قِبلة الأنبياء ، ونحن عَدْل بين الناس ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مُقاتل . والأُمَّة الجَمَاعة، والوَسَط العَدْل، قاله ابن عباس وأبو سعيد ومُجاهد وقَتادة ... وذَكَرَ ابن جرير الطبري أنَّه مِن التَّوَسُّط في الفِعْل ، فإن المسلمين لَم يُقصِّروا في دِينهم كاليهود ، فإنهم قَتلوا الأنبياءَ ، وبَدَّلوا كتابَ الله ، ولَم يَغلُوا كالنصارى فإنهم زعموا أنَّ عيسى ابن الله . وقال أبو سليمان الدمشقي: في هذا الكلام مَحذوف، ومعناه: جَعَلْتُ قِبلتكم وَسَطًا بين القِبْلَتَيْن ، فإنَّ اليهود يُصَلُّون نحو المغرب ، والنصارى نحو المشرق ، وأنتم بينهما)) .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٥): عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ_ رضي اللهُ عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُجاءُ بِنُوحٍ يوم القيامة ، فيقال له : هل بَلَّغْتَ ؟ ، فيقول : نعم يا رَب ، فتُسأل أُمَّته : هل بَلَّغكم ؟ ، فيقولون : ما جاءنا مِن نذير، فيقول : مَن شُهودك ؟ ، فيقول : مُحمَّد وأُمَّته، فَيُجاء بكم فتَشهَدون))، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ((﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾)) .

هذه الشَّهادة الأُخروية تدل على مكانة النبيِّ مُحمَّد ﷺ وأُمَّته ، حيث تُقرِّر مصيرَ هذه الأُمَّة الغابرة التي افترت على رسولها نُوح ﷺ الذي قضى حياته في الدعوة إلى الله تعالى بكل إخلاص وكفاءة . لكن قَومه لَم يُقدِّروا هذه الجهود الخارقة ، وإنما واصلوا مسلسل غطرستهم وعنادهم

وكذبهم في الآخِرة ، ظَنًّا منهم أن حِيلتهم تنطلي على اللهِ عَالِمِ السِّر والعلانية ، وتمر الأمور بكل سلاسة ، ويَنجُون بِفِعلتهم . لكن هذا لَم يحصل . و((إنما طلب اللهُ مِن نُوح شُهداء على تبليغه الرسالة أُمَّتَه _ وهو أعْلَم _ إقامةً للحُجَّة، ولمَنْزلة أكابر هذه الأُمَّة . فيقول : مُحمَّد وأُمَّته . المعنى: إنَّ أُمَّته شُهداء ، وهو مُزَكٍّ لهم ، وقُدِّم (مُحمَّد) في الذِّكْر للتعظيم ، ولا بُعْدَ أنه ﷺ يَشهَد لِنُوح _ عليه السلام _ أيضًا لأنه مَحَلُّ النُّصرة)) [١٨٦] .

وفي مُسند أحمد (٣/ ٥٨) : عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال : قال رسولُ الله ﷺ: ((يَجِيءُ النبيُّ يوم القيامة ومعه الرَّجل ، والنبيُّ ومعه الرَّجُلان وأكثر من ذلك ، فَيُدْعَى قَوْمُه ، فَيُقال لهم : هل بَلَّغكم هذا ؟، فَيَقولون: لا، فَيُقال له: هل بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟، فيقول: نعم، فَيُقال له: مَن يَشهد لَكَ ؟، فيقول: مُحمَّد وأُمَّتُه، فَيُدْعَى مُحمَّد وأُمَّتُه ، فيقال لهم : هل بَلَّغَ هذا قَوْمَه ؟ ، فيقولون : نعم، فَيُقال: وما عِلْمُكم؟،فيقولون: جاءنا نَبِيُّنا فأخْبَرَنَا أنَّ الرُّسُل قد بَلَّغوا،فذلك قَوْله: ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطًا ﴾ ، قال : يَقول : عَدْلًا ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾)) .

لقد بذل الأنبياءُ _ عليهم الصلاة والسلام _ قُصارى جُهدهم في نشر الدعوة الإسلامية ، ومعَ هذا، هناك أنبياء أتباعُهم قِلَّة قليلة، وهذا ليس تقصيرًا من الأنبياء ، وإنما تقصير من أقوامهم. فالأنبياءُ يَمتازون بالبلاغة والفصاحة وحُسن البَيان ، ويَمتلكون القُدرة على التأثير الاجتماعي ، وتقديم الحُجَج والبراهين . ولكنَّ كثيرًا من الناس اختاروا الكُفرَ والعِنادَ والجهلَ والظلامَ .

ويُدعَى قَوْمُ النبيِّ ، ويتمُّ سُؤالهم : هَل بَلَّغكم هذا النبيُّ ؟ ، فَيُنكِرون أن يَكون قد بَلَّغهم ، وهو الذي قَضى حياته في دَعوتهم . وهذا يدل على وقاحتهم وعِنادهم واستكبارهم وجهلهم . ويَسأل اللهُ النبيَّ : هل بَلَّغْتَ قَوْمَك ؟ ، فَيُجيب بالإيجاب ، ويأمره اللهُ بإحضار شُهود على تبليغه الدَّعوة . ويَشهد له مُحمَّد ﷺ وأُمَّتُه ، ويُصدِّقونه ، ويُدافعون عنه . ويسأل اللهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية : كيفَ عَلِمْتُم أنَّه قَد بَلَّغَ قَوْمَه مَعَ أنَّكم لَم تُشاهدوا ذلك ، وبينكم وبينهم مُدَّة زَمنية طويلة ؟ . فتقول الأُمَّة المُحمَّدية : إنَّ نَبِيَّنا مُحَمَّدًا ﷺ قد أخْبَرَنا بذلك ، ونحن آمَنَّا بِه وصَدَّقْنا بكلامه .

وهذا يدل على الشرف العظيم للأُمَّة المُحمَّدية ، ومكانتها الجليلة ، وكَوْنها أعظم الأمم . وقد حصلت على هذه المنْزلة الرفيعة ببركة نَبِيِّها مُحمَّد ﷺ الذي أخرجها مِن الظُّلمات إلى النُّور بإذن

---

١٨٦ شرح سُنن ابن ماجة (١/ ٣١٧) ، السُّيوطي وآخرون .

الله تعالى . وبما أنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو أعظم الأنبياء ، كانت أُمَّتُه أعظم الأمم ، وقد استمدَّت شَرَفَها مِن شَرَفِه . وهي السائرة على خُطاه ، والحاملة لميراث النُّبُوَّة ، والناشرة لِدَعوته الإسلامية . والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي آخِر الأُمَم مِن الناحية الزَّمنية ، لكنَّها أوَّل الأمم مِن ناحية الفضل والشرف والرِّفعة . فهي الأُمَّة الوسطُ العادلة المُنصِفة التي تَشهد على الأُمم .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٥٨٥) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((نَحْنُ الآخِرُون الأوَّلون يوم القيامة)) .

هذا دليلٌ على أنَّه لا يَشْهَد إلا العُدُول الأخيار. ولا تُقبَل شهادة أحد إلا إذا كان عَدْلًا . والآيةُ دليلٌ على أنَّ الإجماع حُجَّة مُقدَّسة واجبة مَعصومة ، ولا يَجوز خَرْقُه ، وَلَوْ كان اتِّفاقُهم على شَيء باطلًا أو انحرافًا عن الحق ، لَسَقَطَتْ عَدالتهم . وبما أنَّهم عُدول بِحُكْم اللهِ ، إذن ، إجماعُهم واتِّفاقُهم حُجَّة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٨) : ((وفيه دليل على صِحَّة الإجماع ووُجوب الحُكم به، لأنهم إذا كانوا عُدولًا شَهِدوا على الناس ، فَكُل عصر شهيد على مَن بعده ، فقول الصحابة حُجَّة وشاهد على التابعين ، وقول التابعين على مَن بعدهم ، وإذْ جُعلت الأُمَّة شُهداء فقد وَجب قَبول قَولهم ، ولا معنى لِقَول مَن قال : أُريد به جميع الأُمَّة ، لأنه حينئذ لا يَثبُت مُجْمَع عليه إلى قِيام الساعة ، وبيان هذا في كُتب أُصول الفِقه)) .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : كُنتُ مع رسول الله ﷺ في جِنازة فِينا في بني سَلَمَة ، وأنا أمشي إلى جَنْب رسول الله ﷺ ، فقال رَجل : نِعْمَ المَرْءُ ما عَلِمْنا ، إنْ كَانَ لَعَفيفًا مُسْلِمًا، إن كان . فقال رسول الله ﷺ : ((أنتَ الذي تقول؟))، قال: يا رسول الله ، ذاك بدا لنا ، والله أعلمُ بالسرائر ، فقال رسول الله ﷺ : ((وَجَبَتْ)) . قال: وَكُنَّا معه في جِنازة رَجل مِن بني حارثة أو من بني عبد الأشْهَل ، فقال رَجل : بِئْسَ المَرْءُ ما عَلِمْنا ، إنْ كان لَفَظًّا غليظًا، إن كان. فقال رسول الله ﷺ: ((أنتَ الذي تقول؟)) ، قال:يا رسول الله، اللهُ أعلم بالسرائر،فأمَّا الذي بدا لنا مِنه فذاك، فقال رسول اللهﷺ: ((وَجَبَتْ))، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ: ((﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾)) [١٨٧].

---

١٨٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦١) وقال : ((هذا حديث صحيح الإسناد ، ولَم يُخرجاه، إنما اتَّفقا على " وَجَبَتْ " فقط)) اهـ . وقال الذهبي عن أحد رُواة الحديث " مصعب ابن ثابت ": ((مصعب ليس بالقويِّ)) .

وعن أنس بن مالك _ رضي اللهُ عنه_ قال: مَرُّوا بِجنازةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيها خَيْرًا ، فقال النبيُّ ﷺ : ((وَجَبَتْ)) . ثُمَّ مَرُّوا بأُخرى فَأَثْنَوْا عَلَيها شَرًّا ، فقال : ((وَجَبَتْ)) ، فقال عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ : ما وَجَبَتْ ؟. قال: ((هذا أَثْنَيْتُم عَلَيه خَيْرًا ، فَوَجَبَتْ له الجنة ، وهذا أَثْنَيْتُم عَلَيه شَرًّا ، فَوَجَبَتْ له النار ، أنتُم شُهداءُ اللهِ في الأرض)) [١٨٨].

الجِنازةُ الأُولَى وَصَفُوها بالخَير ، والجِنازةُ الثانيةُ وَصَفُوها بالشَّر ، فَقَبِلَ اللهُ قَوْلَهم في حَق مَن شَهِدوا له ومَن شَهدوا عَلَيه. وشهادتُهم مَقبولةٌ عند اللهِ تعالى ، لأنَّهم مؤمنون مُخلِصون صادقون أتقياء، يُطلِقون أحكامَهم استنادًا إلى أحكام الشريعة، ولَيس وَفْق أهوائهم أو مصالحهم الشخصية. وهذا دليلٌ على أنهم عُدُول ، والعُدُولُ وَحْدَهم تُقْبَل شَهَادتهم ، وغَير العُدول شهادتهم مرفوضة .

ومعنى قَول النبيِّ ﷺ : ((وَجَبَتْ)) ، يعني طَابَقَ الثناءُ الواقعَ . وكما قِيل : ألسنةُ الخَلْق أقلامُ الحق. والإضافةُ في" شُهداء اللهِ " للتَّشريف وبيان مَنْزلتهم الرفيعة. والأحكامُ التي يُطلِقها النبيُّ ﷺ أحكامٌ إلهية ، ولَيست مِن تِلقاء نَفْسِه . وهذه تَزكية ومَدْح للأُمَّة بعد أداء شهادتهم .

وهذا لا يعني أنَّ الصحابة يُحدِّدون مَن يَذهب إلى الجَنَّة ومَن يَذهب إلى النار ، وإنما المعنى أنَّ الذي وصفوه بالخير، رَأَوْا مِنه علامة الإيمان والصلاح والتقوى، وهذا يدل على أنه مِن أهل الجَنَّة. أمَّا مَن وصفوه بالشَّر فَرَأَوْا مِنهُ علامة النِّفاق أو الفِسْق أو البِدعة ، وهذا يدل على أنه مِن أهل النار . وهذه الشَّهادة غَير خاصَّة بالصحابة ، وإنما تشمل المؤمنين الصادقين الأتقياء في كُل زمان ومكان . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٣١) : ((ونقل الطيبي عن بعض شُرَّاح المصابيح قال : ليس معنى قَوله : " أنتُم شهداء الله في الأرض " أن الذي يقولونه في حق شخص يكون كذلك، حتى يَصير مَن يستحق الجَنَّة من أهل النار بِقَولهم ولا العكس ، بل معناه أنَّ الذي أثْنَوْا عليه خيرًا رَأَوْهُ مِنه ، كان ذلك علامة كَونه من أهل الجنة وبالعكس، وتَعَقَّبه الطيبي بأن قَوله : " وَجَبَتْ " بعد الثناء حُكْم عَقَّبَ وَصفًا مُناسبًا فأشعرَ بالعَلِيَّة ، وكذا قَوله : " أنتم شهداء الله في الأرض " ، لأن الإضافة فيه للتشريف ، لأنهم بمَنْزلة عالية عند الله ، فهو كالتزكية للأُمَّة بعد أداء شهادتهم ، فينبغي أن يكون لها أثَر . قال : وإلى هذا يُومِئ قَوْلُه تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطًا ﴾ الآية ...)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٩و٢٠): ((وأمَّا مَعناه فَفِيه قَولان للعلماء أحدهما أن هذا الثناء بالخير لِمَن أثنى عَلَيه أهلُ الفضل ، فكان ثناؤهم

---

١٨٨ متفق عليه. واللفظ للبخاري (١/ ٤٦٠) برقم (١٣٠١). ومسلم (٢/ ٦٥٥) برقم (٩٤٩) .

مُطابِقًا لأفعاله، فيكون مِن أهل الجنة، فإن لَم يكن كذلك فليس هو مُرادًا بالحديث. والثاني وهو الصحيح المختار أنه على عُمومه وإطلاقه ، وأن كُل مسلم مات ، فألهمَ اللهُ تعالى الناسَ أو معظمهم الثناء عليه ، كان ذلك دليلًا على أنَّه مِن أهل الجنة ، سَواءٌ كانت أفعالُه تقتضي ذلك أَم لا ، وإن لَم تكن أفعاله تقتضيه فلا تُحتَّم عليه العقوبة ، بل هو في خطر المشيئة، فإذا ألهمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الناسَ الثناءَ عليه ، استدللنا بذلك على أنَّه سُبحانَه وتعالى قد شاء المغفرةَ له، وبهذا تظهر فائدة الثناء... وقَوْلُه ﷺ : " وَجَبَتْ" و " أنتُم شُهداء الله ". وَلَوْ كان لا يَنفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه لَم يكن للثناء فائدة ، وقد أثبتَ النبيُّ ﷺ له فائدة. فإن قِيل : كيف مُكِّنُوا بالثناء بالشَّر مع الحديث الصحيح في البخاري وغَيره في النَّهْي عن سَبِّ الأموات ، فالجواب أنَّ النَّهْي عن سَب الأموات هو في غَير المُنافق وسائر الكُفَّار ، وفي غَير المُتظاهر بِفِسْق أو بِدْعة، فأمَّا هؤلاء فلا يَحْرُم ذِكْرُهم بِشَر للتحذير من طريقتهم ومن الاقتداء بآثارهم والتَّخَلُّق بأخلاقهم . وهذا الحديث محمول على أن الذي أثْنَوْا عليه شَرًّا كان مشهورًا بِنفاق أو نَحْوه مِمَّا ذَكَرْنا. هذا هو الصواب في الجواب عنه، وفي الجَمْع بَيْنَه وبَيْن النَّهْي عن السَّب)) اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير(٣/ ٥١) : (((أنتم شهداء الله في الأرض) ﴿ وكذلكَ جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكونوا شُهداءَ على الناسِ ﴾ ، فَهُم عُدول بتعديل الله لهم ، فإذا شَهِدُوا على إنسان بصلاح أو فساد ، قَبِلَ اللهُ شهادتهم ، وتَجاوزَ عَن مَن يستحق العذاب في عِلْمه فَضْلًا وكَرَمًا لأوليائه . قال القاضي: والشُّهَداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشَّهادة ، أو الناصر والإمام ، كأنه سُمِّيَ به لأنه يَحضُر النوادي، ويُبْرَم بحضرته الأمور، إذ التركيب للحضور إمَّا بالذات أو التَّصَوُّر . ومِنهُ قِيل للمقتول في سبيل الله شهيد، لأنه حَضَرَ ما كان يَرجوه، أو الملائكة حُضوره(والملائكة شُهداء الله في السماء). قال الطيبي:الإضافة للتشريف وأنهم بمكان ومَنْزلة عالية عند الله ، كما أنَّ الملائكة كذلك . وهذا تزكية مِن المُصطفى ﷺ لأُمَّته ، وإظهار مُعَدَّاتهم ، وأن الله يَقبل شهادتهم ويُصدِّق ظُنونَهم إكرامًا وتفضيلًا. وقال الفخر الرازي : لَمَّا جَعل المؤمنين شُهودًا دَلَّ على أنه تعالى لا يُظهِر قُبْحَ فِعلهم يوم القيامة ، إذْ لَوْ أظهرَ ذَنْبَهم صارت شهادتهم مردودة ، وذلك لا يَليق بِحِكمة الحكيم)) .

﴿ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾. الرَّسُولُ مُحمَّد ﷺ رقيبٌ على أُمَّته، وحفيظ عليها، يَشهَد لأُمَّته بالإيمان والعِلْم والعمل ، ويُزكِّيها ، ويُدافع عنها، أو يَشهد عَلَيها بأنه قَد بَلَّغَها . وقد جُعل شاهدًا على أُمَّته ، وهذه خاصيَّة له دُون الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٥٥):((قَوْلُه تعالى:﴿ ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾ يعني مُحمَّدًا ﷺ، وبماذا يَشهَد عليهم؟، فيه ثلاثة أقوال:الأوَّل بأعمالهم، قاله ابن عباس وأبو سعيد الخُدْرِيُّ وابن زَيد. والثاني: بتبليغهم الرِّسالة، قاله قتادة ومُقاتل. والثالث: بإيمانهم ، قاله أبوالعالية. فيكون على هذا ﴿ عليكم ﴾ بمعنى: لكم. قال عِكرمة: لا يُسْأل عن هذه الأُمَّة إلا نَبِيُّها)) .

هذا الشَّرف الكبير الذي حصل عليه النبيُّ ﷺ فضل إلهيٌّ. والشَّهادة على الأُمَّة ليست مسألةً سهلة، ولا تُعطَى لأيٍّ كان. لذلك كانت المَنْزلة النبوية الرفيعة وراء تقديم هذه الشهادة التي مِن شأنها رفع أُناس، ووَضْع آخرين. والنبيُّ ﷺ لا يَملك أن يَشهَد إلا بالحَق، فقَوْله حَق ، وفِعْله حَق . ومن هنا تأتي شهادته إحقاقًا للحق ، وإنزال الناس منازلَهم اللائقة بمَستواهم صُعُودًا أو هُبُوطًا . وهذا يُشير إلى مكانة النبيِّ ﷺ كمُعلِّم ومُرشِد أعلى للأُمَّة ، يعتني بها ، ويتفقد مصالحها ، ويُحاسِب المخطئ على خطئه ، ويَدفع المُحسِن إلى الأمام . وبعد كُل ذلك يقوم بدور الشَّهادة على الأُمَّة ، لأنه قائدها الأعلى الذي تعنيه كُل صغيرة وكبيرة في الدُّنيا والآخِرة .

وليس النبيُّ ﷺ قائدًا صُوريًّا ينام في قَصْره ، ويترك الأُمَّة ضائعة في حياتها ، أو زعيمًا عسكريًّا يختبئ في غرفة العمليات، ويترك الأُمَّة تموت في المعركة من أجل إشباع غُروره ، أو صانع شعارات فارغة لا يعنيه مستقبل الأُمَّة . لقد كان ﷺ شديد الحرص على نجاة أُمَّته في الدارَيْن ، مع أنه قد ضَمِنَ أعلى درجة في الجنة ، ولَم يَقُلْ : لقد نَجَوْتُ بنفْسي ، وليكن الطوفان مِن بَعْدي . وهذا يدل على رحمته بالعَالَمِين عَامَّةً، وأُمَّته خاصَّة. وهذا هو منهاج النُّبُوَّة الناصع في أبهى صُوَره، حيث الحِرص على إنقاذ الناس، كَي ينالوا الحياة الهنيئة في الدنيا ، والسعادة الأبدية في الآخرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٥) : ((﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويَكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا ﴾ عِلَّة للجَعْل ، أي لِتَعْلَمُوا بالتَّأمُّل فيما نَصَبَ لكم مِن الحُجَج، وأنزلَ عليكم مِن الكتاب، أنَّه تعالى ما بَخِلَ على أحد وما ظَلَم، بَل أوضحَ السُّبُلَ، وأرسلَ الرُّسُلَ، فَبَلَّغوا ونَصحوا ، ولكنَّ الذين كفروا حَمَلهم الشقاء على اتِّباع الشَّهوات، والإعراض عن الآيات، فَتَشهدون بذلك على مُعاصريكم ، وعلى الذين مِن قَبْلكم أو بعدكم . رُوِيَ : [أنَّ الأُمم يوم القيامة يَجْحَدون تبليغَ الأنبياء ، فَيُطالبهم اللهُ بَبَيِّنة التبليغ _ وهو أعْلَم بهم _ إقامةً للحُجَّة على المُنكِرين ، فَيُؤتَى بأُمَّة مُحمَّد ﷺ فَيَشهدون ، فتقول الأُمم : مِن أينَ عَرَفْتُم ؟ ، فيقولون : عَلِمْنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نَبِيِّه الصادق ، فَيُؤتَى بمُحمَّد ﷺ ، فَيُسْأل عن حال أُمَّته فَيَشهد بعدالتهم])) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هَؤلاءِ شَهيدًا﴾[النِّساء: ٤١].

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع . كيفَ يَكون حال هؤلاء يوم القيامة ، وكيفَ يَصنعون حِينَ نأتي مِن كُل أُمَّة بِنَبِيِّها يَشهَد عَليها ، ونأتي بِكَ يا مُحَمَّد شاهدًا تَشهَد على أُمَّتك والأُمم السابقة ؟ . كَيْفَ يكون موقفُهم ؟ ، وماذا سَيَفعلون في ذلك اليوم العظيم ؟ . هل هُم مُعذَّبون أَم مُنَعَّمُون ؟ .

والآيةُ تُشير إلى عَظَمَة يَوم القِيامة،وهَوْلِ الموقف،فالمصيرُ إمَّا الخلود في الجنة أو الخلود في النار.وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٦١) : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عن هَوْل يوم القيامة ، وشِدَّة أمرِه وشأنه ، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يَجيء مِن كُل أُمَّة بشهيد ؟ ، يعني : الأنبياء عليهم السلام))اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٦): ((والشَّهيد نبيُّ الأُمَّة ، وبماذا يَشهَد ؟، فيه أربعة أقوال : أحدها بأنه قد بَلَّغَ أُمَّتَه ، قاله ابن مسعود وابن جُرَيج والسُّدي ومُقاتل. والثاني بإيمانهم ، قاله أبو العالية . والثالث بأعمالهم، قاله مُجاهد وقَتادة . والرابع يَشهَد لهم وعَلَيهم، قاله الزَّجاج . قَوْلُه تعالى: ﴿ وَجِئْنا بِكَ ﴾ يعني نَبِيَّنا ﷺ ، وفي ﴿ هَؤلاءِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنهم جميع أُمَّته ، ثُمَّ فيه قَولان : أحدهما أنه يَشهَد عَلَيهم، والثاني يَشهَد لهم، فتكون ﴿ عَلى ﴾ بمعنى اللام،والقول الثاني أنهم الكُفَّار يَشهَد عليهم بتبليغ الرسالة، قاله مُقاتل. والثالث اليهود والنصارى. ذَكَره الماوردي)) .

هذه الشَّهادات النبوية إنما هي لإقامة الحُجَّة على الأمم ، لأن الله تعالى لَم يَخلُق البشرَ ليَظلمهم، فقد أعطاهم الفُرصة تِلْوَ الأُخرى كَي يُصحِّحوا مسارَهم. ولو أدخل اللهُ الكافرين في جهنم مباشرة دون حساب أو إقامة حُجَّة ، أو دُون إعطائهم فرصة لإبداء وجهة نظرهم ، لَمَا استطاع أحد أن يَعترض . لَكِنَّه تعالى _ بفضلٍ مِنهُ ورحمة_ مَنَحَ البَشَرَ حُرِّيَةَ الاختيار بين الإسلام أو الكُفر، وحق تقرير مسارهم الدُّنيوي ، ومصيرهم الأُخروي ، بكل حرية ودون إجبار ، لكي يكون الفرد مسؤولًا عن أعماله أمام الله تعالى وأمام نَفْسِه . والذي زرعه الإنسان قد حَصده . وهذا نتاج حرية الإرادة الإنسانية التي تملك حق اختيار الطريق ، وتحديد طريقة المشي فيه من حيث الاستقامة أو الاعوجاج . وبالتالي فالإنسان عليه أن يتحمَّل المسؤولية كاملةً ، وألا يخترع الأعذار الواهية التي يضحك بها على نَفْسه ، أو يُعلِّق أخطاءه على شَمَّاعة الآخرين. فإن وجد خيرًا فليَحمَد اللهَ تعالى ، وإن وجد غَير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه . وعن ابن مسعود_ رضي اللهُ عنه_ قال:قال رسول الله ﷺ:((اقْرَأ عليَّ)). قال: قلتُ : أقرأ عليك وعليك أُنزِل ؟، قال: ((إني أشتهي أن أسمعه مِن غَيري)). قال: فقرأتُ النساءَ حتى إذا بَلَغْتُ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد

وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا ﴾ .قال لي : ((كُف _ أو أَمْسِكْ _)) . فرأيتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَان [189].

في هذا الحديث دَلالة واضحة تشير إلى حِرص النبيِّ ﷺ على أن يَسمع القرآنَ مِن غَيره ، لِمَا في ذلك من تأكيد انتشار القرآن في أوساط المؤمنين ، وإتقان تلاوته ، مِمَّا ينعكس إيجابًا على المجتمع المسلم داخليًّا وخارجيًّا. فالإيمان يزداد ، ويتكرس اليقين في القلوب، وينعكس ذلك الإيمان على الجوارح سلوكًا طَيِّبًا، وصورةً ظاهرية حسنة مستندة إلى عمق إيماني داخلي حقيقي. فتَنتج حياة حضارية مُتقدِّمة على كافة الأصعدة . وقد ظَهَرَ تأثيرُ القرآن واضحًا على النبيِّ ﷺ ، حيث ذَرَفَتْ عَيْناه دُموعًا تدل على عُمق تأمُّله في الآية التي سمعها، وفهمه لأبعادها والظروف المحيطة بها . وما الدموع إلا انعكاس لتأثر القلب وحرارته ، وحساسيته العالية تجاه الأحداث .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ١٩٠) : ((قال عُلماؤنا : بكاء النبيِّ ﷺ إنما كان لعظيم ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الآيةِ مِن هَول المَطْلَع وشِدَّة الأمر ، إذ يُؤتى بالأنبياء شُهداء على أُمَمِهم بالتصديق والتكذيب ، ويُؤتَى به ﷺ يوم القيامة شهيدًا . والإشارة بِقَوله : ﴿ على هؤلاء ﴾ إلى كفار قُرَيش وغَيرهم مِن الكفار ، وإنما خُصَّ كُفار قُرَيش بالذِّكر ، لأن وظيفة العذاب أشدُّ عليهم مِنها على غَيرهم ، لعِنادهم عِند رؤية المُعجزات ، وما أظهره اللهُ على يَدَيه من خوارق العادات . والمعنى فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة ﴿ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هَؤلاءِ شَهيدًا﴾ ، أَمُعَذَّبين أَمْ مُنَعَّمين ؟ ، وهذا استفهام معناه التَّوبيخ. وقيل : الإشارة إلى جميع أُمَّتِه)) .

وإذا لَم يَبْكِ الإنسان حين يَتأمَّل ويتفكَّر في آيات الله تعالى، فمتى سيبكي ؟ . فالقلب القاسي الذي لا يتأثر بكلام الله سوف تمرُّ الآياتُ عليه سريعًا، بلا تَدَبُّر ولا فهم لدَلالات الآيات . فالبكاء يَغسِل القلبَ ، ويُطهِّره من الشوائب العالقة فيه . وعن ابن أبي مُلَيكة قال : جَلَسْنا إلى عبد الله بن عَمْرو في الحِجْر ، فقال : ((ابْكُوا ، فإن لَم تَجدوا بُكاءً ، فَتَبَاكَوْا)) [190].

كان النبيُّ ﷺ شديدَ التأثر عند سَماعه القرآن ، وذلك لِعِلْمه بِعَظَمة كلام اللهِ وأهميته ، وأنَّ أمر القرآن لا يَحتمل المِزاح أو المرور العابر بلا تفكُّر . وبُكَاءُ النبيِّ ﷺ مِن خَشية الله تعالى _ وهو المَغفور له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تَأخَّرَ _ منهجٌ واضح وثابت في سِيرته العَطِرة التي انعكست على سلوك الصَّحابة والتَّابعين .

---

١٨٩ متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٩٢٧)برقم(٤٧٦٨).ومسلم(١/ ٥٥١)برقم (٨٠٠) .

١٩٠ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٦٢٢) برقم (٨٧٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن مُحَمَّد بن فَضَالة الظَّفَري _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد بني ظَفَر، فجلس على الصخرة التي في مسجد بني ظَفَر اليَوم ، ومعه عبد الله بن مسعود ، ومُعاذ ابن جبل ، وأُناس من أصحابه ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ قارئًا ، فَقَرأ حتى أتى على هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا ﴾ ، فبكى رسولُ الله ﷺ حتى اضطربَ لَحْيَاهُ، فقال : ((أيْ رَبِّ ، شَهِدْتُ على مَن أنا بين ظَهْرَيْه ، فكيفَ بِمَن لَم أرَ ؟)) [191] .

كانَ النبيُّ ﷺ حريصًا على نشر قراءة القُرآن في المجتمع ، فأمرَ قارئًا أن يَقرأ ، حتى وصل إلى هذه الآية، فتأثَّرَ النبيُّ ﷺ بِشِدَّة لأنَّه يَعرِف معنى الآية ودَلالتها . وهذا يدل على أهمية فَهْم الآيات، وليس مُجرَّد القراءة . وبكى النبيُّ ﷺ بِحُرقة حتى اضطربَ العَظْمَان اللذان فيهما الأسنان.

وهذا يدل على التأثُّر العميق ومعرفة أبعاد هذه الآية يوم القيامة. حيث يَشهَد النبيُّ ﷺ على أُمَّته بعملهم، وعملُهم قَد يَكون مُنحرِفًا ، وفِيهم الفُسَّاق والغارقون في الكبائر والآثام ، وشهادةُ النبيِّ ﷺ عليهم قَد تُؤدِّي إلى تعذيبهم،لذلك رَحِمَهم النبيُّ ﷺ.والنبيُّ ﷺ يَقول الحقَّ، ولا يَقْدِر أن يتلاعب بالشَّهادة . قال الحافظ في الفتح (٩/ ٩٩) : ((قال ابن بَطَّال : إنما بكى ﷺ عند تلاوته هذه الآية لأنه مثَّل لِنَفْسه أهوالَ يوم القيامة، وشِدَّة الحال الداعية له إلى شهادته لأُمَّته بالتصديق، وسؤاله الشَّفاعة لأهل المَوقِف ، وهو أمر يَحِقُّ له طُول البُكاء .اهـ. والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأُمَّته ، لأنه عَلِمَ أنه لا بُدَّ أن يَشهَد عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا ، فقد يُفضي إلى تعذيبهم ، والله أعلم)) .

وبُكَاءُ النبيِّ ﷺ يدل على سَعَة عِلْمه بأحوال الدُّنيا والآخِرة ، وقلبه العَطُوف المُشْفِق . وهذه النظرة النبوية الأبوية الحانية تشير إلى عُمق المعاني الإنسانية في الشخصية النبوية المُضَادَّة للأنانية ، والمُنطلقة نَحْو مُساعدة الآخرين في تنفيذ مشروع خَلاصهم ، وتَخليصهم في الدُّنيا والآخِرة . وهذا الارتباط الوثيق بين النبيِّ القائد الأب ، وبين أُمَّته يُشيع جوَّ الاطمئنان في أوساط الجماعة المسلمة التي تزداد ثقةً بِرَبِّها ونَبِيِّها ونَفْسها، في ظِل وجود مرجعية نبوية مُتَّصلة بالسماء .

وكُلُّ هذه المؤشرات تعكس مدى الترابط الأُسَري في المجتمع الإيماني الساعي إلى بناء حضارة إنسانية عظيمة ، وإعمار الأرض ، ونشر الرَّخاء والازدهار في الدُّنيا ، وأيضًا لكي يَنال المؤمنون السَّعادةَ الأبدية في الآخرة (نعيم الجَنَّة) مُكافأةً على إنجازاتهم الطَّيبة .

---

١٩١ رواه الطبراني (١٩/ ٢٤٣) برقم (٥٤٦) . وحسَّنه السيوطي في الدُّر المنثور (٢/ ٥٤١) .

سابعًا: اليوم الآخر

١ـ المَوت

أ ـ قَضاء مَحتوم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلا بإذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾[آل عِمران: ١٤٥].

كُلُّ نَفْسٍ لا تَمُوت إلا بإرادة الله ومَشيئته وقضائه وقَدَره ، الذي وَضَعَ وَقْتًا مُحَدَّدًا لخُروج الرُّوح مِن الجَسد. وهذا الوَقْتُ المُعيَّن مَوجود في عِلْمِ الله السَّابِقِ المُحِيطِ بكُل الأزمنة والأمكنة .

واللهُ كَتَبَ لكُل نفْس أجَلَها بِدِقَّة ، ووقتُ وَفَاتها مُحدَّد في الأزل ، لا يتقدَّم ، ولا يتأخَّر . ولا يَقْدِر مَخلوق على تَغييره . وإذا انقضى الأجلُ فارقت الرُّوحُ الجَسَدَ بأمر الله تعالى ، أمَّا إذا لم تَحِنْ ساعةُ الوَفَاةُ فلا يَحصُل المَوْتُ .

و﴿ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ تَوكيد . والمعنى : كَتَبَ اللهُ ذلك كِتَابًا ذَا أجَل (وَقت مَعلوم لا يتغيَّر) .

وهذه الآيةُ تشجيع على الجهاد في سبيل الله ، وترغيب في قتال الأعداء ، فالجُبْنُ لا يَزيد في العُمُر، والشجاعة لا تُنقِص مِنه، والحَذَرُ لا يَدفع القَدَرَ.والهُرُوبُ مِن المَعركة لا يَحْمِي مِن المَوت، والثبات فِيها لا يُنهي الحياةَ . وكُل إنسان مَيْت إذا انتهى أجَلُه المُحدَّد في عِلْمِ الله الأزَلِيِّ ، لذلك لا يَجوز أن يُقَال : لَو لَم يُقْتَل لعاشَ ، أوْ : لَوْ اختبأ في بَيته ولم يَذهب إلى المعركة لعاشَ .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٥٩) : ((وما يَمُوت مُحمَّد ولا غَيْرُه مِن خَلْق الله إلا بَعْد بُلوغ أجله الذي جَعَلَه اللهُ غايةً لحياته وبقائه ، فإذا بلغ ذلك مِن الأجل الذي كَتَبَه اللهُ له ، وأَذِنَ له بالمَوت ، فحِينئذ يَموت ، فأمَّا قَبْل ذلك فلن يَمُوت بكَيْد كائد ، ولا بحِيلة مُحتال)) .

هذه الحقيقة الثابتة تَبعث في نُفوس المؤمنين الطمأنينةَ ، وتُعلِّمهم الشَّجَاعَةَ وَرَبَاطَةَ الجَأش ، وتَحُضُّهم على العَمَل النافع بكل إصرار، والإقدام على التَّضحية في سبيل الله، والجهاد ، والقِتال، لأنَّ المَوت بيَد الله وَحْدَه ، لا بيَد الأعداء . وكَم مِن قائد قضى حياته في المَعارك مُقَاتِلًا ثُمَّ مات على فِرَاشه . وكَم مِن جَبَان قضى حياته هاربًا مِن المَعَارك ، لكنَّ ذلك لَم يَمنعه مِن المَوت ، وماتَ حَتْفَ أنْفِه (مِن غَير قَتْل ولا ضَرْب) . وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ١٨٢) : ((﴿ وما كانَ ﴾ وما جَازَ ﴿ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ ، أي : بعِلْمه ، أوْ بأن يَأذَن مَلَكُ المَوت في قَبض رُوحه . والمعنى أن مَوت الأنفُس مُحال أن يكون إلا بمشيئة الله . وفيه تَحريض على الجِهاد ، وتَشجيع على لِقاء العدو ، وإعلام بأن الحَذَر لا يَنفَع ، وأن أحدًا لا يَمُوت قَبْل بُلوغ أجله ، وإن

خاضَ المَهَالِك ، واقتحمَ المعارك. ﴿كِتَابًا﴾ مصدر مُؤكَّد ، لأن المعنى: كَتَبَ المَوْتَ كِتابًا ﴿مُؤَجَّلًا﴾ مُؤقَّتًا له أجل مَعلوم لا يَتقَدَّم ولا يَتَأخَّر)) .

وكما قال المتنبي :

وَلَوْ أنَّ الحياةَ تَبْقَى لِحَيٍّ ... لَعَدَدْنَا أضَلَّنا الشُّجْعَانا
وإذا لَم يَكُنْ مِن المَوتِ بُدٌّ ... فَمِنَ العَجْزِ أن تَمُوتَ جَبَانا [١٩٢]

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُل لَوْ كُنتم في بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الذينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِم ﴾ [آل عِمران : ١٥٤] .

لَوْ كان المؤمنون في بُيُوتهم آمِنين مُطمئنين، لَخَرَجَ الذين قَدَّرَ اللهُ عليهم القَتْلَ إلى مَصَارعهم، وهي الأماكن التي سَيُقْتَلُون فِيها،ولَم يُنقِذهم قُعُودُهم في بُيُوتهم، لأن قَضَاءَ الله لا يُرَدُّ، ولا مَهرَب مِنه ، وهو واقعٌ لا مَحَالة . ومَن ماتَ أو قُتِلَ ، فقد انقضى أجَلُه المُحدَّد في عِلْم الله الأزليِّ . وهذا الأجلُ لا يَتقدَّم ، ولا يتأخَّر ، ولا أحد يَستطيع تغييره .

والمَرْءُ الذي كُتِبَ عَلَيه المَوْت ، سَيَذهب إلى المَوت بِقَدَمَيْه ، لأنَّ قَضَاءَ اللهِ وقَدَرَه نافذان في كُل شيء ، ولا يُمكن رَدُّهُما ، أو تجاوزهما ، أو التَّحَايُل عَليهما . والمَرْءُ يَدُور في مَدَار مُغلَق مَركزه الجاذب هو المَوت،ولا يمكن الإفلات مِنه إطلاقًا، ولا الهروب مِنه بأيِّ شكل مِن الأشكال.

وروى الطبري في تفسيره (٣/ ٤٨٢) أن الحسن قال في تفسير الآية : ((كَتَبَ اللهُ على المُؤمنين أن يُقَاتِلُوا في سبيله، ولَيس كُلُّ مَن يُقَاتِل يُقتَل ، ولكن يُقتَل مَن كَتَبَ اللهُ عَلَيه القَتْلَ)).

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٠٤) : ((﴿ قُل لَوْ كُنتم في بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الذينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِم ﴾ . أي: لَخَرَجَ الذين قَدَّرَ اللهُ عَلَيهم القَتْلَ، وكَتَبَه في اللوح المحفوظ، إلى مَصَارعهم ، ولَم تَنفعهم الإقامةُ بالمدينة ، ولَم يَنْجُ مِنهُم أحد ، فإنه قدَّر الأمورَ ، ودبَّرها في سَابِق قَضَائه ، لا مُعقِّب لحُكمه)) .

---

١٩٢ مَعنَى البَيْتَيْن : لَو كانت الحياةُ خالدةً دائمة بلا مَوت ، لكانَ أغبى الناسِ وأضَلُّهم هُم الشجعان الذين ضَحُّوا بحياتهم . وبما أن الموت لا بُد مِنه ، ولا مَفر مِنه ، فَمِنَ العَجْز أن يموت الإنسانُ جَبَانًا ، لأنَّ كُل الناس سَيَمُوتون . فلماذا لا يموت الإنسانُ شُجَاعًا ما دام الموتُ لا يُفرِّق بين شُجاع وجَبان ؟ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾[آل عِمران : ١٨٥] .

كُلُّ النُّفُوس سَوْفَ تتجرَّع كَأسَ المَوْت، وتُصارع غُصَّاتِه. وكُلُّ نَفْسٍ مَيْتَة لا مَحَالة، ولن يَنْجُوَ أحدٌ مِن المَوت ، ومَصير الخلائق الحَتمي إلى الفَنَاء . وفي هذا إشارة بالغة إلى أنَّ النُّفُوس مَقهورة وخَاضعة للسُّلطة الإلهية العُليا المُطْلَقَة ، التي تتحكَّم في كُل شيء . واللهُ هُوَ المُسَيْطِر على هذه النُّفوس ، وقد كَتَبَ لها آجَالًا مُحدَّدة في الأزل ، لا يُمكن للمَخلوقات تجاوزها ، ولا تغييرها .

والآيَةُ وَعْدٌ للمُؤمن المُصَدِّق بآيات الله ، ووعيد للكافر المُكذِّب بها .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٧): ((فهو _ تعالى _ وَحْدَه هو الحَيُّ الذي لا يَمُوت ، والجِن والإنس يَمُوتون ، وكذلك المَلائكة وحَمَلَة العَرْش ، وينفرد الواحد الأحد القَهَّار بالدَّيمومة والبَقاء ، فيَكُون آخِرًا كَمَا كان أوَّلًا . وهذه الآية فيها تَعزية لجميع الناس ، فإنَّه لا يَبقى أحد على وجه الأرض حتى يَمُوت)) .

وكما قال طَرَفَة بن العَبْد :

تمنَّى رِجالٌ أن أموت وإن أَمُت فتلكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ [١٩٣]

والآيةُ تشتمل على تَحقير أمر الدُّنيا ، فهي فانية زائلة . ولا أحد يأخذ مِنها شيئًا عِند المَوت. والكَفَنُ لَيس له جُيُوب ، ومال الدُّنيا في الدُّنيا . فلا بُد مِن الحِرص على تَوحيد الله ، وعبادته ، وَحْدَه لا شريك له ، وطاعته ، وعدم مَعصيته ، وبِناء المُستقبل في الآخِرة الباقية لا الدُّنيا الفانية .

والجدير بالذِّكر أن لفظة ﴿ ذائقة ﴾ تُشير إلى صُورة تَشبيهية للمَوت ، وكأنه طعام أو شراب ، لا بُد مِن تَذَوُّقه ، وعِندئذ يُعرَف طَعْمُه المُر . وكُل الخلائق آتية لِتَذَوُّقِه رَغْمًا عنها . فلا مَهرَب مِن المَوت . وكُل مَخلوق يَنتظر دَوْرَه . والمَوْتُ شاملٌ عام ، لا يُفلِت مِن قَبضته أحد . وليس بِدْعَةً تُصيب البَعْضَ ، وتَترك البعضَ الآخر ، فالمَوتُ يُصيب جميعَ المَخلوقات بلا استثناء ، ويَبقى اللهُ وَحْدَه لا شريك له ، فهو الحَي الباقي الذي لا يَموت،المُنفرِد بالبَقاء والحياة والدَّيمومة. كانَ اللهُ ، ولا شَيء مَعَهُ قَبل بَدْء الخَلْق . ويَبقى اللهُ ، ولا شيء مَعَه بَعْد مَوت الخَلْق . وهو سُبحانَه الأوَّل الذي لَيس قَبْلَه شيء ، والآخِر الذي لَيس بَعْدَه شيء .

---

١٩٣ ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٤٠) أن الإمام الشافعيَّ _ رضي اللهُ عنه _ كان يُنشِد هذا البَيت ، ويَستشهد به. وقد روى ذلك أيضًا ابن حِبَّان في رَوضة العُقَلاء (١/ ٢٨٧) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١٧): ((قَوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾. قال ابن عباس : لمَّا نَزَلَ قَوله : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ﴾[السَّجدة:١١]. قالوا : يا رسول الله ، إنَّما نَزَلَ في بني آدم ، فأين ذِكْر المَوْت في الجِن والطَّيْر والأنعام؟، فنزلت هذه الآية.وفي ذِكْر المَوت تهديد للمُكذِّبين بالمصير،وتزهيد في الدُّنيا وتنبيه على اغتنام الأجل)).

لا أحد يَهْرُب مِن المَوت ، والمَوتُ آتٍ لا مَحَالة ، وكُلُّ آتٍ قَريبٌ . والمَوتُ مَكتوب على الخلائق جميعًا . وعلى المَرْءِ أن يَكون دائمًا في عبادة الله وطاعته ، لأن المَوت يَأتي بَغتةً وبشكل مُفاجئ ، ولا أحد يَعرف متى سيموت ، لذلك على المَرْء أخذ الحَيطة والحَذَر ، والاستعداد دائمًا للمَوت ، وذلك بفِعل العبادات والطاعات ، واجتناب المَعَاصي ، ثُمَّ إلى اللهِ المَرْجِعُ والمَصِير للحِساب والجَزاء . والإنسانُ _ رَغم أنفِه _ سَيَرجع إلى الله تعالى ، الذي يُثيب الطائعَ ، ويُعاقب العاصي . أي إنَّه سُبحانَه يُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته .

لقد ذَكَّرَ اللهُ الناسَ بالمَوت ، وخَوَّفَهم مِنه ، كَي يَحتقِروا الدُّنيا الفانية ، وتَصغُر في أعينهم ، وَتَهُون عليهم المصاعب والشدائد والأزمات والكوارث.فكُل نَفْس ستُغادر هذه الحياة رَغْمًا عنها، فلا داعي للخَوف مِن تَرك الأوطان ، ولا داعي للقلق مِن فِراق الأحِبَّة ، فالجَميعُ راحلون عن هذا العَالَم . وكُل نَفْس ستتجرَّع مَرارةَ المَوت ، وتُلاقي شِدَّته وصُعوبته وأهواله . سَوْفَ تتذوَّق المَوْتَ وتعرف طَعْمَه ومَذَاقَه ، كما يَجِد الذائق طَعْمَ المَذُوق . ومَن أيقنَ بالمَوت ، صارَ سَهْلًا عَلَيه فِراق الأوطان والأحِبَّة . وتَرجِع كُلُّ نَفْسٍ إلى حُكم الله وجَزائه العادل حَسَب أعمالها ، إمَّا الثَّوَاب (نعيم الجَنَّة) ، أو العِقاب (عذاب النار) . ومَن كانت هذه نهايته ومصيره ، فعليه الاجتهاد والاستعداد بشكل كامل ، وذلك بعمل الطاعات ، واجتناب المعاصي . وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٢٩٩): ((فكُل حَيٍّ في سَفَر إلى دار القَرَار ، وإن طال لُبثه في هذه الدار)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أيْنَما تَكُونوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النِّساء: ٧٨].

في أيِّ مكان وُجِدْتُم ، وفي أيِّ مَوقع كُنتم ، فلا مَفَر مِن المَوت ، ولا مَهرَب مِنه . وعِند انتهاء آجالكم ، سيُفاجئكم المَوْتُ ، وتَمُوتون ، وَلَو اختبأتم مِنهُ في قُصور عظيمة ، أوْ تَحَصَّنْتُم بالحُصُون المَنِيعة ، أو جَلَسْتُم في القِلاع الحَصِينة . فلا تَهْرُبوا مِن الجِهاد ، ولا تَخْشَوْا مِن قِتَال الأعداء خَوْفًا مِنَ المَوت . فالمَوْتُ آتٍ لا مَحَالة ، وكُل آتٍ قريبٌ . ولا علاقة له بقِتال أو غَير قِتال. والآيةُ تَدعو إلى الشَّجاعة، والإقدام، ورَبَاطة الجَأش، والجهاد في سبيل الله، وقتال الأعداء. ومَن انقضى أجَلُه سَيَمُوت ، سواءٌ كانَ يُقَاتِل في المَعركة أَم يَختبئ في بَيته .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٤) : ((يقول : لا تَجْزَعُوا مِن المَوت ، ولا تَهْرُبوا مِن القِتال وتَضْعُفوا عَن لِقاء عَدُوكم حَذَرًا على أنفسكم مِن القَتل والمَوت ، فإنَّ المَوت بإزائكم أين كُنتم ، وواصل إلى أنفسكم حَيث كُنتم ، وَلَوْ تَحَصَّنْتُم مِنه بالحُصُون المَنيعة)) .

والمَوْتُ لا يَحتاج إلى خريطة أو بُوصلة لمَعرفة طريقه ، ولا يُمكن رَدُّه بوَضْع حواجز أو حُرَّاس شخصيين . ولو كان الإنسانُ في حصونٍ منيعة أو قلاعٍ مَحروسة ، فإن المَوت سيأتيه عندما يَحِين الأجلُ المَكتوبُ الذي لا يَعْلَمه إلا اللهُ تعالى . والمَوْتُ واقع لا مَحَالة ، وكائن بلا شَك .

وصَدَقَ القائلُ :

وَمَن لَم يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بغَيْرِهِ تَنَوَّعَت الأسْبَابُ وَالمَوْتُ وَاحِدُ

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٩٨) : ((وقوله تعالى: ﴿ أيْنَما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ ، أي : أنتم صائرون إلى المَوت لا مَحَالة ، ولا يَنجو منه أحد مِنكم ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فانٍ ﴾ . وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الخُلْدَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤]. والمقصود أن كُل أحد صائر إلى المَوت لا مَحَالة،ولا يُنجِّيه مِن ذلك شيء، سَوَاءٌ جَاهَدَ أو لَم يُجَاهِدْ، فإنَّ له أجَلًا مَحتومًا ومَقَامًا مَقسومًا، كما قال خالد بن الوليد حِين جاءه المَوْتُ على فِرَاشه : لقد شَهِدْتُ كذا وكذا مَوْقِفًا،وما مِن عُضو من أعضائي إلا وفيه جُرح مِن طَعنة أو رَمية، وها أنا أموت على فِرَاشي، فلا نامت أعينُ الجُبَناء . وقَوله:﴿ وَلَوْ كُنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ ، أي:حَصِينة مَنِيعة عالية رفيعة. وقِيل: هي بُرُوج في السَّماء. قال السُّدي: وهو ضعيف، والصحيح أنها المَنِيعة ، أي: لا يُغْني حَذَرٌ وَتَحَصُّنٌ مِن المَوت)) .

وكما قال زُهَير بن أبي سُلمى :

وَمَن هَابَ أسبابَ المَنَايا يَنَلْنَهُ وإنْ يَرْقَ أسبابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ [١٩٤]

---

١٩٤ المعنى: ومَن خافَ أسبابَ المنايا نالته ، ولا فائدة مِن خَوفه وهَيبته إيَّاها ، وَلَوْ رَامَ الصُّعُودَ إلى السماء فِرَارًا مِنها . وبعبارة أخرى ، مَن هابَ طُرُقَ المنايا أن يَسلكها تأتيه المنايا . إذن ، فالموتُ واقعٌ لا مَحالة ، تعدَّدت أشكالُه ، لكنَّ المضمون واحد . والإنسانُ مُحَاصَرٌ بالموت مِن كُل الجِهات ، يَهْرُب مِن الموت إلى الموت. وَلَوْ قرَّر أن يَصعَد إلى السماء بسُلَّم هَرَبًا مِن الموت لأدركه الموتُ . وهذا أعظم حِصار في تاريخ الوجود الإنساني . إنه الحصار الذي يَفرضه الموتُ على الإنسان ، الذي يَقف ضعيفًا وعاجزًا أمامه ، بلا حِيلة ولا وسيلة .

وفي واقع الأمر ، إنَّ المَوْتَ هو الحارسُ الشخصيُّ للإنسان ، وإذا لم تَحِنْ لحظةُ وَفَاته ، فلا أحَد يَقْدِر على سَلْب حَيَاته . أمَّا إذا حانت لحظةُ وَفَاته ، فلا أحد يَقْدِر على حَمايته مِن المَوت .

وقال القُرطبي في تفسيره (٥/ ٢٧٠) : ((واختلف العلماء وأهل التأويل في المُراد بهذه البُرُوج ، فقال الأكثر وهو الأصح إنَّه أراد البُرُوجَ في الحُصُون التي في الأرض المَبْنِيَّة، لأنها غاية البَشَر في التَّحَصُّن والمَنَعَة، فَمَثَّلَ اللهُ لهم بها. وقال قَتادة : في قُصُور مُحصَّنَة . وقاله ابن جُرَيج والجمهور ... . وقال مجاهد : البُرُوج القُصُور . ابن عباس : البُرُوج الحُصُون والآطَام والقِلاع. ومَعنى ﴿ مُشَيَّدَةٍ ﴾ مُطَوَّلَة، قاله الزَّجاج والقُتَبي . عِكرمة : المُزيَّنَة بالشِّيد وهو الجِص ... . وقال السُّدي : المُراد بالبُروج بُرُوج في السَّماء الدُّنيا مَبْنِيَّة ، وحَكى هذا القَول مَكِّي عن مالك ... . وحكاه ابن العربي أيضًا عن ابن القاسم عن مالك ، وحَكى النَّقاش عن ابن عباس أنَّه قال: ﴿ في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ ، مَعناه : في قُصُور مِن حديد . قال ابن عطية : وهذا لا يُعطيه ظاهر اللفظ . الثانية _ هذه الآية تردُّ على القَدَرِيَّة في الآجَال لقَوله تعالى : ﴿ أيْنَما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾، فعرَّفهم بذلك أن الآجَال متى انقضت، فلا بُد مِن مُفَارَقة الرُّوح الجسد، كان ذلك بقَتْل ، أو مَوت ، أو غَير ذلك ، مِمَّا أجرى اللهُ العادةَ بزُهُوقها به . وقالت المُعتزلة : إنَّ المَقتول لَو لَم يَقتله القاتلُ لعاشَ ، وقد تقدَّمَ الردُّ عليهم في " آل عِمران " ويأتي ، فوافقوا بقَولهم هذا الكُفَّار والمُنافقين . الثالثة _ اتِّخاذ البلاد وبنائها ليمتنع بها في حفظ الأموال والنُّفوس ، وهي سُنَّة الله في عباده . وفي ذلك أدل دَليل على رَد قَول مَن يَقول : التَّوكُّل تَرْك الأسباب ، فإنَّ اتِّخاذ البلاد من أكبر الأسباب وأعظمها ، وقد أُمِرْنا بها ، واتَّخذها الأنبياءُ ، وحَفروا حَوْلها الخنادق عُدَّةً وزيادةً في التَّمَنُّع . وقد قِيل للأحنف : ما حِكمة السُّور ؟ ، فقال: لِيَردع السَّفيه حتى يأتيَ الحكيمُ فيحميه . الرابعة _ وإذا تَنَزَّلْنا على قَول مالك والسُّدي في أنَّها بُرُوج السَّماء ، فبُروج الفَلَك اثنا عشر بُرْجًا مُشيَّدة مِن الرفع ، وهي الكَواكب العِظَام ، وقِيل للكواكب بُروج لظُهورها ... خَلَقَهَا اللهُ تعالى مَنازل للشمس والقمر، وقدَّره فيها، ورتَّب الأزمنةَ عليها، وجَعَلَها جنوبية وشمالية دَلِيلًا على المصالح، وعَلَمًا على القِبْلة ، وطريقًا إلى تحصيل آناء الليل وآناء النهار ، لمعرفة أوقات التَّهَجُّد، وغَير ذلك مِن أحوال المَعَاش)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٢/ ١٣٧):((قَوله تعالى: ﴿ أيْنَما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ ﴾ سَبَب نُزولها أنَّ المُنافقين قالوا في حق شُهداء أُحُد : لَوْ كانوا عِندنا ما ماتوا ، وما قُتِلُوا ، فنزلت هذه الآية . هذا قَول ابن عباس ومُقاتل . والبُرُوج الحُصُون ، قاله ابن عباس وابن قُتَيبة . وفي المُشَيَّدة خمسة أقوال : أحدها أنَّها الحَصِينة ، قاله ابن عباس

وقَتادة. والثاني المُطَوَّلة، قاله أبو مالك ومُقاتل وابن قُتَيبة.والثالث المُجَصَّصَة،قاله هِلال بن خَبَّاب واليزيدي. والرابع أنَّها المَبْنِيَّة بالشِّيد وهو الجِص، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي. والخامس أنَّها بُرُوج في السَّماء، قاله الربيع بن أنس والثَّوري . وقال السُّدي: هِيَ قُصُور بِيض في السَّماء مَبْنِيَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُون ﴾ [الزُّمَر : ٣٠] .

الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : إنَّكَ يا مُحمَّد سَتَمُوت ، وإنَّ الكافرين الذين يُكذِّبونك سَيَمُوتون، ولا أحد يُخلَّد في الدُّنيا ، ولا شَماتة في المَوت . والدُّنيا زائلة ، والآخِرة باقية . وجَميع الناس سيُغادرون هذه الدار ، ويُجمَعون في الدَّار الآخِرة . وعِند الله تَجتمع الخُصُوم. وهذه الآيةُ استشهَدَ بها أبو بَكْر الصِّديق ـ رضي اللهُ عنه ـ عِند مَوت النبيِّ ﷺ ،كَي يُصدِّق الناسُ أنَّه ماتَ .

وقد كان المُشركون يَنتظرون مَوْتَ النبيِّ ﷺ بفارغ الصَّبْر ، كي يتخلَّصوا مِنه ، ويَرتاحوا مِن دَعوته، فأنزلَ اللهُ هذه الآية، ليُوضِّح لهم أنَّ المَوت عام وشامل لجميع الناس بلا استثناء،فلا مَعنَى للشَّماتة وانتظار المَوت . وفي الدار الآخِرة ، يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ ، ويَحكم بالعَدْل ، ويُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٢٢): ((وقال قَتادة : نُعِيَتْ إلى النبيِّ ﷺ نَفْسُه ، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُناني : نَعَى رَجُل إلى صِلَة بن أشْيَم أخًا له ، فوافقه يأكل ، فقال : ادْنُ فَكُل ، فقد نُعِيَ إلَيَّ أخي مُنذ حِين، قال: وكيفَ وأنا أوَّل مَن أتاك بالخَبَر؟. قال: إن الله تعالى نَعَاه إلَيَّ ، فقال : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُون ﴾ . وهو خِطاب للنبيِّ ﷺ ، أخبره بمَوْته ومَوْتهم . فاحتمل خَمسة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحذيرًا مِن الآخِرة. والثاني أن يُذكِّره حَثًّا على العمل. الثالث أن يُذكِّره تَوْطِئةً للمَوت. الرابع لِئلا يَختلفوا في مَوته كما اختلف الأُمَم في غَيره، حتى إن عمر رضي اللهُ عنه لمَّا أنكرَ مَوْتَه، احتجَّ أبو بكر رضي اللهُ عنه بهذه الآية،فأمسكَ.الخامس لِيُعْلِمَه أن الله تعالى قد سَوَّى فِيه بَيْن خَلْقه معَ تفاضلهم في غَيره، لتَكثُر فيه السَّلْوَة، وتَقِل فيه الحَسْرَة)).

وعن عبد الله بن الزُّبَير ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : قال الزُّبَير : لمَّا نزلت : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُون (٣٠) ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُم تَختَصِمُون (٣١) ﴾ . قال الزُّبَير: يا رسول الله ، أيُكَرَّرُ عَلَينا ما كان بَيْننا في الدُّنيا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوب ؟ ، فقال : ((نعم ، يُكرَّر عَلَيهم ذلك حَتَّى يُؤَدُّوا إلى كُل ذِي حَقٍّ حَقَّه)). فقال الزُّبَير : واللهِ إنَّ الأمرَ لَشَديد [١٩٥].

---

١٩٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٢) برقم (٢٩٨١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

في يَوم القِيامة ، تَجتمع الخُصُومُ عِند الله تعالى ، فَيَقْضِي بينهم بالحَق، ويَفصِل بينهم بالعَدْل، فيُعرَف المُحِق مِن المُبطِل ، ويتَّضح الظالم مِن المظلوم .

وفي يَومِ القِيامة يَومِ الحَسْرَة والنَّدامة ، تُعاد وتُكرَّر الخُصومات بين المُتَخاصِمِين التي كانت في الدُّنيا ، معَ خَوَاصِّ الذُّنُوب (الذُّنُوب المَخصوصة بكل شخص) ، وكُل النِّزاعات والقضايا العالقة يُعاد طَرْحُها ، ليَحْكُم اللهُ فيها ، وهو القاضي العادل الذي لا يَظْلِم ، ولا يُجَامِل ، ولا يَرْتِشي . وهذا يدل على أنَّ الأمر عظيم وخطير وصَعْب ، وأنَّ الحِساب في يوم القِيامة الرهيب في غاية الشِّدة ، حيث تَظهر الحَسَنَات والسَّيئات، ويُقْضَى بين الناس في خُصوماتهم ونزاعاتهم ، ويُثَاب المَظلوم ، ويتم إنصافه ، ويُعَاقَب الظالم ، ويتم تعذيبه .

وعن ابن عُمر _ رضي اللهُ عنهما _ أنَّه قال : لقد عِشْنا بُرْهَةً مِن دَهْر وما نرى هذه الآية نَزلت إلا فِينا وفي أهل الكِتاب : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُون (٣٠) ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُم تَخْتَصِمُون (٣١) ﴾ . فقلتُ : نَخْتَصِم ، أمَّا نَحْنُ فلا نَعبد إلا اللهَ ، وأمَّا دِيننا فالإسلام، وأمَّا كِتابنا فالقُرآن ، فلا نُغيِّر ، ولا نُحرِّف أبدًا ، وأمَّا قِبْلتنا فالكَعْبَة ، وأمَّا حَرَامُنا أو حَرَمُنا فواحد ، وأمَّا نَبِيُّنا فمُحمَّد ﷺ ، فَكَيْفَ نَخْتَصِمُ حَتَّى كَفَحَ بَعْضُنا وُجُوهَ بَعْضٍ بالسُّيوفِ؟،فَعَرَفْتُ أنَّها نَزَلَتْ فِينا [196].

كانَ الصَّحابةُ _ رضي اللهُ عنهم _ مُستبعدين تمامًا أن يَختصموا وهُم إخوان ، يَعبدون إلَهًا واحدًا، ويَعتنقون دِينًا واحدًا ، وكِتابهم واحد ومَحفوظ بلا تغيير ولا تحريف ، وقِبلتهم واحدة ، وحَرَامُهم أو حَرَمُهم واحد، ونَبِيُّهم واحد . وهذا يَعني أنَّهُم مُتَّحدون بلا تمييز ولا تَفريق . ولكن عندما حَدثت الفِتنة بين الصحابة ، وتَقَاتَلُوا ، وحَمَلُوا السُّيوفَ ضِد بعضهم البعض ، وانتشرَ القَتْلُ بينهم ، عِندئذ أدركَ ابن عُمر _ رضي اللهُ عنهما _ أنَّ الآية نَزلت فِيهم .

وعِند الله تَجتمع الخُصُوم ، وهو سُبحانَه القاضي العادل الذي يَحكم في الخُصُومات ، ويَفصِل في النِّزاعات، ويُحِقُّ الحَقَّ ، ويُبطِل الباطلَ، ويُعطي كُل ذِي حَق حَقَّه بلا ظُلم ولا مُحَاباة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ مَن عَلَيْهَا فانٍ ﴾[الرَّحمن : ٢٦] .

كُلُّ مَن على الأرض مِن الإنس والجِن والحيوان هالك لا مَحَالة ، وسَيَمُوت . وعبَّر بِ﴿ مَن ﴾ تَغْلِيبًا للعُقَلاء . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٤٣) : ((وقال ابن عباس : لمَّا نزلت هذه الآية قالت الملائكةُ: هَلَكَ أهلُ الأرض، فنزلت: ﴿ كُلُّ شَيء هالِكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ [القَصَص: ٨٨].

---

١٩٦ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٧) برقم (٨٧٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فأيقنت الملائكةُ بالهَلاك، وقاله مُقاتل . وَوَجْهُ النِّعمة في فَناء الخَلْق التَّسوية بَيْنهم في المَوت. ومعَ المَوت تستوي الأقدام. وقِيل: وَجْه النِّعمة أن المَوت سَبب النَّقْل إلى دار الجَزاء والثواب)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ ﴾ [الرَّحمن : ٢٧] .

كُلُّ ما سِوى اللهِ هالكٌ وفانٍ ، وذاهب إلى المَوت. ويَبقَى اللهُ ذُو العَظَمَة والمَجد والسُّلطان والكِبرياء والجَلال والإنعام والإكرام . والوَجْهُ عِبارة عن ذَات الله تعالى .

واللهُ أهْلٌ أن يُعظَّم ويُمدَح ، وأن يُطاع فلا يُعصَى ، وأن يُنزَّه عَن كُل ما لا يَليق به . واللهُ هو الحَيُّ الباقي الدائم ، خَلَقَ المَوْتَ ، ولا يَمُوت . وكُل المَخلوقات تَمُوت . والنِّعمةُ في الفَنَاء تَكمن في إراحتهم مِن عَنَاء الدُّنيا ، وإيصالهم إلى نعيم الجَنَّة الأبديِّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١١٤) : ((﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ، أي : ويَبْقَى رَبُّكَ ذُو الجَلال والإكرام . قال أبو سليمان الخطابي : الجَلال مَصْدَر الجليل ، يُقال : جَليل بين الجَلالة والجَلال ، والإكرام مَصدَر أكرمَ يُكْرِمُ إكرامًا . والمعنى أنَّ الله تعالى مُستحق أن يُجَلَّ ويُكْرَم ، ولا يُجْحَد ، ولا يُكْفَر به . وقد يُحتمل أن يكون المعنى أنه يُكْرِم أهلَ وَلايته ، ويَرفع دَرَجَاتهم . وقد يُحتمل أن يكون أحد الأمرَيْن ، وهو الجَلال مُضَافًا إلى الله تعالى بمعنى الصِّفة له، والآخَر مُضَافًا إلى العَبْد ، بمعنى الفِعْل مِنه ، كقَوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ ﴾ [المُدَّثر : ٥٦]. فانصرفَ أحدُ الأمرَيْن إلى الله، وهو المغفرة، والآخَر إلى العِباد، وهو التَّقوى)).

وما أجملَ قَول الشاعر :

تأمَّلْ في الوُجودِ بعَيْن فِكْرٍ — تَرَ الدُّنيا الدَّنِيَّةَ كالخَيَالِ
ومَن فِيها جَمِيعًا سَوْفَ يَفْنَى — ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ[197]

وعن أبي هُرَيرة ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((أصدقُ كلمة قالها الشاعر كلمة لَبيد ، ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطل)) [198].

المقصودُ بالباطلِ هو الفاني الزَّائل. والمعنى : كُلُّ شَيء يَفنى ويَزول إلا الله . وكُلُّ مَعبود مِن دُون الله باطل . فلا مَعبود بحَق إلا الله وَحْدَه ، لا شريك له .

١٩٧ في عَجُز البَيت يَقتبس مِن القُرآن الكريم قَوْلَ الله تعالى:﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ ﴾ .

١٩٨ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٩٥) برقم (٣٦٢٨) ، ومسلم (٤/ ١٧٦٨) برقم (٢٢٥٦) .

وهذه أعظمُ كلمة قالها شاعر وأصدقُها، لأنها مُوافقة للنَّقْل والعقل معًا . والمقصودُ بالكلمة في هذا السِّياق بَيت الشِّعر. وتمامُ البَيت : وَكُلُّ نعيمٍ لا مَحَالة زائل .

والحديثُ مَنقَبة للصحابيِّ الجليل لَبيد بن أبي ربيعة _ رضي اللهُ عنه _ [199]، وهو الشاعرُ الوحيد الذي أسلمَ مِن أصحاب المُعلَّقات . و " شَيء " اسم للمَوجود ، ولا يُقال للمَعدومِ شَيء .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٢٩) : ((ولا رَيْبَ أنَّ هذه الكلمة أصدقُ ما تَكَلَّمَ به ناظم أو ناثر ، مُقدمتها كُلِّية مقطوع بصحتها وشُمولها ، عَقلاً ونَقلاً ، ولَم يَخرج مِن كُلِّيتها شيء قَطْعًا إلا ما مَرَّ استثناؤه ، وهو الله وصفاته وعقابه وثوابه . وفيه جَواز الشِّعر وإنشاده ، ما لَم يَخِل بأمر دينيٍّ ، أو يُزيل الوَقارَ ، أو يَحصل منه إطراء أو إكثار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنهُ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الجُمُعة : ٨] .

قُل يا محمد لليهودِ : إنَّ المَوْتَ الذي تَكرهونه ، وتَهْرُبون مِنهُ ، وتَرفضون أن تَتَمَنَّوْهُ حتى بألسنتكم.فإنَّهُ نازلٌ بِكُم بلا شَكٍّ في الموعد المحدَّد بلا تقديم ولا تأخير، ولا يمكن الهروب منه. فالموتُ قَدَرٌ مَحتوم، وواقعٌ لا مَهْرَبَ مِنهُ. ولا يُغني حَذَر مِن قَدَر . ثُمَّ تَرْجِعون بعد الموت إلى اللهِ الذي يَعلم السِّرَّ والعلانيةَ، ولا يَخفَى عليه شيء، فَيُجازيكم بأعمالكم ، وهذا وَعيدٌ وتهديد .

لقد عَلِمُوا أنَّ مصيرَهم إلى النار ، بسبب تكذيبهم للنبيِّ ﷺ ، فَكَرِهوا الموتَ ، وهَربوا مِنهُ ، ولكنْ ، كَيْفَ الهروب مِنَ الموت ؟ . لا مَهْرَب مِنَ الموت . أمَّا محاولةُ البعض الهروب من الموت _ حَسَبَ تفكيرهم القاصر _ فهي حركات عبثية ، لأن الموتَ قادمٌ ، وسيُلاقي الناسَ وَجْهًا لوجه فلا يَترك لهم فرصةً للهرب أو الإفلات.والقَدَرُ المحتوم نازلٌ بالناس لا مَحَالة، ولا تنفع معه وسائل الحراسة أو الاختباء . وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٨٥) : ((قال الزَّجاج : لا يُقال : إنَّ زَيدًا فَمُنطلِق. وها هنا قال : ﴿ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ﴾ لِمَا في معنى ﴿ الذي ﴾ مِن الشَّرْط والجزاء ، أي : إنْ فَرَرْتُم مِنهُ ، فإنه مُلاقيكم ، ويَكون مُبالَغةً في الدَّلالة على إنَّه لا يَنفَع الفِرارُ مِنه)) .

---

١٩٩ في تحفة الأحوذي (٨/ ١١٥) : ((هو ابن ربيعة الشاعر العامري . قَدِمَ على النبيِّ ﷺ وَفدُ قَومه بنو جعفر بن كِلاب ، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام . نزل الكوفة ، ومات بها سنة إحدى وأربعين، وله من العمر مائة وأربعون سنة. وقِيل : مائة وسبع وخمسون سنة . ذَكَره صاحب المِشكاة. ومِن جُملة فضائله أنه لَمَّا أسلمَ لَم يَقُلْ شِعرًا ، وقال : يَكفيني القُرآن)) .

وفي لطائف المعارف (١/ ٣٢١) : ((قال أبو بكر الصديق لِعُمر ـ رضي الله عنهما ـ في وَصِيَّته له عند الموت: إنْ حَفظتَ وَصِيَّتي لَم يكن غائبٌ أحبُّ إلَيك من الموت ، ولا بُدَّ لكَ مِنه ، وإنْ ضَيَّعْتَها لَم يكن غائب أكره إليك من الموت ، ولن تُعْجِزَه . قال أبو حازم : كُلُّ عمل تَكْرَه المَوْتَ مِن أجْلِه فاتركه ، ثُمَّ لا يَضُرُّكَ متى مِتَّ . العاصي يَفِرُّ من الموت لكراهية لقاء الله ، وأينَ يَفِرُّ مَن هُوَ في قَبضة مَن يَطْلُبُه: أيْنَ المَفَرُّ والإلهُ الطالبُ... والمجرمُ المغلوبُ لَيس الغالب)) .

وعَن سَمُرة بن جُندب قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَثَلُ الذي يَفِرُّ مِنَ الموت كَمَثَلِ الثعلب ، تَطْلُبُه الأرضُ بِدَيْنٍ ، فَجَعل يَسعى حتى إذا أعيا وانبهرَ ، دَخَلَ جُحْرَه ، فقالت له الأرض: يا ثَعْلَبُ دَيْني، فَخَرَجَ وله حُصَاص ـ شِدَّة عَدْوِه ـ ، فَلَم يَزَلْ كذلك حتى تَقَطَّعت عُنُقُه ، فماتَ))[٢٠٠].

كما أنَّ الثعلبَ مُلتصق بالأرض ، ولا يَقْدِر على الإفلات من الجاذبية ، مهما رَكَضَ وابتعدَ ، فكذلك الإنسان مرتبط بالموت ، وهذه الرابطة لا يُمكن فَصْلُها . وخُصَّ الثعلب بالذِّكْر ، بسبب مَكْرِه الشديد ، وقُدرته الفائقة على المُرَاوَغة والرَّوَغان. والعربُ تَضرب المَثَلَ بالثعلب في شِدَّة الرَّوَغان ، فتقول : أرْوَغ مِن ثعلب . ومعَ هذا لَم يُفْلِتْ مِن المَوت .

وقال الرَّامَهُرْمُزِيُّ في أمثال الحديث (١/ ١٠٧) : ((خُصَّت الأرض بهذا المَثَل لأنَّ أحدًا لا مَهْرَب له مِنها ، وخُصَّ الثعلب بهذا التمثيل لِرَوَغانه ، واعتياصه على الصائد ، وشِدَّةِ عَدْوه)) .

وقال زُهَير بن أبي سُلمى :

وَمَن هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... وإنْ يَرْقَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال طَرَفَة بن العَبْد :

والمَنَايا حَوْلَهُ تَرْصُـدُهُ ... لَيْسَ يُنجيه مِنَ الموتِ الحَذَرُ

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إذا جَاءَ أجَلُهَا واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون﴾[المنافقون:١١].

---

٢٠٠ رواه الطبرانِيُّ في الكبير (٧/ ٢٢٢) برقم (٦٩٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٩) : ((وفِيه مُعاذ بن محمد الهُذَلي . قال العُقَيلي : لا يُتابَع على رَفْع حديثه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في العِلَل المتناهية (٢/ ٨٨٨): ((هذا حديث لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ . ومعاذ في حديثه وهم، ولا يُتابَع على رَفْعه ، وإنما هو موقوف على سَمُرة)) .

إنَّ اللهَ لَن يُؤخِّر نَفْسًا إذا حان وقتُ وفاتها. لن يُعطيَها فرصةً أخرى أو عُمرًا آخَر ، أو فترةً إضافية . والله لَن يُمْهِل أحَدًا إذا انتهى عُمره المكتوب ، ولَن يَزيد في عُمره . وإذا حانَ أجلُ الإنسانِ المحتومُ ، فارقت الروحُ الجسدَ ، ومات الإنسانُ في الوقت الذي قَدَّره اللهُ له دون زيادة أو نُقصان. والآيةُ تَدعو إلى المُبَادَرة لأداء العبادات، والمُسارَعة إلى الطاعات، والاستعداد لِمَا هُو آت،وتُحذِّر مِن عَدَم الاستعداد للقاء الله تعالى ، لأن الموت يأتي فَجأةً في الوقت الذي يُريده الله، وليس الوقت الذي يُريده العبد ، لذلك على العبد أن يَكون مُسْتَعِدًّا وجاهزًا على الدَّوام ، فهو لا يَعرف مَتى تَحِين لحظة وفاته التي قدَّرها اللهُ تعالى . وهذا يدحض عقيدةَ الفوضى والعبث والصُّدفة التي تتجلى في قول الشاعر الجاهلي زُهَير بن أبي سُلمى :

رأيتُ المَنَايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

يُقرِّر الشاعرُ أن الموت يُصيب الناس على غير نسق وترتيب وبصيرة. وهذه عقيدة تُصادِم العقيدة الصحيحة ، وهي أن الله تعالى يَقبض أرواح مَن يشاء إذا انتهت أعمارهم المكتوبة. لكنَّ البيئة الجاهلية الوثنية التي عاش فيها الشاعرُ أصابَتْه بِلَوْثتها وانحرافها وضلالها . واللهُ ذُو خِبرة بأعمال عباده ، مُطَّلِع عليها ، وعَالِم بِها ، سواءٌ كانت خَيْرًا أَم شَرًّا، ولا يَخفى عليه شيء، وهو سُبحانَه مُجازِي المُحسِن بإحسانه، والمُسيء بإساءته. والآيةُ ﴿ واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون ﴾ فيها معنى التحذير والوعيد .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١١١) : ((وقَوله : ﴿ وَلَن يُؤخِّرَ اللهُ نَفْسًا إذا جَاءَ أجَلُهَا ﴾ يقول: لَن يُؤخِّر اللهُ في أجل أحَد ، فَيَمُدَّ له فيه إذا حَضر أجَلُه ، ولكن يَخترمه (يأخذه). ﴿ واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون ﴾.يقول: واللهُ ذُو خِبرة وعِلم بأعمال عبيده ، هو بجميعها مُحيط ، لا يَخفى عليه شيء ، وهو مُجازيهم بها ، المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته)) .

وفي فتح القدير للشَّوكاني (٥/ ٣٢٨) : ((وأخرج عبد بن حُمَيد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " مَن كان له مال يُبلِّغه حَجَّ بيت الله ،أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل، سَأل الرَّجعةَ عند الموت". فقال رَجل: يا ابن عباس، اتَّقِ اللهَ ، فإنما يَسأل الرَّجعةَ الكافرُ ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قُرآنًا .
ـ وقَرأ الآيتين [المنافقون : ١٠و١١] ـ)) .

ب ــ لكُل أُمَّة أجل مَحتوم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ فإذا جاءَ أجَلُهُم لا يَسْتأخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ [الأعراف : ٣٤] [٢٠١].

كُلُّ أُمَّةٍ لهم وَقْتٌ مُحدَّد لِنُزول العذاب بهم (في حال كُفْرهم) أو مَوْتِهم . وهذا الأجلُ المَحتوم المُعَيَّن ثابتٌ لا يتغيَّر . وإذا انقضت مُدَّتهم ، أو حانَ أجَلُهم لا يتأخَّرون ولا يتقدَّمون شيئًا قليلًا مِن الزمن . إنَّه وقتٌ مُحدَّد للعذاب والهَلاك إذا كفروا. والآيةُ وعيدٌ لأهل مَكَّة باستئصالهم ، وتحذيرٌ لهم ، لئلا يُلاقوا نَفْسَ مَصير الأمم الغابرة . والسَّاعةُ مَثَل في غاية القِلَّة مِن الزمان . وتخصيص الساعة بالذِّكْر ، لأنها أقل أسماء الأوقات ، وأقل وَقْت يُسْتَعْمَل في الإمهال، وهي ظَرْف زمان . والآيةُ دليل على أن كُل مَيت يَموت بأجله ، وإن كان مَوته بالقَتل أو بغَيره . كما أن الآية تُبيِّن الحِكمةَ مِن تأخير إهلاك الكافرين المُكذِّبين معَ أنَّهُم مُستحقون للعُقوبة والعذاب .

والإنسانُ مَهما كان قويًّا ، فإن بِذرة ضَعفه كامنة في كِيانه ، وعوامل انهياره راسخة في أصل خِلْقته . وهو مُحَاصَر ومَحصور في دائرة مُغلَقة. ومَهما امتلكَ مِن المَال والنُّفوذ والسُّلطة والصِّحة، فلن يُصبِح خالدًا. وهو يَمشي إلى المَوت بِرِجْلَيْه. وكذلك الحضاراتُ مهما كانت مُتقدِّمةً ومُزْدَهِرةً، فإن عوامل زوالها كامنة في فلسفتها الذاتية ، ولن تُفْلِتَ من السُّقوط والاندثار. ولا قُدْرة لمَخلوقٍ معَ قُدْرة الخالق . ولا يَقْدِر أحدٌ على تحدِّي الله تعالى .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٧٦) : ((يقول تعالى ذِكْره تَهَدُّدًا للمُشركين ... ، ووعيدًا مِنه لهم على كَذِبهم عليه ، وعلى إصرارهم على الشِّرْك به ، والمُقام على كُفرهم ، ومُذَكِّرًا لهم ما أحَلَّ بأمثالهم مِن الأمم الذين كانوا قَبْلهم : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ ﴾ . يقول : ولكُل جَماعة اجتمعت على تكذيب رُسُل الله ، ورَد نصائحهم ، والشِّرْك بالله مَعَ مُتابعة رَبِّهم حُجَجَه عليهم ﴿ أجَلٌ ﴾ يعني : وقت لحُلول العُقوبات بساحتهم ، ونُزول المَثُلات (العُقوبات) بهم على شِركهم ، ﴿ فإذا جاءَ أجَلُهُم ﴾ . يقول : فإذا جاء الوقت الذي وَقَّتَه اللهُ ، لهلاكهم وحُلول العِقاب بهم ،

---

٢٠١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ ﴾ . سبب نزولها أنهم سألوا النبيَّ ﷺ العذابَ ، فأُنزِلت . قاله مُقاتل . وفي الأجل قَولان : أحدهما أنه أجل العذاب ، والثاني أجل الحياة . قال الزَّجاج : الأجل الوقت المؤقَّت . ﴿ فإذا جاءَ أجَلُهُم لا يَسْتأخِرُونَ سَاعَةً ﴾ . المعنى : ولا أقل مِن ساعة ، وإنما ذكر الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات)) .

﴿ لا يَسْتأخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ . يقول : لا يتأخَّرون بالبقاء في الدُّنيا ، ولا يُمتَّعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحِين حُلول أجل فنائهم ، ساعة من ساعات الزمان ، ﴿ ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ . يقول : ولا يتقدَّمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جَعله اللهُ لهم وَقْتًا للهَلاك)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٨١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ ﴾ أي وَقْت مُؤقَّت ﴿ فإذا جاءَ أجَلُهُم ﴾ أي : الوقت المَعلوم عِند الله عَزَّ وَجَلَّ ... ﴿ لا يَسْتأخِرُونَ ﴾ عَنه ﴿ سَاعَةً ﴾ ولا أقل مِن ساعة ، إلا أن الساعة خُصَّت بالذِّكْر ، لأنها أقل أسماء الأوقات ، وهي ظَرْف زمان ، ﴿ ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ . فدلَّ بهذا على أن المَقتول إنما يُقتَل بأجله ، وأجل المَوت هو وقت الموت، كما أن أجل الدَّيْن هو وَقْت حُلوله ، وكُل شيء وُقِّتَ به شيء فهو أجل له ، وأجل الإنسان هو الوَقت الذي يَعلم اللهُ أنه يموت الحَيُّ فيه لا مَحَالة ، وهو وقت لا يجوز تأخير مَوته عنه ، لا مِن حَيث إنه لَيس مَقدورًا تأخيره . وقال كثير مِن المعتزلة إلا مَن شَذَّ مِنهُم : إنَّ المَقتول مات بغَير أجله الذي ضُرِبَ له ، وأنَّه لَو لم يُقتَل لَحَيِيَ ، وهذا غلط ، لأن المَقتول لم يمت مِن أجل قَتْل غَيره له ، بَل مِن أجل ما فَعله اللهُ مِن إزهاق نفْسه عِند الضَّرْب له ، فإن قِيل : فإن مات بأجله فَلِمَ تقتلون ضاربه وتقتصون منه ؟ . قِيل له : نَقتله لِتَعَدِّيه وتَصَرُّفه فِيما ليس له أن يتصرَّف فيه لا لمَوته وخُروج الرُّوح ، إذْ ليس ذلك مِن فِعْله ، ولو تَرك الناسُ التَّعَدِّي مِن غِير قِصَاص ، لأدَّى ذلك إلى الفساد ودمار العباد ، وهذا واضح)) .

وعن حُدَيج بن [أبي] عَمْرو قال : سَمعتُ المُسْتَوْرِدَ يقول : سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلًا،وإن أجَلَ أُمَّتي مائةُ سنة، فإذا مَرَّت على أُمَّتي مائةُ سنة، أتاها ما وَعَدها اللهُ)). قال ابن لَهِيعة : يعني كَثرة الفِتَن [٢٠٢].

إنَّ لكُل أُمَّة (جماعة مِن الناس) مُدَّةً ووَقْتًا مُحَدَّدًا ، وإنَّ أجل الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية مائة سنة لانتظام أحوالها وشؤونها . وإذا مَرَّت على هذه الأُمَّة مائة سنة أتاها ما وَعَدَها اللهُ ، مِن تبدُّل الأجيال ، وسُوء الأحوال ، والاختلاف ، والتَّشَتُّت ، والفَوضى ، وكَثرة الفِتَن ، وانتشار القَتْل ، وتفشِّي النِّزاعات والخِلافات والحروب .

---

٢٠٢ رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٠٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١٠) : ((وفيه ابن لَهيعة وحُدَيج بن أبي عمرو ، أو حُدَيج بن عمرو ، كما هو في إحدى روايتَي الطبراني ، وثَّقه ابن حِبَّان ، ولكن ابن لَهيعة ضعيف)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذَلِكَ ما كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[ق : ١٩] .

وجاءت شِدَّةُ المَوت وغَمْرته التي تَغشَى الإنسانَ ، وتَغلُب على عَقْله ، وتُقنعه بأنَّه مَيت ، بالحَق الساطع الذي لا يُنكَر . والمعنى : سَكرة المَوت الرهيبة جاءت بحقيقة المَوت . أو : سَكرة المَوت جاءت بالحَق مِن أمر الآخرة ، فأظهرت للإنسان ما لم يَكُن واضحًا له مِن أمر الآخِرة .

وعِند المَوت يتَّضح للإنسان الحَق مِن أمر الآخِرة ، فَيَراه رَأيَ العَيْن ، ويُدرِك صِدْق الرُّسُل في إخبارهم عن البَعْث . والمَرْءُ سَوْفَ يرى الأشياءَ التي كان يَسمع عَنها عِيَانًا ، فتُصبح الغَيْبِيَّاتُ واقعًا محسوسًا كَعَالَم الشَّهادة . ذلك المَوت ما كُنتَ تَهرُب مِنه وتَفزَع أيُّها الإنسان ، قد جاءكَ ، ولا خِلاص مِنه، ولا مَحِيد عنه. وكلمةُ ﴿ سَكْرَةُ ﴾ تدل على الشِّدة الفظيعة التي يَجدها المُحْتَضَر.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤١٧) : ((وفي قَوله : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ﴾ وَجْهان مِن التأويل أحدهما : وجاءت سَكْرَةُ المَوت ، وهي شِدَّته وغَلَبته على فَهْم الإنسان ، كالسَّكرة مِن النَّوم أو الشَّراب ، بالحَق مِن أمر الآخِرة ، فَتَبَيَّنَه الإنسانُ حَتَّى تَثَبَّتَه وعَرَفَه.والثاني : وجاءت سَكْرَةُ المَوت بحقيقة المَوت ... . وقَوله : ﴿ ذَلِكَ ما كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ . يقول : هذه السَّكْرَةُ التي جاءتك أيها الإنسانُ بالحَق ، هو الشيء الذي كنت تَهرُب مِنه ، وعَنه تَرُوغ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ﴾ أي : غَمْرته وشِدَّته ، فالإنسان ما دام حَيًّا تُكتَب عليه أقواله وأفعاله ، لِيُحَاسَب عليها ، ثُمَّ يَجيئه المَوت ، وهو ما يراه عِند المُعَايَنَة مِن ظُهور الحَق فِيما كان اللهُ تعالى وَعَدَه وأوعده . وقِيل : الحق هُوَ المَوت ، سُمِّيَ حَقًّا ، إمَّا لاستحقاقه ، وإمَّا لانتقاله إلى دار الحَق ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : وجاءت سَكْرَةُ الحق بالمَوت)) .

وعن القاسم بن محمد يُحدِّث، وتلا قَوْلَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿ وجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق ذلك ما كُنتَ مِنه تَحيد ﴾ ، ثُمَّ قال : حَدَّثتني عائشةُ أُمُّ المؤمنين ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت : لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو بالمَوت ، وعِندَه قَدَحٌ فِيه ماء، وهو يُدخِل يَدَه في القَدَح ، ثُمَّ يَمْسَح وَجْهَه بالمَاء ، ثُمَّ يقول : ((اللهُمَّ أعِنِّي على سَكَرَاتِ المَوت)) [٢٠٣].

---

٢٠٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) برقم (٣٧٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عندما كان النبيُّ في حالة الاحتضار ، ومَشغولًا بالمَوت ، كانَ يَمسح وَجْهَه الشريفَ بالماء ، دَفْعًا لحرارة المَوت وتأثيره في الجِسم . وكان يَدعو اللهَ تعالى أن يُعينه على دَفع شدائد المَوت . وهذا يدل على أهمية اللجوء إلى الله تعالى ، والاستعانة به في كُل الأحوال ، فهو وَحْدَه القادر على تفريج الكَرْب ، وإزالة الألم .

والنبيُّ ﷺ أعظم مخلوقات الله تعالى، ومعَ هذا يُعاني مِن شِدَّة المَوت وآلامه . واللهُ قادر على تَخليص حبيبه مُحمَّد ﷺ وصَفوته مِن خَلْقه مِن سَكَرَات المَوت ، ولكنَّه سُبحانَه يُريد زيادةَ أجْرِه ، ورفع دَرَجته في الجَنَّة ، وأيضًا ، كَي يَتَّخذ المؤمنون النبيَّ ﷺ قُدوةً عُليا ، وأُسْوَةً حسنة ، فيَصبروا عِند الشدائد والمصائب، ويتحمَّلوا الآلامَ طلبًا لرضا الله تعالى. والمُعلِّم حِين يتطابقُ قَوْلُه مَعَ فِعْله، فإنَّ تأثيره في أتباعه سيكون واضحًا وراسخًا ، أمَّا إنْ كان مُنْفَصِلًا عَنهم في عَالَمه الخاص ، ويَبيع لهم الكلام المُنمَّق والشِّعارات البَرَّاقة ، فعندئذ سَيَحْصُل الشَّرْخُ ، ويختفي التأثير، وتَزول الثقة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٠٧) : (((سَكَرَات الموت) جَمْع سَكْرَة بسُكون الكاف، وهي شِدَّة المَوت الذاهبة بالعَقْل، ذَكَرَه الزمخشري ، وهي تَزيد على الغَمَرَات بزيادة الألم. وفي رواية لابن أبي الدُّنيا : " اللهُمَّ إنَّكَ تأخذ الرُّوحَ مِن بَيْن العَصَبِ والأنامل ، اللهُمَّ أعِنِّي على المَوت وهَوِّنْهُ عَلَيَّ " . وقال ابن عربي : السُّكْر الضِّيق المانع من الإطلاق في التَّصَرُّفات ، فالمُراد ضِيق المَوت وكُرَبه . قال الراغب : والسُّكْر حالة تَعرِض بَين المَرء وقَلْبه ، وأكثر ما يُسْتَعْمَل في الشَّراب . وقد يَعتري مِن الغَضَب والعِشق والألم ، أي : والأخير هو المُراد هُنا . قال القرطبي : تشديد الموت على الأنبياء تكميل لفضائلهم ، ورَفْع لدَرَجاتهم ، ولَيس نقصًا ولا عذابًا ... . وقال ابن العربي: إنَّ الباري بقُدرته وحِكمته يُخفِّف إخراجَ الرُّوح، ويُشدِّده بحَسَب حال العَبْد، فَتَارَةً يُشدِّده عذابًا، وذلك على الكافر، وتَارَةً كَفَّارة، وذلك على المُذنِب،وتَارَةً رِفْعَة دَرَجَات وزِيَادة حَسَنَات،وذلك في الوَلِيِّ،وتَارَةً حُجَّة على الخَلْق وتَسلية وقُدوة وأُسْوَة كما لَقِيَ المُصْطَفَى ﷺ منه)).

وعن عائشة قالت : كُنتُ عِند أبي بَكْر حِين حَضَرَتْهُ الوَفَاة ، فَتَمَثَّلْتُ بهذا البَيت : (مَن لا يَزال دَمْعُه مُقَنَّعًا ، يُوشِكُ أن يَكُونَ مَدْفُوقًا) ، فقال : ((يا بُنَيَّة ، لا تَقُولي هكذا ، ولكن قُولي : ﴿ وجاءت سَكْرةُ الموت بالحق ذلك ما كُنتَ مِنه تَحيد ﴾)) [٢٠٤] .

---

٢٠٤ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٧/ ٣٠٨) برقم (٣٠٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٢٩) برقم (٤٤٥١).وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٣) عن إسناد أبي يعلى:((رجاله رجال الصحيح)).

استشهدت السَّيدةُ عائشة _ رضي اللهُ عنها_ بهذا البَيت على المَوقِف الذي تُوجَد فيه ، حَيث والدها أبو بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ يُحْتَضَر . ومعنى البَيت : مَن كان قويًّا مُتماسكًا لا يَذرِف الدُّمُوعَ ، لا بُد أن يأتيَه يَوم ويَذرِف فيه الدُّموعَ حُزْنًا وألمًا وحُرقةً وكَمَدًا . وبعبارة أُخرى، مَن كانَ دَمْعُه مَخْفِيًّا يُوشِك أن مَصبوبًا مَكشوفًا . وهذا يدل على الألم والحُزن وشِدَّة التأثُّر ، لكن تأثير القُرآن لا يُجاريه تأثير ، وكلام الله يَعلو ولا يُعلَى عليه ، لذلك حضَّها أبو بَكْر الصِّديق على تِلاوة الآية القرآنية لا بَيت الشِّعْر .

وهذا التَّوجيهُ مِن أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ يدل على رَجَاحة عَقْله ، وقُدرته على استحضار الآيات القرآنية ومَعانيها ، حيث إنه يعيش معها ، ويتَّخذها مُصباحًا مُنيرًا في حياته . وعلى الرغم من حالته الصعبة (الاحتضار) إلا أنه استحضر المَعاني القُرآنيةَ العظيمة المُتعلِّقة بأهوال الاحتضار ، وسَكَرَاتِ المَوت . مِمَّا يدل على أنَّ القُرآن الكريم كان دُستورَه في حَيَاته حتَّى وَفَاته . والحديثُ يُشير إلى ثبات أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ ، وقُوَّة تحمُّله ، ورَبَاطة جأشه ، ويقينه بالله ، وثِقَته المُطْلَقة بِه سُبحانَه .

وعن أنس بن مالك مَرفوعًا قال : ((لَم يَلْقَ ابنُ آدمَ شيئًا مُنذُ خَلَقَه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أشدَّ عَلَيه مِن المَوت)) ، ثُمَّ قال : ((إنَّ المَوْتَ أهْوَنُ مِمَّا بَعْد ، ...)) [٢٠٥].

هذا يدلُّ على شِدَّة المَوت وآلامه الرهيبة . وعلى الرَّغم مِن قَسوة المَوت ، إلا أنَّه بَسيط وهَيِّن مُقَارَنَةً مَعَ ما بَعْده مِن الأهوال والشدائد ، التي إن تجاوزها العبدُ ، ونَجَحَ في الامتحان ، كان مَصيره الجَنَّة ، وإن فَشِلَ في تجاوزها ، وسَقَط في الامتحان ، كان مَصيره النار .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩٦) : (((لَم يَلْقَ ابنُ آدمَ شيئًا قَطُّ مُنذُ خَلَقَه اللهُ أشدَّ عَلَيه مِن المَوت) أي هو أشد الدَّواهي ، وأعظم مَرارة من جميع ما يُكابده الإنسانُ مِن الشَّدائد طُول عُمُره ، فإنَّ مُفَارَقة الرُّوح للبدن لا تَحْصُل إلا بعد ألم عظيم لهما ، فإنَّ الرُّوح تعلَّقت بالبدن وألِفَتْهُ ، واشتدَّ امتزاجها به ، فلا يفترقان إلا بجَهْد (مَشَقَّة) وشِدَّة ، ويتزايد ذلك الألم باستحضار المُحْتَضَر أنَّ جسده يصير جِيفةً قَذِرَةً يَأكلها الهَوَام، ويُبليه التُّرابُ ، وأن الرُّوح المُفَارِقَة له لا يَدري أين مُستقرها ، فيجتمع له سَكْرَةُ المَوت مع حَسْرة الفَوْت ، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذَلِكَ ما كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ . (إنَّ المَوْتَ لأهْوَنُ) على الإنسان (مِمَّا بَعْده) كرَوْعة

---

٢٠٥ رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٧٧). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٠٥): ((إسناده جيِّد)).

(فَزْعة) سُؤال مُنكَر ونَكِير، ورَوْعة القِيام مِن القُبور ليَوم النُّشور ، ورَوْعة الصَّعْق، ورَوْعة المَوقِف، وقد بَلغت القلوبُ الحناجرَ ، ورَوْعة تطايُر الصُّحُف ، ورَوْعة الوُرود إلى النار تَحِلَّة القَسَم :

فَلَوْ أنَّا إذا مِتْنَا تُرِكْنَا لكانَ المَوْتُ راحةَ كُلِّ حَي

ولَكِنَّا إذا مِتْنَا بُعِثْنَا ونُسْأَلُ بَعْدَ ذا عَن كُل شَي

ثُمَّ هذا فِيمَن لَم يَستعد قَبل حُلوله ، ويُوفَّق للعمل الصالح قبل نُزوله ، أمَّا مَن كان كذلك ، وخُتِمَ له بذلك ، فما بَعْده أسهل إن شاء الله ، كما يدلُّ عليه خَبَر أحمد والطبراني : " آخِرُ شِدَّةً يَلْقَاها المُؤمِنُ المَوْت " [٢٠٦]. فتأَمَّلْهُ ، فإنِّي لَم أرَ مَن تَعَرَّضَ له)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة : ٨٣] .

هذا مَشْهَدٌ تصويري لحالة الاحتضار الشديدة ، حيث تَبلُغ الرُّوحُ الحَلْقَ أثناء خُروجها مِن الجسد . وكأنَّها لا تُريد مُفارقةَ الجسد . وفي هذا إشارة بالغة إلى هَوْل المَوقف ، ولحظاتِ الاحتضار العصيبة التي يُعاني فيها الإنسانُ، ويتكبَّد المَشَاق العظيمة. وفي تلك اللحظات لا يَنفع المالُ ولا الجاه ولا النُّفوذ ولا السُّلطة . والإنسانُ يكون وحيدًا وضعيفًا ، بِلا حَوْل ولا قُوَّة .

فَهَلَّا إذا بَلَغَت النَّفْسُ الحَلْقَ عِند خُروجها مِن الجسد حِينَ الاحتضار . ولم يَتم ذِكْر النَّفْس، لدَلالة الكلام عليها ، ولأن المعنى مَفهوم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٦٣): ((وقَوله : ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلَّا إذا بَلَغَت النُّفُوسُ عِندَ خُروجها مِن أجسادكم أيُّها الناسُ حلاقيمكم))اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ ، أي : فَهَلَّا إذا بَلَغَت النَّفْسُ أو الرُّوحُ الحُلقومَ . ولم يتقدَّم لها ذِكْر ، لأن المعنى مَعروف)) اهـ . وقال حاتم الطائي في تصويره لشِدَّة خُروج الرُّوح مِن الجسد (الحَشْرَجَة) : أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَن الفَتَى إذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

المعنى : يا مَاوِيَّة ، إنَّ الغِنى وكثرة الأموال لا تَحْمي صاحبَها مِن المَوت إذا حانَ أجَلُه . وقد أرادَ النَّفْسَ ، ولم يَجْرِ لها ذِكْر ، لأن المَعنى مَفهوم . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٤) : ((يُريد : وضَاقَ بالنَّفْسِ الصَّدْرُ ، فكَنَّى عنها ، ولم يَجْرِ لها ذِكْر ، إذْ كان في قَوله : إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا ، دَلالة لسامع كلامه على مُراده بقَوله : وضَاقَ بِها)) .

---

٢٠٦ في مجمع الزوائد (٣/ ٥٩) : ((وعن ابن عباس قال : " آخِرُ شِدَّةً يَلْقاها المؤمنُ الموت " . رواه أحمد . وفيه قابوس ، وثَّقه ابن مَعِين وابن عَدِي ، وضعَّفه النَّسائي وغَيْرُه)) .

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال: جاء رَجل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أَيُّ الصَّدقةِ أعظمُ أجْرًا ؟ ، قال : ((أن تَصَدَّقَ وأنتَ صَحِيحٌ شَحِيح ، تَخشى الفقر ، وتَأْمُلُ الغِنى ، ولا تُمْهِلُ حتى إذا بَلَغَت الحُلْقُوم ، قُلتَ : لِفُلان كذا ، وَلِفُلان كذا ، وقد كَان لِفُلان)) [٢٠٧].

ينبغي المُسارَعة إلى عمل الخَيْرات،وبذل الصَّدَقات، والإنفاق في سبيل الله،قبل أن تَبلُغ الرُّوحُ الحُلقومَ،ويبدأ العبدُ حينئذٍ بالحَسرة وتمنِّي تدارُك ما فاته من أعمال البِر.فما دام في العُمر فُسحةٌ فعلى المرء أن يستغلها على أكمل وجه قبل أن يغرق في الاحتضار، وتُفارِق الرُّوحُ البدنَ ، ويُصبح في عِداد الموتى الذين انقطعت أعمالهم،وحان وقتُ حصاد ما زرعوه دون أيَّة فرصة للتعويض.

إن أفضل الصَّدَقة هي صَدَقة الصَّحيح الشَّحيح ، الذي يتمتَّع بالصِّحة والعافية والنشاط ، ولا يُعاني مِن أيِّ مرض يَقطع أمَلَه في الحياة ، والذي مِن شأنه الشُّح ، وهو البُخل مع الحِرص . يَخاف من الفقر ويَحسِب له حِسابًا ، ويَطمع في الغِنى ويَرجو امتلاك الثروة . ومعنى " ولا تُمْهِلُ حتى إذا بَلَغَت الحُلْقُوم " : لا تُؤخِّر ولا تُؤجِّل حتى بُلوغ الرُّوح الحَلْق . والمُراد الشُّعور باقتراب الموت. وعندئذٍ، تُحاوِل أن تُسابِق الزمن ، وتتدارك ما فات بعد فوات الأوان، وتُوصِي لِفُلان ، وتتصدَّق على فُلان . " وقد كَان لِفُلان " أي : أصبح مَالُكَ مِلْكًا لِغَيرك ، وهُم وَرَثتك .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٢٣) : ((قال الخطابي : فمعنى الحديث أن الشُّح غالب في حال الصِّحة ، فإذا شَحَّ فيها وتَصَدَّقَ كان أصدق في نِيَّته وأعظم لأجره ، بِخِلاف مَن أشرف على الموت وآيَسَ مِن الحياة ، ورأى مصير المال لِغَيره، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حالة الصِّحة والشُّح ، رَجاء البقاء وخوف الفقر ، " وتأمُل الغِنى " بضم الميم أي تطمع به . ومعنى " بَلَغَت الحُلقوم " بَلَغَت الرُّوح ، والمراد: قاربت بُلوغ الحلقوم ، إذ لو بلغته حقيقةً لَم تَصِحَّ وَصِيَّته ولا صَدَقته ، ولا شيء مِن تصرُّفاته باتفاق الفقهاء . وقَوله ﷺ : " لِفُلان كذا ولِفُلان كذا ألا وقد كان لِفُلان ". قال الخطابي: المراد به الوارث.وقال غَيره: المراد به سَبْق القضاء به للمُوصَى له . ويُحتمَل أن يكون المعنى أنه قد خرج عن تصرُّفه ، وكمال مِلْكه ، واستقلاله بما شاء مِن التصرف ، فليس له في وصيته كبير ثواب ، بالنسبة إلى صدقة الصَّحِيح الشَّحِيح)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤) : ((وفي الحديث أن تَنجيز وفاء الدَّيْن والتَّصَدُّق في الحياة وفي الصحة أفضل مِنه بعد الموت ، وفي المرض . وأشار ﷺ إلى ذلك بِقَوله:

---

٢٠٧ متفق عليه. البخاري (٢/ ٥١٥) برقم (١٣٥٣) ، ومسلم (٢/ ٧١٦) برقم (١٠٣٢).

" وأنت صَحيح حريص تأمُل الغِنى " إلخ ، لأنه في حال الصِّحة يَصعُب عليه إخراج المال غالبًا لِمَا يُخوِّفه به الشيطان ، ويُزيِّن له مِن إمكان طول العُمُر ، والحاجة إلى المال ، كما قال تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] . وأيضًا فإن الشيطان ربما زَيَّن له الحَيْف في الوصية أو الرجوع عن الوصية ، فيتمحَّض تفضيل الصَّدَقة الناجزة. قال بعضُ السَّلَف ـ عن بعض أهل التَّرَف ـ : يَعْصُونَ اللهَ في أموالهم مَرَّتَيْن ، يَبخَلُون بِها وهي في أيديهم ، يعني في الحياة ، ويُسْرِفون فيها إذا خَرجت عن أيديهم ، يعني بعد الموت . وأخرج الترمذي بإسناد حسن وصحَّحه ابن حِبَّان عن أبي الدَّرداء مرفوعًا قال : " مَثَلُ الذي يُعتِق ويَتصدَّق عِند مَوْته مَثَلُ الذي يُهْدِي إذا شَبِعَ ". وهو يرجع إلى معنى حديث الباب. وروى أبو داود وصحَّحه ابن حِبَّان من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ مَرفوعًا: " لأن يَتَصَدَّقَ الرَّجل في حياته وصِحَّته بِدِرْهم ، خَيْرٌ له مِن أن يَتصدَّق عِند مَوْته بمائة ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ [القِيامة : ٢٦] .

هذا مَشْهَدٌ في غاية الصُّعوبة ، حِينَ تَبلُغ الرُّوحُ أعالي الصَّدْر في طريق خُروجها مِن الجسد . وهذه الصُّورةُ المُعبِّرة عن الاحتضار شديدة التأثير ، وتَجعل المُستمعَ يُتابع حَركةَ الرُّوح الخارجة مِن الجسد لَحظةً بلحظة بكُل ما يَحمله هذا الحَدَث الرهيب مِن شِدَّة وألم . ولم يتم ذِكْر الرُّوح أو النَّفْس لدَلالة التَّراقي عَلَيها . والمُراد بالآية التَّذكير بصُعوبة الحال عِند نُزول المَوت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠) : ((يُخبِر تعالى عن حالة الاحتضار ، وما عِندَه مِن الأهوال ، ثَبَّتَنَا اللهُ هنالك بالقَول الثابت ، فقال تعالى : ﴿ كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ . إنْ جَعَلْنا ﴿ كَلَّا ﴾ رادعة ، فمعناها : لَسْتَ يا ابنَ آدم هُناك تُكَذِّب بما أخبرتُ به ، بل صار ذلك عِندك عِيَانًا ، وإنْ جَعَلْناها بمعنى حَقًّا ، فظاهر ، أي : حَقًّا إذا بَلَغَت التَّراقي ، أي : انْتُزِعَتْ رُوحُك مِن جَسَدِك ، وبَلَغَتْ تَرَاقِيك . والتَّرَاقي جَمْع تَرْقُوَة، وهي العِظَام التي بَيْن ثُغْرَة النَّحْر والعَاتِق)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٢٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ . قال الزجاج : (كَلَّا) رَدْع وتَنبيه . المعنى: ارتدعوا عمَّا يُؤدِّي إلى العذاب . وقال غَيره : معنى (كَلَّا) لا يؤمن الكافر بهذا. قَوله تعالى : ﴿ إذا بَلَغَتِ ﴾ يعني : النَّفْس . وهذه كِناية عَن غَير مَذكور. و (التَّرَاقي) العِظَام المُكتنفة لنُقرة النَّحْر عن يمين وشِمال . وواحدة التَّرَاقي تَرْقُوَة . ويُكَنَّى ببُلوغ النَّفْس التَّرَاقي عن الإشفاء على المَوت)) اهـ . وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ بَزَقَ على كَفِّه ، فقال : ((يقول اللهُ : يا ابنَ آدم ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خَلقتك مِن مِثْل هذه ، حتى إذا سَوَّيْتُكَ ، وعَدَلْتُكَ ،

مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَتَيْن ، وللأرض مِنك وَئِيد _ يعني شَكوى _ ، فَجَمَعْتَ ، ومَنَعْتَ ، حتى إذا بَلَغَت التَّراقيَ ، قُلْتَ : أتصدَّق . وأنَّى أوانُ الصَّدَقة ؟!))[٢٠٨].

الإنسانُ كائن ضعيف ، وقد خَلَقَه اللهُ مِن نُطفة مَهِينة تُشبِه لُعَابَ البَزْقَة الصغيرة في الحَجم والضَّعْف . والمشكلةُ أنَّ الإنسان كائن مغرور وجاهل ، يَنسَى أصْلَه ، ويَعتقد أنَّه صارَ قويًّا بما يَمتلكه مِن أدوات ومُقوِّمات وإمكانيات ، حتى إذا بَلَغَتْ رُوحُه التَّرَاقيَ ، واقتربَ أجَلُه ، وحَضَرَ مَوْتُه، تَذَكَّرَ الصَّدَقَةَ ، وأعمال الخَير ، وليس هذا وَقْت الصَّدَقة . كان ينبغي أن يتصدَّق قبل ذلك، في حياته وأثناء صِحَّته وعافيته . والحديثُ يَدعو إلى التَّصَدُّق والإنفاق في سبيل الله قَبَل المَوت .

ينبغي أن يُبادر العبدُ إلى عَمل الخَير قَبل وُصول الرُّوح إلى التَّرَاقي (عِظَام الحَلْق) ، يعني: قَبْل بُلوغ النَّفْس أعالي الصدر . وعندئذ تنتهي حياةُ العبد ، ويَدخل في عَالَم المَوتى دون فُرصة للعودة أو التَّعويض . والخَيرُ الحقيقي هو أن تَملِك ثُمَّ تتخلى طَواعيةً في ذِروة صِحَّتك وعُنفوانك، أمَّا الاحتضار فهو تَرْكٌ قَسري للحَياة الدُّنيا بكُل مَتاعها وزُخرُفها . وفي هذه الحالة كُلُّ الناس يُصبحون كِرَامًا أسخياء . وينبغي أن تكون الدُّنيا في اليد ، وليس في القلب . وهكذا يصبح العبدُ مَالِكًا للمال _ على وجه التحقيق _ ، فلا يَملِكه المالُ ، ولا تلعب به الدُّنيا ، ولا يَغتر بحُطامها .

وحالةُ الاحتضار الرهيبة لم يُوضِّحها القرآنُ للتَّخويف والاعتبار فَحَسْب ، بل أيضًا لِتَكُون حافزًا على عَمل الخَير ، والإسراع في العبادات والطاعات ، ما دام العبدُ على قَيْد الحياة ، وأمامه مُهلة زمنية ، وفُسحة مِن الوقت . ولم يصل إلى حالة الاحتضار. وعملُ العبدُ للخَير عِند الاحتضار (حِين يَفقد العبدُ فُرصته في الحياة) ليس كعمله للخَير أثناء حياته ، وفي أَوْج مُصارعته لشَهَواته ورَغَباته . وعملُ الخَير الحقيقي مكانه في الحياة الدُّنيا أثناء حياة العبد وصِحَّته وعافيته ، ونَزَواته الشَّهَوانية الاستهلاكية . فهذه هي مُجَاهَدَة النَّفْس ، والتغلُّب عليها في سبيل رضا الله تعالى . أمَّا حِين يَفقد العبدُ الأملَ في الحياة ، ويَعجَز عن التَّمَتُّع بها ، فلا معنى للإنفاق وعَمَل الطاعات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ [القِيامة : ٢٧] .

وقال أهلُ الشخص الذي قَارَبَ المَوْتَ (الحاضرون عِندَه) : مَن يَرقيه مِمَّا نَزَلَ به ؟. هَل مِن طَبيب يَشفيه مِمَّا أصابه ؟ . والآيةُ تُشير إلى عَجْز الإنسان وضَعْفه ، فلا أحد يَقْدِر أن يَرْقِيَ مِنَ المَوت ، ولا أحد يَستطيع أن يَشْفِيَ مِنه . وجَميع البشر لَن يُغْنُوا عنه مِن قَضاء الله شيئًا .

---

٢٠٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٥) برقم (٣٨٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٤٥) : ((... قال ابن زَيد : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : وقال أهْلُه : مَن ذا يَرقيه لِيَشْفِيَه مِمَّا قد نَزَلَ به ؟ . وطَلَبُوا له الأطباء والمُداوين ، فلم يُغْنُوا عَنه مِن أمر الله الذي قد نَزَلَ به شيئًا)) .

لقد ذكَّرهم اللهُ بصُعوبة المَوت وشِدَّته وقَسوته ، وهو أوَّل مَراحل الآخِرة ، حِينَ تَبلُغ الرُّوحُ التَّرَاقي (عِظَام أعلى الصَّدْر) . ويُكنَّى ببُلوغ الرُّوح التَّرَاقِيَ عِن القُرب مِن المَوت . وعندئذ يَقول أهلُ الشخص المُحْتَضَر: مَن يَرْقي ويَشْفي هذا المريض ؟. وهذا يدل على اليأس، فلا رُقْيَة مِن الاحتضار ، ولا شِفاء مِنَ المَوت . ومَن ماتَ قامتْ قِيامته . ومصيره الخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار . ولا تُوجد فُرصة للتَّعويض ، ولا العَودة إلى الدُّنيا . وهذا يَعني ضرورة استثمار كُل لحظة في الدُّنيا ، في عبادة الله وطاعته . والدُّنيا مَزرعة الآخِرة . وكما تَزرَع في الدُّنيا تَحصُد في الآخرة . والدُّنيا امتحان ولا نتيجة.والآخِرة نتيجة ولا امتحان. والدُّنيا عَمَل بلا جَزاء،والآخِرة جَزاء بلا عَمَل.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ [القِيامة : ٢٨] .

وأيقنَ المُحْتَضَرُ الذي بَلَغَتْ رُوحُه التَّرَاقِيَ أنَّه سيُفَارِق الدُّنيا والأهلَ والمالَ والولدَ ، لمُعاينته ملائكة المَوت . وصَدَقَ القائل :

فِرَاقٌ لَيْسَ يُشبِهه فِرَاق قد انقطعَ الرَّجَاءُ عَن التَّلاق

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٤٦): ((وقَوله : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه: وأيقنَ الذي قد نَزَلَ ذلك به أنَّه فِرَاق الدُّنيا والأهل والمَال والوَلَد . وبنَحْو الذي قُلنا في ذلك ، قال أهل التأويل . ذِكْر مَن قال ذلك : حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عَن قَتادة : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ ، أي : استيقنَ أنَّه الفِرَاق . حَدَّثني يُونُس ، قال : أخبرنا ابن وَهْب ، قال : قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ ، قال : ليس أحد مِن خَلْق الله يَدفع المَوْتَ،ولا يُنكِره ولكن لا يَدري يَموت مِن ذلك المَرض ، أو مِن غَيره ، فالظن كما هاهُنا هذا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ﴾ [القِيامة : ٢٩] .

والْتَفَّتْ إحدى سَاقَي المُحْتَضَر على الأُخرى، بسبب شِدَّة سَكَرَات المَوت، وألمِ النَّزْع ، وصُعوبة المَوقف . أو : والْتَفَّتْ شِدَّةُ أمر الدُّنيا بشِدَّة أمر الآخِرة ، إلا مَن رَحِمَه اللهُ تعالى . وهذا يعني أن الشدائد تتابعت عَلَيه . والعربُ تَذكُر السَّاقَ إذا أرادتْ شِدَّةَ الأمر وصُعوبته ، والإخبار عَن هَوْله وفظاعته .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ١٨٧) : ((ورُوِيَ عن ابن عباس أن المُراد اجتمعت عليه شِدَّة مُفارَقة الدُّنيا ، معَ شِدَّة المَوت وكَرْبه ، فيكون ذلك مِن باب التَّمثيل للأمر الهائل العظيم ، حَيث يَلتقي عليه شِدَّة كَرْب الدُّنيا، معَ شِدَّة كَرْب الآخرة . كما يُقَال : شَمَّرَت الحربُ عن ساق ، استعارة لشِدَّتها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٧٩) : ((﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ﴾ ، أي : الْتَفَّتْ ساقُه بساقه عِند نُزول المَوت به . وقال جُمهور المُفسِّرين : المعنى تتابعت عليه الشدائد . وقال الحسن : هُمَا ساقاه إذا الْتَفَّتا في الكَفَن . وقال زيد بن أسلم : الْتَفَّتْ ساقُ الكفن بساق المَيت. وقِيل: ماتت رِجْلاه ، ويَبِسَتْ ساقاه ، ولم تَحْمِلاه ، وقد كان جَوَّالًا عليهما . وقال الضَّحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يُجهِّزون جَسَدَه ، والملائكة يُجهِّزون رُوحَه ، وبه قال ابن زيد . والعرب لا تَذكُر السَّاق إلا في الشِّدائد الكِبَار، والمِحَن العِظَام . ومِنه قَولهم : قامت الحربُ على سَاق. وقِيل: الساق الأول تعذيب رُوحه عند خُروج نَفْسه، والساق الآخَر شِدَّة البَعْث وما بعده)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ﴾ [القِيامة : ٣٠] .

إلى اللهِ خَالِقِكَ يَوم القِيامة المَرجِع والمَآب، حَيث يُجمَع العِبَادُ (الأبرار والفُجَّار) إلى الله ، ويُساقون إلَيه ، ليَحكُم بينهم بالحق ، ويَفصِل بين خُصوماتهم ونزاعاتهم ، ويُجَازِيَ المُحْسِنَ بإحسانه ، ويَكون مصيره الجَنَّة ، ويُجَازِيَ المُسِيءَ بإساءته ، ويَكون مصيره النار .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠): ((وقَوله تعالى : ﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ﴾ ، أي: المَرجِع والمَآب وذلك أن الرُّوح تُرفَع إلى السَّماوات، فيقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : رُدُّوا عَبْدي إلى الأرض فإنِّي مِنها خَلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومِنها أُخرجهم تَارَةً أُخرى، كما ورد في حديث البَرَاء الطويل)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٦): ((أي: مَرجِع العِباد يَومئذ إلى الله يُسَاقون إليه)) .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٧٨٠) : ((والمعنى إذا بَلَغَت النَّفْسُ الحُلقومَ تُساق إلى حُكم رَبِّها)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١١٥٦) : ((﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ﴾ المُنتهَى والمَرجِع بسَوْق الملائكة الرُّوح إلى حيث أمرَ اللهُ سُبحانَه)) .

د_ الابتلاء

قالَ اللهُ تعالى:﴿ الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾ [المُلْك : ٢] .

تُوضِّح الآيةُ قُدرةَ اللهِ المُطْلَقَةَ ، وحِكمته البالغة ، فهو سُبحانَه أوجدَ في الدُّنيا المَوْتَ والحياةَ، فأحيا مَن شاء، وأماتَ مَن شاء، ليَختبر الناسَ ويَمتحنهم ، أيُّهم أحسنُ عملًا ، وأخْلَصُه، وأصْوَبُه ، فالخالص أن يَكون لوَجْه الله تعالى ، والصَّواب أن يَكون وَفْق السُّنَّة .

لقد أوجدَ اللهُ الخَلْقَ مِن العَدَم ليَمتحنهم، ويَعْلَم الطائعَ والعاصي ، والمُحسِنَ والمُسيء. وهذا عِلْم وُقوع،لأنَّ اللهَ عَالِمٌ بالطائع والعاصي أزَلًا،وعَالِم بكُل مَخلوق قبل أن يَخْلُقَه.والله لَم يَقُلْ: أكثر عملًا ، وإنَّما قال : ﴿ أحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، فالعِبرة بإتقان العمل ، وليس بكَثْرته . ثُمَّ يُجازي الناسَ بعد المَوت. وهو الغالبُ في انتقامه مِمَّن عَصَاه ، الغَفُورُ لذُنوب مَن تابَ ، وأنابَ إلَيه .

وتقديم المَوت على الحياة ، لأنَّه أشد تأثيرًا في النُّفوس ، وأكثر تَخويفًا ، وأقوى داعيًا إلى العبادة والطاعة وإتقان العمل . أو : لأنَّ أصل الأشياء المَوت وعدم الحياة ، والحياة عارضة لها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨١) : ((فيه مسألتان : الأُولَى _ قَوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ ﴾ . قِيل : المَعنى خَلَقَكُم للمَوت والحَياة ، يعني للمَوت في الدُّنيا ، والحياة في الآخرة . وقَدَّمَ المَوْتَ على الحياة ، لأنَّ المَوت إلى القَهْر أقرب ... . وقِيل : قَدَّمَه لأنَّه أقدم، لأنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حُكم المَوْت ، كالنُّطفة والتراب ونَحْوه . وقال قَتادة : كان رسول الله ﷺ يقول : " إنَّ اللهَ تعالى أذلَّ بني آدمَ بالمَوت ، وجَعَلَ الدُّنيا دَارَ حياة ، ثُمَّ دَارَ مَوْت، وجَعَلَ الآخرةَ دَارَ جَزَاء ، ثُمَّ دَارَ بَقَاء ". وعن أبي الدَّرداء: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: " لَوْلا ثلاث ما طَأطأ ابنُ آدم رأسَه : الفَقر ، والمَرَض ، والموت ، وإنَّه مَعَ ذلك لَوَثَّاب " . المسألة الثانية _ ﴿ المَوْتَ والحَيَاةَ ﴾ . قَدَّمَ المَوْتَ على الحياة ، لأنَّ أقوى الناس داعيًا إلى العَمَل مَن نَصَبَ مَوْتَه بَين عَيْنَيْه، فَقَدَّمَ ، لأنَّه فِيما يَرجع إلى الغرض المَسُوق له الآية أهَم . قال العلماء : المَوت ليس بعدم مَحْض، ولا فَنَاء صِرْف ، وإنَّما هو انقطاع تَعَلُّق الرُّوح بالبَدَن ، ومُفارقته ، وحَيلولة بينهما ، وتبدُّل حال ، وانتقال من دار إلى دار ، والحياة عَكْس ذلك . وحُكِيَ عن ابن عباس والكلبي ومُقاتل : أن المَوت والحياة جِسمان ، فَجَعَلَ المَوْتَ في هَيئة كَبْش ، لا يمرُّ بشيء ، ولا يَجِد رِيحَه ، إلا مات. وَخَلَقَ الحياةَ على صُورة فَرَس أُنثى بَلْقَاء _ وهي التي كان جِبريل والأنبياء عليهم السلام يَركبونها_ خُطوتها مَد البَصَر ، فَوْق الحِمار ، ودُون البَغْل ، لا تمرُّ بشيء يَجِد رِيحَها إلا حَيِيَ ، ولا تطأ على شيء إلا حَيِيَ ، وهي التي أخذَ السامريُّ مِن أثَرها ، فألقاه على العِجْل ، فَحَيِيَ . حَكَاه الثعلبي والقُشَيري عن ابن عباس ، والمَاوَرْدِي معناه عن مُقاتل والكلبي . قُلتُ : وفي التَّنزيل : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ﴾ [السَّجدة : ١١] . ﴿ وَلَوْ ترى إذْ يَتَوَفَّى الذينَ كَفروا

الملائكةُ ﴾ [الأنفال : ٥٠] . ثُمَّ ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ﴾[الأنعام : ٦١] . ثُمَّ قال : ﴿ اللهُ يَتوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِها ﴾ [الزُّمَر : ٤٢] . فالوسائط مَلائكة مُكَرَّمُون صلوات الله عليهم ، وهو سُبحانَه المُمِيت على الحقيقة ، وإنَّما يُمثَّل المَوْت بالكَبْش في الآخِرة ، ويُذبَح على الصِّراط ، حَسَبَ ما ورد به الخَبَر الصحيح . وما ذُكِرَ عن ابن عباس يَحتاج إلى خبر صحيح يَقطع العُذرَ ، والله أعلم . وعَن مُقاتل أيضًا : خَلَقَ المَوْتَ ، يَعني : النُّطفة والعَلَقَة والمُضْغَة. وخَلَقَ الحَيَاةَ، يَعني: خَلَقَ إنسانًا، ونَفَخَ فيه الرُّوحَ، فصارَ إنسانًا.قُلت:وهذا قَوْل حَسَن يدل عليه قَوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ... . وقال السُّدي في قَوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، أي : أكثركم للمَوت ذِكْرًا ، وأحسن استعدادًا ، ومِنه أشد خَوْفًا وحَذَرًا . وقال ابن عمر : تَلا النبيُّ ﷺ : ﴿ تَبارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ ﴾ حتى بَلَغَ ﴿ أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . فقال : " أوْرَعُ عن مَحَارم الله ، وأسْرَعُ في طاعة الله " . وقِيل : مَعنى ﴿ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾ ، لِيُعاملكم مُعامَلة المُخْتَبِر، أي : لِيَبْلُوَ العَبْدَ بمَوت مَن يَعِزُّ عَلَيه لِيَبِين صَبْرُه، وبالحياة لِيَبِين شُكْرُه . وقِيل : خَلَقَ اللهُ المَوْتَ للبَعْث والجَزَاء ، وخَلَقَ الحياةَ للابتلاء ، فاللام في ﴿ لِيَبْلُوَكُم ﴾ تتعلَّق بخَلْق الحياة ، لا بخَلْق المَوت ، ذَكَرَه الزَّجاج ، وقال الفَرَّاء والزَّجاج أيضًا : لَم تَقَع البَلْوَى على " أيُّ " لأن فِيما بَيْن البَلْوَى و " أيُّ " إضمار فِعْل ، كما تقول : بَلَوْتُكُم لأنظرَ أيُّكُم أطْوَع ... . فَـ ﴿ أيُّكُم ﴾ رُفِعَ بالابتداء ، و ﴿ أحْسَنُ ﴾ خَبَره . والمعنى : لِيَبْلُوَكُم فيَعْلَم أو فيَنظُر أيُّكُم أحسن عَمَلًا ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ في انتقامه مِمَّن عَصَاه ﴿ الغَفُورُ ﴾ لِمَن تاب)).

إنَّ المَوت لَيس فَنَاءً كامِلًا ، ولا عَدَمًا مَحْضًا ، ولا انقطاعًا بالكُلِّية عن الحياة ، وإنَّما هو انتقال مِن الدار الزائلة (الدُّنيا) إلى الدار الباقية (الآخرة)، لذلك ثَبَتَ أن المَيت يَسمع ويَرى ويُحِس ، وهو في قَبْره . فعن أنس بن مالك_ رضي اللهُ عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قَبْره ، وَتَوَلَّى عنه أصحابُه ، وإنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم)) [٢٠٩].

إذا ماتَ العبدُ ، ووُضِعَ في قَبْره ، وانصرفَ عنه المُشَيِّعُون له مِن أهله وأصدقائه الذين جاؤوا لدَفْنه ، فإنَّه يَسمَع صَوْتَ خَفْق نعالهم بالأرض ، وهُم مُنْصَرِفُون . وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((والذي نَفْسِي بيده ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقولُ مِنهُم ، ولَكِنَّهم لا يَقْدِرُون أن يُجيبوا)) [سَبَق تخريجه] . فالموتُ انقطاع تعلُّق الرُّوح بالبدن ، ومُفارقتها للجسد .

---

٢٠٩ متفق عليه . البخاري (١/ ٤٦٢) برقم (١٣٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠) برقم (٢٨٧٠) .

٢_ البَعْث

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنتم أمْوَاتًا فأحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ [البقرة : ٢٨] [٢١٠].

إن اللهَ تعالى قد وضَّح مسألة الإحياء والإماتة كَي يتفكر الناسُ فيها ، ويستدلوا على القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة . فالحياةُ والموت مشهدان ماثلان أمام الناس جميعًا . وينبغي للفرد أن يتفكر فيهما وبما وراءهما ، وبالقوةِ القادرة على منح الحياة وسلبها دون صعوبة أو تناقض .

وجَّه اللهُ فكرَ الناس إلى مُشاهَدات حِسِّية مِن صميم حياتهم . فالنُّطفةُ كِيانٌ ميت لا وزن له . وحينما تخرج من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ثم تَحدُث الولادة ، فإن هذه النُّطفة تصير كائنًا حَيًّا ذا لحم ودم وقلب ودماغ وأعضاء متكاملة وأجهزة بالغة التعقيد والدقة منتظمة في عملها ، بلا فَوضى ولا تعارُض ولا تضاد . وهذه العمليةُ الباهرة التي تشتمل على الخروج من الموت إلى الحياة تشير إلى قُدرة الخالق المُطْلَقَة . وبعد انتهاء فترة الحياة المُقدَّرة ، فإن الإنسان ينتقل إلى الموت . والإنسان لا يختار موعد ميلاده ولا لحظة وفاته . وهذا يشير إلى وُجود قُوَّة قاهرة للإنسان . وبالتأكيد فهذه القوة هي قُوَّة الله الذي لا يُعجِزه الإحياء ولا الإماتة .

---

٢١٠ قال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((وبَّخهم واحتجَّ عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك ، وجُحودهم ما جَحدوا بقلوبهم المريضة . فقال : كيف تكفرون بالله فتَجحَدون قُدرته على إحيائكم بَعْد إماتتكم لبعث القيامة ... وقد كنتم نُطَفًا أمواتًا في أصلاب آبائكم ، فأنشأكم خَلْقًا سَوِيًّا ، وجَعَلَكم أحياءً ، ثم أماتكم بعد إنشائكم ؟ . فقد علمتم أنَّ مَن فَعَلَ ذلك بِقُدرته غَير مُعجِزه _ بالقُدرة التي فَعَلَ ذلك بكم _ إحياؤكم بعد إماتتكم،وإعادتكم بعد إفنائكم، وحَشركم إليه لِمُجازاتكم بأعمالكم)) اهـ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٧): ((قَوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تكفرون بالله ﴾ في ﴿ كَيْفَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه استفهام في معنى التَّعَجُّب ، وهذا التَّعَجُّب للمؤمنين، أي: اعْجَبُوا مِن هؤلاء كَيف يكفرون وقد ثبتت حُجَّة الله عليهم ، قاله ابن قُتَيبة والزَّجاج . والثاني أنه استفهام خارج مَخرج التقرير والتَّوبيخ تقديره : وَيْحَكُم كيف تكفرون بالله ؟ . وفي الحياتَيْن والموتَتَيْن أقوال أصَحُّها أن الْمَوْتة الأُولَى كَونهم نُطَفًا وعَلَقًا ومُضَغًا ، فأحياهم في الأرحام ، ثُمَّ يُميتهم بعد خُروجهم إلى الدنيا، ثُم يُحيِيهم للبَعْث يَوم القِيامة. وهذا قول ابن عباس وقَتادة ومُقاتل والفَرَّاء وثعلب والزَّجاج وابن قُتَيبة وابن الأنباري)) .

لقد كانوا أمواتًا (نُطَفًا في أصلاب آبائهم) ، فأحياهم اللهُ في الأرحام والدُّنيا ، ثُمَّ يُميتهم عِند نهاية أعمارهم وانقضاء آجالهم، ثُمَّ يُحييهم (يَبعثهم مِن المَوت) ، ويَرُدُّهم في الآخرة لِيُحاسبهم، ويَجزيَهم بأعمالهم .

والاستفهامُ في الآية يَحمل معنى الإنكار والتعجيب مِن حال الكافرين . فهؤلاء ينبغي التَّعَجُّب مِنهم حِينَ كفروا ، بعد أن قامت الحُجَّة عليهم ، واتَّضحت أمامهم الأدلة والبراهين ، وانقطع عُذرُهم . والآيةُ أيضًا تَحمل معنى التَّوبيخ الشديد لهؤلاء ، لأن الجماد لا يُنازِع خالقَه _ سُبحانَه وتعالى _ في شَيء ، أمَّا هؤلاء الكفار الذين لَدَيهم عقول وقلوب وأرواح ، فَيُنازِعُون اللهَ صَانعَهم ومُوجِدَهم مِن العَدم. لقد وَبَّخهم اللهُ على كُفرهم مَعَ عِلْمهم بحالهم وعَجْزهم ووجودهم بعد العدم، والمعنى : أخبِروني على أيِّ حال تَكْفُرون بالله . والخطابُ للكافرين ، والتَّعجيب للمؤمنين .

وكلُّ إنسان _ بغض النظر عن عقيدته _ مقتنع تمامًا بأنه لَم يكن موجودًا ثم وُجِد ، وأنه سائر إلى الموت . والعجيبُ أنك ترى الملاحدة يُنكِرون وجودَ الله تعالى لكنهم لا يُنكِرون الموتَ . ولو أنهم أعملوا عقولَهم لأدركوا أن الموتَ خاضع لقوة عُليا تتحكم فيه ، وتُحدِّد موعدَه ، وهذه قوة الله خالقِ الحياة والموت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٤): ((أي : كيف تَجحَدون رَبَّكُم ودَلالته عليكم ظاهرة جَلِيَّة ، كُل أحد يَعلمها مِن نَفْسه، فإنه ما مِن أحد مِن المخلوقات إلا ويَعْلَم أنه كان مَعدومًا ثُم وُجِد ، وليس وجوده مِن نَفْسه ، ولا مُستنِدًا إلى شيء من المخلوقات ، لأنه بِمَثابته ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كُل شَيء)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٧) : ((﴿ كَيْفَ تكفرون بالله ﴾ استخبار فيه إنكار ، وتعجيب لكُفرهم بإنكار الحال التي يقع عَلَيها على الطريق البُرهاني، فإن صُدوره لا يَنفكُّ عَن حال وصِفة ، فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يُوجد عَلَيها ، استلزم ذلك إنكار وجوده ، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكُفر مِن (أتكفرون) وأوفق لِمَا بعده من الحال . والخطاب مع الذين كفروا ، لَمَّا وصفهم بالكُفر وسُوء المقال وخُبث الفِعال ، خاطبهم على طريقة الالتفات ، وَوَبَّخهم على كُفرهم مع عِلمهم بحالهم المُقتضية خِلاف ذلك ، والمعنى : أخبِروني على أي حال تكفرون . ﴿ وكنتم أمواتًا ﴾ أي : أجسامًا لا حياة لها ، عناصر وأغذية ، وأخلاطًا ونُطَفًا ، ومُضَغًا مُخَلَّقة وغَير مُخَلَّقة. ﴿ فأحياكم ﴾ بِخَلْق الأرواح ونَفْخها فيكم، وإنما عَطَفه بالفاء لأنه مُتَّصل بما عُطِف عَلَيه غَير مُتراخٍ عنه بخلاف البواقي . ﴿ ثُمَّ يُميتكم ﴾ عندما تُقضَى آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحييكم ﴾ بالنُّشور

يوم يُنفَخ في الصُّور، أو للسؤال في القبور. ﴿ ثُمَّ إلَيه تُرجَعون ﴾ بعد الحشر فَيُجازيكم بأعمالكم . أو تُنشَرون إلَيه مِن قُبوركم للحساب . فما أعجبَ كُفرَكم مَعَ عِلمكم بحالكم هذه . فإن قيل : إن عَلِموا أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم ثُمَّ يُميتهم ، لَم يَعْلَموا أنه يُحييهم ثُمَّ إليه يُرجَعون . قلتُ : تَمَكُّنهم مِن العِلم بهما لِمَا نَصَبَ لهم مِن الدلائل مُنَزَّل مَنْزلة عِلمهم في إزاحة العُذر ، سِيَّما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صِحَّتهما وهو : أنه تعالى لَمَّا قَدِرَ على إحيائهم أوَّلًا ، قَدِرَ على أن يُحيِيَهم ثانيًا. فإن بَدْء الخَلْق لَيس بأهْوَن عَلَيه مِن إعادته . أو الخطاب مَعَ القبيلين ، فإنه سُبحانَه وتعالى لَمَّا بَيَّنَ دلائل التوحيد والنُّبُوَّة ، ووعدهم على الإيمان ، وأوعدهم على الكفر ، أكَّدَ ذلك بأن عَدَّدَ عليهم النِّعَم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النِّعَم الجليلة، فإن عِظَم النِّعَم يُوجِب عِظَم مَعصية المُنعِم. فإن قِيل: كيف تُعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم المُقتضية للشُّكر ؟ ، قلتُ : لَمَّا كانت وَصْلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإنَّ الدارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحيَوَان ﴾ [العنكبوت : ٦٤] كانت مِن النِّعَم العظيمة، مع أن المعدود عليهم نِعمة ، هو المعنى المُنْتزَع مِن القصة بأسرها ، كما أن الواقع حالًا هو العِلم بها لا كُل واحدة مِن الجُمَل ، فإن بعضها ماضٍ وبعضها مُستقبَل ، وكِلاهما لا يَصِحُّ أن يقع حالًا . أو مَعَ المؤمنين خاصَّة لتقرير المِنَّة عليهم، وتَبعيد الكُفر عنهم على معنى : كيف يُتَصَوَّر منكم الكفر وكنتم أمواتًا جُهَّالًا ، فأحياكم بما أفادكم مِن العِلم والإيمان ، ثُمَّ يُميتكم الموت المعروف ، ثُمَّ يُحييكم الحياة الحقيقية ، ثم إليه تُرجَعون ، فَيُثيبكم بما لا عَيْن رأت، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَر على قلب بشر . والحياة حقيقة في القُوَّة الحَسَّاسة ، أو ما يقتضيها ، وبها سُمِّيَ الحيَوان حَيَوَانًا مَجَازًا في القوة النَّامية ، لأنها مِن طلائعها ومُقدِّماتها ، وفيما يَخُص الإنسان من الفضائل ، كالعقل والعِلم والإيمان مِن حَيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يُقال على ما يُقابلها في كُل مرتبة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالَ أنظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُون ﴾[الأعراف : ١٤] .

طَلَبَ إبليسُ اللعينُ مِنَ الله تعالى أن يُؤَخِّرَه ويُمْهِلَه إلى يَوم بَعْث الناس مِن قُبورهم (النَّفْخة الثانية عِند قِيام السَّاعة) ، كَي يَنْجُوَ مِن المَوت ولا يَذُوقه ، لأنَّ يَوم البَعْث لا مَوْتَ بَعْدَه .

واللهُ لَم يُجِبْهُ إلى ما سَأل، وإنَّما أخَّره وأمْهَلَه إلى يَوم مَوت جَميع الخلائق عِند النَّفْخة الأُولَى، ولَيس النَّفْخَة الثانية ، لأنَّه بَعد البَعْث _ النَّفْخَة الثانية في الصُّور _ لا يَكون هُناك مَوت . إذن ، سيموت إبليسُ عِند النَّفْخة الأُولَى (نَفْخَة الصَّعْق) ثُمَّ يُبعَث عِند النَّفْخَة الثانية (نَفخة الإحياء) . وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فانٍ ﴾ . وهذا دَليل على أنَّ إبليس لَيس خالدًا في الدُّنيا .

وإمهالُ الله لإبليس يدل على حِكمة الله البالغة ، وإرادته النافذة في كُل شيء . ومِن أجل امتحان العِباد واختبارهم ، وتمييز الطائعين عَن العُصَاة ، وليس كَرامة لإبليس .

والآيةُ دليل على أنَّ إبليس مُؤمِن بالبَعْث ، ومُقِر بوُجود حياة بَعد المَوت ، وأن المَوت ليس نُقطة النِّهاية ، وإنَّما نُقطة البداية . ولا شَكَّ أنَّ المَوت لَيس عَدَمًا مُطْلَقًا ولا فَنَاءً كاملًا ، وإنما هو نَقلة من الدار الزائلة (الدُّنيا) إلى الدار الباقية (الآخِرة) .

وفي حقيقة الأمر ، إنَّ الإنسانَ لا يَمُوت ، ولا يَفنَى ، ولا يَصير عَدَمًا ، وإنَّما هو خَالِد إلى الأبد ، وباقٍ إلى ما لا نهاية ، إمَّا في الجَنَّة ، وإمَّا في النار .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الضَّمير في ﴿ يُبْعَثُون ﴾ لآدم ﷺ وذُرِّيته .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٩) : ((﴿ قالَ أنظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُون ﴾ . أمْهِلْني إلى يَوم القِيامة ، فلا تُمِتْنِي ، أو لا تُعَجِّلْ عُقوبتي)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٧٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ قالَ أنظِرْني ﴾ أي: أمْهِلْني وَأخِّرْني ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُون ﴾ ، فأرادَ أن يَعْبُرَ قَنطرةَ المَوت ، وسَأَلَ الخُلُودَ ، فلم يُجِبْه إلى ذلك، وأنظَرَه إلى النَّفخة الأُولَى حِين يَمُوت الخَلْقُ كُلُّهُم . وقد بَيَّنَ مُدَّةَ إمهاله في الحِجْر بقَوله: ﴿ إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ ﴾ [الحِجْر : ٣٨] . وفي ما سأل الإمهال له قولان : أحدهما المَوت. والثاني العُقوبة. فإن قِيل : كيف قِيل له : ﴿ إنَّكَ مِنَ المُنظَرِين ﴾ [الأعراف : ١٥] ، وليس أحد أُنْظِر سِوَاه ؟ . فالجواب أنَّ الذين تَقُوم عليهم الساعة مُنْظَرُون إلى ذلك الوَقْت بآجالهم ، فهو مِنهُم)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٤٢) : ((فإن قال قائل : فهل أحد مُنظَر إلى ذلك اليوم سِوى إبليس ، فيُقَال له : إنَّكَ مِنهُم ؟ . قيل : نعم ، مَن لَم يَقبِض اللهُ رُوحَه مِن خَلْقه إلى ذلك اليَوم مِمَّن تقوم عليه الساعةُ ، فهُم مِن المُنظَرين بآجالهم إلَيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِم لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ولَكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون ﴾ [النَّحْل : ٣٨] .

وَحَلَفَ المُشركون بالله ، واجتهدوا في الحَلْف ، وأقْسَمُوا الأيمانَ المُغلَّظة ، على أنَّ الله لا يَبعث مَن يَموت . لقد زَعَمُوا أن الله عاجز عن بَعْث الأموات ، وكذَّبوا الأنبياءَ فيما أخبروا بِه ، واسْتَبْعَدُوا بَعْثَ الأموات مِن قُبورهم بعد تفرُّق الأشلاء ، وانتشار الرُّفات في التراب . وهذا يدل على عِناد مُشركي قُرَيش واستكبارهم ووقاحتهم وكذبهم . فقد أغْلَظُوا الأيمانَ تكذيبًا مِنهُم بقُدرة الله على بعث الأموات مِن قُبورهم .

وقد كذَّبهم اللهُ وردَّ عليهم : بَلى ، سيبعث اللهُ الأمواتَ مِن قُبورهم . و ﴿ بَلى ﴾ إثبات لِمَا بعد النَّفْي . أي : بَل يَبعثهم . وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة ، وكائن بلا شَك ، واللهُ لا يُخلِف المِيعادَ ، ولكنَّ أكثر الناس لا يَعْلَمُون عَظَمَةَ اللهِ وقُدرته المُطْلَقَة ، فيُنكِرون البَعْثَ والنُّشورَ . والبَعْثُ سَهْل ويسير على الله تعالى . واللهُ الذي خَلَقَ الإنسانَ مِن العَدَم ، قادر على إعادته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٤٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِم ﴾ . سبب نزولها أن رَجُلًا مِن المُسلمين كان له على رَجُل من المشركين دَيْن ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلَّمَ به ، والذي أرجوه بعد الموت ، فقال المُشرك : وإنَّكَ لَتَزْعُم أنَّك تُبعَث بعد المَوت ، فأقسمَ بالله لا يَبعث اللهُ مَن يَموت، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٩٥) : ((قوله تعالى : ﴿ وأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِم ﴾ هذا تَعجيب مِن صُنعهم ، إذْ أقسموا بالله ، وبالغوا في تَغليظ اليمين ، بأن الله لا يَبعث مَن يَموت . ووَجْه التَّعجيب أنهم يُظهِرون تعظيمَ الله ، فيُقْسِمون به ، ثُم يُعجِزونه عَن بَعْث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرَجُل مِن المسلمين على مُشرك دَيْن ، فتقاضاه ، وكان في بعض كلامه : والذي أرجوه بعد المَوت إنَّه لكَذا ، فأقسمَ المُشْرِكُ بالله: لا يَبعث اللهُ مَن يَموت، فنزلت الآية . وقال قَتادة : ذُكِرَ لنا أن ابن عباس قال له رَجُل : يا ابن عباس إنَّ ناسًا يَزعُمون أن عَلِيًّا مَبعوث بَعْد المَوت قبل الساعة ، ويَتَأوَّلون هذه الآية ، فقال ابن عباس : كَذَبَ أولئك ! إنَّما هذه الآية عامة للناس ، لَوْ كان عليٌّ مَبعوثًا قَبْل القِيامة ، ما نَكَحْنَا نِسَاءَه ، ولا قَسَمْنا مِيراثَه . ﴿ بَلى ﴾ ، هذا رَد عليهم ، أي : بَلَى لَيَبعثنهم ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مَصدر مُؤَكَّد ، لأنَّ قَوله : يَبعثهم ، يدل على الوعد ، أي : وَعْد البَعْث وَعْدًا حَقًّا ، ﴿ ولَكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون ﴾ أنهم مَبعوثون)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((قال اللهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم ، ولَم يكن له ذلك ، وشَتَمَني ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ فقوله : لن يُعيدني كما بَدَأني ، وليس أولُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عَلَيَّ مِن إعادته ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فَقَوله : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وأنا الأحد الصَّمَد ، لَم ألِدْ وَلَم أُولَدْ ، وَلَم يَكُن لِي كُفُوًا أحد)) .

إنَّ البعثَ ثابتٌ نقلًا وعقلًا . وقد خاطب اللهُ الناسَ بما يَعقِلون، فَذَكَرَ _ سُبحانَه _ أن البعث أهْوَن وأيسر مِن بَدْء الخَلْق . ومَن قَدِرَ على الإنشاء مِنَ العَدَم ، كان البَعْثُ أهْوَنَ عَلَيه وأسهل، وَفْق المَنطق البشريِّ . واللهُ تعالى كُل شيء عنده هَيِّنٌ، فلا يُعجِزه شيء . وكُل شيء خاضع لإرادته ومشيئته وقُدرته وحِكمته ، فالبَداءةُ والبعثُ كِلاهما سَهْل يَسير ، وعلى السَّواء بالنسبة لِقُدرة الله

وإرادته النافذة في كل شيء.﴿ وإذا قَضى أَمرًا فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾. وما أراده اللهُ كائن لا مَحالة ، وواقع بلا شَك . ولا توجد عوائق أو موانع أمام إرادة الله ومَشيئته .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِنها خَلَقْناكُم وفِيها نُعِيدُكُم وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾[طه : ٥٥] .

مِنَ الأرض خَلَقَكُم اللهُ أيُّها الناسُ ، فإنَّ أباكم آدم ﷺ مَخلوق مِن تُراب الأرض. ويُعيدكم اللهُ بعد مماتكم إلى الأرض ، فتُدفَنون فِيها ، وتتفرَّق أجزاؤكم ، حتى تَصيروا تُرَابًا مِن جِنس الأرض . وَمِنَ الأرض يُخرجكم اللهُ يوم البَعْث مَرَّةً أُخرى ، كما أخرجكم عِند ابتداء خَلْقكم ، حَيث يَجمع أجسادَكم ، ويَرُد أرواحكم ، ويَبعثكم للحِسَاب والجَزاء ، والخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار.

لقد خَلَقَ اللهُ الناسَ مِنَ الأرض ، وفيها يُعيدهم بالمَوت والدَّفْن ، ومِنها يُخرجهم بالبَعْث ليوم القِيامة . وَخَلْقُ الناس مِن الأرض إخراج لهم مِنها ، وهذا هو الإخراج الأوَّل . وإخراج الناس مِن الأرض (إحياؤهم مِن قُبورهم) للبَعْث والحِساب ، هو الإخراج الثاني . لذلك قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، أي : مَرَّةً أُخْرَى بَعْد البَعْث ، كما أخرجكم مِنها أوَّلًا عِند خَلْق آدم ﷺ مِنَ الأرض . ولا شَكَّ أنَّ كُل " مَرَّة أُخرى " لها مَرَّة أُولَى .

والمُراد بإخراج الناس مِن الأرض (إحيائهم مِن قُبورهم) أنَّ الله يُؤَلِّف أجزاءهم المُتفرِّقة المُختلطة بالتُّراب ، ويَرُد إلَيهم أرواحهم ، ويُرجِعهم كما كانوا أحياء ، ويُخرِجهم إلى المَحْشَر .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الله قالَ:﴿وفِيها﴾ ولم يَقُلْ:وإلَيها،للدَّلالة على الاستقرار الطويل في الأرض.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٦) : ((﴿ مِنها خَلَقْناكُم ﴾ فإنَّ التُّراب أصل خِلْقة أوَّل آبائكم ، وأوَّل مواد أبدانكم، ﴿ وفِيها نُعِيدُكُم ﴾ بالمَوت وتَفكيك الأجزاء ، ﴿ وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ بتأليف أجزائكم المُتَفَتِّتَة المُخْتَلِطَة بالتُّراب على الصُّوَر السابقة، ورَد الأرواح إليها)).

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٢٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : مِنَ الأرض خَلَقْنَاكُم أيُّها الناس فأنشأناكم أجسامًا ناطقة، ﴿ وفِيها نُعِيدُكُم ﴾. يقول:وفي الأرض نُعيدكم بَعْد مَماتكم فَنُصَيِّركم تُرَابًا كَما كُنتم قَبْل إنشائنا لكم بَشَرًا سَوِيًّا، ﴿ وَمِنها نُخْرِجُكُم ﴾ .يقول: ومِنَ الأرض نُخرِجكم كما كُنتم قَبْل مماتكم أحياءً، فنُنشِئكم مِنها كما أنشأناكم أوَّل مَرَّة. وقَوله: ﴿ تَارَةً أُخْرَى﴾.يقول: مَرَّةً أخرى. كَمَا حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة ﴿ وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ . يَقول : مَرَّةً أُخرى.حَدَّثَني يُونُس قال: أخبرنا ابن وَهْب قال: قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ تَارَةً أُخْرَى ﴾ . قال: مَرَّةً أُخرى الخَلْق الآخَر . قال أبو جعفر : فتأويل الكلام إذن : مِنَ الأرض أخرجناكم ، ولم تكونوا شَيْئًا خَلْقًا سَوِيًّا، وسَنُخْرِجكم مِنها بَعد مَماتكم مَرَّةً أُخرى ، كما أخرجناكم مِنها أوَّلَ مَرَّة)) .

وعن أبي أُمَامة قال : لَمَّا وُضِعَتْ أُمُّ كُلثومٍ ابنةُ رسول الله ﷺ في القَبْر ، قال رسولُ الله ﷺ : ((﴿ مِنها خَلَقْناكُم وفِيها نُعِيدُكُم وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾)) [٢١١].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأنَّ الساعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن في القُبورِ ﴾[الحج: ٧].

إن يَـوْم القيامـة آتٍ وواقـع وكـائن لا مَحَالـة ، لا شَـك فيـه ولا مِرْيـة ، واللهُ يُحيـي الأمـوات ، ويُخرجهم مِن قُبورهم، ويَجمعهم للحِساب والجَزاء والثواب والعِقاب، فَيُجازي المُحسِن بإحسانه، والمُسيء بإساءته. والوَعْدُ الإلهيُّ واقعٌ لا يتخلَّف. واللهُ لا يَتراجع في كلامه ، ولا يُخلِف المِيعاد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٢٦) : ((أخبرَ سُبحانَه بأن ﴿ الساعةَ آتيـةٌ ﴾ أي : في مُستقبل الزمان. قِيل: لا بُد مِن إضمار فِعْل. أي : وَلِتَعْلَمُوا أن الساعة آتية ، ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ أي : لا شَك فيها ولا تردُّد . وجُملة ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ خبر ثانٍ للساعة ، أو في مَحَل نَصْب على الحـال ، ثُـمَّ أَخبـرَ سُـبحانَه عَـن البَعْـث ، فقـالَ : ﴿ وأنَّ اللهَ يَبْعَـثُ مَـن فـي القُبـور ﴾ فَيُجـازيهم بأعمالهم ، إن خَيْرًا فخير ، وإن شَرًّا فشر ، وأن ذلك كائن لا مَحَالة)) .

وعن أنس بن مالك قال : ((كانوا يَكتبون في صُدور وصاياهم ، هذا ما أَوْصَى به فُلان ابن فُلان ، أَوْصَى أنه يَشهد أن لا إله إلا الله ، وَحْدَه لا شريك لـه ، وأن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُه ، وأن الساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وأن الله يَبعث مَن في القبور ، ...)) [٢١٢].

هـذا الحَـديثُ المَوقـوف يـدل علـى أهميـة كتابـة الوَصِـيَّة ، وحِـرْص السَّـلَف الصـالح عليهـا ، والاعتناء بها،والاعتراف فيها بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ،والتَّصديق بيوم القيامة،والإقرار بالبَعْث.

وعلى المرء أن يُبادِر إلى كتابة وَصِيَّته قبل أن يُباغته المَوت، ويَنبغي أن يَكتب وصيته ، ويُشهِد عليها ، مِن أجل حِفظها ، وعدم ضياعها .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُون ﴾[المؤمنون : ١٦] .

إنَّ الله يُخرِج الناسَ مِن قُبورهم يَوم القِيامة، ويَبعثهم للحِساب والجَزاء،ويُوَفِّى كُلُّ عامل عَمَلَه، إنْ خَيْرًا فخير ، وإنْ شَرًّا فشر . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٠٣) : ((أخبرَ بالبَعْث بَعْد المَوت)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٨٣) : ((﴿ ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُون ﴾ مِن قُبوركم إلى المَحْشَر للحِسَاب والعِقَاب)) .

---

٢١١ رواه أحمد في مُسنده (٥/ ٢٥٤). وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٦٠) : ((وإسناده ضعيف)).

٢١٢ رواه البَيهقي في سُننه (٦/ ٢٨٧) ، والدارقطني في سُننه (٤/ ١٥٤) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لُقمان : ٢٨] .

ما خَلْقُكم أيُّها الناس ابتداءً ، ولا بَعثكم بَعد المَوت ، إلا كَخَلْق نَفْس واحدة وبَعْثها ، لأنَّ اللهَ على كُل شيء قدير ، لا يُعجِزه شيء ، وكُل شيء خاضع لأمره وحُكمه ، وإرادته نافذة في كل شيء ، وقُدرته مُطْلَقَة ، وسواءٌ في قُدرته الكثير والقليل . وَخَلْقُ الناسِ وبَعْثهم مِثل خَلْق شخص واحد وبَعْثه . الجميع سَهْل وهَيِّن عَلَيه سُبحانَه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٧٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . قال الضَّحاك : المعنى : ما ابتداءُ خَلْقكم جميعًا إلا كَخَلْق نَفْس واحدة ، وما بَعْثُكم يَوم القِيامة إلا كَبَعْث نَفْس واحدة . قال النَّحاس : وهكذا قدَّره النَّحْويون بمعنى : إلا كَخَلْق نَفْس واحدة ... . وقال مُجاهد : لأنَّه يقول للقليل والكثير : كُن ، فَيَكُون . ونزلت الآية في أُبَي ابن خَلَف، وأبي الأشَدَّيْن ، ومُنبِّه ونبيه ابْنَي الحَجَّاج بن السَّبَّاق ، قالوا للنبيِّ ﷺ : إنَّ اللهَ تعالى قد خَلَقَنا أطوارًا ، نُطفة ، ثُمَّ عَلَقَة ، ثُمَّ مُضْغَة ، ثُمَّ عِظَامًا ، ثُمَّ تقول : إنَّا نُبعَث خَلْقًا جديدًا جميعًا في ساعة واحدة ! ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، لأنَّ الله تعالى لا يَصعُب عَلَيه ما يَصعُب على العِباد ، وخَلْقه للعَالَم كَخَلْقِه لِنَفْس واحدة)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلًا ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾[يس : ٧٨].

الإنسانُ كائن مَغرور ، يغترُّ بصِحَّته وقُوَّته وأمواله وإمكانياته ومَوَاهبه . يَغرَق في النِّعَم الإلهية ، ويستمتع بِها ، ويَفتخر بها ، ويتكبَّر بسببها ، ويَنسى اللهَ المُنْعِمَ المُتفضِّل . تفكيرُه محصور في النِّعَم ، دُون التفكر في مَصْدَر النِّعَم . وهذا الإنسانُ المَغرورُ المُتكبِّرُ استبعدَ تمامًا إحياءَ الله للأموات ، وبَعْثهم مِن قُبورهم بعدما صاروا تُرابًا . لقد أنكرَ قُدرة الله على بعث الأموات ، وهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما . وهذا الإنسانُ الجاحدُ نَسِيَ نَفْسَه ، ولَم يُفكِّر في خَلْقه وبَدْء أمره . ولو فكَّر في ابتداء خَلْقه ، لَمَا أنكرَ الإعادةَ . فاللهُ خَلَقَه مِن نُطفة مَيْتة لا وزن لها ، وجعل فيه الحياة ، ونقله من العدم إلى الوجود. ودليلُ البعثِ كامنٌ في خَلْق الإنسان . والجواب عن سؤال الإنسان حاضر في الإنسان نَفْسه.فالإلهُ القادرُ على خَلْق الإنسان مِنَ العَدَم ، وجَعْله كائنًا حَيًّا ذا حواس وجوارح وأعضاء ، لَن يَعجَز أن يُعيد الأموات مِن قبورهم أحياءً .

وقد استدلَّ بعضُ العلماء بظاهر هذه الآية ، وأثبتَ للعَظْم حياةً ، وأن الموت يُؤثِّر فيه كسائر الأعضاء . وعلى هذا الأساس حَكموا بنجاسة عَظْم المَيْتَة . والمُعارِضون لهذا الرأي قالوا إن المراد بإحياء العِظام هي إعادتها إلى حالة الرُّطوبة والغَضَاضَة في بَدَن حَي حَسَّاس .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٨١) : ((﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلًا ﴾ أي : أوردَ في شأننا قصة عجيبة في نَفْس الأمر هي في الغرابة والبُعد عن العقول كالمَثَل، وهي إنكار إحيائنا العِظام، أو قصة عجيبة في زَعْمه واستبعدها ، وعَدَّها مِن قَبيل المَثَل ، وأنكرَها أشد الإنكار ، وهي إحياؤنا إيَّاها ، وَجَعَلَ لنا مَثَلًا ونظيرًا مِنَ الخَلْق ، وقاسَ قُدرتنا على قُدرتهم ، ونفى الكُل على العموم)) .

واستفهامُ الإنسان:﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾ يعني:مَن يُحيي العِظَامَ البالية المُفَتَّتة ؟ . وهو استفهام يَحمل معنى الإنكار والاستبعاد . وهذا يدل على جهل الإنسان وعناده وغُروره واستكباره وعدم تفكُّره في خَلْق نَفْسه . والإشكاليةُ التي وقع فيها هذا الكافرُ المُنكِر للبَعْث ، هي قِياس قُدرة الله على قُدرة البشر . فالبشرُ لا يَقْدِرون على إحياء العظام البالية، وعاجزون عن فِعل ذلك ، وبالتالي _ وَفْق تفكير هذا الإنسان _ ، فإن الله لا يَقْدِر على ذلك أيضًا . وهذا التفكير القاصر يدل على الكفر والضلال والجهل والغباء، لأن قُدرة الله الخالق مُطْلَقة ، أمَّا قُدرة الإنسان المخلوق فهي محدودة وقاصرة . ولا يُمكن أن يتساوى الخالقُ معَ المخلوق . وعلى الإنسان أن يتفكَّر في أصله (نُطفة مَيْتة) ثُمَّ صارَ كائنًا حَيًّا مُفَكِّرًا . وخَلْقُ الإنسان مِن المَنِيِّ أكثر غرابةً وعَجَبًا مِن إحياء العِظام البالية . وفي قِياس العقل ، إحياءُ العظام البالية أسهل وأهْوَن مِن إيجاد الإنسان مِن العدم . إنَّ هذا الكافر المُنكِر لإحياء الموتى من قبورهم ، ضَرَبَ للهِ مَثَلًا في إنكار البعث بالعظام البالية المُفتَّتة ، واستغربَ مِن القائلين بأن الله يُحييها ، وتعجَّبَ مِنهم ، ونَسِيَ خَلْقَ اللهِ له ، ولَم يتفكر في بَدْء خَلْقه (نُطفة مَيْتة) . وهنا ، يتجلى الجهل والعِناد والمُكابَرة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٦٥): ((قَوله: ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلًا ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . يقول : وَمَثَّلَ لنا شَبَهًا بِقوله : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم ﴾ إذْ كان لا يَقْدِر على إحياء ذلك أحد. يقول : فَجَعَلَنَا كَمَن لا يَقْدِر على إحياء ذلك مِن الخَلْق ، ﴿ ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . يقول : ونَسِيَ خَلْقَنا إيَّاه كيف خَلَقْنَاه ، وأنه لَم يكن إلا نُطفة ، فجعلناها خَلْقًا سَوِيًّا ناطقًا . يقول : فلم يُفكِّر في خَلْقنا إيَّاه ، فيَعلَم أنَّ مَن خَلَقَه مِن نُطفة حتى صار بَشَرًا سَوِيًّا ناطقًا مُتَصَرِّفًا، لا يَعجَز أن يُعيد الأموات أحياءً ، والعِظام الرَّميم بَشَرًا كهَيئتهم التي كانوا بها قبل الفَنَاء)) .

إنَّ العِناد والتَّكَبُّر يَمنعان العقلَ البشري من التفكير بشكل صحيح . وهاتان الصِّفتان القبيحتان كانتا مُسيطرتَيْن على مُشركي قُرَيش خاصَّةً ، ومُشركي العرب عامَّةً . لذلك ، أنكَروا قُدرةَ الله على بَعْث الأموات مِن قُبورهم ، وكذَّبوا النبيَّ ﷺ فيما أخبرَ به ، واستبعدوا وُجودَ حياة بعد المَوت ، إذ إنهم غارقون في التقليد الأعمى لآبائهم ، ومَحصورون في الإطار المادي الدُّنيوي .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعَظْم حائل ، فَفَتَّه ، فقال : يا مُحمَّد ، أيَبْعَثُ اللهُ هذا بعدما أَرِمَ ؟ ، قال : ((نعم ، يَبْعَثُ اللهُ هذا . يُميتك ، ثُمَّ يُحييك ، ثُمَّ يُدخِلك نارَ جهنم)) [٢١٣].

العاص بن وائل السَّهمي ، هو سَيِّد بني سَهْم في قُرَيش ، وكان من الكافرين المغرورين المُتكبِّرين المُعانِدين. جاءَ إلى النبيِّ ﷺ بعَظْم مُتغيِّر مِن البِلى ، وفَتَّه أمام النبيِّ ﷺ ، وسألَه باستكبار وعِناد : هل يَبعث اللهُ هذا العَظْمَ بعدما فَنِيَ وصارَ تُرابًا ؟ . والمقصودُ : هل يُعيد اللهُ المَيْتَ صاحب العَظْم إلى الحياة ؟ . والاستفهامُ للإنكار والاستبعاد . إنه يُنكِر بعثَ الأمواتِ مِن قُبورهم . وقد جاءه الردُّ النبويُّ الواضحُ الصاعقُ لتحطيم غُرور هذا الكافر وهدم معنوياته . وَبَيَّنَ له النبيُّ ﷺ قُدرةَ الله على البعث وإخراج الناس مِن قُبورهم ، كما بشَّره بدخوله نار جهنم خالدًا فِيها ، عُقوبةً له على كُفره بالله وسُخريته واستهزائه وتكذيبه بالبَعْث . ونارُ جهنم هي مصير الكافرين المُتكبِّرين. وقد أرسلَ اللهُ جِبريلَ ـ عليه السلام ـ إلى النبيِّ ﷺ لإهلاك العاص بن وائل وغَيره . ومات شَر مِيتة ، وهو خالد في نار جهنم .

وفي زاد المسير (٤/ ٤٢٢) : ((مَرَّ العاص بن وائل ، فقال جِبريل : كيف تجد هذا يا مُحمَّد ؟ ، فقال : بِئْسَ عبدُ الله ، فأشار إلى أخْمَصِ رِجْله ، وقال : قد كُفِيتَ ، فَدَخَلَتْ شَوْكَةٌ في أخْمَصِه ، فانتفخت رِجْلُه ومات)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يُحيِيها الذي أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾[يس : ٧٩] .

قُل يا مُحمَّد لهذا المُشرِك الذي يُكذِّب بالبَعْث ، ويُنكِر قُدرة الله على إحياء الأموات مِن قُبورهم ، القائل لك جَهْلًا وعِنادًا واستكبارًا : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم ﴾ ؟ : يُحييها الذي خَلَقَها أوَّل مَرَّة مِن العدم، وأوجدها مِن اللاشيء . والذي أوجدها مِن اللاشيء قادر على إعادتها.

ولا شَكَّ أن القادر على النَّشْأة الأُولَى قادر على النَّشْأة الثانية. واللهُ يَعْلَم كُلَّ شيء عن خَلْقه ، وكيف يُبدِئ ويُعيد . لا يخفى عليه خافية ، ويَعلم العِظامَ في باطن الأرض ، ويَعلم أجزاء الإنسان المُفَتَّتة المُمَزَّقة ومواقعها .

واللهُ عليمٌ بكل مَخلوق إجمالًا وتفصيلًا قَبْل خَلْقه وبَعْد خَلْقه. إنَّه سُبحانَه عليمٌ بكل مخلوق مِن ابتداء خَلْقه وإعادته . لا تخفى عليه أجزاؤه وأعضاؤه وحَواسه ، وإن تفرَّقت وتحلَّلت في

---

٢١٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٦) برقم (٣٦٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

التراب ، فاللهُ تعالى يَجمعها ويُعيدها . وهو أعلم بالمخلوق مِن نَفْسه، لأن الله هو الخالق الذي ابتدعَ الخَلْقَ أوَّل مَرَّة مِن العَدَم واللاشيء .

واللهُ يُرشِد النبيَّ ﷺ إلى كيفية الجواب والرد على هذا الكافر تبكيتًا له ، وإفحامًا له ، وإقامةً للحُجَّة عليه ، وتنبيهًا على ضرورة الاستشهاد بأن الذي ابتدأ الخَلْقَ مِن العدم قادرٌ على إعادته. وفي الآية دليلٌ على صِحَّة القِياس ، لأنَّ اللهَ تعالى احتجَّ على مُنكِري البعث بالنشأة الأُولَى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٥٤) : ((في هذه الآية دليل على أن في العِظام حياة ، وأنها تَنجُس بالمَوت ، وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي . وقال الشافعي ــ رضي الله عنه ــ: لا حياة فيها . فإن قِيل: أراد بِقَوله : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ ﴾ أصحاب العِظام، وإقامة المُضاف مَقام المُضاف إليه كثير في اللغة موجود في الشريعة ، قُلنا: إنما يكون إذا احتيج لضرورة، وليس هاهُنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذ الباري سُبحانَه قد أخبر به وهو قادر عليه، والحقيقة تشهد له، فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه، قاله ابن العربي)) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((قال رَجل لَم يَعمل خَيْرًا قَط : فإذا مات فَحَرِّقوه ، واذْرُوا نِصْفَه في البَر ، ونِصفه في البحر ، فواللهِ لَئِن قَدَرَ اللهُ عليه لَيُعَذِّبَنَّه عذابًا لا يُعذِّبه أحَدًا مِن العالَمِين ، فأمرَ اللهُ البحرَ ، فَجَمَعَ ما فيه ، وأمرَ البَر ، فَجَمَعَ ما فيه ، ثُمَّ قال : لِمَ فَعَلْتَ ؟ ، قال: مِن خَشيتك وأنتَ أعْلَم ، فَغَفَرَ له)) [٢١٤].

هذه حالة خاصَّة لِرَجل جاهل ، سيطرَ عليه الخوف والرُّعب مِن عذاب الله ، لأنه غرق في المعاصي والذنوب والآثام ، فَشَلَّ الخوفُ تفكيرَه، واستولى الهَلَعُ على عقله حتى غَيَّبه . والرَّجل كان مُؤمنًا بالبعث ولقاء الله تعالى، بدليل قَوله: ((مِن خَشيتك وأنتَ أعْلَم)) ، والكافرُ لا يُؤمِن بالله تعالى . وقد غَفَرَ اللهُ له تفضُّلًا عليه ، ورَحِمَه . وهذه حالة خاصة لا يُقَاس عليها ، ولا تعني أن يغرق الإنسان في المعاصي ، ويتَّكل على رحمة الله ، لأن العاصي يَنتظره عذاب النار .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٧١) : ((اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث ، فقالت طائفة : لا يَصِح حمل هذا على أنه أراد نَفْيَ قُدرة الله ، فإن الشَّاك في قدرة الله تعالى كافر ، وقد قال في آخر الحديث إنَّه إنَّما فعل هذا مِن خَشية الله تعالى ، والكافر لا يخشى

---

٢١٤ متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٢٥) برقم (٧٠٦٧) ، ومسلم (٤/ ٢١٠٩) برقم (٢٧٥٦) .

الله تعالى ولا يَغفر له. قال هؤلاء : فيكون له تأويلان أحدهما أن معناه لَئِن قَدَّرَ عليَّ العذابَ أي قضاه، والثاني أن " قَدَرَ" هُنا بمعنى ضَيَّقَ عليَّ... . وقالت طائفة: اللفظ على ظاهره ولكن قاله هذا الرَّجل وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومُعتقد لها، بل قاله في حالة غَلَبَ عليه فيها الدَّهَش والخَوف وشِدَّة الجَزَع ، بحيث ذَهَبَ تَيَقُّظُه وتدبُّر ما يقوله فصار في معنى الغافل والناسي ، وهذه الحالة لا يُؤَاخَذ فيها)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزَلْنا عَلَيها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إنَّ الذي أحياها لَمُحْي الموتى إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ [فُصِّلَت : ٣٩] . مِن أدلة الله وبراهينه التي تُشير إلى وُجوده ووَحدانيته وقُدرته المُطْلَقَة وعِلْمه الشامل وحِكْمته البالغة ، أن الإنسان يَرى الأرضَ يابسةً جافَّةً جَرداء ، لا نبات فيها ولا زَرْع ، تُشبِه الرَّجلَ الذليل. والخُشوعُ هو التَّذلُّل ، فاسْتُعِير لحال الأرض الجرداء . وكما أن الرَّجل الخاشع ذليل وحزين ومُنكسِر ، فكذلك الأرض القَحطة المَيْتة . فإذا أنزلَ اللهُ على هذه الأرض المطرَ ، تَحَرَّكت الأرضُ وانتفخت بالنبات والثمار والزُّروع ذات الألوان والأشكال المختلفة . إن الإله الذي أحيا هذه الأرض المَيْتة، فأخرجَ مِنها النباتَ ، وأعاد إِلَيها الحياة، وجعلها تهتز بالزُّروع والثمار، هو الذي يُحيي الموتى ، ويَبعثهم مِن قُبورهم . إنَّ الله لا يُعجِزه شَيء ، وقادر على الإحياء والإماتة . والقدير هو المُبَالِغ في القُدرة . والقادرُ على إخراج النبات مِن الأرض الجَرداء المَيْتة قادرٌ أن يَبعث الناس مِن قُبورهم . واللهُ يُقدِّم دليلًا ماديًّا مَلموسًا مِن عَالَم الشَّهادة (إحياء الأرض المَيْتة بإخراج النبات مِنها) ، كَي يُؤمِن الناسُ بالبَعْث والحياة بعد المَوت، وهو أمرٌ غَيْبِيٌّ ، يَسمع الناسُ بِه ولا يُشاهدونه. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٥٩) : ((قَولُه تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً ﴾ . قال قَتادة: غَبراء مُتَهَشِّمة. قال الأزهري : إذا يَبِسَت الأرضُ ولَم تُمطِر ، قِيل : خَشعت . قَوله تعالى : ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أي : تَحَرَّكت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي : عَلَت ، لأن النَّبْت إذا أراد أن يظهر ارتفعت له الأرض)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٥) : ((ذَكَرَ تعالى آيةً مَنصوبة لِيُعْتَبَر بها في أمر البَعْث مِن القُبور،ويُستدل بما شُوهِد مِن هذه على ما لَم يُشاهَد، فقال : ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً ﴾ الآية . وخُشوع الأرض هو ما يَظهر عليها مِن استكانة وشَعَث بالجَدْب ، فهي عابسة ، كما الخاشع عابس ، يكاد يبكي . واهتزاز الأرض هو تَخَلْخُل أجزائها وتشقُّقها للنبات . ورُبُوُّها هو انتفاخها بالماء وعُلُوُّ سطحها به ، ثُمَّ ذَكَّرَ اللهُ تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يُقَاس على هذه الآية والعِبرة . وذلك إحياء المَوتى ، فقال: ﴿ إنَّ الذي أحياها لَمُحْي الموتى إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ . والشَّيء في اللغة المَوجود)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاللهُ هُوَ الوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيي المَوْتى ﴾ [الشُّورى : ٩] .

فاللهُ وَحْدَه هُوَ الوَلِيُّ الحَق ، الناصر للمؤمنين ، لا وَلِيَّ سِواه . ويجب على الناس أن يتَّخذوه وَلِيًّا دُون الآلهة الباطلة التي لا تَقْدِر على شيء .

وهو القادر وَحْدَه على إحياء المَوتى ، حَيث يُحييهم مِن قُبورهم عِند البَعْث ، للحِساب والجَزاء . وهذا دليل على أُلوهية الله ، ووُجوب إفراده بالعبادة ، وَحْدَه لا شريك له .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٣١) : ((﴿ فاللهُ هُوَ الوَلِيُّ ﴾ . يقول : فاللهُ هو وَلِيُّ أوليائه ، وإيَّاه فليتخذوا وَلِيًّا لا الآلهة والأوثان ، ولا ما لا يَملِك لهم ضَرًّا ولا نَفْعًا ، ﴿ وَهُوَ يُحْيي المَوْتى ﴾ . يقول : واللهُ يُحْيي المَوتى مِن بَعد مَماتهم ، فَيَحْشُرهم يَوم القِيامة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾[المُجادِلة : ٦] .

اذْكُرْ ذلك اليَوْمَ العظيم، حيث يُخرِج اللهُ المَوتى مِن قُبورهم ، ويَجمعهم كُلَّهم في موقف القيامة، فيُخبِرهم بما ارتكبوا في الدنيا مِن ذنوب وآثام وجرائم ، على رؤوس الأشهاد ، لفضحهم ، وتوبيخهم ، وإقامة الحُجَّة عليهم ، وقطع أعذارهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٣) : ((قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ ، وذلك يَوم القِيامة . يَجمع اللهُ الأوَّلين والآخِرين في صَعيد واحد ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ ، أي : فيُخبِرهم بالذي صَنعوا مِن خَير وشَر)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٨٧): ((قَوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ ، أي : مِن قُبورهم ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُوا ﴾ مِن مَعاصيه وتضييع فرائضه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ زَعَمَ الذينَ كَفروا أن لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُم وذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [التَّغابُن : ٧] .

ادَّعى كُفَّارُ العرب المُشركون الذين يُنكِرون وَحدانيةَ الله ، ويُكذِّبون بآياته ، ويَجحدون نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، أن اللهَ لَن يُخرِجهم مِن قُبورهم أحياءً أبدًا . والزَّعْمُ هو القَول بالظن ، ويُطلَق على الكذب . قُل يا مُحمَّد رَدًّا عليهم ، وإبطالًا لزعمهم ، وفضحًا لباطلهم : بَلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ مِن قبوركم ، وتُخْرَجُنَّ أحياءً ، ثُمَّ لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم التي قُمتم بها في الدنيا،صغيرها وكبيرها، لإقامة الحُجَّة عليكم ، وقَطع أعذاركم ، وتُجْزَوْنَ بأعمالكم كاملةً غَير منقوصة ، إنْ خَيْرًا فخير ، وإنْ شرًّا فشر . و﴿ بَلى ﴾ أثبتت البَعْثَ المَنْفِيَّ ، وأبطلت النَّفْيَ . وتأكيد الكلام بالقَسَم : ﴿ وربِّي ﴾ للتأكيد التام ، والتهديد الأكيد ذي الوَقْع الشديد في النُّفوس .

وبَعْثُ الناس مِن قُبورهم وحِسابهم سَهْل هَيِّن على الله تعالى ، لأن إعادة الخَلْق أسهل وأهْوَن مِن ابتدائه (الإيجاد مِنَ العدم) . وهذا وَفْق عقول الناس ، وحَسَب تفكيرهم . وكُل شيء عِند الله سَهْل هَيِّن ، ولا يُوجد عِنده سُبحانَه شيء أسهل من شيء ، لأن كل شيء خاضع لإرادة الله ومشيئته ، ولا يُعجِزه شيء. والتفاوُتُ إنما هو حَسَب العقول البشرية القاصرة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١١٤) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : زَعَمَ الذين كفروا بالله أن لَن يَبعثهم اللهُ إليه مِن قُبورهم بعد مَماتهم.وكان ابن عمر يقول: زَعَمَ كُنية الكَذِب... . وقَوله : ﴿ قُلْ بَلَى ورَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ . يقول لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : قُل لهم يا مُحمَّد : بلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ مِن قُبوركم ، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُم ﴾ . يقول : ثُمَّ لَتُخْبَرُنَّ بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا، ﴿ وَذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِير ﴾ . يقول : وبَعْثُكم مِن قُبوركم بعد مَماتكم على الله سَهْل هَيِّن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القِيامة : ٣] .

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع . أيظنُّ الكافرُ المُكذِّبُ بالبَعْث والنُّشُور أنَّ الله لَن يَقْدِر على جَمْع عِظامه بعد تفرُّقها ؟ . إنَّ الله على كل شيء قدير ، وسيُعيد العِظَامَ خَلْقًا جديدًا بعدما صارت رُفَاتًا ، ويَبعث جميعَ أجزاء الإنسان التي تفرَّقت في التُّراب . وهذا الأمرُ سَهل وهَيِّن وبسيط ، لأنَّ قُدرة الله مُطْلَقَة ، وإرادته نافذة في كُل شيء . ومَن خَلَقَ الإنسانَ مِنَ العَدَم (اللاشيء) لَن يَعجز أن يُعيده إلى الحياة بعد مَوته ، ويَبعثه مِن قَبره .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٨٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنُعيدها خَلْقًا جديدًا بعد أن صارت رُفَاتًا . قال الزَّجاج : أَقْسَمَ بيَوم القِيامة وبالنَّفْس اللوَّامة : لَيَجْمَعَنَّ العِظَامَ للبَعْث ، فهذا جواب القَسَم . وقال النَّحاس : جَواب القَسَم مَحذوف ، أي : لَتُبْعَثُنَّ ، ودَلَّ عَليه قَوله تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ للإحياء والبَعْث . والإنسان هُنا الكافر المُكذِّب بالبَعْث . والآية نزلت في عَدِيِّ بن ربيعة ، قال للنبيِّ ﷺ : حَدِّثْني عَن يَوم القِيامة ، مَتى تَكُون ، وكَيف أمرها وحالها ؟ ، فأخبره النبيُّ ﷺ بذلك ، فقال : لَو عَاينتُ ذلك اليوم لَم أُصَدِّقْكَ يا مُحمَّد ، ولَم أُؤمِن به ، أوَ يَجمع اللهُ العِظَامَ ؟!. لهذا كان النبيُّ ﷺ يَقول: " اللهُمَّ اكْفِني جَارَي السَّوْء ، عَدِيَّ بنَ ربيعة ، والأخنسَ بنَ شَرِيق " . وقِيل : نزلت في عَدُوِّ الله أبي جَهْل حِين أنكرَ البَعْثَ بعد المَوت.وذَكَرَ العِظَامَ،والمراد نَفْسه كُلها لأنَّ العِظام قَالَب الخَلْق))

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤١٦ و٤١٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ . المُراد بالإنسان هاهُنا الكافر. وقال ابن عباس: يُريد أبا جَهْل . وقال مُقاتل:

عَدِي بن ربيعة . وذلك أنه قال : أيَجمَعُ اللهُ هذه العِظَامَ ؟ ، فقال النبيُّ ﷺ له : " نعم ". فاستهزأ مِنه . فنزلت هذه الآية . قال ابن الأنباري : وجَواب القَسَم مَحذوف ، كأنَّه : لَتُبْعَثُنَّ ، لَتُحَاسَبُنَّ ، فَدَلَّ قَوله تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ على الجَواب ، فحُذِف)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلى قادرينَ عَلى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القِيامة : ٤] .

هذا رَد إلهِيٌّ بَليغ على الكافر المُكذِّب بالبَعْث والنُّشور : بَلى ، إنَّ الله سَيَجْمَع عِظَامَه ، وهو سُبحانه قادر على جَعْل أطراف أصابعه مُستوية مِثل خُف الجَمَل، فلا يَنتفع بها ، ولا يَستفيد مِنها، ولا يُمكنه أن يَعمل بها شيئًا . أوْ : إنَّ الله قادرٌ على إعادة الأعضاء الصغيرة ، والتأليف بينها ، حتى يُسَوِّيَ البَنَانَ (الأصابع) . وتَخصيصها بالذِّكْر لصِغَرها ودِقَّة تَكوينها ولَطَافتها . ومَن قَدِرَ على جَمْع العِظَام الصغيرة ، فهو على جَمْع العِظَام الكبيرة أقْدَر . وقد نبَّه اللهُ بالبَنَان (الأصابع) على بَقِيَّة الأعضاء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤١٧ و٤١٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ بَلى ﴾ وَقْف حَسَن ، ثُمَّ يَبتدأ ﴿ قادرينَ ﴾ على مَعنى : بَلى نَجْمعها قادرين . ويَصلُح نَصْب ﴿ قادرينَ ﴾ على التَّكرير : بَلى فَلْيَحْسَبْنَا قادرين على أن نُسَوِّيَ بَنَانَه . وفِيه قَولان : أحدهما أن نَجعل أصابعَ يَدَيه ورِجْلَيْه شيئًا واحدًا كخُف البَعِير ، وحَافِر الحِمَار ، فيَعدَم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخِياطة، هذا قول الجمهور . والثاني نَقْدِر على أن نُسَوِّيَ بَنَانَه كما كانت، وإن صَغُرَتْ عِظَامُها. ومَن قَدِرَ عَلى جَمْع صِغَار العِظَام، كان على جَمْع كِبَارها أقْدَر، هذا قول ابن قُتَيبة والزَّجاج)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٧١) : ((﴿ بَلى قادرينَ عَلى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ بَلَى إيجاب لِمَا بَعْد النَّفْي المُنسحِب إليه الاستفهام . والوَقْف على هذا اللفظ وَقْف حَسَن ، ثُمَّ يَبتدئ الكلام بقَوله : ﴿ قادرينَ ﴾ ، وانتصاب قادرين على الحَال : أي بَلى نَجْمعها قادرين ، فالحال مِن ضَمير الفِعل المُقدَّر . وقِيل المعنى : بَلى نَجْمعها نَقْدِر قادرين . قال الفَرَّاء : أي نَقْدِر ، ونَقْوَى قادرين على أكثر من ذلك، وقال أيضًا : إنه يَصلُح نَصْبُه على التَّكرير : أي بَلى فَلْيَحْسَبْنَا قادرين. وقِيل : التَّقدير : بَلى كُنَّا قادرين ... . ومَعنى : ﴿ عَلى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ على أن نَجْمَع بَعْضَها إلى بَعْض، فَنَرُدَّها كما كانت معَ لَطافتها وصِغَرها ، فكَيف بكِبَار الأعضاء ؟ . فنبَّه سُبحانَه بالبَنَان، وهي الأصابع ، على بَقِيَّة الأعضاء . وإن الاقتدار على بَعْثها وإرجاعها كما كانت أوْلَى في القُدرة مِن إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المُشتملة على المَفاصل والأظافر والعُروق اللطاف والعِظام الدِّقَاق ، فهذا وجه تَخصيصها بالذِّكْر ، وبهذا قال الزَّجاج وابن قُتَيبة . وقال جُمهور المُفسِّرين :

إنَّ معنى الآية أن نَجعل أصابعَ يَدَيه ورِجْلَيْه شيئًا واحدًا ، كخُف البَعِير وحَافِر الحِمار ، صفيحة واحدة ، لا شُقوق فيها ، فلا يَقْدِر على أن يَنتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكِتابة والخِياطة ونَحْوهما، ولَكِنَّا فَرَّقْنا أصَابِعَه لينتفع بها . وقِيل: المعنى : بَل نَقْدِر على أن نُعِيد الإنسانَ في هَيئة البهائم، فكيف في صُورته التي كان عَليها؟. والأول أوْلَى ... فنبَّه بالبَنَان على بَقِيَّة الأعضاء)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ في قَوله تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلى قادرينَ عَلى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ ، قال : ((لَو شَاءَ لَجَعَلَهُ خُفًّا أو حَافِرًا)) [٢١٥].

٣_ الإيمان باليَوم الآخِر

الإيمانُ باليَوم الآخِر مِن أركان الإيمان . وقد ذُكِرَ هذا الرُّكْن العظيم في آيات كثيرة جِدًّا . وهو مِن المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة . ومُنْكِرُه كافرٌ خارج مِن الإسلام . ولا معنى للحياة الإنسانية دون الإيمان باليَوم الآخِر الذي يُحَاسَب فيه العَبْد ، فيُكَافَأ على حَسَناته ، ويُعَاقَب على سَيِّئاته .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والمؤمنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النِّساء : ١٦٢] .

والمؤمنون الذين يُصدِّقون بوَحدانية الله ، ويُقِرُّون بأن لا إله إلا الله ، وَحْدَه لا شريك له ، ويُصدِّقون بالبَعْث بَعْد المَوت ، والجَزَاء على الأعمال ، صَغيرها وكَبيرها ، خَيرها ، وشَرِّها .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٦٣) : ((يَعني : والمُصَدِّقُون بوَحدانية الله ، وأُلوهته ، والبَعْث بَعْد المَمَات ، والثَّوَاب والعِقَاب)) .

٤_ أسماؤه

أ_ يَوم الدِّين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة : ٤] .

الدِّينُ هُوَ الحِساب . ويَوم الدِّين هُوَ يَوم القِيامة، حيث يَدِينُ اللهُ عِبَادَه بأعمالهم ، ويَجزيهم ، وهو سُبحانَه دَيَّانُ العِباد . إنْ عَمِلوا خَيْرًا ، وَجدوا خَيْرًا ، وإنْ عَمِلُوا شَرًّا ، وَجدوا شَرًّا . ويَعفو اللهُ عَمَّن يَشاء ، ويُعَاقِب مَن يَشاء . وهذا اليَومُ العظيم يُحَاسِب اللهُ فِيه العِبَادَ ، ولا أحد يَستطيع الهَرَبَ أو التَّحَايُلَ . واللهُ وَحْدَه هو المَالِك للحِسَاب والجَزَاء ، ويتصرَّف في يَوم الدِّين كما يَشاء ، لأنَّه مِلْك له . وهو سُبحانَه المُنفرِد بالمُلْك وحِساب العِباد ومُجازاتهم عل أعمالهم، لا شريك له .

---

٢١٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي يَوم الدِّين (يَوم الحِساب والجَزاء ، وهو يَوم القِيامة) يَعرِف العبدُ حقيقةَ أعماله المَقبولة أو المَرفوضة ، ويَنال جَزاءه المُسْتَحَق بلا ظُلم . فإنْ وَجَدَ العبدُ خَيْرًا ، فَبِفَضْل الله ، وله المِنَّة . وإنْ وَجَدَ شَرًّا ، فَبِعَدْل الله ، وله الحُجَّة .

وخُصَّ يَوم الدِّين بالذِّكْر ، لأنَّه لا مُلْك ولا حُكْم فيه لأحد إلا لله وَحْدَه ، لا شريك له .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣) : ((وفي الدِّين هاهُنا قَولان : أحدهما أنه الحِساب ، قاله ابن مسعود . والثاني الجَزاء ، قاله ابن عباس . ولَمَّا أقرَّ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قَوله: ﴿ رَبِّ العَالَمِين ﴾ أنَّه مَالِك الدُّنيا، دَلَّ بقَوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ على أنَّه مَالِك الأُخْرَى . وقِيل : إنَّما خصَّ يَوم الدِّين لأنه يَنفرِد يَومئذ بالحُكْم في خَلْقِه)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٩٤) : ((... أن لله المُلْك يَوم الدِّين خَالِصًا دُون جَميع خَلْقه الذين كانوا قَبْل ذلك في الدُّنيا مُلُوكًا جَبابرة يُنازعونه المُلْكَ، ويُدافعونه الانفرادَ بالكِبرياء والعَظَمَة والسُّلطان والجَبرية، فأيْقَنُوا بلقاء الله يَوم الدِّين أنهم الصِّغْرَة الأذِلَّة ، وأنَّ له مِن دُونهم ودُون غَيرهم المُلْك والكِبرياء والعِزَّة والبَهَاء)) اهـ . وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ وعن أُناس مِن أصحاب النبيِّ ﷺ : ـ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ، قال : ((هُوَ يَوم الحِساب)) [٢١٦].

ب ـ الآخِرة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وبالآخِرةِ هُم يُوقِنون ﴾[البقرة : ٤] .

ويُصدِّقون بوُجود الدَّار الآخِرة التي تَتلو الدُّنيا تصديقًا جازمًا ، بِلا شَك ، ولا رَيب . واليقينُ هو العِلْم التَّام الذي لا يُخالطه شَك ولا تَرَدُّد.والتَّصديقُ بالآخِرة يعني التَّصديق بالبَعْث،والحِساب، والثَّواب ، والعِقاب ، والجَنَّة ، والنَّار . وسُمِّيت الدار الآخِرة لأنها بعد الدُّنيا . والآخِرةُ (وَقت الحَصاد) هِيَ المَرحلة المُتأخِّرة عن الدُّنيا (وَقت الزِّراعة) . وفي الآخِرة تَظهر نتيجةُ امتحان الدَّار الأُولَى (الدُّنيا). وعِندئذ يُكرَم العبدُ أو يُهَان. ويجب على العَبد أن يَحرِص على الوُصول إلى يَوم القِيامة ، وهو مُستعد وجاهز ، ذُو رَصيد وافر مِن الحَسَنات لِئلا يَخسَر مَصِيرَه . والنَّاس نِيامٌ ، فإذا ماتوا انتبهوا.كما أنهم إذا ماتوا قامت قِيامتهم. ولا تُوجد فُرصة للتَّعويض أو الرُّجوع إلى الدُّنيا.

---

٢١٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٤) برقم (٣٠٢٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٥٦): ((وللدِّين مَعَانٍ أُخْرَى مِنها : العَادة ، والعمل ، والحُكْم ، والحال، والخُلُق ، والطاعة ، والقَهْر ، والمِلَّة ، والشريعة ، والوَرَع ، والسِّياسة ، وشواهد ذلك يَطُول ذِكْرها)) .

ولا يُمكن للعبد أن يُوقِن بالآخِرة حَقَّ اليقين ، ويُصدِّق بها تصديقًا كاملًا جازمًا ، إلا إذا جَمَعَ بين الإيمان والعمل الصالح، لأنَّ حِرصه على رِضا الله ونَيل جَنَّته ، وخَوفه مِن عذاب النار ، يَدفعانه إلى تَحَمُّل الصُّعوبات والمَتاعب والمَشَاق ، والصَّبر على أداء الطاعات ، وترك المعاصي .

قال الطبري في تفسيره (١/ ١٣٨) : ((أمَّا الآخِرةُ فإنَّها صِفة للدَّار ... وإنَّما وُصِفَت بذلك لمَصيرها آخِرة لأُولَى كانت قَبْلَها . كما تقول للرَّجل : أنعمتُ عَليك مَرَّةً بعد أُخرى ، فلم تَشكر لي الأُولَى ولا الآخِرة . وإنَّما صارت آخِرة للأُولَى لتقدُّم الأُولَى أمامها، فكذلك الدَّار الآخِرة سُمِّيَتْ آخِرة لتقدُّم الدَّار الأُولَى أمامها ، فصارت التَّالية لها آخِرة . وقد يجوز أن تكون سُمِّيَت آخِرة لتأخُّرها عَن الخَلْق ، كما سُمِّيَت الدُّنيا دُنيا لِدُنُوِّها مِن الخَلْق)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٣٣) : ((﴿ وبالآخِرةِ هُم يُوقِنون ﴾ . الإيقان إتقان العِلْم بالشَّيء بنَفْي الشَّك والشُّبهة عنه ، ولذلك لا يُسمَّى عِلْمُه تعالى يَقِينًا . أي : يَعْلَمُون عِلْمًا قطعيًّا مُزِيحًا لِمَا كان أهل الكِتاب عَلَيه مِن الشُّكوك والأوهام ، التي مِن جُملتها زَعْمهم أن الجَنَّة لا يَدخلها إلا مَن كان هُودًا أو نصارى ، وإن النار لَن تَمَسَّهم إلا أيَّامًا مَعدودات ، واختلافهم في أن نعيم الجَنَّة هل هُوَ مِن قَبيل نعيم الدُّنيا أو لا ، وهل هو دائم أو لا . وفي تقديم الصِّلَة ، وبناء ﴿ يُوقِنون ﴾ على الضَّمير ، تَعريض بِمَن عَدَاهم مِن أهل الكتاب ، فإن اعتقادهم في أُمُور الآخِرة بِمَعْزِل مِن الصِّحة ، فَضْلًا عن الوُصول إلى مَرتبة اليقين . والآخِرة تأنيث الآخِر ، كما أن الدُّنيا تأنيث الأدنى ، غَلَبَتا على الدَّارَيْن ، فَجَرَتا مَجرى الأسماء)) .

ج ــ يَوم القِيامة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامة ﴾[القِيامة : ١] .

أقسمَ اللهُ بيَوم القِيامة ، يَوم الحِساب والجَزاء . وما كان اللهُ لِيُقْسِم بهذا اليَوم لَوْلا مَكانته العظيمة ، ومَنزلته الرفيعة ، وشِدَّته البالغة ، وهَوْله الكبير. ومعنى الآية : أُقْسِمُ بيَوم القِيامة .

وقد اشْتُهِر في كلام العرب زيادة " لا " قَبل القَسَم ، لتأكيد الكلام ، وتَوكيد القَسَم ، وكأنَّ الأمر واضح وظاهر ، ولا يَحتاج إلى قَسَم . وجوابُ القَسَم مَحذوف تقديره : لَتُبْعَثُنَّ وَلَتُحَاسَبُنَّ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٨٣) : ((قيل : إنَّ ﴿ لا ﴾ صِلَة ، وجاز وُقوعها في أوَّل السُّورة ، لأنَّ القُرآن مُتَّصل بعضه ببعض ، فهو في حُكْم كلام واحد)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٩) : ((﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامة ﴾ . إدخال ﴿ لا ﴾ النافية على فِعل القَسَم للتأكيد شائع في كلامهم . قال امرؤ القَيس : لا وأبيكِ ابنة العامري ... لا يَدَّعي القَوْمُ أنّي أفِرُّ)) .

واللهُ يُقْسِم بما شاء مِن مَخلوقاته ، وليس هذا إلا لله تعالى . أمَّا الإنسانُ إذا أراد القَسَمَ ، فلا يَجوز أن يُقسِم أو يَحلِف إلا بالله تعالى ، فلا يُشرِك معه شيئًا . وحِين يُقْسِم اللهُ بشيء مِن مَخلوقاته، فهذا دليل واضح على عَظَمَة ذلك الشَّيء.وقد أقسمَ اللهُ بيَوم القِيامة لتعظيمه وتَفخيمه.

وقد سُئل ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ عن قوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بيوم القيامة ﴾ ، فقال : ((يُقسِم رَبُّكَ بما شاء مِن خَلْقِه)) [٢١٧].

وسُمِّيَ يَوم القِيامة بهذا الاسم ، لأن الناس يَقومون فيه لله تعالى : ﴿ يَوْمَ يقوم الناسُ لربِّ العالَمين ﴾ [المُطَفِّفين : ٦] . أوْ لأن الناس يَقومون مِن قُبورهم إلى هذا اليَوم : ﴿ يَوْمَ يَخرجون مِن الأجداث سِرَاعًا ﴾ [المَعَارِج : ٤٣] .

د ــ السَّاعة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ حتى إذا جَاءَتْهُمُ السَّاعةُ بَغْتةً ﴾[الأنعام : ٣١] .

يَوْمُ السَّاعة (القِيامة) يَأتي فَجْأةً ، ولا يُعطي فُرصةً للناس كي يَستعدوا ، أو يُجهِّزوا أنفسهم، لأنَّهم لا يَعرِفون وَقْتَه. ويجب على العبد أن يكون مُسْتَعِدًّا وجاهزًا لئلا تَصعَقه السَّاعةُ مُنْهِيَةً حَياته، وقاطعةً لآماله . وعندئذ، يَبدأ في النَّدَم والتَّحَسُّر على تفريطه ، يَوم لا يَنفع النَّدَم ، ويتمنَّى العَودةَ إلى الدُّنيا لإصلاح أخطائه ، وتدارُك ما فات. وما دام في العُمر فُسحة، وما دام في الوقت مُتَّسع، فينبغي اغتنامه واستغلاله في عمل الطاعات ، وجَمْع الحَسَنات .

وسُمِّيَت القِيامة بالسَّاعة لسُرعة الحِساب فِيها ، أوْ لأن مُدَّة تأخُّرها معَ خُلود وأبدية ما بَعْدها كساعة واحدة. وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٧): ((﴿ حتى إذا جَاءَتْهُمُ السَّاعةُ ﴾ . يقول : حَتَّى إذا جاءتهم الساعةُ التي يَبعث اللهُ فِيها المَوْتى مِن قُبورهم . وإنَّما أُدْخِلَت الألف واللام في ﴿ السَّاعةُ ﴾ لأنها معروفة المَعنى عِند المُخاطَبِين بها، وأنها مَقصود بها قَصْد السَّاعة التي وُصِفَت. ويعني بقَوله : ﴿ بَغْتةً ﴾ فَجْأة مِن غَير عِلْم ، مِن : تَفْجَؤه بوَقْت مُفاجأتها إيَّاه)) .

---

٢١٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (١/ ٤٣٩) : ((وَسُمِّيت القِيامةُ بالسَّاعة لوُقوعها بَغْتَة ، أوْ لسُرعة حِسابها ، أو على العَكْس ، لطُولها ، أوْ لأنها عِند الله على طُولها كساعة مِن السَّاعات عِند الخَلْق)) .

هـ ـ يَوم الحَسْرَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأنذِرهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ ﴾ [مَرْيَم : ٣٩] .

خَوِّفْ يا مُحمَّد كُفَّارَ مَكَّة يَوْمَ الحَسْرَة (يَوم القِيامة) ، حيث يتحسَّر المُسِيء ، لأنَّه لم يَفعل الطاعات ، ولم يُحْسِنْ . ويتحسَّر المُحْسِن ، لأنَّه لم يَستكثر مِن الطاعات ، ولم يَزْدَدْ مِن الخَير .

وفي يَوم القِيامة تَظهر الحَسْرَةُ بشكل واضح ، لا لَبْسَ فيه . فالكافرُ يتحسَّر على تقصيره ، ورفضه للإيمان ، وسُلوكه طريق الغَواية والضَّلال . والمُؤمنُ يتحسَّر على ما فاته مِن الخَير ، ويتمنَّى لَوْ أنَّه ضَاعَفَ عَمَلَه في الدُّنيا ، وأكثرَ مِن الطاعات والعبادات ، وجَمْع الحسنات ، مِن أجل الحُصول على أرفع الدَّرَجَات وأعلى المنازل في الجَنَّة . فالجميعُ يتحسَّرون ، ولكنْ بلا فائدة .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٤٧٧) : ((أي يَوم يتحسَّرون جميعًا ، فالمُسِيء يتحسَّر على إساءته ، والمُحسِن على عدم استكثاره مِن الخَير)) .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٤٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : وأنذِرْ يا مُحمَّد هؤلاء المُشركين بالله يَوم حَسرتهم ونَدَمهم على ما فرَّطوا في جَنْب الله ، وأُورِثَتْ مَساكنهم مِن الجَنَّة أهل الإيمان بالله ، والطاعة له ، وأدخلوهم مساكنَ أهل الإيمان بالله مِن النار ، وأيقنَ الفريقان بالخُلود الدائم ، والحياة التي لا مَوْتَ بَعْدَها ، فيا لها حَسْرَة ونَدَامة)) .

ويَوم الحَسْرَة هو يَوم القِيامة ، حيث يُحَاسِب اللهُ العِبَادَ ، ويُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسيء بإساءته . وبعد الفراغ مِن الحِساب ، يَدخل المؤمنون (أهل الجَنَّة) الجَنَّةَ ، ويَدخل الكافرون (أهل النار) النارَ ، ويُذبَح المَوت بين الفريقَيْن . وهذا دليل على الخُلُود .

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُؤْتَى بالمَوت كهَيئة كَبْشٍ أمْلَح ، فيُنادي مُنادٍ : يا أهلَ الجَنَّة ، فَيَشْرَئِبُّون ، ويَنظرون ، فيَقول : هَل تَعرِفون هذا ؟ ، فيَقولون : نعم ، هذا المَوت . وكُلُّهُم قَد رآه . ثُمَّ يُنادي : يا أهلَ النار ، فيشرئبون ، وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا ؟، فيقولون: نعم، هذا المَوت . وكُلُّهُم قد رآه . فَيُذبَح . ثُمَّ يقول : يا أهلَ

الجَنَّة ، خُلود فلا مَوت ، ويا أهلَ النار ، خُلود فلا مَوت. ثُمَّ قرأ : ﴿ وَأَنذِرهم يومَ الحسرة إذْ قُضِيَ الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾)) [٢١٨].

مِن خلال هذا الحديث تتَّضح حَسْرَةُ الكافرين الخالدين في النار. فقد أضاعوا الفُرصةَ الذهبية في الدُّنيا لكي ينالوا النعيم الأبديَّ في الآخِرة ، فخسروا الداريْن ، خُصُوصًا الآخِرة.وقد أحسنَ اللهُ إلَيهم في الدُّنيا ، فأعطاهم العُقُولَ والنِّعَمَ العظيمة، لكنَّهم أساؤوا إلى أنفسهم، فلم يُنظِّفوا قلوبَهم لاستقبال الهِداية الربانية، فَرَضُوا بالحَيَاة الدُّنيا ، واطمأنوا بِها ، ولم ينظروا إلى ما بَعْدَها .

والمَوْتُ مَخلوقٌ مِثْل الإنسان، له أجلٌ مُحَدَّد . وبعد أن يَدخل المؤمنون الجَنَّةَ ، والكافرون النارَ، يُذبَح الموتُ بأمر الله تعالى،لأن الموت حِينئذ يَفقد معناه.ففي الآخرة (الدار الباقية) لا يُوجد مَوتٌ . إمَّا نعيم أبدي أو عذاب أبدي . كما أن المَوت هو لحظة فاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، حيث يُنقَل المَرء من العمل إلى الحِساب ، ومِن الزَّرْع إلى الحَصاد ، ومِن الامتحان إلى

---

٢١٨ متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤/ ١٧٦٠)برقم (٤٤٥٣).ومسلم(٤/ ٢١٨٨)برقم(٢٨٤٩).
(يُؤْتَى بالموت) أي يُجسَّد ويُؤْتَى به . (كهَيئة) كخِلْقة . (كَبْش) ذَكَر الغَنَم . (أمْلَح) أبيض يَشُوبه سَوَاد . (فيشرئبون) يَمُدُّون أعناقهم لينظروا . (خُلود) استمرار وعَدم فَنَاء . (الحسرة) النَّدم على التَّقصير . (قُضِيَ الأمر) فُرِغَ مِن الحِساب . (في غَفلة) في الدُّنيا ، حيث كانوا يَستطيعون أن يَعْمَلوا للآخرة . (لا يؤمنون) بالله تعالى ، وما وضَّحه في شرائعه مِمَّا يكون في الآخِرة بَعد الموت .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٣٤) : ((قال المفسِّرون : فهذه هي الحسرة إذا ذُبح الموت ، فَلَوْ مات أحد فَرَحًا ، مات أهلُ الجنَّة ، وَلَوْ مات أحد حُزنًا ، مات أهل النار. ومِن مُوجِبات الحسرة ما روى عَدِيُّ بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : " يُؤتَى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دَنَوْا مِنها ، واستنشقوا ريحها ، ونظروا إلى قُصورها ، نُودوا أن أصْرِفُوهم عنها ، لا نَصِيبَ لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رَجَعَ الأوَّلون بِمِثْلها ، فيَقولون : يا رَبَّنا ، لَوْ أدخلتنا النارَ قَبْلَ أن تُرِيَنا ما أرَيْتَنا كان أهْوَنَ عَلَينا . قال : ذلك أردتُ بكم ، كُنتم إذا خَلَوْتُم بارزتموني بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مُخبتين ، تُراؤون الناسَ بخِلاف ما تُعطُوني مِن قُلوبكم، هِبْتُم الناسَ ولم تهابوني،وأجللتم الناسَ،ولم تُجِلُّوني،تركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليَوْمَ أُذيقكم العذابَ مَعَ ما حَرَمْتُكُم مِن الثواب ". ومِن موجبات الحسرة ما رُوِيَ عن ابن مسعود قال: "لَيْسَ مِن نَفْس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بَيت في الجنَّة،وبيت في النار،ثُمَّ يُقال يعني لهؤلاء:لَوْ عَمِلْتُم، ولأهل الجنَّة: لَوْلا أن مَنَّ اللهُ عَلَيكم".ومِن مُوجِبات الحسرة قَطْع الرَّجاء عِند إطباق النار على أهلها)) .

النتيجة . وبالتالي تظهرُ النتائجُ في الدار الآخِرة ، ويَفقد المَوتُ مَعناه والغايةَ مِن وُجوده ، وتنتهي مُهِمَّته، فيُذبَح. وهذا يَعني خُلود المؤمنين في الجَنَّة إلى الأبد، وخُلود الكافرين في النار إلى الأبد. ولا شَكَّ أن الدُّنيا عَمَل ولا حِسَاب ، والآخِرة حِسَاب ولا عَمَل .

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ في الحديث أن المَوت (وهو مَخلوق خاضع لخالقه الله تعالى) يُؤْتَى به ، على خِلْقة كَبْش فيه بَياض وسَواد، ولكن يَغلُب عليه البَياض، فيُنادي مُنَادٍ (ولم يتم تَعيينه): يا أهل الجَنَّة، فَيَمُدُّون أعناقهم، ويَرفعون رؤوسهم، ويَنظرون، فيقول: هل تَعرِفون هذا ؟ ، فيَقولون : نعم ، هذا المَوت . وقد عَرَفُوه ، لأنَّ الله ألقى في قلوبهم أنَّه المَوت . ثُمَّ يُنادي المُنادي على أهل النار، فيشرئبون ، وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ ، فيقولون: نعم، هذا المَوت . وقد عَرَفُوه أيضًا . فيُذبَح المَوت. وهذا يعني زيادة نعيم المؤمنين، لأن نعيمهم باقٍ إلى الأبد، ودائم إلى ما لا نهاية . وهُم باقون في الجَنَّة ، لا يَخرُجون مِنها أبدًا . ويعني أيضًا زيادة تعاسة الكافرين ، لأن عذابهم باقٍ إلى الأبد ، ودائم إلى ما لا نهاية ، وهُم باقون في النار ، لا يَخرُجون مِنها أبدًا . وقد قرأ النبيُّ ﷺ الآيةَ القُرآنية: ﴿ وَأَنذِرهم يومَ الحسرة إذْ قُضِيَ الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ . أي : وأنذِر يا مُحمَّد جميعَ الناس، إذْ فُصِلَ بين المؤمنين (أهل الجَنَّة) والكافرين (أهل النار)، وصار كُلٌّ إلى ما صار إلَيه خَالِدًا فيه،وكان الكافرون في الدُّنيا في غَفلة، والآخِرة هي اليَقَظَة،وهُم لا يُصدِّقون به.

والحديثُ يدل على أن المؤمنين خالدون في الجَنَّة ، وأن الجَنَّة باقية ، وأن الكافرين خالدون في النار ، وأن النار باقية ، ولَن يَخرج مِنها إلا عُصاة المُسلمين الذين ماتوا على التَّوحيد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٨٤و١٨٥) : ((قال المازري : المَوت عِند أهل السُّنَّة عَرَض يُضاد الحياة . وقال بعضُ المُعتزلة : ليس بعَرَض ، بَل معناه : عدم الحياة ، وهذا خَطأ ، لقَوله تعالى : ﴿ خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ ﴾ [المُلْك : ٢]، فأثبتَ المَوْتَ مَخلوقًا ، وعلى المذهبَيْن ، لَيس الموت بجِسْم في صُورة كَبْش أو غَيْره ، فَيُتَأَوَّل الحديث على أنَّ الله يَخلُق هذا الجِسْمَ،ثُمَّ يُذبَح مِثَالًا،لأن الموت لا يَطرأ على أهل الآخرة. والكَبْش الأمْلَح، قِيل:هُوَ الأبيض الخالص ، قاله ابن الأعرابي . وقال الكِسائي : هُوَ الذى فيه بَيَاض وسَوَاد ، وبَيَاضه أكثر)) .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٢١) : ((قال القاضي أبو بكر ابن العربي : اسْتُشْكِل هذا الحديث لكَوْنه يُخَالِف صريحَ العَقْل،لأن الموت عَرَض ، والعَرَض لا يَنقلب جِسْمًا، فكيف يُذبَح؟. فأنكرت طائفة صِحَّة هذا الحديث ودفعته ، وتأوَّلته طائفة ، فقالوا : هذا تمثيل ، ولا ذِبْح هُناك حقيقة. وقالت طائفة : بَل الذَّبْح على حقيقته ، والمذبوح مُتَوَلِّي المَوْت ، وكُلُّهم يَعرِفه ، لأنَّه الذي

تَوَلَّى قَبْضَ أرواحهم . قُلْتُ : وارتضى هذا بعضُ المُتأخِّرين ، وحَمَلَ قَوله : " هُوَ المَوت الذي وُكِّلَ بِنا " على أن المراد به مَلَك المَوت ، لأنَّه هو الذي وُكِّلَ بِهم في الدُّنيا ... واستشهد له مِن حيث المعنى بأن مَلَك المَوت لو استمرَّ حَيًّا لَنَغَّصَ عَيش أهل الجَنَّة ... وأخرج ابن أبي الدُّنيا مِن طريق محمد بن كَعْب القُرَظي، قال: بَلَغَني أنَّ آخِر مَن يَموت مِن الخلائق مَلَك المَوت، فيُقال له: يا مَلَكَ المَوت ، مِت مَوْتًا لا تَحْيَا بَعْدَه أبدًا . فهذا لو كان ثابتًا لكان حُجَّة في الرَّد على مَن زَعم أنَّه الذي يُذبَح لكَوْنه مات قبل ذلك مَوْتًا لا حياة بَعْدَه ، لكنَّه لَم يَثبُت . وقال المازري : المَوت عِندنا عَرَض مِن الأعراض ، وعِند المعتزلة ليس بمعنى . وعلى المذهبَيْن لا يَصِح أن يكون كَبْشًا ولا جِسْمًا ، وأن المراد بهذا التمثيل والتشبيه . ثُم قال : وقد يَخلُق اللهُ تعالى هذا الجِسْمَ ، ثُم يُذبَح ، ثُم يُجعَل مِثالًا ، لأن المَوت لا يطرأ على أهل الجَنَّة . وقال القرطبي في التذكرة : المَوت معنى ، والمعاني لا تنقلب جَوْهَرًا ، وإنَّما يَخلُق اللهُ أشخاصًا مِن ثواب الأعمال ، وكذا المَوت ، يَخلُق اللهُ كَبْشًا يُسمِّيه المَوت ، ويُلقي في قلوب الفريقَيْن أن هذا المَوت ، يَكون ذَبْحُه دليلًا على الخُلود في الدارَيْن . وقال غَيْرُه : لا مانع أن يُنشِئ اللهُ مِن الأعراض أجسادًا يَجعلها مادةً لها ... قال القرطبي : وفي هذه الأحاديث التَّصريح بأن خُلود أهل النار فيها ، لا إلى غاية أمد ، وإقامتهم فيها على الدوام ، بلا مَوت ، ولا حَياة نافعة ، ولا راحة)) .

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٤٠٢) : عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ : قال النبيُّ ﷺ : ((لا يَدْخُلُ أحدٌ الجَنَّةَ إلا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النار لَوْ أساءَ ، لِيَزداد شُكْرًا ، ولا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ إلا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّة لَوْ أحسنَ ، لِيَكُون عَلَيه حَسْرَةً)) .

الأشياءُ تُعرَف بأضدادها . والمؤمنُ المستحق للجَنَّة مُقَابِل إيمانه وعمل الصالحات ، لَن يَعرِف قِيمةَ الجَنَّة إلا إذا رأى النارَ ، فعندئذ يَعرِف حَجْمَ النِّعمةَ الإلهية التي هُوَ فيها ، ويُدرِك مِقدارَ النعيم الذي يَعيش فيه . والكافرُ عِندما يَرى الجَنَّةَ يَزداد حَسْرَةً وحُزْنًا على ما فاته ، فقد كان مَقعده مِن الجَنَّة في مُتناول اليد ، لكنَّه أضاعه بكُفره وضَلاله وتَفريطه .

والحديثُ يُوضِّح أنَّه لا يَدخل أحدٌ الجَنَّةَ ، إلا أُرِيَ مَقعده مِن النار لَوْ أساء، أي : لَوْ عَمِلَ في الدُّنيا عملًا سيئًا (الكُفر)، ليَزداد شُكْرًا لله، وفَرَحًا بنَعمته العظيمة. ولا يَدخل النارَ أحدٌ إلا أُرِيَ مَقعده مِن الجَنَّة لَوْ أحسنَ، أي: لَوْ آمنَ وعَمِلَ الصالحات،ليَكون عليه حَسْرة زيادةً على تعذيبه .

والحديثُ مِن علامات النُّبُوَّة ، ويدل على صِدق مُحمَّد ﷺ ، وأنَّه رَسول مِن عِند الله تعالى ، يَأتيه وَحْيُ السَّماء ، لأنَّه أخبرَ بأمر غَيْبِيٍّ ، وهو الصادق المَصدوق .

وفي الآداب الشرعية (١/ ٢٠٦) قال ابن هُبَيرة عن الحديث : ((فِيه مِن الفِقه أنَّ المُنعَم عَلَيه إذا بُولِغ في الإحسان إليه ، فإنَّ مِن تَمام الإحسان أن يَشعُر قَدْرَ السُّوء الذي خلَص مِنه ، ليكون عليه مِن جِهتَيْن ، بأن وَقَاه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّرَّ ، وغَمَسَه في الخَير ،كما أن الكافر إذا اشتدَّ به الانتقامُ ، أُرِيَ مَقام الفَوز الذي فاته ، لِتُضَاعَف حَسْرَتُه مِن طَرَفَيْن ، ما هو فيه ، وتَوَالي حَسَرَاته على ما فاته مِن الخَير ، لِيَكون غَمُّه في كِلا جانبَيْه)) .

وقال العَيني في عُمدة القاري (٢٣/ ١٢٩) : ((قَوله : " لَوْ أساءَ " يعني : لَوْ عَمِلَ عَمَلَ السُّوء ، وصار مِن أهل جَهَنَّم . قَوله : " لِيَزداد شُكْرًا " . قِيل : الجَنَّة لَيست دَار شُكر ، بل هي دار جَزاء . وأُجِيب بأن الشُّكر ليس على سبيل التَّكليف ، بَل هو على سبيل التَّلَذُّذ . أو المُراد لازِمُه، وهو الرِّضى والفَرَح، لأن الشاكر على الشيء راضٍ به ، فَرحان بذلك . قَوْله : " لَوْ أحسنَ" أي : لَوْ عَمِلَ عَمَلًا حَسَنًا ، وهو الإسلام . قَوله: " لِيَكون عليه حَسْرَة " أي زِيادة في تعذيبه)) .

و ـ المَعَاد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾[القَصَص : ٨٥] [٢١٩].

إنَّ اللهَ الذي أنزلَ عليكَ القُرآنَ يا مُحمَّد ، وفَرَضَ عَلَيْكَ تِلاوتَه والعملَ به وتبليغَه ، لَرَادُّكَ إلى مَكَّة مَنصورًا مُظَفَّرًا ، وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ بفَتْح مَكَّة . وكانَ ﷺ قد اشتاقَ إلَيها ، أوْ : لَرَادُّكَ إلى يوم القيامة ، فيسألكَ عن القُرآن وماذا عَمِلْتَ به .

والمَعَادُ هو يوم القيامة، حيث العَودة لكي يُحاسَب العبد على أقواله وأفعاله ، ويحصل على نتيجة الامتحان الدُّنيويّ، ويقف على مستواه الحقيقي ، إمَّا فائزًا أوْ خاسرًا . وفي هذا اليوم العظيم تَظهر الإنجازات البشرية والإخفاقات على حَدٍّ سَوَاء .

---

٢١٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٤٩) : ((قال مُقاتل : خَرج رسولُ الله ﷺ مِنَ الغار لَيْلًا، فمضى مِن وَجهه إلى المدينة ، فسار في غير الطريق مخافةَ الطَّلَب ، فلمَّا أمِنَ رجع إلى الطريق ، فَنَزل الجُحْفَةَ بين مَكَّة والمدينة ، فعرف الطريقَ إلى مكة ، فاشتاق إليها ، وذَكَرَ مَوْلِدَه ، فأتاه جبريلُ فقال : " أتشتاق إلى بلدك ومَوْلِدك ؟ ، قال : نعم ، قال : فإن الله تعالى يقول: ﴿ إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾ " . فَنَزلت هذه الآية بالجُحفة)) .

والدنيا لَيست هي نِهاية المَطَاف ومُنتهى الأحلام ، فما بَعْدَها أجمل منها ، أوْ أسوأ منها . والمَوْتُ هو الحَيَاة بعَيْنها ، وهو أيضًا البداية الحقيقية للحياة الدائمة . وإذا لم ينتبه العبدُ إلى هذا المَبدأ السَّامي ، فإن الأوهام ستجرفه . وهنا يظهر الفرق بين الفَنَاء (الدُّنيا) والبَقَاء (الآخِرة) . ولوْ كانت الدنيا ذَهَبًا ، والآخِرةُ حديدًا ، لاختارَ العُقلاءُ الحديدَ الباقي على الذهب الفاني .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٨) : ((إنَّ الذي أوجبَ عليك تبليغَ القُرآن لرادُّكَ إليه ، ومُعيدكَ يوم القيامة،وسائلكَ عن أداء ما فَرض عليكَ. هذا أحد الأقوال،وهو مُتَّجه حَسَن)) [220].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨): ((يُقال : بَيْني وبَيْنَكَ المَعَاد : أي يوم القيامة ، لأن الناس يَعودون فيه أحياء)) .

وتتجلى القدرةُ الإلهية المُطْلَقة يَوْمَ المَعَاد، حيث يَعود الناسُ أحياء بعد أن جَمَعَ اللهُ عظامَهم، وأخرجهم مِن قُبورهم،وأحضرهم جميعًا بلا استثناء،دُون وجود فُرصة للهَرَب أو الغِياب أو الاختباء.

وفي صحيح مسلم(٤/٢٠٨٧)أنَّ النبيَّ ﷺكان يدعو:((وأصْلِحْ لي آخِرتي التي فيها مَعَادي)).

هذا المعنى العظيم يُشير إلى أهمية الدَّار الآخِرة باعتبارها الدار الباقية ، حيث يَعود الإنسانُ إليها ليستقر فيها إلى الأبد. ويَجيء الدُّعاءُ النبويُّ لِيُنبِّه على أهمية إصلاحها بالطاعات في الدُّنيا ، كَي يَكون المَعَادُ راحةً أبدية لا شقاءً دائمًا . والمعنى العام : أصْلِحْ ما أعُود إلَيه يَوم القِيامة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٤٩و٢٥٠و٢٥١): ((وفي معنى: ﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها فَرَضَ عَلَيكَ العَمَلَ بالقُرآن ، قاله عطاء بن أبي رباح وابن قُتَيبة . والثاني : أعطاك القُرآن ، قاله مُجاهد . والثالث : أنزلَ عَليك القُرآنَ ، قاله مُقاتل والفرَّاء وأبو عُبَيدة .

وفي قَوله : ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ أربعة أقوال : أحدها إلى مَكَّة ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبِه قال مُجاهد في رواية والضَّحاك . قال ابن قُتَيبة : مَعَادُ الرَّجلِ بَلَدُه ، لأنه يتصرَّف في البلاد

---

٢٢٠ قال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٢٦٨):((قال جمهور المفسرين: أي إلى مَكَّة.وقال مجاهد وعِكرمة والزُّهري والحسن:إنَّ المعنى: لرادُّكَ إلى يوم القيامة،وهو اختيار الزَّجاج))اه .وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٠) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾ ، قال : ((إلى مَكَّة)) اه. وفي رواية أن ابن عباس قال : ((إلى الموت)) [ذكرها الحافظ في الفتح (٨/ ٥١٠) ، وقال : أخرجها ابن أبي حاتم ، وإسناده لا بأس به]. وروى أبو يعلى في مُسنده (٢/ ٣٧٠) أن أبا سعيد الخُدري قال في تفسير الآية : ((مَعادُهُ آخِرَتُه)) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢) : ((رجاله ثقات)) .

ويَضرِب في الأرض ثم يَعود إلى بلده . والثاني: إلى مَعَادك مِن الجَنَّة، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وبِه قال الحسن والزُّهري . فإن اعْتُرِض على هذا ، فَقِيل : الرَّدُّ يَقتضي أنه قد كان فيما رُدَّ إِلَيه ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنه لَمَّا كان أبوه آدم في الجَنَّة ثُمَّ أُخرِج ، كان كأنَّ وَلَدَه أُخرِج منها ، فإذا دَخلها فكأنه أُعِيد . والثاني أنه دَخلها ليلة المِعْرَاج ، فإذا دخلها يَوم القِيامة كان رَدًّا إلَيها، ذَكَرَهما ابن جرير. والثالث أنَّ العرب تقول: رَجَعَ الأمرُ إلى كذا، وإنْ لَم يكن له كَوْن فِيه قَط ... والثالث لَرَادُّكَ إلى المَوت، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال أبو سعيد الخُدري . والرابع : لرادُّكَ إلى القِيامة بالبَعْث ، قاله الحَسَن والزُّهري ومُجاهد في رواية والزَّجاج)) .

ز ـ يَوم البَعْث

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فهذا يَوْمُ البَعْث ﴾[الرُّوم : ٥٦] .

هذا يَوم القِيامة العظيم الذي يَبعث اللهُ فيه الناسَ مِن قُبورهم . والفاءُ في الآية جَواب لِشَرْط مَحذوف،ومَجاز الكلام: إن كُنتم مُنكِرين البَعْثَ، فهذا يَوم البَعْث الذي كُنتم تُنكِرونه في الدُّنيا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ فهذا يَوْمُ البَعْث ﴾ ، أي: اليوم الذي كُنتم تُنكِرونه)) .

والبَعْثُ مِن تَجَلِّيات عدالة الله تعالى ، حَيث يُخرِج الناسَ مِن قُبورهم ، ويَبعثهم مِن أجل الحِساب والجَزاء ، ويُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته . وإن كان الظَّالِمُ قَد هَرَبَ بفِعْلته في الدُّنيا ، فَسَوْفَ يُلاقي جَزاءه العادل يَوم القِيامة . وإن كان المظلوم قد عاش في الدُّنيا مَنبوذًا مَقهورًا ، فسيأخذ حَقَّه كاملًا غَير مَنقوص في ذلك اليوم العظيم . والدُّنيا ليست نهاية المَطاف، إنها عَمَلٌ ولا جَزاء . والآخِرةُ جَزَاء ولا عَمَل . ولا توجد فُرصة لهُروب الظالم ، أو ضياع حقوق المظلوم . كُل شيء مَحفوظ ومُسجَّل .

ح ـ يَوم الفَصْل

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفَصْلِ الذي كُنتم به تُكذِّبون ﴾[الصَّافَّات : ٢١] .

هذا يَوم الفَصْل بين الخلائق الذي كُنتم تُنكِرونه . وهذا توبيخٌ وتقريع للكافرين .

والفَصْل الحُكْم والقَضَاء ، لأنَّه يُفْصَل فيه بَيْن المُحسِن والمُسيء، ويُفرَّق بين الحق والباطل، ويُجازَى كُلُّ عبد بعمله .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٧٨) : ((يقول تعالى ذِكْره : هذا يَوم فَصْلِ الله بَيْن خَلْقِه بالعَدْل مِن قَضائه ، الذي كُنتم به تُكذِّبون في الدُّنيا فتُنكِرونه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٦٦) : ((﴿ هذا يَوْمُ الفَصْلِ الذي كُنتم به تُكذِّبون ﴾ . قِيل: هُوَ مِن قَول بعضهم لبعض ، أي : هذا اليوم الذي كَذَّبْنا به . وقِيل : هو مِن قَول الله تعالى لهم . وقِيل : مِن قَول المَلائكة ، أي : هذا يوم الحُكْم بين الناس ، فَيَبِين المُحِق مِنَ المُبطِل)) .

وفي يَوْمَ القِيامة يَفصِل اللهُ بَيْن الخلائق ، فيَظهر الصادقُ مِن الكاذب ، والمُحِقُّ مِن المُبطِل ، والصالح مِن الطالح ، والمُحسِن مِن المُسِيء ، ويتميَّز فيه الحق مِن الباطل . فهو يَوم الفَصْل ، وإحقاق الحَق ، ودَحْض الباطل. وهذا يُؤدِّي إلى بَعْث السَّكِينة في قلوب المَقهورين ، فهُم يُدرِكون أن حَقَّهم لَن يضيع. وأيضًا يَردع الظالمين ، فهو يُذكِّرهم أن العقوبة بانتظارهم إذا لم يتوبوا. والموتُ ليس النهاية ، بل هو البداية .

ط ـ يَوم التَّلاق

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاق ﴾[غَافِر : ١٥] [٢٢١].

إنَّ اللهَ يَبعث الرُّسُلَ إلى الناس ، كَي يُخوِّفوهم مِن يَوم القِيامة (يَوم التَّلاق) ، حَيث يَتلاقى أهلُ السماءِ وأهلُ الأرض ، والأرواحُ والأجساد ، والعُبَّاد والمَعبودون ، والعُمَّال والأعمال ، والظالمون والمظلومون .

وفي هذا اليَوم العظيم (يَوم القِيامة) ، يَلتقي العِبادُ كُلُّهم لِيُحَاسَبُوا على أعمالهم ، وينالوا جزاءهم المُسْتَحَق ، ويَلتقي الخَلْقُ بالخالق تعالى ، ويَلتقي أهلُ السماء بأهل الأرض ، ويَلتقي الأوَّلون بالآخِرين في مَشهَد رَهيب ، لا فُرصة فِيه للتَّعويض أو تَدَارُك ما فات ، ولا مجال للعَودة إلى الدُّنيا، فالقِيامةُ لا تتكرَّر. إنَّه نعيم أبدي (الخُلود في الجَنَّة) أوْ عذاب أبدي(الخُلود في النار).

٢٢١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢١١) : ((﴿ لِيُنذِرَ ﴾ في المُشار إليه قَولان: أحدهما أنَّه الله عَزَّ وَجَلَّ. والثاني النبيُّ الذي يُوحَى إلَيه . والمراد بـ ﴿ يَوْمَ التَّلاق ﴾ يوم القِيامة ... وفي سبب تَسميته بذلك خمسة أقوال : أحدها أنَّه يَلتقي فيه أهلُ السماء والأرض، رواه يُوسُف بن مِهران عن ابن عباس . والثاني يَلتقي فيه الأوَّلون والآخِرون،رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا.والثالث يَلتقي فيه الخَلْق والخالق، قاله قَتادة ومُقاتل . والرابع يَلتقي المظلومُ والظالم،قاله مَيمون بن مِهران.والخامس يَلتقي المرءُ بعمله،حكاه الثعلبي)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥) : ((قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : يَوم التَّلاق اسم مِن أسماء يَوم القِيامة، حَذَّرَ اللهُ مِنه عِبَادَه . وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يَلتقي فيه آدَمُ وآخِرُ ولده . وقال ابن زَيد : يَلتقي فيه العِبَاد . وقال قَتادة والسُّدي وبلال بن سعد وسُفيان بن عُيَينة: يلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض ، والخالق والخَلْق ، وقال مَيمون بن مِهران: يَلتقي الظالمُ والمظلومُ . وقد يُقَال : إنَّ يَوم التَّلاق يَشمل هذا كُلَّه ، ويَشمل أنَّ كُلَّ عامل سَيَلْقَى ما عَمِلَه مِن خَير وشَر ، كما قاله آخَرون)) .

ي ــ يَوم الجَمْع

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فِيه ﴾[الشُّورى : ٧] .

وتُخوِّف الناسَ يا مُحمَّد مِن يَوم القِيامة (يَوم الجَمْع) ، لا شَكَّ في وُقوعه ، ولا رَيْب في حُدوثه ، وهو كائن لا مَحَالة . واللهُ يَجْمَع الأوَّلين والآخِرين ، وأهل السماوات وأهل الأرْضِين .

وفي هذا اليَوم الرهيب ، سَوْفَ يَجمع اللهُ العِبَادَ كُلَّهُم في صعيد واحد ، للحِسَاب والجَزاء ، فيُوفِّيهم أعمالَهم كاملةً غَير مَنقوصة بلا ظُلم. وهذا المَشهدُ العظيم سَيَضُمُّ كُلَّ الخلائق ، والأُمم التي تعاقبت على الأرض . والذين كانوا مَوْتَى صاروا أحياء في صعيد واحد يَنتظرون مَصيرَهم بكُل قَلَق وتَرَقُّب. ولا أحد بإمكانه الهرب أو التَّوَاري عن الأنظار. واللهُ تعالى الذي بَدأ الخَلْقَ لَن تُعجِزه إعادته . ومَن خَلَقَ الإنسانَ مِن التُّراب ، لَن يَعجَز عَن إعادته مِن التراب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٤): ((﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ ﴾، وهو يَوم القِيامة ، يَجْمَع اللهُ فِيه الأوَّلين والآخِرين ، وأهل السَّماوات والأرضِين ، ﴿ لا رَيْبَ فيه ﴾ أي : لا شَكَّ في هذا الجَمْع أنَّه كائن)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٤٩) : ((﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ ﴾ أي : وَلِتُنْذِر بيَوم الجَمْع ، وهو يَوم القِيامة ، لأنَّه مَجمَع الخلائق . وقِيل : المُراد جَمْع الأرواح بالأجساد . وقِيل : جَمْع الظالم والمظلوم . وقِيل : جَمْع العامل والعمل ، ﴿ لا رَيْبَ فِيه ﴾ أي : لا شَكَّ فِيه)) .

ك ــ يَوم الوَعيد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ ﴾[ق : ٢٠] .

ذلك يَوم القِيامة الذي وَعَدَ اللهُ الكُفَّارَ فيه بالعذاب الأليم والعُقوبة الشديدة . وهذا اليَوم الرهيب هو يَوم الوَعد والوَعيد ، ولكن خُصَّ بالوَعِيد لتعظيمه وتَهويله ، وكَي يَكُون ذا وَقْع شديد في النُّفوس، وتأثير قوي في القُلوب. ويَوم الوَعِيد هو يَوم وُقوع الوعيد(التهديد) وتحقُّقه وإنجازه .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٦٠): ((﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ ﴾ ، أي: ذلك اليَوم يَوم الوَعِيد الذي وَعَدَه اللهُ للكفار أن يُعذِّبهم فيه. قال مُقاتل:يعني بالوَعيد العذاب، أي: يَوم وُقوع الوعيد)).

ل_ الوَاقِعة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾[الواقعة : ١] .

إذا قامت القِيامة ، التي لا شَكَّ في حُدوثها ، ولا بُد مِن وُقوعها ، كان مِن الأهوال والشدائد ما لا يتخيَّله عَقل، ولا يَخطُر ببال . ويُقَال لكُلِّ آتٍ يُتَوَقَّع : قَد وَقَعَ الأمرُ .

والواقعةُ مِن أسماء يَوم القِيامة، سُمِّيت بذلك لتحقُّق وُقوعها، ولأنَّها كائنة لا مَحَالة ، أوْ : لأنها تقع عن قُرب، أوْ: لكثرة من يَقع فيها مِن الأهوال المُخيفة والأحداث الجسيمة والشدائد الرهيبة .

وهذا اليَوم الشديد واقع لا مَحَالة ، وهو قريبٌ ، لأنَّ كُلَّ آتٍ قريبٌ . فلا مَفرَّ مِنه ، ولا توجد وسيلة للاختباء منه . فالقيامةُ قريبةٌ ، وفيها أهوال شديدة ، لا يمكن تجاوزها إلا بإذن الله تعالى . والعاقلُ مَن بنى حياته وَفْقَ أحداث ما بَعْد المَوت .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٢٢) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله: ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ إذا نزلت صَيْحَةُ القِيامة، وذلك حِين يُنفَخ في الصُّور لقِيَام السَّاعة ، كما حَدَّثْتُ عن الحُسَين قال: سَمِعْتُ أبا مُعاذ يقول: ثنا عُبَيد قال: سَمِعْتُ الضَّحاك يَقول في قَوله: ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ يعني: الصَّيْحَة . حَدَّثَنا عليٌّ قال : ثنا أبو صالح قال : ثني معاوية عن عليٍّ عن ابن عباس في قَوله : ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ ، الوَاقِعة ، والطَّامَّة ، والصَّاخَّة ، ونَحْو هذا مِن أسماء القِيامة ، عَظَّمَه اللهُ وحَذَّرَه عِبَادَه)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ١٨٨) : ((﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ ، أي : إذا قامت القِيامةُ ، وذلك عِند النَّفْخَة الثانية . والتعبير عنها بالواقعة للإيذان بتحقُّق وُقوعها لا مَحَالة ، كأنها واقعة في نفْسها مَعَ قَطْع النظر عن الوُقوع الواقع في حَيِّز الشَّرْط ، كأنَّه قِيل : كانت الكائنةُ ، وحَدَثَت الحادثةُ . وانتصاب " إذا " بمُضمَر يُنبِئ عَن الهَول والفظاعة ، كأنَّه قِيل: إذا وَقَعَت الواقعةُ يكون من الأهوال ما لا يَفِي به المَقَال)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ . قال أبو سُلَيمان الدمشقي : لَمَّا قال المُشركون : مَتَى هذا الوَعْدُ ؟ مَتَى هذا الفَتْح ؟ ، نَزَلَ قَوله : ﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ ، فالمعنى يكون : إذا وَقَعَت الواقعةُ. قال المُفسِّرون: والوَاقِعة القِيامة ، وكُلُّ آتٍ يُتَوَقَّع، يُقال له إذا كان: قَد وَقَعَ. والمُراد بها هاهُنا: النَّفْخَة في الصُّور لِقِيَام السَّاعة)) .

م ـ يَوم التَّغَابُن

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾[التَّغَابُن : ٩] .

الغَبْن ـ لُغَةً ـ : النَّقْص . يُقال : غَبَنَهُ ، إذا أخذ الشيءَ بدُون قِيمته .

ويَوْمُ القِيامة هو يَوم التَّغَابُن ، الذي يُظهِر غَبْنَ الكافرين (أهل النار) وخسارتهم بتَركهم الإيمان ، وذلك أنَّ المؤمنين اشْتَرَوا الجَنَّةَ بترك الدُّنيا ، واشترى الكافرون النارَ بترك الآخِرة . كما يُظهِر يَوْمُ القِيامةِ غَبْنَ المؤمنين (أهل الجَنَّة) بتقصيرهم في الطاعات والعبادات .

إنَّ أهلَ الجَنَّة يَغْبِنُون في يَوم القِيامة أهلَ النار ، بأخذ منازلهم التي كانت لهم في الجَنَّة لَوْ آمَنُوا ، ويَغْبِن أصحابُ الدَّرَجَات العُليا في الجَنَّة مَن كان أقل مِنهُم مَنزلةً ودَرَجَةً . وبالتالي ، يَظهر في ذلك اليَوم غَبْنُ الكافرين بترك الإيمان ، وغَبْنُ المؤمنين بتقصيرهم في الإحسان .

وأهلُ الجَنَّة اختاروا الإسلام في الدُّنيا ، فحصلوا على نعيم الجَنَّة ، وفازوا ، ورَبِحُوا . وأهلُ النار اختاروا الكُفْرَ في الدُّنيا، فكان مصيرهم عذاب النار ، وخابوا ، وخَسِرُوا. وشُبِّهُوا بالمُتَبَايِعَيْن، يَغبِن أحدُهما الآخَرَ في بَيْعِه . وهكذا غَبَنَ المؤمنون (أهلُ الجَنَّة) الكافرين (أهلَ النار) .

وهذا يدل على أنَّ التَّغَابُن الحقيقي هو التَّغَابُن في أُمور الآخِرة ، لأنَّها الدَّار العظيمة الباقية الدائمة ، أمَّا الدُّنيا فهي الدار الوضيعة الفانية الزائلة ، وكُل خسارة فيها يُمكن تعويضها ، أمَّا الخسارة في الآخِرة فلا يُمكن تعويضها أبدًا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٢١) : ((سُمِّيَ يَوم القِيامة يَوم التَّغَابُن ، لأنَّه غَبَنَ فِيه أهلُ الجَنَّةِ أهلَ النار ، أي أن أهل الجَنَّة أخذوا الجَنَّةَ ، وأخذَ أهلُ النارِ النارَ على طريق المُبَادَلَة، فَوَقَعَ الغَبْنُ لأجل مُبادلتهم الخَير بالشَّر ، والجَيِّد بالرَّديء ، والنعيم بالعذاب. يُقال: غَبَنْتَ فُلانًا إذا بَايَعْتَهُ أوْ شَارَيْتَهُ ، فكانَ النَّقْص عَلَيه ، والغَلَبَة لك ، وكذا أهل الجَنَّة وأهل النار)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٨٢) : ((﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُن ﴾ تَفَاعُل مِن الغَبْن ، وهو فَوت الحَظ . والمُراد في تَسمية يَوم القِيامة بيَوم التَّغَابُن ، فِيه أربعة أقوال : أحدها أنَّه لَيس مِن كافر إلا وله مَنزِل وأهل في الجَنَّة ، فَيَرِث ذلك المؤمنُ ، فيُغبَن حينئذ الكافر، ذَكَرَ هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس . والثاني غَبْن أهلِ الجَنَّةِ أهلَ النار، قاله مُجاهد والقُرَظي. والثالث أنَّه يَوم غَبْن المَظلوم الظالم ، لأن المظلوم كان في الدُّنيا مَغْبُونًا، فصارَ في الآخِرة غَابِنًا، ذَكَرَه المَاوَرْدِي . والرابع أنَّه يَوم يَظهَر فِيه غَبْنُ الكافر بتَركه للإيمان ، وغَبْنُ المؤمن بتَقصيره في الإحسان ، ذَكَرَه الثعلبي . قال الزَّجاج : وإنَّما ذَكَرَ ذلك مَثَلًا للبَيع والشِّراء)) .

ن _ الحَاقَّة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الحَاقَّة ﴾ [الحَاقَّة : ١] .

الحَاقَّةُ مِن أسماء يَوم القِيامة ، سُمِّيت بذلك لأنَّها حَقٌّ قاطع لا مَحَالة ، وأمرٌ واقع بلا شَك .

وفي يَوم القِيامة يَتَحَقَّق الوَعْدُ والوعيدُ . والحَاقَّةُ (القِيامة) عَظَّمَها اللهُ في كِتابه ، وجعلها إحقاقًا للحق ، وإزهاقًا للباطل ، حيث يَحُقُّ فيها الجَزاء على الأعمال .

ويَوم القِيامة واقعٌ وكائن، لا شَكَّ فيه ولا جِدال. وسيأتي في موعده بدِقَّة بلا تقديم ولا تأخير ، فهو الحَق الساطع ، والحقيقةُ الباهرة التي تنهار أمامها العقائدُ الزائغة والشُّكوك والوساوس .

ويجب على المؤمنين الذين صدَّقوا بهذا اليَوم العظيم أن يَسْتَعِدُّوا له ، ويتجهَّزوا لمجيئه القريب، وكُل آتٍ قريبٌ . أمَّا الكافرون الذين رَفضوا الإيمانَ باليوم الآخِر ، فَسَوْفَ يُصعَقون حِين يُباغتهم . وعلى العاقل أن يتحلَّى ببُعد النَّظر لئلا يَسقط في النار ، ويَخسر نَفْسَه إلى الأبد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٢٤) : ((سُمِّيَت بذلك لأن الأُمور تَحُقُّ فيها ، قاله الطبري ... . وقيل : سُمِّيت حَاقَّة لأنها تكون مِن غَير شَك . وقِيل : سُمِّيت بذلك لأنها أَحَقَّتْ لأقوامٍ الجَنَّةَ ، وأَحَقَّتْ لأقوامٍ النارَ . وقِيل : سُمِّيَت بذلك لأن فيها يَصير كُل إنسان حقيقًا بجَزاء عَمَله)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٥) : ((الحَاقَّة القِيامة . قال الفَرَّاء : إنَّما قِيل لها حَاقَّة لأن فِيها حَوَاقَّ الأُمور . وقال الزَّجاج : إنَّما سُمِّيت الحَاقَّة ، لأنَّها تَحُقُّ كُلَّ إنسان بعمله مِن خَير وشَر)) .

س _ القَارِعَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ القَارِعَة ﴾ [القَارِعَة : ١] .

القَارِعَةُ مِن أسماء يَوم القِيامة، سُمِّيت بذلك لأنَّها تَقرَع قُلوبَ الناس بالفَزَع والأهوالِ العظيمة والشَّدائد المُخيفة. وأصلُ القَرْع الصَّوْت الشَّديد. وهذا دليلٌ على الشِّدة البالغة والخَطْب الجليل. إنَّها تَرُجُّ القُلُوبَ رَجًّا عنيفًا ، فيَشعرُ الناسُ أنَّ قلوبهم ستنخلع مِن مكانها . ولا يمكن للقلب أن يَثبُت في يَوم القِيامة الرَّهيب ، إلا إذا كان مَمْلُوءًا بالإيمان المُقترن بالعمل الصَّالح في الدُّنيا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٩٠) : ((﴿ القَارِعَة ﴾ مِن أسماء القِيامة ، لأنها تَقرَع القُلوبَ بالفَزَع ، وتَقرَع أعداءَ الله بالعذاب . والعرب تَقول : قَرَعَتْهُم القارعةُ ، إذا وَقَعَ بهم أمر فظيع)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٥ و٣٤٦) : ((قال ابن عباس : القَارِعَة اسمٌ مِن أسماء يَوم القِيامة . قال مُقاتل : وإنَّما سُمِّيت بالقَارِعة ، لأن الله تعالى يَقرَع أعداءَه بالعذاب . وقال ابن قُتَيبة : القارعة القِيامة ، لأنَّها تَقرَع ، يُقال : أصابتهم قوارع الدَّهْر . وقال الزَّجاج : لأنَّها تَقرَع بالأهوال . وقال غَيْرُهم : لأنَّها تَقرَع القُلوبَ بالفَزَع)) .

ع _ الطَّامَّة الكُبرى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبرى ﴾[النَّازِعَات : ٣٤] .

الطَّامَّةُ الكُبرى هِيَ القِيامة ، وهي الدَّاهية العُظمى ، ذات الشأن الجليل ، والوَطأة الشديدة ، حيث إنَّها تُغطِّي على كُل الفظائع والمصائب والكوارث ، فهي الحَدَثُ الرهيب الذي تَصغُر أمامه الأحداثُ الجسيمة . وكُل الخُطُوب العظيمة تتلاشى أمام الطَّامَّة الكُبرى (القِيامة) التي تَعُمُّ بأهوالها كُلَّ شيء ، وَتَطِمُّ على كُل الأمور الهائلة والأحداثِ الجسيمة والوقائعِ الفظيعة ، فَتَعْلُو فَوْقَها ، وتَغلِب ما سِوَاها ، وتُصبح هي الحَدَث الأكبر المُرعِب ، والشُّغْل الشَّاغِل للعِبَاد . وكما أنَّ نُور الشَّمس يُغطِّي على ضَوْء النُّجوم ، فكذلك هذا الحَدَث الرهيب يُغطِّي على مَا عَدَاه مِن الأحداث والوقائع . والطَّامَّةُ عِند العرب : الدَّاهِيَة التي لا تُستطاع .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٧٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ فإذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبرى ﴾ ، أي : الدَّاهِيَة العُظمى ، وهي النَّفْخَة الثانية التي يَكون معها البَعْث ، قاله ابن عباس في رواية الضَّحاك عنه ، وهو قَول الحَسَن . وعن ابن عباس أيضًا والضَّحاك : أنَّها القِيامة ، سُمِّيت بذلك لأنها تَطِمُّ عَلى كُل شيء ، فَتَعُمُّ ما سِوَاها لِعِظَم هَوْلها)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٣و٢٤) : ((والطَّامَّة : الحادثة التي تَطِمُّ على ما سِواها، أي تَعْلُو فَوْقَه ، وفي المُراد بها هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها النَّفْخَة الثانية التي فِيها البَعْث ، والثاني : أنَّها حِين يُقَال لأهل النار : قُوموا إلى النار ، والثالث : أنَّها حِين يُساق أهلُ الجَنَّة إلى الجَنَّة ، وأهل النار إلى النار)) .

ف _ الصَّاخَّة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾[عَبَسَ : ٣٣] .

الصَّاخَّةُ صَيْحَةُ يَوم القِيامة ، وهي اسم مِن أسماء يَوم القِيامة . سُمِّيت كذلك لِشِدَّة صَوتها ، حيث إنَّها تَصُخُّ الآذانَ ، أي : تَجعلها عاجزةً عَن السَّمْع (حَالة الصَّمَم) . وهذا الصَّوتُ المُخيف يُعطِّل الجَوَارِحَ عَن عملها ، فتُصبح حَاسَّةُ السَّمع كما لَوْ أنَّها غَير موجودة . وذلك لِشِدَّة الصَّدمة والضغط الهائل ، مِمَّا يُشير إلى عَظَمَة المَوقف ، وشِدَّة الهَوْل ، وصُعوبة الحال .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٩٤) : ((والصَّاخَّة : الصَّيْحَة التي تكون عَنها القِيامة ، وهي النَّفْخَة الثانية تَصُخُّ الأسماعَ : أي تُصِمُّها ، فلا تَسمع إلا ما يُدعَى به للأحياء ، وذَكَرَ ناسٌ مِن المُفسِّرين قالوا : تُصِيخ لها الأسماع ، مِن قَولك : أصاخَ إلى كذا : أي استمعَ إلَيه)) .

ص _ الغَاشِيَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾[الغَاشِيَة : ١] .

الغَاشِيَةُ هِيَ القِيامة ، تَغشى الناسَ بأهوالها العظيمة ، وتَعُمُّهم بشدائدها الرهيبة . وفي ذلك المَوقف العَصيب لن يَثْبُت إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى . وهذه الشِّدةُ العارمة العامة التي لا تستثني أحدًا تدل على هَوْل المَوقف واستحالة الإفلات منه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٦) : ((أي القِيامة التي تَغشَى الخَلائق بأهوالها وأفزاعها، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جُبَير ومُحمَّد بن كَعْب : ﴿ الغَاشِيَة ﴾ النار تَغشَى وُجُوهَ الكُفَّار ... . وقِيل : تَغشَى الخَلْقَ . وقِيل : المُراد النَّفْخَة الثانية للبَعْث ، لأنَّها تَغشَى الخلائقَ ، وقِيل : ﴿ الغَاشِيَة ﴾ أهل النار ، يَغْشَوْنَهَا ، ويَقتحمون فِيها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٩٤) : ((وفي الغَاشِيَة قَولان : أحدهما أنَّها القِيامة تَغشَى الناسَ بالأهوال ، قاله ابن عباس والضَّحاك وابن قُتَيْبة . والثاني أنَّها النار تَغشَى وُجُوهَ الكُفَّار ، قاله سعيد بن جُبَير والقُرَظي ومُقاتل)) .

ق_ يَوم الآزِفَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ [غَافِر : ١٨] .

الآزِفَةُ اسمٌ مِن أسماء القِيامة، سُمِّيَت بذلك لأنَّها قريبة ، وكُل ما هُوَ آتٍ قريبٌ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأنذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ فيه قَولان : أحدهما أنَّه يَوم القِيامة ، قاله الجمهور. قال ابن قُتَيبة : وسُمِّيَت القِيامة بذلك لقُربها ... والثاني أنَّه يَوم حُضور المَنِيَّة ، قاله قُطرُب)) .

ر _ يَوم التَّنَاد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويا قَوْمِ إنِّي أخافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [غَافِر : ٣٢] .

يَوم التَّنَاد هو يَوم القِيامة . وسُمِّيَ بذلك لأن الكافر يُنادي فيه بالوَيل والثُّبُور والحَسْرَة ، أوْ : يُنادي أهلُ الجَنَّةِ أهلَ النار ، وأهلُ النارِ أهلَ الجَنَّة ، أوْ : يُنَادَى فيه بسعادة المؤمنين وشقاء الكافرين ، أوْ: يُنَادَى كُل أُناس بإمامهم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٤٧) : ((يوم القِيامة يُدعَى كُل أناس بإمامهم ، ويُنادي بعضُهم بعضًا ، فيُنادي أصحابُ الجَنَّةِ أصحابَ النار ، وأصحابُ النارِ أصحابَ الجَنَّة ، ويُنادَى أصحاب الأعراف ، ويُنادَى بالسَّعادة والشَّقاوة : ألا إنَّ فُلان بن فُلان قد سَعِدَ سَعادةً لا يَشقَى بَعْدَها أبدًا، وفُلان بن فُلان قد شَقِيَ شَقاوةً لا يَسعَد بَعْدَها أبدًا، ويُنادَى حِين يُذبَح المَوت:يا أهلَ الجَنَّة ، خُلود فلا مَوت ، ويا أهل النار ، خُلود فلا مَوت)) .

ش ــ يوم الخُروج

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾[ق : ٤٢] .

يَوم الخُروج مِن أسماء يَوم القِيامة، ذلك يَوم خُروج الأمواتِ مِن قُبورهم عِند النَّفْخَة الثانية.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ ، وهي هذه النَّفْخَة الثانية ﴿ بالحَقِّ ﴾ أي : بالبَعْث الذي لا شَكَّ فيه، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾ مِن القُبور)) .

٥ــ الإرهاصات التي تَسبِقُه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُم جَمْعًا ﴾ [الكَهْف : ٩٩] [222].

وَجَعَلَ اللهُ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ يَضطرب بعضُهم ببعض،حِين يَخرُجون مِمَّا وراء السَّد ، مُزدحمين في البلاد . وتَشبيههم بمَوج البَحر المُتَلاطِم يدل على كثرتهم واضطرابهم واختلاطهم. ونُفِخَ في القَرْنِ النَّفْخَةُ الثانية لقِيَام السَّاعة (نَفْخَة البَعْث)، فَجَمَعَ اللهُ الخلائقَ بَعدما تفرَّقت أجزاؤهم وتمزَّقت أجسادُهم ، للحِسَاب والجَزاء ، والثَّوَاب والعِقَاب ، في مكان واحد يَوم القِيامة جَمْعًا عظيمًا عجيبًا ، لا يتخلَّف مِنهُم أحد ، ولا تُوجد فُرصة للهرب أو الغِياب أو الاختباء .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠٩) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ ﴾ . قِيل : هذا عِند السَّد ، يَقول : تَرَكْنا يَأجُوجَ ومَأجُوجَ ، أي : يَدخل بعضُهم في بعض

---

٢٢٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ١٩٥):((قَوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾. في الْمُشار إليهم ثلاثة أقوال: أحدها أنهم يأجوج ومأجوج ، ثُمَّ في المراد بـ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ قَولان: أحدهما أنَّه يَوم انقضى أمرُ السَّد، تُركوا يمُوج بعضُهم في بَعْض مِن ورائه مُختلِطين لكَثرتهم. وقِيل: ماجوا مُتعجبين مِن السَّد. والثاني أنَّه يَوم يَخرجون مِن السَّد، تُركوا يمُوج بعضُهم في بَعْض . والثاني أنهم الكُفَّار . والثالث أنهم جميع الخلائق الجِن والإنس يمُوجون حَيَارى. فعلى هَذَيْن القَوْلَيْن الْمُراد باليَوم المذكور يَوم القِيامة)) .

كَمَوْج الماء ، ويَختلط بعضُهم ببعض لكثرتهم . وقِيل : هذا عِند قِيام السَّاعة ، يَدخل الخَلْقُ بعضُهم في بعض ، ويَختلط إنسِيُّهم بِجِنِّيهم حَيَارى . ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ ، لأنَّ خُروج يَأجُوج ومأجوج مِن عَلامات قُرب السَّاعة ، ﴿ فَجَمَعْنَاهُم جَمْعًا ﴾ في صَعِيد واحد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَسأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا ربِّي نَسْفًا ﴾[طه : ١٠٥] .

ويسألك قَوْمُكَ يا مُحمَّد عن حَال الجِبال يَوم القِيامة، هَل تَظَلُّ على ما هِيَ عَلَيه أَم تَختفي ؟. فقُل لهم : يَقْلَعُها رَبِّي مِن أصلها ، ويُزيلها مِن مكانها ، ويُفتِّتها كالرَّمْل ، ويُطيِّرها بالرِّياح ، ويَجعلها هَبَاءً منثورًا . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٥٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ويَسألك يا مُحمَّد قَوْمُك عَن الجِبال ، فقُل لهم : يُذرِّيها رَبِّي تَذرِيَةً ، ويُطيِّرها بقَلْعها واستئصالها مِن أصولها ، ودَك بعضها على بعض ، وتَصييره إيَّاها هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[طه : ١٠٦] .

فَيَترك اللهُ الجِبَالَ أرضًا مَلساء مُستوية ، لا نبات فيها ، ولا بناء ، ولا هِضَاب ، ولا تِلال . والقاعُ المُستوي مِن الأرض (الأرض المُنبسطة) . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٥٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: فَيَدَع أماكنها مِن الأرض إذا نَسَفَهَا نَسْفًا قاعًا ، يعني : أرضًا مَلساء صَفْصَفًا: يعني مُستويًا ، لا نبات فيه ، ولا نَشْز (مكان مُرتفع) ، ولا ارتفاع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أمْتًا ﴾[طه : ١٠٧] .

لا ترى فِيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٢٣) : ((أي : لا ترى في الأرض يَومئذ واديًا ، ولا رابية ، ولا مكانًا مُنخفِضًا ، ولا مُرتفِعًا ، كذا قال ابن عَبَّاس وعِكرمة ومُجاهد والحَسَن البصري والضَّحاك وقَتادة ، وغَير واحد مِن السَّلَف)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٢٢ و٣٢٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ ويَسألُونَكَ عَنِ الجِبَالِ ﴾ ، سبب نُزولها أنَّ رِجَالًا مِن ثَقيف أتَوْا رسولَ الله ﷺ ، فقالوا : يا مُحمَّد ، كَيف تكون الجِبالُ يَوم القِيامة ؟ ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قَوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا ربِّي نَسْفًا ﴾ . قال المُفسِّرون : النَّسْف التَّذرِيَة ، والمعنى يُصيِّرها رِمَالًا تَسِيل سَيْلًا ، ثُمَّ يُصيِّرها كالصُّوف المَنفوش ، تُطيِّرها الرياحُ ، فتستأصلها ، فَيَذَرُها ، أي : يَدَع أماكنها من الأرض إذا نَسَفَهَا قاعًا . قال ابن قُتَيبة : القَاع مِن الأرض المُستوي الذي يَعلُوه الماء ، والصَّفْصَف المُستوي أيضًا، يُريد أنَّه لا نَبْتَ فِيها . قَوله تعالى : ﴿ لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أَمْتًا ﴾ ، في ذلك ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المُراد بالعِوَج الأودية ، وبالأَمْت الرَّوابي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن

عباس ، وكذلك قال مُجاهد : العِوَج الانخفاض ، والأمْت الارتفاع ، وهذا مذهب الحَسَن . وقال ابنُ قُتَيبة الأمْت النَّبْك (ما ارتفعَ مِن الأرض) . والثاني أن العِوَج المَيل ، والأمْت الأثَر ، ... ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أن العِوَج الصَّدْع ، والأمْت الأكَمَة (التَّل))) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ حتّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ ومَأجُوجُ وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون﴾[الأنبياء:٩٦].

حتى إذا فُتح سَد يأجوج ومأجوج ، وهُم لكثرتهم مِن كُل مَكان مُرتفِع (حَدَب) من الأرض يُقْبِلون ، ويَنْزِلُون مُسْرِعين . أي إنهم لكثرتهم يَخرُجون مِن كُل طريق لنشر الفساد في الأرض .

وهذه الصُّورة القُرآنية البليغة تُوضِّح صِفَةَ خُروجهم . وحِين يُفتَح سَد يأجوج ومأجوج الذي كان يَحجُزهم ، فإنهم يُسرِعون إلى الفَساد كأنهم أمواج هائلة مُتتابعة. فهُم يَنسِلون مِن كُل ناحية ، وذلك لكثرة أعدادهم . والجدير بالذِّكر أنَّ خُروجهم مِن علامات الساعة الكُبرى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٢) : ((﴿ حتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ ومَأجُوجُ وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون﴾ ، أي : يُسرِعون في المَشْي إلى الفَساد . والحَدَبُ هو المُرتفَع مِن الأرض ، قاله ابن عباس وعِكرمة وأبو صالح والثَّوري وغَيرهم ، وهذه صِفتهم في حال خُروجهم كأن السامع مُشَاهِد لذلك، ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير ﴾ ، هذا إخبار عَالِم ما كان ، وما يَكُون ، الذي يَعلَم غَيْبَ السَّماوات والأرض ، لا إله إلا هُوَ. وقال ابن جرير : حَدَّثَنا مُحمَّد بن مُثنَّى ، حَدَّثَنا مُحمَّد ابن جعفر ، حَدَّثَنا شُعبة عن عُبَيد الله بن يَزيد ، قال : رأى ابنُ عَبَّاس صِبيانًا يَنْزُو بعضُهم على بعض يَلْعَبُون ، _ يعني : يَثِبُون على بعضهم البعض _ ، فقال ابن عباس : هكذا يَخرج يَأجوجُ ومَأجوجُ . وقد ورد ذِكْرُ خُروجهم في أحاديث مُتعدِّدة مِن السُّنَّة النَّبوية)) .

وعن عبد الله بن عَمْرو _ رضي اللهُ عنه_ قال عَن يَأجوج ومَأجوج: ((ولا يَمُوتُ رَجُلٌ إلا تَرَكَ ألْفًا مِن ذُرِّيته فصَاعِدًا)) [٢٢٣].

هذا يدل على أعدادهم الهائلة ، وقُوَّتهم ، وشِدَّة بأسهم ، وانتشارهم المُذهِل في الأرض ، لنشر الفساد والضَّلال فيها . وينبغي الاستعدادُ لهذا الحَدَث الرهيب ، وأخذ الحَيطة والحَذَر .

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((تُفْتَح يَأجوجُ ومأجوج ، يَخرُجون على الناس ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون ﴾ ، فَيَعِيثُونَ في الأرض ، ويَنحاز المُسلمون إلى مدائنهم وحُصونهم ، ويَضُمُّون إليهم مَوَاشِيهم ، ويَشربون مِيَاهَ

---

٢٢٣ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٦) برقم (٨٥٠٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الأرض ، حتى إنَّ بَعْضَهم لَيَمُرُّ بالنهر ، فيَشربون ما فيه ، حَتَّى يَتركوه يابسًا ، حتى إنَّ مَن بَعْدَهُم لَيَمُرُّ بذلك النهر فيقول : لقد كان هاهُنا مَاءٌ مَرَّةً ، حَتَّى إذا لَم يَبْقَ مِن الناس أحَدٌ إلا أخذَ في حِصْن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهلُ الأرض قَد فَرَغْنا مِنهُم ، بَقِيَ أهلُ السَّماء ، قال: ثُمَّ يَهُزُّ أحَدُهم حَرْبَتَه ، ثُمَّ يَرْمي بها إلى السَّماء ، فَتَرْجِع مُخَضَّبَةً دَمًا للبَلاء والفِتنة ، فَبَيْنَمَا هُم على ذلك ، بَعَثَ اللهُ عليهم دُودًا في أعناقهم كالنَّغَف ، فيَخرج في أعناقهم، فيُصبِحون مَوْتَى لا يُسمَع لهم حِس ، فيَقول المُسلمون : ألا رَجُلٌ يَشْري لنا بنَفْسه ، فيَنظر ما فعل هذا العَدُوُّ ، قال : ثُمَّ يتجرَّد رَجُل منهم لذلك مُحْتَسِبًا بنَفْسه ، قَد وَطَّنَها بنَفْسه على أنَّه مَقتول ، فيَنزِل فيَجِدهم مَوْتى ، بعضُهم على بَعض ، فيُنادي : يَا مَعْشَرَ المُسلمين ، أبشِرُوا ، فإنَّ الله قد كَفَاكُم عَدُوَّكم ، فيَخرُجون مِن مَدائنهم وحُصونهم ، ويَسْرَحُون مَواشِيهم ، فَمَا يكون لها رَعْيٌ إلا لُحُومُهم ، فتَشكَر عنه كأحسن ما شَكِرَت عَن شَيء مِن نبات أصابته قَط)) [٢٢٤].

يُوضِّح النبيُّ ﷺ عمليةَ خُروج يَأجوج ومَأجوج في آخِر الزَّمان،ويُخبِر عن إفسادهم في الأرض، وخطرهم ، وشَرِّهم ، وكيفية هلاكهم .

يُفْتَح السَّد الذي بناه ذُو القَرْنَيْن لحَجْز يأجوجَ ومأجوج، فينتشرون مِن كُل الجهات ، ويأتون مِن كُل الأماكن، ويَعيثون في الأرض فسادًا ، ويتحصَّن المُسلمون في مدائنهم وحُصونهم ، ويَجْمَع المُسلمون حيواناتهم في الحُصون معهم ، لحمايتها من فساد يأجوج ومأجوج وشَرِّهم ، ويَشرَبون مياهَ الأنهار ، ولا يَتركون مِنها شيئًا ، وهذا يدل على كثرة عددهم ، وقُوَّتهم البدنية ، وشِدَّتهم ، وقَسوتهم ، وعِظَم خَلْقهم .

وبعد أن يَعيث يأجوجُ ومأجوجُ في الأرضِ فسادًا ، ويُهلِكون أهلَ الأرض ، يُقرِّرون أن يُهلِكوا أهلَ السَّماء ، وَفْق تفكيرهم القاصر ، ويَرمي أحدُهم حَربته إلى السماء ، فتَرجع مصبوغةً بالدَّم ، بَلاءً لهم وفِتنةً مِن الله تعالى، فيعتقدون أنهم قَتَلُوا أهلَ السَّماء ، وهذا يُصيبهم بالغُرور والفَخْر والاستكبار ، وبَينما هُم كذلك ، بَعَثَ اللهُ عليهم دُودًا في أعناقهم كالنَّغَف (الدُّود الذي يَكون في أُنُوف الإبل والغنم) ، فيموتون ، ولا يَسمع المُسلمون لهم صَوْتًا ، فيقول المُسلمون وهُم في حُصونهم : ألا رَجُل يَبيع نَفْسَه ، ويَنظر ما فَعلوا . ويَنزِل مِنهُم رَجُل قد هيَّأ نَفْسَه على أن يَقْتُلوه ، فيَجدهم مَوْتَى ، بعضهم فوق بعض ، بسبب كثرة عددهم ، فيُنادي على المُسلمين في الحُصون ،

---

٢٢٤ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٥) برقم (٨٥٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ويُبشِّرهم بهلاك يأجوج ومأجوج ، وأنَّ الله قد كَفَاهُم عَدُوَّهم ، فيَخرج المُسلمون مِن مدائنهم وحُصونهم، ويُطْلِقُون حيواناتهم، فَمَا يكون لها رَعْيٌ إلا لُحُوم يأجوج ومأجوج ، فتمتلئ بُطونها شِبَعًا مِن الأكل مِن لُحومهم .

والحديثُ دليل واضح على صِدق مُحمَّد ﷺ وصِحَّةِ نُبُوَّته ، لأنَّه إخبار بأمر غَيْبِيٍّ مُسْتَقْبَلِيٍّ . ويُبيِّن الحديثُ خُطورةَ فِتنة يأجوج ومأجوج ، وكثرة عددهم ، ونشرهم للفساد والشَّر ، وامتلاكهم قُدرات هائلة ، غير مُتوفِّرة لدى الناس .

وعن زَينب بنت جَحْش أنَّ رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَيها يَوْمًا فَزِعًا ، يقول : ((لا إله إلا الله ، وَيْلٌ للعرب مِن شَرٍّ قَد اقترب ، فُتح اليَوْمَ مِن رَدْمِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثْلُ هذه) . وحَلَّقَ بإصْبَعَيْه الإبهام ، والتي تَلِيها [225].

دَخَلَ النبيُّ ﷺ على زَوجته أُم المؤمنين زَينب بنت جَحْش _ رضي اللهُ عنها _ يَوْمًا خائفًا ، يقول : " لا إله إلا الله " ، على سبيل التَّعظيم ، والتَّعَجُّب مِن هَول ما حَصَل . والوَيْلُ كلمة تُستعمَل للحُزن والهَلاك والمَشَقَّة.وتَخصيص العرب بالذِّكر، لأنَّهُم كانوا حِينئذ مُعظَم المُسلمين ، أوْ: لأنَّهم أكثر مَن يُبتلَى بيأجوج ومأجوج، فإنَّهم يأتون من جِهة المشرق . وهذا تحذير مِن هذه الفِتنة الشديدة ، وتنبيه على خُطورتها. وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ١١): ((إنَّما خُص العرب بالذِّكْر،لأنَّهم أوَّل مَن دَخَلَ في الإسلام، وللإنذار بأن الفِتَن إذا وَقَعَتْ كان الهَلاك أسرع إلَيهم)).

إنَّ العَد التنازلي قد بدأ ، فالسَّدُّ الذي بَناه ذُو القَرْنَيْن لحماية الناس مِن شَر يأجوج ومأجوج ، قَد تَمَّ خَرْقُه من قِبَلهم ، وهذا الخَرْق يَتَّسع مَعَ مُرور الوَقْت . وسَوْفَ يَخرجون في نهاية الزمان لِيَعِيثوا في الأرض فسادًا . وخُروج يَأجوج ومأجوج من علامات السَّاعة الكُبرى، ولن يَثْبُت في ذلك الوَقت العصيب إلا مَن ثَبَّتَه اللهُ تعالى . وَلَم يَبْقَ لمجيء الشَّر إلا اليسير مِن الزمن .

وقال العَيني في عُمدة القاري (٢٤/ ١٨١) : ((وإنَّما خُص العرب بالذِّكْر ، لأنَّهم أوَّل مَن دَخَلَ في الإسلام، والإنذار بأنَّ الفِتَن إذا وَقَعَت كان الهَلاك إليهم أسرع... . قَوله: " وَيْل للعرب " لَفْظ وَيْل مِثْل وَيْح ، إلا أنَّ وَيْلًا يُقَال لِمَن وَقَعَ في هَلَكَة يَستحقها ، ووَيْحًا يُقال لِمَن لا يَستحقها، وأراد بالعرب أهل دِين الإسلام ، وإنَّما خُصَّ بذِكْرهم ، لأنَّ مُعظَم شَرِّهم راجع إليهم . قَوله : " قَد اقترب " أي : قَرُبَ . قَوله : " فُتح " على صِيغة المَجهول ، " اليَوم " نصب على الظَّرفية . قَوله :

٢٢٥ متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٦٠٩) برقم (٦٧١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) .

" مِن رَدْم يأجوج ومأجوج " ، الرَّدْم السَّد الذي بَيْننا وبَيْنَهم . وقال الكرماني: يُقال: إنَّ يأجوج هُم التُّرك ، وجرى ما جرى ببغداد مِنهُم . قُلتُ : هذا القول غَير صحيح ، لأنَّ التُّرك ما لهم رَدْم ، والرَّدْم بَيْنَنا وبَيْن يَأجوج ومَأجوج ، وهُما مِن بَني آدم مِن أولاد يَافِث بن نُوح عليه السلام . والذي جرى ببغداد كان مِن هُلاكو مِن أولاد جنكيز خان ، فإنه هو الذي قَتل الخليفة المُستعصِم بالله العَبَّاسي ، وأخربَ بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة . قَوله : وعَقد سُفيان تِسعين ومائة ، كذا هنا (رواية أُخرى) ، وفي رواية : حَلَّق بإصبعه الإبهام والتي تَلِيها ، وفي لَفْظ : عَقَدَ سُفيان بيده عَشرة ... . وقِيل : المُراد التقريب بالتمثيل لا حقيقة التحديد)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٢٢): (((فُتح) بالبناء للمفعول. وفي رواية للبخاري فَتح اللهُ (اليَوم) نصب على الظرفية (مِن رَدْم يأجوج ومأجوج) مِن سَدِّهم الذي بناه ذُو القَرْنَيْن (مِثل) بالرَّفع مَفعول ناب عن فاعله (هذه) أي الحَلْقة القَصيرة(وعَقَدَ بيده تَسعين) بأن جَعل طَرَف سَبَّابته اليُمنى في أصل الإبهام ، وضَمَّها مُحْكِمًا ، بحيث انطوت عُقدة إبهامها حتى صارت كالحَيَّة المُطوَّقة . واخْتُلِف في العاقد ، ورجَّح بعضُهم أن العَقْد مُدرَج ، وليس مِن الحديث ، وإنَّما الرُّواة عبَّروا عن الإشارة مِثل هذه بذلك ، والمراد بالتَّمثيل التقريب لا التحديد . وقِد قِيل : إنَّهم يَحفِرون في كُل يَوم حَتَّى لا يَبقَى بَينهم وبَين أن يَخرِقوه إلا قَليلًا، فيقولون: غدًا نأتي، فيَأتون إلَيه ، فيجدونه عاد كما كان ، فإذا جاء الوَقْت قالوا : عِند المساء غدًا إن شاء الله ، فإذا أتَوْا ، ونَقَبُوه خرجوا . [تنبيه] قال ابن العربي : الإشارة المَذكورة تدل على أن المُصطفى ﷺ كان يَعلَم عَدَدَ الحِساب ، ولَيس فيه ما يُعارِض حديث : " إنَّا أُمَّة أُمِّية لا نَحسُب ، ولا نَكتُب " ، فإنَّ هذا إنَّما جاء لبيان صُورة مُعيَّنة. قال ابن حَجَر: والأَوْلَى أن يُقَال: أراد بنَفْي الحِساب ما يَتعاناه أهلُ صِناعته مِن الجَمْع والضَّرْب والتَّكعيب، وغَير ذلك . وأمَّا عَقْد الحِساب فاصطلاح تَوَاضَعَه العرب بَينهم استغناءً به عَن اللفظ ، وأكثر استعمالهم له عِند المُسَاوَمَة سِتْرًا عَمَّن حَضَر، فَشَبَّه المُصطفى ﷺ قَدْرَ ما فُتح بصفة معروفة بَينهم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٦٧) عن حَديث آخَر : (((وَيْل) كلمة تُقال لِمَن وَقَعَ في هَلَكَة ، ولا يُتَرَحَّم عَلَيه ، بخِلاف وَيْح ، كذا في التَّنقيح (للعرب) يعني المُسلمين (مِن شَرٍّ قَد اقترب) وهُو الفِتَن التي حَدَثَت بَينهم مِن قَتل عُثمان ، وخُروج معاوية على عليٍّ . قال ابن حَجَر: ثُمَّ توالت الفِتَن حتى صارت العربُ بين الأُمَم كالقَصْعَة بين الأَكَلَة ، كما وَقَع في حديث آخَر : يُوشِك أن تَدَاعَى عَلَيكم الأممُ ، كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ على قَصْعتها . والخِطاب للعرب .

(أفلحَ مَن كَفَّ يَدَه) عَن القِتال ، ولِسانه عَن الكلام في الفِتَن ، لكثرة الخَطَر ، أو أراد مَا يَقَع مِن مَفسَدة يأجوج ومأجوج ، أوْ مِن التَّتار مِن المَفَاسِد الهائلة ، التي قالوا إنَّه لَم يُسمَع وُقوع مِثلها في العَالَم مِن بَدْء الدُّنيا إلى الآن. وقال القرطبي : أخبرَ بما يكون بَعْدَه بين العرب ، وقد وُجد ذلك بما اسْتُؤْثِرَ عليهم مِن المُلْك والدَّولة، وصار ذلك في غَيرهم مِن التُّرك والعَجَم ، وتَشَتَّتوا في البَوَادي بَعْد أن كان العِز والمُلك والدُّنيا لهم ببَرَكته عليه الصلاة والسلام ، وما جاءهم بِه مِن الإسلام، فلمَّا كَفُروا النِّعْمَةَ ، فَقَتَلَ بعضُهم بعضًا ، وسَلَبَ بعضُهم أموالَ بعض ، سَلَبَهَا اللهُ مِنهُم ، ونَقَلَها لغَيرهم . ﴿ وإن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم ﴾ [مُحمَّد : ٣٨])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنا إنَّا كُنَّا فَاعِلِين ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

في يَوم القِيامة ، يَطْوي اللهُ السَّماءَ كَطَيِّ الصَّحيفة على ما كُتِبَ فِيها ، ويُعيدها إلى الفَنَاء والعَدَم. واللام في ﴿ للكُتُبِ ﴾ بمعنى: عَلَى. ويُمكن القَول: كَطَيِّ السِّجِل على ما فيه مِن الكِتاب. وقِيل : " على " بمعنى " مِن " ، أي : مِن أجل الكِتاب ، لأنَّ الصَّحيفة تَطْوي حسناته ، لِمَا فِيها مِن الكِتابة. والنُّون في ﴿ نَطْوي ﴾ هي نُون العَظَمَة . كَمَا بَدَأهم اللهُ في بُطون أُمَّهاتهم ، وأخرجهم إلى الأرض حُفَاةً غَير مَختونين ، كذلك يُعيدهم يَوم القِيامة . وَعْدًا عَلى الله إنجازه والوفاء به ، وهو البَعث وإعادة الخَلْق . وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ مُؤَكَّد، كائن بلا شَك ، وواقع لا مَحالة، إن الله قادر على كُل شيء . وهو سُبحانَه فاعلٌ مَا وَعَدَه . وهذا تأكيد لوُقوع البَعْث .

إنَّ اللهَ سيُعِيد الخلائقَ خَلْقًا جديدًا كما بَدَأهم ، وأوجدهم مِن العَدَم ، وهذا كائنٌ لا مَحَالة ، وسَهْلٌ وهَيِّن على الله تعالى ، فهو القادر على إعادتهم ، ووعدُ الله واقع ، لا يُخلَف ، ولا يُبدَّل .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦١٤): ((وإنَّما خُص أوَّل الخَلْق بالذِّكْر تصويرًا للإيجاد عن العَدَم، والمقصود بَيان صِحَّة الإعادة بالقِياس على المَبدأ، لشُمول الإمكان الذاتي لهما)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٣٩٤ _ ٣٩٧): ((قَوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ ﴾ ... وذلك بمَحْو رُسومها ، وتَكدير نُجومها ، وتَكوير شَمْسها ، ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ ﴾ ... . وفي السِّجِلِّ أربعة اقوال : أحدها أنَّه مَلَك ، قاله عليُّ بن أبي طالب وابن عُمر والسُّدي . والثاني أنَّه كاتب كان لرسول الله ﷺ ، رواه أبو الجَوزاء عن ابن عباس . والثالث أن السِّجِل بمعنى الرَّجُل ، رَوى أبو الجَوزاء عن ابن عباس قال: السِّجِلُّ هو الرَّجُل. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: وقد قِيل: السِّجِلُّ بلغة الحَبَشَة الرَّجُل . والرابع أنَّه الصَّحيفة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال

مُجاهد والفَرَّاء وابن قُتَيبة . وقرأتُ على شيخنا أبي منصور قال : قال أبو بكر ـ يعني ابن دُرَيد ـ: السِّجِلُّ الكِتاب ، والله أعلم . ولا ألتفتُ إلى قَولهم إنَّه فارسي مُعرَّب، والمعنى: كما يُطوَى السِّجِل على ما فيه مِن كتاب ، واللام بمعنى على . وقال بعضُ العُلماء : المُراد بالكِتاب : المَكتوب ، فلمَّا كان المَكتوب يَنطوي بانطواء الصَّحيفة ، جُعِلَ السِّجل كأنه يَطْوي الكتابَ . ثُمَّ استأنف ، فقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ، الخَلْق هاهُنا مَصْدَر ، وليس بمعنى المَخلوق . وفي معنى الكلام أربعة أقوال : أحدها كَمَا بَدَأناهم في بُطون أُمَّهاتهم حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، كذلك نُعِيدهم يَوْمَ القِيامة ، رُوِيَ عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : " يُحشَر الناسُ يوم القيامة عُراةً حُفاةً غُرْلًا كما خُلِقوا ، ثُمَّ قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ " . وإلى هذا المعنى ذهب مُجاهد . والثاني أنَّ المعنى: إنَّا نُهلِك كُلَّ شيء ، كما كان أول مَرَّة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أنَّ السماء تُمطِر أربعين يَوْمًا كَمَنِيِّ الرِّجال ، فَيَنْبُتُون بالمطر في قُبورهم ، كما يَنْبُتُون في بُطون أُمَّهاتهم،رواه أبو صالح عن ابن عباس.والرابع أنَّ المعنى:قُدرتنا على الإعادة كقُدرتنا على الابتداء، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ وَعْدًا ﴾ ، قال الزَّجاج : هُوَ مَنصوب على المَصْدَر ، لأن قَوله تعالى: ﴿ نُعِيدُهُ ﴾ ، بمعنى : وَعَدْنا هذا وَعْدًا ، ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِين ﴾ ، أي : قَادِرين على فِعْل ما نشاء . وقال غَيْرُه : إنَّا كُنَّا فَاعِلِين مَا وَعَدْنا)) .

وعن أبي هُرَيرة قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ ، ويَطْوِي السَّمَاوَاتِ بيَمِينه ، ثُمَّ يقول : أنا المَلِكُ ، أينَ مُلُوكُ الأرض ؟)) [226].

في يَوم القِيامة ، يَضُمُّ اللهُ الأرضَ بعضَها إلى بعض ، ويَجمعها ، ويُزيلها ، ويُبيدها ، ويُفنِي السَّماوات بقُدرته المُطْلَقَة . وهذا القَبْضُ للأرض والطَّيُّ للسماوات يَقَعَان بَعْدَ أن يُفْنِيَ اللهُ خَلْقَه . ثُمَّ يَقول اللهُ تعالى: أنا المَلِكُ، أي: ذُو المُلْك على الإطلاق. ولا مُلْك إلا لله وَحْدَه،لا شريك له . أينَ مُلُوك الأرض ؟ . لقد ماتوا ، وصاروا تُرَابًا . وسُبحانَ الذي خَلَقَ المَوْتَ ، ولا يَمُوت .

وفي فتح الباري (١١/ ٣٧٢) : ((قال عِيَاض : هذا الحديث جاء في الصَّحيح على ثلاثة ألفاظ : القَبْض ، والطَّي ، والأخذ . وكُلها بمعنى الجَمْع ، فإن السماوات مَبسوطة ، والأرض مَدْحُوَّة مَمدودة ، ثُمَّ رجع ذلك إلى معنى الرَّفْع والإزالة والتبديل ، فعاد ذلك إلى ضَم بعضها إلى بعض ، وإبادتها ، فهو تمثيل لِصِفَة قَبْض هذه المخلوقات ، وجَمْعها بعد بَسْطها)) .

---

٢٢٦ متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨١٢)برقم (٤٥٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨) برقم (٢٧٨٧) .

وعن ابن عباس_ رضي اللهُ عنهما_ عن النبيِّ ﷺ قال: ((إنَّكُم مَحْشُورون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا))، ثُمَّ قَرَأ : ((﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنا إنَّا كُنَّا فاعِلِين﴾ . وأوَّلُ مَن يُكْسَى يَوْمَ القِيامة إبراهيم ، ...)) [٢٢٧].

يَجمَع اللهُ الناسَ يَوم القِيامة حُفَاةً بِلا نِعَال، عُرَاةً بِلا ثِيَاب تَستُر أجسامَهم، غُرْلًا غَير مَختونين. أي إنهم يُحشَرون كَمَا خُلِقُوا ، لَم يُفْقَد مِنهُم شيء ، ولَيس معهم شيء . وأوَّلُ مَن يُكسَى في ذلك اليَوم العظيم هو النبيُّ إبراهيم ﷺ ، وهذا يدل على منزلته الرفيعة ، ومكانته الجليلة .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٩٠) : ((يُقال إنَّ الحِكمة في خُصوصية إبراهيم بذلك ، لكَوْنه أُلْقِيَ في النار عُريانًا . وقِيل : لأنَّه أوَّل مَن لَبِسَ السَّراويل . ولا يَلزَم مِن خُصوصيته عليه السلام بذلك تفضيله على نَبِيِّنا مُحمَّد ﷺ ، لأنَّ المَفضول قد يمتاز بشيء يُخَص به ، ولا يَلزَم مِنه الفَضيلة المُطْلَقَة . ويُمكن أن يُقَال: لا يَدخل النبيُّ ﷺ في ذلك على القَول بأن المُتكلِّم لا يَدخل في عُموم خِطابه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٩٢): ((أوَّل مَن يُكْسَى) يوم القِيامة (مِن الخَلائق) على اختلاف أنواعها وطبقاتها ، وتبايُن أُمَمها ولُغاتها ، بعدما يُحشَر الناسُ كُلُّهم عُرَاةً، أو الغالب ، أو بعد خُروجهم مِن قُبورهم بثيابهم التي ماتوا فيها ، ثُمَّ تتناثر عَنهُم عِند ابتداء الحَشْر، فيُحشَرون عُرَاةً، ثُمَّ يكون أوَّل مَن يُكْسَى مِن ثِياب الجَنَّة (إبراهيم) الخليل عليه الصلاة والسلام، لأنه جُرِّدَ في ذات الله حِين أُلْقِيَ في النار ، أوْ لأنَّه لَم يكن أخْوَف لله مِنه ، فتُعجَّل كِسْوته إيناسًا له ، ليطمئن قلبُه ، أو لأنَّه أوَّل مَن استنَّ السراويلَ ، مُبَالَغَةً في السِّتْر ، وحِفْظًا لفَرْجِه ، فلمَّا اتَّخَذَ هذا النوعَ الذي هو أستر للعَورة مِن جميع الملابس،جُوزِيَ بأنَّه أوَّل مَن يُكْسَى،ثُمَّ يُكْسَى المُصطفى ﷺ حُلَّةً أعظم مِن كِسْوَة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لينجبر التأخير بنَفَاسَة الكِسْوة ، فيَكون كأنَّه كُسِيَ مَعَه)) .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها_ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((تُحشَرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا))، قالت عائشة : فقُلتُ : يا رسول الله ، الرِّجَالُ والنِّساء يَنظُرُ بَعْضُهُم إلى بَعْض ؟ ، فقال : ((الأمرُ أَشَدُّ مِن أن يُهِمَّهُم ذاك)) [٢٢٨].

---

٢٢٧ متفق عليه.البخاري (٣/ ١٢٢٢) برقم (٣١٧١)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤) برقم (٢٨٦٠) .

٢٢٨ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٥/ ٢٣٩١)برقم(٦١٦٢).ومسلم(٤/ ٢١٩٤)برقم(٢٨٥٩).

يُحشَر الناسُ يَوْمَ القِيامة كَمَا خُلِقَوا حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا غَير مَختونين . ولا يَنظر بعضُهم إلى بَعْض رغم العُري الكامل ، لأنَّ تحديد المَصِير هو شُغلهم الشاغل الذي يُسيطر عليهم . وبسبب صُعوبة المَوقِف وشِدَّةِ الأمر ، لا يَهْتَمُّون بأيَّة شَهوة . وهذا يدل بوضوح على أنَّ مَوقِف الحَشْر في غاية الصُّعوبة ، وأنَّ هَوْله العظيم يُنسِي الناسَ التفكير بشَهَواتهم ، مَعَ أنَّ الرِّجال والنِّساء كُلَّهم في حالة عُرْي كامل . ومعَ هذا ، فقد شُغِلَ بعضُهم عن بعض لِعِظَم المَوقِف وشِدَّته وصُعوبته وهَوْله .

والحديثُ يدلُّ على طهارة السَّيدة عائشة_ رضي اللهُ عنها _، وشرفها ، وحِرصها على السِّتْر، إذْ إن تفكيرها مَشغول بصيانة العَورات ، وعدم نظر الرِّجال إلى النِّساء ، والنِّساء إلى الرِّجال . وقد بيَّن لها النبيُّ ﷺ أنَّ هَول المَوقِف يَجعل الناس لا يُفكِّرون بشَهَواتهم ، وإنَّما يُفكِّرون بمصيرهم : الخُلود في الجَنَّة ، أوْ الخُلود في النار . ولا تُوجَد فُرصة للتَّعويض ، ولا مَجال للعَودة إلى الدُّنيا .

وفي تُحفة الأحوذي (٩/ ١٧٦) : ((لِكُلِّ إنسان يَوم القِيامة حال يَشغَله عن شأن غَيره ، ويَصرِفه عَنه ، أي : يَشتغل كُلُّ واحد بنَفْسه)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٣) : ((قَوله ﷺ : " يُحشَر الناسُ يَوْمَ القِيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا " . الغُرْل بضَم الغَين المعجمة وإسكان الراء معناه : غَير مَختونين ، جَمْع أَغْرَل، وهو الذي لم يُختَن، وبَقِيَتْ مَعَه غُرْلَتُه، وهي قُلْفَتُه ، وهي الجِلْدة التي تُقطَع في الخِتان... والمقصود أنَّهُم يُحشَرون كَمَا خُلِقُوا، لا شيء معهم ، ولا يُفقَد مِنهم شيء ، حَتَّى الغُرْلَة تَكون معهم)) .

وفي فتح الباري (١١/ ٣٨٤) : ((ومِن حَيث النظر، إنَّ الملابس في الدُّنيا أموال، ولا مال في الآخرة مِمَّا كان في الدُّنيا ، ولأن الذي يَقِيَ النَّفْسَ مِمَّا تَكْرَه في الآخِرة ثواب بحُسْن عملها ، أو رحمة مُبْتَدَأة مِن الله ، وأمَّا ملابس الدُّنيا ، فلا تُغني عنها شيئًا ، قاله الحليمي)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أخْرَجْنا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهُم أنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يُوقِنُون ﴾ [النَّمْل : ٨٢] .

هذا الحَدَثُ العظيم يَسْبِق يَوْمَ القِيامة . وإذا وَجَبَ الغَضَبُ على الكافرين ، وحَقَّ عليهم العذابُ، واقتربَ مَوعِدُ قِيام السَّاعة ، أخرجَ اللهُ للكافرين هذه الآيةَ الكبيرة (دَابَّة الأرض) ، تُخَاطِب الناسَ ، وتُكلِّمهم باللغة العربية ، وتُخبِر مَن رآها أنَّ كُفَّارَ مَكَّة كانوا لا يُصدِّقون بالقُرآن المُشتمل على البَعْث والحِساب والثواب والعِقاب والجَنَّة والنار . أوْ تَقول : ألا لَعنةُ الله على الظالمين ، أوْ تُكلِّمهم ببُطلان الأديان كُلِّها سِوَى الإسلام ، أوْ تقول لشخص : مؤمن ، ولشخص آخَر : كافر .

وخُروج الدَّابَّة مِن علامات الساعة الكُبرى ، وتَخرج في آخِر الزمان ، عِند مَوت العُلماء ، وذَهَاب العِلْم، وفَسَاد الناس، وانتشار الكُفر والضلال، وتَرك الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَن المُنكَر . وبخُروجها يَنقطع الأمرُ بالمعروف، والنَّهْيُ عَن المُنكَر، ويُغلَق باب التَّوبة، ولا يَقْبَل اللهُ الإيمانَ مِن كافر ، ولا يَبقى إلا مَن يَموت كافرًا ، في عِلْم الله تعالى . وعِلْمُ الله أزَليٌّ وسَابِق ، وهو سُبحانَه يَعْلَم كُلَّ شيء قَبل وُقوعه ، وأثناء وُقوعه ، وبعد وُقوعه .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٧٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ ، وَجَبَ العذابُ عَلَيهم . وقال قَتادة : إذا غَضِبَ اللهُ عَلَيهم ، ﴿ أخْرَجْنا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهُم ﴾ . واختلفوا في كلامها ، فقال السُّدي : تُكلِّمهم ببُطلان الأديان سِوى دِين الإسلام . وقال بعضُهم : كلامها أن تقول لواحد : هذا مؤمن ، وتقول لآخَر : هذا كافر . وقِيل: كَلامها ما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يُوقِنُون ﴾ . قال مُقاتِل : تُكلِّمهم بالعربية ، فتقول: إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يُوقِنون ، تُخبِر الناسَ أنَّ أهل مَكَّة لم يُؤْمِنُوا بالقُرآن والبَعْث . قَرأ أهلُ الكُوفة : أنَّ الناس ، بفَتْح الألف ، أي : بأن الناس . وقرأ الباقون بالكَسْر على الاستئناف ، أي : إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يُوقِنُون قَبل خُروجها . قال ابن عُمر : وذلك حِين لا يُؤْمَر بمَعروف ، ولا يُنهَى عَن مُنكَر . وقرأ سعيد بن جُبَير وعاصم الجَحْدَري وأبو رَجَاء العُطاردي : تَكلِمهم ، بفَتْح التاء وتخفيف اللام ، مِن الكَلْم ، وهو الجَرْح. قال أبو الجَوزاء : سألتُ ابنَ عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ عن هذه الآية : تُكلِّمهم أوْ تَكلِمهم ؟ قال : كُل ذلك تَفعل ، تُكلِّم المؤمنَ ، وتَكلِم الكافرَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٩٠ ــ ١٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أخْرَجْنا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأرضِ ﴾ . (وَقَعَ) بمعنى (وَجَبَ). وفي المُراد بالقَول ثلاثة أقوال : أحدها العَذاب ، قاله ابن عباس . والثاني الغَضَب، قاله قَتادة، والثالث الحُجَّة، قاله ابن قُتَيبة . ومتى ذلك ؟، فِيه قَولان: أحدهما إذا لَم يَأمُروا بمَعروف، وَلَم يَنْهَوْا عَن مُنكَر، قاله ابن عمر وأبو سعيد الخُدري . والثاني إذا لَم يُرْجَ صَلاحهم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وهو معنى قول أبي العالية، والإشارة بقَوله : ﴿ عَلَيْهِم ﴾ إلى الكُفَّار الذين تَخرُج الدَّابَّةُ عَلَيهم . وللمُفسِّرين في صِفة الدَّابَّة اربعة أقوال: أحدها أنَّها ذات وَبَر وريش، رواه حُذَيفة بن اليَمان عن رسول الله ﷺ. وقال ابن عباس: ذَات زَغَب وريش لها أربع قوائم. والثاني أنَّ رأسها رَأس ثَور، وعَيْنها عَين خِنزير، وأُذُنها أُذُن فِيل، وقَرْنها قَرْن إيَّل (ذَكَر الأوعال)، وصَدْرها صَدْر أسد، ولَوْنها لَون نَمِر، وخَاصِرتها خَاصِرة هِر، وذَنَبها ذَنَب كَبْش، وقوائمها قوائم بَعِير، بين كُل مَفْصِلَيْن اثنا عشر ذِرَاعًا، رواه ابن جُرَيج عن أبي

الزُّبَير . والثالث أنَّ وَجهها وَجه رَجُل، وسائر خَلْقها كخَلْق الطَّير، قاله وَهْب . والرابع أنَّ لها أربع قوائم وزَغَبًا وريشًا وجَنَاحَيْن ، قاله مُقَاتِل . وفي المَكَان الذي تَخرُج مِنه خمسة أقوال : أحدها مِن الصَّفا، روى حُذَيفة بن اليَمان عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : " بينما عِيسى يَطُوف بالبَيْت ومعه المسلمون تَضطرب الأرضُ تَحتهم ، ويَنشقُّ الصَّفا مِمَّا يَلِي المَسْعَى، وتَخرُج الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفا ، أوَّل ما يَبدو مِنها رأسها، مُلمَّعةٌ ذاتُ وَبَر ورِيش، لَن يُدرِكها طالب ، ولَن يَفُوتها هارب " [٢٢٩]. وفي حديث آخَر عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : " طُولها سِتُّون ذِراعًا"، وكذلك قال ابن مسعود: تَخرُج مِن الصَّفا. وقال ابن عُمر: تَخرُج مِن صَدْع في الصَّفا كَجَرْي الفَرَس ثلاثة أيام ، وما خَرَجَ ثُلُثُها. وقال عبد الله بن عُمر: تَخرُج الدَّابَّةُ فَيَمَسُّ رَأسُها السَّحَابَ، ورِجْلاها في الأرض ما خَرَجَتَا . والثاني أنَّها تَخرُج مِن شِعْب أجياد. رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ وعن ابن عُمر مِثله. والثالث تَخرُج مِن بعض أودية تِهامة،قاله ابن عباس. والرابع مِن بَحْر سَدُوم، قاله وَهْب بن مُنبِّه . والخامس أنَّها تَخرُج بتِهامة بَيْن الصَّفا والمَرْوَة، حكاه الزَّجاج. وقد روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:" تَخرُج الدَّابَّةُ مَعَهَا خَاتَم سُلَيمان وعَصَا مُوسَى ، فَتَجْلُو وَجْهَ المؤمن بالعَصَا، وتَحطِم أنفَ الكافر بالخَاتَم، حَتَّى إنَّ أهل البَيْت لَيَجْتَمِعُون ، فيَقول هذا : يا مُؤمِن ، ويَقول هذا : يا كَافِر". ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: " تَسِمُ المؤمنَ بَيْنَ عَيْنَيْه ، وتكتب بَيْنَ عَيْنَيْه مؤمن ، وتَسِم الكافرَ بَيْنَ عَيْنَيْه ، وتَكْتُب بَيْنَ عَيْنَيْه كافر ، وتَصرُخ ثلاث صَرَخَات، يَسمعها مَن بَيْن الخافِقَيْن ". وقال حُذَيفة بن أَسِيد: إنَّ للدَّابَّة ثلاث خَرَجَات، خَرْجة في بَعْض البوادي ثُمَّ تَنكتِم ، وخَرْجة في بَعْض القُرى ثُمَّ تَنكتِم ، فبَيْنَما الناس عند أشرف المساجد ، ـيعني المسجد الحرامـ، إذ ارتفعت الأرضُ، فانطلقَ الناسُ هِرابًا، فلا يَفُوتونها ، حَتَّى إنَّها لَتَأتي الرَّجُل وهو يُصلِّي، فتقول : أتتعوَّذ بالصلاة ، واللهِ مَا كُنتَ مِن أهل الصلاة ، فتَخطِمه ، وتَجْلُو وجهَ المؤمن. وقال عبد الله بن عمرو : إنها تَنكُت في وجه الكافر نُكْتَةً سَوداء ، فتفشو في وجهه، فَيَسْوَدُّ وجهُه ، وتَنكُت في وجه المؤمن نُكْتَةً بيضاء ، فتفشو في وجهه ، حتى يَبْيَضَّ وجهُه ، فيَعرِف الناسُ المؤمنَ والكافرَ ، ولكأنِّي بها قد خَرَجَتْ في عَقِب رَكْب مِن الحَاج . قَوله تعالى : ﴿ تُكَلِّمُهُم ﴾ . قرأ الأكثرون بتشديد اللام ، فهو مِن الكلام . وفِيما تُكلِّمهم به ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها تقول لهم : إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يُوقِنُون، قاله قَتادة. والثاني تُكلِّمهم ببُطلان الأديان سِوى دِين الإسلام ، قاله السُّدي . والثالث تقول: هذا مؤمن، وهذا كافر، حكاه الماوردي)) .

---

٢٢٩ قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٨) : إسناده لا يَصِح .

وعن ابن عمرو رضي الله عنه : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أخْرَجْنا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأرضِ ﴾ [النَّمْل] . قال : ((إذا لَم يَأمُروا بالمَعروف ، ولَم يَنْهَوْا عَن المُنكَر)) [٢٣٠].

لا بُد مِن الأمر بالمَعروف والنَّهْي عَن المُنكَر بأسلوب جميل وَلطيف ورقيق ، لأنَّ هاتَيْن العبادتَيْن هُما الطريق إلى صَلاح الفرد والجماعة ، وإصلاح الأخطاء ، وعلاج المشكلات في المجتمع . وبدونهما ، سَوْفَ يَسقط الفرد في الذُّنُوب والمَعَاصي ، ويَغرق المجتمع في الضلال ، وعِندئذ يَستحقون غضبَ الله وعذابه الشديد .

وعن أبي الطُّفَيل قال: كُنَّا جُلُوسًا عِندَ حُذَيفة، فذُكِرَت الدَّابَّة، فقال حُذَيفة_ رضي اللهُ عنه_: ((إنَّها تَخرُج ثلاث خَرَجَات في بَعض البوادي، ثُمَّ تَكْمُن، ثُمَّ تَخْرُج في بَعض القُرى حتى يُذعَروا، وحتى تُهَرِيقَ فيها الأمراءُ الدِّماءَ، ثُمَّ تكمُن. قال : فبَيْنَما الناسُ عِند أعظم المساجد وأفضلها وأشرفها_ حَتَّى قُلنا المسجدَ الحرام وما سَمَّاه_ إذ ارتفعت الأرضُ، ويَهرُب الناس، ويبقى عَامَّة مِن المُسلمين يَقولون: إنَّه لَن يُنْجِيَنا مِن أمر الله شيء،فتَخرُجُ فتَجلُو وُجُوهَهم حَتَّى تَجْعَلَها كالكواكب الدُّرِّية ، وتَتْبَعُ الناسَ ، جِيرانٌ في الرِّبَاع ، شُركاءُ في الأموال ، وأصحابٌ في الإسلام)) [٢٣١].

خُروج الدَّابَّة فِتنة شديدة ، ومِن علامات الساعة الكُبرى ، والحديث يُوضِّح أنَّ لها ثلاث خَرَجَات ، يُرافقها أحداث جسيمة ، وينتشر فيها الخَوف والذُّعر وسَفْك الدِّماء ، ويَهرُب الناس . ولَن يَثبُت في تلك الأوقات العصيبة إلا مَن ثَبَّتَه اللهُ تعالى ، وهُم المؤمنون الصادقون الصالحون المُصْلِحُون ، والدَّابَّة تَخرُج في الخَرْجَة الأخيرة ، وتَجلُو وُجوههم حتى تَجعلها كالكواكب المُنيرة، وتَتْبَع الدَّابَّةُ الناسَ، والناس يومئذ يَكونون جِيرانًا في الرِّبَاع (مَواضع الإقامة)، شُركاء في الأموال ، وأصحاب في الإسلام . وهذا يدلُّ على تعاونهم وتلاحمهم والتوافق التام فيما بينهم بلا مُشكلات.

وفي صحيح مسلم (١/ ١٣٨) : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا يَنفَع نَفْسًا إيمانُها لَم تَكُن آمَنَتْ مِن قَبْل ، أوْ كَسَبَتْ في إيمانها خيرًا : طُلُوعُ الشَّمس مِن مَغرِبها ، والدَّجَّالُ ، ودَابَّةُ الأرض)) .

النبيُّ ﷺ هو الناصح الأمين لأُمَّته ، أرشدها إلى كُل خَير ، وحَذَّرها مِن كُل شَر ، وأخبرها بعلامات السَّاعة ، مِن أجل أخذ الحَيطة والحَذَر ، والإسراع إلى العبادات ، والتزام الطاعات ،

---

٢٣٠ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٢) برقم (٨٤٩٣) . وسكت عنه الذهبي .

٢٣١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣١) برقم (٨٤٩١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

واجتناب المعاصي. وهذه الآيات الثلاث عندما تَظهَر للناس، يُغلَق باب التَّوبة. وفي ذلك الوَقت ، لا يُقْبَل الإيمان مِن الكافر ، ولا تُقْبَل الطاعة مِن المُؤمن . وهذا يعني ضرورة الإسراع إلى فِعل الطاعات قبل ظُهور هذه الآيات الكبيرة ، وعِندئذ لا يَنفع النَّدَم ، ولا تُوجد فُرصة للتعويض .

الآيةُ الأُولَى : طُلُوع الشَّمس في صَباح يَوم مِن المَغرِب بدلًا مِن المَشرِق .

الآيةُ الثانية : خُروج الدَّجَّال (المسيح الأعْوَر) مُدَّعي الأُلُوهية .

الآيةُ الثالثة : خُروج دَابَّة الأرض ، التي تَخرج ، وتُميِّز المؤمنَ مِن الكافر .

والجديرُ بالذِّكر أن باب التَّوبة لا يُغلَق إلا عِند طُلُوع الشَّمس مِن مَغرِبها . وخُروج الدَّجَّال سابق لطُلُوع الشَّمس مِن مَغرِبها ، وكذلك الدَّابَّة ، فلا تنقطع التَّوبة عِند خُروجهما . أمَّا الحديثُ فيدل على أنَّ انقطاع التَّوبة يَكون إذا خَرَجَتْ الآيات الثلاث كُلُّها معًا . وهذا لا يَكون إلا إذا طَلَعَت الشمسُ مِن مَغرِبها . إلا أن خُروج الدَّجَّال ، وكذلك الدَّابَّة ، قريب مِن طُلُوع الشمس مِن مَغرِبها . وتقديم ذِكْر طُلُوع الشمس مِن مَغرِبها،وإن كان مُتَأخِّرًا في الوُقوع، لبيان أهميته، وأنَّ إغلاق بَاب التَّوبة مُرتبط بِه . والحديثُ يدلُّ على عَظَمَة علامات السَّاعة ، وهَوْلها ، خُصوصًا تِلك الآيات الثلاث الكُبرى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٩٥): ((قال القاضي عِياض رحمه اللهُ : هذا الحديث على ظاهره عِند أهل الحديث والفِقه والمُتكلِّمين مِن أهل السُّنَّة ، خِلافًا لِمَا تأوَّلته الباطنية)) .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٥٣) : ((قِيل : فلعلَّ حُصول ذلك يكون مُتتابعًا بحَيث تَبقَى النِّسبة إلى الأوَّل مِنها مَجازية ، وهذا بَعيد ، لأن مُدَّة لُبْث الدَّجَّال إلى أن يَقتله عِيسى ، ثُمَّ لُبث عِيسى ، وخُروج يَأجوج ومَأجوج ، كُل ذلك سابق على طُلوع الشمس مِن المَغرِب ، فالذي يترجَّح مِن مَجموع الأخبار أن خُروج الدَّجَّال أوَّل الآيات العِظَام المُؤذِنة بتغيُّر الأحوال العامَّة في مُعظَم الأرض ، وينتهي ذلك بمَوت عِيسى بن مَرْيَم ، وأن طُلُوع الشَّمس مِن المَغرِب هو أوَّل الآيات العِظَام المُؤذِنة بتغيُّر أحوال العَالَم العُلوي ، ويَنتهي ذلك بقِيام السَّاعة ، ولعلَّ خُروج الدَّابَّة يَقَع في ذلك اليوم الذي تَطلُع فِيه الشمسُ مِن المَغرِب)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٩٨) : (((ثلاث إذا خَرَجْنَ) أي ظَهَرْنَ (لا تَنفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِن قَبْل أو كَسَبَتْ في إيمانها خيرًا : طُلُوع الشَّمس مِن مَغرِبها) ، فلا يَنفَع كافرًا قَبل طُلوعها إيمانُه بَعْدَه ، ولا مُؤمِنًا لَم يَعمَل صالحًا قَبْلُ عَمَلُه بَعْدَه ، لأنَّ حُكم الإيمان والعمل حالتئذ كَهُوَ عِند الغَرْغَرَة (والدَّجَّال) أي : ظُهوره (ودَابَّة الأرض) أي : ظُهُورها .

فإن قِيل : هذه الثلاث غَير مُجتمعة في الوُجود ، فإذا وُجِدَ إحداها لَم يَنفَع نَفْسًا إيمانُها بَعْد ، فما فائدة ذلك الآخرَيْن ، قُلنا : لَعَلَّه أراد أنَّ كُلًّا مِن الثلاثة مُستبِد في أنَّ الإيمان لا يَنفَع بَعد مُشاهدتها ، فأيَّتُها تقدَّمت ترتَّب عليها عَدَم النَّفْع)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٦٧) : عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((بَادِرُوا بالأعمال سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمس مِن مَغرِبها ، أو الدُّخَانَ ، أو الدَّجَّالَ ، أو الدَّابَّةَ ، أو خَاصَّةَ أحدكم، أو أمرَ العَامَّة)) .

النبيُّ ﷺ هو الصادق الأمين ، والناصح المُشفِق على أُمَّته ، وقد أرشدها إلى الحَق والهدى ، وحَثَّها على التزام الطاعات ، واجتناب المعاصي ، حتى يَكون المُسْلِمُ مُسْتَعِدًّا للقاء الله تعالى . وهذا يدلُّ على إخلاص النبيِّ ﷺ في الدَّعوة ، وحِرصه على إنقاذ أُمَّته ، وهِداية الناس إلى الخَير .

يَدعو النبيُّ ﷺ أُمَّته إلى المُسَارَعَة إلى أداء العبادات وفِعل الطاعات قَبل وُقوع سِت آيات كُبرى (علامات قِيام الساعة) : طُلوع الشمس مِن مَغرِبها ، فإذا طَلَعَت مِن المَغرِب أُغلِق باب التَّوبة ، أوْ ظُهور الدُّخَان ، أو خُروج الأعور الدَّجَّال ، أوْ خُروج الدَّابَّة التي تُميِّز المؤمنَ عن الكافر ، أوْ خَاصَّة أحدكم (المَوت) ، أي : ما يَخُصُّه مِن المَوت الذي يَمنعه مِن العَمَل . أو أمر العَامَّة ، وهِيَ القِيامة،لأنها تَعُمُّ الناسَ بالمَوت.أي:بَادِرُوا المَوْتَ والقِيامةَ بالعبادات والطاعات والصالحات.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٩٤) _ عن رواية أُخرى للحديث _ : (((بَادِرُوا بالأعمال سِتَّة) أي : أسْرِعُوا بالأعمال الصالحة قَبْل وُقوعها . وتأنيث السِّت ، لأنَّها حُطُط ودَوَاهٍ، ذَكَرَه الزمخشري. وقال القاضي : أمَرَهُم أن يُبَادِرُوا بالأعمال قَبل نُزول هذه الآيات ، فإنَّها إذا نَزلت أدهشت ، وأشغلت عن الأعمال ، أو سُدَّ عَلَيهم باب التَّوبة وقَبول العَمل (طُلوع الشمس مِن مَغرِبها) فإنها إذا طَلَعَتْ مِنه ، لا يَنفَع نَفْسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِن قَبْل (والدُّخَان) أي : ظُهُوره (ودَابَّة الأرض والدَّجَّال) أي: خُرُوجهما . سُمِّيَ به لأنه خَدَّاع مُلبِّس ، ويُغطِّي الأرضَ بأتباعه ، مِن الدَّجْل وهو الخَلْط والتَّغطية ، ومِنه دِجْلَة نهر بغداد مِنها غَطَّت الأرضَ بمائها (وخُوَيْصَة أحدكم) تَصغير خَاصَّة ، بسُكون الياء ، لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة ، والمُراد حادثة المَوت ، التي تَخُصُّ الإنسانَ ، وصُغِّرَتْ لاستصغارها في جَنْب سائر العِظَائم مِن بَعْث وحِساب، وغَيرهما. وقِيل: هِيَ مَا يَخُصُّ الإنسان مِن الشواغل المُقلِقة مِن نَفْسه وماله، وما يَهْتَم به (وأمر العَامَّة) القِيامة ، لأنَّها تَعُمُّ الخلائقَ ، أو الفِتْنة التي تُعمِي وتُصِم ، أو الأمر الذي يَستبد به العَوَام وتكون مِن قِبَلهم دُون الخَوَاص)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٥) : عن حُذَيفة بن أَسِيد الغِفاري قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ عَلَينا ونَحْنُ نَتَذَاكَر ، فقال : ((ما تَذَاكَرُون ؟)) ، قالوا : نَذكُرُ السَّاعةَ ، قال : ((إنَّها لَن تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَها عَشْرَ آيات _ فَذَكَرَ _ الدُّخانَ ، والدَّجَّالَ ، والدَّابَّةَ ، وطُلُوعَ الشَّمْس مِن مَغرِبها ، ونُزولَ عِيسى بن مَرْيَم ﷺ ، ويَأجُوجَ ومَأجُوجَ ، وثلاثةَ خُسُوف : خَسْفٌ بالمَشرِق ، وخَسْفٌ بالمَغرِب ، وخَسْفٌ بجَزيرة العَرَب ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُج مِن اليَمَن تَطرُد الناسَ إلى مَحْشَرِهم)).

يُبيِّن الحديثُ بعض علامات السَّاعة الكُبرى . وهذا يدلُّ على صِدق مُحمَّد ﷺ ، وأنَّه نبيٌّ يُوحَى إلَيه ، ويأتيه خَبَر السَّماء، فقد أخبرَ عن أُمور غَيْبِيَّة مُستقبلية ، وسَتَحْدُث كَمَا أخبرَ ﷺ ، بلا زيادة ولا نُقصان ، فهو ﷺ لا يَنطِق عن الهوى .

ويَنبغي التَّنبيه إلى أن المقصود بالنار الحاشرة تَكون قَبل يَوم القِيامة (قَبل قِيام السَّاعة) ، حَيث تَسُوق هذه النارُ العظيمةُ الهائلةُ الناسَ إلى أرض الشام ، ثُمَّ عَلَيها تُقبَض أرواحهم ، ولَيس المقصود أنها نار تَسُوق الناسَ للحَشر يَوم القِيامة .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٦٠) : عن عبد الله بن عَمْرو قال : حَفِظْتُ مِن رسول الله ﷺ حَدِيثًا لَم أَنْسَهُ بَعْد: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ أَوَّلَ الآياتِ خُرُوجًا طُلُوعَ الشَّمس مِن مَغرِبها، وخُرُوجُ الدَّابَّةِ على الناس ضُحًى،وأيُّهُمَا ماكانت قَبْل صاحبتها فالأُخْرى على إثْرِها قريبًا)).

اللهُ وَحْدَه يَعْلَم وَقْتَ قِيام السَّاعة، وقد أطلعَ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ على علامات قِيام السَّاعة (يَوم القِيامة) . وأوَّلُ علامات يَوم القِيامة تَظهر على الناس ، طُلوع الشمس مِن مَغرِبها عَلى غَير العادة، أوْ خُروج الدَّابَّة في الصَّباح تُكلِّم الناسَ ، وتُميِّز المؤمنَ مِن الكافر . وأيُّ العَلامَتَيْن ظَهَرَتْ جَاءت العَلامَةُ الأُخرى بَعْدَها، فهُما مُترابطتان ومُتلازمتان .

وقد قال العلماءُ : إنَّ خُروج الأعور الدَّجَّال ، ونُزول عِيسى ﷺ ، وخُروج يأجوج ومأجوج ، كُل ذلك قبل طُلوع الشَّمس مِن مَغرِبها ، وخُروجِ الدَّابَّة . وحديثُ ابن عمرو مَحمول على الآيات غَير المألوفة، والعلامات الغريبة ، فخُروج الدَّابَّة على شكل غريب ، ومُخاطبتها للناس ، وتمييز المؤمن مِن الكافر ، أمر غير مألوف ، وذلك أوَّل الآيات الأرضية . وطُلوع الشمس مِن مَغرِبها عِلى خِلاف عادتها أوَّلُ الآيات السماوية .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٤٢) : (((إنَّ أوَّل الآيات) أي علامات الساعة (خُرُوجًا) أي : ظُهُورًا ، تمييز (طُلوع الشَّمس من مغربها) . قال ابن كثير : أي أوَّل الآيات التي لَيست مألوفة ، وإنْ كان الدَّجَّال ونُزول عِيسى عليه السلام ويَأجوج قَبْلَها ، لأنَّها أمور مألوفة ، إذْ

هُم مِثلهم بَشَر ، (وخُروج الدَّابَّة) هذا غَير مَألوف أيضًا ، فإنها تَخرُج (على الناس ضُحًى) بضَم الضَّاد وفَتْحها ، على شكل غَريب غَير مَعهود ، وتُخَاطِب الناسَ ، وتَسِمهم بالإيمان أو الكُفر ، وذلك خَارج مِن مَجَاري العَادات(فأيَّتُهُما كانت قَبْل صَاحبتها فالأُخرى على أَثَرها) بفَتْح الهَمزة، أي عَقِبها ، وقد بَقِيَ مِنها بَقِيَّة (قريبًا) صِفة لمَصْدَر مَحذوف تأكيدًا لِمَا قَبْلَه ، أي : فالأُخْرى تَحصُل على أثَرها حُصُولًا قريبًا، فطُلوع الشَّمس أوَّل الآيات السماوية، والدَّابَّة أول الآيات الأرضية بالمَعنى المَذكور ، وحِكمة جَعْل طُلوعها مِن مَغرِبها آيَّة مُقَارِبَة قِيام السَّاعة الإيماء إلى قُرب طُلوع جَميع الأرواح من الأشباح ، ذَكَرَه الحَرالِّي)) .

ونختِم حديثنا عَن الدَّابَّة ، التي هي إحدى علامات الساعة الكُبرى ، بما قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٨): ((هذه الدَّابَّة تَخرُج في آخِر الزَّمان عِند فساد الناس، وتَركهم أوامر الله ، وتَبديلهم الدِّين الحَق . يُخرِج اللهُ لهم دَابَّةً مِن الأرض. قِيل: مِن مَكَّة. وقِيل: مِن غَيرها ... ، فتُكلِّم الناسَ على ذلك . قال ابن عباس والحسن وقَتادة ويُروَى عن عليٍّ رضي الله عنه : تُكلِّمهم كلامًا، أي: تُخَاطِبهم مُخَاطَبَةً. وقال عَطاء الخُرَاساني : تُكلِّمهم فتقول لهم : إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يُوقِنون ، ويُروَى هذا عن عليٍّ ، واختاره ابن جرير . وفي هذا القول نظر لا يَخفَى ، والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : تَجْرَحُهم ، وعنه رواية قال : كَلَّا ، تَفعل هذا وهذا ، وهو قَول حَسَن ، ولا مُنَافَاة ، والله أعلم . وقد وَرَدَ في ذِكْر الدَّابَّة أحاديث وآثار كثيرة ، ...)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سَبَأ : ٥١] .

وَلَوْ ترى يا مُحمَّد إذْ فَزِعَ هؤلاء المُشركون المُكذِّبون بيَوم القِيامة ، وخافوا ، وأصابهم الرُّعْب، عِند خُروجهم مِن قُبورهم ، فلا مَهرَب لهم ، ولا نجاة ، ولا مَفَر ، ولا مَلْجَأ ، وأخَذَهُم اللهُ مِنَ المَوقِف (أرض المَحشَر) إلى النار، ليذوقوا العذابَ الشديد. وقِيل: مِن حَيث كانوا، فهُم مِن الله قريب ، لا يَبعُدون عَنه ، ولا يَفُوتونه ، ولا يَهرُبون مِنه .

وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف ، تقديره : لرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا هائلًا ، ترتعب مِنه القُلوب ، وترتعد مِنه الفرائص . وحَذفُ الجَواب للتَّهويل والتَّخويف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٤٦٧ و٤٦٨): ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ في زمان هذا الفَزَع قَولان : أحدهما أنَّه حِين البَعْث مِن القُبور ، قاله الأكثرون . والثاني أنَّه عِند ظُهور العَذاب في الدُّنيا ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال قَتادة . وقال سعيد بن جُبَير : هُوَ الجَيش الذي يُخسَف به بالبَيْدَاء ، يَبْقَى مِنهُم رَجُل ، فيُخبِر الناسَ بما لَقُوا . وهذا حديث مشروح

في التفسير ، وأنَّ هذا الجَيش يَؤُمُّ البَيْتَ الحرام لتخريبه ، فيُخسَف بهم . وقال الضَّحاك وزيد ابن أسْلَم : هذه الآية فِيمَن قُتِلَ يَوم بَدْر مِن المُشركين. قَوله تعالى: ﴿ فلا فَوْتَ ﴾ . المعنى: فَلا فَوْتَ لهم ، أي : لا يُمكِنهم أن يَفُوتونا . ﴿ وأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها مِن مَكانهم يَوْم بَدْر ، قاله زيد بن أسْلَم . والثاني مِن تَحت أقدامهم بالخَسْف ، قاله مُقاتل . والثالث مِن القُبور ، قاله ابن قُتَيبة . وأين كانوا فهُم مِن الله قريب)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١٨) : ((﴿ وأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ، أي : لَم يُمكَّنوا أن يُمعنوا في الهَرَب ، بَل أُخِذُوا مِن أوَّل وَهْلَة . قال الحسن البصري : حِين خَرجوا مِن قُبورهم . وقال مُجاهد وعطية العَوفي وقَتادة: مِن تحت أقدامهم،وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما والضَّحاك : يعني عذابهم في الدُّنيا . وقال عبد الرحمن بن زَيد : يَعني قَتْلَهم يَوْم بَدْر ، والصحيح أنَّ المُراد بذلك يَوم القِيامة، وهو الطَّامَّة العُظمى،وإنْ كان ما ذُكِرَ مُتَّصِلًا بذلك.وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إنَّ المُراد بذلك جَيش يُخسَف بهم بَيْن مَكَّة والمدينة في أيام بني العباس رضي الله عنهم ، ثُمَّ أورد في ذلك حديثًا مَوضوعًا بالكُلِّية ، ثُمَّ لم يُنبِّه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا آمَنَّا بِهِ وأنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سَبَأ : ٥٢] .

وقالَ هؤلاء المُشركون المُكذِّبون بيَوم القِيامة حِينَ عَايَنُوا عذابَ الله تعالى : آمَنَّا بالله وبِكتابه ورسوله . وكَيف لهم أن يَنالوا الإيمانَ ويَحصُلوا عَلَيه ، وهُم بَعِيدون عَن مكان قَبوله (الدُّنيا) ، وصاروا إلى الدار الآخِرة ؟ . ومَعلوم أن مَحَل الإيمان في الدُّنيا ، لأنَّ الدُّنيا عَمَل بلا جَزَاء ، وَلَوْ آمَنُوا في الدُّنيا لنفعهم إيمانُهم ، أمَّا في الآخِرة فلا مَجَال للإيمان ، لأنَّها جَزَاء بلا عمل ، والدُّنيا صارت بعيدةً عَنهُم، ولا سَبيل إلى الرُّجوع إلَيها ، ولا تُوجد فُرصة للتَّعويض أوْ تصحيح المسار .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٧٧) : ((والمعنى : كيف لهم أن يَتناولوا الإيمانَ مِن بُعْد ، يعني: في الآخِرة، وقد تركوه في الدُّنيا ، وهو معنى ﴿ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، وهو تمثيل لحالهم في طَلَب الخَلاص بَعْدما فات عَنهُم)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٤٦٩ و٤٧٠):

((قَوله تعالى: ﴿ وقالوا ﴾ أي: حِينَ عَايَنُوا العذابَ ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ في هَاء الكِناية أربعة أقوال: أحدها أنَّها تَعُود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، قاله مجاهد.والثاني إلى البَعْث، قاله الحسن.والثالث إلى الرَّسُول، قاله قَتادة. والرابع إلى القُرآن، قاله مُقاتل ... وقال ابن قُتَيبة: معنى الآية: وأنَّى لهم التناوُش لِمَا أرادوا بُلوغَه، وإدراك ما طلبوا مِن التَّوبة ﴿ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهو المَوضِع الذي تُقبَل فيه التَّوبة ، وكذلك قال المُفسِّرون : أنَّى لهم بتناوُل الإيمان والتَّوبة ، وقد تَركوا ذلك في الدُّنيا ، والدُّنيا قد ذَهبت)).

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وأنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال : ((يَسألون الرَّدَّ ، ولَيْسَ بِحِينِ رَد)) [232].

هؤلاء الكافرون يَطلُبون أن يَرُدَّهم اللهُ مِن الآخِرة إلى الدُّنيا كَي يُؤْمنوا ، ولكن لا أحد يَرجع مِن الآخِرة إلى الدُّنيا ، ولا تُوجَد فُرصة للتَّعويض ، ولا مَجال للرُّجوع . وأنَّى لهم تناوُل الإيمان في الآخرة ، وقد كَفروا به في الدُّنيا ؟ . لقد ذهبت الدُّنيا إلى غَير رَجعة ، والخُلود في النار مصيرهم .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأتي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ [الدُّخَان : ١٠] [233].

هذا وعيدٌ شديد ، وتهديد أكيد . فانتظِرْ يا مُحمَّد عذابَ المُشركين مِن قَومك ، يَوم تَأتي السَّماءُ بِدُخَان كثيف واضح ، يَراه الجميعُ ، ولا يَخفَى على أحَد . إنَّه عذاب شديد يَجعلهم يَرَوْنَ ما بينهم وبين السماء كالدُّخَان مِن شِدَّة الجَهْد (المَشَقَّة) والجُوع والتعب . وقد دعا النبيُّ ﷺ على قَومه بالقَحْط ، بسبب كُفرهم وضلالهم وعِنادهم ، فمُنِعُوا القَطْر مِن السَّماء ، وأجدبت الأرضُ ، واشتدَّ بهم الجُوع ، وصارَ بين السَّماء والأرض كالدُّخَان .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٨) : ((﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ فانتظِرْ لَهُم ﴿ يَوْمَ تَأتي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، يَوم شِدَّة ومَجَاعة ، فإنَّ الجائع يَرَى بَينه وبَين السَّماء كهَيئة الدُّخَان مِن ضَعْف بَصَره ، أوْ لأن الهواء يُظلِم عَامَ القَحْط لِقِلَّة الأمطار وكثرة الغُبار ، أوْ لأنَّ العرب تُسمِّي الشَّرَّ الغالب دُخَانًا ، وقد قُحِطُوا حَتَّى أكلوا جِيَفَ الكِلاب وعِظَامَها . وإسناد الإتيان إلى السماء ، لأنَّ ذلك يَكُفُّها عن الأمطار ، أوْ يوم ظُهور الدُّخَان المَعدود في أشراط السَّاعة)) اهـ . وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ على مُضَر ، واجْعَلْها عَلَيْهم سِنينَ كَسِنِيِّ يُوسُف)) [234].

---

٢٣٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٠) برقم (٣٥٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٣٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٣٩ و٣٤٠) : ((اختلَفوا في هذا الدُّخَان ووَقْته على ثلاثة أقوال: أحدها أنه دُخَان يجيء قبل قِيام السَّاعة، فرُوِيَ عن ابن عبَّاس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: " إنَّ الدُخَان يجيء فيأخذ بأنفاس الكُفَّار ، ويَأخذ المؤمنين مِنه كهَيئة الزُّكام " . وروى عبد الله بن أبي مُلَيكة قال : غَدَوْتُ على ابن عبَّاس ذات يَوم ، فقال :" ما نِمْتُ الليلة حتى أصبحتُ " . قلتُ : لِمَ ؟ . قال :" طَلَعَ الكَوكب ذُو الذَّنَب ، فَخَشِيتُ أن يَطرُق الدُّخَان " . وهذا المعنى مرويٌّ عن عليٍّ وابن عُمر وأبي هُرَيرة والحسن . والثاني أنَّ قُرَيْشًا أصابهم جُوع ، فكانوا يَرَوْنَ بَينهم وبين السَّماء دُخَانًا مِن الجوع ، ...)) .

٢٣٤ متفق عليه . البخاري (١/ ٢٧٧) برقم (٧٧١) ، ومسلم (١/ ٤٦٦) برقم (٦٧٥) .

المعنى : اللهُمَّ ضَيِّقْ على كُفَّار قُرَيش أولاد مُضَر (القبيلة المشهورة التي منها جميع بُطون قُرَيش) ، وَشَدِّدْ عَلَيهم عُقوبتك ، واجْعَلْها سِنينَ مُجْدِبَة مُؤلِمَة شديدة ، ذوات قَحْط وغَلاء ، كَسِنِيِّ القَحْط السَّبع التي حَدَثَتْ في زمن النبيِّ يُوسُف ﷺ. وقد ابْتُلوا بالقَحْط حتى أكلوا العِظامَ والمَيْتَةَ . والوَطْأَةُ هي الشِّدةُ والعُقوبة . ولا شَكَّ أن دُعاء النبيِّ ﷺ مُستجاب .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٩٤) : ((" اللهم اشْدُدْ وَطْأتَكَ على مُضَر " . أي : خُذهم بِشِدَّة . وأصلها مِن الوَطْء بالقَدَم ، والمُراد الإهلاك ، لأن مَن يَطَأ على الشَّيء بِرِجْله فقد استقصى في هلاكه. والمُراد بِمُضَر القبيلة المشهورة التي مِنها جميع بُطون قَيْس وقُرَيش وغَيْرهم ، وهو على حذف مُضاف ، أي : كُفَّار مُضَر)) .

قال عبد الله بن مسعود_رضي اللهُ عنه_:إنَّما كان هذا لأنَّ قُرَيْشًا لمَّا اسْتَعْصَوْا على النبيِّ ﷺ دَعَا عَلَيهم بِسِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُف ، فأصابهم قَحْط وجَهْد حتى أكلوا العِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنظر إلى السَّماء فيرى ما بَينه وبَينها كَهَيئة الدُّخَان مِن الجَهْد ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأتي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذَابٌ أليم (١١) ﴾ . قال: فَأُتِيَ رسولُ الله ﷺ، فقِيل : يا رسول الله ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَر ، فإنَّها قَد هَلَكَتْ . قال : ((لِمُضَر ؟، إنَّكَ لَجَرِيء)) . فاسْتَسْقَى ، فَسُقُوا . فَنَزلت : ﴿ إنَّكُم عائدون ﴾ [الدُّخَان : ١٥] . فلمَّا أصابتهم الرَّفَاهِيَةُ ، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى إنَّا مُنتَقِمُون ﴾ [الدُّخَان : ١٦] . قال : يَعني يوم بَدْر [٢٣٥].

كَذَّبت قُرَيْشٌ النبيَّ ﷺ ، وعانَدوه ، وحارَبوه ، فدعا عليهم عُقوبةً لهم بسنين قَحْط وجَفاف وغَلاء كَسِنِيِّ القَحْط السَّبْع التي حدثت في زمن النبيِّ يُوسُف ﷺ ، فأصابَ قُرَيش قَحْط ومَشَقَّة شديدة ، حتى أكلوا العِظَامَ مِن شِدَّة الجوع والحِرمان . وصاروا يَرَوْنَ في السماء دُخَانًا بسبب ضَعْف أبصارهم من شِدَّة الجوع والمَشَقَّة المُؤلِمَة . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٧٤) : ((وكانوا يَرَوْنَ بَينهم وبَين السَّماء مِثْل الدُّخَان مِن فَرْط حَرارة الجُوع ، والذي كان يَخْرُج مِن الأرض ، بِحَسَب تَخَيُّلهم ذلك مِن غِشَاوة أبصارهم ، مِن فَرْط الجُوع)) .

وبعد هذه الأزمة القاسية ، جاء أبو سُفيان إلى النبيِّ ﷺ ، وقال له : ادْعُ اللهَ، واطْلُب مِنه المَطَرَ والسُّقيا،فإنَّ مُضَر قَد دُمِّرَتْ. قالَ له النبيُّ ﷺ: أتطْلُب مِنِّي أن أَستَسْقِيَ لِمُضَر ، معَ ما هُم

---

٢٣٥ متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٢٣) برقم (٤٥٤٤).ومسلم (٤/ ٢١٥٥) برقم (٢٧٩٨).

عليه مِن الكُفر والضلال والتكذيب والعِناد ؟ . إنَّكَ ذُو جُرأة يا أبا سُفيان، حيث تُشرِك بالله تعالى، وتَطلُب مِنه الرَّحمة والنَّجدة لَكَ ولقَومك. وقد دَعَا لهم النبيُّ ﷺ ، فكَشَفَ اللهُ عنهم العذابَ ، وفرَّج كَرْبَهم ، وأزالَ هَمَّهم ، فلمَّا أصابهم الرَّغد والرَّاحة والتَّوَسُّع ، عادوا إلى الكُفر والضَّلال ، فانتقمَ اللهُ مِنهُم يَوم بَدْر ، وقَتَلَهم شَرَّ قِتْلَة .

وقد كانَ عبد الله بن مسعود_ رضي اللهُ عنه_ يَرى أن الدُّخَان المَذكور في الآية حَدَثَ في الدُّنيا، ولَيس له علاقة بيَوم القِيامة، لأنَّ الله قالَ: ﴿ إنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلًا ﴾ [الدُّخَان: ١٥]. وعذابُ الآخِرةِ إذا جاء فإنَّه لا يُكشَف ، وهذا يَدعم ما ذَكَرَه ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ ، مِن أنَّ المقصود بالدُّخَان هو ما كان يَراه الرَّجُل مِن قُرَيش بسبب ضَعف بصره نتيجة الجُوع والتعب والمَشَقَّة .

والحديثُ دليل على صِدق مُحمَّد ﷺ ، وصِحَّة نُبُوَّته ، وأنَّ القُرآن كلام الله ، لأنَّه أخبرَ بأُمور غَيْبِيَّة مُستقبلية ، وَحَدَثَتْ على أرض الواقع كما أخبرَ بالضَّبْط . وقد صَدَقَ اللهُ ورَسُولُه ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٧١): ((قال : فأُتِيَ رسولُ الله ، كذا بضَم الهَمزة على البِناء للمَجهول، والآتِي المَذكور هو أبو سُفيان ، كما صُرِّحَ به في الرواية الأخيرة . قَوله : فَقِيل : يا رسول الله ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَر ، فإنَّها قَد هَلَكَتْ . إنَّما قال لِمُضَر ، لأنَّ غالبهم كان بالقُرب مِن مِياه الحِجَاز، وكان الدُّعاء بالقَحْط على قُرَيش ، وهُم سُكَّان مَكَّة ، فَسَرَى القَحْطُ إلى مَن حَوْلَهم، فَحَسُنَ أن يَطلُب الدُّعاءَ لهم . ولعلَّ السائل عَدَلَ عَن التَّعبير بقُرَيش لِئلا يَذكُرهم فيُذكِّر بجُرمهم، فقال: لِمُضَر ، ليندرجوا فيهم . ويُشير أيضًا إلى أن غَير المَدْعُوِّ عليهم قَد هَلَكُوا بجَريرتهم . وقد وقع في الرواية الأخيرة : وأنَّ قَومك هَلَكُوا ، ولا مُنَافَاة بَينهما ، لأنَّ مُضَر أيضًا قَوْمُه . وقد تَقَدَّمَ في المَنَاقِب أنَّه ﷺ كان مِن مُضَر . قَوله : فقال رسولُ الله ﷺ : " لِمُضَر ؟ إنَّكَ لَجَرِيء " . أي : أتأمُرني أن أستسقيَ لِمُضَرَ مَعَ ما هُم عليه مِن المَعصية والإشراك به . ووقع في شرح الكرماني قَوله : فقال رسول الله ﷺ : " لِمُضَر ؟ " ، أي : لأبي سُفيان ، فإنَّه كان كبيرَهم في ذلك الوقت ، وهو كان الآتي إلى رسول الله ﷺ ، المُسْتَدْعِي مِنه الاستسقاء . تَقول العربُ : قَتَلَتْ قُرَيْشٌ فُلانًا، ويُريدون شخصًا مِنهُم،وكذا يُضِيفون الأمرَ إلى القَبيلة.والأمر في الواقع مُضاف إلى واحد منهم)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذَابٌ أليم ﴾[الدُّخَان : ١١] .

هذه صِفَة ثانية لِدُخَان . يَشمَل كُفَّارَ قُرَيش ، ويَعُمُّهم ، ويُحيط بهم مِن كُل جانب ، ويقولون حِين يُصيبهم الدُّخَان : هذا عذاب أليم ، أي : شديد ومُؤلِم ومُوجِع .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٢٨) : ((﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ . يَقول : يَغشَى أبصارَهم مِن الجَهْد الذي يُصِيبهم ، ﴿ هذا عَذَابٌ أليم ﴾ ، يعني أنَّهم يَقولون مِمَّا نالهم مِن ذلك الكَرْب والجَهْد (المَشَقَّة) : هذا عذاب أليم . وهو المُوجِع . وتُرِكَ مِن الكلام " يَقولون " استغناءً بمعرفة السامعين مَعناه مِن ذِكْرها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطُّور : ٩] .

تتحرَّك السَّماءُ ، وتَدُور ، وتضطرب اضطرابًا شديدًا ، مِن شِدَّة يَوم القِيامة وهَوْلِه العظيم . والمَوْرُ تردُّد في المجيء والذهاب .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٨٧) : ((﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ، أي : تَدُور كَدَوَرَان الرَّحَى ، وَتَتَكَفَّأُ بأهلها تَكَفُّؤ السَّفينة . قال قَتادة : تتحرَّك . قال عطاء الخُرَاساني : تختلف أجزاؤها بعضُها في بعض . وقِيل : تَضطرِب . و (المَوْر) يَجمع هذه المعاني ، فهو في اللغة : الذهاب ، والمَجيء ، والتَّرَدُّد ، والدَّوَرَان ، والاضطراب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٤٨): ((﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها تَدُور دَوْرًا ، رَواه عِكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد ، وهو اختيار الفَرَّاء وابن قُتَيبة والزَّجاج. والثاني تَحَرَّك تَحَرُّكًا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قَتادة. وقال أبو عُبَيدة: تَمُور ، أي تَكَفَّأ ... والثالث يَمُوج بعضُها في بَعْض لأمر الله تعالى ، قاله الضَّحاك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطُّور : ١٠] .

تُنسَف الجبال نَسْفًا عن وجه الأرض ، وتَزول عن أماكنها ، فتصير هَبَاءً مَنثورًا .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٨٥) : ((يَقول : وتَسِير الجِبال عَن أماكنها مِن الأرض ، سَيْرًا ، فَتَصِير هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اقتربتِ السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَرُ ﴾ [القَمَر : ١] .

دَنَا موعدُ زوال الدُّنيا،وقَرُبَ يَوم القِيامة، وهو واقعٌ لا مَحَالة، وكائن بلا رَيْب، وكُل آتٍ قريبٌ، وقد انفلقَ القَمَرُ فَلْقَتَيْن (نِصْفَيْن) على عهد النبيِّ ﷺ ، وذلك أن كُفَّار مَكَّة طَلبوا مِنه آيةً ، فأراهم القَمَرَ نِصْفَيْن . والمُراد : الانشقاق الذي حَدَثَ في زَمَن النبيِّ ﷺ مُعْجِزَةً له . وهذا قَول العُلماء مِن السَّلَف والخَلَف . وذِكْرُ اقتراب الساعة مَعَ انشقاق القَمَر في سِياق واحد ، لأنَّ انشقاق القمر مِن علامات نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، ومِن أشراط اقتراب الساعة .

وفي الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : انشقَّ القَمَرُ ، واقتربت الساعةُ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٣) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقوله : ﴿ اقتربتِ السَّاعَةُ ﴾ ، دَنَت السَّاعةُ التي تقوم فِيها القِيامة . وقَوله : ﴿ اقتربتِ ﴾ افتعلت، مِن القُرب. وهذا مِن الله تعالى ذِكْرُه إنذار لعباده بدُنُوِّ القِيامة ، وقُرب فَناء الدُّنيا ، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القِيامة قَبل هُجومها عَلَيهم ، وهُم عَنها في غَفلة سَاهُون . وقَوله : ﴿ وانشقَّ القَمَرُ ﴾ . يَقول جَلَّ ثناؤه : وانفلقَ القَمَرُ . وكان ذلك فِيما ذُكِرَ على عهد رسول الله ﷺ ، وهو بمَكَّة قَبل الهِجرة إلى المَدينة ، وذلك أن كُفَّار أهل مَكَّة سألوه آيةً ، فأراهم ﷺ انشقاقَ القمر آيةً ، حُجَّةً على صِدْق قَوْله ، وحقيقة نُبُوَّته ، فلمَّا أراهم أعْرَضُوا وكَذَّبُوا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٨٧و٨٨) : ((قال ابن عباس : اجتمعَ المشركون إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن كُنتَ صادقًا ، فَشُقَّ لنا القَمَرَ فِرْقَتَيْن ، فقال لهم رسول الله ﷺ : " إن فَعلتُ تُؤمنوا " ، قالوا : نعم . فَسَأل رسولُ الله ﷺ رَبَّه أن يُعطيَه ما قالوا ، فانشقَّ القمرُ فِرْقَتَيْن ، ورسول الله ﷺ يُنادي : " يا فُلان ، يا فُلان ، اشهَدُوا " . وذلك بمَكَّة قَبل الهِجرة)) .

وعن عبد الله بن مسعود_ رضي اللهُ عنه _ قال : انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ شِقَّيْن، فقال النبيُّ ﷺ : ((اشْهَدُوا)) [٢٣٦].

اتَّفَقَ العُلماء على أنَّ انشقاق القَمَر حَدَثَ في زَمَن ، لكنَّ قَوْمًا شَذُّوا ، وقالوا : سينشق يوم القِيامة . وهذا القول الشاذ لا يُقاوم الإجماع . كما أن ﴿ وانشقَّ ﴾ فِعل ماضٍ ، وحَمْل الفِعل الماضي على المُستقبل بحاجة إلى قرينة ودليل ، وليس ذلك مَوجودًا .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : رأيتُ القَمَرَ مُنْشَقًّا بشُقَّتَيْن مَرَّتَيْن بمَكَّة قَبل مَخرَج النبيِّ ﷺ ، شُقَّة على أبي قُبَيس ، وشُقَّة على السُّوَيداء ، فقالوا : سَحَرَ القَمَرَ ، فنزلت : ﴿ اقتربتِ السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَرُ ﴾ . يقول : كَمَا رَأيتُم القَمَرَ مُنْشَقًّا ، فإنَّ الذي أخبرتكم عَن اقتراب الساعة حَق [٢٣٧].

هذه المُعجِزة الباهرة تدلُّ على صِدق مُحمَّد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّته ، وتأييده مِن السماء . وكما أن انشقاق القَمَر حَق ،كذلك اقتراب يَوم القِيامة حَق. والحقُّ يَدعم الحقَّ، ويُسانده، ويدلُّ عليه ، ولا يُعارضه . لذلك جاء ذِكْر اقتراب الساعة وانشقاق القمر بشكل مُرتبط ضِمن سياق واحد .

---

٢٣٦ متفق عليه . البخاري (٣/ ١٣٣٠) برقم (٣٤٣٧) ، ومسلم (٤/ ٢١٥٨) برقم (٢٨٠٠) .

٢٣٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٢) برقم (٣٧٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ١٨٤) : ((والسُّوَيداء بالمُهمَلة والتَّصغير ناحية خارج مَكَّة عِندها جبل . وقول ابن مسعود : على أبي قُبَيس يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمِنَى ، كأن يكون على مكان مرتفع ، بحيث رأى طرف جبل أبي قُبَيس ، ويحتمل أن يكون القمر استمرَّ مُنْشَقًّا حتى رَجَعَ ابن مسعود مِن مِنَى إلى مَكَّة ، فرآه كذلك ، وفيه بُعْد . والذي يقتضيه غالب الروايات أن الانشقاق كان قُرب غُروبه ، ويُؤيِّد ذلك إسنادهم الرؤية إلى جهة الجبل ، ويُحتمل أن يكون الانشقاق وَقَعَ أوَّل طُلوعه، فإن في بعض الروايات أن ذلك كان ليلة البَدْر ، أو التعبير بأبي قُبَيس مِن تغيير بعض الرُّواة ، لأن الغَرَض ثُبوت رُؤيته مُنْشَقًّا إحدى الشُّقَّتَيْن على جبل ، والأُخرى على جبل آخَر ، ولا يُغَايِر ذلك قَول الرَّاوي الآخَر : رَأيتُ الجبلَ بينهما ، أي : بين الفِرْقَتَيْن ، لأنَّه إذا ذَهبت فِرقة عَن يَمين الجبل ، وفِرقة عن يَساره مَثَلًا صَدَقَ أنه بينهما ، وأي جَبَل آخَر كان مِن جهة يمينه أو يَساره صَدَقَ أنَّها عليه أيضًا)) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٤٣ و١٤٤): ((قال القاضي: انشقاق القمر مِن أُمَّهات مُعجِزات نَبِيِّنا ﷺ ، وقد رواها عِدَّة مِن الصحابة رضي اللهُ عنهم مَعَ ظاهر الآية الكريمة وسياقها . قال الزَّجاج : وقد أنكرها بعضُ المُبتدِعة المُضاهين المُخالِفي المِلَّة،وذلك لِمَا أعمى اللهُ قلبه، ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله تعالى، يفعل فيه ما يشاء كما يُفنيه ويُكوِّره في آخِر أمره . وأمَّا قَول بعض المَلاحدة: لَوْ وَقَعَ هذا لنُقِلَ مُتواترًا واشترك أهلُ الأرض كُلُّهم في معرفته، ولم يختص بها أهل مكة، فأجاب العلماء بأن هذا الانشقاق حصل فى الليل ومعظم الناس نِيام غافلون ، والأبواب مُغلَقة وهم مُتَغَطُّون بثيابهم، فَقَلَّ مَن يتفكَّر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر،ومِمَّا هو مُشَاهَد مُعتاد أن كُسوف القَمَر وغَيره مِن العجائب والأنوار الطوالع والشُّهب العِظَام وغَير ذلك مِمَّا يَحدُث في السماء في الليل يقع، ولا يتحدث بها إلا الآحاد، ولا عِلم عِند غَيرهم لِمَا ذكرناه. وكان هذا الانشقاق آية حصلت في الليل لقَوم سألوها واقترحوا رُؤيتها فلم يتنبه غيرهم لها. قالوا: وقد يكون القمر كان حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض،كما يكون ظاهرًا لقوم،غائبًا عن قوم،كما يجد الكُسوفَ أهلُ بلد دون بلد،والله أعلم)).

وعن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال:نَزَلْنا المدائنَ على فَرْسَخ،فلمَّا جَاءت الجُمُعَة،حَضَرَ أبي ، وحَضَرْتُ مَعَه ، فَخَطَبَنَا حُذَيفة، فقال: ((إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقول: ﴿ اقتربتِ السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَرُ ﴾ ألا وإنَّ الساعة قد اقتربت ، ألا وإنَّ القمر قد انشقَّ ، ألا وإن الدُّنيا قد آذَنَتْ بفِرَاق ، ألا وإنَّ اليَوْمَ المِضْمَار ، وغَدًا السِّباق ، فقلتُ لأبي : أيَسْتَبِقُ الناسُ غَدًا ؟. قال : يا بُنَيَّ ، إنَّكَ لَجَاهِل ،

إنَّما يَعني العملَ اليَوْم ، والجَزَاءُ غَدًا ، فلمَّا جَاءت الجُمُعَةُ الأُخرى حَضَرْنا ، فَخَطَبَنا حُذَيفة ، فقال: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقول : ﴿ اقتربتِ السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَرُ ﴾ ، ألا وإنَّ الدُّنيا قد آذَنَتْ بفِرَاق ، ألا وإنَّ اليَوم المِضْمَار ، وغَدًا السِّباق ، ألا وإنَّ الغايَةَ النارُ ، والسَّابِقُ مَن سَبَقَ إلى الجَنَّة)) [238].

كان حُذَيفة ــ رضي اللهُ عنه ــ حريصًا على وَعْظ الناس وإرشادهم إلى الحق ، وتَذكيرهم بأنَّ الدُّنيا دار مَمَر ، والآخرة دار مَقَر . والدُّنيا عَمَل بلا جَزَاء ، والآخِرة جَزَاء بلا عَمَل ، وقد اقتربَ مَوعد يَوم القِيامة ، واقتربت الدُّنيا مِن الزوال والفَناء ، واليَوم المِضمار (العمل) ، وغدًا السِّباق (الجَزاء) ، والغاية هي عذاب النار الشديد ، والسَّابِق مَن سَبَقَ إلى الجَنَّة ، ولا يتأتَّى هذا إلا بالإيمان بالله تعالى ، وأداء العبادات ، وفِعل الطاعات ، والإكثر مِن عمل الصالحات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا انشقَّتِ السَّمَاءُ فكانتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ ﴾ [الرَّحمن : ٣٧] .

فإذا انصدعت السَّماءُ بنُزول الملائكة مِنها يَوم القِيامة ، فكانت كالوَردة الحمراء مِن شِدَّة حرارة النار. أوْ: تَتَلَوَّن السماءُ مِن الفَزَع الأكبر، كما تتلوَّن الدِّهان المُختلفة .وقِيل: المَعنى تَصِير في حُمرة الوَرْد، وجَرَيَان الدُّهْن ، أي : تَذُوب معَ الانشقاق حتى تَصِير حمراء مِن حرارة نار جَهَنَّم، وتَصير مِثل الدُّهن لِرِقَّتها وذَوَبَانها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/١١٧ و١١٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ فإذا انشقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ ، أي : انفرجت مِن المَجَرَّة لنُزول مَن فِيها يَوم القِيامة ، ﴿ فكانتْ وَرْدَةً ﴾ ، وفِيها قَولان : أحدهما كَلَوْن الفَرَس الوَرْدَة ، قاله أبو صالح والضَّحاك ، وقال الفَرَّاء : الفَرَس الوَرْدَة ، تكون في الرَّبيع وردة إلى الصُّفرة ، فإذا اشتد الحَرُّ كانت وردة حمراء ، فإذا كان بَعْد ذلك كانت وردة إلى الغبرة ، فشبَّه تَلَوُّنَ السماء بتَلَوُّن الوَرْدَة مِن الخَيْل ، وكذلك قال الزَّجاج : ﴿ فكانتْ وَرْدَةً ﴾ ، أي : كَلَوْن فَرَس وَرْدَة ، والكُمَيت الوَرْد ، يَتَلَوَّن ، فيكون لَوْنُه في الشِّتاء خِلاف لَوْنه في الصَّيف ، ولَوْنه في الصَّيف خِلاف لَوْنه في الشِّتاء ، فالسَّماء تتلون مِن الفَزَع الأكبر . وقال ابن قُتَيبة : المعنى فكانت حمراء في لَوْن الفَرَس الوَرْد . والثاني أنها وردة النبات ، وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحُمرة ، ذكره الماوردي . وفي الدِّهان قَولان : أحدهما أنه واحد وهو الأديم الأحمر ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّه جَمْع دُهْن ، والدُّهْن تختلف ألوانه بخُضرة وحُمرة وصُفرة ، حكاه اليزيدي، وإلى نَحْوه ذهب مُجاهد . وقال الفَرَّاء : شَبَّهَ تَلَوُّنَ السماء بتَلَوُّن الوَرْدَة مِن الخَيْل ، وشَبَّهَ الوَردة في اختلاف ألوانها بالدُّهْن)) .

---

٢٣٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥١) برقم (٨٨٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا ﴾ [الواقعة : ٤] .

إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلزَالًا شديدًا ، وحُرِّكت تَحريكًا عنيفًا ، واضطربت بقَسوة بالغة ، بحَيث تنهار كُل الأبنية فَوق سطح الأرض ، ولا يَبقَى شيء . وهذا يَحدُث يَوم القِيامة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧) : ((﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا ﴾ ، حُرِّكَتْ وزُلْزِلَتْ زِلْزَالًا . قال الكلبي : إنَّ الله إذا أوْحَى إلَيها اضطربت فَرَقًا (خَوْفًا) . قال المُفسِّرون : تُرَجُّ كَمَا يُرَجُّ الصَّبي في المَهْد ، حَتَّى يَنهدم كُل بناء عليها ، وينكسر كُل ما عليها مِن الجِبال وغَيرها . وأصل الرَّج في اللغة : التَّحريك ، يُقال : رَجَجْتُه ، فارتجَّ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣١) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا ﴾ ، أي : حُرِّكَتْ حَرَكةً شديدةً ، وزُلْزِلَتْ . وذلك أنَّها ترتجُّ حَتَّى يَنهدم ما عليها مِن بناء ، ويَتَفَتَّت ما عَلَيها مِن جَبَل . وفي ارتجاجها قَولان : أحدهما أنَّه لإماتة مَن عَلَيها مِن الأحياء ، والثاني لإخراج مَن في بَطْنها مِنَ المَوْتى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة : ٥] .

وفُتِّتَت الجِبالُ تَفتيتًا ، فصارت كالدَّقيق المَبسوس (المَبلول) بعدما كانت عاليةً وشامخةً .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧) : ((﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ . قال عطاء ومُقاتل ومُجاهد: فُتَّتْ فَتًّا ، فصارت كالدَّقيق المَبسوس ، وهو المَبلول . قال سعيد بن المُسيِّب والسُّدي : كُسِرَتْ كَسْرًا . وقال الكلبي : سُيِّرَتْ على وجه الأرض تَسييرًا. قال الحسن: قُلِعَتْ مِن أصلها فَذَهَبَت ، نَظيرها : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾[طه : ١٠٥] . قال ابن كَيسان : جُعِلَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا بَعْد أن كانت شامخةً طويلةً)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٣١ و١٣٢):((قَوله تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما فُتِّتَتْ فَتًّا ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . قال ابن قُتَيبة : فُتِّتَتْ حَتَّى صارت كالدَّقيق والسَّويق المَبسوس . والثاني لُتَّتْ ، قاله قَتادة . وقال الزَّجاج : خُلِطَتْ ولُتَّتْ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٦] .

فكانت غُبارًا مُتَفَرِّقًا مُنتشرًا في الهواء، كالذي يُرى في شُعاع الشمس إذا دَخَلَ النافذةَ،وهو الهَبَاء.

وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٣٦١):((قَوله تعالى: ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ . قال أبو إسحاق عن الحارث عن عليٍّ رضي اللهُ عنه : ﴿ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ كرَهَج الغُبار يَسطَع ، ثُمَّ يَذهَب فلا يَبْقَى مِنه شيء . وقال العَوفي عن ابن عباس في قَوله : ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ ، الهَبَاء الذي يَطِير مِن النار إذا اضطرمت ، يَطير مِنه الشَّرَر ، فإذا وَقَعَ لم يكن شيئًا . وقال عِكرمة : المُنْبَثُّ الذي قد ذَرَّتْهُ

الرِّيح وبَثَّتْهُ . وقال قَتادة : ﴿ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ كَيَبِيس الشَّجَر الذي تذروه الرِّياح ، وهذه الآية كأخواتها الدَّالَّة على زَوال الجِبال عَن أماكنها يَوم القِيامة ، وذَهَابها ، وتَسْييرها ، ونَسْفها ، وصَيرورتها كالعِهْن المَنفوش (الصُّوف المَصبوغ المُتفرِّق))) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحَاقَّة : ١٣] .

فإذا نَفَخَ إسرافيلُ في القَرْنِ نفخةً واحدةً لخراب الدُّنيا ودمار العَالَم ، أي : النَّفخة الأُولَى لقِيام السَّاعة ، ويَموت عِندها الناس، والنَّفْخَة الثانية يُبعَثون عِندها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٠) : ((قال ابن عباس : هي النَّفْخَة الأُولَى لِقِيَام السَّاعة ، فلم يَبْقَ أحد إلا مات . وجاز تذكير ﴿ نُفِخَ ﴾ لأنَّ تأنيث النَّفْخَة غَير حَقيقي . وقِيل : إنَّ هذه النَّفْخَة هي الأخيرة . وقال : ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، أي : لا تُثَنَّى . قال الأخفش : وَوَقَعَ الفِعْلُ على النَّفْخَة ، إذْ لم يكن قَبْلها اسم مرفوع ، فقِيل: نَفْخَة ... أوْ يُقال : اقْتُصِر على الإخبار عَن الفِعْل، كما تَقول: ضُرِبَ ضَرْبًا. وقال الزَّجاج : ﴿ في الصُّورِ ﴾ يَقُوم مَقَام ما لَم يُسَمَّ فاعله)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحَاقَّة : ١٤] .

ورُفِعَت الأرضُ والجِبالُ مِن أماكنها بالقُدرة الإلهية ، وكُسِرَتَا كَسْرَةً وَاحدةً ، أوْ ضُرِبَتَا ضَرْبَةً واحدةً بعضهما ببعض ، فصارتا كَثِيبًا مَهِيلًا ، وهَبَاءً مَنثورًا .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٠) : ((﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ ﴾ ، رُفِعَتْ مِن أماكنها بمُجرَّد القُدرة الكاملة ، أوْ بتوسُّط زَلزلة ، أو رِيح عاصفة ، ﴿ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، فضُرِبَت الجُملتان بعضُها ببعض ضَرْبَةً واحدةً ، فيَصِير الكُل هَبَاءً ، أوْ فَبُسِطَتَا بَسْطَةً واحدةً ، فصارتا أرضًا لا عِوَج فيها ولا أمْتًا،لأنَّ الدَّك سبب التَّسوية،ولذلك قِيل:ناقة دَكَّاء للتي لا سَنَام لها، وأرض دَكَّاء للمُتَّسِعَة المُستوية)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٩):((أي: حُمِلَت الأَرضُ والجِبالُ وما فيها فَدُكَّتا دَكَّةً واحدةً،أي: كُسِرَتا ودُقَّتَا دَقَّةً واحدةً،لا يُثَنَّى عليها،حتى تَستويَ بما عليها من شيء فتصير كالأديم المَمدود ... قال الفَرَّاء : وإنَّما قال : ﴿ فَدُكَّتا ﴾ ، ولَم يَقُل: فَدُكِكْنَ، لأنه جَعَلَ الجِبَالَ كالشَّيء الواحد)) اهـ. وعن أُبَيِّ بن كَعْب رضي اللهُ عنه: في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.قال:يَصِيران غَبَرَةً على وُجوه الكُفَّار لا على وُجوه المؤمنين . وذلك قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيها غَبَرَةٌ(٤٠)تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(٤١)﴾ [٢٣٩].

---

٢٣٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣) برقم (٣٨٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ [الحَاقَّة : ١٥] .

في ذلك الحِين، قَامت القِيامةُ. وقال الطبري في تفسيره(١٢/ ٢١٤): ((يَقول جَلَّ ثناؤه : فَيَوْمَئِذ وَقَعَت الصَّيْحَةُ السَّاعة ، وقامت القِيامةُ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وانشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحَاقَّة : ١٦] .

وانصَدَعَت السَّمَاءُ لنُزول الملائكة ، فَهِيَ في ذلك اليَوم العَظِيم ضعيفةٌ مُسترخيةٌ مُتَشَقِّقَة ، بعدما كانت قويةً مُتماسكةً مُحْكَمَةً .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٩) : ((﴿ وانشَقَّتِ السَّماءُ ﴾ لِنُزُول مَن فِيها مِن المَلائكة ، ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّ وَهْيَها ضَعْفُها وتَمَزُّقُها مِنَ الخَوف ، قاله مُقاتل . والثاني أنَّه تَشَقُّقُها ، قاله الفَرَّاء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالمَلَكُ عَلى أرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[الحَاقَّة : ١٧] .

والملائكةُ على أطراف السماء حِين تَتَشَقَّق وتَتَمَزَّق ، لأنَّ السماء مكانهم ومَسكَنهم ، فإذا انشقَّت السماءُ ، وَقَفُوا على أطرافها وجوانبها ، خَوْفًا مِن عَظَمَة الله تعالى ، وفَزَعًا مِن هَول يَوم القِيامة ، ويَحْمِل عَرْشَ الله في يَوم القِيامة الرهيب ثمانية مِنَ المَلائكة العِظَام فوق رؤوسهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٠ و٣٥١) : ((قال الضَّحاك : إذا انشَقَّت السماءُ كانت الملائكةُ على حَافَتِها حَتَّى يأمرهم اللهُ تعالى ، فيَنزِلون إلى الأرض ، فيُحِيطون بها ، ومَن عَلَيها . ورُوِيَ عن سعيد بن جُبَير أنَّه قال : على أرجاء الدُّنيا . قَوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها فَوق رُؤوسهم ، أي : العَرْش على رُؤوس الحَمَلَة ، قاله مُقاتل. والثاني فَوق الذين على أرجائها، أي أن حَمَلَة العَرْش فوق المَلائكة الذين هُم على أرجائها. والثالث أنَّهم فَوق أهل القِيامة ، حكاهما الماوردي ، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أي : يَوم القِيامة ﴿ ثَمَانِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها ثمانية أملاك ، وجاء في الحديث أنَّهُم اليَوم أربعة ، فإذا كان يَوم القِيامة أمَدَّهم اللهُ بأربعة أملاك آخَرين ، هذا قَول الجُمهور . والثاني ثمانية صُفوف مِن المَلائكة لا يَعْلَم عِدَّتَهم إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قاله ابن عباس وابن جُبَير وعِكرمة . والثالث ثمانية أجزاء مِن الكَرُوبِيِّين (سادة الملائكة) لا يَعْلَم عَدَدَهم إلا اللهُ ، قاله مقاتل . وقد روى أبو داود في سُننه من حديث جابر بن عبد الله عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : " أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عَن مَلَك مِن مَلائكة الله ، مِن حَمَلَةِ العَرْش ، إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبعمائةِ عام ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالمُهْلِ ﴾ [المَعَارِج : ٨] .
في يَوم القَيامة الرهيب،تَكون السَّماءُ سائلةً مُذَابَةً.والمُهْلُ ما أُذِيبَ مِن النُّحَاس والرَّصَاص والفِضَّة.
وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٧): ((والمُهْل: دُرْدِي الزَّيْت (ما يَبقَى أسْفَلَه) وعَكَرُه، في قَول ابن عباس وغَيره . وقال ابن مسعود : ما أُذِيب مِن الرَّصاص والنُّحاس والفِضَّة . وقال مُجاهد : ﴿ كالمُهْلِ ﴾ كَقَيْح مِن دَم وصَدِيد)) .
وعن ابن عَبَّاس في قَوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالمُهْلِ ﴾ ، قال : ((كَدُرْدِيِّ الزَّيت)) [٢٤٠].
وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ [المَعَارِج : ٩] .
وتَكُون الجِبالُ في يَوم القِيامة مُتناثرةً مُتطايرةً ، كالصُّوفِ المَصبوغ المَنفُوش ، إذا طَيَّرته الريحُ. والعِهْنُ هو الصُّوف المَصبوغ ألوانًا ، والجبال مُختلفة الألوان ، فإذا فُتِّتَتْ ونُثِرَتْ وطُيِّرَتْ في الهواء ، صارت شبيهةً بالصُّوف المُلوَّن (العِهْن المَنفُوش) إذا طَيَّرته الريح .
والآيتان : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ (٩) ﴾ ، تُوضِّحان حَالَ السَّماء والأرض في يَوم القِيامة المُخِيف .
وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٧) : ((﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ ، أي : كالصُّوف المَصْبوغ، ولا يُقَال للصُّوف عِهْن إلا أن يَكُون مَصبوغًا. وقال الحَسَن: ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ وهو الصُّوف الأحمر ، وهو أضعف الصُّوف ... . والعِهْن الصُّوف الأحمر ، واحده عِهْنَة . وقِيل : العِهْن الصُّوف ذُو الألوان، فشَبَّهَ الجِبالَ به في تَلَوُّنها ألوانًا.والمعنى: أنها تَلِين بعد الشِّدة، وتتفرَّق بعد الاجتماع . وقِيل : أوَّل ما تتغيَّر الجِبال تَصِير رَمْلًا مَهِيلًا، ثُمَّ عِهْنًا مَنفوشًا، ثُمَّ هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦٠) : ((﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ ، أي : كالصُّوف ، فَشَبَّهَهَا في ضَعْفها ولِينها بالصُّوف ، وقِيل : شَبَّهَهَا به في خِفَّتها وسَيْرها، لأنَّه قَد نُقِلَ أنها تَسِير على صُوَرِها ، وهي كالهَبَاء . قال الزَّجاج : العِهْن الصُّوف ، واحدته عِهْنَة ، ويُقال : عِهْنَة وعِهْن ، مِثل : صُوفة وصُوف . وقال ابن قُتَيبة : العِهْن الصُّوف المَصْبُوغ)) .
وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ والجِبَالُ وكانتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾[المُزَّمل: ١٤] .
في يَوم القِيامة الرَّهيب، تَهْتَزُّ الأرضُ والجِبالُ اهتزازًا شديدًا،وتَصِير الجبالُ رَمْلًا سَائلًا مُتناثرًا.

---

٢٤٠ رواه أحمد في مسنده(١/ ٢٢٣)برقم(١٩٤٦).وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٢): ((رواه أحمد، وفيه قابُوس بن أبي ظَبيان،وثَّقه ابن مَعِين وغَيْرُه، وضَعَّفه النَّسائي وغَيْرُه، وبَقِيَّة رجاله رجال الصحيح)).

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٣) : ((﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ ﴾ ، أي : تَزَلْزَل وتَحَرَّك أغلظَ حركة . قَوله تعالى : ﴿ وكانتِ الجِبَالُ ﴾ ، قال مُقاتل : المعنى: وصارت بعد الشِّدة والقُوَّة ﴿كَثِيبًا ﴾ . قال الفَرَّاء : الكَثِيب الرَّمْل ، والمَهِيل الذي تحرَّك أسفله ، فينهال عليكم مِن أعلاه ... وقال الزَّجاج: الكَثِيب جَمْعه كُثبان ، وهي القِطَع العِظَام مِن الرَّمْل ، والمَهِيل السَّائل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٦٢) : ((﴿ وكانتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ ، أي : تَصِير ككُثبان الرَّمْل بعدما كانت حِجَارَةً صَمَّاء ، ثُمَّ إنَّها تُنسَف نَسْفًا ، فلا يَبْقَى مِنها شيء إلا ذَهَب ، حتى تَصِير الأرضُ قَاعًا صَفْصَفًا ، لا ترى فِيهَا عِوَجًا ، أي : وَادِيًا ، ولا أمتًا ، أي: رابية . ومعناه : لا شيء ينخفض ، ولا شيء يرتفع)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوله تعالى : ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ ، قال : ((المَهِيل : الذي إذا أخذتَ مِنه شيئًا تَبِعَكَ آخِرُه ، والكَثِيب : مِنَ الرَّمْل)) [٢٤١].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا بَرِقَ البَصَرُ ﴾ [القِيامة : ٧] .

فإذا زَاغَ البَصَرُ ، وفَزِعَ ، ودَهِشَ ، وتَحَيَّرَ لَمَّا رأى ما كان يُكذِّبه . أي إن البَصَرَ انبهرَ مِن شِدَّة الأهوال ، وصُعوبة الحال ، وخُطورة المَوقف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤١٩) : ((قال المُفسِّرون : يَشْخَص بَصَرُ الكافر يوم القيامة ، فلا يَطرِف لِمَا يرى مِن العجائب ، التي كان يُكذِّب بها في الدُّنيا . وقال مُجاهد : بَرِقَ البَصَرُ عِند المَوت)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : ــ ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمَامَه ﴾[القِيامة : ٥] . يقول : سَوْفَ أتُوب . ﴿ يَسْأَلُ أيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴾ [القِيامة: ٦]. فَيَتَبَيَّن له إذا بَرِقَ البَصَرُ [٢٤٢].

يُرِيدُ الإنسانُ المُضِيَّ في المعاصي ، والغَرَقِ في الشَّهَوَات ، والمُدَاوَمَة على الفُجُور ، لا يُوقِفه شيء ، فلا يَشغَل بالَه بتَوبة ، لأنه واقع في التَّسويف واتِّباعِ الأمل الكاذب ، فهو يُريد الاستمتاع باللحظة الآنِيَّة ، والوصول إلى أقصى الآثام بلا رادع . إنه يتخندق في اللذة الآنِيَّة المُؤقَّتة دُون النظر إلى المسؤولية، وَكَم مِن شَهوةٍ ذَهبت لَذَّتها ، وبَقِيَت تَبِعاتها . لذلك ، لا بُد مِن النظر وراء

---

٢٤١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٩) برقم (٣٨٦٧) وصحَّحه ، وقال الذهبي عن أحد الرُّواة : ((شَبيب بن شَيبة ضَعَّفوه)) .

٢٤٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣) برقم (٣٨٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المُتعة ، وعدم الانبهار بلمعانها الخادع ، والسُّقوطِ في مِصْيَدتها . والإنسانُ يَخدَع نَفْسَه بالأمل الكاذب والتَّسويف، فيَغرَق في الذُّنوب والمعاصي والآثام ، ويَخدَع نَفْسَه بالتَّوبة المُستقبلية . وهذا الأمرُ غَير مَنطقي،لأن المَرء لا يَعرِف مَتَى يُفاجئه المَوْتُ فيُنهي حياتَه،وقد يموت أثناء المَعصية، فيُحرَم مِن التَّوبة، ولا أحد يَعرف خاتمته. واللهُ يَمنَح التَّوبةَ لبعض الناس،ولا يَمنحها لجميع الناس .

ويَسألُ الكافرُ العاصي ساخرًا ومُستهزئًا : متى يَكون يَوم القِيامة ؟ . وهذا سؤال للسُّخرية واستبعاد قِيام السَّاعة ، فيتَّضح الأمرُ لهذا الكافر إذا بَرِقَ البَصَرُ مِن شِدَّة الأهوال ، ورَأى بأُم عَيْنَيْه ما كان يَسمَع عنه ويُكذِّبه ، وعندئذ يَعلَم أن الأمر حقيقة واقعية ، ولا فائدة مِن الندم بعد فَوَات الأوان ، ولا مجال لوجود فرصة أُخرى ، ولا يُمكن التَّعويض . لقد انتهى كُل شيء .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَخَسَفَ القَمَرُ ﴾ [القِيامة : ٨] .

وَذَهَبَ ضَوْءُ القَمَرِ ، وأظلمَ ، ولا يعود ضَوؤه كما يَعود إذا خَسَفَ في الدُّنيا . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ القَمَرُ ﴾ ، أي: ذَهَبَ ضَوْؤُه. والخُسُوف في الدُّنيا الى انجلاء بخِلاف الآخِرة ، فإنَّه لا يَعود ضَوؤه . ويُحتمل أن يكون بمعنى غاب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ [القِيامة : ٩] .

وجُمِعَ بَيْنَ الشمس والقمر يَوم القِيامة ، فلا ضَوء للشمس ، ولا ضَوء للقمر ، ولا يَكون هناك تعاقُب ليل ونهار . لقد جُمِع بَينهما في ذَهاب نُورهما ، أوْ : جُمِعَ بَينهما في الطُّلوع مِن المَغرِب .

ولَم يَقُل : جُمِعَتْ ، لأنَّ المَعنى : جُمِعَ بَينهما ، أوْ : هو عَلى تَغليب المُذكَّر .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٢) : ((﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ أسْوَدَيْن مُكَوَّرَيْن ، كأنَّهما ثوران عَقِيران ، _ والعَقِير هو الحيوان الذي ضُرِبَتْ قوائمه بالسَّيف تمهيدًا لِذَبْحه _ . وقِيل : يُجمَع بَينهما في ذَهاب الضِّياء . وقال عَطَاء بن يَسَار : يُجمَعان يَوم القِيامة ، ثُمَّ يُقذَفان في البَحر ، فيَكُونان نارَ الله الكُبرى)) اهـ . وفي فتح الباري (٦/ ٣٠٠) : ((قال الخَطَّابي : لَيس المراد بكَونهما في النار تَعذيبهما بذلك ، ولكنَّه تَبْكيت لِمَن كان يَعْبُدهما في الدُّنيا ، لِيَعْلَمُوا أنَّ عِبادتهم لهما كانت باطلًا . وقِيل : إنَّهما خُلِقا مِن النار ، فأُعِيدَا فيها . وقال الإسماعيلي : لا يَلزَم مِن جَعْلهما في النار تَعذيبهما ، فإنَّ لله في النار ملائكة وحِجارة وغَيرها ، لتَكون لأهل النار عذابًا،وآلة مِن آلات العذاب، وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي مُعذَّبة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤١٩): ((قَوله تعالى : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ . إنَّما قالَ : ﴿ جُمِعَ ﴾ لتَذكير القَمَر ، هذا قول أبي عُبَيدة . وقال الفَرَّاء : إنَّما لَم يَقُلْ : جُمِعَتْ ،

لأنَّ المعنى : جُمِعَ بَينهما . وفي معنى الآية قَولان : أحدهما جُمِعَ بَيْن ذَاتَيْهما. وقال ابن مسعود: جُمِعَا كالبَعِيرَيْن القَرِينَيْن.وقال عَطَاء بن يَسَار:يُجمَعان ثُمَّ يُقذَفان في البحر.وقِيل: يُقذَفان في النار. وقِيل: يُجمَعان فَيَطْلُعَان مِن المَغرِب. والثاني جُمِعَ بَينهما في ذهاب نُورهما،قاله الفَرَّاء والزَّجاج)).

وعن عبد الله ــ رضي اللهُ عنه ــ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ يَأتي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمَانُهَا لَم تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . قال : طُلوع الشَّمْس مِن مَغرِبها ، ثُمَّ قَرأ هذه الآية : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ أيْنَ المَفَرُّ (١٠) ﴾ [٢٤٣].

عِندما تأتي بعضُ الآياتِ الإلهية الباهرة والعلاماتِ الدَّالَّة على قُرب قِيام السَّاعة ، لا يُقبَل إيمان غَير المُؤمن، ويُغلَق باب التَّوبة، ويُوضَع حَد لأعمال الإنسان، فلا يُقبَل مِنه شيء بعد ذلك ، وتنتهي فترة الامتحان الإلهيّ للعبد في حياة الدُّنيا، وعليه أن ينتظر النتيجةَ، وأمامه خِياران لا ثالث لهما : الجَنَّة أو النَّار . وعن أبي هُرَيرة ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغرِبها ، فإذا طَلَعَتْ فَرَآها الناسُ آمَنُوا أجْمَعُون ، فذلك حِين ﴿ لا يَنفع نَفْسًا إيمانها لم تكنْ آمنتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيرًا ﴾)) [٢٤٤].

يُوضِّح الحديثُ الزمنَ الذي لا يُقبَل فيه الإيمان ، ولا تُقبَل فيه العبادات والطاعات . وعِندما تَطلُع الشمسُ مِن جِهة المَغرِب، يُغلَق باب التَّوبة، ولا يُقبَل إيمان الكافر ، ولا تُقبَل طاعة المؤمن. ومعنى : ﴿ كَسَبَتْ في إيمانها خيرًا ﴾ ازدادت قُرْبًا مِن الله تعالى ، والتزمت طاعته وتَقواه .

والإيمانُ لَيس سِلعةً في مُتناول اليَد ، مَتى شاء الإنسانُ أخذه حَسَب مِزاجه . بَلْ هُوَ نِعمةٌ رَبَّانية تُمنَح لأناس مُحدَّدين ، وتُحجَب عن آخَرين . وقد يَبحث عنها الإنسانُ فلا يَجدها ، وقد تكون عِند إنسان ، ثُمَّ تُنزَع مِنه عُقوبةً له . وينبغي للعاقل أن يُبادِر إلى الإيمان والتَّمَسُّك به قَبْل أن يَلهَث وراءه فلا يُحصِّله. وما دام البابُ مفتوحًا يَنبغي الإسراع إلى الدُّخول ، لأنه إذا أُغلِق لن يُفتَح مَرَّةً أُخرى ، وسيُدرك الإنسانُ عِندها أنه خسر الفُرصةَ الوحيدة في حياته ، والتي تُحدِّد مصيرَه ، ولا يوجد مَجال للتعويض أو فُرصة أخرى . إمَّا الخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار . والإنسانُ في سِباق مع الزمن، ولا يَعرف متى تُدركه المَنِيَّة، لأن المَوت يأتي فَجْأةً، ولا يَستأذن مِن أحد، ويجب على الإنسان أن يكون مُسْتَعِدًّا للرَّحيل في أيِّ وقت . والمُسافرُ حقيبته جاهزة دائمًا.

---

٢٤٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣) برقم (٣٨٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٤٤ متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣٨٦) برقم (٦١٤١) ، ومسلم (١/ ١٣٧) برقم (١٥٧) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٨١) عن حَديث آخَر : (((حَتَّى تَطلُع الشَّمس مِن مَغرِبها) ، فإذا طَلَعَتْ مِنه ، غُلِقَ باب التَّوبة . قال في المطامح : ومَن أنكرَ طُلوعها مِن مَغرِبها كَفَرَ ، وسَمِعْتُ عن بعض أهل عصرنا أنه يُنكِره ، نَعوذ بالله مِن الخِذلان ، انتهى . وأنت خبير بأن جَزْمه بالتَّكفير لا يَكاد يَكون صحيحًا سِيَّما في حَق العَامَّة ، لأنَّه لَم يَبلُغ مَبلَغ المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة ، ومُجرَّد وُروده في أخبار صِحَاح لا يُوجِب التَّكفير ، فَتَدَبَّرْ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٥) : ((قَوله ﷺ : " مَن تابَ قَبل أن تَطلُع الشمسُ مِن مَغرِبها ، تابَ اللهُ عَلَيه " . قال العلماء : هذا حَد لقَبول التَّوبة . وقد جاء في الحديث الصحيح أنَّ للتوبة بابًا مفتوحًا، فلا تَزال مَقبولة حتى يُغلَق،فإذا طَلَعَت الشمسُ مِن مَغرِبها أُغْلِق ، وامتنعت التَّوبة على مَن لَم يكن تابَ قَبل ذلك. وهو مَعنى قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأتي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمَانُهَا لَم تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيرًا ﴾ . ومعنى " تابَ اللهُ عَلَيه " قَبِلَ تَوبته ، ورَضِيَ بها . وللتَّوبة شَرْط آخَر ، وهو أن يَتوب قبل الغَرْغَرَة ، كما جاء في الحديث الصحيح . وأمَّا في حالة الغَرْغَرَة ، وَهِيَ حالة النَّزْع ، فلا تُقبَل توبته ، ولا غَيرها، ولا تُنفَّذ وَصِيَّته ، ولا غَيرها)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٩٧): (((إنَّ للتَّوبة بابًا عَرْضُ ما بَيْنَ مِصْرَاعَيْه) أي : شَطْرَيْه ، والمِصْرَاع مِن الباب الشَّطْر ،كما في المصباح وغَيره (ما بَيْنَ المَشرِق والمَغرِب لا يُغلَق حَتَّى تَطلُع الشمسُ مِن مَغرِبها) يعني أن أمر قَبول التَّوبة هَيِّن ، والناس في سَعَة مِنه ، ما لم تَطلُع الشمسُ مِن مَغرِبها ، فإنَّ بابًا سَعَته ما ذُكِرَ لا يتضايق عن الناس إلا أن يُغلَق . وفي بعض الروايات ذُكِرَ أن ذلك الباب بالمَغرِب ، ولَعَلَّه لمَّا رأى أن سَد الباب إنَّما هو مِن قَبيل المَغرِب ، جَعل فَتْحَ الباب أيضًا مِن ذلك الجانب ، وتحديد عَرْضه بذلك مُبالغة في التَّوسعة ، أو تقدير لعَرْض الباب بمِقدار يتَّسع بجُرْم الشَّمس في طُلوعها ، ذَكَرَه القاضي البيضاوي . وقال القُونَوي : باب التَّوبة كِناية عَن عُمر المؤمن ، واختصاصه بسبعين سَنة إشارة إلى ما في الحديث الآخَر : " أعمارُ أُمَّتي ما بَين السِّتين والسَّبعين " ، وإنَّما ذكر العَرْض دُون الطُّول ، لأن العَرْض دائمًا أقل مِنه ، وللإنسان أجلان،أجل مُتناهٍ، وهو مِقدار عُمره في هذه النَّشأة والدار،وأجل آخَر، وهو رُوحاني، يَعْلَمه الحقُّ، مَخصوص بالنَّشأة الأُخْرَوِيَّة في جَنَّة أو نار، غَير مُتَنَاهٍ، وإلَيه أشار بقَوله : ﴿ وأجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ [الأنعام : ٢]. ولهذا يقولون: للعَالَم طُول وعَرْض ، فعَرْضه عَالَم الأجسام ، وطُوله عَالَم الأرواح ، وغَلْق الباب كِناية عن انتهاء العُمر ، وإلَيه أشار بخَبر : " إنَّ الله يَقبل تَوبةَ العبد ما لَم يُغَرْغِرْ " .

قال : وأمَّا طُلوع الشَّمس مِن مَغرِبها بالنِّسبة للنَّشأة الإنسانية فكِناية عَن مُفارَقة الرُّوح البَدَن ، فإن الرُّوح زمن تعلُّقه بالبدن مُتَصَنَّع بأحكامه ، ومُقيَّد بصِفاته ، فإذا جَاء المَوتُ طَلَعَ مِن حَيث غَرَبَ .

قال : ولستُ أقول : لا معنى للحديث غَير هذا ، بَل أقول : لَمَّا كانت النَّشأة الإنسانية نُسخة مِن نَشأة العَالَم ، وأخبرت الشريعةُ بأن الشمس تَطلُع مِن مَغرِبها عِند قُرب السَّاعة كِناية عَن موت ما يَقْبَل الموتَ مِن العَالَم، وكانت الشمسُ بالنسبة إلى جسم الإنسان، وَجَبَ أن لا يَثْبُت في العَالَم الخارج عَن الإنسان وَصْف ، ولا حُكْم ، إلا وتكون النُّسخة الإنسانية له مَثَل ونَظِير)) .

وفي نَفْس المرجع (٥/ ٢٨٩) : ((للتَّوبة باب بالمَغرِب مَسيرة سبعين عامًا لا يزال كذلك حتَّى يأتيَ بعضُ آيات رَبِّكَ ، طُلوعُ الشمس مِن مَغرِبها) . قال القاضي : معناه أن باب التَّوبة مفتوح على الناس، وهُم في فُسحة مِنها ما لَم تَطلُع الشمسُ مِن مَغرِبها ، فإذا طَلَعَتْ انسدَّ عليهم، فَلَم يُقْبَل مِنهم إيمان ، ولا تَوبة ، لأنَّهم إذا عَايَنوا ذلك اضْطُرُّوا إلى الإيمان والتَّوبة ، فلا يَنفعهم ذلك ، كما لا يَنفع المُحْتَضَر ، فلمَّا رأى أن سَد الباب مِن قِبَل المَغرِب ، جَعل فَتْحَ الباب أيضًا مِن ذلك الجانب . وقَوله : " مسيرة سبعين سنة " مُبالغة في التَّوسعة ، أو تقدير لعَرْض الباب بقَدْر ما يَسُدُّه مِن جُرْم الشمس الطالع مِن المغرب ، إلى هُنا كلامه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [المُرْسَلات : ٨] .

فإذا النُّجُومُ ذَهَبَ ضَوْؤُها ، ومُحِيَ نُورُها ، ولم يَعُدْ لها ضَوء ولا نُور .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٤٧) : ((قال المُفسِّرون : إنَّ مَا تُوعَدُون بِه مِن أمر السَّاعة والبَعْث والجَزاء لَوَاقِع ، أي : لَكَائِن . ثُمَّ ذَكَرَ مَتَى يَقَع ، فقال تعالى : ﴿ فإذا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ ، أي : مُحِيَ نُورُها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا السَّماءُ فُرِجَتْ ﴾ [المُرْسَلات : ٩] .

وإذا السَّماءُ فُتِحَتْ وشُقَّت وتَصَدَّعَتْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٠) : ((أي : انفطرت ، وانشقَّت ، وتَدَلَّت أرجاؤها ، ووَهَتْ أطرافُها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المُرْسَلات : ١٠] .

وإذا الجِبالُ قُلِعَتْ مِن أماكنها ، وتطايرت ، وتناثرت ، فكانت هَبَاءً مُنْبَثًّا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣٨) : ((أي : ذُهِبَ بها كُلِّها بسُرعة . يُقال : نَسَفْتُ الشيءَ ، وأنسفته : إذا أخذته كُلَّه بسرعة. وكان ابن عباس والكلبي يقول : سُوِّيَت بالأرض)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ [المُرْسَلات : ١١] .

وإذا الرُّسُل جُمِعَتْ،وجُعِلَ لها وقت وأجل،وهو يَوم القِيامة، للفَصْل والقضاء بينهم وبين الأُمم.

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ ، أي : جُمِعَتْ لوَقتها ليَوم القِيامة . والوَقْت الأجل الذي يَكون عِنده الشيء المُؤخَّر إلَيه . فالمعنى : جُعِلَ لها وقت وأجل للفَصْل والقَضَاء بَينهم وبين الأُمَم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة : ١٠٩] . وقِيل : هذا في الدُّنيا ، أي : جُمِعَت الرُّسُل لِميقاتها الذي ضُرِبَ لها في إنزال العذاب بِمَن كَذَّبهم ، بأنَّ الكُفَّار مُمْهَلُون ، وإنَّما تَزُول الشُّكوك يَوم القِيامة . والأول أحسن، لأنَّ التَّوقيت معناه شيء يقع يَوم القِيامة ، كالطَّمْس ، ونَسْف الجِبال ، وتَشقيق السَّماء ، ولا يَليق به التأقيت قَبل يَوم القِيامة . قال أبو علي : أي جُعِلَ يَوم الدِّين والفَصْل لها وَقْتًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ فَتَأْتُونَ أفْوَاجًا ﴾ [النَّبَأ : ١٨] .

يَوم يَنفُخ إسرافيلُ _عَلَيه السَّلام _ في القَرْن النفخةَ الثانية (نَفْخة البَعْث) للقِيام مِن القُبور، فَتَجيئون زُمُرًا زُمُرًا ، وجَماعةً جَماعةً ، للحِساب والجَزاء .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥١٤) : ((﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ فَتَأْتُونَ أفْوَاجًا ﴾ ، أي : يَوم يُنفَخ في الصُّور ، وهو القَرْن الذي يَنفُخ فيه إسرافيلُ . والمُراد هُنا النَّفْخَة الثانية التي تَكون للبَعْث ، ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ ، أي : إلى مَوْضِع العَرْض ﴿ أفْوَاجًا ﴾ ، أي : زُمُرًا زُمُرًا ، وجَماعَات جَماعَات ، وهي جَمْع فَوْج)) .

وعن أبي هُرَيرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أربعون)) . قالوا : يا أبا هُرَيرة، أربعون يَوْمًا ؟ ، قال : أبَيْتُ . قالوا : أربعون شَهْرًا ؟ ، قال : أبَيْتُ . قالوا : أربعون سنة ؟ ، قال : أبَيْتُ . ثُمَّ يُنزِلِ اللهُ مِنَ السَّماء ماءً ، فَيَنْبُتُونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ . قَال : ولَيْسَ مِن الإنسان شَيء إلا يَبْلَى ، إلا عَظْمًا واحدًا ، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَب ، ومِنهُ يُرَكَّب الخَلْقُ يَوْمَ القِيامة [٢٤٥].

يُوضِّح النبيُّ ﷺ المُدَّةَ الزمنية بين نَفخة الإماتة (الصَّعْق) ونَفخة البَعْث (الإحياء مِن القُبور)، وهي أربعون . ولم يُوضِّح هَل هي بالأيام أو الأشهُر أو السَّنَوات . وقد سُئِلَ أبو هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ عن ذلك، فأبى أن يُخبِرهم بذلك ، إمَّا لكَوْنه لا يَعْلَم ذلك ، أو أراد إخبارهم في وقت لاحق . ثُمَّ يُنزِل اللهُ مِن السماء ماءً ، فَيَنْبُت الأمواتُ ، كما يَنْبُت البَقْل ، وكُل شيء في جسد

---

٢٤٥ متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٥). البخاري (٤/ ١٨٨١) برقم(٤٦٥١).

الإنسان يتحلَّل ويَتفكَّك في التُّراب ، ويَبْلَى ، إلا عَظْمًا واحدًا ، وهو عَجْب الذَّنَب ، وهو العَظْم اللطيف في أسفل الصُّلب ، وهو رأس العُصْعُص . وهو أوَّل ما يُخلَق مِن الإنسان ، وهو الذي يَبْقَى مِنه بعد تحلُّل أجزائه في التُّراب ، ليُعاد تَركيب الخَلْق عَلَيه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ٩١ و٩٢) : ((قَوله ﷺ : " مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أربعون " . قالوا: يا أبا هُرَيرة أربعون يومًا ؟، قال : أَبَيْتُ ، إلى آخِره . معناه : أَبَيْتُ أن أجْزِمَ أن المراد أربعون يَوْمًا ، أوْ سَنَة ، أوْ شَهْرًا ، بَل الذي أجْزِم به أنها أربعون مُجْمَلَة . وقد جاءت مُفسَّرة مِن رواية غَيره في غَير مُسْلِم : أربعون سنة . قَوله (عَجْب الذَّنَب) هو بفَتْح العَيْن، وإسكان الجِيم،أي العَظْم اللطيف الذي في أسفل الصُّلب، وهو رأس العُصْعُص ، ويُقال له: عَجْم، بالمِيم، وهو أول ما يُخلَق مِن الآدميّ ، وهو الذى يَبْقَى مِنه ليُعاد تَركيب الخَلْق عَلَيه . قوله ﷺ : " كُلُّ ابن آدم يَأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنَب " ، هذا مَخصوص ، فَيُخَص مِنه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنَّ الله حَرَّمَ على الأرض أجسادَهم ،كما صَرَّح به في الحديث)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٣٢ و٤٣٣) : (((ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْن) نَفخة الصُّور ونَفخة الصَّعْق (أربعون) لَم يُبيِّن راويه أهي أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنة ؟ . وقال حِين سُئل : لا أعْلَمُه ، ووَقَعَ لوليِّ الله النووي في مُسلِم أربعين سَنة.قال ابن حَجَر: وليس كذلك.(ثُمَّ يُنزِل اللهُ مِن السَّماء ماءً فَيَنْبُتُون كما يَنْبُت البَقْل) مِن الأرض (وليس مِن الإنسان) غَير النبيِّ والشهيد (شيء إلا يَبْلَى) بفَتْح أوَّله ، أي : يَفْنَى ، بمعنى تُعدَم أجزاؤه بالكُلِّية ، أو المُراد يَستحيل فتَزول صُورته المعهودة، ويَصِير بصِفة التُّراب، ثُمَّ يُعاد إذا رُكِّبَ إلى ما عُهِدَ(إلا عَظم واحد،وهو عَجْب) بفَتْح فسُكون، ويُقال: عَجْم، بالميم (الذَّنَب) بالتَّحريك، عَظْم لطيف كحَبَّة خَرْدَل عند رأس العُصْعُص مَكان رأس الذَّنَب مِن ذَوات الأربع. وزعم المُزَني أنَّه يَبْلَى ، يَرُدُّه قَوله (ومِنه يُركَّب الخَلْقُ يَوْمَ القِيامة) . قال ابن عقيل : فيه سِر لا يَعْلَمه إلا هُوَ ، إذْ مَن يُظهِر الوُجود مِن العَدَم ، لا يَحتاج لشَيء يَبني عَلَيه ، ويُحتمل أنَّه جَعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجَوهره)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فكانتْ أبوابًا ﴾ [النَّبَأ : ١٩] .

وشُقَّت السَّماءُ ، وتَصَدَّعَتْ ، فكانت طُرُقًا ومَسَالِك لنُزول الملائكة . وقد صارت السَّماءُ مِن كَثرة الشُّقُوق والصُّدُوع كالأبواب ، أي : ذات أبواب كثيرة . وصِيغة الماضي للدَّلالة على تَحَقُّق الوُقُوع . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥١٤) : ((وظاهر قَوْله : ﴿ فكانتْ أبوابًا ﴾ أنَّها صارت كُلُّها أبوابًا ، ولَيس المُراد ذلك ، بَل المُراد أنَّها صارت ذات أبواب كثيرة)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٠٢) : ((وقَوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فكانتْ أبوابًا ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه: وشُقَّت السَّماءُ، فَصُدِّعَتْ، فكانت طُرُقًا، وكانت مِن قَبْل شِدَادًا، لا فُطُور فِيها ، ولا صُدُوع. وقِيل : مَعنى ذلك : وفُتِحَت السَّماءُ فكانت قِطَعًا كَقِطَع الخَشَب المُشَقَّقَة لأبواب الدُّور والمَسَاكن. قالوا : ومعنى الكلام : وفُتِحَت السَّماءُ فكانت قِطَعًا كالأبواب ، فلمَّا أُسْقِطَت الكاف صارت الأبوابُ الخَبَرَ ، كما يُقال في الكلام : كُن عبد الله أسَدًا ، يعني : كالأسد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكانتْ سَرَابًا ﴾ [النَّبَأ : ٢٠] .

ونُسِفَت الجِبالُ مِن أُصولها، وقُلِعَت مِن أماكنها ، فكانت لا شَيء ، مِثل السَّراب ، يظنُّه الناظرُ ماءً، وليس بماء . أي إنَّها تَصِير هَبَاءً مُنْبَثًّا، فيَراها الناظرُ كالسَّراب ، بعدما كانت مُتماسكةً وشامخةً ، تمتاز بالشِّدة والصَّلابة . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٤) : ((أي : يُخيَّل إلى الناظر أنها شَيء ، ولَيست بشَيء، وبَعْد هذا تَذهب بالكُلِّية ، فلا عَيْن ، ولا أثر)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٠٢) : ((وقَوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكانتْ سَرَابًا ﴾ . يقول : ونُسِفَت الجِبالُ ، فَاجْتُثَّتْ مِن أُصولها ، فَصُيِّرَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا لعَين النَّاظر ، كالسَّراب الذي يظنُّ مَن يَراه مِن بُعْد مَاءً ، وهو في الحقيقة هَبَاء)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٤٤١): ((﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ ﴾ ، أي : في الهَوَاء كالهَبَاء ، ﴿ فكانتْ سَرَابًا ﴾ مِثْل سَرَاب ، إذْ تُرى على صُورة الجِبال ، ولَم تَبْقَ على حقيقتها لِتَفَتُّت أجزائها وانبثاثها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ [النَّازِعَات : ٦] .

يَوم يَنفُخ إسرافيلُ في الصُّور النَّفخةَ الأُولَى(نَفخة الصَّعْق) التي يرتجف ويتزلزل ويتحرَّك لها كُلُّ شيء ، وتَضطرب الأرضُ ، وتتحرَّك حركةً شديدةً ، ويَموت مِنها جميع الخلائق . والنَّفْخَةُ الأُولَى يَرْجُف بها كُلُّ شيء ، فوُصِفَت بما يَحدُث مِنها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ، وهي النَّفْخَة الأُولَى التي يَموت مِنها جميع الخلائق. والرَّاجِفَةُ صَيْحَة عظيمة فِيها تردُّد واضطراب، كالرعد إذا تَمَحَّضَ ، وتَرْجُف بمعنى تتحرَّك حركة شديدة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾[النَّازِعَات : ٧] .

تَتْبَعُها النَّفْخَةُ الثانية (نَفخة البَعْث) للقِيام مِن القُبور. وقد رَدِفَت النَّفخةَ الأُولَى، أي : جاءت بَعْدَها ، وكُل شيء جاء بعد شيء فهو يُرْدِفه ، والتَّرَادُف التَّتَابُع . والرَّاجفةُ هِيَ النَّفخةُ الأُولَى التي تُمِيت كُلَّ شيء بإذن الله تعالى ، والرَّادفة هي النَّفخة الثانية التي تُحيي كُلَّ شيء بإذن الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٠) : ((وقَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) ﴾ . قال ابن عَبَّاس:هُمَا النَّفختان الأُولَى والثانية ، وهكذا قال مُجاهد والحَسَن وقَتادة والضَّحاك وغَير واحد. وعن مُجاهد: أمَّا الأُولَى وهي قَوله جَلَّ وعَلا : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ فَكَقَوْله جَلَّتْ عَظَمَتُه : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ والجِبَالُ ﴾[المُزَّمل: ١٤] ، والثانية وهي الرَّادِفة ، فهي كَقَوْله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحَاقَّة : ١٤])) .

وعَن الطُّفَيل بن أُبَيِّ بن كَعْب عن أبيه _ رضي اللهُ عنه _ قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذَهَبَ رُبُعُ الليل قام فقال : ((يا أيُّها الناس ، اذكُروا اللهَ ، يا أيُّها الناس ، اذكُروا اللهَ ، يا أيُّها الناس ، اذكُروا اللهَ ، جاءت الرَّاجِفة ، تَتْبَعُها الرَّادِفة ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيه ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيه)) ، فقال أُبَيُّ بن كعب: يا رسول الله ، إنِّي أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيك، فَكَم أجْعَل لَكَ مِنها ؟، قال: ((ما شِئْتَ))، قال: الرُّبُع ؟، قال: ((ما شِئْتَ ، وإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَير لَك)) ، قال : النِّصْف ؟ قال : ((ما شِئْتَ وإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَير لَك)) ، قال : الثُّلُثَيْن ؟ ، قال : ((ما شِئْتَ ، وإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَير)) ، قال: يا رسول الله ، أجعلها كُلَّها لَكَ ؟ ، قال : ((إذًا تُكفَى هَمَّكَ ، ويُغفَر لَكَ ذَنْبُكَ))[٢٤٦].

كان النبيُّ ﷺ يُرشِد الناسَ إلى سَعادةِ الدُّنيا ونعيمِ الآخرة، ويُنبِّههم على ضرورة ذِكْر الله تعالى، وتَذَكُّر المَوت . جاءت الرَّاجِفةُ ، أي : أتى يَوم القِيامة ، وذلك بالنَّفخة الأُولَى التي يَموت لها الخلائق ، تَتْبَعها الرَّادفة ، وهي النَّفخة الثانية التي يَحْيَوْنَ لها مِن قُبورهم للحِساب والجَزاء . وأصلُ الرَّجْف الحركةُ والاضطراب . والنَّفخةُ الثانية يَحصُل بها البَعْث والنُّشُور ، وتكون رديفةً للنَّفْخَة الأُولَى .

جاءَ المَوت بما فيه مِن شِدَّة وصُعوبة ، ولا شَكَّ أنَّ سَكَرَات المَوت مُؤلِمة ومُوجِعة . وأيضًا ، ما يُصاحب المَوت مِن فِتنة، حَيث يَحضُر الشَّيطان. وبعد المَوت هُناك فِتنة القَبْر وسؤال المَلَكَيْن.

وكانَ الصحابيُّ أُبَي بن كعب _ رضي اللهُ عنه_ يُكثِر مِن الصَّلاة على النبيِّ ﷺ ، وقد سَأل عن مِقدَار ما يَجعل للنبيِّ ﷺ مِنها، وقد بيَّن له النبيُّ ﷺ أنَّه إذا صَرَفَ جميعَ زمان الدُّعاء في الصلاة عليه، فإنَّ الله يَكفيه ما أهَمَّه مِن أمر دِينه ودُنياه، لأنَّ الصَّلاة على النبيِّ ﷺ مُشتملة على ذِكْر الله وتعظيم النبيِّ ﷺ . وأيضًا ، يَغفِر له ذَنْبَه ، ويتجاوز عن خطيئته . وهذا دليل على أن الصلاة على النبيِّ ﷺ سبب في دَفْع الهُموم وغُفران الذُّنوب .

---

٢٤٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٧) برقم (٣٥٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والمقصود بالحديث هو الدُّعاء ، أي أن يَجعل دُعاءه صلاةً على النبيِّ ﷺ ، وليس أن يُصَلِّيَ للنبيِّ ﷺ الصلاةَ المعروفة ، فهذا مَعنى غَير مَقبول ولا مُراد .

وبشكل عام،إنَّ للنبيِّ ﷺ مِن الأجر كأجور جميع ما يَفعله المسلمون مِن العبادات والطاعات، لأنَّ هو الذي دَلَّهم على الخَير ، وأرشدهم إلى الهُدى ، وقادهم إلى الحق . ومَن دَلَّ على هُدى ، كان له مِثْل أُجور مَن تَبِعَه ، ولا يُنقَص مِن أُجورهم شيء .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ١٢٩ و١٣٠) عن إحدى روايات الحديث: ((قَوله (عن الطُّفَيل ابن أُبَي بن كَعْب) الأنصاري الخَزرجي ، كان يُقال له : أبو بَطْن لِعِظَم بَطْنه، ثِقَة. يُقال: وُلد في عَهْد النبيِّ ﷺ من الثانية (عن أبيه) هو أُبَي بن كَعْب بن قَيس الأنصاري الخَزرجي ، أبو المُنذِر سَيِّد القُرَّاء ، ويُكَنَّى أبا الطُّفَيل أيضًا، مِن فُضَلاء الصحابة . قَوله (يا أَيُّها الناس) أراد به النائمين من أصحابه الغافلين عن ذِكْر الله، يُنبِّههم عن النَّوم، ليشتغلوا بذِكْر الله تعالى والتَّهَجُّد (جاءت الرَّاجفة تَتْبَعُها الرَّادفة) قال في النهاية : الرَّاجفة النَّفْخَة الأُولَى التي يموت لها الخلائق . والرَّادفة النَّفخة الثانية التي يَحْيَوْنَ لها يوم القِيامة . وأصل الرَّجْف الحركة والاضطراب، انتهى . وفيه إشارة إلى قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ، وعَبَّرَ بصِيغة الماضي لتحقُّق وُقوعها ، فكأنها جاءت ، والمُراد أنَّه قَارَبَ وُقوعها ، فاستعدوا ، لتَهويل أمرها . (جاء الموت بما فيه) ، أي ما فِيه مِن الشَّدائد الكائنة في حالة النَّزْع والقَبْر ، وما بَعْدَه (جاء الموت بما فيه) التَّكرار للتَّأكيد (إنِّي أُكثِر الصَّلاةَ عَلَيك) أي أُريد إكثارها ، قاله القاري . ولا حاجه لهذا التأويل كما لا يَخفَى (فَكَم أجعل لَكَ مِن صَلاتي ؟) أي بَدَل دُعائي الذي أدعو به لنَفْسي ، قاله القاري . وقال المُنذري في التَّرغيب : معناه أُكثِر الدُّعاءَ ، فكَم أجعل لك مِن دعائي صَلاةً عَلَيك ؟ ، (قال : ما شِئْتَ) أي اجْعَلْ مِقدار مَشيئتك (قُلت : الرُّبُع ؟) بضَم الباء ، وتُسَكَّن ، أي : أجْعَل رُبُعَ أوقات دُعائي لنَفْسي مَصروفًا للصَّلاة عَلَيك ؟ ، (فَقُلْت : ثُلُثَي) هكذا في بعض النُّسَخ بحَذف النُّون . وفي بَعضها : فالثُّلُثَيْن ؟ ، وهو الظاهر (قُلت : أجعلُ لَكَ صَلاتي كُلَّها ؟) أي : أصْرِف بصَلاتي عَلَيك جميعَ الزمن الذي كُنتُ أدعو فيه لنَفْسي ؟ ، (قال : إذًا) بالتَّنوين (تُكفَى) مُخاطَب مَبني للمَفعول (هَمَّكَ) مَصْدَر ، بمعنى المَفعول ، وهو مَنصوب على أنه مَفعول ثانٍ لتُكفَى ، فإنَّه يتعدَّى إلى مَفعولَيْن ، والمَفعول الأوَّل المَرفوع بما لَم يُسَمَّ فاعله وهو أنت ، والهَمُّ ما يَقصِده الإنسان مِن أمر الدُّنيا والآخرة ، يعني : إذا صَرَفْتَ جَمِيعَ أزمان دُعائك في الصَّلاة عليَّ ، أُعْطِيتَ مَرَامَ الدُّنيا والآخرة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التَّكوير : ١] .

إذا الشَّمسُ اضْمَحَلَّتْ، ومُحِيَ ضَوْؤُها، وأظلمتْ . وبعد ذلك يُذهَب بها إلى حَيث شَاء اللهُ. وهذا يدل على شدائد يَوم القِيامة وأهواله المُخيفة،حَيث يَختل نظامُ الكَون، وينهار العَالَمُ ، ويُدمَّر.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٧و٣٨) : ((وفي قَوله تعالى : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ أربعة أقوال : أحدها أظلمتْ ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وكذلك قال الفَرَّاء : ذَهَبَ ضَوْؤُها ، وهذا قَول قَتادة ومُقاتل . والثاني ذَهَبَتْ ، رواه عَطِيَّة عن ابن عباس ، وكذلك قال مُجاهد : اضْمَحَلَّتْ . والثالث غُوِّرَتْ، رُوِيَ عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير وابن الأنباري ... والرابع أنَّها تُكَوَّر مِثل تَكوير العِمَامة، فَتُلَفُّ وتُمْحَى، قاله أبو عُبَيدة. قال الزَّجاج: ومَعنى ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جُمِعَ ضَوْؤُها، ولُفَّتْ كما تُلَفُّ العِمَامة. ويُقال: كَوَّرْتُ العِمَامَةَ على رأسي أُكَوِّرُها إذا لَفَفْتُهَا. قال المُفسِّرون: تُجْمَع الشَّمس بعضُها إلى بعض، ثُمَّ تُلَفُّ ويُرْمَى بها في البَحْر. وقِيل: في النَّار، وقِيل: تُعَاد إلى ما خُلِقَتْ مِنه)).

وعن ابن عباس قال : قال أبو بَكْر الصِّديق ـ رضي اللهُ عنه ـ لرسول الله : أراكَ قَد شِبْتَ ؟، قال : ((شَيَّبَتْني هُود ، والوَاقِعة ، و ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُون ﴾ ، و ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾)) [٢٤٧].

كان النبيُّ ﷺ يَقرأ القُرآنَ بعِناية واهتمام وفَهْم وتركيز وتدبُّر، لذلك شَيَّبَتْهُ بعضُ سُوَر القُرآن : سُورة هُود ، وسُورة الواقعة ، وسُورة النَّبأ ، وسُورة التَّكوير ، لِمَا وَرَدَ في هذه السُّوَر مِن أخبار القِيامة وأهوالها ، إضافةً إلى العذاب الذي أصابَ الأُممَ الماضية التي كَفَرَتْ بالله ، وكَذَّبَتْ رُسُلَه .

وقد لاحظَ أبو بَكْر الصِّديق ـرضي اللهُ عنهـ مِن شِدَّة اهتمامه بالنبيِّ ﷺ وحِرصه على صِحَّته وسلامته، أن الشَّعْرَ الأبيضَ بدأ يَظهر قبل أوانه. والذي ظَهَرَ في رأس النبيِّ ﷺ عدد محدود مِن الشَّعْر الأبيض. وبيَّن النبيُّ ﷺ أن سَبب الشَّيْب هو تِلك السُّوَر العظيمة ، التي تشتمل على ذِكْر عذاب الأمم السابقة وهلاكهم ، وذِكر أهوال يَوم القِيامة ، ودمار العَالَم ، وخَرَاب الدُّنيا ، وانهيار الكَون، وكأنَّ ذلك الشَّيْب بسبب خَوف النبيِّ ﷺ على أُمَّته ، وحِرصه عليها .

إن تدبُّر النبيِّ ﷺ للقُرآن ، وتأثُّره الشديد بسُوَره وآياته ، واهتمامه بما فيها مِن أهوال يوم القِيامة ، وعذاب الأُمَم الماضية ، مَلأَ قَلْبَه ، وسَيْطَرَ عَلَيه ، وأخذَ مِنه كُل مَأخَذ ، حتى شَابَ قَبل أوان الشَّيْب، خَوْفًا على أُمَّته، وإشفاقًا عَلَيها، وحِرْصًا على نجاتها. وهذا يدل على عَظَمَة النبيِّ ﷺ وعدم أنانيته ، فَهُوَ لم يترك أُمَّته وحيدةً لأنَّه ضَمِنَ الجَنَّةَ،وإنما يُفكِّر في نجاتها وإنقاذها وسعادتها.

---

٢٤٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٤) برقم (٣٣١٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٦٨) : (((شَيَّبَتْني هُود ، والواقعة ، والمُرسَلات ، و ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُون ﴾ ، و ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾) ، لِمَا فِيها مِن ذِكْر الأُمَم ، ومَا حَلَّ بِهِم مِن عَاجِل بأس الله ، فأهل اليَقين إذا تَلَوْهَا انكشفت لهم مِن مُلكه وسُلطانه وبَطْشه وقَهْره ما تُذهَل مِنه النُّفُوس، وتَشِيب مِنه الرُّؤوس، فَلَوْ ماتوا فَزَعًا لَحَقَّ لهم، لكنَّ الله لَطَفَ بِهم لإقامة الدِّين)) .

وفي نَفْس المرجع (٤/ ١٦٩) : (((شَيَّبَتْني هُود وأخواتها : الواقعة ، والقَارِعة ، والحَاقَّة ، و ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾) . قال العُلَماء : لعلَّ ذلك لِمَا فِيهنَّ مِن التَّخويف الفظيع، والوعيد الشديد، لاشتمالهنَّ معَ قِصَرهنَّ على حِكاية أهوال الآخِرة، وعجائبها، وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمُعذَّبين ، مَعَ ما في بعضهنَّ مِن الأمر بالاستقامة ، كما مَرَّ ، وهو مِن أصعب المَقامات ، وهو كمَقَام الشُّكر ، إذْ هو صَرْف العبد في كُل ذَرَّة ونَفَس جميع ما أنعم اللهُ به عليه مِن حَوَاسِّه الظاهرة والباطنة إلى ما خُلِقَ لأجله مِن عِبادة رَبِّه ، بما يليق بكُل جارحة مِن جَوارحه ، على الوجه الأكمل ، ولهذا لَمَّا قِيل للمُصطفى ﷺ ، وقد أجهدَ نَفْسَه بكثرة البُكاء والخَوف والضَّراعة : أتفعلُ هذا وقد غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تَأخَّر ؟ ، قال : " أفلا أكُون عَبْدًا شَكُورًا ". ومِن العَجَب أنَّ قَوله تعالى :﴿ وإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [طه : ٨٢] رُبَّما فَهِمَ مِنه مَن لَم يَتأمَّل أن فيه رجاءً عظيمًا ، وهَيْهَات ، فقد شَرَطَ تعالى للمُبالَغة في رَحمته أربعة شروط : التَّوبة ، والإيمان الكامل ، والعمل الصالح ، ثُمَّ سُلوك سَبيل المُهتدين مِن مُرَاقَبَة الله وشُهوده ، وإدامة الذِّكْر ، والإقبال على الله بقاله وحاله ودُعائه وإخلاصه)) .

وعن عبد الله بن عُمر ـ رضي اللهُ عنهما ـ أنَّه قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((مَن أَحَبَّ أن يَنظر إلى يوم القِيامة ، فَلْيَقْرَأ ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾)) [٢٤٨].

مَن أحبَّ أن يطَّلع على أهوال يَوم القِيامة وأحواله الصعبة ، وكأنَّه يَراها رَأيَ العَيْن ، فليقرأ سُورةَ التَّكوير ، لِمَا فِيها مِن وَصف يوم القِيامة ، وبيان أحداثه وأهواله وأحواله . ومَن أرادَ أن يَعرِف أحوالَ يَوم القِيامة ، ويَطَّلع على أحداث الآخِرة ، ويَعتبر ، ويتَّعظ ، ويتذكَّر ، فيجب عليه أن يَتَدَبَّر القُرآنَ ، ويَفهم آياته ، ويَستوعب عَظَمَةَ ألفاظه ومَعَانيه ، ويُدرك دِقَّةَ الوَصْفِ والتَّصوير .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا النُّجومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التَّكوير : ٢] .

وإذا النُّجومُ تساقطتْ مِن مَواضعها في السَّماء على الأرض،وتناثرت.وأصلُ الانكدار الانصباب.

---

٢٤٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٠) برقم (٣٩٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٤٦): ((أي : تناثرتْ مِنَ السَّماء ، وتساقطتْ على الأرض. يُقال : انكدرَ الطائرُ ، أي : سَقَطَ عَن عُشِّه . قال الكلبي وعطاء : تُمطِر السَّماءُ يَوْمَئِذ نُجُومًا ، فلا يَبْقَى نَجْمٌ إلا وَقَعَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التَّكوير : ٣] .

وإذا الجِبالُ قُلِعَتْ مِن الأرض ، وأُزِيلَتْ مِن أماكنها ، ونُسِفَتْ ، وسُيِّرَتْ في الهواء ، فصارت هَبَاءً مُنْبَثًّا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ ، يَعني : قُلِعَتْ مِن الأرض ، وسُيِّرَتْ في الهواء ، ... . وقِيل : سَيْرها تَحَوُّلها عَن مَنزلة الحِجارة ، فتَكُون كَثِيبًا مَهِيلًا ، أي : رَمْلًا سائلًا ، وتَكُون كالعِهْن ، وتَكُون هَبَاءً مَنثورًا ، وتَكُون سَرَابًا مِثل السَّراب الذي لَيس بشَيء ، وعادت الأرض قَاعًا صَفْصَفًا ، لا تَرى فِيها عِوَجًا ولا أَمْتًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التَّكوير : ٤] .

وإذا النُّوق الحوامل أُهْمِلَتْ مِن شِدَّة الهَوْل ، وتُرِكَتْ هَمَلًا بلا راعٍ ولا حَلْب ، مِن صُعوبة المَوقِف . لقد أهملها أهلُها بعدما كانوا حريصين عَلَيها، ومُتمسِّكين بها ، بسبب ما جاءهم مِن أهوال يَوم القِيامة التي شَغَلَتْهُم عَن كُل شيء .

وخُصَّت العِشَار بالذِّكْر ، لأنها أشرف الإبِل ، التي هي أنفَس أموال العرب ، وأعَزُّها عندهم ، وهي أغلى مُمتلكاتهم . ومالُ العرب وعَيْشهم أكثره مِن الإبِل .

وفي زاد المسير (٩/ ٣٨ و٣٩) : ((قال المُفسِّرون وأهلُ اللغة : العِشَار النُّوق الحوامل ، وهي التي أتى عليها في الحَمْل عشرة أشهر ، فقِيل لها : العِشَار ، لذلك . وذلك الوقت أحسن زمان حَمْلها ، وهي تَضَع إذا وَضَعَتْ لتَمام في سَنَة ، فهي أنفَس مال للعرب عِندهم ، فلا يُعطِّلونها إلا لإتيان ما يَشغَلهم عَنها، وإنما خُوطِبت العرب بأمر العِشَار، لأن أكثر عَيْشهم ومالهم مِن الإبِل، ومَعنى عُطِّلَتْ: سُيِّبَتْ وأُهْمِلَتْ ، لاشتغالهم عنها بأهوال القِيامة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦١١) : ((وقَوله : ﴿ وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ . قال عِكرمة ومُجاهد : عِشَار الإبِل . قال مُجاهد: ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تُرِكَتْ وسُيِّبَتْ . وقال أُبَيُّ بن كَعْب والضَّحاك : أهملها أهلُها . وقال الربيع بن خُثَيم : لَم تُحلَب ، ولَم تُصَر ، تَخَلَّى مِنها أربابُها. وقال الضَّحاك : تُرِكَتْ لا رَاعي لها . والمَعنى في هذا كُلِّه مُتقارب . والمَقصود أنَّ العِشَار مِن الإبِل ، وَهِيَ خِيَارها ، والحوامل مِنها ، التي قد وَصلت في حَمْلها إلى الشهر العاشر . واحدتها عُشَرَاء ، ولا يزال ذلك

اسمها حتى تَضَع. قد اشتغل الناسُ عَنها وعَن كَفالتها، والانتفاع بها، بعدما كانوا أرغب شيء فيها، بما دَهَمَهم مِن الأمر العظيم المُفظِع الهائل ، وهو أمر يَوم القِيامة ، وانعقاد أسبابها ، ووُقوع مُقدِّماتها . وقِيل : بَل يكون ذلك يَوم القِيامة ، يَراها أصحابُها كذلك، لا سبيل لهم إليها ، وقد قِيل في العِشَار إنَّها السَّحَاب تُعطَّل عن المَسير بين السماء والأرض لخَرَاب الدُّنيا . وقِيل إنَّها الأرض التي تُعشَر ، وقِيل إنَّها الدِّيار التي كانت تُسكَن تَعَطَّلَتْ لذهاب أهلها ، حكى هذه الأقوال كُلَّها الإمام أبو عبد الله القُرطبي في كتابه التَّذكرة ، ورجَّح أنَّها الإبِل ، وعَزَاه إلى أكثر الناس . قُلت : لا يُعرَف عن السَّلَف والأئمة سِوَاه ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التَّكوير : ٥] .

وإذا الوُحُوشُ جُمِعَتْ مِن كُل ناحيةٍ خائفةً مَذعورةً بسبب أهوال يَوم القِيامة ، مِن أجل القِصَاص ، حيث يُقْتَص لبَعض مِن بَعض ، ثُمَّ تصير تُرابًا . والوُحُوشُ ما تَوَحَّشَ مِن دَوَاب البَر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٩٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، أي: جُمِعَتْ. والحَشْر: الجَمْع، عَن الحَسَن وقَتادة وغَيرهما، وقال ابن عباس : حَشْرها مَوْتها ، رواه عَنه عِكرمة، وحَشْر كُل شيء: المَوت غَير الجِن والإنس، فإنهما يُوافِيان يَوْمَ القِيامة.وعن ابن عباس أيضًا قال : يُحشَر كُلُّ شيء حتى الذُّبَاب. قال ابن عباس: تُحشَر الوُحُوشُ غَدًا ، أي تُجمَع حتى يُقْتَص لبَعضها مِن بَعْض ، فيُقتَص للجَمَّاء _ التي لا قَرْنَ لها _ من القَرْنَاء ، ثُم يُقال لها : كُوني تُرَابًا ، فتموت . وهذا أصح مِمَّا رواه عنه عِكرمة ... . إنَّ الوُحُوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم . وقِيل : عُنِيَ بهذا أنَّها مَعَ نَفْرتها اليَوم مِن الناس ، وتندُّدها في الصَّحاري ، تنضم غدًا إلى الناس مِن أهوال ذلك اليَوم . قال معناه أُبَي بن كَعْب)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧) : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أهلها يَوم القِيامة ، حَتَّى يُقَاد للشَّاة الجَلْحَاء مِن الشَّاة القَرْنَاء)) .

أمرَ اللهُ بأداء الحُقُوق إلى أصحابها كاملةً غَير مَنقوصة ، وحُقُوق الله مَبنية على المُسَامَحَة ، وحُقوق العِبَاد مبنية على المُشَاحَّة . وإذا قصَّر الناسُ في أداء الحُقوق إلى أصحابها في الدُّنيا ، فإنَّهم سَيُؤَدُّونها يَوم القِيامة بالحَسَنَات ، حيث لا يُوجد دِرهَم ولا دِينار ، حتَّى إنَّه يُقْتَص للشَّاة التي لَيس لها قَرْن مِن الشَّاة التي لها قَرْن ، لأنَّ الشَّاةَ القَرناءَ إذا ناطحت الجَلْحَاءَ تؤذيها وتضرُّها.

وفي يَوم القِيامة ، يَقضي اللهُ بين هاتَيْن الشَّاتَيْن ، معَ أنهما مِن البهائم التي لا تَعقِل ولا تَفهَم. لكنَّ الله حاكمٌ عادل ، وحَكَمٌ مُنصِف .

والحديثُ دليل على أن البهائم تُحشَر يَوم القِيامة ، وأن كُل شيء مَكتوب ، حتى أعمالُ البهائم مكتوبة في اللوح المحفوظ ، ولا شيء يضيع . لذلك ، يجب أداء الحُقوق إلى أصحابها في الدُّنيا ، لأنَّ أداءها سهل وبسيط . أمَّا في الآخِرة فأداء الحُقوق يكون صعبًا لأنَّه بالحَسَنَات .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٦ و١٣٧) : ((هذا تَصريح بحَشْر البهائم يَوم القِيامة ، وإعادتها يَوم القِيامة ، كما يُعاد أهل التَّكليف مِن الآدميين، وكما يُعاد الأطفال والمَجانين ، ومَن لَم تَبْلُغْه دَعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القُرآن والسُّنَّة. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ . وإذا وَرَدَ لفظُ الشَّرع ، ولَم يَمنع مِن إجرائه على ظاهره عَقْل ولا شَرْع ، وَجَبَ حَمْلُه على ظاهره . قال العلماء : وليس مِن شَرط الحَشْر والإعادة في القِيامة المُجازاة والعِقاب والثَّواب، وأمَّا القِصَاص مِن القَرْناء للجَلْحَاء فليس هو مِن قِصاص التَّكليف، إذْ لا تَكليف عليها، بَل هو قِصَاص مُقابَلَة ، والجَلْحَاء بالمد هي الجَمَّاء التي لا قَرْنَ لها ، والله أعلم)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، قال : ((حَشْر البَهائمِ مَوْتُها ، وحَشْرُ كُلِّ شَيء المَوْتُ ، غَيْرِ الجِنِّ والإنسِ)) [٢٤٩].

يَعتبر ابنُ عباس أن جَمْع البهائم وحَشْرها عِبارة عن مَوتها ، وحَشْر كُلُّ شيء سِوى الثَّقَلَيْن الجِن والإنس ، هو المَوت ، لأنَّ الجِن والإنس يُوافِيان يَوم القِيامة ، ويُوقَفَان للحِسَاب والجَزَاء . والجِنُّ كالإنس في التَّكليف والعِبادات ، مؤمنهم يَدخل الجَنَّة ، وكافرهم يَدخل النارَ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التَّكوير : ٦] .

وإذا البِحَارُ أُوقِدَتْ فاشتعلتْ ، وصارت نارًا تَضطرم وتَلتهب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٩) : ((وفي المعنى ثلاثة أقوال : أحدها أُوقِدَتْ فاشتعلتْ نارًا ، قاله عليٌّ وابن عباس . والثاني يَبِسَتْ ، قاله الحَسَن . والثالث مُلِئَتْ بأنْ صارت بحرًا واحدًا ، وكَثُرَ ماؤها ، قاله ابن السائب والفَرَّاء وابن قُتَيبة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التَّكوير : ٧] .

وإذا النُّفُوسُ قُرِنَتْ بأمثالها وأشباهها ، وأُلْحِقَ كُلُّ إنسان بشَكْله ونَظيره ، حَيث يُقرَن الرَّجُل الصالح معَ الرَّجُل الصالح في الجَنَّة ، ويُقرَن الرَّجُل الفاسد معَ الرَّجُل الفاسد في النار . وقِيل : قُرِنَت الأجسادُ بالأرواح .

---

٢٤٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٠) برقم (٣٩٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها قُرِنَتْ بأشكالها ، قاله عُمر _ رضي اللهُ عنه _ ، الصالح مع الصالح في الجَنَّة ، والفاجر مع الفاجر في النار ، وهذا قول الحَسن وقَتادة . والثاني رُدَّت الأرواحُ إلى الأجساد ، فَزُوِّجَتْ بها ، قاله الشَّعبي ، وعن عِكرمة كالقَوْلَيْن . والثالث زُوِّجَتْ أنفُس المُؤمنين بالحُور العِين ، وأنفُس الكافرين بالشَّياطين ، قاله عَطاء ومُقاتل)) .

وعن عُمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه_ في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، قال: ((هُمَا الرَّجُلان يَعْمَلان العملَ يَدْخُلان به الجَنَّةَ والنارَ،الفاجرُ مَعَ الفاجر،والصالحُ مَعَ الصالح))[٢٥٠].

هذا تفسير عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ للآية ، فهو يَعتبر أن تَزويج النُّفُوس اقترانها بأشباهها وأمثالها ، حَيث يُقرَن بين الفاجر والفاجر في النَّار ، والصالح والصالح في الجَنَّة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ [التَّكوير : ١١] .

وإذا السَّماءُ قُلِعَتْ مِن مَوضعها كما يُكْشَط الغِطاءُ عَن الشَّيء ، ونُزِعَتْ مِن مَكانها ، كما يُنزَع الجِلْدُ عَن الشَّاة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٠٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ . الكَشْط : قَلْع عَن شِدَّة التزاق ، فالسَّماء تُكشَط كما يُكشَط الجِلْدُ عَن الكَبْش وغَيْرِه . والقَشْط لُغة فِيه ، وفي قراءة عبد الله (وإذا السَّماء قُشِطَتْ) . وكَشَطْتُ البَعِيرَ كَشْطًا : نَزَعْتُ جِلْدَه ، ولا يُقال : سَلَخْتُه ، لأن العرب لا تقول في البَعير إلا كَشَطْتُه ، أوْ جَلَدْتُه ، وانكشطَ : أي ذَهَبَ . فالسَّماءُ تُنزَع مِن مَكانها ، كما يُنزَع الغِطاء عَن الشَّيء ، وقِيل : تُطوَى ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، فكأن المعنى : قُلِعَتْ فَطُوِيَتْ ، والله أعلم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٤٠و٤١): ((﴿ وإذا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ . قال الفَرَّاء: نُزِعَتْ فَطُوِيَتْ. وفي قراءة عبد الله : (قُشِطَتْ) بالقاف، وهكذا تقوله قَيس وتميم وأسد بالقاف ، وأمَّا قُرَيش فتَقوله بالكاف ، والمعنى واحد . والعرب تَقول : القافور والكافور ، والقِسْط والكِسْط، وإذا تقاربَ الحَرفان في المَخرَج ، تَعَاقَبَا في اللغات ، كما يُقال : حدث وحدت ، قال ابن قُتَيبة: كُشِطَتْ كما يُكشَط الغِطاء عَن الشَّيء ، فَطُوِيَتْ . وقال الزَّجاج : قُلِعَتْ كما يُقْلَع السَّقْف)) .

---

٢٥٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٠) برقم (٣٩٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التَّكوير : ١٢] .

وإذا النارُ أُوقِدَتْ ، وأُحْمِيَتْ ، لتعذيب الكافرين أعداءِ الله تعالى . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٠٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ ، أي : أُوقِدَتْ ، فأُضْرِمَتْ للكُفَّار، وزِيدَ في إحمائها ... . قال قَتادة : سَعَّرَها غضبُ الله وخطايا بني آدم . و [في التِّرمذي عن أبي هُرَيرة عن النبيِّ ﷺ قال: " أُوقِدَ على النار ألفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوداءُ مُظْلِمَة "[٢٥١]] ورُوِيَ موقوفًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التَّكوير : ١٣] .

وإذا الجَنَّةُ أُدْنِيَتْ ، وقُرِّبَتْ إلى أهلها المؤمنين الأتقياء حَتَّى يَرَوْها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٥٠) : ((﴿ وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ، أي : قُرِّبَتْ إلى المُتَّقين، وأُدْنِيَتْ مِنهُم. قال الحسن: إنَّهُم يَقْرُبُون مِنها لا أنَّها تَزُول عَن مَوضعها . وقال ابن زَيد : مَعنى ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ تَزَيَّنَتْ ، والأوَّل أَوْلَى ، لأنَّ الزُّلْفَى في كلام العرب القُرْب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : ١] .

إذا السَّماءُ انشقَّت بأمر الله تعالى ، لنُزول المَلائكة الكِرَام . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٥٦) : ((قال الواحدي : قال المُفسِّرون : انفطارها انشقاقها ، كقَوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

---

٢٥١ الحديث ضعيف. قال التِّرمذي في سُننه (٤/ ٧١٠): ((حديث أبي هريرة في هذا مَوقوف أصَح ، ولا أعلم أحدًا رَفَعَه غَير يحيى بن أبي بُكَير عن شَريك . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب)). وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٨٠) : (((أُوقِدَ على النار) أي نار جهنَّم (ألف سنة حتى احمرَّت) بعدما كانت شفَّافة لا لَوْنَ لها ، ولا تُرى ، والظاهر أنه أراد بالألف فيه وفيما يأتي التكثير ، وأن المراد الزمن الطويل (ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حتى ابْيَضَّت ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حتى اسْوَدَّت ، فهي سَوداءُ مُظلِمة كالليل المظلِم). والقصد الإعلام بفظاعتها والتحذير مِن فِعْل ما يُؤَدِّي إلى الوُقوع فيها . قال الطيبي : هذا قريب مِن قَوله تعالى :﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[التَّوبة : ٣٥]. أي : يُوقَد الوَقُود فوق النار، أي النار ذات طبقات، تُوقَد كُل طَبَقَة فوق أُخرى، اهـ. وقِيل : ما خَلَقَ اللهُ النارَ إلا مِن كَرَمه ، جَعَلَها اللهُ سَوْطًا يَسُوق به المؤمنين إلى الجنَّة . وقال بعضُهم: النار أربعة: نار لها نُور بلا حُرقة وهي نار مُوسى عليه الصلاة والسلام ، ونار لها حُرقة ولا نُور لها ، وهي نار جهنَّم ، ونار لها حُرقة ونُور وهي نار الدُّنيا ، ونار لا حُرقة ولا نُور وهي نار السِّحْر)) .

السَّماءُ بالغَمَامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تَنزيلًا ﴾ [الفُرقان : ٢٥] . والفَطْر : الشَّق ، يُقَال: فَطَرْتُه ، فانفطرَ ، ومِنه فَطَرَ نابُ البعير : إذا طَلَعَ ، قِيل : والمُراد أنَّها انفطرتْ هُنا لنُزول المَلائكة مِنها، وقِيل: انفطرتْ لِهَيْبَة الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الكواكبُ انتثرَتْ ﴾[الانفطار : ٢] .

وإذا الكواكبُ تساقطتْ مُتفرِّقةً . وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠/ ٢٧) : ((أي : وإذا النُّجُومُ تساقطتْ وتناثرتْ ، وزالت عن بُروجها وأماكنها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : ٣] .

وإذا البِحَارُ فُتِحَ بعضُها إلى بعض ، فصارتْ بحرًا واحدًا ، واختلطَ عَذبُها بمالحها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ، أي : فُجِّرَ بعضُها في بعض، فصارت بحرًا واحدًا. قال الحسن: ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ ذَهَبَ ماؤها، ويَبِسَتْ ، وذلك أنَّها أوَّلًا راكدة مُجتمعة،فإذا فُجِّرَتْ تفرَّقتْ،فَذَهَبَ ماؤها،وهذه الأشياء بَيْن يَدَي السَّاعة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : ٤] .

وإذا القُبُورُ تحرَّكت ، وقُلِبَ تُرابُها ، وأُخْرِجَ الأموات الذين فِيها أحياءً . أي : قُلِبَ تُرابُها ، وبُعِثَ مَوْتاها. وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٧٧): ((وقَوله: ﴿ وإذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ، يقول: وإذا القُبور أُثيرت ، فَاسْتُخْرِجَ مَن فِيها مِن المَوتى أحياءً . يُقال : بَعْثَرَ فُلانٌ حَوْضَ فُلان : إذا جَعَلَ أسفله أعلاه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١] .

إذا السَّماءُ تشقَّقتْ ، وتقطَّعتْ ، وتصدَّعتْ ، مِن هَول يَوم القِيامة . وهذا يدل على خَرَاب العَالَم، وانهيار نظام الكَون،وتحطُّم عناصر الوُجود. وانشقاقُ السَّماء مِن أشراط السَّاعة وعلاماتها.

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ ﴾ ، أي : انصدعتْ، وتفطَّرتْ بالغَمَام ، والغَمَام مِثل السَّحاب الأبيض ، وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس، وروى عن عليٍّ عليه السلام قال : تُشَقُّ مِن المَجَرَّة ، وقال : المَجَرَّة باب السَّماء ، وهذا مِن أشراط السَّاعة وعلاماتها)) اهـ . وعن ابن عُمر رضي اللهُ عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((مَن سَرَّهُ أن يَنظر إلى يَوم القِيامة كأنَّه رَأيُ عَيْن ، فَلْيَقْرَأ : ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ إذا السَّماءُ انفَطَرَتْ ﴾ ، و ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ ﴾)) [٢٥٢].

---

٢٥٢ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٠) برقم (٨٧١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مَن أحبَّ أن يَنظر إلى شدائد يَوم القِيامة ، وأحداثه الرهيبة ، وأهواله العظيمة ، فيرى تلك الأشياء كأنها أمامه ، فليقرأ سُورةَ التَّكوير ، وسُورةَ الانفطار ، وسُورةَ الانشقاق ، لِمَا فِيها مِن وَصف دقيق لأحداث يَوم القِيامة وأحواله وأهواله .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٢] .

واستمعت السَّماءُ لِرَبِّها ، وأطاعتْ أمرَ اللهِ بالانشقاق ، وخَضَعَتْ لِحُكمه . وحُقَّ لها أن تُطيع أمرَ الله ، وتَخضع له ، لأنَّ اللهَ خالقُها ، وخالقُ كُلِّ شَيء ، ولا شيء يقف أمام إرادته ومشيئته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٢٨) : ((يَقول تعالى : ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ ﴾ ، وذلك يَوم القِيامة ، ﴿ وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ ، أي : استمعت لِرَبِّها ، وأطاعتْ أمْرَه فيما أمَرَها بِه مِن الانشقاق ، وذلك يَوم القِيامة ، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ ، أي : وحُقَّ لها أن تُطِيع أمْرَه ، لأنَّه العظيم الذي لا يُمَانَع ، ولا يُغَالَب ، بَل قَد قَهَرَ كُلَّ شيء ، وذَلَّ له كُلُّ شيء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣] .

وإذا الأرضُ بُسِطَتْ ، وسُوِّيَتْ ، وصارتْ واسعةً ، ولَم يَبْقَ عليها بناء ولا جبل .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٣٦): ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ ، أي : بُسِطَتْ ودُكَّتْ جِبَالُها. قال النبيُّ ﷺ : " تُمَدُّ مَدَّ الأديم " ، لأنَّ الأديم (ظَاهِر كُلِّ شيء) إذا مُدَّ زَالَ كُلُّ انثناء فيه ، وامتدَّ واستوى . قال ابن عباس وابن مسعود : ويُزاد وُسعتها كذا وكذا لِوُقوف الخلائق عليها للحِساب ، حَتَّى لا يكون لأحد مِن البشر إلا مَوضِع قَدَمِه، لكَثرة الخَلائق فِيها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٧٤) : ((﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ ، أي : بُسِطَتْ كَما تُبسَط الأَدَم (جَمْع أديم) ، ودُكَّت جِبَالُها حَتَّى صارت قاعًا صَفصفًا ، لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أَمْتًا. قال مُقاتل : سُوِّيَتْ كَمَدِّ الأديم ، فلا يَبْقَى عليها بناء ولا جبل ، إلا دَخَلَ فِيها . وقِيل: ﴿ مُدَّتْ ﴾ زِيدَ في سَعَتها ، مِن المَدَد ، وهو الزِّيادة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وألْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٤] .

وَرَمَت الأرضُ ما في بَطْنها مِن الأموات عَلى ظَهْرها ، وتخلَّتْ عَنهُم . أوْ : رَمَت الأرضُ ما في جَوْفها مِن الأموات والكُنوز والمعادن ، وَخَلَتْ عمَّا فيها ، حَتَّى لَم يَبْقَ في جَوْفها شيء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٣٧): ((قَوله تعالى : ﴿ وألْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ﴾ ، أي: أَخرجتْ أمواتَها، وَتَخَلَّتْ عَنهُم. وقال ابن جُبَير: أَلْقَتْ ما في بَطْنها مِن المَوْتى، وتَخَلَّتْ مِمَّن على ظَهْرها مِن الأحياء. وقِيل: أَلْقَتْ ما في بَطْنها مِن كُنوزها ومَعادنها، وتَخَلَّتْ مِنها، أي: خَلا جَوْفُها ،

فليس في بَطْنها شيء، وذلك يُؤْذِن بعِظَم الأمر، كما تُلْقِي الحَامِلُ ما في بَطْنها عِند الشِّدة. وقِيل: تَخَلَّتْ مِمَّا على ظَهْرها مِن جِبالها وبِحارها. وقِيل : أَلْقَتْ ما اسْتُوْدِعَتْ ، وتَخَلَّتْ مِمَّا اسْتُحْفِظَتْ، لأنَّ الله تعالى استودعها عِبادَه أحياءً وأمواتًا ، واستحفظها بلادَه مُزَارَعَةً وأقواتًا)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ (١) وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ . قال : ((سَمِعَتْ)) . ﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ ، قال : ((يَوم القِيامة)) ، ﴿ وألْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ﴾ ، قال : ((أَخْرَجَتْ مَا فِيها مِن المَوْتى)) [٢٥٣].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٥] .

واستمعت الأرضُ في إلقاء مَوْتاها والتَّخَلِّي عَنهُم ، لِرَبِّها ، وأطاعتْ أمرَ اللهِ ، وخَضَعَتْ لِحُكمه . وحُقَّ لها أن تُطيع أمرَ الله، وتَخضع له، لأنَّ اللهَ خالقُها، وخالقُ كُلِّ شَيء ، ولا شيء يقف أمام إرادته ومشيئته .

وجواب ﴿ إذا ﴾ مَحذوف للتَّهويل . والمعنى : إذا حَدَثَت هذه الأشياءُ ، لَقِيَ الإنسانُ الشدائدَ والأهوالَ ، التي لا يُمكن تخيُّلها ولا تصوُّرها ، ويَرى الإنسانُ الثوابَ والعِقابَ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٠٦) : ((وقَوله : ﴿ وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، يقول : وسَمِعَت الأرضُ في إلقائها ما في بَطْنها مِن المَوْتى إلى ظَهْرها أحياءً أمرَ رَبِّها،وأطاعت ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ يقول: وحقَّقها اللهُ للاستماع لأمره في ذلك، والانتهاء إلى طاعته)) اهـ. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٨):((﴿ وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء والتَّخَلِّي، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ للإذن . وتكرير ﴿ إذا ﴾ لاستقلال كُل مِن الجُمْلَتَيْن بنَوع مِن القُدرة ، وجوابه مَحذوف للتَّهويل بالإبهام ، ...)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٣): ((واختلفوا في جواب هذه الأشياء المَذكورات على أربعة أقوال : أحدها أنَّه مَتروك، لأن المعنى مَعروف قد تردَّد في القُرآن . والثاني أنَّه ﴿ يا أيُّها الإنسانُ ﴾ ، كقَول القَائل: إذا كان كَذا وكَذا ، فيا أيُّها الناسُ تَرَوْنَ ما عَمِلْتُم ، فيَجعل ﴿ يا أيُّها الإنسانُ ﴾ هُوَ الجَواب ، وتُضمَر فيه الفَاء ، كأن المعنى: يَرى الثوابَ والعِقابَ ﴿ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ ﴾ ، وذَكَرَ القَوْلَيْن الفَرَّاءُ . والثالث أنَّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا تقديره : " يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ إذا السَّماءُ انشَقَّتْ " ، قاله المُبَرِّد . والرابع أنَّ الجواب مَدلول عَلَيه بقَوله تعالى: ﴿ فَمُلاقِيهِ ﴾ ، فالمعنى: إذا كانَ يَوم القِيامة لَقِيَ الإنسانُ عَمَلَه، قاله الزَّجاج)) .

---

٢٥٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٣) برقم (٣٩١٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا إذا دُكَّتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفَجْر : ٢١] .

﴿ كَلَّا ﴾ لرَدْع الغافلين ، وزَجْرهم ، وتَنبيههم على خُطورة المَوقِف ، فأمامهم أهوال عظيمة في يَوم القِيامة الرهيب ، إذا زُلْزِلَت الأرضُ ، وحُرِّكَتْ تحريكًا شديدًا مُتتابعًا ، وكُسِّرَ كُل شيء على ظَهْرها مِن جَبل وبناء وشجر ، فلم يَبْقَ على ظَهْرها شيء ، وصارت الأرضُ سطحًا أمْلَس ، وقامَ الناسُ مِن قُبورهم لله رَبِّ العَالَمِين . وهذه الأُمورُ تَحدُث للأرض عِند النَّفْخَة الثانية .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٤٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ ، أي : ما هكذا يَنبغي أن يَكون الأمرُ ، فهو رَد لانكبابهم على الدُّنيا ، وجَمْعهم لها ، فإنَّ مَن فَعَلَ ذلك يَندَم يَوم تُدَكُّ الأرضُ، ولا يَنفع الندمُ، والدَّكُّ: الكَسْر والدَّق، أي: زُلْزِلَت الأرضُ ، وحُرِّكَتْ تَحريكًا بَعد تَحريك. وقال الزَّجاج : أي زُلْزِلَتْ ، فَدَكَّ بعضُها بعضًا ، وقال المُبَرِّد : أي أُلْصِقَتْ وذَهَبَ ارتفاعها ، ... .

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ ، أي : مَرَّةً بعد مَرَّةً ، زُلْزِلَتْ ، فَكَسَّرَ بَعْضُها بعضًا ، فَتَكَسَّرَ كُلُّ شيء على ظَهْرها. وقِيل : دُكَّتْ جِبَالُها وأنشازها حتى اسْتَوَتْ ، وقِيل : دُكَّتْ ، أي : اسْتَوَتْ في الانفراش ، فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها ، ومِنه سُمِّيَ الدُّكَّان ، لاستوائه في الانفراش . والدَّكُّ : حَط المُرتفع مِن الأرض بالبَسْط ، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تُمَدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ١] .

إذا حُرِّكَت الأرضُ مِن أسفلها (أصلها) تحريكًا عنيفًا ، واهْتَزَّتْ اهتزازًا شديدًا ، يُخِيف النُّفوسَ ، ويَبعث الهلعَ في القُلوب. وبعبارة أُخرى، إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلْزَالَها الشديد،الذي لا شَيء فَوقه ، ولَيْسَ بَعده زِلزَال .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠١ و٢٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، أي : حُرِّكَت حَرَكةً شديدةً ، وذلك عِند قِيام السَّاعة ، وقال مُقاتل: تتزلزل مِن شِدَّة صَوت إسرافيل، حَتَّى يَنكسر كُلُّ ما عَلَيها مِن شِدَّة الزَّلْزَلَة ، ولا تَسْكُن حَتَّى تُلْقِي ما على ظَهْرها مِن جبل أو بناء أو شجر ، ثُم تتحرَّك وتضطرب ، فتُخْرِج ما في جَوْفها . وفي وَقْت هذه الزَّلْزَلَة قَولان : أحدهما تكون في الدُّنيا ، وهي مِن أشراط السَّاعة ، قاله الأكثرون . والثاني أنَّها زَلْزَلَة يَوم القِيامة ، قاله خارجة بن زيد في آخرين)) .

وإضافةُ الزِّلْزَال إلى الأرض: ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ للتَّخويف والتَّهويل. والمعنى: الزِّلزال الذي يَلِيق بالأرض عَلى عِظَم حَجْمها، وسَعَة مساحتها، وذلك عِند قِيام السَّاعة ، حَيث تُحرَّك الأرضُ تحريكًا شديدًا مُتتابعًا، ويَنهار نظام الحياة عليها،ولا تهدأ حتى تُلقي ما على سَطْحها مِن جَبل وبناء وشجر.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٧٩) : ((قَوله : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، أي: إذا حُرِّكَتْ حَركةً شديدةً ، وجواب الشَّرْط : تَحْدُث ، والمُراد تَحرُّكها عِند قِيام السَّاعة ، فإنَّها تَضطرب حتى يتكسَّر كُل شيء عليها . قال مجاهد : وهي النَّفْخَة الأولى لقَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) ﴾ ، وذِكْرُ المَصْدَر للتأكيد ، ثُمَّ أضافه إلى الأرض ، فهو مَصْدَر مُضاف إلى فاعله، والمعنى: زِلْزَالها المَخصوص الذي يَستحقه ويَقتضيه جُرْمها وعِظَمها)).

[وعن عبد الله بن عَمْرو قال : نَزلت ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، وأبو بَكْر الصِّديق _ رَضِيَ اللهُ عنه _ قاعدٌ ، فبكى أبو بَكْر ، فقال له رسولُ الله ﷺ : " مَا يُبْكِيكَ يا أبا بَكْر ؟ " . فقال: أبْكَتْني هَذه السُّورة،فقال رسول الله ﷺ: " لَوْ أنَّكُم لا تُخْطِئون، ولا تُذنِبون، لَخَلَقَ اللهُ تعالى أُمَّةً مِن بَعْدكم يُخطِئون ويُذنِبون ، فيَغفِر لهم "] [٢٥٤].

يدلُّ الحديثُ على شِدَّة تأثُّر أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه _ بالقُرآن الكريم ، وتدبُّره لآياته ، وفَهْمه العميق للأحداث العظيمة الواردة فيه ، فقد بكى بعدما فَهِمَ سُورةَ الزَّلزلة مُتَأثِّرًا بما وَرَدَ فيها مِن آيات عظيمة،وأحداث شديدة،وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أن الناس لَوْ لَم يُخطِئوا، ولَم يُذنِبوا ، لَخِيفَ عَلَيهم العُجْب والغُرور، وعندئذٍ، يَأتي اللهُ بأُمَّة يُخطِئون ويُذنِبون، فيَغفِر لهم، ويَتوب عليهم، لأنَّ الله يُحِبُّ مِن عَبده مَقام العُبودية القائم على الذُّل لله معَ تعظيمه وحُبِّه . والحديثُ لا يَدعو الناسَ إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي، وإنما يُبيِّن عَفْوَ الله ورحمته بعباده ، وتجاوزه عن المُذنِبين التائبين. وهذه دَعوة لكُل المُذنِبين أن يَعودوا إلى الله تائبين نادمين ، وعَدم اليأسِ والقُنوطِ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ٢] .

وألْقَت الأرضُ ما في جَوْفها مِن الأمواتِ على ظَهْرها أحياءً .

والجديرُ بالذِّكْر أن الله لَم يَقُلْ : وأخرجتْ أثقالَها، وإنَّما قال : ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ ، وإظهار الأرض في مَوضع الإضمار لزيادة التَّقرير والتَّوكيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما ما فِيها مِن المَوْتى ، قاله ابن عباس . والثاني كُنوزها ، قاله عَطِيَّة ، وجَمَعَ الفَرَّاء بَيْن القَوْلَيْن ، فقال : لَفَظَتْ ما فِيها مِن ذَهَب أوْ فِضَّة أوْ مَيْت)) .

---

٢٥٤ قال الهيثمي في مَجمَع الزوائد (٧/ ٢٩٧) : ((رواه الطبراني ، وفيه حُيَي بن عبد الله الْمَعَافري ، وثَّقه ابن مَعِين وغَيْرُه ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠١) : عن أبي هُرَيرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها ، أمثالَ الأُسطُوانِ مِن الذَّهَبِ والفِضَّة ، فَيَجِيءُ القاتلُ فيَقول : في هذا قَتَلْتُ ، ويجيء القاطعُ فيَقول : في هذا قَطَعْتُ رَحِمي ، ويجيء السَّارِقُ فيَقول : في هذا قُطِعَتْ يَدِي ، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فلا يَأخذون مِنهُ شيئًا)) .

تُخْرِجُ الأرضُ الكُنوزَ المَدفونةَ فيها ، فيأتي القاتلُ فيَقول : بسبب هذا قَتَلْتُ الأنفُسَ، ويأتي قَاطِعُ الرَّحِم فيَقول : بسبب هذا قَطَعْتُ رَحِمي ، ويأتي السارقُ فيَقول : بسبب هذا قُطِعَتْ يَدِي ، ثُمَّ يَتركون ما أَلْقَتْهُ الأرضُ مِن الكُنوز والجواهر والمعادن ، لأنَّه لا يَنفع حينئذ .

وهذا يدل على أن حُب المال الشَّديد قَد يكون سببًا في اقتراف الذُّنوب ، وارتكاب الجرائم، كقَتل النَّفْس وقَطْع الرَّحِم . وسَوْفَ يأتي يومٌ يُصبح فيه المال بلا قيمة ولا أهمية . ومِن علامات السَّاعة الصُّغرى التي لَم تقع بَعْد ، إخراج الأرض كُنوزَها المَدفونة وجواهرها المَخبوءة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٩٨) : ((قال ابن السِّكِّيت : الفِلْذ القِطْعة مِن كَبِد البَعير ، وقال غَيْرُه : هي القِطعة مِن اللحم . ومعنى الحديث التَّشبيه ، أي : تُخرِج ما في جَوْفها مِن القِطَع المَدفونة فيها ، والأُسطُوان بضم الهمزة والطاء ، وهو جَمْع أُسطوانة ، وهي السَّارية والعمود ، وشبَّهه بالأُسطُوان لِعِظَمه وكَثرته)) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٣٧٥) : ((قَوله (تَقِيء الأرض) مُضارع مِن القَيْء ، أي : تُلقي الأرضُ (أفلاذَ كَبِدها) قال القاري : بفتح الهمزة جَمْع الفِلْذة وهي القِطْعة المَقطوعة طُولًا ، وسُمِّيَ ما في الأرض كَبِدًا تشبيهًا بالكَبِد التي في بَطْن البَعير ، لأنَّها أحب ما هو مُخبَّأ فيها، كما أن الكَبِد أطْيَب ما في بَطْن الجَزُور، وأحَبُّه إلى العرب. وإنَّما قُلنا : في بَطْن البعير، لأن ابن الأعرابي قال : الفِلْذة لا تكون إلا للبَعير ، فالمعنى: تُظهِر كُنوزَها ، وتُخرِجها مِن بُطونها إلى ظُهورها ، انتهى . (أمثال الأُسطُوان) بضَم الهمزة والطاء . وقَوله (مِن الذَّهَب والفِضَّة) لبيان مُجمَل الحال . قال القاضي رحمه الله : معناه أن الأرض تُلْقِي مِن بَطْنها ما فيه مِن الكُنوز ، وقِيل: ما وَسِخَ فِيها مِن العُروق المعدنية ، ويدل عليه قَوله : (أمثال الأُسطُوانة) ، وشبَّهها بأفلاذ الكَبِد هَيئةً وشكلًا ، فإنَّها قِطَع الكَبِد المَقطوعة طُولًا (قُطِعَتْ يَدِي) بصِيغة المجهول (ويجيء القاتل) أي: قاتل النَّفْس (في هذا) أي في طَلَب هذا الغَرَض لأجل تحصيل هذا المَقصود (قَتَلْتُ) أي مَن قَتَلْتُ مِن الأنفُس (ويجيء القَاطِع) أي : قَاطِع الرَّحِم (ثُمَّ يَدَعُونه) بفَتْح الدال ، أي : يَتركون ما قَاءَتْهُ الأرضُ مِن الكَنز أوْ المَعْدِن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الإنسانُ مَا لَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ٣] .

الاستفهامُ للتَّعَجُّب والاستغراب . وقال الإنسانُ : ما للأرض حُرِّكَتْ تحريكًا عنيفًا شديدًا ، وأخرجتْ أمواتَها وكُنوزَها . وهذا الكلامُ يدلُّ على دَهشة الإنسان وتعجُّبه مِن هذه الحال الفظيعة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٩٧): ((وقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وقالَ الإنسانُ مَا لَهَا ﴾ ، أي: استنكرَ أمرَها بعدما كانت قَارَّةً ساكنة ثابتة ، وهو مُستقِر على ظَهْرها ، أي : تَقَلَّبَت الحالُ ، فصارت مُتحركة مُضطربة ، قد جاءها مِن أمر الله تعالى ما قد أعَدَّه لها مِن الزِّلزال ، الذي لا مَحِيد لها عنه ، ثُمَّ ألْقَتْ ما في بَطْنها مِن الأموات مِن الأوَّلين والآخِرين ، وحينئذ استنكرَ الناسُ أمرَها ، وتُبدَّل الأرض غَير الأرض والسماوات ، وبَرَزُوا لله الواحد القَهَّار)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٣٥٢) : ((﴿ وقالَ الإنسانُ مَا لَهَا ﴾ زُلْزِلَتْ هذه الزَّلزلة الشديدة ، ولَفَظَتْ ما في بَطْنها ، وذلك عِند النَّفْخة الثانية ، حِين تُزَلْزَل ، وتَلْفِظ مَوْتاها أحياءً ، فيَقولون ذلك لِمَا يُبْهِرهم مِن الأمر الفظيع ، كما يَقولون: ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنا ﴾ [يس : ٥٢]. وقِيل : هذا قَول الكافر ، لأنَّه كان لا يُؤْمِن بالبَعْث ، فأمَّا المُؤمن فيَقول : ﴿ هَذا ما وَعَدَ الرَّحمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُون ﴾ [يس : ٥٢])) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وقالَ الإنسانُ مَا لَهَا ﴾ ، فِيه قَولان: أحدهما أنَّه اسم جِنس، يَعُمُّ الكافرَ والمؤمنَ، وهذا قَول مَن جَعَلَها مِن أشراط السَّاعة ، لأنها حِين ابتدأت لَم يَعْلَم الكُل أنَّها مِن أشراط الساعة ، فسألَ بعضُهم بعضًا حتى أيقَنُوا . والثاني أنَّه الكافر خَاصَّة ، وهذا قَول مَن جَعَلَهَا زَلزلة القِيامة ، لأن المؤمن عارف فلا يَسْأل عَنها ، والكافر جَاحد لها ، لأنَّه لا يُؤمِن بالبَعْث ، فلذلك يَسْأل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبَارَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ٤] .

في ذلك اليَوم الرَّهيب ، تُحدِّث الأرضُ بما فَعَلَ الناسُ على ظَهْرها ، وتُخبِر بما عُمِلَ عليها مِن خَير أوْ شَر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠٣): ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبَارَهَا ﴾ . قال الزَّجاج : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مَنصوب بقَوله تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَت ﴾ ، ﴿ وأَخْرَجَتِ ﴾ . ففي ذلك اليَوم تُحدِّث بأخبارها ، أي : تُخبِر بما عُمِلَ عَلَيها)) .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قَرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبَارَهَا ﴾ . قال : ((أتدرون ما أخبارها ؟)) ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ((فإنَّ أخبارها أن

تَشْهَدَ على كُل عَبْدٍ وأَمَةٍ بما عَمِلَ عَلى ظَهْرها ، أن تَقول : عَمِلَ عَمَلَ كَذا في يَوم كَذا ، فهذه أخبارها)) [٢٥٥].

هذا الحديثُ يُقَدِّم تفسيرًا للآية، وتَوضيحًا لمَعناها ، و" أتدرون ما أخبارها ؟ " أسلوب تعليمي تَشويقي في غاية الأهمية، ويعود بالنَّفْع والفائدة ، لأنَّه يُنبِّه السامعَ ، ويَجذِبه ، ويُنشِّط عَقْلَه .

وأخبارُها أن تَشهَد الأرضُ على المسلم والكافر، والبَر والفاجر، بما عَمِلَ عَلَيها مِن خير وشَر، وتُخبِر بكل الأفعال التي حَدَثَتْ عليها ، سواءٌ كانت صغيرة أم كبيرة .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ٩٨) : ((قَوله (تُحدِّث) أي الأرض (ما أخبارها) بفتح الهمزة جَمْع خَبَر ، أي : تَحديثها (أن تشهد على كُل عبد أو أَمَة) أي: ذَكَر وأُنثى (بما عَمِلَ) أي : فَعَلَ كُل واحد (أن تقول) بدل بَعْض مِن أن تَشهد أو بيان ، ويُؤيِّده ما في رواية الجامع : تقول ، بدون " أن " ، أو خَبَر مُبتدأ مَحذوف ، أي هي ، يعني شهادتها أن تقول (عَمِلَ) أي فُلان (كذا وكذا) أي مِن الطاعة أو المَعصية (في يوم كذا وكذا) أي من شهر كذا أو عام كذا (قال بهذا أمَرَها) أي بهذا المَذكور أمرَ اللهُ تعالى الأرضَ)) .

وفي الحديث : ((... ، وتَحَفَّظُوا مِن الأرض ، فإنَّها أُمُّكُم ، وإنَّه لَيس مِن أحد عامل عَلَيها خَيرًا أو شَرًّا ، إلا وهي مُخْبِرَة)) [٢٥٦].

الأرضُ هي أُم البشر ، حيث خُلِقُوا مِنها (مِن التُّراب) ، وكُل إنسان يَعمَل على ظَهْرها عَمَلًا صالحًا أو فاسدًا ، ستُخبِر به ، وتَكشِفه .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٣٤) : ((تَحَفَّظُوا مِن الأرض فإنَّها أمُّكُم) التي خُلِقْتُم مِنها (وإنَّه ليس مِن أحد) مِن الآدميين (عاملًا عَلَيها خيرًا أو شَرًّا إلا وَهِيَ مُخْبِرَة بِه)

---

٢٥٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨١) برقم (٣٠١٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

في سنده يحيى بن أبي سُلَيمان . قال الحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٦) : ((يحيى بن أبي سُلَيمان مِن ثِقات المصريين)) اهـ . وقال الحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٧) : ((وهو شيخ أهل المدينة ، سَكَنَ مِصْر ، وَلَم يُذكَر بجَرْح))، وقال الذهبي عَقِبه: ((ويحيى لم يُذكَر بجَرْح))اهـ . وفي المستدرك (٢/ ٥٨٠) قال الذهبي : ((يحيى هذا مُنكَر الحديث، قاله البخاري)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٢٠) : ((يحيى بن أبي سُلَيمان المدني ضعَّفه البخاري وأبو حاتم ، ووثَّقه ابن حِبَّان)) .

٢٥٦ رواه الطبراني (٥/ ٦٥).وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٥٠): ((فيه ابن لَهيعة ، وهو ضعيف)).

يُحتمل بناء" مُخْبِرَة" للفاعل، أي أنَّها تُخبِر به الملائكةَ، أي: ملائكة العذاب أو ملائكة الرحمة، عِند نُزول المَيْت القَبْر ، أو أنها تَشهَد عَلَيه بما عَمِلَه يَوم القِيامة ، ويُحتمل على بُعْد ، بناؤه للمَفعول ، وأنَّ المُراد أن الملائكة تُخبِرها به ، لِتُخَفِّف أو تُضيِّق عليه في الضَّم إذا أُقْبِرَ فِيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بأنَّ رَبَّكَ أوْحَى لَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ٥] .

تُحدِّث الأرضُ أخبارَها ، لأنَّ اللهَ أعْلَمَها بالأحداث عَلَيها ، وأمرَها بكَشْفها وإظهارها ، فهي تَشهَد على طاعة المُطيع ، وتَشهَد على مَعصية العاصي . إنَّها تُحدِّث أخبارَها بوَحْي الله وإذْنه لها، فقد أَذِنَ سُبحانَه وتعالى للأرض أن تُخبِر بما عُمِلَ عليها مِن خَير أوْ شَر ، وسَمَحَ لها بكَشْفه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٣٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ بأنَّ رَبَّكَ أوْحَى لَهَا ﴾ ، أي : إنَّها تُحدِّث أخبارَها بوَحْي الله ﴿ لَهَا ﴾ ، أي: إلَيها، والعرب تضع لام الصِّفة مَوضِع (إلى)، ... . وهذا قول أبي عُبَيدة : ﴿ أوْحَى لَهَا ﴾ ، أي : إلَيها ، وقيل : ﴿ أوْحَى لَهَا ﴾ ، أي : أمرَها ، قاله مُجاهد ، وقال السُّدي : ﴿ أوْحَى لَهَا ﴾ ، أي : قال لها ، وقِيل : سَخَّرَها ، وقِيل : المَعنى يَوم تَكُون الزَّلزلة ، وإخراج الأرض أثقالَها ، تُحدِّث الأرضُ أخبارَها ، ما كان عليها مِن الطاعات والمعاصي ، وما عُمِلَ على ظَهْرها مِن خَير وشَر ، ورُوِيَ ذلك عن الثَّوري وغَيره)) .

٦_ أهواله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ ولا هُم يُنصَرون ﴾[البقرة : ٤٨] [٢٥٧] **.**

وخافوا عذابَ يَوْمِ القِيامةِ وعِقَابَه وأهوالَه الشديدة ، وهذا أمرٌ معناه الوَعيد . وتَنكيرُ ﴿ يَوْمًا ﴾ للتَّهويل ، أي : يَوْمًا شديدَ الهَوْل . وفي هذا اليَوم الرهيب ، لا تَقْضِي نَفْسٌ عن أُخرى شيئًا مِن الحُقوق، ولا تَدْفَع عنها شيئًا، ولا يُغني أحد عَن أحد. وتَنكير النَّفْس ﴿ نَفْسٌ عَن نَفْسٍ ﴾ لِيُفيد العُموم والإقناط الكُلِّي، وتَنكير ﴿ شَيْئًا ﴾ للتَّقليل والتَّحقير، أي: شيئًا يسيرًا حقيرًا . ولا تُقْبَل شَفاعة في نَفْس كافرة بالله أبدًا ، ولا يُقْبَل مِنها فِدَاء . وسُمِّيَ الفِدَاءُ عَدْلًا ، لأنَّه يُعَادِل المُفَدَّى ، ولا هُم يُمنَعون مِن عذاب الله تعالى ، ولَيس لَهم مَن يُنقِذهم مِن عِقَابه الأليم .

٢٥٧ قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((وقد تمسَّكت المعتزلة بهذه الآية على نَفْي الشفاعة لأهل الكبائر ، وأُجِيب بأنها مخصوصة بالكُفَّار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة ، ويُؤَيِّده أن الخطاب معهم ، والآية نَزَلَتْ رَدًّا لِمَا كانت اليهود تَزعُم أن آباءهم تَشفَع لهم)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٤) : ((﴿ واتَّقُوا يَوْمًا ﴾ ، واحْذَرُوا ، واجْتَنِبُوا عِقَابَ يَوم ﴿ لا تَجْزِي ﴾ لا تَقْضِي ولا تُغْنِي ﴿ نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ ﴾ ، أي : لا يَكُون شفاعة فَيَكُون لها قَبول، وذلك أن اليهود كانوا يقولون: يَشفَع لنا آباؤنا الأنبياءُ ، فآيَسَهُم اللهُ تعالى عن ذلك ، ﴿ ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ ﴾ فِدَاء ، ﴿ ولا هُم يُنصَرون ﴾ يُمْنَعُون مِن عَذاب الله تعالى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عِمران : ١٠٦] .

في يَوم القِيامة ، تَبْيَضُّ وُجوهُ المؤمنين ، وتُشرِق بالإيمان والطاعات ، وتَسْوَدُّ وُجوه الكافرين، وتُظلِم بالكُفر والمعاصي .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٦٢): ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، يعني: يَوم القِيامة حِين يُبعَثون مِن قُبورهم، تَكُون وُجوه المؤمنين مُبْيَضَّة ، ووُجوه الكافرين مُسْوَدَّة ، ويُقال : إنَّ ذلك عِند قِراءة الكِتاب ، إذا قَرأ المؤمنُ كِتابَه فرأى في كتابه حسناته استبشر ، وابيضَّ وجهُه،وإذا قَرأ الكافرُ والمنافقُ كِتابَه ، فرأى فيه سَيِّئاته اسْوَدَّ وَجْهُه . ويُقال : إنَّ ذلك عِند المِيزان إذا رَجَحَتْ حسناتُه ابْيَضَّ وجهُه ، وإذا رَجَحَتْ سَيِّئاته اسْوَدَّ وَجْهُه ، ...)) .

وعن أبي غالب قال: رأى أبو أُمَامَة رُؤوسًا مَنصوبةً على دَرَج مَسْجِد دِمَشْق ، فقال أبو أُمَامَة : كِلابُ النار ، شَرُّ قَتْلَى تحت أدِيمِ السَّماء ، خَيْرُ قَتْلَى مَن قَتَلُوه . ثُمَّ قَرأ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إلى آخِر الآية . قلتُ لأبي أُمَامَة : أنتَ سَمِعْتَهُ مِن رسول الله ﷺ ؟ ، قال : لَوْ لَم أسْمَعْهُ إلا مَرَّةً، أوْ مَرَّتَيْن ، أوْ ثلاثًا ، أوْ أربعًا ، حَتَّى عَدَّ سَبْعًا ، ما حَدَّثْتُكُمُوه [٢٥٨].

الخوارجُ فِئة ضَالَّة ، وفِرقة مُنحرفة ، لها عقائد باطلة مُخالفة لِمَا عَلَيه أهل السُّنَّة والجماعة . والخوارجُ يُكفِّرون المُسلمين بالذُّنوب والمعاصي ، ويَسْتَحِلُّون دِماءهم وأموالهم ، لذلك هُم شَر الناس ، وأسوأ الخَلْق، وقد حذَّر النبيُّ ﷺ مِنهُم ، وبيَّن صِفاتهم ، وأمرَ بقتالهم . والخوارجُ أوَّل بِدعة حَدَثَتْ في الإسلام.واختلفَ العُلماءُ في تَكفيرهم، والذي عَلَيه جُمهور العُلَماء أنَّهُم فاسقون، ولَيسوا كافرين. والخوارجُ كِلابُ النار ، لأنَّهُم كانوا في الدُّنيا كِلابًا على المُسلمين ، يُكفِّرونهم ، ويَعتدون عليهم ، ويَقْتُلونهم ، فصاروا كِلابًا في الآخِرة ، عُقوبةً لهم ، والجَزَاءُ مِن جِنس العَمَل .

لقد رأى الصحابيُّ أبو أُمَامة رؤوسَ المَقتولين مِن الخوارج مَرفوعةً على دَرَج مَسجِد دِمَشْق ، وقد وَصَفَهم بأنهم كِلاب النار ، وهؤلاء الخوارج المَقتولون شَر قَتْلى يَقتلهم المسلمون تَحت وَجه

---

٢٥٨ رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٢٦) ، وقال : ((هذا حديث حسن)) .

السَّماء ، وخَيْرُ الناس مَن قَتلوه . أي : مَن قَتَلَه هؤلاء الخوارجُ هو خَيْرُ مَقتول ، وأفضل قتيل ، لأنَّه قُتِلَ مظلومًا ، بلا ذَنْب ولا إثم ، أو قُتِلَ وهو يُحاربهم . وقرأ أبو أُمَامة الآية : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إلى آخِرها ، أي : يَوم القِيامة ، تَبْيَضُّ وُجوه أهل السُّنَّة والجماعة ، أهل السعادة في الدُّنيا، وأصحاب النعيم في الآخِرة ، أهل الوَحْدة والتعاون والاعتصام بحَبْل الله تعالى، وتَسْوَدُّ وُجوهُ أهل البِدعة والضَّلالة ، أهل الشَّقاء والتَّعاسة والفُرقة والاختلاف والتناحر .

وقد أكَّد أبو أُمَامة أنَّه سَمِعَ الحديثَ مِن النبيِّ ﷺ سَبْعَ مَرَّات سَمَاعًا لا شَكَّ فيه ، لذلك حَدَّثَ بِه . وهذا يدل على ضرورة التَّثَبُّت في سَماع أحاديث النبيِّ ﷺ .

والحديثُ يَفضَح الخوارجَ ، ويذمُّهم، ويُحذِّر مِن فِتنتهم ، ويُوضِّح أنهم كلاب النار ، ويُبيِّن خُطورةَ تَكفير المُسلمين بلا دليل شرعي مُعْتَبَر .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٢٧٩ و٢٨٠): ((قَوله (رأى أبو أُمَامة رُؤوسًا) جَمْع رَأس (مَنصوبة على دَرَج دِمَشْق) أي : على درج مَسْجِد دِمَشْق ، الدَّرَج الطَّريق ، وجَمْعه الأدراج ، والدَّرَجَة المِرقاة ، وجَمْعه الدَّرَج ، وهو المُراد هُنا ، أي : رأى أبو أُمَامة رؤوس المَقتولين مِن الخَوارج رُفِعَتْ على دَرَج دِمَشْق (كلاب النار) خَبر مُبتدأ مَحذوف ، أي : أصحاب هذه الرؤوس كِلاب النار (شَر قَتْلى تحت أدِيم السَّماء) خَبر آخَر للمُبتدأ المَحذوف ، ...)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٥٠٩ و٥١٠) : (((الخوارج) الذين يَزعُمون أنَّ كُلَّ مَن أتى كبيرةً فهو كافر مُخلَّد في النار أبدًا (كلاب) أهل (النار) هُم قَوم ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وَهُم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٤] ، وذلك لأنهم دَأبُوا ونَصَبُوا في العِبادة ، وفي قُلوبهم زَيْغ ، فَمَرَقُوا مِن الدِّين بإغواء شيطانهم ، حَتَّى كَفَّرُوا المُوحِّدين بذَنْب واحد ، وتأوَّلوا التَّنزيلَ على غَير وَجْهه ، فخُذِلُوا بعدما أُيِّدُوا حتى صاروا كلابَ النار ، فالمُؤمن يَستُر ، ويَرحَم ، ويرجو المغفرةَ والرحمةَ ، والمَفتون الخارجي يَهتِك ، ويُعيِّر ، ويُقَنِّط ، وهذه أخلاق الكلاب وأفعالهم ، فلمَّا كَلِبُوا على عباد الله ، ونظروا لهم بعَيْن النَّقْص والعداوة ، ودَخلوا النارَ ، صَاروا في هيئة أعمالهم كِلابًا ، كما كانوا على أهل السُّنَّة في الدُّنيا كِلابًا، بالمعنى المَذكور. قال الخطابي : أجمعوا على أنهم على ضَلالهم مُسلمون ، وسُئِلَ عليٌّ : أكفارٌ هُم ؟ ، فقال : مِن الكُفر فَرُّوا ، فَقِيل : أمُنافقون ؟ قال : المُنافقون لا يَذكُرون اللهَ إلا قليلًا ، وهؤلاء يَذكُرونه بُكْرَةً وأصيلًا ، قَوم أصابتهم فِتنة ، فَعَمُوا وصَمُّوا . قال الغزَّالي في الوسيط : في حُكم الخَوارج وَجهان: أحدهما أنهم كأهل الرِّدة ، الثاني حُكمهم كأهل البَغْي . قال ابن حجر : ولَيس مُطَّرِدًا في كُل

خارجي ، فإنهم أصناف ، مِنها مَن تقدَّمَ ذِكْرُه ، ومِنها مَن خَرج في طَلَب المُلْك ، لا للدُّعاء إلى مُعْتَقَده، وهُم قِسْمَان: قِسْم خَرَجُوا غضبًا للدِّين مِن أجل جَوْر الوُلاة، وتَرْك عملهم بالسِّيرة النبوية، فهؤلاء أهل حَق ، ومِنهُم الحسين بن عليٍّ ، وأهل المدينة في الحَرَّة ، والقُرَّاء الذين خَرَجُوا على الحَجَّاج ، وقِسْم خرجوا لطَلَب المُلْك فقط ، وهُم البُغاة ، وقد عَقَدَ لهم الفقهاءُ بابًا)) .

وفي نَفْس المرجع (١/ ٥٢٨) : (((أصحاب البِدَع) بكَسْر ففَتْح ، جمع بِدْعَة : أي أهل الأهواء (كِلاب النار) أي أنهم يَتَعَاوُون فِيها عُواءَ الكلاب ، أوْ أنهم أخسُّ أهلها ، وأحقرهم ، كما أن الكلاب أخسُّ الحيوانات وأحقرها ، فالمُبْتَدِعَة أعظم جُرْمًا مِن الفُسَّاق ، وأشد ضررًا ، ففِتنة المُبْتَدِع في أصل الدِّين ، وفِتنة المُذنِب في الشَّهَوات ، والمُبْتَدِع قَصَدَ للناس على الصِّراط المستقيم يَصُدُّ عَنه ، والمُذنِب ليس كذلك ، والمُبْتَدِع قادح في أوصاف الرَّب وكماله ، والمُذنِب ليس كذلك ، والمُبْتَدِع مُنَاقِض لِمَا جاء به الرسول ، والعاصي ليس كذلك ، والمُبْتَدِع يَقْطَع على الناس طريقَ الآخِرة ، والعاصي بطيء السَّير بسبب ذُنوبه . والمراد بأهل البِدَع هُنا : الذين نُكفِّرهم ببِدْعتهم . ولا مانع مِن إرادة مَن لا يُكفَّر بها أيضًا ، إذْ لَيس في الخَبَر إلا أنَّهُم في النار على وجه الحَسْرَة ، والوَبَال ، والهَوَان ، وسُوء الحال ، ولَيس فيه تعرُّض لخُلود ولا عَدَمِه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بِهِ وأسَرُّوا النَّدامةَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ وَهُم لا يُظْلَمُون ﴾[يُونُس : ٥٤] .

وَلَوْ أنَّ لكُلِّ نَفْسٍ كافرة ، ظَلَمَتْ نَفْسَها بعبادة غَير اللهِ ، وترك طاعته ، ما في الأرض كُلِّها . أي امتلكت كُلَّ شَيء على كوكب الأرض بلا استثناء(الأموال والأراضي والقصور والذهب والفضة ... إلخ) ، لافتدت بذلك كُلِّه مِن العذاب الإلهيِّ الشديد عند رُؤيته . أي : جعلته فِديةً لها مِن العذاب . ولا يُقبَل مِنها، لأن الآخِرة دار جَزاء (إعلان نتيجة الامتحان)، أمَّا الدُّنيا فهي دار عمل (الامتحان) . والآخرةُ جَزَاء ولا عَمَل ، والدُّنيا عَمَل ولا جَزَاء ، كما أنَّ مَال الدُّنيا في الدُّنيا ، والآخِرة هي حصاد الأعمال لا الأموال .

وأخفى رُؤساء الكافرين وزعماؤهم النَّدامةَ حِينَ رَأَوْا نارَ جَهَنَّم رَأيَ العَين ، وعايَنوا فظاعة الأمر الرهيب ، ووجدوا أَلَمَ الحسرة والندم في قلوبهم ، وشَعروا بصدمة هائلة أخْرَسَتْهُم، وسلبتهم القدرة على التفكير ، وأخذت عقولَهم، واسْتَوْلَتْ على حَوَاسِّهم، ففقدوا التركيزَ، وعَجَزُوا عن الكلام، وانهارت قَواهم العقلية والجسدية . وقد أخفى الرُّؤساءُ الندامةَ عن الأتباع والضُّعَفاء خَوْفًا مِن التوبيخ والتعيير والشماتة واللوم . والنَّدامة : الحَسرة لوُقوع شيء ، أوْ فَوْت شيء .

لقد أخْفَوا النَّدامةَ ليس تَصَبُّرًا ولا تَجَلُّدًا. ففي ذلك اليوم العظيم ، لا مجال للتصبُّر والتَّصَنُّع . وإنما أخْفَوا النَّدامةَ لأنهم بُهِتُوا وصُدِمُوا ، جَرَّاء رُؤيتهم للنار العظيمة ، والأهوال الشديدة ، والعذاب الفظيع ، ولَم يَعملوا له حسابًا ، ولَم يتوقعوا فظاعةَ الأمر ، وشِدَّة العذاب . لذلك كانت صَدمتهم مُضَاعَفَة ، وفُوجئوا بهذا المنظر المُرعِب . ودائمًا عُنصر المفاجأة صادم وقاتل . وإخفاءُ الندامة قبل دُخول النار ، أمَّا بعد دُخول النار، فإن شِدَّة العذاب تُلهيهم عن أيِّ شَيء آخَر.

وقد رأى هؤلاء الرؤساء المتبوعون النارَ العظيمة الهائلة التي كانوا يَسمعون بها ، فانهارت معنوياتهم ، وأيقنوا أن العذاب واقع بهم لا مَحَالة . وقضى اللهُ في ذلك اليوم الرهيب بين الرؤساء والأتباع بالحق والعدل ، ويُجَازَى كُلٌّ على فِعْله وصَنيعه .

واللهُ لَم يَظْلمهم ، وإنما ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، وقادُوها إلى الخُلود في عذاب النار . واللهُ عادلٌ في أحكامه ، يُبغِض الكافرين ، ولكنَّه لا يَظلمهم . ولا يُعاقِب أحَدًا بلا ذَنْب ، ولا يَأخذه بِذَنْب غَيْره . وقد أرسلَ اللهُ الرُّسُلَ إلى الناس ، لإرشادهم وهدايتهم ، وأقامَ عليهم الحُجَّة ، وقَطَعَ أعذارَهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٥٥) : ((زَادَ اللهُ في التأكيد ، فقال: ﴿ وَلَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ ، أي: وَلَوْ أن لكل نَفْس من الأنفُس المُتَّصفة بأنها ظَلَمَتْ نَفْسَها بالكُفر بالله ، وعدم الإيمان به ، ﴿ ما في الأرضِ ﴾ مِن كُل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها مِن الأموال النفيسة والذخائر الفائقة ، ﴿ لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي جعلته فِديةً لها مِن العذاب... . ﴿ وأسَرُّوا النَّدامةَ لَمَّا رَأوُا العذابَ ﴾ ، الضَّمير راجع إلى الكُفَّار الذين سِياق الكلام معهم ، وقِيل : راجع إلى الأنفُس المَدلول عليها بِكُل نَفْس. ومعنى أَسَرُّوا: أَخْفَوْا ، أي: لَم يُظْهِروا النَّدامة ، بل أَخْفَوْها لِمَا قد شاهدوه في ذلك المَوطِن ، مِمَّا سلب عقولهم ، وذهب بتجلُّدهم ، ويُمكن أنه بَقِيَ فيهم وَهُم على تلك الحالة عِرْق يَنزِعهم إلى العصبية، التي كانوا عليها في الدُّنيا ، فأسَرُّوا الندامةَ لئلا يَشمَت بهم المؤمنون . وقِيل : أسَرَّها الرؤساء فِيما بينهم دون أتباعهم ، خَوْفًا مِن توبيخهم لهم لِكَونهم هُم الذين أضَلُّوهم ، وحالوا بينهم وبين الإسلام ، ووُقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ... . وقيل : معنى أسَرُّوا : أظْهَرُوا ، وقِيل : وجدوا ألَمَ الحَسْرة في قلوبهم ، لأن النَّدامة لا يمكن إظهارها ... وذَكَر المُبَرِّد في ذلك وجهَيْن : الأول : أنها بدت في وجوههم أَسِرَّة النَّدامة ، وهي الانكسار . واحدها سِرَار ، وجمعها أسارير . والثاني : ما تَقَدَّم . وَقِيل معنى : ﴿ أسَرُّوا النَّدامةَ ﴾ أَخْلَصُوها، لأن إخفاءَها إخلاصُها، و﴿ لَمَّا ﴾ في قَوله : ﴿ لَمَّا رَأوُا العذابَ ﴾

ظرف بمعنى " حِين " منصوب بِ ﴿ أسَرُّوا ﴾ ، أو حَرْف شَرْط جَوابه مَحذوف لِدَلالة ما قَبْله عَلَيه ، ﴿ وقُضِيَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ ﴾ أي : قَضى اللهُ بين المؤمنين وبين الكافرين ، أو بين الرؤساء والأتباع ، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين ، وقِيل : معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقِسْط : العدل، وجُملة ﴿ وَهُم لا يُظْلَمُون ﴾ في محل نَصْب على الحال : أي لا يَظْلِمهم اللهُ فيما فعل بهم مِن العذاب الذي حَلَّ بهم ، فإنه بسبب ما كَسبوا)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمونَ إنما يُؤخِّرُهُم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] . الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ. ولا تَظُنَّنَّ اللهَ يا مُحمَّد ساهيًا عن أقوال الظالمين وأفعالهم ، فإنه يُمْهِلهم ، ولا يُهْمِلهم ، ويُحْصِي أعمالهم ، وسيُحاسبهم عليهم أشد الحساب ، ويَجزيهم أسوأ الجَزاء . وهذا وعيدٌ وتهديد للظالِم ، وتخفيف عن المظلوم ورفع لمعنوياته ، وإزالة لأحزانه . والمقصودُ بالظالمين كُفار مكة ، فقد ظَلَموا أنفسهم باختيار الكفر على الإيمان ، وقادوها إلى الهلاك والعذاب الأبديّ. واللهُ يُمْلِي للظالمين ، حتى إذا أخذهم لَم يُفْلِتْهم . يُؤجِّلهم ويُنظِرهم ، ثُمَّ يأخذهم أخذ عزيز مُقتدر، وينتقم مِنهم أشد الانتقام . ولا يَترك لهم فرصةً للتَّعويض ولا تدارُك ما فات.وهذه سُنَّةُ الله في الظالمين، في كُل زمان ومكان.إنما يُؤخِّرهم ليوم القيامة الرهيب المُرعِب، حيث تبقى أبصارهم مَفتوحةً لا تَغمُض ، مِن شِدَّة الهَوْل والخَوف والفَزَع . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٦٤) : ((﴿ ولا تَحْسَبَنَّ ﴾ خطاب للنبيِّ ﷺ ، وهو تعريض لأُمَّته . فكأنه قال : ولا تَحسَب أُمَّتُكَ يا مُحمَّد . ويَجوز أن يكون خطابًا لكل مَن يَصلُح له مِن المُكلَّفين . وإن كان الخطاب للنبيِّ ﷺ مِن غَير تعريض لأُمَّته ، فمعناه : التثبيت على ما كان عليه من عدم الحُسبان كَقوله: ﴿ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشرِكين ﴾ ونَحْوه. وقِيل: المُراد ولا تَحْسَبَنَّهُ يُعاملهم مُعاملة الغافل عمَّا يَعملون ، ولكن مُعاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المُراد بالنَّهْي عن الحُسبان الإيذان بأنه عَالِم بذلك ، لا تخفَى عليه مِنه خافية . وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرِّضا بأفعالهم ، بل سُنَّة الله سُبحانَه في إمهال العُصاة ﴿ إنما يُؤخِّرُهُم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ ، أي: يُؤخِّر جَزاءهم ، ولا يُؤاخذهم بِظُلمهم . وهذه الجُملة تعليل للنَّهْي السابق ... . ومعنى ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ ، أي : تُرفَع فيه أبصار أهل المَوقِف ، ولا تَغمُض مِن هَوْل ما تراه في ذلك اليوم ، هكذا قال الفرَّاء. يُقال: شَخَصَ الرَّجلُ بَصَرَه، وشَخَصَ البَصَرُ نَفْسُه إلى السماء مِن هَوْل ما يَرى . والمُراد أن الأبصار بَقِيَتْ مَفتوحةً ، لا تتحرَّك مِن شِدَّة الحَيْرة والدَّهشة)) .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤوسِهِم لا يَرتَدُّ إلَيْهِم طَرْفُهُم وأفْئِدَتُهُم هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

مُسْرِعين ، لا يَلْتَفِتُون إلى شيء ، رافعي رُؤوسهم معَ إدامة النَّظَر ، أبصارُهم شاخصةٌ ، لا يَطْرِفُون ، ولا تَرْجِع إليهم أبصارُهم، مِن شِدَّة الخَوف والهَوْل ، وقُلوبهم خاويةٌ ، ليس فيها شيء مِن الإيمان والخَير ، وخاليةٌ مِن العَقْل والفَهْم ، بما ذُهِلُوا مِنَ الفَزَع والحَيرة .

والآيةُ ﴿ وأفْئِدَتُهُم هَوَاءٌ ﴾ تشبيه قُرآنيٌّ بَليغٌ ، حُذِفَت مِنه أداة التَّشبيه ، ووجه الشَّبَه ، أي: قُلوبهم كالهَواء ، لفراغها من جميع الأشياء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٠ و٣٧١) : ((قَوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ الإهطاع النَّظَر مِن غَير أن يَطْرِفَ الناظرُ ، رَواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد والضَّحاك وأبو الضُّحى . والثاني أنَّه الإسراع ، قاله الحسن وسعيد بن جُبَير وقَتادة وأبو عُبَيدة . وقال ابنُ قُتَيبة : يُقال : أهطعَ البعيرُ في سَيْره ، واستهطعَ : إذا أسرعَ . وفي ما أسرَعوا إلَيه قَولان : أحدهما إلى الدَّاعي ، قاله قَتادة . والثاني إلى النار ، قاله مُقاتل . والثالث أنَّ المُهْطِع الذي لا يَرفَع رَأسَه ، قاله ابن زَيد . وفي قَوله : ﴿ مُقْنِعِي رُؤوسِهِم ﴾ قَولان : أحدهما رافعي رُؤوسهم، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وسعيد بن جُبَير وقَتادة وأبو عُبَيدة... وقال ابنُ قُتَيبة : المُقْنِع رَأسَه ، الذي رَفَعَه ، وأقبلَ بِطَرْفه على ما بَين يَدَيه ، وقال الزَّجاج : رَافِعي رُؤوسهم ، مُلتصِقة بأعناقهم ، و ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤوسِهِم﴾ نَصْب على الحَال ، المعنى : لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيه أبصارُهم مُهْطِعِين. والثاني ناكِسِي رُؤوسهم، حكاه الماوردي عن المُؤرِّج . قَوله تعالى : ﴿ لا يَرتَدُّ إلَيْهِم طَرْفُهُم ﴾ ، أي : لا تَرْجِع إلَيهم أبصارُهم مِن شِدَّة النَّظَر ، فهي شاخصة ، قال ابن قُتَيبة : والمعنى أنَّ نَظَرَهم إلى شيء واحد. وقال الحسن: وُجُوهُ الناس يَوم القِيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد . قَوله تعالى : ﴿ وأفْئِدَتُهُم هَوَاءٌ ﴾ ، الأفئدةُ مَسَاكِن القُلوب ، وفي معنى الكلام أربعة أقوال : أحدها أنَّ القُلوب خَرَجَت مِن مَواضعها ، فصارت في الحَنَاجِر ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وقال قَتادة : خَرَجَتْ مِن صُدورهم ، فَنَشِبَتْ في حُلوقهم ، فأفئدتهم هَواء ، لَيس فِيها شيء . والثاني وأفئدتهم لَيس فِيها شيء مِن الخَير ، فهي كالخَرِبَة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث وأفئدتهم مُنْخَرِقَة ، لا تَعِي شيئًا ، قاله مُرَّة بن شُرَاحْبِيل ، وقال الزَّجاج : مُتَخَرِّقَة لا تَعِي شيئًا مِن الخَوف . والرابع وأفئدتهم جُوف ، لا عُقول لها ، قاله أبو عُبَيدة ... . فعلى هذا يكون المعنى أنَّ قُلوبهم خَلَتْ عَن العُقول لِمَا رَأَوْا مِن الهَوْل ، والعربُ تُسمِّي كُلَّ أجْوَف خَاوٍ : هَوَاء . قال ابن قُتَيبة : ويُقال : أفئدتهم مَنخُوبة مِن الخَوْف والجُبْن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّماواتُ وبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] . هذا يَوم القِيامة ، تتبدَّل هذه الأرضُ أرضًا أُخرى ، ويُحشَر الناسُ على أرض بَيضاء نَقِيَّة ، وتتبدَّل السَّماواتُ سماواتٍ أُخرى ، وخَرَجَ الناسُ مِن قُبورهم لله المُنفرِد بالوَحدانية والأُلوهية والرُّبوبية ، وهو الواحدُ في ذاته وصِفاته وأفعاله ، القَهَّارُ الذي قَهَرَ كُلَّ شَيء ، وغَلَبَه ، وخَضَعَتْ له الخلائقُ ، يَفعل ما يَشاء ، ويَحكُم ما يُريد .

والتَّعبير بالماضي ﴿ وبَرَزُوا ﴾ ، لتحقُّق الوُقوع ، فكأنَّه وَقَعَ وَحَدَثَ وتَمَّ وانتهى الأمر ، ولا شيء يَقف أمام إرادة الله تعالى ، ولا يَمنع مَشِيئَتَهُ المُقدَّسةَ مانعٌ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٥ و٣٧٦) : ((وفي معنى تَبديل الأرض قَولان: أحدهما أنَّها تِلك الأرض،وإنَّما يُزاد فيها، ويُنقَص منها، وتَذهب آكَامُها وجِبالُها وأَوْدِيَتُها وشَجَرُها، وتُمَدُّ مَدَّ الأديم ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ... . والثاني أنَّها تُبدَّل بغَيرها، ثُمَّ فيه أربعة أقوال: أحدها أنَّها تُبدَّل بأرض غَيرها بيضاءَ كالفِضَّة ، لَم يُعمَل عليها خَطيئة ، رواه عمرو ابن مَيمون عن ابن مسعود ، وعطاء عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . والثاني أنَّها تُبدَّل نارًا ، قاله أُبَي ابن كَعْب . والثالث أنَّها تُبدَّل بأرض مِن فِضَّة ، قاله أنس بن مالك . والرابع تُبدَّل بخُبزَة بيضاء، فيَأكل المؤمنُ مِن تَحت قَدَمَيْه ، قاله أبو هُرَيرة وسعيد بن جُبَير والقُرَظي ، وقال غَيْرُهم: يأكلُ مِنها أهلُ الإسلام حَتَّى يُفْرَغَ مِن حِسابهم . فأمَّا تَبديل السَّماوات ، فيه سِتَّة أقوال : أحدها أنَّها تُجعَل مِن ذَهَب ، قاله عليٌّ عليه السلام . والثاني أنَّها تَصِير جِنَانًا ، قاله أُبَي بن كَعْب . والثالث أنَّ تَبديلها تَكوير شَمْسها ، وتناثُر نُجومها ، قاله ابن عباس . والرابع أنَّ تَبديلها اختلاف أحوالها ، فَمَرَّة كالمُهْل ، ومَرَّة تَكون كالدِّهان ، قاله ابن الأنباري . والخامس أنَّ تَبديلها أن تُطوَى كَطَيِّ السِّجِلِّ للكِتاب . والسادس أن تَنْشَقَّ ، فلا تُظِل ، ذَكَرَهما الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ وبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ ، أي : خَرَجُوا مِن القُبور)) .

وعن سَهْلِ بن سَعْد قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((يُحشَر الناسُ يَوْمَ القِيامة على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأحَدٍ)) [٢٥٩].

يُجمَع الناسُ يوم القيامة على أرض بَيضاء مَشُوبة بحُمْرة، مِثل رغيف مَصنوع مِن دقيق خالص، بدون غِش ولا شوائب ، لَيس فِيها علامة سُكنى ، ولا بِناء عليها ، ولا يُوجَد فيها شيء .

---

٢٥٩ متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ٢١٥٠) برقم (٢٧٩٠).والبخاري(٥/ ٢٣٩٠) برقم (٦١٥٦) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٣٤) : ((العَفراء بالعَين المُهملة والمَد، بَيضاء إلى حُمْرة ، والنَّقِيُّ بفَتح النُّون ، وكَسْر القاف ، وتَشديد الياء ، هُوَ الدَّقِيق الحُورِيُّ ، وهو الدَّرْمَك ، وهو الأرض الجَيِّدة . قال القاضي : كأنَّ النار غَيَّرَتْ بَيَاضَ وَجْه الأرض إلى الحُمْرة . قَوله ﷺ:"لَيْسَ فِيها عَلَمٌ لأحد" هو بفَتح العَيْن واللام، أي لَيس بها عَلامة سُكْنَى أو بِناء ولا أثر)).

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٠) عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عَن قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّماواتُ ﴾ ، فأينَ يَكُونُ الناسُ يَوْمَئِذٍ يا رسول الله ؟ ، فقال : ((على الصِّرَاط)) .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّماواتُ ﴾ ، قال : ((أرضٌ بَيضاءُ نَقِيَّة ، لَم يُسْفَكْ فِيها دَم ، وَلَم يُعمَل فيها بخَطيئة ، يُسْمِعُهم الدَّاعي ، ويَنفُذُهُم البَصَرُ ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا ، حتى يُلْجِمَهُم العَرَقُ)) [٢٦٠].

يَجْمَعُ اللهُ الناسَ في أرض بَيضاء طاهرة ، لَم تَحدُث عليها جريمة ، ولم يُرْتَكَب عليها ذَنْب ولا خطيئة ولا إثم ، يُسْمِعُهم الدَّاعي ، مِن الإسماع ، ويُحيط بهم بَصَرُ الناظر ، لا يَخفَى عليه مِنهم شيء لاستواء الأرض ، حُفاة عُراة كما وَلَدَتْهُم أُمَّهَاتُهُم ، حَتَّى يَصِلَ العَرَقُ إلى أفواههم وآذانهم ، فَيَكُون لهم كاللجام للحيوانات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج : ١] .

الخِطابُ الإلهيُّ لجميع البشر.ولفظُ"الناس"يَشمل جميعَ المُكلَّفين مِن المَوجودين،ومَن سَيُوجَد.

يا أيُّها الناسُ ، خافوا عذابَ الله ، واحْذَرُوا عِقابَه الشديد ، وأطيعوه ، وابتعدوا عن مَعصيته ، وامتثلوا أوامرَه ، واجتنبوا نَوَاهيه ، إنَّ الزَّلْزَلَة الكائنة في الدُّنيا قَبل يوم القِيامة (الحركة الشديدة للأرض ، التي يَكون بَعدها طُلوع الشَّمس مِن مَغرِبها ، بَين يَدَي قِيام السَّاعة) أمرٌ مُرعِب خطير ، لا يُمكن تخيُّل هَوْله ، ولا تصوُّره فظاعته . والزَّلْزَلَةُ شِدَّة الحَرَكة على الحال الهائلة الفظيعة ، أي : التَّحريك الشديد والإزعاج العنيف . لقد أمرَ اللهُ البشر بالتَّقوى ، ثُمَّ عَلَّلَ وُجوبَ التَّقوى وضرورتها بذِكْر هَوْل القِيامة وشِدَّتها ، وبيَّن زَلزلتها العنيفة ، لِيَرَوْها ببصائرهم ، ويُدرِكوا خُطورتها ، ويُنقِذوا أنفسَهم مِن العذاب والهلاك، بفِعل الطاعات ، وأداء العبادات ، والابتعاد عن الذُّنوب والآثام والمعاصي . ولَن يُنقِذهم مِن هَول السَّاعة ورُعبها وشِدَّتها إلا التَّقوى ، والمُوفَّق مَن وفَّقه اللهُ تعالى.

---

٢٦٠ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٤) برقم (٨٧٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وإضافةُ الزَّلزلة إلى السَّاعة : ﴿ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ إضافة المَصْدَر إلى فاعله ، كأنها هي التي تُزَلْزِل الأرضَ ، وهذا مَجَاز ، أوْ إلى الظَّرْف ، لأنَّ الزَّلزلة تَكون في يَوم السَّاعة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٧٣) : ((يَقول تعالى آمِرًا عِبَادَه بتَقْوَاه ، ومُخْبِرًا لهم بِمَا يَستقبلون مِن أهوال يَوم القِيامة وزلازلها وأحوالها . وقد اختلف المُفسِّرون في زَلْزَلة السَّاعة : هل هي بَعْد قِيام الناس مِن قُبورهم يَوم نُشُورهم إلى عَرَصَات (ساحات) القِيامة ، أو ذلك عبارة عن زَلْزَلة الأرض قَبل قِيام الناس مِن أجداثهم (قُبورهم) ؟ ، كما قال تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا (١) وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا (٢) ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ (١٥) ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾ ، فقال قائلون : هذه الزَّلْزَلة كائنة في آخِر عُمُر الدُّنيا، وأوَّل أحوال السَّاعة)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١١٣) : ((﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ ﴾ تَحريكها للأشياء ، على الإسناد المَجَازي ، أوْ تحريك الأشياء فِيها ، فأُضِيفَتْ إلَيها إضافة معنوية، بتقدير " في " ، أوْ إضافة المَصْدَر إلى الظَّرْف على إجرائه مَجْرَى المَفعول به ، وقِيل : هِيَ زَلْزَلة تَكُون قُبَيل طُلوع الشَّمْس مِن مَغرِبها ، وإضافتها إلى الساعة لأنَّها مِن أشراطها ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هائل . عَلَّلَ أمْرَهُم بالتَّقوى بِفَظَاعة السَّاعة ، ليتصوَّروها بعُقولهم ، ويَعْلَمُوا أنَّه لا يُؤَمِّنهم مِنها سِوى التَّدَرُّع بلِبَاس التَّقوى ، فَيُبْقُوا على أنفسهم ، ويَتَّقُوها _ أي السَّاعة _ بمُلازَمَة التَّقوى)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٠٢ و٤٠٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ ، أي : احْذَرُوا عِقَابَه ، ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ ﴾ ، الزَّلْزَلَة : الحَرَكة على الحالة الهائلة . وفي وَقْت هذه الزَّلْزَلَة قَولان : أحدهما أنَّها يَوم القِيامة بَعْد النُّشُور ، روى عِمران بن حُصَين عن رسول الله ﷺ أنَّه قَرَأ : " ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ "، وقال : " تَدْرُونَ أيُّ يَوْمٍ ذلك ؟ ، فإنَّه يوم يُنادي الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عليه السلام: ابْعَثْ بَعْثًا إلى النار " ، فذَكَرَ الحديث . وروى أبو سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ : " يَقول اللهُ تعالى يَوْمَ القِيامة لآدم : قُمْ ، فَابْعَثْ بَعْثَ النار ، فَيَقول : يا رَب، وما بَعْثُ النار ؟ ، قال : مِن كُلِّ ألفٍ تِسْعُمَائةٍ وتِسْعٌ وتِسْعُون إلى النار ، فحينئذ يَشِيب المَولودُ ، وتَضَع كُل ذات حَمْلٍ حَمْلَها " ، وقرأ الآية . وقال ابن عباس : زَلْزَلة السَّاعة قِيامها ، يَعني أنَّها تُقَارِب قِيَامَ السَّاعة ، وتكون معها . وقال الحسن والسُّدي : هذه الزَّلْزَلة تَكون يَوْمَ القِيامة . والثاني أنَّها تكون في الدُّنيا قَبل القِيامة ، وهي مِن أشراط السَّاعة ، قاله علقمة والشَّعبي وابن جُرَيج، وروى أبو العالية عن أُبَي بن كَعْب، قال: ستُّ آيات قَبل القِيامة ، بَيْنَما الناس في أسواقهم

إذْ ذَهَبَ ضَوْءُ الشمس ، فبينما هُم كذلك إذْ تناثرت النُّجوم ، فبينما هُم كذلك إذْ وَقَعَت الجِبالُ على وجه الأرض ، فتحرَّكَتْ واضطربتْ ، فَفَزِعَ الجِنُّ إلى الإنس ، والإنس إلى الجِن، واختلطت الدَّوَابُّ والطَّير والوَحْش،فَمَاجَ بعضُهم في بَعْض،فقالت الجِنُّ للإنس:نَحْنُ نأتيكم بالخَبَر، فانطَلَقُوا إلى البُحُور، فإذا هي نار تأجَّج، فبَيْنَما هُم كذلك إذْ تَصَدَّعَت الأرضُ إلى الأرض السَّابعة ، والسَّماء إلى السَّماء السَّابعة، فَبَيْنَما هُم كذلك إذْ جاءتهم الرِّيحُ فماتوا. وقال مُقاتل: هذه الزَّلْزَلة قَبل النَّفخة الأُولَى،وذلك أنَّ مُنَادِيًا يُنادي مِن السَّماء:يا أيُّها الناسُ، أتى أمر الله، فَيَفْزَعُون فَزَعًا شديدًا، فَيَشِيب الصَّغِيرُ، وتَضَع الحَوَامل. قَوله تعالى: ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أي: لا يُوصَف لِعِظَمه)).

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللهُ قال : ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فسَمَّاها شيئًا ، وإنْ كانت مَعدومةً،وهذا دليل على أنَّ "مَوجود"أخص مِن"شيء"، وكُلُّ مَوجود شيء، ولَيس كُلُّ شيء مَوجودًا.

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٨) : ((وتَسمية الزَّلْزَلة بِـ﴿ شَيْءٌ ﴾ إمَّا لأنَّها حاصلة مُتَيَقَّن وُقوعها ، فيُسْتَسْهَل لذلك أن تُسَمَّى شيئًا وهي مَعدومة ، إذ اليقين يُشْبِه المَوجودات ، وإمَّا على المَآل ، أي هي إذا وَقَعَتْ شَيْءٌ عظيمٌ ، وكأنَّه لَم يُطْلِق الاسمَ الآن ، بَل المعنى أنَّها إذا كانت فهي إذًا شيءٌ عظيمٌ ، ولذلك تُذهِل المَرَاضِعَ ، وتُسْكِر الناسَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وتضعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرى الناسَ سُكارى وما هُم بسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢] .

في ذلك اليوم الرهيب الذي تَرَوْنَ فيه الزَّلْزَلَةَ (التَّحريك الشديد للأرض)، وتُشاهِدُون أهوالَها العظيمة ، وتُعَايِنُون شِدَّتها المُرْعِبَة ، تَغفُل كُل أُنثى مُرْضِعَة عن رضيعها ، وتَنشغل عنه ، وتُهْمِله ، معَ أنَّه أحب الناس إلَيها ، وهي أشفق الناس عَلَيه ، مِن شِدَّة الخَوفِ والهَوْلِ ، واشتغالًا بنفْسها ، وحِرْصًا على سلامتها الشخصية .

والمُرْضِع التي شأنها أن تُرضِع، أمَّا المُرْضِعَة،فهي التي في حال الإرضاع،لهذا قال اللهُ تعالى: ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، وَلَم يَقُلْ : مُرْضِع . أي إنَّها تَنْزَع ثَدْيَها مِن فَمِ طِفْلها الرَّضيع الضَّعيف ، أحب الناس إلَيها، وتَذهَل عن الإرضاع ، وتَتركه خائفةً وَجِلَةً مَرعوبةً ، وهذا يدل على أنَّ هذه الزَّلْزَلَة في الدُّنيا ، إذْ لَيْسَ بعد القِيامة حَمْل وإرضاع . وتُلْقِي كُلُّ أُنثى حَامِل جَنِينَها قَبل تَمَامه ، بسبب شِدَّة الهَوْلِ والرُّعْبِ ،كما أنَّ المُرْضِعَة تُهْمِل رضيعَها ، وتَتركه بلا رَضَاع .

وتَرَى الناسَ يترنَّحون كالسُّكَارَى ، وما هُم بسُكَارى مِن شُرب الخمر ، ولكنَّهم سُكَارى مِن الخَوف والفَزَع ، إذْ إنَّ أهوال السَّاعة وشدائدها ، أفقدتهم التركيزَ ، وسَلَبتهم الإدراكَ ، وحطَّمت

قُلوبَهم ، وطيَّرتْ عُقولَهم ، وأذهبت تمييزهم . وسُكرهم بسبب الخَوف مِن عذاب الله تعالى ، فهُم مِن العِقَاب خائفون مُشفِقون .

والآيةُ ﴿ وترى الناسَ سُكارى ﴾ تَشبيه بليغ ، أي إنَّهُم كالسُّكارى مِن شِدَّة الخَوْفِ والهَوْلِ ، وحُذِفَت أداة التشبيه والشَّبَه .

وقد بيَّن اللهُ أهوالَ ذلك اليوم الرهيب ، مِن أجل أن يَستعد الناسُ له بالعبادات والطاعات .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٧٣) : ((قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هذا مِن باب ضَمير الشَّأن ، ولهذا قال مُفَسِّرًا له : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ، أي : فتشتغل لهَوْل ما ترى عَن أحب الناس إلَيها ، والتي هي أشفق الناس عَلَيه، تُدهَش عَنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، وَلَم يَقُلْ : مُرْضِع ، وقال : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ، أي : عَن رَضِيعها قَبل فِطَامه . وقَوله: ﴿ وتضعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ، أي: قَبل تَمَامه لِشِدَّة الهَوْل، ﴿ وتَرى الناسَ سُكارى ﴾ أي : مِن شِدَّة الأمر الذي قد صَاروا فيه ، قد دَهِشَتْ عُقُولُهم ، وغابت أذهانُهم ، فَمَن رَآهُم حَسِبَ أنَّهُم سُكَارى ، ﴿ وما هُم بسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٣) : ((﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني السَّاعة ، وقِيل : الزَّلْزَلَة ، ﴿ تَذْهَلُ ﴾ . قال ابن عباس : تَشغَل ، وقِيل : تنسَى ، يُقال : ذُهِلْتُ عَن كذا ، أي : تَرَكْتُهُ ، واشتغلتُ بغَيره ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ، أي : كُل امرأة مَعَها ولد تُرضِعه ، يُقال : امرأة مُرْضِع بلا هاء، إذا أُرِيد به الصِّفَة ، مِثل : حائض وحَامِل ، فإذا أرادوا الفِعْل أَدخلوا الهاء ﴿ وتضعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ، أي : تُسقِط وَلَدَها مِن هَول ذلك اليَوم . قال الحسن : تَذهَل المُرْضِعَةُ عَن وَلَدها بغَير فِطَام ، وتضع الحامل ما في بَطْنها بغَير تَمَام ، وهذا يدل على أن هذه الزَّلْزَلة تكون في الدُّنيا ، لأن بَعْد البعث لا يَكُون حَمْل ، ومَن قال : تكون في القِيامة قال : هذا على وجه تعظيم الأمر ، لا على حقيقته ، كقَولهم : أصابنا أمر يَشِيب فيه الوَلِيد ، يُرِيد شِدَّتَه . ﴿ وتَرى الناسَ سُكارى وما هُم بسُكارى ﴾ ، ... ، قال الحسن : معناه : وترى الناس سُكَارى مِن الخَوف ، وما هُم بسُكَارى مِن الشَّراب . وقِيل : معناه : وترى الناسَ كأنَّهُم سُكَارى ، ﴿ ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾)) .

وعن عِمران بن حُصَين : أنَّ رسول الله ﷺ قال وهو في بَعْض أسفاره ، وقَد قَارَبَ بَيْنَ أصحابه السَّيْرُ، فَرَفَعَ بهاتَيْن الآيتَيْن صَوْتَه: ((﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وتضعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وترى الناسَ سُكارى وما هُم بسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾)) . فلمَّا سَمِع أصحابُه ذلك ، حَثُّوا المَطِيَّ ، وعَرَفُوا

أنَّه عِند قَول يَقُوله ، فلمَّا تَأشَّبُوا عِندَه حَوْلَه ، قال : ((هَل تَدْرُونَ أيُّ يَوْمٍ ذاكم ؟)) ، قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلَم ، قال : ((ذَاكَ يَوْمُ يُنَادَى آدَمُ ، فيُناديه رَبُّه ، فيَقول : يا آدم ، ابْعَثْ بَعْثَ النار ، فيقول : وما بَعْثُ النار ؟ ، فيَقُول : مِن كُلِّ ألفٍ تِسْعُمَائةٍ وتِسْعٌ وتِسْعُون إلى النار ، وواحدٌ إلى الجَنَّة)) ، قال : فَأُبْلِسُوا حَتَّى ما أَوْضَحُوا بِضَاحِكَةٍ، فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ذاك، قال: ((اعْلَمُوا وأَبْشِرُوا ، فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ، إنَّكُم مَعَ خَلِيقَتَيْنِ ما كانتا مَعَ شَيء إلا كَثَّرَتَاه ، يَأجوجُ ومَأجوجُ ، وَمَن هَلَكَ مِن بَني آدم ، وبَني إبليس)) . قال : فَسَرَّى ذلك عَن القَوم، قال: ((اعْلَمُوا وأَبْشِرُوا ، فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ، ما أنتُم في الناس إلا كالرَّقْمَةِ في ذِراع الدَّابَّة ، أوْ كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعِير)) [٢٦١].

عندما قرأ النبيُّ ﷺ هاتَيْن الآيتَيْن بصَوت مُرتفع ، حَثَّ أصحابُه المَطِيَّ ، أي : حَضُّوا الدَّوَابَّ على الإسراع في السَّير ، وعَرَفُوا أنَّ النبيَّ ﷺ سَيَقُول كلامًا مُهِمًّا ، وكُل كلام النبيِّ ﷺ مُهِم ، فلمَّا تأشَّبُوا عِندَه حَوْلَه ، أي : اجتمعوا إلَيه ، وأطافوا به ، سألهم : هل يَعرِفون ذلك اليوم الرَّهيب ؟ . إنَّهُ اليَوم الذي يَأمرُ اللهُ فيه آدمَ ﷺ أن يَبعَث بَعْثَ النار ، أي المَبعوث المُوجَّه إلَيها ، وهُم أهل النار. وبيَّن اللهُ تعالى مِقْدَار مَبعوث النار، مِن كُل ألف شخص ، تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجَنَّة . وعندما سَمِعَ الصحابةُ هذا الكلام المُخيف ، سَكَتُوا مِن الحُزنِ والخَوفِ ، وما تبسَّموا ، فلمَّا رأى النبيُّ ﷺ الرُّعْبَ واليأسَ على وُجوههم ، طَمْأنَهم ، ورفع معنوياتهم ، وأعْلَمَهُم بأنَّ التسعمائة والتسع والتسعين مِن أهل النار ، هُم مِن يأجوج ومأجوج ، ومَن هَلَكَ مِن كَفَرَة الإنسِّ والجِنِّ ، فَفَرِحَ الصحابةُ بهذا الخَبَر العظيم، وبيَّن لهم النبيُّ ﷺ أنَّ عدد المؤمنين قليل جِدًّا بالنِّسبة إلى عدد الكافرين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم عن إحدى روايات الحديث(٣/ ٩٨): ((قَوله ﷺ : (فإنَّ مِن يأجوج ومأجوج ألفٌ ، ومِنكُم رَجُلٌ) هكذا هو في الأصول والروايات ألف ورَجُل ، بالرَّفْع فيهما ، وهو صحيح ، وتقديره أنه بالهاء التي هي ضَمير الشأن ، وحُذِفَت الهاء ، وهو جائز معروف . وأمَّا ياجوج وماجوج ، فهُما غَير مهموزَيْن عِند جُمهور القُرَّاء وأهل اللغة ، وقرأ عاصم بالهَمْز فيهما ، وأصله من أَجِيج النار ، وهو صَوتها وشَرَرها ، شُبِّهُوا به لكَثرتهم وشِدَّتهم ، واضطرابهم بعضهم في بعض . قال وَهْب بن مُنبِّه ومُقاتل بن سُليمان : هُم مِن وَلَد يَافِث بن نُوح .

---

٢٦١ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٨١) برقم (٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الضَّحاك : هُم جِيل مِن التُّرك ، وقال كَعْب : هُم بَادِرة مِن وَلَد آدم مِن غَير حَوَّاء ، قال : وذلك أنَّ آدم ﷺ احتلمَ ، فامتزجتْ نُطفته بالتُّراب ، فَخَلَقَ اللهُ تعالى مِنها يأجوج ومأجوج ، واللهُ أعلم [٢٦٢]. قَوله ﷺ : (كالرَّقْمَة في ذِرَاع الحِمار) هي بفَتْح الرَّاء وإسكان القاف . قال أهل اللغة: الرَّقْمَتان في الحِمار هُمَا الأثَرَان في باطن عَضُدَيْه ، وقِيل : هي الدائرة في ذِرَاعَيْه ، وقِيل : هي الهَنَة الناتئة في ذِرَاع الدَّابَّة مِن داخل ، والله أعلم بالصَّواب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَخافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلوبُ والأبصارُ ﴾ [النُّور : ٣٧] .

يَخافون يَوْمَ القِيامة الرهيب ، الذي تَضطرب وتتغيَّر وتتحوَّل فيه القلوبُ والأبصارُ من شِدَّة الخوف والرُّعب،وعَظَمَة الأهوال والشدائد، وحَذَرًا مِن الهلاك والعذاب، وطَمَعًا في الفَوز والنَّجاة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٧و٤٨): ((قَوله تعالى : ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ مَن كان قَلْبُه مؤمنًا بالبَعْث والنُّشور ازدادَ بصيرةً برؤية ما وُعِد بِه ، ومَن كان قلبه على غَير ذلك رأى ما يُوقِن معه بأمر القِيامة ، قاله الزَّجاج . والثاني أن القلوب تتقلَّب بين الطمع في النَّجاة ، والخَوف مِن الهلاك . والأبصار تتقلَّب تنظر مِن أين يُؤتَوْنَ كُتُبَهم ، أَمِن قِبَل اليمين أم مِن قِبَل الشِّمال ، وأي ناحية يُؤخَذ بهم ، أذات اليمين أم ذات الشِّمال، قاله ابن جرير.والثالث تتقلَّب القلوبُ فتَبلُغ إلى الحناجر، وتتقلب الأبصار إلى الزُّرق بعد الكُحل ، والعمى بعد النظر)) .

وعن عبد الله ــ رضي اللهُ عنه ــ : أنَّه دَعَا بشَرَاب ، فَأُتِيَ به ، فقال : ((نَاوِل القَوْمَ)) ، فقالوا : نَحْنُ صِيَام ، فقال : ((لَكِنْ أنا لَسْتُ بِصَائِمٍ)) ، ثُمَّ أَمَرَهُ ، فَشَرِبَهُ، ثُمَّ قال: ((﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلوبُ والأبصارُ ﴾)) [٢٦٣].

صِيامُهم دليلٌ على إيمانهم العميق ، وحِرصهم على العبادات والطاعات ، وتصديقهم بيَوم القِيامة العظيم ، الذي تضطرب فِيه القُلوبُ والأبصارُ مِن الخَوفِ والرُّعبِ والفَزَعِ والهَوْلِ .

---

٢٦٢ قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٥٣) : ((وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم ، لا يحتلمون ، وإنما هُم مِن ولد يَافِث ، وكذلك قال مُقاتل وغَيْرُه)) اهـ . وقال السُّيوطي في تنوير الحوالك (١/ ٥٥) : ((مِن خصائص الأنبياء عليهم السلام أنهم لا يحتلمون ، لأنَّ الاحتلام مِن الشيطان ، فلم يُسلَّط عليهم)) .

٢٦٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٤) برقم (٣٥٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي ذلك اليَوم الرَّهيب تتقلَّب القُلُوبُ بَيْن الطَّمَع في النَّجَاة والحَذَر مِن الهَلاك ، وتتقلَّب الأبصارُ بَيْن ناحِيَتي اليمين والشِّمال ، ومِن أيِّ جِهة تأتي كُتُبُهُم ، مِن جِهة اليمين (جِهة أهل الجَنَّة) أم مِن جِهة الشِّمال (جِهة أهل النار) . والخَوف على المصير هو سبب تقلُّب القلوب والأبصار، والمصيرُ هو الخُلود في الجَنَّة أو الخُلود في النار،ولا تُوجد فُرصة أُخرى ولا حَل وسط.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بالغَمَامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلًا ﴾ [الفُرقان : ٢٥] .

تُوضِّح الآيةُ هَوْلَ يَومِ القِيامة وشِدَّته الرهيبة ، حَيث تتشقَّق السَّماءُ ، وتَنفطر عن الغَمَام ، وهو السَّحَاب الأبيض الرَّقيق ، ونُزِّلَت الملائكةُ مِن السَّماء إلى الأرض ، بصحائف أعمال العِباد ، وأحاطتْ بالناس في أرض المَحْشَر .

والمعنى العام : إنَّ السَّماء تنفتح بغَمَام أبيض يَخرُج مِنها ، وفي الغَمَام الملائكةُ يَنْزِلُون إلى أرض المَحْشَر ، حَامِلِين صَحائف أعمال العِباد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢١) : ((يُخْبِر تعالى عَن هَول يَوم القِيامة ، وما يكون فيه مِن الأمور العظيمة ، فمِنها انشقاق السَّماء ، وتَفَطُّرها وانفراجها بالغَمَام ، وهو ظُلَل النُّور العظيم الذي يُبهِر الأبصارَ ، ونُزول ملائكة السماوات يَومئذ ، فيُحيطون بالخلائق في مَقَام المَحْشَر ، ثُمَّ يجيء الرَّبُّ تباركَ وتعالى لفَصْل القَضَاء . قال مُجاهد : وهذا كما قالَ تعالى : ﴿ هَل يَنظُرُونَ إلا أن يَأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلائِكَةُ ﴾ الآية)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٥): ((ورُوِيَ أن السَّماء تتشقَّق عن سَحَاب أبيض رقيق ، مِثل الضَّبَابَة_ وهي السَّحَابَة التي تُغَطِّي الأرضَ كالدُّخَان _ ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيههم، فتنشق السماءُ عنه ، وهو الذي قال تعالى : ﴿ هَل يَنظُرُونَ إلا أن يَأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ﴿ ونُزِّلَ الملائكةُ ﴾ مِن السَّماوات ، ويأتي الرَّبُّ جَلَّ وَعَزَّ في الثمانية الذين يَحْمِلُون العَرْشَ لفَصْل القَضَاء على ما يَجوز أن يُحمَل عَلَيه إتيانه ، لا على ما تُحمَل عليه صِفات المَخلوقين مِن الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تتشقَّق سَمَاءُ الدُّنيا ، فيَنزِل أهلُها ، وهُم أكثر مِمَّن في الأرض مِن الجِن والإنس ، ثُمَّ تنشق السَّماءُ الثانية ، فيَنزِل أهلُها ، وهُم أكثر مِمَّن في سَماء الدُّنيا ، ثُمَّ كذلك حتى تنشق السَّماءُ السابعة ، ثُمَّ يَنزِل الكَرُوبِيُّون وحَمَلَةُ العَرْش ، وهو معنى قَوله : ﴿ ونُـزِّلَ الملائكةُ تَنزيلًا ﴾ ، أي : مِن السَّماء إلى الأرض لحِساب الثَّقَلَيْن (يعني الإنس والجِن). وقِيل : إن السَّماء تنشقُّ بالغَمَام الذي بَينها وبين الناس ، فَبِتَشَقُّق الغَمَام تَتَشَقَّق السماءُ، فإذا انشقَّت السَّمَاءُ انتقضَ تركيبُها ، وطُوِيَتْ ، ونُزِّلَت المَلائكةُ إلى مَكَان سِوَاها)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : أنَّه قرأ : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بالغَمَامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلًا ﴾ . قال : تَشَقَّقُ سَمَاءُ الدُّنيا ، وتَنزِلُ المَلائكةُ عَلى كُلِّ سَمَاء ، فيَنزِل أهلُ السَّماءِ الدُّنيا ، وهُم أكثر مِمَّن في الأرض مِن الجن والإنس ، فيَقول أهلُ الأرض : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيَقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء الثانية،وهُم أكثر مِن أهل السَّماء الدُّنيا وأهل الأرض ، فيَقولون: أفِيكُم رَبُّنا ؟، فيَقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء الثالثة ، وهُم أكثر مِن أهل السَّماء الثانية وسَماء الدنيا وأهل الأرض ، فيَقولون : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيَقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء الرابعة ، وهُم أكثر مِن أهل السَّماء الثالثة والثانية والدُّنيا وأهل الأرض ، فيَقولون : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء الخامسة ، وهُم أكثر مِن أهل السماء الرابعة والثالثة والثانية والدُّنيا وأهل الأرض،فيَقولون : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيَقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء السادسة ، وهُم أكثرُ مِن أهل السماء الخامسة والرابعة والثالثة والثانية والدُّنيا وأهل الأرض ، فيَقولون : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل أهلُ السَّماء السابعة،وهُم أكثر مِن أهل السَّماء السادسة والخامسة والرابعة والثالثة والثانية والدُّنيا وأهل الأرض ، فيَقولون : أفِيكُم رَبُّنا ؟ ، فيَقولون : لا ، ثُمَّ يَنزِل الكَرُوبِيُّون ، وهُم أكثر مِن أهل السَّماوات السَّبْع والأرْضِين وحَمَلَةِ العَرْشِ ، لَهُم قُرُونٌ كُعُوبٌ ككُعُوبِ القَنَا (الرِّماح) ، ما بَيْنَ قَدَمِ أحدهم كذا وكذا ، ومِن أخْمَصِ قَدَمِه إلى كَعْبه مَسيرةُ خمسمائة عام ، ومِن كَعْبه إلى رُكبته مَسيرةُ خمسمائة ، ومِن رُكبته إلى أرْنَبَتِه مسيرةُ خمسمائة عام ، ومِن تَرْقُوَته إلى مَوْضِع القُرْط مَسيرةُ خمسمائة عام)) [٢٦٤] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُون ﴾ [الشُّعَراء : ٨٨] .

في يَوم القِيامة الرَّهيب ، لا فائدة مِن المال ، ولا قيمة له ، لأنَّ مال الدُّنيا في الدُّنيا ، والكَفَن لَيس له جُيُوب، ولا أهمية للأولاد ولا نَفْع يُرجَى مِنهُم. أي:لا يَنفَع المالُ والأولادُ أحدًا مِن الناس، ولا يَجلِبان له نعيمًا ، ولا يَدفَعان عَنه عذابًا . والابنُ هو أخصُّ القَرَابة وأوْلاهُم بالنَّفْع والحماية ، وإذا كانَ الابنُ بلا نَفْع ولا فائدة ، فغَيره مِن القَرَابة والأعْوَان والأتْبَاع بالأوْلَى .

---

٢٦٤ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٣) برقم (٨٦٩٩) ، وقال : ((رُواة هذا الحديث عن آخرهم مُحتج بهم غَير علي بن زيد بن جُدعان القُرَشي ، وهو وإن كان موقوفًا على ابن عباس ، فإنه عجيب بمَرَّة)) اهـ . وقال الذهبي : ((إسناده قوي)) اهـ . إنَّ عليَّ بن زَيد بن جُدعان مُختلف فيه ، والرَّاجح ضَعفه ، والحديثُ مَوقوف أيضًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٥١): ((وقَوله: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ﴾ ، أي لا يَقِي المَرْءَ مِن عَذاب الله مَالُه ، وَلَو افتدى بِمِلْءِ الأرض ذَهَبًا ، ﴿ ولا بَنُون ﴾ ، أي : وَلَو افتدى بمَن على الأرض جميعًا، ولا يَنفَع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدِّين له، والتَّبَرِّي مِن الشِّرْكِ وأهْلِه)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٤) : ((﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُون ﴾ ، أي: لا يَنفَعان أحدًا إلا مُخْلِصًا سَلِيمَ القلب عَن الكُفر ، ومَيْلِ المعاصي ، وسائرِ آفاته ، أو لا يَنفَعان إلا مال مَن هذا شأنه وبَنُوه ، حيث أنفقَ مَالَه في سبيل البِر ، وأرشدَ بَنِيه إلى الحق ، وحَثَّهم على الخَير ، وقَصَدَ بهم أن يكونوا عِبادَ الله مُطيعين شُفَعاء لَه يَوم القِيامة)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنفَعُ الذينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم ولا هُم يُسْتَعْتَبُون ﴾[الرُّوم : ٥٧].

في يَومِ القِيامة الرَّهيب،لا يَنفَع الكافرين الذين ظَلَمُوا أنفسَهم باعتناق الكُفر واقتراف الذُّنُوب، اعتذارُهُم عَمَّا فَعَلُوا ، ولا يُدْعَوْنَ إلى إزالة عَتَبهم مِن التَّوبة والعِبادة والطاعة ،كَمَا دُعُوا إلى ذلك في الحياة الدُّنيا ، لأنَّه قد ذَهَبَ وَقْتُ التَّوبة ، ولا يُوجد فُرصة للتَّعويض ، ولا تدارُك ما فات .

لا يُطلَب مِنهُم الرُّجوع إلى ما يُرضي اللهَ تعالى ، لأنَّ الدُّنيا وَقت الزِّراعة ، والآخِرة وَقْت الحَصَاد، والدُّنيا امتحان، والآخِرة نتيجة الامتحان، والدُّنيا عَمَل ولا جَزَاء، والآخِرة جَزَاء ولا عَمَل.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣١٢): ((قال ابن عباس : لا يُقْبَل مِن الذين أشركوا عُذر ولا تَوبة. قَوله تعالى: ﴿ولا هُم يُسْتَعْتَبُون ﴾ ، أي:لا يُطلَب مِنهُم العُتْبَى والرُّجُوع في الآخِرة)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأنذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ما للظالمينَ مِن حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾ [غَافِر : ١٨] .

الأمرُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ بإنذار العِبَاد ، وتَخويفهم مِن هَول يَوم القِيامة وشِدَّته .

وَخَوِّفْهُم ذلك اليومَ العظيم يَوْمَ القِيامة. والآزِفَةُ اسم من أسماء يوم القيامة، سُمِّيَتْ بذلك لأنها قريبة، وكُل آتٍ قريبٌ. تَزولُ القُلوبُ عن أماكنها مِن شِدَّة الخَوف والجَزَع،حَتَّى تَرتفع إلى الحناجر (الحُلُوق) ، فلا تَعود القُلوب إلى أماكنها فيطمئنوا ، ولا تَخرُج مِن أفواههم فيموتوا ويَستريحوا ، مَكْرُوبين ، مُمتلئين خَوْفًا وحُزنًا وغَمًّا وحَسْرَةً . ليس للظالمين الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالكُفر صَديق يَنفعهم ، ولا قريب يُفِيدهم ، ولا شَفيع يَشفَع لهم ليُنقذهم من العَذاب الرهيب والعِقاب الأليم .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٧٠) : ((﴿ ما للظالمينَ ﴾ الكافرين ﴿ مِن حَمِيمٍ ﴾ مُحِب مُشفِق ، ﴿ ولا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾ ، أي : يَشفَع ، وهو مَجَاز عَن الطاعة ، لأنَّ الطاعة حقيقةً لا تَكُون إلا لِمَن فَوْقَك ، والمُراد نَفْي الشَّفاعة والطاعة)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٨) : ((والضَّمائر إن كانت للكُفَّار ، وهو الظاهر ، كان وضع الظالمين مَوضِع ضَميرهم ، للدَّلالة على اختصاص ذلك بهم ، وأنَّه لِظُلمهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢١٢ و٢١٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأنذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّه يَوم القِيامة ، قاله الجمهور . قال ابن قُتَيبة : وسُمِّيَت القِيامة بذلك لقُربها ، يُقَال : أَزِفَ شُخُوص فُلان ، أي قَرُبَ . والثاني أنَّه يَوم حُضُور المَنِيَّة، قاله قُطْرُب . قَوله تعالى : ﴿ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ ﴾ ، وذلك أنَّها تَرتقي إلى الحَنَاجِر، فلا تَخرُج، ولا تَعُود، هذا على القَول الأول ، وعلى الثاني : القُلُوب هي النُّفُوس ، تَبلُغ الحناجرَ عِند حُضُور المَنِيَّة . قال الزَّجاج:و ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ مَنصوب على الحال،والحال مَحمولة على المعنى،لأن القُلوب لا يُقال لها كاظمين، وإنَّما الكاظمون أصحاب القُلوب، فالمعنى: إذْ قُلُوب الناس لدى الحناجر في حال كَظْمهم. قال المُفسِّرون : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ ، أي : مَغمُومين، مُمتلئين خَوْفًا وحُزنًا، والكَاظِم المُمْسِك للشَّيء على ما فيه . ﴿ ما للظالمينَ ﴾ ، يعني : الكافرين ، ﴿ مِن حَمِيمٍ ﴾ ، أي : قَرِيب يَنفَعُهم ، ﴿ ولا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾ فِيهم ، فَتُقْبَل شَفَاعته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الأخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا المُتَّقِين ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٧] .

الأصدقاءُ والأحبابُ يَوم القِيامة يُصبحون أعداء ، يَكْرَه بعضُهم بعضًا ، ويُعادي بعضُهم بعضًا، إلا المُتَّقين الذين كانت صداقتهم ومحبتهم لله تعالى ، فإنَّهُم أصدقاء وأحباب في الدُّنيا والآخِرة ، وهذا تكريمٌ إلهيٌّ لهم ، وإعلاء لمكانتهم ، وتشريف لقَدْرهم ، وتطييب لقُلوبهم ومشاعرهم .

وكُلُّ صَدَاقة ومَحَبَّة لغَير الله تعالى ، تصير في يَوم القِيامة عداوةً وبَغضاء وتنافُر ، وما كان لله دامَ واتَّصَلَ، وما كان لغَيره انقطعَ وانفصلَ . ومَن كانت محبته مِن أجل الدُّنيا ، زالت بزوالها، وفَنِيَتْ بفَنَائها ، وانقلبت يَوم القِيامة عداوةً وكراهيةً ، وما كانت محبته لله دَامَتْ بدَوامه ، واللهُ هو الحَيُّ الدائم الذي لا يَموت ، ولا يَفْنَى ، ولا يَزُول ، ولا يَغِيب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٢٧): ((قَوله تعالى: ﴿ الأخِلَّاءُ ﴾ ، أي: في الدُّنيا ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أي : في القِيامة ، ﴿ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، لأنَّ الخَلَّة (الخَصْلَة) إذا كانت في الكُفر والمَعصية ، صارت عداوةً يَوم القِيامة . وقال مُقاتل : نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف ، وعُقبة ابن أبي مُعَيط ، ﴿ إلا المُتَّقِين ﴾ يعني: المُوَحِّدِين)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٨٠١): ((﴿ الأخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أي : الأخِلاء في الدُّنيا ، المُتحابون فِيها، يَوم تأتيهم الساعةُ ﴿ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، أي : يُعادي بعضُهم بعضًا ، لأنَّها قد انقطعت بينهم العلائق ، واشتغل كُل واحد

مِنهُم بنَفْسه ، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخِلاء أسبابًا للعذاب، فصاروا أعداء، ثُمَّ استثنى المُتَّقين ، فقال : ﴿ إلا المُتَّقين ﴾ ، فإنَّهُم أخِلاء في الدُّنيا والآخِرة ، لأنَّهُم وَجدوا تلك الخَلَّة (الخَصْلَة) التي كانت بينهم مِن أسباب الخير والثواب ، فبَقِيَت خَلَّتُهُم على حالها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى إنَّا مُنتَقِمُون ﴾ [الدُّخَان : ١٦] .

اذكُر يَوْمَ يَبْطِشُ اللهُ بالكافرين البَطْشَةَ الكُبرى ، انتقامًا مِنهُم . والبَطْشُ الأخذ بقُوَّة وشِدَّة . قال ابن مسعود : يَوم بَدْر. وقال ابن عباس: يَوم القِيامة. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٦) : ((والظاهر أنَّ ذلك يَوم القِيامة ، وإنْ كان يَوم بَدْر يَوم بَطْشَة أيضًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٤٢) : ((وفي هذا اليَوم قَولان : أحدهما يَوم بَدْر، قاله ابن مسعود، وأُبَي بن كَعْب، وأبو هُرَيرة، وأبو العالية، ومُجاهد، والضَّحاك. والثاني يَوم القِيامة ، قاله ابن عباس والحسن . والبَطْش الأخذ بقُوَّة)) اهـ . وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٧/ ٢٤٤) : ((القَول الثاني أصَح، لأن يَوم بَدْر لا يَبلُغ هذا المَبلَغ ، الذي يُوصَف به هذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يَحصُل يَوم القِيامة ، ولمَّا وصف بكَوْنها " كُبرى " ، وَجَبَ أن تكون أعظم أنواع البَطْش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون في القِيامة)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِهَا اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الجاثية : ٢٨] .

وترى يا مُحمَّد في يَوم القِيامة أهلَ كُلِّ دِين جَالِسين على الرُّكَب ، مِن شِدَّة الخَوف والفَزَع والهَوْل . وهي جِلْسَة المُخَاصِم بَيْنَ يَدَي الحاكم ، يَنتظر القَضَاءَ ، وصُدورَ القَرَار .

كُلُّ أهل دِين يُدْعَوْنَ إلى صحائف أعمالهم . وفي ذلك اليوم الرهيب يَنالون جَزَاء أعمالهم التي قاموا بها في الدُّنيا ، مِن خَير أوْ شَر . مَن أحسنَ فلهُ الجَنَّة ، ومَن أساءَ فلهُ النار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٦٤) : ((﴿ وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ ، قال الفَرَّاءُ : ترى أهلَ كُلِّ دِين ﴿ جَاثِيَةً ﴾ . قال الزَّجاج : أي: جالسة على الرُّكَب . يُقال : قد جَثَا فُلان جُثُوًّا ، إذا جَلَسَ على رُكْبَتَيْه ، ومِثله جَذا يَجذُو ، والجُذُوُّ أشدُّ استيفازًا مِن الجُثُوِّ ، لأنَّ الجُذُوَّ أن يَجلس صاحبُه على أطراف أصابعه . قال ابن قُتَيبة : والمعنى أنها غَير مُطمئنة . قَوله تعالى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِهَا ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه كِتابها الذي فِيه حَسَنَاتها وسَيِّئاتها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنَّه حِسَابها ، قاله الشَّعبي والفَرَّاء وابن قُتَيبة . والثالث كِتابها الذي أُنزِل على رسوله ، حكاه الماوردي . ويُقَال لهم : ﴿ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنتم تَعْمَلُون ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : ٣] .

القِيامة خافضة لأقوام ، رافعة لآخَرين ، تَخفِض الكافرين في النار ، وتَرفَع المؤمنين في الجَنَّة.

أوْ : تَخفِض أقوامًا كانوا في الدُّنيا أعِزَّاء إلى النار ، وتَرفَع أقوامًا كانوا في الدُّنيا وُضَعاء إلى الجَنَّة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦١) : ((وقَوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ ، أي : تَخفِض أقوامًا إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإنْ كانوا في الدنيا أعِزَّاء ، وتَرفع آخَرين إلى أعلى عِلِّيين إلى النَّعيم المُقيم ، وإنْ كانوا في الدُّنيا وُضَعاء ، هكذا قال الحَسَن وقَتَادة وغَيرهما)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ ، قال عِكرمة ومُقاتل والسُّدي : خَفَضَت الصَّوْتَ ، فأسمعتْ مَن دَنَا ، ورَفَعَتْ مَن نأى ، يعني أسمعت القريبَ والبعيدَ ، وقال السُّدي : خَفَضَت المُتكبِّرين ، ورَفَعَت المُستضعفين . وقال قَتادة : خَفَضَتْ أقوامًا في عذاب الله ، ورَفَعَتْ أقوامًا إلى طاعة الله . وقال عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ : خَفَضَتْ أعداءَ الله في النار ، ورَفَعَتْ أولياءَ الله في الجَنَّة . وقال مُحمَّد بن كَعْب : خَفَضَتْ أقوامًا كانوا في الدُّنيا مَرفوعين ، ورَفَعَتْ أقوامًا كانوا في الدُّنيا مَخفُوضين . وقال ابن عطاء : خَفَضَتْ أقوامًا بالعَدْل ، ورَفَعَتْ آخَرين بالفَضْل . والخَفْضُ والرَّفْعُ يُستعملان عِند العرب في المَكَان والمَكَانة والعِز والمَهَانة ، ونَسَبَ سُبحانَه الخَفْضَ والرَّفْعَ لِلقِيامة تَوَسُّعًا ومَجَازًا ، على عادة العرب في إضافتها الفِعل إلى المَحَل والزَّمان وغَيرهما ، مِمَّا لَم يَكُن مِنه الفِعْل ، يَقولون : ليلٌ نائمٌ ، ونهارٌ صائمٌ ، وفي التَّنزيل : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليلِ والنَّهارِ ﴾ [سَبَأ : ٣٣] . والخَافِضُ والرَّافِعُ على الحقيقة إنَّما هو الله وَحْدَه، فَرَفَعَ أولياءه في أعلى الدَّرَجات، وخَفَضَ أعداءه في أسفل الدَّرَكات... والقِيامة لا شَك في وُقُوعها ، وأنَّها تَرفَع أقوامًا ، وتَضَع آخَرين)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يَسْتَطِيعُون ﴾[القَلَم: ٤٢].

تُوضِّح الآيةُ أهوالَ يَوم القِيامة وشدائده . وفي ذلك اليَوم الرَّهيب ، يُكشَف عن أمرٍ عظيم ، وخَطْبٍ شديد ، وكَرْب مُخيف ، وحَدَث فظيع ، في غاية الهَول والشِّدة .

وكَشْفُ السَّاق عِبارة عَن شِدَّة الأمر وصُعوبة المَوقِف يَوم القِيامة .

ويُدعَى الكافرون والمُنافقون إلى السُّجُود لله تعالى ، توبيخًا لهم على تَركهم السُّجود لله في الدُّنيا ، فلا يستطيعون ، لأن ظَهْر أحدهم يُصبح طبقًا واحدًا .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٢٧١ و٢٧٢) : ((والجُمهور على أن الكَشْف عَن السَّاق عِبارة عَن شِدَّة الأمر ، وصُعوبة الخَطْب ، فمعنى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، يَوم يَشتدُّ الأمرُ ،

ويَصعُب ، ولا كَشْف ثَمَّة ، ولا ساق ، ولكن كَنَّى به عَن الشِّدة ، لأنَّهُم إذا ابْتُلُوا بشِدَّة كَشَفُوا عن السَّاق ، وهذا كما تقول للأقطع الشَّحيح : يَده مَغلولة ، ولا يَد ثَمَّة ، ولا غُل ، وإنَّما هو كِناية عن البُخْل ، وأمَّا مَن شَبَّهَ فَلِضِيق عَطَنه (العَطَن : مَبْرَك الإبِل حَول الماء) ، وقِلَّة نَظَر في عِلْم البيان، وَلَوْ كان الأمر كما زَعم المُشبِّهة لكانَ مِن حَق السَّاق أن يُعرَّف ، لأنها ساق معهودة عِنده، ﴿ وَيُدْعَوْنَ ﴾ ، أي : الكُفَّار ثَمَّة ﴿ إلى السُّجُودِ ﴾ لا تكليفًا ، ولكنْ توبيخًا على تركهم السُّجود في الدُّنيا ، ﴿ فلا يَسْتَطِيعُون ﴾ ذلك ، لأنَّ ظُهورهم تَصِير كَصَيَاصِي البَقَر (قُرُونها) ، لا تنثني عِند الخَفْض والرَّفْع)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤١) : ((وهذا اليَوم هُوَ يَوم القِيامة ، وقد روى عِكرمة عن ابن عباس : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : يُكشَف عَن شِدَّة ، وأنشد : وقامت الحربُ بِنَا على سَاق ، وهذا قَول مُجاهد وقَتادة . قال ابن قُتَيبة : وأصل هذا أنَّ الرَّجُل إذا وَقَعَ في أمر عظيم يحتاج إلى مُعاناته والجِد فيه ، شَمَّرَ عَن سَاقه ، فاسْتُعِيرت السَّاق في مَوضِع الشِّدة، هذا قَول الفَرَّاء وأبي عُبَيدة واللغويين ، وقد أُضِيفَ هذا الأمر إلى الله تعالى ، فرُوِيَ في الصَّحِيحَيْن مِن حديث أبي سعيد الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه : " يَكشِف عَن سَاقه " ، وهذا إضافة إلَيه ، لأن الكُلَّ له وفِعْله . وقال أبو عُمر الزاهد : يُراد بِها النَّفْس ، ومِنه قول عليٍّ رضي اللهُ عنه : أُقَاتِلُهُم وَلَوْ تَلِفَتْ سَاقِي ، أي : نَفْسي ، فعلى هذا يكون المعنى : يَتَجَلَّى لهم . قَوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ ﴾ ، يَعني : المُنافقين ، ﴿ فلا يَسْتَطِيعُون ﴾ ، كأنَّ في ظُهورهم سَفَافِيد (أسياخ) الحَدِيد . قال النَّقَّاش : وليس ذلك بتَكليف لهم أن يَسْجُدُوا ، وهُم عَجَزَة ، ولَكِنَّه تَوبيخ لهم بتَركهم السُّجود)) .

إنَّ لفظ " السَّاق " في اللغة العربية يدلُّ على شِدَّة الأمر . والمَقصود بِ﴿ سَاقٍ ﴾ هُوَ شِدَّة الأمر وصُعوبة الخَطْب يَوم القِيامة للحِسَاب والجَزَاء ، كما قال الشاعر :

فتى الحربِ إن عَضَّت به الحربُ عَضَّها وإن شَمَّرت عَن سَاقِها الحربُ شَمَّرا

وكما قال الشاعرُ :

كَشَفَتْ لهم عَن سَاقها وبدا مِنَ الشَّر الصُّراحِ

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٧) : ((قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل : يَبدُو عَن أمر شديد)) اهـ . ونقل الطبري تأويل السَّاق بالشِّدة عن مُجاهد وقَتادة اللذين هُمَا مِن علماء السَّلَف ، انظر تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧) . والطبريُّ أيضًا مِن عُلماء السَّلَف .

وهذا يدل على أن التأويل كان عند السَّلَف الصالح . فالذي يَرمي الذين يتأوَّلون بالجَهْل والضَّلال ، يتهجَّم ضمنيًّا على جماعة من علماء الصحابة والتابعين. والتأويل ثابت عنهم ومنتشر في كتب التفسير والحديث ، ومَبسوط باستفاضة مُدَعَّمًا بالأسانيد الثابتة، ونحن هنا لن نستعرض كُلَّ ما ورد ، لكن يَهُمُّنا إيصال الفِكرة بأن التأويل كان عند السَّلَف الصالح ، وَلَم يَأتِ به الخَلَف مِن بَنَات أفكارهم ، لذلك مَنْ أَوَّلَ ضِمن الضَّوابط الشرعية واللغوية ، هو على خَير كَثير ، ومأجور على عمله المُتوافق مع القُرآن والسُّنَّة ، وهو أبعد ما يكون عَن الضَّلال والزَّيْغ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه سُئل عن قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢]. قال: ((إذا خَفِيَ عَلَيكُم شيءٌ مِن القُرآن ، فابتغوه في الشِّعر، فإنه ديوان العرب ، أمَا سمعتم قول الشاعر : اصْبِرْ عَنَاق ، إنَّه شَرٌّ بَاق ، قد سَنَّ قَوْمُكَ ضَرْبَ الأعناق، وقامت الحربُ بِنا عَن سَاق)) . قال ابن عباس : ((هذا يَوْمُ كَرْبٍ وشِدَّة)) [٢٦٥].

ومعروفٌ أن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ حَبْر الأُمَّة ، وتُرجمان القُرآن ، وأحد أكبر عُلماء الصحابة . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢٨) : ((وقال الخطابي : تَهَيَّب كثير من الشيوخ الخوض في معنى الساق، ومعنى قول ابن عباس: إن الله يَكشِف عن قُدرته التي تَظهر بها الشِّدة ، وأسندَ البَيهقيُّ الأثرَ المذكور عن ابن عباس بسندَيْن ، كُل مِنهما حَسَن)) .

وفي تاج العروس (١/ ٦٣٨٦) : ((قالَ ابنُ سِيدَه : وقد يَكُونُ يُكْشَفُ عن ساقٍ لأنَّ الإنْسانَ إذا دَهَمَتْهُ شِدَّةٌ شَمَّرَ لَها عن ساقَيْه ، ثُمَّ قِيلَ للأمْرِ الشَّدِيدِ : ساقٌ ، ومِنه قَوْلُ دُرَيْدٍ : "كَمِيشُ الإزارِ خارِجٌ نِصْفُ ساقِهِ ، أَرادَ : أَنه مُشَمِّرٌ جاد ، ولم يُرِدْ خُرُوج السَّاقِ بعَيْنِها)) .

وَبَعْدَ كُلِّ هذه الأدلة، يأتي ابن تَيْمِيَّة فيقول في الرد على البكري [تلخيص كتاب الاستغاثة] (٢/ ٥٤٢ و٥٤٣): ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، لَم يَقُل : يَوم يُكْشَف الساق ، وهذا يُبيِّن خطأ مَن قال : المُراد بهذه كَشْف الشِّدة ، وأن الشِّدة تُسمَّى ساقًا ، وأنه لَوْ أُريد ذلك لَقِيل: يَوْمَ يُكْشَف عن الشِّدة ، أوْ يَكْشِف الشِّدةَ ، وأيضًا فيَوم القِيامة لا يَكْشِف الشِّدةَ عن الكُفَّار ، والرِّواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد)) [٢٦٦].

---

٢٦٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٢) برقم (٣٨٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٦٦ هذا الكلامُ المتطرِّفُ يَعكسُ سيطرةَ الهوى على ابن تَيْمِيَّة . فهو يتكلَّم بدوى دليل شَرعي ، ولا حُجَّة لغوية. فقد خالفَ أئمةَ التَّفسير، وأهلَ اللغة، وراحَ يَهْرِف بما لا يَعرف. وكما قِيل: مَن يَعْلَم =

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٧١):عن أبي سعيد_ رضي اللهُ عنه_ قال : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((يَكْشِفُ رَبُّنَا عَن سَاقِه ، فَيَسجُد له كُلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويَبقى كُلُّ مَن كان يَسجُد في الدُّنيا رِيَاءً وسُمْعَةً ، فيَذهَب ليَسجُد ، فيَعُود ظَهْرُه طَبَقًا واحدًا)) [٢٦٧].

= حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلَم . والدَّعاوى ما لم تُقيموا عليها ... بَيِّنَاتٍ أبناؤُها أدعياءُ . وإلَيْكَ الرَّدُّ على ابن تَيْمِيَّة: [أ] لم تُقدِّمْ دليلًا لغويًّا على ضرورة أن تكون كلمة " ساق " مَسبوقة بأل التعريف [ب] قَدَّمْنا الأدلةَ الشرعية واللغوية على أن الشِّدة تُسمَّى ساقًا ، أمَّا أنتَ فلم تُقدِّم دليلًا على كلامك . والعِبرةُ بالأدلة ، وليس بإلقاء الكلام على عواهنه . [ج] قَوْلُك " فيوم القيامة لا يَكْشِف الشدةَ عَن الكُفَّار "، نتَّفق معه تمامًا . ولكنْ ما علاقته بموضوعنا ؟! . لم يَقُلْ أحد من المسلمين إن اللهَ يَكشِف يَوْمَ القِيامةِ الشِّدةَ عن الكُفَّار . ففي يَوم القِيامة تَظهر الشِّدةُ، وتتَّضح صعوبةُ الموقف العظيم، ويَبْرز الخَطْب الجليل، وهذا تأويلُ الآية[د] قَوْلُك " والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد" كلام لا وَزْنَ له . فلم تُحدِّد بالضبط أيةَ رواية ، ولم تَذْكر السَّنَدَ ، ولم تَذْكر أيَّ طعنٍ مُعْتَبَر في رِجال السَّند . والروايةُ عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ أوردها الحاكمُ في مُستدركه وصحَّحها، ووافقه الذهبي . كما أن البَيهقي أوردَ أثرًا بنَفْس المعنى عن ابن عباس بسندَيْن ، وقد حسَّنهما الحافظُ في الفتح . وإذا أردتَ أن تُسقِط الإسنادَ فلا بد أن تُقدِّم أدلةً مُعْتَبَرَة ، وقد عَجَزْتَ عَن فِعل ذلك . فلا أهمية لكلامك . وكما قال ابن حَزم في الفِصَل في المِلَل (٢/ ١٢٩) : ((ولكنْ مَن ضَاقَ عِلْمُه أنكرَ ما لا عِلْمَ له به . وقد عَابَ اللهُ هذا ، فقال : ﴿ بَل كَذَّبوا بما لَم يُحيطوا بِعِلْمه وَلَمَّا يأتهم تأويلُه ﴾ [يُونُس : ٣٩])) .

٢٦٧ قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٥) : ((وهذا الحديث مُخرَّج في الصَّحِيحَيْن ، وفي غَيرهما ، مِن طُرُق ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور . وقد قال عبد الله بن الْمُبَارَك عن أسامة بن زيد عن عِكرمة عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : هو يَوم القِيامة ، يَوْم كَرْبٍ وشِدَّة ، رواه ابن جرير ، ثُمَّ قال : حَدَّثنا ابن حُمَيد حَدَّثنا مِهران عن سُفيان عن الْمُغيرة عن إبراهيم عن ابن مسعود أو ابن عباس ، الشك من ابن جرير : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : عن أمرٍ عظيمٍ ، كقَول الشَّاعر : مالت الحربُ عَن سَاق. وقال ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : شِدَّة الأمر. وقال ابن عباس : هي أوَّل ساعة تكون في يَوم القِيامة ، وقال ابن جَرير عن مُجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : شِدَّة الأمر وجِدُّه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قَوله : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، هو الأمر الشديد الفظيع مِن الهَوْل يوم القِيامة ، وقال العَوفي عن ابن عباس : قَوله :﴿ يَوْمَ

إنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عَن الجوارح والأعضاء والحواس،لأنَّها مِن خصائص المخلوقين المُحتاجين، واللهُ هو الخالقُ العظيمُ الغنيُّ عَن كُل شيء . وإضافةُ السَّاق إلى الله تعالى ، لأنَّ الكُلَّ له ومِلْكُه وفِعْلُه ، ولَيس أنَّ الله له ساق (جارحة) . تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيرًا ، وتَنَزَّهَ عن صِفات المخلوقين .

يَكشِف اللهُ عن أمرٍ عظيم وشِدَّةٍ رهيبة في يَوم القِيامة . وتَنكيرُ السَّاق في الآية مِن دلائل هذا التَّأويل . وقد أضافها اللهُ إلى ذاته المُقدَّسة ، تنبيهًا على أنَّها الشِّدة التي لا يَكشِفها إلا هُوَ ، والإضافةُ للمِلْك والسَّيطرة ، وهو سُبحانَه خالق هذه الشِّدة ، والمُتصرِّف فيها .

ومِن عَظَمَة الشِّدة وصُعوبة المَوقِف ، يَسجُد للهِ كُلُّ مؤمن ومؤمنة ، طلبًا لرضا الله ، وطمعًا في رحمته،وخَوفًا مِن عذابه. وأمَّا المُنافقون الذين كانوا يَسجُدون في الدُّنيا ليَرَاهُم الناسُ، ويَمدحوهم، ويُذيعوا صِيتَهُم ، فمُنِعُوا مِن السُّجود ، وجُعِلَتْ ظُهورهم كالصَّحيفة الواحدة ، فلا يَقْدِرُون على الانحناء ، ولا يَستطيعون السُّجود ، لأنَّهُم لَم يكونوا في الحقيقة يَسجُدون في الدُّنيا لله تعالى ، وإنَّما طلبًا لأغراض دُنيوية ، وبحثًا عن مصالح شخصية .

والشِّدةُ العظيمةُ في يَوم القِيامة كانت امتحانًا واختبارًا وفِتنةً ، وقد سَجَدَ المؤمنون لله في الآخِرة ، بلا عوائق ولا مُشكلات ، لأنَّهُم كانوا يَعبدون اللهَ في الدُّنيا ويُطيعونه ويَسجُدون له ، طلبًا لرضاه ، أمَّا المُنافقون الذين خدعوا الناسَ في الدُّنيا ، لَم يَقْدِرُوا على خِدَاع الله في الآخِرة ، لأنَّ الله يَعْلَم السِّرَّ والعلانيةَ ، ولم يَقْدِرُوا على السُّجود ، ففضحوا أنفسَهم بأنفسهم ، وهكذا تميَّز المؤمنون (أهل اليقين والثبات) عَن المُنافقين (أهل الشَّك والحَيرة) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٨ و٢٩) : ((قَوله ﷺ : (فيكشف عَن ساق) ضُبط يكشف بفتح الياء وضَمِّها ، وهُما صحيحان ، وفَسَّرَ ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث السَّاق هُنا بالشِّدة ، أي : يُكشَف عَن شِدَّةٍ وأمرٍ مَهُول ، وهذا مَثَل تَضرِبه العربُ

يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ ، يَقول : حِين يُكشَف الأمر ، وتبدو الأعمال ، وكَشْفه دُخول الآخِرة ، وكَشْف الأمر عنه ، وكذا روى الضَّحَّاكُ وغَيْرُه عن ابن عباس . أوردَ ذلك كُلَّه أبو جعفر بن جرير ، ثم قال : حَدَّثني أبو زيد عُمر بن شَبَّة، حَدَّثنا هارون بن عُمر المخزومي، حَدَّثنا الوليد بن مُسلِم ، حدثنا أبو سعيد رَوح بن جَناح ، عن مَوْلَى لعُمر بن عبد العزيز عن أبي بُرْدة بن أبي مُوسى عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال : " ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ يعني عَن نُور عَظِيم ، يَخِرُّونَ لَهُ سُجَّدًا " ، ورواه أبو يَعْلَى عن القاسم ابن يحيى عن الوليد بن مُسلِم به ، وفيه رَجُل مُبهَم ، واللهُ أعلم)) .

لشِدَّة الأمر ، ولهذا يَقولون : قامت الحربُ على ساق ، وأصله أن الإنسان إذا وَقَعَ في أمر شديد، شَمَّرَ ساعدَه ، وكَشَفَ عَن ساقه ، للاهتمام به . قال القاضي عِياض رحمه الله : وقِيل : المُراد بالسَّاق هُنا نُور عظيم ، وورد ذلك في حديث عن النبيِّ ﷺ. قال ابن فُورَك: ومعنى ذلك ما يتجدَّد للمؤمنين عِند رؤية الله تعالى مِن الفوائد والألطاف . قال القاضي عِياض : وقِيل: قد يكون السَّاقُ علامةً بَيْنَه وبين المؤمنين مِن ظُهور جَماعة مِن الملائكة على خِلْقة عظيمة ، لأنَّه يُقال: سَاق مِن الناس ، كَمَا يُقال : رِجْل مِن جَرَاد ، وقِيل : قَد يكون ساق مخلوقًا جَعَلَه الله تعالى علامةً للمؤمنين خارجة عن السُّوق المُعتادة ، وقِيل : معناه كَشْف الخَوف ، وإزالة الرُّعب عنهم ، وما كان غَلَبَ على قلوبهم مِن الأهوال ، فتطمئن حينئذ نفوسُهُم عِند ذلك ، ويتجلَّى لهم ، فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا . قال الخَطَّابي رحمه الله : وهذه الرُّؤية التي في هذا المَقَام يَوم القِيامة غَير الرُّؤية التي في الجَنَّة لكَرَامة أولياء الله تعالى ، وإنَّما هذه للامتحان، والله أعلم. قَوله ﷺ : (ولا يَبقَى مَن كان يَسجُد لله تعالى مِن تِلقاء نَفْسه ، إلا أَذِنَ اللهُ له بالسُّجُود ، ولا يَبقَى مَن كان يَسجُد اتِّقاءً ورِيَاءً، إلا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَه طَبَقَةً واحدةً) ، هذا السُّجُود امتحان مِن الله تعالى لعِباده ، وقد استدل بعضُ العلماء بهذا مَعَ قَوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يَسْتَطِيعُون ﴾ عَلى جَوَاز تَكليف ما لا يُطاق ، وهذا استدلال باطل ، فإنَّ الآخِرة لَيست دارَ تَكليف بالسُّجود ، وانَّما المُراد امتحانهم . وأمَّا قَوله ﷺ : (طَبَقَة) فبفتح الطاء والباء . قال الهَرَوي وغَيْرُه : الطَّبَق فَقَار الظَّهْر ، أي : صار فَقَارَةً واحدةً كالصَّحيفة ، فلا يَقْدِر عَلى السُّجُود ، والله أعلم . ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ هذا الحديث قد يُتوهَّم مِنه أن المُنافقين يَرَوْنَ اللهَ تعالى مَعَ المؤمنين ، وقد ذهب إلى ذلك طائفة ، حكاه ابن فَورَك لقَوله ﷺ : (وتَبقَى هذه الأُمَّةُ فِيها مُنافقوها فيأتيهم اللهُ تعالى)، وهذا الذي قالوه باطل، بل لا يراه المنافقون بإجماع مَن يُعْتَدُّ به مِن عُلماء المُسلمين ، وليس في هذا الحديث تصريح برؤيتهم الله تعالى ، وإنَّما فِيه أن الجَمْع الذي فيه المؤمنون والمنافقون يَرَوْنَ الصُّورَةَ ، ثُمَّ بعد ذلك يَرَوْنَ اللهَ تعالى ، وهذا لا يقتضي أن يَراه جميعُهم ، وقد قامت دلائل الكِتاب والسُّنَّة على أن المُنافق لا يراه ، سُبحانَه وتعالى ، والله أعلم)) .

وقال العَيني في عُمدة القاري (١٩/ ٢٥٧ و٢٥٨): ((باب في قَوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، قِيل : تَكشِف القِيامةُ عَن ساقها ، وقِيل : عن أمر شديد فظيع ، وهو إقبال الآخِرة وذهاب الدُّنيا ، وهذا من باب الاستعارة ، تقول العربُ للرَّجُل إذا وَقَعَ في أمر عظيم يحتاج فيه إلى اجتهاد ومُعاناة ومُقاساة للشِّدة : شَمَّرَ عَن ساقه ، فاسْتُعِير السَّاق في مَوضِع الشِّدة ، وإنْ لَم

يكن كَشْف الساق حقيقةً ، كما يُقَال : أسفرَ وَجْهُ الصُّبْح ، واستقام له صَدْرُ الرأي ، والعرب تقول لِسَنَة الحرب كَشَفَتْ عَن سَاقِها ... . قَوله : (يَكشِف رَبُّنا عَن سَاقِه) مِن المُتَشَابِهَات ، ولأهل العِلْم في هذا الباب قَولان : أحدهما مَذهب مُعظَم السَّلَف أوْ كُلِّهم ، تفويض الأمر فيه إلى الله تعالى ، والإيمان به ، واعتقاد معنى يَلِيق لجَلال الله عَزَّ وَجَلَّ ، والآخَر هو مذهب بعض المُتكلِّمين أنَّها تُتأوَّل على ما يَلِيق به ، ولا يُسوَّغ ذلك إلا لِمَن كان مِن أهله ، بأن يكون عارفًا بلسان العرب، وقواعد الأصول والفُرُوع ، فعلى هذا قالوا : المُراد بالسَّاق هُنا الشِّدة ، أي : يَكشِف اللهُ عن شِدَّة وأمر مَهُول ، وكذا فسَّره ابن عباس . وقال عِياض : المُراد بالسَّاق النُّور العظيم ، ورُوِيَ عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيِّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ، قال: (عَن نُور عظيم، يَخِرُّونَ له سُجَّدًا) وعن قَتادة فيما رواه عَبْد بن حُمَيد : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ عن أمر فظيع . وعن عبد الله هي سُتُور رَبِّ العِزَّة إذا كشف للمؤمن يَوم القِيامة ، وعن الربيع بن أنس : يُكشَف عن الغِطاء فيَقع مَن كان آمنَ به في الدُّنيا ساجدًا . وقال الحكيم التِّرمذي : وأمَّا القَول مَن قال : المراد بالسَّاق الشِّدة في القِيامة ، وفي هذا قُوَّة لأهل التَّعطيل . وجاء حديث عن ابن مسعود يَرفعه ، وفيه : (بِمَ تَعرِفون رَبَّكُم ، قالوا : بَيْنَنا وبَيْنَه علامة ، إنْ رأيناها عَرَفْناه ، قال : ما هِيَ ؟ ، قال : يَكشِف عن ساق ، قال : فيَكشِف عِند ذلك عَن ساق ، فَيَخِرُّ المؤمنون سُجَّدًا) . قال : وما يُنكِر هذا اللفظَ ، ويَفِر مِنه إلا مَن يَفِر عن اليد والقَدَم والوَجْه ونَحْوها ، فَعَطَّلَ الصِّفات . وزَعَمَ ابن الجَوزي أنَّ ذلك بمَعنى كَشْف الشَّدائد عَن المُؤمنين ، فيَسجُدون شُكرًا ، واستدل على ذلك بحديث أبي موسى مرفوعًا : (فيَكشِف لهم الحِجَاب ، فيَنظرون إلى الله) ، وعن ابن مسعود : إذا كان يَوم القِيامة قام الناس لربِّ العالمين أربعين عامًا فيه ، فعِند ذلك يَكشِف عَن ساق ، ويتجلَّى لهم ، وأوَّله بعضُهم بأن الله يَكشِف لهم عن ساق لبعض المخلوقين مِن ملائكته وغَيرهم ، ويَجعل ذلك سببًا لبيان ما شاء مِن حِكمته في أهل الإيمان والنِّفاق . وعن أبي العباس النَّحْوي أنه قال : السَّاقُ النَّفْس ، كما قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه : واللهِ لأُقَاتِلَنَّ الخوارجَ ، وَلَوْ تَلِفَتْ سَاقي ، فيُحتمل أن يكون المراد به تَجَلِّي ذاته لهم ، وكَشْف الحُجُب ، حَتَّى إذا رَأَوْهُ سَجَدُوا له ... . قَوله: (فيَسجُد له) أي : لله ، فإنْ قُلْتَ : القِيامة دَار الجَزَاء ، لا دار العمل ، قُلت : هذا السُّجُود لا يكون على سَبيل التَّكليف ، بَل على سَبيل التَّلَذُّذ بِه ، والتقرُّب إلى الله تعالى . قَوله (رِيَاء) أي: ليراه الناسُ، قَوله : (وسُمعة) أي : ليَسمعونه ، قَوله : (طَبَقًا واحدًا) أي: لا ينثني للسُّجُود، ولا ينحني له ، وهو بفَتْح الطاء والباء المُوحَّدة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَسألُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المَعَارِج : ١٠] .

في يَوم القِيامة، لا يَسأل صديقٌ صديقَه عن حاله، ولا قريبٌ قريبَه عن شأنه، ولا حَبيبٌ حَبيبَه عن أمره ، لأنَّ كُل إنسان مَشغول بنَفْسه ، ولا يُفكِّر إلا في نَجَاته ، بسبب صُعوبة المَوقِف ، وشِدَّة الهَول والفَزَع . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٠٥): ((﴿ ولا يَسألُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ ، أي: لا يَسأل قريبٌ قريبَه عَن شأنه في ذلك اليَوم، لِمَا نَزَلَ بهم مِن شِدَّة الأهوال، التي أذهلت القريبَ عن قريبه،والخليلَ عن خليله، كما قال سُبحانَه: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيه ﴾)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦١) : ((والمعنى : لا يَسأل قَريبٌ عَن قَرابته لاشتغاله بنَفْسه . وقال مُقاتل : لا يَسأل الرَّجُلُ قَرَابَته ، ولا يُكلِّمه ، مِن شِدَّة الأهوال)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيه (١١) وَصَاحِبَتِهِ وأخِيه (١٢) وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْويه (١٣) وَمَن في الأرضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيه (١٤) ﴾ [المَعَارِج] .

يَرى الرَّجُلُ أباه وأخاه وقَرَابته فلا يُكلِّمهم، أي إنَّ الأقارب يُبْصِرُون بعضَهم بعضًا ، ويتعارفون، ولا يتكلَّمون ، بَل يَفِرُّ بعضُهم مِن بعض ، لأنَّ كُل فَرْد مَشغول بنَفْسه ، ولا يهتم بأيِّ شيء آخَر ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيه (٣٤) وَأُمِّهِ وأبِيه (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيه (٣٧) ﴾ [عَبَسَ] .

يتمنَّى الكافرُ لَوْ يَفْدِي نَفْسَه مِن عذاب الله ، بأعز مَن كان عَلَيه في الدُّنيا مِن أقاربه وأحبابه ، فلا يَستطيع ذلك ، ولا يَقْدِر عَلَيه ، وهذا يدل على صُعوبة المَوقِف ، وشِدَّة الهَوْلِ والرُّعْبِ .

وعشيرته التي كانت تضمُّه إلَيها ، وتُدافع عنه ، وتَحميه مِن الأخطار، وتُساعده في المصائب، وتُؤَمِّنه مِن الخَوف . ولا يَقِف الأمرُ عِند هذا الحَد ، بَل يتمنَّى لَوْ يَفْتَدِي بجميع أهل الأرض ، ثُمَّ يَنجو مِن عذاب الله وعِقابه . ولكنْ لا مَجَال لِنَجَاة المُجرِم مِن العذاب، ولَن يُنقِذه أحد مِن العِقاب الإلهيِّ الشديد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٦١) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُم ﴾ ، أي : يُعرَّف الحَمِيمُ حَمِيمَه حَتَّى يَعْرِفَه، وهو مَعَ ذلك لا يَسأل عَن شأنه ، ولا يُكلِّمه ، اشتغالًا بنَفْسه . يُقَال : بَصَّرْتُ زيدًا كذا إذا عَرَّفْتُهُ إيَّاه . قال ابن قُتَيبة: معنى الآية: لا يَسأل ذُو قَرَابة عَن قَرَابته، ولكنَّهم يُبصَّرونهم، أي يُعرَّفونهم ...قَوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ المُجْرِمُ ﴾ ، يعني:يتمنَّى المُشرِك لَوْ قُبِلَ مِنه الفِدَاءُ ﴿ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيه(١١) وَصَاحِبَتِهِ ﴾ وهي الزَّوْجَة ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾. قال ابن قُتَيبة : أي : عَشِيرته . وقال الزَّجاج : هي أدنى قَبيلته مِنه ، ومَعنى : ﴿ تُؤْوِيه ﴾ تَضُمُّه ، فيودُّ أن يَفتديَ بهذه المَذكورات ، ﴿ ثُمَّ يُنجِيه ﴾ ذلك الفِدَاء)) .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٣/ ١٢٧) : ((و ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإنجاء ، يعني يتمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده ، وبذلهم في فِداء نَفْسه ، ثُم يُنجيه ذلك ، وهَيهات أن يُنْجِيَه)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤١) : ((وقَوله تعالى : ﴿ ولا يَسأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُم ﴾ ، أي : لا يَسأل القريبُ قريبَه عن حاله ، وهو يَراه في أسوأ الأحوال ، فتَشغَله نَفْسُه عن غَيره . قال العَوفي عن ابن عباس : يَعْرِف بعضُهم بعضًا ، ويتعارفون بينهم ، ثُمَّ يَفِرُّ بعضُهم مِن بَعْض بَعْد ذلك... . وقَوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيه (١١) وَصَاحِبَتِهِ وأخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْويه (١٣) وَمَن في الأرضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيه (١٤) كَلَّا ﴾ ، أي : لا يُقْبَل مِنه فِدَاء ، وَلَوْ جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يَجِده مِن المال ، وَلَوْ بِمِلْءِ الأرض ذَهَبًا ، أوْ مِن وَلَده الذي كان في الدُّنيا حُشاشَة كَبِده ، يَوَدُّ يَوْمَ القِيامة إذا رأى الأهوالَ أن يَفتديَ مِن عَذاب الله به ، ولا يُقْبَل مِنه . قال مُجاهد والسُّدي : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ قَبِيلته وعَشِيرته. وقال عِكرمة : فَخِذه الذي هُوَ مِنهُم . وقال أشهب عن مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ أُمّه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إن كَفَرْتُم يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ﴾[المُزَّمل : ١٧] .

هذا توبيخٌ شديد للكافرين ، وتقريع لهم . كَيْفَ تَحْمُونَ أنفسَكُم مِن عذاب يَوم القِيامة الشديد ، إن بَقِيتُم على كُفركم وضلالكم ؟ . وبأيِّ شيء تتحصَّنون مِن عذاب ذلك اليَوم الرهيب ، الذي مِن هَوْله وشِدَّته يَشِيب الصبيُّ الصغيرُ ، إن اخترتُم الكُفرَ على الإيمان في الدُّنيا ؟ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٤٧) : ((﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ ، أي : كيف تَقُونَ أنفُسَكُم ﴿ إن كَفَرْتُم ﴾ ، أي : إن بَقِيتُم على كُفركم ﴿ يَوْمًا ﴾ ، أي : عَذَابَ يَوْمٍ ﴿ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ لِشِدَّة هَوْله ، أي : يَصِيرُ الوِلْدَانُ شُيُوخًا . والشِّيب جمع أشْيَب ، وهذا يَجُوز أن يكون حقيقةً ، وأنَّهُم يَصِيرون كذلك ، أوْ تمثيلًا ، لأنَّ مَن شَاهَدَ الهَوْلَ العظيمَ ، تقاصرت قُواه ، وضَعُفَتْ أعضاؤه ، وصار كالشَّيْخ في الضَّعْف ، وسُقوطِ القُوَّة . وفي هذا تقريع لهم شديد ، وتوبيخ عظيم . قال الحسن : أي : كيف تتَّقون يَوْمًا يَجعل الوِلْدَانَ شِيبًا إن كفرتم ؟ ، ... ، قال ابن الأنباري : ومِنهُم مَن نَصَبَ " اليوم " بكَفَرْتُم ، وهذا قبيح . والوِلْدَانُ الصِّبيان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المُدَّثر : ٩] .

فذلك اليَوم يَوم عَصِيب شديد ، وهو يَوم القِيامة العظيم ، حيث يَشتدُّ فيه الهَول والخَطْب . والإشارةُ بالبعيد ﴿ فَذَلِكَ ﴾ لبيان بُعد مَنزلته في الشِّدة والفَظَاعة.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٠٣) : ((﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ، أي : يَعْسُر الأمرُ فِيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ على الكافرينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المُدَّثر : ١٠] .

يَوم القِيامة الرهيب صَعْبٌ على الكافرين ، وشديدٌ ، وعسير ، غَير هَيِّن ، ولا يَسير عَلَيهم ، لأنَّهُم يُحَاسَبُون على كُفرهم وضلالهم ومَعاصيهم ، ويُفضَحون أمام الناس . وفي الآية دَلالة على أنَّ يَوم القِيامة يسير وسَهْل على المؤمنين .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالَيْن (٤/ ٢٦٥): ((ودلَّت الآيةُ على أنه يسير على المؤمنين، لأنَّه قَيَّدَ عُسْرَه بالكافرين، وفِيها زيادة وَعيد وغَيظ للكافرين،وبُشرى وتَسلية للمُؤمنين)).

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٣٥٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ، أي: على الكافرين ، لأنَّهم يُنَاقَشُون، ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، أي: بَل كثيرٌ شديدٌ. فأمَّا المُؤمنون ، فإنَّه عَلَيهم يَسير ، لأنَّهُم لا يُنَاقَشُون . قال ابن عباس : ولمَّا قال تعالى : ﴿ على الكافرينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ دَلَّ على أنَّه يسير على المؤمنين، وهذا هُوَ دَليل الخِطاب، ويُحتمَل أن يكون إنَّما وَصَفَهُ تعالى بالعُسْر، لأنَّه في نَفْسه كذلك للجميع، مِن المؤمنين والكافرين ، إلا أنَّه يكون هَول الكُفَّار فيه أكثر وأشد ، وعلى هذا القَول يَحْسُن الوَقْف على قَوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان : ٧] .

ويخافون هَوْلَ يَوم القِيامة وشِدَّته ، ويَحْذَرُون ذلك اليَوم الرهيب ، الذي كانَ شَرُّهُ (شدائده) مُنتشرًا فَاشِيًا مُمْتَدًّا شاملًا لجميع الناس ، إلا مَن رَحِمَ اللهُ تعالى . وهذه صِفة المؤمنين الصادقين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٤٣١ و٤٣٢):((﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ قال ابن عباس : فَاشِيًا ، وقال ابن قُتَيبة: فَاشِيًا مُنْتَشِرًا . يُقَال : استطارَ الحريقُ ، إذا انتشرَ ، واستطارَ الفَجْرُ ، إذا انتشرَ الضَّوْءُ ... . وقال مُقاتل : كانَ شَرُّهُ فَاشِيًا في السَّماوات ، فانشقَّت ، وتناثرت الكواكبُ ، وفَزِعَت الملائكةُ ، وكُوِّرَت الشمسُ والقمرُ في الأرض ، ونُسِفَت الجِبالُ ، وغارت المِيَاهُ، وتَكَسَّرَ كُلُّ شيء على وجه الأرض، مِن جَبَل وبِناء، وفَشَا شَرُّ يَوم القِيامة فيهما)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٠] .

إنَّ المؤمنين الصادقين يَخافون عذابَ يَوْمِ القِيامة ، ويَحْذَرُون مِنه . وهذا اليَوم عَبُوس ، تَعْبِسُ فيه الوُجُوهُ مِن شِدَّةِ هَوْله ، وفظاعةِ أمره ، وقَمطرير (صَعْب شديد عَصِيب) .

وإسناد العُبُوسِ إلى اليوم ، مِن إسناد الشَّيء إلى زمانه ، مِثل : ليلٌ قائمٌ ، ونهارٌ صائمٌ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٣٤): ((﴿ إنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنا يَوْمًا ﴾ ، أي : ما في يوم ﴿ عَبُوسًا ﴾ ، قال ابن قُتَيبة : أي : تَعْبِس فيه الوُجُوهُ ، فَجَعَلَه مِن صِفَة اليَوم ، كقَوله تعالى :

﴿ في يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : ١٨]. أراد عَاصِف الرِّيح، فأمَّا القَمْطَرِير ، فروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنَّه الطويل ، وروى عنه العَوفي أنَّه قال: هو الذي يُقَبِّضُ فِيه الرَّجُلُ ما بين عَيْنَيْه ، فعلى هذا يكون اليَوم مَوصُوفًا بما يَجْري فِيه ، كما قُلنا في العَبُوس ، لأن اليَوم لا يُوصَف بتَقبيض ما بين العَيْنَيْن.وقال مُجاهد وقَتادة: القَمْطَرِير الذي يُقَلِّص الوُجُوهَ، ويُقَبِّض الحياةَ، وما بَين العَين، مِن شِدَّته . وقال الفَرَّاء : هُوَ الشَّديد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُم يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٧] .

إنَّ الكافرين يَتركون أمامَهم يَوْمًا صَعْبًا شديدًا،وهو يَوم القِيامة، فلا يؤمنون به ، ولا يَعْمَلُون له. ووَصْفه بالثَّقيل لِمَا فيه مِن الأهوال والشَّدائد التي تَثْقُل على الكافرين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٩٧) : ((﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُم يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ ، أي : يَتركُون ، ويَدَعُون وَراءهم ، أي : خَلْفَهم ، أوْ بَين أيديهم وأمامهم ، يَوْمًا شديدًا عَسِيرًا ، وَهُوَ يَوم القِيامة. وسُمِّيَ ثقيلًا لِمَا فيه مِن الشَّدائد والأهوال.ومَعنى كَوْنه يَذَرُونه وَرَاءَهُم:أنَّهُم لا يَسْتَعِدُّون له، ولا يَعْبَؤُون به ، فهُم كَمَن يَنْبُذُ الشَّيءَ وَراء ظَهْره ، تهاوُنًا به ، واستخفافًا بشأنه ، وإنْ كانوا في الحَقيقة مُستقبلين له ، وهو أمامهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ [المُرْسَلات : ٣٥] .

في يَوم القِيامة الرَّهيب ، لا يَتَكَلَّمُ الكافرون المُكَذِّبُون بكلمة ، ولا يَنطِقون بشَيء .

وفي القِيامة مواقف مُتعدِّدة ، ففي بعضها يَختصِمون ويَتكلَّمون . وفي بعضها يُختَم على أفواههم فلا يَنطِقُون. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٥١) : ((قَوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ . قال المُفسِّرون: هذا في بعض مَواقف القيامة . قال عِكرمة : تَكَلَّمُوا ، واختَصَمُوا ، ثُمَّ خُتِمَ على أفواههم ، فتكلَّمتْ أيديهم وأرجلُهم ، فحينئذ لا يَنطِقون بحُجَّة تَنفعهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٤٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ ، أي : لا يَتكلَّمون ، ﴿ ولا يُؤْذَنُ لَهُم فَيَعْتَذِرُون ﴾ ، أي : إنَّ يَوم القِيامة له مواطن ومَوَاقيت ، فهذا مِن المَوَاقيت التي لا يتكلَّمون فيها ، ولا يُؤْذَن لهم في الاعتذار والتَّنَصُّل ... . وقيل : لا يَنطِقون بحُجَّة نافعة ، ومَن نَطَقَ بما لا يَنفع ولا يُفيد ، فكأنَّه ما نَطَقَ . قال الحسن : لا يَنطِقون بحُجَّة ، وإنْ كانوا يَنطِقون.وقيل: إنَّ هذا وَقت جَوابهم: ﴿ اخْسَؤُوا فِيها ولا تُكَلِّمُون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وقال أبو عثمان: أسكتتهم رُؤية الهَيبة ، وحَيَاء الذُّنوب . وقال الجُنَيد : أي عُذر لِمَن أعرضَ عَن مُنْعِمِه ، وجَحَدَه ، وكَفَرَ أياديه ونِعَمَه ؟)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٠٦): ((﴿ هذا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ ، أي: لا يَتَكَلَّمُون . قال الواحدي : قال المُفسِّرون : في يَوم القِيامة مَواقف ، ففي بعضها يتكلَّمون ، وفي بعضها يُختَم على أفواههم فلا يتكلَّمون ، وقد قَدَّمْنا الجَمْع بهذا في غَير مَوضِع . وقيل : إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار ، وهُم عند ذلك لا يَنطِقون ، لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت . وقال الحسن : لا يَنطِقون بحُجَّة وإنْ كانوا يَنطِقون)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يُؤْذَنُ لَهُم فَيَعْتَذِرُون ﴾ [المُرْسَلات : ٣٦] .

لا يَأذَن اللهُ للكافرين بالاعتذار عن ذُنوبهم وجرائمهم ، ولا يَسْمَح لهم بذلك . لقد أُقِيمَت الحُجَّةُ عَلَيهم، وانقطعتْ أعذارُهُم . ولا عُذرَ لِمَن كَفَرَ بالله ، وكذَّب بآياته ، وجَحَدَ نِعَمَه وإحسانَه.

وهذا يدل على أنهم في بعض الحالات يُؤْمَرُون بالسُّكُوت، ولا يُسمَح لهم بالكلام، ولا يُؤْذَن لهم في تقديم عُذر ولا حُجَّة .

وفي تفسير الجلالَيْن (ص ٧٨٥) : ((﴿ ولا يُؤْذَنُ لَهُم ﴾ في العُذر ﴿ فَيَعْتَذِرُون ﴾ عَطْف على ﴿ يُؤْذَنُ ﴾ مِن غَير تَسَبُّب عنه ، فهو داخل في حَيِّز النَّفْي ، أي : لا إذْن ، فلا اعتذار)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : سأله نافع بن الأزرق عَن قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ هذا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ [المُرْسَلات : ٣٥] ، و ﴿ فلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا ﴾ [طه : ١٠٨] ، ﴿ وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون ﴾ [الصَّافَّات : ٢٧] ، و ﴿ هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَه ﴾ [الحَاقَّة: ١٩]. فما هذا ؟، قال: ((وَيْحَكَ، هَل سألتَ عَن هذا أحدًا قَبْلي ؟)) ، قال : لا ، قال : ((أمَا إنَّكَ لَوْ كُنتَ سألتَ هَلَكْتَ، ألَيْسَ قالَ اللهُ تبارك وتعالى :﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [الحَج: ٤٧]؟)).قال: بلى، قال:((وإنَّ لِكُلِّ مِقدار يوم مِن هذه الأيام لَوْنًا مِن هذه الألوان)) [٢٦٨].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّا أنذَرْناكُم عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ويَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النَّبأ : ٤٠] .

الخِطَابُ لكُفَّار قُرَيش الذين يُنكِرون وَحدانيةَ الله، ويُكذِّبون بآياته، ويَجحَدون نُبوَّةَ مُحمَّد ﷺ، ويَعبدون الأصنامَ والأوثان ، ولا يُصدِّقون بالبَعْث واليومِ الآخِر : إنَّا حذَّرناكم وخوَّفناكم عذابًا قد اقتربَ موعده، ودَنا وقت وُقوعه، وهو عذاب الآخِرة الآتي لا مَحالة، وكُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ .

---

٢٦٨ رواه الحاكم في المستدرك(٤/ ٦١٧)برقم(٨٧١٠) وصحَّحه،وقال الذهبي عن أحد رُواة الحديث: يحيى بن راشد المازني ضعَّفه النَّسائي .

يَوْمَ يَرى كُلُّ إنسان أعماله الحسنة أو السَّيئة في صحيفته ، ويُشاهد ما قدَّمه مِن خَير أو شَر . ويودُّ الكافر لَوْ كان تُرابًا في الدُّنيا، ولَم يكن إنسانًا مُكَلَّفًا ، ولَم يُخلَق أصْلًا ، ولَم يُبعَث مِن المَوت، وذلك حِين يرى عذابَ الله في الآخِرة ، ويُعايِن عُقوبته الشديدة . وقِيل : تُحشَر البهائم للاقتصاص والحُكم بينها، ثُمَّ يَجعلها اللهُ تُرابًا، فَيَوَدُّ الكافرُ لَوْ كان ترابًا مِثْلَها، لِكَيلا يُحَاسَب ، ولا يُعَاقَب ، ولا يُعَذَّب . وهذا يدل على حاله السَّيئة ، ومكانته الحقيرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٣) : ((... ثُمَّ خَوَّفَ اللهُ كفارَ مكة ، فقال تعالى: ﴿ إنَّا أنذَرْناكُم عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ، وهو عذاب الآخِرة ، وكُل آتٍ قريبٌ، ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي: يَرى عمله مُثبتًا في صحيفته، خَيْرًا كان أو شَرًّا،﴿ ويَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾. يا لَيْتني لَم أُبعَث. وحكى الثعلبي عن بعض أشياخه أنه رأى في بعض التفاسير أن الكافر هاهُنا إبليس ، وذلك أنه عابَ آدم لأنه خُلِقَ مِن التراب، فتمنَّى يَوم القِيامة أنه كان بمَكان آدَم ، فقال : يا لَيْتني كُنْتُ تُرَابًا)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٨) : ((وقَوله تعالى : ﴿ إنَّا أنذَرْناكُم عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ، يعني: يَوم القِيامة ، لتَأكُّد وُقوعه صار قريبًا ، لأن كُل ما هو آتٍ آتٍ ، ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، أي : يُعرَض عَلَيه جميع أعماله ، خَيْرها وشَرِّها ، قديمها وحديثها ... ، ﴿ ويَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾ ، أي : يَوَدُّ الكافرُ يومئذ أنَّه كان في الدار الدُّنيا تُرَابًا ، ولَم يَكُن خُلِقَ ، ولا خَرَجَ إلى الوُجود ، وذلك حِين عَايَنَ عَذابَ الله ، ونَظَرَ إلى أعماله الفاسدة ، قد سُطِّرَتْ عَلَيه بأيدي المَلائكة السَّفَرَة الكِرَام البَرَرَة . وقِيل : إنَّما يَوَدُّ ذلك حِين يَحكُم اللهُ بَين الحيوانات التي كانت في الدُّنيا ، فَيَفصِل بَينها بحُكمه العَدْل الذي لا يَجُور، حتى إنَّه لَيَقْتَصُّ للشَّاة الجَمَّاء مِن القَرْناء ، فإذا فَرَغَ مِن الحُكم بَينها ، قال لها : كُوني تُرَابًا ، فتَصِير تُرَابًا ، فعِند ذلك يَقول الكافرُ : ﴿ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾ ، أي : كُنتُ حَيَوَانًا ، فأرجع إلى التُّراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصُّور المَشهور ، وورد فيه آثار عن أبي هُرَيرة ، وعبد الله ابن عَمرو ، وغَيرهما)) اهـ . وعن أبي هُرَيرة قال : ((يُحشَر الخَلْقُ كُلُّهُم يَوْمَ القِيامة ، البهائم ، والدَّواب ، والطَّير ، وكُلُّ شيء ، فَيَبْلُغُ مِن عَدْل الله أن يَأخذ للجَمَّاءِ مِنَ القَرْناء ، ثُمَّ يقول : كُوني تُرَابًا ، فذلك : ﴿ يَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾)) [٢٦٩].

والجَمَّاء : الشَّاة التي لَيس لها قَرْن ، والقَرْناء : الشَّاة التي لها قَرْن .

---

٢٦٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) برقم (٣٢٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النَّازِعَات : ٨] .

قُلُوبُ الكافرين في يَوم القيامة الرهيب خائفة قَلِقَة وَجِلَة شديدة الاضطراب، بسبب مُعاينتها لأهوال القِيامة وشِدَّتها . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٧٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ ، أي : خائفة وَجِلَة ، قاله ابن عباس ، وعليه عامَّة المُفسِّرين . وقال السُّدي : زائلة عَن أماكنها ، نظيره : ﴿ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ ﴾ . وقال المُؤرِّج : قَلِقَة مُسْتَوْفِزَة ، مُرْتَكِضَة غَير ساكنة . وقال المُبرِّد : مُضطربة ، والمعنى مُتقارب . والمُراد : قُلوب الكُفَّار . يُقال: وَجَفَ القَلْبُ ، يَجِفُ وَجِيفًا ، إذا خَفَقَ ، كما يُقال : وَجَبَ يَجِبُ وَجِيبًا ، ومِنهُ : وَجِيفُ الفَرَس والناقة في العَدْو ، والإيجاف حَمْل الدَّابَّة على السَّير السريع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ما سَعَى ﴾ [النَّازعات : ٣٥] .

في يَومِ القِيامة الرَّهيب ، يتذكَّر الإنسانُ سَعْيَه في الدُّنيا ، وهو ما عَمِلَه مِن خَير أو شَر ، لأنَّه يَرَاه مَكتوبًا في صحيفة أعماله .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٠٤) : ((أي : يتذكَّر فيه كُل أحد ما عَمِلَه مِن خَير أوْ شَر ، بأن يُشاهده مُدَوَّنًا في صحيفة أعماله ، وقد كان نَسِيَه مِن فَرْط الغَفْلة وطُولِ الأمد ، كَقَوله تعالى : ﴿ أحصاهُ اللهُ ونَسُوهُ ﴾ [المُجَادِلة : ٦])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ [النَّازعات : ٣٦] .

وأُظْهِرَت النار للناظرين بكل وُضوح ، فرآها الناسُ بأبصارهم ، بحيث لا تَخفَى على أحد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٨٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ ﴾ ، أي : ظَهَرَتْ ﴿ لِمَن يَرَى ﴾ . قال ابن عباس : يُكشَف عَنها ، فيراها تتلظَّى كُلُّ ذِي بَصَر . وقِيل : المُراد الكافر ، لأنَّه الذي يَرى النارَ بما فيها مِن أصناف العذاب . وقِيل : يَراها المؤمنُ لِيَعْرِفَ قَدْرَ النِّعْمَة، ويُصلَى الكافرُ بالنار. وجواب : ﴿ فإذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾[النَّازِعَات : ٣٤] مَحذوف، أي : إذا جاءت الطَّامَّةُ ، دَخَلَ أهلُ النارِ النارَ ، وأهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيه (٣٤) وَأُمِّهِ وأبِيه (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه (٣٦) ﴾ [عَبَسَ] . في يوم القِيامة الرهيب ، يَهْرُب الإنسانُ مِن أحبابه ، وأقربِ المُقرَّبين إلَيه . يَرى أخاه وأُمَّه وأباه وزوجته وأولاده، ويَهْرُب مِنهُم، ويبتعد عَنهُم، بسبب اشتغاله بنَفْسه ، وصُعوبةِ المَوقف ، وشِدَّة الأمر ، وقَسوة الظَّرْف . وخُصَّ هؤلاء بالذِّكْر لأنَّهُم الدائرة الضَّيقة المُحيطة بالإنسان ، وأخص القَرَابة ، وأوْلاهُم بالحُب والحَنَان والشَّفَقَة والعَطْف، والهُرُوبُ مِنهُم لا يَكون إلا لِهَوْلٍ

فظيع مُخيف في غاية الشِّدة، وأيضًا، يَهْرُب الإنسانُ مِنهُم، لأنَّه مَشغول بنَفْسه ، ويَعْلَم أنَّهُم لا يَنفعونه ، ولا يَستفيد مِنهُم شيئًا . وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٣١٨) : ((بَدأ بالأخ ، ثُمَّ بالأبَوَيْن ، لأنَّهما أقرب مِنه ، ثُمَّ بالصاحبة والبنين لأنَّهُم أحب)) اهـ . وفي التَّسهيل لعُلوم التَّنزيل (٤/ ١٨٠) : ((ذَكَرَ تعالى فِرَارَ الإنسان مِن أحبابه، ورتَّبهم على مراتبهم في الحُنُوِّ والشَّفَقة ، فبدأ بالأقل ، وختم بالأكثر ، لأن الإنسان أشد شفقة على بَنِيه مِن كُل مَن تقدَّم ذِكْرُه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٥) : ((قال المُفسِّرون : المعنى : لا يَلتفت الإنسانُ إلى أحد مِن أقاربه ، لِعِظَم ما هو فيه . قال الحسن : أوَّل مَن يَفِرُّ مِن أخيه هابيل ، ومِن أُمِّه وأبيه إبراهيم ، ومِن صاحبته نُوح ولُوط ، ومِن ابنه نُوح . وقال قَتادة : يَفِرُّ هابيل مِن قابيل ، والنبيُّ ﷺ مِن أُمِّه ، وإبراهيمُ مِن أبيه ، ولُوط مِن صاحبته ، ونُوح من ابنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيه ﴾ [عَبَسَ : ٣٧] .

لِكُلِّ إنسان في يَوم القِيامة الرَّهيب شأنٌ شَخصي يَشغَله عَن أقاربه وأحبابه، وكُل إنسان لا يهتم إلا بنَفْسه ، ولا يُفَكِّر إلا بمَصِيره ونَجَاته ، حَتَّى إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يَقول الواحدُ مِنهُم في ذلك اليَوم العَصيب بسبب شِدَّة الهَوْل وصُعوبة المَوقِف : ((نَفْسي نَفْسي)) [مُتَّفق عليه] . أي : أطلُب نَجَاةَ نَفْسي ، وهي التي تَستحق أن يُشفَع لها.وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٤٤) : ((﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيه ﴾ ، أي : لِكُلِّ إنسان يَوم القِيامة شأن يَشغَله عن الأقرباء ، ويَصْرِفه عَنهُم . وقِيل : إنَّما يَفِرُّ عَنهُم حَذَرًا مِن مُطالبتهم إيَّاه بما بَينهم ، وقِيل : يَفِرُّ عَنهُم لئلا يَرَوْا ما هو فيه مِن الشِّدة ، وقِيل : لِعِلْمِه أنَّهُم لا يَنفعونه،ولا يُغْنُون عنه شيئًا، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يُغْني مَوْلًى عَن مَوْلًى شَيْئًا ﴾ [الدُّخَان : ٤١]. والجُملة مُسْتَأنَفَة مَسُوقة لبيان سبب الفِرَار . قال ابن قُتَيبة : ﴿ يُغْنِيه ﴾ ، أي : يَصْرِفُه عَن قَرابته)) .

وعَن سَوْدَة زَوْجِ النبيِّ ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((يُبعَث الناسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، يُلْجِمُهُم العَرَقُ ، ويَبلُغ شَحْمَةَ الأُذُن)) . قالت : قُلتُ : يا رسول الله ، وَاسَوْأتَاه ، يَنظُر بعضُنا إلى بعض؟. قال: ((شُغِلَ الناسُ عَن ذلك))، وتلا رسولُ الله ﷺ: ((﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيه (٣٤) وَأُمِّهِ وأبِيه (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيه (٣٧) ﴾)) [٢٧٠] .

والحديثُ يدل على صُعوبة المَوقِف يَوم القِيامة ، وأهوال ذلك اليوم الرَّهيب ، وشدائده .

---

٢٧٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٩) برقم (٣٨٩٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا والأمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ ﴾[الانفطار : ١٩] .

إنَّه يَوم القِيامة العظيم الرَّهيب . حيث لا يَستطيع أحدٌ أن يَنفع أحَدًا ، ولا يَدفع عنه شَرًّا أوْ ضَرَرًا . والأمرُ في ذلك اليوم لله وَحْدَه ، لا يُنازعه فيه أحد . ولا أمر لِغَير الله فيه .

لا تَملك نَفْسٌ مِن النُّفوس لِنَفْس أخرى شيئًا مِن النَّفْع والضَّر ، ولا يَقْدِر أحدٌ أن يُدخِل أحَدًا الجَنَّة ، ولا يَستطيع أحدٌ أن يَحميَ أحَدًا مِن عذاب النار .

و﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بإضمار " اذْكُر " . وهذا يُشير إلى تعظيم يَوم القيامة ، وتفخيم شأنه ، وتقرير لصعوبته وشِدَّة أهواله. والمعنى : اذْكُر يا مُحمَّد يَوْمَ القيامة الرهيب ، حَيث لا أمر ، ولا حُكم إلا لله ، وَحْدَه لا شريك له . واللهُ هو الحاكم المُنصِف ، والقاضي العادل ، لا يُجامِل ، ولا يُحابي ، ولا يَظلم ، ولا يَسهو ، ولا يُخطِئ ، ولا يَقبل الرِّشوة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٨١) : ((يقول : ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ . يقول: يَوْم لا تُغني نَفْس عن نَفْس شيئًا ، فتدفع عنها بَلِيَّة نزلت بها ، ولا تنفعها بنافعة. وقد كانت في الدنيا تحميها ، وتدفع عنها مَن بغاها سُوءًا ، فَبَطَلَ ذلك يومئذ ، لأن الأمر صار لله الذي لا يَغلِبه غالب ، ولا يَقهره قاهر ، واضمحلَّت هنالك الممالك ، وذهبت الرِّياسات ، وحصل المُلْك للمَلِك الجَبَّار، وذلك قَوله : ﴿ والأمرُ يَوْمَئِذٍ للهِ ﴾ . يقول : والأمر كُلُّه يومئذ _ يعني الدِّين _ لله دُون سائر خَلْقه ، ليس لأحد مِن خَلْقه معه يومئذ أمر ، ولا نَهْي)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٥٠) : ((قال المفسِّرون : ومعنى الآية أنه لا يَمْلِك الأمرَ أحَدٌ إلا الله ، ولَم يُملِّك أحدًا مِن الخَلْق شيئًا كَمَا مَلَّكهم في الدنيا . وكان مُقاتل يقول : لا تَملِك نَفْسٌ لِنَفْس كافرة شيئًا مِن المَنفعة . والقول على الإطلاق أصَح ، لأن مُقاتلًا فيما أحْسَب خافَ نَفْيَ شَفَاعة المؤمنين ، والشَّفاعة إنَّما تكون عن أمر الله وتَمليكه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] .

في يَوم القِيامة ، تُخْتَبَر قلوبُ العِباد ، ويَظهر أمام الناس ما كان خافيًا عنهم في الدُّنيا ، ويُصبح الباطنُ ظاهرًا ، والسِّرُّ علانيةً ، والمَستور مَكشوفًا ، ويَظْهَر ما في القُلوب مِن العقائد والنِّيات ، ويُميَّز بين الأعمال الطَّيبة والأعمال السَّيئة ، وتَظْهَر الضمائر ، وتُكشَف الأسرار .

وقد فسَّر العُلَماءُ الآيةَ بالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والغُسْل مِن الجَنَابَة . والآيةُ عامَّة وشاملة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩٤) : ((﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ ، وذلك يَوم القِيامة ، تُبلَى السَّرائر ، تَظهر الخَفَايا . قال قَتادة ومُقاتل : تُخْتَبَر الأعمال . قال عطاء بن أبي رباح : السَّرائر

فرائض الأعمال ، كالصَّوم ، والصَّلاة، والوُضوء، والاغتسال مِن الجَنابَة، فإنَّها سرائر بين الله تعالى وبَين العَبْد، فَلَوْ شاء العبدُ لقال: صُمْتُ، وَلَم يَصُمْ، وصَلَّيْتُ، وَلَم يُصَلِّ، واغتسلتُ، ولَم يَغتسل ، فَيُخْتَبَر حتى يَظهر مَن أدَّاها مِمَّن ضَيَّعَها. قال ابن عُمر: بِيَدَي الله عَزَّ وَجَلَّ يَوم القِيامة كُل سِر، فيَكُون زَيْنًا في وُجُوه ، وشَيْنًا في وُجُوه . يعني : مَن أدَّاها كان وجهُه مُشرقًا ، ومَن ضَيَّعَها كان وجهه أغبر)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ التي بَين العَبد وبَين رَبِّه ، حَتَّى يَظهَر خَيْرُها مِن شَرِّها ، ومُؤَدِّيها مِن مُضيِّعها ، فإنَّ الإنسان مَستور في الدُّنيا، لا يُدرَى أصَلَّى أم لا ، أتوضَّأ أم لا ، فإذا كان يوم القيامة أبدى اللهُ كُلَّ سِر ، فكان زَيْنًا في الوَجْه ، أوْ شَيْنًا . وقال ابن قُتَيبة : تُخْتَبَر سَرائر القُلوب)) .

وفي فَيض القدير للمُناوي (٤/ ٢٥٧): (((ضَمَّنَ اللهُ خَلْقَه أرْبَعًا _ يعني جَعَلَهم ضامنين_ : الصَّلاة ، والزكاة ، وصَوم رَمَضَان ، والغُسْل مِن الجَنابَة . وَهُنَّ السَّرائر التي قال اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾) ، وذلك أنَّ الله لمَّا عَلِمَ مِن عَبْده المَلَلَ ، وتوالي التَّواني والكَسَل ، لَوَّنَ له الطاعات ، لِيَدُوم له بها تعمير الأوقات ، فَجَعَلَها أبوابًا مُشتملة على أجناس شَتَّى)) .

وما أجملَ قَول القائل : وتَأمَّلْ سَرِيرَةَ القَلْبِ واسْتَحْي   مِنَ اللهِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

وعن عبد الله بن عُمر قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ الغَادِرَ يَنْصِبُ اللهُ لَهُ لِوَاءً يَوْمَ القِيَامة ، فيُقال : ألا هذه غَدْرَةُ فُلانٍ)) [٢٧١].

إذا جَمَعَ اللهُ الناسَ في يَوم القِيامة الرَّهيب، وَضَعَ للغادر عَلَمًا قائمًا ، فَيُفْتَضَح به بَين الناس ، ويُقَال : هذه علامة غَدْرَة فُلان ، وتَفضحه على رؤوس الأشهاد. والغَادِرُ هو الخائن لإنسان عاهده أو ائتمنه . والغَدْرُ عدم الوفاء بالعَهْد ، وهو يَشمل كُلَّ مَن ائتمنكَ على دَم ، أوْ عِرْض ، أوْ سِر، أوْ مال، فَخُنْتَه ، وأضعتَ هذه الأمانة . وهذا الخِزْيُ والعارُ والفضيحةُ للغادر يَوم القِيامة، لأنَّه أخفى غَدْرَته وخِيانته، فَجُوزِيَ على إثمه العظيم بنقيض قَصْده ، وعُوقِب بالتَّشهير ، والفضيحة أمام جميع الناس . والحديثُ يَدُلُّ على تحريم الغَدْر والخِيانة ، ويَحُضُّ على الوفاء بالعُهود واحترامها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٢/ ٤٣ و٤٤): ((قال أهل اللغة: اللواء الراية العظيمة لا يُمسِكها إلا صاحب جَيش الحَرب،أوْ صاحب دَعوة الجَيش، ويكون الناس تَبَعًا له، قالوا : فمَعنى " لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ " ، أي : علامة يُشهَر بها في الناس ، لأن موضوع اللواء الشُّهرة

---

٢٧١ متفق عليه.واللفظ لمسلم (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٥)،والبخاري(٥/ ٢٢٨٥) برقم(٥٨٢٤).

مكان الرئيس علامة له ، وكانت العرب تَنصِب الألويةَ في الأسواق الحفلة لِغَدْرَة الغَادِر ، لتشهيره بذلك . وأمَّا الغَادِرُ فهو الذي يُوَاعِد على أمر ، ولا يَفِي به . يُقال : غَدَرَ يَغْدِر ، بكسر الدَّال في المُضارع . وفي هذه الأحاديث بيان غِلَظ تحريم الغَدْر ، لا سِيَّما مِن صاحب الوِلاية العَامَّة ، لأن غَدْرَه يتعدَّى ضَرَرُه إلى خَلْق كثيرين ، وقِيل : لأنه غَير مُضطر إلى الغَدْر ، لقُدرته على الوفاء ، كما جاء في الحديث الصحيح في تعظيم كَذِب المَلِك . والمشهور أن هذا الحديث وارد في ذَم الإمام الغادر . وذَكَرَ القاضي عِياض احتمالَيْن : أحدهما هذا ، وهو نَهْي الإمام أن يَغْدِرَ في عُهوده لِرَعِيَّته وللكُفَّار وغَيرهم، أوْ غَدْره للأمانة التي قَلَّدَها لِرَعِيَّته ، والتزمَ القِيَامَ بها ، والمُحافظة عليها ، ومتى خانهم ، أوْ تَرَكَ الشَّفَقَةَ عليهم ، أو الرِّفْق بهم ، فقد غَدَرَ بعَهْده . والاحتمال الثاني أنَّ يَكُون المُراد نَهْي الرَّعِيَّة عن الغَدْر بالإمام ، فلا يَشُقُّوا عَلَيه العَصَا ، ولا يتعرَّضوا لِمَا يخاف حُصول فِتْنَة بسببه ، والصحيح الأول ، والله أعلم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٧٧) : (((إنَّ الغَادِرَ) أي : المُغتال لِذِي عَهْد أوْ أمان (يُنصَب) في رواية يُرفَع (له لواء) أي عَلَم (يوم القيامة) خَلْفَه ، تشهيرًا له بالغَدْر ، وإخزاءً ، وتفضيحًا على رؤوس الأشهاد (فيُقَال) أي يُنَادَى عليه في ذلك المَحفِل العظيم (ألا) إنَّ (هذه غَدْرَةُ فُلان) أي علامة على غَدْرَة فُلان (ابن فُلان) ويُرفَع في نَسَبه حتى يتميَّز عن غَيره تمييزًا تامًّا ، وظاهره أن لِكُلِّ غَدْرَةٍ لِوَاءً ، فيكون للواحد ألوية بعَدَد غُدْراته . وحِكمة نَصْب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بِضِدِّ الذَّنْب ، والغُدر خَفِيٌّ ، فاشتَهَرَتْ عُقوبته بإشهار اللواء)) .

وعن عليٍّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسولُ الله ﷺ: ((مَن أذنبَ ذَنْبًا في الدُّنيا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيه ، وعَفا عَنه ، فاللهُ أكرمُ مِن أن يَرْجِعَ في شيء قد عَفَا عنه وسَتَرَه ، ومَن أذنبَ ذَنْبًا في الدُّنيا فعُوقِبَ عَلَيه ، فاللهُ أعدلُ مِن أن يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ على عَبْدٍ مَرَّتَيْن)) [٢٧٢].

مَن ارتكبَ إثمًا أو اقترفَ خطيئةً في الدُّنيا ، فَسَتَرَه اللهُ ، ولَم يَفضحه ، ولَم يَكشف ذَنْبَه أمام الناس ، وتجاوزَ عَنه ، فاللهُ أكرم مِن أن يَتراجع ، ويَرجع في شيء عفا عنه وسَتَرَه . ومَن ارتكبَ إثمًا أو اقترفَ خطيئةً في الدُّنيا، فَأُقِيمَ عليه الحَد ، أوْ عُوقِب بسبب ذَنْبه ، فاللهُ لا يُعاقبه على هذا الذَّنْب مَرَّةً ثانيةً في الآخِرة ، أي إنَّ الله أعْدَل مِن أن يُكرِّر عُقوبته على عَبْده . وهذا يدل على رحمة الله الواسعة،وفَضْله العظيم، وإحسانه الكبير. وهو سُبحانَه الرَّحيم بعباده، المُتَفَضِّل عَلَيهم .

---

٢٧٢ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٢٨) برقم (٨١٦٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المُناوي في فَيض القدير(٦/ ٦٥ و٦٦): (((مَن أصابَ حَدًّا) أي ذَنْبًا يُوجِب الحَدَّ ، فأُقِيم المُسبَّب مَقام السَّبب ، ويُمكن أن يُراد بالحَد المُحرَّم ، مِن قَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فلا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، أي تِلك مَحَارمه (فَعُجِّلَ) وفي نُسخة فَعُجِّلَتْ (عُقوبته في الدُّنيا، فاللهُ أعدل مِن أن يُثَنِّيَ على عَبده العُقوبة في الآخِرة، ومَن أصابَ حَدًّا فَسَتَرَه اللهُ عَلَيه، فاللهُ أكرمُ مِن أن يَعُودَ في شَيء قد عَفَا عَنه) . قال الطيبي: قَوله : " فَسَتَرَهُ" مَعَ قَوله:" عَفا عَنه" مَعًا ، عَطْف على الشَّرْط، أي : مَن سَتَرَ اللهُ عَلَيه وتاب ، فَوَضَعَ غُفران الله مَوضِع التَّوبة استشعارًا بتَرجيح جانب الغُفران ، وأنَّ الذَّنْب مَطلوب له ، ولذلك وَضَعَ المُظهَر مَوضِع الضَّمير في الجَزَاء ، وفيه حَث على السِّتْر والتَّوبة ، وأنَّه أوْلَى وأحْرَى من الإظهار . وقال ابن جرير : فيه أن إقامة الحَد في الدُّنيا يُكفِّر الذَّنْبَ ، وإنْ لَم يَتُب المَحدود ، وإلا كان أهل الكبائر مُخلَّدون في النار ، على خِلاف ما عليه أهل الحق ، لأنَّ العُقوبة الدُّنيوية إذا لم تُكَفِّرْ إلا مَعَ التَّوبة ، كانت كذلك في الآخِرة ، لا يكون العِقاب لأهل التَّوحيد بالنار مُنَجِّيًا لهم مِنها ، إنْ لَم تسبق التَّوبة في الدُّنيا ، وكذلك يَرُدُّه تصريح النُّصوص بأنَّ المُوحِّدين غَير مُخَلَّدِين)) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ٣١٦) : ((قَوله (مَن أصابَ حَدًّا) أي ذَنْبًا يُوجِب الحَدَّ ، فأُقِيم المُسبَّب مَقام السَّبب ، ويجوز أن يُراد بالحَد المُحرَّم مِن قَوله : ﴿ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فلا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، أي : تِلْك مَحَارِمُه ، ذَكَرَه الطيبي (فَعُجِّلَ) بصيغة المجهول، أي: فَقُدِّمَ (أن يُثَنِّيَ) بتشديد النُّون ، أي : يُكَرِّر (فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيه) قال التِّرمذي في باب : إنَّ الحُدُود كَفَّارة لأهلها . قال الشافعيُّ : وأُحِبُّ لِمَن أصابَ ذَنْبًا ، فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيه أن يَسْتُرَ على نَفْسه ، ويَتُوب فِيما بَينه وبَيْن رَبِّه . وكذلك رُوِيَ عن أبي بكر وعُمر أنَّهما أَمَرَا أن يَسْتُرَ على نَفْسه. انتهى. قُلتُ : روى مُحمَّد في المُوَطَّأ عن سعيد بن المُسيِّب أنَّ رَجُلًا مِن أَسْلَم أتى أبا بكر ، فقال : إنَّ الآخَرَ قد زَنَى ، قال له أبو بكر: هل ذَكَرْتَ هذا لأحدٍ غَيْري؟، قال: لا . قال أبو بكر: تُبْ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ واسْتَتِرْ بِسِتْرِ الله، فإنَّ الله يَقبَل التَّوبة عَن عباده. قال سعيد:فَلَم تُقِرَّ به نَفْسُه حتى أتى عُمر بن الخَطَّاب فقال له كما قال لأبي بكر، فقال له كما قال أبو بكر، إلخ)) .

وفي شرح سُنن ابن ماجة (١/ ١٨٧) : ((" فاللهُ أعدلُ أن يُثَنِّيَ عُقوبته " أي: بأن يُكرِّر في الآخِرة مَعَ عذاب الدُّنيا . قَوله : " فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيه " لكمال الرأفة والرحمة ، فهذا مَن أذنبَ في السِّر ، ولهذا وَرَدَ " كُلُّ أُمَّتي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِين " . قَوله : " قد عَفا عنه " أي : في الدُّنيا بالسِّتْر ، فإن إظهار الجريمة فيه نَوع مِن العِقاب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] .

لَيْسَ للإنسان في يَوم القِيامة العصيب قُوَّةٌ تَدفع عنه العذاب (قُوَّة في نَفْسه) ، ولا ناصر مِن الخارجِ يَحميه. أي إنَّه لا يَستطيع إنقاذ نَفْسه مِن عذاب الله وعُقوبته، ولا يَستطيع أحدٌ فِعْلَ ذلك.

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٣٨):((وقَوله: ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : فما للإنسان الكافر يَوْمَئِذ ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ يَمتنع بها مِن عذاب الله وأليم نَكَاله ﴿ ولا نَاصِرٍ ﴾ يَنصُره ، فيستنقذه مِمَّن ناله بمَكْرُوه ، وقدكان في الدُّنيا يَرجع إلى قُوَّة مِن عَشيرته يَمتنع بِهم مَن أراده بسُوء ، وناصر مِن حَليف يَنصُره على مَن ظَلَمَه واضطهده)) .

وقال القرطبي في تفسيره(٢٠/ ١٢): ((قَوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ ، أي: للإنسان ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أي: مَنَعَة تَمنعه ، ﴿ ولا نَاصِرٍ ﴾ يَنصُره مِمَّا نَزَلَ به. وعَن عِكرمة : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ ﴾ ، قال : هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة مِن قُوَّة ، ولا ناصر . وقال سُفيان : القُوَّة : العشيرة ، والنَّاصر: الحَلِيف. وقِيل: ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ﴾ في بَدَنه ، ﴿ ولا نَاصِرٍ ﴾ مِن غَيره يَمتنع به مِن الله ، وهو معنى قَول قَتادة)) اهـ . وفي التَّسهيل لعلوم التَّنزيل (٤/ ١٩٢) : ((لَمَّاكان دفع المَكَاره في الدُّنيا ، إمَّا بقوة الإنسان ، أو بنُصرة غَيره له ، أخبره اللهُ تعالى أنه يَعدَمها يوم القيامة ، فلا قوة له في نَفْسه ، ولا أحد ينصره من الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفَجْر : ٢٢] .

وجاءَ أمرُ اللهِ وقَضَاؤُه ، وظَهَرَتْ آياتُه وقُدْرَتُه ، في يَوم القِيامة الرَّهيب ، والمَلائكةُ صُفوفًا ، صَف بعد صَف ، وَفْق منازلهم ومراتبهم .

واللهُ مُنَزَّهٌ عَن الحركة والانتقال ، فهاتان الصِّفتان مِن صفات الأجسام المَخلوقة . واللهُ تعالى هو الخالق ، ولَيس مَخلوقًا ، وليس جِسْمًا تَطرأ عليه التَّغَيُّرات . فسُبْحان الذي يُغيِّر ولا يَتغيَّر . وعِندما نَقول عَن فُلان : جاءه الموتُ ، أو جاءه المرضُ ، فلا نَعني أن الموت والمرض يتحركان ويَمشيان. وإنما نَقصد مَعْنًى مجازيًّا مَفهومًا حَسَب اللغة العربية .

واللهُ تعالى جَعَلَ مَجِيءَ الآيات مجيئًا له سُبحانَه تعظيمًا لِتلك الآيات ، ورَفْعًا لشأنها . كما في الحديث الذي رواه مُسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٠) : عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إن اللهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ يَقولُ يَوْمَ القيامة : يا ابْنَ آدم مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني)).

ومِن المَعلوم أن اللهَ مُنَزَّهٌ عن المرض . ومَن أثبتَ المَرَضَ لله تعالى اعتمادًا على ظاهر الحديث فقدكَفَرَ ، وخَرَجَ مِن الإسلام . والمَقصود بالحديث هو تَشريف العبد ، ورفع مكانته .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٢٥) : ((قال العُلَماء : إنَّما أضاف المَرَضَ إلَيه ــ سُبحانَه وتعالى ــ والمُراد العبد ، تشريفًا للعبد ، وتقريبًا له)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٥٧) : ((﴿ وجاءَ رَبُّكَ ﴾ ، أي : ظَهَرَتْ آياتُ قُدرته ، وآثارُ قَهْرِه ، مِثل ذلك بما يَظهر عِند حُضور السُّلطان مِن أحكام هَيْبته وسياسته . وقِيل: جاءَ أمْرُه تعالى وقضاؤه ، على حذف المُضاف للتَّهويل ، ﴿ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، أي : مُصْطَفِّين ، أوْ ذَوِي صُفوف ، فإنَّه يَنزِل يَومئذ ملائكة كُل سماء ، فَيَصْطَفُّون صَفًّا بَعد صَف ، بِحَسَب منازلهم ومراتبهم ، مُحْدِقِين بالجِن والإنس)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٥٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ ﴾ ، أي: أمْرُه وقَضاؤه، قاله الحسن ، وهو من باب حَذف المُضاف . وقِيل : أي : جاءهم الرَّبُّ بالآيات العظيمة ، وهو كقَوله تعالى : ﴿ إلا أن يَأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : بِظُلَل . وقِيل : جَعَلَ مجيءَ الآيات مجيئًا له تفخيمًا لشأن الآيات ... . وقيل : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ ﴾ ، أي : زالت الشُّبَه ذلك اليوم ، وصارت المَعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبَه والشَّك عند مَجيء الشيء الذي كان يُشَكُّ فيه . قال أهل الإشارة : ظَهَرَتْ قُدرته ، واسْتَوْلَتْ . واللهُ جَلَّ ثناؤه لا يُوصَف بالتَّحَوُّل مِن مَكان إلى مَكان ، وأنَّى له التَّحَوُّل والانتقال ، ولا مكان له ، ولا أوان ، ولا يَجْري عليه وقت ، ولا زمان ، لأنَّ في جَرَيَان الوَقْت على الشَّيء فَوْت الأوقات ، وَمَن فاته شَيء ، فهو عاجز . قَوله تعالى : ﴿ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، أي : المَلائكة ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، أي : صُفُوفًا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥٧) : ((﴿ وجاءَ رَبُّكَ ﴾ ، يعني : لفَصْل القَضاء بين خَلْقه ، وذلك بعدما يَستشفعون إلَيه بسَيِّد وَلَد آدَم على الإطلاق، مُحمَّد صلوات الله عليه وسلامه عليه ، بعدما يَسألون أُولي العَزْم مِن الرُّسُل ، واحدًا بعد واحد ، فكُلُّهُم يَقول : لستُ بصاحب ذاكم ، حتى تنتهيَ النَّوبةُ إلى مُحمَّد ﷺ ، فيَقول : " أنا لها أنا لها " فيَذهب فيَشفَع عِند الله تعالى في أن يأتيَ لفَصْل القضاء ، فيُشفِّعه الله تعالى في ذلك ، وهي أوَّل الشَّفاعات ، وهي المَقَام المَحمود ، ... ، فيَجيء الرَّبُّ تباركَ وتعالى لفَصْل القَضْاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يَدَيه صُفُوفًا صُفُوفًا)) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٧) : ((رَوى البَيهقي عن الحاكم عن أبي عُمر ابن السَّمَّاك عن حَنبل أن أحمد بن حنبل تأوَّلَ قولَ الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفَجْر: ٢٢] أنَّه: جاء ثوابُه ، ثُمَّ قال البَيهقي : وهذا إسناد لا غُبار عليه)) .

الإمام أحمد بن حنبل مُؤسِّس المذهب الحنبلي الذي يَنْسُب " السلفيون " أنفسَهم إليه، يُؤَوِّل الآيةَ. وله تأويلات كثيرة جِدًّا ، خُصوصًا في فِتنة خَلْق القُرآن ، وتَصَدِّيه للمُعتزلة الذين احْتَجُّوا ببعض الآيات القُرآنية ، فما كان منه إلا أن تأوَّلها ٢٧٣.

---

٢٧٣ العجيبُ أنَّ ابن تَيْمِيَّة الغارق في أوهامه، يقول في بَيان تَلبيس الجَهْمِيَّة (١/ ٢٧) : ((إذا صُرِّح بنَفْي الجِسْمِيَّة وَجَبَ التَّصريح بنَفْي الحركة ، فإذا صُرِّحَ بنَفْي هذا عَسُرَ ما جاء في صِفة الحَشْر ، مِن أنَّ الباري يَطَّلع على أهل المحْشَر، وأنَّه الذي يَلِي حِسَابَهُم ، كما قال تعالى : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والملَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، ... ، فيجب أن لا يُصرَّح للجُمهور بما يَؤول عندهم إلى إبطال هذه الظواهر ، فإنَّ تأثيرها في نُفوس الجمهور ، إنَّما هُو إذا حُمِلَتْ على ظاهرها)) اهـ . هذا الكلامُ شديد الخطورة ، ولنا معه وقفات : أ ــ يجب التصريحُ بنَفْي الجِسْمِيَّة ونَفْي الحركة عن الله تعالى . فكُلُّ جِسْمٍ مُرَكَّبٌ مِن أعضاء وأجزاء ، وبحاجة إلى مكان يحتويه ، ولا بُد للجِسم من حَيِّز يَشغَله . والحَرَكةُ تعني الانتقال مِن مكان إلى مكان ، وتتضمَّن معاني الزَّوال والغِياب والتَّغَيُّر . وهذه الصِّفات مُختصة بالحَوادث المخلوقة . واللهُ تعالى كان موجودًا، ولا شيء معه ، وهو مَوجود قبل المكان والزمان ، وليسَ اللهُ جِسْمًا مُتَحَيِّزًا ومحصورًا في مكان . واللهُ تعالى مُنَزَّه عن الحركة ، لأن الحركة تَغَيُّر . واللهُ تعالى لا يَتَغَيَّر ، ولو كان اللهُ مُتَغَيِّرًا لكانَ مخلوقًا يَطرأ عليه العَدَمُ والزوالُ والحضورُ . وهذا مُحال في حقِّه سُبحانَه . وجميعُ المسلمين (العُلَماء والعَوَام) يقولون : سُبحانَ الذي يُغيِّر ، ولا يتغيَّر . ب ــ إذا تَمَّ نَفْي الجِسْمِيَّة والحركة، فلن يَصْعُب فَهْم قَوْله تعالى : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والملَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . فالمجيءُ المقصود في الآية ليس حركةً، ولا انتقالًا، ولا زوالًا. وقد وضَّحنا تأويلَ الآية . ج ــ أمَّا قَوْلُك" فيجب أن لا يُصرَّح للجمهور بما يَؤول عندهم إلى إبطال هذه الظواهر " . فنقول إننا نُبطِل الشُّبهاتِ التي قد تَعلق في أذهان العوام الذين قد يَفهمون الآية على أن الله تعالى يتحرَّك وينتقل من مكان إلى مكان.فنحنُ نُبطِل الحركةَ والانتقال، ونَنفيهما عن الله تعالى، ولا نُبطِل الآيةَ القُرآنية . د ــ أمَّا قَوْلُك " فإن تأثيرها في نفوس الجمهور إنما هُو إذا حُمِلَتْ على ظاهرها ". فنقول إن ظَاهرَ الآية : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ ﴾ هو الحَركة . والحَركةُ مَنْفِيَّة عن الله تعالى ، لأنها تَغَيُّر . والجميعُ يَعْرفون أن اللهَ تعالى يُغيِّر ولا يَتغيَّر. كما أن قَوْلَك يا ابنَ تَيْمِيَّة مُخَالِفٌ للسَّلَف والخَلَف معًا ، فلم يَقُلْ أحدٌ مِن عُلَماء المسلمين إنَّ الآيات الْمُتَشَابِهَات تُحمَل على ظاهرها، وإنَّ تأثيرها في نُفوس الناس إذا حُمِلَتْ على ظاهرها . بل قال الذين لا يُريدون التأويلَ إن قراءة الآية تفسيرها ، نُؤْمِنُ بها ، ولا تُفَسَّر ، ولا تُتَوَهَّم ، ولا يُقال كَيْف . هـ ــ ابن تَيْمِيَّة يُجَوِّز الحركةَ على الله تعالى، لأنه يُؤْمِن بحمل النَّص على ظاهره . =

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفَجْر: ٢٣].

وَأُحْضِرَتْ جَهَنَّمُ في يَوم القِيامة . وفي ذلك اليَوم الرَّهيب والمَوقِف العصيب ، يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ذُنُوبَه ومَعَاصيه في الدُّنيا ، ويَندَم على تَفريطه وعِصيانه ، ويُريد أن يتوب ، ومِن أينَ له التَّوبة وقد أضاعها في الدُّنيا ؟! . وكيف تنفعه الذِّكرى ، وقد مضى وقتُها ، وفات أوانُها ؟! . وهذا استفهام بمعنى النَّفْي ، أي : لا تَنفعه الذِّكرى ، ولا تُفيده التَّوبة ، لأنَّ الآخِرة دار جَزَاء لا دار تَكليف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٢٢) : ((قال مُقاتل : يُجَاء بها ــ أي بجهنَّم ــ فتُقام عَن يَسَار العَرْش . قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أي : يَوْمَ يُجَاء بجهنَّم ﴿ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ﴾ ، أي : يتَّعظ الكافرُ ويتوب . قال مُقاتل : هو أُمَيَّة بن خَلَف ، ﴿ وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ، أي : كيف له بالتَّوبة وهي في القيامة لا تَنفع ؟)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٤) : عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذ ، لها سَبْعُونَ ألفَ زِمَام ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها)) .

يُؤْتَى بجهنَّم مِن المكان التي خَلَقَها اللهُ فِيه ، يَوم القِيامة ، لها سَبعون ألف زِمَام ، وهو ما يُشَدُّ به ، معَ كُل زِمَام سَبعون ألف مَلَك يَسحبونها . وهذا يدل على عِظَم خَلْق النار ، وهي مُلْتَقَى العُصَاة والكافرين، واللهُ يُعذِّب فيها مَن خَالَفَ أوامرَه ، وعَصَاه ، وارتكبَ الجرائم والذُّنوب والآثام.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَقُولُ يا لَيْتَني قَدَّمْتُ لِحَيَاتي ﴾ [الفَجْر: ٢٤]. يقول الإنسانُ يوم القيامة نادمًا مُتَحَسِّرًا على ما فاته من العبادات والطاعات: يا لَيْتني قَدَّمْتُ الخيرَ والعملَ الصالح في الدُّنيا، كَي يَنفعني في الآخِرة لحياتي الباقية. والآخرةُ هي الحياة الحقيقية لأنها دائمة بلا انقطاع ولا زوال ، ولا مَوْت فيها . أمَّا الحياة الدُّنيا فهي مُؤقَّتة وزائلة وفانية . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥٧): ((يعني: يَندَم على ما كان سَلَفَ مِنه، مِن المَعَاصي إن كان عاصيًا ، ويَوَدُّ لَوْ كان ازداد مِن الطاعات إنْ كان طائعًا)) اهـ. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٠): ((﴿ يَقُولُ يا لَيْتَني قَدَّمْتُ لِحَيَاتي﴾ ، أي: لِحَياتي هذه، أوْ وَقْت حياتي في الدُّنيا أعمالًا صالحة. ولَيس في هذا التَّمَنِّي دَلالة على استقلال العبد بِفِعْله ، فإنَّ المَحجور عن شَيء قد يتمنَّى أنْ كان مُمَكَّنًا مِنه)) .

=ومعلومٌ أن الحركة لَم تَرِدْ في القُرآن ، ولا السُّنَّة ، ولا أقوال السَّلَف ، ولا أقوال الخَلَف . فَمِن أينَ جاءَ ابن تَيْمِيَّة بهذه العقيدة الباطلة ، وهو الذي يَزْعُم أنه مُتَّبع للقُرآن والسُّنَّة وَفْق فَهْم السَّلَف الصالح ؟! . هذا دليل واضح على انحراف ابن تَيْمِيَّة العَقَدي ، وأنَّه غارق في عقائد التَّشبيه والتَّجسيم الباطلة .

وعن محمد بن أبي عُمَيرة، وكان مِن أصحاب النبيِّ ﷺ ، قال : ((لَوْ أنَّ عَبْدًا خَرَّ على وَجْهه مِن يَوم وُلِدَ إلى أن يَموت هَرَمًا في طاعة الله ، لَحَقَّرَهُ ذلك اليَوْم ، وَلَوَدَّ أنَّه يُرَدُّ إلى الدُّنيا ، كَيْمَا يَزدادَ مِن الأجر والثواب)) [274].

لَوْ أنَّ عبدًا قضى حياته كاملةً (مُنذ ولادته حتى وفاته شيخًا طاعنًا في السِّن) وهو ساجد لله، لاعتبرَ هذه العبادة والطاعة شيئًا بسيطًا لا قيمة له في يوم القِيامة ، لِمَا يَرى مِن العطاء الإلهيِّ العظيم ، ولتمنَّى أن يعود إلى الدُّنيا ، كَي يَعبد اللهَ ويُطيعه ، ويُكثِر مِن الأعمال الصالحة ، وفِعل الخَيرات ، ويزداد مِن الحسنات، ويحصل على الأجر الكبير ، والثواب الجزيل ، كي ترتفع منزلته في الآخرة ، وينال أعلى الدَّرَجَات في الجَنَّة . والجديرُ بالذِّكر أنَّ دُخول الجَنَّة برحمة الله تعالى ، وليس بأعمال العبد . ودرجةُ العبد في الجَنَّة تتحدَّد حَسَبَ عباداته وطاعاته في الدُّنيا .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٠٨) : ((لِمَا يَرى ويَنكشف له عِيَانًا مِن عَظيم نَوَاله ، وباهر عطائه ، وظاهر هذا أنَّ الرِّضَاء مِن جُملة المَقَامات التي يُتَوَصَّل إليها بالاكتساب ، وهو ما عليه صُوفِيَّة خُرَاسَان ، لكن جَعَلَه العراقيون مِن الأحوال الوَهْبِيَّة لا الكَسْبِيَّة ، وجُمِعَ بأنَّ بدايته كَسْبِيَّة، ونهايته وَهْبِيَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أحَدٌ ﴾ [الفَجْر : ٢٥] .

في يَوم القِيامة العَصِيب ، لا يُعذِّب كعَذابِ اللهِ أحَدٌ في الدُّنيا ، ولا يَتَوَلَّى عذابَ اللهِ أحَدٌ ، لأنَّ الأمر في يَوم القِيامة لله وَحْدَه ، لا شريك له. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥٧): ((أي: لَيْسَ أحَدٌ أشدَّ عذابًا مِن تَعذيب الله مَن عَصَاه)) اهـ. وقال الواحدي في الوجيز (ص ١٢٠١) : ((لا يَتَوَلَّى عَذابَ اللهِ تعالى يومئذ أحدٌ ، والأمرُ يومئذ أمْرُه ، ولا أمْر غَيْره)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أحَدٌ ﴾ [الفَجْر : ٢٦] .

ولا يُقيِّد أحد بالسلاسل والأغلال كَتقييد الله للكافر الضَّال . والمعنى : لا يُعذِّب عذابَ اللهِ أحدٌ ، ولا يُوثق وَثَاقَ اللهِ أحدٌ. وبعبارة أُخرى، لا يُعذِّب أحدٌ مِثْل تعذيب الله ، ولا يُوثق مِثْلَ إيثاقه.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٠) : ((الهاء لله ، أي : لا يَتَوَلَّى عَذابَ اللهِ وَوَثَاقه يَوْمَ القِيامة سِوَاه ، إذ الأمر كُلُّه له . أوْ للإنسان ، أي: لا يُعذِّب أحدٌ مِن الزَّبَانِيَة مِثْلَ ما يُعذِّبونه)) .

٢٧٤ رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٨٥). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٨) : ((رواه أحمد مَوقوفًا، ورجاله رجال الصحيح)) .

وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٦٥٧):((﴿ ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ ، أي: وَلَيْسَ أحدٌ أشدَّ قَبْضًا ووُثُقًا مِن الزَّبَانِيَة لِمَن كَفَرَ برَبِّهم عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناسُ كالفَرَاشِ المَبْثُوثِ ﴾ [القارعة : ٤] .

في يَوم القِيامة الرَّهيب ، يَبعث اللهُ الناسَ مِن قُبورهم ، فيَخرُجون خائفين فَزِعِين ، كالفَرَاش المُتفرِّق المُنتشر في كُل الجهات ، ويَمُوج بعضُهم في بعض ، مِن شِدَّة الهَلَع والرُّعب والحَيرة . وهذا يدل على كثرة أعدادهم ، وذُلِّهم ، وضَعْفهم ، وانكسارهم ، وخُضوعهم ، واضطرابهم .

وقد شَبَّهَ اللهُ حالَ الناس يَوم القِيامة بالفَرَاش (جَمْع فَرَاشة) ، لأنَّه إذا ثارَ ، لَم يتَّجه إلى جِهة واحدة ، بَل كُل فراشة تَذهب في جِهة مُختلفة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥١٣): ((هذا الفَرَاش: الطَّيْر ، الصِّغار البَق ، واحدها فراشة ، أي : كالطَّيْر ، التي تراها تتهافت في النار . والمبثوث : المُتَفَرِّق . وقال الفَرَّاء : كَغَوْغَاء الجَرَاد ، شَبَّهَ الناسَ عِند البَعْث بها ، لأنَّ الخَلْق يَمُوج بَعْضُهم في بَعْض ، ويَركَب بَعْضُهم بَعْضًا مِن الهَوْل، كما قال : ﴿ كَأنَّهُم جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ [القَمَر : ٧])) .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٣١/ ٧٢) : ((شَبَّهَ تعالى الخَلْقَ وَقْتَ البَعْث هَهُنا بالفَرَاش المَبثُوث ، وفي آية أُخرى بالجَرَاد المُنتشِر ، أمَّا وَجْه التَّشبيه بالفَرَاش ، فلأنَّ الفَرَاش إذا ثار ، لَم يتَّجه إلى جِهة واحدة ، بَل كُل واحدة مِنها تذهب إلى غَير جِهة الأُخرى ، فَدَلَّ عَلى أنَّهُم إذا بُعِثُوا فَزِعُوا ، وأمَّا وَجْه التَّشبيه بالجَرَاد ، فهو في الكَثرة ، يُصبحون كَغَوْغاء الجَرَاد ، يَرْكَب بَعْضُه بعضًا ، فكذلك الناس إذا بُعِثُوا، يَمُوج بعضُهم في بعض ، كالجَرَاد والفَرَاش، كَقَوْله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ ﴾ [الكَهْف : ٩٩])) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ المَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] .

هذا هو الوَصْف الثاني مِن صِفات يَوم القِيامة الرَّهيب . وتَصِيرُ الجِبَالُ كالصُّوف المُلوَّن المنثور المُتطاير في الجَو ، وهذا يدلُّ على تمزُّق الجبال ، وتفرُّق أجزائها ، وخِفَّة سَيرها .

وقد شَبَّهَ اللهُ الجِبَالَ بالعِهْن ، وهو الصُّوف المَصبوغ ألوانًا ، لأنَّ الجِبال ألوان مُختلفة ، وبالمَنفوش مِنه لتفرُّق أجزاء الجِبال .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠٢) : ((يعني : قَد صَارت كأنَّها الصُّوف المَنفُوش الذي قَد شَرَعَ في الذهاب والتَّمَزُّق . قال مُجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَير والحَسَن وقَتادة وعَطاء الخُرَاساني والضَّحاك والسُّدي : " العِهْن " الصُّوف)) .

وقال الصاوي في حاشيته (٤/ ٣٤٧) : ((وإنَّما جَمَعَ بَين حال الناس وحال الجِبال ، تنبيهًا على أنَّ تِلك القارعة (القِيامة) أثَّرت في الجِبال العظيمة الصُّلْبَة، حتى تَصِير كالصُّوف المَندُوف ، مَعَ كَوْنها غَير مُكلَّفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتَّكليف والحساب ؟!)) .

٧_ إثباته

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كانَ مِنكُم يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة : ٢٣٢].

يجب على العبد أن يُؤْمِن بشريعة الله وأوامره وأحكامه، ويَخاف عذابه الشديد في يوم القيامة. ولا يُمكن للعبد أن يتَّعظ وينتفع بالأحكام الشرعية إلا إذا كان مُصَدِّقًا بوَحدانية الله ، وبوجود الدار الآخِرة بعد المَوت . والمواعظُ لا تُؤَثِّر إلا في المُؤمنين المُصدِّقين . وقال أبو السُّعود في تفسيره (١/ ٢٢٩) : ((فيُسَارِع الى الامتثال بأوامره ونَوَاهيه، إجلالًا له، وخَوْفًا مِن عِقَابه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا إنَّكَ جَامِعُ الناسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ [آل عِمران: ٩]. اللهُ جَامِعُ الخلائق في يوم القيامة الرهيب (يوم الحساب) الذي لا شَك فيه ، لفَصْل القضاء بينهم ، والحُكم فِيما اخْتَلَفُوا فِيه ، ومُجازاة المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، إنَّ وَعْدَ الله حَق وصِدق ، وواقع لا مَحَالة ، وكائن بلا رَيْب ، واللهُ لا يُخلِف الموعد للبعث والجزاء ، ولا يُخلِف الوعدَ للمؤمنين والكافرين بالثواب والعِقاب. وبالتأكيد،إنَّ الأُلوهية تُنافي خُلْفَ الميعاد. وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٩) : ((﴿ رَبَّنا إنَّكَ جَامِعُ الناسِ لِيَوْمٍ ﴾ ، أي : لحساب يَوم ، أو لجَزاء يَوم . حُذف المُضاف، وأُقِيم مُقامه المُضاف إلَيه ، تَهويلًا له، وتفظيعًا لِمَا يَقَع فِيه ، ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، أي : في وُقوعه ، ووُقوع ما فيه مِن الحَشْر والحِساب والجَزاء ، ومَقصودهم بهذا عَرْض كمال افتقارهم إلى الرحمة ، وأنها المَقصِد الأسنى عِندهم ، والتأكيد لإظهار ما هُم عليه مِن كمال الطُّمأنينة، وقُوَّة اليقين بأحوال الآخِرة ، ﴿ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ تَعليل لمَضمون الجُملة المُؤَكَّدة ، أو لانتفاء الرَّيْب ، والتأكيد لِمَا مَرَّ ، وإظهار الاسم الجليل (لَفْظ الجلالة) مع الالتفات ، لإبراز كمال التعظيم، والإجلال الناشئ مِن ذِكْر اليَوم المَهِيب الهائل ... ، وللإشعار بعِلَّة الحُكم ، فإن الأُلوهية مُنافية للإخلاف)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٤٨٠) : ((﴿ رَبَّنا إنَّكَ جَامِعُ الناسِ ﴾ ، أي : باعثهم ، ومُحْيِيهم بعد تفرُّقهم ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ هُوَ يوم القِيامة ، أي : لحِسَاب يَوم ، أوْ لجَزاء يَوم ، على تقدير حَذف المُضاف ، وإقامة المُضاف إلَيه مُقامه . قَوله : ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، أي : في وُقوعه ، ووُقوع

ما فِيه مِن الحِساب والجَزاء... . قَوله : ﴿ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ للتَّعليل لِمَضمون ما قَبْلها ، أي أنَّ الوَفَاء بالوَعْد شَأن الإله سُبحانَه ، وخُلْفه يُخالف الأُلوهيةَ ، كما أنَّها تُنافيه وتُباينه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أمْرُ السَّاعةِ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ ﴾ [النَّحْل : ٧٧] .

اللمْحُ النَّظَرُ بسُرعة . وما شَأنُ القِيامة في سُرعة المجيء ، وقُرب كَوْنها ، وسُهولة حُدُوثها ، وبَعْث الخلائق، إلا كنظرة سريعة، بَل الأمر أسرع مِن ذلك، لأن الله يقول للشيء : كُن ، فَيَكُون . وهذا تَصوير لسُرعة مجيء القِيامة .

وَضَرْبُ المَثَل بلَمْح البَصَر ، لأنَّه لا يُعرَف زَمَن أقل مِن ذلك . أي إنَّ لَمْح البَصَر يُضرَب به المَثَل لأقصر وقت . ولَيس المُراد أن القِيامة تأتي في أقرب مِن لَمْح البَصَر ، ولكنَّ اللهَ يَصِف سُرعة القُدرة على المجيء بها .

وَسُمِّيَت القِيامةُ بالسَّاعة لوُقوعها فَجْأةً ، ولسُرعة حِسابها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٣٤) : ((﴿ وما أمْرُ السَّاعةِ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ ﴾ ، وتُجَازَوْنَ فيها بأعمالكم . والسَّاعَةُ هي الوقت الذي تَقُوم فِيه القِيامة ، سُمِّيَتْ سَاعَة لأنَّها تَفْجَأ الناسَ في سَاعة ، فيموت الخَلْقُ بصَيْحَة . واللمْحُ النَّظَرُ بسُرعة . يُقَال : لَمَحَهُ لَمْحًا ولَمَحَانًا . ووجه التأويل أنَّ السَّاعَة لمَّا كانت آتيةً ، ولا بُد ، جُعِلَت مِن القُرب كلَمْح البَصَر . وقال الزَّجاج : لَم يُرِدْ أنَّ السَّاعة تأتي في لَمْح البَصَر ، وإنَّما وَصَفَ سُرعةَ القُدرة على الإتيان بها ، أي : يقول للشَّيء: كُن ، فَيَكُون . وقِيل : إنَّما مَثَّلَ بلَمْح البَصَر ، لأنه يَلْمَح السَّمَاءَ مَعَ ما هي عَلَيه مِن البُعْد مِن الأرض . وقِيل : هُوَ تَمثيل للقُرب ، كما يقول القائل : ما السَّنَةُ إلا لَحْظَة ، وشَبَهه . وقِيل : المعنى:هو عِند الله كذلك، لا عِند المَخلوقين،دَليله قَوله: ﴿إِنَّهُم يَرَوْنَهُ بَعِيدًا(٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) ﴾ [المَعَارِج] . ﴿ أوْ هُوَ أقْرَبُ ﴾ ، لَيس ﴿ أوْ ﴾ للشَّك ، بَل للتَّمثيل بأيِّهما أراد المُمثِّل . وقِيل : دَخلت لشَك المُخَاطَب . وقِيل : ﴿ أوْ ﴾ بمنزلة " بَل ")) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٦١) : ((﴿ وما أمْرُ السَّاعةِ ﴾ التي هي أعظم ما وَقَعَتْ فيه المُمارَاة مِن الغُيُوب المُختصة به سُبحانَه ، ﴿ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ ﴾ . اللمْحُ النَّظَر بسُرعة، ولا بُد فِيه مِن زَمَان تتقلَّب فيه الحَدَقَة نَحْو المَرئي، وكُل زمان قابل للتَّجزئة، ولذا قال: ﴿ أوْ هُوَ ﴾ أي : أمْرهما ﴿ أقْرَبُ ﴾ ، ولَيس هذا مِن قَبيل المُبَالَغة ، بَل هو كلام في غاية الصِّدق ، لأنَّ مُدَّة ما بَين الخِطاب وقِيام الساعة مُتناهية ، ومِنها إلى الأبد غَير مُتناه ، ولا نِسبة للمُتناهي إلى غَير المُتناهي . أوْ يُقَال : إنَّ السَّاعَة لمَّا كانت آتيةً ، ولا بُد ، جُعِلَتْ مِن القُرب كلَمْح البَصَر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّ السَّاعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ﴾ [الحج : ٧] .

إنَّ يَوْم القِيامة آتٍ ، وواقع ، وكائن لا مَحَالة ، لا شَك فيه ، ولا مِرْية . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٢٦) : ((أخبرَ سُبحانَه بأن ﴿ الساعةَ آتيةٌ ﴾ أي : في مُستقبل الزمان. قِيل: لا بُد مِن إضمار فِعْل . أي : وَلِتَعْلَمُوا أن الساعة آتية ، ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ أي : لا شَك فيها ، ولا تردُّد . وجُملة ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ خبر ثانٍ للساعة ، أو في مَحَل نَصْب على الحال)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعةِ وأعْتَدْنا لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ سَعِيرًا ﴾ [الفُرقان : ١١].

لقد جَحدوا يَوم القِيامة ، وأنكَروا وُجوده ، ولم يُصدِّقوا بالبَعْث ، وهَيَّأ اللهُ لِمَن أنكرَ يَوْمَ القِيامة نارًا مُتأجِّجة مُستعرة شديدة الحرارة ، وهي جهنَّم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٩٢) : ((﴿ بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعةِ ﴾ ...، فلهذا لا ينتفعون بالدَّلائل ، ولا يتأمَّلون فِيها ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبحانَه ما أعَدَّه لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعة ، فقال : ﴿ وأعْتَدْنا لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ سَعِيرًا ﴾ ، أي : نارًا مُشتعلة مُستعرة)) .

٨_ الحَشْر

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّكُم إلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وخافوا اللهَ ، واتَّقُوه في جَميع الأمور ، والتزموا أوامرَه، واجتنبوا نَوَاهيه، واعْلَمُوا أنكم تُجمَعون في الآخِرة إلَيه سُبحانَه، حِين يَبعثكم مِن القُبور للحِسَاب والجَزَاء ، فيُجازيكم بأعمالكم ، أي : يُجازي المُحسنَ بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، ولا يَظْلِم أحدًا .

إنَّ مصير الخلائق عند الله تعالى ، يَجْمَعها بَعد الشَّتات، فلا يَغيب أحد ، ويُعيدها كما بدأها . وهذه ساعةُ الحَشْر العظيمة التي لا يُمكن الفِرَار مِنها ، أو عدم الحضور . إنها عملية جَمْع إلهية من أجل الجزاء العادل ، فيُجازَى كلُّ عبد بعمله . والحَشْرُ موقفٌ رهيب لأنه مرحلة تَسْبِق تحديدَ المصير (الخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار) .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٢١٠) : ((﴿ واتَّقُوا اللهَ ﴾ في مَجَامع أُموركم بفِعْل الواجبات ، وتَرك المَحظورات ليَعْبَأ بِكُم ... ، ﴿ واعْلَمُوا أنَّكُم إلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ ، أي : للجَزَاء على أعمالكم بعد الإحياء والبَعْث . وأصلُ الحَشْر الجَمْع ، وضَم المُتفرِّق ، وهو تأكيد للأمر بالتقوى ، ومُوجِب للامتثال به ، فإنَّ مَن عَلِمَ بالحَشْر والمُحَاسَبَة والجَزَاء ، كان ذلك من أقوى الدَّواعي إلى مُلازمة التقوى)) .

وعلى الرَّغْم مِن أنَّ الناس يُحشَرون عُراةً ، الرِّجال والنِّساء على السَّواء ، إلا أنَّ هَول المَوقِف يَمنعهم مِن التفكير في الشَّهَوات . فعمليةُ تحديد المَصِير مُسيطرة على الأذهان ، وهذا يمنع التفكيرَ في أي أمر آخَر .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها_ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((تُحشَرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا))، قالت عائشة : فقلتُ يا رسول الله : الرِّجَالُ والنِّساء يَنظُرُ بَعْضُهُم إلى بَعْض ؟ ، فقال : ((الأمرُ أَشَدُّ مِن أن يُهِمَّهُم ذاك)) [سَبَق تخريجه] .

يُحشَرون كما خُلِقُوا حُفَاةً عُراةً غَير مَختونين ، ولا يَنظر بعضُهم إلى بعض رغم العُري ، لأن تحديد المصير هو شاغلهم الذي يملأ وجدانهم. ومِن شِدَّة الأمر لا يهتمون بأيَّة شهوة . وهذا يعكس _ بدون شك_ هَوْلَ موقف الحَشْر الذي يُنسِي الإنسانَ الضغطَ الشَّهَواني واللذة الحِسِّية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن مُتُّم أَوْ قُتِلْتُم لإِلَى اللهِ تُحْشَرُون ﴾ [آل عِمران : ١٥٨] .

إذا مُتُّم في بُيوتكم ، أوْ قُتِلْتُم في المعركة ، فإنَّ مصيركم ومَرجعكم إلى الله في الآخِرة ، فيُجازيكم بأعمالكم ، إنْ خَيْرًا فخَير ، وإنْ شرًّا فَشَر ، فاحرصوا على النجاة من عذاب الله ، ونَيْلِ نعيم الآخِرة الباقي ، واللهُ وَحْدَه هو القادر على جَلب النَّفْع لكم ، ودَفْع الضَّرَر عَنكُم . وإذا وَصَلَ العبدُ إلى المُراد لَم يَحتج إلى الزَّاد . وتَخصيص اسم الله بالذِّكر ، لبيان عَظَمَته وقَهْره وقُدرته .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٣): ((﴿ وَلَئِن مُتُّم أَوْ قُتِلْتُم ﴾ أيُّها المؤمنون ، فإنَّ إلى الله مَرْجِعكم ومَحْشَركم ، فيُجازيكم بأعمالكم ، فآثِرُوا ما يُقَرِّبكم مِن الله ، ويُوجب لكم رضاه ، ويُقَرِّبكم مِن الجَنَّة مِن الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، على الرُّكُون إلى الدُّنيا ، وما تَجْمَعُون فِيها مِن حُطَامها الذي هو غَير باقٍ لكم ، بَل هو زائل عَنكُم ، وعلى ترك طاعة الله والجهاد ، فإنَّ ذلك يُبعِدكم عَن رَبِّكم ، ويُوجِب لكم سَخَطَه ، ويُقَرِّبكم مِن النار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُون ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

كما أنشأكم اللهُ ابتداءً ، وأوجدكم مِن العَدَم ، وخَلَقَكم في الدُّنيا ، ولم تَكونوا شيئًا ، كذلك يُعيدكم يَوم القِيامة أحياءً ، للحِسَاب والجَزَاء ، فيُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته . وهذا رَد واضح على مُنكِري البَعْث .

وقد شبَّه الإعادةَ بالإبداء تقريرًا لإمكانها ، والقُدرة عليها . وهذا احتجاج إلهيٌّ عليهم . والمعنى : إنَّ الله يُخرِجكم مِن قُبوركم ، ويُعيدكم يَوم القِيامة أحياءً ، فيُجازيكم على أعمالكم ، فاعبدوه وَحْدَه لا شريك له ، وافعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٩٠): ((قَوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُون ﴾ ، الكاف نَعْت مَصدر مَحذوف . وقال الزَّجاج : هو مُتعلِّق بما قَبْله . والمعنى : كما أنشأكم في ابتداء الخَلْق يُعيدكم ، فيكون المَقصود الاحتجاج على مُنكِري البَعْث ، فيُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته . وقِيل : كما أخرجكم مِن بُطون أُمَّهاتكم ، تَعُودون إلَيه كذلك ليس معكم شيء ، فيَكُون مِثل قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئتُمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أوَّلَ مَرَّة ﴾ [الأنعام : ٩٤]. وقِيل : كَمَا بَدَأَكم مِن تُراب ، تَعُودون إلى التراب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ١٨٥ و١٨٦): ((وفي قَوله : ﴿كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُون ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها كَمَا بَدَأَكم سُعَداء وأشقياء ، كذلك تُبعَثون ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد والقُرَظي والسُّدي ومُقاتل والفَرَّاء . والثاني كَمَا خُلِقْتُم بقُدرته ، كذلك يُعيدكم ، روى هذا المعنى العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وابن زيد والزجاج ، ... . والثالث كَمَا بَدَأَكم لا تَمْلِكُون شيئًا ، كذلك تَعُودون ، ذكره الماوردي)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتم تَعْمَلُون﴾[التَّوبة: ١٠٥].

وسترجعون بعد الموت إلى الله الذي يَعْلَم السِّرَّ والعلانيةَ ، ولا يَخفَى عليه شيء، فيُخبركم بأفعالكم وأقوالكم ، ويُجازيكم على ذلك ، إنْ خَيرًا فخَير ، وإنْ شرًّا فَشَر .

واللهُ يَبعث الناسَ مِن قُبورهم ، ويُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته ، ويتفضَّل على مَن يشاء ، ويتجاوز عَنه بفَضْله وكَرَمه .

وتقديم الغَيب على الشَّهادة ، يدلُّ على سَعَة عِلْم الله ، وإحاطته بكل شيء . ومَن يَعْلَم الغَيْبَ ، فهو يَعْلَم الشَّهادةَ بطريق الأَوْلَى .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٦٧) : ((﴿وَسَتُرَدُّونَ ﴾ يَوم القِيامة إلى مَن يَعْلَم سَرائركم وعَلانيتكم ، فلا يَخفَى عليه شيء مِن باطن أُموركم وظواهرها ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتم تَعْمَلُون﴾ يقول: فيُخبِركم بما كُنتم تعملون، وما مِنه خالصًا، وما مِنه رِيَاء ، وما مِنه طاعة ، وما مِنه لله معصية، فيُجازيكم على ذلك كُلِّه جَزاءكم ، المُحسِن بإحسانه ، والمُسِيء بإساءته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركَائِكُم مَن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنَّى تُؤْفَكُون ﴾ [يُونُس : ٣٤] .

هذا إبطال لعبادة المُشركين للأصنام والأوثان، وهَدْم لشِرْكهم ، وتنبيه على عَجْز الآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان)، وبيان لقُدرة الله المُطْلَقة ، وأنَّه وَحْدَه المُنفرد بالخَلْق والإماتة والبَعْث .

قُل للمشركين يا مُحمَّد توبيخًا لهم ، وفَضْحًا لباطلهم ، وكَشْفًا لعَجْز آلهتهم الزَّائفة : هَل مِن الأصنام والأوثان مَن يُنشِئ الخَلْقَ مِن العَدَم بلا أصل ولا مِثال ، ثُمَّ يُفنيه ، ثُم يُعيده ويُحييه مِن بَعد المَوت كهَيئته ؟. أمرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ أن يُجيب عن هذا السؤال ، لأن عِناد المُشركين وتكبُّرهم يَمنعانهم مِن قَول الحق . قُل لهم يا مُحمَّد : اللهُ وَحْدَه هو الذي يُحيي ويُميت ، ويُبدِئ ويُعيد ، ولا يَقْدِر صنمٌ ولا وَثَنٌ ولا إله مَعبود مِن دُون الله على فِعْل ذلك، فكيفَ تَنقلبون وتُصرَفون عن الحق إلى الباطل ، وتُصرَفون عَن قَصْد السَّبيل ؟ . والاستفهامُ في ﴿ فأنَّى تُؤْفَكُون ﴾ للتَّوبيخ .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٥٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنبيِّه مُحمَّد ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحمَّد : ﴿ هَلْ مِن شُركائِكُم ﴾ ، يعني : مِن الآلهة والأوثان ﴿ مَن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، يقول: مَن يُنشِئ خَلْقَ شيء مِن غَير أصل ، فيُحْدِث خَلْقَه ابتداءً ، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، يقول : ثُم يُفْنيه بعد إنشائه ، ثُمَّ يُعيده كهَيئته قَبل أن يُفْنيَه ، فإنَّهُم لا يَقْدِرُون على دَعوى ذلك لها ، وفي ذلك الحُجَّة القاطعة والدَّلالة الواضحة على أنَّهُم في دَعْواهم أنها أرباب ، وهي لله في العبادة شُركاء ، كاذبون مُفترون، فقُل لهم حينئذ يا مُحمَّد: اللهُ يَبدأ الخَلْقَ ، فيُنشِئه مِن غَير شَيء ، ويُحْدِثه مِن غَير أصل، ثُمَّ يُفْنِيه إذا شاء ، ثُمَّ يُعيده إذا أراد كهَيئته قَبل الفَناء ، ﴿ فأنَّى تُؤْفَكُون ﴾ ، يقول : فأيُّ وجه عَن قَصْد السَّبيل وطريق الرُّشد تُصْرَفُون وتُقْلَبُون ؟)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركائِكُم مَن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، جَعَلَ الإعادةَ كالإبداء في الإلزام بها ، لظُهور بُرهانها ، وإنْ لم يُسَاعَدُوا عليها ، ولذلك أمرَ الرَّسولَ ﷺ أن يَنُوب عَنهم في الجَواب ، فقال : ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، لأنَّ لَجَاجهم (خُصُومتهم) لا يَدَعهم أن يَعترفوا بها، ﴿ فأنَّى تُؤْفَكُون ﴾ تُصْرَفُون عَن قَصْد السَّبيل)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ وإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ [يُونُس : ٥٦] .

اللهُ هو المُحْيي والمُميت ، خَلَقَ الناسَ مِن العَدَم ، وأنشأهم بدُون أصل ولا مِثال ، وهو القادر على إماتتهم ، وبَعثهم مِن قُبورهم للحِسَاب والجَزَاء ، وإلَيه وَحْدَه مصير الخلائق ومرجعهم بعد الموت ، فيُجازيهم بأعمالهم ، إنْ خيرًا فخَير، وإنْ شرًّا فَشَر. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٥٦): ((﴿ هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ يَهَب الحياةَ ويَسلُبها، ﴿ وإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ في الدَّار الآخِرة ، فيُجازي كُلًّا بما يَستحقه ، ويتفضل على مَن يَشاء مِن عِباده)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٣) : ((﴿ هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ في الدُّنيا ، فهو يَقْدِر عَلَيهما في العُقْبَى ، لأن القادر لِذَاته لا تَزُول قُدرته ، ... ، ﴿ وإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ بالمَوت أو النُّشُور)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكُلُّهُم آتيهِ يَوْمَ القِيَامةِ فَرْدًا ﴾ [مَرْيَم : ٩٥] .

وكُل شخص يَأتي يَوم القِيامة وَحِيدًا، بلا مال، ولا ولد ، ولا نصير ، ولا مُعين . واللهُ يَحكُم له أوْ عليه، ويَقْضي بما يشاء، وهو سُبحانَه القاضي العادل الذي لا يَظْلِم، ولا يُحابي، ولا يُجَامِل .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٨٥) : ((﴿ وَكُلُّهُم آتيهِ يَوْمَ القِيَامةِ فَرْدًا ﴾ ، يقول : وجميع خَلْقه سَوف يَرِدُ عَلَيه يَوم تَقوم السَّاعة وحيدًا ، لا ناصر له مِن الله ، ولا دافع عَنه ، فيَقضي اللهُ فيه ما هو قاضٍ ، ويَصنع به ما هو صانع)) .

٩_ المِيزان والعَرْض على الله واستلام الكِتاب

قالَ اللهُ تعالى: ﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ [الأعراف: ٨].

والوزن لأعمال العِباد يَوم القِيامة بالعَدْل ، بلا جَوْر ولا ظُلْم ، واللهُ لا يَظْلِمُ الناسَ شيئًا . والمَوَازينُ جَمْعُ مِيزان . واللهُ يَنصِب مِيزانًا له لِسان وكِفَّتان لوَزْن أعمال العِباد ، فَمَن رَجَحَتْ مَوازينُ أعماله بالإيمان والعمل الصالح وكثرة الحَسَنَات ، فأولئك هُم النَّاجُون مِن عذاب النار ، الفائزون بنعيم الجَنَّة الأبديِّ .

واللهُ لا يَحتاج إلى وَزن أعمال العِباد ، فهو الغنيُّ عن الوَزن والمِيزان وصحائف الأعمال ، وقد أحاطَ بكل شيئًا عِلْمًا . لكنَّ الحِكمة في وَزن الأعمال ، امتحان الله عبادَه بالإيمان في الدُّنيا ، وإقامة الحُجَّة عَلَيهم وقَطْع أعذارهم في الآخِرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٧١) : ((فإنْ قِيل : ألَيْسَ اللهُ يَعْلَم مَقادير الأعمال ؟ ، فما الحِكمة في وَزنها ؟ ، فالجواب أنَّ فِيه خَمْس حِكَم : أحدها امتحان الخَلْق بالإيمان بذلك في الدُّنيا ، والثانية إظهار علامة السَّعادة والشَّقاوة في الأُخْرَى (الآخِرة). والثالثة تعريف العباد ما لهم مِن خَير وشَر . والرابعة إقامة الحُجَّة عَلَيهم . والخامسة الإعلام بأنَّ الله عادل لا يَظْلِم ، ونظير هذا أنَّه أثبتَ الأعمالَ في كتاب، واستنسخها مِن غَير جَواز النِّسيان عَلَيه)) .

واختلفَ العُلَماءُ في كَيفية هذا الوَزْن الكائن في يَوم القِيامة العظيم على ثلاثة أقوال : الأول : وَزْن صحائف أعمال العِباد بالمِيزان وَزْنًا حقيقيًّا ، وهذا هو الصحيح الثابت في الأدلة الشرعية .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي على رُؤوس الخَلائق يَوْمَ القِيامة ، فَيَنْشُرُ عَلَيه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَر ، ثُمَّ يقول : أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا ؟ ، أظلمكَ كَتَبَتي الحافظون ؟ ، فيقول: لا يا رَب، فيقول : أفَلَكَ

عُذر ؟ ، فيَقول : لا يا رَب ، فيَقول : بلى ، إنَّ لَكَ عِندنا حَسَنَة ، فإنَّه لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْم، فتُخرَج بِطاقةٌ فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُه ، فيَقول : احضُر وَزْنَكَ ، فيَقول : يا رَب ، ما هذه البِطاقة مَعَ هَذه السِّجِلَّات ؟ ، فقال : إنَّكَ لا تُظلَم ، قال : فتُوضَع السِّجِلَّاتُ في كِفَّة ، والبِطاقة في كِفَّة ، فطاشت السِّجِلَّاتُ ، وثَقُلَت البِطاقةُ ، فلا يَثقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيء)) [٢٧٥].

إنَّ الله سيُميِّز ويَختار رَجُلًا مِن الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية أمام الناس يَوم القِيامة ، حيث يُنَادَى بِه ليُحَاسَب ويُجَازَى على أعماله ، فيَفْتَح اللهُ ويَعرِض عَلَيه تِسعةً وتسعين سِجِلًّا(كُتب وصحائف أعماله السَّيئة) التي كان يَعمل بها في الدُّنيا ، والتي تشتمل على ذُنوبه وآثامه ومَعَاصيه . والحديثُ بيَّن طُول وعَرْض كُل سِجِل، فهو مِثل مَد البصر ، وهذا يدل على ضخامة السِّجِل ، وكِبَر حَجْمه. ثُمَّ يَسأل اللهُ هذا الرَّجُل : " أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا ؟ " ، أي : هل تُنكِر مِن المَكتوب في تِلك السِّجلَّات شيئًا ؟ ، " أظلمكَ كَتَبَتي الحافظون ؟ " ، أي : هَل ظَلَمَكَ الملائكةُ الكَتَبَة الحافظون الذين كانوا يَكتبون أعمالك ، وذلك بكتابة ذُنوب لَم تَعملها ، أو عدم كتابة طاعات قد عَمِلْتَها ؟ ، فيُجيب الرَّجُل بالنَّفْي . ويَسأله اللهُ : " أفَلَكَ عُذر ؟ " ، أي: هل لَكَ عُذر تُعذَر به مِمَّا قَدَّمْتَ مِن أعمال سَيِّئة في الدُّنيا أو لَكَ حَسَنَات قد تَغفِر لَكَ مِن ذُنوبك وآثامك ومعاصيك ؟، فيُجيب الرَّجُل بالنَّفْي . وهذا يَعني أن الرَّجُل مُقِرٌّ بجميع أعماله ، ولَيس له عُذر. ويُخبِره اللهُ أنَّ له حَسَنَة غَير مَوجودة في تِلك السِّجلَّات ، وأنَّه لا يُظلَم ، ولا يُبخَس مِن حَقِّه . ويُخرِج اللهُ له بطاقةً (صحيفة صغيرة) مَكتوب فيها الشَّهادتان ، ويقول اللهُ له : " احضُر وَزْنَكَ " ، أي : احضُر مِيزانك الذي يَزِنُ لك سِجلاتك التي فيها ذُنوبك وآثامك ومعاصيك ، وضَعْ فيه تِلك البطاقة ، فيتعجَّب الرَّجُلُ ويَستغرب مِن المُقارَنة بين وَزن البطاقة الصغيرة وعِظَم السِّجلات الهائلة التي نُشِرَتْ له ، فماذا تَفعل هذه البِطاقة الصغيرة معَ هذه السِّجلات الكبيرة ؟ . فقالَ اللهُ له : " إنَّكَ لا تُظلَم " ، أي : لَن يقع عليك ظُلم ، فكُل الأعمال ستُعرَض على المِيزان ، مَهما كانت . فتُوضَع السِّجلات الضخمة الكثيرة في كِفَّة المِيزان ، وتُوضَع البِطاقة الصغيرة المُشتملة على الشَّهَادَتَيْن في كِفَّة المِيزان الأُخرى ، فَخَفَّت الكِفَّةُ التي فيها السِّجلات ، ووُزِنَت الكِفَّةُ التي فيها البِطاقة .

---

٢٧٥ رواه الترمذي في سُننه(٥/ ٢٤) وقال:((حسن غريب)).ورواه ابن حِبَّان في صحيحه(١/ ٤٦١) . ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يعني أنَّ ثِقْل الشَّهَادَتَيْن وكلمةِ التَّوحيد أكبر وأعظم مِن كُل شيء ، ولا شيء يساويها في المِيزان . واسْمُ الله أعظم مِن كُل الذُّنوب والآثام ، ولا يُقاومه شيء مِن المعاصي ، بَل يترجَّح اسمُ الله تعالى على جميع الذُّنُوب والمعاصي صغيرها وكبيرها .

والواجبُ هو الإيمانُ بأن الله يُقِيم المِيزان بالعَدْل ، وبالكيفية التي يُريدها سُبحانَه ، ولا تُقَاس أُمور الآخِرة بأُمور الدُّنيا. والحديثُ يدلُّ على عَظَمَة الشَّهَادَتَيْن ، وفَضْلِ كَلِمة التَّوحيد يَوم القِيامة، وفيه إثبات أن المِيزان له كِفَّتان .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ٣٣٠ و٣٣١) : ((قَوله (إن الله سيُخلِّص) بتشديد اللام ، أي: يُميِّز ويختار (رَجُلًا مِن أُمَّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة) وفي رواية ابن ماجة : يُصَاح برَجُل مِن أُمَّتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق (فينشُر) بضم الشين المعجمة أي فيَفتَح (تسعة وتسعين سِجِلًّا) بكسرتَيْن ، فتشديد أي كتابًا كبيرًا (كُل سِجِل مِثل مَد البَصَر) أي: كُل كتاب مِنها طُوله وعَرْضه مِقدار ما يمتد إليه بَصَر الإنسان (ثُمَّ يقول) أي : اللهُ سُبحانَه وتعالى (أتُنكِرُ مِن هذا ؟) أي المَكتوب (أظلمكَ كَتَبَتي) بفَتَحَات ، جَمْع كاتب ، والمُراد الكِرام الكاتبون (الحافظون ؟) أي لأعمال بني آدم ، فيَقول: (أفَلَكَ عُذر ؟) أي فيما فعلته مِن كَونه سَهْوًا أو خطأ أو جَهْلًا ، ونَحْو ذلك (فيَقول : بلى) أي لَكَ عِندنا ما يَقوم مُقام عُذرك (إن لك عندنا حَسَنَة) أي : واحدة عظيمة مَقبولة ... (فيُخرَج) بصيغة المجهول المُذكَّر ، وفي رواية ابن ماجة فتُخرَج له (بطاقة)قال في النهاية: البطاقة رُقْعَة صغيرة يُثبَّت فيها مِقدار ما تُجعَل فيه إنْ كان عَيْنًا، فوَزْنه أو عدده ، وإنْ كان مَتاعًا فثمنه...(فيها) أي مكتوب في البطاقة (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه) ، قال القاري : يُحتمل أن الكلمة هي أول ما نَطَقَ بها . ويُحتمل أن تكون غير تلك المَرَّة مِمَّا وَقَعَتْ مَقبولة عِند الحَضْرَة ، وهو الأظهر في مادة الخصوص من عُموم الأُمَّة (احضُر وَزْنَكَ) أي الوزن الذي لك أو وزن عملك أو وقت وزنك أو آلة وزنك وهو الميزان ليَظهر لك انتفاء الظُّلْم ، وظُهور العدل وتحقُّق الفضل (فيقول : يا رب ما هذه البطاقة) أي الواحدة (مع هذه السِّجلات؟) أي الكثيرة وما قَدْرها بجَنْبها ومُقابلتها(فقال: فإنَّكَ لا تُظلَم) أي : لا يقع عليك الظُّلْم ، لكن لا بد من اعتبار الوَزْن، كي يَظهر أن لا ظُلم عليك،فاحضُر الوزنَ. قِيل : وجه مُطابقة هذا جوابًا لقَوله : ما هذه البطاقة ؟ أن اسم الاشارة للتحقير، كأنه أنكرَ أن يكون مع هذا البطاقة المُحقَّرة ، مُوَازَنَة لتلك السِّجلات، فرد بقَوله : إنَّكَ لا تُظلَم بحَقيرة ، أي : لا تُحقِّر هذه ، فإنها عظيمة عِندَه سُبحانَه ، إذْ لا يَثقُل مَعَ اسم الله شيء ، ولو ثَقُلَ عليه شيء

لِظُلِمْتَ (قال : فتُوضَع السِّجِلَّاتُ في كِفَّة) بكَسْر، فتشديد، أي: فَرْدَة مِن زَوْجَي المِيزان ، ففي القاموس الكِفَّة بالكَسْر مِن الميزان مَعروف ويُفتَح (والبطاقة) أي وتُوضَع (في كِفَّة) أي : في أخرى (فطاشت السِّجِلَّات) أي خَفَّتْ (وثَقُلَت البِطاقة) أي رَجَحَتْ، والتعبير بالماضي لتحقُّق وُقوعه (ولا يَثقُل) أي ولا يَرْجَح ولا يَغلِب (مع اسم الله شيء) والمَعنى : لا يُقاومه شيء مِن المعاصي ، بل يترجَّح ذِكْر الله تعالى على جميع المعاصي . فإن قيل : الأعمال أعراض لا يُمكن وَزْنها ، وإنَّما تُوزَن الأجسام ، أُجِيب بأنه يُوزَن السِّجِلُّ الذي كُتِبَ فيه الأعمال، ويختلف باختلاف الأحوال، أو أن الله يُجسِّم الأفعالَ والأقوالَ فتُوزَن فتَثقُل الطاعات، وتَطِيش السيئات لِثِقْل العبادة على النَّفْس ، وخِفَّة المعصية عليها ، ولذا وَرَدَ : حُفَّت الجَنَّةُ بالمَكَاره، وحُفَّت النَّار بالشَّهَوات)) .

الثاني : يُوزَن الأشخاص . عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال : ((إنَّهُ لَيَأتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيامة ، لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضة))، وقال: اقرؤوا إنْ شِئتم : ﴿ فلا نُقِيمُ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٥] [٢٧٦].

اللهُ لا يَنظُر إلى أجسام الناس ، وإنَّما يَنظُر إلى قلوبهم . وقيمةُ العبد تتحدَّد وَفْقَ التَّقوى التي مَحَلُّها القلب . وهذا هو مِعيار الأفضلية . ومَن كان قلبُه خاليًا مِن التَّقوى ، فلا قِيمة له عِند الله .

وفي يَوم القِيامة ، يأتي الرَّجُلُ الضَّخْم في جِسْمه،فلا يَزِنُ عِند الله جَناح بعوضة، أي إنَّه لا وَزْن له ، ولا قيمة ، بسبب خُلُوِّ قَلبه من الإيمان الذي هو مَحَلُّ الوَزْن ، وبه تثقُل الموازين . ثُمَّ ذَكَرَ أبو هُرَيرة_ رضي اللهُ عنه_ الآية تصديقًا لكلام النبيِّ ﷺ ، أي: إنَّ الله لا يَجعل لهم قَدْرًا ولا قِيمة، ولا يَضَع لهم مِيزانًا تُوزَن به أعمالهم ، لأنَّ المِيزان إنَّما يُنصَب للذين خَلَطُوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا ، أو لا يُقيم اللهُ لأعمالهم وَزْنًا لتفاهتها وحقارتها ، فهي لا تستحق الوَزْنَ ، ولا داعي للمِيزان.

وفي يقظة أُولي الاعتبار (١/ ٧٩) : ((قال ابن الأعرابي : تقول العرب: ما لفُلان عِندنا وَزْن ، أي : قَدْر لِخِسَّته ، ويُوصَف الرَّجُل بأنَّه لا وَزْنَ له لِخِفَّته ، وسُرعة طَيشه ، وقِلَّة تَثَبُّته . والمعنى أنَّهُم لا يُعْتَدُّ بهم ، ولا يكون لَهم عِند الله مَنزلة وقَدْر)) .

الثالث : تُوزَن الأعمال . قال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((رُوِيَ ذلك عن ابن عباس فيُؤتَى بالأعمال الحسنة على صُورة حَسَنَة ، وبالأعمال السَّيئة على صُورة قَبيحة ، فتُوضَع في المِيزان)) .

---

٢٧٦ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٥٩) برقم (٤٤٥٢) ، ومسلم (٤/ ٢١٤٧) برقم (٢٧٨٥) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٦) : ((﴿والوَزْنُ﴾ أي : القَضَاء ، أوْ وَزْن الأعمال ، وهو مُقابلتها بالجَزَاء ، والجُمهور على أنَّ صحائف الأعمال تُوزَن بمِيزان له لِسان وكِفَّتان، يَنظُر إلَيه الخلائقُ ، إظهارًا للمَعْدَلَة (العَدْل) وقَطْعًا للمَعذِرة ، كما يَسألهم عن أعمالهم ، فتَعترف بها ألسنتهم ، وتَشهَد بها جوارحُهم ... ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ خَبَر المُبتدأ الذي هو الوَزْن ﴿ الحَقُّ ﴾ صِفته ، أوْ خَبَر مَحذوف ، ومعناه العَدْل السَّوِيُّ ، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ حَسَنَاته ، أوْ ما يُوزَن به حَسَناته ، فهو جَمع مَوزون ، أو مِيزان ، وجَمْعه باعتبار اختلاف المَوزونات ، وتعدُّد الوَزْن ، ﴿ فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ الفائزون بالنَّجاة والثَّوَاب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٧٠) : ((والقَول بالمِيزان مَشهور في الحديث ، وظاهر القرآن يَنطِق به ، وأنكرت المُعتزلةُ ذلك ، وقالوا: الأعمال أعراض ، فكيف تُوزَن ؟ ، فالجواب أن الوَزْن يرجع إلى الصَّحائف)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم بِمَا كانوا بآياتِنا يَظْلِمُون ﴾ [الأعراف : ٩] .

ومَن خَفَّت مَوازينُ أعماله بسبب الكُفر والضَّلال والذُّنُوب والمعاصي ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم في عذاب النار الأبديِّ ، وأضاعوا سعادتهم إلى الأبد ، وخابوا ، وهَلَكُوا ، دُون وُجود أيَّة فُرصة للتَّعويض ، بسبب كُفرهم بآيات الله ، وجُحودهم لها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٥) : ((قال أبو بَكْر الصِّديق ـ رضي اللهُ عنه ـ حِين حَضَرَه المَوْتُ في وَصِيَّته لعُمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عنه ـ : إنَّما ثَقُلَتْ مَوازينُ مَن ثَقُلَتْ موازينُه يَوْمَ القِيامة باتِّباعهم الحق في الدُّنيا ، وثِقْله عليهم ، وحُق لمِيزان يُوضَع فيه الحق غدًا أن يَكون ثقيلًا ، وإنَّما خَفَّتْ مَوازينُ مَن خَفَّتْ مَوازينُه يَوْمَ القِيامة باتِّباعهم الباطل في الدُّنيا ، وخِفَّته عَلَيهم ، وحُق لمِيزان يُوضَع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٤) : ((﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ هُم الكُفَّار، فإنَّه لا إيمان لهم لِيُعْتَبَر معه عمل ، فلا يكون في مِيزانهم خَير ، فَتَخِف مَوازينُهم ، ﴿ فأُولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم بِمَا كانوا بآياتِنا يَظْلِمُون ﴾ يَجْحَدُون . فالآياتُ الحُجَج ، والظُّلْم بها وَضْعها في غَير مَوضعها، أي: جُحودها ، وتَرك الانقياد لها)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٣/ ٢١٤) : ((والجَمْعُ بَين صِيغَتَي الماضي والمُستقبل للدَّلالة على استمرار الظُّلْم في الدُّنيا ، أي : فأُولئك المَوصوفون بخِفَّة المَوازين الذين خَسِرُوا أنفُسَهُم بسبب تكذيبهم المُستمر بآياتنا ظالمين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامةِ كِتابًا يَلْقاهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء : ١٣] .

يُظهِر اللهُ للإنسان صحيفةَ عمله مفتوحةً ، فيها حَسَنَاته وسَيِّئاته ، فيرى عمله مكشوفًا وكاملًا ، بلا زيادة ولا نُقصان ، ولا يَستطيع إخفاءَ عمله ، ولا إنكاره ، ولا تَجاهله . وهذا تَعجيل للسَّعادة بالحَسَنَات ، وتَوبيخ عَلى السَّيئات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٦) : ((قال المُفسِّرون : هذا كِتابه الذي فِيه ما عَمِلَ . وكان أبو السَّوَّار العَدَوي إذا قرأ هذه الآية، قال : نَشرتان وطَيَّة ، أمَّا مَا حَيِيتَ يا ابنَ آدم ، فصَحيفتك مَنشورة ، فَأَمْلِ فِيها ما شِئْتَ ، فإذا مِتَّ طُوِيَتْ ، ثُمَّ إذا بُعِثْتَ نُشِرَت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

اقْرَأ صَحيفةَ عملك ، الذي قُمْتَ به في الدُّنيا ، وكُل إنسان يقرأ صحيفته ، سواءٌ كانَ أُمِّيًّا أوْ غَير أُمِّيٍّ . أنتَ مُحَاسِبُ نَفْسِكَ ، والشَّهيد عَلَيها بما عَمِلْتَ ، ولا تحتاج إلى شهيد أوْ مُحَاسِب .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامةِ كِتابًا يَلْقاهُ مَنشُورًا ﴾ ، فيُقَال له : ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، فترك ذِكْر قَوله : فنقول له ، اكتفاءً بدَلالة الكلام عَلَيه ، وعَنَى بقَوله : ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ ﴾ ، اقْرَأ كِتابَ عملك الذي عَمِلْتَه في الدُّنيا الذي كان كاتبان يَكتبانه ونُحصيه عَلَيك ﴿ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، يقول: حَسْبُكَ اليَوم نَفْسُكَ عَلَيك حَاسِبًا يَحْسُب عَلَيك أعمالَك، فيُحصيها عليك،لا نبتغي عليك شاهدًا غَيْرَها،ولا نطلُب عَلَيك مُحْصِيًا سِوَاها. حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قَتادة: ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ سَيَقرأ يَوْمَئِذ مَن لَم يَكُن قارئًا في الدُّنيا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٠) : ((﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي : إنَّكَ لَم تُظلَم ، ولَم يُكتَب عَلَيك إلا ما عَمِلْتَ ، لأنَّكَ ذَكَرْتَ جَميعَ ما كان مِنك، ولا يَنسَى أحدٌ شيئًا مِمَّا كان مِنه ، وكُل أحد يَقرأ كِتَابَه مِن كاتب وأُمِّيٍّ ... . قال مَعْمَر: وتلا الحسن البصري ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ، يا ابنَ آدم، بُسِطَتْ لك صَحيفتك ، ووُكِّلَ بِكَ مَلَكان كريمان أحدهما عن يَمِينك ، والآخَر عن شِمالك ، فأمَّا الذي عَن يَمينك ، فيَحفظ حسناتك ، وأمَّا الذي عن شِمالك، فيَحفظ سَيِّئاتك ، فَاعْمَلْ ما شِئْتَ ، أَقْلِلْ أوْ أَكْثِرْ حَتَّى إذا مِتَّ طُوِيَتْ صَحيفتك ، فجُعِلَتْ في عُنُقِك مَعَك في قَبرك حتى تَخرج يَوم القِيامة كتابًا تلقاه مَنشورًا ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ ﴾ الآية. فقد عَدَلَ واللهِ مَن جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِك ، هذا مِن أحسن كلام الحسن رحمه الله)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٠١) : ((وقال بعضُ الصُّلَحاء : هذا كتاب ، لِسانك قَلَمه ،

وريقك مِدَاده (حِبْره) ، وأعضاؤك قِرطاسه (ما يُكتَب فِيه)، إنْ كُنتَ المُمْلِي على حَفَظَتك ما زِيدَ فيه، ولا نُقِصَ مِنه،ومتى أنكرتَ مِنه شيئًا،يكون فيه الشاهد مِنك عَلَيك))اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ١٦):((قَوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ ﴾ ، ...، وفيه إضمار تقديره فيُقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ ﴾.قال الحسن: يَقْرَؤُه أُمِّيًّا كان أوْ غَير أُمِّيٍّ، ولقد عَدَلَ عَلَيك مَن جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِك. وفي معنى ﴿حَسِيبًا﴾ ثلاثة أقوال:أحدها مُحَاسِبًا،والثاني شَاهِدًا،والثالث كَافِيًا.والمعنى: إن الإنسان يُفَوَّض إلَيه حِسَابُه لِيَعْلَمَ عَدْلَ الله بين العباد،ويَرى وُجُوبَ حُجَّةِ الله عَلَيه،واستحقاقه العُقوبة، ويَعْلَم إنَّه إنْ دَخَلَ الجَنَّةَ فَبِفَضْل الله لا بعَمَله،وإنْ دَخَلَ النارَ فبذَنْبه.قال ابن الأنباري:وإنَّما قال: ﴿حَسِيبًا﴾ والنَّفْس مُؤنَّثة لأنَّه يَعني بالنَّفْس الشَّخْص أو لأنَّه لا علامة للتأنيث في لفظ النَّفْس)).

وقال القرطبي في التَّذكرة (١/ ٢٨٩) : [باب ما جاء في تطايُر الصُّحُف عِند العَرْض والحِسَاب، وإعطاء الكُتُب باليمين والشِّمال ، ومَن أوَّل مَن يَأخذ كتابه بيمينه مِن هذه الأُمَّة ، وفي كيفية وُقوفهم للحِسَاب ، وما يُقْبَل منهم مِن الأعمال ، وفي دُعَائهم بأسماء آباهم ، وبيان قَوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم ﴾[الإسراء: ٧١]. وفي تعظيم خَلْق الإنسان الذي يَدخل الناس به النارَ أو الجِنَان.وذِكْر القاضي العَدْل،ومَن نُوقِش عُذِّب. قال التِّرمذي: ورُوِيَ عَن عُمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه قال : ((حَاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تُحَاسَبُوا ، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبر ، وإنَّما يَخِفُّ الحِسَابُ على مَن حَاسَبَ نَفْسَه في الدُّنيا)) . وقال عَطاء الخُرَاساني : يُحَاسَب العبدُ يوم القيامة عند معارفه ليكون أشدَّ عَلَيه ، ذَكَرَه أبو نُعَيم . البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ:((مَن حُوسِبَ يَوم القِيامة عُذِّبَ))، قالت: فقُلتُ: يا رسول الله: أليسَ قد قال الله : ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق]؟. فقال : ((لَيس ذلك الحِساب، إنَّما ذلك العَرْض ، مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يَوم القِيامة عُذِّبَ)) أخرجه مسلم والتِّرمذي، وقال: حديث حسن صحيح . أبو داود الطيالسي قال : حَدَّثَنا عُمر بن العلاء اليَشْكُري قال : حَدَّثني صالح بن طبرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول ، وذُكِرَ عِندها القُضَاة ، فقالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((يُؤْتَى بالقاضي العَدْل يَوم القِيامة ، فيَلقَى مِن شِدَّة الحِساب ما يتمنَّى أنَّه لَم يَقْضِ بَيْنَ اثنينِ في تَمْرَةٍ قَط)) . التِّرمذي عن الحسن عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((تُعرَض الناسُ يَوم القِيامة ثلاث عَرَضات ، فأمَّا عَرضتان فجِدال ومعاذير ، فعِند ذلك تَطِير الصُّحُفُ في الأيدي ، فآخِذ بيمينه ، وآخذ بشِماله)) . قال أبو عيسى : ولا يَصِحُّ هذا الحديث مِن قِبَل أن الحسن لم يسمع

مِن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ . قُلتُ : قَوله : وقد رواه بعضُهم ، هو وَكِيع بن الجَرَّاح ، ذَكَرَه ابن ماجة ، قال : حَدَّثَنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة قال: حَدَّثنا وكيع عن عليِّ بن علي فَذَكَرَه . قال الترمذي : وتكلَّم يحيى ابن سعيد القَطَّان في علي بن علي، وخرَّجه أبو بكر البَزَّار أيضًا عن أبي موسى الأشعري عن النبيِّ ﷺ قال : ((يُعرَض الناسُ يوم القيامة ثلاث عَرَضات ، فأمَّا عَرضتان فجِدال ، وأمَّا الثالثة فتطايُر الكُتب يَمِينًا وشِمَالًا)) ، ... . وذَكَرَ أبو جعفر العُقَيلي من حديث نُعَيم بن سالم عن أنس ابن مالك رضي اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال:((الكُتب كُلُّها تحت العَرش، فإذا كان يوم المَوقِف بَعَثَ اللهُ رِيحًا ، فتُطيِّرها بالأيمان والشَّمائل ، أوَّل خَط فيها : ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾)). أبو داود عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: ذَكَرْتُ النارَ فَبَكَيْتُ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما يُبْكِيكِ ؟)) ، قُلتُ : ذَكَرْتُ النارَ فَبَكَيْتُ ، فهل تَذكُرون أهليكم يَوم القِيامة ؟، فقال: ((أمَّا في ثلاثة مواطن ، فلا يَذكُر أحدٌ أحدًا . عِند المِيزان حتى يَعْلَمَ أيَخِفُّ مِيزانُه أم يَثقُل ، وعِند تطايُر الصُّحُف حتى يَعْلَمَ أين يَقَع كِتابُه ، في يَمينه أم في شِماله مِن وَراء ظَهْره، وعِند الصِّراط، إذا وُضِعَ بَين ظَهْرَي جهنم حتى يَجُوز)). وذَكَرَ أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب عن زيد بن ثابت رضي اللهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ:((أوَّلُ مَن يُعطَى كِتَابَه بيمينه مِن هذه الأُمَّة عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عنه ، وله شُعاع كشُعاع الشمس))، فقِيل له: أين يَكُونُ أبو بَكْر يا رسول الله ؟، قال: ((هَيْهَات ، زَفَّتْهُ المَلائكةُ إلى الجِنَان)). وخَرَّجَ الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَندَه في كتاب التوحيد له عن مُعاذ بن جبل رضي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ الله تباركَ وتعالى يُنادي يوم القيامة بصوت رفيع غَير فَظِيع : يا عبادي ، أنا الله لا إلهَ إلا أنا ، أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكم اليَوم ، ولا أنتم تَحزَنون ، أحْضِرُوا حُجَّتَكُم ، ويَسِّرُوا جوابكم ، فإنَّكُم مَسؤولون مُحَاسَبُون ، يا ملائكتي ، أقيموا عِبادي صُفُوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب))... فصل:قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِه﴾[الإسراء:١٣]. قال الزَّجاج : ذِكْر العُنُق عِبارة عن اللزوم كلُزوم القِلادة للعُنُق . وقال إبراهيم بن أدهم : كُل آدميٍّ في عُنقه قِلادة يُكتَب فيها نُسخة عمله، فإذا مات طُوِيَتْ، وإذا بُعِثَ نُشِرَتْ، وقِيل له: ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .وقال ابن عباس رضي اللهُ عنه: طائره عَمَلُه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامةِ كِتابًا يَلْقاهُ مَنشُورًا(١٣)اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(١٤) ﴾ . قال الحسن : يَقرأ الإنسانُ كِتابَه أُمِّيًّا كان أوْ غَير أُمِّيٍّ. وقال أبو السَّوَّار العَدَوي: وقرأ هذه الآية ﴿ وَكُلَّ

إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِه﴾ . قال : هُما نَشرتان وطَيَّة ، أمَّا ما حَيِيتَ يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة ، فأمْلِ فيها ما شِئت ، فإذا مِتَّ طُوِيَتْ ، حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَت ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ . فإذا وَقَفَ الناسُ على أعمالهم مِن الصُّحُف التي يُؤْتُونها بَعد البَعْث حُوسِبُوا بها . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ ، فدلَّ على أن المُحَاسَبَة تكون عِند إتيان الكُتُب ، لأنَّ الناس إذا بُعِثُوا لا يكونوا ذاكرين لأعمالهم. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أحصاهُ اللهُ ونَسُوهُ ﴾ [المُجَادِلة : ٦] . وقد تَقَدَّمَ القَول في مُحَاسَبَة الله تعالى لخَلْقه في يَوم الحِساب ، مِن أسماء القيامة ، فإذا بُعِثُوا مِن قُبورهم إلى المَوقِف ، وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تَقَدَّمَ ، حُفَاةً عُرَاةً ، وجاء وقتُ الحساب الذي يُريد اللهُ أن يُحاسِبهم فيه ، أمرَ بالكُتب التي كَتَبَها الكِرَام الكاتبون بذِكْر أعمال الناس ، فأُوتوها ، فمِنهُم مَن يُؤْتَى كِتابَه بيمينه ، فأُولئك هُم السُّعَداء ، ومِنهُم مَن يُؤْتَى كِتابَه بشِماله ، أوْ مِن وراء ظَهْره ، وهُم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كُلٌّ كتابَه ، وأنشَدُوا :

مَثِّلْ وُقُوفَكَ يوم العَرْض عُريانا	مُسْتَوْحِشًا قَلِقَ الأحشاءِ حَيْرَانا
والنارُ تَلَهَّبُ مِن غَيظ ومِن حَنَقٍ	على العُصَاةِ وربُّ العَرش غَضبانا
اقرأ كتابك يا عَبْدي على مَهَلٍ	فهل ترى فِيه حَرْفًا غَير ما كانا
لَمَّا قَرَأتَ وَلَم تُنكِر قِراءته	إقرار مَن عَرَفَ الأشياءَ عِرفانا
نادى الجليل : خُذوه يا ملائكتي	وامْضُوا بعبدٍ عَصَى للنار عَطشانا
المُشركون غَدًا في النار يلتهبوا	والمؤمنون بدار الخُلْد سُكَّانا

فَتَوَهَّمْ نَفْسَك يا أخي إذا تطايرت الكُتب ، ونُصِبَت المَوازين ، وقد نُودِيتَ باسمك على رؤوس الخلائق ، أين فُلان ابن فُلان ، هَلُمَّ إلى العَرْض على الله تعالى ، وقد وُكِّلَت الملائكة بأخذك ، فقُربتك إلى الله لا يَمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك ، إذْ عَرفت أنَّك المُراد بالدُّعاء ، إذْ قَرَعَ النداءُ قلبَك ، فعلمتَ أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغيَّر لونك ، وطار قلبُك ، تخطى بك الصُّفوف إلى رَبِّكَ للعَرْض عليه ، والوقوف بين يَدَيه ، وقد رَفَعَ الخلائقُ إليك أبصارَهم ، وأنتَ في أيديهم ، وقد طار قلبُك ، واشتد رُعْبُك لِعِلْمِك أين يُراد بِك . فَتَوَهَّمْ نَفْسَكَ وأنتَ بَين يَدَي رَبِّكَ ، في يَدِك صَحِيفة مُخبِرة بعملك ، لا تُغادر بَلِيَّةً كتمتها ،

ولا مُخَبَّأة أسررتها ، وأنتَ تقرأ ما فيها بلسان كليل ، وقلب منكسر ، والأهوال مُحْدِقة بِك مِن بَيْن يَدْيك ، ومِن خَلْفك ، فكَم مِن بَلِيَّة قد كُنتَ نَسيتها ذَكَرْتَها ، وكَم مِن سَيِّئة قد كُنتَ أخفيتها قد أظهرها وأبداها ، وكَم مِن عمل ظننتَ أنَّه سَلِمَ لَك وخَلَصَ ، فَرَدَّه عليك في ذلك المَوْقِف ، وأحبطه بعد أن كان أمَلُك فيه عظيمًا ، فيا حَسرة قلبك ، ويا أسفك على ما فَرَّطْتَ فيه من طاعة رَبِّكَ ، ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الحَاقَّة : ١٩] ، فَعَلِمَ أنَّه مِن أهل الجَنَّة ،﴿ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤوا كِتَابِيَه ﴾ [الحَاقَّة : ١٩]، وذلك حين يَأذَن اللهُ ، فيقرأ كِتابَه ، فإذا كان الرَّجُل رأسًا في الخَير ، يدعو إليه ، ويأمر به ، ويُكثِر تَبَعَه عَلَيه ، دُعِيَ باسمه واسم أبيه فيتقدم ، حَتَّى إذا دنا أُخرِج له كتاب أبيض بخَط أبيض في باطنه السَّيئات ، وفي ظاهره الحَسَنَات ، فيبدأ بالسَّيئات فيَقرؤها ، فيُشفِق ، ويَصْفَر وجهُه ، ويتغيَّر لونُه ، فإذا بَلَغَ آخِرَ الكتاب ، وَجَدَ فيه هذه سَيِّئاتك ، و قد غَفَرْتُ لَك ، فيفرح عند ذلك فرحًا شديدًا ، ثُمَّ يُقَلِّب كِتابه فيَقرأ حسناته، فلا يزداد إلا فرحًا حتى إذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه هذه حسناتك ، قد ضُوعِفَت لك ، فَيَبْيَض وجهُه ، ويُؤْتَى بتاج ، فيُوضَع على رأسه ، ويُكسَى حُلَّتَيْن ، ويُحلَّى كُل مَفْصِل فيه ، وبطُول سِتِّين ذِرَاعًا ، وهي قامة آدم ، ويُقال له : انطلِقْ إلى أصحابك ، فبَشِّرْهُم ، وأخبرهم أن لكل إنسان مِنهم مِثل هذا ، فإذا أدبرَ قال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤوا كِتَابِيَه (١٩) إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَه(٢٠)﴾ ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَة ﴾ ، أي : مَرْضِيَّة ، قد رَضِيَها ﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَة ﴾ في السَّماء ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿ دَانِيَة ﴾ أُدْنِيَتْ مِنهُم ، فيَقول لأصحابه : هل تعرفوني ؟، فيقولون: قد غمرتك كرامةُ الله ، مَن أنتَ ؟ ، فيقول : أنا فُلان ابن فُلان ، لِيَبْشَر كُل رَجُل مِنكُم بمِثل هذا ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أسْلَفْتُم في الأيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ ، أي : قَدَّمْتُم في أيام الدُّنيا . وإذا كان الرَّجُلُ رأسًا في الشَّر، يَدعو إليه ، ويأمر به ، فيُكثِر تَبَعَه عَلَيه ، ونُودِيَ باسمه واسم أبيه، فيتقدَّم إلى حسابه، فيُخرَج له كتاب أسْوَد بخَط أسْوَد ، في باطنه الحَسَنات ، وفي ظاهره السَّيئات،فيبدأ بالحسنات فيقرؤها ، ويظن أنه سينجو فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : هذه حسناتك ، وقد رُدَّتْ عَلَيك ، فَيَسْوَد وجهُه ، ويعلوه الحُزن ، ويَقْنَط مِن الخَير ، ثُمَّ يُقَلِّب كِتابه ، فيقرأ سيئاته،فلا يزداد إلا حُزنًا ولا يزداد وجهُه إلا سوادًا، فإذا بلغ آخرَ الكتاب وجد فيه: هذه سَيِّئاتك وقد ضُوعِفت عَلَيك، أي: يُضَاعَف عَلَيه العذاب ، ليس المعنى أنَّه يُزاد عليه ما لَم يعمل . قال : فينظر إلى النار ، وتَزْرَق عيَناه ، ويَسْوَد وجهُه ، ويُكسَى سَرابيل القَطِران ، ويُقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مِثل هذا، فينطلق وهو يقول: ﴿يا لَيْتَني لَم أُوتَ كِتَابِيَه(٢٥)وَلَم أدْرِ مَا حِسَابِيَه(٢٦)

يا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ يعني المَوت ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه﴾ تفسير ابن عباس رضي اللهُ عنهما:هَلَكَتْ عَنِّي حُجَّتي. قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوه (٣٠) ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوه (٣١) ﴾ ، أي : اجْعَلُوه يَصْلَى الجحيم ﴿ ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه ﴾ ، والله أعلم بأيِّ ذِراع . قال الحسن : وقال ابن عباس رضي اللهُ عنهما : سَبعون ذِرَاعًا بذِرَاع المَلَك ... . فاسْلُكُوه فيها ، أي تَدْخُل مِن فِيه حتى تَخرُج مِن دُبُره ، قاله الكلبي . وقِيل : بالعَكْس ، وقِيل : يَدخل عُنُقُه فيها ثُمَّ يُجَر بها ، وَلَوْ أنَّ حَلْقة منها وُضِعَت على جبل لأذابته ، فيُنادي أصحابُه فيقول : هل تعرفونني؟ فيقولون : لا ، ولكن قد نرى ما بك مِن الخِزْي ، فَمَن أنتَ ؟ ، فيقول: أنا فُلان ابن فُلان ، لكل إنسان مِنكُم مِثل هذا . وأمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَه وراء ظَهْره ، فتُخلَع كَتِفُه اليُسرى، فتُجعَل يَدُه خَلْفه ، فيَأخذ بها كتابه ، وقال مجاهد : يُحوِّل وَجْهَه في موضع قفاه ، فيَقرأ كتابه كذلك . فتَوَهَّمْ نَفْسَكَ إنْ كُنتَ مِن السُّعَداء ، وقد خرجتَ على الخلائق مسرور الوجه ، قد حَلَّ لك الكمال والحُسن والجَمَال ، كتابك في يمينك ، آخِذ بِضَبْعَيْك (إبْطَيْك) مَلَك يُنادي على رؤوس الخلائق : هذا فُلان ابن فُلان ، سَعِدَ سعادةً لا يَشقَى بعدها أبدًا . أمَّا إنْ كُنتَ مِن أهل الشَّقاوة فَيَسْوَد وَجْهُك ، وتتخطى الخلائق ، كِتَابك في شِمالك أوْ مِن وراء ظَهْرك ، تُنادي بالوَيْل والثُّبُور ، ومَلَك آخِذ بِضَبْعَيْكَ يُنادي على رؤوس الخلائق ، ألا إن فُلان ابن فُلان ، شَقِيَ شَقاوةً لا يَسْعَد بعدها أبدًا .

قُلتُ : قَوله : ألا إنَّ فُلان ابن فُلان دليل على أن الإنسان يُدعَى في الآخِرة باسمه واسم أبيه . وقد جاء صريحًا مِن حديث أبي الدَّرداء رضي اللهُ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّكُم تُدْعَوْنَ يَوم القِيامة بأسمائكم ، وأسماء آبائكم ، فأحْسِنُوا أسماءكم)) خَرَّجَه أبو نُعَيم الحافظ] اهـ .

وقال الشاعر :

أَزِفَ الرَّحيلُ وَلَيْسَ لي مِن زَادِ ... غَيْرُ الذُّنُوبِ لِشِقْوتي ونِكادي
يا غَفْلَتي عَمَّا جَنَيْتُ وحَيْرَتي ... يَوْمًا يُنادي للحِسَابِ مُنَادِ
غَلَبَتْ عَلَيَّ شَقَاوتي ومَطَامعي ... حَتَّى فَنِيتُ وَمَا بَلَغْتُ مُرَادي
يا غافلًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ غَدًا ... في مَوْقِفٍ صَعْبٍ عَلى الوُرَّادِ
اقْرَأ كِتَابَكَ كُلُّ مَا قَدَّمْتَهُ ... يُحْصَى عَلَيْكَ بصَيحةِ المِيعادِ
كَيْفَ النَّجَاةُ لِعَبْدِ سَوْءٍ عَاجِزٍ ... وَعَلَى الجَرائمِ قَادرٍ مُعْتَادِ
يا غافلًا مِن قَبْلِ مَوْتِكَ فَاتَّعِظْ ... وَالْبَسْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ثَوْبَ حِدَادِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَمَا خَلَقْناكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُم أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴾ [الكَهْف : ٤٨] . وعُرِضَ الناسُ في مَوقِف الحِسَاب يَوم القِيامة على الله مَصفوفين ، صَفًّا بعد صَف ، كما في الصَّلاة، ولا يَحْجُب أحدٌ أحدًا.وشُبِّهَت حالُهم بحال الجُند المعروضين على السُّلطان ، المُنتظرين أوامره وأحكامه.لقد جِئتمونا حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا(غير مَختونين) بدُون مال ولا ولد ولا نصير، ولا شَيء معكم، كهَيئتكم حِين خَلقناكم أوَّل مَرَّة.ويُقَال للكافرين مُنكِري البَعْث على وَجه التَّوبيخ والتَّقريع:بل زعمتم أن لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عِقاب. لقد زَعَمَوا أنَّ الله لَن يَجعل لهم مَوعدًا للبَعْث والجَزَاء. وقد أنجزَ اللهُ وَعْدَه، وبَعَثَ الناسَ مِن قُبورهم، وجَمَعَهم للحِسَاب والجَزَاء، حَيث يُجازي المُحْسِنَ بإحسانه، ويَمنحه نعيمَ الجَنَّة، ويُجازي المُسِيءَ بإساءته ، ويُعذِّبه في النار . ووُجود الأفعال الماضية في الآية للحديث عن أمر مُستقبليٍّ يدل على التقرُّر والوُقوع الأكيد . وما عَلِمَ اللهُ وُقُوعَه في المُستقبل ، فهو بحُكم الماضي الذي تَمَّ وانتهى ، ولا شيء يَقف أمام إرادة الله تعالى ، ومشيئته نافذة في كُل شيء لا يَمنعها مانع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٩) : ((وقَوله : ﴿ وعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ، يُحتمل أن يكون المُراد أن جميع الخلائق يَقومون بَيْنَ يَدَي الله صَفًّا واحدًا ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والملائكةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[النَّبأ : ٣٨] . ويُحتمل أنَّهُم يَقُومون صُفُوفًا صُفُوفًا ، كما قال : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفَجْر: ٢٢]. وقَوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونا كَمَا خَلَقْناكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، هذا تَقريع للمُنكِرين للمَعَاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مُخَاطِبًا لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُم أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴾ ، أي : ما كان ظَنُّكُم أن هذا واقع بكم ، ولا أنَّ هذا كائن)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٦١) : ((قال مُقاتل : يُعرَضون صَفًّا بَعد صَف كصُفُوف الصلاة ، كُل أُمَّة وزُمْرة صَفًّا ، لا أنهم صَف واحد. وقِيل : جيمعًا كقَوله : ﴿ ثُمَّ ائتُوا صَفًّا ﴾ [طه: ٦٤] ، أي: جَمِيعًا ، وقِيل : قِيَامًا)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ٢٢٦) : ((وفي الالتفات إلى الغَيبة ، وبناء الفِعل للمَفعول معَ التَّعَرُّض لعُنوان الرُّبوبية ، والإضافة إلى ضميره ﷺ مِن تربية المَهَابة،والجَرْي على سُنَن الكِبرياء،وإظهار اللطف به ﷺ، ما لا يَخفَى))اهـ. وقال الثعالبي في تفسيره(٢/ ٣٨٥): ((﴿ وعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ، أي : صُفُوفًا. وفي الحديث الصحيح: " يَجْمَعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرِينَ في صعيد واحد صُفُوفًا، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهُم البَصَرُ" الحديث بطُوله. وفي حديث آخَر:" أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صَفًّا، أنتم مِنها ثمانون صَفًّا ")) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الكِتابُ فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ويَقُولونَ يا وَيْلَتَنا مَالِ هذا الكِتابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبيرةً إلا أحْصَاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِرًا ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا ﴾ [الكَهْف : ٤٩]. ووُضِعَتْ صَحائفُ أعمال العِباد ، التي تشتمل على أعمالهم الصغيرة والكبيرة، فترى المُجرمين خائفين مِمَّا فيها مِن الذُّنوب والآثام والمعاصي والجرائم ، ويقولون نادمين مُتحسِّرين : يا حَسْرَتَنَا ، ويا هَلاكَنَا ، عَلى ما فَرَّطْنا في أعمارنا في حياتنا الدُّنيا . إنَّهُم يَدْعُون على أنفسهم بالوَيْل لوُقوعهم في الهلاك .

ما شَأنُ هذا الكِتاب لا يَترُك ذَنْبًا صغيرًا ولا ذَنْبًا كبيرًا ، إلا ضَبَطَه وأثبته وأحاط به . وهذا تعجُّب مِنهُم مِن شأن هذا الكتاب المُحِيط بكل أعمالهم ، والجامع لصغيرها وكبيرها بلا استثناء .

ووَجدوا ما عَمِلُوا في الدُّنيا مِن خَير وشَر مَكتوبًا مُثبتًا في الكِتاب. واللهُ عادلٌ مُنَزَّهٌ عن الظُّلْم. لا يُعاقب إنسانًا بغَير ذَنْب ، ولا يَزيد عاصيًا في عِقَابه ، ولا يُنقِص طائعًا مِن ثَوَابه .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٢٣٤) : ((يقول عَزَّ ذِكْرُه : ووَضَعَ اللهُ يومئذ كتابَ أعمال عِباده في أيديهم، فأخذَ واحد بيمينه، وأخذ واحد بشِماله ، ﴿ فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ يقول عَزَّ ذِكْرُه : فترى المُجرمين المُشركين بالله مُشفقين ، يَقول : خائفين وَجلين مِمَّا فيه مَكتوب مِن أعمالهم السَّيئة التي عَمِلُوها في الدُّنيا أن يُؤَاخَذُوا بها ، ﴿ ويَقُولونَ يا وَيْلَتَنا مَالِ هذا الكِتابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبيرةً إلا أحْصَاها ﴾ ، يعني أنَّهُم يقولون إذا قَرَؤُوا كِتابَهم ، ورَأَوْا ما قَد كُتِبَ عليهم فيه ، مِن صَغائر ذُنوبهم وكِبائرها ، نَادَوْا بالوَيْل حِين أيقَنُوا بعذاب الله ، وضَجُّوا مِمَّا قد عَرَفُوا مِن أفعالهم الخبيثة ، التي قد أحصاها كتابهم ، ولَم يَقْدِرُوا أن يُنكِروا صِحَّتها ... . [عن] أبي محمد بن عبد الرحمن يقول في هذه الآية في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَالِ هذا الكِتابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبيرةً إلا أحْصَاها ﴾ ، قال: الصَّغيرة : الضَّحِك ، ويَعني بقَوله : ﴿ مَالِ هذا الكِتابِ ﴾ ، ما شَأنُ هذا الكِتاب ، ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبيرةً ﴾ ، يقول : لا يُبْقِي صَغيرةً مِن ذُنوبنا وأعمالنا ، ولا كبيرة مِنها ، ﴿ إلا أحْصَاها ﴾ ، يقول : إلا حَفِظَها ، ﴿ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا ﴾ في الدُّنيا مِن عَمَل ﴿ حَاضِرًا ﴾ في كتابهم ذلك ، مَكتوبًا مُثبتًا ، فجُوزُوا بالسَّيئة مِثْلَها ، والحَسَنة ما الله جازيهم بها ، ﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا ﴾ ، يقول : ولا يُجازي رَبُّكَ أحدًا يا مُحمَّد بغَير ما هو أهله . لا يُجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان ، ولا بالسَّيئة إلا أهل السَّيئة ، وذلك هو العَدْل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥٢ و١٥٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكِتابُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه الكِتاب الذي سُطِّرَ فيه ما تَعمل الخلائقُ قبل وجودهم،قاله ابن عباس.

والثاني أنَّه الحِساب ، قاله ابن السائب . والثالث كِتاب الأعمال ، قاله مُقاتل . وقال ابن جرير : وُضع كتاب أعمال العباد في أيديهم ، فعلى هذا الكتاب اسم جِنس . قَوله تعالى : ﴿ فَتَرَى المُجْرِمِينَ ﴾ . قال مُجاهد : هُم الكافرون . وذَكَرَ بعضُ أهل العِلم أن كُل مُجرِمٍ ذُكِرَ في القُرآن فالمُراد به الكافر . قَوله تعالى : ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ ، أي : خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ مِن الأعمال السَّيئة ، ﴿ ويَقُولونَ يا وَيْلَتَنَا ﴾ ، هذا قَول كُل واقع في هَلَكَة ... قَوله تعالى: ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبيرةً إلا أحْصَاها ﴾ ، هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها . وقد روى عِكرمة عن ابن عباس قال: الصَّغيرة التَّبَسُّم ، والكَبيرة القَهْقَهَة . وقد يُتوهَّم أن المراد بذلك صغائر الذُّنوب وكبائرها ، وليس كذلك ، إذْ ليس الضحك والتبسُّم مُجرَّدهما مِن الذُّنُوب ، وإنَّما المُراد أن التَّبَسُّم مِن صِغار الأفعال ، والضَّحِك فِعل كبير . وقد روى الضَّحاك عن ابن عباس قال : الصَّغيرة التَّبَسُّم ، والاستهزاء بالمؤمنين ، والكَبيرة القَهْقَهَة بذلك ، فعلى هذا يكون ذَنْبًا مِن الذُّنُوب لمَقصود فاعله لا لنَفْسه . ومَعنى : ﴿ أحْصَاها ﴾ عَدَّهَا وأثبتها . والمعنى : وُجِدَت مُحْصَاةً ، ﴿ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ ، أي : مَكتوبًا مُثبتًا في الكتاب ، وقِيل : رَأَوْا جَزاءه حاضرًا ، وقال أبو سُلَيمان : الصحيح عند المُحقِّقين أن صغائر المؤمنين الذين وُعِدُوا العَفْو عنها إذا اجتنبوا الكبائرَ، إنَّما يُعفَى عنها في الآخِرة بعد أن يَراها صاحبها . قَوله تعالى : ﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا ﴾ ، قال أبو سُلَيمان : لا تُنقَص حسنات المؤمن ، ولا يُزاد في سَيِّئات الكافر. وقِيل: إنْ كان للكافر فِعل خَير كعِتْق رَقَبَة وصَدَقة خُفِّفَ عَنه به مِن عَذابه ، وإنْ ظَلَمَه مُسلم أخذ اللهُ مِن المُسلم ، فصار الحق لله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

يُقيم اللهُ المَوَازينَ العَدْلَ للعِبَاد في يَوم القِيامة لوَزْن أعمالهم . والمِيزانُ واحدٌ ، وإنَّما جُمِعَ لأنَّ أعمال العِباد المَوزونة فِيه مُتعدِّدة ومُختلفة، فلا يَظْلِم اللهُ عبدًا مِن عِباده شيئًا. لا يُنقِص مِن ثواب الطائع ، ولا يَزيد في ذُنوب المُسيء ، وإنما يُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسيء بإساءته . وإنْ كان العمل الذي عَمِلَه الإنسانُ قليلًا حقيرًا (وَزْن حَبَّة مِن خَرْدَل ، وهو مَثَل في الصِّغَر) ، جاء بها اللهُ، وأحضرها، وكفى بالله مُحْصِيًا لأعمال عباده، مُجازيًا عليها، مُحَاسِبًا عَلى ما قَدَّمُوه مِن خَير وشَر، ولا أحد أعْلَم بالعباد وأعمالهم مِن الله تعالى. ومَن حَسَبَ شيئًا ، كانَ عَالِمًا به ، وحافظًا له .

وهذا تحذيرٌ إلهيٌّ شديد لعباده ، لأن المُحَاسِب إذا كانَ عالمًا بكل صغيرة وكبيرة ، وقادرًا على كل شيء ، فيجب الخوف مِنه ، واتِّقاء غضبه بالتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٩٦) : ((﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ العَدْل ، تُوزَن بِها صَحائف الأعمال . وقِيل : وَضْع المَوازين تمثيل لإرصاد الحِساب السَّوِيِّ ، والجَزَاء على حَسَب الأعمال بالعَدْل ، وإفراد ﴿ القِسْطَ ﴾ لأنَّه مَصْدَر وُصِفَ به للمُبَالَغَة ﴿ لِيَوْمِ القِيامةِ ﴾ لجَزَاء يوم القِيامة أوْ لأهله ... ، ﴿ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ مِن حَقِّها ، أوْ مِن الظُّلْم ، ﴿ وإن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ ، أي : وإنْ كان العمل أو الظُّلْم مِقدار حَبَّة ... ﴿ أتَيْنا بِها ﴾ أحْضَرْناها ... ﴿ وكَفَى بِنَا حَاسِبِين ﴾ ، إذْ لا مَزيد على عِلْمنا وعَدْلنا)) .

وقال ابن الجوزي في تفسيره (٥/ ٣٥٤) : ((فإنْ قِيل: إذا كان الميزان واحدًا، فما المعنى بذِكْر الموازين؟. فالجواب أنَّه لمَّا كانت أعمالُ الخلائق تُوزَن وَزنَةً بعد وَزنَةٍ ، سُمِّيَت مَوازين . قَوله تعالى : ﴿ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي: لا يُنقَص مُحسِن مِن إحسانه،ولا يُزاد مُسِيء على إساءته)).

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٧ و٥٣٨ و٥٣٩): ((هَل المُراد أن لكُل شخص مِيزانًا أوْ لكل عمل مِيزان ، فيكون الجَمْع حقيقة ، أوْ ليس هناك إلا ميزان واحد ، والجَمْع باعتبار تعدُّد الأعمال أوْ الأشخاص ، ويَدل على تعدُّد الأعمال قَوله تعالى : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، ويُحتمل أن يكون الجَمْع للتَّفخيم ، كَمَا في قَوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِين ﴾ مَعَ أنَّه لَم يُرسَل إلَيهم إلا واحد . والذي يترجَّح أنَّه مِيزان واحد، ولا يُشكِل بكَثرة مَن يُوزَن عمله لأن أحوال القيامة لا تُكيَّف بأحوال الدُّنيا . والقِسْط العَدْل ، وهو نَعْت المَوازين ، وإنْ كان مُفْرَدًا وهي جَمْع ، لأنَّه مَصْدَر. قال الطبري : القِسْط العَدْل ... . وحكى حنبل بن إسحاق في كتاب السُّنَّة عن أحمد ابن حنبل أنَّه قال رَدًّا على مَن أنكرَ المِيزانَ ما معناه ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ القِيامةِ ﴾ وذَكَرَ النبيُّ ﷺ المِيزان يوم القيامة ، فمَن رَدَّ على النبيِّ ﷺ فقد رَدَّ على الله عَزَّ وَجَلَّ ... فَمِن الكُفَّار مَن لا ذَنْبَ له إلا الكُفر،ولَم يعمل حسنةً،فإنه يقع في النار مِن غَير حساب ولا مِيزان. ومِن المؤمنين مَن لا سَيِّئة له ، وله حسنات كثيرة زائدة على مَحْض الإيمان ، فهذا يَدخل الجَنَّةَ بغَير حساب ، كما في قصة السبعين ألفًا ، ومَن شاء اللهُ أن يُلحِقه بهم ، وهُم الذين يَمُرُّون على الصِّراط كالبَرْق الخاطف وكالريح وكأجاويد الخَيل،ومَن عدا هَذَيْن مِن الكُفَّار والمؤمنين يُحَاسَبُون، وتُعرَض أعمالهم على المَوازين ، ويدل على مُحاسبة الكفار ووَزْن أعمالهم قَوله تعالى في سُورة المؤمنين : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون (١٠٢) وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم في جَهَنَّمَ خالدون (١٠٣) ﴾ . ونقل القرطبي عن بعض العلماء انه قال : الكافر لا ثواب له ، وعمله مُقَابَل بالعذاب ، فلا حسنة له تُوزَن في موازين القيامة ، ومَن لا حسنة له فهو

في النار . واستدل بقوله تعالى : ﴿ فلا نُقِيمُ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ ، وبحديث أبي هُرَيرة، وهو في الصحيح في الكافر لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة . وتُعقِّب أنَّه مَجَاز عَن حَقَارة قَدْره ، ولا يَلزَم منه عَدَم الوزن . وحكى القرطبي في صِفة وَزْن عمل الكافر وجهَيْن، أحدهما أنَّ كُفره يُوضَع في الكِفَّة، ولا يجد له حسنة يضعها في الأُخرى ، فتَطِيش التي لا شيء فيها . قال : وهذا ظاهر الآية ، لأنَّه وَصَفَ المِيزان بالخِفَّة لا المَوزون . ثانيهما : قد يقع مِنه العِتْق والبِر والصِّلَة وسائر أنواع الخَير المالية مِمَّا لو فعلها المسلم لكانت له حسنات ، فمن كانت له حسنات جُمِعَت ووُضِعَت غَير أن الكُفر إذا قابلها رَجَحَ بها ... . قال أبو إسحاق الزَّجاج : أجمعَ أهل السُّنَّة على الإيمان بالمِيزان ، وأن أعمال العباد تُوزَن يَوم القِيامة ، وأن المِيزان له لسان وكِفَّتان ، ويميل بالأعمال . وأنكرت المعتزلةُ المِيزانَ ، وقالوا : هو عِبارة عن العدل ، فخالفوا الكتابَ والسُّنَّة ، لأن الله أخبر أنَّه يضع الموازين لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم مُمثَّلة ، ليكونوا على أنفسهم شاهدين . وقال ابن فُورَك : أنكرت المعتزلةُ الميزانَ بناءً منهم على أن الأعراض يَستحيل وَزنها، إذْ لا تقوم بأنفسها . قال : وقد روى بعض المُتكلِّمين عن ابن عباس أن الله تعالى يَقْلِب الأعراضَ أجسامًا ، فَيَزِنها. انتهى . وقد ذهب بعض السَّلَف إلى أن المِيزان بمعنى العدل والقضاء ... . والراجح ما ذهب إليه الجمهور ... . وقال الطيبي : قِيل: إنَّما تُوزَن الصُّحُف، وأمَّا الأعمال فإنَّها أعراض ، فلا تُوصَف بثِقْل ولا خِفَّة ، والحق عند أهل السُّنَّة أن الأعمال حينئذ تُجسَّد أو تُجعَل في أجسام ، فتصير أعمال الطائعين في صورة حسنة ، وأعمال المُسيئين في صورة قبيحة ثُمَّ تُوزَن ، ورجَّح القرطبي أن الذي يُوزَن الصَّحائف التي تُكتَب فيها الأعمال، ونقل عن ابن عُمر قال : تُوزَن صحائفُ الأعمال. قال : فإذا ثَبَتَ هذا ، فالصُّحُف أجسام ، فيرتفع الإشكال ، ويُقَوِّيه حديث البِطاقة الذي أخرجه التِّرمذي وحسَّنه والحاكم وصحَّحه، وفيه: فتُوضَع السِّجِلَّات في كِفَّة، والبِطاقة في كِفَّة، انتهى. والصحيح أنَّ الأعمال هي التي تُوزَن ، وقد أخرج أبو داود والتِّرمذي وصحَّحه ابن حِبَّان عن أبي الدَّرداء عن النبيِّ ﷺ قال : " ما يُوضَع في الميزان يوم القيامة أثقلُ مِن خُلُق حَسَن " ، ...)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُم خَافِيَةٌ ﴾ [الحَاقَّة : ١٨]. في يوم القيامة الرهيب، تُعرَضون أيُّها الناس على اللهِ للحِسَاب والجَزاء، لا يَخْفَى عَلَيه مِنكُم أحد، ولا شيء يَغيب عَنه ، لأنَّهُ سُبحانَه العَالِم بالسِّر والعلانية ، والمُحِيط بظواهر الأشياء وبواطنها . وإذا خَفِيَتْ أحوالُ الناس وغابت أسرارُهم عَن الآخَرِين في الحياة الدُّنيا،فإنَّ الله لا يَخفَى عَلَيه شيء مِن أُمور الدُّنيا وأُمور الآخِرة ، وهو يَعْلَم الباطنَ والظاهرَ ، والسِّرَّ والعلانيةَ ، والغَيْبَ والشَّهادةَ ، والجُزْءَ والكُل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨١) : ((﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ تَشبيهًا للمُحَاسَبَة بعَرْض السُّلطان العسكر لتعرُّف أحوالهم ، وهذا وإنْ كان بعد النفخة الثانية ، لكن لمَّا كان اليوم اسمًا لزمان مُتَّسع تقع فيه النَّفختان والصَّعقة والنُّشُور والحِساب وإدخال أهل الجنة وأهل النار ، صَحَّ ظَرْفًا للكُل ﴿ لا تَخْفَى مِنكُم خَافِيَةٌ ﴾ سَرِيرة على الله تعالى ، حَتَّى يكون العَرْض للاطِّلاع عَلَيها ، وإنَّما المُراد مِنه إفشاء الحال ، والمُبَالَغَة في العَدْل ، أوْ على الناس ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩])) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٣): ((قَوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أي: على الله ، دليله : ﴿ وعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكَهْف : ٤٨] . وليس ذلك عَرْضًا يَعلم به ما لم يكن عَالِمًا به ، بَل مَعناه الحِساب ، وتقرير الأعمال عَليهم للمُجازاة.وروى الحسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " يُعرَض الناسُ يوم القيامة ثلاث عَرَضات، فأمَّا عَرضتان فجِدال ومعاذير ، وأمَّا الثالثة فعِند ذلك تطير الصُّحُفُ في الأيدي ، فآخِذ بيمينه ، وآخِذ بشِماله "، خرَّجه التِّرمذي ، قال : ولا يَصِحُّ مِن قِبَل أن الحسن لَم يسمع من أبي هريرة ، ﴿ لا تَخْفَى مِنكُم خَافِيَةٌ ﴾ ، أي : هو عَالِم بكل شيء من أعمالكم ، فـ﴿ خَافِيَةٌ ﴾ على هذا بمعنى خَفِيَّة كانوا يُخفونها من أعمالهم، قاله ابن شجرة.وقِيل : لا يَخفَى عليه إنسان، أي: لا يَبقَى إنسان لا يُحَاسَب. وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص: لا يَخفَى المؤمن مِن الكافر، ولا البَر مِن الفاجر، وقِيل: لا تستتر مِنكُم عَورة)).

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣ و٣٣٤) : ((قال الغزَّالي: يجب على المُسلم البِدَار إلى مُحَاسَبَة نَفْسِه كما قال عُمر رضي اللهُ عنه : "حَاسِبُوا أنفُسَكُم قَبل أن تُحَاسَبُوا، وزِنُوها قَبل أن تُوزَنُوا". وإنَّما حِسابه لنَفْسه أن يتوب مِن كُل معصية قبل الموت توبةً نَصُوحًا، ويتدارك ما فَرَّطَ فيه مِن تقصير في فرائض الله عَزَّ وَجَلَّ، ويَرُد المظالمَ حَبَّةً حَبَّةً،ويَستحل كُل مَن تَعَرَّضَ له بلسانه ويده وسُوء ظَنِّه بقَلْبه،ويُطيِّب قُلُوبَهم حتى يَموت،ولم يَبْقَ عليه فريضة ولا مَظْلَمَة،فهذا يَدخُل الجَنَّة بغير حساب إن شاء الله تعالى.انتهى من آخر الإحياء.ونقل القرطبي في تَذكرته هذه الألفاظ بعَيْنها)) .

وفي شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٠٤) روى ابن أبي الدُّنيا عن ابن المُبَارَك أنَّه أنشدَ شِعْرًا:

وطارت الصُّحُفُ في الأيدي مُنشَّرةً ... فيها السَّرائر والأخبار تطلع
فكَيْفَ سَهْوُكَ والأنباءُ واقعة ... عمَّا قليل ولا تَدْري بما تقع
أفي الجِنَانِ وفَوز لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تُبقي ولا تَدَع
تَهْوي بساكنها طَوْرًا وترفعهم ... إذا رَجَوْا مَخرجًا مِن غَمِّها قُمعوا

طال البكاءُ فلم يُرحَم تَضَرُّعهم فيها ولا رُقية تُغني ولا جَزَع
ليَنفع العِلْمُ قَبل المَوت عَالِمَه قد سأل قَوم بها الرُّجعى فما رَجَعُوا

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التَّكوير : ١٠] . وإذا صُحُف أعمال العِباد فُتِحَتْ عِند الحِسَاب ، بعدما كانت مَطْوِيَّةً . وهذه الصُّحُفُ كَتَبَتْ فيها المَلائكةُ الكِرَام ما قام به العِباد في الدُّنيا مِن خَير وشَر ، وهي تُطوَى بالمَوت ، وتُنشَر يَوم القِيامة للحساب والجَزاء ، ويَقرأ كُل عبد ما في صحيفته ، سواءٌ كان قارئًا أم أُمِّيًّا ، ويُجازي اللهُ المُحْسِنَ بإحسانه،والمُسِيءَ بإساءته.وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٦٥):((يقول تعالى ذِكْرُه:وإذا صُحُف أعمال العِباد نُشِرَتْ لهم بعد أن كانت مَطْوِيَّة على ما فيها مَكتوب مِن الحَسَنَات والسَّيئات)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦١١) : ((وقَوله تعالى : ﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ . قال الضَّحاك : أُعْطِيَ كُل إنسان صَحيفته بيَمينه أوْ بشِماله . وقال قَتادة : يا ابنَ آدم ، تُمْلي فِيها ، ثُمَّ تُطوَى ، ثُمَّ تُنشَر عَلَيك يَوم القِيامة ، فلينظر رَجُل ماذا يُمْلي في صَحيفته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتًا لِيُرَوْا أعْمَالَهُم ﴾ [الزَّلزلة : ٦] .

في يَوم القِيامة العَصِيب، يرجع الناسُ عَن مَوقِف الحِساب بعد العَرْض مُتفرِّقين ، مِنهُم مَن عَمِلَ صالحًا ، ومِنهُم مَن عَمِلَ شَرًّا . فريق يأخذ جِهة اليمين إلى الجَنَّة، وفريقٌ يأخذ جِهة الشِّمال إلى النار ، ليُشَاهِدُوا جَزَاءَ أعمالهم من خير وشر ، أي جَزَاءها مِن الجَنَّة أو النار .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٦١) : ((ومعنى قَوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتًا ﴾ عَن مَوقِف الحِسَاب فِرَقًا مُتفرِّقين ، فآخِذ ذات اليمين إلى الجَنَّة، وآخِذ ذات الشِّمال إلى النار . وقَوله : ﴿ لِيُرَوْا أعْمَالَهُم ﴾ ، يقول : يَوْمَئِذٍ يَصْدُر الناسُ أشتاتًا مُتفرِّقين، عَن اليَمِين وعَن الشِّمال ، لِيُرَوْا أعمالَهم ، فيَرى المُحْسِنُ في الدُّنيا المُطيع لله عَمَلَه ، وما أعدَّ اللهُ له يومئذ مِن الكرامة ، على طاعته إيَّاه كانت في الدُّنيا ، ويَرى المُسِيءُ العاصي لله عَمَلَه ، وجَزَاءَ عمله ، وما أعدَّ اللهُ له مِن الهَوَان والخِزْي في جَهَنَّم على مَعصيته إيَّاه كانت في الدُّنيا ، وكُفره به)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناسُ ﴾ ، أي : يَرْجِعُون عَن مَوقِف الحِسَاب ﴿ أشتاتًا ﴾ ، أي : فِرَقًا ، فأهل الإيمان على حِدَة ، وأهل الكُفر على حِدَة ، ﴿ لِيُرَوْا أعْمَالَهُم ﴾ ، ... . قال ابن عباس : أي : لِيُرَوْا جَزَاء أعمالهم ، فالمعنى أنَّهُم يَرجِعُون عَن المَوقِف فِرَقًا لِيَنْزِلُوا مَنازلَهم مِن الجَنَّة والنَّار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزَّلزلة : ٧] .

فَمَن يَفْعَل في الدُّنيا وَزْنَ ذَرَّةٍ (نَمْلَة صَغيرة) مِن الخَير ،يَجِد ثَوَابه في صحيفته يوم القيامة، ويُجَازَى عَلَيه ، ويَفْرَح به . والمؤمنُ يَرى ثوابَه في الآخِرة ، والكافرُ يَراه في الدُّنيا في نَفْسِه وأهله وماله .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزَّلزلة : ٨] .

ومَن يَفعل في الدُّنيا وَزْنَ ذَرَّةٍ (نَمْلَة صَغيرة) مِن الشَّر ، يَجِد إثمَه في صحيفته يَوم القِيامة ، ويُجازَى عليه ، ويَحزَن عَلَيه ، ويَندم أشدَّ النَّدَم . وجَزاءُ المؤمن في الدُّنيا بالمصائب والكوارث ، والكافر في الآخِرة .

مَن يَعمل في الدُّنيا وَزْنَ ذَرَّةٍ مِن الخَير أو الشَّر يَرَه ، أي : يَرَاه في صحيفة أعماله ، ويَرى جزاءه. والذَّرَّةُ أصغرُ النَّمْل ، والمُراد المُبَالَغَة في القِلَّة والصِّغَر . وتدلُّ الآيتان على شُمُول عِلْم الله لكل شيء، وهو سُبحانَه أحْصَى كُلَّ شيء، وأحاطَ به، ولا يُغفِل مِن أعمال عباده صغيرةً ولا كبيرةً .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥٠٢) : ((قال ابن عباس : لَيس مؤمن ولا كافر عَمِلَ خيرًا أو شَرًّا في الدُّنيا ، إلا أراه اللهُ إيَّاه يَوم القِيامة ، فأمَّا المُؤمن فيرى حَسَنَاته وسَيِّئاته ، فيَغفِر اللهُ سَيِّئاته ، ويُثيبه بحَسَناته، وأمَّا الكافر فَتُرَدُّ حَسَنَاته، ويُعذِّبه بسَيِّئاته. قال محمد بن كعب في الآية : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ مِن كافر يرى ثوابَه في الدُّنيا في نَفْسه وماله وأهله وولده ، حتى يَخرج مِن الدُّنيا ، ولَيس له عِند الله خَير ، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ مِن مُؤمن يَرى عُقوبته في الدُّنيا في نَفْسه وماله وأهله وولده ، حتى يَخرُج مِن الدُّنيا، وليس له عند الله شَر . قال مُقاتل: نزلت هذه الآية في رَجُلَين، وذلك أنَّه لمَّا نَزَلَ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [الإنسان: ٨] .كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يُعْطِيَه التَّمرة والكِسْرَة والجَوْزَة ونَحْوها، يقول: ما هذا بشَيء ، إنَّما نُؤْجَر على ما نُعطي ونحن نُحِبُّه . وكان الآخَر يتهاون بالذَّنْب اليَسير كالكِذبة والغِيبة والنَّظرة وأشباه ذلك ، ويقول : إنَّما وَعَدَ اللهُ النارَ على الكبائر، وليس في هذا إثم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية يُرغِّبهم في القليل مِن الخَير أن يُعطوه ، فإنَّه يُوشِك أن يَكْثُر ، ويُحذِّرهم اليَسِيرَ مِن الذَّنْب ، فإنَّه يُوشِك أن يَكْثُر ، فالإثم الصغير في عَين صاحبه أعظم مِن الجبال يوم القيامة ، وجميع محاسنه في عَينه أقل مِن كُل شيء . قال ابن مسعود : أحكم آية في القُرآن : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ ... . وتَصَدَّقَ عُمر ابن الخطاب وعائشة بحَبَّة عِنَب ، وقالا : فِيها مَثاقيل كثيرة . وقال الرَّبيع بن خُثَيم : مَرَّ رَجُل بالحَسَن وهو يَقرأ هذه السُّورة ، فلمَّا بَلَغَ آخِرَها ، قال: حَسْبي ، قد انتهت المَوعظة)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللهُ عنه ــ: سُئل النبيُّ ﷺ عن الحُمُر ، فقال : ((لَم يَنْزِلْ عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفَاذَّة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾)) [٢٧٧]. سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن اقتناء الحَمِير، هل للعبد فيها أجر؟. بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ لَم يُنْزِلْ عليه فيها حُكْمًا شرعيًّا ولا نَصًّا دينيًّا،إلا هذه الآية العَامَّة الشَّاملة،المُنْفَرِدَة في مَعناها.

والمعنى : إنْ كانَ صاحبُ الحَمِير ، أرادَ بجَمْعها الخَير ، فلا بُد أن يُجزَى جَزاءه ، ويَحصل على الأجر والثواب . وإنْ أرادَ بجَمْعها الشَّر ، فلا بُد أن يُجزَى جَزاءه ، ويَنال الإثم ، ويُعَاقَب .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٦٥) : ((سَمَّاها جامعة لشُمولها لجميع الأنواع مِن طاعة ومَعصية ، وسَمَّاها فَاذَّة لانفرادها في مَعناها . قال ابن التين : والمُراد أن الآية دلَّت على أنَّ مَن عَمِلَ في اقتناء الحَمِير طاعةً ، رأى ثوابَ ذلك ، وإن عَمِلَ مَعصيةً ، رأى عِقَابَ ذلك . قال ابن بطَّال: فيه تعليم الاستنباط والقِياس ، لأنَّه شَبَّهَ ما لَم يَذكر اللهُ حُكْمَه في كتابه ، وهو الحُمُر ، بما ذَكَرَه مِن عَمَل مِثقال ذَرَّة مِن خَير أو شَر ، إذْ كان معناهما واحدًا . قال: وهذا نَفْس القِياس الذي يُنكِره مَن لا فَهْمَ عِنده . وتعقَّبه ابن المُنيِّر : بأن هذا ليس من القياس في شيء، وإنَّما هو استدلال بالعُمُوم ، وإثبات لصِيغته ، خِلافًا لِمَن أنكرَ أوْ وَقَف ، وفيه تحقيق لإثبات العمل بظواهر العُمُوم وأنَّها مُلْزِمة حتى يدل دليل التَّخصيص ، وفِيه إشارة إلى الفَرْق بَين الحُكم الخاص المَنصوص والعام الظاهر ، وأنَّ الظاهر دُون المَنصوص في الدَّلالة)) اهـ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٦٧): ((معنى الفَاذَّة القليلة النَّظير، والجامعة أي العامة المُتَنَاوِلَة لكُل خَير ومَعروف، وفِيه إشارة إلى التَّمَسُّك بالعُمُوم . ومعنى الحديث: لَم يَنْزِلْ عليَّ فيها نَص بعَيْنها، لكن نزلت هذه الآيَّة العَامَّة . وقد يحتج به مَن قال : لا يجوز الاجتهاد للنبيِّ ﷺ ، وإنَّما كان يَحْكُم بالوَحْي . ويُجاب للجمهور القائلين بجَواز الاجتهاد بأنَّه لَم يَظهر له فيها شيء)) .

وعن أبي أسماء الرَّحَبي قال: بَيْنَا أبو بَكْر الصِّديق ــ رضي اللهُ عنه ــ يتغدَّى مع رسول الله ﷺ إذْ نزلت هذه الآية : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ فأمسكَ أبو بَكْر ، وقال : يا رسول الله ، أكُلُّ ما عَمِلْنا مِن سُوء رأيناه ؟، فقال : ((مَا تَرَوْنَ مِمَّا تَكْرَهُون ، فذلك ما تُجْزَوْن ، يُؤَخَّر الخَيْرُ لأهله في الآخِرة)) [٢٧٨].

---

٢٧٧ متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٩٨) برقم (٤٦٧٩) ، ومسلم (٢/ ٦٨٠) برقم (٩٨٧) .

٢٧٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٠) برقم (٣٩٦٦) وصَّححه ، وقال الذهبي : ((مُرسَل)) .

إنَّ الأحزان والمصائب والكوارث التي تُصيب المؤمنَ في الدُّنيا، هي تَطهير له ، ومَحْوُ لذُنوبه، وتَكفير لخطاياه ، حتى يَأتيَ يَوم القِيامة نقيًّا مِن الذُّنُوب ، وطاهرًا مِن الآثام ، ويَدخل الجَنَّةَ بسَلام.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٣٦) : ((لأنَّ مَن حُوسِب بعَمله عاجلًا في الدُّنيا ، خَفَّ جزاؤه عَلَيه، حَتَّى يُكفَّر عنه بالشَّوكة يُشاكها، حَتَّى بالقَلَم يَسقط مِن يد الكاتب ، فيُكفَّر عَن المُؤمن بكُل ما يَلْحَقه في دُنياه ، حَتَّى يَمُوت على طَهَارة مِن ذُنُوبه ، وفَرَاغ مِن حَسَابه)) .

وعَن صَعْصَعَة بن مُعاوية عَمِّ الفَرَزْدَق أنَّه أتى النبيَّ ﷺ ، فقرأ عليه: ((﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾)) ، قال: حَسْبِي ، لا أُبَالي أن لا أسمعَ غَيْرَها [٢٧٩]. المعنى : يَكفيني هذه المَوعِظة الجامعة ، فهي شاملة لكُل عبادة وطاعة بلا استثناء .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ ﴾ [العَادِيَات : ١٠] .

وَمُيِّزَ وأُبْرِزَ ما في صدور الناس مِن خَير أوْ شَر ، لِيَقَع الحِسَابُ والجَزَاء عَلَيه .أوْ : وأُظْهِرَ ما في صُدور الناس مِن الأسرار والخَفَايا التي كانوا يُسِرُّونها . أي : بُيِّنَ ما كانوا يُخفونه مِن النِّيات في أنفسهم . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٧٤) : ((وقَوله : ﴿ وَحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ ﴾ ، يقول : ومُيِّزَ وبُيِّنَ ، فأُبْرِزَ ما في صُدور النَّاس مِن خَير وشَر)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠٠): ((قال ابن عباس وغَيْرُه : يعني أُبْرِزَ وأُظْهِرَ ما كانوا يُسِرُّون في نُفُوسهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [القارعة : ٦] .

فأمَّا مَن رَجَحَتْ مَوازينُ حَسَناته ، وزادت حَسَناتُه على سَيِّئاته . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٧٦) : ((يَقول : فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُ حَسَناته ، يعني بالمَوَازين : الوَزْن)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٣٥٤) : ((﴿ فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ باتِّباعهم الحَق ، وهي جَمْع مَوزون ، وهو العمل الذي له وَزْن وخَطَر عِند الله ، أوْ جَمْع مِيزان ، وثِقْلها رَجَحَانها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَهُوَ في عِيشةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : ٧] .

فَهُوَ في عَيش رغيد في الجَنَّة ، يَرضاه صاحبُه ، ويَفرَح به .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٥١٣) : ((﴿ فَهُوَ في عِيشةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ مَرْضِيَّة في الجَنَّة . قال الزَّجاج : ذات رِضَا ، يَرْضَاها صاحبُها)) .

---

٢٧٩ رواه أحمد في مسنده (٥/ ٥٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٧) : ((رواه أحمد والطبراني مُرْسَلًا ومُتَّصِلًا ، ورجال الجميع رجال الصحيح)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ١٩٣) : ((والمَوازين ، إمَّا جَمْع المَوزون ، وهو العمل الذي له وَزْن وخَطَر عِند الله ، كما قاله الفَرَّاء ، أوْ جَمْع مِيزان . قال ابن عباس رضي اللهُ عنهما : إنَّه مِيزان له لِسَان وكِفَّتان ، لا يُوزَن فيه إلا الأعمال . قالوا : تُوضَع فيه صحائف الأعمال ، فيَنظر إليه الخلائقُ إظهارًا للمَعْدَلَة (العَدْل) وقَطْعًا للمَعْذِرة . وقِيل : الوَزْن عِبارة عن القَضاء السَّوِيِّ ، والحُكم العادل ، وبه قال مُجاهد والأعمش والضَّحاك، واختاره كثير مِن المُتأخِّرين ، قالوا : إنَّ المِيزان لا يُتَوَصَّل به إلا إلى مَعرفة مقادير الأجسام ، فكيف يُمكن أن يُعرَف به مقادير الأعمال التي هي أعراض مُنقضية ؟. وقِيل: إنَّ الأعمال الظاهرة في هذه النَّشأة بصورة عَرَضِيَّة تَبْرُز في النَّشأة الآخِرة بصورة جَوهرية مُناسبة لها في الحُسن والقُبح. وقد رُوِيَ عن ابن عباس رضي اللهُ عنهما أنَّه يُؤْتَى بالأعمال الصالحة على صُوَر حَسَنَة، وبالأعمال السَّيئة على صُوَر قبيحة، فتُوضَع في المِيزان،أي:فَمَن تَرَجَّحَتْ مَقادير حَسَنَاته ﴿ فَهُوَ في عِيشةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي ذات رِضَا أوْ مَرْضِيَّة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [القارعة : ٨] .

وأمَّا مَن زادت سَيِّئاته على حَسَنَاته ، أوْ لَم تكن له حَسَنَات مَقبولة ، بسبب ضلالهم واتِّباعهم للباطل . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٩٢) : ((﴿ وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ،أي : رَجَحَتْ سَيِّئاته على حَسَنَاته ، أوْ لَم تكن له حَسَنَات يُعْتَدُّ بِها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : ٩]. وأمَّا مَن خَفَّ وَزْنُ حَسَنَاته ، فمأواه ومصيره ومَسكنه نار جهنَّم، حَيث يَهْوي فيها على رأسه.وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٥٤): ((مَعنى ﴿ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ يعني جَهَنَّم ، وسَمَّاها أُمًّا لأنَّه يَأوي إلَيها كما يأوي إلى أُمِّه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أدراكَ مَاهِيَه ﴾ [القارعة : ١٠] . استفهام لتعظيم أمرها وتَهويل شأنها : وما أعْلَمَكَ ما هَاوِيَة ؟ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٩٣) : ((هذا الاستفهام للتَّهويل والتَّفظيع . بيان أنَّها خارجة عَن المَعهود ، بحَيث لا تُحِيط بها عُلوم البَشَر ، ولا يدري كُنهها (حقيقتها))) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ نارٌ حَامِيَة ﴾ [القارعة : ١١]. هذا تفسيرٌ إلهيٌّ ، وبيان لها : نارٌ شديد الحرارة ، وعظيمة اللهب . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٧٧) : ((ثُمَّ بَيَّنَ ما هِيَ ، فقال : هي : ﴿ نارٌ حَامِيَة ﴾ ، يعني بالحَامِيَة ، التي قد حَمِيَتْ مِن الوَقُود عَلَيها)) .

ويا خَسَارَ الأنفُسِ الغاوية   مِن بَعْد تِلك الحُفَر الهاوية
وكُلُّ مَن خَفَّتْ مَوازينُه   فأُمُّه في بَعْثِه هَاوِية
ولَيْسَ يَدري وَيْحَهُ ماهِيَه   نار على سُكَّانها حامية

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التَّكاثر : ٨] .

يَسألكم اللهُ في الآخِرة عن نعيم الدُّنيا (الأمن والصِّحة والمال والطَّعَام والشراب، وغَير ذلك) وشُكْرِ الله على نِعَمه العظيمة وآلائه الجليلة . وكيف حصلتم على هذه النِّعَم ؟، وماذا عَمِلْتُم بها؟.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٩٦) : ((﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، أي : عن نعيم الدُّنيا الذي ألهاكم عن العَمل للآخرة . قال قَتادة : يعني كُفَّار مَكَّة كانوا في الدُّنيا في الخَير والنِّعْمَة ، فيُسْأَلُون يوم القيامة عن شُكر ما كانوا فيه ، ولم يَشكروا رَبَّ النِّعَم ، حَيث عَبدوا غَيْرَه ، وأشركوا به . قال الحسن : لا يُسأل عَن النَّعيم إلا أهل النار. وقال قَتادة : إنَّ الله سُبحانَه سائل كُل ذِي نِعمة عمَّا أنعمَ عَلَيه ، وهذا هو الظاهر، ولا وجه لتَّخصيص النَّعيم بفَرْد من الأفراد ، أوْ نوع من الأنواع ، لأن تعريفه للجِنس أو الاستغراق ، ومُجرَّد السؤال لا يَستلزم تعذيب المسؤول على النِّعْمَة التي يُسْأل عنها ، فقد يَسأل اللهُ المؤمنَ عَن النِّعَم التي أنعمَ بها عَلَيه فِيمَ صَرَفَهَا ، وَبِمَ عَمِلَ فِيها ؟ ، لِيَعْرِف تقصيرَه وعدم قِيامه بما يجب عليه مِن الشُّكر. وقِيل: السُّؤال عن الأمن والصِّحة ، وقِيل: عن الصِّحة والفَرَاغ ، وقِيل : عن الإدراك بالحَوَاس ، وقِيل: عَن مَلاذ المأكول والمشروب ، وقِيل : عَن الغَدَاء والعَشَاء ، وقِيل : عن بارد الشراب ، وظلال المساكن ، وقِيل : عن اعتدال الخَلْق ، وقيل : عَن لَذَّة النَّوْم ، والأَوْلَى العُمُوم ، كَمَا ذَكَرْنا)) اهـ. وعن عبد الله ابن الزُّبَيْر بن العَوَّام عن أبيه، قال: لَمَّا نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ،قال الزُّبَير:يا رسول الله ، فأيُّ النعيمِ نُسْألُ عَنه ، وإنَّما هُما الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ والماءُ ؟ ، قال : ((أَمَا إنَّهُ سَيَكُون)) [٢٨٠].

وفي مسند أحمد (٣/ ٣٣٨) : عن جابر قال: أتاني النبيُّ ﷺ وأبو بَكْر وعُمر ، فأطعمتهم رُطَبًا ، وأسْقَيْتُهُم ماءً ، فقال النبيُّ ﷺ : ((هذا من النعيم الذي تُسْأَلُون عنه)) .

يجب على العبد أن يَشكر اللهَ على نِعَمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، ولا يَستهين بها مهما بَدَتْ صغيرةً، ولا يَعْصِي اللهَ بها،لأنَّه سَوْفَ يُحَاسَب عليها يوم القِيامة،ويُسأل عنها،وهذا واقع بالتأكيد .

وعن أبي هُرَيرة قال:قال رسولُ الله ﷺ:((إنَّ أوَّلَ ما يُسأل عنه يوم القيامة،يعني العبدَ مِن النعيم، أن يُقَال له: ألَم نُصِحَّ لَكَ جِسْمَك، ونُرْوِيَكَ مِن المَاء البَارد ؟)) [٢٨١]. إنَّ نِعمة الصِّحة أعظم النِّعَم بعد الإسلام،والماء أساس الوُجود،ولَوْلاه لانتهى الإنسانُ والحياةُ، لذلك يجب شُكر الله عليهما .

---

٢٨٠ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٤٤٨) برقم (٣٣٥٦) ، وقال : ((حديث حسن)) .

٢٨١ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٤٤٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي.

١٠ـ فِئات الخَلْق يَوْمَئِذ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكُنتم أزْوَاجًا ثلاثةً ﴾ [الواقعة : ٧] .

وكُنتم أيُّها الناسُ أصنافًا ثلاثة : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشِّمال ، والسَّابقون .

أصحابُ اليمين (أهل الجَنَّة) يُؤْخَذ بهم جِهة اليمين إلى الجَنَّة ، وأصحاب الشِّمال (أهل النار) يُؤْخَذ بهم جِهة الشِّمال إلى النار ، والسَّابقون هُم أصحاب الدَّرَجَات العُلَى والمنازل الرفيعة في الجَنَّة . وهذه مراتب الناس ومُستوياتهم في الآخِرة . صِنفان في الجَنَّة ، وصِنف في النار .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١٠): ((ذَكَرَ سُبحانَه أحوالَ الناس واختلافهم ، فقال: ﴿ وكُنتم أزْوَاجًا ثلاثةً ﴾ ، والخِطاب لجميع الناس ، أوْ للأُمَّة الحاضرة ، والأزواج الأصناف . والمعنى : وكُنتم في ذلك اليوم أصنافًا ثلاثة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأصحابُ المَيْمَنَةِ ما أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ [الواقعة : ٨] .

فأصحابُ المَيْمَنَة (اليمين) هُم الذين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهم (صحائف أعمالهم) بأيمانهم ، ويُؤْخَذ بهم ذات اليمين إلى الجَنَّة . هل تَعْرِف مَن هُم أصحاب المَيْمَنَة وما هي حَالهم وصِفتهم ؟ . والاستفهام للتَّعظيم والتَّفخيم ، وهذا تعظيم لشأنهم في دُخولهم الجَنَّة واستمتاعهم بها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٢١٠):((ثُمَّ فسَّر سُبحانَه هذه الأصناف،فقال: ﴿ فأصحابُ المَيْمَنَةِ ما أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ ، أي : أصحاب اليمين ، وهُم الذين يَأخذون كُتُبَهم بأيمانهم ، أوْ الذين يُؤْخَذ بهم ذات اليمين إلى الجَنَّة . وأصحاب المَيْمَنَة مُبتدأ ، وخَبَرُه : ما أصحاب المَيْمَنَة ، أي : أيُّ شيء هُم في حَالهم وصِفتهم ؟ ، والاستفهام للتَّعظيم والتَّفخيم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأصحابُ المَشْأمَةِ ما أصحابُ المَشْأمَةِ ﴾ [الواقعة : ٩] .

وأصحابُ المَشْأمَة (الشِّمال) هُم الذين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهم (صحائف أعمالهم) بشمائلهم ، ويُؤْخَذ بهم ذات الشِّمال إلى النار. هل تَعْرِف مَن هُم أصحاب المَشْأمَة وما هي حَالهم وصِفتهم؟. والاستفهامُ لتَحقير شأنهم في دُخولهم النار ، وتَعجيب مِن حالهم بالشَّقاء والعذاب فيها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١٠) : ((والمُراد الذي يُؤْخَذ بهم ذات الشِّمال إلى النَّار، أوْ يَأخذون صَحائف أعمالهم بشِمالهم، والمُراد تَعجيب السامع من حال الفريقَيْن في الفَخَامة والفَظَاعة ، كأنَّه قِيل : فأصحاب المَيْمَنَة في نِهاية السَّعادة وحُسن الحال ، وأصحاب المَشْأمَة في نِهاية الشَّقاوة وسُوء الحال . وقال السُّدي : أصحاب المَيْمَنَة هُم الذين كانوا عَن

يمين آدم ، حِين أُخْرِجَت الذُّرِّية مِن صُلبه ، وأصحاب المَشْأمَة هُم الذين كانوا عن شِماله . وقال زيد بن أسلم : أصحاب المَيْمَنَة هُم الذين أُخِذُوا مِن شِق آدم الأيمن ، وأصحاب المَشْأمَة هُم الذين أُخِذُوا مِن شِقِّه الأيسر . وقال ابن جُرَيج : أصحاب المَيْمَنَة هُم أهل الحَسَنَات، وأصحاب المَشْأمَة هُم أهل السَّيئات. وقال الحسن والربيع : أصحاب المَيْمَنَة هُم المَيَامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المَشْأمَة هُم المَشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. وقال المُبَرِّد: أصحاب المَيْمَنَة أصحاب التَّقَدُّم، وأصحاب المَشْأمَة أصحاب التَّأخُّر، والعرب تقول : اجْعَلْني في يَمينك ، ولا تَجْعَلْني في شِمالك ، أي : اجْعَلْني مِن المُتقدِّمين ، ولا تَجْعَلْني مِن المُتأخِّرين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُون (١٠) أُولئكَ المُقَرَّبُون (١١) ﴾ [الواقعة] .

هذا هو الصِّنف الثالث . والتَّكريرُ للتَّعظيم والتَّفخيم . والسَّابقون إلى الإيمان والعبادات والطاعات والحَسَنَات، هُم السابقون إلى نعيم الجَنَّة الأبديِّ. أُولئكَ المُقرَّبون مِن الله. وهذا ثناءٌ إلهيٌّ عليهم ، ومَدْح لهم ، وإشادة بهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٣٣و١٣٤):((قَوله تعالى: ﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُون ﴾ فيهم خمسة أقوال : أحدها أنَّهُم السَّابقون إلى الإيمان مِن كُل أُمَّة، قاله الحسن وقَتادة. والثاني أنَّهُم الذين صَلُّوا إلى القِبْلَتَيْن، قاله ابن سيرين. والثالث أهل القُرآن، قاله كَعْب. والرابع الأنبياء ، قاله مُحمَّد بن كَعْب . والخامس السَّابقون إلى المساجد ، وإلى الخُروج في سبيل الله ، قاله عُثمان ابن أبي سَوْدَة . وفي إعادة ذِكْرهم قَولان : أحدهما أنَّ ذلك للتَّوكيد . والثاني أنَّ المعنى السَّابقون إلى طاعة الله هُم السَّابقون إلى رحمة الله ، ذَكَرَهما الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ المُقَرَّبُون ﴾ ، قال أبو سُلَيمان الدمشقي : يعني عِند الله ، في ظِل عَرْشه وجِوَاره)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الذينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ﴾ [البَلَد: ١٧].

يتَّضح الترابطُ الحتمي بين الإيمان والعمل الصالح ، والطاعاتُ لا تَنفع إلا معَ الإيمان ، لأنَّ الإيمان هو أساس قَبول الأعمال .

كانَ مِن المؤمنين العاملين المُتَوَاصِين بالصَّبر على الإيمان والعبادات والطاعات ، والرَّحمة بالناس ، خُصوصًا الضُّعَفاء والمساكين .

وقال القرطبي في تفسيره(٢٠/ ٦٤):((﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ، أي: أوْصَى بعضُهم بعضًا ﴿ بالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله ، وعَن مَعَاصيه ، وعلى ما أصابهم مِن البَلاء والمصائب ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ ﴾ ، أي : بالرَّحْمَة على الخَلْق ، فإنَّهم إذا فَعلوا ذلك ، رَحِمُوا اليَتِيمَ والمِسكين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ [البَلَد: ١٨]. أُولئكَ أصحابُ اليمين ، الذين يَأخذون كُتُبَهم بأيمانهم، ويُؤْخَذ بهم يوم القيامة ذات اليمين إلى الجَنَّة ، ويفرحون بنعيمها الدائم .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٦٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ ، أي : الذين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهم بأيمانهم ، قاله مُحمَّد بن كَعْب القُرَظي وغَيْرُه ، وقال يحيى بن سلام : لأنَّهُم مَيَامين على أنفسهم. ابن زَيد : لأنهم أُخِذُوا مِن شِق آدم الأيمن ، وقِيل : لأنَّ مَنزلتهم عن اليمين، قاله مَيمون بن مِهران)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا بآياتِنا هُم أصحابُ المَشْأمَةِ ﴾ [البَلَد : ١٩] .

والذينَ أنكَروا القُرآنَ ، وجَحدوا الوَحْيَ الإلهيَّ، هُم أصحاب الشِّمال ، الذين يُؤْخَذ بهم إلى النار . وقد رَبَطَ اللهُ بين حال المؤمنين (أهل الجَنَّة) وحال الكافرين (أهل النار) للتَّرغيب والتَّرهيب، وبيان الفرق الكبير بين الفَرِيقَيْن . وبِضِدِّها تَتَبَيَّن الأشياءُ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٤) : ((ولتَكرير ذِكْر المُؤمنين باسم الإشارة ، والكُفَّار بالضَّمير ، شأن لا يَخفَى)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٩٧) : ((وقَوله : ﴿ والذينَ كَفروا بآياتِنا ﴾ ، يقول : والذين كَفروا بأدِلَّتنا وأعلامنا وحُجَجنا مِن الكُتُب والرُّسُل ، وغَير ذلك ﴿ هُم أصحابُ المَشْأمَةِ ﴾ يقول : هُم أصحاب الشِّمال يَوم القِيامة ، الذين يُؤْخَذ بهم ذات الشِّمال)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلَيْهِم نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ [البَلَد : ٢٠] .

عليهم نار مُطْبَقَة مُغْلَقَة ، أطبقها اللهُ عَليهم ، فلا مَهْرَب لهم مِنها ، ولا يَخرُجون مِنها أبدًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٦٢) : ((﴿ عَلَيْهِم نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ ، أي : مُطْبَقَة عليهم ، فلا مَحِيد (مَهْرَب) لهم عنها ، ولا خُروج لهم منها . قال أبو هريرة وابن عباس وعِكرمة وسعيد ابن جُبَير ومُجاهد ومُحمَّد بن كَعْب القُرَظي وعَطِيَّة العَوفي والحَسَن وقَتادة والسُّدي: ﴿ مُؤْصَدَةٌ ﴾، أي : مُطْبَقَة . قال ابن عباس : مُغْلَقَة الأبواب ، وقال مجاهد : أَصَدَ البابَ بلغة قُرَيش أي: أغلقه ... وقال الضَّحاك : ﴿ مُؤْصَدَةٌ ﴾ حَيط لا باب له ، وقال قَتادة : ﴿ مُؤْصَدَةٌ ﴾ مُطْبَقَة ، فلا ضوء فيها ، ولا فُرَج ، ولا خُروج مِنها آخِر الأبد . وقال أبو عِمران الجَوني : إذا كان يوم القيامة أمرَ اللهُ بكُل جَبَّار ، وكُل شَيطان ، وكُل مَن كان يخاف الناسُ في الدُّنيا شَرَّه ، فأُوثِقُوا بالحديد ، ثُمَّ أُمِرَ بهم إلى جَهَنَّم ، ثُمَّ أَوْصَدُوها عَليهم ، أي : أَطْبَقُوها ، قال : فلا واللهِ لا تستقر أقدامُهم على قَرَار أبدًا ، ولا واللهِ لا يَنظرون فيها إلى أديم سَمَاء أبدًا ، ولا واللهِ لا تَلتقي جُفُون أعينهم على غَمْض نَوم أبدًا ، ولا واللهِ لا يَذُوقون فيها بارد شراب أبدًا ، رواه ابن أبي حاتم)) .

١١_ الأنساب يَوْمَئِذ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فلا أنسابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ ولا يَتَسَاءَلُون﴾[المؤمنون: ١٠١].

فإذا نُفِخَ في الصُّور النفخةَ الثانية للقِيام مِن القُبور ، وهي نفخة البَعْث والنُّشُور ، فلا تَنفع الأنسابُ في يَوم القِيامة، ولا فائدة مِن القَرَابة، ولا أهمية لرابطة الدَّم، ولا تفاخُر بالعشائر والقبائل، لزوال المَوَدَّة والتراحم والتعاطف بسبب الهَول العظيم ، والحَيرة الشديدة ، والدَّهشة الرهيبة ، ولا يَسأل بعضُهم بعضًا عن شأنه ، لأن كل واحد مَشغول بنَفْسه ، وحريص على نجاته الشخصية.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/٤٩٠ و٤٩١):((قَوله تعالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ﴾ في هذه النَّفْخة قَولان:أحدهما أنَّها النَّفْخَة الأُولَى،رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس.والثاني أنَّها الثانية، رواه عطاء عن ابن عباس. قَوله تعالى : ﴿ فلا أنسابَ بَيْنَهُم ﴾ في الكلام مَحذوف تقديره : لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أوْ يتقاطعون بها،لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ،إنَّما يُرفَع التواصل والتفاخر بها.وفي قَوله:﴿ولا يَتَسَاءَلُون﴾ ثلاثة أقوال:أحدها لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضُهم لبعض حَقَّه.والثاني لا يَسأل بعضُهم بعضًا عن شأنه لاشتغال كُل واحد بنَفْسه . والثالث لا يَسأل بعضُهم بعضًا مِن أيِّ قبيلة أنت ،كما تفعل العرب لتَعرف النَّسَب، فتَعرِف قَدْر الرَّجُل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُم وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لُقمان: ٣٣]. الخِطَابُ الإلهيُّ للمؤمنين والكافرين. يا أيُّها الناسُ، اتَّقُوا رَبَّكُم بالتزام أوامره، واجتناب نَوَاهيه، وخافوا يَوم القِيامة الرهيب ، حَيث لا يَنفع والدٌ فيه وَلَدَه ، ولا مَولود يَنفع والدَه شيئًا، لاشتغال كُل واحد بنَفْسه، وعدم اهتمامه إلا بنجاته الشخصية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٩٨) : ((يقول تعالى مُنْذِرًا للناس يَوم المَعَاد ، وآمِرًا لهم بتَقْوَاه ، والخَوف مِنه ، والخَشية مِن يَوم القِيامة ، حيث ﴿ لا يَجْزي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ ، أي : لَوْ أراد أن يَفْدِيَه بنَفْسه لَمَا قُبِلَ مِنه ، وكذلك الولد لَوْ أراد فِدَاءَ والده بنَفْسه لم يُقْبَلْ مِنه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٤٨): ((ذَكَرَ سُبحانَه فَرْدَيْن مِن القَرَابات، وهو الوالد والولد، وهُما الغاية في الحُنُوِّ والشَّفَقَة على بعضهم البعض ، فمَا عَدَاهما مِن القَرَابات لا يَجْزي بالأَوْلَى ، فكيف بالأجانب ؟! ، اللهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّن لا يَرجُو سِوَاك ، ولا يُعَوِّل على غَيرك)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُم أرْحَامُكُم ولا أوْلادُكُم يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم﴾[المُمْتَحَنَة: ٣].

لَن تُفيدكم قراباتكم إذا عَصَيْتُم اللهَ مِن أجلهم . وتَخصيص الأولاد بالذِّكْر معَ أنهم داخلون في الأرحام بسبب المحبة الشديدة لهم . واللهُ يُدخِل المؤمنين الجَنَّة ، ويُدخِل الكافرين النار .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٩) : ((وقَوله : ﴿لَن تَنفَعَكُم أرْحَامُكُم ولا أوْلادُكُم يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : لا يَدْعُونكم أرحامُكم وقراباتكم وأولادكم إلى الكُفر بالله ، واتِّخاذ أعدائه أولياء ، تُلْقُونَ إلَيهم بالمَوَدَّة ، فإنَّه لَن تَنفعكم أرحامُكم ولا أولادكم عِند الله يوم القيامة ، فتَدفَع عنكم عذابَ الله يومئذ إنْ أنتم عَصَيتموه في الدُّنيا ، وكفرتم به . وقَوله : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُم﴾ يقول جَلَّ ثناؤه : يَفصِل رَبُّكم أيُّها المُؤمنون بَينكم يَوم القِيامة ، بأن يُدخِل أهلَ طاعته الجَنَّة ، وأهل مَعَاصيه والكُفر به النار)) .

١٢ـ شَهَادَة الأعضاء

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم ألْسِنَتُهُم وأيْدِيهِم وأرْجُلُهُم بِمَا كانوا يَعْمَلُون﴾[النُّور: ٢٤].

في يوم القيامة الرهيب ، تَشْهَد على الناس جوارحُهم ، فتَنطِق الألسنة والأيدي والأرْجُل بما ارتكبوا في الدُّنيا مِن الذُّنُوب ، واقترفوا مِن المَعَاصي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦) : ((وتَعيين اليَوم لزيادة التَّهويل بما فِيه مِن العَذاب الذي لا يُحيط به وَصْف ... . والمعنى : تَشْهَد ألسنةُ بعضهم على بعض في ذلك اليَوم . وقِيل : تَشْهَد عليهم ألْسِنَتُهُم في ذلك اليَوم بما تكلَّموا به، ﴿ وأيْدِيهِم وأرْجُلُهُم ﴾ بِما عَمِلُوا بِها في الدُّنيا ، وإنَّ الله سُبحانَه يُنطِقها بالشَّهادة عَلَيهم . والمَشهود مَحذوف ، وهو ذُنُوبهم التي اقترفوها ، أي : تَشْهَد هذه عليهم بذُنُوبهم التي اقترفوها ، ومَعَاصيهم التي عَمِلُوها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْوَاهِهِم وتُكَلِّمُنَا أيْدِيهِم وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ [يس : ٦٥] . في يوم القيامة العصيب ، يَطْبَعُ اللهُ على أفواه الكافرين لمَنعهم من الكلام ، وتَنطِق عليهم جوارحُهم وأعضاؤهم بذُنوبهم وآثامهم ومعاصيهم وأعمالهم السَّيِّئة . وكُل عُضْو يَنطِق بما صَدَرَ مِنه . ويَوم القِيامة يشتمل على مواقف مُتعدِّدة ، مَرَّة يَنطِقون ، ومَرَّة يُختَم عَلى أفواههم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٣٧) : ((قال المُفسِّرون : إنَّهُم يُنكِرون الشِّرْكَ وتكذيبَ الرُّسُل كما في قَولهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيَختِم اللهُ على أفواههم خَتْمًا لا يَقْدِرُون معه على الكلام . وفي هذا التفات مِن الخِطاب إلى الغَيبة للإيذان بأن أفعالهم القَبيحة مُستدعية للإعراض عَن خِطابهم ، ثُمَّ قال : ﴿ وتُكَلِّمُنَا أيْدِيهِم وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، أي : تكلَّمت أيديهم بما كانوا يَفعلونه ، وشَهِدَتْ أرْجُلُهم عَلَيهم بما كانوا يعملون)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣١ و٣٢) : ((ومعنى ﴿ نَخْتِمُ ﴾ نَطْبَع عَلَيها . وقِيل: مَنْعها مِن الكلام هو الخَتْم عليها . وفي سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها أنَّهُم لَمَّا

قالوا : ﴿ واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِين ﴾ ، خَتَمَ اللهُ على أفواههم ، ونَطَقَتْ جوارحُهم ، قاله أبو مُوسى الأشعري. والثاني لِيَعْلَمُوا أنَّ أعضاءهم التي كانت أعوانًا لهم على المَعاصي صَارت شُهُودًا عَلَيهم. والثالث لِيَعْرِفَهم أهلُ المَوقِف فيتميَّزوا مِنهُم بذلك . والرابع لأنَّ إقرار الجَوَارِح أبْلَغ في الإقرار مِن نُطْق اللسان ، ذَكَرَهُنَّ الماوردي . فإنْ قِيل : ما الحِكمة في تَسمية نُطْق اليد كلامًا ، ونُطْق الرِّجْل شَهَادة ؟ . فالجواب أنَّ اليد كانت مُبَاشِرَةً ، والرِّجْل حاضرة ، وقَول الحاضر على غَيره شَهَادة بما رأى ، وقَول الفاعل على نَفْسه إقرار بما فَعَلَ)) .

وفي صحيح مسلم(٤/ ٢٢٨٠): عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عِند رسول الله ﷺ ، فَضَحِكَ ، فقال : ((هل تَدْرُونَ مِمَّا أضْحَك ؟)) ، قال : قُلنا : اللهُ ورسولُه أعلم. قال: ((مِن مُخَاطَبَة العَبد رَبَّه ، يَقول : يا رَبِّ ألَم تُجِرْني مِن الظُّلْم ؟ ، قال : يَقول : بَلَى ، قال : فيَقول : فإنِّي لا أُجِيزُ على نَفْسي إلا شاهدًا مِنِّي ، قال : فيَقول : كفى بنَفْسِك اليوم عَلَيك شهيدًا ، وبالكِرام الكاتبين شُهُودًا ، قال : فيُختَم على فِيه ، فيُقَال لأركانه : انطِقي ، قال : فتَنطِق بأعماله ، قال : ثُمَّ يُخلَّى بَيْنَه وبَين الكلام ، قال : فيَقول : بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنتُ أُناضِل)) .

هذا العبد لا يَقْبَل إلا بشَاهد على أعماله مِن جِنسه، فيَختِم اللهُ على فَمِه، ويَمنعه مِن الكلام ، ويَأمر جوارحَه وأعضاءه أن تَنطِق، فتَنطِق وتُخبِر بالأعمال التي قام بها في الدُّنيا، ثُمَّ يُترَك بَينه وبين الكلام، فيتكلَّم، فيَدعو على جوارحه وأعضائه بالهلاك، فقد كان يُدافع ويُجادل عنهنَّ. وهذا دليل على أن أعضاء الإنسان تَشهَد عَلَيه يوم القِيامة.وفي الحديث إظهار لعَدْل الله في تعامله مع عِباده.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ حَتَّى إذا ما جَاؤوها شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُم وأبْصَارُهُم وجُلُودُهُم بِمَا كانوا يَعْمَلُون ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٠]. حَتَّى إذا جاؤوا النارَ التي جُمِعُوا إلَيها، أنطقَ اللهُ جوارحَهم، فتكلَّمت، وشَهِدَتْ عليهم بما كانوا يَرتكبونه في الدُّنيا مِن الذُّنُوب والآثام ، ويَقترفونه مِن المَعَاصي والجرائم.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٢٨) : ((﴿ حَتَّى إذا ما جَاؤوها ﴾ ، أي : جاؤوا النارَ التي حُشِرُوا إلَيها ، أوْ مَوقف الحِساب ، و ﴿ ما ﴾ مَزيدة للتَّوكيد ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُم وأبْصَارُهُم وجُلُودُهُم بِمَا كانوا يَعْمَلُون ﴾ في الدُّنيا مِن المَعَاصي . قال مُقاتل : تَنطِق جوارحُهم بما كَتَمَت الألسُنُ مِن عَمَلهم بالشِّرْك ، والمُراد بالجُلُود هي جُلُودهم المعروفة ، في قَول أكثر المُفسِّرين ، وقال السُّدي وعُبَيد الله بن أبي جَعفر والفَرَّاء : أراد بالجُلُود الفُرُوج ، والأوَّل أوْلَى)) .

وقال السُّيوطي في الإتقان في عُلوم القُرآن (١/ ٥٦٤) : ((إفراد السَّمْع ، وجَمْع البَصَر ، لأنَّ السَّمْع غَلَبَ عَلَيه المَصدرية فأُفْرِد ، بخِلاف البَصَر ، فإنَّه اشْتُهِر في الجارحة ، ولأن مُتعلَّق

السَّمْع الأصوات ، وهي حقيقة واحدة ، ومُتعلَّق البَصَر الألوان والأكوان ، وهي حقائق مُختلفة ، فأشار في كُل مِنهما إلى مُتعلَّقه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدتم عَلَيْنا قالوا أنطَقَنَا اللهُ الذي أنطقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢١] .

وقالَ هؤلاء الكافرون الذين حُشِرُوا إلى النار لجُلُودهم بعدما شَهِدَتْ عليهم بما كانوا يَرتكبونه مِن الذُّنُوب والمعاصي : لِمَ شَهِدْتُم عَلَينا بما كُنَّا نَعمل في الدُّنيا وقد كُنَّا نُدافِع ونُجادل عنكم ؟ . وهذا لَوْمٌ وتَوبيخ لجُلُودهم . فأجابتهم جُلُودُهُم : ما نَطَقْنا باختيارنا ، ولَيس لنا مِن الأمر شيء . لقد أنطَقَنا اللهُ الذي أنطقَ مَخلوقاته بقُدرته، فَشَهِدْنا عليكم بما عَمِلْتُم مِن المَعَاصي، وهو أوجدكم مِن العَدَم ، وأحياكم بعدما كُنتم نُطَفًا مَيْتَةً، والقادر على إخراجكم مِن العَدَم إلى الوُجود ، ومِن المَوت إلى الحياة ، قادر على إنطاق أعضائكم وجوارحكم وجُلودكم .وإلَيه وَحْدَه تُرَدُّون بالبَعْث .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٢٨) : ((﴿ وقالوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدتم عَلَيْنا ﴾ ، وَجْه تَخصيص الثَّلاثة بالشَّهادة دُون غَيرها ما ذَكَرَه الرازي أن الحواس الخَمْس : وهي السَّمْع ، والبَصَر ، والشَّم ، والذَّوْق ، واللمس . وآلةُ اللمس هي الجِلْد ، فاللهُ سُبحانَه ذَكَرَ هُنا ثلاثة أنواع مِن الحواس ، وهي السَّمْع والبَصَر واللمس ، وأهملَ ذِكْرَ نَوْعَيْن وهُما الذَّوْق والشَّم ، فالذَّوْق داخل في اللمس مِن بعض الوجوه ، لأن إدراك الذَّوْق إنما يتأتَّى بأن تَصِير جِلْدة اللسان مُمَاسَّة لجُرْم الطعام، وكذلك الشَّم لا يتأتَّى حتى تصير جِلْدة الحَنَك مُمَاسَّة لجُرْم المَشموم، فكانا داخلَيْن في جِنس اللمس ، وإذا عَرَفْتَ مِن كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذِّكْر ، عَرَفْتَ مِنه وَجه تَخصيص الجُلُود بالسؤال ، لأنَّها قد اشتملت على ثلاث حواس ، فكان تأتي المعصيةُ مِن جِهتها أكثر. وأمَّا على قَول مَن فَسَّرَ الجُلُود بالفُرُوج، فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر، لأنَّ ما يَشهَد به الفَرْج مِن الزنا أعظم قُبْحًا ، وأجْلَب للخِزي والعُقوبة... ﴿ قالوا أنطَقَنَا اللهُ الذي أنطقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : أنطقَ كُلَّ شيء مِمَّا يَنطِق مِن مَخلوقاته ، فَشَهِدْنا عَلَيكم بما عَمِلْتُم مِن القَبَائح . وقِيل : المعنى : ما نَطَقْنا باختيارنا ، بَل أنطقنا اللهُ . والأوَّل أَوْلَى، ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ قِيل : هذا مِن تَمَام كَلام الجُلُود . وقِيل : مُسْتَأنَف مِن كلام الله . والمعنى : أنَّ مَن قَدِرَ على خَلْقكم وإنشائكم ابتداءً ، قَدِرَ على إعادتكم ورَجْعكم إلَيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كُنتم تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُم ولا أَبْصَارُكُم ولا جُلُودُكُم ولَكِن ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُون ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٢] . وما كُنتم تَسْتَخْفُون في الدُّنيا مِن جوارحكم عِند قِيامكم بالمَعَاصي، لأنَّكُم لا تَقْدِرُون على الاستخفاء مِن جوارحكم ، ولا تَظُنُّون

أنَّها تَشهَد عَلَيكم يَوم القِيامة . وهذا دليل على أنَّ الإنسان عَلَيه رقيب في كُل وَقْت وحِين ، ولكن ظَننتم أنَّ الله لا يَعْلَم كثيرًا مِن ذُنوبكم المَخفية ، ومَعَاصيكم المُستترة ، ولذلك اجترأتم على الذُّنوب والمَعَاصي . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٢٩) : ((﴿ وما كُنتم تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُم ولا أبْصَارُكُم ولا جُلُودُكُم ﴾ ، هذا تَقريع لهم وتَوبيخ مِن جِهَة الله سُبحانَه ، أوْ مِن كلام الجُلُود: أي ما كُنتم تَسْتَخْفُون عِند الأعمال القبيحة حَذَرًا مِن شَهَادة الجوارح عَلَيكم، ولمَّا كان الإنسان لا يَقْدِر على أن يَسْتَخْفِيَ مِن جَوارحه عِند مُبَاشَرَة المَعصية ، كان معنى الاستخفاء هُنا تَرك المَعصية،وقِيل: معنى الاستتار الاتِّقاء:أي ما كُنتم تتَّقون في الدُّنيا أن تَشهَد عَلَيكم جَوارحُكم في الآخِرة ، فتتركوا المَعَاصي خَوْفًا مِن هذه الشَّهَادة ... ﴿ ولَكِن ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُون ﴾ مِن المَعَاصي ، فاجترأتم على فِعْلها . قِيل : كان الكُفَّار يقولون : إنَّ الله لا يَعْلَم ما في أنفسنا ، ولكن يَعْلَم ما نُظهِر دُون ما نُسِرُّ . قال قَتادة : الظَّن هُنا بمعنى العِلْم ، وقِيل : أُريد بالظَّن معنى مَجَازي يَعُمُّ معناه الحقيقي ، وما هو فَوقه مِن العِلْم)) .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : اجتمعَ عِند البَيت قُرَشِيَّان وثَقَفي ، أوْ ثَقَفِيَّان وقُرَشي ، كثيرة شَحْم بُطونهم ، قليلة فِقه قُلوبهم ، فقال أحدُهم : أتَرَوْنَ أنَّ الله يَسمَع ما نقول ؟ ، قال الآخَر : يَسمَع إنْ جَهَرْنا ، ولا يَسمَع إنْ أَخْفَيْنا . وقال الآخَر: إنْ كان يَسمَع إذا جَهَرْنا ، فإنَّه يَسمَع إذا أخْفَيْنا ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وما كُنتم تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُم ولا أبْصَارُكُم ولا جُلُودُكُم ﴾ ، الآية [٢٨٢]. إنَّ الله يَعْلَم السِّر والعلانية ، والباطن والظاهر ، والغَيب والشَّهادة . أحاطَ بكُل شيء عِلْمًا ، وأحْصَى أعمالَ العِباد كاملةً ، وسَوْفَ يُحاسبهم عَلَيها يَوم القِيامة ، ويُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، ويَمنحه نعيمَ الجَنَّة الأبدي ، ويُجازي المُسيءَ بإساءته ، ويُعاقبه بعذاب النار الأبدي . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَذَلِكُم ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُم أرْدَاكُم فأصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِين ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٣]. وما كان مِنكُم في الدُّنيا مِن ظَنِّكُم القبيح بالله أنَّه لا يَعْلَم كثيرًا مِمَّا تَعْمَلُون ، أهلككم ، فَقَادكم إلى عذاب النار الدائم ، فَخَسِرْتُم كُلَّ شيء ، وهذا هو الخُسران التام ، والشقاء الكامل . وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ١٢١): ((هذا الظَّن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يَعْلَم كثيرًا مِمَّا تَعْمَلُون هو الذي أتلفكم وأرداكم عِند رَبِّكم ﴿ فأصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِين ﴾ ، أي : في مواقف القيامة ، خَسِرْتُم أنفسَكم وأهليكم)) .

---

٢٨٢ متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨١٨) برقم (٤٥٣٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤١) برقم (٢٧٧٥) .

١٣_ الجَزَاء بالعَمَل

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُم ما كَسَبْتُم ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانوا يَعْمَلُون ﴾ [البقرة : ١٣٤] . تِلْك جماعة قد مَضَتْ، لها ثواب ما كَسَبَتْ مِن العمل، ولكم ثواب ما كَسَبْتُم، ولا تُسْألون يوم القيامة عمَّا كانوا يَعْمَلُون في الدُّنيا،لأن كل إنسان يتحمَّل مسؤولية عمله، ويُسأل عنه،ولا علاقة له بعمل غَيره، ولا يُسأل عنه. أي: إنَّكُم لا تَنتفعون بحسناتهم، ولا تُؤَاخَذُون بسَيِّئاتهم، ولا تُسألون عن أعمالهم، ولا يُسألون عن أعمالكم، ولا يُؤَاخَذ أحد بذَنْب أحد. وفي الآية رَد على مَن يتَّكل على عَمَل غَيره أو سَلَفه، ويَعيش في الأوهام الباطلة.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٥) : ((وقَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ ، أي: مَضَتْ ، ﴿ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُم ما كَسَبْتُم ﴾ ، أي : إنَّ السَّلَف الماضين مِن آبائكم مِن الأنبياء والصَّالحين لا يَنفعكم انتسابكم إليهم ، إذا لَم تفعلوا خيرًا يَعود نفعُه عليكم ، فإنَّ لهم أعمالهم التي عَمِلُوها ، ولكم أعمالكم ﴿ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانوا يَعْمَلُون ﴾ . وقال أبو العالية والرَّبيع وقَتادة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ ، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤): عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُه لَم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه)) .

يأمرُ الإسلامُ الناسَ بالإيمان والعمل الصالح، وعدم الاتِّكال على مكانة الآباء ، أو شَرَف النَّسَب، أو الوضع الطبقي. ومن كان عملُه فاسدًا لا ينتفع بِنَسَبه الشريف، أو مَنْزلةِ آبائه الرفيعة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢و٢٣) : ((معناه : مَن كان عمله ناقصًا لم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يَتَّكل على شرف النَّسَب ، وفضيلة الآباء ، ويُقصِّر في العمل)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٣٦) : ((﴿ وَلَكُم ما كَسَبْتُم ﴾ يُريد مِن خَير وشَر . وفي هذا دليل على أن العبد يُضاف إليه أعمال وأكساب ، وإنْ كان الله تعالى أقْدَرَه على ذلك، إنْ كان خيرًا فَبِفَضْلِه ، وإنْ كان شَرًّا فَبِعَدْلِه . وهذا مذهب أهل السُّنَّة ، والآيُ في القُرآن بهذا المعنى كثيرة ، فالعبد مُكْتَسِب لأفعاله على معنى أنَّه خُلِقَتْ له قُدرة مُقَارِنَة للفِعْل ، يُدرِك بها الفَرق بين حركة الاختيار وحركة الرِّعْشَة مثلًا ، وذلك التَّمكن مِن مَناط التَّكليف . وقالت الجَبرية بنَفْي اكتساب العبد ، وإنَّه كالنبات الذي تَصرِفه الرِّياح . وقالت القَدَرِيَّة والمُعتزلة خِلاف هَذَيْن القَوْلَيْن ، وإنَّ العبد يَخلُق أفعالَه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنَا أعْمَالُنَا ولَكُم أعْمَالُكُم ﴾ [البقرة : ١٣٩]. لنا أعمالُنا نُجَازَى بها ، ولكم أعمالكم تُجَازَوْنَ بها ، وكُل إنسان مُحَاسَب على عمله ، ومُجَازَى بِه ، وغَير مسؤول عن عَمل غَيره. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٧): ((أي: نَحْنُ بَرَاء مِنكُم ، كَما أنتم بَرَاء مِنَّا)). وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٧) : ((أي : لكُل واحد جَزَاء عَمَله)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُم لا يُظْلَمُون﴾ [البقرة : ٢٨١] . هذه آخِرُ آية نَزَلَتْ على النبيِّ ﷺ [٢٨٣].

واحْذَرُوا أيُّها الناسُ يَوْمَ القِيامة الرهيب، وتَنكيره للتَّعظيم والتَّهويل، تُرجَعون فيه إلى الله ، ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْس جَزَاءَ ما عَمِلَتْ مِن خير أوْ شَر ، وهُم لا يُظلَمون بزيادة عِقَاب ، ولا نَقص ثواب .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤١) : ((قال تعالى يَعِظُ عِبَادَه ، ويُذكِّرهم زَوال الدُّنيا ، وفَنَاء ما فيها مِن الأموال وغَيرها ، وإتيان الآخِرة ، والرُّجوع إليه تعالى ، ومُحاسبته تعالى خَلْقَه على ما عَمِلُوا ، ومُجَازاته إيَّاهم بما كَسَبُوا مِن خَير وشَر ، ويُحذِّرهم عُقوبته ، فقال : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُم لا يُظْلَمُون﴾)) .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦].

لا يُحمِّل اللهُ نَفْسًا فوق طاقتها، ولا يُكلِّفها بعبادات لا تَقْدِر عليها، وإنَّما يُكلِّفها بما تَسَعُه قُدرتها، لها ما عَمِلَتْ مِن الخَير، وتنال الأجرَ والثَّواب، ويَنفعها ذلك في الدَّارَيْن، وعليها ما عَمِلَتْ مِن الشَّر، وتنال الإثم والعِقَاب، ويضرُّها ذلك في الدَّارَيْن، ولا يُؤَاخَذ أحد بِذَنْب غَيره، وإنَّما تتعلَّق العُقوبة بالمُذنِب فقط. وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٥٨٦):((﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تَسَعُه قُدرتها فضلًا ورحمة، أوْ ما دُون مدى طاقتها بحيث يتَّسع فيه طَوْقها ، ويتيسَّر عليها ، كقَوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ ، وهو يدل على عدم وُقوع التَّكليف بالمُحَال،ولا يدل على امتناعه ﴿ لَهَا ما كَسَبَتْ﴾ مِن خَير ﴿ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ﴾ مِن شَر،لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرَّر بمعاصيها غَيْرُها. وتخصيص الكَسْب بالخَير، والاكتساب بالشَّر،لأن الاكتساب فيه احتمال،والشَّر تَشتهيه النَّفْس،وتنجذب إلَيه،فكانت أجَدَّ في تحصيله وأعمل بخِلاف الخير)).

---

٢٨٣ روى الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧١) عن ابن عباس في قَوله : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ﴾ أنها آخِرُ آية نَزلت على رسول الله ﷺ . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٤) : ((رواه الطبراني بإسنادَيْن رجال أحدهما ثِقَات)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : لما نَزلت هذه الآية ﴿ إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسبكم به اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤]، شَقَّ ذلك عَلَيهم ما لَم يَشُقَّ عَلَيهم مِثْلُ ذلك ، فقال لهم رسولُ الله ﷺ : ((قُولوا : سَمِعْنا وأطَعْنا)) ، فألقى اللهُ الإيمانَ في قُلوبهم ، فقالوا : سَمِعْنا وأطَعْنا، فأنزلَ اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ :﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ... [٢٨٤] . إنَّ الله أرحم بالعِبَاد مِن أُمَّهاتهم. لَم يَخْلُقْهم ليُعذِّبهم ، وإنَّما خَلقهم لينالوا شرفَ عبادته ويَستحقوا جنَّته . وجميعُ التكاليف الشَّرعية هي ضِمن دائرة قُدرة الإنسان وطاقته ، فلا يُوجَد تكليفٌ شَرعي جاء لتَعجيز الإنسان ، أوْ تَدميره ، أوْ حِصَاره في أضْيَق المَسَالِك . فالشَّريعةُ تُوسِّع دُروبَ الحياة، وتَفْتَح للإنسان الأبوابَ المُوصَدَة، وتَجعله في راحة واطمئنان مِن أجل مُمارسة عباداته وطاعاته على أكمل وَجْه ، والقِيام بكُل أنشطته اليومية دون عوائق ولا صُعوبات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عِمران: ٣٠]. في يَوم القِيامة ، يَجِد كُلُّ إنسان عَمَلَه مَكتوبًا في صحيفته، ويَجِد الجَزَاءَ عَلَيه.ويُجَازَى المُحْسِن بإحسانه، ويَفرَح بطاعاته وحسناته،ويُجَازَى المُسِيء بإساءته،ويَشقَى بمَعَاصيه وذُنُوبه، ويتمنَّى لَوْ أنَّ بينه وبينها غاية بعيدة كما بين المشرق والمغرب .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٤) : ((﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ، أي : مِن النُّفُوس المُكلَّفة ﴿ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ عِندها بأمر الله تعالى، وفيه مِن التَّهويل ما ليس في حاضرًا. ﴿ وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ﴾ عطف على ﴿ ما عَمِلَتْ ﴾ ، والإحضار مُعْتَبَر فيه أيضًا إلا أنَّه خُصَّ بالذِّكْر في الخَير للإشعار بكَوْن الخَير مُرَادًا بالذات، وكَوْن إحضار الشَّر مِن مُقتضيات الحِكمة التشريعية . ﴿ تَوَدُّ ﴾ عامل في الظَّرْف ، والمعنى تَوَدُّ وتتمنَّى يَوم تَجِد صحائفَ أعمالها مِن الخَير والشَّر أوْ أجْزيتها مُحْضَرَة ﴿ لَوْ أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴾ ، أي: بَين ذلك اليَوم ﴿ أمَدًا بَعِيدًا ﴾ لغاية هَوْله. وفي إسناد الوِدَادَة إلى كُل نَفْس سَواءٌ كان لها عمل سَيِّئ أو لا، بل كانت مُتمحِّضة في الخَير مِن الدَّلالة على كمال فظاعة ذلك اليَوم، وهَول مَطْلَعه ما لا يَخْفَى، اللهُمَّ إنَّا نَعُوذ بِك مِن ذلك)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ [آل عِمران : ١١٥]. وما يَعْمَلُوا مِن خَير ، فَلَن يضيع أجرُه عِند الله تعالى ، بَل يُشكَر لهم ، ويُجَازَوْنَ عَلَيه . وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٣) : ((وما تَفْعَلُوا مِن خَير ، فلن تُجحَدوا ثَوَابَه ، بَل يُشكَر لكم ، وتُجَازَوْنَ عَلَيه)).

---

٢٨٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٤) برقم (٣١٣٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إثمًا فإنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِه ﴾ [النِّساء : ١١١] .

ومَن يَقترف ذَنْبًا ، أو يَرتكب مَعصية ، فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه ، ويَقُودها إلى الهلاك ، ويَكون الوَبَالُ عَلَيه ، ولا يَضُرُّ غَيْرَه . فليبتعد عن إيذاء نَفْسِه ، وتعريضها للعُقوبة والعذاب في الدُّنيا والآخِرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إثمًا ﴾ ، أي: ذَنْبًا ، ﴿ فإنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِه ﴾ ، أي : عاقبته عائدًا عَلَيه . والكَسْب ما يَجُرُّ به الإنسانُ إلى نَفْسِه نفعًا ، أوْ يَدفع عنه به ضررًا ، ولهذا لا يُسمَّى فِعل الرَّب تعالى كَسْبًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

ولِكُلِّ عامل مِن المُكلَّفين بطاعة الله أوْ معصيته ، منازل ومراتب حَسَب عَمَله ، يَجِدها في يَوم القِيامة ، إنْ كان خَيْرًا فَخَير ، وإنْ كان شَرًّا فَشَر . والدُّنيا مَزرعة الآخِرة . وفي الآخِرة يَحصُد الإنسانُ ما زَرَعَه في الدُّنيا . وأيضًا ، في الآخِرة تَظهر نتيجة الامتحان الدُّنيوي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢٦): ((قَوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : لكُل عامل بطاعة الله أو بمَعصيته دَرَجَات، أي: منازل يَبلُغها بعمله ، إنْ كان خيرًا فخَيْرًا ، وإنْ كان شَرًّا فشَرًّا. وإنَّمَا سُمِّيَت دَرَجَات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضُل الدَّرَج)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿مَنِ اهتدى فإنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[الإسراء: ١٥].

مَن اهتدى ، واتَّبَعَ الحقَّ ، وتَمَسَّكَ بالصَّواب ، فهو المُستفيد بذلك ، وثواب اهتدائه له . ومَن ضَلَّ عن الحق، وانحرفَ عن طريق الرَّشاد، فإثمُه عَلَيه، ولا يَضُرُّ إلا نَفْسَه.وكُلُّ إنسان مسؤول عَن نَفْسه ، مُحَاسَب عَنها ، له أجرُ طاعته وثواب اهتدائه ، وعَلَيه إثم مَعصيته وعِقاب ضَلاله .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : مَن استقام على طريق الحق ، فاتَّبَعَه ، وذلك دِين الله الذي ابتعثَ به نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ ، ﴿ فإنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ ﴾ . يقول : فَلَيْسَ يَنفع بلُزومه الاستقامة وإيمانه بالله ورسوله غَير نَفْسِه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ ، يقول : وَمَن جَارَ عَن قَصْد السَّبيل ، فأخذ على غَير هُدى ، وكفر بالله وبمُحمَّد ﷺ ، وبما جاء به من عند الله مِن الحق ، فَلَيْسَ يَضُرُّ بضَلاله وجَوْره عن الهُدى غَير نَفْسه ، لأنه يُوجِب لها بذلك غَضَبَ الله وأليمَ عذابه. وإنَّما عَنى بقَوله : ﴿ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ، فإنَّما يَكْسِب إثمَ ضلاله عَلَيها ، لا على غَيرها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فلأنفُسِهم يَمْهَدُون ﴾ [الرُّوم: ٤٤].

مَن كَفَرَ بالله فَعَلَيْه ضلاله وإثمه وجَزاء كُفره ، ولا يضرُّ إلا نَفْسَه ، لأنَّه وَحْدَه المَسؤول عن كُفره ، والمُعَاقَب عَلَيه ، وهو خالد في النار ، لا يَخرُج مِنها أبدًا .

ومَـن آمـنَ بـالله وعمـل الطاعـات ، فهُـم المُسـتفيدون مِـن إيمـانهم ، والمُنتفعـون بطاعـاتهم ، ويُجهِّزون منازلَهم في الجَنَّة. وفي الآية تَشبيه إلهيٌّ بليغ ودقيق ، فقد شبَّه اللهُ مَن آمَنَ به ، وعَبَدَه، وأطاعه ، بِمَن يُمهِّد فِرَاشَه ، ويُجهِّزه للنَّوم عَلَيه ، كَي يرتاح ، ولا يُصيبه في مَضجَعه ما يُزعجه .

وتقديمُ الظَّرْف في المَوْضِعَيْن للدَّلالة على الاختصاص ، أي : الدَّلالة على أنَّ ضَرَر الكُفر لا يعود إلا على الكافر ، وفائدة الإيمان والعمل الصالح لا تَعود إلا على المؤمن .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٢٥) : ((﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ، أي : جَزَاء كُفره وهو النار ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فلأنفُسِهِم يَمْهَدُون ﴾ ، أي : يُوَطِّئُون لأنفسهم منازل في الجَنَّة بالعمل الصالح . والمِهَاد الفِرَاش ، وقد مَهَدْتُ الفِرَاشَ مَهْدًا : إذا بَسَطْتُه ووَطَّأْتُه ، فَجَعَلَ الأعمالَ الصالحة التي هي سبب لدُخول الجَنَّة ، كبناء المنازل في الجَنَّة وفَرْشها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانوا يَعْمَلُون ﴾ [السَّجدة: ١٧]. فلا يَعْلَم مَخلوق ما أعدَّ اللهُ لهم مِن النَّعيم في الجَنَّة، مِمَّا تَقَرُّ بِه أعينُهم إذا رَأَوْهُ، ثوابًا لِمَا قَدَّموه في الدُّنيا مِن العبادات والطاعات والأعمال الصالحة . والنَّكِرَةُ في سِياق النَّفْي تُفيد العُموم. أي : فلا تَعْلَم نَفْسٌ مِن النُّفُوس ، لا مَلَكٌ مُقرَّب ، ولا نبيٌّ مُرسَل ، ما أعَدَّ اللهُ لهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠٦): ((فلا يَعْلَم أحدٌ عَظَمَةَ ما أخفى اللهُ لهم في الجَنَّات مِن النَّعيم المُقيم ، واللذات التي لم يطَّلع على مِثلها أحد لِمَا أخْفَوْا أعمالهم ، كذلك أخفى اللهُ لهم مِن الثواب جَزَاءً وِفَاقًا ، فإن الجَزاء مِن جِنس العمل . قال الحسن البصري : أخفى قَوْمٌ عَمَلَهم ، فأخفى اللهُ لهم ما لم تَرَ عَيْن ، ولم يَخطُر على قَلْبِ بَشَرٍ ، رواه ابن أبي حاتم)) .

وعن أبي هريرة_ رضي اللهُ عنه_ عن رسول الله ﷺ قال: ((قال اللهُ تباركَ وتعالى : أعددتُ لِعِباديَ الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ)). قال أبو هُرَيرة: اقرؤوا إن شِئتم : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ ﴾ [٢٨٥].

خَلَقَ اللهُ وهَيَّأ لعِباده المؤمنين المُخلصين في الجَنَّة ، ما لَم تَرَه عَيْن مِن الأعْيُن ، ولَم تَسْمَعْ بوَصْفه أُذُن مِن الآذان، ولم يَمُرَّ على عَقْل إنسان ما يُشبهه أو يتخيَّله مِن النعيم. ونعيمُ الجَنَّة أعظم وأعلى مِن كُل التخيُّلات والتصوُّرات. ومعنى الآية: فلا يَعْلَم أحدٌ ولا يتصوَّر ما خبَّأه اللهُ عَن الناس مِن النعيم الذي تَفْرَح وتَسْعَد بِه العَيْن يَوم القِيامة عِند الله تعالى. وإضافةُ العِباد إلى الله لتشريفهم .

---

٢٨٥ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٩٤) برقم (٤٥٠١)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٤) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٧٣) : ((مَعناه أنَّه تعالى ادَّخَرَ في الجَنَّة مِن النَّعيم والخَيرات واللذات ، ما لَم يَطَّلع عليه أحد مِن الخَلْق بطريق مِن الطُّرُق ، فَذَكَرَ الرُّؤيةَ والسَّمْعَ ، لأن أكثر المَحسوسات تُدرَك بهما ، والإدراك بِبَقِيَّة الحَوَاس أقل ، ولا يكون غالبًا إلا بعد تقدُّم رُؤية أو سَمَاع ، ثُمَّ زاد أنَّه لَم يَجعل لأحد طريقًا إلى تَوَهُّمِها بذِكْر وخُطُور على قَلْب ، فقد جَلَّتْ عن أن يُدركها فِكر وخاطر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لا تُسْألُونَ عَمَّا أجْرَمْنا ولا نُسْألُ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾ [سَبَأ : ٢٥] .

قُل للكافرين يا مُحمَّد ، لا تُؤَاخَذُون بذُنوبنا وجرائمنا ، ولا تُسألون عنها ، ولا نُؤَاخَذ بما تَعْمَلُون مِن الكُفر والتَّكذيب ، ولا نُسأل عن ذلك . وكُل إنسان مسؤول عن أعماله ، ويُحَاسَب عَلَيها ، ويُعَاقَب على ذَنْبه . والمقصود إظهار التَّبَرِّي مِنهُم .

والآيةُ في غاية الإنصاف ، حيث تَمَّ إسناد الإجرام إلى المؤمنين ، معَ أنَّهُم أطهار وصالحون ، وإسناد العمل إلى المُخَاطَبِين ، وهُم الكُفَّار الغارقون في الضلال والذُّنوب والمعاصي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٦٤) : ((﴿ قُل لا تُسْألُونَ عَمَّا أجْرَمْنا ولا نُسْألُ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾ ، أي : إنَّما أدعوكم إلى ما فيه خَير لكم ونَفْع ، ولا ينالني مِن كُفركم وتَرككم لإجابتي ضَرَر ، وهذا كقَوله سُبحانَه : ﴿ لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِين ﴾ . وفي إسناد الجُرْم إلى المسلمين ، ونِسبة مُطْلَق العمل إلى المُخَاطَبِين مَعَ كَوْن أعمال المسلمين مِن البر الخالص والطاعة المَحْضَة ، وأعمال الكفار مِن المعصية البَيِّنة والإثم الواضح ، مِن الإنصاف ما لا يُقَادَر قَدْرُه)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما تُجْزَوْنَ إلا ما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الصَّافَّات: ٣٩]. إنَّ الله يُجَازي العُصَاةَ والمُذنبين وَفْقَ أعمالهم ، وجزاء الشَّر يَكون بقَدْره بلا زيادة ، بعَكْس الخَير ، الذي يَكون جَزاؤه أضعافًا مُضَاعَفَة . ومِن رحمة الله بعباده أنَّه يُضَاعِف الحَسَنَات ، ويُكَثِّرها ، ولا يُضَاعِف السَّيئات .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٥٨) : ((بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ ما ذاقوه مِن العذاب لَيس إلا بسبب أعمالهم ، فقال : ﴿ وما تُجْزَوْنَ إلا ما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ، أي: إلا جَزاء ما كُنتم تَعْمَلُون مِن الكُفر والمَعَاصي ، أوْ إلا بما كُنتم تَعْمَلُون)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون ﴾ [الزُّمَر : ٧٠] .

كُلُّ إنسان يُجَازَى بما عَمِلَ في الدُّنيا مِن خَير أوْ شَر، والله يَعلَم أفعال الناس ، ومُطَّلع على ظواهرهم وبواطنهم ، ولا يَخفى عَلَيه شيء ، ولا يَحتاج إلى كتاب ، ولا شاهد . ومعَ هذا ، فالكُتب مَوجودة ، والشُّهُود مَوجودون ، لإقامة الحُجَّة على الناس ، وقَطْع أعذارهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٤٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ﴾ مِن خَير أوْ شَر ، ﴿ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون ﴾ في الدُّنيا ، ولا حاجة به عَزَّ وَجَلَّ إلى كتاب ، ولا إلى شاهد . ومَعَ ذلك فتَشهَد الكُتُبُ والشُّهُودُ إلزامًا للحُجَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلمَ اليَوْمَ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ [غَافِر : ١٧] . في يَوم القِيامة العظيم ، يُجْزَى كُل إنسان بما عَمِلَ مِن خَير أوْ شَر ، أي : يُجْزَى المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، ولا يُظلَم أحد بنقص ثوابه ، أوْ بزيادة عِقَابه . وحِسابُ اللهِ سَرِيعٌ ، لا يَشغَله شأن عَن شأن ، ويُحَاسِب العِبادَ في وَقْت واحد ، كما يَرزقهم في وقت واحد .

وعن ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال: ((لا يَنْتَصِفُ النهارُ مِن يَوم القِيامة ، حَتَّى يَقِيلَ هؤلاء وهؤلاء)) [٢٨٦].

لا يَبْلُغ النهارُ النِّصْفَ مِن يَوم القِيامة حتى يَقِيلَ أهلُ الجَنَّة في الجَنَّة ، وأهلُ النار في النار . وهذا يدل على سُرعة الحِسَاب . و" يَقِيل " مِن القَيْلُولة ، وهي الاستراحة في فترة الظَّهيرة .

قال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٩٥): ((وقَوله جَلَّتْ عَظَمَتُه: ﴿ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلمَ اليَوْمَ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ . يُخْبِر تعالى عَن عَدْله في حُكْمه بَيْنَ خَلْقه أنَّه لا يَظْلِم مِثقالَ ذَرَّة مِن خَير ولا مِن شَر،بَل يَجْزي بالحسنة عَشْر أمثالها، وبالسيئة واحدة.قال تبارك وتعالى: ﴿ لا ظُلمَ اليَوْمَ ﴾ ،...، وقَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ ، أي: يُحَاسِب الخلائقَ كُلَّهم كما يُحَاسِب نَفْسًا واحدة، كما قال جَلَّ وعلا: ﴿مَا خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤) : عن أبي ذَر عن النبيِّ ﷺ فيما روى عن الله تباركَ وتعالى أنَّه قال : ((يا عِبادي ، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي ، وجعلته بينكم مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا)) ، إلى أن قال في آخر الحديث : ((إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أُوفِّيكم إيَّاها ، فَمَن وَجَدَ خيرًا فَلْيَحْمَد الله ، ومَن وَجَدَ غَيْرَ ذلك ، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه)) .

حَرَّمَ اللهُ على نَفْسِه الظُّلْمَ ، وألزمَ ذَاتَه العَلِيَّة بالعدل ، وجَعَلَ الظُّلْمَ بين الناس مُحَرَّمًا . واللهُ يُحْصِي أعمالَ الناس ويَحفظها بِعِلْمه المُطْلَق الشامل لكل شيء،كما أن الملائكة الحَفَظَة تُسجِّل أعمالَ الناس. ويُجازيهم اللهُ عليها. يُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته . وهذا الجزاء الإلهيُّ كامل وشامل وتام ، لا نقص فيه ولا سَهْو ولا نسيان .

---

٢٨٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٦) برقم (٣٥١٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٧٦) : ((" فَمَن وَجَدَ خَيْرًا " ثوابًا ونعيمًا بأن وُفِّقَ لأسبابهما ، أو حياة طيبة هنيئة ، " فَلْيَحْمَد الله " على توفيقه للطاعات التي يترتب عليها ذلك الخير والثواب فضلًا منه ورحمة،" ومَن وَجَدَ غَيْرَ ذلك " أي شَرًّا . ولَم يَذكره بلفظه تعليمًا لِخَلْقه كيفية أدب النُّطق بالكِناية عمَّا يُؤذي أو يُسْتَهْجَن، أو يُسْتَحَى مِنه، أو إشارة إلى أنه إذا اجتنب لفظه، فكيف فِعله ؟." فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه" فإنها آثرت شَهَوَاتها على رضى رزَّاقها، فكفرت بأنعمه ولَم تُذعِن لأحكامه وحُكمه،فاستحقت أن يُقابلها بمَظهَر عَدْله، وأن يَحرِمَها مزايا جُوده وفضله)).

وعن عبد الله بن أُنَيس_رضي اللهُ عنه_قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((يَحْشُرُ اللهُ العِبادَ، أوْ قال:الناسَ، عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا))،قَال:قُلنا: ما بُهْمًا ؟،قال:((لَيْسَ مَعَهُم شيء، ثُمَّ يُناديهم بصَوت يَسمَعه مَن بَعُدَ كما يَسمَعه مَن قَرُبَ : أنا المَلِكُ ، أنا الدَّيَّان ، لا يَنبغي لأحد مِن أهل الجنة أن يَدخل الجنةَ ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يَدخل النارَ ، وعِندَه مَظْلَمَة حَتَّى أَقُصَّه مِنه ، حتى اللطمة))، قال: قُلنا: كيف ذا وإنَّما نأتي الله غُرْلًا بُهْمًا ؟ ، قال : ((بالحَسَنَات والسَّيئات)) . قال: وتلا رسولُ الله ﷺ : ((﴿ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليَوْمَ ﴾)) [٢٨٧].

هذا الحديثُ يدلُّ على عَظَمَة الله ، وعَدْله ، ورحمته بعباده ، وعدم ظُلمهم ، كما يدلُّ على أنَّ الناس مُحَاسَبُون على كُل شيء،سَوَاءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، ولا يَفُوت اللهَ شيءٌ مِن أعمال عِباده.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فأُولئكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غَافِر : ٤٠] . مَن ارتكبَ في الدُّنيا ذَنْبًا ، أو فَعَلَ معصيةً ، فلا يُجْزَى إلا مِثْلَها ، ولا يُعَاقَب إلا بِمِقدارها ، دُون زيادة . ومَن فَعَلَ في الدُّنيا طاعةً ، سَوَاءٌ كان ذَكَرًا أم أُنثى ، مَعَ كَوْنه مُؤمنًا بوَحدانية الله ، وبما جاءت بِه رُسُلُه ، فأُولئك المؤمنون الصالحون يَدخلون الجَنَّة خالدين فيها ، ويُعْطَوْنَ جَزاءهم العظيم، بغَير تقدير ، بَل أضعافًا مُضَاعَفَة ، ويُرْزَقُون فِيها رِزْقًا واسعًا بلا تَبِعَة ، فضلًا مِن الله وكَرَمًا. والآيةُ تدلُّ على أنَّ الله يُضَاعِف الحَسَنَات ، ولا يُضَاعِف السَّيئات ، رحمةً بعباده ، وتفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إليهم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٢) : ((يقول : مَن عَمِلَ بمَعصية الله في هذه الحياة الدُّنيا ، فلا يَجْزيه اللهُ في الآخِرة إلا سَيِّئَةً مِثْلَها ، وذلك أن يُعاقبه بها ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أوْ أُنثى ﴾ . يقول : وَمَن عَمِلَ بطاعة الله في الدُّنيا ، وأتَمَرَ لأمره ، وانتهى فيها عمَّا نهاه عنه

---

٢٨٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٥) برقم (٣٦٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مِن رَجُل أو امرأة ، وهو مؤمن بالله ، ﴿ فأُولئكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ﴾ . يقول : فالذين يَعْمَلُون ذلك مِن عِباد الله ، يَدْخُلون في الآخِرة الجَنَّةَ ... . عَن قَتادة : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا ﴾ ، أي: شِرْكًا . السَّيئة عِند قَتادة شِرْك ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، أي : خَيْرًا ... . وقَوله : ﴿ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، يقول : يَرزقهم اللهُ في الجَنَّة مِن ثِمارها ، وما فِيها مِن نَعيمها ولَذَّاتها بغَير حِساب،كما حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة : ﴿ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، قال : لا واللهِ ما هُناكم مِكيال ولا مِيزان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْهَا وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبِيدِ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٦] . مَن عَبَدَ اللهَ وأطاعه في الدُّنيا ، فهو المُستفيد ، ويَعود نَفْعُ ذلك على نَفْسه ، ومَن ارتكبَ الذُّنُوبَ والمعاصي ، فهو الخاسر ، ويَرجع ضَرَرُ ذلك عَلَيه . واللهُ غنيٌّ عن العِباد وعباداتهم ، لا تَنفعه الطاعة ، ولا تضرُّه المعصية . مَن فَعَلَ الطاعات ، فله الأجر والثواب ، ومَن فَعَلَ المعاصي ، فَعَلَيه الإثم والعِقاب . واللهُ عادلٌ ، لا يَظْلِم الناسَ شيئًا ، ولا يُعاقب أحدًا إلا بذَنْبه ، ولا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قِيام الحُجَّة عَلَيه ، وقَطْع عُذره . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٢١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : مَن عَمِلَ بطاعة الله في هذه الدُّنيا ، فَأْتَمَرَ لأمره، وانتهى عمَّا نَهَاه عنه ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ . يقول: فلنَفْسه عَمِلَ ذلك الصالح مِن العمل،لأنَّه يُجَازَى عَلَيه جَزاءه فيستوجب في المَعَاد مِن الله الجَنَّة، والنَّجاة مِن النار، ﴿ وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ، يقول : وَمَن عَمِلَ بمَعَاصي الله فيها، فعلى نَفْسه جَنَى، لأنَّه أكسبها بذلك سَخَط الله والعِقاب الأليم ﴿ وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبِيدِ ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه : وما رَبُّكَ يا مُحمَّد بحامل عُقوبة ذَنْب مُذنِب على غَير مُكتسِبه ، بَل لا يُعَاقِب أحدًا إلا على جُرمه ، الذي اكتسبه في الدنيا ، أوْ على سبب استحقه به مِنه ، والله أعلم)) .

وفي صَفوة التفاسير (١٥/ ١٦) : ((قال المُفسِّرون : لَيست صِيغة " ظَلَّام " هُنا للمُبالَغة ، وإنَّما هي صِيغة نِسبة ، مِثل : عطَّار ، ونجَّار ، وتمَّار ، ولوْ كانت للمُبالَغة لأوهمَ أنَّه تعالى لَيس كثير الظُّلْم ، ولكنَّه يَظلِم أحيانًا ، وهذا المعنى فاسد ، لأنَّه يَستحيل عَلَيه الظُّلْم جَلَّ وعلا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأن لَيْسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى ﴾ [النَّجْم : ٣٩] .

لَيس للإنسان إلا ما عَمِلَه مِن الخَير ، وقامَ به في الدُّنيا ، مِن أجل آخرته . وكما أنَّه لا يتحمَّل ذُنوبَ الآخرين، كذلك لا يَستفيد إلا مِن أعماله ، ولا يأخذ الأجرَ إلا عَلَيها . ولا أحد يَنفع أحدًا.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٨٠) : ((ومعناه : لَيس للإنسان إلا جَزاء سَعْيه ، إنْ عَمِلَ خيرًا جُزِيَ عَلَيه خيرًا ، وإنْ عَمِلَ شَرًّا جُزِيَ شَرًّا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٩): ((ومِن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعيُّ رحمه الله ومَن اتَّبعه أنَّ القِراءة _ يعني قِراءة القُرآن_ لا يَصِل إهداء ثوابها إلى المَوتى، لأنَّه لَيس مِن عملهم ولا كَسْبهم ، ولهذا لم يَندُب إليَه رسولُ الله ﷺ أُمَّتَه ، ولا حَثَّهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنَص ، ولا إيماء ، ولم يُنقَل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم . ولو كان خيرًا لَسَبقونا إلَيه . وباب القُرُبات يُقْتَصَر فِيه على النُّصوص ، ولا يُتصرَّف فيه بأنواع الأقْيِسَة والآراء ، فأمَّا الدُّعاء والصَّدَقة فذاكَ مُجمَع على وُصولهما ، ومَنصوص مِن الشَّارع عليهما)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١/ ٩٠):((وأمَّا قِراءة القرآن فالمَشهور من مذهب الشافعي أنه لا يَصِل ثوابُها إلى المَيْت . وقال بعضُ أصحابه: يَصِل ثوابها إلى المَيْت، وذهب جماعات من العلماء إلى أنه يَصِل إلى المَيْت ثواب جميع العبادات مِن الصَّلاة والصَّوم والقِراءة وغَير ذلك)) .

إنَّ إهداء ثواب قِراءة القرآن للمَيْت مسألة فقهية خِلافية ، لكنَّ المُسلمين يقومون بها في كُل العُصُور بلا نَكِير فصارت أمرًا إجماعيًّا. وقال السيد سابق في فِقه السُّنَّة (١/ ٣٠٩): ((فالاختيار أن يقول القارئُ بعد فَراغه : اللهُمَّ أَوْصِلْ مِثْلَ ثواب ما قَرَأتُه إلى فُلان)) .

والإنسانُ لا يُجَازَى إلا بعمله، صالحًا كان أوْ فاسدًا ، وكما أنَّه لا يَحْمِل آثامَ الآخرين ،كذلك ليس له من الحسنات إلا ما كَسِبَها بنَفْسه . وهذه دَعوة عظيمة للعمل ما دام هناك فُسحة في هذه الحياة الدُّنيا، وما دام في العُمُر مُتَّسَع. والإنسانُ إنْ لَم يُساعد نَفْسَه فلن يُساعده أحد، لذلك ينبغي عليه أن يَستغل وقته في الإكثار مِن عمل الصالحات ، كَي ينال سعادةَ الدُّنيا ونعيمَ الآخرة .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥): عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((إذا مَاتَ الإنسانُ انقطعَ عَنه عَمَلُه إلا مِن ثلاثة : إلا مِن صَدَقة جارية ، أوْ عِلْم يُنتفَع به ، أوْ ولد صالح يَدعُو له)) .

حِين يُغادر الإنسانُ هذه الحياة فإنَّ صَحيفته تُطوَى ، فلا يعود قادرًا على العمل وفِعل الخَيرات وكَسْب الحسنات، فينقطع عملُه، ولا يستفيد بعد مَوته إلا مِن هذه الأمور الثلاثة لكَوْنها مِن كَسْبه، وقد كان سببًا فيها . فالصَّدَقَةُ الجارية وهي الوَقْف قد قام بفِعْلها في حَياته الدُّنيا، فيَلحَق به أجرُها بعد مَوته ، وكذلك العِلْم النافع الذي نشره وسعى في تعليمه للآخرين ، وأيضًا الولد الصالح الذي أنجبه وربَّاه أحسن تربية ليَخدم دِينَه وأُمَّتَه.وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١١/ ٨٥): ((قال العلماء : معنى الحديث أن عَمَلَ المَيْت يَنقطع بمَوْته ، وينقطع تجدُّد الثَّواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكَوْنه كان سببها ، فإن الولد مِن كَسْبه ، وكذلك العِلْم الذي خَلَّفَه من تعليم

أو تصنيف ، وكذلك الصَّدَقة الجارية وهي الوَقْف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح ...وفيه دليل لصِحَّة أصل الوَقْف وعظيم ثَوَابه، وبيان فَضيلة العِلْم، والحث على الاستكثار منه، والترغيب في تَوريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح ، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع ، وفيه أن الدُّعاء يَصِل ثوابُه إلى المَيْت ، وكذلك الصَّدَقة ، وهُما مُجمَع عَلَيهما)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ﴾ [النَّجْم : ٤٠]. إنَّ عَمَلَ الإنسان يُعرَض عَلَيه يوم القِيامة، ويُبصِره في مِيزانه ، ويُجَازَى بِه، إنْ خَيْرًا فخير ، وإنْ شرًّا فَشَر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٨٢): ((قَوله تعالى: ﴿ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما سَوْفَ يُعلَم ، قاله ابن قُتَيبة . والثاني سَوْفَ يَرى العبدُ سَعْيَه يوم القيامة ، أي : يرى عَمَلَه في مِيزانه ، قاله الزَّجاج)) اهـ . وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢٢٣) : ((وفي الآية بِشارة للمؤمن ، وذلك أن الله تعالى يُريه أعمالَه الصالحة ليَفرَح بها ، ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غَمًّا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأوْفَى ﴾ [النَّجْم : ٤١] . ثُمَّ يُجْزَى الإنسانُ بعمله الجَزَاءَ الأكمل ، وهذا تَخويف للكافر ، ووعيد شديد له ، وبِشارة للمؤمن ، ووعد عظيم له .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٣٤) : ((وقَوله : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأوْفَى ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : ثُمَّ يُثاب بسَعْيه ذلك الثواب الأوفى ، وإنَّما قال جَلَّ ثناؤه : ﴿ الأوْفَى ﴾ ، لأنَّه أوْفَى ما وَعَدَ خَلْقَه عَلَيه مِن الجَزَاء ، والهاء في قَوله : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ مِن ذِكْر السَّعْي، وعَلَيه عادت)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وأعْظَمَ أجْرًا ﴾ [المُزَّمل : ٢٠]. وما تُقدِّموا أيها المؤمنون في الدُّنيا مِن صَدَقَة في طاعة الله أو نفقة في سبيله، أو إحسان في وجوه الخَير ، تَجِدُوه عند الله يوم القيامة أضعافًا مُضَاعَفَة ، وهو مَحفوظ لكم ، لا يَضيع ولا يَزول ولا يَنقُص . ﴿ هُوَ خَيْرًا وأعظمَ أجْرًا ﴾ أي : تَجِدُوا ذلك الأجرَ والثوابَ يوم القيامة خَيْرًا لكم مِمَّا قَدَّمتم في الدُّنيا مِن الأعمال الصالحة ، وأعظم ثوابًا للمؤمنين ، فإنَّ الدُّنيا فانية ، والآخرة باقية ، ومال الدُّنيا في الدُّنيا ، والكَفَنُ لَيس له جُيُوب . أمَّا الأجر في الآخرة فهو مَحفوظ ومُضَاعَف . والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ خَيْرًا ﴾ هو مفعول بِه ثانٍ لـ﴿ تَجِدُوهُ ﴾.و﴿ هُوَ ﴾ للتأكيد أو الفصل . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٦) : ((﴿ وما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ أي : تجدوا ثوابَه في الآخرة ﴿ هُوَ خَيْرًا ﴾ . قال أبو عُبَيدة : المعنى: تجدوه خيرًا . قال الزَّجاج : ودَخلت ﴿ هُوَ ﴾ فَصْلًا . وقال المُفسِّرون : ومعنى ﴿ خَيْرًا ﴾ أي : أفضل مِمَّا أَعْطَيْتُم ، ﴿ وأعظمَ أجْرًا ﴾ مِن الذي تُؤَخِّرونه إلى وقت الوصية عند الموت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المُدَّثر : ٣٨] . كُل إنسان مُقيَّد بعمله ، ومأخوذ به ، ومُرْتَهَن بكَسْبه . وإذا كان عمله صالحًا ، فازَ وربِحَ ، واستمتعَ بنعيم الجَنَّة، وإذا كان عمله فاسدًا ، خابَ وخَسِرَ ، وعُوقِبَ بعذاب النار. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٦٦): ((قَوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ، أي:مأخوذة بعملها ، ومُرْتَهَنَة به ، إمَّا خلَّصها ، وإمَّا أَوْبَقَها (أهلكها) ... . والمعنى : كُلُّ نَفْسٍ رَهْنٌ بكَسْبها غَير مَفكوكة)) .

وعن عليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إلا أصحابَ اليمين (٣٩) ﴾ . قال : ((هُم أطفال المسلمين)) [٢٨٨].

إنَّ أطفال المُسلمين الذين لم يَصِلُوا إلى مرحلة البُلُوغ ، لا حِسَاب عليهم ولا عِقَاب ، وهُم في الجَنَّة ، لأنَّهُم لَيسوا مُكلَّفين . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٧) : ((أجمعَ مَن يُعْتَدُّ به مِن علماء المُسلمين على أنَّ مَن مات مِن أطفال المُسلمين ، فهو مِن أهل الجَنَّة ، لأنَّه لَيس مُكَلَّفًا ، وتَوَقَّفَ فيه بعض مَن لا يُعْتَد به ، ...)) .

١٤_ ثَواب الدُّنيا والآخِرَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنها وَسَنَجْزي الشاكرين ﴾ [آل عِمران : ١٤٥] .

وَمَن كان يُريد بعمله الدُّنيا فقط، أعطاه اللهُ نصيبه المُقدَّر مِنها ، ولا نصيب له في الآخِرة . وهذا يدلُّ على أنَّ الدُّنيا رخيصة وتافهة ، يَمنحها اللهُ للصالح والفاسد، ومَن كان يُريد بعمله الآخرةَ (الجَنَّة)، أعطاه اللهُ أجْرَه كاملًا مع نصيبه مِن الدُّنيا ، وَسَيُعْطِي اللهُ المؤمنين الشاكرين مِن فَضْله في الدُّنيا ، ويُضَاعِف لهم الحَسَنَات ، ويَمنحهم النعيمَ الأبديَّ في الآخِرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٤٧٠):((قَوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها﴾ أي: مَن قَصَدَ بعمله الدُّنيا أُعْطِيَ مِنها قليلًا كان أو كثيرًا، ومَن قَصَدَ الآخِرَةَ بعمله أُعْطِيَ مِنها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿مَن كانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنيا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنيا والآخِرَةِ ﴾ [النِّساء: ١٣٤].

مَن كان يُريد بعمله أجرَ الدُّنيا فقط ، فعِند الله أجر الدُّنيا والآخِرة معًا ، فلماذا يَطلُب الأدنى ويَترُك الأعلى ؟ . فَلْيَطْلُب العبدُ مِن الله أن يُعْطِيَه خَيْرَ الدُّنيا والآخِرة ، فهو مالك كُل شيء .

---

٢٨٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥١) برقم (٣٨٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ مَن طَلَبَ بعمله رِضَا الله ، وقَصَدَ الآخِرَةَ ، أعطاه اللهُ ثوابَ الدُّنيا والآخرةِ معًا،فَرَبِحَ مَرَّتَيْن.ومَن طَلَبَ بعمله الدُّنيا، والحصول على مَتَاع زائل، أعطاه اللهُ مِن الدُّنيا ما قَدَّرَ له، ولَيس له في الآخِرة إلا العُقوبة والعذاب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٨٩) : ((﴿مَن كانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنيا﴾ ، وهو مَن يَطلُب بعمله شيئًا مِن أُمور الدُّنيا ،كالمُجاهد يَطلُب الغنيمةَ دُون الأجر ، ﴿ فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنيا والآخِرَةِ ﴾ ، فما باله يَقتصر على أدنى الثَّوَابَيْن وأحقر الأجْرَيْن ، وهَلَّا طَلَبَ بعمله ما عند الله سُبحانَه، وهو ثواب الدُّنيا والآخرة ، فيُحرِزهما جميعًا ، ويفوز بهما. وظاهر الآية العُمُوم . وقال ابن جرير الطبري : إنها خاصة بالمُشركين والمُنافقين)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢١) : ((قَوله تعالى : ﴿مَن كانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنيا﴾ . قِيل : إنَّ هذه الآية نزلت من أجل المُنافقين، كانوا لا يُصدِّقون بالقِيامة ، وإنَّما يَطلُبون عَاجِل الدُّنيا ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان. وقال الزَّجاج: كان مُشركو العرب يتقرَّبون إلى الله لِيُعْطِيَهم مِن خَير الدُّنيا ، ويَصرِف عنهم شَرَّها ، ولا يؤمنون بالبَعْث ، فأعلمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ خَير الدُّنيا والآخِرة عِنده. وذكر الماوردي أنَّ المُراد بثَواب الدُّنيا الغَنيمة في الجِهاد، وثواب الآخرة الجَنَّة.قال:والمُراد بالآية حَث المُجاهد على قَصْد ثواب الله)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وما لَهُ في الآخِرَةِ مِن نَصِيب ﴾ [الشُّورى : ٢٠] . مَن كان يُريد بعمله الآخِرَةَ (الجَنَّة) وأجرها ونعيمها ، يُضَاعِف اللهُ له حسناته ، ويُكثِّرها . ومَن كان يُريد بعمله مَتاع الدُّنيا الفاني فقط ، يُعْطِه اللهُ ما قدَّره وقَسَمَه له ، ولَيس له في الآخِرة حَظ مِن الأجر والنعيم، وَسَوْفَ يُعذَّب في النار. أي إنَّ مَن آثرَ دُنياه على آخرته ، خَسِرَ الآخرةَ . والحَرْثُ العمل والكَسْب . وقد شبَّه اللهُ أجرَ الآخرة بالزَّرْع ، حيث يَحصل العبد على المنفعة والفائدة ، لذلك كانت الدُّنيا مزرعة الآخرة ، والآخرة هي وقت الحصاد . والدُّنيا عمل بلا نتيجة ، والآخرة نتيجة بلا عمل .

إنَّ العبدَ إذا أخلصَ نِيَّتَه لله ، وطَلَبَ رَضاه ، وقَصَدَ الآخِرَةَ ، فَازَ بالدُّنيا والآخرة معًا . وإذا أرادَ الدُّنيا فقط ، أضاعَ آخرته . والدُّنيا التي نالها لا تَبقَى له لأنَّها فانية وزائلة ، وبذلك يكون قد خَسِرَ الدُّنيا والآخرة معًا . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٨١) : ((قَوله تعالى : ﴿ مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أي عَمَل الآخِرة ، يُقال : فُلان يَحرُث الدُّنيا، أي : يَعمَل لها ، ويَجمَع المال . فالمعنى : مَن أراد بعمله الآخرةَ ﴿ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ﴾ ، أي: نُضَاعِف له الحَسَنَات . قال المُفسِّرون : مَن أراد العمل لله بما يُرضيه ، أعانه اللهُ على عبادته . ومَن أراد الدُّنيا

مُؤْثِرًا لها على الآخِرة ، لأنَّه غَير مُؤمن بالآخرة ، يُؤْتِه مِنها ، وهو الذي قُسِمَ له ، ﴿ وما لَهُ في الآخِرَةِ مِن نَصِيب ﴾ ، لأنَّه كافر بها ، لَم يَعمَل لها)) اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤١) : ((قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ ، أي عَمَل الآخِرة ، ﴿ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ﴾ ، أي: نُقَوِّيه ونُعِينه على ما هو بصَدَده ، ونُكَثِّر نَماءه ، ونَجزيه بالحسنة عَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ما يشاء الله ، ﴿ وَمَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وما لَهُ في الآخِرَةِ مِن نَصِيب ﴾ ، أي : وَمَن كان إنَّما سَعْيُه لِيَحْصُل له شيء مِن الدُّنيا ، ولَيس له إلى الآخِرة هَم البَتَّة بالكُلِّية ، حَرَمَه اللهُ الآخرةَ والدُّنيا ، إنْ شاء أعطاه مِنها ، وإنْ لَم يَشَأ لم يَحصُل ، لا هذه ولا هذه ، وفاز السَّاعي بهذه النِّية بالصَّفقة الخاسرة في الدُّنيا والآخرة)) .

وعن أُبَيِّ بن كَعْب ـ رضي اللهُ عنه ـ : أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناء ، والرِّفعة ، والنُّصرة ، والتَّمكين في الأرض ، وَمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخِرة للدُّنيا ، لَم يكن له في الآخِرة نصيب)) [٢٨٩]. بَشِّر الأُمَّةَ المُحمَّديةَ الإسلاميةَ بالمجد والشرف والمنزلة الرفيعة والمكانة العظيمة ، والنصر على الأعداء ، وقيادة الناس ، وتَوَلِّي أُمورهم . ومَن قَصَدَ بعمله الأُخروي الحصولَ على مَتَاع دُنيوي زائل ، فَلَيْسَ له في الآخِرة إلا العُقوبة والعذاب .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٠١) : (((بَشِّرْ هذه الأُمَّة) أُمَّة الإجابة (بالسَّناء) بالمَد ارتفاع المَنزلة والقَدْر (والدِّين) أي التَّمكُّن فيه (والرِّفعة) أي العُلُو في الدُّنيا والآخِرة (والنَّصْر) على الأعداء (والتَّمكين في الأرض) ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُم في الأرْضِ ﴾ [القَصَص].(فَمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخرة للدُّنيا) أي قَصَدَ بعمله الأُخروي استجلابَ الدُّنيا، وجَعْله وسيلة إلى تحصيلها (لم يكن له في الآخرة من نصيب) لأنه لَم يَعمَل لها)) .

وعن أبي هُرَيرة ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : تلا رسولُ الله ﷺ : ((﴿ مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وما لَهُ في الآخِرَةِ مِن نَصِيب ﴾)) ، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ : ((يقول اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ابْنَ آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدركَ غِنًى ، وأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وإلا تفعل ، مَلأتُ صَدركَ شُغْلاً ، ولَم أَسُدَّ فَقْرَكَ)) [٢٩٠].

هذا توجيهٌ إلهيٌّ للإنسان مِن أجل نجاحه، وإرشادٌ رَبَّانِيٌّ يجب التَّمَسُّك بِه ، والعمل بِمُقتضاه.

---

٢٨٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) برقم (٧٨٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٩٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

تَفَرَّغْ عن شُؤونك ومُهماتك لطاعتي وعبادتي ، أملأ قلبك قناعةً ورِضًى ، والمقصود غِنى القلب وعِزَّة النَّفْس، وأُنقِذك من الفقر والحاجة وشَظَف العَيش، وأجعلكَ غنيًّا عن الناس، لا تحتاج إليهم. والغنيُّ هو المُستغني عن الناس ، الذي لا يحتاج إليهم . وإذا لَم تفعل ما آمُرُكَ بِه ، ملأتُ صدرك ضِيقًا وشُغلًا واحتياجًا ولُهاثًا وراء الناس ، وتَركتُكَ فقيرًا بائسًا تعيسًا حزينًا ، بلا مُساعدة ولا إنقاذ . والمعنى : إذا لَم تتفرَّغ لعبادتي ، واشتغلتَ بغير طاعتي ، جعلتُكَ فقيرًا إلى الناس ، مُحتاجًا إليهم ، ولَم أُنقِذك من الفقر والحاجة . أي إن الله يتخلى عنه ، ويتركه ضائعًا وهائمًا على وجهه . وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٠٨) : ((إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتي) أي: تَفَرَّغْ عن مهماتك لطاعتي، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد على قُوتك وقُوت مَمُونك _ يعني مَن يَقوم بمؤونتهم وكِفايتهم _ ، فإنك إن اقتصرتَ على ما لا بُد منه واشتغلتَ بعبادتي (أملأ صدرك) أي قلبك الذي في صدرك (غِنًى) وذلك هو الغنيُّ على الحقيقة ... . (وأَسُد) بسين مهملة (فقرك) يعني تَفَرَّغْ عن مهماتك لعبادتي أقضِ مهماتك، ومن قضى الله مهماته استغنى عن خَلْقه، لأنَّه الغنيُّ على الإطلاق ، وهو المعنيُّ بِقَوله : (أملأ صدرك غِنًى)... . (وإن لَم تفعل) ذلك (ملأتُ يَدَيْك شُغلًا) ... تَلَهَّيْتَ به ، وخَصَّ اليَدَيْن لأن مُزاولة الاكتساب بهما (ولَم أَسُدَّ فقرك) أي : وإن لَم تتفرَّغ لذلك واشتغلتَ بغَيري، لَم أَسُدَّ فقرك، لأن الخَلْق فُقراء على الإطلاق فتزيد فقرًا على فقرك ، وهو المُراد بِقَوله : (ملأتُ يَدَيْك) إلخ ، ذكره الطيبي . قال العلائي : أمرَ اللهُ في هذا الخبر بالتَّفَرُّغ لعبادته ، ومِن جُملة ذلك أن لا يكون في القلب شاغل عن الإقبال على طاعته ، وقد صرَّح المُصطفى ﷺ في غَير ما خَبَر، بأن الفراغ مِن النِّعَم التي لا يليق إهمالها . قال ابن عطاء الله : فَرِّغْ قلبك مِن الأغيار يملأه من المعارف والأسرار ، ربما وَردتْ عليك الأنوار ، فوجدت القلبَ مَحْشُوًّا بصُوَر الآثار ، فارتحلتْ مِن حَيث نزلتْ . لا تستنبط منه النَّوال ، ولكن استنبط مِن نَفْسك وجود الإقبال . وقال : الخِذلان كُل الخِذلان أن تتفرَّغ مِن الشواغل ، ثُمَّ لا تتوجَّه إليه ، ويَقِل عوائقك ، ثُمَّ لا تَرحَل إليه)) .

١٥_ جَزاء العَمَل الحَسَن

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِم وَجَنَّاتٌ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها وَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِين ﴾ [آل عِمران : ١٣٦] . أجرُهم وثوابُهم العَفْو عن ذُنوبهم السابقة ، والتجاوز عَن سَيِّئاتهم ، وجَنَّات تَجْري خِلال أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها أبدًا ، ونِعْمَت الجَنَّة جَزَاءً للمؤمنين الطائعين . والإشارة بالبعيد لإظهار بُعد مَنزلتهم ، ورِفعة مكانتهم ، وعُلُوِّ درجتهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٤٣) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقوله : ﴿ أُولئكَ ﴾ الذين ذَكَرَ أنَّه أعَدَّ لهم الجَنَّة التي عَرْضها السَّماوات والأرض مِن المُتَّقين ، ووَصَفَهم بما وَصَفَهم به، ثُمَّ قال: هؤلاء الذين هذه صِفتهم ﴿ جَزَاؤُهُم ﴾ ، يعني : ثوابهم مِن أعمالهم التي وَصَفَهم تعالى ذِكْرُه أنَّهُم عَمِلُوها ﴿ مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِم ﴾ ، يقول : عَفْو لهم مِن الله عَن عُقوبتهم على ما سَلَفَ مِن ذُنُوبهم ، ولهم على ما أطاعوا اللهَ فِيه مِن أعمالهم بالحَسَن مِنها ﴿ وَجَنَّاتٌ ﴾ ، وهي البساتين ﴿ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ ﴾ ، يقول: تَجْري خِلال أشجارها الأنهارُ ، وفي أسافلها ، جَزَاءً لهم على صالح أعمالهم ، ﴿ خالدينَ فِيها ﴾ ، يعني : دَائِمي المُقَام في هذه الجَنَّات التي وَصَفَها ، ﴿ وَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِين ﴾ ، يعني : ونِعْمَ جَزاء العاملين لله الجَنَّات التي وَصَفَها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذينَ صَبَرُوا أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [النَّحْل: ٩٦] .

هذا قَسَمٌ إلهيٌّ عظيم مُؤَكَّد باللام ، أنَّ الله يُثيب الذين صَبروا على فِعل الطاعات ، وتركِ المعاصي ، ويُعطيهم الأجرَ الكامل على أحسن أعمالهم في الدُّنيا ، معَ التجاوز عن ذُنوبهم وسَيِّئاتهم . وهذا وعدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة يَوم القِيامة ، بمنح عباده المؤمنين الصابرين أفضل الجَزَاء على أفضل العمل. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٧٥) : ((أي : لَنَجْزِيَنَّهُم بسبب صَبرهم على ما نالهم مِن مَشَاق التَّكليف ، وجِهاد الكافرين ، والصَّبر على ما ينالهم مِنهُم من الإيذاء ، بأحسن ما كانوا يَعْمَلُون مِن الطاعات. قِيل: وإنَّما خَصَّ أحسن أعمالهم ، لأنَّ ما عَدَاه وهو الحَسَن مُبَاح، والجَزاء إنَّما يكون على الطاعة. وقِيل: المعنى : وَلَنَجْزِيَنَّهُم بجَزَاءٍ أشرف وأوفر مِن عَمَلهم)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ الصادقينَ بِصِدْقِهِم ﴾ [الأحزاب : ٢٤].

يُعطي اللهُ المؤمنين الذين صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيه ، الثوابَ العظيمَ، والدَّرَجَات العُليا، ويَجزيهم أحسنَ الجَزَاء يَوم القِيامة.وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٨٢): ((يقول : لِيُثَبِّتَ اللهُ أهلَ الصِّدْق بصِدْقهم اللهَ بما عاهدوه عَلَيه، ووفائهم له به)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٣٨):((﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصادقينَ بِصِدْقِهِم ﴾ ، أي: جَزَاء صِدْقهم ، وصِدْقهم هو الوفاء بالعَهْد)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّا كَذَلِكَ نَجْزي المُحْسِنِين ﴾ [الصَّافَّات : ٨٠] . يَجْزي اللهُ المؤمنين الذين أحْسَنُوا إلى أنفسهم بامتثال أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه ، أحسنَ الجَزَاء في الدُّنيا والآخرة ، حَيث يُبْقِي اللهُ عَلَيهم الثَّنَاءَ الحَسَنَ في الدُّنيا ، ويَمنحهم في الآخرة أعلى الدَّرَجَات في الجَنَّة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧) : ((أي : هكذا نَجْزي مَن أحسنَ مِن العِباد في طاعة الله تعالى ، ونَجعل له لِسان صِدْق ، يُذكَر به بَعْدَه ، بحَسَب مَرتبته في ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُم عِندَ رَبِّهِم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها أبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البَيِّنة : ٨] .

ثوابُ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات عِند الله يَوم القِيامة ، جَنَّات إقامة ، تَجْري مِن تحت قُصورها الأنهارُ، ماكثين فيها أبدًا، لا يَخرُجون مِنها، ولا يَمُوتون فِيها ، وهُم في نعيم دائم لا يَزُول، ولَذَّات مُستمرة لا تنقطع ، رضي اللهُ عنهم بما قدَّموا في الدُّنيا من العبادات والطاعات والأعمال الصالحة، ورضوا عنه بما أعطاهم مِن الخَيرات والكرامات ، ورِضَا الله أعظم وأعلى مِن نعيم الجَنَّة. ذلك الجزاء العظيم والثواب الحَسَن لِمَن خافَ اللهَ واتَّقاه، بفِعل الطاعات، والابتعاد عن المعاصي.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٩٧) : ((وقِيل : الرِّضَا يَنقسم إلى قِسْمَيْن : رِضَا به ، ورضا عَنه . فالرِّضا به : رَبًّا ومُدَبِّرًا ، والرِّضا عنه : فِيما يَقْضِي ويُقَدِّر . قال السُّدي رحمه الله : إذا كُنتَ لا تَرْضَى عن الله، فكيف تسأله الرِّضا عَنك ؟)) اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٦٧٣) : ((﴿ جَزَاؤُهُم عِندَ رَبِّهِم ﴾ ، أي : ثوابهم عِند خَالقهم بمُقَابَلة ما وَقَعَ مِنهُم مِن الإيمان والعمل الصالح ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ ﴾ والمُراد بجَنَّات عَدْن هي أوسط الجَنَّات وأفضلها. يُقال : عَدَنَ بالمَكان يَعْدِنُ عَدْنًا : أي أقام . ومَعْدِن الشَّيء : مَركزه ومُستقره ... . وقد قَدَّمْنا في غَير مَوضِع أنَّه إنْ أُريد بالجَنَّات الأشجار المُلتفة، فَجَرَيَان الأنهار مِن تَحتها ظاهر، وإنْ أُريد مجموع قَرار الأرض والشَّجر،فَجَرْي الأنهار مِن تحتها باعتبار جُزئها الظاهر ، وهو الشَّجَر ﴿ خالدينَ فِيها أبَدًا ﴾ ، لا يَخرُجون مِنها ، ولا يَظْعَنُون عَنها (لا يُغادرونها) ، بَل هُم دائمون في نَعيمها، مُستمرون في لَذَّاتها ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ ﴾ ، الجُمْلَة مُسْتَأنَفَة لبيان ما تَفَضَّلَ اللهُ به عليهم مِن الزِّيادة على مُجرَّد الجَزاء ، وهو رِضْوانه عَنهُم ، حيث أطاعوا أمْرَه ، وقَبِلُوا شرائعَه . ورِضَاهم عنه حيث بَلَغُوا مِن المَطَالِب ما لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ... ﴿ ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ، أي : ذلك الجَزَاء والرِّضوان لِمَن وَقَعَتْ مِنه الخَشية لله سُبحانَه في الدُّنيا ، وانتهى عن مَعَاصيه بسبب تِلك الخَشية التي وَقَعَتْ له ، لا مُجرَّد الخَشية مَعَ الانهماك في مَعَاصي الله سُبحانَه ، فإنَّها لَيست بخَشية على الحقيقة)) .

١٦_ جَزاء العَمَل السَّيئ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النِّساء : ١٢٣] .

إنَّ المؤمن والكافر كِلاهما مَجْزِيٌّ بعمله السُّوء _ عَاجِلًا أو آجِلًا _ ، ومُجَازَاةُ الكافر هي النار ، أمَّا مُجازَاةُ المُؤمن فهي مصائب الدُّنيا مثل الأمراض والمِحَن .

ومِن فَضْل الله على المؤمن أن يُعجِّل له العُقوبة في الدُّنيا . والمؤمنُ الذي يأتي بأعمال سَيِّئة يَوْمَ القِيامة ، هو تحت المشيئة الإلهية ، إنْ شاءَ اللهُ عذَّبه ، وإن شاءَ غَفَرَ له .

وهذه الآيةُ كانت شديدةً على المؤمنين لِمَا فيها من الوعيد العظيم، فقد أدْرَكوا أنهم سَيُجَازَوْنَ بكل أمرٍ ، صغيرًا كانَ أم كبيرًا . وبالتالي ، فالنَّجاةُ صَعبة للغاية ، والهلاكُ يَنتظرهم . وكما قِيل: لَيْسَ العَجَبُ مِمَّن هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ، بَل العَجَب مِمَّن نَجَا كَيْفَ نَجَا .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٣) عن أبي هُرَيرة قال: لَمَّا نزلتْ: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ بَلَغَتْ مِن المُسلمين مَبْلَغًا شديدًا ، فقال رسول الله ﷺ : ((قَارِبُوا وسَدِّدوا ، ففي كُلِّ ما يُصاب به المُسلم كَفَّارةٌ ، حتى النَّكْبةُ يُنْكَبُها ، أو الشَّوْكةُ يُشَاكُها)) .

قارِبُوا (اقْتَصِدُوا ولا تَغْلُوا ولا تُقصِّروا)، فخَيرُ الأمورِ الوسط،وسَدِّدوا (اقْصِدوا الصوابَ). وهذا الحديثُ يُشير إلى فضيلة مِن فضائل الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية . فالمُسلمُ إنْ حَدَثت له مُصيبة ، وصَبَرَ عليها ، فإن اللهَ يُكفِّر بِها ذَنْبًا مِن ذُنوبه . حتى الشَّوْكة إذا جَرحت المسلمَ ، فإنها تَكون كفَّارةً له مِن الذُّنوب . وهذا الأمرُ يدل على رحمة الله وفضله . وإنَّ مَن حُوسِب في الدُّنيا ، خَفَّ عنه الحسابُ في الآخِرة.وكلما ازدادت المصائبُ على الإنسان، وصَبَرَ عليها ابتغاءَ وَجْه الله، فإنَّه سيَخرج مِن الدُّنيا طاهرًا مُطَهَّرًا ، لا ذَنْبَ عليه ، ولا إثم .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٩٥) عن رواية أُخرى : ((قَوله : " فَسَدِّدُوا " أي : الْزَمُوا السَّداد، وهو الصَّواب ، مِن غَير إفراط ، ولا تفريط . قال أهل اللغة : السَّداد التَّوَسُّط في العمل. قَوله : " وقَارِبُوا " ، أي إنْ لم تَستطيعوا الأخذَ بالأكمل ، فاعملوا بما يُقَرِّب مِنه)) .

وعن أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللهُ عنه_ قال: قُلتُ يا رسول الله : كَيْفَ الصَّلاحُ بعد هذه الآية : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ؟، فكُلُّ سُوءٍ عَمِلْناه جُزينا به. قال: ((غَفَرَ اللهُ لكَ يا أبا بَكْر، _قاله ثلاثًا_، يا أبا بَكْر، أَلَسْتَ تَمرَض ؟، أَلَسْتَ تَحزَن ؟ ، أَلَسْتَ تَنْصَب _ يعني تَتعَب_ ؟، أَلَسْتَ تُصيبك اللأواء_يعني الشِّدة_؟))، قلتُ: نعم، قال:((فهو ما تُجْزَوْنَ به في الدُّنيا)) [٢٩١].

إنَّ المُسلم يُجَازَى بمَعَاصيه وأعماله السَّيئة في الدُّنيا بالمَصائب والكوارث ، حتى يَخرُج مِن الدُّنيا طاهرًا مِن الذُّنوب والآثام. والابتلاءُ الإلهيُّ للمُسلم في الدُّنيا، يُكفِّر ذُنُوبَه، ويَمْحُو خطاياه ، ويَحفَظ له آخِرته . ولا يَنال المُسْلِم شيء يُؤْلِمه ، إلا كفَّر اللهُ به عَنه مِن ذُنوبه وآثامه .

---

٢٩١ رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٨) برقم (٤٤٥٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الذينَ يَكْسِبُونَ الإثمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كانوا يَقْتَرِفُون ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. اتركوا المَعَاصي، قليلها وكثيرها، ظاهرها وباطنها ، سِرَّها وعلانيتها ، ما بالجوارح وما بالقلب ، إنَّ الذين يَرتكبون الذُّنُوبَ والمعاصي ، سَيَجِدُون في الآخِرة جَزَاءَ أعمالهم السَّيئة ، ويُعَاقَبُون عَلَيها ، ويُعذَّبون في النار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١١٣و ١١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ ، في الإثم هاهُنا ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه الزِّنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، فعلى هذا في ظاهره وباطنه قَولان: أحدهما أنَّ ظاهره الإعلان به ، وباطنه الاستسرار ، قاله الضَّحاك والسُّدي. قال الضَّحاك : وكانوا يَرَوْنَ الاستسرار بالزِّنا حلالًا . والثاني أنَّ ظاهره نِكاح المُحرَّمات كالأُمَّهات والبنات ، وما نَكَحَ الآباءُ ، وباطنه الزِّنا، قاله سعيد بن جُبَير. والثاني أنَّه عام في كل إثم والمعنى: ذَروا المعاصي سِرَّها وعلانيتها، وهذا مذهب أبي العالية ومجاهد وقتادة والزَّجاج.وقال ابن الأنباري: المعنى ذَرُوا الإثمَ مِن جَميع جِهاته . والثالث أن الإثم المَعصية إلا أن المُراد به هاهُنا أمر خاص، قال ابن زيد: ظاهره هاهُنا نزع أثوابهم ، إذْ كانوا يَطُوفُون بالبَيت عُراة، وباطنه الزِّنا)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، والإثمُ ما حَاكَ في صَدْرِك ، وكَرِهْتَ أن يَطَّلِعَ عَلَيه الناس)) .

هذا تعريفٌ نبويٌّ دقيق للإثم ، فهو ما تردَّدَ وتحرَّكَ في صَدر العبد ، ولم تطمئن النَّفْسُ إلى فِعْله ، وكَرِهَ أن يَعرفه العُظَماء والفُضَلاء ، والنَّفْسُ مَجبولة على محبة اطِّلاع الناس على خَيرها ونِقَاط قُوَّتها ، وكراهية اطِّلاعهم على شَرِّها ونِقَاط ضَعْفها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٦/ ١١١): ((ومَعنى:" حَاكَ في صَدْرِك "، أي: تَحَرَّكَ فيه وتَرَدَّدَ ، وَلَم يَنشرح له الصَّدْر، وَحَصَلَ في القَلب مِنه الشَّك، وخَوْف كَوْنه ذَنْبًا)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزي المُجْرِمين ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

إنَّ الذينَ جَحدوا آياتِ الله ، وأنكروها ، ورفضوا الإيمانَ بها عِنَادًا وغُرورًا وتكبُّرًا ، وترفَّعوا عن الانقياد لأحكامها ، لا تُفتَّح أبوابُ السماء لأرواحهم إذا خَرَجَتْ مِن أجسادهم، ولا يَصعَد لهم في حياتهم عمل إلى الله، لأنَّ أعمالهم سَيِّئة ، أي : لا يُقبَل لهم عمل ولا دُعاء ، والله يَقْبَل أعمالَ المؤمنين الصالحة ، ولا يَقبَل أعمال الكافرين الخبيثة ، ولا يَدْخُلون الجَنَّةَ حتى يَدخُل الجَمَلُ في ثُقب الإبرة ، وهذا تمثيلٌ للاستحالة،فَمِن المُستحيل أن يَدخُل الجَمَلُ الضَّخمُ في ثُقب الإبرة

الصغير،وكذلك مِن المُستحيل أن يَدخل الكُفَّارُ الجَنَّةَ . والمعنى أنَّهُم لا يَدخُلون الجَنَّةَ أبدًا ، لأنَّ الشَّيء إذا عُلِّقَ بأمر مُستحيل، دَلَّ ذلك على تأكيد المَنع . ومِثْل ذلك الجَزَاء الفظيع نَجْزي الكافرين الذين أجْرَمُوا بحقِّ أنفسهم، عندما اختاروا الكُفر على الإيمان ، أنَّهُم لا يَدخُلون الجَنَّةَ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩٦ و١٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿إنَّ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ﴾ ، أي: بحُجَجنا وأعلامنا التي تدل على تَوحيد الله ونُبُوَّةِ الأنبياء ، وتكبَّروا عن الإيمان بها ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ ﴾ ، ... . وفي معنى الكلام أربعة أقوال : أحدها لا تُفتَّح لأرواحهم أبواب السَّماء ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، وهو قول أبي موسى الأشعري والسُّدي في آخرين، والأحاديث تَشهَد به . والثاني لا تُفتَّح لأعمالهم ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث لا تُفتَّح لأعمالهم ولا لدُعائهم ، رواه عطاء عن ابن عباس . والرابع لا تُفتَّح لأرواحهم ولا لأعمالهم ، قاله ابن جُرَيج ومُقاتل . وفي السَّماء قَولان : أحدهما أنَّها السَّماء المعروفة، وهو المشهور . والثاني أنَّ المَعنى: لا تُفتَّح لهم أبواب الجَنَّة ولا يَدخُلونها ، لأن الجَنَّة في السَّماء، ذَكَرَه الزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزي مَن أسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَى ﴾ [طه : ١٢٧] . يَجْزي اللهُ الكافرين المُكذِّبين بآياته العظيمة في الدُّنيا والآخِرة أسوأ الجَزَاء ، ويُعاقبهم أشدَّ العِقاب ، وعذابُ الآخِرة أشد وجعًا وألمًا مِن عذاب الدُّنيا ، وأدْوَم وأثْبَت ، لأنَّه دائم لا يَنقطع ، ولا يَزُول ، فهُم خالدون في النار ، لا يَخرُجون مِنها ، ولا يَمُوتون فِيها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٢٥٨) : ((واللهُ تعالى لَم يَرْضَ الدُّنيا أهْلًا لعُقوبة أعدائه ،كما لَم يَرْضَها أهْلًا لمَثابة أحبابه)) .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٧٤) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وهكذا نَجْزي : أي نُثِيب مَن أسرفَ فعصى رَبَّه، ولم يُؤْمِن برُسُله وكُتُبه ، فَنَجعل له مَعيشةً ضَنْكًا في البَرْزَخ _ والضَّنْك الضَّيق_ ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَى ﴾ ، يَقول جَلَّ ثناؤه : وَلَعَذَابٌ في الآخرة أشد لهم مِمَّا وَعَدْتُهم في القَبْر مِن المَعيشة الضَّنْك وأبقى ، يَقول : وأدْوَم مِنها ، لأنَّه إلى غَير أمَد ، ولا نِهاية)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذينَ كَفروا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُم أسْوَأَ الذي كانوا يَعْمَلُون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٧]. سَوْفَ يُعذِّب اللهُ الكافرين الذينَ جَحدوا وَحدانيته ، وأنكروا نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، عذابًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا ، لا يُخفَّف ولا ينقطع ، وسيُجازيهم الله في الآخرة بِشَرِّ أعمالهم وأسوأ أفعالهم في الدُّنيا أقبحَ جَزَاء . وأسوأ الأعمال الشِّرْك . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٢) : ((﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذينَ كَفروا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ، وهذا وَعيد لجميع الكُفَّار ، ويَدخُل فيهم الذين

السِّياق معهم دُخولًا أوَّلِيًّا ، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُم أسْوَأَ الذي كانوا يَعْمَلُون ﴾ ، أي : وَلَنَجْزِيَنَّهُم في الآخِرة جَزَاءَ أقبح أعمالهم التي عَمِلُوها في الدُّنيا . قال مُقاتل : وهو الشِّرْك . وقِيل المعنى : أنَّه يُجازيهم بمَسَاوئ أعمالهم ، لا بمَحَاسنها ، كما يقع مِنهُم مِن صِلَة الأرحام ، وإكرام الضَّيف ، لأن ذلك باطل ، لا أجر له مَعَ كُفرهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أعْدَاءِ اللهِ النارُ لَهُم فِيها دَارُ الخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كانوا بآياتِنا يَجْحَدُون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٨]. ذلك العذابُ الشديد وأسوأ الجَزَاء، هُوَ جزاء الكافرين أعداء اللهِ ورسولِه ﷺ ، نار جَهَنَّم ، لهم فيها دار الإقامة ، التي لا انقطاع لها ، ولا انتقال عنها ، لا يَخرُجون مِنهُا أبدًا ، ولا يَمُوتون فيها ، بسبب إنكارهم لآيات الله التي احتجَّ بها عَلَيهم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٥) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : هذا الجَزَاء الذي يُجزَى به هؤلاء الذين كفروا مِن مُشركي قُرَيش جَزَاءُ أعداء الله ، ثُمَّ ابتدأ جَلَّ ثناؤه الخَبَرَ عَن صِفَة ذلك الجَزَاء، وما هُوَ ، فقال : هُوَ النار . فالنارُ بَيان عن الجَزَاء ، وترجمة عنه ، وهي مرفوعة بالرَّد عَلَيه، ثُمَّ قال : ﴿ لَهُم فِيها دَارُ الخُلْدِ ﴾ ، يعني : لهؤلاء المُشركين بالله في النار دَارُ الخُلْد، يعني: دار المُكْث واللُّبْث إلى غَير نِهاية ، ولا أمد . والدار التي أخبرَ جَلَّ ثناؤه أنَّها لهم في النار هي النار، وحَسُنَ ذلك لاختلاف اللفظَيْن ، كما يُقال لَك : مِن بَلَدتك دار صالحة ، ومِن الكُوفة دار كريمة ، والدار : هي الكُوفة والبَلدة ، فيَحسُن ذلك لاختلاف الألفاظ ... . وقَوله : ﴿ جَزَاءً بِمَا كانوا بآياتِنا يَجْحَدُون ﴾ ، يقول : فَعَلْنا هذا الذي فَعَلْنا بهؤلاءِ مِن مُجازاتنا إيَّاهم النار على فِعْلهم ، جَزَاءً مِنَّا بجُحُودهم في الدُّنيا بآياتنا التي احْتَجَجْنا بها عَلَيهم)) .

١٧_ تَفضيل الآخِرة على الدُّنيا

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الغُرورِ ﴾ [آل عِمران : ١٨٥] .

لَيْسَت الدُّنيا إلا دار فانية . وشَهَوَاتها ولَذَّاتها وزِينتها زائلة . وهذا يدلُّ على أنَّ الدُّنيا حقيرة وضيعة فانية، لَيس لها وَزن ولا قيمة. والحياةُ الدُّنيا وزخارفها وَهْمٌ قاتل، وخديعةٌ بصرية، لا حقيقة لها عِند التَّمحيص والاختبار. والشَّهَوَاتُ الدُّنيوية مَتاعٌ زائل ذاهب إلى الفَناء ، لكنَّ زخارف الدُّنيا تَغُرُّ الإنسانَ وتَخدَعه ، وتُمَنِّيه بطُول البَقَاء ، ولكن لا مجال للبَقَاء في دار الفَنَاء . ومعنى ﴿ مَتاعُ الغُرورِ ﴾ مُتعة يَتَمَتَّع بها العبدُ قليلًا ثُمَّ تَفنَى ، والدُّنيا تَخدَع مَن تَعَلَّقَ بها ، واستكانَ إلَيها .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٨٨) : ((﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الغُرورِ ﴾ ، أي : تَغُرُّ المُؤمن وتَخدَعه ، فيظن طُول البَقاء ، وهي فانية . والمَتاع ما يُتَمَتَّع به ويُنْتَفَع ، كالفأس والقِدْر

والقَصْعَة ، ثُمَّ يَزُول ، ولا يَبْقَى مِلْكُه ، قاله أكثر المُفسِّرين . قال الحَسَن : كخُضرة النبات ، ولُعَب البنات ، لا حاصل له . وقال قَتادة : هي مَتاع مَتروك تُوشِك أن تضمحل بأهلها ، فينبغي للإنسان أن يَأخذ مِن هذا المَتَاع بطاعة الله سُبحانَه ما استطاع)) .

هِيَ الدَّارُ دَارُ الأذى والقَذى وَدارُ الفَنَاءِ وَدَارُ الغِيَر
فَلَوْ نِلْتَها بحَذافيرها لَمِتَّ وَلَم تَقْضِ مِنهَا الوَطَر
أيا مَن يُؤَمِّلُ طُول الخُلود وطُولُ الخُلودِ عَليه ضَرَر
إذا أنتَ شِبْتَ وبانَ الشَّبابُ فلا خَيْرَ في العَيْشِ بَعْدَ الكِبَر

وعن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ في الجَنَّة لَخَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها . اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فمن زُحْزِح عن النار وأُدخِل الجنةَ فقد فاز وما الحياةُ الدنيا إلا مَتاعُ الغُرور ﴾)) [292].

إنَّ الجَنَّة باقية ، وفِيها الخُلود بلا مَوْت ، أمَّا الدُّنيا فزائلة مَهْمَا طالت . وَلَوْ كانت الآخرةُ مِن حديد ، والدُّنيا مِن ذَهَب ، لاختارَ العاقلُ الآخرةَ لأن الحديد الباقي خَيْرٌ من الذهب الفاني ، فَمَا بالك والجنةُ هي النعيم الأبديُّ ، والدُّنيا هي الوَهْم الفاني ؟!. وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٢٤٧) : (((مَوْضِع سَوْط في الجَنَّة) خُصَّ السَّوْط بالذِّكْر، لأنَّ مِن شأن الرَّاكب إذا أراد النُّزُولَ في مَنْزِلٍ أن يُلْقِيَ سَوْطَه قبل أن يَنزل مُعَلِّمًا بذلك المَكَان الذي يُريده لئلا يَسبقه إليه أحد (خَير مِن الدُّنيا وما فِيها) لأنَّ الجَنَّة مَعَ نَعيمها لا انقضاء لها ، والدُّنيا مَعَ ما فيها فانية ، وهذا في مَحَلِّ سَوْط ، فما الظنُّ بأعلى ما فيها ، وهو النَّظر إلى وَجْه الله الكريم الذي يُنسِي في لَذَّته كُل نعيم ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القِيامة])) .
وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وللدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للذينَ يَتَّقُونَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ [الأنعام : ٣٢] . الدُّنيا وَهْمٌ وباطل ، مُدَّتها قصيرة ، ومُتعتها زائلة . وجَعْلُ الدُّنيا نَفْس اللعب واللهو تشبيه بليغ ودقيق للمُبَالَغَة . والآخِرةُ التي تشتمل على النعيم الأبديِّ والمُتعة الدائمة واللذة المُستمرة ، خَيْرٌ للمؤمنين الذين يخافون اللهَ ويتَّقونه بامتثال أوامره واجتناب نَوَاهيه ، مِن الدُّنيا الفانية الزائلة ، أفلا تَعْقِلُون أنَّ الآخرة أعظم وأفضل مِن الدُّنيا ؟ . والاستفهام للتَّوبيخ .

---

٢٩٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) برقم (٣١٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٦ و٢٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها وما الحياة الدُّنيا في سُرعة انقطاعها وقِصَر عُمُرها إلا كالشَّيء يُلعَب به . والثاني وما أمرُ الدُّنيا والعمل لها ، إلا لَعِب ولَهْو ، فأمَّا فِعْل الخَير فهو مِن عَمَل الآخرة ، لا مِن الدُّنيا . والثالث وما أهلُ الحياة الدُّنيا إلا أهل لَعْب ولَهْو ، لاشتغالهم عمَّا أُمِرُوا به ، واللعب ما لا يُجْدي نفعًا . قَوله تعالى : ﴿ وللدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ ، اللام لام القَسَم ، والدَّار الآخِرة الجَنَّة ، أفلا يَعْقِلُون فيَعمَلون لها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بالحياةِ الدُّنيا وما الحياةُ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلا مَتَاعٌ ﴾ [الرَّعْد: ٢٦].

وَفَرِحَ الكافرون بما بُسِطَ لهم مِن الدُّنيا ، وما نالوه مِنها ، استدراجًا وإمهالًا لهم . وما الدُّنيا بالنِّسبة للآخرة إلا شيء تافه ومُتعة دنيئة زائلة . ومعنى ﴿ مَتَاعٌ ﴾ شيء قليل يُتَمَتَّع به ثُمَّ يَفنَى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٣٢٦): ((﴿ وَفَرِحُوا بالحياةِ الدُّنيا ﴾ . قال ابن عباس: يُريد مُشركي مَكَّة ، فَرِحُوا بما نالوا مِن الدُّنيا ، فَطَغَوْا ، وَكَذَّبوا الرُّسُلَ . قَوله تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا في الآخِرَةِ ﴾ ، أي : بالقِيَاس إلَيها ﴿ إلا مَتَاعٌ ﴾ ، أي : كالشَّيء الذي يُتَمَتَّع به ثُمَّ يَفنَى)).

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٣) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرة إلا مِثْلُ ما يَجعل أحَدُكم إصْبَعَه هذه _ وأشار يَحْيَى (أحد الرُّواة) بالسَّبابة_ في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرجِع ؟)).

القَسَمُ النبويُّ تأكيد للحُكم . إنَّ الدُّنيا الفانية لا تُساوي شيئًا بالمُقارنة مع الآخِرة الباقية . وَلَوْ أدخلَ العبدُ إصبعه في البحر ، لا يَعلَق بإصبعه سِوَى ماء قليل، والماءُ العالقُ بالإصبع يُمثِّل الدُّنيا، والبحر يُمثِّل الآخِرة، ولا مجال للمُقارنة بين الفَنَاء والبَقَاء . وهذا يدلُّ على تفاهة الدُّنيا وحقارتها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٧/ ١٩٢ و١٩٣):((ومعنى الحديث: ما الدُّنيا بالنِّسبة إلى الآخِرة ، في قِصَر مُدَّتها وفَنَاء لَذَّاتها ، ودَوام الآخِرة ودَوام لَذَّاتها ونعيمها ، إلا كنِسْبة الماء الذي يَعلَق بالإصبع إلى باقي البحر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ فأصبحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ ﴾ [الكَهْف : ٤٥]. واضْرِبْ يا مُحمَّد للناس مَثَلَ هذه الحياة الدُّنيا في حُسنها وسُرعة زوالها ، بماء (مطر) أنزله اللهُ من السماء ، فاختلطَ بالماء نباتُ الأرض، فالتفَّ، وتكاثفَ حتى خَالَطَ بعضُه بعضًا مِن كَثرته، فأصبح نباتُ الأرض يابسًا مُتَفَتِّتًا ، تُطيِّره الرِّياحُ وتُفَرِّقه في كُل الجِهَات . والمُراد : تَشبيه حال الدُّنيا في نضارتها وتبدُّل أحوالها وسُرعة زوالها وفَنَائها ، بحال النبات ، يَكون أخضرَ رائعًا ، ثُمَّ يُصبح يابسًا مُفَتَّتًا ، تُطيِّره الرِّياح ، كأن لَم يَكُنْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٥٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا ﴾ أي:صِفْ لهَؤلاء المُتكبِّرين الذين سألوك طَرْدَ فُقراء المؤمنين مَثَلَ الحَياة الدُّنيا،أي: شَبَهَهَا ﴿كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿ نَبَاتُ الأرضِ ﴾ حتى استوى، وقِيل: إنَّ النبات اختلطَ بعضُه ببعض حين نزل عليه الماء لأنَّ النبات إنما يَختلط ويَكثُر بالمطر... . وقالت الحُكَماء: إنَّما شَبَّهَ تعالى الدُّنيا بالماء، لأن الماء لا يَستقر في مَوضِع، كذلك الدُّنيا لا تَبقَى على واحد،ولأنَّ الماء لا يَستقيم على حالة واحدة كذلك الدُّنيا، ولأن الماء لا يَبقَى ويَذهب كذلك الدُّنيا تَفنَى،ولأنَّ الماء لا يَقْدِر أحد أن يَدخُله ولا يَبْتَل كذلك الدُّنيا لا يَسْلَم أحد دَخَلَها مِن فِتنتها وآفتها، ولأنَّ الماء إذا كان بقَدْر كان نافعًا مُنْبِتًا، وإذا جاوزَ المِقدارَ كان ضارًّا مُهْلِكًا وكذلك الدُّنيا، الكَفَاف مِنها يَنفَع ، وفُضولها يَضُرُّ ... ﴿ فأصبحَ ﴾ ، أي: النبات ﴿ هَشِيمًا ﴾ ، أي:مُتَكَسِّرًا مِن اليَبَس مُتَفَتِّتًا ، يعني بانقطاع الماء عَنه، فحذف ذلك إيجازًا لدَلالة الكلام عَلَيه... ﴿ تَذْرُوهُ الرِّياحُ ﴾ ، أي: تُفَرِّقه ، قاله أبو عُبَيدة.ابن قُتَيبة: تَنسِفه. ابن كَيسان: تَذهَب به وتجيء. ابن عباس : تُديره، والمعنى مُتقارب)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا وَزِينَتُهَا وما عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبْقَى أفلا تَعْقِلُون ﴾ [القَصَص : ٦٠] . وما أُعطيتم أيها الناس مِن أموال وأولاد ، فهو مَتاع قليل ، تتمتَّعون به لفترة قصيرة ، ثُمَّ يَزول ويَفنَى . وما عند الله للمؤمنين الطائعين مِن الأجر والثواب والنعيم الباقي في الآخِرة (الجَنَّة) أفضل مِن مَتَاع الدُّنيا الفاني . أفلا تَعْقِلُون أن الباقي الدائم أعظم مِن الفاني الزائل؟. وهذا استفهام للتوبيخ . والآيةُ تشتمل على تَحقير لشأن الدُّنيا الدنيئة الزائلة،ومَهما جَمَعَ الإنسانُ مِنها، فينبغي ألا يَغْتَرَّ بها، لأنَّها دار فانية، نعيمها زائل،وزينتها وهمية.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٥٨) : ((﴿ وما أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا وَزِينَتُهَا ﴾ ، الخِطاب لكُفَّار مَكَّة ، أي : وما أُعطيتم مِن شَيء مِن الأشياء ، فهو مَتَاع الحَياة الدُّنيا، تتمتَّعون به مُدَّة حياتكم ، أوْ بَعض حياتكم ، ثُمَّ تَزُولون عنه ، أو يَزُول عَنكُم . وعلى كُل حال فذلك إلى فَنَاء وانقضاء ، ﴿ وما عِندَ اللهِ ﴾ مِن ثَوَابه وجَزَائه ﴿ خَيْرٌ ﴾ مِن ذلك الزَّائل الفاني، لأنَّه لَذَّة خالصة عَن شَوْب الكَدَر ﴿ وأبْقَى ﴾ لأنَّه يَدُوم أبدًا ، وهذا يَنقضي بسُرعة ، ﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾ أنَّ الباقي أفضل مِن الفاني ، وما فِيه لَذَّة خالصة غَير مَشُوبة أفضل مِن اللذات المَشُوبة بالكَدَر المُنَغَّصَة بعوارض البَدَن والقلب)) اهـ. وقال الرازي في التفسير الكبير(٢٥/ ٢٦): ((بيَّن تعالى أنَّ منافع الدنيا مَشُوبة بالمَضَار ، بَل المَضَار فيها أكثر ، ومنافع الآخرة غَير مُنقطعة ، بَينما منافع الدُّنيا مُنقطعة ، ومتى قُوبل المُتناهي بغَير المُتناهي ،كان عَدَمًا ، فكيف ونصيب كُل أحد من الدنيا

كالذَّرَّة بالقِياس إلى البحر ، فَمَن لم يُرجِّح منافعَ الآخرة على منافع الدُّنيا ، يَكُون كأنه خارج عَن حَد العقل)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾ [القَصَص : ٧٧]. واطْلُبْ فِيما أعطاكَ اللهُ مِن الأموال والنِّعَم رضا الله، ونَيْلَ جَنَّته في الآخرة ، وذلك بالإنفاق في سبيل الله ، والتَّصَدُّق على الفقراء ، وصِلَة الأرحام ، ومُساعدة الناس ، بعيدًا عن التجبُّر والتكبُّر والطُّغيان ، ولا تُضيِّع حَظَّكَ مِن دُنياك بالاستمتاع بالحلال وطَلَبه ، وخُذ ما يَكفيك مِنها ويُصلِحك مِن أجل آخرتك . والدُّنيا هي مزرعة الآخرة ، ومَن لَم يَزرَع ، لَم يَحصُد . كما أنَّ الدُّنيا دار مَمَر ، والآخِرة دار مَقَر ، ولا يُمكن إصلاح المَقَر إلا بإصلاح المَمَر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٩): ((وقَوله: ﴿وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾ ، أي: اسْتَعْمِلْ ما وَهَبَكَ اللهُ مِن هذا المال الجَزيل، والنِّعمة الطائلة، في طاعة رَبِّك، والتَّقَرُّب إلَيه بأنواع القُرُبات التي يَحصُل لك بها الثواب في الدُّنيا والآخِرة ﴿ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾ ، أي: مِمَّا أباحَ اللهُ فيها مِن المَآكِل والمَشَارِب والمَلابِس والمَسَاكِن والمَنَاكِح فإنَّ لِرَبِّكَ عَلَيك حَقًّا ، ولنَفْسك عَلَيك حَقًّا، ولأهلك عَلَيك حَقًّا ، فآتِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٤١): ((﴿ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن يَعمَل في الدُّنيا للآخِرة ، قاله ابن عباس ومُجاهد والجُمهور . والثاني أن يُقَدِّم الفَضْلَ ، ويُمسِك ما يُغنيه ، قاله الحسن. والثالث أن يَسْتَغْنِيَ بالحَلال عَن الحَرام ، قاله قَتادة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما هَٰذِهِ الحياةُ الدُّنيا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ [العنكبوت : ٦٤] . إنَّ الدُّنيا وَهْمٌ وباطل وغُرور ، يستمر لمُدَّة قليلة ، ثُمَّ ينقضي ويَفنى ويَزُول . وصَدَقَ القائل : الدُّنيا إنْ بَقِيَتْ لَكَ ، لَم تَبْقَ لها . والجَنَّة هي دار الحياة الدائمة الحقيقية ، التي لا مَوت فيها ، ولا زوال لها ، ولا مُشكلات تَشُوبها ، كما يَشُوب الحياةَ الدُّنيا ، وَلَوْ عَلِمُوا لاختاروا الباقي على الفاني ، ولكنهم لا يَعلَمون ، بسبب جَهلهم وغُرورهم وعِنادهم وقِصَر نَظَرهم وانهماكهم في الشَّهَوَات . وسُمِّيَتْ الدُّنيا لَهْوًا وَلَعِبًا ، لأنَّها فانية وزائلة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٠١) : ((أشارَ سُبحانَه إلى تَحقير الدُّنيا ، وأنَّها مِن جِنس اللعب واللهو ، وأنَّ الدار على الحقيقة هي دار الآخِرة ، فقال : ﴿ وما هَٰذِهِ الحياةُ الدُّنيا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ ، مِن جِنس ما يَلهُو به الصِّبيان ، ويَلعَبون به ، ﴿ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ ، قال ابن قُتَيبة وأبو عُبَيدة: إنَّ الحَيَوَان الحَيَاة . قال الواحدي : وهو قَول جميع المُفسِّرين ، ذَهبوا إلى أن معنى الحَيَوَان هَهُنا الحياة ، وأنَّه مَصدَر بمَنزلة الحياة ... ويكون التقدير : وإنَّ الدار

الآخِرة لَهِيَ دار الحَيَوَان ، أوْ ذات الحَيَوَان ، أي : دار الحياة الباقية ، التي لا تزول، ولا يُنغِّصها مَوت ، ولا مَرَض ، ولا هَم ، ولا غَم ، ﴿ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ شيئًا مِن العِلْم لَمَا آثَرُوا عَلَيها الدار الفانية المُنَغَّصَة)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ﴾ [لُقمان : ٣٣] .

فلا تَخْدَعَنَّكُم زينة الحياة الدُّنيا وفِتنتها وزخارفها ولَذَّاتها وشَهَواتها،فتميلوا إلَيها،وتتمسَّكوا بها، وتتوكَّلوا عليها ، وتَتركوا العملَ للآخِرة ، فإنَّ الدُّنيا فانية وزائلة ، والآخرة دائمة وباقية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٢٩): ((﴿ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ﴾ بزينتها عن الإسلام ، والتَّزَوُّدِ للآخرةِ)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكَاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وما الحياةُ الدُّنيا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

هذا تَحقير لأمر الدُّنيا، وتقليل مِن شأنها.اعْلَمُوا أيُّها الناسُ أنَّ هذه الحياة الدُّنيا لَعِب كَلَعِب الصِّبيان ، وباطل لا حاصل له ، وشُغل عن طاعة الله وعبادته ، وشَيء تافه يُتَلَهَّى به ثُمَّ يَذهَب ، وزينة وهمية عابرة كالملابس الأنيقة والمراكب الجميلة والبيوت الفخمة ، وافتخار بالأحساب والأنساب والأشكال (الخِلْقَة) والقُوَّة ، ومُباهاة بكثرة الأموال والأولاد ، كَمَثَل مطر غزير ، أعجبَ الزُّرَّاعَ نباتُه الناتج عنه ، ثُمَّ يَجِفُّ بعد خُضرته ، فيصير أصفر ذابلًا بعد أن كان ناضرًا ، ثُمَّ يتحطَّم ويتكسَّر بسبب يَبَسه وجَفَافه ، وتُطيِّره الرِّياح ، كذلك حال الدُّنيا . وفي الآخرة يَكون جزاءُ الكافرين العذابَ الأليم المُوجِع ، وجَزاء المؤمنين المغفرة والرِّضوان . ولَيست الدُّنيا في تفاهتها وسُرعة فَنائها إلا مَتاع زائل ، يَنخدع به الجاهلُ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢١٧) : ((اعْلَمُوا أنَّ الحياة الدُّنيا لَعِب باطل ولَهْو فَرَح ثُمَّ يَنقضي. وقال قَتادة: لَعِبٌ وَلَهْو: أَكْل وشُرْب. وقِيل: إنَّه على المعهود مِن اسمه. قال مجاهد : كُل لَعِب لَهْو. وقِيل: اللعب ما رَغَّبَ في الدُّنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخِرة، أي: شَغَلَ عَنها. وقِيل: اللعب الاقتناء، واللهو النِّساء، ﴿ وزينةٌ ﴾ الزِّينة ما يُتَزَيَّن به،فالكافر يتزيَّن بالدُّنيا،ولا يَعمَل للآخرة ، وكذلك مَن تَزَيَّن في غَير طاعة الله ، ﴿ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم ﴾ ، أي : يَفخَر بعضُكم على بعض بها ، وقِيل : بالخِلْقة والقُوَّة ، وقِيل : بالأنساب على عادة العرب في المُفَاخَرَة بالآباء ... ، ﴿ وتَكَاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ﴾ ، لأنَّ عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثُر المؤمنين

بالإيمان والطاعة . قال بعضُ المُتأخِّرين : لَعِبٌ كَلَعِب الصِّبيان ، ولَهْو كَلَهْو الفِتيان ، وزِينة كزِينة النِّسوان ، وتفاخُر كتفاخُر الأقران ، وتكاثُر كتكاثُر الدِّهقان (التاجر). وقِيل: المعنى أنَّ الدُّنيا كهذه الأشياء في الزَّوَال والفَنَاء ... ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تعالى لها مَثَلًا بالزَّرْع في غَيث ، فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ ، أي: مَطَر ﴿ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكُفَّار هُنا: الزُّرَّاع لأنَّهُم يُغَطُّون البَذْر، والمعنى أن الحياة الدُّنيا كالزَّرْع يُعجِب الناظرين إليه لخُضرته بكثرة الأمطار، ثُمَّ لا يَلبَث أن يصير هشيمًا كأن لَم يكن، وإذا أعجبَ الزُّراعَ فهو غاية ما يُستَحْسَن . وقِيل : الكُفَّار هُنا الكافرون بالله عَزَّ وَجَلَّ لأنَّهُم أشد إعجابًا بزينة الدُّنيا مِن المؤمنين،وهذا قَول حَسَن،فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ومِنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدُّنيا وما فيها،وفي المُوحِّدين مِن ذلك فُروع تَحدُث مِن شَهَوَاتهم وتتقلَّل عِندهم وتَدِق إذا ذَكروا الآخرةَ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أن يَجِفَّ بَعد خُضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ، أي: مُتَغَيِّرًا عمَّا كان عَلَيه مِن النَّضْرة ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ ، أي: فُتَاتًا وتِبْنًا، فيَذهب بعد حُسنه كذلك الكافر، ﴿ وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ،أي: للكافرين، والوَقْف عَلَيه حَسَن، ويَبتدِئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ ، أي : للمُؤمنين . وقال الفَرَّاء : ﴿ وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ تقديره : إمَّا عذاب شديد ، وإمَّا مغفرة، فلا يُوقَف على ﴿ شَدِيدٌ ﴾ ، ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ ، هذا تأكيد ما سَبَقَ ، أي : تَغُرُّ الكُفَّارَ، فأمَّا المُؤمن، فالدُّنيا له مَتَاع بَلاغ إلى الجَنَّة، وقِيل : العمل للحياة الدُّنيا مَتاع الغُرُور ، تَزهيدًا في العمل للدُّنيا، وتَرغيبًا في العمل للآخرة)) .

وعن عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ أنَّه بَلَغَه أنَّ أبا عُبَيْدة حُصِرَ بالشَّام، وقد تَألَّبَ عَلَيه القَوْمُ ، فكتب إليه عُمر : سلامٌ عَلَيك ، أمَّا بَعْد ، فإنَّه ما يَنزِل بعبدٍ مؤمنٍ مِن مَنزلةِ شِدَّة ، إلا يَجعل اللهُ له بَعْدَها فَرَجًا ، وَلَن يَغلِب عُسْرٌ يُسْرَيْن ، و ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون ﴾ [آل عِمران : ٢٠٠]. قال : فَكَتَبَ إلَيه أبو عُبَيدة : سَلامٌ عَلَيْكَ ، وأمَّا بَعْد ، فإنَّ الله يقول في كِتابه : ﴿ اعْلَمُوا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينةٌ وتَفاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكَاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ ﴾ إلى آخِرها. قال: فَخَرَجَ عُمر بكِتابه، فَقَعَدَ على المِنْبَر، فَقَرَأَ على أهل المدينة ثُمَّ قال : يا أهلَ المدينة ، إنَّما يُعرِّض بِكُم أبو عُبَيدة أن ارْغَبُوا في الجِهاد [٢٩٣].

لقد ذَكَرَ أبو عُبَيدة _ رضي اللهُ عنه _ هذه الآية لتشجيع أهل المدينة على تَرك الدُّنيا الفانية ، وعدم التَّمَسُّك بشَهَوَاتها الباطلة وزخارفها الزائلة ، والانطلاق إلى الجِهَاد لإعلاء كلمة الله ، وبَذل

---

٢٩٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٩) برقم (٣١٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الأرواح في سبيله، مِن أجل الحصول على نعيم الجَنَّة الباقي ، والعاقلُ يُفَضِّل الباقي على الفاني .
وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القِيامة] .

إنَّ الكافرين يُحِبُّون الحياةَ الدُّنيا وشَهَوَاتها ولَذَّاتها ، ويَتركون الدارَ الآخِرَةَ ، ولا يَعْمَلُون لها. وتفضيلهم للدُّنيا الفانية على الآخرة الباقية يدل على قِصَر نَظَرهم، وغرقهم في الشَّهَوَات والأوهام.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٧٧) : ((وقَوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) ﴾ ، أي : إنَّما يَحْمِلُهم على التَّكذيب بيَوم القيامة ، ومُخَالَفَة ما أنزله اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على رسوله ﷺ مِن الوَحْي الحَق، والقُرآن العظيم ، أنَّهُم إنَّما هِمَّتُهم إلى الدَّار الدُّنيا العاجلة، وهُم لاهون مُتشاغلون عن الآخِرة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا ﴾ [الأعلى : ١٦] . بَل تُفَضِّلون أيُّها الناسُ الدُّنيا الفانية على الآخِرة الباقية ، التي فيها النعيم الدائم والسعادة الأبدية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٩٢) : ((فإنْ أُريد بذلك الكُفَّار ، فالمعنى أنَّهُم يُؤْثِرُون الدُّنيا على الآخِرة ، لأنَّهُم لا يؤمنون بها ، وإنْ أُريد به المُسلمون ، فالمَعنى: يُؤْثِرُون الاستكثار مِن الدُّنيا على الاستحسان مِن الثَّوَاب . قال ابن مسعود : إنَّ الدُّنيا عُجِّلَتْ لنا ، وإنَّ الآخِرة نُعِتَتْ لنا ، وزُوِيَتْ عَنَّا ، فأخَذْنا بالعَاجِل ، وتركنا الآجِلَ)) .

وعن عبد الله قرأ هذه الآية : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا ﴾ ، فقال : ((هَل تَدْري بأيِّ شَيء ابتدأ الحياةَ الدُّنيا ؟ ، لأيِّ شيء آثَرَ بالحياة الدُّنيا ؟ ، عُجِّلَتْ لَنا الدُّنيا ، وأُوتينا لَذَّتها وبَهجتها ، وغُيِّبَتْ عَنَّا الآخِرة ، وزُوِيَتْ عَنَّا ، فأجَبْنا العَاجِلَ ، وتركنا الآجِلَ)) [٢٩٤].

هذا تَوضيح منطقي ودقيق من الصحابيِّ عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ لسبب تفضيل الدُّنيا الفانية على الآخرة الباقية . وذلك أنَّ الدُّنيا ماثلة أمام الناس ، يُشاهدونها بأُمِّ أعينهم ، بكل زينتها وشَهَوَاتها ولَذَّاتها، حيث يأكل الإنسانُ الطعامَ الشَّهِيَّ ، ويَشرب الشرابَ اللذيذ ، ويَميل إلى النِّساء بشَهوته الغريزية ، ويرى البهجة والجَمَال والحُسن والتَّقَدُّم وآثار المدنية والحضارة في هذا العَالَم . في حِين أنَّ الآخِرة غُيِّبَتْ وأُخْفِيَتْ عَن الناس، وهُم لا يُشاهدونها، ولَيست ماثلة أمامهم بنعيمها الدائم ولَذَّاتها المُستمرة وشَهَوَاتها الباقية . لذلك ، فَضَّلُوا الدُّنيا الفانية وشَهَوَاتِها الزائلة

٢٩٤ رواه الطبراني في المعجم الكبير(٩/ ٢٣٤). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٨): ((رواه الطبراني وفيه عطاء بن السائب ، وقد اختلط ، وبقية رجاله ثِقات)) .

على الآخرة الباقية ونعيمها الدائم . أي إنَّهُم فضَّلوا عَالَمَ الشَّهادة عَلى عَالَم الغَيب. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والآخِرَةُ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٧] .

والدَّارُ الآخِرةُ (الجَنَّة) الباقية الدائمة أعظم وأفضل وأدْوَم مِن الدُّنيا الفانية الزائلة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٤٦) : ((﴿ والآخِرَةُ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ ، أي: ثَوَاب الله في الدار الآخرة خَير مِن الدُّنيا وأبقى ، فإنَّ الدُّنيا دَنِيَّة فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يُؤْثِر عاقل ما يَفنَى على ما يَبْقَى ، ويَهتَم بما يَزُول عنه قريبًا ، ويَترك الاهتمام بدار البَقاء والخُلْد)) .

وقال الغَزَّالي في الإحياء (٣/ ٢٠٧ و٢٠٨) : ((قال الفُضَيل : لَوْ كانت الدُّنيا مِن ذَهَب يَفنَى ، والآخِرة مِن خَزَف يَبْقَى ، لكانَ ينبغي لنا أن نختار خَزَفًا يَبقَى على ذَهَب يَفنَى، فكيف وقد اخترنا خَزَفًا يَفنَى على ذَهَب يَبقَى . وقال أبو حازم : إيَّاكم والدُّنيا ، فإنَّه بَلَغَني أنَّه يُوقَف العَبد يَوم القِيامة إذا كان مُعَظِّمًا الدُّنيا ، فيُقال : هذا عَظَّمَ ما حَقَّرَه اللهُ . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد مِن الناس إلا وهو ضَيف ، وماله عَارِيَّة ، فالضَّيف مُرْتَحِل ، والعَارِيَّة مَردُودة . وفي ذلك قِيل :

وما المَالُ والأهْلُون إلا ودائع ... ولا بُدَّ يَوْمًا أن تُرَدَّ الوَدائع

وزار رابعة أصحابُها فَذَكَرُوا الدُّنيا،فأقْبَلُوا على ذَمِّها، فقالت: اسْكُتوا عَن ذِكْرِها، فَلَوْلا مَوقِعها مِن قُلوبكم ما أكثرتم مِن ذِكْرِها،ألا مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ مِن ذِكْره.وقِيل لإبراهيم بن أدهم:كيف أنتَ؟ فقال : نُرَقِّعُ دُنيانا بتَمزيق دِينِنا ... فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرَقِّعُ

فطُوبَى لعَبْدٍ آثرَ اللهَ رَبَّهُ ... وجادَ بدُنياه لِمَا يَتَوَقَّعُ

وقِيل أيضًا في ذلك : أرى طالبَ الدُّنيا وإنْ طَالَ عُمُرُه ... ونَالَ مِن الدُّنيا سُرورًا وأنعُمَا

كَبَانٍ بَنَى بُنْيَانَهُ فأقامه ... فلمَّا استوى ما قد بناه تَهَدَّمَا

وقِيل أيضًا في ذلك : هَب الدُّنيا تُسَاقُ إلَيْكَ عَفْوًا ... ألَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إلى انتقالِ

وما دُنياكَ إلا مِثْلُ فَيْءٍ ... أظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بالزَّوَالِ

وقال لُقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، بِعْ دُنياكَ بآخرتك تَرْبَحْهما جميعًا ، ولا تَبعْ آخرتك بدُنياك تَخْسَرْهما جميعًا . وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير : لا تَنظُر إلى خَفْض عَيش المُلوك ولِين رِيَاشهم ، ولكن انظُر إلى سُرعة ظَعْنهم، وسُوء مُنقَلَبهم. وقال ابن عباس:إنَّ الله تعالى جَعَلَ الدُّنيا ثلاثة أجزاء: جُزء للمُؤمن ، وجُزء للمُنافق ، وجُزء للكافر ، فالمؤمن يتزوَّد ، والمُنافق يَتزَيَّن ، والكافر يتمتَّع . وقال بعضُهم : الدُّنيا جِيفة ، فَمَن أرادَ مِنها شيئًا فليصبر على مُعَاشَرة الكِلاب . وفي ذلك قِيل :

يا خَاطِبَ الدُّنيا إلى نَفْسها ... تَنَحَّ عَن خِطبتها تَسْلَمِ

إنَّ التي تَخطُب غَدَّارَةٌ قَرِيبَةُ العُرْسِ مِنَ المَأتَمِ

وقال أبو الدَّرداء : مِن هَوَان الدُّنيا على الله أنَّه لا يُعصَى إلا فِيها ، ولا يُنال ما عِنده إلا بتَركها .

وفي ذلك قِيل : إذا امتحنَ الدُّنيا لَبِيبٌ تكشَّفتْ له عَن عَدُوٍّ في ثِيَابِ صَدِيقِ

وقِيل أيضًا : يا رَاقِدَ الليل مَسرورًا بأوَّله إنَّ الحوادث قد يَطْرُقْنَ أسحارا

أفنى القُرُونَ التي كانت مُنَعَّمَةً كَرُّ الجَدِيدَيْنِ إقبالًا وإدبارا

كَم قَد أبادتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِن مَلِكٍ قد كان في الدَّهْرِ نَفَّاعًا وضَرَّارا

يا مَن يُعَانِقُ دُنيا لا بَقَاءَ لها يُمسِي ويُصبِح في دُنياه سَفَّارا

هَلَّا تَرَكْتَ مِن الدُّنيا مُعَانَقَةً حَتَّى تُعَانِقَ في الفِرْدَوْسِ أبْكَارا

إنْ كُنتَ تَبْغي جِنَانَ الخُلْدِ تَسْكُنُها فيَنبغي لَكَ أن لا تَأمَنَ النارا)).

وعن عائشة قالت : قال رسولُ الله ﷺ : ((الدُّنيا دَارُ مَن لا دَارَ له ، ومالُ مَن لا مَالَ له ، ولها يَجمَع مَن لا عَقْلَ له)) [٢٩٥]. الدُّنيا فانية وزائلة ، لا يتمسَّك بها إلا مَن لا دار له ولا مال، ولَيس له نصيب في الجَنَّة بعد المَوت . وللدُّنيا يَجمَع الغبيُّ الجاهل ، لأنَّ ما يَجمَعه زائل لا يَدُوم.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٥٤٥) : (((الدنيا دار مَن لا دار له) قال الطيبي : لمَّا كان القَصْد الأول مِن الدَّار الإقامة مع عَيش هنيء أبدي ، والدُّنيا بخِلافه،لَم تستحق أن تُسمَّى دارًا، فمَن داره الدُّنيا، فلا دار له ... . قال عِيسى ﷺ : مَن ذا الذي يَبني على المَوج دارًا،تِلْكُم الدَّار فلا تتَّخذوها قَرَارًا . (ومال مَن لا مال له) لأنَّ القَصْد مِن المال الإنفاق في وُجوه القُرب ، فمَن أتلفه في شَهَوَاته واستيفاء لَذَّاته، فحقيق بأن يُقَال: لا مال له ﴿وما الحياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الغُرورِ ﴾ ، ولذلك قَدَّمَ الظَّرْفَ على عامله في قَوله (ولها يَجمَع مَن لا عقل له) لغَفْلته عمَّا يَهُمُّه في الآخرة، ويُراد مِنه في الدُّنيا ، والعاقل إنَّما يجمع للدَّار الآخِرة . ... . وأنشدَ ابن أبي الدُّنيا :

يا فُرقة الأحباب لا بُدَّ لي مِنكِ ويا دَارَ دُنيا إنَّني راحلٌ عَنكِ

ويا قِصَرَ الأيامِ ما لي وللمُنى ويا سَكَرَاتِ المَوْتِ ما لي وللضَّحِكِ

وما لي لا أبْكِي لنَفْسِي بِعَبْرَةٍ إذا كُنتُ لا أبْكِي لِنَفْسي فَمَن يَبْكي

ألا أيُّ حَيٍّ لَيْسَ بالمَوتِ مُوقِنًا وأيُّ يَقِينٍ مِنهُ أشبه بالشَّكِّ)) .

---

٢٩٥ رواه البَيهقي في شُعَب الإيمان (٧/ ٣٧٥). وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٥٤٥): ((قال المنذري والحافظ العراقي: إسناده جَيِّد. وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح غير دَوِيل وهو ثقة)).

وعن أبي موسى الأشعريِّ _ رضي اللهُ عنه _ : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((مَن أحَبَّ دُنياه أضَرَّ بآخِرته ، ومَن أحَبَّ آخِرته أضَرَّ بدُنياه ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى)) [٢٩٦].

الدُّنيا والآخِرة ضِدَّان لا يَجتمعان ، ونقيضان لا يَلتقيان . ومَن أحبَّ دُنياه ، وسَيطرت على قلبه وأفعاله ، أضاعَ آخرته . ومَن أحبَّ آخِرته ، وأقبلَ على العبادة والطاعة ، تَرَكَ التَّعَلُّق بشَهَوَات الدُّنيا الباطلة . لذلك يجب على العاقل أن يُفَضِّل نعيم الآخرة الباقي على حُطَام الدُّنيا الفاني .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣١) : (((مَن أحَبَّ دُنياه أضَرَّ بآخِرته) لأنَّ مَن أحبَّ دُنياه ، عَمِلَ في كَسْب شَهْوتها ، وأكبَّ على مَعَاصيه ، فلم يتفرَّغ لعمل الآخِرة ، فأضرَّ بنَفْسه في آخِرته ، ومَن نظر إلى فَنَاء الدُّنيا ، وحِساب حَلالها ، وعَذاب حَرَامها ، وشاهَدَ بنُور إيمانه جَمَالَ الآخِرة ، أضَرَّ بنَفْسه في دُنياه ، بحَمْل مَشَقَّة العِبادات ، وتجنُّب الشَّهَوَات ، فَصَبَرَ قليلًا ، وتَنَعَّمَ طويلًا ، ولأنَّ مَن أحبَّ دُنياه شَغَلَتْهُ عَن تفريغ قلبه لحُبِّ رَبِّه ، ولِسانه لذِكْره ، فتضر آخرته ولا بُد، كما أن مَحَبَّة الآخرة تضرُّ بالدُّنيا ولا بُد ، كما قال (وَمَن أحَبَّ آخِرته أضرَّ بدُنياه) أي : هُما كَكِفَّتَي المِيزان ، فإذا رَجحت إحدى الكِفَّتَيْن خَفَّت الأُخرى ، وعَكْسه . وهُما كالمشرق والمغرب ومُحال أن يَظفَر سالك طريق الشرق بما يوجد في الغرب ، وهُما كالضَّرَّتَيْن، إذا أرْضَيْتَ إحداهما أسْخَطْتَ الأُخرى، فالجمع بين كمال الاستئصال في الدُّنيا والدِّين، لا يَكاد يَقع إلا لِمَن سَخَّرَه اللهُ لتَدبير خَلْقه في مَعَاشهم ومَعَادهم، وهُم الأنبياء ، أمَّا غَيْرُهم فإذا شُغِلَت قلوبُهم بالدُّنيا انصرفت عن الآخِرة ، وذلك أنَّ حُب الدُّنيا سَبَب لشُغله بها ، والانهماك فيها ، وهو سبب للشُّغل عَن الآخرة ، فتَخلو عن الطاعة ، فيَفُوت الفَوز بدَرَجَاتها وهو عَين المَضَرَّة ... (فآثِرُوا ما يَبقَى على ما يَفنَى) ومَن أحَبَّها صَيَّرَها غايته ، وتَوَسَّلَ إلَيها بالأعمال التي جعلها اللهُ وسائل إليه وإلى الآخرة ، فَعَكَسَ الأمرَ ، وقَلَبَ الحِكمة ، فانتكسَ قَلْبُه ، وانعكسَ سِرُّه إلى وراء ، فقد جَعل الوسيلةَ غايةً والتَّوَسُّل بعمل الآخرة بالدُّنيا،وهذا سِر مَعكوس مِن كُل وجه وقلب ، مَنكوس غاية الانتكاس . وقَد ذَمَّ اللهُ مَن يُحِبُّ الدُّنيا ويُؤْثِرُها على الآخِرة بقَوله: ﴿تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ(٢٠)وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) ﴾ . وذَمُّ حُبِّها يَستلزم مَدْحَ بُغْضها . وقال عليٌّ : الدُّنيا والآخِرة كالمشرق والمغرب ، إذا قَرُبْتَ مِن إحداهما ، بَعُدْتَ عن الأُخرى)) .

---

٢٩٦ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) برقم (٧٨٩٧) وصحَّحه . وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣١) : ((ردَّه الذهبي وقال : فيه انقطاع. اهـ . وقال المنذري والهيثمي : رجال أحمد ثِقات)) .

١٨_ فِتنة الأموال والأولاد

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنةٌ وأنَّ اللهَ عِندَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٢٨].

واعْلَمُوا أنَّ أموالكم وأولادكم امتحانٌ إلهيٌّ لكم ، كَي يُمحِّص اللهُ الصالحَ مِن الفاسد ، ويَرى سُبحانَه كَيْفَ يَقوم عِبَادُه بأداء شُكْر هذه النِّعَم ، وتأدية الحُقوق المُرتبطة بها . واعْلَمُوا أنَّ الله عِنده أجرٌ كبيرٌ لِمَن أطاعه ، وهو أفضل مِن الأموال والأولاد ، فاحْرِصُوا على عبادة الله وطاعته .

وقد كان لأبي لُبَابة أموال وأولاد عِند يهود بني قُرَيظة ، وهذا حَمَلَه على مُلاطفتهم ومُلاينتهم. وهذا يدل على أنَّ حُب الأموال والأولاد يُغْرِي الإنسانَ ، وقد يَدْفَعه إلى ارتكاب المُحرَّمات مِن أجل الحفاظ عليهم.وأصلُ الفِتنة مِن: فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أي: أحْرَقْتُهُ بالنار لِيَظْهَر الجَيِّد مِنَ الرَّديء.

إنَّ الأموالَ والأولادَ فِتْنَةٌ تُعلِّق قَلْبَ العبد بالدُّنيا ، وتَشغَله عن عبادة الله وطاعته ، وسببٌ رئيسي لارتكاب المُحرَّمات ، واقترافِ الذُّنُوب ، والغَرَقِ في المعاصي والآثام . فالإنسانُ قد يَفْعَل أيَّ شيء في سبيل الحفاظ على أمواله ، وحَمايةِ أولاده من الأخطار . وهذه الآيةُ تَمَسَّكَ بها مَن فَضَّلَ الفَقْرَ على الغِنى، فقالوا: بما أنَّ المال فِتْنَة ، إذن ، عدم وجوده أفضل لِعَدَم وُجود الفِتْنة التي قَد تُؤَثِّر على الدِّين . وقد قِيل : أفضلُ العِصْمَة ألا تَجِدَ . وعَيْبُ الغِنَى أنه يُورِث البَلادةَ ، وفَضْلُ الفَقْر أنَّه يُجبِر المَرْءَ على التَّفكير في تَغيير حاله ، وتَحسين وَضْعه ، والحاجةُ أُم الاختراع .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٢): ((يَقول تعالى ذِكْرُه للمُؤمنين : واعْلَمُوا أيُّها المُؤمنون أنَّما أموالكم التي خَوَّلَكُمُوها اللهُ ، وأولادكم التي وَهَبَها اللهُ لكم ، اختبار وبَلاء ، أعطاكُمُوها لِيَختبركم بها ، ويَبْتَلِيَكُم ، لِيَنظر كيف أنتم عاملون مِن أداء حق الله عليكم فيها، والانتهاء إلى أمره ونَهْيه فيها ، ﴿ وأنَّ اللهَ عِندَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ، يقول : واعْلَمُوا أنَّ الله عِندَه خَير وثَواب عظيم عَلى طاعتكم إيَّاه فِيما أمركم ونهاكم ، في أموالكم وأولادكم ، التي اختبركم بها في الدُّنيا، وأطيعوا اللهَ فِيما كَلَّفَكُم فِيها تنالوا به الجَزيل مِن ثَوَابه في مَعَادكم)) .

وعن كَعْب بن عِيَاض _ رضي اللهُ عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتنة ، وإنَّ فِتنة أُمَّتي المال)) [٢٩٧].

إنَّ المال فِتنة شديدة بسبب الالتهاء به عن طاعة الله تعالى ، والانشغال بجَمْعه عن أداء العبادات على الوَجْه الأمثل ، كَمَا أنَّه يُنسِي الآخِرَةَ .

---

٢٩٧ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) برقم (٧٨٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ولا يَخفَى أن حُب المال غريزة في الإنسان ، ولكنْ عَلَيه أن يُقاوم جُمُوحَ شَهَواته ، ويَجعل المال في يده، ولَيس في قلبه. والإغراءُ المادي المُتمثِّل في المَال يُخاطب فِطْرَةَ الإنسان وغريزته، وهُنا تتجلَّى قِيمة الثبات، والتَّصَدِّي لكُل أنواع الإغراءات الشَّهَوَانية . وعلى الإنسان أن يُبعِد قَلْبَه عن الفِتَن، لأنَّها شديدة الخُطورة، والقُلوب ضعيفة، والشُّبَه خَطَّافة،والدَّاخل في البَحْر قَد لا يَخرُج مِنه أبدًا . والعاقلُ لا يُعرِّض نَفْسَه للفِتَن ويَقول إنني واثقٌ بنَفْسي ، فَمِن مَأمَنه يُؤْتَى الحَذِرُ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٠٧) : (((إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتنة) أي امتحانًا واختبارًا . وقال القاضي : أرادَ بالفِتنة الضَّلال والمَعصية (وإنَّ فِتنة أُمَّتي المال) أي: الالتهاء به ، لأنه يَشغَل البالَ عن القِيام بالطاعة ، ويُنْسِي الآخِرةَ . قال سُبحانَه وتعالى : ﴿ أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنةٌ ﴾ وفِيه أن المال فِتنة ، وبه تَمَسَّكَ مَن فَضَّلَ الفقرَ على الغِنى ، قالوا : فَلَوْ لَم يكن الغِنى بالمال إلا أنَّه فِتنة ، فَقَلَّ مَن سَلِمَ مِن إصابتها له ، وتأثيرها في دِينه ، لكَفَى)) .

وعن الأشعث بن قَيس قال : وُلد لِي غُلامٌ ، فَبُشِّرْتُ به وأنا عِند النبيِّ ﷺ ، فقُلتُ : وَدِدْتُ لكم مَكانَه قَصْعَةً مِن خُبز ولَحْم ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((إنْ قُلتَ ذاك ، إنَّهُم لَمَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ ، وإنَّهُم لَثَمَرَةُ القُلوبِ ، وقُرَّةُ العَيْن)) [٢٩٨].

إنَّ الأولادَ سَبَبٌ للبُخل والجُبن والحُزن . فالوالدان يَحْرِصَان على جَمْع المال وتخزينه مِن أجل الأولاد ، وهذا يَمْنعهم من الإنفاق. كما أن الأب يُصبح جَبانًا ، يتهرَّب مَن الجِهاد والقِتال حُبًّا لأولاده لئلا يُصبِحوا أيتامًا بلا مُعِيل . والأولاد سَبَب للحُزن ، فإنْ مَرِضَ الولدُ أُصِيبَ الداه بالحُزن، وكذلك إنْ ماتَ. وإذا عَجَزَ الوالدان عن تحقيق رغبات ابنهما ، أُصيبا بالحُزن . والأولادُ ثَمَرَة القُلوب ، لأنَّ الثمرة ما تُنتجه الشجرةُ ، والأولاد يُنتجهم الآباء ، وهُم سَبَب السَّعادة والفَرَح. وقد كَرِهَ البعضُ طَلَبَ الولد بسبب هذه الحالة اللازمة للنَّفْس الإنسانية ، ولا يُمكن دَفْعها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٠٣) ــ رواية أُخرى ــ : (((إنَّ الولد مَبْخَلَة) بالمال عن إنفاقه في وُجوه القُرْب (مَجْبَنَة) عَن الهِجرة والجِهاد (مَجْهَلَة) لكَوْنه يَحْمِل على تَرْك الرِّحلة في طَلَب العِلْم والجِد في تحصيله، لاهتمامه بتحصيل المال له (مَحْزَنَة) يَحْمِل أبَوَيْه على كَثرة الحُزن لكَوْنه إنْ مَرِضَ حَزِنَا ، وإنْ طَلَبَ شيئًا لا قُدرة لهما عَلَيه حَزِنَا ، فأكثر ما يَفُوت أبَوَيْه مِن الفَلاح والصَّلاح بسَببه ، فإنْ شَبَّ وَعَقَّ فذلك الحُزن الدائم ، والهَم السَّرمدي اللازم)) .

---

٢٩٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٦) برقم (٧٥٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي نَفْس المرجع (٦/ ٣٧٨) : (((الوَلَدُ ثَمَرَةُ القَلْب) قِيل للولد ثَمَرَة ، لأنَّ الثَّمَرَة ما تُنتجه الشجرة ، والولد يُنتجه الأب (وإنَّه مَجْبَنَة مَبْخَلَة مَحْزَنَة) أي: يُجبِّن أباه عن الجَهاد خَشية ضَيعته ، وعَن الإنفاق في الطاعة خَوف فَقره ، فكأنَّه أشار إلى التحذير مِن النُّكُول عَن الجِهاد والنَّفقة بسبب الأولاد ، بَل يُكْتَفَى بحُسن خِلافة الله ، فيُقدِم، ولا يُحجِم، فَمَن طَلَبَ الوَلَدَ للهَوى عَصَى مَوْلاه ، ودَخَل في قَوله تعالى : ﴿ إنَّ مِن أزواجكم وأولادكم عَدُوًّا لكم ﴾ [التَّغَابُن: ١٤] . فالكاملُ لا يَطْلُب الوَلَدَ إلا لله ، فيُربِّيه على طاعته ، ويَمتثل فيه أمرَ رَبِّه ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُن ﴾ [الفُرقان : ٧٤] . وسُئِلَ حكيم عن وَلَده ، فقال : ما أَصْنَعُ بِمَن إنْ عَاشَ كَدَّني ، وإنْ مَاتَ هَدَّني)) .

وعن بُرَيْدة _ رضي اللهُ عنه _ قال : بَينما النبيُّ ﷺ يَخطُب إذْ أقبلَ الحَسَنُ والحُسَين ، وعَلَيهما قميصان أحمران ، يَقُومان ويَعْثُران ، فَنَزل إلَيهما النبيُّ ﷺ فأخذهما ، وقال : ((﴿ أنما أموالكم وأولادكم فِتنةٌ ﴾)) [٢٩٩].

هذه فِتنة الأولاد التي أدَّت إلى قَطْع النبيِّ ﷺ للخُطبة كَي يُريح الحَسَن والحُسَين_رضي اللهُ عَنهما_ مِن القِيام والتَّعثُّر. وهذا يعكس حُنُوَّ الوالد على ولده ، والرحمة النبوية الإنسانية الجليلة .

والنبيُّ ﷺ إنسان ذُو عواطف ومشاعر وأحاسيس ومُيول قبل أن يكون نَبِيًّا . وفِعْلُ النبيِّ ﷺ يَدل على الجَوَاز ، ولا يَعني أنَّ النبيَّ ﷺ قد افتتنَ بهما ، أو أنَّهُ أهملَ الخُطبةَ مِن أجلهما .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥٤) : ((وظاهر الحديث أنَّ قَطْع الخُطبة والنُّزول لهما فِتنة دَعا إليها مَحَبَّة الولد ، فيَكُون مَرجوحًا. والجواب : إنَّ ذلك إنَّما هو في حَق غَيره ، وأمَّا فِعْلُ النبيِّ ﷺ ذلك فهو لبَيان الجَوَاز ، فيكون في حَقِّه راجحًا . ولا يَلزَم مِن فِعل الشيء لبَيان الجَوَاز أن لا يكون الأَوْلَى تَرْك فِعْلِه. ففيه تنبيه على أن الفِتنة بالولد مراتب، وإن هذا من أدناها، وقد يَجُرُّ إلى ما فَوقه فيُحذَر)) .

***

٢٩٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (١٣ / ٤٠٢) برقم (٦٠٣٨) .

ثامنًا : الغَيْب

١_ الإيمان بالغَيْب

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٣] .

مِن أبرز صِفات المُتَّقين أنَّهُم يُصدِّقون بما غَابَ عَنهُم ، ولَم تُدركه حَوَاسُّهم ، فهُم يُؤْمنون بالجَنَّة ، والنار ، والبَعْث بعد المَوت ، ويَوم القِيامة . والإيمانُ في اللغة : التَّصديق . وفي الشَّرع : التَّصديق والقَول والعَمل . والغَيب : كُل ما غاب عن الإنسان .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥٤) : ((واختلفَ المُفسِّرون في تأويل الغَيب هُنا ، فقالت فِرقة : الغَيب في هذه الآية : اللهُ سُبحانَه ، وضعَّفه ابن العربي . وقال آخرون : القَضَاء والقَدَر. وقال آخرون : القُرآن، وما فيه مِن الغُيُوب. وقال آخرون : الغَيب ما أخبرَ به الرسولُ عليه السلام مِمَّا لا تَهْتدي إلَيه العُقُول مِن أشراط السَّاعة، وعذاب القَبْر، والحَشْر، والنَّشْر،والصِّراط، والمِيزان، والجَنَّة، والنار.قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض، بَل يقع الغَيب على جميعها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُم عَلى الغَيْبِ ﴾ [آل عِمران : ١٧٩] .

إنَّ الله وَحْدَه يَعْلَم الغَيْبَ، وقد أخفاه عن الناس ، فلا يَقْدِرُون على تمييز المؤمن مِن المُنافق، إلا بالأسباب الظاهرة المكشوفة . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٢٨) : ((وأَوْلَى الأقوال في ذلك بتأويله : وما كان الله لِيُطْلِعَكُم على ضَمائر قُلوب عباده، فتعرفوا المؤمنين مِنهم مِن المُنافق والكافر، ولكنَّه يُميِّز بينهم بالمِحَن والابتلاء _ كما مَيَّزَ بَينهم بالبأساء يَوم أُحُد _ وجِهاد عَدُوِّه ، وما أشبه ذلك مِن صُنوف المِحَن ، حَتَّى تَعرِفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٥١١):((وفي المُخَاطَب بقَوله: ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُم عَلى الغَيْبِ ﴾ ، قَولان : أحدهما أنَّهُم كُفَّار قُرَيش ، فمعناه : ما كانَ اللهُ لِيُبَيِّنَ لكم المُؤمِنَ مِن الكافر ، لأنَّهُم طَلَبُوا ذلك فقالوا: أخْبِرْنا بِمَن يُؤْمِن ، ومَن لا يُؤْمِن ، هذا قول ابن عباس . والثاني أنَّه النبيُّ ﷺ ، فمَعناه : وما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَ مُحَمَّدًا على الغَيب ، قاله السُّدي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] . هذا وَصْفٌ للمؤمنين الصادقين المُتَّقين ، حيث يَخافون اللهَ ، ولَم يَرَوْه ، بَل عَرَفُوا بالأدلة النَّقلية والبراهين العقلية أنَّ لهم إلَهًا قادرًا على كُل شيء ، يُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، فهُم يُعظِّمونه ، ويَخافون مِنه ، في السِّر والعلانية . والخَشْيَةُ والتَّقْوَى مُتلازمتان ، تُوجَدان معًا ، وتَغِيبان معًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٥٦) : ((﴿ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها يَخَافُونه وَلَم يَرَوْه ، قاله الجمهور . والثاني يَخْشَوْنَ عَذَابَه وَلَم يَرَوْه ، قاله مُقاتل . والثالث يَخَافُونه مِن حَيث لا يَراهم أحد ، قاله الزَّجاج . والرابع يَخَافُونه إذا غابوا عَن أعْيُن الناس ، كَخَوْفهم إذا كانوا بَين الناس ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وأجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس : ١١]. إنَّما يَنفَع إنذارُكَ يا مُحمَّد مَن آمنَ بالقُرآن ، وعَمِلَ بآياته وأحكامه ، وخَافَ اللهَ دُون أن يَرَاه ، فَبَشِّرْهُ بمغفرة مِن الله لذُنوبه ، وثوابٍ كثير جميل في الآخرة ، أي : الجَنَّة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٢٨) : ((وقَوله : ﴿ إنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : إنَّما يَنفَع إنذارُكَ يا مُحمَّد مَن آمنَ بالقُرآن ، واتَّبَعَ ما فِيه مِن أحكام الله ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْب ﴾ ، يقول: وخَافَ اللهَ حِين يَغِيب عن أبصار الناظرين ، لا المُنافق الذي يَستخف بدِين الله إذا خَلا،ويُظهِر الإيمانَ في الملأ،ولا المُشْرِك الذي قد طَبَعَ اللهُ على قلبه.وقَوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ ، يَقول : فَبَشِّرْ يا مُحمَّد هذا الذي اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيب بمغفرة مِن الله لذنوبه ﴿وأجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يقول:وثواب مِنه له في الآخرة كريم وذلك أن يُعْطِيَه على عمله ذلك الجَنَّة)).

٢_ الجَنَّة

إنَّ الجَنَّة هي الجَزَاء العادل الذي أَعَدَّه اللهُ لعباده الصالحين . فقد رَحِمَهم بأن وفَّقهم لأداء العِبادات في الدُّنيا وَفْقَ مَنهج الشَّريعة السَّمحة ، فكان جزاؤهم الجَنَّة خالدين فيها أبدًا ، عِلْمًا بأن دُخول الجَنَّة يكون برحمة الله تعالى، وليس بأعمال الإنسان القاصرة . والإنسانُ مَهما عَمِلَ مِن طاعاتٍ جليلة إلا أنَّه يظل في دائرة التقصير. وكُل المخلوقات بلا استثناء لَم تَعْبُد اللهَ حَقَّ عِبادته، حتى الأنبياء والملائكة هم مُقَصِّرُون في عِبادة الله تعالى ، ليس بمعنى انتقاصهم ، بَل بمَعنى أنَّهُم عاجزون عن أداء حق الله بشكل كامل، لذلك فإن الأنبياء لا يَدخلون الجَنَّة بأعمالهم، وإنَّما برحمة الله تعالى، وهؤلاء هُم سادة البشرية المَعْصُومون، فما بالُكَ بالبَشر العاديين الغاطسين في الآثام ؟.

والمؤمنُ يَعْبُد اللهَ تعالى لأنه أَهْلٌ للعبادة . وَلَوْ لَم يكن هناك جنَّة ولا نار ، لكان اللهُ مُسْتَحِقًّا للعبادة . لكنَّ رحمته _ تعالى _ تجلَّت على عِباده ، فَجَعَلَ لهم جنةً عَرْضها السماوات والأرض مُكافأةً لهم على إيمانهم في الدُّنيا ، وسَيرهم وَفْق أحكام الشريعة الإلهية . وفي الجَنَّة يرتاح المؤمنون مِن تَعب الحياة ومصائبها وكوارثها ، وينتقلون مِن ضِيق الدُّنيا الفانية إلى سَعَة الآخرة الباقية ، حَيث النَّعيم الأبدي في الجَنَّة ، التي لا مَوت فِيها ، ولا انقطاع ، ولا مُشكلات .

وقد وردت أوصاف كثيرة للجَنَّة في القُرآن والسُّنَّة كَي يتشوَّق الإنسانُ إلَيها ، وترتفع روحُه المَعنوية ، ويواصل صمودَه أمام فِتَن الحَياة الدُّنيا ، وحُطامها الزائل ، وزينتها الفانية ، وزُخرفها الباطل ، ولكنَّ الجَنَّة لا يُمكِن تخيُّلها ولا تصوُّرها ، لأنها فوق مَستوى العقل البشري القاصر ، المَحصور في اللذة الدُّنيوية الفانية ، والمُتعة الدنيئة الزائلة . وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ عن رسول الله ﷺ قال: ((قال اللهُ تبارك وتعالى : أعددتُ لِعِباديَ الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ)). قال أبو هُرَيرة: اقرؤوا إن شِئتم : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ ﴾ [سَبَق تخريجه]. وللجَنَّة أسماء مُتعدِّدة ، حَيث يُشير كُلُّ اسم إلى صِفة لها ، ويُسلِّط الضَّوءَ على جانبٍ مُعيَّن مِنها ، يَنقُل المَرْءَ إلى التفكير بعُمق ، وتكوين فَهمٍ مُنضبِط، والإحاطة _ قَدْر المُستطاع _ بهذا المَوضوع الغَيْبِيِّ الجليل ، البعيد عن إدراك الحَوَاس . وكُل ما في بالك ، فهو هالك ، والجَنَّة أعظم مِن تصوُّراتك ، وتَختلف جُملةً وتفصيلًا عَن خَيالاتك .

أ _ صِفَاتها

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَكِنِ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم لَهُم جَنَّاتٌ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها نُزُلًا مِن عِندِ اللهِ وما عِندَ اللهِ خَيْرٌ للأبرار ﴾ [آل عِمران: ١٩٨]. لَكِنِ الذين خافوا اللهَ واتَّقَوْهُ بامتثال أوامره ، واجتنابِ نَوَاهيه، لَهُم جَنَّات تَجْري مِن تحت قُصورها وأشجارها الأنهار، باقين فيها أبدًا ، لا يَمُوتون فِيها ، ولا يَخرُجون مِنها ، جَزَاءً وثوابًا مِن عِند الله تعالى ، والنُّزُلُ ما يُعَدُّ للضَّيف إكرامًا له. وما أعَدَّه اللهُ للمؤمنين الطائعين أفضل مِن حُطَام الدُّنيا الفاني (مَتَاع قليل عن قريب يَزُول) . إنَّ ما أعَدَّه اللهُ لهم كثير ودائم، لا يَزُول، ولا يَفنَى . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٨) : ((يَعني بقَوله جَلَّ ثناؤه : ﴿ لَكِنِ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم ﴾ لَكِنِ الذين اتَّقَوا اللهَ بطاعته ، واتِّباع مَرْضاته في العمل بما أمرهم به ، واجتناب ما نَهَاهم عنه ﴿ لَهُم جَنَّاتٌ ﴾ يعني : بساتين ﴿ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها ﴾ ، يقول : بَاقين فِيها أبدًا ﴿ نُزُلًا مِن عِندِ اللهِ ﴾ ، يعني : إنزالًا مِن الله إيَّاهم فيها أنزَلَهُمُوها . ونَصْب ﴿ نُزُلًا ﴾ على التَّفسير مِن قَوله : ﴿ لَهُم جَنَّاتٌ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ ﴾ ، كما يُقال: لَكَ عِند الله جَنَّات تَجْري من تحتها الأنهار ثَوابًا، وكما يُقال: هُو لَكَ صَدَقَةً، وَهُوَ لَكَ هِبَةً . وقَوله : ﴿ مِن عِندِ اللهِ ﴾ ، يعني: مِن قِبَل الله، ومِن كرامة الله إيَّاهم وعطاياه لهم . وقَوله: ﴿ وما عِندَ اللهِ خَيْرٌ للأبرار ﴾ ، يقول: وما عِند الله مِن الحياة والكرامة وحُسن المآب ﴿ خَيْرٌ للأبرار ﴾ مِمَّا يَتَقَلَّب فيه الذين كفروا، فإنَّ الذي يَتَقَلَّبُون فِيه زائل فانٍ ، وهو قَليل مِن المَتاع خسيس ، وما عِند الله مِن كرامته للأبرار _ وهُم أهل طاعته _ باقٍ غَير فانٍ ولا زائل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهُم فِيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُم ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النِّساء : ٥٧] .

للمؤمنين في الجَنَّاتِ، زَوجات بريئات مِن الحَيض والنِّفاس والبَول والغائط والبُصاق والمُخاط، ويُدخِلهم اللهُ ظِلًّا كثيفًا دائمًا (ظِل الجَنَّة) ، لا تَنسَخُه الشَّمسُ ، ولا يُؤْذِيهم حَر ولا بَرْد . وهذا يدل على كمال النِّعْمَة الإلهية الدائمة. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨٤): ((وقَوله : ﴿ لَهُم فِيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي: مِن الحَيض، والنِّفاس ، والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصِّفات الناقصة ، كما قال ابن عباس : مُطهَّرة من الأقذار والأذى ، وكذا قال عَطاء والحَسَن والضَّحاك والنَّخَعي وأبو صالح وعَطِيَّة والسُّدي . وقال مُجاهد : مُطهَّرة مِن البَول ، والحَيض ، والنُّخَامة ، والبُزاق ، والمَنِيِّ ، والوَلد . وقال قَتادة : مُطهَّرة من الأذى ، والمَآثِم ، ولا حَيْض ، ولا كَلَف ، وقَوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُم ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ ، أي : ظِلًّا عميقًا كثيرًا غزيرًا طَيِّبًا أنيقًا)) .

وعن أنس بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائةَ عامٍ لا يَقْطَعُها)) [٣٠٠].

هذا وَصْفٌ نبويٌّ عظيم لبعض شجر الجَنَّة . ففي الجَنَّة شجرة ، قِيل : هِيَ طُوبَى ، أو سِدرة المُنتهى، أو شجرة الخُلْد ، يَمشي الرَّاكبُ برَكوبته في كَنَفها وذُراها (ما يَستُر أغصانها) مائةَ عام، ولا يَصِل إلى نهايتها ، وهذا يعني أنَّ ظِلَّها عظيم ، ذو امتداد هائل . وفي هذا دَلالة واضحة على عَظَمَة نَعيم الجَنَّة ، الذي أعَدَّه اللهُ لعباده المؤمنين ، الذين جَمَعُوا بين الإيمان والعمل الصالح ، أي إنَّ الإيمانَ تجذَّر في قُلوبهم عقيدةً راسخةً ، وحقَّقوه على أرض الواقع قَوْلًا وفِعْلًا .

وفي تُحفة الأحوذي (٧/ ١٩٠) عن إحدى روايات الحديث : ((قَوله: (في الجنة شجرة) قال ابن الجوزي : يُقَال إنَّها طُوبَى . قال الحافظ : وشَاهِد ذلك في حديث عُتبة بن عَبدٍ السُّلَمي عِند أحمد والطبراني وابن حِبَّان، فهذا هو المُعتمَد خِلافًا لِمَن قال: إنَّما نُكِّرَتْ للتَّنبيه على اختلاف جِنسها بحَسَب شَهَوَات أهل الجنة (يَسير الراكب) أي : أيُّ راكب فُرِضَ . ومِنهُم مَن حَمَلَه على الوسط المُعتدل (في ظِلِّها) أي في نَعيمها وراحتها ، ومِنه قَولهم : أنا في ظِلِّك ، أي: في ناحيتك . قال القرطبي : والمُحْوِج إلى هذا التأويل أنَّ الظل في عُرْف أهل الدُّنيا ما بَقِيَ مِن حَر الشَّمس وأذاها ، ولَيس في الجنة شَمس ولا أذى (مائة عام لا يقطعها) أي لا يَنتهي إلى آخر ما يميل من أغصانها)) .

---

٣٠٠ متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٨٧) برقم (٣٠٧٩) ، ومسلم (٤/ ٢١٧٦) برقم (٢٨٢٧) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ دَعْوَاهُم فِيها سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فِيها سَلامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [يُونُس : ١٠] .

قَول المُؤمنين أو دُعاؤهم في الجَنَّة : اللهُمَّ إنَّا نُسبِّحك تَسبيحًا ، أي : نُقَدِّسك ونُنَزِّهك عَن كُل ما لا يليق بِك. و" اللهُمَّ " نِداء لله تعالى، أي إنَّهُم يَدْعُونَ اللهَ بقَولهم: ﴿ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ ﴾ ، تَعْظيمًا لله، وتَقْديسًا له، واستمتاعًا بذِكْره وتَلَذُّذًا بدُعائه، ولَيس المعنى أنَّهُم مُكلَّفون بأداء العبادة، لأنَّ الجَنَّة مَكان للاستمتاع واللذة ، أمَّا الدُّنيا فهي دار التَّكليف وأداء العبادات والطاعات .

ويُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسَّلام ، وقِيل : تَحِيَّة الملائكة لهم بالسَّلام . وآخرُ دُعائهم أن يَقولوا : الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِين . أي إنَّهُم يَفتتحون كلامهم بالتَّسبيح ، ويَختتمونه بالتَّحميد .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٠) أنَّ النبيَّ ﷺ قال عن أهل الجَنَّة : ((يُلْهَمُونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ ، كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ)) . أي : كلامهم في الجَنَّة تَسبيح الله تعالى ، وهذا التَّسبيح لَيس تَكليفًا إلزاميًّا . ولكنَّ الله بفَضْله وكَرَمه يُوفِّقهم لهما . والإلهامُ إلقاءُ شيء في النُّفُوس يَبعَث على فِعْل أوْ تَرك . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٢٦) : ((ووَجْه التَّشبيه أنَّ تَنَفُّس الإنسان لا كُلفة عَلَيه فيه ، ولا بُد له مِنه ، فَجَعَلَ تَنَفُّسَهم تسبيحًا ، وسببه أنَّ قُلوبهم تَنَوَّرت بمعرفة الرَّب سُبحانَه ، وامتلأت بحُبِّه ، ومَن أحبَّ شيئًا أكثرَ مِن ذِكْرِه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/١٠): ((قَوله تعالى: ﴿ دَعْوَاهُم فِيها ﴾ ،أي: دُعاؤهم.وفي المُراد بهذا الدُّعاء قَولان: أحدهما أنَّه استدعاؤهم ما يَشْتَهُون . قال ابن عباس : كُلَّما اشتهى أهلُ الجنة شيئًا ، قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ ﴾ ، فيأتيهم ما يَشْتَهُون، فإذا طَعِمُوا، قالوا: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين﴾، فذلك آخِرُ دَعْوَاهم. وقال ابن جُرَيج : إذا مَرَّ بهم الطَّيْرُ يَشْتَهُونه ، قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ ﴾ ، فيأتيهم المَلَكُ بما اشتَهَوْا ، فيُسلِّم عَلَيهم ، فيَرُدُّون عَلَيه، فذلك قَوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُم فِيها سَلامٌ ﴾ ، فإذا أكَلُوا حَمِدُوا رَبَّهُم ، فذلك قَوله: ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ . والثاني أنَّهُم إذا أرادوا الرَّغبة إلى الله تعالى في دُعاء يَدْعُونه به، قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ ﴾، قاله قَتادة. قَوله تعالى: ﴿ وَتَحِيَّتُهُم فِيها سَلامٌ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال:أحدها أنَّها تَحِيَّة بعضهم لبَعض ، وتحية الملائكة لهم ، قاله ابن عباس.والثاني أن الله تعالى يُحَيِّيهم بالسَّلام. والثالث أن التَّحِيَّة المُلْك، فالمعنى مُلْكهم فِيها سالم، ذكرهما الماوردي.قَوله تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُم ﴾ أي: دُعاؤهم ، وقَولهم : ﴿ أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ .قال الزَّجاج: أعلمَ اللهُ أنَّهُم يَبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويَختِمون بشُكره والثناء عليه. وقال ابن كَيسان : يَفتتحون كلامهم بالتَّوحيد ، ويَختِمونه بالتَّوحيد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرَّعْد : ٣٥] .

إنَّ طعامَ الجَنَّة وشرابها وفاكهتها وثمرها دائم ، لا يَنقطع ، ولا يَزُول ، ولا يَفنَى ، وظِلُّها دائم، لا تَنسَخه الشمس . وهذا يَشتمل على ذَم للدُّنيا وتَحقير لها ، لأنَّهَا فانية ، وكُل شيء فيها يَزُول .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٢٢) : ((﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ ، أي : لا يَنقطع ثَمَرُها ونعيمها ، ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي: ظِلُّها ظليل لا يَزُول، وهو رَد على الجَهْمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يَفنَى)).

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ ، فتناولتُ مِنها عُنقودًا ، وَلَوْ أخَذْتُهُ لأكلتُم مِنه ما بَقِيَت الدُّنيا)) [٣٠١].

لقد جَعَلَ اللهُ النبيَّ ﷺ يَرى الجَنَّةَ بعَيْنَيْه ، أي: كَشَفَ له عَنها ، فرآها على حقيقتها ، فتناولَ مِنها عُنقودًا ، وَلَوْ تَمَكَّنَ النبيُّ ﷺ مِن قَطْفه ، لأكلوا مِنه إلى نهاية الدُّنيا ، لعدم فَناء فَواكه الجَنَّة ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَأخذه ، لأنَّ الفواكه الباقية الدائمة لا تُناسب الدُّنيا الفانية الزائلة .

وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٤١) : ((قال ابن بَطَّال : لَم يَأخذ العُنقودَ ، لأنَّه مِن طَعام الجَنَّة ، وهو لا يَفنَى ، والدُّنيا فانية ، لا يَجوز أن يُؤكَل فيها ما لا يَفنَى . وقِيل: لأنَّه لَوْ رَآه الناسُ لكانَ مِن إيمانهم بالشَّهادة لا بالغَيْب ، فيُخشَى أن يَقع رَفْع التَّوبة ، فلا يَنفَع نَفْسًا إيمانُها . وقِيل: لأنَّ الجَنَّة جَزَاء الأعمال ، والجَزَاء بها لا يَقَع إلا في الآخِرة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحِجْر : ٤٥] . إنَّ المؤمنين الذين خافوا اللهَ واتَّقَوا الفواحشَ والشِّرْكَ ، في بساتين جميلة وأنهار جميلة : ماء وخَمْر ولَبَن وعسل .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩١) : ((﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ، أي المُتَّقين للشِّرْك بالله ، كما قاله جُمهور الصحابة والتابعين . وقِيل: هُم الذين اتَّقَوْا جَميعَ المعاصي، ﴿ في جَنَّاتٍ ﴾ ، وهي البساتين ، ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ ، وهي الأنهار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِين ﴾ [الحِجْر : ٤٦] .

يُقَال لأهل الجَنَّة الذين يتمتَّعون ويتنعَّمون في جَنَّاتٍ وعُيون : ادْخُلوها بسَلامة ، سَالِمين مِن كُل خَوف وفَزَع ، آمِنِين مِن المَوتِ والخُروجِ والمُشكلاتِ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩١) : ((وقد قِيل إنَّهُم إذا كانوا في جَنَّات وعُيون ، فكَيف يُقَال لهم بعد ذلك : ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ على قراءة الجمهور ؟ ، فإنَّ الأمر لهم بالدُّخول يُشعِر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأُجيب بأن المعنى

٣٠١ متفق عليه . البخاري (١/ ٢٦١) برقم (٧١٥) ، ومسلم (٢/ ٦٢٦) برقم (٩٠٧) .

أنَّهُم لمَّا صاروا في الجَنَّات، فإذا انتقلوا مِن بعضها إلى بعض يُقال لهم عِند الوُصول إلى التي أرادوا الانتقالَ إليها: ﴿ادْخُلُوهَا ﴾ ومعنى ﴿بِسَلامٍ آمِنِين ﴾ بسَلامة مِن الآفات وأمْنٍ مِن المَخَافات أو مُسلِّمين على بعضهم بعضًا، أوْ مُسَلَّمًا عَلَيهم مِن الملائكة ، أوْ مِن الله عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ﴾ ، المعنى : يُقَال لهم : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ﴾ ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها بسَلامة مِن النار ، والثاني بسَلامة مِن كُل آفَة ، والثالث بتَحيَّة مِن الله . وفي قَوله : ﴿ آمِنِين ﴾ أربعة أقوال: أحدها آمِنِين مِن عَذاب الله ، والثاني مِن الخُرُوج ، والثالث مِن المَوت ، والرابع مِن الخَوف والمَرَض)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِم مِن غِلٍّ إخْوَانًا عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ [الحِجْر: ٤٧].

إنَّ الله يُخرِج مِن صُدور المؤمنين الحِقْدَ الذي كان بَينهم في الدُّنيا ، فتُصبح قُلُوبُهم صافيةً ، لا شائبة فيها ، فلا يَكْرَه أحدُهم الآخَرَ ، ولا يَحقِد أحدٌ على أحد ، ولا يَكون بينهم إلا المَوَدَّة . واللهُ يُطهِّر قُلوبَ أهل الجَنَّة مِن الأحقاد والضَّغائن والكَرَاهِيَة .

ولا يَخفَى أن صاحب الحِقْد مُعذَّب به ، ولا عذاب في الجَنَّة ، ويَكونون في أحسن حال ، فَهُم إخوان لا يَنظر بعضُهم إلى قَفَا بعض تواصُلًا وتحابُبًا . إنَّهُم مُتَقَابِلُون ، وذلك بسبب دَوَرَان الأسِرَّة بهم . إنَّ صُدورهم نَقِيَّة طاهرة ، والمَكَان الذي يُوجَدون فيه (الجَنَّة) نقيٌّ طاهر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣١) : ((قال ابن عباس : أوَّل ما يَدخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ تُعرَض لهم عَينان ، فيَشرَبون مِن إحدى العَيْنَيْن، فيُذهِب اللهُ ما في قلوبهم مِن غِل ، ثُمَّ يَدخُلون العَيْنَ الأُخرى،فيَغتسلون فيها، فتُشرِق ألوانُهم، وتَصفو وُجُوهُهُم،وتَجْري عليهم نَضْرَةُ النَّعيم،ونَحْوه عن عليٍّ رضي اللهُ عنه ... . ﴿ إخْوَانًا عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ ، أي : لا يَنظُر بَعْضُهم إلى قَفَا بعض، تواصُلًا وتحابُبًا،عَن مُجاهد وغَيره . وقِيل : الأسِرَّة تَدُور كَيفما شاؤوا، فلا يَرى أحدٌ قَفَا أحد.وقِيل: ﴿ مُتَقَابِلِين ﴾ ، قد أقبلت عليهم الأزواجُ ، وأقبلوا عليهنَّ بالوُد ... . قال ابن عباس : على سُرُر مُكلَّلة باليَاقوت والزَّبرجد والدُّر، السرير ما بين صَنعاء إلى الجَابِيَة، وما بَين عَدَن إلى أيْلَة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩٩و٢٠٠) : ((قَوْله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ ﴾ ، فِيمَن عُنِيَ بهذه الآية أربعة أقوال : أحدها أهل بَدْر. روى الحسن عن عليٍّ رضي اللهُ عنه أنه قال: فِينا واللهِ أهل بَدْر نَزلتْ : ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ ﴾. وروى عمرو ابن الشَّرِيد عن عليٍّ أنَّه قال: إنِّي لأرْجُو أن أكون أنا وعُثمان وطَلحة والزُّبَير مِن الذين قال اللهُ : ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ ﴾ . والثاني أنَّهُم أهل الأحقاد مِن أهل الجاهلية حِين أسْلَمُوا .

روى كَثِير النَّوَّاء عن أبي جعفر قال: نزلتْ هذه الآية في عليٍّ وأبي بَكْر وعُمر، قلتُ لأبي جعفر: فأيُّ غِلٍّ هُوَ ؟ ، قال : غِل الجاهلية ، كان بين بني هاشم وبني تَيم وبني عَدِيٍّ في الجاهلية شيء، فلمَّا أسلمَ هؤلاء تَحَابُّوا ... والثالث أنَّهم عشرة من الصحابة أبو بَكْر وعُمر وعُثمان وعلي وطَلحة والزُّبَيْر وعبد الرحمن بن عَوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود ، قاله أبو صالح. والرابع أنها في صِفة أهل الجَنَّة إذا دَخَلُوها)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٣٩٤) : في قَوْله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ ﴾ ، أن أبا سعيد الخُدْرِيَّ_ رضي اللهُ عنه_ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((يَخْلُصُ المؤمنون مِن النار، فَيُحْبَسُون على قَنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقْتَصُّ لبعضهم مِن بعض مَظَالِمَ كانت بَينهم في الدُّنيا،حَتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخول الجَنَّة)).

إنَّ اللهَ يُنجِّي المؤمنين من النار ، لكنهم لا يَدْخلون الجَنَّةَ ، فالجَنَّةُ لا يَدْخلها إلا الأنقياء من كُل شائبة ، ولا يَقْدر المُلوَّثون على دُخولها . لذلك يُحبَسون على جِسْر بين الجنة والنار من أجل تطهيرهم بشكل كامل ، وهذه القَنطرة (الجِسْر) تَكملة للصِّراط المَوجود على جهنم ، ولَيْست صِراطًا جديدًا . وعلى هذه القَنطرة تَحْدُث عملية القِصَاص ، حيث يَأخذ كُلُّ ذي حَقٍّ حَقَّه من الآخَر، وهي المظالم التي كانت بَينهم في الحياة الدُّنيا، وعندما تنتهي هذه العملية ، يكونون في قِمَّة الطهارة والنَّقاء ، وعندئذٍ يُؤْذَن لهم بدخول الجنة . فالجَنَّةُ النَّقيةُ لا تَستقبل إلا الأنقياء .

وقال القرطبي في التَّذكرة (١/ ٣٩٢) : ((معنى " يَخْلُص المؤمنون من النار " أي يَخلُصون من الصِّراط المَضروب على النار، ودَلَّ هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخِرة مُختلفو الحال . قال مُقاتل : إذا قَطعوا جِسْرَ جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رِضْوَان وأصحابه : سَلام عَلَيكم ، بمعنى التَّحِيَّة ، طِبْتُم فادْخُلُوها خالدين)) .

وعن رِبْعِيِّ بن حِراش قال: إنِّي لَعِندَ عليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ جالس، إذ جاء ابنٌ لِطَلْحَة فَسَلَّمَ على عليٍّ_ رضي اللهُ عنه _ فَرَحَّبَ به، فقال: تُرَحِّب بي يا أمير المؤمنين وقد قتلتَ أبي وأخذتَ مالي ؟، قال : ((أمَّا مالُك فهو ذا مَعزول في بيت المال ، فاغْدُ إلى مالِك فَخُذْهُ ، وأمَّا قَوْلُك : قتلتَ أبي ، فإني أرجو أن أكون أنا وأبوك مِن الذين قال اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ مُتقابِلين ﴾))، فقال رَجل مِن هَمَذان : إن الله أعدل مِن ذلك ، فصاحَ عَلَيه عليٌّ صَيْحَةً تداعى لها القَصْر ، قال : ((فَمَن إذًا إذا لم نكن نحن أولئك ؟)) .

[رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٥) برقم (٣٣٤٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي] .

طَلْحة هو طَلْحة بن عُبَيْد الله ـــ رضي اللهُ عنه ـــ ، أحد العشرة المُبشَّرين بالجَنَّة ، وقد عَظُمَ عليه قَتل عُثمان_ رضي اللهُ عنه _، واعتبرَ نَفْسَه مُقَصِّرًا في الدِّفاع عنه ، فَخَرَجَ من أجل المُطَالَبة بدَم عُثمان ، وقد قُتِلَ في وَقْعة الجَمَل التي جَرَت بين عليٍّ وعائشة_ رضي اللهُ عنهما ـــ بِلا تخطيط . لذلك اعتبرَ ابنُ طلحة عَلِيًّا مَسؤولًا عن قَتل أبيه . وهذا غَير صحيح البَتَّة [302].

وقال الذهبي في دُوَل الإسلام(١/ ٢٨):((إنَّ طَلحة والزُّبير وأُم المؤمنين عائشة ـــ رضي اللهُ عنهم ـــ نَدِموا وَعَظُمَ عليهم قَتْلُه (يعني قَتل عُثمان رضي اللهُ عنه) ، ورَأَوْا أنَّهُم قد قصَّروا في نُصرته ، فخرجوا على وجوههم قاصدين البَصرة للطلب بدَمه مِن غَير أمر عليٍّ ، وذلك أن قَتَلَة عُثمان الْتَقَوْا على عليٍّ ، وصاروا مِن رُؤوس الملأ ، وخاف هو مِن أن ينتقض الناس ، فسار بعسكر المدينة وبرؤوس قَتَلَة عُثمان إلى العراق ، فجرت بينه وبين عائشة وَقْعَة الجَمَل بلا عِلْم ولا قَصْد ، والتحمَ القِتال مِن الغَوغاء ، وخرج الأمر عن عليٍّ وعن طَلحة والزُّبَير ، وقُتِلَ مِن الفريقين نَحو مِن عشرين ألفًا ، وقُتِل طَلْحَة والزُّبَير)) .

وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال: رأيتُ عَلِيًّا ـــ رضي اللهُ عنه ـــ بالخَوَرْنَق [303]، وهُوَ على سريره، وعِنده أبان بن عُثمان ، فقال : ((إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك مِن الذين قال اللهُ ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ : ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ مُتقابِلين ﴾)) [304].

عُثمان هو عُثمان بن عَفَّان ـــ رضي اللهُ عنه ـــ وقد كان بَيْنه وبين عليٍّ سُوء فَهْم . وذَهبت النَّواصب إلى أبعد مِن هذا ، فاتَّهموا عَلِيًّا بقَتل عُثمان ، أو الإعانة على قَتْله .

---

٣٠٢ قال ابن كثير في البداية والنهاية(٧/ ٢٤٨) عن طَلْحة بن عُبَيد الله ـــ رضي اللهُ عنه_: ((فلمَّا كان قضية عُثمان، اعتزلَ عنه ، فَنَسَبَه بعضُ الناس إلى تحامُل فِيه، فلهذا لَمَّا حَضَرَ يوم الجمَل واجتمع به عليٌّ فوعظه تأخَّرَ ، فوقف في بعض الصُّفوف ، فجاءه سَهْم غَرَب (لا يُعرَف راميه)، فوقع في رُكبته ، وقِيل : في رقبته. والأول أشْهَر.وانتظم السَّهم مع ساقه خاصرة الفَرَس ، فجمح به حتى كاد يُلقيه، وجعل يقول : إِلَيَّ عِبادَ الله ، فأدركَه مَوْلى له فركبَ وراءه وأدخله البصرة ، فمات بدارٍ فيها ، ويقال : إنَّه مات بالمعركة ، وإنَّ عَلِيًّا لَمَّا دارَ بين القَتلى رآه، فجعلَ يَمسح عن وجهه التراب، وقال : رحمة الله عليك أبا محمَّد ، يَعزُّ عَلَيَّ أن أراك مجدولًا تحت نجوم السماء)) .

٣٠٣في مختار الصِّحاح(١/١٩٦):((الخَوَرْنقُ اسم قَصْر بالعراق،بناه النُّعمان الأكبر،وهو فارسي مُعرَّب)).

٣٠٤ رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١١٣) برقم (٤٥٦٣) ، وسكت عنه الذهبي .

وها هُوَ عليٌّ بن أبي طالب ــ رضي اللهُ عنه ــ يَرْجو أن يَجتمع معَ عُثمان وطَلْحة ــ رضي اللهُ عنهما ــ في الجَنَّة ، وهُم في قِمَّة الصَّفاء والنَّقاء ، صُدورهم مُطهَّرة مِن الحِقْد والضَّغينة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُم فِيها نَصَبٌ وما هُم مِنْها بِمُخْرَجِين ﴾ [الحِجْر : ٤٨] .

لا يُصيبهم في الجَنَّة تَعَبٌ وإعياء ، ولا يَمُوتون فيها ، ولا يُخرَجون مِنها ، نعيمهم خالد ، وبقاؤهم دائم . وكَمَالُ النِّعْمَة بالخُلُود .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩١) : ((﴿ لا يَمَسُّهُم فِيها نَصَبٌ ﴾ ، أي: تَعَب وإعياء ، لعَدم وجود ما يتسبَّب عَنه ذلك في الجَنَّة ، لأنَّها نعيم خالِص ، ولَذَّة مَحْضَة، تَحصُل لهم بسُهولة ، وتُوافيهم مَطَالبهم بلا كَسْب ، ولا جَهْد (مَشَقَّة) ، بَل بمُجرَّد خُطُور شَهوة الشيء بقُلوبهم ، يَحصُل ذلك الشيء عِندهم صَفْوًا عَفْوًا ، ﴿ وما هُم مِنْها بِمُخْرَجِين ﴾ أبدًا . وفي هذا الخُلُود الدائم ، وعِلْمهم به تَمَام اللذة ، وكَمال النَّعيم ، فإنَّ عِلْمَ مَن هو في نِعمة ولَذَّة بانقطاعها وعَدَمها بَعْد حِين ، مُوجِب لِتَنَغُّص نَعيمه ، وتَكَدُّر لَذَّته)) .

وفي الحديث أنَّ جِبريل ــ عَلَيه السَّلام ــ قال للنبيِّ ﷺ عن خَديجة بِنت خُوَيلد : ((... ، فإذا هِيَ أَتَتْكَ فاقْرَأ عَلَيها السَّلام مِن رَبِّها ومِنِّي ، وبَشِّرْها ببَيت في الجَنَّة مِن قَصَب ، لا صَخَبَ فيه ، ولا نَصَبَ)) [٣٠٥].

هذا إكرامٌ مِن الله للسَّيدة خَديجة ــ رضي اللهُ عنها ــ ، فقد جَعَلَ لها قَصْرًا عظيمًا مُنيفًا في الجَنَّة مِن قَصَب اللؤلؤ المُجوَّف ، لا صِياح فيه ولا صُراخ ، ولا تعب ، ولا مَشَقَّة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٩) : ((قال جُمهور العلماء : المُراد به قَصَب اللؤلؤ المُجوَّف كالقَصْر المُنيف . وقِيل : قَصَب مِن ذَهَب مَنظوم بالجَوهَر)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٩٩) : ((قال السُّهَيلي : المُناسبة في هاتَيْن الصِّفَتَيْن أن المُصطفى ﷺ لمَّا دَعَا إلى الإيمان أجابت خَديجة طَوْعًا ، فلَم تُحْوِجْه إلى رَفْع صَوت، ولا نِزاع ولا تَعَب ، بل أزالت عنه كُلَّ نَصَب ، وآنَسَتْهُ مِن كُل وَحْشَة ، وهَوَّنَت عَلَيه كُلَّ عَسِير ، فناسبَ كَون مَنزلها الذي بشَّرها به رَبُّها بالصِّفة المُقابلة))اهـ . وهذا يدلُّ على أنَّ الجَزَاء مِن جِنس العَمَل.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَكَ قُصُورًا ﴾ [الفُرقان: ١٠]. ويَجْعَل اللهُ لَكَ يا مُحمَّد في الجَنَّة قُصُورًا عظيمةً.وقال البغوي في تفسيره(٧٣/١):((بُيُوتًا مَشِيدة، والعَرَب تُسمِّي كُلَّ بَيت مَشِيد قَصْرًا)).

---

٣٠٥ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٨٩) برقم (٣٦٠٩)، ومسلم (٤/ ١٨٨٧) برقم (٢٤٣٢) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمَسُّنَا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيها لُغُوبٌ ﴾ [فَاطِر : ٣٥] .

لا يُصِيب المؤمنين في الجَنَّة تعبٌ ، ولا يُصيبهم فيها إعياء ، لأنَّ الجَنَّة لا يُوجَد فيها تَكليف، بَل مُتعة واستمتاع وتلذُّذ . وتَكرير النَّفْي للمُبَالَغَة ، وتأكيدِ نَفْي التَّعَب قليله وكثيره .

قال أبو السعود في تفسيره (٧/ ١٥٤): ((والتَّصريح بنَفْي الثاني مَعَ استلزام نَفْي الأول له ، وتَكرير الفِعْل المَنْفِيِّ للمُبَالَغَة في بَيان انتفاء كُل مِنهما)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٣٥) : ((﴿ لا يَمَسُّنَا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيها لُغُوبٌ ﴾ أي : لا يَمَسُّنا فِيها عَنَاء ولا إعياء . والنَّصَبُ واللُّغُوب كُل مِنهما يُستعمَل في التَّعَب ، وكَأن المُراد بنَفْي هذا وهذا عَنهم أنَّهُم لا تَعَب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم . فَمِن ذلك أنَّهُم كانوا يُدْئِبُون أنفُسَهم في العِبادة في الدُّنيا، فسَقَطَ عنهم التَّكليفُ بدُخولها ، وصاروا في راحة دائمة مُستمرة)) .

وفي لُباب النُّقول للسُّيوطي (ص ١٨١) : ((وأخرجَ البَيهقي في البَعْث وابن أبي حاتم مِن طريق نُفَيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوْفَى قال : قال رَجُلٌ للنبيِّ ﷺ : يا رسول الله، إنَّ النَّوم مِمَّا يُقِرُّ اللهُ به أعْيُننا في الدُّنيا ، فهل في الجَنَّة مِن نَوم ؟، قال : " لا ، إنَّ النَّوم شَريك المَوت، ولَيس في الجَنَّة مَوت " ، قال : فما راحتهم ؟ ، فأعظمَ ذلك رسولُ الله ﷺ ، وقال : " لَيس فِيها لُغُوب ، كُل أمرهم راحة " ، فنزلت : ﴿ لا يَمَسُّنَا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيها لُغُوبٌ ﴾)) .

إنَّ الدُّنيا دار التَّعَب والمَشَقَّة ، لذلك يَحتاج الإنسانُ فيها إلى الراحة ، أمَّا الآخرة فهي دار النَّعيم ، لا مَوت فيها ، ولا نَوم ، ولا حاجة فيها إلى الراحة بعد التَّعب ، فلا تَعَب فيها ولا لُغُوب .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ ﴾ [ص : ٥٠] .

جَنَّات إقامة ، مُفَتَّحَة للمؤمنين أبوابُها . أي : إذا جاءَها المؤمنون فُتِحَت لهم أبوابُها بالأمر ، ولَيس بالمَس ، لذلك قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مُفَتَّحَةً ﴾ ، ولَم يَقُلْ : مَفتوحة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٩٥) : ((فإنْ قال لنا قائل : وما في قَوله : ﴿ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ ﴾ مِن فائدة خَبَر حَتَّى ذَكَرَ ذلك ؟ ، قِيل : فإنَّ الفائدة في ذلك إخبار الله تعالى عَنها أن أبوابها تُفْتَح لهم بغَير فَتْح سُكَّانها إيَّاها بمُعاناة بيَد ، ولا جارحة ، ولكن بالأمر ، فِيما ذُكِرَ ... . عن الحسن في قَوله: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ ﴾ ، قال: أبواب تُكَلَّم ، فَتُكَلَّم : انفتحي انغلقي)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وشَرَابٍ ﴾ [ص : ٥١] .

مُتَّكئين في جَنَّات عَدْن على السُّرُر الوثيرة ، يَطْلُبُون ما يَشتهون مِن أنواع الفواكه وألوانِ الشراب، كعادة المُلوك في الدُّنيا ، فيُحضِرها لهم الخَدَمُ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٩٦) : ((مُتَّكِئين في جَنَّات عَدْن على سُرُر يَدْعُون فِيها بفاكهة ، يعني : بثِمَار مِن ثِمَار الجَنَّة كثيرة ، وشَرَاب مِن شَرَابها)) .

والاقتصارُ على الفاكهة لبيان أن طعام أهل الجَنَّة للاستمتاع والتَّلَذُّذ ، ولَيس لسَد الجُوع ، فلا جُوع في الجَنَّة . قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥١) : ((والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مَطاعمهم لمَحْض التَّلَذُّذ ، فإنَّ التَّغَذِّي للتَّحَلُّل ، ولا تَحَلُّل ثَمَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أترابٌ ﴾ [ص : ٥٢] . وعِندهم الحُور العِين اللواتي لا يَنظُرن إلى غَير أزواجهن ، مُتساويات في السِّن، لأنَّ التَّحَاب بين الأقران أثْبَت وأقْوَى ، وهُنَّ في غاية الشَّباب والجَمَال . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٢٣): ((﴿ وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أترابٌ ﴾ ، أي : قاصرات طَرْفهنَّ على أزواجهنَّ ، لا يَنظُرنَ إلى غيرهم ... . والأتراب : المُتَّحِدَات في السِّن ، أو المُتساويات في الحُسْن . وقال مُجاهد : معنى ﴿ أترابٌ ﴾ أنهنَّ مُتواخيات ، لا يَتباغضنَ ، ولا يَتغايرن . وقِيل : أترابًا للأزواج . والأتراب جَمْع تِرْب ، واشتقاقه مِن التُّراب ، لأنَّه يَمَسُّهُنَّ في وَقْت واحد ، لاتِّحاد مُوَلِّدِهِنَّ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَكِنِ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم لَهُم غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ ﴾ [الزُّمَر : ٢٠] . لَكِنِ الذين خافوا اللهَ ، واتَّقَوْهُ بأداء الطاعات ، واجتناب المعاصي ، لهم في الجَنَّة دَرَجَات عالية ، ومنازل رفيعة ، وقُصور شاهقة بعضها فوق بعض ، مَبْنِيَّة مِن زَبَرْجَد وياقوت ، تَجْرِي مِن تَحت قُصورها أنهارُ الجَنَّة . وفي زاد المسير (٧/ ١٧٢) : ((قال الزَّجاج: والغُرَف هي المَنازل الرَّفيعة في الجَنَّة ، مِن فَوْقها غُرَف ، أي : مَنَازل أرْفَع مِنها)) اهـ . وعن عليٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ:((إنَّ في الجَنَّة لَغُرَفًا يُرى ظُهورها مِن بُطونها، وبُطونها مِن ظُهورها))[306].

إنَّ غُرَف الجَنَّة عظيمة رائعة شَفَّافة ، يُبصِر المؤمنُ ظُهُورَها مِن بُطونها ، وبُطونها مِن ظُهورها .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِين ﴾ [الدُّخَان : ٥٣] .

يَلبَس المؤمنون المُتَّقُون في الجَنَّات ثِيَابَ الحرير الرَّقيق والسَّميك ، مُتقابلين على السُّرُر ، يَنظُر بعضُهم إلى بَعْض ، لتحقيق الأُنس والأُلفة ، وتعزيز المَحَبَّة والمَوَدَّة ، ولا يَنظُر بعضُهم إلى قَفَا بَعْض ، لِدَوَرَان الأسِرَّة بهم .

---

٣٠٦ رواه الترمذي في سُننه(٤/ ٦٧٣)،وأحمد في مُسنده (١/ ١٥٥)،وقال المُحقِّق:حسن لغَيره . وقال العراقي في تخريج الإحياء(٢/ ١٥٣):((أخرجه الترمذي... وقال: حديث غريب. قُلت: وهو ضعيف)).

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٤٨) : ((وقَوله : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ ، يَقول : يَلبَس هؤلاء المُتَّقُون في هذه الجَنَّات مِن سُندُس،وهو ما رَقَّ مِن الدِّيباج (الحرير) ﴿ وإسْتَبْرَقٍ ﴾ : وَهُوَ ما غَلُظَ مِن الدِّيباج ... . عَن عِكرمة في قَوله : ﴿ مِن سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ ﴾ . قال : الإستبرق : الدِّيباج الغَليظ . وقِيل : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ ﴾ ، وَلَم يَقُل : لِبَاسًا ، استغناءً بدَلالة الكلام على مَعناه . وقَوله : ﴿ مُتَقَابِلِين ﴾ ، يعني أنَّهُم في الجَنَّة يُقَابِل بعضُهم بعضًا بالوُجوه ، ولا يَنظُر بعضُهم في قَفَا بَعْض))اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدُّخَان : ٥٤] . كما أعطى اللهُ المؤمنين المُتَّقين في الجَنَّاتِ مِن الكرامة والنَّعيم وإلباسهم الحرير ،كذلك زوَّجهم بالنِّسَاء الحِسَان الجَميلات النَّقِيَّات البَيَاض . والحُور جَمْع حَوراء ، وهي شَدِيدة البَيَاض . والعِين جَمْع عَيناء ، وهي الواسعة العَيْنَيْن .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٥١) : ((قَوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ ﴾ ، أي : الأمر كَمَا وَصَفْنا ، ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ . قال المُفسِّرون : المعنى : قَرَنَّاهُم بهنَّ ، وليس مِن عَقْد التَّزويج . قال أبو عُبَيدة : المعنى: جَعَلْنا ذُكُورَ أهل الجَنَّة أزواجًا بحُور عِين مِن النِّساء)) .

وفي صَفوة التفاسير (١٥/ ٦٧): ((وإنَّما وَصَفَ تعالى نِعيمَهم بذلك ، لأنَّ الجَنَّات والأنهار مِن أقوى أسباب نُزهة الخَاطر، وانفراجه عَن الغَم، ثُمَّ ذَكَرَ الحُور الحِسَان لأنَّ بها اكتمال سعادة الإنسان ،كما قِيل : " ثلاثةٌ تَنْفي عن القلبِ الحَزَن : الماء ، والخُضرة، والوَجه الحَسَن ")) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِين ﴾ [الدُّخَان: ٥٥].كُلُّ ما يَطلُبه المؤمنون في الجَنَّة مِن أنواع الفواكه، يُحضِره إلَيهم الخَدَمُ بلا تأخير . والمؤمنون آمِنُون مِن المَوت والتَّعَب، كما أنَّهُم آمِنُون مِن انقطاع النعيم، أوْ مِن أن يُصيبهم مِن أكل الفواكه أذى أو ضَرَر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٥١):((قَوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِين ﴾ فِيه قَولان : أحدهما آمِنِين مِن انقطاعها في بعض الأزمنة ، والثاني آمِنِين من التُّخَم والأسقام والآفات)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيها أنهارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربينَ وأنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهُم فِيها مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ومَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِم ﴾ [مُحمَّد : ١٥] . صِفَةُ الجَنَّة التي وَعَدَ اللهُ المُتَّقِين بها ، وهُم المؤمنون الذين خافوا اللهَ في الدُّنيا ، واتَّقَوْا عذابَه وعِقابَه ، بالتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه . فِي هذه الجَنَّة أنهارٌ مِن ماء غَير مُتغيِّر الرَّائحة ، وأنهارٌ مِن لَبَن في غاية البَيَاض والحلاوة ، لا يَتَغَيَّر إلى الحُمُوضة كألبان الدُّنيا ، لأنَّه لَم يَخرُج مِن ضُرُوع الإبل والغنم والبقر ، وأنهارٌ مِن خَمْر لذيذة ، طَيِّبة الطَّعْم

والرَّائحة ، ولم تُدنِّسها الأيدي والأرجلُ ، ولَيست كريهة الطَّعْم والرائحة كخمر الدُّنيا ، وأنهارٌ مِن عَسَل في غاية الصَّفاء وحُسن اللون والرَّائحة ، لَم يَخرُج مِن بُطُون النَّحْل ، ولَم يُخَالِطه الشَّمْعَ ، كعسل الدُّنيا . وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:((الجَنَّة مائة درجة، بَيْن كُل دَرَجَتَيْن كَما بين السماء والأرض، والفِرْدَوْسُ مِن أعلاها دَرَجَة ، ومِنها تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّة، فإذا سألتم اللهَ فاسألوه الفِرْدَوْس)) [سبق تخريجه]. ولهم في الجَنَّة أنواع مُتعدِّدة من جميع أصناف الثَّمَرَات . وذِكْرُ الثَّمَرَات بعد المَشروب للدَّلالة على أنَّ طعام أهل الجَنَّة لتحقيق اللذة ، ولَيس للتَّغذية أوْ سَد الجُوع . ولهم فوق نعيم الجَنَّة ، مَغفرة مِنَ الله لذُنوبهم ، ورحمة بهم ، وإحسان إلَيهم ، ورِضوان عليهم . وتَنكيرُ ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ للتَّعظيم . وفي الحديث أنَّ الله تعالى يَقول لأهل الجَنَّة : ((أُحِلُّ عَلَيْكُم رِضْوَاني ، فلا أسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا)) [سبق تخريجه] . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الجَنَّة لا يُوجد فيها حِسَاب ولا عِقَاب على الأكل والشَّرَاب بِخِلاف الدُّنيا، وذلك لأنَّ الآخِرة دَار الجَزَاء (النَّتيجة بلا عمل) ، والدُّنيا دار التَّكليف (العَمَل بلا نتيجة) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٤): ((قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ . قال عِكرمة : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ ﴾ ، أي: نَعْتها ﴿ فِيها أنهارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، قال ابن عباس رضي اللهُ عنهما والحَسَن وقَتادة : يَعني غَير مُتَغَيِّر . وقال قَتادة والضَّحاك وعَطَاء الخُرَاساني : غَير مُنْتِن، والعرب تقول: أَسَنَ الماءُ، إذا تَغَيَّرَ رِيحُه.وفي حديث مَرفوع أورده ابن أبي حاتم:" ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ يَعني الصَّافي الذي لا كَدَرَ فِيه " . وقال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أبو سعيد الأشج حَدَّثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مُرَّة عن مَسروق قال : قال عبد الله رضي اللهُ عنه : أنهار الجَنَّة تَفَجَّرُ مِن جَبَل مِن مِسْك ، ﴿ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ ، أي : بَل في غَايَة البَيَاض والحَلاوة والدُّسُومة . وفي حديث مرفوع : " لَم يَخْرُجْ مِن ضُرُوع المَاشِيَة " . ﴿ وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربينَ ﴾ ، أي: لَيْسَتْ كريهةَ الطَّعْم والرائحة كَخَمْر الدُّنيا ، بَل حَسَنَة المَنظَر والطَّعْم والرائحة والفِعْل ، ... . وفي حديث مرفوع : " لَم يَعْصِرْها الرِّجَالُ بأقدامهم " ، ﴿ وأنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ ، أي : وهو في غاية الصَّفاء وحُسن اللون والطَّعْم والرِّيح . وفي حديث مرفوع : " لَم يَخْرُجْ مِن بُطُون النَّحْل " ، ...)) .

وروى التِّرمذي في سُننه(٤/٦٩٩) وصحَّحه:عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ في الجَنَّة بَحْرَ الماء، وبَحْرَ العَسَل، وبَحْرَ اللبن، وبَحْرَ الخَمْر، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ)) .

أعدَّ اللهُ للمؤمنين نعيمًا في الجَنَّة لا يُمكن تخيُّله ، ووَصَفَه لهم لِحَضِّهم على العبادات والطاعات ، وترك الذُّنوب والمعاصي ، مِن أجل دُخول الجَنَّة ، والتَّمَتُّع بأنهارها العظيمة .

إنَّ في الجَنَّة أنهارًا مِن ماء عَذْب تَجْري مِن تحت قُصور الجَنَّة ، وأنهارًا مِن عسل في غاية الصَّفاء ، وأنهارًا مِن لَبَن لَم يتغيَّر طَعْمُه ، وأنهارًا مِن خَمْر يتلذَّذ بها أهلُ الجَنَّة ، بلا سُكْر ، ثُمَّ تتفرَّع مِن تِلك البُحُور الأنهارُ الجارية، لتحقيق المُتعة واللذة والنعيم للمؤمنين الخالدين في الجَنَّة.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٦٦): (((إنَّ في الجَنَّة بَحْرَ الماء) غَير آسِن (وبَحْرَ العَسَل) أي المُصَفَّى (وبَحْرَ اللبن) أي الذي لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُه (وبَحْرَ الخَمْر) الذي هو لَذَّة للشَّاربين(ثُمَّ تُشَقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ).قال الطيبي رحمه الله تعالى:يُريد بالبَحْر مِثل دِجْلة والفُرَات ونَحْوهما،وبالنَّهر مِثل نَهْر مَعْقِل،حيث تُشَقَّق منها جداول،وخُصَّ هذه الأنهار بالذِّكْر لكَوْنها أفضل أشربة النَّوع الإنساني، فالماء لِرِيِّهم وطَهُورهم، والعَسَل لِشِفائهم ونَفْعهم، واللبن لِقُوَّتهم وغِذائهم، والخَمْر لِلَذَّتهم وسُرُورهم، وقَدَّمَ الماء لأنَّه حياة النُّفُوس ، وثَنَّى بالعَسَل لأنَّه شِفَاء للناس، وثَلَّثَ باللبن، لأنَّه الفِطْرة ، وخَتَمَ بالخَمْر إشارة إلى أنَّ مَن حَرَّمَه في الدُّنيا لا يُحرِّمه في الآخِرة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهُم ما يَشاؤونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

للمؤمنين في الجَنَّة كُل ما يَطلُبونه ، وتَشتهيه أنفُسُهُم ، وتَلَذُّ أعْيُنُهُم ، وعِند الله لهم فوق هذا النعيم والكرامة زيادة على ما طَلَبُوا ، وهو ما لا يَخطُر ببالهم ، مِمَّا لا عَيْن رَأت ، ولا أُذُن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ . وقِيل : المَزِيدُ هو النَّظَر إلى وَجْه الله تعالى بلا كَيْف .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٦٣): ((﴿ لَهُم ما يَشاؤونَ فِيها ﴾ ، وذلك أنَّهُم يَسألون اللهَ تعالى حَتَّى تَنتهيَ مَسألتهم، فَيُعْطَوْنَ ما شاؤوا، ثُمَّ يَزيدهم اللهُ مِن عِنده ما لَم يَسألوه، وهو قَوله : ﴿ وَلَدَيْنا مَزِيدٌ ﴾ ، يعني : الزِّيادة لهم في النَّعيم ما لَم يَخطُر ببالهم . وقال جابر وأنس : هو النَّظَر إلى وَجْه الله الكريم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطُّور : ١٧] .

إنَّ المؤمنين الذين اتَّقَوا اللهَ في الدُّنيا بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، هُم في الآخرة في بساتين عظيمة وسعادة دائمة ، ومُتعة مُستمرة ، ونعيم أبدي . والآيةُ إخبار عن حال السُّعَدَاء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٦) : ((﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ ، في أيَّة جِنَان وأيِّ نعيم ، أوْ في ﴿ جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ مَخصوصة بهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاكِهِينَ بِمَا آتاهُم رَبُّهُم وَوَقَاهُم رَبُّهُم عَذَابَ الجَحِيمِ ﴾ [الطُّور : ١٨].

مُتنَعِّمين مُتَلَذِّذين بما أعطاهم اللهُ مِنَ النَّعيم في الجَنَّة ، مِمَّا لا عَيْن رَأت ، ولا أُذُن سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ، وصَرَفَ اللهُ عَنهُم عَذابَ النار ، وحَمَاهُم مِنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٨) : ((﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُم رَبُّهُم ﴾ ، أي : يَتفَكَّهُون بِمَا آتاهم اللهُ مِنَ النَّعيم مِن أصناف المَلاذ ، مِن مَآكِل ومَشَارب ومَلابس ومساكن ومراكب ، وغَير ذلك ، ﴿ وَوَقَاهُم رَبُّهُم عَذَابَ الجَحِيمِ ﴾ ، أي : وقَد نَجَّاهُم مِن عذاب النار ، وتِلك نِعمة مُستقلة بذاتها على حِدَتها ، مَعَ ما أُضيف إلَيها مِن دُخُول الجَنَّة ، التي فِيها مِن السُّرور ما لا عَيْن رَأَتْ ، ولا أُذُن سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الطُّور : ١٩] .

كُلُوا أيُّها المؤمنون مِن طَعَام الجَنَّة واشرَبُوا مِن شَرَابها هنيئًا ، لا تَنغيص فيه ، ولا كَدَر ، ولا يُسبِّب مرضًا ، ولا يَنتُج عنه أذى ، بسبب ما كُنتم تَعْمَلُونه في الدُّنيا مِن الأعمال الصالحة .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ﴿ هَنِيئًا ﴾ تدلُّ على دوام النِّعْمَة ، لأنَّهُم لَوْ عَلِمُوا زوالها ، لَنَغَّصَ عَلَيهم ذلك سعادتهم ونعيمهم واستمتاعهم ، ولَم يَكُن هَنَاءً لهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٣٦): ((﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا ﴾ ، أي: يُقَال لهم ذلك. والهَنِيءُ : ما لا تَنغيص فيه ، ولا نَكَد ، ولا كَدَر . قال الزَّجاج : أي : لِيَهْنِئْكُم ما صِرْتُم إليه هَنَاءً . والمعنى : كُلُوا طعامًا هنيئًا ، واشربُوا شَرَابًا هنيئًا ... . وقِيل: مَعنى ﴿ هَنِيئًا ﴾ أنَّكُم لا تَمُوتون)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطُّور : ٢٠] .

أهلُ الجَنَّة مُتَّكِئُون على سُرُر (جَمْع سرير) ، مَوضوعة بعضها إلى جَنْب بَعْض ، وهذا يدلُّ على النعيم الكامل والنِّعْمَة التَّامَّة ، حَيث إنَّهُم قريبون مِن بعضهم البعض ، ويُقَابِلُون بعضهم بعضًا.

وقَرَنَّاهُم بنساء بِيض في غاية الجَمَال ، واسعات العُيُون . ولا يَخفَى أن شِدَّة البَيَاض مَعَ سَعَة العَين قِمَّة الجَمَال ونِهَاية الحُسْن . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٨) : ((وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنا أبي حَدَّثنا أبو اليمان حدثنا صفوان بن عمرو أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول : إنَّ رسول الله ﷺ قال : " إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ المُتَّكَأَ مِقدارَ أربعين سَنَة ، ما يَتَحَوَّل عنه ، ولا يَمَلُّه ، يأتيه ما اشتهت نَفْسُه ولَذَّتْ عَيْنُه ". وحَدَّثنا أبي أخبرنا هُدبة بن خالد عن سُلَيمان بن المغيرة عن ثابت قال : بَلَغَنَا أنَّ الرَّجل لَيَتَّكِئُ في الجَنَّة سبعين سَنَة ، عِنده مِن أزواجه وخَدَمه ، وما أعطاه الله مِن الكرامة والنَّعيم ، فإذا حانت مِنه نظرة ، فإذا أزواج له لَم يَكُنْ رَآهُنَّ قَبْلَ ذلك ، فَيَقُلْنَ : قد آنَ لَكَ أن تَجعل لنا مِنك نصيبًا . ومعنى ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ ، أي : وُجوه بَعْضهم إلى بَعْض كقَوله : ﴿ عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾ . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ . أي: وجَعَلْنا لهم قَريناتٍ صالحاتٍ وزوجاتٍ حِسَانًا مِن الحُور العِين . وقال مُجاهد : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم ﴾ أنكحناهُم بحُور عِين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القَمَر : ٥٤] .

إنَّ المؤمنين الذين اتَّقَوْا عذابَ الله بأداء الطاعات ، واجتناب المعاصي ، في بساتين عظيمة مُتنوِّعة ، وأنهار مِن ماء ولَبَن وخَمْر وعَسَل . والنَّهَرُ اسم الجِنس ، والمقصودُ به الأنهار .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٧١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ الذين اتَّقَوْا عِقَابَ الله بطاعته ، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، في بساتين يوم القيامة وأنهار. ووَحَّدَ النَّهَر في اللفظ ، ومعناه الجَمْع ، ... . وقد قِيل : إنَّ معنى ذلك : إنَّ المُتَّقين في سَعَة يَوم القِيامة وضِياء ، فَوَجَّهُوا مَعنى قَوله : ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ إلى مَعنى النَّهَار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القَمَر : ٥٥] . في مَكَانٍ مَرْضِيٍّ ومَجْلِسِ حَقٍّ ، لا إثمَ فِيه ، وهو الجَنَّة ، عِند مَلِك مَالِك عظيم ، قادر على كُل شيء ، وهو الله تعالى . والعِندِيَّةُ لبيان القُرب والمَنزلة الشريفة ، بلا مَسافة ، ولا مُمَاسَّة . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٣١):((﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي: مَجْلِس حَق لا لَغْوٌ فيه ، ولا تأثيم ، وهو الجَنَّة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ ، أي: يَقْدِر على ما يَشاء ، و ﴿ عِندَ ﴾ هاهُنا عِندِيَّة القُربة والزُّلفة والمَكانة والرُّتبة والكرامة والمَنزلة . قال الصادق : مَدَحَ اللهُ المَكَانَ الصِّدْقَ فلا يَقْعُد فيه إلا أهل الصِّدق)) .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٨) أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((إنَّ المُقْسِطِينَ عِند الله على منابرَ مِن نُور عَن يمين الرَّحمن عَزَّ وَجَلَّ، وكِلْتا يَدَيه يَمِين،الذين يَعْدِلُون في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا)).

إنَّ العادلين في حُكمهم ومُعاملتهم لأهلهم ، وفِيمَن ولَّاهم اللهُ عَلَيه ، مُقرَّبون إلى الله ، ومُكرَّمون لَدَيه، ومُرتفعون على منابر مَخلوقة مِن نُور ، وهذا يدلُّ على عُلُوِّ أماكنهم ورِفعة منازلهم.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢١١ و٢١٢) : ((أمَّا قَوله :" وَلُوا " فبفتح الواو وضَم اللام المُخففة، أي : كانت لهم عَلَيه وِلاية ، والمُقْسِطُون هُم العادلون ... وأمَّا المنابر فَجَمْع مِنبَر، سُمِّيَ به لارتفاعه. قال القاضي: يُحتمَل أن يكونوا على مَنابر حقيقةً على ظاهر الحديث، ويُحتمل أن يكون كِناية عن المنازل الرفيعة. قُلتُ الظاهر: الأول،ويكون مُتَضَمِّنًا للمنازل الرَّفيعة، فهُم على منابر حقيقةً، ومنازلهم رفيعة . أمَّا قَوله ﷺ : " عن يمين الرحمن " فهو مِن أحاديث الصِّفات ، وقد سَبَقَ في أول هذا الشَّرح بيان اختلاف العلماء فيها ، وأنَّ مِنهُم مَن قال: نُؤْمِن بها ، ولا نتكلَّم في تأويله ، ولا نَعرِف مَعناه ، لكن نعتقد أن ظاهرها غَير مُراد ، وأنَّ لها معنى يَلِيق بالله تعالى . وهذا مذهب جماهير السَّلَف ، وطوائف من المُتكلِّمين. والثاني أنَّها تُؤَوَّل على ما يَلِيق بها ، وهذا قول أكثر المُتكلِّمين . وعلى هذا قال القاضي عِياض رضي اللهُ عنه : المُراد

بكَوْنهم عن اليمين ، الحالة الحَسَنَة ، والمَنزلة الرَّفيعة . قال : قال ابن عَرَفَة: يُقَال: أتاه عن يمينه، إذا جاءه من الجِهة المَحمودة ، والعَرَب تَنسُب الفِعْلَ المحمود والإحسان إلى اليمين ، وضِدَّه إلى اليَسار . قالوا : واليمين مأخوذة مِن اليُمن . وأمَّا قَوله ﷺ : " وكِلْتا يَدَيه يمين " فتنبيه على أنَّه لَيس المُراد باليَمين جارحة ، تعالى اللهُ عن ذلك ، فإنَّها مُستحيلة في حَقِّه سُبحانَه وتعالى . وأمَّا قَوله ﷺ : " الذين يَعْدِلُون في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا " ، فمعناه أنَّ هذا الفَضْل إنَّما هُوَ لِمَن عَدَلَ فِيما تقلَّده مِن خِلافة ، أو إمارة ، أو قَضاء ، أو حِسبة ، أو نَظَر على يتيم ، أو صَدَقة ، أو وَقْف ، وفِيما يَلزَمه مِن حُقوق أهله وعِياله ، ونَحْو ذلك ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلى سُرُرٍ مَوْضُونةٍ ﴾ [الواقعة : ١٥] . مجالس السابقين المُقرَّبين في الجَنَّة على سُرُر (جَمْع سرير) مَنسوجة بالذَّهَب والجواهر . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١١): ((ذَكَرَ سُبحانَه حالةً أُخرى للسَّابقين المُقرَّبين ، فقال : ﴿ عَلى سُرُرٍ مَوْضُونةٍ ﴾ ، ... . قال الواحدي : قال المُفسِّرون : مَنسُوجة بقُضبان الذَّهَب . وقِيل : مُشبَّكة بالدُّر واليَاقوت والزَّبَرْجَد . وقِيل : إنَّ المَوضُونة المَصفُوفة . وقال مُجاهد : المَوضُونة المَرمُولة بالذَّهَب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مُتَّكِئينَ عَلَيْها مُتَقَابِلِين ﴾ [الواقعة: ١٦]. مُتَّكِئين على السُّرُر المَوضُونة ، مُتقابلين بوُجُوههم ، يَنظُر بعضُهم في وُجوه بَعْض ، ولا يَنظُر بعضُهم إلى قَفا بَعْض . وهذا يدلُّ على حُسن العِشرة ، وتهذيب الأخلاق ، وحُسن الأدب ، وكمال المَحَبَّة ، وتَمَام السُّرور .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٧٤) : ((﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها ﴾ ، أي : على السُّرُر ﴿ مُتَقَابِلِين ﴾ ، أي: لا يرى بَعْضُهم قَفَا بَعْض ، بَل تَدُور بهم الأسِرَّة ، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله ، أي: يَتَّكِئُون مُتقابلين ، قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبي : طُول كُل سَرير ثلثمائة ذِراع ، فإذا أراد العبدُ أن يَجلِس عَلَيها تواضعت ، فإذا جلس عليها ارتفعت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون ﴾ [الواقعة : ١٧] .

يَدُور عَلَيهم للخِدمة أولاد ، لا يَمُوتون ، ولا يَهْرَمُون ، ولا يتغيَّرون . وقد وَصَفَهم اللهُ بأنَّهُم مُخلَّدون ، معَ أنَّ جميع مَن في الجَنَّة مُخلَّدون ، لبيان أنَّهُم يَبْقُون في سِن الأولاد ونُعُومتهم إلى الأبد، لا يَكبُرون ، ولا يَنتقلون مِن حالة إلى حالة .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٢٩) : ((وقَوله : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه : يَطُوف عَلى هؤلاء السَّابقين الذين قَرَّبهم اللهُ في جَنَّات النَّعيم وِلْدَان ، على سِن واحدة ، لا يتغيَّرون ، ولا يموتون)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بأكوابٍ وأباريقَ وَكَأسٍ مِن مَعِين ﴾ [الواقعة : ١٨] .

الأكواب جَمْع كُوب ، وهو إناء بِلا عُروة ، ولا خُرطوم له . والأباريق جَمْع إبريق ، وهو إناء له عُروة وخُرطوم. وكأس مِن خَمر تَجْري في العُيُون بلا انقطاع ، ولَيْسَتْ كَخَمْر الدُّنيا تُسْتَخْرَج بعَصْر وتكلُّف وتَعَب . ولا تُسمَّى كَأسًا حتى يَكون فيها الخَمْر ، وإذا لَم يكن فيها خَمْر فهي إناء .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٠) : ((﴿ بأكوابٍ وأباريقَ ﴾ ، فالأكواب : جَمْع كُوب ، وهي الأقداح المُستديرة الأفواه ، لا آذان لها ، ولا عُرى . والأباريق هي : ذَوات الخراطيم . سُمِّيَتْ أباريق لبَريق لَونها مِن الصَّفَاء ، ﴿ وكَأسٍ مِن مَعِين ﴾ خَمْر جارية)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنزِفُون ﴾ [الواقعة : ١٩] .

خَمْرُ الجَنَّة لا تُسبِّب الصُّدَاعَ ، ولا يَسكَرون بسببها ، فتَذهَب بعُقولهم ، بخِلاف خَمْر الدُّنيا. إنَّها لَذَّة بلا أذى ، ومُتعة بلا مُشكلات صِحِّية. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٣): ((وقَوله تعالى : ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنزِفُون ﴾ ، أي : لا تُصدِّع رُؤوسَهم ، ولا تَنزِف عُقُولَهم ، بَل هي ثابتة مع الشِّدة المُطْرِبة ، واللذة الحاصلة . وروى الضَّحاك عن ابن عباس أنَّه قال : في الخَمْر أربع خِصَال : السُّكْر ، والصُّداع ، والقَيء، والبَوْل ، فَذَكَرَ اللهُ تعالى خَمْرَ الجَنَّة ، ونزَّهها عن هذه الخِصَال . وقال مُجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَير وعَطِيَّة وقَتادة والسُّدي : ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ يقول : لَيْسَ لهم فيها صُدَاعُ رأس ، وقالوا في قَوله : ﴿ ولا يُنزِفُون ﴾ ، أي: لا تَذهَب بعُقولهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُون ﴾ [الواقعة : ٢٠] .

ولهم فاكهة كثيرة ، يَختارون مِنها ما تَشتهيه أنفُسُهُم ، لكثرة أنواعها ، وتنوُّع أصنافها .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٣٢):((وقَوله: ﴿وفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه: ويَطُوف هؤلاء الوِلْدَان المُخلَّدون على هؤلاء السَّابقين بفاكهة من الفواكه التي يتخيَّرونها مِن الجَنَّة لأنفسهم، وتشتهيها نُفُوسهم))اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٣): ((أي: ويَطُوفُون عليهم بما يتخيَّرون مِن الثِّمار ، وهذه الآية دليل على جَوَاز أكل الفاكهة على صِفَة التَّخَيُّر لها)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُون ﴾ [الواقعة : ٢١] . ويَطُوفُون أيضًا عَلَيهم بِلَحْم طَير ، مِمَّا يَتَمَنَّوْنَهُ وتَشتهيه أنفُسُهُم ، للاستمتاع والتَّلَذُّذ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٠) : ((قال ابن عباس : يَخطُر على قلبه لَحْمُ الطَّير ، فيَصير مُمَثَّلًا بَيْنَ يَدَيه على ما اشتهى . ويُقَال إنَّه يقع على صَحْفَة (قَصْعَة) الرَّجُل، فيَأكل مِنه ما يَشتهي ثُمَّ يَطير فيَذهَب)) .

وقال الرازي في التفسير الكبير(٢٩/١٥٣):((قدَّم الفاكهةَ على اللحم لأنَّ أهل الجَنَّة يَأكلون لا عَن جُوع بل للتَّفَكُّه ، فمَيْلُهم إلى الفاكهة أكثر ، كحال الشَّبعان في الدُّنيا ، فلذلك قدَّمها)).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّكَ لَتَنظُرُ إلى الطَّير في الجَنَّة فَتَشتهيه، فيَجيء مَشْوِيًّا بَيْنَ يَدَيْك)) [٣٠٧]. وعن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ:((إنَّ طَيْرَ الجَنَّة كأمثال البُخْت تَرعَى في شَجَر الجَنَّة))[٣٠٨] . والبُخْتُ الإبِل الخُرَاسانية.والحديثُ يدلُّ على عَظَمَة الجَنَّة ونعيمها.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كأمثالِ اللؤلُؤِ المَكْنُونِ (٢٣) ﴾ [الواقعة] .

ولهم مع ذلك النعيم الجليل ، والمُتعة العظيمة ، والسعادة الدائمة ، نِسَاءٌ في غَاية البَياض والجَمَال ، وواسعات العُيُون ، كأنهنَّ اللؤلؤ في البَيَاض والصَّفَاء والنَّقَاء والحُسْن ، الذي لَم تَمَسَّه الأيدي ، ولَم يَقَع عَلَيه الغُبَار . وهذا يدلُّ على أنَّه في مُنتهى الصَّفَاء. وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن هذا التَّشبيه، فقال : ((صَفَاؤُهُنَّ صَفَاءُ الدُّر في الأصداف التي لَم تَمَسَّهُ الأيدي)) [٣٠٩].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣٧): ((ومعنى ﴿ كأمثالِ اللؤلُؤِ ﴾ ، أي : صَفاؤهُنَّ وتلألُؤهُنَّ كَصَفَاء اللؤلؤ وتلألئه . والمَكْنُون : الذي لَم يُغيِّره الزَّمانُ واختلافُ أحوال الاستعمال ، فَهُنَّ كاللؤلؤ حِين يُخرَج مِن صَدَفه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٨] . هُم تَحت أشجار النَّبَق الذي قُطِعَ شَوْكُه . وسِدْرُ الآخِرة كثير الثَّمَر ، وبلا شَوْك . أمَّا سِدْرُ الدُّنيا فهو قليل الثَّمَر ، كثير الشَّوك .

وكما قال الشاعرُ : إنَّ الحدائقَ في الجِنَانِ ظَليلةٌ   فِيهَا الكَوَاعِبُ سِدْرُهُا مَخْضُودُ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣٩) : ((قَولُه تعالى : ﴿ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ ، سبب نُزُولها أنَّ المُسلمين نَظَروا إلى وَج ، وهو واد بالطائف مُخْصِب ، فأعجبهم سِدْرُه ، فقالوا : يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ هذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية والضَّحاك)) .

---

٣٠٧ رواه البَزَّار في مسنده (٥/ ٤٠١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٦٦): ((رواه البَزَّار، وفيه حُمَيد بن عطاء الأعرج ، وهو ضعيف)) .

٣٠٨ رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٢١). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٦٦) : ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير سَيَّار بن حاتم ، وهو ثقة)) اهـ . وصحَّحه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٥١) .

٣٠٩ رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٦٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٥٥) : ((رواه الطبراني ، وفيه سُلَيمان بن أبي كَرِيمة ، ضَعَّفه أبو حاتم وابن عَدِي)) .

وعن أبي أُمَامة _ رضي اللهُ عنه _ قال : كان أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون : إنَّ الله يَنفعنا بالأعراب ومَسائلهم . أقبلَ أعرابيٌّ يَوْمًا ، فقال : يا رسول الله ، لقد ذَكَرَ اللهُ في القُرآن شجرةً مُؤذِية ، وما كُنتُ أرى أنَّ في الجَنَّةِ شجرةً تُؤْذِي صَاحِبَها ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((وما هِيَ ؟)) . قال : السِّدْر ، فإنَّ لها شَوكًا ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((﴿ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ ، يَخْضِدُ اللهُ شَوكَه، فَيُجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوكةٍ ثَمَرَةٌ ، فإنَّها تُنبِت ثَمَرًا ، تُفْتَقُ الثَّمرةُ مَعَها عن اثْنَيْنِ وسَبعينَ لَوْنًا ، مَا مِنهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ)) [٣١٠].

إذا كان السِّدْرُ في الدُّنيا شجرةً مُؤْذِية بسبب قِلَّة ثمرها وكَثرة شَوكها ، فإنَّها في الجَنَّة تَكون كثيرة الثَّمَر ، مَنزوعة الشَّوك ، وتَكون مكان كُل شَوكة ثمرة ، وتُفْتَق الثَّمرة عن أكثر من سبعين نَوعًا مِن الطُّعُوم والألوان ، التي لا يُشبِه بَعْضُها بعضًا . وهذا يدل على عِظَم نعيم الجَنَّة الدائم .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴾[الواقعة:٢٩].هُوَ شَجَر المَوْز المُتراكم، بَعْضُه فَوق بَعْض.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٤٠) : ((وفي الطَّلْح قَولان : أحدهما أنَّه المَوْز ، قاله عليٌّ وابن عباس وأبو هُرَيرة وأبو سعيد الخُدري والحَسَن وعَطاء وعِكرمة ومُجاهد وقَتادة . والثاني أنَّه شَجَرٌ عِظامٌ كِبار الشَّوك. قال أبو عُبَيدة : هذا هو الطَّلْح عند العرب ... . فإنْ قِيل : ما الفائدة في الطَّلْح ؟. فالجواب أنَّ له نُورًا وريحًا طَيِّبة ، فقد وَعَدَهم ما يَعرِفون ويَمِيلون إلَيه ، وإنْ لَم يقع التَّساوي بَينه وبَين ما في الدُّنيا . وقال مُجاهد : كانوا يُعجَبون بِ وَج (وادٍ بالطائف) وظلاله مِن طَلْحه وسِدْره ، فأمَّا المَنضُود، فقال ابن قُتَيبة: هو الذي قد نُضِّدَ بالحَمْل أو بالوَرَق ، والحَمْل مِن أوَّله إلى آخِره، فلَيس له سَاق بارزة.وقال مَسروق:شَجَر الجَنَّة نَضِيد مِن أسفلها إلى أعلاها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٣٠] . وظِل دائم باقٍ لا يَزُول ، ولا تَنسَخه الشَّمْسُ . والمَمْدُودُ الذي لا انقطاع له . والجَنَّةُ كُلُّها ظِل ، ولا شَمْس فِيها . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٢) : ((﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ دائم ، لا تَنسَخه الشَّمْسُ . والعَرب تقول للشَّيء الذي لا يَنقطع : مَمدُود)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة : ٣١] .

وماءٍ مَصبُوب، يَجْري دائمًا في غَير أُخدود، لا يَنقطع عنهُم، ولَيس له حَد. وروى التِّرمذي في سُننه (٥/ ٤٠٠) وصحَّحه: عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائةَ عام لا يَقْطَعُها،وإنْ شِئتُم فاقرؤوا: ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) ﴾)).

---

٣١٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٨) برقم (٣٧٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يسيرُ الراكبُ في ذَرَاها وناحيتها مِئة سنة ، لا يَقطَعها ، وهذا يدل على امتداد ظِل الجَنَّة ، وأنَّه دائم ثابت بلا انقطاع ، ولا انكماش ، ولا زوال . والماءُ جارٍ دائمًا بلا انقطاع .

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٨٦): ((﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ ، يُسكَب لهم أين شاؤوا وكَيف شاؤوا بلا تَعَب، أوْ مَصبوب سائل. كأنَّه لمَّا شبَّه حالَ السابقين في التَّنَعُّم بأعلى ما يُتصوَّر لأهل المُدُن ، شَبَّهَ حالَ أصحاب اليمين بأكمل ما يتمنَّاه أهل البوادي، إشعارًا بالتفاوُت بين الحَالَيْن)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٨٠): ((وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حَارَّة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلْو والرِّشَاء، فوُعِدُوا في الجَنَّة خِلاف ذلك. ووَصَفَ لهم أسباب النُّزهة المعروفة في الدُّنيا،وهي الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطِّرادها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾ [الواقعة] .

وفاكهة كثيرة دائمة مُتنوِّعة في الطُّعُوم والألوان ، لَيست بالقليلة النادرة كما كانت في بلادهم ، لا تنقطع شتاءً ولا صَيفًا، ولا يُمنَع مَن أرادها بشَوْك، ولا بُعد مَسافة، ولا حائط،ولا سُور.ولا يُحظَر عَلَيها كما يُحظَر على بساتين الدُّنيا . بَل إنَّ العبد إذا اشتهى الفاكهةَ ، اقتربتْ مِنه حتى يَتناولها بيده ، بلا تَعَب ، ولا مَشَقَّة ، ولا بَذل جُهد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٤١) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها لا مَقطُوعة في حِين دُون حِين ، ولا مَمنُوعة بالحِيطان والنَّواطير ، إنَّما هِيَ مُطْلَقَة لِمَن أرادها ، هذا قول ابن عباس والحَسَن ومُجاهد وقَتادة،ولخَّصه بعضُهم فقال:لا مَقطوعة بالأزمان ، ولا مَمنوعة بالأثمان . والثاني لا تنقطع إذا جُنِيَتْ ، ولا تُمنَع من أحد إذا أُرِيدَتْ ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثالث لا مَقطوعة بالفَنَاء ، ولا مَمنُوعة بالفَسَاد ، ذَكَرَه الماوردي)) .

وعن أبي هُرَيرة قال : ما مِن عَبْدٍ يُسبِّح للهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسبيحةً ، أوْ يَحمَده تَحميدةً ، أوْ يُكبِّره تَكبيرةً ، إلا غَرَسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ له بها شجرةً في الجنة ، أصلها مِن ذَهَب ، وأعلاها مِن جَوهَر ، مُكَلَّلة بالدُّر والياقوت ، ثِمَارها كَثَدْيِ الأبكار ، ألْيَن مِن الزُّبْد ، وأحلى مِنَ العَسَل ، كُلَّما جَنَى مِنها شيئًا ، عادَ مَكَانَه ، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية : ((﴿ لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ ﴾)) [٣١١].

إنَّ نعيم الجَنَّة لا يُمكن تصوُّره.فِيها ما لا عَيْن رأت،ولا أُذُن سَمِعَتْ،ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

---

٣١١ رواه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨٧) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٣) : ((رواه الطبراني في الأوسط مَوقوفًا على أبي هُرَيرة ، وفيه سُلَيمان بن أبي كَريمة ، وهو ضعيف)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٤]. ولهم فيها فُرُش عالية ناعمة ، بعضُها فوق بعض . تَنخفض للمؤمن إذا أرادَ الجُلُوسَ عَلَيها ، ثُمَّ تَرتفع به . وقِيل إنَّ الفُرُش كِنَاية عن نِسَاء الجَنَّة ، وأنَّهُنَّ مُرتفعات بالجَمَال والحُسْن ، والفَضْل على نِسَاء الدُّنيا .وسُمِّيَت المَرأةُ فِرَاشًا لأنَّ زَوجها يَفتَرشها،فتكون تَحْتَه، وهو فَوقها كما يَفترِش فِرَاشَه الذي يبيت عَلَيه. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٤١):((قَوله تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ فِيها قَولان : أحدهما أنَّها الحَشَايا المَفروشة للجُلوس والنَّوم، وفي رَفْعها قَولان: أحدهما أنَّها مَرفوعة فوق السُّرُر . والثاني أنَّ رَفْعها زِيادة حَشْوها لِيَطِيب الاستمتاع بها. والثاني أنَّ المُراد بالفِرَاش النِّسَاء ، والعرب تُسمِّي المَرأةَ فِرَاشًا وإزارًا ولِبَاسًا.وفي معنى رَفعهنَّ ثلاثة أقوال: أحدها أنَّهُنَّ رُفِعْنَ بالجَمَال على نِساء أهل الدُّنيا. والثاني رُفِعْنَ عَن الأدناس . والثالث في القُلُوب لِشِدَّة المَيْل إليهنَّ))اهـ. وعن رسول الله ﷺ قال : ((﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ ، والذي نَفْسِي بيَده ، إنَّ ارتفاعها كما بين السَّماء والأرض ، وإنَّ ما بَين السماء والأرض لَمَسِيرَةَ خَمسمائة سنة)) [٣١٢]. إنَّ ارتفاع فُرُش الجَنَّة مِثل المسافة بين السماء والأرض (خمسمائة سنة). وهذا يدلُّ على أنَّ نعيم الجَنَّة لا يُمكن تصوُّره ولا تخيُّله.وهذا لَيس غريبًا لأنَّ عَالَم الجَنَّة فوق مُستوى العقل البشريِّ، ولا يُمكن مُقارنته مع الدُّنيا (العَالَم المَحسوس). ولا يُمكن قِياس الغائب على الشاهد.وفي تحفة الأحوذي(٧/ ٢٠٩): (((ارتفاعها) أي : ارتفاع فُرُش الجَنَّة ، وقِيل : ارتفاع الدَّرَجَة التي فُرِشَت للفُرُش المَرفوعة فِيها... . والمعنى أن ارتفاع الفُرُش المَفروشة في الجَنَّة مِثل مَسافة ما بَين السَّماء والأرض، أي مسافة خمسمائة عام)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾ [الواقعة : ٣٥] . إنَّ الله خَلَقَ نِسَاءَ الجَنَّة خَلْقًا جديدًا في غاية الحُسن والجَمَال بخِلاف نِساء الدُّنيا، فالعَجُوز تَرجع شَابَّةً، والقبيحة تَرجع جَميلةً.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٤١ و١٤٢): ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾ يَعني: النِّسَاء. قال ابن قُتَيبة: اكتفى بذِكْر الفُرُش لأنَّها مَحَلُّ النِّساء، عَن ذِكْرِهِنَّ.وفي المُشار إلَيهنَّ قَولان: أحدهما أنهنَّ نِساء أهل الدُّنيا المُؤمنات، ثُمَّ في إنشائهنَّ قَولان : أحدهما أنَّه إنشاؤهنَّ مِن القُبور،قاله ابن عباس.والثاني إعادتهنَّ بَعد الشَّمَط (الشَّيْب) والكِبَر أبكارًا صِغَارًا،قاله الضَّحاك. والثاني أنهنَّ الحُور العِين، وإنشاؤهنَّ إيجادهنَّ عَن غَير وِلادة، قاله الزَّجاج. والصواب أن يُقال إنَّ الإنشاء عَمَّهُنَّ كُلَّهُنَّ ، فالحُور أُنْشِئْنَ ابتداءً ، والمُؤمنات أُنْشِئْنَ بالإعادة وتغيير الصِّفات)) .

---

٣١٢ رواه أحمد في مسنده (٣/ ٧٥) ، وصحَّحه ابن حجر في القول المُسدَّد (١/ ٧١) .

وعن أنس ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾ ، قال : ((إنَّ مِنَ المُنْشَآتِ اللائي كُنَّ في الدُّنيا عجائزَ عُمْشًا رُمْصًا)) [٣١٣].

يُشير الحديثُ إلى إعادة النساء العجائز اللواتي كُنَّ يُعانينَ مِن أمراض ومُشكلات صِحِّية في الدُّنيا ، إلى شَابَّات جَميلات مُغريات جَذَّابات ، مُفعَمات بالحيوية والصِّحة ، إلى الأبد .

وفي تحفة الأحوذي (٩/ ١٣٠): ((قَوله: ﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾ . قِيل: هُنَّ الحُور العِين ، أنشأهُنَّ اللهُ ، لَم تقع عليهنَّ الوِلادة ، وَلَم يُسْبَقْنَ بخَلْق ، وأنهنَّ لَسْنَ مِن نَسْل آدم عليه السلام ، بَل مُخْتَرَعَات ، وهو ما جرى عليه أبو عُبَيدة وغَيْرُه . وقِيل : المُراد نساء بني آدم . والمعنى أنَّ الله سُبحانَه أعادهُنَّ بَعد المَوت إلى حال الشَّباب والنِّساء ، وإنْ لَم يتقدَّم لهنَّ ذِكْر ، لكنهُنَّ قَد دَخَلْنَ في أصحاب اليمين ، فتلخَّص أنَّ نِساء الدُّنيا يَخْلُقُهُنَّ اللهُ في القِيامة خَلْقًا جديدًا مِن غَير توسُّط وِلادة ، خَلْقًا يُناسب البقاءَ والدوام . وذلك يستلزم كمال الخَلْق ، وتوفُّر القُوى الجِسْمِيَّة ، وانتفاء صِفات النَّقْص ، كما أنَّه خَلَقَ الحُور العِين على ذلك الوَجْه . وإمَّا على قَول مَن قال : إنَّ الفُرُش المَرفوعة كِناية عَن النِّساء ، فمرجع الضمير ظاهر . (إنَّ مِنَ المُنْشَآت) جَمْع مُنْشَأة ، اسم مَفعول مِن الإنشاء (اللائي) أي نِساء الدُّنيا اللائي (كُنَّ في الدُّنيا عجائز)جَمْع عَجُوز وهي المرأة الكَبيرة (عُمْشًا) بضَم فَسُكُون جَمْع عَمْشَاء مِن العَمَش في العَين ، محرَّكة ، وهو ضَعْف الرُّؤية مع سَيَلان دَمْعها في أكثر أوقاتها ، ... . (رُمْصًا) جَمْع رَمْصَاء ، مِنَ الرَّمَص، محرَّكة ، وهو وَسَخ أبيض يَجتمع في المُوق (طَرَف العَين مِمَّا يَلِي الأنفَ ، وهو مَجرَى الدَّمْع في العَيْن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أبْكَارًا ﴾ [الواقعة : ٣٦] .

جَعَلَهُنَّ اللهُ عَذَارى، وكُلَّما أتاهُنَّ أزواجُهُنَّ، وَجدوهُنَّ عَذارى، ولا ألم،ولا دَم. وهذا يعني أنهنَّ يتمتَّعن بدَوام البَكَارة وبقائها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٤٢): ((أي: عَذَارَى. وقال ابن عباس: لا يَأتيها زَوْجُها إلا وَجَدَهَا بِكْرًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عُرُبًا أترابًا ﴾ [الواقعة: ٣٧]. عُرُب جَمْع عَرُوب، وهي : العاشقة لزَوجها ، والمُتحبِّبة إلَيه ، والمُشتهية له . وأتراب : مُستويات في السِّن مع أزواجهنَّ. أي إنَّ نساء أهل الجَنَّة عاشقات لأزواجهنَّ ، وفي مِثْل أعمارهم . وكُلُّهُنَّ بَنات ثلاث وثلاثين ، وكذلك أزواجهنَّ .

---

٣١٣ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٤٠٢) ، وقال : ((هذا حديث غريب لا نَعرِفه مَرفوعًا إلا مِن حديث مُوسى بن عُبَيدة ، ومُوسى بن عُبَيدة ويزيد بن أبان الرَّقَاشي ، يُضعَّفان في الحديث)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٤) : ((أي : عَوَاشِق مُتحبِّبات إلى أزواجهنَّ ، قاله الحسن ومُجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبَيْر ، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس . وقال عِكرمة عنه : مَلَقَة (مَلْسَاء). وقال عِكرمة: غَنِجَة. وقال أُسامة بن زيد عن أبيه: ﴿ عُرُبًا ﴾ حَسَنَات الكلام. ﴿ أترابًا ﴾ مُستويات في السِّن على سَن واحد)) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٩) : ((عن الحَسَن قال: أتت عَجُوز ، فقالت: يا رسول الله، ادْعُ اللهَ تعالى أن يُدْخِلَني الجَنَّةَ ، فقال : " يا أُمَّ فُلان ، إنَّ الجَنَّة لا تَدْخُلُهَا عَجُوز " . قال : فَوَلَّتْ تَبْكي . قال : " أخبروها أنَّها لا تَدخُلها وَهِيَ عَجُوز ، إنَّ الله تعالى يَقول : ﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أبْكَارًا (٣٦) ﴾ " ، وهكذا رواه التِّرمذي في الشَّمائل عن عَبْد بن حُمَيد)) [٣١٤].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الأبرارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأسٍ كانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان : ٥] .

إنَّ المؤمنين الصادقين في إيمانهم ، المُخلِصين في عبادتهم ، الذين أطاعوا اللهَ ، وابتعدوا عَن مَعصيته ، في الحياة الدُّنيا ، يَشْرَبُون في الآخِرة مِن خَمْر مَمزوجة بالكافور ، لبُرودته وعُذوبته ورائحته الطَّيبة ، بالإضافة إلى اللذة والنَّشوة في الجَنَّة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٤٣٠):((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ الأبرارَ ﴾ واحدهم بَر، وبارٌّ، وهُم الصادقون. وقِيل: المُطيعون. وقال الحسن: هُم الذين لا يُؤْذُون الذَّر ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأسٍ ﴾ ، أي:مِن إناء فيه شراب ﴿ كانَ مِزَاجُهَا﴾ يعني مِزَاج الكأس ﴿ كَافُورًا ﴾ ، وفيه ثلاثة أقوال:أحدها أنَّه الكافور المَعروف،قاله مُجاهد ومُقاتل، فعلى هذا في المُراد بالكافور ثلاثة أقوال: أحدها بَرْده، قاله الحَسَن. والثاني رِيحه، قاله قَتادة. والثالث طَعْمه، قاله السُّدي. والثاني أنَّه اسم عَيْن في الجَنَّة،قاله عطاء وابن السائب . والثالث أنَّ المعنى مِزاجها كالكافور لطِيب رِيحه ، أجازه الفَرَّاء والزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٦] .

الكافورُ مِن عَين جارية مِن عُيون الجَنَّة ، يَشرب مِنها أولياءُ الله ، وهُم المؤمنون الأتقياء ، وقد وَصَفَهم اللهُ بالعُبودية ، وأضافهم إلى ذاته المُقدَّسة تشريفًا لهم ، وتعظيمًا لقَدْرهم ، يَقُودُونها حَيث شاؤوا مِن قُصورهم بكل سُهولة وسَلاسة ، ويَتْبَعهم ماؤها إلى كُل مكان يُريدون الذَّهَابَ إلَيه ، وهي تَجْري عِند كُل واحد مِنهُم . والمقصود أنها سَهلة لا تَمتنع عَلَيهم .

---

٣١٤ في تخريج الإحياء للعراقي (٣/ ٨٩) : ((حديث الحسن " لا يَدخل الجنةَ عجوز " . أخرجه التِّرمذي في الشمائل هكذا مُرْسَلًا، وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣٥٨/١٢):((وقَوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: كان مِزَاجُ الكأس التي يَشرب بها هؤلاء الأبرار كالكافور في طِيب رائحته مِن عَيْن يَشرَب بها عِبادُ الله الذين يُدخِلهم الجَنَّةَ.والعَيْنُ على هذا التأويل نَصْب على الحال مِن الهاء التي في ﴿ مِزَاجُهَا ﴾ ويعني بقَوله : ﴿ يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ ﴾ يُروَى بها، ويُنتفَع . وقِيل : يَشرَب بِها ويَشرَبها بمعنى واحد ... . وقَوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه : يُفجِّرون تِلك العَيْنَ التي يَشرَبون بها كيف شاؤوا وحيث شاؤوا مِن منازلهم وقُصورهم ﴿ تَفْجِيرًا ﴾ ويعني بالتفجير: الإسالة والإجراء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبروا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] .

وأثابهم بسبب صَبرهم في الدُّنيا على مَشَقَّة العِبادات والطاعات ، وتَرك المعاصي والشَّهَوَات، جَنَّةً وحريرًا ، أي: أدخلهم الجَنَّةَ ، وجعلها مُسْتَقَرًّا لهم ، وألبسهم الحريرَ . إنَّهُم في مكان جميل، وعَيش رغيد، ويَلبَسون لِبَاسًا حَسَنًا. لقد جزاهم اللهُ بسبب صَبْرهم على طاعته، وعَن معصيته ، جَنَّةً واسعة (بُستانًا يَأكُلون مِنه ما يُريدون)، وحريرًا ناعمًا يَلبَسونه ويَتَزَيَّنُون بِه ، وهو لِبَاس أهل الجَنَّة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٥) : ((﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبروا ﴾ على طاعة الله، واجتنابِ معصيته . وقال الضَّحاك : على الفَقْر . وقال عطاء : على الجُوع ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، قال الحسن : أدخلهم اللهُ الجَنَّةَ، وألبسهم الحريرَ))اهـ. وفي صَفوة التفاسير(١٩/ ٨٤) : ((وفي الآية إيجاز ، آخِذ بأطراف الإعجاز، فقد أشارَ تعالى بقَوله: ﴿ جَنَّةً ﴾ إلى ما يتمتَّع به أُولئك الأبرار في دار الكرامة مِن أصناف الفواكه والثِّمار، والمطاعم والمشارب الهَنِيَّة، فإنَّ الجَنَّة لا تُسمَّى جَنَّة إلا وفِيها كُل أسباب الرَّاحة ، كما قالَ تعالى : ﴿ وفِيها ما تَشْتهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ . وأشارَ بقَوله : ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ إلى ما يتمتَّعون به مِن أنواع الزِّينة واللباس، التي مِن أنفَسِها وأغلاها عند العرب الحرير ، فقد جَمَعَ لهم أنواعَ الطعام والشراب واللباس ، وهو قُصَارى ما تتطلع له نُفُوسُ الناس)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها على الأرائكِ لا يَرَوْنَ فيها شَمْسًا ولا زَمْهَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٣].

مُتَّكئين في الجَنَّة على الأرائك (السُّرُر في الحِجَال) ، لا يُعَانُون مِن شِدَّةِ الحَر ولا قَسوة البَرْد . وفي الجَنَّة لا صَيف ولا شِتاء ، ولا شمس ولا قَمَر . إنَّ أهل الجَنَّة في حالة واحدة مُعتدلة دائمة إلى الأبد ، بلا أذى ، ولا إزعاج ، ولا ألم . وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١٩/ ٨٤ و٨٥) : ((ولمَّا ذَكَرَ طَعَامَهم ولِباسَهم ، وَصَفَ نعيمَهم ومساكنهم ، فقال : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها على الأرائكِ ﴾ ، أي: مُضْطَجِعين في الجَنَّة على الأسِرَّة المُزيَّنة بفَاخِر الثِّياب والسُّتُور. قال المُفسِّرون: الأرائك جَمْع أريكة ، وهي السَّرير تُرخَى عَلَيه الحَجَلَة ، والحَجَلَةُ هي ما يُسدَل على السَّرير مِن

فاخر الثِّياب والسُّتُور ، وإِنَّما خَصَّهُم بهذه الحالة ، لأنَّها أتم حالات المُتَنَعِّم ، ﴿ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْسًا ولا زَمْهَرِيرًا﴾ ، أي: لا يَجِدُون فِيها حَرًّا ولا بَرْدًا ، لأن هَواءها مُعتدل ، فلا حَر ولا قُر ، وإِنَّما هِيَ نَسَمَات تَهُبُ مِن العَرْش تُحيي الأنفاسَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِم ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذليلًا ﴾ [الإنسان : ١٤] .

ظلال الأشجار في الجَنَّة قَريبة مِن المؤمنين الأبرار ، فهي تُظلِّلهم ، معَ أنَّ الجَنَّة لا شمس فيها ولا قمر ، وهذا يدل على نعيمهم وسعادتهم واستمتاعهم ، وسُخِّرَتْ لهم قُطُوفُها ، وأُدْنِيَتْ مِنهُم ثِمَارُها ، حيث يتناولون مِنها بكل سُهولة قائمين وقاعدين ومُضطجعين ، لا يُؤْذِي أيديهم شَوْكٌ ، ولا يُعانون مِن بُعد المسافة. وإذا أرادَ أحدُهُم أن يتناول من ثمارها، اقتربت مِنه،حتى يتناول ما يُريد . وعن البراء بن عازب ــ رضي اللهُ عنه ــ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذليلًا ﴾ قال : ((ذلك لهم ، فيتناولون مِنها كيف شاؤوا)) [٣١٥].

وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٥٨٦):((﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِم ظِلالُهَا ﴾ أي: قريبة إليهم أغصانُها ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذليلًا ﴾ أي متى تَعَاطَاه دَنَا القِطْف (العُنقُود) إليه، وتَدَلَّى مِن أعلى غُصنه كأنه سامع طائع... قال مجاهد: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذليلًا ﴾ إنْ قام ارتفعت معه بقَدْر،وإنْ قَعَدَ تَذَلَّلَتْ له حتى ينالها، وإن اضطجعَ تَذَلَّلَتْ له حتى ينالها،فذلك قَوله تعالى: ﴿تَذليلًا﴾ وقال قَتادة: لا يَرُدُّ أيديهم عنها شَوك ولا بُعد.وقال مُجاهد:أرض الجنة مِن وَرِق (فِضَّة)، وتُرابها مِن المِسْك ، وأصول شجرها مِن ذهب وفِضَّة، وأفنانها (أغصانها) من اللؤلؤ الرَّطْب والزَّبَرْجَد والياقوت والوَرِق ، والثَّمَر بين ذلك ، فَمَن أكلَ مِنها قائمًا لَم تُؤْذِه ، ومَن أكل مِنها قاعدًا لَم تُؤْذِه ، ومَن أكلَ مِنها مُضْطَجِعًا لَم تُؤْذِه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وأكوابٍ كانَتْ قَوَارِيرا ﴾ [الإنسان : ١٥]. هذا وَصْف لشراب أهل الجَنَّة ، بعد وَصْف طعامهم ولِباسهم ومَسكنهم . يَدُور الخَدَمُ على هؤلاء الأبرار بأواني الفِضَّة إذا أرادوا الشُّرْبَ ، وهذا يُشير إلى مُنتهى النَّعِيم والرَّغَد والرَّفَاهِيَة، وهذه الأواني هي الصِّحَاف ، بعضها مِن فِضَّة ، وبعضها مِن ذَهَب : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ ﴾ ، ولا تعارُض بين الآيَتَيْن ، فَتَارَةً يُسْقَوْنَ بهذا ، وتَارَةً بذاك .

وأكواب (جَمْع كُوب ، وهو الذي لا أُذُن له ولا عُروة) لها بَيَاض الفِضَّة ، وصَفاء الزُّجاج ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأكواب رقيقة شَفَّافة، وهذا مُنتهى الحُسْن والجَمَال والبَهَاء .

---

٣١٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٥) برقم (٣٨٨٤) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٦) : ((قال ابن عباس ومُجاهد والحَسَن البَصري وغَير واحد: بَيَاض الفِضَّة في صَفَاء الزُّجاج ، والقوارير لا تكون إلا مِن زُجَاج، فهذه الأكواب هِي مِن فِضَّة ، وهي مع هذا شَفَّافة ، يُرى ما في باطنها من ظاهرها ، وهذا مِمَّا لا نظير له في الدُّنيا . قال ابن المُبارك عن إسماعيل عن رَجُل عن ابن عباس : لَيس في الجَنَّة شيء إلا قد أُعْطِيتم في الدُّنيا شَبَهَه إلا قوارير مِن فِضَّة)) اهـ . وفي تفسير النَّسَفي (٤/ ٣٠٤) : ((قال ابن عباس رضي اللهُ عنهما: قوارير كُل أرض مِن تُربتها ، وأرض الجَنَّة فِضَّة)) اهـ . وفي تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٩٧) : ((ومعنى : ﴿ كانَتْ ﴾ أنَّ الله تعالى أوجدها بقُدرته، فيكون تفخيمًا لِتلك الخِلْقة العَجيبة الشَّأن، الجامعة بَين بَيَاض الفِضَّة ونُصوعها ، وشَفيف القوارير وصَفائها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَوَارِيرا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْديرًا ﴾ [الإنسان : ١٦]. قوارير جامعة بين صَفَاءِ الزُّجاج وبَياضِ الفِضَّة . والمعنى : بَيَاض الفِضَّة في صَفَاء القوارير ، فهي مِن فِضَّة في صَفَاء الزُّجَاج ، يُرى ما في داخلها مِن خارجها . قدَّرها السُّقاةُ والخدمُ الذين يَطُوفون عليهم ، على مِقدار حاجتهم، بلا زيادة ولا نُقصان، وهذا ألذ وأشهى، وأبلغ في الاعتناء والشَّرَف والكرامة .

وقال القرطبي في تفسيره(١٩/ ١٢٦):((قوله تعالى: ﴿ كانَتْ قَوَارِيرا(١٥) قَوَارِيرا مِن فِضَّةٍ ﴾ أي: في صَفَاء القوارير وبَيَاضِ الفِضَّة ، فصَفاؤها صَفَاء الزُّجاج، وهي مِن فِضَّة. وقِيل: أرض الجَنَّة مِن فِضَّة ، والأواني تُتَّخذ مِن تُربة الأرض التي هي مِنها ، ذَكَرَه ابن عباس ، وقال : ليس في الجَنَّة شيء إلا قد أُعْطِيتُم في الدُّنيا شَبَهَه إلا القوارير مِن فِضَّة . وقال : لَوْ أخذتَ فِضَّةً مِن فِضَّة الدُّنيا فضربتها حتى تَجعلها مِثل جَناح الذُّبَاب لَم تَرَ مِن ورائها الماء ، ولكن قوارير الجَنَّة مِثل الفِضَّة في صَفاء القوارير ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْديرًا ﴾ ، أي : قَدَّرَهَا لهم السُّقَاةُ الذين يَطُوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومُجاهد وغَيرهما : أَتَوْا بها على قَدْر رِيِّهم بغَير زيادة ، ولا نُقصان . الكلبي : وذلك ألذ وأشهى . والمعنى : قَدَّرتها الملائكةُ التي تَطُوف عَلَيهم . وعن ابن عباس أيضًا : قَدَّروها على مِلْء الكَف ، لا تَزيد ، ولا تَنقُص ، حَتَّى لا تُؤْذِيَهُم بثِقْل ، أوْ بإفراط صِغَر . وقِيل: إنَّ الشاربين قَدَّرُوا لها مقادير أنفسهم على ما اشتَهَوْا وقَدَّروا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأسًا كانَ مِزَاجُهَا زَنجبيلًا ﴾ [الإنسان : ١٧] .

يُسقَى هؤلاء الأبرار في الجَنَّة كَأسًا مِن الخَمْر مَمزوجة بالزَّنجبيل ذي الرَّائحة الطَّيبة . وقد كانت العرب تستلذ مَزْجَ الشَّراب بالزَّنجبيل لِطِيب رَائحته . والكأسُ كُلُّ إناء كان فيه شراب ، فإذا كان فارغًا مِن الخَمْر لَم يُقَلْ له كأس ، وإنَّما يُقَال له إناء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٦) : ((وقَوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأسًا كانَ مِزَاجُهَا زَنجبيلًا ﴾ ، أي: ويُسْقَوْنَ ، يعني الأبرار أيضًا ، في هذه الأكواب ﴿ كَأسًا ﴾ أي : خَمْرًا ﴿ كانَ مِزَاجُهَا زَنجبيلًا ﴾ ، فتَارَةً يُمزَج لهم الشَّراب بالكافور وهو بارد ، وتَارَةً بالزَّنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يُمزَج لهم مِن هذا تَارَةً ، ومن هذا تَارَةً ، وأمَّا المُقرَّبون فإنَّهُم يَشرَبون مِن كُل مِنهما صِرْفًا (غَير مَمزوج) ، كما قال قتادة وغير واحد)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٢٦): ((وكانت العرب تستلذ مِن الشَّراب ما يُمزَج بالزَّنجبيل لطِيب راحته ، لأنَّه يَحذو اللسان ، ويَهضِم المَأكول ، فرُغِّبُوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النِّعْمَة والطِّيب)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٦) : ((قال مقاتل : لا يُشبِه زَنجبيلَ الدُّنيا . قال ابن عباس : كُل ما ذَكَرَ اللهُ في القُرآن مِمَّا في الجَنَّة وسمَّاه ، لَيس له في الدُّنيا مِثْل . وقِيل : هو عَين في الجَنَّة يُوجَد مِنها طَعْم الزَّنجبيل . قال قَتادة : يَشْرَبُها المُقرَّبون صِرْفًا ، ويُمزَج لسَائر أهل الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَيْنًا فِيها تُسَمَّى سَلْسبيلًا ﴾ [الإنسان: ١٨]. يَشْرَبُون مِن عَين في الجَنَّة تُسمَّى سَلْسبيلًا ، لسُهولة دُخولها في الحَلْق (بسبب عُذوبتها وصَفائها) ، وانقيادها لأهل الجَنَّة يَقُودُونها حَيث شاؤوا. وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٦): ((﴿ عَيْنًا فِيها تُسَمَّى سَلْسبيلًا ﴾ . قال قَتادة : سَلِسَة مُنقادة لهم يَصْرِفُونها حيث شاؤوا . وقال مُجاهد : حديدة شديدة الجِرْيَة. وقال أبو العالية ومُقاتل بن حَيَّان : سُمِّيَتْ سَلْسبيلًا ، لأنَّها تَسِيل عليهم في الطُّرُق وفي منازلهم ، تَنْبُع مِن أصل العَرْش مِن جَنَّة عَدْن إلى أهل الجِنَان، وشراب الجنة على بَرْد الكافور ، وطَعْم الزَّنجبيل ، ورِيح المِسْك . قال الزَّجاج : سُمِّيَتْ سَلْسبيلًا ، لأنها في غاية السَّلاسة ، تتسلسل في الحَلْق . ومعنى قَوله : ﴿ تُسَمَّى ﴾ ، أي : تُوصَف ، لأن أكثر العُلَماء على أنَّ سَلْسبيلًا صِفة لا اسم)) .

وفي صَفوة التفاسير (١٩/ ٨٦) : ((قال المُفسِّرون: السَّلْسبيل: الماء العَذْب ، السَّهْل الجَرَيَان في الحَلْق لعُذوبته وصَفائه، وإنَّما وُصِفَ بأنَّه سَلْسبيل ، لأن ذلك الشراب يكون في طَعْم الزَّنجبيل ، ولكن لَيس فيه لَذْعته ، فيَشعر الشاربون بطَعْمه ، لكنهم لا يَشْعُرُون بحَرَافته (طَعْم يَحرِق اللسان)، فيبقى الشراب سَلسبيلًا ، سَهْل المَسَاغ في الحَلْق)) اهـ . وفي صحيح ابن حِبَّان (١٦/ ٤٤٠) أنَّ أحد اليهود سأل النبيَّ ﷺ عَن أوَّل الناس إجازةً ؟، فقال:((فُقَراء المُهاجرين)). فقال اليهودي : فما تُحْفَتُهُم حِين يَدخُلون الجَنَّةَ ؟ قال : ((زائدة كَبِد النُّون))، قال : ما غداؤهم على إِثْرِها ؟ قال : ((يُنحَر لهم ثَوْرُ الجَنَّة الذي كان يأكل مِن أطرافها))، قال: فما شرابهم عَلَيه؟ قال : ((مِن عَين فِيها تُسمَّى سَلْسبيلًا)) ، قال : صَدَقْتَ .

سَأل اليهوديُّ عن أول الناس عُبورًا إلى الجَنَّة في الآخِرة ، فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّهُم فُقَراء المُهاجرين ، بسبب إيمانهم وطاعتهم وصَبرهم على الفقر وصُعوبة العَيش . وسأل اليهوديُّ عن تُحفتهم حِينَ يَدخُلون الجَنَّةَ ، وهي ما يُهدَى إلى الرَّجل تكريمًا له، فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّ تُحفتهم هي طَرَف كَبِد الحُوت ، وهي أطْيَبها . وسأل اليهوديُّ عن غَدائهم بعد تُحفتهم ، فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّ غِذاءهم أن يُذبَح لهم ثَور الجَنَّة الذي يَأكل مِن أطرافها . وسأله اليهوديُّ عن شَرَابهم على هذا الغَدَاء (ثَور الجَنَّة المَذبُوح) ، فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّ شَرابهم مِن عَين في الجَنَّة تُسمَّى سَلْسبيلًا . وقد اعترفَ اليهوديُّ بصِدْق النبيِّ ﷺ ، والحَق ما شَهِدَتْ بِه الأعداءُ . وهذا يدلُّ على أنَّ اليهوديَّ لَدَيه عُلوم ومعارف مأخوذة مِن كُتب اليهود الدينية ، وهي تَشتمل على ذِكْر النبيِّ مُحمَّد ﷺ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤلُؤًا مَنثورًا﴾[الإنسان:١٩].

ويَدُور على هؤلاء الأبرار في الجَنَّة غِلْمَان لخدمتهم وتَلبية أوامرهم ، باقون على ما هُم عليه من الشَّباب والحُسن والبَهَاء والطَّراوة ، لا يَموتون ، ولا يَهْرَمُون ، ولا يتغيَّرون ، ولا يَمْرَضُون . إذا نَظَرْتَ إلَيهم ، وهُم مُنتشرون في الجَنَّة لخِدمة أهلها ، ظَنَنتهم لُؤلُؤًا مُفَرَّقًا ، بسبب جَمَالهم ، وبَيَاضهم ، ونضارة وُجوههم ، وصَفاء ألوانهم . وشُبِّهُوا باللؤلؤ المَنثور، لانتشارهم في خِدمة أهل الجَنَّة، وَلَوْ كانوا صَفًّا لَشُبِّهُوا باللؤلؤ المَنظوم . واللؤلؤ المَنثور (المُتفرِّق) يَكون في غاية الجَمَال والرَّوعة ، لانعكاس شُعاع بعضه إلى بعض . لذلك قال اللهُ تعالى : ﴿مَنثُورًا﴾ ، ولَم يَقُل: مَنظُومًا . وقِيل : إنَّما شبَّههم بالمَنثور لأنَّهُم سِرَاع في الخِدمة ، بخِلاف الحُور العِين ، فإنَّهُ شَبَّهَهُنَّ باللؤلؤ المَكنون ، لأنهنَّ لا يُمتهنَّ بالخِدمة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٦) : ((وقَوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤلُؤًا مَنثُورًا﴾ ، أي : يَطُوف على أهل الجَنَّة للخِدمة وِلْدان مِن وِلْدان الجَنَّة ، ﴿ مُخَلَّدُونَ ﴾ ، أي: على حالة واحدة مُخلَّدون عليها ، لا يتغيَّرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السِّن . ومَن فسَّرهم بأنَّهُم مُخرَّصون في آذانهم الأقرطة ، فإنَّما عبَّر عَن المعنى بذلك ، لأن الصغير هو الذي يَلِيق له ذلك دُون الكبير . وقَوله تعالى : ﴿ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤلُؤًا مَنثُورًا﴾ ، أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قَضاء حوائج السَّادة، وكثرتهم، وصَبَاحة وُجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحُلِيِّهم ، حَسِبْتَهُم لُؤلُؤًا مَنثورًا ، ولا يَكون في التَّشبيه أحسن مِن هذا ، ولا في المنظر أحسن مِن اللؤلؤ المَنثور على المكان الحَسَن . وقال قَتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو : ما مِن أهل الجنة مِن أحد إلا يَسعَى عَلَيه ألف خادم ، كُل خادم على عَمَل ما عَلَيه صاحبه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا رَأيْتَ ثَمَّ رَأيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢٠] .

وإذا رَأيْتَ يا مُحمَّد هُناك، في الجَنَّة، رَأيْتَ نعيمًا عظيمًا لا يُوصَف، ومُلْكًا واسعًا ، لا حَد له، ولا غاية . لا يُريدون شيئًا إلا حَصَلُوا عَلَيه ، ولا يَدخُل عَلَيهم مَلَك إلا باستئذان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٦) : ((قَوله جَلَّ وعلا: ﴿ وإذا رَأيْتَ ﴾ ، أي: وإذا رَأيْتَ يا مُحمَّد ﴿ ثَمَّ ﴾ ، أي : هُناك ، يَعْني في الجَنَّة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها ، وما فِيها مِن الحَبرة والسُّرور ، ﴿ رَأيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ ، أي : مَملكةً لله هُناك عظيمة ، وسُلطانًا باهرًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٩٣) : ((قال السُّدي : النَّعيم ما يُتَنَعَّم به ، والمُلْك الكبير: استئذان المَلائكة عَلَيهم، وكذا قال مُقاتل والكلبي)) اهـ . وفي الحديث أنَّ الله تعالى يَقول لآخِرِ أهل النار خُروجًا مِنها ، وآخِرِ أهل الجَنَّة دُخولًا إلَيها : ((اذْهَبْ فَادْخُل الجَنَّةَ ، فإنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنيا ، وعَشْرَةَ أمثالها)) [٣١٦]. وإذا كان هذا عطاءُ الله تعالى لأقل أهل الجَنَّة درجةً وأدناهم مَنزلة ، فكيفَ يَكون عطاءُ الله لأصحاب الدَّرَجات العُليا والمنازل الرفيعة ؟! . وعن ابن عُمر قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ أدنى أهل الجَنَّة مَنزلةً لَيَنْظُرُ في مُلْكه ألْفَي سَنَة ، يَرَى أقصاه كما يَرَى أدناه، يَنظُر في أزواجه وخَدَمه ، وإنَّ أفضلهم مَنزلةً لَيَنْظُرُ في وَجْه الله تعالى كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْن)) [٣١٧].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَالِيَهُم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] . تَعْلُوهم ثِيَاب الحرير الخضراء ، الرَّقيقة مِنها (السُّندُس) والغليظة (الإستبرق). ولِبَاسُ المؤمنين في الجَنَّة الحرير: ﴿ وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾[الحَج: ٢٣] .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ﴿ عَالِيَهُم ﴾ تُشير إلى أنَّ الرَّجُل في الجَنَّة عَلَيه ثِيَاب،يَعْلُوها أفضل مِنها، وهي ثِيَاب حرير رقيقة خضراء ، وثياب حرير غليظة . وزُيِّنُوا في الجَنَّة بأساور مِن فِضَّة ، والتَّعبيرُ بالفِعل الماضي : ﴿ حُلُّوا ﴾ عن أمر مُستقبلي ، لتحقُّق وُقوعه وتأكُّد حُدوثه ، فهو بمَثابة الماضي الذي تَمَّ وانقضى . وسقاهم اللهُ شرابًا نظيفًا طاهرًا لَم تُدنِّسه الأيدي ، ولَيس بنَجِس كخَمْر الدُّنيا . ومِن طُهْره أنَّه لا يَصِير بَوْلًا نَجِسًا ، ولكنَّه يَصير رَشْحًا مِن أجسامهم كَرَشْح المِسْك . وقد وَرَدَ في آية أُخرى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساورَ مِن ذَهَبٍ﴾ ، وهذا يعني أنَّهم يُحلَّوْنَ مِنَ النَّوْعَيْن معًا ومُفَرَّقًا.

---

٣١٦ متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٤٠٢) برقم (٦٢٠٢) ، ومسلم (١/ ١٧٣) برقم (١٨٦) .

٣١٧ رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٣) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٤١): ((رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ، وفي أسانيدهم ثُوَير بن أبي فاختة ، وهو مُجمَع على ضَعفه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٦) : ((وقَوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ عَالِيَهُم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ ﴾ ، أي : لِبَاس أهل الجَنَّة ، فيها الحرير ، ومِنه سُندُس ، وهو رفيع الحرير كالقُمصان ونَحْوها مِمَّا يَلِي أبدانهم ، والإستبرق مِنه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مِمَّا يَلِي الظاهر كما هو المَعهود في اللباس ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ، وهذه صِفَة الأبرار ، وأمَّا المُقرَّبون فكما قال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ ﴾[الحَج : ٢٣]. ولمَّا ذَكَرَ تعالى زِينةَ الظاهر بالحرير والحُلِيِّ ، قال بَعْده : ﴿ وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَرَابًا طَهُورًا ﴾ ، أي : طَهَّرَ بواطنهم مِن الحَسَد ، والحِقْد ، والغِل ، والأذى ، وسائر الأخلاق الرديئة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ هَذا كانَ لَكُم جَزَاءً وكانَ سَعْيُكُم مَشْكُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٢] .

إنَّ ما أعطاكم اللهُ مِن النعيم والكرامة ، كان لكم ثوابًا على عبادتكم وطاعتكم وأعمالكم الصالحة في الدُّنيا ، وكان عَمَلُكم مَحمودًا مَقبولًا مَرْضِيًّا مُقَابَلًا بالثواب . وشُكْرُ الله لعمل عبده ، هو قَبوله لطاعته ، وَمَنْحه أفضل الثواب ، وهذا تكريمٌ إلهيٌّ لهم ، وإحسان إلَيهم ، وتفضُّل عَلَيهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ هَذا ﴾ يعني ما وصف مِن نَعيم الجنة ﴿ كانَ لَكُم جَزَاءً ﴾ بأعمالكم ، ﴿ وكانَ سَعْيُكُم ﴾ ، أي : عَمَلُكُم في الدُّنيا بطاعته ﴿ مَشْكُورًا ﴾ . قال عطاء : يُريد شَكَرْتُكُم عَلَيه ، وأثَبْتُكُم أفضلَ الثَّوَاب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ للمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النَّبأ : ٣١] . إنَّ للمؤمنين الذين اتَّقَوا اللهَ في الحياة الدُّنيا بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، مَوْضِعَ فَوز ونَجَاة وخَلاص مِن عذاب أهل النار . أي إنَّ للمؤمنين مكانَ فَوز في الجَنَّة. وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤١٠): ((يقول: إنَّ للمُتَّقين مَنْجًى مِن النار إلى الجَنَّة ، ومَخْلَصًا مِنها لهم إلَيها ، وظَفَرًا بما طَلَبُوا)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿حَدَائِقَ وأعْنَابًا ﴾[النَّبأ: ٣٢]. هذا تَفسير الفَوز: بساتين تشتمل على جميع أنواع الأشجار المُثمرة التي تَبعث البهجة ، وكُرُوم أعناب مِن كُل الأصناف التي تَشتهيها النُّفُوس .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤١٠): ((وقَوله: ﴿حَدَائِقَ ﴾ والحدائق : تَرجمة وبَيَان عَن المَفَاز، وجاز أن يُتَرْجَم بها عنه لأنَّ المَفَاز مَصْدَر مِن قَول القائل:فاز فُلان بهذا الشَّيء:إذا طَلَبَه فَظَفِرَ به فكأنَّه قِيل : إنَّ للمُتَّقين ظَفَرًا بما طَلَبُوا مِن حدائق وأعناب. والحدائق: جمع حديقة وهي البساتين مِن النخل والأعناب والأشجار المُحَوَّط عليها الحِيطان المُحْدِقة بها، لإحداق الحِيطان بها تُسَمَّى الحديقة حديقة، فإنْ لم تكن الحِيطان بها مُحْدِقة لَم يُقَلْ لها حديقة ، وإحداقها بها : اشتمالها عليها . وقَوله : ﴿ وأعْنَابًا ﴾ يعني : وكُرُوم أعناب ، واستغنى بذِكْر الأعناب عَن ذِكْر الكُرُوم)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النَّبأ: ٣٣]. وحُور أبكار نَوَاهِد ، مُتساويات في السِّن . والكَوَاعِبُ جَمْع كَاعِب،وهي التي بَرَزَ ثَدْيُهَا.وقال البغوي في تفسيره(١/ ٣١٦): ((﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جَوَارِي نَوَاهِد ، قَد تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهُنَّ، واحدتها كَاعِب ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مُستويات في السِّن)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكَأسًا دِهَاقًا ﴾ [النَّبأ : ٣٤]. وكَأسًا مِن الخَمْر، مُمتلئة ومُتتابعة وصافية.

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَأسًا دِهَاقًا ﴾ . قال : ((هِيَ المُتتابعة المُمتلئة)) [٣١٨].

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤١١) : ((وقَوله : ﴿ وَكَأسًا دِهَاقًا ﴾ ، يَقول : وكَأسًا مَلأى مُتتابعة على شاربيها بكَثرة وامتلاء . وأصْلُه مِن الدَّهْق : وهو مُتابعة الضَّغْط على الإنسان بشِدَّة وعُنف ، وكذلك الكأس الدِّهَاق: مُتَابَعَتُهَا على شاربيها بكَثرة وامتلاء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْوًا ولا كِذَّابًا ﴾ [النَّبأ : ٣٥] . لا يَسمعون في الجَنَّة كلامًا باطلًا ، ولا يُكذِّب بعضُهم بعضًا . وأهلُ الدُّنيا إذا شربوا الخمرَ تكلَّموا بالباطل ، وأهل الجَنَّة مُنَزَّهُون عن ذلك ، لأنهم مؤمنون أبرار ، والجَنَّة دار السَّلام الخالية مِن النَّقائص والعُيوب .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٦٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْوًا ولا كِذَّابًا ﴾ اللغو : الباطل ، وهو ما يُلغَى من الكلام ، ويُطرَح ... ، وذلك أنَّ أهل الجَنَّة إذا شَرِبُوا لَم تتغيَّر عُقُولُهُم ، ولَم يتكلَّموا بلَغْو ، بخِلاف أهل الدُّنيا ، ﴿ ولا كِذَّابًا ﴾ ، أي : لا يُكذِّب بعضُهم بعضًا ، ولا يَسْمَعُون كَذِبًا)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الأبرارَ لَفِي نَعِيم ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٢] .

إنَّ المؤمنين الأبرار الذي أطاعوا اللهَ ، وابتعدوا عن معصيته، في الحياة الدُّنيا، لَفِي نعيم دائم لا يَزول ، ولا يَنقطع ، في يَوم القِيامة . أي إنَّهُم في الجَنَّات يَتَنَعَّمُون ويَفْرَحُون إلى الأبد . وقال الطبري في تفسيره(١٢/ ٤٩٥):((وقَوله: ﴿ إنَّ الأبرارَ لَفِي نَعِيم ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ الأبرار الذين بَرُّوا باتِّقاء الله، وأداء فرائضه،لَفِي نعيم دائم لا يَزُول يَوم القِيامة،وذلك نَعيمهم في الجِنَان)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ على الأرائكِ يَنظُرُون ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٣] .

على السُّرُر في الحِجَال (السُّرُر المُزيَّنة بالثياب الفاخرة والسُّتُور الباهرة). والأرائك جَمْع أريكة ، وهي السَّرير تحت الحَجَلَة (القُبَّة المُزَيَّنة بالثِّياب والسُّتُور) ، والحَجَلَةُ مُفرَد الحِجَال . يَنظُرون إلى ما أعطاهم اللهُ في الجَنَّة مِن النعيم والكرامة .

---

٣١٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٦) برقم (٣٨٩١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٩٦):((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله : ﴿ على الأرائكِ يَنظُرُون ﴾ على السُّرُر في الحِجَال مِن اللؤلؤ والياقوت، يَنظُرون إلى ما أعطاهم الله مِن الكرامة والنعيم والحَبرة (السُّرُور) في الجِنَان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَعْرِفُ في وُجُوهِهِم نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٤] .

إذا رَأيْتَ الأبرارَ تَعرِف أنَّهُم أهل نِعمة ، وأصحاب مكانة رفيعة ، لِمَا في وُجوههم مِن الحُسن والنُّور والبَهَاء والبَهجة والسُّرُور والرَّفَاهِيَة ، مِمَّا هُم فيه مِن النعيم الدَّائم والكرامة الأبدية في الجَنَّات.والخِطابُ لكل شخص يَصلُح لذلك. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٢٦): ((وقَوله : ﴿ تَعْرِفُ في وُجُوهِهِم نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ ، أي: تَعرِف إذا نَظَرْتَ إلَيهم في وُجوههم نَضْرَةَ النَّعيم ، أي: صِفَة التَّرَافة ، والحِشمة ، والسُّرور ، والدَّعَة والرِّياسة ، مِمَّا هُم فيه مِن النعيم العظيم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُوم ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٥]. يُسقَى هؤلاء الأبرار في الجَنَّة مِن خَمْر بَيضاء صافية ، لا شائبة فيها ولا غِش . والرَّحيقُ أجْوَد الخَمْر ، والمَختوم المَصُون الذي خُتِمَ ، ومُنِعَ مِن أن تَمَسَّه يَد إلى أن يَفُكَّ خَتْمَه الأبرارُ . وهذا يدل على نَفَاسته وجَودته . وقال القرطبي في تفسيره(١٩/ ٢٣١):((قَوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ﴾ أي:مِن شَرَاب لا غِش فيه ، قاله الأخفش والزَّجاج. وقِيل: الرَّحيق الخَمْر الصافية. وفي الصِّحاح : الرَّحيق صَفوة الخَمر ، والمعنى واحد. الخليل : أصفى الخَمْر وأجْوَدها. وقال مُقاتل وغَيْرُه : هي الخَمْر العتيقة البَيْضَاء الصافية مِن الغِش النَّيِّرة ... قَوله تعالى : ﴿ مَخْتُوم (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ . قال مجاهد : يُختَم به آخِر جُرعة. وقِيل : المعنى: إذا شَرِبُوا هذا الرَّحيق فَفَنِيَ ما في الكأس ، انختمَ ذلك بخَاتَم المِسْك)) اهـ . وعن أبي سعيد الخُدريِّ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيُّمَا مُؤمِن أطعمَ مُؤمِنًا على جُوع ، أطعمه اللهُ يَوْمَ القِيامةِ مِن ثِمار الجَنَّة، وأيُّما مُؤمن سَقى مُؤمنًا على ظَمَأ ، سَقَاه اللهُ يَوْمَ القِيامة مِنَ الرَّحيق المَختوم، وأيُّما مُؤمن كَسَا مُؤمنًا على عُرْيٍ ، كَسَاه اللهُ مِن خُضْرِ الجَنَّة)) [٣١٩] .

مَن أطعمَ مُؤمنًا جائعًا في الدُّنيا ، أطعمه اللهُ يوم القيامة مِن ثمار الجَنَّة ، ومَن سَقى مؤمنًا عَطْشَان ، سَقَاه اللهُ يَوم القِيامة مِن خَمر الجَنَّة الصافي المَصُون الذي لا يَمَسُّه إلا أصحابُه . ومَن ألبسَ مؤمنًا عاريًا ، ألبسه اللهُ مِن الثِّياب الخضراء في الجَنَّة . والجَزَاءُ مِن جِنس العَمَل .

٣١٩ رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٦٣٣) ، وقال : ((هذا حديث غريب . وقد رُوِيَ عن عطية عن أبي سعيد مَوقوف ، وهو أصَح عِندنا وأشبَه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٤٢ و١٤٣) عن رواية أُخرى للحديث : (((أيُّما مُسلم كَسَا مُسْلِمًا ثَوبًا على عُرْي) أي على حالة عُرْي للمَكْسِيِّ(كَسَاه اللهُ تعالى مِن خُضْر الجَنَّة) بضَم الخاء وسُكون الضَّاد، جَمْع أخضر، أي: مِن ثِيابها الخُضْر، فهو من إقامة الصِّفة مُقام المَوصوف كما ذكره الطيبي (وأيُّما مسلم أطعمَ مُسلمًا على جُوع أطعمه اللهُ يوم القيامة مِن ثِمار الجَنَّة وأيُّما مُسلم سقى مُسلمًا على ظمأ) أي عَطَش (سقاه اللهُ تعالى يوم القِيامة مِن الرَّحيق) اسم مِن أسماء الخَمْر (المَختوم) أي يَسْقِيه مِن خَمْر الجَنَّة الذي خُتِمَ عَلَيه بمِسْك. قال النوربشتي : الرَّحيق الشراب الخالص الذي لا غِش فيه،والمَختوم الذي يُختَم مِن أوانيها وهو عبارة عن نَفَاستها وكرامتها، وهذا إشارة إلى أن الجَزاء مِن جِنس العمل، والنصوص فيه كثيرة، والمُراد أنَّه يَختص بنوع من ذلك أعلى،وإلا فكُل مَن دَخَلَ الجَنَّةَ كَسَاه اللهُ مِن ثِيابها وأطعمه وسَقاه مِن ثِمارها وشَرابها ، ويَظهَر أنَّ المُراد المُسلم المَعصُوم ، ويُحتمل إلحاق الذِّمِّي العاري الجائع به)) [٣٢٠] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُون ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٦] .

جَعَلَ اللهُ خَمْرَ الجَنَّةِ طَيِّبَةً طاهرةً صافيةً رائعةً ، يَجِد المؤمنون عاقبتها طَعْمَ المِسْك ورائحته. أي إنَّ آخِر طَعْم الخَمْر هو المِسْك ، وهذا بخِلاف خَمْر الدُّنيا ، لأنَّ الكَدَر يَكون في آخِرها . وهذا يدلُّ على نَفَاسة خَمْر الجَنَّة وجَودتها . وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمُبادَرة إلى عبادة الله وطاعته،والمُسارَعة إلى فِعل الخَيرات.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٩/ ٥٩) : ((وللمُفسِّرين في قَوله تعالى: ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أربعة أقوال: أحدها خَلْطه مِسْك، قاله ابن مسعود ومُجاهد. والثاني أنَّ خَتْمه الذي يُختَم به الإناء مِسْك، قاله ابن عباس . والثالث أنَّ طَعْمه وريحه مِسْك، قاله عَلقمة. والرابع أنَّ آخِر طَعْمه مِسْك،قاله سعيد بن جُبَير والفَرَّاء وأبو عُبَيدة وابن قُتَيبة والزَّجاج في آخرين))اهـ.وقال الطبري في تفسيره(١٢/ ٤٩٧):((وقَوله: ﴿ وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُون ﴾ يَقول تعالى ذِكْرُه : وفي هذا النعيم الذي وَصَفَ جَلَّ ثناؤه أنَّه أعطى هؤلاء الأبرار في القِيامة فليتنافس المُتنافسون. والتَّنَافُس : أن يَنفِس الرَّجُلُ على الرَّجُل بالشَّيء يَكون له ، ويتمنَّى أن يكون لَه دُونه ، وهو مأخوذ مِن الشيء النَّفيس، وهو الذي تَحرِص عَلَيه نُفُوس الناس وتَطلُبه وتَشْتَهيه ، وكأنَّ معناه في ذلك : فَلْيَجِدَّ الناسُ فيه ، وإليه فليستبقوا في طَلَبه ، وَلْتَحْرِصْ عَلَيه نُفُوسُهُم)) .

٣٢٠ قال المُناوي في نَفْس الموضع : ((قال المنذري : رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد ابن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ . ولَيَّنه ابن عَدِي)) .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ، قال : ((خَلْط ، ولَيْس بِخَاتَمٍ يَخْتِم)) [321].

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٧]. ويُخلَط ويُمزَج ذلك الرَّحيق بالتَّسنيم ، وهو شراب ينصبُّ عَلَيهم مِن عُلُوٍّ ، وهو أشرف شراب في الجَنَّة . وتَسنيم عَين ماء عظيمة عالية ، تَجْري مِن الأعلى إلى الأسفل . وأصلُ التَّسنيم في اللغة الارتفاع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٥٩ و٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم ﴾ فيه قَولان: أحدهما أنَّه اسم عَيْن في الجَنَّة يَشربها المُقرَّبون صِرْفًا (غَير مَخلوطة) ، وتُمزَج لأصحاب اليمين . والثاني أنَّ التَّسنيم الماء ، قاله الضَّحاك . قال مُقاتل : وإنَّما سُمِّيَ تَسنيمًا لأنَّه يَتَسَنَّم عَلَيه مِن جَنَّة عَدْن، فينصبُّ عليهم انصبابًا، فيشربون الخمر من ذلك الماء. قال ابن قُتَيبة: يُقَال إنَّ التَّسنيم أرفع شراب في الجَنَّة ، ويُقَال إنَّه يَمتزج بمَاء ينزل مِن تَسنيم ، أي : مِن عُلُوٍّ . وأصل هذا مِن سَنَام البعير ، ومِن تَسنيم القُبور)) .

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِها المُقَرَّبُون ﴾ [المُطَفِّفين : ٢٨] . عَين في الجَنَّة يَشرب مِنها المُقرَّبون صِرْفًا (غَير مَخلوطة) ، وتُمزَج لأصحاب اليمين (سائر أهل الجَنَّة) مَزْجًا . وفي التَّسهيل لعُلوم التَّنزيل (٤/ ١٨٥) : ((تَسنيم اسم لِعَيْن في الجَنَّة يَشرب مِنها المُقرَّبون صِرْفًا ، ويُمزَج مِنه الرَّحيق الذي يَشرب مِنه الأبرار، فدلَّ ذلك على أن درجة المُقرَّبين فوق درجة الأبرار)).

ب _ أصحابها

قالَ اللّهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ أُولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيها خالدون ﴾ [البقرة : ٨٢] . والذين أقَرُّوا بوَحدانية الله ، وصدَّقوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وقاموا بالعبادات ، وفَعلوا الطاعات، أي إنَّهُم جَمَعُوا بين الإيمان (التَّصديق الجازم) والعمل الصالح، أُولئكَ أهل الجَنَّة،هُم فِيها مُقيمون إلى الأبد،لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها، ولا انقطاع لنعيمهم وسعادتهم.

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٤٣٢) : ((ويَعني بقَوله : ﴿ والذينَ آمَنُوا ﴾ ، أي : صَدَّقُوا بما جاء به مُحمَّد ﷺ ، ويَعني بقَوله : ﴿ وَعَمِلُوا الصالحاتِ ﴾ أطاعوا اللهَ ، فأقاموا حُدُودَه ، وأدَّوْا فرائضه ، واجتنبوا محارمه ، ويعني بقَوله : ﴿ أُولئكَ ﴾ فالذين هُم كذلك ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيها خالدون ﴾ ، يَعني : أهلها الذين هُم أهلها ، هُم فيها ﴿ خالدون ﴾ مُقِيمُون أبدًا)) .

---

٣٢١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٢) برقم (٣٩٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا أُولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيها خالدون ﴾ [الأعراف : ٤٢] .

والذين أَقَرُّوا بوَحدانية الله، وصَدَّقوا بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ، وفَعلوا الطاعات، وابتعدوا عن المعاصي، لا يُكلِّف اللهُ أحدًا فَوق طاقته وقُدرته ، بَل يُكلِّفهم بما يَقْدِرُون عَلَيه ، والشَّريعة جاءت لرفع الحَرَج عن الناس، والتخفيف عنهم ، ولَيس التَّضييق عليهم ، وحَشْرهم في الزاوية الضَّيِّقة . أُولئك المؤمنون الصادقون هُم أهل الجَنَّة، هُم فِيها باقون إلى الأبد، لا يَمُوتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٩٢) : ((يَقول جَلَّ ثناؤه : والذين صَدَّقوا اللَّهَ ورسولَه ، وأَقَرُّوا بما جاءهم به مِن وَحْي الله ، وتنزيله ، وشرائع دِينه ، وعَمِلُوا ما أمرهم اللهُ به ، فأطاعوه ، وتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا ﴾ ، يَقول : لا نُكلِّف نَفْسًا مِن الأعمال إلا ما يَسَعُها فلا تَحَرُّج فيه ﴿ أُولئكَ ﴾ يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ ﴾ يقول : هُم أهل الجنة الذين هُم أهلها دُون غَيرهم مِمَّن كَفَرَ بالله ، وعَمِل بسَيِّئاتهم ﴿ هُم فِيها خالدون ﴾ يقول: هُم في الجَنَّة ماكثون، دائم فيها مُكْثُهم، لا يَخرُجون مِنها، ولا يُسلَبون نعيمها)).

والجديرُ بالذِّكر أنَّ ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾ جُملة اعتراضية بين المُبتدأ والخَبَر.وفي البحر المُحيط(٤/ ٢٩٨): ((وفائدته التَّنبيه على أنَّ ذلك العمل في وُسْعهم ، وغَير خارج عن قُدرتهم ، وفيه تَنبيه للكُفَّار على أنَّ الجَنَّة معَ عِظَم ما فيها ، يُوصَل إلَيها بالعمل السَّهل مِن غَير مَشَقَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ولا يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ أُولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيها خالدون ﴾ [يُونُس : ٢٦] .

إنَّ الذين أحْسَنُوا في الدُّنيا بالإيمان ، وفِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، وأتْقَنُوا عباداتهم بالإخلاص ، لهم الجَنَّة ، يتمتَّعون فيها إلى الأبد ، وزِيَادة على نِعيم الجَنَّة الدائم ، النَّظَر إلى وجه الله الكريم . وهذا هو الشَّرَف الأسْمَى ، والنعيم الأكمل ، والمجد الأعلى ، والكرامة العُظمى . وتَنكير ﴿ زِيَادَةٌ ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم ، بحَيث لا يُعرَف قَدْرُها ، ولا يُحَاط بحقيقتها . ولا يَغشَى وُجُوهَهُم غُبار وسَوَاد ، ولا هَوَان وصَغَار ، كما يَغشَى وُجُوهَ أهل النار . أولئك المؤمنون الصادقون هُم أهل الجَنَّة ، هُم فيها باقون إلى الأبد ، يستمتعون بنعيمها الدائم ، بخِلاف مَتَاع الدُّنيا الفاني .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٥) : ((يُخبِر تعالى أنَّ لِمَن أحسنَ العملَ في الدُّنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحُسْنَى في الدَّار الآخِرة ، كقَوله تعالى : ﴿ هَل جَزَاءُ الإحْسَانِ إلا الإحْسَانُ ﴾ [الرَّحمن : ٦٠] . وقَوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هِيَ تَضعيف ثواب الأعمال بالحَسَنَة عَشر

أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف ، وزِيادة على ذلك أيضًا ، ويَشمَل ما يُعطيهم اللهُ في الجِنَان مِن القُصُور والحُور ، والرِّضا عنهم ، وما أخفاه لهم مِن قُرَّة أعْيُن ، وأفضل مِن ذلك ، وأعلاه النَّظَر إلى وجهه الكريم ، فإنَّه زيادة أعظم مِن جميع ما أُعْطُوه ، لا يَستحقونها بعملهم ، بل بفضله ورحمته . وقد رُوِيَ تفسير الزِّيادة بالنَّظَر إلى وَجْهه الكريم ، عن أبي بَكْر الصِّديق وحُذَيفة بن اليَمان وعبد الله ابن عباس وسعيد بن المُسيِّب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومُجاهد وعِكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضَّحاك والحَسَن وقَتادة والسُّدي ومحمد بن إسحاق وغَيرهم مِن السَّلَف والخَلَف ... . وقَوله تعالى : ﴿ ولا يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ ﴾ أي : قَتَام (غُبَار) وسَوَاد في عَرَصَات (ساحات) المَحْشَر ، كما يَعْتري وُجُوه الكَفَرَة الفَجَرَة مِن القَتَرَة والغَبَرَة ﴿ ولا ذِلَّةٌ ﴾ ، أي : هَوَان وصَغَار ، أي: لا يَحصُل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر،بَل هُم كما قال تعالى في حَقِّهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١١] . أي : نَضْرة في وُجُوههم ، وسُرُورًا في قُلوبهم ، جَعَلَنَا اللهُ مِنهُم بفضله ورحمته ، آمِين)) .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٤/ ٣٥٧) : ((وأخرجَ ابنُ جرير وابن أبي حاتم والدَّارَقُطْني وابن مَرْدَوَيْه واللالكائي والبَيهقي في كتاب الرُّؤية عن أُبَي بن كَعْب ــ رضي اللهُ عنه ــ أنَّه سأل رسولَ الله ﷺ عن قَول الله تعالى : ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، قال : " الذين أحْسَنُوا أهلُ التَّوحيد ، والحُسْنَى الجَنَّة ، والزِّيادة النَّظَر إلى وجه الله ")) .

وعن صُهَيب عن النبيِّ ﷺ في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ للذينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، قال : ((إذا دَخَلَ أهلُ الجَنَّةِ نادى مُنَادٍ إنَّ لكم عِند الله مَوْعِدًا يُريد أن يُنْجِزكُمُوه . قالوا : ألَم تُبَيِّضْ وُجُوهَنا ، وتُنَجِّنا من النار ، وتُدْخِلْنا الجَنَّة ؟، قال: فيَكشِف الحِجَابَ، قال: فَوَاللهِ ما أعطاهم اللهُ شيئًا أحبَّ إلَيهم مِن النَّظَر إلَيه)) [٣٢٢].

عِندَما يستقرُّ المؤمنون في الجَنَّة ، يَعتبرون أنَّ هذا مُنتهى الأمل ، وأعظم غاية . فقد بيَّض اللهُ وُجوهَهم، ورَضِيَ عَنهُم ، وأنقذهم مِن النار ، وأدخلهم الجَنَّةَ . ولا يتصوَّرون وُجود شيء أفضل مِن هذا، ولكنَّ اللهَ الكريم، يتفضَّل عَلَيهم، ويَكشِف الحِجَابَ، فَيَنظُرُون إلَيه سُبحانَه وتعالى. ولا يُوجد أعظم مِن هذا الأمر ، ولا أحب إلى المؤمنين مِنه . والحُسْنَى هِيَ الجَنَّة التي أدخلهم اللهُ إيَّاها، والزِّيادة هي النَّظَر إلى وجه الله الكريم. وهذا يدلُّ على فضل الله على المؤمنين ، وإحسانه إلَيهم .

٣٢٢ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٢٨٦) . والحديث في صحيح مسلم (١/ ١٦٣) .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ٢٢٦): ((قَوله: ﴿ للذينَ أحْسَنُوا ﴾ ، أي : الذين أجادوا الأعمالَ الصالحة في الدُّنيا، وقرَّبوها بالإخلاص ﴿ الحُسْنَى ﴾ أي: المَثُوبة الحُسْنَى وهي الجَنَّة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ أي:النَّظَر لِوَجْهه الكريم، ونكَّرَها لتُفيد ضَرْبًا مِن التَّفخيم والتَّعظيم،بحيث لا يُعرَف قَدْرُها ولا يُكتنه كُنهها (نادى مُنادٍ إن لكم عند الله موعدًا) أي: بَقِيَ شيء زائد مِمَّا وَعَدَه اللهُ لكم مِن النِّعَم . وفي رواية مسلم:" يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئًا أزيدكم؟" (ويُنجِّنا) بتَشديد الجِيم ويُخفَّف (مِن النار) أي دُخولها وخُلودها . قال الطيبي : تقرير وتعجيب مِن أنَّه كيف يُمكن الزِّيادة على ما أعطاهم اللهُ تعالى مِن سَعَة فَضْله وكَرَمه (قالوا : بَلَى) كذا في النُّسَخ الموجودة، قالوا بصيغة الجَمْع، والظاهر أن يكون قال بصيغة الإفراد لأنَّ الضمير يرجع إلى مُناد (فيَكشِف الحِجَابَ) وزاد مسلم: فينظرون إلى وجه الله . والظاهر أن المُراد بالحِجَاب حِجَاب النُّور الذي وقع في حديث أبي موسى عند مسلم ولفظه: " حِجَابُه النُّور ، لَوْ كَشَفَه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقه " . قال الطيبي في شرح حديث أبي موسى هذا : إنَّ فيه إشارة إلى أن حِجَابه خِلاف الحُجُب المعهودة ، فهو مُحْتَجِب عن الخَلْق بأنوار عِزِّه وجلاله ، وأشعة عَظَمَته وكِبريائه ، وذلك هو الحِجَاب الذي تُدهَش دُونه العُقُول ، وتُبهَت الأبصار ، وتتحيَّر البصائر ، فَلَوْ كَشَفَه فتجلَّى لِمَا وراءه بحقائق الصفات، وعَظَمَة الذات، لَم يَبْقَ مَخلوق إلا احترق ولا مَنظور إلا اضمحلَّ . وأصلُ الحِجَاب السِّتْر الحائل بين الرَّائي والمَرئي ، والمُراد به هنا مَنْع الأبصار مِن الرُّؤية له بما ذُكِرَ ، فقام ذلك المَنع مُقام السِّتْر الحائل ، فعبَّر به عنه ، وقد ظَهَرَ مِن نُصُوص الكِتاب والسُّنَّة أن الحالة المُشار إلَيها في هذا الحديث، هي في دار الدُّنيا المُعَدَّة للفَنَاء، دُون دار الآخِرة المُعَدَّة للبَقَاء ، والحِجَاب في هذا الحديث وغيره ، يَرْجِع إلى الخَلْق ، لأنَّهُم هُم المَحْجُوبُون عنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ وأخْبَتُوا إلى رَبِّهِم أُولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيها خالدون ﴾ [هُود : ٢٣] .

إنَّ الذين أقَرُّوا بوَحدانية الله ، وصدَّقوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات، واجتنبوا المعاصي، واطْمَأنُّوا إلى الله ، وأنابوا إلَيه ، وانقطعوا إلى عبادته خاضعين خاشعين ، أولئكَ المُتَّصِفُون بتلك الصِّفات الحَسَنَة، هُم أهل الجَنَّة، الذين يُقيمون فيها إلى الأبد، لا يَموتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٩٢ و٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأخْبَتُوا إلى رَبِّهِم ﴾، فيه سَبعة أقوال: أحدها خافوا رَبَّهُم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني أنابوا إلى رَبِّهم ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث ثابوا (رجعوا) إلى رَبِّهم ، قاله قَتادة . والرابع اطْمَأنُّوا ، قاله

مجاهد . والخامس أخْلَصُوا ، قاله مُقاتل . والسادس تَخَشَّعُوا لِرَبِّهم ، قاله الفَرَّاء. والسابع تَوَاضَعُوا لِرَبِّهم، قاله ابن قُتَيبة. فإنْ قِيل: لِمَ أُوثِرَتْ إلى على اللام في قَوله: ﴿ وأخْبَتُوا إلى رَبِّهم ﴾ والعادة جارية بأن يُقَال : أخْبَتُوا لِرَبِّهم . فالجواب أنَّ المعنى وَجَّهُوا خَوْفَهم وخُشوعَهم وإخلاصَهم إلى رَبِّهم ، واطْمَأنُّوا إلى رَبِّهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفُرقان : ٢٤] .

المؤمنون أهلُ الجَنَّة يوم القيامة خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا مِن الكافرين في الدُّنيا ، يعني : أفضل مَنزلًا مِن المُشركين . والمُسْتَقَر : مَوضِع القَرَار، وأحسنُ مَقِيلًا مِن الكافرين. والمَقِيل: مَوضِع القَيْلُولَة (الاستراحة نِصف النهار في الحَر) . والجَنَّة لا نَوْمَ فيها ، ولا حَر .

وفي زاد المسير (٦/ ٨٤) : ((وقال ابن مسعود وابن عباس : لا يَنْتَصِفُ النهارُ مِن يَوم القِيامة حتى يَقِيلَ أهلُ الجَنَّة في الجنة ، وأهلُ النار في النار)) .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٨٠) : ((وقَوله جَلَّ ثناؤه : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : أهل الجَنَّة يَوم القِيامة خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ، وهو المَوضِع الذي يَستقرون فيه مِن منازلهم في الجَنَّة ، مِن مُسْتَقَر هؤلاء المُشركين الذين يَفتخرون بأموالهم وما أُوتُوا مِن عَرَض هذه الدُّنيا ، وأحسن مِنهم فِيها مَقِيلًا. فإنْ قال قائل : وهل في الجَنَّة قائلة فيُقال : ﴿ وأحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ فِيها ؟ ، قيل : معنى ذلك : وأحسن فِيها قَرَارًا في أوقات قَائِلتهم في الدُّنيا ، وذلك أنَّه ذُكِرَ أنَّ أهل الجنة لا يَمُرُّ فِيهم في الآخرة إلا قَدْر مِيقات النهار مِن أوَّله إلى وَقْت القائلة ، حتى يَسْكُنُوا مَساكنهم في الجَنَّة ، فذلك معنى قَوله : ﴿ وأحْسَنُ مَقِيلًا ﴾)) اهـ . وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١٦٦): ((بَيَّنَ فَضْلَ أهل الجنة على أهل النار ، فقال : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ تمييز. المُسْتَقَر المَكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون ﴿ وأحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ مَكَانًا يَأوُون إلَيه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نَوْم في الجَنَّة، ولَكِنَّه سَمَّى مَكَانَ استراحتهم إلى الحُور مَقِيلًا على طريق التَّشبيه.ورُوِيَ أنَّه يَفْرُغ مِن الحِساب في نِصْف ذلك اليَوم ، فَيَقِيل أهلُ الجنة في الجنة ، وأهلُ النار في النار . وفي لفظ الأحسن تَهَكُّم بهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ أصحابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ في شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ [يس : ٥٥] .

إنَّ المؤمنين أصحاب الجَنَّة مَشغولون بالنعيم واللذات عن التفكير بأهل النار. ففي الجَنَّة ما لا عَيْن رَأتْ ، ولا أُذُن سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ. فَرِحُون ناعمون مُستمتعون بالحُور العِين والأكل والشُّرب . وشُغُلهم افتضاض الأبكار بلا تعب ، لأن الجَنَّة لا تَعَب فيها ولا مَشَقَّة .

وتَنكيرُ ﴿ شُغُلٍ ﴾ وعدم بيانه ، للتَّعظيم، والتَّفخيم ، وللتَّنبيه على أنَّه فوق مُستوى العقول .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥٩) : ((يُخْبِر تعالى عَن أهل الجَنَّة أنَّهُم يَوم القِيامة إذا ارتحلوا مِن العَرَصَات (الساحات) فنزلوا في رَوضات الجَنَّات ، أنَّهُم في شُغُل عَن غَيرهم بما هُم فيه مِن النعيم المُقيم ، والفَوز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد : في شُغُل عمَّا فيه أهل النار مِن العذاب.وقال مُجاهد: ﴿ في شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ أي في نَعِيم مُعْجَبُون، أي: به ، وكذا قال قَتادة.وقال ابن عباس رضي اللهُ عنهما : ﴿ فَاكِهُون ﴾ أي فَرِحُون.قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي اللهُ عنهما وسعيد المُسيِّب وعِكرمة والحَسَن وقَتادة والأعمش وسُلَيمان التَّيمي والأوزاعي في قَوله تبارك وتعالى : ﴿ إنَّ أصحابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ في شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ ، قالوا : شُغُلهم افتضاض الأبكار. وقال ابن عباس رضي اللهُ عنهما في رواية عنه : ﴿ في شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ ، أي : بسَمَاع الأوتار ، وقال أبو حاتم : لَعَلَّه غَلَط مِن المُستمع ، وإنَّما هو افتضاض الأبكار)) .

وروى التِّرمذي في سُننه(٤/ ٦٧٧) وصحَّحه:عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: ((يُعطَى المُؤمِنُ في الجَنَّة قُوَّةَ كذا وكذا مِنَ الجِمَاع))،قِيل: يا رسول الله، أوَ يُطِيق ذلك ؟، قال: ((يُعطَى قُوَّةَ مائة)).

إنَّ الجَنَّة مكان الاستمتاع واللذة والشَّهَوَات والرَّغَبَات ، والمؤمنُ فيها يَحصُل على كُل ما يُريده ، مِن الطعام والشَّراب واللباس ، ويُعطَى قُوَّةً خارقةً وشهوةً عارمةً ، مِن أجل جِمَاع زَوجاته والحُور العِين في الجَنَّة، وشُغُله الشَّاغل افتضاض الأبكار بكل نشاط وحيوية،وبلا تعب ولا إرهاق، فلا يُوجد في الجَنَّة ضَعْف ولا فُتُور ولا تَعَب .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٤٦٣) : (((يُعطَى المؤمنُ في الجَنَّة قُوَّةَ مِئة مِن الرِّجال في النِّساء) أي أمر النِّساء، وهو الجِمَاع. والظاهر أنَّ المراد بالمِئة التَّكثير، وأنَّ قُوَّته فِيها على الجِماع غَير مُتناهية بدليل الخَبَر المار أنَّ الواحد له ذَكَر لا يَنثني ، فإنَّه لا فُتُور هناك)) .

ج ـ أسماؤها

١ـ الآخِرة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ للمُتَّقِين ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٥]. والجَنَّةُ بكُل ما فيها مِن نَعيم وبَهاء وسَعادة عِند الله خاصَّةٌ بالمؤمنين الذين اتَّقَوا اللهَ في الدُّنيا، بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه . والجَنَّةُ هي الباقية ، التي لا يَفنَى نعيمُها ، ولا تَزول بهجتها . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٨٦): ((يقول تعالى ذِكْرُه: وزَيْنُ الدَّار الآخِرة وبهاؤها عِند رَبِّكَ للمُتَّقين الذين اتَّقَوا اللهَ ، فخافوا عِقَابه ، فَجَدُّوا في طاعته ، وحَذِرُوا معاصيه ، خاصَّة دُون غَيرهم مِن خَلْق الله)) .

٢_ جَنَّات عَدْن

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها ﴾ [طه : ٧٦] .

جَنَّاتُ إقامةٍ دائمةٌ ، تَجْري مِن تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها أبدًا ، لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٠٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدَّرَجَات ، وبَدل مِنها . والعَدْن الإقامة ﴿ تَجْري مِن تَحْتِها ﴾ ، أي: مِن تَحت غُرَفها وسُرُرها ﴿ الأنهارُ ﴾ مِن الخَمْر والعَسَل واللبن والماء ، ﴿ خالدينَ فِيها ﴾ ، أي : ماكثين دائمين)) .

٣_ جَنَّات الفِرْدَوْس

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ كانت لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٧] . إنَّ الذين أقَرُّوا بوَحدانية الله ، وصَدَّقوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وفعلوا الطاعات، وابتعدوا عن المعاصي ، أي : إنَّ الذين جَمَعُوا بين الإيمان والعمل الصالح ، كانت لهم أعلى دَرَجَات الجَنَّة وأفضلها ، وهي الفِرْدَوْس ، في عِلْم الله قَبْل أن يُخلَقوا ، مَنْزِلًا ومُسْتَقَرًّا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٦): ((يُخبِر تعالى عَن عِباده السُّعَدَاء ، وهُم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصَدَّقوا المُرسَلين فيما جاؤوا به أنَّ لهم جَنَّات الفِرْدَوْس. قال مجاهد: الفِرْدَوْس هو البُستان بالرُّومية. وقال كَعْب والسُّدي والضَّحاك : هو البُستان الذي فيه شجر الأعناب. وقال أبو أُمَامة : الفِرْدَوْس سُرَّة الجَنَّة . وقال قَتادة : الفِرْدَوْس رَبْوَة الجَنَّة ، وأوسطها ، وأفضلها)) .

وروى التِّرمذي في سُننه (٥/ ٣٢٧) وصحَّحه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، والفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّة ، وأوسطها ، وأفضلها)) .

الرَّبْوَةُ ما ارتفعَ مِن الأرض. والحديثُ يُوضِّح أنَّ الفِرْدَوْس أعلى الجِنَان ، وأفضلها ، وأرفعها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٦٣) عن رواية أُخرى للحديث : (((الفِرْدَوْس رَبْوَةُ الجَنَّة وأعلاها وأوسطها) أي أشرفها وأفضلها ، ووسط كُل شيء أحسنه ، لبُعده عن الأطراف . قال ابن القَيِّم وغَيْرُه: فيه أن السماوات كُرِيَّة مُقَبَّبة ، فإن الأوسط لا يكون أعلاها إلا إذا كان كُرِيًّا، وأن الجنة فوق السماوات تحت العرش . اهـ . وقال الطيبي : جَمَعَ بين الأعلى والأوسط ، ليَكون أحدهما للحِسِّي ، والآخَر للمعنوي)) .

وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:((الجَنَّة مائة درجة، بَيْن كُل دَرَجَتَيْن كما بين السماء والأرض، والفِرْدَوْسُ مِن أعلاها دَرَجَة، ومِنها تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّة، فإذا سألتم اللهَ فاسألوه الفِرْدَوْس)) [سَبَق تخريجه] .

وعن أبي مُوسى الأشعريّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((جِنَانُ الفِرْدَوْسِ أرْبَع : ثِنتان مِن ذَهَب ، حِلْيَتُهُمَا وآنِيَتُهُمَا وما فِيهما ، وثنتان مِن فِضَّة ، آنِيَتُهُمَا وحِلْيَتُهُمَا وما فِيهما ، ولَيس بَين القَوم وبَين أن يَنظُروا إلى رَبِّهِم عَزَّ وَجَلَّ إلا رِدَاءُ الكِبرياء على وَجْهه في جَنَّة عَدْن)) [٣٢٣].

هذا يدل على تفاوُت منازل الجَنَّة ، واختلاف الدَّرَجَات فيها ، فبعضها أعلى مِن بعض حِسًّا ومَعْنًى. جِنَّان الفِرْدَوْس أربع جِنَان : جَنَّتان مَبْنِيَّتان مِن ذَهَب ، زِينتهما وأوانيهما وكُل ما فيهما مِن ذَهَب . وجَنَّتان مَبْنِيَّتان مِن فِضَّة ، أوانيهما وزينتهما وكُل ما فيهما مِن فِضَّة . والذَّهَبُ والفِضَّة في الجَنَّة يَختلفان عن الذهب والفِضَّة في الدُّنيا ، فهُما مُشتركان في اللفظ ، مُختلفان في المعنى ، لأن نعيم الآخرة دائم وباقٍ ، أمَّا حُطام الدُّنيا فزائل وفانٍ. واللهُ خَاطَبَ العربَ بما يَعقِلون ويَعرِفون، وهُم يَعرِفون أن الذهب أغلى المعادن وأنفَسُها . وذَهَبُ الجَنَّة أعظم وأعلى مِن ذَهَب الدُّنيا ، ولا مَجال للمُقارَنة ، لأن في الجَنَّة ما لا عَيْن رَأتْ ، ولا أُذُن سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ .

وكان النبيُّ ﷺ يُخاطِب العربَ بما يَفهمونه ، ويُقرِّب الكلام إلى عقولهم ، ويَستعمل الاستعارة ليُوصِل لهم المَعنى ، فعبَّر ﷺ عن زوال المانع ورَفْعه بإزالة الرِّداء في جَنَّة عَدْن . والمؤمنون الناظرون في جَنَّة عَدْن، وليس اللهُ فيها، فهو سُبحانَه لا تَحْويه الأمكنة، ولا يَحُلُّ في المخلوقات .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٣٥٠ و٣٥١) : (((جَنَّاتُ الفِرْدَوْس أربع جَنَّات) مُبتدأ (مِن ذَهَب) خَبَر . قَوله (حِليتهما) بكَسر الحاء (وآنيتهما وما فيهما) والجُملة خبر المبتدأ الأول ، ومُتعلق مِن ذَهَب محذوف ، أي : حِليتهما وآنيتهما كائنة مِن ذَهَب (وجَنَّتان مِن فِضَّة حِليتهما وآنيتهما وما فيهما) وفي رواية :" جَنَّتان مِن ذَهَب للمُقرَّبين، ومِن دُونهما جَنَّتَان مِن وَرِق (يعني فِضَّة) لأصحاب اليمين ". خرَّجه الطبراني وابن أبي حاتم ، ورجاله كما قال ابن حجر ثِقات . وصَرَّحَ جَمْعٌ بأن الأوَّلَتَيْن أفضل ، وعَكَسَ بعضُ المُفسِّرين ، والحديث حُجَّة للأوَّلين ، وظاهر الحديث أن الجَنَّتَيْن مِن ذَهَب لا فِضَّة فِيهما ، وبالعكس . قال ابن حجر : ويُعارضه حديث أبي هريرة : قُلنا يا رسول الله : حَدِّثْنا عن الجَنَّة ما بناؤها ، قال : " لَبِنَة مِن ذَهَب ، وَلَبِنَة مِن فِضَّة " ، خرَّجه أحمد والتِّرمذي وصحَّحه ابن حِبَّان . وفي حديث البَزَّار :" خَلَقَ اللهُ الجَنَّةَ لَبِنَةً مِن ذَهَب ، وَلَبِنَةً مِن فِضَّة ". وفي خَبر البَيهقي :" إنَّ الله أحاطَ حائط الجنة لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ". وجُمع بأن الأول صِفة ما في كُل جَنَّة مِن آنِيَة وغَيرها ، والثاني صِفة حوائط الجِنَان

---

٣٢٣ رواه أحمد في مسنده(٤/ ٤١٦).وقال الهيثمي في المجمع(١٠/ ٧٣٢):((رجاله رجال الصحيح)).

كُلِّها ، ثُمَّ الظاهر أن هذه الأربع لَيس مِنها جَنَّة عَدْن [324] ، فإنَّها لَيست مِن ذَهَب ولا فِضَّة ، بَل مِن لُؤلُؤ وياقوت وزَبَرْجَد ، لخَبَر ابن أبي الدُّنيا عن أنس مرفوعًا : " خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْن بيده لبنة مِن دُرَّة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، مِلاطها المِسْك ، وحَصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزَّعفران "، ثُمَّ إنَّه تعالى جَعَلَ تركيبَ الصلاة على مِنوال ترتيب الجنة ، إشارة إلى أنَّه لا يَدخُلها إلا المُصَلُّون، فكما أنَّ الجنة قُصورها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ومِلاطها المِسْك ، فالصلاة بِناؤها لبنة مِن قراءة ، ولبنة من ركوع ، ولبنة مِن سُجود ، ومِلاطها التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّمجيد.ومِن ثَمَّ قال النبيُّ :" إنَّ العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فَمَن تركها فقد كفر " (وما بَين القَوم وبَين أن يَنظُروا إلى رَبِّهم) ما هذه نافية (إلا رِدَاءُ الكِبرياء) قال النووي : لَمَّا كان يستعمل الاستعارات للتَّفهيم عَبَّرَ عن مانع رُؤيته تَقَدَّسَ برِداء الكِبرياء ، فإذا تجلَّى اللهُ عليهم ، يكون إزالة لذلك . وقال غَيْرُه : المُراد أنَّه إذا دَخل المؤمنون الجَنَّة وتَبَوَّؤا مقاعدهم رُفِعَ ما بَينهم وبين النظر إلى رَبِّهم من الموانع والحُجُب التي مَنشأها كُدُورة الجِسم ونَقْص البشرية ، والانهماك في المَحسوسات الحادثة ، ولَم يَبْقَ ما يَحجُزهم عن رؤيته إلا هَيبة الجَلال ، وسُبُحات الجَمَال ، وأُبَّهة الكِبرياء ، فلا يُرفَع ذلك منهم إلا برأفة ورحمة مِنه تَفَضُّلًا على عِباده . وقال عِياض : استعار لعظيم سُلطان الله وكِبريائه وعَظَمَته وجَلاله المانع لإدراك أبصار البشر مَعَ ضعفها لذلك رداء الكبرياء ، فإذا شاء تقوية أبصارهم وقلوبهم كَشَفَ عنهم حِجاب هَيبته وموانع عَظَمَته (على وَجْهه) أي ذاته ، وقَوله (في جَنَّة عَدْن) راجع إلى القَوم، أي وهُم في جَنَّة عَدْن ، لا إلى الله ، لأنَّه لا تَحويه الأمكنة ، تعالى اللهُ عن ذلك ، ذَكَرَه عِياض . وقال القرطبي : مُتعلق بمحذوف في مَحَل الحال مِن القَول ، أي : كائنين في جَنَّة عَدْن . وقال القاضي : مُتعلق بمعنى الاستقرار في الظَّرْف ليُفيد بالمفهوم انتفاء هذا الحَصْر في غَير الجَنَّة . قال الهروي : هو ظَرْف ليَنظروا ، بَيَّنَ به أن النَّظَر لا يَحصُل إلا بعد الإذن لهم في الدخول في جَنَّة عَدْن . سُمِّيَتْ بها لأنها مَحَل قَرار رؤية الله ، ومنه المَعدِن لمُستَقَر الجواهر)) .

---

٣٢٤ قال القرطبي : قيل : الجِنَان سَبْع : دار الجلال ، ودار السلام ، ودار الخلود، وجَنَّة عَدْن ، وجَنَّة المأوى، وجَنَّة نَعيم، والفِرْدَوْس. وقِيل : أربع فقط لهذا الحديث، فإنَّه لم يَذكر فيه سِوى أربع، كُلها تُوصَف بالمأوى والخُلْد والعَدْن والسلام ، وهذا ما اختاره الحليمي ، فقال : إنَّ الجَنَّتَيْن الأوَّلَتَيْن للمُقرَّبين ، والآخِرَتَيْن لأصحاب اليمين ، وفي كُل جَنَّة دَرَجَات ومنازل وأبواب)) [فَيض القدير (٣/ ٣٥٠)] .

٤_ جَنَّات المَأوَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ فَلَهُم جَنَّاتُ المَأوَى نُزُلًا بِمَا كانوا يَعْمَلُون ﴾ [السَّجدة : ١٩] . أمَّا الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، فَلَهُم جَنَّات المأوى التي يَأوي إلَيها المؤمنون ، وفيها المساكن العظيمة ، والدُّور الرائعة ، والغُرَف العالية ، ضِيافةً وكَرامةً وإكرامًا لهم،بسبب ما قاموا به في الدُّنيا مِن العبادات والطاعات والأعمال الصالحة.

والمأوى هو الذي يَأوون إلَيه ، وأضافَ الجَنَّات إلَيه ، لأنَّه المأوى الحقيقي الدائم ، أمَّا الدُّنيا فهي دار فانية زائلة ، وأهلها راحلون عنها رَغْمًا عَنهُم . والنُّزُلُ ما يُهيَّأ للضَّيف .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦١٠):((﴿أمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ ﴾ أي: صَدَّقَتْ قُلُوبُهُم بآيات الله ، وعملوا بمُقتضاها ، وهي الصَّالحات ، ﴿ فَلَهُم جَنَّاتُ المَأوَى ﴾ ، أي: التي فيها المساكن والدُّور والغُرَف العالية ﴿ نُزُلًا ﴾ أي : ضِيَافَةً وكَرَامَةً ﴿ بِمَا كانوا يَعْمَلُون ﴾)) .

٥_ جَنَّات النَّعِيم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَجْري مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يُونُس : ٩] .

تَجْري مِن تَحت قُصور المؤمنين وأشجارهم الأنهارُ ، وهُم مُقيمون في جَنَّات النَّعيم إلى الأبد.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٤) : ((وقَوله : ﴿ تَجْري مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ ﴾ ، يقول : تَجْري مِن تَحْت هؤلاء المؤمنين الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤه صِفتهم أنهارُ الجَنَّة ﴿ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ يقول : في بساتين النَّعيم ، الذي نعَّم اللهُ به أهل طاعته والإيمان به . فإنْ قال قائل : وَكَيف قِيل : ﴿ تَجْري مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ ﴾ ، وإنَّما وَصَفَ جَلَّ ثناؤه أنهارُ الجَنَّة في سائر القرآن أنَّها تَجْري تحت الجَنَّات ؟ ، وكيف يمكن الأنهار أن تَجْرِيَ مِن تَحتهم إلا أن يكونوا فوق أرضها والأنهار تجري مِن تحت أرضها ، وليس ذلك مِن صِفة أنهار الجنة لأن صِفتها أنها تَجْري على وجه الأرض في غَير أخاديد ؟ . قِيل: إن معنى ذلك بخِلاف ما إليه ذَهَبْتَ ، وإنَّما معنى ذلك : تَجْري مِن دُونهم الأنهار إلى ما بين أيديهم في بساتين النَّعيم)) .

٦_ جَنَّة الخُلْد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أذلكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المُتَّقُون ﴾ [الفُرقان : ١٥] .

لقد وُعِدَ المؤمنون الذين اتَّقَوا اللهَ في الدُّنيا بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، بجَنَّة الخُلْد ، وهي الجَنَّة الخالدة الباقية ، التي لا تَفنَى ، ولا يَزُول نعيمُها . وإضافةُ الجَنَّة إلى الخُلْد ، لمَدْحها، وتعظيمها ، وتوضيح أنَّها باقية دائمة ، وتمييزها عن جَنَّات الدُّنيا الفانية الزائلة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٩٤) : ((﴿ قُلْ أذلكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المُتَّقُون ﴾ ، والإشارة بقَوله : ﴿ أذلكَ ﴾ إلى السَّعير المُتَّصفة بتِلْك الصِّفَات العظيمة ، أي: أتِلْكَ السَّعير خَير أَم جَنَّة الخُلْد ؟ . وفي إضافة الجَنَّة إلى الخُلْد إشعار بدوام نعيمها وعدم انقطاعه. ومعنى ﴿ التي وُعِدَ المُتَّقُون ﴾ التي وُعِدَها المُتَّقون . والمجيء بلفظ خَير هُنا معَ أنَّه لا خَير في النار أصلًا ، لأن العرب قد تقول ذلك ، ومِنه ما حكاه سِيبَوَيْه عنهم أنَّهُم يقولون : السَّعادة أحب إلَيك أم الشَّقاوة ؟)) .

٧ _ جَنَّة عالية

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَة ﴾ [الحَاقَّة : ٢٢] .

في جَنَّة عظيمة في النُّفُوس ، جليلة القَدْر ، رفيعة الشَّأن ، عالية المَنازل، مُرتفعة المكان لأنَّها في السماء ، ومُرتفعة الدَّرَجَات والقُصُور . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٣) : ((أي : رَفيعة قُصورها ، حِسَان حُورها ، نعيمة دُورها ، دائم حُبُورها)) .

٨ _ جَنَّة المَأوَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المَأوَى ﴾ [النَّجْم : ١٥] .

عِند سِدْرة المُنتهى جَنَّةُ المَأوَى ، التي يَأوي إلَيها الملائكةُ ، وأرواحُ الشُّهداء والمُتَّقين . وقال بعضُ العُلماء إنَّ جَنَّة المَأوَى أخص الجِنَان وأعلاها ، بسبب وجودها عِند سِدرة المُنتهى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٨٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المَأوَى ﴾ تَعريف بمَوضِع جَنَّة المَأوَى ، وأنَّها عِند سِدرة المُنتهى ... . قال الحسن : هي التي يَصِير إلَيها المُتَّقون . وقِيل : إنَّها الجَنَّة التي يَصِير إلَيها أرواحُ الشُّهَداء ، قاله ابن عباس . وهي عَن يَمِين العَرْش . وقِيل: هي الجَنَّة التي آوى إلَيها آدم عليه الصلاة والسلام، إلى أن أُخْرِجَ مِنها، وهي في السَّماء السَّابعة. وقِيل : إنَّ أرواح المؤمنين كُلِّهم في جَنَّة المَأوَى . وإنَّما قِيل لها : جَنَّة المَأوَى ، لأنَّها تأوي إليها أرواحُ المؤمنين ، وهي تَحت العَرْش ، فَيَتَنَعَّمُون بنعيمها ، ويَتَنَسَّمُون بِطِيب رِيحها . وقِيل : لأنَّ جِبريل ومِيكائيل عليهما السَّلام يَأويان إلَيها ، واللهُ أعلم)) .

٩_ جَنَّة نَعِيم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ [المَعَارِج : ٣٨] .

الاستفهامُ الإنكاري للتَّقريع والتَّوبيخ : أيَطمَع كُل شخص مِن هؤلاء الكافرين المُكذِّبين أن يُدخِله اللهُ جَنَّةَ نَعِيمٍ ، يَتنَعَّم فيها ، ويَستمتع بما فيها ؟ . ولا يَخفَى أنَّ الجَنَّة للمؤمنين وَحْدَهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٤٢) : ((يَقول : أيَطمَع كُل امرئ مِن هؤلاء الذين كفروا قِبَلَكَ مُهطعين أن يُدخِله اللهُ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ ، أي بساتين نَعِيم ، يُنعَّم فِيها)) .

١٠_ الحُسْنَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ للذينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى ﴾ [الرَّعْد : ١٨] .

للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المَثُوبةُ الحُسْنَى ، وهي الجَنَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٠٩) : ((﴿ للذينَ استجابوا لِرَبِّهِم ﴾ ، أي : أجابوا دَعوته إذْ دعاهم إلى تَوحيده ، وتَصديق أنبيائه ، والعمل بشرائعه . والحُسْنَى صِفة مَوصوف مَحذوف : أي المَثُوبة الحُسْنَى ، وهي الجَنَّة)) .

١١_ الدَّار الآخِرة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها للذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ ولا فَسَادًا ﴾ [القَصَص : ٨٣] . الإشارةُ للتَّعظيم . أي : تِلْك الجَنَّة العالية ذات المَكانة المُقدَّسة لَيْسَتْ في مُتناول الجميع ، بَل يَحصُل عليها المؤمنون الصادقون الذين لا يُريدون الظلمَ والاستكبارَ في الأرض ولا الفَسَاد . أي إنَّهُم لا يُريدون تَكَبُّرًا وتَجَبُّرًا وتَعَظُّمًا ، ولا عملًا بالمعاصي . وذِكْرُ العُلُوِّ والفَسَاد نَكِرَتَيْن في سِياق النَّفْي ، يدلُّ على شُمولهما وعُمومهما مِن غَير تَخصيص ولا تحديد .

ولا شَكَّ أنَّ عُلُوَّ مكانة الجَنَّة يُرغِّب الناسَ في العمل مِن أجل نَيْلها ، والاستمتاع بنعيمها الدائم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٤٨): ((قَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ يَعني: الجَنَّة ﴿نَجْعَلُها للذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ ﴾ . وفيه خمسة أقوال: أحدها أنَّه البَغْي ، قاله سعيد ابن جُبَيْر. والثاني الشَّرَف والعِز ، قاله الحسن. والثالث الظُّلْم، قاله الضَّحاك. والرابع الشِّرْك،قاله يحيى بن سلام.والخامس الاستكبار عن الإيمان،قاله مُقاتل.قَوله تعالى: ﴿ولا فَسَادًا ﴾ فِيه قَولان:أحدهما العمل بالمعاصي،قاله عِكرمة.والثاني الدُّعاء إلى غَير عبادة الله،قاله ابن السائب)).

١٢_ دَار السَّلام

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَهُم دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِم ﴾ [الأنعام : ١٢٧]. للمُؤمنين الذين عَبَدُوا اللهَ في الدُّنيا ، وامتثلوا أوامِرَه ، واجتنبوا نَوَاهيه ، دارُ السَّلام ، وهي الجَنَّة . وقد أضافها اللهُ إلى نَفْسِه تعظيمًا لها ، وتشريفًا لقَدْرها ، وتَفخيمًا لشَأنها . والسَّلامُ اسم مِن أسماء الله الحُسْنَى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَهُم دَارُ السَّلامِ ﴾ ، يعني الجَنَّة. وفي تَسميتها بذلك أربعة أقوال: أحدها أنَّ السَّلام هو الله ، وهي داره، قاله ابن عباس

والحَسَن وقَتادة والسُّدي . والثاني أنَّها دار السَّلامة التي لا تَنقطع ، قاله الزَّجاج . والثالث أنَّ تَحِيَّة أهلها فِيها السلام ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي . والرابع أنَّ جميع حالاتها مَقرونة بالسَّلام ، ففي ابتداء دخولهم : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ﴾ [الحِجْر : ٤٦] . وبعد استقرارهم : ﴿ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَاب (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرَّعْد] . وقَوله : ﴿ إلا قِيلًا سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة : ٢٦] . وعِند لِقاء الله : ﴿ سَلامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَحِيم ﴾ [يس: ٥٨]. وقَوله: ﴿ تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] . ومعنى : ﴿ عِندَ رَبِّهِم ﴾ ، أي : مَضمونة لهم عِنده)) .

١٣_ دَار القَرَار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ [غَافِر : ٣٩] .

إنَّ الآخِرَة هي الدَّار التي يستقرُّ فيها الخَلْق ، وهي دار دائمة ، لا تَزُول ، ولا تَفنَى ، ولا مَوت فيها ، ولا انتقال مِنها. ودارُ القَرَار إمَّا أن تَكون الجَنَّة ، وإمَّا أن تكون النار .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٧٧) : ((﴿ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ ، أي : الاستقرار والخُلود ، ومُراده بالدَّار الآخِرة الجَنَّة والنَّار ، لأنَّهما لا يَفْنَيان)) .

١٤_ دَار المُتَّقين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِين ﴾ [النَّحْل : ٣٠] . وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقين الجَنَّة ، فهي دار المُؤمنين الذين اتَّقَوا اللهَ في الدُّنيا بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٤٣) : ((وفي قَوله تعالى: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِين ﴾ قَولان : أحدهما أنَّها الجَنَّة ، قاله الجمهور ... . والثاني أنَّها الدُّنيا . قال الحَسَن : وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقين الدُّنيا ، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثوابَ الآخِرة)) .

١٥_ دَار المُقَامة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي أحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِه ﴾ [فَاطِر : ٣٥] .

إنَّ اللهَ أعطى المؤمنين الجَنَّةَ ، تفضُّلًا مِنه عَلَيهم لا بأعمالهم ، ولَيس واجبًا عَلَيه . والجَنَّةُ دَار الإقامة التي لا يَمُوتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها ، ولا يتحوَّلون عنها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٩٨) : ((﴿ الذي أحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِه ﴾ ، أي: دار الإقامة التي يُقَام فيها أبدًا ، ولا يُنْتَقَل عَنها ، تفضُّلًا مِنه ورحمة)) .

١٦_ رَوضات الجَنَّات

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ في رَوْضاتِ الجَنَّاتِ ﴾ [الشُّورى: ٢٢].

والذين جَمَعُوا بين الإيمان والعمل الصالح ، في أجمل بِقَاع الجَنَّة وأطْيَبها وأنزهها . والرَّوْضاتُ جَمْع رَوْضَة ، وهو المَوضِع النَّزْه الكثير الخُضرة .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٤١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : والذين آمنوا بالله وأطاعوه فيما أمرَ ونَهَى في الدُّنيا ، في رَوضات البَساتين في الآخِرة . ويعني بالرَّوضات : جَمْع رَوْضة ، وهي المكان الذي يَكثُر نَبْتُه . ولا تقول العرب لمواضع الأشجار رياض ... . وإنَّما عَنَى جَلَّ ثناؤه بذلك : الخَبَر عمَّا هُم فيه مِن السُّرور والنَّعيم)) .

١٧_ طُوبَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ طُوبَى لَهُم وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾[الرَّعْد : ٢٩].

الذين جَمَعُوا بين الإيمان والعمل الصالح، فَرَحٌ لهم وقُرَّةُ عَين وخَيْرٌ وكرامة، وحُسْن مَرجِع ، وهو الدَّار الآخِرة . وقِيل : طُوبَى مِن أسماء الجَنَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١١٦) : ((وقِيل : طُوبَى شَجَرَة في الجَنَّة . وقِيل : هي الجَنَّة. وقِيل: هي البُستان بلغة الهِند. وقِيل: مَعنَى ﴿ طُوبَى لَهُم ﴾ : حُسْنَى لهم. وقِيل: خَيْرٌ لهم، وقِيل : كرامة لهم ، وقِيل : غِبطة لهم . قال النَّحاس : وهذه الأقوال مُتقاربة)) .

١٨_ الفِرْدَوْس

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُم فِيها خَالِدُون ﴾[المؤمنون : ١١] .

إنَّ المؤمنين الذين أطاعوا اللهَ في الدُّنيا، وابتعدوا عَن معصيه، كانت لهم خَيْر الجِنَان وأعلاها مَنزلًا ومكانَ إقامة ، وهُم مُقيمون في جَنَّة الفِرْدَوْس إلى الأبد ، لا يَمُوتون ، ولا يَخرُجون مِنها. وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٧٠٠) عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال:((فإذا سألتُم اللهَ فَسَلُوه الفِرْدَوْسَ، فإنه أوْسَطُ الجَنَّة، وأعلى الجَنَّة، وفَوْقَه عَرْشُ الرَّحمن، ومِنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّة)).

الفِرْدَوْسُ أعظم الجِنَان . وفيها النعيم الدائم ، ويَعلوها عرشُ الرحمن _ سُبحانَه وتعالى _ ، ومِنها تَفَجَّر أنهارُ الجَنَّة ، فهي المَنبع الطاهر . وهذا يُشير إلى مكانتها المُميَّزة عن باقي الجِنَان . والجِنَانُ مُتفاوتة فيما بينها بسبب تفاوُت إيمان الناس ، واختلاف دَرَجَة تضحياتهم ، وكلُّ مؤمن ينال منزلته التي يستحقها . وكما أن الطالب ينال علامته الدراسية التي يَستحقها وتكشف مستواه الحقيقي ، كذلك طالب الآخرة ينال درجته العادلة . فلا يُعقَل أن تتساوى دَرَجَة الأنبياء مع درجة الشُّهَداء ، أو تتساوى درجة الشهداء مع درجة المؤمنين العاديين . وهذا التَّفَاضُلُ حافزٌ للمؤمنين على زيادة العمل ، ومُضاعفة الجُهود ، وبَذل أقصى ما يَستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٣/ ٦٧٩): ((﴿ الذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ ﴾ وهو أوْسَط الجَنَّة كما صَحَّ تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ ، والمعنى : أنَّ مَن عَمِلَ بما ذُكِرَ في هذه الآيات فهو الوارث الذي يَرِث مِن الجَنَّة ذلك المكان. وفيه استعارة لاستحقاقهم الفِرْدَوْس بأعمالهم. وقِيل: المعنى : أنَّهم يَرِثُون مِن الكُفَّار منازلَهم ، حيث فرَّقوها على أنفسهم ، لأنَّه سُبحانَه خَلَقَ لكُل إنسان مَنْزِلًا في الجَنَّة ، ومَنْزِلًا في النار. ولفظ الفِرْدَوْس لُغة رُومية مُعرَّبة وقيل فارسية وقيل حبشية وقيل هي عربية . ومعنى الخلود أنَّهُم يَدُومون فيها ، لا يَخْرُجُون منها ، ولا يَمُوتون فيها)) .

٣_ النَّار

النار هي العذاب الذي أعدَّه اللهُ للكافرين عقوبةً لهم على رفضهم الإيمان ، وسَيرهم في طريق الضَّلال رَغم كُل الإرشادات الإلهية . وقد أوردت الشريعةُ أوصافًا كثيرة للنار كَي يَعتبر الناسُ ويَرتدعوا عن فِعل المعاصي،وتصبح النارُ حافزًا على فِعل الطاعات ، وترك الذُّنُوب ، والابتعاد عن ما يُوجب دُخولَ النار.وكُلَّما ازداد العبدُ هُرُوبًا مِن النار،ازداد اقترابًا مِن الجَنَّة،وكان ذلك مُؤَشِّرًا على صَلاحه.ولكنْ ينبغي أن يترافق القول والعمل معًا . فالخوف مِن النار ليس شعارًا على الألْسِنة فَحَسْب،بَل هو أيضًا سُلوك عملي يتضمَّن التزام الطاعات واجتناب المُحرَّمات.وينبغي تَذَكُّر أن الله هو خالق النار،وهو أحق بأن يَخافه العَبْدُ.وقد وردت صِفات كثيرة وأسماء مُتعدِّدة للنار_أجارنا اللهُ منها_ . وكُل صِفة أو اسم يُوضِّح جانبًا مِن العذاب الأبديِّ مِن أجل الانتباه وأخذ الحَيطة والحَذَر.

أ_ صِفاتها

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾[البقرة: ٢٤].

فخافوا النار واتَّقُوها بالإيمان بالله وكُتبه ورُسُله ، وفِعل الطاعات ، والابتعاد عن المعاصي . والنارُ هي عذابُ اللهِ الشديدُ . والمادةُ التي تُشعَل بها هي الكُفَّارُ وأصنامُهم التي عَبَدُوها مِن دُون الله تعالى . وهذا يدلُّ على عَظَمَة هذه النار ، وشِدَّة حرارتها ، لأنَّهَا تتَّقد بالكفار وأصنامهم ، في حِين أنَّ نار الدُّنيا تتَّقد بالحَطَب . هُيِّئت هذه النار العظيمة جَزَاءً للكافرين وعِقَابًا لهم ، بسبب كُفرهم وضَلالهم وتَكذيبهم. والجديرُ بالذِّكر أنَّ الله قَرَنَ بَين الناس (المُشركين) والحِجارة ، لأنَّهُم اتَّخذوها أصنامًا آلهةً يَعبدونها مِن دُون الله ، وهو وَحْدَه الإله الحق ، أي إنَّ الله جَمَعَ بَين العابدين والمَعبودين في النار ، وهذا يدل على عَجْز آلهتهم وبُطلانها ، وعدم قُدرتها على حماية الكافرين الضَّالين الذين عَبَدُوها وقدَّسوها ، واعتقدوا أنها قادرة على النَّفْع والضَّر .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((إنَّ الحِجارةَ التي سَمَّى اللهُ في القُرآن : ﴿ وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ ﴾ ، حِجارة مِن كِبريت ، خَلَقَها اللهُ تعالى عِندَه كَيْفَ شاءَ ، أو كَمَا شاء)) [٣٢٥]. وحِجارةُ الكِبريت هي أشدُّ الأشياء حرارةً إذا أُحْمِيَتْ ، وهُم يُعذَّبون بها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١) : ((قَوله تعالى : ﴿ فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ . والوقود بفتح الواو : الحَطَب ، وبضَمِّها التَّوَقُّد ، كالوضوء بالفتح : الماء ، وبالضَّم : المصدر، وهو اسم حركات المُتَوَضِّئ . وقرأ الحسن وقَتادة : وُقودها بضَم الواو، والاختيار الفَتْح . والناسُ أُوقِدُوا فيها بطريق العذاب، والحِجارةُ ، لبيان قُوَّتها وشِدَّتها إذ هي مُحْرِقة للحِجَارة . وفي هذه الحِجَارة قَولان : أحدهما أنَّها أصنامهم التي عَبَدُوها ، قاله الربيع بن أنس . والثاني أنَّها حِجَارة الكِبريت ، وهي أشد الأشياء حَرًّا إذا أُحْمِيَتْ ، يُعذَّبون بها . ومَعنى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ هُيِّئَتْ . وإنَّما خوَّفهم بالنار إذا لَم يَأتوا بمِثْل القُرآن ، لأنَّهم إذا كذَّبوه ، وعَجَزُوا عن الإتيان بمِثْلِه ، ثَبَتَتْ عليهم الحُجَّة ، وصار الخِلاف عِنادًا ، وجَزاء المُعَانِدِين النار)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا الذينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم أكَفَرْتُم بَعْدَ إيمانِكُم فَذُوقوا العذابَ بِما كُنتم تَكْفُرُون ﴾ [آل عِمران : ١٠٦] .

فأمَّا الكُفَّارُ المُجلَّلون بالخِزْي والعار ، أصحاب الوجوه السَّوداء ، فيُقَال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم،وقِيام الحُجَّة عليكم، وانقطاع أعذاركم.وهذا تَوبيخ شديد لهم،وتَعجيب مِن حالهم السَّيئة، فَذُوقوا عذابَ النار الشديد ، جَزَاءً لكُفركم وضَلالكم وتكذيبكم. وهذا مُنتهى الذُّل والهَوَان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣٦): ((وفي الذين اسْوَدَّتْ وُجُوههم خمسة أقوال: أحدها أنَّهُم كُل مَن كَفَرَ بالله بعد إيمانه يَوم المِيثاق ، قاله أُبَي بن كَعْب . والثاني أنَّهُم الحَرُورِيَّة ، قاله أبو أُمَامة وإسحاق الهمذاني . والثالث اليهود ، قاله ابن عباس . والرابع أنَّهُم المُنافقون ، قاله الحسن . والخامس أنَّهُم أهل البِدَع ، قاله قَتادة . قَوله تعالى : ﴿ أكَفَرْتُم ﴾ . قال الزَّجاج: معناه: فيُقَال لهم: أكفرتم،فحُذِفَ القَول،لأنَّ في الكلام دليلًا عَلَيه... . قَوله تعالى: ﴿ فَذُوقوا العذابَ ﴾ أصل الذَّوْق إنَّما يكون بالفَم ، وهذا استعارة منه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا بآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِم نارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُم جُلُودًا غَيْرَها لِيَذوقوا العذابَ ﴾ [النِّساء : ٥٦] .

---

٣٢٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٧) برقم (٣٠٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله وأنكروها وجَحَدُوها ، سَوْفَ يُدخِلهم اللهُ نارًا عظيمة هائلة ، تَشْويهم وتُحرِقهم ، كُلَّما احترقت جُلُودُهم احتراقًا كاملًا ، بدَّلهم اللهُ جُلُودًا غَير الجُلود المُحترقة، لِيَدوم لهم ألم العذاب بلا انقطاع، وهذا يعني أنَّهُم في عذاب مُستمر، وشُعور دائم بالألم الرهيب.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٢٤) : ((والمعنى : أنَّها كُلَّما احترقت جُلُودُهُم ، بَدَّلَهم اللهُ جُلُودًا غَيْرَها : أي أعطاهم مكان كُل جِلْد مُحترق جِلْدًا آخَر غَير مُحترق ، فإنَّ ذلك أبلغ في العذاب للشخص ، لأن إحساسه لعمل النار في الجِلْد الذي يَحترق أبْلَغ مِن إحساسه لعملها في الجِلْد المُحترق)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٢ و١١٣): ((وفي قَوله : ﴿ بَدَّلْنَاهُم جُلُودًا غَيْرَها ﴾ قَولان : أحدهما أنَّها غَيْرُها حقيقةً ، ولا يَلزَم على هذا أن يُقال كيف بُدِّلَت جُلُود الْتَذَّت بالمَعاصي بجُلُود ما الْتَذَّت ، لأنَّ الجُلُود آلة في إيصال العذاب إلَيهم ، كما كانت آلة في إيصال اللذة ، وهُم المُعَاقَبُون لا الجُلُود . والثاني أنَّها هي بعَيْنها تُعاد بعد احتراقها كما تُعاد بَعْد البِلى في القُبور ، فتكون الغَيْرِيَّة عائدة إلى الصِّفة ، لا إلى الذات. فالمعنى: بَدَّلْنَاهُم جُلُودًا غَير مُحترقة ، كما تقول : صُغْتُ مِن خَاتَمي خَاتَمًا آخَر. وقال الحسن البصري في هذه الآية : تأكلهم النار كُل يوم سبعين ألف مَرَّة ، كُلَّما أكلتهم قِيل لهم : عُودوا ، فعَادوا)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٩) : عن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((ضِرْسُ الكافِرِ ، أوْ نابُ الكافِرِ ، مِثْلُ أُحُد ، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسيرة ثلاث)) .

هذا يدلُّ على ضخامة حَجْم الكافر في النار، إذْ إنَّ سِنَّه مِثل جبل أُحُد، وثخانة جِلْده مسيرة ثلاث ليالٍ . وهذا من أجل زيادة ألمه ووجعه وعذابه جزاءَ كُفره وضلاله . واللهُ الذي خَلَقَ الإنسانَ مِن العَدَم ، لا يَعجَز أن يَجعل الكافرَ في النار بهذا الحَجْم الضَّخْم . واللهُ على كُل شيء قدير .

وقال المُناوي في فيض القدير (٤/ ٢٥٤) : (((ضِرْس الكافر) في جَهَنَّم (مِثْلُ أُحُد) أي مِثْل جَبل أُحُد في المِقدار (وغِلَظ جِلْده مَسيرة ثلاث) أي ثلاث ليالٍ ، وإنَّما جُعِلَ كذلك لأن عِظَم جسده تُضَاعِف في إيلامه ، وذلك مَقدور لله ، يجب الإيمان به)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِم غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزي الظالمين ﴾ [الأعراف : ٤١] .

للكافرين الضَّالِّين فِرَاشٌ مِنَ النار مِن تَحتهم ، ومِن فَوقهم لُحُفٌ (أغطية) مِنَ النار . وهذا يعني أن النار تُحيط بهم مِن كُل جانب . وكذلك يَجْزي اللهُ الكافرين الذين ظَلَمُوا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، وقَادُوها إلى عذاب النار الدائم .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٩١) : ((يقول جَلَّ ثناؤه : لِهَؤلاء الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عَنها ﴿ مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ ، وهو ما امتهدوه مِمَّا يُقْعَد عليه ويُضْطَجَع ، كالفِرَاش الذي يُفْرَش ، والبِسَاط الذي يُبْسَط ، ﴿ وَمِن فَوْقِهِم غَوَاشٍ ﴾ ، وهو جَمْع غَاشِيَة ، وذلك ما غشَّاهم فغطَّاهم مِن فَوقهم ، وإنَّما معنى الكلام : لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَاد ، مِن تَحتهم فُرُش ، ومِن فَوقها مِنها لُحُف ... . وأمَّا قَوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ ، فإنَّه يَقول : وكذلك نُثيب ونُكافئ مَن ظَلَمَ نَفْسَه ، فأكسبها مِن غَضَب الله ما لا قِبَل لها به ، بكُفره برَبِّه ، وتَكذيبه أنبياءه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِها جِبَاهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم هذا ما كَنزتُم لأنفُسِكُم فَذُوقوا ما كُنتم تَكْنِزُون ﴾ [التَّوبة : ٣٥] .

يَوم يُوقَد على الكُنوز (الذَّهَب والفِضَّة التي لا تُنفَق في سبيل الله) في نار جَهَنَّم ، شديدةِ الحرارة ، فتُحرَق بها جِبَاهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم . وخُصَّتْ هذه المواضع بالذِّكْر لأنَّ البخيل عندما يَرى الفقيرَ قادمًا، يَقْطِب جَبهته، فإذا جاءه أعرضَ بجانبه، فإذا طالبه بإحسان أدارَ له ظَهْرَه.

ويُقَال لهم تَوبيخًا وتَهَكُّمًا: هذا ما كنزتموه وادَّخرتموه لأنفسكم، لتستفيدوا مِنه، وتنتفعوا به ، فَذُوقوا وَبَالَه ، وسُوءَ عاقبته . لقد قادهم مَنع حَق الله في أموالهم إلى عذاب النار الشديد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٣) : ((﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ، أي : يَوم تُوقَد النار ذات حَمْي شديد عليها . وأصله تُحمَى بالنار، فجعل الإحماء للنار مُبالغةً ، ثُمَّ حُذفت النار ، وأُسنِد الفِعل إلى الجار والمجرور تنبيهًا على المَقصود ، فانتقل مِن صِيغة التأنيث إلى صِيغة التَّذكير، وإنَّما قال: ﴿ عَلَيْهَا ﴾ ، والمَذكور شيئان، لأنَّ المُراد بهما دنانير ودراهم كثيرة، كما قال عليٌّ رضي اللهُ تعالى عنه : أربعة آلاف وما دُونَها نفقة ، وما فَوْقها كنز ... . ﴿ فَتُكْوَى بِها جِبَاهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم ﴾ ، لأنَّ جَمْعهم وإمساكهم إيَّاه كان لطلب الوجاهة بالغِنى والتَّنَعُّم بالمطاعم الشَّهِيَّة والملابس البَهِيَّة ، أوْ لأنَّهُم ازْوَرُّوا (مالوا) عن السائل ، وأعرَضُوا عنه ، وَوَلَّوْهُ ظُهُورَهم ، أوْ لأنَّها أشرف الأعضاء الظاهرة ، فإنَّهَا المُشتملة على الأعضاء الرئيسية ، التي هِيَ الدِّمَاغ والقَلْب والكَبِد ، أوْ لأنَّها أُصول الجِهات الأربع التي هي مَقاديم البدن ومآخيره وجَنباه ، ﴿ هذا ما كَنزتُم ﴾ على إرادة القَول ﴿ لأنفُسِكُم ﴾ لمَنفعتها ، وكان عَيْن مَضَرَّتها، وسبب تعذيبها ، ﴿ فَذُوقوا ما كُنتم تَكْنِزُون ﴾ ، أي : وَبَال كَنزكم ، أو ما تَكنِزُونه)) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٦٨٠) : عن أبي هُرَيرة أنَّه قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((ما مِن صَاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّة ، لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّها ، إلا إذا كان يَوْمُ القِيامة صُفِّحَتْ له صَفَائِحُ مِن نار،

فَأُحْمِيَ عَلَيها في نار جَهَنَّم ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبِينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له ، في يَوم كان مِقدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنَة، حَتَّى يُقْضَى بَين العِباد، فيَرَى سَبِيلَه ، إمَّا إلى الجَنَّة، وإمَّا إلى النار)) .

مَن كانَ يَملِك مَالًا مِن ذَهَب أو فِضَّة ، ويَكنِزها ، ولا يُخرِج الزَّكاةَ ، فإنَّ هذا المال يُحوَّل يَوم القِيامة إلى صفائح مِن حَديد ، أوْ مِن نَفْس المَعدِن الذي يَكنِزه ، ويُسخَّن عليها في نار جهنَّم ، وتُوضَع على جسده، وكُلَّما خَفَّت سُخونتها وبَرَدَتْ ، أُعيد تَسخينها ، حتى تُصبح شديدةَ الحرارة، ويُعذَّب طيلة مُدَّة يَوم الحِساب (يوم كان مِقداره خمسين ألف سنة) ، حَتَّى يَحكُم اللهُ بين الناس، فيَعرِف مصيرَه ، إمَّا أن يُعامله اللهُ بفَضْله فيُدخِله الجَنَّةَ ، أو يُعامله بَعَدْله فيُدخِله النار .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٦٤) : ((هذا الحديث صَريح في وُجُوب الزكاة في الذَّهَب والفِضَّة ، ولا خِلاف فِيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ [التَّوبة : ٨١] .

إنَّ نار جَهَنَّم أشدُّ مِن حَرِّ الدُّنيا ، فإنَّ حَرَّ الدُّنيا بسيط وزائل ، أمَّا حَرَّ نار جَهَنَّم فدائم وهائل وباقٍ إلى الأبد ، ولا مُجال للمُقارنة . ومَن ابتعدَ عَن حَرٍّ دُنيوي بَسيط مُؤقَّت ، ليقع في حَر نار جَهَنَّم الأبديِّ ، فهو أحْمَق . ومَن خَالَف أمرَ الله ، فقد عرَّض نَفْسَه لعذاب النار الدائم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩٦) : ((قال اللهُ تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم _ يعني للمُنافقين المُتَخَلِّفِين عن صحابة رسول الله ﷺ في غَزوة تَبُوك _ : ﴿ نارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تَصِيرُون إلَيها بمُخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مِمَّا فَرَرْتُم مِنه مِن الحَر ، بل أشد حَرًّا مِن النار)) .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((ناركم جُزء مِن سَبعين جُزْءًا مِن نار جَهَنَّم)) [٣٢٦]. النارُ المَوجودة في الدُّنيا تُمثِّل جُزءًا مِن سبعين جُزءًا مِن نار جَهَنَّم في الآخِرة . أي إنَّ حرارة كُل جُزء مِن السَّبعين جُزءًا من نار جهنم مِثل حرارة نار الدُّنيا . وهذا يدلُّ على عِظَم نار جَهَنَّم ، وشِدَّة حرارتها ، وعدم قُدرة العُقول على الإحاطة بها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٤٣) : (((إنَّ ناركم هذه جُزء مِن سَبعين جُزءًا مِن نار جهنم) . لَوْ جُمع حَطب الدُّنيا فأُوقِد حتى صار نارًا ، كان جُزءًا واحدًا مِن أجزاء نار جَهَنَّم ، الذي هو مِن سَبعين جُزءًا أشد مِن حَر نار الدُّنيا ... . ومَقصوده التحذير مِن جَهَنَّم ، والإعلام بفظاعتها ، وبشاعتها ، فعلى العاقل المُحافظة على تَجَنُّب ما يُقَرِّب إلَيها مِن الخطايا)) .

---

٣٢٦ متفق عليه. واللفظ للبخاري(٣/ ١١٩١)برقم(٣٠٩٢)،ومسلم (٤/ ٢١٨٤) برقم (٢٨٤٣) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ويُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٦] .

أمامَ الكافرِ جَهَنَّمُ ، يَدخلها ، ويُسقَى فِيها مِن ماء صَدِيد ، وهو ما يَسِيل مِن جُلود الكافرين في النار مِنَ القَيْح والدَّم . واشتقاقه مِنَ الصَّد ، لأنَّه يَصُدُّ الناظرين عن رؤيته بسبب قُبحه الشديد.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٠) : ((﴿ مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ ، أي: أمَامه ... . قال أبو عُبَيدة: هُوَ مِن الأضداد . وقال الأخفش : هو كما يُقَال : هذا الأمر مِن ورائك ، يُريد أنه سَيَأتيك، وأنا مِن وَراء فُلان ، يعني أصِل إليه . وقال مُقاتل : ﴿ مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ ، أي: بَعْده ، ﴿ ويُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ ، أي : مِن ماء هو صَدِيد ، وهو ما يَسِيل من أبدان الكُفَّار مِن القَيْح والدَّم . وقال مُحمَّد بن كَعْب : ما يَسِيل مِن فُرُوج الزُّناة يُسقاه الكافر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيغُهُ ويَأتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٧] . يَشربه جُرعةً جُرعةً ، ويَبتلعه مَرَّةً بعد مَرَّة ، لمرارته وحرارته ، ولا يُكاد يَستسيغه لقُبحه وكراهته ، ويأتيه المَوتُ مِن كُل الجِهَات ، ويجد ألَمه في كُل جُزء مِن جِسْمه ، ولا يَمُوت فيرتاح مِن العذاب ، وإنما يستمر عذابه وألمه ومُعاناته ، ومِن أمامه عذاب شديد أشد مِمَّا قَبْله وأسوأ وأغْلَظ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٥٣ و٣٥٤): ((قَوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ ، والتَّجَرُّع تناوُل المَشروب جُرعةً جُرعة ، لا في مَرَّة واحدة ، وذلك لشِدَّة كَرَاهته له ، وإنَّما يُكرَه على شُربه . قَوله تعالى : ﴿ ولا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ قال الزَّجاج: لا يَقْدِر على ابتلاعه... . قَوله تعالى: ﴿ ويَأتِيهِ المَوْتُ ﴾ ، أي : هَمُّ المَوت وكَرْبُه وألَمُه ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها مِن كُل شَعْرة في جَسَده، رواه عطاء عن ابن عباس . وقال سُفيان الثَّوري: مِن كُل عِرْق. وقال ابن جُرَيج : تتعلَّق نَفْسُه عِند حَنجرته فلا تَخرُج مِن فِيه فتَموت ، ولا تَرجِع إلى مكانها فتَجِد راحة . والثاني مِن كُل جِهَة مِن فَوقه وتَحته وعَن يَمِينه وشِماله وخَلْفه وقُدَّامه . قاله ابن عباس أيضًا . والثالث أنَّها البَلايا التي تُصِيب الكافرَ في النار، سَمَّاها مَوْتًا، قاله الأخفش. قَوله تعالى: ﴿ وما هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، أي : مَوْتًا تَنقطع معه الحياة ، ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ ، أي : مِن بَعْد هذا العذاب . قال ابن السائب : مِن بَعْد الصَّدِيدِ ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ . وقال إبراهيم التَّيمي : بَعد الخُلُود في النار . والغَلِيظ الشَّديد)) .

وعن أبي أُمَامَة: عن النبيِّ ﷺ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ويُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ ﴾ ، قال:((يُقرَّب إلَيه، فَيَتَكَرَّهُهُ،فإذا أُدْنِيَ مِنه شَوى وَجْهَه،وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رأسه،فإذا شَرِبَه قَطَّعَ أمعاءه ، حَتَّى يَخْرُجَ مِن دُبُرِه)) [رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي] .

هذا العذابُ الشديد يَصِل إلى كُل جُزء في جِسم الكافر ، عُقوبةً له على كُفره وضلاله في الدُّنيا . لقد استمتع في حياته بالملذات والشهوات المُحرَّمة ، وغَرِقَ في الكُفر والجُحود ، وفي الآخرة سيدفع ثَمَنَ ضَلاله غاليًا ، فهو خالد في النار ، والعذاب يأتيه مِن كُل الجهات ، ويُصيب كُلَّ أجزاء جِسمه . وقد ظَلَمَ نَفْسَه باختيار الكُفر على الإيمان ، ولَم يَظْلِمْه اللهُ شيئًا .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وترى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ في الأصفادِ ﴾ [إبراهيم : ٤٩] .

وتَرى الكافرين الذين أجرَموا بحقِّ أنفسهم ، باختيار الكُفر على الإيمان ، في يَوم القِيامة الرهيب ، مَشدُودين بعضهم مع بعض ، أو مَشدُودين مع شياطينهم ، بالأغلال والقُيُود .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وترى المُجْرِمِينَ ﴾ ، يعني الكُفَّار ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ . يُقَال : قَرَنْتُ الشَّيْءَ إلى الشيء ، إذا وَصَلْتُه به . وفي مَعنى ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهم يُقْرَنُون معَ الشَّياطين ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّ أيديهم وأرجلهم قُرِنَتْ إلى رِقَابهم ، قاله ابن زيد . والثالث يُقْرَن بعضُهم إلى بعض ، قاله ابن قُتَيبة . وفي الأصفاد ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها الأغلال ، قاله ابن عباس وابن زيد وأبو عُبَيدة وابن قُتَيبة وابن الأنباري . والثاني القُيُود والأغلال ، قاله قَتادة . والثالث القُيُود ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي)) .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((ما مِن أحدٍ يُؤَمَّرُ على عَشَرَةٍ فصاعدًا ، لا يُقْسِط فِيهم ، إلا جاءَ يَوْمَ القِيامة في الأصفاد والأغلال)) [٣٢٧].

مَن كان مسؤولًا عَن عشرة فأكثر ، وأميرًا عَلَيهم ، وَوَلِيَ أُمورَهم وشؤونَهم ، وكانَ ظالمًا لهم ، ولَم يَعْدِلْ فِيهِم ، ولَم يُعاملهم بالحق والقِسْط ، إلا جاء يَوْمَ القِيامة للحِسَاب مَشْدُودًا بالقُيُود . وهذا يدل على خُطورة الظُّلْم ، وضرورة إقامة الحق والعدل ، لأنَّهما يُنجِّيان صاحبهما يَوم القِيامة .

وقال المُناوي في فيض القدير (٥/ ٤٦٩) : (((ما مِن أحدٍ يُؤَمَّر على عَشَرَة) أي يُجعَل أميرًا عليها (فصاعدًا) أي فما فوقها (إلا جاء يوم القيامة في الأصفاد والأغلال) حتى يَفُكَّه عَدْلُه أوْ يُوبِقَه جَوْرُه ، هكذا جاء في رواية أخرى . وكتب عُمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : أمَّا بَعْد ، فقد أمكنتك القُدرة مِن ظُلم العِباد ، فإذا هَمَمْتَ بظُلم أحد ، فاذكُر قُدرةَ الله عَلَيك ، واعْلَمْ أنَّكَ لا تأتي الناس شيئًا ، إلا كان زائلًا عَنهُم ، باقيًا عَلَيك ، والله آخِذ للمظلوم مِن الظالم ، والسلام)) .

---

٣٢٧ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٠) برقم (٧٠٠٩) وصَّححه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النارُ ﴾ [إبراهيم : ٥٠] .

ثِيَابُهم التي يَلبَسونها مِن قَطِرَان ، وهي مادة سريعة الاشتعال بالنار ، وهذا أبْلَغ لاشتعال النار فِيهِم ، واحتراقهم بها . واللهُ قادرٌ على إحراقهم بدُون قَطِرَان ، لكنَّه خوَّفهم بالمادة التي يَعرِفونها . وتخصيص القَطِرَان بالذِّكْر لسُرعة اشتعال النار فيه، ورائحته النَّتنة ، ولَونه الأسْوَد . وَتَعْلُو وُجُوهَهُم النارُ فتُحرِقها . والوَجْهُ أشرف ما في الجِسْم ، وهو مَجْمَع الحواس والحُسن والبَهاء ، لذلك خُصَّت الوُجوه بالذِّكْر. وهذا يدل على إهانة الكافرين وإذلالهم جَزَاءَ كُفرهم واستكبارهم وعِنَادهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٧): ((فأمَّا السَّرابيل ، فقال أبو عُبَيدة : هي القُمُص (القُمصان) ، واحدها سِرْبَال . وقال الزَّجاج : السِّرْبَال كُل ما لُبِسَ ... وفي معنى القَطِران قَولان : أحدهما أنَّه النُّحاس المُذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني أنَّه قَطِرَان الإبِل ، قاله الحسن، وهو شيء يُتحلَّب مِن شَجَر، تَهْنَأ به الإبِل.قال الزَّجاج:وإنَّما جَعَلَ لهم القَطِران لأنَّه يُبالغ في اشتعال النار في الجُلود، وَلَوْ أرادَ اللهُ تعالى المُبَالَغة في إحراقهم بغَير ذلك لَقَدَرَ، ولكنَّه حذَّرهم ما يَعرِفون حقيقته .... قَوله تعالى : ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النارُ ﴾ أي : تَعْلُوها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُم أجْمَعِين ﴾ [الحِجْر : ٤٣] .

نارُ جَهَنَّم الهائلةُ هِيَ مَوْعِد إبليس وأتباعه جميعًا . وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٢٩٥) : ((وقَوله : ﴿ لَمَوْعِدُهُم ﴾ أي: مَوْضِع اجتماعهم ، عافانا الله مِن عَذابه بمَنِّه ، وعَامَلَنَا بمَحْض جُوده وكَرَمه)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ٧٩) : ((وفِيه دَلالة على أنَّ جَهَنَّم مَكَان الوَعْد، وأنَّ المَوعُود مِمَّا لا يُوصَف في الفَظَاعة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أبوابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُم جُزْءٌ مَقْسُوم ﴾ [الحِجْر : ٤٤] .

لِنَار جَهَنَّم سبعة أبواب، يَدخل أهلُ النارِ مِنها لكثرتهم ، لكل باب مِنَ الضَّالِّين (أتباع إبليس) نصيبٌ مَعلُوم . وكُلٌّ يَدخُل مِن باب بحَسَب أعماله ، ويُعذَّب عَلى قَدْر ذُنوبه ومَعَاصيه بلا ظُلم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠٢و٤٠٣) : ((قَوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أبوابٍ ﴾ وهي دَرَكَاتها ، بعضها فوق بعض . قال عليٌّ عليه السلام : أبواب جهنَّم ليست كأبوابكم هذه ، ولكنها هكذا وهكذا وهكذا ، بعضها فوق بعض . ووَصَفَ الراوي عنه بيَده وفتح أصابعه . قال ابن جرير: لها سبعة أبواب أوَّلها جَهَنَّم ، ثُمَّ لَظَى، ثُمَّ الحُطَمَة ، ثُمَّ السَّعِير ، ثُمَّ سَقَر، ثُمَّ الجَحِيم، ثُمَّ الهاوية. وقال الضَّحاك: هي سبعة أدراك، بعضها فوق بعض، فأعلاها فيه أهل التَّوحيد ، يُعذَّبون على قَدْر ذُنُوبهم ، ثُمَّ يخرجون . والثاني فيه النصارى، والثالث فيه اليهود ، والرابع فيه الصابئون ،

والخامس فيه المَجُوس، والسادس فيه مُشركو العرب، والسابع فيه المُنافقون. قال ابن الأنباري: لمَّا اتَّصل العذاب بالباب، وكان الباب مِن سَبَبه سُمِّيَ باسمه للمُجَاوَرَة كتَسميتهم الحَدَث غائطًا . قَوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُم ﴾ أي مِن أتباع إبليس ﴿ جُزْءٌ مَقْسُوم ﴾ والجُزء بَعض الشَّيء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُم يَوْمَ القِيامةِ عَلى وُجوهِهِم عُمْيًا وبُكْمًا وَصُمًّا مَأوَاهُم جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُم سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

يُسحَب الكافرون في يوم القيامة على وُجوههم حقيقةً ، لإهانتهم ، وإذلالهم، وتعذيبهم ، فاقدي الحواس، عُمْيًا لا يُبصِرون ، وبُكمًا لا يَنطِقون ، وصُمًّا لا يَسْمَعون ، وهذه الحالة الشنيعة هي الجَزَاء العادل لكُفرهم وضَلالهم وإعراضهم عن آيات الله تعالى . مَصيرهم والمكان الذي يأوون إليه نارُ جهنَّم . كُلَّمَا خَمَدَتْ وسَكَنَ لهبُها ، زادهم اللهُ لهبًا واشتعالًا .

وعن أنس بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ : أنَّ رَجُلًا قال : يا نَبِيَّ الله ، كيف يُحشَر الكافرُ على وجهه ؟ ، قال : ((أَلَيْسَ الذي أمشاه على الرِّجْلَيْنِ في الدُّنيا قادرًا على أن يُمْشِيَه على وجهه يَوم القيامة)) . قال قَتادة : بَلى وَعِزَّةِ رَبِّنا [٣٢٨].

إنَّ الكافرَ أعرضَ عن عبادة الله ، ورَفَضَ السُّجُودَ له ، تكبُّرًا وعِنادًا وغُرورًا ، فيَكون جزاؤه يَوم القِيامة أن يُسحَب على وجهه إهانةً وإذلالًا له . وهذا العِقَابُ المُوجِع يدل على سُوء حاله. واللهُ على كل شيء قدير،فكَمَا أَمْشَى الكافرَ على رِجْلَيْه في الدُّنيا قادر على أن يُمْشِيَه على وجهه.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُم يَوْمَ القِيامةِ عَلى وُجُوهِهِم ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه يُمْشِيهم على وُجوههم ... . والثاني أنَّ المعنى: ونَحْشُرُهُم مَسحُوبين على وُجُوههم، قاله ابن عباس. والثالث نَحْشُرُهم مُسْرِعِين مُبَادِرين ، فعبَّر بقَوله: ﴿ عَلى وُجُوهِهِم ﴾ عن الإسراع ، كما تَقول العرب : قَد مَرَّ القَوْمُ على وُجُوههم ، إذا أَسْرَعُوا ، قاله ابن الأنباري . قَوله تعالى : ﴿ عُمْيًا وبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ فيه قَولان : أحدهما عُمْيًا لا يَرَوْنَ شيئًا يَسُرُّهم ، وبُكْمًا لا يَنطِقون بحُجَّة ، وصُمًّا لا يَسْمَعُون شيئًا يَسُرُّهم ، قاله ابن عباس . وقال في رواية : عُمْيًا عن النَّظر إلى ما جَعَلَ لأوليائه ، وبُكْمًا عَن مُخَاطَبَة الله ، وصُمًّا عَمَّا مَدَحَ به أولياءه . وهذا قَول الأكثرين . والثاني أن هذا الحَشْر في بعض أحوال القيامة بَعد الحَشْر الأول . قال مُقاتل : هذا يَكون حِين يُقَال لهم: ﴿ اخْسَؤوا فِيها ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فَيَصِيرُون عُمْيًا بُكْمًا صُمًّا، لا يَرَوْنَ ،

---

٣٢٨ متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣٩٠) برقم (٦١٥٨)، ومسلم (٤/ ٢١٦١) برقم (٢٨٠٦) .

ولا يَسْمَعُون، ولا يَنْطِقُون بعد ذلك . قَوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ . قال ابن عباس : أي سَكَنَتْ. قال المُفسِّرون : وذلك أنَّها تأكلهم ، فإذا لَم تُبْقِ مِنهُم شيئًا وصاروا فَحْمًا، ولم تجد شيئًا تأكله سَكَنَتْ، فيُعَادُون خَلْقًا جديدًا، فتَعُود لهم... ومعنى: ﴿زِدْنَاهُم سَعِيرًا﴾ نارًا تَتَسَعَّر، أي تتلهَّب)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّا أعْتَدْنا للظالمينَ نارًا أحاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا وإن يَسْتغيثوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ يَشْوي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكَهْف : ٢٩] .

إنَّ الله هيَّأ للكافرين الذين ظَلَمُوا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، نارًا هائلة شديدة الحرارة، أحاطَ بهم سُورها مِن كُل الجوانب ، فلا مجال للهرب ولا الإفلات ، فالنارُ مُطبِقة عليهم، وإنْ يَستغيثوا مِن العَطَش وَحَرِّ النار ، يُغَاثوا بماء شديد الحرارة كَعَكَر الزَّيت ، يَشْوي وُجُوهَهم مِن شِدَّة حَرِّه إذا قُرِّبَ إلَيها حتى يَسْقُط لحمُها،بِئْسَ ذلك الشَّراب الذي يُغَاثون به،وساءت النار مَنزلًا. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٦٥٩) : ((﴿ إنَّا أعْتَدْنا ﴾ هَيَّأْنا ﴿ للظالمينَ ﴾ الذين عَبَدُوا غَيْرَ الله تعالى ، ﴿ نارًا أحاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا ﴾ ، وهو دُخَان يُحيط بالكُفَّار يَوم القِيامة ﴿ وإن يَسْتغيثوا ﴾ مِمَّا هُم فيه من العذاب والعطش ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ ﴾ كَمُذَاب الحَديد والرَّصَاص في الحرارة ﴿ يَشْوي الوُجُوهَ ﴾ حَتَّى يَسْقُطَ لَحْمُها ، ثُمَّ ذَمَّه فقال : ﴿ بِئْسَ الشَّرابُ ﴾ هُوَ ﴿ وَسَاءتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ مَنْزِلًا)) .

وعن صَفوان بن يَعْلَى أنَّ يَعْلَى قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ البَحْرَ هُوَ جَهَنَّم)) ، فقالوا لِيَعْلَى : قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ نارًا أحاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا ﴾ . قال : والذي نَفْسِي بيده ، لا أدْخُلُها أبدًا حَتَّى ألقى اللهَ ، ولا تُصيبني مِنها قَطْرَة [٣٢٩].

وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٤٣) وصحَّحه : عن أبي سعيد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ((لِسُرَادِقِ النارِ أربعةُ جُدُر ، كُلُّ جِدار مِنها مسيرة أربعين سنة)) .

أحاطت بالكُفار سُرَادِقُ النار (تَشْبيه ما يُحيط بهم من النار بالسُّرَادِق المُحِيط بِمَن فيه) . ولِسُرَادِق النار أربعة جُدران، كَثَافةُ كُل جِدار وغِلَظُه مسيرة أربعين سَنَة، فلا يُمكن الهرب من النار.

---

٣٢٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣٨) برقم (٨٧٦٢) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . وقال الحاكم : ((ومعناه أن البحر صَعْب كأنه جهنَّم ، ولذلك فرَّع على إخراج حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ: " إنَّ تحت البحر نارًا ، وتحت النار بحرًا ، فأمَّا النار فإنها تحت السابعة " . وقد شَهِدَ الصحابة فَمَن بَعدهم على رُؤية دُخَانها)) .

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ : عن النبيِّ ﷺ : ﴿ بِمَاءٍ كالمُهْلِ ﴾ ، قال : ((كَعَكَرِ الزَّيت ، فإذا قُرِّبَ إلَيه ، سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِه)) [330] . هذا الماءُ شديد الحرارة ، إذا قُرِّبَ إلى الكافر عُقوبةً له ، سَقَطَتْ جِلْدته وبَشَرَته. وهذا يدل على الألم الفظيع والعذاب المُؤلِم.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فالذينَ كَفروا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيَابٌ مِن نارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ ﴾ [الحَج : ١٩]. إنَّ الكافرين خِيطَتْ وفُصِّلَتْ وسُوِّيَتْ لهم مَلابس مِن نار ، عَلى قَدْر أجسامهم ، يَلبَسونها عندما يَدخُلون النارَ عِقَابًا وعذابًا لهم ، والنارُ مُحيطة بهم كما يُحيط الثَّوْبُ بلابسه . يُصَبُّ على رؤوسهم الماء الحار المَغلي بنار جهنَّم . والتَّعبير بالفِعل الماضي ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ عن المُستقبل، لأنَّه واقع لا مَحَالة ، وكائن بلا شَك ، فصارَ المُستقبل بحُكم الماضي الذي وَقَعَ وتَمَّ وانتهى . ولا شَيء يقف أمام إرادة الله ، ولا يَمنعه مانع . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٧٢) : ((﴿ فالذينَ كَفروا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيَابٌ مِن نارٍ ﴾ ، قال سعيد بن جُبَيْر : ثِيَاب مِن نُحَاس مُذاب ، ولَيس مِن الآنِيَة شيء إذا حَمِيَ أشد حُرًّا مِنه . وسُمِّيَ باسم الثِّياب، لأنَّها تُحيط بهم كإحاطة الثِّياب... ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ ﴾ . الحَمِيم:هو المَاء الحَار الذي انتهت حرارته)).

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه : وتلا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فالذينَ كَفروا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيَابٌ مِن نارٍ ﴾،فقال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول:((إنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ على رؤوسهم،فَيَنْفُذُ الجُمْجُمَةَ، حَتَّى يَخْلُصَ إلى جَوْفِه، فَيَسْلُتُ ما في جَوْفِه، حَتَّى يُمزِّق قَدَمَيْه،وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَاد كما كان)) [331] .

إنَّ الماء الحار المَغلي بنار جهنَّم يُصَبُّ على رؤوس الكافرين ، فيخترق الجُمجمةَ ، ويَدخل أثر حرارة الماء من رأسه إلى باطنه ، حتَّى يصل إلى ما في بَطْنه ، فيَقطَع ويَستأصل ما في جَوْفه مِن الأمعاء والأحشاء ، حتَّى يُقطِّع قَدَمَيْه ، وهو الصَّهْر (الإذابة) ، ثُمَّ يُعَاد ما في جَوْفه كما كان . وهكذا يستمرُّ عذاب الكافر بلا انقطاع ولا تَوَقُّف، وكُلَّما انتهى بدأ مِن جديد ضِمن حَلْقة مُتَّصلة.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِم والجُلُودُ ﴾ [الحَج : ٢٠]. يُذَاب بالحَمِيم ما في بطونهم مِن الأمعاء والأحشاء،وتُشوَى جُلودهم فتتساقط.وهذا يدلُّ على شِدَّة حَرَارة الحَمِيم، وقُوَّة تأثيره،فهو يُؤَثِّر في الباطن(الأمعاء والأحشاء) والظاهر(الجُلُود). وفي زاد المسير (٥/ ٤١٧) : ((قال المُفسِّرون: يُذَاب بالماء الحار ما في بُطُونهم مِن شَحْم أو مِعًى (أمعاء) حَتَّى يَخرُج مِن

٣٣٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٤) برقم (٣٨٥٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٣١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٩) برقم (٣٤٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أدبارهم ، وتَنضَج الجُلُودُ ، فتتساقط مِن حَرِّه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَهُم مَقَامِعُ مِن حَدِيد ﴾ [الحَج : ٢١] . ولهم سِيَاط مِن حديد ، تُضرَب بها رؤوسهم . والمَقَامِعُ جَمْع مِقْمَعَة ، وهي آلة القَمْع ، وسُمِّيَتْ بذلك لأنها تَقْمَع المَضروبَ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤١٧) : ((﴿ وَلَهُم مَقَامِعُ ﴾ . قال الضَّحاك : هي المَطَارِق. وقال الحسن: إن النار تَرْميهم بلهبها،حتى إذا كانوا في أعلاها ضُربوا بمَقَامِع ، فَهَوَوْا فيها سبعين خريفًا، فإذا انتَهَوْا إلى أسفلها ، ضَرَبَهُم زَفير لهبها، فلا يَستقرون ساعة . قال مُقاتل : إذا جاشت جهنم ألقتهم في أعلاها ، فيُريدون الخُروج ، فتتلقَّاهم خَزَنَة جهنَّم بالمَقَامِع فيَضربونهم ، فيَهْوي أحدُهم مِن تلك الضَّربة الى قَعْرها. وقال غَيْرُه: إذا دفعتهم النار ظَنُّوا أنها ستقذفهم خارجًا منها ، فتُعيدهم الزَّبَانِيَةُ بمَقَامِع الحديد)) .

وعن أبي سعيد رضي اللهُ عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ((لَوْ أنَّ مِقْمَعًا مِن حَديد وُضِعَ في الأرض ، فاجتمعَ له الثَّقَلان ، ما أقَلُّوهُ مِنَ الأرض)) [٣٣٢].

هذا يدلُّ على عِظَم حَجْم مِقْمَع الحديد ، الذي يُعذَّب به الكافرون في النار . وَلَوْ وُضِعَ هذا المِقْمَع في الأرض ، فاجتمعَ له الإنسُ والجِنُّ ، لَم يَقْدِرُوا على تحريكه ، فضلًا عَن أن يَرفعوه .

وعن أبي سعيد رضي اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((لَوْ ضَرَبَ مِقْمَعٌ مِن حَديدِ جَهَنَّمَ الجَبَلَ لَتَفَتَّتَ كَما يُضرَب به أهلُ النار فصارَ رَمَادًا)) [٣٣٣].

هذا يدلُّ على صلابة مِقْمَع الحديد،وعذاب الكافرين الرهيب في النار الذي هو فوق الخَيَال.

وقال المُناوي في فَيض القدير(٥/ ٣١٠):(((لَوْ أنَّ مِقْمَعًا مِن حديد) أي سَوْطًا، رأسه مُعْوَج، وحقيقته ما يُقْمَع به أي يُكَفُّ بعُنف (وُضع في الأرض فاجتمع له الثَّقَلان) الإنس والجِن سُمِّيا به لِثِقْلهما على الأرض،أوْ لرَزانة قَدْرهم ورأيهم، أوْ لغَير ذلك(ما أقَلُّوه من الأرض) لَم يَقُلْ: ما رفعوه، لأنهم استقلُّوا قُوَاهم لرَفْعه (وَلَوْ ضُرِبَ الجبل بمِقْمَع من حديد كما يُضرَب أهلُ النار لَتَفَتَّتَ وعادَ غُبارًا) فانظر يا مِسكين إلى هذه الأحوال والأهوال، وَاعْلَمْ أن الله خلق النار بأهوالها وخَلَقَ لها أهلًا لا يَزيدون ولا يَنقُصون ، فكيف يَلذُّ عَيش العاقل وهو لا يَدري مِن أيِّ الفريقَيْن هو ؟!)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنها مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ [الحَج : ٢٢] .

---

٣٣٢ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٤٢) برقم (٨٧٧٣) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

٣٣٣ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٤٤) برقم (٨٧٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

كُلَّما أرادَ الكفارُ (أهلُ النار) الخُروجَ مِن النار مِن شِدَّة الكَرْب والغَم، رُدُّوا إلَيها ، بالضَّرْب بالمَقَامِع ، ويُقَال لهم : ذُوقوا العذابَ المُحْرِق المُؤْلِم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٧٥) : ((﴿ كُلَّمَا أرادوا أن يَخرُجوا مِنها مِن غَمٍّ ﴾ ، أي: كُلَّما حاولوا الخُروجَ مِنَ النار لِمَا يَلحقهم مِن الغَم والكَرْب الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿ أُعِيدُوا فِيها ﴾ أي: رُدُّوا إلَيها بالمَقَامِع.وفي التفسير: إنَّ جهنَّم لَتَجِيش بهم، فتُلقيهم إلى أعلاها، فيُريدون الخروج مِنها، فتَضربهم الزَّبَانِيَةُ بِمَقَامِع مِن الحديد، فَيَهْوُون فيها سبعين خريفًا ﴿ وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ أي : تقول لهم الملائكة : ذُوقُوا عذاب الحريق ، أي : المُحْرِق ، مِثل الأليم والوَجيع)) .

وعن سَلْمان ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((النَّارُ سَوداءُ ، لا يُضيء لَهِيبُها ، ولا جَمْرُها . ثُمَّ قَرأ هذه الآية : ﴿ كُلَّمَا أرادوا أن يَخْرُجوا مِنها مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها ﴾)) [٣٣٤].

يُشير هذا الحديث المَوقوف إلى أن نار الآخرة مُظلِمة، شديدة السَّواد ، لا فيها ضَوء ولا نُور، بخِلاف نار الدُّنيا. وهذا يعني أن العذاب في نار الآخرة لا يُمكن تخيُّله ولا تصوُّره ولا الإحاطة به.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا رَأَتْهُم مِن مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفُرقان : ١٢] .

إذا رأت جَهَنَّمُ الكافرين مِن مَسافة بعيدة (قِيل : خمسمائة عام) سَمِعُوا لها غَلَيَانًا ، كالغَضبان إذا غَلَى صَدْرُه مِن الغضب والغَيْظ ، وسَمِعُوا لها صَوْتًا شديدًا .

والآيةُ ﴿ مِن مَكانٍ بَعِيدٍ ﴾ للتَّهويل والتَّخويف ، وتدلُّ على شِدَّة الأمر وصُعوبته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٧٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا رَأَتْهُم مِن مَكانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال السُّدي عن أشياخه: مِن مَسيرة مائة عام. فإن قِيل: السَّعِير مُذكَّر، فكيف قال: ﴿ إذا رَأَتْهُم ﴾ فالجواب أنَّه أراد بالسَّعِير النار. قَوله تعالى: ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا ﴾ فِيه قَولان: أحدهما غَلَيَان تَغَيُّظ، قاله الزَّجاج. قال المُفسِّرون: والمعنى أنَّها تتغيَّظ عليهم فيَسمعون صَوت تَغَيُّظها وزفيرها كالغَضْبان إذا غَلَى صَدْرُه مِن الغَيظ . والثاني يَسْمَعُون فيها تغيُّظ المُعذَّبين وزفيرهم، حكاه ابن قُتَيبة)) .

وعن أبي أُمَامَة قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّدًا ، فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَه مِن بَيْن عَيْنَي جَهَنَّم)) ، فَشَقَّ ذلك على أصحابه ، فقالوا : يا رسول الله ، نُحدِّث عَنك بالحديث ، نَزيد ونُنقِص ؟ . قال : ((لَيْسَ ذا أعنيكم ، إنَّما أعني الذي يَكْذِب عليَّ مُتَحَدِّثًا ، يَطْلُب به شَين الإسلام)) ، قالوا : يا رسول الله ، إنَّكَ قُلت : بَيْن عَيْنَي جَهَنَّم ، وهَل لِجَهَنَّم عَيْن ؟ ، قال :

---

٣٣٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٠) برقم (٣٤٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

((نَعَم، أمَا سَمِعْتَهُ يَقول: ﴿إذا رَأتْهُم مِن مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا ﴾ ، فهل تراهم إلا بعَيْنَيْن ؟)) [٣٣٥].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا أُلْقُوا مِنها مَكانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفُرقان: ١٣].

وإذا أُلْقِيَ الكُفَّار في جَهَنَّم في مَكَان ضَيِّق مُصفَّدين ، قد جُمعت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، دَعَوْا على أنفسهم بالوَيْل والخَيْبَة والحَسْرَة والهَلاك . وضِيق المكان يدلُّ على شِدَّة المَوقِف ، وصُعوبة العذاب ، وعِظَم البَلاء . وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١٦٢) : ((﴿ وإذا أُلْقُوا مِنها ﴾ مِن النار ﴿ مَكانًا ضَيِّقًا ﴾ ، فإنَّ الكَرْب مع الضِّيق ، كما أن الرَّوْح مَعَ السَّعَة ، ولذا وُصفت الجَنَّة بأن عَرْضها السَّماوات والأرض. وعن ابن عباس رضي اللهُ عنه أنَّه يَضِيق عَلَيهم كما يَضِيق الزُّج في الرُّمْح ــ والزُّجُّ الحديدة التي تُركَّب في أسفل الرُّمْح ــ ، ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ ، أي: وهُم معَ ذلك الضِّيق مُسَلْسَلُون مُقرَّنون في السلاسل ، قُرِنَتْ أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، أو يُقْرَن مَعَ كُل كافر شَيطانه في سِلْسِلَة ، وفي أرجلهم الأصفاد ، ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ حِينئذ ﴿ ثُبُورًا ﴾ أي : قالوا : واثبوراه ، أي : تَعَالَ يا ثُبُور ، فهذا حِينُك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفُرقان : ١٤] .

يُقَال لهم : لا تَدْعُوا اليَوْمَ بالهلاك على أنفسكم مَرَّةً واحدة ، بل ادْعُوا مَرَّات كثيرة . فإنَّ هلاككم الأكيد وعذابكم الشديد يَتطَلَّبَان أن تَدْعُوا على أنفسُكم بالوَيْل والحَسْرَة والخَيْبَة أدعيةً كثيرةً . وهذا يدلُّ على خُلود عذابهم . وفيه إقناط لهم مِن استجابة الدُّعاء وتخفيفِ العذاب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٩٣) : ((﴿ لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ﴾ ، أي: فيُقَال لهم هذه المَقَالة ، والقائل لهم هُم المَلائكة : أي اتركُوا دُعاءَ ثُبُور واحد ، فإنَّ ما أنتم فيه مِن الهلاك أكبر مِن ذلك وأعظم ، كذا قال الزَّجاج ، ﴿ وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . والثُّبُور مَصْدَر يقع على القليل والكثير ، فلهذا لَم يُجمَع ، ومِثْلُه ضربته ضَرْبًا كثيرًا ، وقَعَدَ قُعُودًا طويلًا ، فالكثرة هاهُنا هي بحَسَب كَثرة الدُّعاء المُتعلِّق به ، لا بحَسَب كَثرته في نَفْسه ، فإنَّه شيء واحد . والمعنى : لا تَدْعُوا على أنفسكم بالثُّبُور دُعاءً واحدًا ، وادْعُوه أدعيةً كثيرةً ، فإنَّ ما أنتم فيه مِن العذاب أشد مِن ذلك ، لطُول مُدَّته ، وعدم تَنَاهيه . وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال مَن يُقَال له ذلك

---

٣٣٥ رواه الطبراني (٨/ ١٣١). وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٧٣): ((رواه الطبراني في الكبير ، وفيه الأحْوَص بن حَكِيم، ضعَّفه النَّسائي وغَيْرُه، ووثَّقه العِجْلي ويحيى بن سعيد القَطَّان في رواية. ورواه عن الأحْوَص محمد بن الفضل بن عَطِيَّة ضعيف (والراوي عن محمد بن الفضل أُسَيد بن زَيد كذَّبوه))).

مِن غَير أن يكون هناك قَول . وقِيل : إنَّ المعنى إنَّكُم وَقعتم فيما لَيس ثُبُوركم فيه واحدًا ، بَل هو ثُبُور كثير ، لأنَّ العذاب أنواع . والأَوْلَى أنَّ المُراد بهذا الجواب عليهم ، الدَّلالة على خُلُود عذابهم ، وإقناطهم عَن حُصُول ما يَتَمَنَّوْنَهُ مِن الهلاك المُنجِّي لهم مِمَّا هُم فيه)) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((أوَّلُ مَن يُكسَى حُلَّةً مِن النار إبليسُ ، يَضَعُها على حَاجِبَيْه ، وهو يَسْحَبُها مِن خَلْفِه ، وذُرِّيَّتُهُ مِن خَلْفِه ، وهو يَقُول : يا ثُبُوراه ، وهُم يُنَادُون : يا ثُبُورَاهُم ، حَتَّى يَقِفَ على النار ، فيَقول : يا ثُبُوراه ، فَيُنَادُون : يا ثُبُورَاهُم ، فيُقال : ﴿ لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾)) [٣٣٦].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنها أُعِيدُوا فِيها ﴾ [السَّجْدة : ٢٠] .

إذا دَفَعَ لَهَبُ النارِ الكافرين إلى أعلاها ، رُدُّوا إلى مَوضِعهم فيها ، مُكرَهين ، ورَغْمًا عنهم ، وهُم يُريدون الخُروجَ مِن النار، ويَطْمَعُون في ذلك ، كَي يرتاحوا من العذاب الشديد . وهذا مُحَال، لأنَّهُم خالدون في عذاب النار إلى الأبد . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٦١٠) : ((قال الفُضَيل بن عِيَاض: واللهِ إنَّ الأيدي لَمُوثَقَة، وإنَّ الأرْجُل لَمُقَيَّدَة ، وإنَّ اللهب لَيَرْفعهم ، والمَلائكة تَقْمَعُهم)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ للطاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [ص : ٥٥] . وإنَّ للكافرين لَشَرَّ مُنْقَلَب وَمَرْجِع، يَصِيرون إلَيه في الآخِرة بَعْد مَوْتهم. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٩٧): ((﴿ وإنَّ للطاغِينَ ﴾ وهُم الذين تَمَرَّدُوا على رَبِّهِم، فَعَصَوْا أمْرَه مَعَ إحسانه إلَيهم ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ ، يقول : لَشَرَّ مرجع ومصير يَصِيرون إلَيه في الآخِرة بعد خُروجهم من الدُّنيا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ [ص : ٥٦] .

جَهَنَّم يَدخُلونها ، ويُعذَّبون فِيها ، وتُحيط بهم مِن كُل الجوانب ، وبِئسَتْ جَهَنَّم فِرَاشًا لهم . لقد شبَّه ما تحتهم مِن النار بالمِهَاد الذي يَفترشه النائم ، وهذا يدلُّ على شِدَّة العذاب .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٩٧): ((ثُمَّ بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه ما ذلك الذي إلَيه يَنقَلِبُون ويَصِيرُون في الآخِرة، فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ فترجم عن جهنَّم بقوله : ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ ، ومعنى الكلام : إنَّ للكافرين لَشَرَّ مَصِير يَصِيرُون إلَيه يوم القيامة ، لأن مصيرهم إلى جهنم وإلَيها مُنقَلبهم بعد وفاتهم ﴿ فَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: فَبِئْسَ الفِرَاش الذي افترشوه لأنفسهم جهنَّم)) .

---

٣٣٦ رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٣) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧١٩) : ((رواه أحمد والبَزَّار، ورجالهما رجال الصحيح غَير عليٍّ بن زَيد ، وقد وُثِّقَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص : ٥٧]. هذا هو العذاب الأليم فَلْيَذُوقُوه، وهو حَمِيم، ماء حَار مُحْرِق ، وغَسَّاق ما يَسِيل مِن جُلُود أهل النار مِنَ القَيْح والصَّدِيد.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٤٩) : ((فأمَّا الحَمِيم فهو الماء الحَار ... وفي الغَسَّاق أربعة أقوال : أحدها الزَّمهرير ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقال مُجاهد : الغَسَّاق لا يستطيعون أن يَذُوقُوه مِن بَرْده . والثاني أنَّه ما يَجْري مِن صَدِيد أهل النار ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، وبه قال عَطِيَّة وقَتادة وابن زَيد . والثالث أنَّ الغَسَّاق عَيْن في جَهَنَّم ... . والرابع أنَّه ما يَسِيل مِن دُمُوعهم ، قاله السُّدي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أزواجٌ ﴾ [ص : ٥٨] . وعذاب آخَر مِثل الحَمِيم والغَسَّاق ، أصنافٌ . أي إنَّ عذابهم الشديد من أنواع مُختلفة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٥): ((﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أزواجٌ ﴾ أي: وأشياء مِن هذا القَبِيل: الشَّيء وضِدُّه يُعَاقَبُون بها ... . وقال الحسن البصري في قَوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أزواجٌ ﴾ ألوان مِن العذاب . وقال غَيْرُه : كالزَّمهرير ، والسَّمُوم ، وشُرب الحَمِيم ، وأكل الزَّقُّوم، والصُّعود، والهَوِيّ ، إلى غَير ذلك من الأشياء المُختلفة المُتضادة، والجميع مِمَّا يُعذَّبون به، ويُهانون بسببه)) .

وعن أبي سعيد _ رضي اللهُ عنه _ : أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((لَوْ أنَّ دَلْوَ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ في الدُّنيا ، لأنتَنَ أهلُ الدُّنيا))[٣٣٧]. لَوْ أنَّ دَلْوًا مِن غَسَّاق(ما يَسِيل مِن جُلُود أهل النار مِنَ القَيْح والصَّدِيد) يُصَبُّ في أرض الدُّنيا، لصارَ سُكَّانُ الأرض ذَوِي نَتْن بسببه (أصحاب رائحة كريهة) . وهذا يدلُّ على فظاعته الشديدة . وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٠٨) : (((لَوْ أنَّ دَلْوًا مِن غَسَّاق) بالتخفيف والتشديد، ما يَغسِق مِن صَدِيد أهل النار. يُقَال: غَسَقَت العَيْنُ، إذا سَالَ دَمْعُها . وقِيل : الحَمِيمُ يُحرِق بحَرِّه ، والغَسَّاق يُحرِق ببَرْده ، هكذا في الكَشَّاف. وفي الأساس: هو ما يَسِيل مِن جُلُودهم أسْوَد ، مِن غَسَقَت وعَين غاسقة ، إذا أظلمت ودمعت (يُهْرَاق في الدُّنيا) أي يُصَبُّ فِيها (لأنتَنَ أهلُ الدُّنيا) أنتنَ الشَّيْءُ ، تَغَيَّر ، أو صار ذا نَتْن ، فَنَصْب " أهل " غَير صواب ، إنَّما الصواب رَفعه ، كذا ذكره التوربشتي . قال الغَزَّالي : فهذا ثوابهم إذا استغاثوا مِن العَطَش ، فيُسقَى أحدهم : ﴿ مِن مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيغُهُ ويَأتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وما هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم])) .

---

٣٣٧ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٤٤) برقم (٨٧٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم لا مَرْحَبًا بِهِم إنَّهُم صَالُوا النارِ ﴾ [ص : ٥٩].

قالت خَزَنَةُ جهنَّم للقادة والرُّؤساء: هذا جَمْع كثيف داخل معكم إلى النار، والمقصود الأتْبَاع، وعِندما يَسمع القادةُ والرُّؤساءُ كلامَ الخَزَنَة ، يَقولون : لا مَرْحَبًا بالأتباع . وهذا دعاء مِن القادة على الأتباع ، والمعنى : لا اتَّسعت منازلهم في النار . أي : لا سَعَة عليهم . إنَّهُم دَاخِلُون النار بأعمالهم كما دَخَلْناها ، ومُقَاسُون حَرَّها الشديد. وهذا دليل على أن المحبَّة التي كانت بين القادة والأتباع في الدُّنيا ، تصير عداوةً في الآخِرة ، عِندما يَجتمعون معًا في النار . لقد جَمَعَهم الضَّلالُ في الدُّنيا ، وجَمَعَهم عذابُ النار في الآخرة. وقال الشوكاني في فتح القدير(٤/ ٦٢٨): ((﴿ هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم ﴾ الفَوْج الجَمَاعة، والاقتحام الدُّخول . وهذا حِكاية لقَول الملائكة الذين هُم خَزَنَة النار،وذلك أنَّ القادة والرُّؤساء إذا دَخلوا النارَ، ثُمَّ دَخل بعدهم الأتباعُ، قالت الخَزَنَة للقادة : ﴿ هذا فَوْجٌ ﴾ يَعْنُون الأتباع ﴿ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم ﴾ أي: دَاخِل مَعَكُم إلى النار ، وقَوله : ﴿ لا مَرْحَبًا بِهِم ﴾ مِن قول القادة والرؤساء لمَّا قالت لهم الخَزَنَةُ ذلك، قالوا: لا مرحبًا بهم:أي لا اتَّسعت منازلهم في النَّار. والرُّحْب السَّعَة، والمعنى : لا كرامة لهم. وهذا إخبار من الله سُبحانَه بانقطاع المَوَدَّة بين الكفار، وأن المَوَدَّة التي كانت بينهم تصير عداوة... وجُملة : لا مرحبًا بهم ، دُعائية لا محل لها من الإعراب ، أو صِفة للفَوج ، أو حال مِنه ، أوْ بتقدير القَول : أي مَقُولًا في حَقِّهم : لا مرحبًا بهم.وقِيل: إنَّها مِن تَمَام قَول الخَزَنَة، والأوَّل أَوْلَى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي، وجُملة ﴿ إنَّهُم صَالُوا النارِ ﴾ تَعليل من جهة القائلين: لا مَرْحَبًا بهم، أي إنَّهم صَالوا النار كَمَا صَلَيناها، ومُستحقون لها كما استحقيناها)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالوا بَل أنتُم لا مَرْحَبًا بِكُم أنتُم قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ [ص: ٦٠]. قال الأتباعُ للقادة والرُّؤساء الذي أضَلُّوهم : بَل أنتُم لا اتَّسعت منازلكم في النار ، ولا كرامة لكم ، أنتُم قدَّمتم لنا هذا العذابَ ، ودَعَوْتُمونا إلى الذُّنُوب والمعاصي ، وكُنتم السَّبَبَ في كُفرنا وضَلالنا وعِقَابنا وعذابنا ، فَبِئْسَ المَصير جهنَّم لنا ولكم. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٠١):((﴿قالوا بَل أنتُم لا مَرْحَبًا بِكُم ﴾ يقول: قال الفَوْجُ الواردون جَهَنَّم على الطاغين الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤه صِفتهم لهم: بَل أنتُم أيُّها القَوم لا مرحبًا بكم: أي: لا اتَّسعت بكم أماكنكم ﴿ أنتُم قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ يَعْنُون : أنتُم قَدَّمْتُم لنا سُكْنَى هذا المكان ، وصَلْي النار ، بإضلالكم إيَّانا ، ودُعائكم لنا إلى الكُفر بالله ، وتكذيبِ رُسُله ، حَتَّى ضَلَلْنا باتِّباعكم ، فَاستَوْجَبْنَا سُكْنَى جهنَّم اليوم ، فذلك تقديمهم لهم ما قدَّموا في الدنيا مِن عذاب الله لهم في الآخرة ﴿ فَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ يقول : فَبِئْسَ المَكان يُسْتَمَر فيه جَهَنَّم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا في النارِ ﴾ [ص : ٦١] .

قال الأتباعُ : يا رَبَّنَا ، مَن قدَّم لنا هذا العذابَ ، بإضلالنا وإغوائنا ، ودُعائنا إلى المعاصي ، فاجعلْ عذابَه مُضَاعَفًا (ذا ضِعْف) . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٠١) : ((وهذا أيضًا قَول الفَوْج المُقْتَحِم على الطاغين ، وهُم كانوا أتباعَ الطاغين في الدُّنيا . يَقول جَلَّ ثناؤه : وقال الأتابع : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذا ﴾ ، يَعْنُون : مَن قدَّم لهم في الدُّنيا بدُعائهم إلى العمل الذي يُوجِب لهم النار التي وَرَدُوها ، وسُكْنَى المَنزِل الذي سَكَنُوه مِنها ، ويَعْنُون بقَولهم : ﴿ هَذا ﴾ العذاب الذي وَرَدْنَاه ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا في النارِ ﴾ ، يقولون : فأضْعِفْ له العذابَ في النار على العذاب الذي هو فيه فيها ، وهذا أيضًا مِن دُعاء الأتباع للمَتبوعين)) اهـ . وعن عبد الله ابن مسعود : ﴿قالوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا في النارِ﴾ . قال:((أفاعي وحَيَّات))[٣٣٨].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا ما لَنَا لا نَرى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأشرارِ ﴾ [ص : ٦٢] .

وقال زُعماءُ الضَّلالِ وأئمةُ الكُفر وهُم في النار:ما لَنَا لا نَرَى رِجَالًا مَعَنَا ،كُنَّا نَعُدُّهُم في الدُّنيا مِن الضَّالِّين الأراذل ، الذينَ لا وَزْنَ لهم ، ولا خَير فيهم ، ولا فائدة مِنهُم ؟، وهُم يَقصِدون فُقراء المُؤمنين، الذين كانوا يَحتقرونهم ، ويَسْخَرُون مِنهُم ، ويَستهزئون بهم ، في الحياة الدُّنيا . وقِيل: أرادوا صحابةَ النبيِّ ﷺ على العُموم . والمعنى العام للآية : إنَّ رؤساء الكُفر إذا دَخلوا النارَ ، نَظَرُوا ، فلم يَرَوْا مَن كان يُخالفهم مِن المؤمنين ، فيَقولون ذلك .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني أكابر المُشركين: ﴿ ما لَنَا لا نَرى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأشرارِ ﴾ . قال ابن عباس : يُريدون أصحابَ مُحمَّد ﷺ . يقول أبو جَهْل : أين بلال ؟ أين صُهَيب ؟ أين عَمَّار ؟ أُولئك في الفِرْدَوْس ! واعجبًا لأبي جهل ! مِسكين . أسلمَ ابنُه عِكرمة ، وابنته جُوَيرية ، وأسلمت أُمُّه ، وأسلمَ أخوه ، وكَفر هُوَ . قال :

ونُورًا أضاءَ الأرضَ شَرْقًا ومَغْرِبًا ومَوْضِعُ رِجْلي مِنه أسودُ مُظْلِم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصارُ ﴾ [ص : ٦٣] .

الاستفهامُ للتَّعَجُّب والتَّوبيخ . إنَّ الكافرين يُنكِرون على أنفسهم ، ويُؤَنِّبونها ، ويُوبِّخونها على ما فَعلوا بالمؤمنين: أجَعَلْنا هؤلاء المؤمنين في الدُّنيا سُخريةً فأخْطَأنا ، أمْ مَالت عَنهُم الأبصارُ فلم نَرَهُم في النار ، ولم نَعْلَم مكانهم فيها ؟ . وهُم فُقَراء المؤمنين كعَمَّار وبِلال وصُهَيب وسَلْمَان .

---

٣٣٨ رواه الطبراني (٩ / ٢٢٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢٢) : ((رجاله رجال الصحيح)).

والفِعْلُ ﴿ أَتَّخَذْنَاهُم ﴾ يدلُّ على أنَّ المؤمنين لَيسوا بأهل للسُّخرية . وهذا ندمٌ شديد مِن الكافرين على السُّخرية بالمؤمنين ، والاستهزاء بهم . ولكن لا فائدة للنَّدَم بعد فَوَات الأوان .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٠٠) : ((ومَجَاز الآية : ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتَّخذناهم سِخْرِيًّا لَم يَدخُلوا مَعَنَا النار ، أَمْ دَخلوها فزاغت عنهم أبصارُنا فلم نَرَهُم حِين دَخَلُوها؟. وقِيل : أَمْ هُم في النار ولكن احتجبوا عن أبصارنا ؟ . وقال ابن كيسان : أمْ كانوا خيرًا مِنَّا ولكن نَحْنُ لا نَعْلَم فكانت أبصارُنا تَزِيغ عَنهُم في الدُّنيا فلا نَعُدُّهُم شيئًا ؟)) اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٥): ((﴿ وقالوا ما لَنَا لا نَرى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأشرارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصارُ (٦٣) ﴾ ، هذا إخبار عَن الكُفَّار في النار أنَّهُم يَفْقِدُون رِجالًا كانوا يَعتقدون أنَّهُم على الضَّلالة، وهُم المؤمنون في زَعْمهم، قالوا: ما لَنَا لا نَرَاهُم مَعَنَا في النار. قال مُجاهد: هذا قول أبي جَهْل يَقول: ما لي لا أرى بلالًا وعمَّارًا وصُهَيبًا وفُلانًا وفلانًا. وهذا ضَرْب مَثَل ، وإلا فكُل الكُفَّار هذا حالهم يعتقدون أنَّ المؤمنين يَدخُلون النارَ، فلمَّا دَخَلَ الكُفَّارُ النارَ افتقدوهم فَلَم يَجِدُوهُم فقالوا : ﴿ ما لَنَا لا نَرى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأشرارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيًّا ﴾ ، أي : في الدَّار الدُّنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصارُ ﴾ ، يَسألون أنفُسَهم بالمُحَال يقولون : أوْ لَعَلَّهم مَعَنَا في جهنَّم ، ولكن لَم يَقَعْ بَصَرُنا عليهم ، فعِند ذلك يَعرِفون أنَّهم في الدَّرَجَات العاليات)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النارِ ﴾ [ص : ٦٤] . إنَّ ما ذَكَرَه اللهُ وأخبرَ به مِن تَخَاصُم هؤلاء الكافرين (الرؤساء والأتباع) في النار ، ولَعْن بعضهم لبَعْض ، ودُعاء بعضهم على بعض، لَحَقٌّ لا شَك فِيه ، ويَقِين لا مِرْيَة فيه ، فَصَدِّقُوه ، ولا تَشَكُّوا به ، فهو واقع لا مَحَالة .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٤٤) : ((﴿ إنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي حَكَيْنَا عَنهُم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لَصِدْق كائن لا مَحَالة ، لا بُدَّ أن يتكلَّموا به ، ثُمَّ بيَّن ما هو فقال : هُوَ ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النارِ ﴾ ، ولمَّا شبَّه تَقَاوُلَهم، وما يَجْري بينهم مِن السؤال والجواب بما يَجْري بَيْن المُتخاصمين، سَمَّاه تَخَاصُمًا ، ولأنَّ قَول الرُّؤساء: ﴿ لا مَرْحَبًا بِهِم ﴾ ، وقَول أتباعهم: ﴿ بَل أنتُم لا مَرْحَبًا بِكُم ﴾ ، مِن باب الخُصُومة ، فسمَّى التَّقَاوُل كُلَّه تَخَاصُمًا ، لاشتماله على ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَهُم مِن فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النارِ وَمِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ﴾ [الزُّمَر : ١٦] .

تُحيط النارُ بالكافرين مِن كُل الجوانب والجِهَات . لَهُم مِن فَوقهم أطباق مِن النار ، تلتهب عليهم ، ومِن تَحتهم أطباق ، أي : فِرَاش ومِهَاد مِن النار . وسُمِّيَ الأسفل ظُلَلًا لأنَّهَا ظُلَل لِمَن تَحتهم . وتَسميتها ظُلَلًا تهكُّم بالكافرين ، لأنَّها مُلتهبة مُحرِقة ، والظُّلَّةُ تَحْمِي مِنَ الحَر .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٢٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لهَؤلاء الخاسرين يَوم القِيامة في جَهَنَّم ﴿ مِن فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النارِ ﴾ وذلك كَهَيئة الظُّلَل المَبْنِيَّة من النار ﴿ وَمِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ﴾ يقول : ومِن تَحتهم مِن النار ما يَعْلُوهم ، حَتَّى يصير ما يَعلُوهم مِنها مِن تَحتهم ظُلَلًا، وذلك نَظِير قَوله جَلَّ ثناؤه: ﴿لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِم غَوَاشٍ ﴾ يَغْشَاهم مِمَّا تَحتهم فِيها مِن المِهَاد)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للمُتَكَبِّرين ﴾ [الزُّمَر : ٦٠] .

استفهام تقريري. أَلَيْسَ في نار جهنَّم مَأوى للكافرين المُتكبِّرين عن الإيمان، الرافضين للحق؟. بَلَى ، إنَّ لهم مَنْزِلًا ومأوى في نار جهنَّم ، لهم فيها العذاب والذُّل والخِزي والعار ، عُقوبةً على تكبُّرهم وعِنادهم وغُرورهم في الحياة الدُّنيا . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢١) : ((وقَوله : ﴿ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للمُتَكَبِّرِين ﴾ ، يَقول : أَلَيْسَ في جهنَّم مأوى ومَسْكَن لِمَن تكبَّر على الله، فامتنعَ مِن تَوحيده ، والانتهاء إلى طاعته فِيما أمَرَه ، ونهاه عنه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم والسَّلاسِلُ يُسْحَبُون (٧١) في الحَمِيمِ ثُمَّ في النارِ يُسْجَرُون (٧٢) ﴾[غَافِر] .

حِين يَدخل الكافرون النارَ ، تُقَيَّد أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسَّلاسِل . يُجَرُّون بها في الحَمِيم (الماء الحَار المَغليّ بنار جهنَّم) ، ثُمَّ تُوقَد بهم النار ، ويُحرَقون فيها .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٨٠) : ((﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم ﴾ ، " إذ " ظَرْف زمان ماضٍ ، والمُراد به هُنا الاستقبال ، وهذا لأنَّ الأُمور المُسْتَقْبَلَة لمَّا كانت في إخبار الله تعالى مَقطوعًا بها ، عبَّر عنها بلفظ ما كان ووُجِدَ . والمعنى على الاستقبال . ﴿ والسَّلاسِلُ ﴾ عَطْف على الأغلال ، والخَبَر : في أعناقهم . والمعنى : إذِ الأغلالُ والسلاسلُ في أعناقهم ﴿ يُسْحَبُون (٧١) في الحَمِيمِ ﴾ ، يُجَرُّون في الماء الحار، ﴿ ثُمَّ في النارِ يُسْجَرُون ﴾ مِن: سَجَرَ التَّنُّورَ ، إذا مَلأه بالوَقُود.ومعناه أنَّهُم في النار فهي مُحيطة بهم، وهُم مَسْجُورون بالنار مَملوءة بها أجوافهم)).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((لَوْ أنَّ رَصَاصَةً مِن هذه مِثْلَ هذه _ وأشارَ إلى مِثْلِ الجُمْجُمَة _ أُرْسِلَتْ مِنَ السَّماء إلى الأرض ، وهي مَسيرةُ خَمْسِ مائةِ سَنَة ، لَبَلَغَت الأرضَ قَبْلَ الليل)) . وتلا رسولُ الله ﷺ : ((﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم والسَّلاسِلُ يُسْحَبُون (٧١) في الحَمِيمِ ﴾)) [٣٣٩].

٣٣٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٦) برقم (٣٦٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا يدلُّ على شِدَّة عذاب الكافرين في النار،وأنَّها عَظيمة وهائلة،لا يُحيط بها عَقْل ولا خَيَال.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُم ﴾ [مُحمَّد : ١٥]. وسُقِيَ الكُفَّار في النار ماءً شديد الحرارة، لا يُمكن تحمُّله، فمزَّق ما في بُطونهم مِن الأمعاء والأحشاء لفَرْط حرارته.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٢) : ((﴿ وسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ شَديد الحَر ، تُسعَر عليهم جهنَّم مُنذ خُلِقَتْ ، إذا أُدْنِيَ مِنهُم شَوَى وُجوههم ، ووقعت فَروةُ رؤوسهم ، فإذا شربوه ﴿ فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُم ﴾ ، فخرجت من أدبارهم . والأمعاء جميع ما في البطن مِن الحَوَايا)) .

وعن أبي أُمَامَة: عن النبيِّ ﷺ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ويُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتجَرَّعُهُ ﴾ ، قال:((يُقرَّب إلَيه، فَيَتَكَرَّهُهُ،فإذا أُدْنِيَ مِنه شَوى وَجْهَه،وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رأسه،فإذا شَرِبَه قَطَّعَ أمعاءه ، حَتَّى يَخْرُجَ مِن دُبُره . يَقول اللهُ : ﴿ وسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُم ﴾ ، ويَقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإن يَسْتغيثوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ يَشْوي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ ﴾)) [٣٤٠].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] .

يقول اللهُ لجهنَّم في يَوم القِيامة : هل امتلأتِ ؟ . وهذا استفهام تحقيق لوَعْده بمِلْئِها . وقد وَعَدَ اللهُ _ووَعْده حَق _ بأن يَملأ جهنَّم مِنَ الجِنَّة والناس أجمعين. وتقول جهنَّم: هل مِن زيادة ؟ . أي إنَّها تَطلُب المزيدَ ، وهذا يدلُّ على عدم اكتفائها ،كما يدلُّ على فَظَاعتها وسَعَتها ، فهي تتَّسع لجميع الكافرين مِن الجِن والإنس . واللهُ قادر على إنطاق الأشياء والجمادات ، وهذا جائز عقلًا، وحاصل شرعًا . واللهُ على كل شيء قدير . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٩ و٢٠) : ((﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ ، ... . فأمَّا فائدة سُؤاله إيَّاها ، وقد عَلِمَ هل امتلأت أم لا ، فإنَّه توبيخ لِمَن أُدْخِلها، وزيادة في مَكْرُوهه، ودليل على تَصديق قَوله: ﴿ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف: ١٨] . وفي قَولها : ﴿ هَلْ مِن مَزِيدٍ ﴾ قَولان عند أهل اللغة: أحدهما أنَّها تقول ذلك بعد امتلائها ، فالمعنى : هَل بَقِيَ فِيَّ مَوضِع لَم يمتلئ ؟ ، أي : قد امتلأتُ . والثاني أنَّها تقول تَغَيُّظًا على مَن عصى اللهَ تعالى ، وجَعَلَ اللهُ فِيها أن تُميِّز ، وتُخَاطِب ، كَمَا جَعَلَ في النَّمْلَة أن قالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم ﴾ [النَّمْل : ١٨] ، وفي المخلوقات أن تُسبِّح بحَمْده)) .

وفي قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ ﴾ ... عن أنس ابن مالك عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:((لا تَزالُ جهنَّمُ يُلقَى فِيها، وتَقول: هَل مِن مَزِيد؟، حَتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّة

---

٣٤٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٢) برقم (٣٣٣٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فِيها قَدَمَه ، فَيَنْزَوِي بَعْضُها إلى بَعْض ، وتَقول : قَطْ قَطْ ، بِعِزَّتِكَ وكَرَمِكَ)) [341]. إنَّ اللهَ مُنَزَّه عن الجوارِح والأعضاء والحواس . لا يَحُلُّ سُبحانَه في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياء فِيه . والحديثُ يدلُّ على عَظَمَة الله تعالى ، وقُدرته المُطْلَقة ، وسَيطرته على كُل شيء . وعِندما يَضَع اللهُ صَاحِبُ القُوَّة والغَلَبَة والقُدرة قَدَمَه في جهنَّم ، تُجمَع وتُضَم، وتَلتقي، وتنقبض على مَن فِيها من الكُفَّار والفُجَّار.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٨٢ و١٨٣) : ((هذا الحديث مِن مشاهير أحاديث الصِّفات . وقد سبق مَرَّات بيان اختلاف العلماء فيها على مذهبَيْن : أحدهما وهو قَول جُمهور السَّلَف وطائفة من المُتكلِّمين أنَّه لا يُتَكَلَّم في تأويلها ، بَل نُؤْمِن أنَّها حَق على ما أرادَ اللهُ ، ولها معنى يَلِيق بها ، وظاهرها غَير مُراد . والثاني وهو قَول جُمهور المُتَكَلِّمين أنَّها تُتَأَوَّل بحَسَب ما يَلِيق بها ، فعلى هذا اختلفوا في تأويل هذا الحديث ، فقِيل : المُراد بالقَدَم هُنا المُتَقَدِّم، وهو شائع في اللغة ، ومعناه : حَتَّى يَضَعَ اللهُ تعالى فِيها مَن قَدَّمَه لها ، مِن أهل العذاب. قال المازري والقاضي : هذا تأويل النَّضْر بن شُمَيل ونَحْوه عن ابن الأعرابي. الثاني أنَّ المُراد قَدَم بَعض المخلوقين ، فيَعود الضَّمير في" قَدَمه" إلى ذلك المَخلوق المعلوم. الثالث أنَّه يُحتمل أنَّ في المخلوقات ما يُسمَّى بهذه التَّسمية . وأمَّا الرِّواية التي فيها يَضَعَ اللهُ فِيها رِجْلَه ، فقد زَعَمَ الإمام أبو بكر بن فُورَك أنَّها غَير ثابتة عند أهل النَّقْل ، ولكن قد رواها مسلم وغَيره ، فهي صحيحة . وتأويلها كما سَبَقَ في القَدَم ، ويجوز أيضًا أن يُراد بالرِّجْل الجماعة مِن الناس ، كما يُقَال : رِجْل مِن جَرَاد، أي: قطعة منه . قال القاضي : أظهر التأويلات أنَّهم قَوم استحقوها ، وخُلقوا لها. قالوا: ولا بُد مِن صَرْفه عَن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطُّور : ١٣] .

يَوم يُدفَع الكُفَّار إلى نار جهنَّم دَفْعًا شديدًا عنيفًا مُزْعِجًا، وذلك بأن تُغَلَّ أيديهم إلى أعناقهم، وتُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم ، فيُدفعون إلى النار بشِدَّة وعُنف .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٣٥) : ((﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ ، الدَّع الدَّفْع بعُنف وجَفْوَة... . والمعنى: أنَّهم يُدفَعون إلى النار دَفْعًا عنيفًا شديدًا. قال مُقاتل : تُغَلُّ أيديهم إلى أعناقهم، وتُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم، ثُمَّ يُدفعون إلى جَهَنَّم دَفْعًا على وجوههم)) .

---

٣٤١ متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ٢١٨٧)برقم (٢٨٤٨)،والبخاري (٦/ ٢٦٨٩) برقم (٦٩٤٩).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٢]. في ريح حَارَّة، تَدخُل في مَسَام البَدَن، وماء شديد الحرارة. والمُراد سَمُوم نار جهنَّم وحميمها. وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٧١٥) : ((﴿ في سَمُومٍ ﴾ رِيح حَارَّة مِن النار تَنفُذ في المَسَام ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء شديد الحرارة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مِن يَحْمُوم ﴾ [الواقعة : ٤٣] .

وظِل مِن دُخَان أسْوَد شَديد السَّواد ، وهو دُخَان جهنَّم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١٧) : ((والعرب تقول: أسْوَد يَحْمُوم ، إذا كان شديدَ السَّواد. والمعنى : أنَّهُم يَفْزَعُون إلى الظِّل، فيَجدونه ظِلًّا مِن دُخَان جهنَّم شديد السَّواد)).

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ: ﴿ وَظِلٍّ مِن يَحْمُوم ﴾ ، قال: ((مِن دُخَان أسْوَد)) [٣٤٢].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا بَارِدٍ ولا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٤] .

لَيْسَ هذا الظِّل باردًا ، يَستروح به الإنسانُ مِن شِدَّة الحَر ، وليس حَسَنَ المَنظر يَفرَح به مَن يَستظل به ، بَل هو ظِل حار مِن دُخَان جهنَّم . لقد سَمَّاه اللهُ ظِلًّا ، ثُمَّ نَفَى عنه كُل خَير وفائدة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٢١٨):((ثُمَّ وَصَفَ هذا الظِّلَّ بقَوله : ﴿ لا بَارِدٍ ولا كَرِيمٍ ﴾ أي : لَيس كغَيره مِن الظِّلال التي تكون باردة ، بل هو حَار، لأنَّه مِن دُخَان نار جهنَّم . قال سعيد ابن المُسيِّب: ولا كريم، أي: لَيْسَ فيه حُسْن مَنظَر، وكُل ما لا خَيْر فيه ليس بكريم . قال الضَّحاك: ولا كريم ولا عَذب.قال الفَرَّاء: العرب تجعل الكريم تابعًا لكُل شيء نَفَتْ عنه وَصْفًا تَنْوي به الذَّم، تقول : ما هو بسَمِين ولا بكريم ، وما هذه الدَّار بواسعة ولا كريمة)) اهـ . وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢١) : ((إن فائدة الظِّل ترجع إلى أمرين : أحدهما : دَفْع الحَر ، والثاني : حُسْن المَنظَر ، وكَوْن الإنسان فيه مُكَرَّمًا ، وظِلُّ أهل النار بخِلاف هذا ، لأنَّهم في ظِل مِن دُخَان أسْوَد حار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكُم وأهْلِيكُم نارًا وَقُودُها الناسُ والحِجَارةُ عَلَيْها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التَّحريم : ٦] .

يا أيُّها الذين أقررتُم بوَحدانية الله ، وصدَّقتُم بنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، احْفَظُوا وصُونُوا أنفُسَكم وأزواجكم وأولادكم مِن نار عظيمة مُحرِقة شديدة الحرارة ، بامتثال أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه، وبتعليمهم وتأديبهم وتربيتهم وإرشادهم إلى الحق والصَّواب ، وأمْرِهم بالطاعات ، ونَهْيهم عن

---

٣٤٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٨) برقم (٣٧٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المعاصي . وَقُودُ النار الذي تُسعَر به هو الناس والحِجارة ، أي : تتوقَّد بالناس والحِجارة ، كما يتوقَّد غَيْرُها بالحطب . وهذا يدلُّ على أنَّ نار الآخِرة شديدة الحرارة . وقال المُفسِّرون : أرادَ بالحِجارة حِجارةَ الكِبريت ، لأنَّها أشد الأشياء حَرًّا واتِّقَادًا . على النار خَزَنَة مِن الملائكة (وهُم الزَّبَانِيَة) ، غِلاظ على أهل النار ، أقوياء عَلَيهم ، يُعذِّبونهم بلا رحمة ولا شفقة ولا عَطْف .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٥) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكُم ﴾ بفِعْل ما أمركم به ، وتَرْك ما نهاكم عنه ، ﴿ وأهْلِيكُم ﴾ بأمرهم بطاعة الله ، ونَهْيهم عن مَعَاصيه ﴿ نارًا وَقُودُها الناسُ والحِجَارةُ ﴾ ، أي: نارًا عظيمة تتوقَّد بالناس وبالحجارة ، كما يتوقَّد غَيْرُها بالحطب . قال مُقاتل بن سُلَيمان : المعنى قُوا أنفُسَكم وأهليكم بالأدب الصالح النارَ في الآخرة. وقال مُقاتل ومُجاهد : قُوا أنفُسَكم بأفعالكم ، وقُوا أهليكم بوَصِيَّتِكم . قال ابن جرير : فَعَلَيْنا أن نُعلِّم أولادَنا الدِّينَ والخَيْرَ ، وما لا يُسْتَغْنَى عنه مِن الأدب ، ومِن هذا قَوله : ﴿ وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيها ﴾ [طه : ١٣٢] ، وقَوله : ﴿ وأنذِرْ عَشيرتَكَ الأقربين ﴾ [الشُّعراء : ٢١٤] . ﴿ عَلَيْها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ ﴾ ، أي : على النار خَزَنَة مِن الملائكة ، يَلُون أمْرَها ، وتَعذيب أهلها ، غِلاظ على أهل النار ، شِدَاد عليهم ، لا يَرحمونهم إذا استرحموهم ، لأنَّ الله سُبحانَه خَلَقَهم مِن غَضَبه ، وحبَّب إلَيهم تعذيبَ خَلْقِه . وقِيل : المُراد غِلاظ القُلوب ، شِدَاد الأبدان . وقِيل : غِلاظ الأقوال، شِدَاد الأفعال ، وقِيل : الغِلاظ ضِخَام الأجسام ، والشِّدَاد الأقوياء)) .

وعن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي اللهُ عنه ــ: في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُوا أنفُسَكُم وأهْلِيكُم نارًا ﴾ قال : ((عَلِّمُوا أنفُسَكم وأهليكم الخَيْرَ)) [٣٤٣] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [المُلْك : ٧] .

إذا قُذِفَ الكافرون في جهنَّم ، كما يُقْذَف الحَطَبُ في النار ، سَمِعُوا لجهنَّم صَوْتًا فَظِيعًا مُنكَرًا كصَوت الحِمَار ، بسبب شِدَّة توقُّدها وغَلَيَانها . وهي تَغْلي بهم كما يَغْلي القِدْر مِن شِدَّة الغضب واللهب والحرارة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٦٤) : ((﴿ إذا أُلْقُوا فِيها ﴾ ، أي : طُرِحوا فيها كما يُطرَح الحطب في النار ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ ، أي صَوْتًا كصوت الحمير عند أول نَهيقها ، وهو أقبح الأصوات . وقَوله : ﴿ لَهَا ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال : أي كائنًا لها ، لأنَّه في الأصل

٣٤٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٥) برقم (٣٨٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

صِفَة ، فلمَّا قُدِّمَتْ صارت حَالًا . وقال عطاء : الشَّهيق هو مِن الكُفَّار عند إلقائهم في النار . وجُملة ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال : أي والحال أنها تَغْلي بهم غَلَيَان المِرْجَل)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ [المُلْك : ٨] .

تكاد جهنَّم تتقطَّع وتتفرَّق وينفصل بعضُها عن بعض، مِن شِدَّة غَيظها على الكافرين(أهل النار) وحَنَقها بهم ، وكُرهها لهم ، وهذا يدل على فَرْط حرارتها ، وشِدَّةِ اشتعالها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ يعني تتقطَّع ويُفْصَل بعضُها من بعض، قاله سعيد بن جُبَير.وقال ابن عباس والضَّحاك وابن زيد : تتفرَّق . و ﴿ مِنَ الغَيْظِ ﴾ مِن شِدَّة الغَيْظ على أعداء الله تعالى . وقيل : ﴿ مِنَ الغَيْظِ ﴾ مِنَ الغَلَيَان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ [الحَاقَّة : ٣٠] . يَقول اللهُ لِخَزَنَة جهنَّم : خُذوا هذا الكافرَ المُجْرِمَ ، فَشُدُّوه بالأغلال . أي : اجْمَعُوا يَدَه إلى عُنُقه بالأغلال .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٧) : ((قِيل : يَبْتَدِرُه مائة ألف مَلَك ، ثُمَّ تُجمَع يَدُه إلى عُنُقه ، وهو قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ ، أي : شُدُّوه بالأغلال)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ [الحَاقَّة: ٣١]. أدْخِلُوه الجحيمَ، وهي النار العُظمى المُتأجِّجة، ليتعذَّب فيها، ويَصْلَى حَرَّ النار الشديد ، لأنَّه كان يَتكبَّر على الناس ، ويتعاظم عليهم . والجَزَاءُ إنَّما يكون وَفْق المعصية. وقال ابن كثير قي تفسيره (٤/ ٥٣٥): ((يَقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ﴾ ، أي : يَأمر الزَّبَانِيَةَ أن تأخذه عُنفًا مِن المَحْشَر ، فَتَغُلَّه ، أي : تضع الأغلال في عُنُقه ، ثُمَّ تُورِده إلى جهنَّم ، فتُصْلِيه إيَّاها ، أي: تَغْمُره فيها . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أبو سعيد الأشج حَدَّثنا أبو خالد عن عمرو بن قَيس عن المِنهال بن عَمْرو قال : إذا قال اللهُ تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ ابتدره سَبعون ألف مَلَك ، إنَّ المَلَك مِنهُم لَيَقول هكذا ، فيُلقي سبعين ألفًا في النار. وروى ابن أبي الدُّنيا في" الأهوال " أنَّه يَبْتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دَقَّه، فيقول : ما لي ولَك ؟ ، فيقول : إنَّ الرَّبَّ عَلَيك غَضبان ، فكُل شيء غَضبان عَلَيك . وقال الفُضَيل بن عِياض : إذا قال الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ، ابتدره سبعون ألف مَلَك ، أيُّهُم يَجعل الغُل في عُنقه ، ﴿ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ، أي : اغْمُرُوه فيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه ﴾ [الحَاقَّة : ٣٢] .

ثُمَّ أدْخِلُوه في سِلسلة حديدية طُولها سَبعون ذِرَاعًا ، بعد إدخاله النار ، فتَدخُل في دُبُره ، وتَخرُج مِن فِيه (فَمِه) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٩٨) : ((السِّلْسِلَة حِلَق مُنتظمة ، وذَرْعها طُولها . قال الحسن : الله أعلمُ بأيِّ ذِرَاعٍ هُوَ . قال نَوف الشامي : كُل ذِراع سبعون باعًا ، كُل باع أبعد مِمَّا بَيْنَك وبَيْن مَكَّة ، وكان نَوف في رَحَبَة الكُوفة . قال مُقاتل : لَوْ أنَّ حَلْقة مِنها وُضعت على ذِرْوَة جَبل لذابَ كما يذوب الرصاص . ومعنى : ﴿ فَاسْلُكُوه ﴾ فاجعلوه فِيها . يُقَال سلكته الطريق إذا أدخلته فيه . قال سُفيان : بَلَغَنا أنها تَدخُل في دُبُره ، حَتَّى تَخرُج مِن فِيه . قال الكلبي : تَسْلُك سِلْك الخَيط في اللؤلؤ . وقال سُوَيد بن أبي نَجيح : بَلَغَني أن جميع أهل النار في تلك السِّلسلة . وتقديم السِّلسلة للدَّلالة على الاختصاص ، كتقديم الجحيم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا طَعَامٌ إلا مِن غِسْلِين ﴾ [الحَاقَّة : ٣٦]. ولَيْسَ لهم طعام إلا ما يَسِيل مِن صَدِيد أهل النار ، الذي يَسِيل مِن جُرُوحهم. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٤) : ((﴿ ولا طَعَامٌ إلا مِن غِسْلِين ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه صَدِيد أهل النار ، قاله ابن عباس . قال مُقاتل : إذا سَالَ القَيْحُ والدَّمُ، بَادَرُوا أكْلَه قبل أن تأكله النار . والثاني شَجَر يأكله أهلُ النار ، قاله الضَّحاك والربيع . والثالث أنَّه غُسَالة أجوافهم ، قاله يحيى بن سلام)) .

وعن أبي سعيد الخُدري _ رضي اللهُ عنه _: عن النبيِّ ﷺ قال : ((... ، وَلَوْ أنَّ دَلْوًا مِن غِسْلِينٍ يُهْرَاقُ في الدُّنيا لأنتنَ بأهل الدُّنيا)) [٣٤٤].

لَوْ أنَّ دَلْوًا مِن غِسْلِين (ما انغسلَ مِن لُحُوم أهل النار وصَديدهم) يُصَبُّ في أرض الدُّنيا، لصارَ سُكَّانُ الأرض ذَوِي نَتْن بسببه (أصحاب رائحة كريهة) . وهذا يدلُّ على فظاعته الشديدة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَأكُلُهُ إلا الخاطئون ﴾ [الحَاقَّة : ٣٧]. لا يَأكُلُ الطعامَ الذي مِن غِسْلين إلا المُجْرِمُون المُذنِبون ، يَعني الكافِرين . والخاطئُ هو الذي تعمَّد الذَّنْب ، أمَّا المُخطِئ فهو الذي يَفعل الشَّيْء دُون قَصْد . لذلك قال اللهُ : ﴿ الخاطئون ﴾ ، ولَم يقل : المُخطِئون .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٩٩) : ((﴿ لا يَأكُلُهُ إلا الخاطئون ﴾ صِفة لِغِسْلين . والمُراد أصحاب الخطايا ، وأرباب الذُّنوب . قال الكلبي : المُراد الشِّرْك)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٣) : ((﴿ لا يَأكُلُهُ إلا الخاطئون ﴾ ، أصحاب الخطايا، مِن : خَطِئَ الرَّجُل ، إذا تعمَّدَ الذَّنْبَ ، لا مِن الخطأ المُضَاد للصَّواب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا إنَّهَا لَظَى ﴾ [المَعَارِج : ١٥] .

٣٤٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٤) برقم (٣٨٥٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّها جهنَّم تتلظَّى نيرانُها،وتتلهَّب على الكافرين.وهذا يدلُّ على أنَّها نارٌ هائلة شديدة الحرارة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((﴿ كَلَّا ﴾ لا يُنْجِيه مِن عذاب الله شيء ، ثُمَّ ابتدأ فقال : ﴿ إنَّهَا لَظَى ﴾ ، وهي اسم من أسماء جَهَنَّم . قِيل : هي الدَّرَكَة الثانية ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تتلظَّى ، أي : تتلهَّب)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ نَزَّاعَةً للشَّوَى ﴾ [المَعَارِج : ١٦] .

تَنزِع النارُ بشِدَّة حَرِّها واشتعالها جِلْدَةَ الرأس ، وتَخصيصها بالذِّكْر بسبب مَوضعها الحَسَّاس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦١) : ((وفي المُراد بِ الشَّوَى أربعة أقوال : أحدها جِلْدة الرَّأس، قاله مُجاهد. والثاني مَحَاسِن الوَجْه، قاله الحسن وأبو العالية.والثالث العَصَب والعَقِب ، قاله ابن جُبَيْر . والرابع الأطراف اليَدَان والرِّجْلان والرَّأس ، قاله الفَرَّاء والزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ لَدَيْنا أنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ [المُزَّمل : ١٢] .

إن للكافرين عِندنا في الآخرة قُيودًا ثقيلة لا تُفَكُّ أبدًا، يُقَيَّدُون بها،ونارًا مُتأجِّجة يُحرَقون بها.

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٤٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ لَدَيْنا أنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ الأنكال: القُيُود . عَن الحسن ومُجاهد وغَيرهما . واحدها نِكْل ، وهو ما مَنَعَ الإنسانَ مِن الحركة. وقِيل: سُمِّيَ نِكْلًا، لأنَّه يُنكِّل به. قال الشَّعبي:أتَرَوْنَ أنَّ الله تعالى جَعَلَ الأنكالَ في أرْجُل أهل النار خَشية أن يَهْرُبوا ؟، لا واللهِ !، ولكنَّهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم... _ وقال الماوردي _ : سُمِّيَ القَيْد نِكْلًا لقُوَّته ، وكذلك الغُل ، وكُل عَذاب قوي فاشتد . والجحيم النار المُؤجَّجة)) .

وعن عائشة رضي اللهُ عنها قالت : ((لمَّا نَزلت هذه الآية في المُزَّمل : ﴿ وَذَرْني والمُكذِّبينَ أُولي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُم قَلِيلًا (١١) إنَّ لَدَيْنا أنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) ﴾ . لَم يَكُن إلا يسيرًا حَتَّى كانت وَقْعَةُ بَدْر)) [٣٤٥]. إنَّ يَوم بَدْر هو يَوم الفُرقان ، لِمَا كان فيه مِن التَّفريق بين الحق والباطل ، وانتصار النبيِّ ﷺ على المُشركين ، الذي انهزموا ، وخابوا ، وخَسِرُوا الدُّنيا . وفي الآخِرة عذابٌ أشد وأخْزَى ، وتنتظرهم الأنكال والجحيم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المُزَّمل : ١٣] .

وطعامًا سَيِّئًا كريهًا غَير سائغ ، يأخذ بالحَلْق ، فلا يَدخُل ، ولا يَخرُج ، ونوعًا آخَر مِن العذاب مُؤلِمًا، زِيادة على ما ذُكر . وإخفاءُ أمره للتَّخويف . والعذابُ المجهولُ يبثُّ الرُّعْبَ في القُلوب ، وينشر القلقَ في النُّفوس . والشَّيءُ الخَفِيُّ يَكون خطيرًا ومُقْلِقًا .

---

٣٤٥ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣٦) برقم (٨٧٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٣) : ((﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ وهو الذي لا يَسُوغ في الحَلْق . وفيه للمُفسِّرين أربعة أقوال : أحدها أنَّه شَوك ، يَأخذ الحَلْقَ فلا يَدخُل ولا يَخرُج ، قاله ابن عباس وعِكرمة . والثاني الزَّقُّوم ، قاله مُقاتل . والثالث الضَّرِيع ، قاله الزَّجاج . والرابع الزَّقُّوم والغِسْلِين والضَّرِيع ، حكاه الثعلبي)) اهـ . وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ: ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ ، قال : ((شَوكًا يَأخذ بالحَلْق ، لا يَدخُل ، ولا يَخرُج)) [٣٤٦].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المُدَّثر : ٢٦] .

سأُدْخِله النارَ كَي يَصْلَى حَرَّها ، ويَذُوق عذابَها . وسَقَر مِن أسماء النار ، ومِن دَرَكَات جهنَّم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣١٠): ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله : ﴿ سأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ سأُورِده بابًا من أبواب جهنَّم ، اسمه سَقَر ، وَلَم يُجْرَ سَقَر ، لأنه اسم من أسماء جهنم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٧٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ سأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ ، أي : سَأُدْخِلُه سَقَر كَي يَصْلَى حَرَّهَا ، وإنَّما سُمِّيَتْ سَقَر ، مِن سَقَرَتْهُ الشَّمس : إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جِلْدَةَ وجهه ، ولا ينصرف للتَّعريف والتأنيث . قال ابن عباس : هي الطَّبَق السادس مِن جهنَّم . وروى أبو هُرَيرة : أنَّ رسول الله ﷺ قال : " سأل موسى رَبَّه ، فقال : أَي رَبِّ ، أيُّ عِبادك أفقر ؟، قال: صاحب سَقَر " ، ذكره الثعلبي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أدراكَ ما سَقَرُ ﴾ [المُدَّثر : ٢٧] .

الاستفهامُ لتعظيم شأنها ، وتَهويل أمرها . وما أعلمكَ أيُّ شيء هِيَ سَقَر ؟. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٥٩) : ((ثُمَّ بالغَ سُبحانَه في وَصْف النار وشِدَّة أمرها ، فقال : ﴿ وما أدراكَ ما سَقَرُ ﴾ ، أي : وما أعلمكَ أيُّ شيء هِيَ . والعرب تقول: وما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المُبالَغة في أمره ، وتَعظيم شأنه ، وتَهويل خَطْبه. و"ما" الأُولَى مُبتدأ ، وجُملة ﴿ ما سَقَرُ ﴾ خَبَر المُبتدأ)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تُبْقي ولا تَذَرُ ﴾ [المُدَّثر : ٢٨]. لا تُبقي على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدًا مِن الكُفَّار إلا أحرقته. إنَّ هذه النار الهائلة تأكل لُحومهم وأعصابهم وجُلودهم ، ولا تَتركهم إذا أُعِيدُوا خَلْقًا جديدًا . وهي لا تُميتهم ولا تُحييهم . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٧١) : ((قَوله تعالى: ﴿ لا تُبْقي ولا تَذَرُ ﴾ ، أي : لا تَترُك له عَظْمًا ولا لحمًا ولا دَمًا إلا أحرقته. وكَرَّر اللفظَ تأكيدًا. وقِيل: لا تُبقي مِنهُم شيئًا، ثُمَّ يُعَادُون خَلْقًا جديدًا ، فلا تَذَر أن تُعَاوِد إحراقهم

[٣٤٦] رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٩) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((شَبيب بن شَيبة ضعَّفوه)).

هكذا أبدًا. وقال مُجاهد: لا تُبقي مَن فِيها حَيًّا،ولا تَذَره مَيْتًا، تُحْرِقهم كُلّما جُدِّدُوا. وقال السُّدي : لا تُبْقِي لهم لحمًا،ولا تَذَر لهم عظمًا)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَوَّاحَةٌ للبَشَرِ ﴾ [المُدَّثر : ٢٩].

مُحْرِقَة لجِلْد الإنسان ، تُحرقه ، وتُغيِّره ، وتَجعله أشدَّ سَوَادًا مِن الليل . أي إنَّ النارَ تُحرِق الجِلْدَ حَتَّى تُسوِّده . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((﴿ لَوَّاحَةٌ للبَشَرِ ﴾ مُغيِّرة للجِلْد ، حتَّى تَجعله أسْوَد . يُقَال : لاحه السَّقَم والحُزن ، إذا غَيَّرَه . وقال مُجاهد : تَلفَح الجِلْدَ حَتَّى تَدَعَه أشدَّ سَوَادًا مِن الليل . وقال ابن عباس وزيد بن أسلم : مُحْرِقة للجِلْد . وقال الحسن وابن كَيسان : تَلُوح لهم جهنَّم حتَّى يَرَوْهَا عِيَانًا، نظيره قَوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ للغاوين ﴾ [الشُّعَراء : ٩١] . وَ ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ رَفْع على نَعْت ﴿ سَقَرُ ﴾ ، في قَوله : ﴿ وما أدراكَ ما سَقَرُ ﴾ . والبَشَر جَمْع بَشَرَة ، وجَمْع البَشَر أبشار)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المُدَّثر : ٣٠] .

خَزَنَة النار المُوكَّلون عليها تِسعة عَشَر مِنَ المَلائكة الأشِدَّاء الغِلاظ يُلقون أصحابَ النار فيها.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((أي : على النار تسعة عشر مِنَ المَلائكة ، وهُم خَزَنتها : مالك ومعه ثمانية عَشَر)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إنَّا أعْتَدْنا للكافرينَ سَلاسِلَ وأغلالًا وسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]. هَيَّأنا للكافرين المُكذِّبين قُيودًا تُشَد بها أرجلهم ، وأغلالًا تُغَل بها أيديهم إلى أعناقهم، ونارًا مُتأجِّجة يُحرَقون بها. وقِيل : السَّلاسِل في أعناقهم ، والأغلال في أيديهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٦) : ((﴿ إنَّا أعْتَدْنا للكافرينَ سَلاسِلَ ﴾ بِهَا يُقَادُون ، ﴿ وأغلالًا ﴾ بِهَا يُقَيَّدُون ، ﴿ وسَعِيرًا ﴾ بِهَا يُحْرَقُون)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ [المُرْسَلات : ٣٠] .

انطَلِقُوا إلى دُخَان جهنَّم ، الذي إذا ارتفعَ افترقَ ثلاث فِرَق ، بسبب عَظَمَته وقُوَّته وشِدَّته . وَسَمَّى اللهُ دُخَانَ جهنَّم ظِلًّا ، تَهَكُّمًا بالكافرين ، وسُخريةً مِنهُم ، لأنَّ الظِّل يَقِي مِن الحر ، أمَّا الظِّلُّ المَذكُور في الآية فهو دُخَان جهنَّم شديد الحرارة . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٦) : ((﴿ انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ يعني دُخَان جهنَّم، إذا ارتفعَ انشعبَ وافترقَ ثلاث فِرَق . وقِيل : يَخرُج عُنُق مِنَ النار ، فيتشعَّب ثلاث شُعَب . أمَّا النُّور فيقف على رؤوس المؤمنين ، والدُّخَان يَقِف على رُؤُوس المُنافقين ، واللهب الصافي يَقِف على رؤوس الكافرين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا ظَلِيلٍ ولا يُغْني مِنَ اللهَبِ ﴾ [المُرْسَلات : ٣١] . وَصَف اللهُ هذا الظِّلَّ تَهَكُّمًا بهم : لا هُوَ يُظِلُّهُم مِن الحَر ، ولا هو يَدفَع عنهم مِن لهب جهنَّم شيئًا . أي إنَّهُم إذا اسْتَظَلُّوا بهذا الظِّل لَم يَدفَع عَنهُم حَرَّ النار ، ولَم يَحْمِهِم مِن لَهَبها الهائل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٥٠) : ((﴿ لا ظَلِيلٍ ﴾ ، أي : لا يُظِلُّكُم مِن حَر هذا اليوم ، بَل يُدنيكم مِن لَهَب النار، إلى ما هو أشد عليكم مِن حَر الشمس. قال مُجاهد: تكون شُعبة فوق الإنسان ، وشُعبة عن يَمينه ، وشُعبة عن شِماله ، فتُحيط به . وقال الضَّحاك : الشُّعَب الثلاث هي الضَّرِيع، والزَّقُّوم، والغِسْلين . فعلى هذا القول يكون هذا بَعد دُخول النار. قَوله تعالى : ﴿ ولا يُغْني مِنَ اللهَبِ ﴾ ، أي : لا يَدفَع عَنكُم لَهَبَ جهنَّم)) اهـ . وفي صَفوة التفاسير (١٩/ ٩٤) : ((قال المُفسِّرون : سمَّى العذابَ ظِلًّا تَهَكُّمًا واستهزاءً بالمُعذَّبين ، فالمؤمنون في ظِلال وعُيون ، والمُجرمون في سَمُوم وحَمِيم ، وظِل مِن يَحْمُوم ، واليَحْمُوم دُخَان أسود قاتم ، فكيف يَصِحُ أن يُسمَّى ما هُم فِيه ظِلًّا ، إلا على طريق التَّهَكُّم والاستهزاء ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّهَا تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ﴾ [المُرْسَلات : ٣٢] .

إنَّ جهنَّم تَقْذِف بشَرَر عظيم مِن النار ،كُل شَرَارة مِنه كالقَصْر مِنَ القُصُور في عِظَمِه وارتفاعه. وإذا كانت الشَّرارةُ كالقَصْر العظيم ، فكيف تَكون حال النار المُشتعلة كُلِّهَا ؟ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٢): ((وقَوله تعالى: ﴿ إنَّهَا تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ﴾ ، أي : يتطاير الشَّرَرُ مِن لَهَبِها كالقَصْر . قال ابن مسعود : كالحُصُون . وقال ابن عباس ومُجاهد وقَتادة ومالك عن زيد بن أسلم وغَيرهم : يعني أُصُول الشَّجَر)) .

وعن عَلقمة بن قَيس قال : سَمِعْنَا ابن مسعود يقول في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ﴾ ، قال: ((أمَا إنَّها لَيست مِثْلَ الشَّجَر والجَبَل ، ولكِنَّها مِثْلُ المَدَائن والحُصُون)) [٣٤٧].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ [المُرْسَلات : ٣٣] .

كأنَّ شَرَر جهنَّم المُتطاير مِنها الإبل الصُّفْر . والصُّفْر معناها السُّود ، لأنَّ سَوَاد الإبِل يَضرِب إلى الصُّفْرَة . والتَّشبيهُ الأوَّل : ﴿ بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ﴾ مُتعلِّق بالحجم ، ويدلُّ على العِظَم . والتَّشبيه الثاني: ﴿ كأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ ، مُتعلِّق باللون، ويدلُّ على الكثرة والتتابع والاختلاط وسُرعة الحركة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٢):((﴿ كأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ أي كالإبِل السُّود، قاله مُجاهد والحَسَن وقَتادة والضَّحاك ، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس ومُجاهد وسعيد بن جُبَير : ﴿ كأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ ، يعني حِبَال السُّفُن . وعنه أعْنِي ابن عباس : ﴿ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ قِطَع نُحَاس)) .

---

٣٤٧ رواه الطبراني في الأوسط(١/ ٢٨٠).وقال الهيثمي في المجمع(٧/٢٨٠): ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه خَدِيج بن مُعاوية وهو ضعيف. وقال أبو حاتم : محلُّه الصِّدق يُكتَب حديثه، وبقية رجاله ثقات)).

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : وسُئِلَ عن هذه الآية : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ، قال: ((كُنَّا في الجاهلية نَقْصُرُ الخشبَ ذِرَاعَيْنِ أوْ ثلاثة ، فَنَرْفَعُهُ في الشِّتاء ، ونُسمِّيه القَصْرَ))، قال ـ الراوي ـ : وسَمِعْتُ ابن عباس : وسُئِلَ عَن ﴿ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ ، قال : ((حِبَالُ السُّفُنِ يُجمَع بَعْضُها إلى بَعْض ، حَتَّى يَكُونَ كأوساط الرِّجَالِ)) [٣٤٨].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ [النَّبأ : ٢١] . إنَّ جهنَّم تنتظر الكافرين ، وتَرصُدُهم، لتأخذهم، وتبتلعهم، أوْ: إنَّ جهنَّم مكان مُعَد وجاهز لهم، يَرصُد فيها خَزَنَتُها الكافرين.

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠/ ٢١) : ((أي : إنَّ جهنَّم تنتظر وتترقَّب نُزلاءها الكُفَّار ، كما يترصَّد الإنسانُ ويترقَّب عَدُوَّه ، ليَأخذه على حِين غِرَّة . قال المُفسِّرون : المِرْصَادُ المَكَان الذي يَرصُد فيه الرَّاصِدُ العَدُوَّ ، وجهنَّم تترصَّد أعداءَ الله لتُعذِّبهم بسَعِيرها ، وهي مُترقِّبة ومُتطلِّعة لِمَن يمرُّ عليها مِن الكُفَّار الفُجَّار لتلتقطهم إلَيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ [النَّبأ : ٢٢] . إنَّ جهنَّم للكافرين الذين طَغَوْا في الدُّنيا بالكُفر والظُّلْم ، كانت مرجعًا ومصيرًا لهم ، يَدخُلونها وَيُعذَّبون فيها إلى الأبد .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٠٣) : ((وقَوله : ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ جهنَّم للذين طَغَوْا في الدُّنيا ، فتجاوزوا حُدود الله استكبارًا على رَبِّهم ، كانت مَنْزِلًا ومَرْجِعًا يَرجِعون إلَيه ، ومصيرًا إلَيه يَسكنونه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [النَّبأ : ٢٣]. ماكثين في النار دُهُورًا مُتتابعة إلى الأبد ، بلا انقطاع ، ولا نِهاية . وهذا يدل على خُلود الكافرين في النار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨) : ((فإنْ قِيل : ما مَعنى ذِكْر الأحقاب ، وخُلودهم في النار لا نَفَادَ له ؟ . فعنه جوابان : أحدهما أنَّ هذا لا يَدُلُّ على غاية، لأنَّه كُلَّما مَضى حُقْب تَبِعَه حُقْب . وَلَوْ أنَّه قال : لابثين فيها عَشَرَة أحقاب أو خمسة دَلَّ على غاية، هذا قول ابن قُتَيبة والجمهور. وبيانه أنَّ زمان أهل الجنة والنار يُتصوَّر دُخُوله تحت العَدَد،وإن لم يكن لها نهاية. والثاني أن المعنى أنَّهُم يَلْبَثُون فيها أحقابًا لا يَذُوقُون في الأحقاب بَرْدًا ولا شَرَابًا ، فأمَّا خُلُودهم في النار فدائم ، هذا قَول الزَّجاج ، وبيانه أنَّ الأحقاب حَد لعذابهم بالحَمِيم والغَسَّاق ، فإذا انقضت الأحقاب عُذِّبُوا بغَير ذلك مِن العذاب)) .

---

٣٤٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٦) برقم (٣٨٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن ابن مسعود: في قَوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيها أحْقَابًا ﴾، قال: ((الحُقْبُ ثمانون سَنَة))[٣٤٩].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا ولا شَرَابًا ﴾ [النَّبأ : ٢٤].

لا يَذُوقُون في النار بَرْدًا يُخفِّف عَنهُم حَرَّها ، ولا شرابًا يُزيل عَطَشَهم فيها .

أي : لا بَرْدٌ يَنفعهم مِن حَر ، ولا شَرَابٌ يَنفعهم مِن عَطَش .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨و٩) : ((وفي المُراد بالبَرْد ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه بَرْد الشَّراب ، روى أبو صالح عن ابن عباس قال : لا يَذُوقُون فيها بَرْدَ الشَّراب، ولا الشَّراب . والثاني أنَّه الرَّوْح والرَّاحة ، قاله الحسن وعطاء. والثالث أنَّه النَّوم، قاله مُجاهد والسُّدي وأبو عُبَيدة وابن قُتَيبة ، وأنشَدُوا : فإنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُم ... وإنْ شِئْتُ لَم أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدا... قال ابن قُتَيبة : النُّقَاخ الماء ، والبَرْد النَّوْم . سُمِّيَ بذلك لأنَّه تَبرُد فيه الحرارة . وقال مُقاتل : لا يَذُوقُون فِيها بَرْدًا يَنفَعُهم مِن حَرِّها ، ولا شَرَابًا يَنفَعُهم مِن عَطَش)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النَّبأ : ٢٥]. لا يَذُوقُون في النار بَرْدًا ولا شَرَابًا ، إلا ماءً حارًّا أُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّه ، وصَدِيدًا يَسِيل مِن جُلُود أهل النار . لقد استثنى اللهُ مِن البَرْدِ الحَمِيمَ ، ومِن الشَّرَابِ الغَسَّاقَ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥١٥) : ((﴿ لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا ولا شَرَابًا (٢٤) إلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) ﴾ مُسْتَأنَفَة لبيان ما اشتملت عليه مِن أنَّهُم لا يَذُوقُون في جَهَنَّم ، أوْ في الأحقاب بَرْدًا يَنفَعُهم مِن حَرِّها ، ولا شرابًا يَنفعُهم مِن عَطَشها ، إلا حَمِيمًا ، وهو الماء الحار ، وغَسَّاقًا ، وهو صَدِيد أهل النار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغَاشِيَة : ٤] . تَدخُل نارًا حارَّةً شديدة الحَر ، قد أُحْمِيَتْ فترةً طويلةً ، بحيث صارَ حَرُّها لا يُطَاق ، ولا حَر يَعْدِل حَرَّها ، ولا عذاب مِثْل عذابها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٠٨) : ((﴿ نَارًا حَامِيَةً ﴾ . قال ابن عباس : قَد حَمِيَتْ فَهِيَ تتلظَّى على أعداء الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تُسْقَى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغَاشِيَة : ٥] . يُسقَى الكافرون مِن عَيْن شديدة الحرارة ، في مُنتهى الحَر والغَلَيان . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٠٨) : ((﴿ تُسْقَى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ مُتناهية في الحرارة ، قد أُوقِدَت عليها جهنَّم مُنذ خُلِقَتْ ، فَدُفِعُوا إليها وِرْدًا عِطَاشًا . قال المُفسِّرون : لَوْ وَقَعَتْ مِنها قَطرة على جبال الدُّنيا لذابت ، هذا شرابهم)) .

---

٣٤٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٦) برقم (٣٨٩٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن أبي عِمران الجَوْني قال : مَرَّ عُمَر بن الخطاب بدَيْر راهب، فناداه : ((يا راهب ، يا راهب)) . قال : فأشرفَ عَلَيه ، فَجَعَلَ عُمر ينظر إليه ويبكي . قال : فقِيل له : يا أميرَ المُؤمنين ، ما يُبكِيك مِن هذا ؟ . قال : ((ذَكَرْتُ قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ في كِتابه : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) ﴾ ، فذلكَ الذي أبكاني)) [٣٥٠].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُم طَعَامٌ إلا مِن ضَرِيع ﴾ [الغَاشِيَة : ٦] .

الآيةُ تَذكُر طعامَ أهل النار بعد ذِكْر شرابهم . لَيس للكافرين أهلِ النار طعامٌ إلا مِن ضَرِيع ، وهو نَوع مِن الشَّوْك لا تَرْعَاه دابَّة لخُبثه . وهذا يدلُّ على أنَّ طعامهم في غاية السُّوء والفظاعة .

ولا تعارُض بين الآيَتَيْن : ﴿ لَيْسَ لَهُم طَعَامٌ إلا مِن ضَرِيع ﴾ و ﴿ ولا طَعَامٌ إلا مِن غِسْلِين ﴾ [الحَاقَّة : ٣٦] ، لأنَّ العِقَاب ألوان ، والعذاب أنواع ، والمُعذَّبون أصناف ، فمِنهُم مَن يَكون طعامُه الزَّقُّوم ، ومِنهُم مَن يَكون طعامُه الضَّرِيع ، ومِنهُم مَن يَكون طعامُه الغِسْلين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٩٦و٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُم طَعَامٌ إلا مِن ضَرِيع ﴾ ، فِيه سِتَّة أقوال : أحدها أنَّه نَبْت ذُو شَوك لاطئ بالأرض ، وتُسمِّيه قُرَيش الشِّبْرِق ، فإذا هَاجَ سَمَّوْهُ ضَرِيعًا ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد وعِكرمة وقَتادة . والثاني أنَّه شَجَر مِن نار ، رواه الوالبي عن ابن عباس . والثالث أنَّها الحِجَارة ، قاله ابن جُبَير . والرابع أنَّه السَّلَم ، قاله أبو الجَوزاء . والخامس أنَّه في الدُّنيا الشَّوك اليابس الذي ليس له وَرَق ، وهو في الآخرة شَوْك مِن نار ، قاله ابن زَيد . والسادس أنَّه طَعام يَضْرَعُون إلى الله تعالى مِنه ، قاله ابن كيسان . قال المُفسِّرون : لمَّا نزلت هذه الآية قال المُشركون : إنَّ إبِلَنَا لَتَسْمَن على الضَّرِيع ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِن جُوع ﴾ [الغَاشِيَة : ٧] . وكَذَبُوا ، فإن الإبل إنَّما ترعاه ما دام رَطْبًا ، وحِينئذ يُسمَّى شِبْرِقًا لا ضَرِيعًا ، فإذا يَبِسَ يُسمَّى ضَرِيعًا لم يأكله شيء . فإنْ قِيل إنَّه قد أخبرَ في هذه الآية : ﴿ لَيْسَ لَهُم طَعَامٌ إلا مِن ضَرِيع ﴾ ، وفي مكان آخر : ﴿ ولا طَعَامٌ إلا مِن غِسْلِين ﴾ [الحَاقَّة : ٣٦] . فكيف الجَمْع بينهما ؟ . فالجواب أنَّ النار دَرَكَات ، وعلى قَدْر الذُّنُوب تَقَع العُقُوبات ، فمِنهُم مَن طعامُه الزَّقُّوم ، ومِنهُم مَن طعامُه غِسْلِين ، ومِنهُم مَن شَرابه الحَمِيم ، ومِنهُم مَن شرابه الصَّدِيد، قاله ابن قُتَيبة)) .

---

٣٥٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٧) برقم (٣٩٢٥). وقال : ((هذه حكاية في وقتها فإن أبا عِمران الجوني لم يُدرك زمان عُمر)). وقال الذهبي: ((الجوني لم يُدرك عُمر لكنها حكاية في مَوضِعها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوع ﴾ [الغَاشِيَة : ٧] .

لا يُفيد الضَّرِيعُ السِّمَنَ في أجسام الكافرين أهلِ النار ، ولا يُشبِعهم مِن جُوع . والضَّرِيعُ شَوْك، وآكِلُ الشَّوك لا يَسْمَن ولا يَشْبَع . وهذا يعني أنَّ طعام أهل النار يَختلف عن طعام أهل الدُّنيا ، لأنَّ الهدف مِن الطَّعَام (الغِذاء) إزالة الجُوع ، وإفادة السِّمَن في الجِسْم . وهاتان الفائدتان الإشباع والإسمان مَوجودتان في طعام الدُّنيا ، ومَنْفِيَّتان عَن الضَّرِيع (طعام أهل النار في الآخرة).

وقال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٤٩) : ((﴿ لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوع ﴾ ، أي : لَيْسَ مِن شأنه الإسمان والإشباع ، كما هو شأن طَعَام الدُّنيا ، وإنَّما هو شيء يُضطرون إلى أكله مِن غَير أن يكون له دَفْع لضرورتهم ، لكن لا على أنَّ لهم استعدادًا للشِّبَع والسِّمَن، إلا أنَّه لا يُفيدهم شيئًا مِنهما ، بل على أنَّه لا استعداد مِن جِهتهم ، ولا إفادة مِن جِهة طعامهم . وتحقيق ذلك أن جُوعهم وعَطَشَهم لَيْسَا مِن قَبيل ما هو المعهود مِنهما في هذه النَّشأة مِن حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلَّل مِن البَدَن ، مَشُوقة له إلى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ، ويَستغني بهما عَن غَيرهما عند استقرارهما في المعدة ، ويستفيد منهما قُوَّةً وسَمِنًا عند انهضامهما ، بَل جُوعهم عِبارة عن اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيء كَثيف يملؤها ، ويُخرِج ما فيها مِن اللهب . وأمَّا أن يكون لهم شَوق إلى مَطعوم ما ، أو التذاذ به عند الأكل ، واستغناء به عَن الغَير، أوْ استفادة قُوَّة، فَهَيْهَات، وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عِند أكل الضَّرِيع والتهابه في بُطونهم إلى شيء مائع بارد يُطفِئه مِن غَير أن يكون لهم التذاذ بشُربه أو استفادة قُوَّة به في الجُملة. وهو المعنيُّ بما رُوِيَ أنَّه تعالى يُسلِّط عليهم الجُوعَ بحيث يَضطرهم إلى أكل الضَّرِيع ، فإذا أكلوه يُسلَّط عليهم العَطَش فيَضطرهم إلى شُرب الحميم فيَشْوِي وجوههم ويُقطِّع أمعاءهم. وتَنكير الجُوع للتَّحقير، أي: لا يُغْني مِن جُوع ما. وتأخير نَفْي الإغناء مِنه لمُراعاة الفواصل، والتَّوَسُّل به إلى التصريح بنَفْي كِلا الأمْرَيْن ، إذْ لَوْ قُدِّمَ لِمَا احتيج إلى ذِكْر نَفْي الإسمان ضرورة استلزام نَفْي الإغناء عَن الجُوع إيَّاه، بخِلاف العَكْس ، ولذلك كَرَّرَ " لا " لتأكيد النَّفْي)) .

وروى التِّرمذي في سُننه (٤/ ٧٠٧) عن أبي الدَّرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُلقَى على أهل النار الجُوع ، فيَعدِل ما هُم فِيه مِن العذاب ، فيَستغيثون ، فيُغَاثون بطعامٍ مِن ضَرِيع ، لا يُسمِن ، ولا يُغْنِي مِن جُوع ، فيَستغيثون بالطَّعَام ، فيُغَاثون بطعامٍ ذِي غُصَّة ، ...)) .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ٢٦٠ و٢٦١) : ((قَوله (يُلقَى) أي يُسلَّط (على أهل النار الجوع) أي الشديد (فيَعدِل) بفتح الياء وكَسْر الدَّال ، أي : فيُساوي الجُوع (ما هُم فِيه مِن

العذاب) المعنى أنَّ ألم جُوعهم مِثل ألم سائر عذابهم (فيَستغيثون) أي بالطعام (فيُغاثون بطعام مِن ضَرِيع) وهو نَبْت بالحِجَاز له شَوْك ، لا تَقْرَبُه دابَّة لخُبثه ، وَلَوْ أكلتْ مِنه ماتت . والمُراد هُنا شَوك مِن نار أمرُّ مِن الصَّبْر ، وأنْتَن مِن الجِيفة ، وأَحَر مِن النار (لا يُسْمِن) أي: لا يُشْبِع الجائعَ ولا يَنفعه ، ولو أكل منه كثيرًا (ولا يُغْني مِن جُوع) أي: ولا يَدْفَع وَلَوْ بالتَّسكين شيئًا مِن ألم الجُوع وفيه إيماء إلى قَوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُم طَعَامٌ إلا مِن ضَرِيع ﴾ إلى آخِره (فيَستغيثون بالطَّعَام) أي : ثانيًا ، لعدم نَفْع ما أُغِيثوا أوَّلًا (فيُغاثون بطعامٍ ذِي غُصَّة) أي : مِمَّا يَنشَب في الحَلْق ولا يَسُوغ فيه مِن عَظْم وغيره. لا يَرتقي ولا يَنزِل.وفيه إشعار إلى قَوله تعالى: ﴿إنَّ لَدَيْنا أنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) ﴾ . والمَعنى أنَّهُم يُؤْتَوْنَ بطعام ذِي غُصَّة فيتناولونه فَيَغَصُّون به ، ... . قوله (قال عبد الله بن عبد الرحمن) هو الدَّارمي (والناس لا يَرْفَعُون هذا الحديث) بَل يَرْوُونه مَوقوفًا على أبي الدَّرداء ، فهو وإنْ كان موقوفًا ، لكنَّه في حُكم المَرفوع ، فإنَّ أمثال ذلك لَيس مِمَّا يُمكن أن يُقَال مِن قِبَل الرَّأي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأنذَرْتُكُم نارًا تَلَظَّى ﴾ [الليل : ١٤] . فَحَذَّرْتُكُم وَخوَّفْتُكُم نارًا تتلهَّب وتتوقَّد وتتوهَّج مِن شِدَّة حرارتها . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦١٨): ((يقول تعالى ذِكْرُه : فأنذَرْتُكُم أيُّها الناسُ نارًا تتوهَّج ، وهي نار جهنَّم . يقول : احْذَرُوا أن تَعْصُوا رَبَّكُم في الدُّنيا، وتكفروا به فَتَصْلَوْنَهَا في الآخِرة. وقِيل: تَلَظَّى،وإنَّما هِيَ تَتَلَظَّى وهي في مَوضع رَفْع ، لأنَّه فِعل مُسْتَقْبَل ، وَلَوْ كان فِعْلًا ماضيًا لقِيل : فأنذرتكم نارًا تلظَّت)) اهـ . وعن النُّعمان بن بشير قال:سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺيَخطُب يَقول:((أنذَرْتُكُم النارَ،أنذرتكم النار))[٣٥١]. كان النبيُّ ﷺ يُخوِّف الناسَ مِن النار، ويُحذِّرهم مِن عذابها الشديد. وهذا يدل على أمانة النبيِّ ﷺ في التبليغ والدَّعوة ، وشفقته على الناس ، وحِرصه على سعادتهم الأبدية في الجَنَّة . وهذا لا يتأتَّى إلا بالتزام أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه . وعن النُّعمان بن بشير قال : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((إنَّ أَهْوَنَ أهلِ النار عذابًا يَوم القِيامة رَجُلٌ على أَخْمَصِ قَدَمَيه جَمْرَتَان، يَغْلي مِنهما دِمَاغُه)) [٣٥٢] . إنَّ أيسر عذاب في النار،هو وَضْع جَمْرَتَيْن(تَثْنِية جَمْرَة وهي قطعة من النار مُلتهبة) على أخْمَصِ القَدَمَيْن ، والأَخْمَصُ هو تَجويف القَدَم الذي لا يُصيب الأرضَ عِند المَشْي. يَغْلِي مِنهما الدِّماغ ، بسبب شِدَّة الحرارة .

---

٣٥١ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٢٣) برقم (١٠٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٥٢ متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٤٠٠) برقم (٦١٩٤) ، ومسلم (١/ ١٩٦) برقم (٢١٣) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٦٨) : (((أهْوَنُ أهلِ النار عذابًا) أي: أيْسَرُهم وأدْوَنُهم فِيه (يَوم القِيامة رَجُل) لفظ رواية مسلم لَرَجُل، أي هو أبو طالب كما يَجيء (يُوضَع في أخْمَصِ قَدَمَيه جَمْرَتَان) تَثْنية جَمْرَة، وهي القِطعة من النار المُلتهبة (يَغْلي مِنهما دِمَاغُه) وفي رواية للبخاري: يَغْلي مِنهما أُمُّ دِمَاغِه. قال الداودي : المُراد أُم رأسه ، وأُطْلِقَ على الرأس أُم الدِّماغ مِن تَسمية الشيء مِمَّا يُجاوره . وفي رواية ابن إسحاق : يَغْلي مِنه دِمَاغُه حتَّى يَسِيلَ على قَدَمَيه . وحكمة انتعاله بهما أنَّه كان مع المُصطفى ﷺ بجُملته ، لكنه كان مُثَبِّتًا لقَدَمَيه على مِلَّة عبد المطلب ، حتى قال عِند الموت : هو على مِلَّة عبد المطلب . فسُلِّطَ العذاب على قَدَمَيه فقط ، لتثبيته إيَّاهما على مِلَّة آبائه الضَّالِّين . قال الغَزَّالي : انظُرْ إلى مَن خُفِّفَ عَلَيه ، واعْتَبِرْ بِه ، فكيف مَن شُدِّدَ عَلَيه ؟ . ومَهْمَا شَكَكْتَ في شِدَّة عذاب النار ، فَقَرِّبْ أُصبعك مِنها ، وقِسْ ذلك به ، انتهى . وتَمَسَّكَ به مَن ذهب إلى أن الحسنات تُخفِّف عن الكافر . وقال البَيْهَقي : وَلِمَن ذهب لمُقابله أن يقول: خبر أبي طالب خاص ، والتخفيف عنه بما صنع إلى النبيِّ ﷺ ، تطييبًا لقلبه ، وثوابًا له في نَفْسِه ، لا لأبي طالب ، فإنَّ حسناته أُحْبِطَتْ بمَوته كافرًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ في الحُطَمَةِ ﴾ [الهُمَزة : ٤] .

لَيُطْرَحَنَّ ويُلْقَيَنَّ في النار التي تَحطِم كُلَّ ما يُلقَى فيها ، وتلتهمه .

وفي تفسير الجَلالَيْن (١/ ٨٢١) : ((﴿ كَلَّا ﴾ رَدْع ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ جَوَاب قَسَم مَحْذُوف ، أي: لَيُطْرَحَنَّ ﴿ في الحُطَمَةِ ﴾ التي تَحطِم كُلَّ ما أُلْقِيَ فِيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أدراكَ ما الحُطَمَةُ ﴾ [الهُمَزة : ٥] .

تعظيم لأمرها ، وتفخيم لشأنها ، وتَهويل لعذابها . وما أعلمكَ ما هذه النار العظيمة ؟ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٧٠٣) : ((﴿ وما أدراكَ ما الحُطَمَةُ ﴾ ، هذا الاستفهام للتَّهويل والتَّفظيع ، حَتَّى كأنَّها لَيست مِمَّا تُدركه العُقول ، وتَبلُغه الأفهام)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ نارُ اللهِ المُوقَدَةُ ﴾ [الهُمَزة : ٦].

هذا تفسيرٌ إلهيٌّ لها . إنَّها نارُ اللهِ المُشتعلة بأمره وإرادته ، وما أشعله اللهُ لَن يُطفِئه أحد . وإضافة النار إلى اسم الله العظيم لتعظيمها.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٧٠٣) : ((ثُمَّ بيَّنها سُبحانَه فقال: ﴿ نارُ اللهِ المُوقَدَةُ ﴾ أي : هي نار الله المُوقَدَة بأمر الله سُبحانَه . وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تَعظيم لها وتَفخيم ، وكذلك في وَصْفها بالإيقاد . وسُمِّيَتْ حُطَمَة لأنَّها تَحطِم كُلَّ ما يُلْقَى فِيها ، وتَهشِمه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ التي تَطَّلِعُ على الأفئدةِ ﴾ [الهُمَزة : ٧]. هذه النارُ العظيمة يَصِلُ حَرُّها الشديد وألمُها الرهيبُ إلى القلوب ، فتُحرِقها . أي : إنَّ النار تأكل اللحمَ والعَظْمَ والجُلُودَ حَتَّى تَصِلَ إلى الفُؤاد. وتخصيص الأفئدة بالذِّكْر لأنَّها مَحَل العقائد الباطلة، ومَصْدَر الذُّنُوب والمعاصي. والألمُ إذا صارَ إلى الفؤاد مات صاحبُه،فأخبرَ أنَّهُم في حال مَن يَموت،وهُم لا يَمُوتون ، لأنَّهُم خالدون في عذاب النار إلى الأبد . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٧٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ التي تَطَّلِعُ على الأفئدةِ ﴾ . قال مُحمَّد بن كَعْب : تأكل النارُ جميعَ ما في أجسادهم حتَّى إذا بَلَغَتْ إلى الفُؤاد خُلقوا خَلْقًا جديدًا،فرجعت تأكلهم.وكذا روى خالد بن أبي عِمران عن النبيِّ ﷺ : " أنَّ النَّار تأكل أهلَها ، حتَّى إذا اطَّلعت على أفئدتهم انتهتْ ، ثُمَّ إذا صَدَرُوا تَعُود " ، فذلك قوله تعالى : ﴿ نارُ اللهِ المُوقَدَةُ (٦) التي تَطَّلِعُ على الأفئدةِ (٧) ﴾ . وخُصَّ الأفئدة ، لأنَّ الألم إذا صار إلى الفُؤاد مات صاحبُه ، أي إنَّه في حال مَن يَمُوت ، وهُم لا يَمُوتون ، كما قال اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا ولا يَحْيا﴾ [طه: ٧٤]. فهُم إذًا أحياء في معنى الأموات . وقِيل : معنى ﴿ تطَّلِعُ على الأفئدةِ ﴾ ، أي : تَعْلَم مِقدار ما يَستحقه كُل واحد مِنهُم مِن العذاب ، وذلك بما استبقاه اللهُ تعالى مِن الأمَارَة الدَّالة عَلَيه . ويُقَال : اطَّلَعَ فُلان على كذا : أي عَلِمَه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿إنَّهَا عَلَيْهِم مُؤصَدَةٌ ﴾[الهُمَزة: ٨].النارُ مُطْبِقَة مُغلَقة عَلَيهم.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٢٩):((﴿إنَّهَا عَلَيْهِم مُؤصَدَةٌ ﴾ مُطْبِقَة. مِن أَوْصَدْت البابَ،إذا أطبقته)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ [الهُمَزة : ٩] . مُوثَقِين في أعمدة مَمدودة يُعذَّبون بها في النار ، وفي أعناقهم الأغلال والسَّلاسل ، وأُغْلِقَت عليهم أبواب النار ، فلا يَخرُجون مِنها . وهذا يدلُّ على خُلودهم في عذاب النار إلى الأبد.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٩/ ٢٣٠): ((قَوله تعالى: ﴿ في عَمَدٍ ﴾ . قال المُفسِّرون : وهي أوتاد الأطباق التي تُطبَق على أهل النار . و " في " بمعنى الباء. والمعنى: مُطْبِقَة بعُمُد ، ... . وقال مُقاتل: أُطْبِقَت الأبوابُ عليهم ثُمَّ شُدَّتْ بأوتاد مِن حديد حتَّى يرجع عليهم غَمُّها وحَرُّها ، و "مُمَدَّدَة" صِفَة العُمُد، أي أنَّها ممدودة مُطوَّلة ، وهي أرسخ من القصيرة . وقال قَتادة : هي عُمُد يُعذَّبون بها في النار . وقال أبو صالح : ﴿ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ، قال: القُيُود الطِّوال)) اهـ . وعن عليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ : أنَّه ذَكَرَ النارَ ، فعظَّم أمْرَها ، وذَكَرَ مِنها ما شاء اللهُ أن يَذكُرَ ثُمَّ قال : ((﴿ إنَّهَا عَلَيْهِم مُؤصَدَةٌ (٨) في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴾)) [٣٥٣].

٣٥٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٣) برقم (٣٩٧٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ب_ أصحابها

قالَ اللهُ تعالى: ﴿والذينَ كَفروا وكَذَّبوا بآياتِنا أُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالدون﴾[البقرة: ٣٩].

والذينَ كَفروا وكذَّبوا القُرآنَ ، أُولئكَ أهل النار ، ماكثون فيها إلى الأبد ، لا يَموتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٧١و ٧٢) : ((في معنى الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها العلامة ، فمعنى آية علامة ، لانقطاع الكلام الذي قَبْلَها والذي بَعْدَها ... . والثاني أنَّها سُمِّيَتْ آية لأنَّها جماعة حُروف مِن القُرآن وطائفة مِنه ... . والثالث أنَّها سُمِّيَتْ آية لأنها عَجَب ، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها على مُباينتها كلام المَخلوقين ، وهذا كما تقول : فُلان آية مِن الآيات ، أي: عَجَب مِن العَجَائب ، ذَكَرَه ابن الأنباري . في المُراد بهذه الآيات أربعة أقوال:أحدها آيات الكُتب التي تُتلَى، والثاني مُعجزات الأنبياء، والثالث القُرآن، والرابع دَلائل الله في مَصنوعاته . وأصحاب النار سُكَّانها ، سُمُّوا أصحابًا لصُحتبهم إيَّاها بالمُلازَمَة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فأُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالدون ﴾ [البقرة : ٨١] . مَن كَفَرَ ، وأحاطَ به ذَنْبُ الكُفر مِن كُل الجوانب ، وسَيْطَرَ عَلَيه ، وَسَدَّ عَلَيه مسالك النجاة ، حتَّى ماتَ كافرًا بلا تَوبة ، فأُولئك أهل النار ، ماكثون فيها إلى الأبد ، لا يَمُوتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها . ولا حُجَّة في الآية على خُلود صاحب الكبيرة في النار .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٦) : ((﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ يعني الشِّرْك ﴿ وأحاطتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ ، والإحاطة الإحداق بالشَّيء مِن جميع نواحيه . قال ابن عباس وعطاء والضَّحاك وأبو العالية والربيع وجَماعة : هي الشِّرْك يَمُوت عَلَيه . وقِيل : السَّيئة الكبيرة ، والإحاطة به أن يُصِرَّ عليها فيموت غير تائب . قال عِكرمة والربيع بن خَيْثَم وقال مُجاهد : هي الذُّنُوب تُحيط القَلْبَ ، كُلَّما أذنبَ ذَنْبًا ارتفعت (حتى تَغْشَى) القلبَ، وهي الرَّيْن . قال الكلبي : أَوْبَقَتْهُ ذُنُوبُه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا لَن تُغْنِيَ عَنْهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا وأُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالدون ﴾ [آل عِمران: ١١٦] . إنَّ الذين أنكَرُوا نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، وكذَّبوا بالآيات التي جاء بها مِن عِند الله تعالى ، لَن تَدفَع عنهم أموالُهُم التي جَمَعُوها في الدُّنيا ، ولا أولادُهُم الذين أحَبُّوهم وتفاخروا بهم ، مِن عذاب الله شيئًا ، وأُولئك أهل النار ، مُلازموها ، لا يُفارقونها ، كصاحب الرَّجُل لا يُفارقه، وهُم فيها ماكثون إلى الأبد،لا يَمُوتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها . وخُصَّ الأولاد لأنهم أحب القرابة ، وأرجاهم لدفع المصائب ، والإنسانُ يَدفَع عَن نَفْسِه ويَحْميها ببَذل ماله ، أو الاستعانة بأولاده ، أو بالأمْرَيْن معًا .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٠٣) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا ﴾ يعني : الذين جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، وكذَّبوا به ، وبما جاءهم به مِن عِند الله ، ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ ، يعني : لَن تَدفَع أموالُه التي جَمَعَها في الدُّنيا ، وأولادُه الذين ربَّاهم فيها شيئًا مِن عُقوبة الله يَوم القِيامة ، إنْ أخَّرها لهم إلى يوم القيامة ، ولا في الدُّنيا إنْ عجَّلها لهم فيها . وإنَّما خُصَّ أولاده وأمواله ، لأنَّ أولاد الرَّجُل أقرب أنسبائه إلَيه ، وهو على ماله أقْدَر مِنه على مال غَيره ، وأمْره فيه أجْوَز مِن أمْرِه في مال غَيره ، فإذا لَم يُغْنِ عنه وَلَدُه لصُلبه ، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه،فَغَيْر ذلك مِن أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم أبْعَد مِن أن تُغْنِيَ عَنه مِن الله شيئًا. ثُمَّ أخبرَ جَلَّ ثناؤه أنَّهُم هُم أهل النار الذين هُم أهلها بقَوله : ﴿ وأُولئكَ أصحابُ النارِ ﴾ ، وإنَّما جَعَلَهم أصحابَها لأنَّهم أهْلُها ، الذين لا يَخرُجون مِنها ، ولا يُفارقونها ، كصاحب الرَّجُل الذي لا يُفَارقه ، وقَرينه الذي لا يُزايله ، ثُمَّ وكَّد ذلك بإخباره عَنهُم أنَّهُم ﴿ هُم فِيها خالدون ﴾ أن صُحبتهم إيَّاها صُحبة لا انقطاع لها ، إذْ كان مِن الأشياء ما يُفَارِق صاحبه في بعض الأحوال ، ويُزايله في بعض الأوقات ، ولَيس كذلك صُحبة الذين كفروا النار التي أُصْلُوها ، ولكنَّها صُحبة دائمة لا نهاية لها ، ولا انقطاع . نَعُوذ بالله مِنها ، ومِمَّا قرَّب مِنها مِن قَول وعَمَل)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلى الذينَ كَفروا أنَّهُم أصحابُ النارِ﴾[غَافِر: ٦].

كما وَجَبَتْ كلمةُ العذاب على الذين كَفَرُوا مِن الأُمَم السابقة ، كذلك وَجَبَتْ على هؤلاء المُكذِّبين مِن قَوْمِك يا مُحمَّد ، لأنَّهُم أهلُ النار المُلازِمُون لها، الذينَ يَدخُلونها ولا يَخرُجون مِنها. ومَن كذَّب النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، فهو مُكذِّب لجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _. وقال أبو السعود في تفسيره(٧/ ٢٦٦):((﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي كما وَجَبَ وثَبَتَ حُكْمُه تعالى وقضاؤه بالتَّعذيب على أُولئك الأُمَم المُكذِّبة المُتَحَزِّبة على رُسُلهم، المُجَادِلة بالباطل لإدحاض الحَق به ، وَجَبَ أيضًا على الذين كفروا، أي كفروا بِكَ وتحزَّبوا عَلَيك وهَمُّوا بما لَم ينالوا،كما يُنبِئ عَنه إضافة اسم الرَّب إلى ضميره، فإن ذلك للإشعار بأن وُجوب كلمة العذاب عليهم مِن أحكام تربيته التي مِن جُملتها نُصرته وتعذيب أعدائه،وذلك إنَّما يتحقَّق بكَوْن المَوصول عِبارة عَن كُفَّار قَومه لا عن الأُمَم المُهْلَكَة.وقَوله تعالى: ﴿أنَّهُم أصحابُ النارِ﴾في حَيِّز النَّصْب بحذف لام التعليل أي لأنَّهُم مُستحقو أشد العُقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار، ومُلازموها أبدًا لكَوْنهم كُفَّارًا مُعَانِدِين مُتَحَزِّبين على الرَّسُول، كدَأب مَن قَبْلهم مِن الأُمَم المُهْلَكَة ، فهُم لسائر فُنون العُقوبات أشد استحقاقًا ، وأحق استيجابًا)) .

ج _ أسماؤها

١_ الآخِرَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ﴾ [الزُّمَر : ٩]. يَحذَر النارَ لِعِلْمِه بعدم قُدرته على تحمُّلها ، وهذا يَدفعه إلى العمل جاهدًا لِنَيل الجَنَّة. وهذا الحَذَرُ يُبقي المؤمنَ على أُهْبَة الاستعداد ، حيث يُراقب جميعَ المداخل والمخارج خَوْفًا من مجيء العدو. والمؤمنُ يُراقب قَلْبَه، ولا يَسمَح باختراق الشَّيطان أو الهوى له ، كما أنَّه لا يقع فريسةَ نَفْسِه الأمَّارة بالسُّوء . لذلك فإنَّ أسلحته الإيمانية جاهزة على الدَّوام ، خَوْفًا مِن الاختراق ، فتَزِل قَدَمُه ، ويسقط في المحظور . والنارُ على الدَّوام مَوجودة في ذِهْنه ، لذلك يَبتعد عن كُل قَول أوْ فِعل ، يُؤَدِّي إلَيها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٦٧): ((﴿ يَحْذر الآخِرةَ ﴾ أي عذابَ الآخِرة)) .

٢_ بِئْس القَرَار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٩] .

جهنَّم يَدخُلونها ، ويُقَاسُون حَرَّها الشديدَ ، وبِئْسَ المقر والمصير هِيَ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٥٢) : ((﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يَدخُلونها ، ﴿ وَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ المُسْتَقَر)) .

٣_ بِئْس المَصير

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ [التَّوبة : ٧٣] .

ومَسكنهم جهنَّم ، وبِئْسَ المَرجع الذي يَرْجِعُون إلَيه . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤١٩): ((وقَوله: ﴿ ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ ﴾ ، يقول: ومَسَاكنهم جهنَّم، وهي مَثواهم ومَأواهم ﴿ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ يقول : وَبِئْسَ المَكَان الذي يُصَار إلَيه جهنَّم)) .

٤_ بِئْس المِهَاد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾[آل عِمران : ١٩٧] .

مَتَاع قليل يستمتعون به مُدَّةً زمنيةً قصيرةً في الدُّنيا ، ويَزُول ويَفنَى ، ثُمَّ مصيرهم جهنَّم ، وبِئْسَ الفِرَاش .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٨) : ((وأمَّا قَوله : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ، فإنَّه يَعْني أنَّ تَقَلُّبَهم في البلاد وتصرُّفهم فِيها مُتعة يُمَتَّعُون بها قليلًا ، حتَّى يَبْلُغُوا آجالَهم ، فتخترمهم مَنِيَّاتُهُم _ يعني يأخذهم المَوت_ ، ﴿ ثُمَّ مَأوَاهُم جَهَنَّمُ ﴾ بَعْد مَمَاتهم . والمَأوَى : المَصِير الذي يَأْوُون إلَيه يَوم القِيامة ، فَيَصِيرُون فيه . ويعني بقَوله : ﴿ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ وبِئْسَ الفِرَاشُ والمَضْجَع جهنَّم)) .

٥_ بِئْس الوِرْد المَوْرُود

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النارَ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾ [هُود : ٩٨] . فأدخلهم النارَ ، وَبِئْسَ المَدخَل المَدخُول هِيَ ، لأنَّ الوِرْد إنَّما يُراد لتَسكين العَطَش ، والنار ضِدُّه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٩) : ((﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النارَ ﴾ ذَكَرَه بلَفْظ المَاضي مُبَالَغَةً في تَحقيقه ، ومَنْزِل النار لهم مَنزلة الماء ، فسمَّى إتيانَهَا مَوْرِدًا ، ثُمَّ قال: ﴿ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾ أي: بِئْسَ المَوْرِد الذي وَرَدُوه ، فإنَّه يُراد لتَبريد الأكباد ، وتسكين العَطَش ، والنار بالضِّد)) .

٦_ الجَحِيم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تُسْأَلُ عَنْ أصحابِ الجَحِيمِ ﴾ [البقرة : ١١٩] . الجَحِيمُ هي النَّار الشديدة التي حذَّر مِنها اللهُ ورسولُه ﷺ . ولا يُسأل النبيُّ ﷺ عن كُفر مَن كَفَرَ ، فهو لا يتحمَّل مسؤولية أصحاب النار ، فقد دعاهم بكل إخلاص وتفانٍ ، وأقام عليهم الحُجَّةَ ، وقَطَعَ أعذارَهم ، وكان لهم الناصحَ الصادق والمُعلِّم الأمين . أخذ بأيدي الناس إلى خالقهم ، وأرشدهم إلى صِرَاطه المُستقيم . فَمَن تنكَّب الطريقَ فهو يتحمَّل المسؤولية كاملة غير منقوصة ، ولا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه . وَكُلُّ رسولٍ أدَّى رسالته على أكمل وجه، بلا زيادة ولا نُقصان . أمَّا حسابُ العِباد فعلى رَبِّ العِباد. والرُّسُلُ هُم دُعاة ، ولا يَملِكون سُلطةَ الحِساب . فَمَن آمنَ فَلِنَفْسِه ، ومَن كَفَرَ فعليها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٨): ((فأمَّا الجَحِيمُ، فقال الفَرَّاء: الجَحِيمُ النار، والجَمْر على الجَمْر. وقال أبو عُبَيدة : الجَحِيم النار المُسْتَحْكِمَة المُتَلَظِّيَة. وقال الزَّجاج: الجَحِيمُ النار الشديدة الوَقُود. وقد جَحَمَ فُلان النارَ، إذا شدَّد وَقُودَها. ويُقَال لعَيْن الأسد: جَحْمَة ، لِشِدَّة تَوَقُّدها. ويُقَال لِوَقُود الحرب وهو شِدَّة القِتال فيها: جَاحِم . وقال ابن فارس : الجَاحِم المَكَان الشَّديد الحَر ، ... . ولذلك سُمِّيَت الجَحِيم. وقال ابن الأنباري: قال أحمد بن عُبَيد: إنَّما سُمِّيَت النار جَحِيمًا لأنَّها أُكْثِرَ وَقُودُها، مِن قَوْل العرب: جَحَمَت النارُ أجْحَمَهَا إذا أكثرتَ لها الوَقُود)) .

٧_ جَهَنَّم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾[البقرة: ٢٠٦]. جَهَنَّم هي النار الكافية المُعَاقِبة للعُصَاة. فَمَن أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثم وطَغى وتجبَّر واستكبرَ ، فإنَّ جهنَّم هي الكَافِيَة الوَافِيَة التي ستكون الرَّدَّ القاطع على كُفره وضَلاله وغُروره وعِناده وطُغيانه . وسُمِّيَت النار جهنَّم لبُعد قَعْرها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢٢) : ((وفي جهنَّم قَولان ذَكَرَهما ابن الأنباري : أحدهما أنَّها أعجمية لا تُجْرَ للتَّعريف والعُجْمَة. والثاني أنَّها اسم عربي ولَم يُجْرَ للتأنيث والتَّعريف.

قال رُؤبة : رَكِيَّةٌ جِهِنَّام بَعيدة القَعْر ، ... وفي المعنى الكلام قَولان : أحدها فَحَسْبُه جهنَّم جَزَاءً عن إثمه ، والثاني فَحَسْبُه جهنَّم ذُلًّا مِن عِزِّه)) .

٨_ الحُطَمَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَيُنبَذَنَّ في الحُطَمَةِ ﴾ [الهُمَزة : ٤] .

الحُطَمَة هي النار الشديدة التي تَهشِم العِظامَ ، وتأكل اللحمَ . وسُمِّيت كذلك لأنها تَحطِم كُلَّ ما يُلقَى فِيها . وهذه الحركةُ المُرعِبة تُشير إلى شِدَّة غَلَيانها وارتفاع حرارتها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٢٩) : ((﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ ، أي : لَيُطْرَحَنَّ في الحُطَمَة، وهو اسم مِن أسماء جهنَّم ، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَحطِم ما يُلقَى فيها ، أي : تَكسِره ، فهي تَكسِر العَظْمَ بعد أكلها اللحم)) اهـ . وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : قال رسولُ الله ﷺ : ((ولقد رَأيْتُ جَهَّنَمَ يَحْطِمُ بعضُها بعضًا)) [354].

إنَّ جهنَّم يَكسِر بعضُها بعضًا مِن شِدَّة غَلَيَانها الرهيب ، وارتفاع حرارتها المُرعِبة ، وهي تأكل نَفْسَها،وتأكل ما يُلقَى فيها.والحديثُ يدلُّ على أنَّ جهنَّم مَخلوقة مَوجودة،وهو مذهب أهل السُّنَّة.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٦) : ((" يَحطِم بعضُها بعضًا " فمعناه: لِشِدَّة اتِّقادها ، وتلاطُم أمواج لَهَبها . والحَطْم الكَسْر والإهلاك . والحُطَمَة اسم من أسماء النار ، لكَوْنها تَحطِم ما يُلقَى فِيها)).

٩_ دار البَوَار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأحَلُّوا قَوْمَهُم دَارَ البَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

جهنَّم هي دَارُ البَوَار ، أي : دار الهَلاك الذي لا هَلاك بَعْده .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٨) : ((﴿ وأحَلُّوا قَوْمَهُم ﴾ الذين شَايَعُوهُم في الكُفر ﴿ دَارَ البَوَارِ ﴾ ، دار الهَلاك بحَمْلهم على الكُفر)) .

وعن عليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وأحَلُّوا قَوْمَهُم دَارَ البَوَارِ ﴾ ، قال: ((هُم الأفْجَرَانِ مِن قُرَيش ، بَنُو أُمَيَّةَ وبَنُو المُغِيرة ، فأمَّا بَنُو المُغيرة فقد قَطَعَ اللهُ دَابِرَهُم يَوْمَ بَدْر ، وأمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَمُتِّعُوا إلى حِين)) [355].

---

٣٥٤ متفق عليه . البخاري (١/ ٤٠٦) برقم (١١٥٤) ، ومسلم (٢/ ٦١٨) برقم (٩٠١) .

٣٥٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٣) برقم (٣٣٤٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٠_ دار الخُلْد

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النارُ لَهُم فِيها دَارُ الخُلْدِ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٨] .

إنَّ نار جهنَّم هي العِقَاب العادل للكافرين ، أعداء الله ورسوله ﷺ ، لهم في جهنَّم دار الإقامة، يَدخُلونها ، ولا يَخرُجون مِنها ، ولا يَمُوتون فيها . والخُلْدُ هو البَقَاء والدَّوام . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٢) : ((ومعنى دار الخُلْد : دار الإقامة المُستمرة التي لا انقطاع لها)) .

١١_ دار الفاسقين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَأُرِيكُم دَارَ الفاسقين ﴾ [الأعراف : ١٤٥] . سَأُرِيكُم مَصِيرَ فِرْعَوْن وأتباعه في الآخِرة ، يعني : نار جهنَّم ، وَلِتَحْذَرُوا أن تكونوا مِثْلَهُم . والعاقلُ مَن اتَّعظ بغَيره .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُم دَارَ الفاسقين ﴾ فيها أربعة أقوال : أحدها أنَّها جَهَنَّم ، قاله الحسن ومُجاهد . والثاني أنَّها دار فِرْعَوْن وقَوْمِه ، وهي مِصْر ، قاله عَطِيَّة العَوفي . والثالث أنَّها مَنازل مَن هَلَكَ مِن الجَبَابرة والعَمَالقة ، يُرِيهم إيَّاها عِند دُخولهم الشام ، قاله قَتادة . والرابع أنَّها مَصَارِع الفاسقين ، قاله السُّدي . ومعنى الكلام : سَأُرِيكُم عاقبةَ مَن خَالَفَ أَمْرِي ، وهذا تَهديد للمُخَالِف ، وتَحذير للمُوَافِق)) .

١٢_ السَّعير

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَفَرِيقٌ في السَّعِيرِ ﴾ [الشُّورى : ٧] .

الكافرون في النار العظيمة المُسْتَعِرَة . أي إنَّهُم سَيُحْرَقُون بالنار المُلْتَهِبَة شَديدةِ التَّوَقُّد .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٢٩) : ((﴿ وَفَرِيقٌ في السَّعِيرِ ﴾ ، يقول : ومِنهُم فَريق في المُوقَدَة مِن نار الله ، المَسعورة على أهلها،وهُم الذين كفروا بالله ، وخَالَفُوا ما جاءهم به رسولُه)).

١٣_ سَقَر

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القَمَر : ٤٨] .

ذُوقُوا أيُّها الكافرون عذابَ النار . ويُقَال : " سَقَرَ " من قولهم : سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا أذابته . أي إنَّها تُذيب الأجسامَ ، فلا يقف في طريقها جسمٌ أو مانع . فهي تُغيِّر صفاتِ الأجسام وتنقلها إلى حالة الذَّوَبان والانصهار ، فيتحوَّل الجِسْمُ إلى شيء آخر لا علاقة له بحالته الأُولَى . وهذا دليل على شِدَّة العذاب ، وارتفاع حرارة النار.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٠):((أي يُقَال لهم: ذُوقوا حرَّ النار وألمها ، فإنَّ مَسَّها سبب التألُّم بها ، وسَقَر عَلَم لجهنَّم ، ولذلك لَم يُصرَف . مِن سَقَرَتْهُ النارُ ، وصَقَرَتْهُ ، إذا لَوَّحَتْهُ)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٦) : عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : جاء مُشركو قُرَيش يُخَاصِمُونَ رسولَ الله ﷺ في القَدَر ، فنزلت : ﴿ يومَ يُسحَبون في النار على وجوههم ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إنَّا كلَّ شيء خلقناه بِقَدَر (٤٩) ﴾ [القَمَر] .

وقَوله تعالى : ﴿ ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ تعبيرٌ إلهيٌّ بليغ . فهذا العذابُ كأنَّهم يتذوَّقونه مِثل الطعام، فَسَوْفَ يُلازمهم ، ولا يزول عنهم . وهذا الألمُ سَيَكُون هو الطَّعْم الذي يَذُوقُونه .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٦٨) : ((فإنْ قال قائل : وكَيف يُذاق مَس سَقَر أو له طَعْم فيُذَاق ؟ ، فإنَّ ذلك مُخْتَلَف فيه ، فقال بعضُهم : قِيل ذلك كذلك على مَجَاز الكلام ، كما يُقَال : كيف وَجَدْتَ طَعْمَ الضَّرْب ، وهو مَجَاز . وقال آخَر : ذلك كما يُقَال : وَجَدْتُ مَسَّ الحُمَّى ، يُراد به أوَّل ما نالني منها ، وكذلك وَجَدْتُ طَعْمَ عَفْوِك ، وأمَّا سَقَر فإنَّها اسم باب من أبواب جهنَّم ، وتُرِكَ إجراؤها _ صَرْفُها _ لأنَّها اسم لمُؤنَّث مَعرفة)) .

١٤_ السَّمُوم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطُّور : ٢٧] .

السَّمُوم (لُغَةً) : الرِّيح الحَارَّة النافذة في المَسَام . وقد أكرمَ اللهُ المؤمنين بأن وَقَاهم عذابَ النار (السَّمُوم) النافذة في المَسَام كالرِّيح الحَارَّة ، فهي مُخصَّصة للكافرين الذين تمتَّعوا في الدُّنيا بكُفرهم وضَلالهم وشَهَوَاتهم . وجاء الوقتُ كَي يدفعوا الثمنَ غاليًا .

وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٦٢) : ((قال الحَسَن : السَّمُوم اسم مِن أسماء النار ، وطَبَقَة مِن طِبَاق جهنَّم ، وقِيل : هو النار ، كما تقول جهنَّم . وقِيل : نار عذاب السَّمُوم ، والسَّمُوم الرِّيح الحَارَّة ، تُؤَنَّث... . قال أبو عُبَيدة : السَّمُوم بالنَّهار، وقد تكون بالليل، والحَرُور بالليل، وقد تكون بالنهار ، وقد تُسْتَعْمَل السَّمُوم في لَفْح البَرْد ، وهو في لَفْح الحَر والشمس أكثر)) .

١٥_ سُوء الدَّار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَهُم سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرَّعْد : ٢٥] .

ولهم المصير القبيح والعاقبة السَّيئة في الآخرة ، وهي جهنَّم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١١٣): ((﴿ وَلَهُم سُوءُ الدَّارِ ﴾ ، أي: سُوء عَاقِبَة دَار الدُّنيا، وهي النار، أوْ عذاب النار)).

١٦_ السُّوأى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ كانَ عَاقِبَةَ الذينَ أساؤوا السُّوأى ﴾ [الرُّوم : ١٠] .

الكافرون الذين اقترفوا الذُّنُوبَ والمَعَاصي في الدُّنيا ، مصيرهم في الآخِرة نارُ جهنَّم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٠٦) : ((﴿ ثُمَّ كانَ عَاقِبَةَ الذينَ أساؤوا ﴾ ، أي : عَمِلُوا السَّيئاتِ مِن الشِّرْك والمَعَاصي ﴿ السُّوأى ﴾ ، هي فُعْلَى مِن السُّوء ، تأنيث الأسوأ . وهو الأقبح ، أي : كان عَاقبتهم العُقوبة التي هي أسوأ العُقوبات . وقِيل : هي اسم لجهنَّم ، كما أن الحُسْنَى اسم للجَنَّة)) .

١٧_ لَظَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّهَا لَظَى ﴾ [المَعَارِج : ١٥] .

سُمِّيَت النار لَظَى ، لأن نيرانها تتلظَّى (تلتهب) ، فهي شديدة الاشتعال والتَّوَهُّج . وقِيل : هي الدَّرَكَة الثانية مِن طَبَقَات جهنَّم ، وهي اسم مُؤنَّث معرفة ، فلا ينصرف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦١) : ((﴿ إنَّهَا لَظَى ﴾ . قال الفَرَّاء: هو اسم مِن أسماء جهنَّم، فلذلك لَم يُجْرَ. وقال غَيْرُه: معناها في اللغة اللهب الخالص. وقال ابن الأنباري: سُمِّيَتْ لَظَى لشِدَّة تَوَقُّدها وتلهُّبها. يُقال: هو يتلظَّى، أي يتلهَّب ويتوقَّد، وكذلك النار تتلظَّى، يُراد بها هذا المعنى. وأنشدوا : جحيمًا تَلَظَّى لا تَفْتُرُ ساعةً ... ولا الحَرُّ مِنها غَابِرَ الدَّهْرِ يَبْرُد)).

١٨_ النار

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاتَّقُوا النارَ ﴾ [البقرة : ٢٤] .

فخافوا النارَ المُتأجِّجة المُشتعلة ، وهي عذابُ اللهِ الشديدُ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٢) : ((﴿ فاتَّقُوا النارَ ﴾ ، أي : فآمِنُوا ، واتَّقُوا بالإيمانِ النارَ)) .

١٩_ هَاوِيَة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القَارِعَة : ٩] .

مصيرُه إلى النار (الهاوية) التي يَهْوِي فيها بشِدَّة ، أي يَسْقُط . فقد رَفَضَ أوامرَ الله تعالى ، وأعرضَ عن الإيمان ، واتَّبعَ شَهَوَاتِه وأهواءه بغَير عِلْم ولا حُجَّة . فجاءت العُقوبة جَزاءً وِفَاقًا .

والهاويةُ اسمٌ للنار يدل على عُمقها الشديد ، حيث يَسقُط الكافرون فيها . والعربُ تقول للرَّجل إذا وقع في شِدَّة : هَوَتْ أُمُّه . أي هَلَكَتْ . كما قال الشاعر :

هَوَتْ أُمُّهُ ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيًا ... وماذا يَرُدُّ الليلُ حِينَ يَؤُوبُ

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠٢) : ((قِيل : معناه فهو ساقط هاوٍ بأُمِّ رأسه في نار جهنَّم ، وعَبَّر عنه بأُمِّه يعني دِمَاغَه ، رُوِيَ نَحْو هذا عن ابن عباس وعِكرمة وأبي صالح وقَتادة ، وقال قَتادة : يَهْوِي في النار على رأسه ، وكذا قال أبو صالح : يَهْوُون في النار على رُؤوسهم ،

وقِيل : معناه : فأُمُه التي يَرجِع إلَيها ، ويَصِير في المَعَاد إلَيها هَاوِيَة ، وهي اسم من أسماء النار . قال ابن جرير : وإنَّما قِيل للهَاوِيَة : أُمُّه ، لأنَّه لا مأوى له غَيْرُها ، وقال ابن زَيد : الهَاوِيَة النار ، هي أُمُّه ومأواه التي يَرجِع إلَيها ، ويَأوي إلَيها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، ... ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أُمُّ رأسه هَاوِيَة ، يعني: أنه يَهْوي في النار على رأسه ، هذا قول عِكرمة، وأبي صالح . والثاني أنها كلمة عربية كان الرَّجُل إذا وقع في أمر شديد ، قالوا : هَوَتْ أُمُّه، قاله قَتادة. والثالث أنَّ المعنى ، فمسكنُه النار . وإنَّما قِيل لمسكنه : أُمُّه ، لأن الأصل السُّكون إلى الأُمَّهات. فالنار لهذا كالأُم، إذْ لا مأوى له غَيْرُها ، هذا قول ابن زَيد ، والفَرَّاء ، وابن قُتَيبة ، والزَّجاج)) .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا مات العبدُ المؤمنُ تَلقَى رُوحُه أرواحَ المُؤمنين ، فيقولون له : ما فَعَلَ فُلان ؟ ، فإذا قال : مات ، قالوا : ذُهِبَ به إلى أُمِّه الهَاوِيَة ، فَبِئْسَت الأُمُّ ، وبِئْسَت المُرَبِّيَةُ)) [٣٥٦].

إنَّ مصير المؤمن في الآخرة الجَنَّة ، أمَّا مصير الكافر فالنار المُشتعلة ، وهي أُمُّه الهاوية ، التي يَأوي إلَيها ، ولا مأوى له سِوَاها ، ويَهْوِي فِيها ، وهي عميقة للغاية . إنَّها أسوأ أُم، وأسوأ مُرَبِّيَة .

وفي صحيح مسلم(٤/ ٢١٨٤): عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه_ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ إذْ سَمِعَ وَجْبَةً ، فقال النبيُّ ﷺ : ((تَدْرُونَ ما هذا ؟))، قُلنا: اللهُ ورسولُه أعْلَمُ، قال: ((هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النار مُنذُ سَبعين خريفًا ، فَهُوَ يَهْوي في النار الآن ، حَتَّى انتهى إلى قَعْرِها)) .

الوَجْبَةُ هي السَّقْطَةُ مِن عُلُوٍّ إلى أسفل بصوت مُزعِج.وقد سَمِعَ الصحابةُ هذا الصَّوْتَ المُخيفَ، وبيَّن لهم النبيُّ ﷺ أنَّهُ حَجَر رُمِيَ في النار مُنذُ سبعين سَنَة ، فَهُوَ يَسْقُط في النار الآن ، حتى وَصَلَ إلى نهايتها . وعندما وَقَعَ الحَجَرُ في نِهاية النار ، سَمِعُوا ذلك الصَّوْتَ المُزْعِجَ .

وهذا يُشير إلى معنى الهَاوِيَة التي هي اسم للنار ، فهي شديدة العُمْق ، الأمر الذي أدَّى إلى استغراق الحَجَر لمُدَّة سبعين سنة حتى يصل إلى القَعْر. وعندما تُقَاس المسافة بالزمن (السنوات) فهذا له وَقْعٌ مُؤثِّر في نَفْس السامع ، يَدل على هَوْلِ الموقف . والحديثُ يُوضِّح عِظَمَ خَلْقِ النار ، وعُمق قَعْرِها ، وشِدَّة عذابها ، فهي تتَّسع لجميع الكافرين مِن الإنس والجِن الذين كانوا في الدُّنيا.

---

٣٥٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨١) برقم (٣٩٦٨) ، وقال : ((هذا حديث مُرسَل صحيح الإسناد)) . وقال الذهبي : ((مُرسَل)) .

د ــ الزَّقُّوم

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأثيمِ (٤٤) ﴾ [الدُّخَان] .

إن هذه الشَّجَرَة الخبيثة (شَجَرَة الزَّقُّوم) التي تنبُت في أصل الجحيم ، طعامُ الفاجرِ الكثير الآثام ، لَيس له طعامٌ سِوَاها . والمقصودُ بالأثيم الكافر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٨٢٢): ((﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأثيمِ (٤٤) ﴾ شَجَرَة الزَّقُّوم هي الشَّجَرَة التي خَلَقَها اللهُ في جهنَّم ، وسمَّاها الشَّجَرَة المَلعونة، فإذا جَاع أهلُ النار الْتَجَأوا إليها ، فأكلوا منها)) اهـ . وعن هَمَّام بن الحارث عن أبي الدَّرداء ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قرأ رَجُل عِندَه : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأثيمِ (٤٤) ﴾ ، فقال أبو الدَّرداء : ((قُل : طعامُ الأثيم)) ، فقال الرَّجُل : طعام اليَتِيم ، فقال أبو الدَّرداء : ((قُل : طَعَامُ الفاجر)) [٣٥٧].

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٢٩) : ((ولا حُجَّة في هذا للجُهَّال مِن أهل الزَّيْغ أنَّه يَجوز إبدال الحَرْف مِن القُرآن بغَيره، لأن ذلك إنَّما كان تقريبًا للمُتعلِّم، وتَوطئة منه له للرُّجوع إلى الصَّواب ، واستعمال الحق ، والتكلم بالحرف على إنزال الله ، وحِكاية رسول الله ﷺ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿كالمُهْلِ يَغْلي في البُطُونِ﴾ [الدُّخَان : ٤٥] .

إنَّ شَجَرَة الزَّقُّوم كَعَكَر الزَّيْت في الحرارة والفَظَاعة ، يَغْلي في بُطُون الكافرين .

وقال الصابوني في صفوة التفاسير (١٥/ ٦٦) : ((﴿ كالمُهْلِ يَغْلي في البُطُونِ ﴾ ، أي : هي في شناعتها وفظاعتها ــ يعني شجرة الزَّقُّوم ــ إذا أكلها الإنسانُ ، كالنُّحَاسِ المُذَاب الذي تناهى حَرُّه ، فهو يُجَرْجِر في البَطْن)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ [الدُّخَان: ٤٦] . كَغَلَيَان الماء الشديد الحرارة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٤٩) : ((قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز أن يُحمَل الغَلْي على المُهْل ، لأنَّ المُهْل ذُكِرَ للتَّشبيه في الذَّوْب ، وإنَّما يَغْلي ما شُبِّهَ به ﴿كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ ، وهو الماء الحار إذا اشتد غَلَيَانُه)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٢٩) : ((شجرة الزَّقُّوم : الشَّجَرَة التي خَلَقَها اللهُ في جهنَّم ، وسمَّاها الشَّجَرَةَ المَلعونةَ ، فإذا جاع أهلُ النار التجأوا إلَيها ، فأكلوا مِنها ، فَغَلِيَتْ في بُطونهم ، كما يَغْلي الماءُ الحار ، وشبَّه ما يَصِير مِنها إلى بُطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحَاس المُذاب)) .

---

٣٥٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٩) برقم (٤٦٨٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي صَفوة التفاسير (١٥/ ٦٦) نقلًا عن القرطبي : ((والمُراد بالأثيم الفاجر ذو الإثم ، وهو أبو جَهْل ، وذلك أنَّه كان يقول : يَعِدُنا محمد أن في جهنَّم الزَّقُّوم ، وإنَّما هو الثَّريد بالزُّبْد والتَّمْر ، ثُمَّ يأتي بالزُّبْد والتَّمْر ويقول لأصحابه : تزقَّموا ، سُخريةً واستهزاءً بكلام الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة : ٥٢] .

إنَّ الكافرين في الآخِرة لآكِلُون مِن شَجَر الزَّقُّوم ، الذين يَنبُت في أصل الجحيم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١٨) : ((﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ ﴾ ، أي: لآكِلُون في الآخِرة مِن شَجَر كَرِيه المَنظَر ، كَرِيه الطَّعْم ... . و" مِن " الأُولَى لابتداء الغاية، والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مَزيدة، والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة، والأُولَى للابتداء)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنها البُطُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٣] .

فمالئون مِن شَجَر الزَّقُّوم بُطُونَكم ، بسبب شِدَّة الجُوع .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢١٩) : ((أي : مَالِئون مِن شَجَر الزَّقُّوم بُطُونَكم لِمَا يَلحَقكم مِن شِدَّة الجُوع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحَمِيمِ ﴾ [الواقعة : ٥٤] .

فَشَارِبُون عَلى الزَّقُّوم بعد أكْلِه الماءَ الحار الذي اشتدَّ غَلَيَانُه ، لِغَلَبَة العَطَش .

وقال القرطبي في تفسيره(١٧/ ١٨٤): ((قَوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ ، أي: على الزَّقُّوم أوْ على الأكل ، أوْ على الشَّجَر ، لأنَّه يُذكَّر ويُؤَنَّث ﴿ مِنَ الحَمِيمِ ﴾ ، وهو المَاء المَغْلِي الذي قد اشتدَّ غَلَيَانُه ، وهو صَدِيد أهل النار ، أي: يُورِّثهم حَرُّ مَا يَأكُلون مِن الزَّقُّوم مَعَ الجُوع الشَّديد عَطَشًا ، فيَشرَبون ماءً يَظنُّون أنَّه يُزِيل العَطَشَ ، فيَجدونه حَمِيمًا مُغْلى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ ﴾ [الواقعة : ٥٥] .

فَشَارِبُون شُرْبَ الإبِلِ العِطَاش ، التي لا تُروَى مِن الماء بسبب مَرَض أصابها .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ١٩٦) : ((والمعنى أنَّه يُسلَّط عليهم مِن الجُوع والتهاب النار في أحشائهم ما يَضطرهم إلى أكل الزَّقُّوم الذي هو كالمُهْل ، فإذا مَلَؤُوا مِنه بُطُونَهم، وهو في غاية الحَرَارة والمَرَارة، سُلِّطَ عليهم مِن العَطَش ما يَضطرهم إلى شُرْب الحَمِيم الذي يُقَطِّع أمعاءهم فيَشربون شُرْبَ الهِيم ، وهي الإبل التي بها الهُيَام ، وهو داء يُصيبها ، فتَشرب ، ولا تُروَى)) .

وروى التِّرمذي في سُننه (٤/ ٧٠٦) وصحَّحه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ في دار الدُّنيا ، لأفسدتْ على أهل الدُّنيا مَعَايِشَهُم ، فَكَيْفَ بِمَن يَكُونُ طَعَامَه ؟)) .

لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِن الزَّقُّوم ، وهي شجرة خَبيثة مَلعونة مُرَّة ، كريهة الطَّعْم والرَّائحة ، يُكرَه أهل النار على تناوُلها ، قُطِرَتْ في دار الدُّنيا ، لأفسدت حياةَ الناس بسبب مرارتها وفظاعتها وحرارتها، فكيف يكون حال مَن يَكون الزُّقُّومُ طَعَامَه الذي يتناوله رَغْمَ أنفِه ، عُقوبةً له ؟ .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ : أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمون ﴾)) . قال : ((والذي نَفْسِي بيده ، لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ في بِحَارِ الأرض لَفَسَدَتْ)) [358].

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٠٩) : ((لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم) شَجَرَة خَبيثة مُرَّة، كَريهة الطَّعْم والرِّيح ، ويُكرَه أهل النار على تناوُلها (قُطِرَتْ في دار الدُّنيا لأفسدتْ على أهل الدنيا معايشَهم ، فكيف بمن تكون طَعَامَه ؟) . قال حِين قرأ ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمون ﴾ . قال أبو الدَّرداء : يُلقَى عليهم الجُوع ، حتَّى يَعدِل ما بهم مِن العَذاب ، فيَستغيثون ، فيُغاثون بطعام ذي غُصَّة ، وعذاب أليم . والقصد بهذا الحديث وما أشبهه التَّنبيه على أن أدوية القلوب استحضار أحوال الآخرة ، وأحوال أهل الشَّقاء وديارهم ، فإنَّ النَّفْس مَشغولة بالتفكُّر في لذائذ الدُّنيا ، وقَضَاء الشَّهَوَات ، وما مِن أحد إلا وله في كُل حالة ونَفَس مِن أنفاسه شَهوة سُلِّطَتْ عَلَيه ، واسترقته ، فصار عقله مُسَخَّرًا لشَهوته ، فهو مشغول بتدبير حِيلته ، وصارت لَذَّتُه في طَلَب الحِيلة أوَّلَ مُبَاشَرَة قَضاء الشَّهوة ، فعلاج ذلك أن تقول لقَلْبِك : ما أشدَّ غَبَاوَتَكَ في الاحتراز مِن الفِكْر في المَوت وما بَعْده ، مِن أهوال المَوقِف ، ثُمَّ عذاب جهنَّم ، وطعام أهلها وشرابهم ، فِيما يُورد على فِكره مِثل هذا الحديث ، ويقول : كيف تَصبِر على مُقَاسَاته إذا وَقَعَ ، وأنتَ عاجز عن الصَّبْر على أدنى آلام الدُّنيا ؟)) .

٤_ الخُلود

أ _ الخُلود في النَّعيم

قالَ اللهُ تعالى:﴿ وأمَّا الذينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُم فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُم فِيها خالدون﴾[آل عِمران:١٠٧]

وأمَّا المؤمنون الأبرار (أهلُ الإيمانِ والطاعةِ) الذين ابيضَّت وُجوههم بأعمالهم الصالحة ، فهُم في الجَنَّة خالدون، لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها. ورحمةُ الله جَنَّته ، لأنَّ دُخولها برحمته. والآيةُ تُشير إلى أنَّ المُؤمِن لَوْ قضى عُمُرَه طائعًا لله ، فَلَن يَدخُل الجَنَّةَ إلا برحمته ، وليس بطاعاته.

---

٣٥٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٢) برقم (٣١٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٨٨) : ((﴿ وأمَّا الذينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُم ﴾ مِمَّن ثَبَتَ على عَهْد الله ومِيثاقه ، فَلَم يُبدِّل دِينَه ، ولم يَنقلب على عَقِبَيْه بعد الإقرار بالتَّوحيد والشَّهادة لِرَبِّه بالأُلُوهة ، وأنَّه لا إلهَ غَيْرُه ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ ﴾ ، يقول : فهُم في رحمة الله ، يعني : في جَنَّته ونعيمها،وما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها ﴿ هُم فِيها خالدون﴾ ، أي: باقون فيها أبدًا بغَير نِهاية ولا غَاية)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها ﴾ [النِّساء : ١٣] . ومَن يَلتزم بأحكامِ اللهِ ورسولِه قَولًا وفِعْلًا ، يُدْخِلْه جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحت أشجارها الأنهارُ ، ماكثين فيها إلى الأبد ، لا يَمُوتون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٦٥٦) : ((﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، في قِسْمة المَوَاريث ، وغَيْرِها مِنَ الأحكام الشرعية ،كما يُفيده عُموم اللفظ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٦٣١) : ((فقال لفريق أهل طاعته في ذلك : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، في العمل بما أمره به ، والانتهاء إلى ما حَدَّه له في قِسْمة المَوَاريث وغَيرها ، ويَجْتَنِب ما نهاه عنه في ذلك وغَيره ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ ﴾ . فقَوله: ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ ، يعني : بَسَاتين تَجْري مِن تَحت غُرُوسها وأشجارها الأنهارُ ﴿ خالدينَ فِيها ﴾ ، يقول : باقين فيها أبدًا ، لا يَمُوتون فيها ، ولا يَفْنُون ، ولا يَخرُجون منها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأُدْخِلَ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها بإذْنِ رَبِّهِم ﴾ [إبراهيم : ٢٣] .

وأُدْخِلَ الذينَ أقَرُّوا بوَحدانيةِ الله ، وصدَّقوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، وقاموا بالعبادات ، وفَعَلُوا الطاعات، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحت قُصورها الأنهارُ، ماكثين فيها إلى الأبد بأمر الله وتَوفيقه وهِدايته.

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٣٦): ((يَقُول عَزَّ ذِكْرُه : وأُدْخِلَ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَه، فأقَرُّوا بوَحدانية الله ، وبرسالة رُسُله ، وأنَّ ما جاءت به مِن عِند الله حَق ﴿ وعَمِلُوا الصالحاتِ ﴾ ، يقول : وعَمِلُوا بطاعة الله ، فانتَهَوْا إلى أمر الله ونَهْيِه ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ ﴾ بساتين تَجْري مِن تَحتها الأنهارُ ﴿ خالدينَ فِيها ﴾ ، يقول : ماكثين فيها أبدًا ﴿ بإذْنِ رَبِّهِم ﴾ ، يقول : أُدْخِلُوها بأمر الله لهم بالدُّخُول)) اهـ . وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ٤٣) : ((وفي التَّعَرُّض لوَصْف الرُّبُوبِيَّة معَ الإضافة إلى ضميرهم إظهار مَزِيد مِن اللطف بهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فادْخُلُوها خالدين ﴾ [الزُّمَر : ٧٣] .

وسِيقَ المؤمنون الذين اتَّقَوْا اللهَ في الدُّنيا بالتزام أوامره، واجتناب نَوَاهيه ، إلى الجَنَّة جماعاتٍ جماعاتٍ ، راكبين على النَّجَائب . أي : سَاقَتهم الملائكةُ إلى الجَنَّة بلُطْفٍ وتكريم وتشريف جماعاتٍ وأفواجًا ، على تفاوُت منازلهم ، واختلاف دَرَجَاتهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٤) : ((وهذا إخبار عَن حال السُّعَدَاء المُؤمنين ، حَيث يُسَاقون على النَّجَائِب وَفْدًا إلى الجَنَّة زُمَرًا، أي: جماعة بعد جماعة : المُقرَّبون ثُمَّ الأبرار ثُمَّ الذين يَلُونهم ثُمَّ الذين يَلُونهم، كُل طائفة معَ مَن يُنَاسبهم: الأنبياء والصِّدِّيقون معَ أشكالهم ، والشُّهداء معَ أضرابهم ، والعلماء معَ أقرانهم ، وكُل صِنف معَ صِنف ، كُل زُمْرَة يُنَاسِب بعضُها بعضًا)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٥٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ ، يَعْني مِن الشُّهَداء والزُّهَّاد والعُلَماء والقُرَّاء وغَيرهم ، مِمَّن اتَّقَى اللهَ تعالى ، وعَمِلَ بطاعته . وقال في حق الفريقَيْن : ﴿ وَسِيقَ ﴾ بلفظ واحد ، فَسَوْقُ أهل النار طَرْدهم إلَيها بالخِزْي والهَوَان ، كما يُفعل بالأُسَارى والخارجين على السُّلطان إذا سِيقُوا إلى حَبْس أو قَتْل . وسَوْقُ أهل الجِنَان سَوْق مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان ، لأنَّه لا يُذهَب بهم إلا راكبين ، كما يُفعَل بِمَن يُشرَّف ويُكرَّم مِن الوافدين على بعض المُلوك ، فشتَّان ما بَيْن السُّوقَيْن)) .

﴿ حَتَّى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها ﴾ . حتَّى إذا جاؤوها وأبوابُها مُفتَّحة . أي إنَّ أبواب الجَنَّة فُتحت للمؤمنين قبل مجيئهم غَير مُنتظرين، تعظيمًا وتكريمًا وتشريفًا لهم . وحذفُ جَواب ﴿ إذا ﴾ للدَّلالة على أنَّ لهم مِن النعيم والشَّرَف والكرامة ما لا يُمكن تصوُّره ولا تخيُّله، ولا يُحيط به عقل.

وقال الصاوي في حاشيته (١٣/ ٣٨١) : ((والحِكمةُ في زيادة الواو هُنا ﴿ وفُتِحَتْ ﴾ دُون التي قَبْلَها ـ يعني الآية: ﴿ وَسِيقَ الذينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَرًا حتَّى إذا جاؤوها فُتِحَتْ أبوابُها ﴾ [الزُّمَر : ٧١] ـ أنَّ أبواب السُّجُون تكون مُغلَقة إلى أن يَجيئها أصحابُ الجرائم ، فتُفتَح لهم ، ثُمَّ تُغلَق عليهم ، بخِلاف أبواب السُّرور والفَرَح ، فإنَّها تُفتَح انتظارًا لِمَن يَدخُلها ، فناسبَ دُخول الواو هُنا دُون التي قَبْلها)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٤) : ((﴿ حَتَّى إذا جاؤوها ﴾ أي : وَصَلُوا إلى أبواب الجَنَّة بَعد مُجَاوَزة الصِّراط ، حُبِسُوا على قَنطَرة بَيْن الجَنَّة والنار ، فاقتصَّ لهم مظالم كانت بينهم في الدُّنيا ، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ، أُذِنَ لهم في دُخول الجَنَّة . وقد ورد في حديث الصُّور أنَّ المُؤمنين إذا انتَهَوْا إلى أبواب الجَنَّة ، تَشَاوَرُوا فِيمَن يَستأذن لهم في الدُّخول ، فيَقصِدون آدم ، ثُمَّ نُوحًا ، ثُمَّ إبراهيم ، ثُمَّ مُوسى ، ثُمَّ عِيسَى ، ثُمَّ مُحَمَّدًا ،صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ ، وعَلَيهم أجمعين)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٨٨) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((أنَّا أوَّلُ شَفِيعٍ في الجَنَّة)) . وفي صحيح مسلم (١/ ١٨٨) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، وأنا أوَّلُ مَن يَقْرَعُ بابَ الجَنَّة)) .

هذا يدل على عُلُوّ مكانة النبيِّ ﷺ ، وأنَّه أفضلُ الأنبياء والمُرسَلين ، وسَيِّدُهم المُقدَّم عليهم.

وقال المُناوي في فيض القدير (٣/ ٣٩) : (((وأنا أوَّلُ مَن يَقْرَعُ بابَ الجَنَّة) أي : يَطرُقه للاستفتاح ، فيُفتَح له ، فيكون أوَّلَ داخل كما سَبَق . والقَرْع بالسُّكُون الطَّرْق ، يُقَال : طَرَقْتُ البابَ ، بمعنى طَرَقْتُه ، ونَقَرْتُ عَلَيه)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٨٨) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((آتِي بابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيامةِ، فأَسْتَفْتِحُ ، فيقولُ الخازنُ: مَن أنتَ ؟ ، فأقول : مُحمَّد ، فيَقول : بِكَ أُمِرْتُ ، لا أفتحُ لأحدٍ قَبْلَكَ)) .

إنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أوَّلُ مَن يَدخُل الجَنَّة ، ولا أحد يَدخُلها قَبْلَه ، وهذا يدل على شرفه العظيم ، ومنزلته الرفيعة ، وفضله العظيم ، وأنَّه أعظم الأنبياء والرُّسُل ، وسيِّد المَخلوقات .

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((أوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ ، صُورتهم على صُورة القمر لَيلَةَ البَدْر ، لا يَبْصُقُونَ فِيها ، ولا يَمْتَخِطُون ، ولا يَتَغَوَّطُون، آنِيَتُهُم فِيها الذَّهَبُ، أمْشَاطُهُم مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، ومَجَامِرُهُم الأَلُوَّةُ ، ورَشْحُهم المِسْكُ ، ولِكُلِّ واحدٍ مِنهُم زَوجتان ، يُرَى مُخُّ سُوقِهما مِن وَراءِ اللحم مِنَ الحُسْن ، ولا اختلافَ بينهم ، ولا تباغُض ، قُلُوبُهُم قَلْبُ رَجُلٍ واحدٍ ، يُسبِّحون اللهَ بُكْرَةً وعَشِيًّا)) [٣٥٩] .

أوَّل جماعة تَدخل الجَنَّةَ ، كالقَمَر لَيلة البَدْر (لَيلة الرابع عشر) ، حيث تكمُل استدارته، ويتم نورُه ، ويَكون أكثرَ إشراقًا وإضاءةً ، لا يَبصُقون في الجَنَّة ، ولا يَمتخطون ، ولا يتغوَّطون، لأنَّ الله طهَّر الجَنَّةَ مِن القاذورات والأوساخ. أوانيهم في الجَنَّةِ الذهبُ، أمشاطهم مِن الذهب والفِضَّة . وَقُود مجامرهم الأَلُوَّةُ ، أي إنَّ بَخُورَهم الذي تتَّقد به مجامرهم هو العود الهِندي ، وهو أطْيَب الطِّيب ، وأزكى البَخُور . وعَرَقُهم كالمِسْك في طِيب رِيحه . ولكل واحد مِنهُم زَوجتان مِن الحُور العِين،في غاية الجَمَال والبَهَاء . يُرَى مُخُّ ساق كُل زوجة مِن وراء اللحم مِن الحُسْن ، وهذا يدل على صفاء جسدها ، ورِقَّة بَشَرَتها ، فهي جِسم شَفَّاف يَكشِف عمَّا بداخله . ونُفُوسُهم صافية نَقِيَّة خالية مِن الحِقْد والعداوة والكُره ، وعامرة بالحُب والمَوَدَّة ، وهُم مُجتمعون مُتَّفقون ، كأنَّ قُلوبهم

---

٣٥٩ متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٨٥) برقم (٣٠٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨) برقم (٢٨٣٤) .

قَلْبُ رَجُلٍ واحد . يُسبِّحون اللهَ في كُل وقت وحِين ، فلا بُكرة في الجَنَّة ولا عَشِيَّة ، وهذا التَّسبيح يُلهَمونه كما يُلهَمون النَّفَس ، ولَيس عَن تَكليف . ففي الجَنَّة لا تُوجد تكاليف شرعية .

﴿ وقالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فادْخُلُوها خالدين ﴾ . وقال لهم خَزَنَةُ الجَنَّة : سلام عليكم أيها المُتَّقون الأبرار ، أوْ سلام لكم مِن كُل آفة ومَكروه ، طِبْتُم بطاعة اللهِ والعملِ الصالح ، وطابت أقوالُكم وأفعالُكم ، وطُهِّرْتُم في الدُّنيا ، فلم تتدنَّسوا بالذُّنوب والمعاصي والكُفْر ، فادخلوا الجَنَّةَ دار الخُلُود ، ماكثين فيها أبدًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٤) : ((﴿ حَتَّى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فادْخُلُوها خالدين ﴾ ، لَم يَذكُر الجوابَ هَهُنا ، وتقديره: حتَّى إذا جاؤوها وكانت هذه الأمور مِن فَتْح الأبواب لهم ، إكرامًا وتعظيمًا ، وتَلَقَّتْهُم المَلائكةُ الخَزَنَةُ بالبِشارة والسَّلام والثناء ، لا كما تَلْقَى الزَّبَانِيَةُ الكَفَرَةَ بالتثريب والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا ، سُعِدوا وطابوا وسُرُّوا وفَرِحُوا بقَدْر كُل ما يكون لهم فيه نَعيم ، وإذا حُذِفَ الجواب هَهُنا ذهب الذهنُ كُلَّ مَذهَب في الرجاء والأمل ، ومَن زعم أن الواو في قَوله تبارك وتعالى: ﴿وفُتِحَتْ أبوابُها ﴾ واو الثمانية ، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية ، فقد أبعدَ النُّجْعَة ، وأغرقَ في النَّزْع ، وإنَّما يُستفاد كَوْن أبواب الجَنَّة ثمانية مِن الأحاديث الصحيحة)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٨٨) : عن سَهْلِ بن سَعْد _ رضي اللهُ عنه _ : عن النبيِّ ﷺ قال : ((في الجَنَّةِ ثمانيةُ أبواب)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٣٦١) : (((الجَنَّة لها ثمانية أبواب [٣٦٠] ، والنار لها سبعة أبواب [٣٦١]، إنَّما كانت أبواب الجنة ثمانية لأن مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله ، وكذلك المِفتاح ثمانية أسنان : الصَّلاة ، والصِّيام ، والزكاة ، والحَج ، والجِهاد ، والأمر بالمَعروف ، والنَّهْي عن المُنكَر ، والبِر والصِّلَة ، فلِكَوْن أنواع الأعمال ثمانية ، جُعلت أبوابها ثمانية . وإنَّما كانت أبواب النار سبعة لأن الأديان سبعة : واحد للرَّحمن ، وسِتَّة للشَّيطان ، فالتي للشَّيطان

٣٦٠بعضها مختص بجماعة لا يَدخُل مِنه غَيْرُهُم كالرَّيَّان للصائمين ، وباب الضُّحى للمُلازِمين على صَلاتها ، وبعضها مُشتَرَك .

٣٦١ يَدخُلون مِنها، أو طَبَقَات يَنزلونها بحَسَب مراتبهم ، وهي جَهَنَّم ، ثُمَّ لَظَى ، ثُمَّ الحُطَمَة ، ثُمَّ السَّعِير، ثُمَّ سَقَر ، ثُمَّ الجحِيم ، ثُمَّ الهاوية .

اليهودية ، والنَّصرانية ، والمَجوسية ، والوثنية ، والدَّهْرية ، والإبراهيمية ، والصِّنف السابع أهل التَّوحيد كالخوارج والمُبْتَدِعة والظَّلَمَة والمُصِرِّين على الكبائر ، فهؤلاء كُلُّهم صِنف ، فوافقَ عِدَّةُ الأبواب عِدَّةَ الأصناف ، ذَكَرَه السُّهَيلي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِم وبأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

يَوم تَرى المؤمنين والمؤمناتِ يَوْمَ القِيامة ، يُضيء لهم نُورُ عملهم على الصِّراط بحَسَب أعمالهم . وهذا يدلُّ على نجاتهم وهِدايتهم إلى الجَنَّة . وتَخصيص ما بَين الأيدي والأيمان بالذِّكْر لأنَّ المؤمنين السُّعَداء يُؤْتَوْنَ صحائف أعمالهم مِن هاتَيْن الجهتَيْن ، أمَّا الكُفَّار الأشقياء فَيُؤْتَوْنَ صحائف أعمالهم مِن شَمائلهم ووراء ظُهورهم . وتُبَشِّر المَلائكةُ المؤمنين بدُخول جَنَّات الخُلْد والنعيم، تَجْري مِن تَحت قُصورها أنهارُ الجَنَّة، ماكثين فيها إلى الأبد، لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها. ذلك الفَوز الذي لا فَوز بَعْدَه ، ولا شَيْء يَعْدِله ، لأنَّه قَادَ المؤمنين إلى السعادة الأبدية .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٤) : ((﴿ يَوْمَ تَرى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى نُورُهُم ﴾ يعني على الصِّرَاط ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِم وبأَيْمَانِهِم ﴾ يعني : عن أيمانهم . قال بعضهم : أراد جميعَ جوانبهم، فعبَّر بالبَعْض عَن الكُل، وذلك دليلهم إلى الجَنَّة. وقال قَتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: " إنَّ مِنَ المُؤمنين مَن يُضيء نُورُه مِن المدينة إلى عَدَنِ أَبْيَنَ وصَنعاء ، ودُون ذلك ، حَتَّى إنَّ مِنَ المؤمنين مَن لا يُضيء نُورُه إلا مَوْضِعَ قَدَمَيه " . وقال عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عنهما : يُؤْتَوْنَ نُورَهم على قَدْر أعمالهم، فمِنهُم مَن يُؤْتَى نُورَه كالنَّخْلَة، ومِنهُم مَن يُؤْتَى نُورَه كالرَّجُل القائم ، وأدناهم نُورًا مَن نُوره أعلى إبهامه، فيُطفأ مَرَّةً ، ويَقِد مَرَّةً . وقال الضَّحاك ومُقاتل: يَسعى نُورُهم بين أيديهم، وبأيمانهم كُتُبُهم.يُريد أنَّ كُتبهم التي أُعْطُوها بأيمانهم،ونُورهم بَيْن أيديهم،وتَقول لهم المَلائكةُ: ﴿بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن باللهِ ويَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فِيها أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [الطَّلاق : ١١] .

ومَن يُصدِّق بوَحدانية الله وأُلوهيته ورُبوبيته ، ويَفعل الطاعات ، يُدخِله في الآخرة جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحت قُصورها أنهارُ الجَنَّة، ماكثين فيها أبدًا، لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها. قد طَيَّب اللهُ رِزْقَهم في الجَنَّة ، ووسَّعه عليهم ، لأنَّ نعيمها دائم لا ينقطع . وفيه تَعجيب وتعظيم لِمَا رُزِقُوا مِن الثواب العظيم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٤٤) : ((وقَوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِن باللهِ ويَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ، يقول: ومَن يُصدِّق بالله ، ويعمل بطاعته ، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ ﴾ ، يقول : يُدْخِلْه بساتين تَجْري مِن تحت أشجارها الأنهارُ ﴿ خالدينَ فِيها أبدًا ﴾ ، يقول : مَاكثين مُقيمين في البساتين التي تَجْري مِن تحتها الأنهارُ أبدًا ، لا يَمُوتون ، ولا يَخرُجون مِنها أبدًا . وقَوله : ﴿ قَدْ أحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ ، يقول : قد وسَّع اللهُ له في الجَنَّات رِزْقًا ، يعني بالرِّزْق : ما رَزَقَه فِيها مِن المَطَاعِم والمَشَارِب ، وسائر ما أعدَّ لأوليائه فِيها، فَطَيَّبه لهم)) .

ب_ الخُلود في العَذاب

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُّنيا والآخرةِ وأُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خَالِدُون ﴾[البقرة : ٢١٧] .

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمُسلمين ، وتهديدٌ لهم ، كَي يَتَمَسَّكُوا بالإسلام ، ويَثْبُتُوا عَلَيه .

ومَن يَرجع مِنكم عن الإسلام إلى الكفر، فَيَمُت على الرِّدة، فأُولئك بَطَلَتْ وفَسَدَتْ حسناتهم وأعمالهم النافعة وأفعالهم الصالحة في الدُّنيا والآخِرة . والمقصود هو ذَهَاب ثواب أعمالهم ، وبُطول أجرها . وهُم يَخسَرون مَرَّتَيْن ، ففي الدُّنيا يَخسَرون سُمعتهم وشرفهم ومكانتهم الاجتماعية ومنافعهم المعنوية ومكاسبهم المادية ، ولا يَستفيدون مِن ثمرات الإسلام التي تعود على المسلمين معنويًّا وماديًّا . وفي الآخرة ، لا ثواب لهم ولا أجر ، وهُم خالدون في عذاب النار ، لا يَخرُجون مِنها ، فهُم أصحاب النار وسُكَّانها والمقيمون فِيها إلى ما لا نهاية . ولا تُوجد أيَّة فُرصة للتَّعويض .

والتَّقييد بِ : ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ يدل على أن أعمال المُرتد إنما تَفْسُد وتَبْطُل إذا ماتَ على الكفر . أمَّا إذا رجع إلى الإسلام لَم يَبطُل عملُه ، ويُؤجَر عليه ، كالحج مَثَلًا ، ولا يُعيده .

والمُرتدُّ يُستتاب ، فإن تابَ ، ورَجَعَ إلى الإسلام ، لا شَيء عليه . وإذا أصرَّ على الرِّدة ، يُقام عليه حَد الرِّدة ، وهو القَتل . وقد اختلفَ العلماء في الرِّدة ، هل تُفسِد العملَ وتُحبِطه بِمُجرَّدها أم لا تُحبِط العملَ إلا بالموت على الكفر ؟ . وينبغي حَمْلَ ما أطْلَقَتْهُ الآيات في غَير هذا الموضع على ما في هذه الآية من التَّقييد ، والمُطْلَق يُحمَل على المُقَيَّد .

والحَبَطُ هو أن تأكل الدَّابَّة ، فتُكْثِر مِن الأكل ، حَتى ينتفخ لذلك بَطْنُها ، وتَمرَض أو تموت.

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٢١٧) : ((﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ ﴾ تحذير مِن الارتداد، أي: ومَن يَفعل ذلك ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ بأن لَم يَرجع إلى الإسلام . وفيه ترغيب في الرُّجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ، ﴿ فأُولئكَ ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بِما في حيِّز

الصِّلة من الارتداد والمَوت عليه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد مَنْزلتهم في الشَّر والفساد ، والجمع للنظر إلى المعنى ، أي: أُولئك المُصِرُّون على الارتداد إلى حين الموت ﴿ حَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾ الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام حُبُوطًا لا تلافي له قَطْعًا ﴿ في الدُّنيا والآخرةِ ﴾ بحيث لَم يَبْقَ لها حُكم مِن الأحكام الدُّنيوية والأُخْرَوِيَّة ، ﴿ وأُولئكَ ﴾ المَوصُوفون بِما ذُكِرَ سابقًا ولاحقًا مِن القبائح ﴿ أصحابُ النارِ ﴾ أي:مُلابسوها ومُلازموها ﴿ هُم فِيها خَالِدُون ﴾)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالدون ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وأمَّا الكافرون فنُصراؤهم الشَّياطين ، يتلاعبون بهم ، ويُوَسْوِسُون لهم ، ويُزيِّنون لهم الذُّنُوبَ والمَعَاصي والمُوبِقات ، ويَعِدُونهم بالوُعود الكاذبة ، ويُمَنُّونهم بالأماني الباطلة ، ويُخرِجونهم مِن نُور الإيمان إلى ظُلُمَات الكُفر . أُولئك أهل النار ، ماكثون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها أبدًا .

والجديرُ بالذِّكر أن لفظة ﴿ النُّورِ ﴾ جاءت بالمُفرَد ، و ﴿ الظُّلُماتِ ﴾ بالجَمْع، لأن الحق واحد لا يتعدَّد ، أمَّا الكفر فأجناس كثيرة ، ومذاهب شَتَّى ، وأنواع مُتعدِّدة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٨) : ((﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ ﴾ ، أي : الشياطين أو المُضِلَّات مِنَ الهَوى والشَّيطان وغَيرهما . ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ ﴾ ، مِن النُّور الذي مُنِحوه بالفِطْرة إلى الكُفر ، وفساد الاستعداد ، والانهماك في الشَّهَوَات ، أو مِن نور البَيِّنات إلى ظُلُمات الشُّكوك والشُّبَهات.وقِيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام. وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التَّسَبُّب ، لا يأبى تعلُّق قُدرته تعالى وإرادته بها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٦ و٣٠٧): ((والظُّلُمَاتُ الضَّلالة ، والنُّورُ الهُدى. والطاغوت الشياطين هُنا ، قَول ابن عباس وعِكرمة في آخرين . وقال مقاتل : الذين كفروا هُم اليهود، والطاغوت كَعْب بن الأشرف. قال الزَّجاج : والطاغوت هاهُنا واحد في معنى جماعة ، وهذا جائز في اللغة إذا كان في الكلام دليل على الجماعة ... . فإن قِيل : متى كان المؤمنون في ظُلمة ؟، ومتى كان الكفار في نُور ؟ ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أن عِصمة الله للمؤمنين عن مُواقَعة الضَّلال إخراج لهم مِن ظلام الكُفر ، وتزيين قُرناء الكفار لهم الباطل الذي يَحيدون به عن الهُدى إخراج لهم مِن نُور الهدى . والإخراج مُستعار هاهُنا . وقد يُقال للمُمْتَنِع من الشيء خَرَجَ مِنه ، وإن لَم يكن دَخَلَ فيه ... . والثاني أن إيمان أهل الكِتاب بالنبيِّ قبل أن يَظهَر، نُورٌ لهم ، وكُفرهم به بعد أن ظَهَرَ خُروج إلى الظُّلُمات. والثالث أنه لَمَّا ظَهرت مُعجزات رسول الله ﷺ ، كان

المُخَالِف له خارجًا مِن نُور قد عَلِمَه ، والمُوافِق له خارجًا مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلْم)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ :ــ ﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ ﴾ . قال : ((هُم قَوم آمنوا بعيسى ، فلمَّا بُعث مُحمَّد كفروا به)) [٣٦٢].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نارًا خَالِدًا فِيها وَلَهُ عَذَابٌ مُهِين ﴾ [النِّساء : ١٤] . وَمَن يَعْصِ أمرَ اللهِ وأمرَ رسوله ﷺ ، ويتجاوز ما بَيَّنه اللهُ من الطاعات والأحكام والشرائع استحلالًا أو استهانةً ، يَجعله خالدًا مُخَلَّدًا في عذاب النار الهائل ، ولا يَخرُج مِنها أبدًا ، وله عذاب شديد يُخزيه ويُهينه ويُذِلُّه ، وعذابُه المُهين لِهَوَانه عند الله تعالى .

ومعصيةُ اللهِ ورسولِه ، إذا تَمَّ استحلالُها (اعتبارها حلالًا) ، أو اشتملت على الاستهانة بالله ورسوله ، فهي كُفر صريح ، وصاحبها خالد في عذاب النار ، لا يَخرُج مِنها أبدًا .

أمَّا إنْ كانت معصية الله ورسوله بدافع الشَّهوة أو الضَّعْف الإنساني ، فهي من الكبائر ، وصاحبها لا يَخلُد في النار . وبالتالي يكون المقصود بالخلود في الآية هو طُول مُدَّة العذاب . وهذا يُشير إلى تهويل أمر العذاب وتعظيمه ، وبيان شِدَّته ، وكأنه بلا نهاية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٣) : ((فإنْ قِيل : كيف قطع للعاصي بالخُلود ؟ . فالجواب أنَّه إذا رَدَّ حُكْمَ الله ، وكَفَرَ به ، كان كافرًا مُخَلَّدًا في النار)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ٢١٠) : ((ولا تعلُّق للمُعتزلة بالآية ، فإنَّها في حَق الكفار ، إذ الكافر هو الذي تعدَّى الحُدُودَ كُلَّها ، وأمَّا المؤمن العاصي فهو مُطيع بالإيمان ، غَير مُتَعَدٍّ حَد التَّوحيد ، ولهذا فسَّر الضَّحاك المَعصية هُنا بالشِّرْك)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿والذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالدون﴾ [الأعراف: ٣٦] . والذين جَحدوا آياتِ الله ، وكذَّبوا بأدلته وحُجَجه ، وأنكروا مُعجِزاته ، ولَم يُصدِّقوا بها، ورَفضوا اتِّباع الرُّسُل، وتكبَّروا على الإيمان بآيات اللهِ والعملِ بِها، وتَعَظَّمُوا عَن الخُضوع للوَحْي والنُّبُوَّة، أولئك خالدون في عذاب جهنم، لا يَخرُجون مِنها أبدًا، لأنهم اختاروا الكُفرَ على الإيمان . و﴿أُولئكَ﴾ اسم إشارة للبعيد ، يدل على بُعدهم في الكُفر والضَّلال ، ويُشير إلى سُوء حالهم في العذاب الأبديّ .

---

٣٦٢ رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٨٢). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٣): ((فيه أبو بلال الأشعري ، وهو ضعيف)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((﴿والذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ تكبَّروا على الإيمان بها. وإنما ذكر الاستكبار لأن كُل مُكذِّب وكافر مُتكبِّر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ ورَسُولَهُ فأنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيها ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ ﴾ [التَّوبة : ٦٣] .

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع . أَلَمْ يَعْلَمْ هؤلاء المُنافقون أنَّ مَن يُحارب اللهَ ورسولَه ، ويُعارض أوامرَهما، فأنَّ له في الآخرة عذابَ النار الشديد، باقيًا فيها إلى الأبد، لا يَمُوت فِيها، ولا يَخرُج مِنها. ذلك الذُّل العظيم والهَوَان الكبير والشَّقاء الأبدي والفضيحة الكبرى أمام الناس يوم القيامة .

والإشارة بالبعيد ﴿ ذَلِكَ ﴾ ، للدَّلالة على أنَّه في غاية الفظاعة والسُّوءِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٢) : ((﴿ مَن يُحَادِدِ اللهَ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما مَن يُخَالِف اللهَ ، قاله ابن عباس . والثاني مَن يُعادي اللهَ ، كقَولك : مَن يُجَانِب اللهَ ورسولَه ، أي: يكون في حَد ، واللهُ ورسولُه في حَد)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ المُنافقينَ والمُنافِقَاتِ والكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالدينَ فِيها ﴾[التَّوبة : ٦٨]. وَعَدَ اللهُ المُنافقين والمُنافقات ، الذين يُظهِرون الإيمانَ ، ويُبطِنون الكُفْرَ ، والكُفَّارَ المُجاهرين بالكُفر، عذابَ النار الشديد، باقين فيها إلى الأبد، لا يَمُوتون فيها، ولا يَخرُجون مِنها .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٨٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المُنافقينَ ﴾ ، يُقَال : وَعَدَ اللهُ بالخَير وَعْدًا ، وَوَعَدَ بالشَّر وَعِيدًا . ﴿ خالدينَ ﴾ نَصْب على الحال ، والعامل مَحذوف ، أي : يَصْلَوْنَهَا خَالِدِين)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ للذينَ ظَلموا ذُوقوا عَذابَ الخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا بِمَا كُنتم تَكْسِبُون ﴾ [يُونُس : ٥٢] . ثُمَّ تَقول خَزَنَةُ جهنَّم للذينَ ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، توبيخًا لهم: ذُوقُوا عذابَ النار الدائم الذي لا ينقطع ، هَل تُجْزَوْنَ إلا جزاء كُفركم وضلالكم وتكذيبكم؟. والاستفهامُ للتَّقرير .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٦٦) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ثُمَّ قِيلَ للذينَ ظَلموا ﴾ أنفُسَهم بكُفرهم بالله : ﴿ ذُوقوا عَذابَ الخُلْدِ ﴾ ، تَجَرَّعُوا عذابَ اللهِ الدائمَ لكم أبدًا الذي لا فَنَاء له ، ولا زوال، ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا بِمَا كُنتم تَكْسِبُون ﴾ ، يقول : يُقَال لهم : فانظُروا هَل تُجْزَوْنَ ، أي : هَل تُثَابُون ﴿ إلا بِمَا كُنتم تَكْسِبُون ﴾ ، يقول: إلا بما كُنتُم تَعْمَلُون في حَيَاتكم قَبل مَمَاتكم مِن مَعَاصي الله ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ المُجْرِمِينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ [الزُّخْرُف : ٧٤] .

إنَّ الكافرين الغارقين في الإجرام ، الذين ارتكبوا في الدُّنيا الجرائمَ والذُّنُوبَ والمعاصي ، في عذاب جهنَّم الشديد ، ماكثون فيه إلى الأبد . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢١٢) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ إنَّ المُجْرِمِينَ ﴾ ، وهُم الذين اجْتَرَمُوا (كَسَبُوا) في الدُّنيا الكُفْرَ بالله ، فاجترموا به في الآخِرة ﴿ في عَذابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ ، يقول: هُم فيه ماكثون)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشركينَ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ [البَيِّنة : ٦] .

إن الذينَ كذَّبوا بالقُرآن (الوَحْي السَّماويّ) ، وجَحدوا نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ مِن اليهود والنصارى والمُشركين عَبَدَة الأصنام والأوثان ، في نار جهنَّم ، ماكثين فيها إلى الأبد ، بلا خُروج ولا مَوْت ، أُولئك هُم شَر الخَلْق على الإطلاق ، ولا يُوجد أسوأ مِنهم .

وهذا مصيرُ المُكذِّبين بالوَحْي والنُّبُوَّة . ومَن كَذَّبَ القُرآنَ ، فقد كَذَّبَ الكُتبَ السماوية جميعها ، ومَن كَفَرَ بمُحمَّد ﷺ فقد كفرَ بجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، حتى لَو زعم غَير ذلك. و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد . وهو يدل على بُعد مَنْزلة الكافرين في الضَّلال والشَّر ، فهُم البَعيدون المَطرودون مِن رحمة الله تعالى . وهُم أسوأ الخليقة أعمالًا . لقد وصلوا إلى قاع الكُفر ، الذي لا قاع بعده .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٦) : ((﴿ إنَّ الذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ والمشركينَ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها ﴾ . أي : يوم القيامة ، أو في الحال لِمُلابستهم ما يُوجب ذلك، واشتراك الفريقين في جِنس العذاب لا يُوجِب اشتراكهما في نَوْعه، فلعله يختلف لتفاوت كفرهما . ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ أي : الخليقة)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣١/ ٤٩) : ((فإن قيل : لِمَ ذكر ﴿ كَفروا ﴾ بلفظ الفِعْل ، ﴿ والمُشركينَ ﴾ باسم الفاعل ؟ . فالجواب تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مُصدِّقين بالتَّوراة والإنجيل ، ومُقِرِّين بمَبعَث مُحمَّد ﷺ ، ثم إنَّهم كفروا بذلك بعد مَبعَثه عليه السلام ، بخِلاف المشركين ، فإنَّهم وُلِدُوا على عِبادة الأوثان ، وإنكار الحَشْر والقِيامة ، وقَوله : ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ ، لإفادة الحصر ، أي : شَر مِن السُّرَّاق ، لأنهم سرقوا مِن كتاب الله صِفةَ مُحمَّد ﷺ ، وشَر من قُطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريقَ الحق على الخَلْق)) .

٥_ الأعراف

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وعلى الأعرافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُم وَنَادَوْا أصحابَ الجَنَّةِ أن سَلامٌ عَلَيْكُم لَمْ يَدْخُلُوها وهُم يَطْمَعُون ﴾ [الأعراف : ٤٦] .

الأعرافُ _ لُغةً _ جَمْع عُرْف ، وهو كُل مُرْتَفَع مِنَ الأرض . أمَّا في الاصطلاح ، فالأعرافُ هو السُّور الكائن بين الجَنَّة والنار . على الأعرافِ رِجَالٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهم وسَيِّئَاتُهم ، يَعرِفون كُلًّا مِن أهل الجَنَّة والنار بعلامتهم ، وهي بَيَاض وُجوه المؤمنين ، وسَوَاد وُجوه الكافرين ، لأنَّهم يَرَوْنَ الفريقَيْن مِن مكان مُرتفع. لَم يَدخُل أهلُ الأعرافِ الجَنَّةَ، وهُم يَطْمَعُون في دُخولها،ويَرغَبُون بذلك.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٠٤و٢٠٥و٢٠٦) : ((قال ابن عباس : الأعرافُ هو السُّور الذي بَين الجَنَّة والنار ، له عُرْف كَعُرْفِ الدِّيك . وقال أبو هريرة : الأعرافُ جِبَال بَين الجَنَّة والنار ، فهُم على أعرافها ، يعني على ذُراها ، خِلْقتها كخِلْقة عُرْف الدِّيك . قال اللغويون : الأعراف عِند العرب كُل ما ارتفع مِن الأرض وعلا . يُقال لكُل عالٍ عُرْف ، وجَمْعه أعراف . وفي أصحاب الأعراف قَولان : أحدهما أنَّهُم مِن بني آدم ، قاله الجمهور . وزعم مُقاتل أنَّهم مِن أُمَّة مُحمَّد ﷺ خاصَّة. وفي أعمالهم تِسعة أقوال : أحدها أنَّهُم قوم قُتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمَنَعَهم مِن دُخول الجنة معصيةُ آبائهم، ومَنَعَهم مِن دُخول النار قَتْلهم في سبيل الله ، وهذا مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ . والثاني أنَّهُم قَوم تساوت حسناتُهم وسيئاتُهم ، فلم تَبلُغ حسناتُهم دُخولَ الجَنَّة ، ولا سَيِّئاتهم دخول النار ، قاله ابن مسعود وحُذَيفة وابن عباس وأبو هريرة والشَّعبي وقَتادة . والثالث أنَّهُم أولاد الزِّنا ، رواه صالح مَولى التوأمة عن ابن عباس . والرابع أنَّهم قوم صالحون فقهاء علماء ، قاله الحسن ومجاهد ، فعلى هذا يكون لُبْثُهم على الأعراف على سبيل النُّزهة . والخامس أنَّهُم قَوم رَضِيَ عنهم آباؤهم دُون أُمَّهاتهم ، أوْ أُمَّهاتهم دُون آبائهم ، رواه عبد الوَهَّاب ابن مجاهد عن إبراهيم . والسادس أنهم الذين ماتوا في الفَتْرة ، ولم يُبَدِّلُوا دِينَهم ، قاله عبد العزيز ابن يحيى . والسابع أنَّهُم أنبياء ، حكاه ابن الأنباري. والثامن أنهم أولاد المُشركين،ذَكَرَه المنجوفي في تفسيره . والتاسع أنَّهُم قَوم عَمِلُوا لله ، لكنَّهم راؤوا في عملهم،ذَكَرَه بعضُ العلماء . والقَول الثاني أنَّهم ملائكة ، قاله أبو مِجْلَز ، واعْتُرِضَ عَلَيه ، فقِيل: إنَّهم رِجال ، فكيف تقول : ملائكة ؟. فقال إنَّهُم ذُكُور ، ولَيسوا بإناث . وقِيل : معنى قَوله : ﴿ وعلى الأعرافِ رِجَالٌ ﴾ أي على معرفة أهل الجنة من أهل النار ، ذَكَرَه الزَّجاج وابن الأنباري ، وفيه بُعْد ، وخِلاف للمُفسِّرين. قَوله تعالى:

﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُم ﴾ أي يعرف أصحابُ الأعراف أهلَ الجنة وأهلَ النار ، وسِيمَا أهل الجنة بَياض الوُجوه ، وسِيمَا أهل النار سَوَاد الوُجوه وزُرقة العُيون . والسِّيمَا العلامة ، وإنَّما عَرفوا الناسَ لأنهم على مكان عالٍ ، يُشرِفون فيه على أهل الجنة والنار . ﴿ وَنَادَوْا ﴾ يعني : أصحاب الأعراف ﴿ أصحابَ الجَنَّةِ أن سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ . وفي قَوله : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوها وهُم يَطْمَعُون ﴾ قَولان : أحدهما أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يَدخلوا الجنة ، وهُم يَطمَعون في دُخولها ، قاله الجمهور . والثاني أنَّه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رَأَوْا زُمْرَةً يُذهَب بها إلى الجَنَّة أن هؤلاء لَم يَدخُلوها ، وهُم يَطمَعون في دُخولها ، هذا قول السُّدي)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبْصَارُهُم تِلْقَاءَ أصحابِ النارِ قالوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [الأعراف : ٤٧] . وإذا صُرِفَت أبصارُ أصحاب الأعراف جِهة الكافرين الخالدين في النار ، قالوا : رَبَّنا لا تجعلنا مع الكافرين الذين ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٩١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبْصَارُهُم تِلْقَاءَ أصحابِ النارِ ﴾ ، أي : جِهَة اللقاء ، وهي جِهَة المُقَابَلَة ... ﴿ قالوا ﴾ ، أي : قال أصحابُ الأعراف : ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، سَألوا اللهَ ألا يَجعلهم مَعَهُم ، وقد عَلِمُوا أنَّه لا يَجعلهم مَعَهُم، فهذا على سبيل التَّذَلُّل)) .

وعن حُذَيفة _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((أصحابُ الأعرافِ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِم حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ، وَقَصُرَتْ بِهِم سَيِّئَاتُهُم عَن الجَنَّةِ ، فَإذَا صُرِفَتْ أبصارُهُم تِلْقَاءَ أصحابِ النَّارِ ، قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِين . فَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ إذِ اطَّلَعَ عَلَيهِم رَبُّكَ . قَالَ : قُومُوا ادْخُلُوا الجَنَّةَ ، فَإنِّي قَد غَفَرْتُ لَكُم)) [٣٦٣]. هذا يُشير إلى فضل الله على المؤمنين ، وتكرُّمه عَلَيهم ، وإحسانه إلَيهم . وأصحابُ الأعراف مَصيرهم إلى الجَنَّة . وفي فتح الباري (١١/ ٤٤٨) : ((قال ابن العربي : لَم يَزَل اللهُ مُطَّلِعًا على خَلْقِه ، وإنَّما المُراد إعلامه باطِّلاعه عَلَيهم حِينئذ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قالوا ما أغْنَى عَنكُم جَمْعُكُم وما كُنتم تَسْتَكْبِرُون ﴾ [الأعراف : ٤٨]. ونادى أصحابُ الأعراف رجالًا مِن أهل النار، يعرفونهم بعلامتهم ، مِن زُعَماء الكافرين في الدُّنيا ، قالوا : ما أغنى عنكم جَمْعكم المال ، أوْ كثرة عددكم في الدُّنيا ؟ ، والاستفهامُ للتَّوبيخ . وما أغنى عَنكُم استكباركم على الإيمان وعلى الناس .

---

٣٦٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٠) برقم (٣٢٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٣٣) : ((﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رِجَالًا ﴾ كانوا عُظَمَاء في الدُّنيا مِن أهل النار ﴿ يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قالوا ما أغْنَى عَنكُم جَمْعُكُم ﴾ في الدُّنيا مِن المال والوَلَد ﴿وما كُنتم تَسْتَكْبِرُون ﴾ عن الإيمان . قال الكلبي : يُنَادُون وهُم على السُّور : يا وليد ابن المُغيرة ، ويا أبا جَهْل بن هِشَام ، ويا فُلان ، ثُمَّ يَنظُرون إلى الجَنَّة ، فَيَرَوْنَ فِيها الفُقَرَاءَ والضُّعفاءَ مِمَّن كانوا يستهزئون بِهم مِثل : سَلْمان ، وصُهَيب ، وخَبَّاب ، وبلال ، وأشباههم ، ...)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٠٧) : ((روى أبو صالح عن ابن عباس قال : يُنَادُون : يا وليد بن المُغيرة ، يا أبا جَهْل بن هِشَام ، يا عاص بن وائل ، يا أُمَيَّة بن خَلَف ، يا أُبَيَّ ابن خَلَف ، يا سائر رُؤساء الكُفَّار ، ما أغنى عَنكُم جَمْعُكُم في الدُّنيا المالَ والولدَ ، ﴿ وما كُنتم تَسْتَكْبِرُون ﴾ ، أي : تتعظَّمون عن الإيمان)) .

٦_ الغَيْب النَّفْسي

أ_ الرُّوح

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَسألُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] . يَسألك يا مُحمَّد الكُفَّارُ عن الرُّوح ، ما هي ؟ ، وما حقيقتها ؟ ، فقُل لهم إنَّها مِن الأشياء التي استأثرَ اللهُ بعِلْمها ، وهي سِر لا يَعْلَمه إلا اللهُ تعالى ، وما أُوتيتم مِن العِلْم أيُّها الناس إلا شيئًا قليلًا . وعِلْم الناس قليل ومحدود ، أمَّا عِلْمُ الله فهو مُطْلَق وشامل لكُل شيء . وبعبارة أُخرى ، مَهما كان عِلْم الناس كثيرًا ، فهو بالإضافة إلى عِلْم اللهِ قليلٌ ، لا يُذكَر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٨١ و٨٢): ((قَوله تعالى: ﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ في سبب نُزولها قَولان : أحدهما أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بناس مِن اليَهود ، فقالوا : سَلُوه عَن الرُّوح ، فقال بعضُهم : لا تَسألوه فيَستقبلكم بما تَكْرَهُون ، فأتاه نَفَر مِنهُم، فقالوا: يا أبا القاسم ، ما تقول في الرُّوح ، فسكت ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود . والثاني أنَّ اليَهود قالت لِقُرَيش : سَلُوا مُحَمَّدًا عَن ثلاث ، فإنْ أخبركم عن اثنتَيْن ، وأمسكَ عَن الثالثة ، فهو نبيٌّ . سَلُوه عَن فِتْيَة فُقِدُوا، وسَلُوه عن ذِي القَرْنَيْن ، وسَلُوه عَن الرُّوح ، فَسَألوه عَنها ، ففسَّر لهم أمرَ الفِتْيَة في الكَهْف ، وفسَّر لهم قِصَّة ذِي القَرْنَيْن، وأمسكَ عَن قِصَّة الرُّوح،فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وفي المُراد بالرُّوح هاهنا سِتَّة أقوال : أحدها أنَّه الرُّوح الذي يَحْيَا به البَدَن ، روى هذا المعنى العَوفي عن ابن عباس . وقد اختلف الناس في مَاهِيَّة الرُّوح ، ثُمَّ اختلفوا هل الرُّوح النَّفْس أَمْ هُما شيئان ، فلا يُحتاج إلى ذِكْر اختلافهم ، لأنَّه لا بُرهان على شيء مِن ذلك ، وإنَّما هو شيء أخذوه

عن الطب والفلاسفة،فأمَّا السَّلَف فإنَّهُم أمْسَكُوا عَن ذلك لقَوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي ﴾ فلمَّا رَأَوْا أن القَوم سألوا عن الرُّوح فلم يُجابوا ، والوَحْي يَنزِل ، والرَّسُول حَي ، عَلِمُوا أن السُّكوت عمَّا لَم يُحَطْ بحقيقة عِلْمِه أَوْلَى. والثاني أنَّ المُراد بهذا الرُّوح مَلَك مِن المَلائكة على خِلْقَة هائلة، رُوِيَ عن عليٍّ عليه السلام وابن عباس ومُقاتل . والثالث أنَّ الرُّوح خَلْق مِن خَلْق الله عَزَّ وَجَلَّ صوَّرهم على صُوَر بني آدم ، رواه مُجاهد عن ابن عباس . والرابع أنَّه جِبريل عليه السلام ، قاله الحَسَن وقَتادة . والخامس أنَّه القُرآن ، رُوِيَ عن الحَسَن أيضًا . والسادس أنَّه عِيسى بن مَرْيَم ، حكاه الماوردي. قال أبو سُلَيمان الدمشقي: قَد ذَكَرَ اللهُ تعالى الرُّوحَ في مواضع مِن القُرآن ، فغالب ظَنِّي أن النَّاقلين نَقَلُوا تفسيرَه مِن مَوضِعه إلى مَوْضِع لا يَلِيق به ، وظَنُّوه مِثْلَه، وإنما هو الرُّوح الذي يَحْيَى به ابنُ آدم. وقَوله : ﴿ مِن أمْرِ رَبِّي ﴾ ، أي: مِن عَمَلِه الذي مَنَعَ أن يَعرِفه أحد. قَوله تعالى: ﴿وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ في المُخَاطَبِين بهذا قَولان:أحدهما أنَّهُم اليهود، قاله الأكثرون.والثاني أنَّهُم جميع الخَلْق،عِلْمهم قليل بالإضافة إلى عِلْم الله عَزَّ وَجَلَّ،ذكره الماوردي)).

وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال:قالت قُرَيش لليهود:أعطُونا شيئًا نسأل عنه هذا الرَّجل (يَقصِدون النبيَّ ﷺ) ، فقالوا : سَلُوه عن الرُّوح، فَنَزلت: ﴿ ويَسألونكَ عن الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي وما أُوتيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. قالوا : نَحْنُ لَم نُؤتَ مِن العِلْم إلا قَليلًا، وقد أُوتينا التَّوراة،فِيها حُكم الله،وَمَن أُوتِيَ التَّوراةَ فقد أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا، قال:فَنَزلت : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [٣٦٤].

إنَّ اليهود كانوا يتلاعبون بِمُشركي العرب . وهؤلاء المشركون كانوا مُصابين بعُقدة النَّقْص ، لأنَّهم جُهَّال مُنقطعون عن السماء ، ويَعبدون الأصنام . لذلك كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة احترام وتعظيم ، فاليهودُ أهل كتاب لَدَيهم التَّوراة ، وهي بالأصل كتاب سماويٌّ ، ولكن طَرَأ عليه التحريف والتغيير. ولَدَيهم العلماء والكتب الدينية . وقد حاولت قُرَيش أن تتحدَّى النبيَّ ﷺ وتُفحمه وتُحْرِجه، فتوجَّهت إلى اليهود كَي تطلب منهم شيئًا تسأل النبيَّ ﷺ عنه ، لعلَّه يَعجِز عن الإجابة ويتمُّ إفحامه ــ وَفْق تفكير المشركين ــ . وقَول اليهود : " سَلُوه عن الرُّوح " ، يدل على عِلْمهم وتبحُّرهم في دراسة الكتب الدينية. إذْ إن الرُّوح لا يَعْلَمُها إلا اللهُ. وقد كان النبيُّ ﷺ صادقًا وأمينًا، فلم يُفْتِ بِغَير عِلْم ، ولَم يَخترع جوابًا من أفكاره الشخصية ، ليَظهر بمَظهَر العالِم الذي يَعرف كُلَّ

٣٦٤ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٩) برقم (٣٩٦١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

شيء ، ولا يُعجِزه شَيء . ونزلت آية الرُّوح التي تُشير إلى ضعف الناس وقِلَّة عِلْمهم وعَجزهم عن معرفة الكثير من الأشياء . وهذا الأمرُ لَم يَرُق لليهود الذين يعتبرون أنفسهم أعظم العلماء ، وأكبر المفكِّرين، وأصابهم الغُرور والتَّكَبُّر بسبب نُزول التَّوراة عليهم . وبيَّن اللهُ لهم أن كلمات الله ومواعظه ليس لها نهاية. ولا يُمكن لمخلوق أن يُحيط بها ،كائنًا مَن كان . وهذه القصةُ تدل على غُرور اليهود وعِنادهم واستكبارهم،وتكبُّرهم على الناس،فَهُم يَفتخرون بِنُزول التَّوراة عليهم،مَعَ أنهم لا يَعملون بما فيها،ولا يسيرون على خُطى مُوسى ﷺ.وقد حَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ وتلاعبوا بنصوصها .

وعن عبد الله _ رضي اللهُ عنه_ قال : بَيْنَا أنا معَ النبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ على عَسِيب، إذْ مَرَّ اليهودُ ، فقال بَعْضُهم لبَعْض : سَلُوه عَن الرُّوح ؟ ، فقال : ما رَابَكُم إلَيه ؟ ، وقال بعضُهم : لا يَسْتَقْبِلُكُم بشَيء تَكْرَهُونه ، فقالوا : سَلُوه ، فَسَألوه عن الرُّوح ، فأمسكَ النبيُّ ﷺ ، فَلَم يَرُدَّ عَلَيهِم شيئًا ، فَعَلِمْتُ أنَّه يُوحَى إلَيه ، فَقُمْتُ مَقَامي ، فلمَّا نَزَلَ الوَحْيُ ، قال: ((﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾)) [٣٦٥].

كان عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ معَ النبيِّ ﷺ في أرض مزروعة ، والنبيُّ ﷺ مُعْتَمِد على جريدة النَّخْل. إذْ مَرَّ نَفَرٌ مِن اليهود ، وحاولوا إفحامَ النبيِّ ﷺ وإحراجه بسؤاله عن الرُّوح ، وبالتالي يُعجِزونه عن الجواب _ وَفْق تفكيرهم القاصر _ ، ويُثيرون الشُّكوكَ والشُّبهات حَوْلَه . وقد سكت النبيُّ ﷺ ، ولم يَرُدَّ عليهم ، وأوْحَى اللهُ إلَيه هذه الآية : ﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ ، التي أفحمت اليهودَ ، فلم يَستطيعوا الكلامَ . ومعنى الآية : إنَّ الرُّوح سِر إلهيٌّ ، استأثرَ اللهُ بِعِلْمه ، ولا أحد يَعْلَمه سِوَاه . وإنَّ العِلْم الذي لَدَى الناس شيء قليل وضئيل وبسيط ، لأنَّ عِلْم الإنسان محدود ، وعَقله قاصر . وأسرارُ الوجود أكبر وأوسع مِن قُدرات العقل البشري المحدود .

والحديثُ مِن دَلائل النُّبُوَّة ومُعجِزات النبيِّ ﷺ، حيثُ أخبرَ فيه عَن أمرٍ غَيْبِيٍّ ، وهو ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتُب ، ولم يُجالس العُلماءَ ، ولم يطَّلع على الطِّب وأسرارِ الجِسْم البشريِّ وتَركيبه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٣٧ و١٣٨) : ((قَوله : (سَلُوه عَن الرُّوح ، فقالوا : ما رَابَكُم إلَيه ؟ ، لا يَستقبلكم بشَيء تَكرهونه) ، هكذا في جميع النُّسَخ : ما رَابَكُم إليه ؟ ، أي : ما دعاكم إلى سؤاله أوْ ما شَكُّكُم فيه حتى احتجتم إلى سؤاله أو ما دعاكم

٣٦٥ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٤)،ومسلم (٤/ ٢١٥٢) برقم (٢٧٩٤) .

إلى سُؤال تَخْشَوْنَ سُوء عُقباه ؟ . ... . قال المازري: الكلام في الرُّوح والنَّفْس مِمَّا يَغمُض ويَدِق، ومع هذا فأكثر الناس فيه الكلام ، وألَّفوا فيه التآليف . قال أبو الحسن الأشعري : هو النَّفَس الداخل والخارج. وقال ابن الباقلاني : هو مُتردِّد بين هذا الذي قاله الأشعري وبين الحياة . وقِيل: هو جِسم لطيف مُشارك للأجسام الظاهرة والأعضاء الظاهرة . وقال بعضُهم : لا يَعْلَم الرُّوحَ إلاالله تعالى لقَوله تعالى : ﴿ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي ﴾ ، وقال الجمهور : هي مَعلومة . واختلفوا فيها على هذه الأقوال . وقِيل : هي الدَّم . وقِيل غَير ذلك . ولَيس في الآية دليل على أنَّها لا تُعلَم ، ولا أن النبيَّ ﷺ لَم يَكُن يَعْلَمها ، وإنَّما أجاب بِما في الآية الكريمة ، لأنَّه كان عِندهم أنَّه إنْ أجابَ بتفسير الرُّوح فلَيْسَ بنبيٍّ . وفي الرُّوح لُغَتان التَّذكير والتَّأنيث ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ ﴾[السَّجْدة: ٩] . ونَفَخَ اللهُ في آدم ﷺ مِن رُوح الله ، فصارَ آدم كائنًا حيًّا بعدما كان جمادًا . وأضافَ اللهُ الرُّوحَ إليه ، للتَّشريف والتَّكريم . وللدَّلالة على أنَّ آدم صُنْعٌ فريدٌ ، وخَلْقٌ عظيم . والآيةُ لا تعني أنَّ الرُّوح جُزء مِنَ الله . تعالى اللهُ عَن الأجزاء ، فهو الخالق العظيم ، واحدٌ في ذاته ، وواحد في صِفاته ، لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض . لا يَحُلُّ في المخلوقات ، ولا تَحُلُّ المخلوقات فيه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٦) : ((﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ ﴾ إضافة إلى نَفْسِه ، تشريفًا له، وإشعارًا بأنَّه خَلْق عجيب، وأنَّ له شأنًا له مُناسبة ما إلى الحَضرة الرُّبوبية . ولأجله قِيل : مَن عَرَفَ نَفْسَه ، فقد عَرَفَ رَبَّه)) .

ب_ النَّفْس

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أسْلَفَتْ ﴾ [يُونُس : ٣٠] .

في يَوم القِيامة ، تَعْلَم كُلُّ نَفْسٍ ما قدَّمت مِن خَير أوْ شَر في الحياة الدُّنيا ، وتَعرِف نَفْعَ أعمالها أو ضررها ، وتنال جزاءها الذي تستحقه ، إنْ خَيْرًا فَخَير ، وإنْ شرًّا فشر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٣٦): ((أي : في ذلك المَكان ، وفي ذلك المَوقِف، أوْ في ذلك الوَقْت ، على استعارة اسم الزَّمان للمَكان ، تَذُوق كُلُّ نَفْسٍ وتَخْتَبِر جَزاءَ ما أسلفت مِن العَمَل ، فمعنى ﴿ تَبْلُو ﴾ تَذُوق ، وتَخْتَبِر ، وقِيل : تَعْلَم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يُوسُف : ٥٣] .

إنَّ النَّفْس البشرية تَميل إلى الشَّهَوَات،وتأمر صاحبَها بالمعصية ، إلا مَن رَحِمَ اللهُ ، فَعَصَمَه مِن الإثم والضَّلال .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٢٣٧) : ((يقول يُوسُف صلوات الله عَلَيه : إنَّ النُّفُوسَ نُفُوسَ العِباد تأمرهم بما تَهْوَاه،وإنْ كان هَوَاها في غَير ما فيه رِضى الله ﴿ إلا ما رَحِمَ رَبِّي ﴾ يقول: إلا أن يَرحم رَبِّي مَن شاء مِن خَلْقه فيُنجِّيه مِن اتِّباع هَوَاها وطاعتها فيما تأمره به مِن السُّوء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرَّعْد : ٣٣] .

إنَّ الله عليمٌ رقيبٌ على كُل نَفْس ، وهو حافظها ورازقها ، يتولَّى أمْرَها ، ويُدبِّر رِزْقَها وأجَلَهَا ، ويَعلَم سِرَّها وعلانيتها، ويَعلَم ما تَكسِبه مِن خَير وشر، ويُحْصِي عَمَلَها للحِسَاب والجَزَاء. لا يَخفَى عليه شيء مِن عملها ، ولا يَفُوتُه شيء مِن جزائها . وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٢١) : ((﴿ أفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ ، القائم الحفيظ والمُتَوَلِّي للأمور . وأرادَ سُبحانَه نَفْسَه ، فإنَّه المُتَوَلِّي لأُمُور خَلْقِه ، المُدبِّر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كُل نَفْسٍ مِن الأنفُس كائنة ما كانت، والجواب مَحذوف: أي: أفَمَن هو بهذه الصِّفة كَمَن لَيس بهذه الصِّفَة مِن مَعبوداتكم التي لا تَنفَع ولا تَضُرُّ.قال الفَرَّاء : كأنه في المعنى أفَمَن هُوَ قائم على كُل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، كَشُركائهم الذين اتَّخذوهم مِن دُون الله. والمُراد مِن الآية إنكار المُمَاثَلَة بينهما)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ﴾ [إبراهيم : ٥١] . في يَوم القيامة ، يُجازي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ بما عملت مِن خَير وشَر . يُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسيءَ بإساءته .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٨) : ((... ، لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ مُجرمة ﴿ ما كَسَبَتْ ﴾ ، أوْ : كُل نَفْس مِن مُجرِمة أوْ مُطيعة ، لأنَّه إذا تبيَّن أن المُجرمين يُعَاقَبُون لإجرامهم ، عُلِمَ أن المُطيعين يُثَابُون لطاعتهم)) .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تأتي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِها وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وهُم لا يُظْلَمُون﴾ [النَّحْل: ١١١]. في يَوم القِيامة، تُخَاصِمُ كُلُّ نَفْسٍ عَن نَفْسِها، طلبًا للنَّجَاة والخَلاص،ولا يَهُمُّها شأنُ غَيرها ، وتُعطَى كُلُّ نَفْسٍ جَزَاءَ عملها مِن خَير وشَر، كاملًا غَير مَنقُوص ، ولا يُظلَمون بإنقاص حسناتهم ، أوْ زيادة سَيِّئاتهم . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٥٤) : ((﴿يَوْمَ تأتي كُلُّ نَفْسٍ﴾ تُخَاصِم عَن نَفْسِها ، وتَحْتَج عَنها بما أسلفتْ في الدُّنيا مِن خَير أوْ شَر ، أو إيمان أوْ كُفر ، ﴿ وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ﴾ في الدُّنيا مِن طَاعة ومَعصية ، ﴿ وهُم لا يُظْلَمُون ﴾ ، يقول : وهُم لا يُفعَل بهم إلا ما يَستحقونه ويَستوجبونه ، بما قدَّموه مِن خَير أوْ شَر ، فلا يُجزَى المُحسِن إلا بالإحسان، ولا المُسِيء إلا بالذي أسلفَ مِن الإساءة ، لا يُعَاقَب مُحسِن ، ولا يُبخَس جَزَاء إحسانه ، ولا يُثَاب مُسِيء إلا ثواب عَمَله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لُقمان: ٣٤]. لا يَدْرِي أحدٌ ماذا يَحدُث له في غَدٍ ، وماذا يَفعل مِن خَير أوْ شَر ، واللهُ يَعْلَمُه. ولا يَدْرِي أحدٌ أينَ يَمُوت ، وفي أيِّ مكان سَيُدفَن ، واللهُ يَعْلَمُه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٣) : ((﴿ وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ مِن خَير أوْ شَر ، ورُبَّما تَعزم على شيء وتَفعَل خِلافَه ، ﴿ وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كما لا تَدْري في أي وقت تَمُوت. (رُوِيَ أنَّ مَلَك المَوت مَرَّ على سُلَيمان ، فَجَعَلَ ينظُر إلى رَجُل مِن جُلَسائه ، يُدِيم النظرَ إليه ، فقال الرَّجُل : مَن هذا ؟ ، قال : مَلَك المَوت ، فقال: كأنَّه يُريدني ، فَمُر الرِّيحَ أن تَحْمِلَني وتُلْقِيَني بالهِند ، ففعل . فقال المَلَك : كان دَوَام نَظَري إلَيه تَعَجُّبًا مِنه ، إذْ أُمِرْتُ أن أقْبِضَ رُوحَه بالهِند ، وهو عِندَك) . وإنَّما جُعل العِلْم لله تعالى ، والدِّرَاية للعبد ، لأن فيها معنى الحِيلة ، فيُشعِر بالفَرْق بين العِلْمَيْن ، ويدل على أنَّه إنْ أعملَ حِيلةً ، وأنفذَ فِيها وُسْعَه ، لَم يَعرِف ما هو الحق به مِن كَسْبه وعاقبته ، فكيف بغَيره مِمَّا لم يُنصَب له دليل عليه)) .

وفي صحيح البخاري(٤/ ١٦٩٣) : عن سالم بن عبد الله عن أبيه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْس : ﴿ إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ ما في الأرحامِ وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبير ﴾)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٤٥٨): (((وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكسِب غدًا) مِن خَير وشَر . جُعِلَ لنا الدِّرَاية التي فيها معنى الجِبِلَّة ، وَلِجَنَابِه تَقَدَّسَ العِلْمُ ، تفرقة بين العِلْمَيْن ، وأفاد أن ما هو بجِبِلَّتنا لا نَعرِف عاقبته ، فكيف بغَيره ؟ (وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تَمُوت) خُصَّ المَكَان ليُعرَف الزَّمان مِن باب أوْلَى ، لأن الأوَّل في وُسْعنا بخِلاف الثاني)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الزُّمَر: ٦]. خَلَق اللهُ الناسَ مِن نَفْسٍ واحدة، هو آدم ﷺ، وهذا يدلُّ على أُلوهية الله ووَحدانيته،وقُدرته المُطْلَقَة على الخَلْق والإيجاد مِن العَدَم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠): ((وقَوله جَلَّتْ عَظَمَتُه : ﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي : خَلَقَكُم معَ اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم مِن نَفْسٍ واحدة ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ ﴾ [القِيامة : ٢]. أقسمَ اللهُ بِنَفْسِ المؤمن التي تَلُومه على ارتكاب الذُّنُوبِ والتقصيرِ في طاعة الله تعالى.وهذا يدلُّ عَلى عَظَمَة نَفْسِ المؤمن اللوَّامة،لأنَّ الله العظيم لا يُقْسِمُ إلا بعظيم.الجديرُ بالذِّكر أن ﴿ولا أُقْسِمُ﴾ تعني : وأُقْسِم . و" لا " لتأكيد القَسَم ،كأنَّه مِن الوُضوح والظُّهور بحيث لا يَحتاج إلى قَسَم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٨٤): ((ومَعنى : ﴿ بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ ﴾ ، أي: بِنَفْسِ المؤمن الذي لا تَرَاه إلا يَلُوم نَفْسَه. يقول: ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يُعاتب نَفْسَه. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغَيرهم. قال الحسن : هي واللهِ نَفْسُ المؤمن، ما يُرى المؤمنُ إلا يَلُوم نَفْسَه : ما أردتُ بكلامي ؟ ما أردتُ بأكلي ؟ ما أردتُ بحديث نَفْسِي ؟ ، والفاجر لا يُحَاسِب نَفْسَه . وقال مُجاهد : هي التي تَلُوم على ما فات وتَندَم ، فَتَلُوم نَفْسَها على الشَّر، لِمَ فَعَلَتْهُ، وعلى الخَير لِمَ لا تَستكثر مِنه. وقِيل : إنَّها ذات اللوم، وقيل : إنَّها تَلُوم نَفْسَها بما تَلُوم عَلَيه غَيْرَها،فعلى هذه الوُجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهو صِفة مَدْح، وعلى هذا يجيء القَسَم بها سائغًا حَسَنًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤١٦) : ((وفي النَّفْسِ اللوَّامة ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها المَذمُومة ، قاله ابن عباس، فعلى هذا هي التي تَلُوم نَفْسَها حِين لا يَنفَعها اللوم . والثاني أنَّها النَّفْس المُؤمنة، قاله الحسن. قال: لا يُرى المُؤمن إلا يَلُوم نَفْسَه على كل حال.والثالث أنَّها جميع النُّفُوس . قال الفَرَّاء : لَيس مِن نَفْسٍ بَرَّة ولا فاجرة إلا وهي تَلُوم نَفْسَها ، إنْ كانت عملت خيرًا ، قال: هَلَّا زِدْتُ ، وإنْ كانت عملت سُوءًا ، قال: لَيْتَني لَم أفعل)) .

وسُئِلَ ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ عن قَوله تعالى: ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ ﴾ ، فقال : ((مِنَ النَّفْسِ المَلُومِ)) [٣٦٦].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥]. عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما قدَّمت مِن خَير (عمل صالح) أوْ شَر (عمل سَيِّئ) ، وأخَّرَتْ مِن سُنَّة حسنة أوْ سَيِّئة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٥٧٧): ((﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأخَّرَتْ ﴾ والمعنى : أنَّها عَلِمَتْهُ عِند نَشْر الصُّحُف ، لا عِند البَعْث ، لأنَّه وقت واحد مِن عِند البَعْث إلى عِند مصير أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ... . ومعنى ﴿ ما قَدَّمَتْ وأخَّرَتْ ﴾ ما قَدَّمَتْ مِن عَمَلِ خَيْرٍ أوْ شَر، وما أَخَّرَتْ مِن سُنَّة حسنة أو سَيِّئة، لأنَّ لها أجر ما سَنَّتْهُ مِن السُّنَن الحسنة، وأجر مَن عَمِلَ بها ، وعليها وِزْرُ ما سَنَّتْهُ مِن السُّنَن السَّيئة ، ووِزْر مَن عَمِلَ بها . وقال قَتادة : ما قَدَّمَتْ مِن مَعصية ، وأَخَّرَتْ مِن طاعة . وقِيل: ما قَدَّمَ مِن فَرْض، وأخَّرَ مِن فَرْض. وقِيل : أوَّل عَمَلِه وآخِره . وقِيل: إنَّ النَّفْسَ تَعلَم عِند البَعْث بما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ عِلْمًا إجماليًّا،لأنَّ المُطيع يَرى آثارَ السَّعادة، والعاصي يَرى آثارَ الشَّقَاوة . وأمَّا العِلْمُ التفصيلي فإنَّما يَحصُل عِند نَشْر الصُّحُف)) .

---

٣٦٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن حُذَيفة بن اليَمَان _ رضي اللهُ عنه_ قال: قامَ سائلٌ على عهد النبيِّ ﷺ ، فَسَأل، فَسَكَتَ القَوْمُ ، ثُمَّ إنَّ رَجُلًا أعطاه ، فأعطاه القَوْمُ ، فقال النبيُّ ﷺ : ((مَن اسْتَنَّ خَيْرًا ، فاسْتُنَّ به ، فَلَهُ أجْرُه، ومِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَه غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِن أُجورهم شيئًا ، وَمَن اسْتَنَّ شَرًّا ، فَاسْتُنَّ به ، فَعَلَيْهِ وِزْرُه، ومِثْلُ أوزارِ مَن اتَّبَعَه غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِن أوزارهم شيئًا)) . قال _ الرَّاوي _ : وتلا حُذَيفة بن اليَمَان : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأخَّرَتْ ﴾ [٣٦٧].

كُلُّ مَن أتى بسُنَّة حسنة (طريقة مَرْضِيَّة مُتوافقة مع أحكام الشريعة) فهو على خير عظيم ، له أجْرُها ، وأجرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعده . وهذا يُشير إلى جواز الابتداع في مجال الخَير . أمَّا مَن أتى بطريقة سَيِّئة مُخالفة للشَّرْع ، فقد ابتدعَ بِدعةً مذمومة يتحمَّل إثْمَها ، وإثْمَ مَن عَمِلَ بها مِن بَعده .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٦٦): ((... مَن ابتدعَ شَيْئًا مِن الخَير كان له مِثْل أجر كُل مَن يَعمَل به إلى يوم القيامة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفَجْر : ٢٧] .

هذه نَفْس المُؤمن التَّقِيِّ . فهي نَفْس هادئة طاهرة مُصدِّقة بوَحدانية الله وأُلوهيته ورُبوبيته ، ومُوقِنة بالبَعْث والجَنَّةِ والنار ، وراضية بقضاء الله وقَدَرِه ، ومُطمئنة بوعد الله ، لا يَعتريها شَك ، ولا يُصيبها خَوف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٢٣): ((قَوله تعالى: ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ اختلفوا فِيمَن نزلت على خمسة أقوال : أحدها في حَمْزة بن عبد المُطَّلب لمَّا اسْتُشْهِد يَوم أُحُد ، قاله أبو هُرَيرة وبُرَيدة الأسلمي . والثاني في عُثمان بن عَفَّان حِينَ أوقفَ بِئرَ رُومَة ، قاله الضَّحاك. والثالث في خُبَيب بن عَدِي ، لمَّا صَلَبَه أهلُ مكة ، قاله مُقاتل . والرابع في أبي بَكْر الصِّديق _رضي اللهُ عنه _ حكاه الماوردي . والخامس في جميع المؤمنين ، قاله عكرمة . وفي معنى المُطمئنة ثلاثة أقوال : أحدها المُؤمِنة ، قاله ابن عباس . وقال الزَّجاج : المُطمئنة بالإيمان . والثاني الراضية بقضاء الله ، قاله مُجاهد . والثالث المُوقِنة بما وَعَدَ اللهُ ، قاله قَتادة . واختلفوا في أيِّ حِين يُقَال لها ذلك على قَوْلَيْن : أحدهما عِند خُروجها مِن الدُّنيا ، قاله الأكثرون . والثاني عِند البَعْث ، يُقَال لها : ارجعي إلى صاحبك ، وإلى جسدك ، فيأمر اللهُ الأرواحَ أن تَعُود إلى الأجساد ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال عَطاء وعِكرمة والضَّحاك)) .

---

٣٦٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦١) برقم (٣٩٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن سعيد بن جُبَير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فَشَهِدْتُ جِنازته ، فجاءَ طَيْرٌ لَم يُرَ على خِلْقته ، ودَخَلَ في نَعْشِه ، فَنَظَرْنا وتَأَمَّلْنا هل يَخرُج ، فلم يُرَ أنَّه خَرَجَ مِن نَعْشِه ، فلمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شَفِير القَبْر ، ولا يُدرَى مَن تلاها : ﴿ يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إلى رَبِّكِ راضيةً مَرضيةً (٢٨) فادْخُلِي في عِبَادي (٢٩) وادْخُلِي جَنَّتي (٣٠) ﴾ [٣٦٨] .

هذا يدل على عُلُوِّ قَدْر الصحابي الجليل ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ ، ومكانته العظيمة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا ﴾ [الشَّمْس : ٧]. خَلَقَ اللهُ النَّفْسَ البشرية ، وأبدعها، وسوَّى أعضاءها ، وجعلها مُستقيمةً على الفِطرة السَّليمة، ومُستعدة لكمالها . والتَّنكير للتَّفخيم .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا ﴾ ، قِيل : المَعنى : وتَسْويتها . فـ (ما) : بمعنى المَصدَر . وقِيل : المَعنى : ومَن سَوَّاها ، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ. وفي النَّفْس قَولان : أحدهما آدم ، الثاني كُل نَفْس مَنفُوسة . وسَوَّى : بمعنى هَيَّأ. وقال مُجاهد : سَوَّاها : سَوَّى خَلْقَها وعَدَلَ . هذه الأسماء كُلُّها ـ في الآيات السابقة ـ مَجرورة على القَسَم . أقسمَ جَلَّ ثناؤه بخَلْقِه لِمَا فيه مِن عجائب الصَّنعة الدَّالة عَلَيه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها ﴾ [الشَّمْس : ٨] .

بيَّن اللهُ للنَّفْسِ البشرية الخيرَ والشَّرَّ ، وعلَّمها الطاعةَ والمعصية ، وعرَّفها الفُجُورَ والتَّقْوَى ، ووضَّح لها الرَّشَادَ والضَّلالَ ، وكيفية التمييز بينهما. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٣٧) : ((﴿ فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها ﴾ ، أي عَرَّفها وأفهمها حالهما ، وما فيهما مِن الحُسْن والقُبْح. قال مُجاهد:عرَّفها طريقَ الفُجُور والتَّقْوى والطاعة والمعصية. قال الفَرَّاء : فألهمها عَرَّفها طريقَ الخَير وطريق الشَّر، كما قال:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ . قال مُحمَّد بن كَعْب : إذا أرادَ اللهُ بعبده خيرًا ألهمه الخَيْرَ فعمل به ، وإذا أراد به الشَّر ألهمه الشَّرَّ فعمل به . قال ابن زيد : جَعَلَ فيها ذلك بتوفيقه إيَّاها للتَّقوى ، وخِذلانه إيَّاها للفُجُور . واختار هذا الزَّجاج ، وحَمَلَ الإلهامَ على التَّوفيق والخِذلان. قال الواحدي : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام ، فإن التَّبيين والتَّعليم والتَّعريف دُون الإلهام ، والإلهام أن يُوقع في قلبه ، ويَجعل فيه ، وإذا أوقعَ اللهُ في قلب عبده شيئًا ألزمه ذلك الشيء . قال : وهذا صريح في أن الله خَلَقَ في المؤمن تَقْوَاه ، وفي الكافر فُجُورَه)) .

---

٣٦٨ رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٦) وسكت عنه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٦٥) : ((رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤١) أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ : يا رسول الله ، أرأيتَ ما يَعمَل الناسُ اليَوْمَ ، ويَكْدَحُون فيه ، أشيءٌ قُضِيَ عَلَيهم ، ومَضَى فِيهِم مِن قَدَرٍ قد سَبَقَ ، أوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ به مِمَّا أتاهم به نَبِيُّهُم، وثَبَتَت الحُجَّةُ عَلَيهِم ؟، فقال: ((لا ، بَل شَيء قُضِيَ عَلَيهم ، ومَضَى فِيهِم ، وتَصديق ذلك في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا(٧) فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها (٨) ﴾)).

السؤال المُوجَّه للنبيِّ ﷺ:هَل ما يَعمَل الناس من الخير والشَّر في الدُّنيا ، ويَسْعَوْنَ في تَحصيله بجُهد وتعب ، أشيءٌ قُدِّرَ فِعْلُه عَلَيهم ، وَنَفَذَ في حَقِّهم في الأزل ، أوْ أنَّه موجود في الزَّمان الذي يَستقبلونه ، ولَيس بمُقدَّر في الأزل، وَثَبَتَت الحُجَّةُ عليهم بظُهُور صِدْق النبيِّ ﷺ بالمُعجِزات ؟ .

الجوابُ النبويُّ : إنَّه شيء قُدِّرَ عليهم ، ونَفَذَ في حَقِّهم . وتصديق ذلك هاتان الآيتان في القُرآن: ﴿وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا(٧) فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها(٨)﴾ . أي: كُلُّ نَفْسٍ خَلَقَها اللهُ مُستقيمةً على الفِطرة السَّليمة،وبيَّن اللهُ للنَّفْسِ طريقَ الخير والشَّر،وهَدَاها إلى ما قَدَّرَ لها في الأزل . والحديثُ يُثبِت قَدَرَ اللهِ السابقَ لخَلْقه ، وهو عِلْمه بالأشياء قَبل كَوْنها ، وكِتابته لها قَبل خَلْقها .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها ﴾ . قال : ((ألْزَمَهَا فُجُورَها وَتَقْوَاها)) [٣٦٩]. وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مَرَّ بهذه الآية : ﴿وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا(٧) فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها(٨)﴾ ، وَقَفَ ، ثُمَّ قال : ((اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاها ، أنتَ وَلِيُّها وَمَوْلاها ، وخَيْرُ مَن زَكَّاها)) [٣٧٠].

يَطلُب النبيُّ ﷺ مِن الله تعالى أن يُوفِّق نَفْسَه لفِعْل العبادات والطاعات التي تَقِي مِن العذاب ، واللهُ خَالق هذه النَّفْس ، ومالك أمرها ، والمُتصرِّف فيها ، واللهُ هو مَن يَجعلها طاهرةً زاكيةً .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٥٣) : (((آتِ) أعْطِ (نَفْسِي تَقْواها) أي تَحَرُّزَها عَن مُتابعة الهَوى وارتكاب الفُجور ، ذَكَرَه القاضي. وقال الطيبي : ينبغي أن تُفسَّر التَّقوى بما يُقابل الفُجور كما في آية ﴿فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها﴾ وهي الاحتراز عن مُتابعة الهَوى والفواحش ... (وزكِّها) طَهِّرْها مِن كُل خُلُق ذَمِيم (أنتَ خَير مَن زَكَّاها) أي مَن جَعَلَها زاكيةً، يعني لا مُزَكِّيَ لها إلا أنتَ ، فإنَّه تعالى هو الذي يُزَكِّي النُّفُوسَ ، فتصير زاكيةً ، أي عاملة بالطاعة ، فالله هو المُزكِّي ، والعبد هو المُتزكِّي . قال الطيبي : فإسناد التَّزكية إلى النَّفْس في الآية هو نِسبة الكَسْب

---

٣٦٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧١) برقم (٣٩٣٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٧٠ رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٠٦) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩١) .

إلى العَبْد لا خَلْق الفِعل ، كما زعمه المعتزلة ، لأن الخبر به يقتضي المناسبة المشاركة بين كَسْب العبد وخَلْق القُدرة فيه. قال الحَرَّاني : والتَّزكية اكتساب الزكاة وهي نَمَاء النَّفْس بما هو لها ، وهو بمنزلة الغِذاء للجِسْم (أنتَ وَلِيُّها) التي يَتَوَلَّاها بالنِّعمة في الدَّارَيْن (وَمَوْلاها) سَيِّدُها ، وهذا استئناف على بيان المُوجِب ، وأن إيتاء التقوى وتصليح التزكية فيها إنما كان لأنه هو المُتَوَلِّي أمْرَها ورَبُّها ومالكها،فالتَّزكية إنْ حُملت على تَطهير النَّفْس عَن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة كانت بالنسبة إلى التقوى مُظَاهِرة ما كان مكمنًا في الباطن، وإنْ حُملت على الإنماء والإعلان بالتَّقوى كانت تَحلية بعد التَّخلية ، فإنَّ المُتقِّي شرعًا مَن اجتنبَ النَّوَاهي ، وأتى بالأوامر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ مَن زَكَّاها ﴾ [الشَّمْس : ٩] .

أفلحَ وفازَ ونَجَحَ مَن زَكَّى نَفْسَه بعبادة الله وطاعته ، وطهَّرها مِن الذُّنُوب والمعاصي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٣٧) : ((أي : قَد فازَ مَن زَكَّى نَفْسَه وأنماها وأعلاها بالتَّقْوى بكل مطلوب ، وظَفِرَ بكُل مَحبوب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٤١): ((وفي معنى الكلام قَولان: أحدهما قد أفلحتْ نَفْسٌ زَكَّاها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قاله ابن عباس ومُقاتل والفَرَّاء والزَّجاج . والثاني قد أفلحَ مَن زَكَّى نَفْسَه بطاعة الله وصالح الأعمال ، قاله قَتادة وابن قُتَيبة ، ومعنى " زَكَّاها " أصلحها ، وطهَّرها مِن الذُّنوب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها ﴾ [الشَّمْس : ١٠] .

وقد خابَ وخَسِرَ مَن أضَلَّ نَفْسَه وأغواها ، وأهانها بالكُفر والذُّنُوب والمعاصي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٤١) : ((﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها ﴾ فِيه قَولان : فإنْ قُلْنا إنَّ الفِعل لله، فمعنى"دَسَّاها"خَذَلَها وأخملها وأخفى مَحَلَّها بالكُفر والمعصية، ولَم يُشهِرها بالطاعة والعمل الصالح ، وإنْ قُلنا الفِعل للإنسان ، فمعنى " دَسَّاها " أخفاها بالفُجُور)) .

وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما: ﴿وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا(٧)فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها(٨)﴾ ، قال : عَرَّفَ شَقَاءَها وسَعَادتها. ﴿قَدْ أفلحَ مَن زَكَّاها(٩)وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها (١٠) ﴾ ، قال: أغواها [٣٧١] .

ج ـ الفُؤاد

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهُم ﴾[الأنعام:١١٠] .

---

٣٧١ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧١) برقم (٣٩٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ونُحَوِّل قُلوبَهم عن الحق فلا يَفْهمونه ، ولا يَقْبَلُونه . والتَّقليبُ تَحويل الشَّيء عَن وَجْهه . والأفئدة جَمْع فُؤاد.وقال الطبري في تفسيره(٥/٣٠٨):((ونُقَلِّب أفئدتهم، فنُزيغها عن الإيمان)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أفئدةُ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ ﴾ [الأنعام : ١١٣] .

وَلِتَمِيل إلى زُخرُف القَولِ قلوبُ الكافرين ، الذين يُنكِرون الآخرةَ ، ولا يُصدِّقون بها .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٧١) : ((﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ ﴾ وَلِتَمِيل إلى ذلك الزُّخْرُف والغُرُور ﴿ أفئدةُ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ ﴾ قُلُوبُ الذين لا يُصدِّقون بالبَعْث)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هُود : ١٢٠] .

إنَّ اللهَ يُخبِر النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بأحوال الرُّسُل الذين كانوا قَبْلَه، ومُعاناتهم الشديدة مَعَ أقوامهم، وصَبرهم على سُخرية أقوامهم وكُفرهم ، وذلك من أجل رفع مَعنويات النبيِّ ﷺ ، فَلَهُ فيهم أُسْوَة حسنة . ودائمًا ، الأدلةُ والبراهين تُثبِّت القلبَ ، وتُقوِّي النَّفْسَ ، وتَزيد العِلْمَ .

يَقُصُّ اللهُ على النبيِّ ﷺ من أخبار الرُّسُل، وصَبرهم على أذى أقوامهم، من أجل تثبيت النبيِّ ﷺ وتجذير اليَقين في قلبه ، وزيادة قُدرته على التَّحَمُّل والصَّبْر، فيزداد قُوةً وقُدرةً على تبليغ الرسالة . والنبيُّ ﷺ إذا سمع هذه الأخبارَ ، قَوِيَ قلبُه ، وازدادت قُدرته على الصَّبر وتحمُّل أذى قَومه .

وتثبيتُ القلبِ إنما هو تقويته ، وزيادة اليقين فِيه ، والمعنى لا علاقة له بالشَّك أو الارتياب . وكلما كانت الأدلة أكثر ، والبراهين أقوى ، ازدادَ القلبُ يَقينًا وثباتًا على الحق .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/٢٦٩):((﴿ وَكُلًّا ﴾ وكُل نبأ ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ ﴾ نُخبِرك بِه ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ﴾ بيان لِكُلًّا، أو بَدَل مِنه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص،وهو زيادة يقينه،وطُمأنينة قَلْبه،وثبات نَفْسِه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦١١): ((يقول تعالى : وَكُل أخبار نَقُصُّها عليك من أنباء الرُّسُل المُتقدِّمين مِن قَبْلِك معَ أُمَمِهم، وكيف جرى لهم مِنَ المُحَاجَّات والخُصُومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نَصَرَ اللهُ حِزْبَه المُؤمنين، وخَذَلَ أعداءه الكافرين. كُلُّ هذا مِمَّا نُثبِّت به فؤادَك، أي قَلْبَكَ يا مُحمَّد،لِيَكُون لَكَ بِمَن مَضَى من إخوانك مِنَ المُرسَلين أُسْوَة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أفئدةً مِنَ الناسِ تَهْوِي إلَيْهِم ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

فاجعل قلوبَ جَماعة مِنَ الناس تَحِنُّ وتَمِيل وتُسْرِع إليهم لزيارة بَيتك المُحرَّم حُبًّا وشَوْقًا .

والأفئدة جَمْع فُؤاد، وهو القَلْب.والتعبير بالقَلْب عَن جَميع الجِسْم،لأنَّ القَلْب مَلِك الأعضاء، وأشرفها . وإذا صَلَحَ القَلْبُ ، صَلَحَ باقي الأعضاء ، لأن القَلْب القائد ، والأعضاء تابعة له.

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٦١) : ((وقَوله : ﴿ فَاجْعَلْ أفئدةً مِنَ الناسِ تَهْوي إلَيْهِم ﴾ يُخبِر بذلك تعالى ذِكْرُه عَن خليله إبراهيم أنَّه سأله في دُعَائه أن يَجعل قُلُوبَ بَعْضِ خَلْقِه تَنزع إلى مَساكن ذُرِّيته الذين أسكنهم بوادٍ غَير ذِي زَرْع عِند بَيته المُحرَّم ، وذلك مِنه دُعَاء لهم بأن يَرزقهم حَجَّ بَيته الحَرَام)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧١٣) : ((قال ابن عباس ومُجاهد وسعيد بن جُبَير وغَيْرُه : لَوْ قال : أفئدة الناس ، لازدحمَ عَلَيه فَارِس والرُّوم واليهود والنَّصارى والناسُ كُلُّهم ، ولكن قال : ﴿ مِنَ الناسِ ﴾ فَاخْتُصَّ به المسلمون)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٧ و٣٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أفئدةً مِنَ الناسِ ﴾ ، أي : قُلوب جَمَاعة مِن الناس . قال ابن الأنباري: وإنَّما عبَّر عَن القُلوب بالأفئدة لِقُرْبِ القَلْب مِن الفُؤاد ومُجاورته. قال امرؤ القَيس : رَمَتْني بسَهْمٍ أصابَ الفُؤادَ ... غَدَاةَ الرَّحِيلِ فَلَم أنتَصِرْ... . قَوله تعالى : ﴿ تَهْوي إلَيْهِم ﴾ ، قال ابن عباس : تَحِنُّ إلَيهم. وقال قتادة : تَنزِع إلَيهم. وقال الفَرَّاء : تُرِيدهم ، كما تقول : رَأيتُ فُلانًا يَهْوِي نَحْوَك ، أي يُريدك ... . وقال ابن الأنباري: "تَهْوِي إلَيهِم " تَنْحَط إلَيهِم وتَنحدر . وفي معنى هذا المَيْل قَولان : أحدهما أنَّه المَيْل إلى الحَج ، قاله الأكثرون . والثاني أنَّه حُب سُكنى مَكَّة ، رواه عَطِيَّة عن ابن عباس . وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : لَوْ كان إبراهيم قال : فاجعل أفئدةَ الناس تَهْوِي إلَيهِم ، لَحَجَّه اليهودُ والنصارى ، ولكنه قال: مِنَ الناس)) اهـ . ((وعن عبد الله بن عمرو قال : وُضِعَ الحَرَمُ قَبْلَ الأرضِ بألْفَي عام، ودُحِيَت الأرضُ مِن تَحْتِه . قال مُجاهد : قَوله : ﴿ فَاجْعَلْ أفئدةً مِنَ الناسِ تَهْوي إلَيْهِم ﴾ . قال : لَوْ قال : أفئدة الناس ، لازدحمت عليه فَارِس والرُّوم)) [٣٧٢].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُم هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] . قُلُوبُهُم كالهَواء ، لفَرَاغها من جميع الأشياء.وهذا تشبيه قُرآنيٌّ بَليغٌ.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧١) : ((قَوله تعالى: ﴿ وأفْئِدَتُهُم هَوَاءٌ ﴾ ، الأفئدةُ مَسَاكِن القُلوب ، وفي معنى الكلام أربعة أقوال : أحدها أنَّ القُلوب خَرَجَتْ مِن مَواضعها ، فصارت في الحَنَاجِر ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وقال قَتادة : خَرَجَتْ مِن صُدورهم، فَنَشِبَتْ في حُلوقهم، فأفئدتهم هَواء، لَيس فِيها شيء . والثاني وأفئدتهم لَيس فِيها شيء مِن الخَير ، فهي كالخَرِبَة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث وأفئدتهم مُنْخَرِقَة ، لا تَعِي شيئًا ، قاله مُرَّة بن شُرَاحْبِيل ، وقال الزَّجاج : مُتَخَرِّقَة لا تَعِي شيئًا مِن الخَوف . والرابع وأفئدتهم جُوف ،

---

٣٧٢ مجمع الزوائد (٣/ ٦٢٦). وقال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح)) .

لا عُقول لها ، قاله أبو عُبَيدة ... . فعلى هذا يكون المعنى أنَّ قُلوبهم خَلَتْ عَن العُقول لِمَا رَأَوْا مِن الهَوْل ، والعربُ تُسمِّي كُلَّ أجْوَف خَاوٍ : هَوَاء . قال ابن قُتَيبة : ويُقَال : أفئدتهم مَنخُوبة مِن الخَوْف والجُبْن)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ [النَّحْل: ٧٨]. وَجَعَلَ اللهُ لَكُم الأسماعَ والأبصارَ والقُلوبَ، لتَشكروه على نِعَمه، وتَعبدوه وَحْدَه .

وفي زاد المسير (٤/ ٤٧٥) : ((قال المُفسِّرون: ومَقصود الآية أنَّ الله تعالى أبانَ نِعَمَه عليهم، حيث أخرجهم جُهَّالًا بالأشياء، وخَلَقَ لهم الآلات التي يَتوصَّلون بها إلى العِلْم)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٣):((﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ ﴾ أداة تتعلَّمون بها، فتُحِسُّون بمشاعركم جُزئيات الأشياء،فتُدركونها ثُمَّ تتنبَّهون بقلوبكم لمُشاركات ومُباينات بينها بتكرُّر الإحساس ، حتَّى تتحصَّل لكم العلوم البديهية ، وتتمكَّنوا مِن تحصيل المعالم الكَسْبِيَّة بالنظر فيها ﴿ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ ، كَي تَعرِفوا ما أنعمَ عليكم طَوْرًا بعد طَوْر ، فتشكروه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ كَفروا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلةً واحدةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ﴾ [الفُرقان : ٣٢]. قال الكافرون: هَلَّا نُزِّلَ القُرآنُ على مُحمَّد مَرَّةً واحدةً كما أُنزِلَت التَّوراةُ على مُوسَى مَرَّةً واحدةً . وقد جاءَ الرَّدُّ الإلهيُّ واضحًا وحاسمًا ، وذلك بإظهار حِكمة تَنْزِيل القُرآنِ مُفَرَّقًا . لقد نَزَلَ القُرآنُ مُفَرَّقًا في عشرين سنة بِحَسَبِ الوقائع ، وما يَحتاج إلَيه الناسُ مِنَ الأحكام والشَّرائع ، من أجل تثبيت قلب النبيِّ ﷺ ، ورَفع معنوياته في مُواجَهة الهجمة الشرسة التي يَشُنُّها المشركون وأهل الكتاب ، وأيضًا تثبيت الإيمان في قلوب أصحابه . إذْ إنَّ ثَبَاتَ النبيِّ المُعلِّم هو ثباتٌ لأصحابه وتلاميذه. ونُزولُ القُرآنِ آيةً بعد آية ، يُساعد على الفهم والحِفظ ، ويُقوِّي القلبَ ، ويَزيد قُوَّةَ البصيرة ونُورَها ، ويُعزِّز الأُنسَ باللهِ والقُربَ مِنه .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١٦٨) : ((أوْ لِنُثَبِّتَ به فؤادَك عن الضَّجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول ، لأن قلب المُحِب يَسكن بتواصل كُتب المحبوب)) .

واللهُ قادرٌ على إنزال القُرآن مَرَّةً واحدةً ، وتثبيته في قلب النبيِّ ﷺ فَوْرًا ، لكنَّ حِكمة الله بالغة ، وهو أعْلَم بِخَلْقِه وما يُصْلِحهم ، وهو أرحم بهم مِن أُمَّهاتهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٠) : ((﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي فَعَلْنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ﴾ نُقَوِّي به قَلْبَكَ، فَتَعِيه وتَحمله، لأن الكتب المُتقدِّمة أُنزِلَت على أنبياء يَكتبون ويَقرؤون ، والقُرآنُ أُنزِل على نبيٍّ أُمِّيٍّ ، ولأن مِن القرآن الناسخ والمنسوخ، ومِنه ما هو جواب لِمَن سأل عن أمور، فَفَرَّقْناه لِيَكون أوْعَى للنبيِّ ﷺ ، وأيسر على العامل به ، فكان كُلما نَزَلَ وَحْيٌ جديد زَادَه قُوَّةَ قَلْبٍ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى ﴾ [النَّجْم : ١١] . ما كَذَبَ قلبُ مُحمَّد ﷺ ما رأى ببصره مِن صُورة جِبريل الحقيقية.والمعنى: كانَ أمْرًا حقيقِيًّا، ولَم يَكن خيالًا كاذبًا أو وَهْمًا عابرًا.إنَّ قَلْبَ مُحمَّد ﷺ لَم يُوهِمْهُ ، ولَم يَخدعه . لقد صَدَّقَ القلبُ رُؤيته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٦٨) : ((وفي الذي رأى ، قَولان : أحدهما أنَّه رَأى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قاله ابن عباس وأنس والحَسَن وعِكرمة . والثاني أنَّه رأى جِبريل في صُورته التي خُلِقَ عَلَيها ، قاله ابن مسعود وعائشة)) .

د_ الهَوَى

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تَعْدِلُوا ﴾ [النِّساء : ١٣٥]. فلا تتَّبعوا الهَوَى مَخافة أن تَميلوا عَن الحق،فإنَّ اتِّباع الهوى مُهلِك، ومُرتبط بالظُّلْم، لذلك يَجب الحَذَر مِنه،والابتعاد عنه.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٥٢) : ((وقَوله : ﴿ فلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تَعْدِلُوا﴾ ، أي : فلا يَحْمِلَنَّكُم الهَوَى والعصبية وبُغض الناس إلَيكم على تَرْك العَدْل في أُموركم وشُؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإن لَم يَستجيبوا لَكَ فاعْلَمْ أنَّما يَتَّبِعُونَ أهواءَهُم وَمَن أضلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهدي القَوْمَ الظالِمين ﴾ [القَصَص : ٥٠] .

فَإنْ لَم يأتوا بكتابٍ مِن عِندِ اللهِ كما أمَرْتَهُم _ وهُم بالتأكيد لا يَقْدِرُون على الإتيان به _ ، فاعْلَمْ أنَّما يتَّبعون أهواءهم بلا دليلٍ نَقليٍّ ولا بُرهان عَقليٍّ . إنهم يُؤْثِرون هَوَاهم على الدِّين ، ويتَّبعون آراءهم الشخصية ، وأفكارَهم القاصرة، وما يُزيِّنه لهم الشيطانُ بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ . وَلَوْ كانوا يَملكون حُجَّةً لأَتَوْا بها ، وقدَّموها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٢٨) : ((أي : فَإنْ لَم يَأتوا بِمِثْلِ التَّوراة والقُرآن ، فاعلمْ أنما يَتَّبعون أهواءهم ، أي أنَّ ما رَكِبُوه مِن الكُفر ، لَم يَحْمِلْهم عليه حُجَّة ، وإنما آثَرُوا فيه الهَوَى)) .

ولا يوجد أضلُّ مِمَّن اتَّبعَ هَوَاه بِدُون دليلٍ ولا حُجَّةٍ مِن كتابِ اللهِ . إنَّه الشخص الكامل في الضَّلال . واللهُ لا يَهدي الظالمين الذين يَتَّبعون أهواءَهم ، ويَرفضون الوَحْيَ السماويَّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٧) : ((﴿ وَمَن أضلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ ﴾ استفهام بمعنى النَّفْي ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ في مَوْضِع الحال للتأكيد أو التَّقييد ، فإن هَوى النَّفْس قد يُوافق الحقَّ. ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهدي القَوْمَ الظالِمين ﴾ الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالانهماكِ في اتِّباع الهَوَى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الذينَ ظَلموا أهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الرُّوم : ٢٩] .

بَـل اتَّبَـعَ المُشـركون الـذين ظَلمـوا أنفسَـهم باختيـار الكفـر على الإيمـان أهـواءهم فـي عبـادة الأصنام جهلًا ، بغَير دَليل نقليٍّ ، ولا بُرهان عقليٍّ . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٣١٨) : ((أي : لَم يَعقِلوا الآياتِ ، بَل اتَّبَعُوا أهواءهم الزَّائغة ، وآراءهم الفاسدة الزائفة . ومَحَل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ النَّصْب على الحال ، أي : جاهلين بأنهم على ضَلالة)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٥) : ((﴿ بَلِ اتَّبَعَ الذينَ ظَلموا ﴾ بالإشراك ﴿ أهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جَاهِلِين، لا يَكُفُّهُم شيء ، فإنَّ العَالِم إذا اتَّبَعَ هَوَاه ، رُبَّما رَدَعَه عِلْمُه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

ولا تتَّبع هوى النَّفْسِ المُخَالِف لأمر الله ، فتنحرف عَن طريق الحَق ، وتُصبح مِن الخاسرين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٢٤) : ((﴿ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى ﴾ ، أي : لا تَمِلْ مَعَ ما تَشْتهي إذا خالفَ أمرَ الله عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، أي : عَن دِينه)) .

٧_ الجِن

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعلوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُم ﴾ [الأنعام : ١٠٠] . وجَعَلَ الكافرون الجِنَّ شُركاء لله تعالى ، وهو سُبحانَه خَلَقَ الجِنَّ ، وأوجدهم مِن العَدَم ، فكيفَ يَكون المَخلوق الفاني شريكًا للخالق الباقي ؟ . أي إنَّهم أطاعوا الشَّياطين في عبادة الأصنام والأوثان ، فجعلوهم شُركاء لله تعالى . وهذا مُنتهى الجهل والضَّلال .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٥): ((هذا رَد على المُشركين الذين عَبَدُوا معَ الله غَيْرَه، وأشركوا به في عبادته أن عَبَدُوا الجِنَّ ، فجَعَلُوهم شُركاء له في العِبادة ، تعالى اللهُ عَن شِركهم وكُفرهم . فإنْ قِيل : فَكَيْفَ عُبِدَت الجِنُّ معَ أنَّهم إنَّما كانوا يَعبُدون الأصنام ؟ ، فالجواب : أنَّهُم ما عبدوها إلا عن طاعة الجِن ، وأمرهم إيَّاهم بذلك ، ... . ﴿ وَجَعلوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُم ﴾ أي: وقد خَلَقَهم، فهو الخالق، وَحْدَه لا شريك له، فكيف يُعبَد مَعَه غَيْرُه ؟ ، ... . ومعنى الآية أنَّه سُبحانَه وتعالى هو المُستقل بالخَلْق وَحْدَه ، فلهذا يجب أن يُفْرَدَ بالعِبادة، وَحْدَه لا شريك له)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَجَعلوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ ﴾ جَعَلُوا ، بمعنى وَصَفُوا . قال الزَّجَّاج : نَصْبُ " الجِن " مِن وَجْهَيْن : أحدهما أن يَكُون مَفعولًا ، فيَكُون المعنى : وجعلوا للهِ الجِنَّ شُرَكَاءَ ، ويَكون الجِنُّ مَفعولًا ثانيًا ، ... . والثاني أن يكون الجِنُّ بَدَلًا مِن شُركاء ، ومُفَسِّرًا للشُّركاء ، ... . وفي مَعنى جَعْلهم الجِن شُركاء ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهم

أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان ، فجعلوهم شُركاء لله ، قاله الحسن والزَّجاج . والثاني قالوا إنَّ الملائكة بنات الله ، فهُم شُركاؤه ... . فسمَّى الملائكة جِنًّا لاجتنانهم (عدم ظُهورهم)، قاله قَتادة والسُّدي وابن زيد . والثالث أن الزَّنادقة قالوا : الله خالق النُّور والماء والدَّواب والأنعام ، وإبليس خالق الظُّلْمة والسِّباع والحَيَّات والعقارب . وفيهم نزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . قَوله تعالى : ﴿ وخَلَقَهُم ﴾ في الكِنَاية قَولان: أحدهما أنَّها تَرجع إلى الجاعلين له الشُّركاء ، فيكون المعنى : وجَعَلُوا للذي خَلَقَهم شُركاء لا يَخْلُقُون . والثاني أنَّها تَرجع إلى الجِن ، فيكون المعنى : والله خَلَقَ الجِنَّ ، فكيف يكون الشَّريك لله مُحْدَثًا ؟ ، ذَكَرَهما الزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإنسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

أفرطَ الجِنُّ في إضلال الإنس وإغوائهم . أي إنَّ الجِنَّ أضَلُّوا مِن الإنس أعدادًا كثيرة ، وكانوا سببًا في ضلالهم وانحرافهم عن طريق الإيمان والحق . والسِّياقُ يدل على التَّوبيخ والتَّقريع .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ ﴾ ، والمُراد بالجِن : الشَّياطين ، ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإنسِ ﴾ أي: استكثرتُم مِن الإنس بالإضلال والإغواء، أي: أضللتم كثيرًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والجَانَّ خَلَقْناهُ مِن قَبْلُ مِن نارِ السَّمُومِ ﴾ [الحِجْر : ٢٧] .

خَلَقَ اللهُ الجَانَّ قَبْلَ خَلْقِ الإنسان . أي : إن اللهَ خَلَقَ إبليس (أبا الجِن) قَبْلَ خَلْقِ آدم ﷺ (أبي البشر) . والجانُّ هو أبو الجِن (إبليس) ، وسُمِّيَ جَانًّا لاستتاره وعدم ظُهوره .

ونارُ السَّمُوم هي نار الحَرِّ الشديد النافذ في المَسَام ، ولا دُخَان لها .

وهذا يدل على أفضلية آدم ﷺ وشَرَفه ، وطِيب عُنصره ، ورِفعة شأنه ، وطهارة أصله .

وذِكْرُ خَلْق الإنسان والجان ، للتنبيه والدَّلالة على وَحدانية الله وقُدرته المُطْلقة ، وبيان أن القادر على النَّشأة الأُولَى (الخَلْق مِنَ العَدَم) قادرٌ على النَّشأة الأُخرى (البعث بعد الموت) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ والجَانَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه مسيخ الجِن ، كما أن القِرَدة والخنازير مَسيخ الإنس ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثاني أنَّه أبو الجِن، قاله أبو صالح عن ابن عباس.وروى عنه الضَّحاك أنه قال: الجان أبو الجن ، وليسوا بشياطين ، والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس ، والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . والثالث أنَّه إبليس ، قاله الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل . فإن قِيل : أليس أبو الجن هو إبليس ؟ ، فعنه جوابان : أحدهما أنه هو فيكون هذا القول هو الذي قَبْله ، والثاني أن الجان أبو الجن ، وإبليس أبو الشياطين ، فبينهما إذًا فَرْق على ما ذكرناه عن ابن عباس .

قال العلماء : وإنما سُمِّيَ جَانًّا لتواريه عن العيون.قَوله تعالى:﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني قَبْل خَلْق آدم ﴿ مِن نارِ السَّمُوم ﴾ . وقال ابن مسعود: مِن نار الرِّيح الحارَّة، وهي جُزء مِن سبعين جُزءًا من نار جهنَّم ، والسَّمُوم في اللغة الرِّيح الحارَّة ، وفيها نار . قال ابن السائب : وهي نار لا دُخَان لها)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٤) : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ((خُلِقَت المَلائكةُ مِن نُور ، وخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نار ، وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لكم)) .

والمَارِجُ هو اللهب المُختلِط بسَوَاد النار . وقال المُناوي في فَيض القدير (٣ / ٤٥٠) : (((خُلِقَت الملائكةُ مِن نُور ، وخُلِق الجَان) أبو الجِن أو إبليس (مِن مَارِجٍ مِن نار) ، أي مِن نار مُخْتَلِطة بهواء مشتعل . والمَرَج الاختلاط. فهو مِن عُنصرَيْن هواء ونار ، كما أن آدم من عُنصرَيْن تراب وماء ، عُجِن به ، فحدث له اسم الطين ، كما حدث للجن اسم المارج . (وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لكم). ببناء وصف للمفعول ، أي : بما وَصفه اللهُ لكم في مواضع من كتابه ، ففي بعضها أنه خَلَقه مِن ماء ، وفي بعضها من تراب ، وفي بعضها مِن المُركَّب مِنهما وهو الطين ، وفي بعضها من تراب ، وفي بعضها مِن صَلْصَال ، وهو طِين ضربته الشمسُ والريحُ حتى صار كالفَخَّار . قال الغزَّالي : قد اجتمع في الفَخَّار والنار والطين، والطِّين طَبْعه السُّكون ، والنار طبعها الحركة ، فلا يُتصوَّر نار مُشْعَلَة تَسكُن ، بل لا تزال تتحرك بطبعها ، وقد كُلِّفَ المخلوق من النار أن يطمئن من حركته ساجدًا لِمَا خُلِقَ مِن طين، فأبى واستكبر أن يَسجُد لآدم ، فلا مَطْمَع في سُجوده لأولاده. "تنبيه " قال ابن عربي : قال: (مِمَّا وُصِفَ لكم) ولَم يقل : كما قال فيما قَبْله، طَلَبًا للاختصار ، فإنه أُوتِيَ جوامع الكَلِم ، وهذا مِنها ، إذ الملائكة لَم يختلف أصل خِلْقتها ، ولا الجَان . وأمَّا الإنسان فاختلف خَلْقه على أربعة أنواع : فَخَلْقُ آدم لا يُشبِه خَلْقَ حَوَّاء ، وخَلْقُ حَوَّاء لا يُشبِه خَلْقَ آدم ، وخَلْقُ عِيسى لا يُشبِه خَلْقَ الكُل، فأحال على ما وصل إلَينا مِن تفصيل خَلْق الإنسان . ولَمَّا كان خَلْق الجَان مِن نار ،كان فيه طلب القهر والاستكبار،فإن النار أرفع الأركان مكانًا، ولها سُلطان على الإحالة، فلذلك قال: ﴿ أنا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [ص : ٧٦] . وما عَلِمَ أن سُلطان الماء الذي خُلِق منه آدم ، أقوى مِنه ، فإنه يُذهِبه ، والتراب أثبت مِنه لِبَرْده ويَبَسه ، فلآدم القُوَّة والثُّبُوت ، لِغَلَبَة ذَينك الرُّكْنَيْن عليه)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإذْنِ رَبِّهِ ﴾ [سَبَأ : ١٢] .

سخَّر اللهُ الجِنَّ للعمل بأمر النبيِّ سُلَيمان ﷺ ، وفَرَضَ عَلَيهم طاعته ، والالتزام بتَوجيهاته. وهذا يدل على المكانة الرفيعة للنبيِّ سُلَيمان ﷺ ، وتفضُّل الله عليه ، وإحسانه إلَيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٧): ((أي: وَسَخَّرْنَا له الجِنَّ يَعْمَلُون بين يَدَيه بإذن رَبِّه، أي : بقَدَره وتَسخيره لهم بمشيئته ما يَشاء مِن البنايات ، وغَير ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لَو كانوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِين ﴾ [سَبَأ : ١٤] . فلمَّا سَقَطَ النبيُّ سُلَيمان ﷺ على الأرض مَيْتًا ، عَلِمَت الجِنُّ وأيقنت أنَّهُم لو كانوا يَعرِفون الغَيْبَ_ على حَدِّ زَعْمهم _ ما مَكَثُوا واستمروا بعد مَوت النبيِّ سُلَيمان ﷺ في الأعمال الشَّاقَّة التي سخَّرهم فيها ، طِيلة هذه المُدَّة الطويلة ، وهم يظنُّونه حيًّا . وقد أرادَ اللهُ أن يُبيِّن للجِن أنهم لا يَعلَمون الغَيْبَ . ولو كانوا يَعلَمون الغَيْبَ، لأدركوا أنَّ النبيَّ سُلَيمان ﷺ قد مات مُنذُ مُدَّة طويلة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٤١ و٤٤٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ فلمَّا خَرَّ ﴾ ، أي: سَقَطَ ﴿ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ ﴾ ، أي: ظَهَرَت ، وانكشفَ للناس أنهم لا يَعلَمون الغَيْبَ ، وَلَوْ عَلِمُوا ﴿ ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِين ﴾ ، أي : ما عَمِلُوا مُسخَّرين ، وهو مَيْت ، وهُم يَظنُّونه حَيًّا . وقِيل : تَبَيَّنَت الجِنُّ ، أي : عَلِمَتْ ، لأنَّها كانت تتوهَّم باستراقها السَّمْع أنَّها تَعلَم الغَيْبَ ، فَعَلِمَتْ حينئذ خطأها في ظَنِّها)) اهـ . وفي صَفوة التفاسير (٢/ ٥٤٨) : ((قال المُفسِّرون : كانت الإنس تقول : إنَّ الجِن يَعلَمون الغَيْبَ ، الذي يكون في المُستقبل ، فوقف سُلَيمان في مِحرابه يُصلِّي مُتَوَكِّئًا على عصاه ، فمات ومكث على ذلك سنةً ، والجِنُّ تَعْمَل تلك الأعمال الشاقة، ولا تَعلَم بمَوته، حتى أكلت الأرَضَةُ عصا سُلَيمان فسقط على الأرض فَعَلِمَوا مَوْتَه، وعَلِمَ الإنسُ أنَّ الجِنَّ لا تَعلَم الغَيْبَ، لأنهم لَوْ عَلِمُوه لَمَا أقاموا هذه المُدَّة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنُّون أنَّه حَي ، وهو عليه السَّلام مَيْت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجعلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُم لَمُحْضَرُون ﴾ [الصَّافَّات : ١٥٨]. وجَعَلَ المُشركون بين الله تعالى وبين الملائكة قرابةً ونَسَبًا ، حيث زَعَمُوا أن الملائكة بنات الله ، تعالى اللهُ وتَقَدَّسَ عن ذلك ، ولقد عَلِمَت الملائكةُ أن المُشركين الذين قالوا هذا القولَ الشنيع مُعذَّبون في النار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٩١) : ((﴿ وَجَعلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهُم قالوا : هو وإبليس أخَوَان ، رواه العَوفي عن ابن عباس . قال الماوردي : وهو قَول الزَّنادقة ، والذين يقولون : الخَير مِن الله ، والشَّر مِن إبليس . والثاني أنَّ كُفَّار قُرَيش قالوا : الملائكة بنات الله . والجِنَّةُ صِنف مِن الملائكة ، يُقَال لهم الجِنَّة ، قاله مُجاهد . والثالث أن اليهود قالت : إنَّ الله تعالى تزوَّجَ إلى الجِن، فخرجت مِن بينهم الملائكة ، قاله قَتادة وابن

السائب . فَخَرَجَ في مَعنى الجِنَّة قَولان: أحدهما أنَّهم الملائكة، والثاني الجِن . فعلى الأول يكون معنى قَوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ ﴾ أي: عَلِمَت الملائكةُ إنَّهُم أي إن هؤلاء المُشركين لَمُحْضَرُون النار . وعلى الثاني : ولقد عَلِمَت الجِنَّةُ إنَّهُم أي إنَّ الجِنَّ أنفُسَها لَمُحْضَرُون الحِساب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَار ﴾ [الرَّحمن : ١٥] .

خَلَقَ اللهُ الجِنَّ مِن لَهَبٍ خالصٍ لا دُخَان فِيه مِنَ النار.وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٤٤) : ((﴿ وَخَلَقَ الجَانَّ ﴾ وهو أبو الجِن. وقال الضَّحاك: هو إبليس ﴿ مِن مَارِجٍ مِن نَار ﴾ وهو الصافي مِن لَهَب النار الذي لا دُخَان فيه. قال مُجاهد : وهو ما اختلط بَعْضُه ببَعْضٍ من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدَتْ ، مِن قَولهم : مَرَجَ أمرُ القَوم ، إذا اختلطَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فقالوا إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجِن: ١]. يَأمرُ اللهُ رَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُخبِر قَوْمَه أن الجِنَّ استمعوا القُرآنَ، فتأثَّروا بِعَظَمته ، وإعجازِه، وفصاحته ، وحُسْنِ نَظْمِه ، وبلاغةِ أسلوبه، ومواعظِه الجليلة ، فآمَنوا بِه . وهذا تَوبيخٌ لِمُشركي العرب،حيث إن القُرآن نزل بِلُغتهم ، فلم يتأثروا به ، وكذَّبوه ، في حِينَ أن الجِنَّ استمعوا القُرآنَ بِكُلِّ تركيزٍ، وأدْرَكوا أنه ليس كلام بَشَر ، بسبب تفوُّقه ، وعَظَمته ، فصدَّقوا بِه ، وآمَنوا.

وَلَم يَعْلَم النبيُّ ﷺ أن الجِنَّ قد استمعوا القُرآنَ قبل إخبار الوَحْي بذلك. والنبيُّ ﷺ لَم يَرَهم، وهذا واضحٌ في قَوْله تعالى : ﴿ استمعَ ﴾ ، وقَوْله تعالى: ﴿ وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩]. وفي صحيح مسلم(١/ ٣٣١) عن ابن عباس_ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجِنِّ ، وما رَآهُم)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٧) : ((﴿ أنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾ ، والنَّفَرُ ما بين الثلاثة إلى العَشَرَة ، و﴿ الجِنِّ ﴾ أجسام عاقلة خَفِيَّة يَغلِب عليهم النارية أو الهوائية. وقِيل: نوع من الأرواح المُجرَّدة. وقِيل : نفوس بشرية مُفارِقة عن أبدانها. وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتَّفق حُضُورُهم في بعض أوقات قراءته ، فسمعوها ، فأخبر اللهُ به رسولَه ، ﴿ فقالوا ﴾ لَمَّا رجعوا إلى قومهم : ﴿ إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا ﴾ كِتابًا ﴿ عَجَبًا ﴾ بَديعًا مُبَايِنًا لكلام الناس في حُسْنِ نَظْمِه ، ودِقَّةِ معناه . وهو مَصْدَر وُصف به للمُبالَغة)) .

وقد تحدَّث القرآنُ عن استماع الجِنِّ للقُرآن لِمَا رَأَوْا فِيه مِن القداسة والجلال . مِمَّا يشير _ بلا شك _ إلى أن القرآن يُؤثِّر في كل المخلوقات على اختلاف جِنْسِها . وإنْ لم يَشعُر المخلوقُ بتأثير القُرآن ، فالمشكلة في المخلوق ، وليس في القُرآن الكريم .

٨_ الشَّيطان

أ_ سُلوكه الشَّيطاني

إنَّ الشَّيطان هو العدو الخطير الذي يُهدِّد حياةَ الإنسان ومصيرَه . فهو لا يُقصِّر في جلب المفاسد والوساوس إلى الحياة الإنسانية مِن كُل الجهات ، وذلك من أجل تدمير الإنسان ، ونَقْله مِن نُور الإيمان والحق إلى ظُلمات الكُفر والباطل ، وإبعاده عن نعيم الجَنَّة ، وقِيادته إلى عذاب النار. وسُمِّيَ الشَّيطان بهذا الاسم لبُعده عن الحق والخَير ، وامتداده في الشَّر ، وتمرُّده ، وطُغيانه.

وتتَّضح خُطورة الشَّيطان في كثرة ألاعيبه وأساليبه الرامية إلى إبعاد الناس عن الشريعة الإلهية كَي يَغرقوا في الكُفر والعِصيان والشَّهَوَات ، ويخسروا الدُّنيا والآخرة . وهذا هو حُلْمُ حياته الذي يسعى إلى تحقيقه بأي ثمن . ومن خلال سلوكيات الشَّيطان تبرز صفاته السيئة، وأساليبه الخبيثة، وعداوته الدائمة للإنسان في كل زمان ومكان . وتتَّضح أهدافُه الشريرة في تدمير الحياة البشرية ، وتعكيرِ صَفْوها . وقد بيَّنت الشريعةُ المُحمَّدية الإسلامية للبشر طبيعةَ الشَّيطان وأفعاله كَي يَنتبه الناسُ ، ويَأخذوا الحَيطةَ والحَذَر ، ويتَّخذوه عَدُوًّا مُستعينين بالله القادر على كُل شيء .

والجديرُ بالذِّكر أن الإيمان بوُجود الشَّيطان مِنَ المَعلوم مِنَ الدِّين بالضَّرورة ، فالشَّيطان قد ذُكر في القرآن في آيات كثيرة . ومُنْكِرُ وُجوده كافرٌ بسبب تكذيبه لكلام الله تعالى . وعَلى الإنسان أن يَعرِف كيفيةَ التعامل معه ، لأن الانتصار على العدو لا يتحقق إلا بمعرفة حقيقته .

وعداوة الشيطان للإنسان قديمةٌ ، فقد بدأت عِندما رَفَضَ إبليسُ اللعين السُّجُودَ لآدم ﷺ تَكَبُّرًا على أمر الله تعالى . فقد رأى إبليسُ نَفْسَه أعظمَ مِن آدم ﷺ ، لأنَّه خُلِقَ مِن نار ، وآدم خُلق مِن طِين . وقد استحق إبليسُ الطَّرْدَ ، لأنَّه قَاسَ الموضوعَ وَفْقَ تفكيره القاصر ، رَافِضًا أمرَ الله تعالى. وقد اعتقد إبليس بكُل جَهل وغُرور أنَّ النار لصُعودها وخِفَّتها ولَمعانها أفضل من الطين.

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَعَنَهُ اللهُ وقالَ لأتَّخِذَنَّ مِن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ [النِّساء : ١١٨].

أخْزَى اللهُ الشَّيطانَ ، وأخرجه مِن الجَنَّة ، وأبعده مِن رحمته ، وقال الشَّيطانُ (إبليسُ) : لأتَّخِذَنَّ مِن عبادك بإغوائي وإضلالي نصيبًا مُعَيَّنًا مَعلومًا . والمقصود : مَن اتَّبَعَ إبليسَ وأطاعه .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُ اللهُ ﴾ ، أصل اللعن الإبعاد ، وهو في العُرف إبعاد مُقترن بسَخَط وغَضَب، فلعنةُ الله على إبليس _عليه لعنة الله _ على التعيين جائزة ، وكذلك سائر الكَفَرَة المَوتى كفِرْعَوْن وهامان وأبي جَهْل ... . قَوله تعالى : ﴿ وقالَ لأتَّخِذَنَّ

مِن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ، أي : وقال الشَّيطان : والمعنى : لأسْتَخْلِصَنَّهُم بغَوَايتي ، وأُضِلَّنَّهُم بإضلالي ، وهُم الكَفَرَة والعُصَاة . وفي الخَبَر : " مِن كُل ألف واحد لله ، والباقي للشَّيطان " . قلتُ : وهذا صحيح مَعْنًى ، يُعضِّده قَوْلُه تعالى لآدم يوم القيامة : ((ابْعَثْ بَعْثَ النار ، فيقول : وما بَعْثُ النار ؟ ، فيقول : مِن كُلِّ ألفٍ تِسْعُمَائةٍ وتِسْعٌ وتِسْعُون)) ، أخرجه مسلم . وبَعْثُ النار مع نصيب الشيطان ، والله أعلم . وقِيل : مِن النَّصيب طاعتهم إيَّاه في أشياء ، مِنها أنَّهُم كانوا يَضربون للمَولود مِسمارًا عِند وِلادته ، ودَوَرَانهم به يَوْم أُسبوعه ، يقولون : لِيَعْرِفَه العُمَّار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهُم ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرَنَّهُم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ [النِّساء : ١١٩] .

أخبرَ اللهُ تعالى عَن الشَّيطان أنَّه سيَصرِف الناسَ عن طريق الحق والهُدى ، ويُلقي في قلوبهم الأماني الباطلة ، مِثل : طُول الحياة ، وأن لا بَعث ولا حِسَاب ، ويأمرهم فيُشقِّقون آذانَ الأنعام (البَحِيرة والسَّائبة) كما كانوا يَفعَلون في الجاهلية ، ويأمرهم فيُغيِّرون دِينَ اللهِ بالكُفر والضلال والذنوب والمعاصي ، وتَحليل ما حرَّم الله ، وتحريم ما أحَلَّ اللهُ . ومَن يُطِع الشَّيطانَ ويَتَوَلَّه، ويَخضع لغَوايته ووساوسه وتزيينه، ويَترك أوامرَ الله وشريعته ، فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرة،وهو خالد في عذاب النار ، ولَيس له نصيب في الجَنَّة.وهذا هو الخِزْيُ العظيم ، والخسارة التي ما بعدها خسارة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٤و ٢٠٥) : ((قوله تعالى : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ﴾ ، قال ابن عباس: عن سبيل الهُدى . وقال غَيْرُه : لَيس له مِن الضَّلال سِوى الدُّعاء إلَيه . وفي قَوله: ﴿ ولأُمَنِّيَنَّهُم ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنَّه الكذب الذي يُخبرهم به . قال ابن عباس : يقول لَهُم : لا جنة ، ولا نار ، ولا بَعْث . والثاني أنَّه التَّسويف بالتَّوبة ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثالث أنَّه إيهامهم أنَّهُم سينالون مِن الآخرة حَظًّا ، قاله الزَّجاج . والرابع أنَّه تزيين الأماني لهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . قَوله تعالى : ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ﴾ ، قال قَتادة وعِكرمة والسُّدي : هو شَق أُذُن البَحِيرة . قال الزَّجاج : ومعنى " يُبَتِّكُنَّ " يُشقِّقن ، ... . وهذا في البَحِيرة ، كانت الجاهلية إذا وَلَدَت الناقةُ خمسة أبطُن، وكان الخامس ذَكَرًا، شَقُّوا أُذُنَ الناقة ، وامتنعوا مِن الانتفاع بها، ولم تُطرَد عَن ماء، ولا مرعى ، وإذا لَقِيَها المُعْيي (المُنقطع به) لَم يَركَبها . سوَّل لهم إبليسُ أنَّ هذا قُربة إلى الله تعالى.وفي المُراد بتغيير خَلْق الله خمسة أقوال:أحدها أنَّه تغيير دِين الله رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن في رواية ، وسعيد بن المُسيِّب وابن جُبَير

والنَّخَعي والضَّحاك والسُّدي وابن زيد ومُقاتل . وقِيل : معنى تغيير الدِّين تحليل الحرام وتحريم الحلال . والثاني أنَّه تغيير الخَلْق بالخِصَاء ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وهو مرويٌّ عن أنس ابن مالك ، وعن مُجاهد وقَتادة وعِكرمة كالقَوْلَيْن . والثالث أنَّه التغيير بالوَشْم ، وهو قول ابن مسعود والحسن في رواية . والرابع أنَّه تغيير أمر الله ، رواه أبو شَيبة عن عطاء . والخامس أنَّه عِبادة الشمس والقمر والحِجارة ، وتحريم ما حرَّموا من الأنعام،وإنَّما خُلق ذلك للانتفاع به،قاله الزَّجاج . قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، في المُراد بالوَلِيِّ قَولان : أحدهما أنَّه بمعنى الرَّب ، قاله مُقاتل . والثاني مِن المُوَالاة ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي ، فإنْ قال قائل : مِن أين لإبليس العِلْم بالعواقب حتى قال : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ﴾ . وقال في [الأعراف : ١٧]: ﴿ ولا تَجِدُ أكثرَهُم شاكرين ﴾ . وقال في [بني إسرائيل : ٦٢] _ يعني في سُورة الإسراء _ : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلًا ﴾ . فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّه ظَنَّ ذلك ، فتحقَّق ظَنُّه ، وذلك قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِم إبليسُ ظَنَّهُ ﴾ [سَبَأ : ٢٠] ،قاله الحسن وابن زيد . وفي سبب ذلك الظَّن قَولان : أحدهما أنَّه لمَّا قالَ اللهُ تعالى له : ﴿ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُم أجْمَعِين ﴾ [ص : ٨٥] ، عَلِمَ أنَّه ينال ما يُريد . والثاني أنَّه لمَّا استزلَّ آدمَ ، قال: ذُرِّية هذا أضعف مِنه . والثاني أنَّ المعنى لأُحَرِّضَنَّ ولأَجْتَهِدَنَّ في ذلك ، لا أنَّه كان يَعلَم الغَيْب ، قاله ابن الأنباري . والثالث أنَّ مِن الجائز أن يكون عَلِمَ مِن جِهة الملائكة ، بخَبَر مِن الله تعالى ، أن أكثر الخَلْق لا يَشكُرون ، ذَكَرَه الماوردي . فإنْ قِيل : فَلِمَ اقتصرَ على بَعْضِهم ، فقال : ﴿ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تَجِدُ أكثرَهُم شاكرين ﴾ . وقال : ﴿ إلا قَلِيلًا ﴾ ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّه يَجُوز أن يَكُون عَلِمَ مَآلَ الخَلْقِ مِن جِهة الملائكة كَمَا بَيَّنا . والثاني أنَّه لَمَّا لَم يَنَلْ مِن آدم كُلَّ ما يُريد ، طَمِعَ في بَعْض أولاده ، وأَيِسَ مِن بَعْض . والثالث أنَّه لمَّا عَايَنَ الجَنَّةَ والنارَ ، عَلِمَ أنَّهما خُلقتا لِمَن يَسكنهما ، فأشار بالنَّصيب المَفرُوض إلى ساكني النار)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَعِدُهُم ويُمَنِّيهِم وما يَعِدُهُم الشَّيطانُ إلا غُرُورًا ﴾ [النِّساء : ١٢٠] .

يَعِدُ الشَّيطانُ أولياءه أنَّ لهم السعادة في الدُّنيا وطُول العُمُر ، ويُمنِّيهم بالأكاذيب كتحقيق الرَّغَبَات في الدُّنيا ، وأن لا بَعْث ولا جَنَّة ولا نار . وما يَعِدُهم الشَّيطانُ إلا باطلًا .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُم ﴾ ، المَعنى : يَعِدُهُم أباطيلَه وتُرَّهاتِه مِن المال والجاه والرِّياسة ، وأن لا بَعْث ، ولا عِقَاب ، ويُوهِمهم الفَقْرَ حَتَّى لا يُنفقوا في الخَير ، ﴿ ويُمَنِّيهِم ﴾ كذلك ، ﴿ وما يَعِدُهُم الشَّيطانُ إلا غُرُورًا ﴾ ، أي : خديعة . قال

ابن عَرَفَة : الغُرور ما رَأيتَ له ظاهرًا تُحِبُّه ، وفيه باطن مَكروه أوْ مَجهول ، والشَّيطان غَرور ، لأنَّه يَحمِل على مَحَابِّ النَّفْسِ ، ووراء ذلك ما يَسُوء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالَ ما مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِن نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِين ﴾ [الأعراف : ١٢] .

قال اللهُ تعالى لإبليس : أيُّ شيء مَنَعَكَ أن تَدَعَ السُّجُودَ لآدم ؟ . وهذا سؤال توبيخ لإبليس ، وإظهار لعِناده . قال إبليس اللعين: أنا أفضل مِن آدم وأشرف مِنه، فكيفَ يَسجد الأعلى للأدنى، والفاضل للمَفضول؟. وهكذا سَنَّ إبليسُ التَّكَبُّرَ ، واعتمد على عقله القاصر ورأيه المُجرَّد في التحسين والتقبيح . وقدَّم إبليسُ تبريره الواهي ، فقال : خَلَقْتني مِن نار ، وخَلَقْتَ آدمَ مِن طِين . والمقصود أنَّ النار أعظم مِن الطين ، وعُنصر إبليس أرقى وأفضل مِن عُنصر آدم . وقد انحصرَ تفكيرُ إبليس الخبيث في أصل الخِلْقة ، ولَم يَلتفت إلى وُجوب تنفيذ أمر الله الخالق العظيم . والشَّريفُ مَن شرَّفه اللهُ ، والفاضل مَن نفَّذ أمرَ الله تعالى . وقد ارتكبَ إبليسُ الخطأ القاتل حِين قاسَ بعقله القاصر معَ وُجود الأمر الإلهيِّ ، والأمرُ يَقتضي الوُجُوبَ بِمُطْلَقِه بلا قرينة .

وخَفِيَ على إبليس أن الطِّين أفضل مِن النار ، وعُنصر آدم أعظم وأرقى مِن عُنصر إبليس . فَمِن طَبْع الطِّين الهُدوء والرَّزانة ، ومِن طَبْع النار الطَّيْش والالتهاب . والطِّين سبب الإنبات والإيجاد ، والنار سبب الإعدام والإهلاك . والطِّين سَبب جَمْع الأشياء ، والنار سبب تفريقها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٢) : ((وقَول إبليس لَعَنَه اللهُ : ﴿ أنا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ مِن العُذر الذي هو أكبر مِن الذَّنْب، كأنه امتنعَ مِن الطاعة ، لأنَّه لا يُؤْمَر الفاضل بالسُّجود للمَفضول، يعني لَعَنَه اللهُ : وأنا خَيْرٌ مِنه ، فكيف تأمرني بالسُّجود له ؟ . ثُمَّ بيَّن أنَّه خَير مِنه بأنَّه خُلق مِن نار، والنار أشرف مِمَّا خَلَقْتَه مِنه وهو الطِّين ، فَنَظَرَ اللعينُ إلى أصل العُنصر ، ولَم يَنظُر إلى التَّشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خَلَقَ آدمَ بيده ، ونَفَخَ فِيه مِن رُوحه . وقاسَ قِيَاسًا فاسدًا في مُقَابَلَة نَص قَوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين ﴾ ، فَشَذَّ مِن بَيْن المَلائكة لتَرك السُّجود ، فهذا أبْلَسَ مِن الرَّحمة ، أي : وأَيِسَ مِن الرَّحمة فأخطأ قبَّحه اللهُ في قِياسه ودَعْواه أنَّ النَّار أشرف مِن الطِّين أيضًا، فإنَّ الطِّين مِن شأنه الرَّزانة ، والحِلْم ، والأناة ، والتَّثَبُّت . والطِّين مَحَل النَّبَات ، والنُّمُو ، والزيادة، والإصلاح . والنار مِن شأنها الإحراق، والطَّيش ، والسُّرعة ، ولهذا خانَ إبليسُ عُنْصُرَه ، ونَفَعَ آدمُ عُنْصُرَه بالرُّجوع ، والإنابة ، والاستكانة ، والانقياد ، والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف ، وطَلَب التَّوبة والمَغفرة)) .

وعن ابن سيرين قال:((أَوَّلُ مَن قاسَ إبليسُ، وما عُبدت الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس))[٣٧٣].

كُلُّ مَن يَقِيس برأيه وهَوَاه دُون عِلْمٍ ولا بصيرة ، فَسَلَفُه في هذا المجال إبليس الذي أعرضَ عن أمر الله تعالى ، بسبب لَوثةٍ في عَقله المحدود. فيَنبغي للمَرء قبل إصداره للأحكام أن يتثبَّت ، ويبنيَ أفكاره على قاعدة إيمانية معرفية صُلبة ، فيسعى إلى الحَق جاهدًا ، بلا أهواء ذاتية ، ولا مصالح شخصية . ولا يمكن الوصول إلى الحق إلا عَبْر سُلوك الصِّراط المستقيم ، فالغايةُ الصالحة لا بُد لها من طريق صالح . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦].

قال إبليسُ لِرَبِّه تباركَ وتعالى : فبسبب إغوائك وإضلالك لي ، سأسعى في إغواء بني آدم وإضلالهم ، ولأَقْعُدَنَّ لهم على طريقك المُستقيم (طريق الإسلام) المُوصِل إلى الجَنَّة ، بتزيين الذنوب والمعاصي لهم . وهذا يعني أن إبليس سيُحاول جاهدًا قطع طريق الإسلام أمامهم ، ومنعهم مِن اعتناقه ، وإبعادهم عن الحق والخَير ،كَي يَخسروا سعادةَ الدُّنيا ونعيمَ الآخِرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٥٥): ((قَوله تعالى : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ، الإغواء إيقاع الغَي في القلب ، أي : فَبِمَا أوقعتَ في قلبي مِن الغَي والعِناد والاستكبار ، وهذا لأنَّ كُفر إبليس لَيس كُفر جَهْل ، بل هو كُفر عِناد واستكبار . قِيل : معنى الكلام القَسَم ، أي : فبإغوائك إيَّاي لأَقْعُدَنَّ لهم على صِراطك ، أو في صِراطك ، فَحَذف. دليل هذا القَول قَوله في (ص): ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعِين ﴾ [ص : ٨٢] . فكأن إبليس أعظمَ قَدْرَ إغواء الله إيَّاه لِمَا فِيه مِن التَّسليط على العِباد ، فأقسم به إعظامًا لقَدْره عِنده. وقِيل : الباء بمعنى اللام كأنَّه قال : فلإغوائك إيَّاي. وقِيل : هي بمعنى " مع " ، والمعنى : فَمَعَ إغوائك إيَّاي . وقِيل : هو استفهام ، كأنَّه سأل بأيِّ شَيء أغواه ؟ ، وكان ينبغي على هذا أن يكون : فَبِمَ أَغْوَيْتني ؟ . وقِيل : المعنى : فَبِمَا أهلكتني بلَعْنك إيَّاي ، والإغواء الإهلاك ... . وقِيل : فَبِما أضللتني ، والإغواء : الإضلال والإبعاد ، قاله ابن عباس . وقِيل : خَيَّبْتَنِي مِن رَحمتك ... . مذهب أهل السُّنَّة أنَّ الله تعالى أضَلَّه ، وخَلَقَ فِيه الكُفْرَ ، ولذلك نَسَبَ الإغواءَ في هذا إلى الله تعالى ، وهو الحقيقة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مَخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى . وخالفَ الإمامية والقَدَرِيَّة وغَيرهما شَيْخَهم إبليس الذي طاوعوه في كُل ما زيَّنه لهم ، ولَم يُطاوعوه في هذه المسألة ، ويقولون : أخطأ إبليس ، وهو أهل

٣٧٣ رواه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٣٨) بسند صحَّحه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٢) .

للخطأ حيث نَسَبَ الغَواية إلى ربِّه، تعالى اللهُ عن ذلك، فيُقال لهم: وإبليس وإنْ كان أهْلًا للخطأ ، فما تصنعون في نبيٍّ مُكرَّم مَعصوم، وهو نُوح عليه السلام حيث قال لقَومه : ﴿ ولا يَنفَعُكم نُصْحي إن أردتُ أن أنصَحَ لَكُم إن كانَ اللهُ يُريدُ أن يُغْوِيَكُم هُوَ رَبُّكُم وإلَيْهِ تُرجَعون ﴾ [هُود : ٣٤] .

وقد رُوِيَ أن طاوسًا جاءه رَجُل في المسجد الحرام، وكان مُتَّهَمًا بالقَدَر ، وكان مِن الفُقَهاء الكِبار، فجلس إليه ، فقال له طاوس : تَقُوم أو تُقَام ؟ ، فقِيل لطاوس : تقول هذا لرَجُل فقيه !. فقال : إبليس أفقه مِنه ، يقول إبليس : رَبِّ بِمَا أغْوَيْتني ، ويقول هذا : أنا أُغْوِي نَفْسي . قَوله تعالى : ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ﴾ ، أي : بالصَّد عَنه ، وتزيين الباطل حتى يَهلَكوا كما هَلَكَ ، أوْ يَضِلُّوا كما ضَلَّ، أوْ يُخيَّبوا كما خُيِّب... . والصراط المستقيم هو الطريق المُوصل إلى الجنة)).

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١٠/ ٤٥٣): عن سَبْرَة بن أبي فَاكِه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال : ((إنَّ الشَّيطان قَعَدَ لابنِ آدمَ بطريق الإسلام ، فقال له : تُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائك، فعصاه فأسلمَ ، فغُفر له ، فَقَعَدَ له بطريق الهِجرة ، فقال له : تُهاجر وتَذَرُ أرْضَكَ وسَماءك، فعصاه فهاجرَ ، فَقَعَدَ له بطريق الجِهاد ، فقال له : تُجاهد وهو جَهْدُ النَّفْسِ والمال ، فتُقَاتِل فتُقتَل ، فتُنكَح المَرأة ، ويُقْسَم المال ، فعصاه فجاهدَ . فقال رسول الله ﷺ : فَمَن فَعَلَ ذلك فمات ، كان حَقًّا على الله أن يُدخله الجَنَّةَ ، أو قُتل كان حَقًّا على الله أن يُدخله الجَنَّةَ ، وإن غَرِقَ كان حَقًّا على الله أن يُدخله الجَنَّةَ ، أو وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كان حقًّا على الله أن يُدخله الجَنَّةَ)) .

هذا الحديثُ يُوضِّح عداوةَ الشَّيطان للإنسان ، فهو يُوَسْوِس له ، ليَمنعه مِن كُل خَير . والشَّيطانُ قَعَدَ لابن آدم على طريق الإسلام ، ليَمنعه مِن اعتناق الإسلام ، وذلك بتذكيره بدِينه القديم ودِين آبائه ، وضرورة التَّمسُّك بتقليد الآباء ، والإعراض عن الإسلام ، فخالفه ابنُ آدم ، فأسلمَ . وقَعَدَ الشَّيطان لابن آدم على طريق الهِجرة ، ليَمنعه مِن الهِجرة ، وخوَّفه مِن تَرك الوطن ، فخالفه ابنُ آدم ، فهاجرَ . وقعد الشَّيطان لابن آدم على طريق الجهاد ، ليَمنعه مِن القتال في سبيل الله ، وخوَّفه مِن بَذل النَّفْس والمال ، والقتال ، والقَتل ، ويتزوَّج زَوْجَتَكَ رَجُلٌ غَيْرُك ، ويَذهب المال للوَرَثة، فخالفه ابن آدم ، فجاهدَ. وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ مَن عَصَى الشَّيطانَ وخالفه ، وأسلمَ وهاجرَ وجاهدَ ، كان جزاؤه أن يُدخله اللهُ الجَنَّةَ . ومهما كانت طريقة مَوته في سبيل الله ، فجزاؤه أن يُدخله اللهُ الجَنَّةَ . والحديثُ يُوضِّح ضرورة الاستعانة بالله لمُقاومة وساوس الشَّيطان ، ورفضها . والشَّيطان عدو خبيث يُحاول جاهدًا مَنع العبد مِن كُل خَير ، وإبعاده عن طريق الحق والهُدى. لذلك، يجب أخذ الحَيطة والحَذَر، وإهمال وساوس الشَّيطان ، والحِرص على الطاعات.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِن خَلْفِهِم وَعَن أَيْمَانِهِم وعَن شَمَائِلِهِم ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُم شاكرين ﴾ [الأعراف : ١٧] . يُبيِّن اللهُ قَوْلَ إبليس اللعين ، حيث تعهَّد بإغواء العِبَاد وإضلالهم ، وذلك بأن يأتيَهم مِن الجهات الأربع لصَدِّهم عن الإسلام ، وإبعادهم عن طريق الحق والهُدى ، وإغراقهم في الذُّنُوب والمعاصي .

﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ : يعني آخرتهم التي يَرِدُون عَلَيها ، فأُشكِّكهم فيها . ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ : دُنياهم، فأُرغِّبهم فيها. ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ ، أُشبِّه عَلَيهم أمرَ دِينهم ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ أُشهِّي لهم المعاصي.ولم يَقُلْ: مِن فَوقهم، لأنَّ الشَّيطان لا يَستطيع أن يَحُول بينهم وبين رحمة الله التي تَنزِل مِن فَوقهم . ﴿ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُم شاكرين ﴾ ، ولا تَجِد أكثرَ الناس مُوحِّدين طائعين .

وإبليسُ قال هذا الكلامَ على الظَّن ، لكنَّه وافقَ الواقعَ ، كما قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِم إبليسُ ظَنَّهُ ﴾ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٧٦ و١٧٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِن خَلْفِهِم وَعَن أَيْمَانِهِم وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ ، فيه سبعة أقوال : أحدها ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ أُشكِّكهم في آخِرتهم ، ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ أُرغِّبهم في دُنياهم ، ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ ، أي : مِن قِبَل حَسَنَاتهم ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ ، مِن قِبَل سَيِّئاتهم ، قاله ابن عباس . والثاني مِثْلُه ، إلا أنهم جَعلوا ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ الدُّنيا، ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ الآخرة، قاله النَّخَعي والحَكَم بن عُتَيبة. والثالث مِثْل الثاني ، إلا أنَّهُم جَعلوا ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ مِن قِبَل الحَق ، أَصُدُّهُم عنه ، ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ مِن قِبَل الباطل، أَرُدُّهُم إلَيه، قاله مجاهد والسُّدي. والرابع ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ مِن سَبيل الحَق ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ مِن سبيل الباطل ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ مِن قِبَل آخِرتهم ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ مِن أمر الدُّنيا ، قاله أبو صالح . والخامس ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ ، ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ ، مِن حَيث يُبصِرون ، ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ ، ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ ، مِن حَيث لا يُبصِرون ، نُقِلَ عن مُجاهد أيضًا . والسادس أنَّ المعنى لأتَصَرَّفَنَّ لهم في الإضلال مِن جَميع جِهَاتهم ، قاله الزَّجاج وأبو سُلَيمان الدمشقي . فعلى هذا يكون ذِكْر هذه الجِهَات للمُبالغة في التَّأكيد . والسابع ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم﴾ فيما بَقِيَ من أعمارهم ، فلا يُقْدِمُون فيه على طاعة ، ﴿ وَمِن خَلْفِهِم ﴾ فيما مضى من أعمارهم ، فلا يتوبون فيه مِن مَعصية ﴿ وَعَن أَيْمَانِهِم ﴾ مِن قِبَل الغِنى ، فلا يُنفقونه في مَشكور ، ﴿ وعَن شَمَائِلِهِم ﴾ مِن قِبَل الفَقْر ، فلا يَمتنعون فِيه مِن مَحظور ، قاله الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُم شاكرين ﴾ فيه قَولان : أحدهما مُوحِّدين ، قاله ابن عباس . والثاني شاكرين لِنِعْمتك ، قاله مقاتل)) .

وقد جاء التَّوجيهُ النبويُّ إلى ضرورة الاستعاذة مِن تَسَلُّط الشَّيطان على الإنسان مِن كُلِّ جِهَاته.
فقد روى الحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٨) وصحَّحه : عن ابن عُمر _ رضي اللهُ عنهما _ قال: لَم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الكلماتِ حِين يُصبح، وحِين يُمْسِي:((اللهُمَّ إنِّي أسألك العَفْوَ والعافيةَ في دِيني ودُنيايَ وأهلي ومالي، اللهُمَّ اسْتُرْ عَوْراتي، وَآمِنْ رَوْعَاتي ، اللهُمَّ احْفَظْني مِن بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِن خَلْفي، وعَن يَمِيني ، وعَن شِمَالي ، ومِن فَوْقي ، وأعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أن أُغْتَالَ مِن تَحْتي)).
كان النبيُّ ﷺ يَلجَأ إلى الله تعالى دائمًا ، ويَدعوه باستمرار ، ويَتَضَرَّع إلَيه بكُل إيمان وخُشوع. وكان يَطلُب مِنه المغفرةَ والسلامةَ في الدُّنيا والآخرة ، والزَّوجات والأولاد والأقارب ، والمال ، وأن يَستُر كُلَّ ما يَسؤوه نَشْرُه مِن المعايب ، وأن يُؤَمِّنه ويُريحه مِن كُل ما يُخيفه ويُفْزِعه ، وأن يَحفَظه مِن كُل الجِهات التي يُمكن أن يُصيبه مِنها شَر أو مَكروه ، وأن يَحفَظه مِن الخَسْف به . والتأكيدُ على تحديد الخَسْف والهلاك مِن الجِهة السُّفْلِيَّة " مِن تَحْتي "، لشِدَّة المُصيبة والشَّر به .
وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ رَجِيم ﴾ [الحِجْر : ١٧] .
حَفِظَ اللهُ السَّمَاءَ الدُّنيا بالشُّهُب مِن كُل شَيطان لعين مَطرود مِن رحمة الله ، أوْ مَرْمِيٍّ بالنُّجُوم.
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٧و٣٨٨ و٣٨٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ رَجِيم ﴾ ، أي : حَفِظْناها أن يَصِلَ إليها شَيطان ، أوْ يَعلَم مِن أمرها شيئًا إلا استراقًا، ثُمَّ يَتبعه الشِّهاب. واختلف العلماءُ: هل كانت الشياطين تُرمَى بالنُّجُوم قبل مَبعَث نَبِيِّنا ﷺ أم لا ؟. على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّها لَم تُرْمَ حتى بُعث ﷺ ، وهذا المعنى مَذكور في رواية سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . وقد أخرج في الصحيحَيْن من حديث سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : ((انطلقَ رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خَبر السَّماء ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُب)) . وظاهر هذا الحديث أنَّها لَم تكن قَبل ذلك . قال الزَّجاج: ويدل على أنَّها إنَّما كانت بعد مَولِد رسول الله ﷺ أنَّ شُعراء العرب الذين يُمثِّلون بالبَرْق والأشياء المُسرعة ، لَم يُوجَد في أشعارها ذِكْر الكواكب المُنْقَضَّة ، فلمَّا حَدثت بعد مَولِد نَبِيِّنا ﷺ ، استعملت الشعراءُ ذِكْرَها ، فقال ذو الرُّمَّة : كأنَّه كَوكب في إثرِ عِفْرِيَةٍ ... مُسَوَّم في سَواد الليل مُنْقَضِبُ. والثاني أنَّه قد كان ذلك قبل نَبِيِّنا ﷺ ، فروى مسلم في صحيحه من حديث عليِّ ابن الحُسَين عن ابن عباس ، قال : بَينما النبيُّ ﷺ جالس في نَفَر مِن أصحابه إذْ رُمِيَ بنَجْم فاستنار ، فقال: " ما كُنتم تقولون إذا كان مِثْلُ هذا في الجاهلية ؟ " ، قالوا : كُنَّا نقول : يَمُوت عظيم ، أوْ يُولَد عظيم . قال : " فإنَّها لا يُرمَى بها لمَوت أحد ، ولا لحياته ، ولكنْ رَبُّنا إذا قَضَى أمرًا ، سبَّح

حَمَلَةُ العَرْشِ ، ثُمَّ سبَّح أهلُ السماء الذين يَلُونهم ، حتَّى يَبلُغ التَّسبيحُ أهلَ هذه السماء ، ثُمَّ يَستخبر أهلُ السماء السابعة حَمَلَةَ العَرْش : ماذا قال رَبُّكُم ؟ ، فيُخبرونهم ، ثُمَّ يَستخبر أهلُ كُلِّ سماء أهلَ سماء حتَّى ينتهيَ الخبرُ إلى هذه السماء ، وتَخطَف الجِنُّ ، ويُرمَون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفُون فيه _ يعني يَكْذِبُون _ ، ويزيدون " . ورُوِيَ عن ابن عباس أن الشياطين كانت لا تُحجَب عن السماوات ، فلمَّا وُلِدَ عِيسى مُنِعَتْ مِن ثلاث سماوات ، فلمَّا وُلد رسول الله ﷺ مُنِعُوا مِن السماوات كُلِّها .وقال الزُّهري: قَد كان يُرمَى بالنُّجوم قَبل مَبعَث رسول الله ، ولكنَّها غُلِّظَت حِين بُعِثَ ﷺ . وهذا مذهب ابن قُتَيبة، قال: وعلى هذا وَجَدْنا الشِّعْرَ القديم. قال بِشْر بن أبي خازم وهو جاهلي:والعَيْرُ يَرهَقها الغُبارُ وجَحْشُها... يَنْقَضُّ خَلْفَهما انقضاضَ الكَوكبِ. وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهلي : فانقض كالدِّرِّيء يَتبعه ... نقع يثور تخاله طُنُبا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا مَنِ استرقَ السَّمْعَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِين ﴾ [الحِجْر : ١٨] .

حَفِظَ اللهُ السَّمَاءَ الدُّنيا مِن كُل شَيطان لعين قد رَجَمَه اللهُ وطَرَدَه،إلا مَن اختلسَ شيئًا مِن أخبار السماء ، وخَطِفَه ، فإنَّ شِهَابًا ظاهرًا للناس (شُعلة مِن النار ساطعة) يَلحَقه ، ويُدرِكه ، ويُحرِقه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلا مَنِ استرقَ السَّمْعَ ﴾ أي : اختطفَ ما سَمِعَه مِن كلام الملائكة . قال ابن فارس : استرقَ السَّمْعَ : إذا سَمِعَ مُسْتَخْفِيًا ، ﴿ فأتْبَعَهُ ﴾ ، أي : لَحِقَه ﴿ شِهَابٌ مُبِين ﴾ . قال ابن قُتَيبة : كَوكَب مُضِيء . وقِيل : " مُبِين " بمعنى ظاهر يَراه أهل الأرض ، وإنَّما يَسترق الشَّيطانُ ما يكون من أخبار الأرض ، فأمَّا وَحْيُ الله عَزَّ وَجَلَّ ، فقد صانه عَنهُم . واختلفوا ، هل يَقْتُل الشِّهابُ أم لا ؟، على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّه يُحرِق ، ويَخبِل (يُفْسِد) ، ولا يَقْتُل ، قاله ابن عباس ومُقاتل . والثاني أنَّه يَقْتُل ، قاله الحسن . فعلى هذا القَول : هل يُقْتَل الشَّيطانُ قَبل أن يُخبِر بما سَمِعَ ؟ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّه يُقْتَل قَبل ذلك ، فعلى هذا لا تَصِل أخبارُ السماء إلى غَير الأنبياء. قال ابن عباس: ولذلك انقطعت الكِهَانةُ. والثاني أنَّه يُقْتَل بعد إلقائه ما سَمِعَ إلى غَيْرِه مِن الجِن ، ولذلك يَعُودون إلى الاستراق ، وَلَوْ لَم يَصِل لَقَطَعُوا الاستراقَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قَرَأتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النَّحْل : ٩٨] .

فإذا أردتَ تِلاوةَ القُرآنَ الكريم ، فاسأل اللهَ أن يَعْصِمَكَ ويَحفظك مِن وساوس الشَّيطان اللعين المطرود مِن رحمة الله تعالى ، لئلا يُوَسْوِس لَكَ عِند القراءة ، ويَمنعك مِن فَهْم الآيات ، وتدبُّرها ، والعمل بما فيها مِن التعاليم والأحكام والمواعظ .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٧٠) : ((﴿ فإذا قَرَأتَ القُرآنَ ﴾ فإذا أردتَ قِراءةَ القُرآن ، ﴿ فاسْتَعِذْ باللهِ ﴾ ، فعبَّر عن إرادة الفِعْل بلفظ الفِعْل ، لأنها سبب له ، والفاء للتعقيب ، إذ القراءة المُصدَّرة بالاستعاذة من العمل الصالح)) .

ومِنَ السُّنَّة أن يَستعيذ المسلمُ باللهِ مِن الشَّيطان الرَّجيم عند قراءة القرآن ، وذلكَ لمنع الشَّيطان من إفساد القراءة بالوَسْوسة والتَّشويش وتشتيت الذِّهن . والشَّيطانُ يسعى بكل قُوَّته إلى منع العبد من فهم القرآن والعملِ به.والخِطابُ شاملٌ للنبيِّ ﷺوأُمَّتِه معَ أنَّ المُخَاطَبَ هُوَ النبيُّ ﷺ. والنبيُّ ﷺ هو المُبلِّغ عن الله تعالى ، وهو الذي يَقُود مسيرةَ الدَّعوة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢٠٤): ((وإنَّما الفائدة في مُواجَهة النبيِّ ﷺ بالخِطاب أنَّه هو الدَّاعي إلى الله تعالى ، والمُبَيِّن عنه معنى ما أراد ، فَقَدَّمَ اسْمَه في الخِطاب ليكون سلوكُ الأمر في شرائع الدِّين على حَسَبَ ما يَنهَجه ويُبيِّنه لهم)) اهـ . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤٢) : ((والاستعاذة سُنَّةٌ عِند قراءة القرآن . وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القِراءة)) اهـ . وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٧/ ٤٤) : ((السِّرُّ في الاستعاذة قبل قِراءة القُرآن أن القرآن هو الذِّكْر الحكيم، والحَق المُبين، ولمَّا كان الشيطان يُثير الشُّبُهَات بوَساوسه، ويُفْسِد القلوب بدسائسه، أُمِرَ ﷺ بأن يستعيذ بالله ، ويلتجئ إلَيه عند تِلاوة القرآن، لأن قوة الإنسان تَضعُف عن دَفْعه بسُهولة، فيحتاج إلى الاستعانة بالله العَلِيِّ الكبير)) .

وعن جُبَير بن مُطْعِم ــ رضي اللهُ عنه ــ أن النبيَّ ﷺ كان إذا افتتحَ الصلاةَ قال : ((اللهُ أكبر كبيرًا ، والحمدُ لله كثيرًا ، وسُبحان اللهِ بُكْرةً وأصيلًا ــ ثلاث مرات ــ . اللهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ، مِن هَمْزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ)) [٣٧٤].

والاستعاذةُ باللهِ من الشيطان الرجيم (المطرود من رحمة الله تعالى) لها فوائدُ جَمَّة . والمسلمُ يَلجأ في كل أوقاته إلى خالقه العظيم كَي يَحْمِيَه مِن كُل سُوء ، ويَدفع عَنه كُلَّ مَكروه .

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ٤٩) : ((وحُكِيَ عن بعض السَّلَف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سَوَّلَ لكَ الخطايا ؟ ، قال : أُجاهده . قال : فإن عاد ؟ ، قال :

---

٣٧٤ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٦٠) برقم (٨٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هَمْزه : الْمُوتَة . نَفْثه : الشِّعْر . نَفْخه : الكِبْر . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ١٢١): ((وقال ابن ماجة: الْمُؤتة يعني الجنون ، والنَّفْث : نَفْخ الرَّجل مِن فِيه مِن غَير أن يَخرج رِيقُه ، والكِبْر : التِّيه)).

أُجاهده . قال : فإن عاد ؟ ، قال : أُجاهده . قال : هذا يَطول ، أرأيتَ إنْ مَررتَ بغَنَم ، فَنَبَحَكَ كلبُها ، أو مَنَعك من العبور ، ما تصنع ؟ ، قال : أُكابده وأَرُدُّه جُهدي ، قال : هذا يَطول عليك ، ولكن اسْتَعِنْ بصاحب الغَنَم يَكُفَّه عَنك)) اهـ . وهذه القصةُ تُوضِّح فائدةَ الاستعاذة .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلطانٌ على الذينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِم يَتوكَّلُون ﴾ [النَّحْل: ٩٩] .

ليس للشَّيطان سُلطة ولا تسلُّط ولا قُدرة على المؤمنين الذين صدَّقوا بوَحدانية الله ، وأقَرُّوا بنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ ، بالإغواء والإضلال والكُفر ، لأنَّ الله يُثَبِّتهم على الحق ، وهُم في حِمايته ورعايته وحِفْظه . ﴿ وَعَلى رَبِّهِم يَتوكَّلُون ﴾ ، ويَعتمدون على الله في شؤونهم ، ويُفَوِّضون أُمُورَهم إلَيه ، في كُل قَول وفِعل ، وفي كُل الأزمنة والأمكنة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٩٠) : ((في المُراد بالسُّلطان قَولان : أحدهما أنَّه التَّسَلُّط . ثُمَّ فيه ثلاثة أقوال : أحدها لَيس له عَلَيهم سُلطان بحال، لأنَّ الله صَرَفَ سُلطانَه عَنهُم بقَوله : ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيهِم سُلْطَانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِين ﴾ [الحِجْر : ٤٢] . والثاني ليس له عليهم سُلطان لاستعاذتهم مِنه . والثالث لَيس له قُدرة على أن يَحْمِلَهم على ذَنْب لا يُغفَر.والثاني أنَّه الحُجَّة فالمعنى لَيس له حُجَّة على ما يَدْعُوهم إليه مِن المَعَاصي،قاله مُجاهد)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّما سُلطانُهُ عَلى الذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ والذينَ هُم بِهِ مُشْرِكُون ﴾ [النَّحْل: ١٠٠].

إنَّما سُلطة الشَّيطان وتسلُّطه وقُدرته على الكافرين الذي يُحِبُّونه، ويُطيعونه، ويتَّبعون وساوسه ، ويتَّخذونه وَلِيًّا مِن دُون الله ، والذين أشركوا الشَّيطانَ في عبادة الله تعالى ، أوْ : والذين هُم بسبب الشَّيطان وطاعته فيما يَدعُوهم إلَيه مُشركون بالله تعالى .

والضَّميرُ في ﴿ والذينَ هُم بِهِ مُشْرِكُون ﴾ ، يَعُود إلى رَبِّهم ، أوْ إلى الشَّيطان ، أي: بسببه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٩١) : ((فأمَّا قَوله : ﴿ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ معناه يُطيعونه . وفي هاء الكِناية في قَوله : ﴿ والذينَ هُم بِهِ مُشْرِكُون ﴾ قَولان : أحدهما أنَّها تَرجِع إلى الله تعالى ، قاله مُجاهد والضَّحاك. والثاني أنَّها تَرجِع إلى الشَّيطان، فالمعنى الذين هُم مِن أجله مُشركون بالله ، وهذا كما يُقَال: صار فُلان بِكَ عَالِمًا ، أي : مِن أجلك ، هذا قول ابن قُتَيبة . وقال ابن الأنباري: المعنى : والذين هُم بإشراكهم إبليس في العِبادة ، مُشركون بالله تعالى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكانَ الشَّيطانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٧] .

وكانَ الشَّيطانُ شديدَ الكُفر والجُحُود لِنِعَم الله تعالى ، فهو يُنكِرها ، ولا يُؤَدِّي حَقَّهَا ، ويَرفض طاعة الله ، ويُقْبِل على معصيته ، ويَقترف الذُّنُوبَ ، ويَرتكب الجرائم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٣١٧) : ((﴿ وكانَ الشَّيطانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ، أي : كثير الكُفران ، عظيم التَّمَرُّد عن الحق ، لأنَّه مَعَ كُفره ، لا يَعمَل إلا شَرًّا ، ولا يَأمُر إلا بعمل الشَّر ، ولا يُوَسْوِس إلا بما لا خَير فيه)) .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بَيْنَهُم إنَّ الشَّيطانَ كانَ للإنسانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

إنَّ الشَّيطان يُفسِد بين الناس ، ويُلقي بينهم العداوةَ والبغضاءَ ، ويُثير الفِتَن والمشكلات والنِّزاعات . إنَّ الشَّيطان كان للإنسان عَدُوًّا واضحًا ظاهرَ العداوة مُنذ بَدْء الخليقة .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٩٣) : ((وقَوله : ﴿إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بَيْنَهُم ﴾ ، يقول : إنَّ الشَّيطان يَسُوء مُحاورة بعضهم بعضًا ، يَنزَغ بينهم . يقول : يُفْسِد بينهم ، يُهيِّج بينهم الشَّر ﴿ إنَّ الشَّيطانَ كانَ للإنسانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ، يقول : إنَّ الشَّيطان كان لآدم وذُرِّيته عَدُوًّا ، قد أبانَ لهم عَداوته ، بما أظهرَ لآدم مِن الحَسَد ، وغُروره إيَّاه حتَّى أخرجه مِن الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكانَ الشَّيطانُ للإنسانِ خَذُولًا ﴾ [الفُرقان : ٢٩] .

إنَّ الشَّيطان يُضِلُّ الإنسانَ، ويُغويه، ويُزيِّن له الذُّنُوبَ والمعاصي، ويَقُوده إلى الهلاك والضَّياع، ثُمَّ يَتركه في وَقْت الشِّدة، ويتخلَّى عنه عِند البَلاء، فلا يَنصُره، ولا يُغيثه، ولا يُساعده ، ولا يُنقذه . وهذه عادة الشَّيطان ، فهو يَترك مَن يُواليه ، ويتخلَّى عنه ، ويتبرَّأ مِنه في الآخرة .

وقال البغَوي في تفسيره(١/ ٨١):((﴿وكانَ الشَّيطانُ﴾ وهو كُل مُتمرِّد عاتٍ مِن الإنس والجِن، وكُل مَن صَدَّ عن سبيل الله فهو شَيطان ﴿ للإنسانِ خَذُولًا ﴾ أي : تاركًا يَتركه ، ويتبرَّأ مِنه عِند نُزول البَلاء والعذاب . وحُكم هذه الآية عام في حَق كُل مُتَحَابَّيْن اجتمعا على معصية الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونوا مِن أصحابِ السَّعيرِ ﴾ [فاطِر : ٦] .

إنَّ الشَّيطان عَدُوٌّ لكم أيها الناس ، عداوته ظاهرة وقديمة ، فَعَادُوه ، وكَذِّبوه ، وارفضوا وساوسه ، وابتعدوا عن الذُّنُوب، ولا تُطيعوه في المعاصي. إنَّما هدفه إضلال أتباعه،والخاضعين له، وإغراقهم في الآثام ، وإبعادهم عن الجَنَّة كما أبعدَ آدمَ ﷺ عنها ، وقيادتهم إلى عذاب النار. أي إنَّ الشَّيطان يَدعو أولياءه إلى الكُفر ليَكونوا مَعَه في عذاب النار المُلتهبة . فيجب على الناس أن يَنتبهوا ، ويَكونوا على حَذَر مِنه ، ويُخالفوه ، ويَعصوه ، بالتزام أوامر الله ، واجتناب نَوَاهيه .

وفي تفسير الجلالَيْن : ((﴿ إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بطاعة الله ، ولا تُطيعوه ، ﴿ إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ أتباعَه في الكُفر ، ﴿ لِيَكُونوا مِن أصحابِ السَّعيرِ ﴾ النار الشديدة)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١١) : ((﴿ إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ ﴾ عَدَاوة عامَّة قديمة، ﴿ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ في عقائدكم وأفعالكم ، وكُونوا على حَذَر مِنه في مجامع أحوالكم ﴿ إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونوا مِن أصحابِ السَّعيرِ ﴾ ، تقرير لعَداوته ، وبَيان لغَرَضه في دَعوة شِيعته إلى اتِّباع الهَوى ، والرُّكُون إلى الدُّنيا)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٨٢): ((فأخْبَرَنَا جَلَّ وَعَزَّ أنَّ الشَّيطان لنا عَدُو مُبين ، واقتصَّ عَلَينا قِصَّته ، وما فعل بأبينا آدم ﷺ ، وكيفَ انتدبَ لعَدَاوتنا وغُرورنا مِن قَبْل وُجودنا وبَعْده ، ونحن على ذلك نَتَوَلَّاه ونُطيعه فيما يُريد مِنَّا مِمَّا فيه هلاكنا . وكان الفُضَيل بن عِياض يقول : يا كذَّاب يا مُفْتَرِ ، اتَّقِ اللهَ ، ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العلانية ، وأنتَ صديقه في السِّر . وقال ابن السَّمَّاك : يا عَجَبًا لِمَن عَصَى المُحْسِنَ بَعْد معرفته بإحسانه ، وأطاعَ اللعينَ بعد معرفته بعداوته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يا بني آدمَ أن لا تَعْبُدوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ [يس : ٦٠] . الاستفهام لتَوبيخ الكافرين مِن بني آدم . أَلَم أُوصِكُم وآمُرْكُم وأُبَلِّغْكُم يا بني آدم على ألسنة رُسُلي ألا تُطيعوا الشَّيطانَ في معصيتي . وتَعليلُ النَّهْي عَن طاعة الشَّيطان : لأنَّه عَدُوٌّ لكم ، عداوته قديمة وظاهرة . ولا يُوجد عاقل يُطيع عَدُوَّه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٥٧): ((وَقَوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يا بني آدمَ أن لا تَعْبُدوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ . وفي الكلام مَتروك ، اسْتُغْنِيَ بدَلالة الكلام عَلَيه مِنه ، وهو : ثُمَّ يُقَال : ألم أعهد إليكم يا بني آدم . يقول : ألم أُوصكم وآمركم في الدُّنيا أن لا تَعبدوا الشيطانَ فتُطيعوه في معصية الله ﴿ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ . يقول: وأقول لكم : إنَّ الشيطان لكم عَدُوٌّ مُبين، قد أبانَ لكم عداوته بامتناعه مِن السُّجود لأبيكم آدم ، حَسَدًا مِنه له ، على ما كان اللهُ أعطاه مِن الكرامة ، وغُروره إيَّاه حتَّى أخرجه وزوجته مِن الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِن كُلِّ شَيطانٍ مَارِدٍ ﴾ [الصَّافَّات : ٧]. حَفِظَ اللهُ السَّمَاءَ الدُّنيا حِفْظًا مِن كُل شَيطان مُتمرِّد عاتٍ ، خارج عن الطاعة ، بِرَمْي الشُّهُب . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦): ((فَقَوله جَلَّ وعلا هَهُنا: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تقديره:وَحَفِظْنَاها حِفْظًا ﴿ مِن كُلِّ شَيطانٍ مَارِدٍ ﴾ ، يعني المُتمرِّد العاتي ، إذا أرادَ أن يَسترق السَّمْعَ ، أتاه شِهَاب ثاقب ، فأحرقه)) اهـ . وقال أبو حيَّان في البحر المحيط (٧/ ٣٥٢) : ((خَصَّ السَّماء الدُّنيا بالذِّكْر ، لأنها هي التي تُشَاهَد بالأبصار، وفيها وَحْدَها يكون الحِفْظ مِن الشَّياطين)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (١٥/ ٥٩) : ((قال قَتادة : خُلقت النُّجوم ثلاثًا ، رُجُومًا للشَّياطين ، ونُورًا يُهْتَدَى به ، وزينة لسَماء الدُّنيا)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلأ الأعلى ويُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصَّافَّات: ٨] .

لا تَقْدِر الشَّياطينُ أن تستمع إلى الملائكة ، وتُرْمَى الشَّياطينُ مِن جوانب السماء بالشُّهُب .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧/ ١٨٥) : ((وأصلُ يَسَّمَّعون يَتَسَمَّعُون . والملأُ الأعلى : الملائكة . وعن ابن عبَّاسٍ _ رضي اللهُ عنهما _: هُم الكَتَبة . وعنه أشرافُ الملائكةِ ، عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أي : لا يَتَطَلَّبُون السَّمَاعَ والإصغاءَ إلَيهم . ﴿ ويُقْذَفُونَ ﴾ يُرمَون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ مِن جميع جوانب السَّماء إذا قَصَدُوا الصُّعودَ إليها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ دُحُورًا ولَهُم عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصَّافَّات : ٩] .

تُطرَد الشَّياطين ، وتُبعَد عن سَمَاع أخبار السماء ، ولهم في الآخرة عذاب شديد دائم . وهذا يعني أنَّ الشَّياطين تُعذَّب في الدُّنيا بالرَّمْي بالشُّهُب ، وأيضًا تُعذَّب في نار الآخِرة .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ١٧) : ((﴿ دُحُورًا ﴾ مَفعول له ، أي : يُقْذَفُون للدُّحُور ، وهو الطَّرْد ، أوْ مَدْحُورين على الحال ، أو لأن القَذْف والطَّرْد مُتقاربان في المعنى ، فكأنَّه قِيل: يُدحَرون أوْ قَذْفًا ، ﴿ ولَهُم عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم ، مِن الوُصُوب ، أي أنَّهم في الدُّنيا مَرجُومون بالشُّهُب ، وقد أُعِدَّ لهم في الآخرة نوع مِن العذاب دائم غير منقطع)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصَّافَّات : ١٠] .

إلا مَن استرقَ السَّمْعَ مِنَ الشَّياطين ، فَلَحِقَه كوكب مُضيء مُتوقِّد ، فأحْرَقَه . ولَيست الشُّهُب التي تُرجَم بها الشَّياطين مِن الكواكب الثوابت ، بَل مِن غَير الثوابت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦) : ((وقَوله تبارك وتعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾ ، أي : إلا مَن اختطفَ مِن الشَّياطين الخَطْفَةَ ، وهي الكلمة يَسْمَعها مِن السَّماء ، فيُلقيها إلى الذي تَحته، ويُلقيها الآخَر إلى الذي تَحته،فرُبَّما أدركه الشِّهَاب قبل أن يُلْقِيَها ، ورُبَّما ألقاها بقَدَر الله تعالى ، قَبل أن يأتيَه الشِّهَاب فيُحرقه ، فيَذهب بها الآخَر إلى الكاهن ، ... . ولهذا قال : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ، أي : مُستنير)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٥) : ((﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾ ، اختلسَ الكلمةَ مِن كِلام المَلائكة مُسَارَقَةً ، ﴿ فأتْبَعَهُ ﴾ لَحِقَه ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ كَوكَب مُضيء قوي ، لا يُخطِئه . يَقتله ، أو يُحرقه ، أو يُخبِله . وإنَّما يَعُودون إلى استراق السَّمْع معَ عِلْمهم بأنهم لا يَصِلون إليه طمعًا في السلامة، ونَيل المُراد ، كراكب البحر . قال عطاء : سُمِّيَ النَّجْم الذي يُرمَى به الشياطين ثاقبًا ، لأنَّه يَثقُبهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ وأعْتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعيرِ ﴾ [المُلْك : ٥] .

زَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الأُولَى التي يَرَاها الناسُ ، بكواكب مُضيئة . وتَنكير " مصابيح " للتعظيم . وتُسمَّى الكواكب مصابيح لأنَّها تُضيء بالليل كإضاءة السِّرَاج ، وجَعَلَ اللهُ المصابيحَ رُجُومًا يُرجَم بها الشَّياطين الذين يَسْترقون السَّمْعَ. وهذا يعني أنَّ هُناك فائدتَيْن للمصابيح (الكواكب): زِينة للسَّماء الدُّنيا ، ورَجْم الشَّياطين ، حيث يَنفصل شِهاب عَن الكَوكب كالقَبَس يُؤْخَذ مِن النار ، فيَقتل الشَّيطانَ ، أوْ يُخبِله ، أمَّا الكَوكب فلا يَزول عن مكانه . وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ . وهذا يعني أنَّ الشَّياطين لا تُرجَم بالكواكب ، وإنَّما تُرجَم بالشُّهُب . وأعدَّ اللهُ للشَّياطين في الآخِرة بعد الإحراق في الدُّنيا بالشُّهُب عذابَ النار الشديد .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ١٢٥) : ((فإنْ قِيل : كيف تكون زينةً للسماء ، ورُجُومًا للشياطين، وكَونها زينة يَقتضي بقاءها ، وكَونها رُجُومًا يقتضي زوالها ، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين ؟ ، فالجواب أنَّه ليس المراد أنهم يُرمَون بأجرام الكواكب ، بَل يجوز أن تنفصل من الكواكب شُعلة ، وتُرمَى الشياطين بتلك الشُّعلة ، وهي الشُّهُب ، ومَثَلُها كَمَثَل قَبَسٍ يُؤْخَذ مِن النار ، وهي على حالها)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ١٦٦): ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ ﴾ ، وهي النُّجُوم ، وجعلها مصابيح لإضاءتها ، وكذلك الصُّبْح إنَّما قِيل له صُبْح ، للضَّوء الذي يُضيء للناس من النهار ﴿ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ ﴾ ، يقول : وجَعَلْنا المصابيحَ التي زَيَّنَّا بها السماءَ الدُّنيا رُجُومًا للشَّياطين ، تُرجَم بها . وقد حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ﴾ ، إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه إنَّما خَلَقَ هذه النُّجُومَ لثلاث خِصَال: خَلَقَها زِينةً للسَّماء الدُّنيا، ورُجُومًا للشَّياطين،وعلامات يَهْتدي بها. فَمَن يتأوَّل مِنها غَير ذلك ، فقد قال برأيه ، وأخطأ حَظَّه ، وأضاعَ نصيبه، وتَكَلَّفَ ما لا عِلْم له به. وقَوله: ﴿ وأعْتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعيرِ ﴾ ، يَقول جَلَّ ثناؤه : وأعْتَدْنا للشَّياطين في الآخِرة عذابَ السَّعير ، تُسعَر عليهم ، فتُسجَر)) .

ب_ عداوته لآدم وبَنِيه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

لا تَقْتَدُوا بآثار بالشَّيطان في اتِّباع الهوى ، ولا تتبَّعوا طُرُقَه في تزيين الذُّنوب والمعاصي ، إنَّه لكم عدو واضح ، وعداوته قديمة وشديدة وظاهرة ، ومكشوفة أمام العُقَلاء .

وكُل معصية لله هي مِن خُطُوَات الشَّيطان (آثاره) . فينبغي الالتزام بالطاعات ، والابتعاد عن المعاصي، وعدم السَّير في طُرُق الشَّيطان، لأنه عدو ظاهر العداوة، يَجلِب الشَّر للإنسان ، ولا يُحِب له الخير. وقِيل : أظهرَ عداوته برفضه السُّجُود لآدم ﷺ ، حيث حَسَده ، وحَقَدَ عَلَيه ، وعلى ذُرِّيته . واتَّباعهم لِخُطُوات الشَّيطان (سبيله ومَسلَكه) أنهم كان يُحرِّمون أشياء أحَلَّها اللهُ ، ويُحَلِّلُون أشياء حرَّمها اللهُ . وهذا هو التلاعب بالشريعة الإلهية في أسوأ صُوَره ، وأقبح أشكاله .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٤):((﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ ﴾ . لا تقتدوا به في اتِّباع الهوى ، فَتُحرِّموا الحلال ، وتُحَلِّلوا الحرام ... . ﴿ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ ظاهر العداوة عِند ذَوي البصيرة ، وإنْ كان يُظْهِر المُوالاة لِمَن يُغويه)) اهـ . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٨٠) : ((وخُطُوات الشَّيطان آثاره وزَلَّاته . وقِيل : هي النَّذْر في المعاصي . وقال أبو عُبَيدة : هي المُحَقَّرَات مِن الذُّنُوب . وقال الزَّجاج : طُرُقه ، ﴿ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ بَيِّن العَدَاوة . وقِيل : مُظْهِر العَدَاوة ، وقد أظهرَ عداوته بإبائه السُّجود لآدم ، وغُروره إيَّاه حتَّى أخرجه مِن الجَنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّما يَأمُرُكُم بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأن تَقُولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة: ١٦٩]. إنَّما يَأمركم الشَّيطانُ بالذُّنُوب والمعاصي ، وأن تَفْتَرُوا على الله بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٦) : ((﴿ إنَّما يَأمُرُكُم بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ ﴾ بيان لعداوته ، ووجوب التَّحَرُّز عَن مُتابعته . واستعير الأمر لتزيينه ، وبَعْثه لهم على الشَّر ، تسفيهًا لرأيهم ، وتحقيرًا لشأنهم . والسُّوء والفَحْشَاء ما أنكره العقلُ ، واستقبحه الشَّرْعُ . والعَطْف لاختلاف الوصفَيْن ، فإنَّه سُوء لاغتمام العاقل به ، وفَحْشَاء باستقباحه إيَّاه . وقِيل : السُّوء يَعُمُّ القبائحَ ، والفَحْشَاء ما يتجاوز الحَد في القُبْح مِن الكبائر . وقِيل : الأول ما لا حَد فيه ، والثاني ما شُرِع فيه الحَد ﴿ وأن تَقُولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ كاتِّخاذ الأنداد ، وتَحليل المُحرَّمات ، وتَحريم الطَّيبات . وفيه دليل على المَنْع مِن اتِّباع الظَّن رأسًا . وأمَّا اتِّباع المُجتهد لِمَا أدَّى إليه ظَن مُستنِد إلى مُدرِك شَرعي ، فوُجوبه قَطعي)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٢ و١٧٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّما يَأمُرُكُم بالسُّوءِ ﴾ ، السُّوء كُل إثم وقُبْح . قال ابن عباس: وإنَّما سُمِّيَ سُوءًا ، لأنَّه تَسُوء عواقبُه . وقِيل : لأنَّه يَسُوء إظهارُه ، ﴿ والفَحْشَاءِ ﴾ مِن فَحُشَ الشيء ، إذا جازَ قَدْرَه . وفي المُراد بها هاهُنا خمسة أقوال : أحدها أنَّها كُل معصية لها حَد في الدُّنيا . والثاني أنَّها ما لا يُعرَف في شَريعة ولا سُنَّة . والثالث أنَّها البُخْل . وهذه الأقوال الثلاثة مَنقولة عَن ابن عباس . والرابع أنَّها الزِّنى ،

قاله السُّدي. والخامس المَعَاصي، قاله مقاتل. قَوله تعالى: ﴿ وأن تَقُولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ ، أي أنَّه حَرَّمَ عليكم ما لَم يُحَرِّمْ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذا تَنبيه وتحذير مِن وَسْوَسة الشَّيطان وألاعيبه ، فهو يُخوِّفكم بالفقر (سُوء الحال وضَياع المال) كي تُصبحوا بُخَلاء ، ولا تُنفقوا في سبيل الله ، ويأمركم بارتكاب الذُّنُوب والمعاصي ، والبُخْلِ ، ومَنعِ الزَّكاة ، وعدم الإنفاق في الطاعات .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٨): ((ومَعنى قَوله تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ﴾ أي:يُخوِّفكم الفَقْرَ لِتُمْسِكُوا ما بأيديكم فلا تُنفقوه في مَرْضَاة الله ﴿ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾ ، أي: معَ نَهْيِه إيَّاكم عن الإنفاق خَشية الإملاق يَأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومُخالفة الخَلَّاق)).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ للشَّيطانِ لَمَّةً بابن آدم ، وللمَلَكِ لَمَّةً ، فأمَّا لَمَّةُ الشَّيطان فإيعادٌ بالشَّر ، وتكذيب بالحق ، وأمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخَير ، وتصديق بالحق ، فَمَن وَجَدَ ذلك فَلْيَعْلَمْ أنَّه مِنَ الله ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَن وَجَدَ الأُخرى فليتعوَّذ بالله مِن الشَّيطان الرَّجيم ، ثُمَّ قرأ : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾)) [٣٧٥].

إنَّ للشَّيطان هِمَّةً وقُرْبًا وخاطرًا يقع في قلب العبد، وللمَلَك هِمَّةً وخاطرًا يَقع في قلب العبد . فأمَّا لَمَّة الشَّيطان فهي وعد بالكُفر والضَّلال والعِصيان ، وتكذيب بالدِّين والإيمان والشريعة . وأمَّا لَمَّةُ المَلَك فهي وَعْد بالطاعة وإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورُسُله واليَوم الآخِر والقَدَر خَيْره وشَرِّه . فَمَن أدركَ في نَفْسِه وقَلْبه لَمَّةَ المَلَك ، فَلْيَعْلَم العبدُ أنَّ ذلك مِن فضل الله عليه ، وإحسانه إلَيه ، فليحمَدِ اللهَ ويَشكره على نِعَمه بالتزام الطاعة ، ومَن أدركَ في نَفْسِه وقَلْبه لَمَّةَ الشَّيطان، فليعتصم بالله ، ويَلجَأ إلَيه ، ويَستعِن به مِن شَر الشَّيطان الرَّجيم ، ويُخالفه فيما أمره به .

وفي تحفة الأحوذي (٨/ ٢٦٥ و٢٦٦): ((قَوله (إنَّ للشَّيطان) أي إبليس أو بَعض جُنده (لَمَّة) بفتح اللام وشَدَّة الميم ، مِن الإلمام ، ومعناه النُّزول والقُرب والإصابة . والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشَّيطان أو المَلَك (بابن آدم) أي بهذا الجِنس فالمُراد به الإنسان (وللمَلَك لَمَّة) فَلَمَّةُ الشيطان تُسمَّى وَسْوَسَة ، ولَمَّة المَلَك إلهامًا (فأمَّا لَمَّةُ الشَّيطان فإيعاد بالشر) كالكُفر والفِسق والظُّلم (وتكذيب بالحق) أي في حق الله ، أو حق الخَلْق ، أو بالأمر الثابت

---

٣٧٥ رواه التِّرمذي في سُننه(٥/٢١٩).وقال العراقي في تخريج الإحياء(٣/١١): أخرجه التِّرمذي وحسَّنه.

كالتَّوحيد والنُّبُوَّة والبَعْث والقِيامة والنار والجَنَّة (وأمَّا لَمَّةُ المَلَك فإيعاد بالخير) كالصَّلاة والصَّوم (وتصديق بالحق) ككُتُب الله ورسوله ... . (فَمَن وَجَدَ) أي في نَفْسه أو أدرك وعَرَفَ (ذلك) أي لَمَّة المَلَك على تأويل الإلمام أو المَذكور (فَلْيَعْلَمْ أنَّه مِن الله) أي مِنَّة جسيمة ونِعمة عظيمة واصلة إلَيه ، ونازلة عَلَيه ، إذْ أمرَ المَلَكَ بأن يُلهمه (فليحمَدِ الله) أي على هذه النِّعمة الجليلة حيث أهَّله لهِداية المَلَك ودَلالته على ذلك الخير(وَمَن وَجَدَ الأُخرى) أي لَمَّة الشَّيطان (ثُمَّ قرأ) أي: النبيُّ _ ﷺ _ استشهادًا: ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ﴾ أي: يُخوِّفكم به ﴿ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾ الآية . معناه : الشَّيطان يَعدكم الفقرَ ليَمنعكم عن الإنفاق في وُجوه الخَيرات ، ويُخوِّفكم الحاجة لكم ، أوْ لأولادكم في ثاني الحال ، سِيَّما في كِبَر السِّن ، وكَثرة العِيال ، ﴿ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾ أي : المعاصي . وهذا الوعد والأمر هُما المُرادان بالشَّر في الحديث)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما يُرِيدُ الشَّيطانُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكُم عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أنتُم مُنتَهُون ﴾ [المائدة : ٩١] .

إنَّما يُريد الشَّيطانُ إيقاعَ الشَّر والفِتنة والعداوة والحِقد والكراهية بين المؤمنين في شُربهم الخمر ، ولعبهم القِمَار ، ويَمنعهم مِن عبادة الله وطاعته ، ويُبعِدهم عن ذِكْر الله ، الذي فيه النجاح والفلاح وصلاح الدُّنيا والآخرة ، وعن الصلاة عَمُود الإسلام ، وتخصيص الصلاة بالذِّكْر لتعظيمها. فانتَهُوا عن إتيان الخَمْر والقِمَار . والاستفهامُ في الآية : ﴿ فَهَلْ أنتُم مُنتَهُون ﴾ للتَّوبيخ والتَّقريع ، ويشتمل على الزَّجْر البليغ، والنَّهْي الأكيد ، والتَّحذير الشديد . وهو لَفْظ استفهام ، ومعناه الأمر.

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٧٢) : ((أعلمَ اللهُ تعالى عِبَادَه أن الشيطان إنَّما يُريد أن يُوقِع العَدَاوَةَ والبَغضاءَ بَيْننا بسبب الخمر وغيره ، فَحَذَّرنا مِنها ، ونَهَانا عَنها)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٣٤) : ((﴿ إنَّما يُرِيدُ الشَّيطانُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ﴾ ، وذلك لِمَا يَحصُل بَين أهلها مِن العَدَاوة والمَقَابح والإقدام على ما يَمنع مِنه العقل ﴿ ويَصُدَّكُم عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ ﴾ ، لأنَّ مَن اشتغلَ بهما منعاه عَن ذِكْر الله والصلاةِ ﴿ فَهَلْ أنتُم مُنتَهُون ﴾ ، (استفهام بمعنى الأمر) ، قالوا : انتَهَيْنا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا بني آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ كَما أَخْرَجَ أبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لا تَرَوْنَهُم إنَّا جَعَلْنا الشَّياطينَ أوْلِيَاءَ للذينَ لا يُؤْمِنُون ﴾ [الأعراف: ٢٧]. الخِطابُ الإلهيُّ المُقدَّس لجميع الناس: يا بني آدم، لا يَخْدَعَنَّكُم الشَّيطانُ بفِتْنته ، ولا يُغْوِيَنَّكُم بإضلاله ،كَمَا أغْوَى أبَوَيْكُم آدم وحَوَّاء بالأكل مِن الشَّجَرَة ، حتى

أخرجهما مِن الجَنَّة . يَنزِع عَنهما الثِّيابَ لتَظهر العَورات ، ويَرى كُلُّ واحد سَوْأةَ الآخَر . وإسنادُ النَّزْع إلى الشَّيطان لأنَّه المُتسبِّب في ذلك . إنَّ الشَّيطان يُشاهدكم يا بني آدم ، هُوَ وجُنوده ، مِن حَيث لا تُشاهدونهم . وهذا يدلُّ على أنَّ الشَّيطان عدو خبيث مُتمكِّن ، ويجب الانتباه ، وأخذ الحَيطة والحَذَر ، لأنَّ العَدُوَّ الخَفِيَّ الذي يَرى ولا يُرى ، في غاية الخُطورة ، ومُواجهته صعبة . إنَّ اللهَ جَعَلَ الشَّياطين أعوانًا وقُرَناء للكافرين . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٨٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا بني آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ ﴾ . قال المُفسِّرون : هذا الخِطَاب للذين كانوا يَطُوفون عُرَاةً . والمعنى : لا يَخْدَعَنَّكُم ، ولا يُضِلَّنَّكُم بغروره ، فيُزيِّن لكم كَشْفَ عَوراتكم ، كما أخرجَ أبَوَيْكُم مِن الجَنَّة بغُروره . وأُضِيف الإخراج ونَزْع اللباس إلَيه لأنَّه السبب. وفي لِباسهما أربعة أقوال: أحدها أنَّه النُّور ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وقد ذكرناه عن ابن مُنبِّه . والثاني أنه كان كالظُّفُر ، فلمَّا أكلا لَم يَبْقَ عليهما مِنه إلا الظُّفُر ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال عِكرمة وابن زَيد . والثالث أنَّه التَّقْوَى ، قاله مُجاهد . والرابع أنَّه كان مِن ثِياب الجَنَّة ، ذكره القاضي أبو يعلى. قَوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ ، أي: لِيُرِيَ كُلَّ واحد منهما سَوْأةَ صاحبه ، ﴿ إنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وقَبِيلُهُ ﴾ . قال مُجاهد: قَبيله الجِن والشَّياطين.قال ابن عباس: جَعَلَهم اللهُ يَجْرُونَ مِن بني آدم مَجْرَى الدَّم، وصُدور بني آدم مساكن لهم، فهُم يَرَوْنَ بني آدم ، وبنو آدم لا يَرَوْنَهُم . قَوله تعالى : ﴿ إنَّا جَعَلْنا الشَّياطينَ أوْلِيَاءَ للذينَ لا يُؤْمِنُون ﴾ ، قال الزَّجاج : سُلطناهم عَلَيهم ، يَزيدون في غَيِّهم . وقال أبو سُلَيمان : جَعَلْناهم مُوالين لهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وقالَ الشَّيطانُ لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتكم فأخْلَفْتُكُم وما كانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكُم فاسْتَجَبْتُم لِي فلا تَلُومُوني وَلُومُوا أنفُسَكُم ما أنا بِمُصْرِخِكُم وما أنتُم بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمونِ مِن قَبْلُ إنَّ الظالمينَ لَهُم عَذابٌ أليم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

وقال إبليسُ لَمَّا انتهى حِسَابُ الخَلْق ، وأُدخِل المؤمنون الجَنَّةَ ، وأُدخِل الكافرون النارَ : إنَّ اللهَ وَعَدَكم وَعْدًا حقًّا بالبَعْث ، ومُجازاة المُحسِن بإحسانه (إثابة الطائع) ، ومُجازاة المُسيء بإساءته (مُعَاقَبَة المُذنِب)، فَصَدَقَكُم، وأنجزَ وَعْدَه ، ووَعَدْتُكُم وَعْدًا كاذبًا باطلًا بأن لا بَعْث ولا ثواب ولا عِقاب ولا جَنَّة ولا نار ، فأخْلَفْتُكُم الوَعْدَ ، وما كان لي عَلَيكم قُدرة وسيطرة وتَسَلُّط فأُجْبِركم على الكُفر والضَّلال والمعاصي ، ولم أُظْهِر لكم حُجَّة على ما ادَّعَيْتُ ، إلا مُجرَّد دُعائي لكم إلى الضَّلال بالوَسوسة وتَزيين المعاصي، بلا دليل ولا حُجَّة، فاسْتَجَبْتُم لي بإرادتكم واختياركم

دُون قَهْر ولا إجبار ، فلا تَلُوموني بما وقعتم فيه بسبب وَعْدي الباطل ، ولُومُوا أنفُسَكُم لأنكم استجبتم لي باختياركم ، وأجبتموني مِن غَير دليل ولا حُجَّة ، فالذَّنْبُ ذَنْبكم ، وأنتم تتحمَّلون المسؤولية ، ما أنا بمُغيثكم مِن عذاب النار الشديد ، ولا أنتُم بمُغيثيَّ مِنه، إنِّي كَفَرْتُ بإشراككم إيَّايَ معَ الله في العبادة والطاعة في الدُّنيا ، وجَحَدْتُ أن أكون شريكًا لله .وهذا اعترافٌ واضح مِن إبليس بوَحدانية الله وأُلوهيته ورُبوبيته ، وأنَّه وَحْدَه الإله المُستحق للعبادة والطاعة ، لا شريك له ، ولا نِد. إنَّ المُشركين الذين ظَلَمُوا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، لهم عذاب مُؤلِم ومُوجِع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٩٧) : ((يُخبِر تعالى عمَّا خاطبَ به إبليسُ أتباعَه بعدما قَضَى اللهُ بين عباده ، فأدخلَ المؤمنين الجَنَّات ، وأسكنَ الكافرين الدَّرَكَات ، فقام فيهم إبليسُ لَعَنَه اللهُ يومئذ خطيبًا لِيَزيدهم حُزنًا إلى حُزنهم ، وغَبْنًا إلى غَبْنهم ، وحَسرةً إلى حَسْرتهم ، فقال : ﴿ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الحَقِّ ﴾ ، أي : على ألسنة رُسُله ، ووَعَدَكم في اتِّباعهم النَّجاةَ والسلامة ، وكان وَعْدًا حَقًّا ، وخَبَرًا صِدْقًا ، وأمَّا أنا فوعدتكم فأخلفتكم . ثُمَّ قال : ﴿ وما كانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلطانٍ ﴾ ، أي : ما كان لي دليل فيما دَعوتكم إلَيه ، ولا حُجَّة فِيما وعدتكم به ﴿ إلا أن دَعَوْتُكُم فاسْتَجَبْتُم لِي ﴾ بمُجرَّد ذلك . هذا وقد أقامت عليكم الرُّسُلُ الحُجَجَ والأدلةَ الصحيحة على صِدْق ما جاؤوكم به ، فخالفتموهم ، فصِرْتُم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تَلُومُوني ﴾ اليوم ﴿ وَلُومُوا أنفُسَكُم ﴾ ، فإنَّ الذَّنْب لكم لكَوْنكم خالفتم الحُجَجَ ، واتَّبعتموني بمُجرَّد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ما أنا بِمُصْرِخِكُم ﴾ ، أي : بنافعكم ومُنقذكم ومُخلِّصكم مِمَّا أنتم فيه ﴿ وما أنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ ، أي: بنافِعِيَّ بإنقاذي مِمَّا أنا فيه مِن العَذاب والنَّكال ﴿ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمونِ مِن قَبْلُ ﴾ . قال قَتادة: أي بسبب ما أشركتمونِ مِن قَبْل . وقال ابن جرير : يقول : إنِّي جَحَدْتُ أن أكون شريكًا لله عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا الذي قاله هو الراجح ، ... . وقَوله : ﴿ إنَّ الظالمينَ ﴾ أي: في إعراضهم عن الحَق ، واتِّباعهم الباطل ﴿ لَهُم عَذابٌ أليم ﴾ . والظاهر مِن سِياق الآية أن هذه الخُطبة تكون مِن إبليس بعد دُخولهم النار)) .

ج ـ وَسْوَسَته

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

وحسَّن لهم الشَّيطانُ الذُّنُوبَ ، وزيَّن لهم الضَّلالَ الذي هُم فِيه ، وأغواهم بالمَعَاصي فأصَرُّوا عليها ، وصاروا مُعجبين بها . وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٩١) : ((وحسَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يَعمَلون من الأعمال التي يَكرَهها اللهُ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٨) : ((أي : أغواهم بالتَّصميم على الكُفر ، والاستمرار على المَعَاصي)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيطانُ ﴾ [الأعراف: ٢٠] .

أَلْقَى إبليسُ لآدم وحَوَّاء بصَوت خَفِيٍّ لإغرائهما بالأكل مِن الشَّجَرة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢١٩) : ((﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيطانُ ﴾ ، أي : إلَيهما . والوَسْوَسَة : حديث يُلْقِيه الشَّيطانُ في قَلْب الإنسان)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

إذا وَسْوَسَ إلَيكَ الشَّيطانُ ، وعَرَضَ لَكَ مِنه عارض ، فالتجئ إلى الله ، واعتصِم به ، واطلُب مِنه النَّجَاةَ والنُّصْرَةَ ، يَدْفَع عَنكَ وساوسَه الخبيثة وخواطرَه السَّيئة . والآيةُ دليل على أنَّ دَفْع الوَسْوَسَة والخواطرِ الشَّيطانية ، إنَّما يَكون بالالتجاء إلى الله تعالى ، والاستعاذة به . وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٠٤): ((لمَّا نَزَلَ قَوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾[الأعراف : ١٩٩] ، قال عليه السلام : " كَيف يا رَبِّ والغَضَب ؟ " ، فنزلت : ﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ . ونَزْغُ الشَّيطان : وساوسه ، ... . الزَّجاج : النَّزْغ أدنى حَركة تَكون ، ومِن الشَّيطان أدنى وَسْوَسَة. قال سعيد بن المُسيِّب : شَهِدْتُ عُثمان وعَلِيًّا ، وكان بَينهما نَزْغٌ مِن الشَّيطان ، فما أبقى واحد مِنهما لصاحبه شيئًا ، ثُمَّ لَم يَبْرَحَا حَتَّى استغفرَ كُلُّ واحد منهما لصاحبه . ومعنى ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ يُصِيبَنَّكَ ويَعْرِض لَكَ عِند الغَضَب وَسْوَسَة بما لا يَحِلُّ ﴿ فاسْتَعِذْ باللهِ ﴾ ، أي: اطلُب النَّجَاةَ مِن ذلك بالله، فأمرَ تعالى أن يَدفَع الوَسْوَسَةَ بالالتجاء إليه ، والاستعاذة به)) اهـ . وعن سُليمان بن صُرَد ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : اسْتَبَّ رَجُلان قُرب النبيِّ ﷺ ، فاشتدَّ غَضَبُ أحدهما، فقال النبيُّ ﷺ : ((إنِّي لأعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالها لَذَهَبَ عنه الغضبُ : أعُوذُ باللهِ مِن الشَّيطان الرَّجيم)) . فقال الرَّجُل : أمجنونًا تَرَاني ؟ ، فتلا رسولُ الله ﷺ : ((﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سميعٌ عليم ﴾)) [٣٧٦].

هذا الحديثُ يدلُّ على أهمية الاستعاذة بالله مِن الشَّيطان الرَّجيم. فالاستعاذةُ تَطرُد الشَّيطانَ ، وتُريح العبدَ مِن وساوسه . وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٦٧) : ((وقِيل إنَّه كان مِن جُفَاة الأعراب ، وظَنَّ أنه لا يَستعيذ مِن الشَّيطان إلا مَن به جُنون ، ولَم يَعلَم أنَّ الغَضَب نَوع مِن شَر الشَّيطان ، ولهذا يَخرُج به عَن صُورته ، ويُزيِّن إفساد ما له ، كتَقطيع ثَوْبه ، وكَسْر آنيته ، أو الإقدام على مَن أغضبه ، ونَحو ذلك مِمَّا يتعاطاه مَن يَخرُج عَن الاعتدال)) .

٣٧٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٨) برقم (٣٦٤٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالَ رَبِّ بِمَا أغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ ولأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعِين ﴾ [الحِجْر : ٣٩]. قال إبليسُ: رَبِّ ، بسبب إغوائك وإضلالك لي ، لأُحَسِّن لذُرِّية آدم الذُّنُوبَ، وأُرغِّبهم في المَعَاصي، وأُزيِّن لهم الباطل، وأُحَبِّب إلَيهم حُطَامَ الدُّنيا، ولأُضِل ذُرِّيَّتَهُ عن طريق الحق والهُدى أجمعين. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٨٨) : ((﴿ قالَ رَبِّ بِمَا أغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ ﴾ ، الباء للقَسَم ، و" ما " مَصدرية . وجَوَاب القَسَم ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُم ﴾ ، أي: أُقْسِم بإغوائك إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ، أي : ما داموا في الدُّنيا، والتَّزيين مِنه إمَّا بتَحسين المَعَاصي لهم ، وإيقاعهم فيها ، أو يَشغَلهم بزينة الدُّنيا عَن فِعْل ما أمرهم اللهُ به ، فلا يلتفتون إلى غَيرها . وإقسامه هاهُنا بإغواء الله له ، لا يُنافي إقسامه في موضع آخَر بِعِزَّة الله ، التي هي سُلطانه وقَهْره ، لأنَّ الإغراء له هو مِن جُملة ما تَصدُق عليه العِزَّة ، ﴿ ولأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعِين ﴾ ، أي: لأُضِلَّنَّهُم عن طَريق الهُدى ، وأُوقِعهم في طريق الغَواية ، وأحْمِلهم عَلَيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا عِبَادَكَ مِنهُمُ المُخْلَصِين ﴾ [الحِجْر : ٤٠] . إلا عِبَادَك المؤمنين الذين أخلصتهم لعبادتك وطاعتك ، فلا قُدرة لي عليهم ، ولا أستطيع إغواءهم .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٥١٦) : ((يقول : إلا مَن أخلصته بتَوفيقك فَهَدَيْته ، فإنَّ ذلك مِمَّن لا سُلطان لي عَلَيه ، ولا طاقة لي به)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيطانُ قالَ يا آدمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠] . حدَّث إبليسُ آدمَ ﷺ بصَوت خَفِيٍّ . قال له : يا آدم ، هل أَدُلُّكَ على شَجَرَةٍ إنْ أكلتَ مِنها صِرْتَ خالدًا لا تَمُوت ، وحَصَلْتَ على مُلْك لا يَفْنَى ولا يَنْقضي ؟ . وقد أضافَ إبليسُ الشجرةَ إلى الخُلْد (الخُلُود) ، لأنَّ مَن أكلَ مِنها صارَ خالدًا بزَعْمه ، ولا يَمُوت .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٤) : ((﴿فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيطانُ ﴾ ، فانتهى إليه وَسْوَسته ﴿ قالَ يا آدمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ ﴾ ، الشَّجَرَة التي مَن أَكَلَ مِنها خُلِّدَ ، وَلَم يَمُتْ أصْلًا، فأضافها إلى الخُلْد ، أي : الخُلُود ، لأنَّها سببه بزَعْمه ﴿ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ لا يَزُول ولا يَضعُف)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧] .

وقُل يا مُحمَّد : رَبِّ ، ألتجِئ إلَيك ، وأحتمي وأعتصِمُ بِكَ مِن إغواء الشَّياطين ووساوسهم التي تَدعُو إلى الذُّنُوب والمعاصي . وهذا أمرٌ إلهيٌّ عظيم بالاستعاذة بالله مِن الشَّياطين ، لأنَّهُم في غاية الخُطورة ، ولا يُمكن خِداعهم ، أو التحايل عليهم ، أو إخضاعهم للحَق والهُدى . والطريقةُ الوحيدةُ لمُواجهة الشَّياطين هِيَ الالتجاء إلى الله ، والتَّوكُّل عَلَيه ، والاستعاذة به مِنهُم .

وفي تحفة الأحوذي (٩/ ٣٥٦) عن معنى " هَمَزَات الشَّياطين " : ((أي : نَزَغَاتهم وخَطَرَاتهم ووساوسهم ، وإلقائهم الفِتنة والعقائد الفاسدة في القلب)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٣٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطينِ ﴾ ، الهَمَزَات هي جَمْع هَمْزة ، والهَمْز في اللغة النَّخْس والدفع ، يُقَال : هَمَزه ولَمَزه ونَخَسه دفعه . قال الليث : الهَمْز كلام مِن وراء القَفَا ، واللمز مُوَاجَهَة ، والشَّيطان يُوَسْوِس فيَهمِس في وَسْوَاسه في صَدْر ابن آدم ، وهو قَوله : ﴿ أعُوذُ بِكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطينِ ﴾ ، أي: نَزَغَات الشَّياطين الشاغلة عن ذِكْر الله تعالى . وفي الحديث : " كان يتعوَّذ مِن هَمْز الشَّيطان ولَمْزه وهَمْسه ". قال أبو الهيثم : إذا أسرَّ الكلامَ وأخفاه فذلك الهَمْس مِن الكلام ، وسُمِّيَ الأسد هَمُوسًا ، لأنَّه يَمْشي بخِفَّة ، فلا يُسمَع صَوت وَطْئه ، ... . أمرَ اللهُ تعالى نَبِيَّه ﷺ والمؤمنين بالتَّعَوُّذ مِن الشَّيطان في هَمَزَاته ، وهي سَوْرات الغَضَب التي لا يَملِك الإنسانُ فيها نَفْسَه ، وكأنها هي التي كانت تُصيب المؤمنين معَ الكُفَّار ، فتقع المُحَادَّة ، فلذلك اتَّصلت بهذه الآية ، فالنَّزغات وسَورات الغضب الواردة من الشيطان هي المُتَعَوَّذ منها في الآية)) .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٤٠٥) عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم مِنَ الفَزَع كلماتٍ : ((أعُوذُ بكلمات الله التَّامَّة مِن غَضَبه ، وشَرِّ عِباده ، ومِن هَمَزَات الشَّياطين ، وأن يَحْضُرُونِ)) .

يُعلِّم النبيُّ ﷺ أصحابَه هذا الدُّعَاءَ الجليل لإبعاد الفَزَع (الخَوْف) عَنهُم . ومعناه : ألتجئ إلى الله ، وأعتصِم به ، وأحتمي بأسمائه الحُسنى ، وأستجير بآيات كُتُبه ، الكاملة في فَضْلها وبَرَكتها ونَفْعها ، المُنَزَّهة عَن كُل نَقْص وعَيب ، مِن غَضَبِ الله وعذابه ، ومِن ظُلم عِباده وذُنُوبهم ومَعاصيهم ، ومِن وساوس الشَّياطين ، وأعُوذ بالله أن يَحضُر الشَّياطينُ في عِبَادتي وطاعتي ، فيُفسِدوها عَلَيَّ ، أوْ أن يَحضُروا في أيِّ أمر مِن أُموري ، وشأن مِن شُؤوني . وفي عَون المَعبود (١٠/ ٢٧٥) : (((مِن الفَزَع) بفتح الفاء والزَّاي أي الخَوف (التَّامَّة) بصيغة الإفراد والمُراد به الجماعة (مِن غَضَبه) أي إرادة انتقامه ، وزاد في رواية التِّرمذي : وعِقَابه ، (وشَر عِباده) وهو أخص مِن شَر خَلْقه (وَمِن هَمَزَات الشياطين) أي وَسَاوسهم ، وأصل الهَمْز الطَّعْن . قال الجَزَري: أي خَطَرَاتها التي يُخطِرها بقلب الإنسان (وأن يَحضُرُونِ) بحذف ياء المُتكلِّم ، اكتفاءً بكَسْر نُون الوِقاية ، وضمير الجَمْع المُذكَّر فيه للشياطين ، وهو مُقتبَس مِن قَوله تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ أعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطين (٩٧) وأعوذُ بِكَ رَبِّ أن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلى مَن تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢١] .

قُل يا مُحمَّد لكُفَّار مَكَّة : هَل أُخبِركم على مَن تَنَزَّلُ الشَّياطين ؟ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ١٤٩): ((﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلى مَن تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ﴾ ، هذا رَد عليهم حِين قالوا إنَّما يأتيه بالقُرآن الشَّياطِينُ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيم ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٢] .

تتنزَّل الشَّياطِينُ عَلى كُل كذَّاب فاجر. أمَّا النبيُّ مُحمَّد ﷺ فهو الصادق الأمين ، صاحب الأخلاق الحميدة ، وهذا يعني استحالة تَنَزُّل الشَّياطين عَلَيه . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٩) : ((يَقول تعالى مُخاطِبًا لِمَن زَعَمَ مِن المُشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق ، وأنَّه شيء افتعله مِن تِلقاء نَفْسه ، أوْ أنَّه أتاه به رَئِيٌّ مِن الجَان ، فنزَّه اللهُ سُبحانَه وتعالى جَنَابَ رسوله عَن قَولهم ، وافترائهم ، ونبَّه أنَّ ما جاء به إنَّما هو مِن عِند الله ، وأنَّه تَنزيله ووَحْيه ، نَزَلَ به مَلَك كريم أمين عظيم ، وأنَّه لَيس مِن قِبَل الشَّياطين، فإنَّهم ليس لَهم رغبة في مِثْل هذا القرآن العظيم ، وإنَّما يَنزِلون على مَن يُشَاكلهم ويُشَابههم مِن الكُهَّان الكَذَبَة، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أي : أُخْبِركم ﴿ عَلى مَن تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيم (٢٢٢) ﴾ ، أي: كَذُوب في قَوله ، وهو الأفَّاك، ﴿ أثيم ﴾ وهو الفاجر في أفعاله ، فهذا هو الذي تَنَزَّل عَلَيه الشَّياطين مِن الكُهَّان ، وما جَرَى مَجْرَاهم مِن الكَذَبَة الفَسَقَة ، فإنَّ الشياطين أيضًا كَذَبَة فَسَقَة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وأكْثَرُهُم كاذبون ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٣] .

يُلْقي الشَّياطِينُ ما اسْتَرَقُوه مِن حَديث السَّماء (ما سَمِعُوه مِن السَّماء) إلى أوليائهم الكَهَنَة . وأكثر هؤلاء الكَهَنَة كاذبون فيما يأخذونه مِن الشَّياطين، لأنَّهُم يُضيفون إلى ما يَسْمَعونه كثيرًا مِن الأكاذيب والأباطيل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٩) : ((أي : يَسْتَرِقُون السَّمْعَ مِن السَّماء فيَسْمَعون الكَلِمَةَ مِن عِلْم الغَيْب، فيَزيدون معها مائة كَذبة ، ثُمَّ يُلقونها إلى أوليائهم مِن الإنس، فيُحدِّثون بها فيُصدِّقهم الناسُ في كُل ما قالوه ، بسبب صِدْقهم في تلك الكلمة التي سُمعت مِن السَّماء)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٠١): ((﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ هُم الشَّياطين كانوا قَبل أن يُحجَبوا بالرَّجْم ، يستمعون إلى الملأ الأعلى ، فيَحفظون بعضَ ما يتكلَّمون به مِمَّا اطَّلعوا عَلَيه مِن الغُيُوب ، ثُمَّ يُوحُون به إلى أوليائهم ، ... . ﴿ وأكْثَرُهُم كاذبون ﴾ فِيمَا يُوحُون بِه إلَيهم ، لأنَّهم يُسمعونهم ما لَم يَسْمَعوا)) .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٧٤٨) : قالت عائشة رضي الله عنها : سَأَلَ أُناسٌ النبيَّ ﷺ عَن الكُهَّان ، فقال : ((إنَّهُم لَيسوا بشَيء)) . فقالوا : يا رسول الله ، فإنَّهُم يُحدِّثون بالشَّيء يكون حَقًّا ، فقال النبيُّ ﷺ : ((تِلك الكَلِمَةُ مِنَ الحَق يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ ، فيُقَرْقِرُها في أُذُنِ وَلِيِّه كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ ، فيَخلِطون فِيه أكثرَ مِن مائة كَذبة)) .

يَسْتَرِقُ الشَّيطانُ كَلِمَةً مِن حديث السَّماء (كلام المَلائكة) ، وهو حَق وصِدْق ، ويُوحِي الشَّيطانُ هذه الكَلِمة مِنَ الحَق إلى وَلِيِّه مِن الإنس ، وهو الكاهن الذين يُخبِر بالأُمور الغَيْبِيَّة المُستقبلية ، فيُضيف الكُهَّان إلى الكلمة المَسموعة مِن الشَّيطان مئةَ كَذبة مِن عِند أنفسهم . والجديرُ بالذِّكر أن كلمة الحق لا يُستفاد مِنها ، ولا يُنتفَع بها ، لكثرة الأكاذيب والأباطيل حَوْلَها .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أدبارِهِم مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدى الشَّيطانُ سَوَّلَ لهم وأمْلَى لهم ﴾ [مُحَمَّد : ٢٥] . إن الذين رَجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، بعدما ظَهَرَ أمامهم طريق الحق والهُدى بالأدلة الظاهرة والمُعْجِزات الواضحة والبراهين الجَلِيَّة ، وأُقِيمت الحُجَّة عليهم ، وانقطعت أعذارهم ، ولكنهم اختاروا الكفر والضلال عِنادًا واستكبارًا واتِّباعًا لأهوائهم. الشَّيطان أغواهم ، وزيَّن لهم ارتدادهم عن الإسلام، وحَسَّنَ لهم خطاياهم ومعاصيهم وذُنوبهم، بعدما تَبَيَّنَ لهم الحق والهدى، وغرَّهم الشَّيطانُ، وخدعهم بالآمال الكاذبة ، ومَدَّ لهم في الأماني الباطلة ، ووعدهم بِطُول العُمُر. والأدبار جَمْع دُبُر، وهو الظَّهْر. وسَوَّلَ بمعنى: زَيَّنَ سُوءَ الفِعل. وهو مأخوذ مِن السُّول ، وهو الاسترخاء . وفي تاج العروس(١/ ٧١٩٦):((التَّسْوِيلُ: تَحْسِينُ الشَّيْءِ وتَزْيِينُه وتَحْبِيبُهُ لِيَفْعَلَهُ أو يَقُولَهُ .وقالَ الرَّاغِبُ:هوَ تَزْيِينُ النَّفْسِ لِمَا حُرِصَ عليه وتَصْوِيرُ القَبِيحِ منهُ بِصُورَةِ الحَسَن. وقالَ غَيْرُه : التَّسْوِيلُ تَفْعِيلٌ مِنَ السُّولِ وهو أُمْنِيَّةُ الإنسانِ يَتَمَنَّاها فَتُزَيِّنُ لِطَالِبِها الباطِلَ وغَيْرَهُ من غُرُورِ الدُّنيا)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٩) : ((قال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أدبارِهِم مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدى ﴾ ، أي: فَارَقُوا الإيمانَ ورَجَعُوا إلى الكُفر ﴿ الشَّيطانُ سَوَّلَ لهم ﴾ ، أي : زَيَّنَ لهم ذلك وحسَّنه ﴿ وأمْلَى لهم ﴾ أي غَرَّهُم وخَدَعَهم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٨و٤٠٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أدبارِهِم ﴾ ، أي : رَجعوا كُفَّارًا . وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم المنافقون ، قاله ابن عباس والسُّدي وابن زيد . والثاني أنهم اليهود ، قاله قتادة ومُقاتل. ﴿ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى ﴾ ، أي : مِن بَعْد ما وَضَحَ لهم الحق ، ومَن قال : هُم اليهود . قال : مِن بَعْد أن تَبَيَّنَ لهم وَصْف رسول الله ﷺ ونَعْته في كتابهم . وسَوَّلَ بمعنى : زَيَّنَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيطانُ فأنسَاهُم ذِكْرَ اللهِ ﴾ [المُجادِلة : ١٩] .

سَيْطَرَ على قُلوبهم الشَّيطانُ ، وغَلَبَ عَلَيهم وتَمَلَّكهم مِن كُل الجِهَات ، فأنساهم ذِكْرَ اللهِ وأوامرَه والعملَ بطاعته ، فلم يَذكُروا اللهَ بقلوبهم ولا ألسنتهم . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢٥٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيطانُ ﴾ ، أي: غَلَبَ واستعلى ، أي : بوَسْوَسته في الدُّنيا ، ... ، ﴿ فأنسَاهُم ذِكْرَ اللهِ ﴾ أي : أوامره في العمل بطاعته)) .

وعن أبي الدَّرداء قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((مَا مِن ثلاثةٍ في قَرْيةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهِمُ الصلاة ، إلا قد استحوذَ عَلَيهم الشَّيطان ، فَعَلَيْكَ بالجَمَاعة)) [٣٧٧].

ما مِن ثلاثة رِجَال مُسلمين (صلاة الجماعة لا تَجِب على النِّساء) في ضَيعة ، ولا بادية ، لا تُقَام فيهم صلاةُ الجماعة ، إلا سيطرَ عليهم الشَّيطان ، وغَلَبهم ، واستولى على قلوبهم ، وجذبهم إلَيه ، فأنساهم أوامرَ الله وشريعته ، فَالْزَمْ صلاةَ الجماعة ، وتَمَسَّكْ بها ، فهي النَّجاة والخلاص والعِصْمة مِن وساوس الشَّيطان وكَيْدِه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤]. مِن شَر الشَّيطان الذي يُوَسْوِسُ للعبد تَارَةً ، ويَخْنِسُ تَارَةً أُخرى. والشَّيطانُ يُلقي الأوهامَ والشُّبُهات والأمور السَّيئة في نَفْس العبد، ويُوَسْوِس له كَي يَرتكب المعاصي ويَبتعد عن الطاعات. وإذا ذَكَرَ العبدُ رَبَّه، خَنَسَ الشَّيطان واختفى . وإذا غَفَلَ العبدُ عن ذِكر الله ، عادَ الشَّيطان لِيُوَسْوِس له . والمقصودُ بـ﴿ الوَسْوَاسِ ﴾ هو الشَّيطان، سُمِّيَ بالحَدَثِ لكثرة مُلابسته له . أي إن الشَّيطان والوَسْوَاس وجهان لِعُملة واحدة . يُوجدان معًا ، ويَغيبان معًا. وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال:((مَا مِن مَولود إلا على قلبه الوَسْوَاس،فإن ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وإن غَفَلَ وَسْوَسَ، وهو قَوله تعالى: ﴿ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ﴾))[٣٧٨].

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٥٢) : ((إن اللهَ أمرَ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يستعيذ به مِن شَر شَيطان يُوَسْوِس مَرَّةً ، ويَخْنِس أُخرى ، ولَم يَخُص وَسْوَسَته على نوع من أنواعها، ولا بِخُنُوسه على وجه دون وجه ، وقد يُوَسْوِس بالدعاء إلى معصية الله ، فإذا أُطِيع فيها خَنَسَ ، وقد يُوَسْوِس بالنَّهْي عن طاعة الله ، فإذا ذَكَرَ العبدُ أمرَ رَبِّه ، فأطاعه فيه ، وعصى الشيطان ، خَنَسَ ، فهو في كل حالتَيْه وَسْوَاس خَنَّاس ، وهذه الصِّفَة صِفته)) .

---

٣٧٧ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٤) برقم (٩٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٧٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٩٠) برقم (٣٩٩١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]. الذي يُلقي في قلوب البشر جميعَ أنواع الشُّبهات والأوهام والوساوس،عندما يَغفُلون عن ذِكر الله تعالى . وهذا يدل على خُبث الشيطان، وضلاله ، وعداوته للإيمان ، وكراهيته للحق . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٤٣): ((ووَسْوَسته : هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيٍّ يَصِل مفهومه إلى القلب مِن غَير سَماع صَوت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ [الناس : ٦] . الذي يُوَسْوِسُ في قلوب الناس هو مِن شياطين الجِن والإنسِ . والآيةُ استعاذة مِن شَر الجِن والإنس جميعًا . كما قال اللهُ تعالى : ﴿ شياطينَ الإنس والجِن يُوحي بعضُهم إلى بعض زُخرفَ القول غُرورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وشياطين الإنس أشد خطورةً من شياطين الجِن،لأن شَيطان الجِن يَخْنِس بالاستعاذة وذِكْر الله، أمَّا شيطان الإنس فَيُزَيِّن المعاصي، ويُخَادِع، ويُنافِق، ويَدعو إلى الفُجور والآثام، ولا يُوقفه شيء. وشَيطانُ الجِن يَهْرُب حِين تقرأ عليه القُرآن ، أمَّا شيطان الإنس ، حِين تقرأ عليه القُرآن، فإنه يُفَسِّر لك الآيات ، ويشرح لك الألفاظ والمعاني ، وَفْقَ هَواه ومصلحته الشخصية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٩) : ((في معنى الآية قَولان : أحدهما يُوَسْوِس في صدور الناس جِنَّتِهم وناسِهم ، فسمَّى الجِن هاهُنا ناسًا ... . هذا قول الفَرَّاء . وعلى هذا القول يكون الوَسْوَاس مُوَسْوِسًا للجِن ، كما يُوَسْوِس للإنس . والثاني أن الوَسْوَاس الذي يُوَسْوِس في صدور الناس هو مِن الجِنَّة ، وهُم مِن الجِن . والمعنى : مِن شَر الوَسْوَاس الذي هو مِن الجِن ، ثُمَّ عَطَفَ قَوْلَه تعالى : ﴿ والنَّاسِ ﴾ على ﴿ الوَسْوَاسِ ﴾ . والمعنى : مِن شَر الوَسْوَاس ، وَمِن شَر الناس ، كأنه أَمَرَ أن يَستعيذ مِن الجِن والإنس ، هذا قول الزَّجاج)) .

٩_ السِّحْر [٣٧٩]

إنَّ السِّحْرَ مِن الأمور الغَيْبِيَّة التي لها آثار واضحة في الواقع،وهو ثابتٌ في الشريعة الإسلامية، ومُنكِره كافر بسبب تكذيبه للقرآن الكريم في أكثر من موضع ، كقوله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة :١٠٢]، وقَوله تعالى : ﴿ وَجَاؤوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦].وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٦):((واختلف أهلُ العِلْم حول موضوع حقيقة السِّحْرِ. فذهب أهلُ

٣٧٩ ((قال الراغب وغَيْرُه : السِّحْر يُطلَق على معانٍ . أحدها : ما لَطُفَ ودَقَّ . ومِنه سَحَرْتُ الصبيَّ خادعتُه واستَمَلْتُه . وكُلُّ مَن استمال شيئًا فقد سَحَرَه . ومِنه إطلاق الشعراء : سِحْر العُيون ، لاستمالتها النُّفُوس))[فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٢٢)] .

السُّنَّة إلى أن له حقيقة،وذهبَ عامَّةُ المُعتزلة إلى أن لا حقيقة له،وإنَّما هو تَمْويه وتَخييل وإيهام)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّياطينَ كَفروا يُعَلِّمُونَ الناسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

ولكنَّ الشَّياطين كفروا بالله تعالى ، بتعليم الناس السِّحْرَ حتَّى انتشرَ أمْرُه بينهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٨٦): ((﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ ولَم يتقدَّم أن أحدًا نَسَبَ سُلَيمانَ إلى الكُفر ، ولكن لمَّا نَسَبَتْهُ اليهودُ إلى السِّحْر ، صاروا بمَنزلة مَن نَسَبَه إلى الكُفر ، لأنَّ السِّحْر يُوجِب ذلك ، ولهذا أثبتَ اللهُ سُبحانَه كُفْرَ الشياطين ، فقال : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّياطينَ كَفروا ﴾ ، أي : بتعليمهم . وقَوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ الناسَ السِّحْرَ ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال ، ويجوز أن يكون في مَحَل رَفْع على أنَّه خَبَر بعد خَبَر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ واسْتَرْهَبُوهُم وجاؤوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] . عِندما أَلْقَى سَحَرَةُ فِرْعَوْن حِبَالَهم وعِصِيَّهم ، خَيَّلُوا إلى أبصار الناس أنَّ ما فعلوه له حقيقة واقعية ، وهو مُجرَّد خَيال وخُدعة بصرية ، وأدخلوا الفَزَعَ في قلوب الناس ، وخوَّفوهم ، وأرهبوهم إرهابًا شديدًا ، حيث خَيَّلُوا حِبَالَهم وعِصِيَّهم حَيَّاتٍ تَسْعَى ، وجاؤوا بسِحْر عظيم في أعين الناظرين ، يَخَافه مَن يُشاهده ، معَ أنَّه وَهْم باطل لا حقيقة له على أرض الواقع .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٦٥) : ((﴿ فلمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ ﴾ ، أي : صَرَفُوا أعْيُنَهم عن إدراك حقيقة ما فَعلوه مِن التَّمويه والتَّخييل ، وهذا هو السِّحْر ، ﴿ واسْتَرْهَبُوهُم ﴾ ، أي: أرهبوهم وأفزعوهم ، ﴿ وجاؤوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وذلك أنهم أَلْقَوْا حِبَالًا غِلاظًا وخُشُبًا طِوَالًا ، فإذا هي حَيَّات كأمثال الجِبَال قد ملأت الوادي ، يَركَب بعضُها بعضًا . وفي القِصَّة أن الأرض كانت مِيلًا في مِيل صارت حَيَّاتٍ وأفاعي في أعين الناس)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يُفْلِحُ الساحِرون ﴾ [يُونُس : ٧٧] . لا يَفُوز ولا يَنجَح السَّاحرون ، لأنَّهُم غارقون في الإثم والضَّلال والمَعَاصي. وكُل مَن أتى بالسِّحْر ، فهو خاسر في الدُّنيا والآخرة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٠) : ((﴿ ولا يُفْلِحُ الساحِرون ﴾ مِن تَمام كَلام مُوسى للدَّلالة على أنَّه لَيس بسِحْر ، فإنَّه لَوْ كان سِحْرًا لاضمحلَّ ، ولَم يُبطِل سِحْرَ السَّحَرَةِ ، ولأنَّ العَالِم بأنَّه لا يُفْلِح السَّاحِرُ لا يَسحَر)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٧٢) : ((وجُملة ﴿ ولا يُفْلِحُ الساحِرون ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال ، أي : أتقولون للحَق إنَّه سِحْر ، والحال أنَّه لا يُفْلِح السَّاحرون ، فلا يَظفَرون بمطلوب، ولا يَفُوزون بخَير، ولا يَنْجُون مِن مَكروه، فكيف يقع في هذا مَن هو مُرسَل مِن عِند الله، وقد أيَّده بالمُعجِزات والبراهين الواضحة ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسَى ما جِئتُم بِهِ السِّحْرُ إنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِين ﴾ [يُونُس : ٨١]. فلمَّا أَلْقَى سَحَرَةُ فِرْعَوْن حِبالَهم وعِصِيَّهم، قال مُوسى : الذي جِئتُم به السِّحْرُ ، إنَّ الله سَيَمْحَقُه ويُهلِكه ، ويَذهب به ، ويَكشِف بُطلانَه للناس ، إنَّ الله لا يُصلِح عَمَلَ الذين يُفْسِدون في الأرض ، ويرتكبون الذُّنُوبَ والمعاصي ، ولا يَجعله يُفيدهم ولا يَنفعهم .

والسِّحْرُ تَخييل ما لَيس بكائن كائنًا ، وهذا وَهْمٌ ، ليس له حقيقة على أرض الواقع .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٠) : ((﴿ فلمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسَى ما جِئتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ ، أي: الذي جِئتُم به هو السِّحْر ، لا ما سمَّاه فِرْعَوْنُ وقَوْمُه سِحْرًا ، ... . ﴿ إنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ سَيَمْحَقُه، أوْ سَيُظهِر بُطلانه ، ﴿ إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِين ﴾ لا يُثَبِّته ولا يُقَوِّيه. وفيه دليل على أن السِّحْر إفساد وتَمْويه ، لا حقيقة له)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتَى ﴾ [طه : ٦٩] .

ما فَعَلَه سَحَرَةُ فِرْعَوْن مُجرَّد حِيلة ولُعبة وخُدعة بصرية ، ولا يَنجح السَّاحِرُ حَيث أتى بِسِحْرِه مِنَ الأرض . وهو خائب خاسر أيْنَمَا ذَهَبَ وتَوَجَّهَ ، وشقيٌّ تعيس في الدُّنيا والآخرةِ ، لأنَّه كاذب ، وضَال مُضِل ، لا دِينَ له ولا أخلاق ولا شرف . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٠٦) : ((﴿ إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ، والمعنى: إنَّ الذي صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، أي : عَمَلُ سَاحِرٍ ، ... . ﴿ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ ، قال ابن عباس : لا يَسعَد حَيْثُما كان . وقيل : لا يَفُوز . ورَوَى جُندَب ابن عبد الله البَجَلِي أنَّ رسول الله ﷺ قال: " إذا أخذتم الساحرَ فاقتلوه ، ثُمَّ قَرَأ : ﴿ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتَى ﴾ "، قال: " لا يَأمَن حَيث وُجد ")) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ ﴾ [الفَلَق : ٤] .

ومِن شَر السَّواحر اللواتي يَنْفُخْنَ في عُقَدِ الخَيط حِينَ يَرْقِينَ عَلَيها ، لإلحاق الضرر والأذى بالناس [٣٨٠]. والنَّفْثُ هو النَّفْخُ بدون رِيق. وتعريفُ " النَّفَّاثات " لأنهنَّ كُلهنَّ شَر بلا استثناء .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥) : ((وقد اخْتُلِف في هذه العُقَد. فقيل: هو على الحقيقة، وأنَّه كما يَعْقِد الساحرُ مَن يَسحَره . وأكثر مَن يفعله النساء ، تأخذ إحداهن الخَيط فتَعقِد مِنه عُقدة ، وتتكلم عليه بالسِّحْر ، فيتأثر المسحور عند ذلك)) .

---

٣٨٠ " النَّفاثات السواحرُ " هو تفسير الحسن البصري . رواه الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٥٠) بسند صحَّحه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٥) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٥) : ((وقال بعض المفسِّرين: المراد بالنفاثات هاهُنا بنات لَبِيد بن أعصم اليهودي ، سَحَرْنَ رسولَ الله ﷺ)) [٣٨١]. وتنبع خُطورةُ السِّحر مِن كُمونه واستتاره، فالشخص يكون أمام عدو خفي لا يَدري وُجهته. وعلى العبد التَّحَصُّن بالقُرآن والسُّنَّة في مواجهةِ هذا العدو الشرس. وحتى لو حافظَ على الأذكارِ الشَّرعية فهو ليس بمعصومٍ من الوقوعِ في السِّحْر ، فالنبيُّ مُحمَّد ﷺ عبدُ الله ورسوله المعصومُ أَعْبَدُ المخلوقاتِ وأتقاها. ولن يَبلغَ إنسيٌّ أو جِنِّيٌّ مَبلغَه مِن العِلم النافع والعمل الصالح ، ومع هذا سُحِرَ على أيدي اليهود ، وكان اللهُ قادرًا أن يُدافع عنه ، إلا أنه تعالى أراد تحذيرنا كي نأخذ حِذرنا. فمشيئة اللهِ نافذة في كل شيء، وينبغي التَّحلي بالصَّبر ومقاومة السِّحْر بالوسائل الشَّرعية .

وعن السَّيدة عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ من بني زُرَيْق يُقال له لَبيد بن الأعصم حتى كان رسولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيءَ وما فعله، حتى إذا كان ذاتَ يَوم أو ذَات لَيلة وهو عِندي، لَكِنَّه دعا ودعا، ثم قال:((يا عائشة، أَشعرتِ أن الله أفتاني فيما اسْتَفْتَيْتُه فيه ؟، أتاني رَجلان فَقَعَدَ أحدُهما عند رأسي، والآخَر عند رِجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرَّجُل ؟، فقال: مَطبوب . قال: مَن طَبَّه ؟ ، قال : لَبِيد بن الأعصم، قال : في أي شيء؟، قال : في مُشْط ومُشَاطة وجُفِّ طَلْع نَخْلَةٍ ذَكَرٍ، قال : وأينَ هُوَ ؟، قال : في بِئر ذَرْوَان)). فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: ((يا عائشة، كأن ماءها نُقَاعة الحِنَّاء ، أو كأنَّ رُؤوسَ نَخْلِها رُؤوسُ الشَّياطين)). قُلتُ: يا رسول الله ، أفلا اسْتَخْرَجْتَه ؟. قال: ((قد عافاني الله ، فَكَرِهْتُ أن أُثَوِّرَ على الناس فيه شَرًّا)) . فَأَمَرَ بِها ، فَدُفِنَت [٣٨٢].

لقد سُحِرَ النبيُّ ﷺ على يد رَجُل يهودي مِن بني زُرَيق ، اسمه : لَبِيد بن الأعصَم ، وكان تأثير السِّحْر قويًّا إلى درجة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُخيَّل إلَيه أنَّه كان يَفعَل الشَّيءَ وما فعله . حتَّى إذا كان ذات يَوم أوْ ذات لَيلة ، والنبيُّ ﷺ عِند عائشة في حُجرتها ، وكان مُشتغلًا بالدُّعاء ، ثُمَّ قال :

---

٣٨١ قال أبو حيَّان في البحر المحيط (٨/ ٥٣٠):((وسبب نزول الْمُعَوِّذَتَيْن قصة " لَبِيد بن الأعصم" الذي سَحَرَ رسولَ الله ﷺ في مُشط ومُشاطة وجُف (قِشر) طَلْعةٍ ذَكَر ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عُقدة، مغروز بالإبر، فأُنزلت عليه المعوِّذتان ، فجعل كلما قرأ آيةً انحلَّت عُقدة ، ووَجَدَ في نَفْسِه خِفَّة ﷺ حتى انحلَّت العُقدة الأخيرة ، فقام ، فكأنما نَشِطَ مِن عِقَال)) .

٣٨٢ مُتَّفق عليه . واللفظ للبخاري (٥/ ٢١٧٤) برقم(٥٤٣٠)، ومسلم(٤/ ١٧١٩)برقم (٢١٨٩) .

((يا عائشة ، أَشعرتِ)) أي : أعَلِمْتِ ((أن الله أفتاني فيما اسْتَفْتَيْتُه فيه ؟)) ، أي : أجابني فِيما دَعَوْتُه ، أوْ عمَّا سألتُه عنه ، ((أتاني رَجلان)) أي: مَلَكَان ، ((فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخَر عند رِجلي ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرَّجُل ؟)) أي : ما وَجَعَ النبيُّ ﷺ ؟ . ((فقال: مَطبوب)) ، أي: مَسحُور ((قال: مَن طَبَّه ؟)) أي: مَن سَحَرَه ؟ ((قال: لَبِيد بن الأعصم، قال : في أي شيء؟، قال : في مُشْط)) التي يُسرَّح بها شَعْر الرأس واللحية ((ومُشَاطة)) ما يَخرُج مِن الشَّعْر عِند التَّسريح ((وجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ)) الغِشاء الذي يَكون على الطَّلْع، ويُطلَق على الذَّكَرِ والأُنْثى ، لذلك قيَّده بقَوله : ((ذَكَر)) ، وهي صِفةٌ للجُفِّ ((قال : وأينَ هُوَ ؟، قال : في بِئر ذَرْوَان)). فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: ((يا عائشة، كأن ماءها نُقَاعة الحِنَّاء)) يعني أنَّ ماء البِئر أحمر كالذي يُنقَع فيه الحِنَّاء ، أي إنَّه تغيَّرَ لرداءته ، أوْ لِمَا خالطه مِمَّا أُلْقِيَ فيه((أو كأنَّ رُؤوسَ نَخْلِها رُؤوسُ الشَّياطين)) في كراهتها وقُبح مَنظرها. قُلتُ: يا رسول الله ، أفلا اسْتَخْرَجْتَه ؟. قال: ((قد عافاني الله ، فكرهتُ أن أُثَوِّرَ على الناس فيه شَرًّا)) مِن تَذكير المُنافقين بالسِّحْر وتعلُّمه فيُؤْذون المؤمنين . فَأَمَرَ النبيُّ ﷺ بالبِئر ، فَدُفِنَت .

وقال العلماء : في هذا الحديث فوائد جَمَّة ، مِنها : ١_ التَّكنية عن السِّحْر بالطِّب تفاؤلًا . ٢_ دَرْء المفاسد مُقدَّم على جَلْب المصالح . ٣_ الصَّبْر على الابتلاء والامتحان . ٤_ الإلحاح في الدُّعاء وتَكراره . ٥_ إظهار مُعجِزة النبيِّ ﷺ وعِصمته فيما يُبلِّغه عن الله تعالى ، وإخباره بمكان السِّحْر . ٦_ بيان أهمية الأخذ بالأسباب ، وأنَّها لا تُنافي التَّوَكُّلَ . ٧_ بيان أنَّ مِن صِفات اليهود خِيانة الله ورسوله ﷺ .

وفي الحديث دليل على أنَّ ساحر أهل الذِّمَّة لا يُقْتَل ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَقْتله . أمَّا إذا ترتَّبَ على سِحْره قَتْل نَفْس ، فإنَّه يُقْتَل بها . والنبيُّ ﷺ مُعرَّض _ مِثل باقي الناس _ للإعياء والمرض والتَّعب النَّفْسي والجُسماني، وحتى إنه تَعَرَّضَ للسِّحْر ، لكن هذه العوامل لا سبيل لها إلى الدعوةِ والرِّسالة ، فالنَّبيُّ معصومٌ في التبليغ عن اللهِ الحافظ للرسالة،وهذا لا يتنافى مع تعرُّض النبيِّ ﷺ لِمَا قد يتعرَّض له أي إنسان. والنبيُّ ﷺ هو القُدوة الأسمى والمَثَل الأعلى، اختاره اللهُ رَجُلًا مِن الإنس، للاقتداء بِه ، والتعلم مِنه ، والتعامل معه ، لذلك لَم يَجعله مَلَكًا ولا جِنِّيًّا .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٧): ((وقد قال بعضُ العلماء: لا يَلزَم مِن أنه كان يظن أنه فعلَ الشيء ولَم يكن فَعَلَه أن يَجزِم بِفِعله ذلك، وإنما يكون ذلك مِن جِنس الخاطر ، يَخطُر ولا يَثبُت، فلا يَبقى على هذا للمُلحِد حُجَّة)) .

تاسعًا : القضاء والقدر

إنَّ الإيمان بالقَضَاء والقَدَر مِن أُسُس الإيمان وأركانه ، وإذا زالَ ، زالَ الإيمانُ مِن جُذوره . وهذا الإيمان يعني الخضوع لله تعالى ، والاستسلام له دون تَوَاكُل أوْ كَسَل .

والقَضَاءُ والقَدَر لا يَعْنيان إجبار العبد على الطاعة أو المعصية ، بل يَعْنيان أن الله وَحْدَه هو المُتصرِّف في الكَون ، يَفعل ما يشاء دون ظُلمٍ للعباد . واللهُ خالقُ الخَير والشَّر ، والإنسانُ يختار الطريق الذي يُريده بإرادته ، دُون ضَغْط ولا إكراه ، ويتحمَّل مسؤولية اختياره في الدُّنيا والآخِرة .

والقَضَاءُ : عِلْم الله عَزَّ وَجَلَّ للأشياء في الأزَل على الصُّورة التي ستُوجَد عَلَيها ، وستكون عليها في المُستقبل . والقَدَر : إيجاد تلك الأشياء في عِلْم الظُّهور على وجه تفصيلي يُوَافِق القَضَاءَ السابق الأزلي المُتعلِّق بها. وهذا يعني أنَّ القَضَاء هو الأمر الكُلِّي الإجمالي الذي أراده اللهُ مُنذ الأزل . أمَّا القَدَر فهو جُزئيات ذلك الأمر الكُلِّي الإجمالي وتفاصيله .

قالَ اللهُ تعالى :﴿ وإذا قَضَى أمْرًا فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون ﴾ [البقرة : ١١٧] .

وإذا أحكمَ اللهُ أمْرًا وأتقنه وَفْقَ عِلْمه السابق ، فَيُوجَد ذلك الأمر فَوْرًا بلا تأخير ، وَفْق تقدير الله وإرادته . وهذا يدل على كمال قُدرة الله، وعظيم سُلطانه، وإرادته النافذة في كُل شيء،ولا يقف أمامها مانع.وقضاءُ الأمرِ هو إحكامه وإتقانه وإمضاؤه . واللهُ تعالى إذا قضى أمْرًا من الأمور ، وأرادَ إيجاده ، فيكون الأمر بِقُدرة الله على ما أراد . وهذا الأمر يَقع لا مَحَالة ، لأن تأثير القُدرة الإلهية في الأشياء نافذ بلا موانع . والإرادةُ الإلهية لا شيء يُعجزها أوْ يُعيقها .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٤٢) : ((﴿ وإذا قضى أمرًا ﴾ أي قَدَّره ، وقِيل : أحكمه وقَدَّره وأتقنه . وأصل القضاء : الفراغ . ومِنه قِيل لِمَن مات : قُضِيَ عليه لفراغه مِن الدنيا ، ومِنه قضاء الله وقَدَره ، لأنه فَرَغَ مِنه تقديرًا وتدبيرًا)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٥٠) أن رسول الله ﷺ قال: ((... ولكنَّ رَبَّنا _ تباركَ وتعالى اسْمُه_ إذا قضى أمرًا سَبَّح حَمَلَةُ العَرْش، ثم سَبَّح أهلُ السَّماء الذين يَلُونهم، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسبيحُ أهلَ هذه السَّماء الدُّنيا)) .

إذا أحكمَ اللهُ أمرًا ، سبَّح حَمَلَةُ العَرْش (الملائكة المُقرَّبون) تعظيمًا لله ، وتقديسًا لأمره ، ثُمَّ سَبَّحَ الملائكةُ أهلُ السماء الذي يأتون بَعْدهم ، حَتَّى يَبلُغ تَسبيحُ اللهِ وتقديسُه وتعظيمُه الملائكةَ في السَّماء الأُولَى (السَّماء الدُّنيا) . وهذا يدلُّ على تعظيم الملائكة لِرَبِّهِم سُبحانَه وتعالى .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١/ ١٥١) : ((وأصلُ القَضَاء الإحكام ، أُطْلِقَ على الإرادة الإلهية المُتعلِّقة بوُجود الشيء لإيجابها إيَّاه ... . ﴿ فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ كلاهما من الكَوْن التام ، أي أَحْدَثَ فَيَحْدُثُ ، وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال، وإنما هو تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات بِحَسَب تعلُّق مَشيئته تعالى ، وتصوير لِسُرعة حُدوثها)) .

عندما يُريد اللهُ أمرًا فذلك الأمر يقع فَوْرًا، خُضُوعًا للإرادة الإلهية، دُون أن يقول اللهُ للشيء : " كُن " ، لأن هذا الفِعْل إشارة لسُرعة استجابة الأشياء لإرادة الله تعالى ، وعدم تأخُّرها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٦): ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا قضى أمرًا ﴾ . قال ابن عباس : معنى القضاء الإرادة . وقال مُقاتل : إذا قضى أمرًا في عِلْمه، فإنَّما يقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ . والجمهور على ضَم نون ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فيكون بالرفع على القَطْع ، والمعنى : فهو يكون. وقرأ ابن عامر بِنَصْب النون . قال مكي بن أبي طالب : النَّصْب على الجواب ، لكن فيه بُعْد . فصل : وقد استدل أصحابنا على قِدَم القرآن بِقَوله : ﴿ كُن ﴾ فقالوا : لَو كانت " كُن " مخلوقة لافتقرت إلى إيجادها بِمِثْلها ، وتسلسُل ذلك ، والمُتسلسل مُحال. فإن قِيل : هذا خطاب لمعدوم ، فالجواب أنه خِطاب تكوين يُظهِر أثرَ القُدرة ، ويستحيل أن يكون المُخَاطَب موجودًا ، لأنَّه بالخِطاب كان ، فامتنع وجوده قَبْلَه أو معه ، ويُحَقِّق هذا أن ما سيكون مُتَصَوَّر للعِلْم ، فضاهى بذلك الموجود ، فجاز خِطابه لذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أجَلًا وأجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أنتُم تَمْتَرُون ﴾ [الأنعام : ٢] .

إنَّ اللهَ العظيم خَلَقَ أباكم آدم ﷺ (أصل البشرية) مِن طِين ، ثُمَّ حَكَمَ وقَدَّرَ لكم وَقْتًا مُحدَّدًا وزمنًا مُعيَّنًا للمَوت ، أي إنكم تَمُوتون عِند انتهاء آجالكم المُحدَّدة مُسْبَقًا ، وأجلٌ آخَر مُحدَّد ومُعيَّن ومُسَمًّى عِند الله لبعثكم مِن قُبوركم . وهذا يعني أن الأجل الأوَّل مِنَ الوِلادة إلى المَوت، والأجل الثاني مِنَ المَوت إلى البَعْث، ثُمَّ أنتُم أيها الكافرون تَشُكُّون في البَعْث ، وتُكذِّبون به ، بعد ظُهور الأدلة، ووُضوح البراهين ، وقِيام الحُجَّة عليكم ، وانقطاع أعذاركم . وأنتم تَعْلَمُون أنَّ الله ابتدأ خَلْقَكُم ، وأوجدكم مِنَ العَدَم . ومَن قَدَرَ على ابتداء الخَلْق ، فهو على الإعادة أقْدَر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٤٣) : ((﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ﴾ ، في مَعناه قَولان : أحدهما وهو الأشهر ، وبه قال الجمهور : أنَّ المُراد آدم عليه السلام ، وأخرجه مَخرَج الخِطَاب للجميع ، لأنهم وَلَدُه ونَسْلُه . الثاني : أن يكون المُراد جميع البشر ، باعتبار أن النُّطفة

التي خُلقوا مِنها مَخلوقة مِن الطِّين . ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه خَلْقَ آدم وبَنِيه ، بَعْد خَلْق السماوات والأرض ، إِتْبَاعًا للعالَم الأصغر بالعالَم الأكبر ، والمطلوب بذِكْر هذه الأمور دَفْع كُفر الكافرين بالبَعْث ، ورَد لجُحُودهم بما هو مُشَاهَد لهم ، لا يَمْتَرُون فيه . قَوله : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ ، جاء بكلمة " ثُمَّ " لِمَا بَين خَلْقهم وبَيْن مَوْتهم مِن التَّفَاوُت . وقد اختلفَ السَّلَفُ ومَن بَعدهم في تفسير الأجَلَيْن ، فقِيل : ﴿ قَضَى أَجَلًا ﴾ يعني الموت ﴿ وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ يعني القِيامة ، وهو مرويٌّ عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير والحَسَن وقَتادة والضَّحاك ومُجاهد وعِكرمة وزيد بن أسْلَم وعَطِيَّة والسُّدي وخُصَيف ومُقاتل وغَيرهم . وقِيل : الأوَّل ما بَين أن يُخلَق إلى أن يَمُوت ، والثاني: ما بين أن يَمُوت إلى أن يُبعَث ، وهو قريب مِن الأول . وقِيل : الأوَّل مُدَّة الدُّنيا ، والثاني عُمُر الإنسان إلى حِين مَوته ، وهو مرويٌّ عن ابن عباس ومُجاهد . وقِيل : الأوَّل قَبْض الأرواح في النَّوم ، والثاني قَبْض الرُّوح عِند المَوت . وقِيل : الأوَّل ما يُعرَف مِن أوقات الأهِلَّة والبُرُوج وما يُشبِه ذلك ، والثاني أجَل المَوت . وقِيل : الأوَّل لِمَن مَضَى ، والثاني لِمَن بَقِيَ وَلِمَن يأتي . وقِيل إنَّ الأوَّل الأجل الذي هو مَحتوم ، والثاني الزِّيادة في العُمُر لِمَن وَصَلَ رَحِمَه ، فإنْ كان بَرًّا تَقِيًّا ، وَصُولًا لِرَحِمه ، زِيدَ في عُمُره ، وإنْ كان قاطعًا للرَّحِم ، لَم يُزَدْ له ، ويُرشِد إلى هذا قَوله تعالى : ﴿ وما يُعمَّر مِن مُعمَّر ولا يُنقَص مِن عُمُره إلا في كتاب ﴾[فاطر : ١١] . وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّ صِلَة الرَّحِم تَزِيد في العُمُر ، وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب المَوت . وجاز الابتداء بالنَّكِرَة في قَوله : ﴿ وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ ، لأنَّها قد تخصَّصت بالصِّفَة . قَوله : ﴿ ثُمَّ أنتم تَمْتَرُون ﴾ ، استبعاد لصُدور الشَّك مِنهُم مَعَ وُجود المُقْتَضَى لِعَدَمِه ، أي كيف تَشُكُّون في البَعْث مَعَ مُشاهدتكم في أنفسكم مِن الابتداء والانتهاء ما يَذهب بذلك ويَدفعه ، فإنَّ مَن خَلَقَكم مِن طِين وصيَّركم أحياء تَعْلَمون وتَعْقِلون ، وخَلَقَ لكم هذه الحَوَاس والأطراف ، ثُمَّ سَلَبَ ذلك عنكم ، فصِرْتُم أمواتًا ، وعُدتم إلى ما كُنتم عليه مِن الجَمَادية، لا يُعجِزه أن يَبعثكم ، ويُعيد هذه الأجسام كما كانت ، ويَرُد إلَيها الأرواح التي فارقتها بقُدرته ، وبديع حِكمته)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣): ((قَوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ﴾ ، يعني : آدم ، وذلك أنَّه لمَّا شَكَّ المُشركون في البَعْث ، وقالوا : مَن يُحْيي هذه العِظَام ؟ ، أعلمهم أنَّه خَلَقَهم مِن طِين ، فهو قادر على إعادة خَلْقهم . قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ ، فيه سِتَّة أقوال : أحدها أنَّ الأجَل الأوَّل أجل الحياة إلى المَوت ، والثاني أجَل المَوت

إلى البَعْث ، رُوِيَ عن ابن عباس والحسن وابن المُسيِّب وقَتادة والضَّحاك ومُقاتل . والثاني أن الأجل الأول النَّوم الذي تُقْبَض فيه الرُّوح ، ثُمَّ تُرجَع في حال اليَقَظَة ، والأجل المُسمَّى عِنده أجل مَوت الإنسان ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أن الأجل الأوَّل أجل الآخِرة متى يأتي ، والأجل الثاني أجل الدُّنيا ، قاله مجاهد في رواية . والرابع أنَّ الأوَّل خَلْق الأشياء في ستة أيام، والثاني ما كان بعد ذلك إلى يَوم القِيامة ، قاله عُطَاء الخُرَاساني . والخامس أن الأول قَضَاه حِين أخذَ المِيثاقَ على خَلْقه ، والثاني الحياة في الدُّنيا ، قاله ابن زَيد ، كأنه يُشير إلى أجَل الذُّرِّيَّة حِين أحياهم وخاطبهم . والسادس أن الأول أجَل مَن قد مات مِن قَبْل ، والثاني أجَل مَن يَمُوت بَعْد ، ذَكَرَه الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أنتم ﴾ ، أي : بَعْد هذا البَيان ﴿ تَمْتَرُون ﴾ ، وفِيه قَولان : أحدهما تَشُكُّون ، قاله قَتادة والسُّدي ، وفيما شَكُّوا ، فِيه قَولان : أحدهما الوَحْدانية ، والثاني البَعْث . والثاني يَختلفون ، مأخوذ مِن المِرَاء ، ذكره الماوردي)) .

وعن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ قَضَى أجَلًا وأجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ﴾ ، قال : ((هُمَا أجَلان : أجَلُ الدُّنيا، وأجَلٌ في الآخِرة مُسَمًّى عِندَه ، لا يَعْلَمُه إلا الله)) [٣٨٣].

هذا يدلُّ على أنَّ عِلْم الله شامل لكل شيء ، وكُل شيء عِندَه مُحدَّد بوقت ثابت في الأزَل . وإرادةُ الله نافذة في كُل شيء ، لا يَقف أمامها مانع ولا حاجز .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَن يُصِيبَنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلانا ﴾ [التَّوبة : ٥١] .

نَحْنُ خاضعون لإرادة الله مشيئته وقَدَره وقُدرته ، ولَن يُصيبنا خَير ولا شَر ، إلا وهو مَكتوب عَلَينا في اللوح المحفوظ ، ولن يُصيبنا إلا ما قَضَاه وقدَّره اللهُ عَلَينا في الأزَل . هُوَ سَيِّدُنا وناصرُنا وحافظُنا ومُتَوَلِّي أُمورنا .

والآيةُ تَدعو إلى التَّوكُّل على الله ، والرِّضا بقَضَائه وقَدَره ، والصَّبر على المصائب .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٨٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه مُؤَدِّبًا نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ قُل ﴾ يا مُحمَّد لهؤلاء المُنافقين الذين تخلَّفوا عَنكَ : ﴿ لَن يُصِيبَنا ﴾ أيُّها المُرتابون في دِينهم ﴿ إلا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ في اللوح المحفوظ وقَضَاه عَلَينا ﴿ هُوَ مَوْلانا ﴾ ، يقول: هو ناصرُنا على أعدائه)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٣٧) : ((أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ بأن يُجيب عليهم ــ على المُنافقين ــ بقَوله : ﴿ لَن يُصِيبَنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ ، أي : في اللوح المحفوظ ، أوْ في كِتابه

---

٣٨٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٤) برقم (٣٢٢٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المُنزَّل عَلَينا . وفائدة هذا الجواب أنَّ الإنسان إذا عَلِمَ أنَّ ما قدَّره اللهُ كائن ، وأنَّ كُل ما ناله مِن خَير أوْ شَر، إنَّما هو بقَدَر الله وقَضَائه، هانت عليه المصائب،ولَم يَجِدْ مَرَارَةَ شَمَاتة الأعداء وتَشَفِّي الحَسَدَة ﴿ هُوَ مَوْلانا ﴾ ، أي: ناصرُنا وجاعلُ العَاقِبَةِ لنا ، ومُظهِر دِينه على جَميع الأديان)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/٤٥٠):((قَوله تعالى: ﴿ إلا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها ما قَضَى عَلَينا، قاله ابن عباس. والثاني ما بيَّن لنا في كِتابه مِن أنَّا نَظفَر ، فيَكُون ذلك حُسنى لنا، أوْ نُقْتَل فتكون الشَّهادة حُسنى لنا أيضًا، قاله الزَّجاج. والثالث لَن يُصيبنا في عاقبة أمرنا ، إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا مِن النَّصْر الذي وُعدنا ، ذَكَرَه الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ هُوَ مَوْلانا ﴾ أي : ناصرُنا)) .

وقال عليُّ بن أبي طالب _ رضي اللهُ عنه _ :

ما لا يَكُونُ فلا يَكُونُ بحِيلةٍ   أبَدًا وما هو كائنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ ما هُوَ كائنٌ في وَقْتِه   وأخُو الجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
يَسْعَى القَوِيُّ فلا يَنَالُ بِسَعْيِهِ   حَظًّا ويَحْظَى عَاجِزٌ ومَهِينُ

وقال أبو العَتَاهِيَة :

لَعَلَّ ما تَخْشَاه لَيْسَ بكائنٍ   وَلَعَلَّ ما تَرْجُوهُ سَوْفَ يَكُونُ
وَلَعَلَّ ما هَوَّنْتَ لَيْسَ بَهَيِّنٍ   وَلَعَّلَّ ما شَدَّدْتَ سَوْفَ يَهُونُ

وما أجملَ قَول القائل :

_ يُريدُ المَرْءُ أن يُعْطَى مُنَاهُ   وَيَأبَى اللهُ إلا مَا يَشَاءُ
_ سَبَقَتْ تَقَادِيرُ الإلهِ وحُكْمُه   فأَرِحْ فُؤَادَكَ مِن لَعَلَّ وَمِن لَوْ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ ﴾ [يُونُس : ٣] .

يَقْضِي اللهُ أمرَ الخلائق وَحْدَه ، ويُقَدِّره وَفْق الحِكمة والمصلحة ، بلا شريك ولا مُساعد . واللهُ قَد أحاطَ بكل شيء عِلْمًا ، فهو يُدبِّر أمرَ الخلائق ، أوْ يَأمر به ويُمضيه .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٨٠) : ((﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ ﴾ . قال مجاهد : يَقْضِيه ويُقدِّره وَحْدَه . ابن عباس : لا يَشرَكه في تَدبير خَلْقِه أحد . وقِيل : يَبْعَث بالأمر ، وقيل : يُنزِّل به.وقِيل : يأمر به ويُمضيه ، والمعنى مُتقارب ، فجِبريل للوَحْي ، ومِيكائيل للقَطْر (المطر) ، وإسرافيل للصُّور ، وعِزرائيل للقَبْض . وحقيقته تَنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها . واشتقاقه مِن الدُّبْر . والأمر اسم لجِنس الأمور)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٤) : ((يُقَدِّر أمرَ الكائنات على ما اقتضته حِكمته ، وسَبَقَتْ به كَلِمته ، ويُهيِّئ بتحريكه أسبابها ، ويُنزِّلها مِنه . والتَّدبير النَّظَر في أدبار الأمور ، لتجيء محمودة العاقبة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لا أمْلِكُ لِنَفْسي ضَرًّا ولا نَفْعًا إلا ما شاءَ اللهُ ﴾ [يُونُس : ٤٩] .

مُحمَّد ﷺ عبد الله ورسوله ، لا يَملِك لنَفْسه ضَرًّا ولا نَفْعًا إلا ما شاءَ اللهُ أن يَملِكه ويَقْدِر عَلَيه ، وإذا كان ﷺ لا يَقْدِر أن يَدفَع عَن نَفْسِه شَرًّا ، ولا يَجلِب لها خَيْرًا ، ولا يَملِك هذا الشَّيء لِنَفْسه ، فكيف يَملِكه لِغَيره ؟. وهذا دليل واضح على أن النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ عبدٌ لله ، خاضع له ، ولا يَملِك مِن أمره شيئًا . والأمرُ كُلُّه لله وَحْدَه . وكُل شيء خاضع لمشيئة الله تعالى ، ولَيس له شريك في أمره وحُكمه .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٦٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ قُل ﴾ يا مُحمَّد لمُستعجليك وَعيدَ الله القائلين لك : مَتَى يأتينا الوعدُ الذي تَعِدُنا إن كنتم صادقين ؟ : ﴿ لا أمْلِكُ لِنَفْسي ﴾ أيها القَوم ، أي : لا أَقْدِر لها على ضَر ولا نَفْع في دُنيا ولا دِين ﴿ إلا ما شاءَ اللهُ ﴾ أن أَمْلِكه ، فأجْلِبه إلَيها بإذنه . يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه ﷺ : قُل لهم : فإذا كُنتُ لا أَقْدِر على ذلك إلا بإذْنه ، فأنا عَن القُدرة على الوُصول إلى عِلْم الغَيْب ، ومَعرفة قِيام السَّاعة ، أعجز وأعجز ، إلا بمشيئته وإذْنه لي في ذلك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٥١) : ((﴿ قُل لا أمْلِكُ لِنَفْسي ضَرًّا ولا نَفْعًا ﴾ ، أي : لا أقْدِر على جَلْب نَفْع لها ، ولا دَفْع ضَر عنها ، فكيف أَقْدِر على أنْ أَمْلِكَ ذلك لغَيري ؟. وقدَّم الضَّرَّ لأن السِّياق لإظهار العَجْز عَن حُضور الوَعْد الذي استعجلوه واستبعدوه . والاستثناء في قَوله : ﴿ إلا ما شاءَ اللهُ ﴾ مُنقطع ، كما ذَكَرَه أئمة التفسير : أي ، ولكن ما شاء اللهُ مِن ذلك كان ، فكيف أَقْدِر على أن أَمْلِك لنَفْسي ضَرًّا أو نَفْعًا ؟ . وفي هذه أعظم واعظ ، وأبلغ زاجر ، لِمَن صَار دَيدَنه وهِجِّيراه (عادته ودأبه) المُناداة لرسول الله ﷺ ، والاستغاثة به عِند نُزول النَّوَازل التي لا يَقْدِر على دَفْعِها إلا اللهُ سُبحانَه ، وكذلك مَن صار يَطلُب من الرسول ﷺ ما لا يَقْدِر على تَحصيله إلا الله سُبحانَه ، فإنَّ هذا مَقام رَب العالَمين الذي خَلَقَ الأنبياءَ والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم ويُميتهم، فكيف يُطلَب من نبيٍّ من الأنبياء ، أو مَلَك مِن الملائكة، أو صالح من الصالحين ، ما هو عاجز عَنه غَير قادر عليه ، ويُترَك الطلب لرَبِّ الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المُعطي المانع ؟ . وحَسْبُكَ بما في هذه الآية مَوعظة ، فإن هذا سَيِّد

ولد آدم ، وخاتَم الرُّسُل ، يأمره اللهُ بأن يقول لعباده : لا أَمْلِكُ لِنَفْسي ضَرًّا ولا نفعًا ، فكيف يَملِكه لغَيره ؟ ، وكَيف يَملِكه غَيْرُه مِمَّن رُتْبته دُون رُتبته ، ومنزلته لا تَبلُغ إلى مَنزلته لنَفْسه ، فضلًا عن أن يَملِكه لغَيره ، فيا عَجَبًا لقَوم يَعكُفُون على قُبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثَّرى ، ويَطلُبون مِنهم مِن الحوائج ما لا يَقْدِر عليه إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، كيف لا يتيقظون لِمَا وَقَعُوا فِيه مِن الشِّرْك ، ولا يتنبَّهون لِمَا حَلَّ بهم مِن المُخالفة لمعنى : لا إلهَ إلا اللهُ ، ومَدلول ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ ؟ . وأعْجَب مِن هذا اطِّلاع أهل العِلْم على ما يقع من هؤلاء ، ولا يُنكِرون عَلَيهم ، ولا يَحُولُون بينهم وبين الرُّجوع إلى الجاهلية الأُولَى ، بل إلى ما هو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سُبحانَه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت الضَّار النافع ، وإنَّما يَجعَلون أصنامَهم شُفَعاء لهم عِند الله ، ومُقرَّبين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قُدرة على الضَّر والنَّفْع ، ويُنادونهم تَارَةً على الاستقلال ، وتَارَةً مَعَ ذِي الجَلال ، وكَفَاكَ مِن شَر سَمَاعه ، والله ناصر دِينه ، ومُطهِّر شريعته من أوضار الشِّرْك ، وأدناس الكُفر ، ولقد توسَّلَ الشَّيطانُ _ أخزاه اللهُ _ بهذه الذريعة إلى ما تَقَرُّ به عَيْنُه ، وينثلج به صَدْرُه مِن كُفر كثير من هذه الأُمَّة المُبَارَكَة)) .

وعن أبي أُمَامة بن سَهْل بن حُنَيف _ رضي اللهُ عنه_ : أنَّ رسول الله ﷺ عاد سَعْد بن زُرَارة ، وبه الشَّوكة، فلمَّا دَخَلَ عَلَيه قال: ((بِئْسَ المَيِّتُ هذا، اليَهُود يَقُولون: لَوْلا دَفَعَ عَنه. ولا أَمْلِكُ له ولا أَمْلِكُ لِنَفْسِي شيئًا)) [٣٨٤].

هذا دليلٌ على أن مُحَمَّدًا ﷺ عبد الله ورسوله ، خاضع لأمر سَيِّده وحُكمه ، ولا يَملِك مِن أمره شيئًا ، ولا يَستطيع دَفْع الضَّر عَن نَفْسه ، ولا جَلْب النَّفْع لها . ومَن كان لا يَقْدِر على مُساعدة نَفْسِه ، فَلَن يَقْدِر على مُساعدة غَيره . وهذا يُثبِت بشرية النبيِّ ﷺ وعُبوديته لله ، وهو وَحْدَه النافع والضَّار ، وكُل شيء خاضع لمشيئة الله وإرادته .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أن تُؤْمِنَ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ [يُونُس : ١٠٠] .

ما كانَ لأحدٍ أن يُؤْمِن إلا بإرادة الله وقضائه وقَدَره وتَوفيقه . والإيمانُ شَرَف لا يَمنَحه اللهُ لكل شخص ، وإنَّما يَمنَحه لأشخاص مُحدَّدين وهُم المستحقون له ، وهذا يدلُّ على عِلْم الله الشامل لكل شيء ، وحِكمته البالغة ، وفَضْله الكبير ، وعَدْله العظيم . وما شاءه اللهُ كان ، وما لَم يَشَأْهُ لَم يَكُن . وعلى العبد أن لا يُتعِب نَفْسَه في هِدَاية الناس ، لأنَّه هِدَايتهم بيد الله وَحْدَه ، ولكن

---

٣٨٤ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٨) برقم (٧٤٩٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ينبغي على العبد أن يَأمر بالمعروف ، ويَنهَى عنَ المُنكَر ، ويُرشِد الآخرين إلى طريق الحق والهُدى، واللهُ يَهْدِي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء . والآيةُ دليل واضح على أنَّ العبد لا يُؤْمِن بذكائه ومهاراته الشخصية ، لأنَّ إيمانه خاضع لمشيئة الله تعالى . وهذا يعني أن الإيمان فضل مِن الله ، ونِعمة مِنه.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : وما كان لِنَفْسٍ خَلَقْتُهَا مِن سَبيل إلى تَصديقك يا مُحمَّد إلا بأن آذنَ لها في ذلك ، فلا تُجْهِدَنَّ نَفْسَكَ في طَلَب هُداها ، وبَلِّغْها وَعِيدَ الله ، وعَرِّفْها ما أمركَ رَبُّكَ بتعريفها ، ثُمَّ خَلِّها ، فإنَّ هُدَاها بيد خالقها . وكان الثوري يقول في تأويل قَوله : ﴿ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ ما حَدَّثني المُثنَّى قال : حَدَّثَنا سُوَيد قال : أخبرنا ابن المُبَارَك عن سُفيان في قَوله : ﴿ وما كانَ لِنَفسٍ أن تُؤمِنَ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ ، قال : بقَضَاء الله)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أن تُؤْمِنَ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ ، فيه سِتَّة أقوال : أحدها بقَضَاء الله وقَدَره . والثاني بأمر الله ، رُوِيَا عن ابن عباس . والثالث بمَشيئة الله، قاله عطاء. الرابع إلا أن يَأذَنَ اللهُ في ذلك ، قاله مُقاتل . والخامس بِعِلْمِ الله. والسادس بتَوفيق الله ، ذَكَرَهما الزَّجاج وابن الأنباري)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ [الرَّعْد : ٣٩] .

يُزيل اللهُ ما يَشاء مِن الأحكام والشَّرائع والفرائض ، ويَنسَخه ، ويُثْبِت ما يشاء مِنها بلا تغيير، وَفْق عِلم الله السابق وحِكمته ومَصلحة عِباده . وعِندَ الله اللوحُ المحفوظ الذي كَتَبَ فيه مَقاديرَ كُلِّ شيء في الأزل.أي إنَّ الله عِندَه أصل الكِتاب، وهو اللوح المحفوظ ، الذي كَتَبَ فيه كُلَّ شيء ، ولا يتغيَّر مِنه شيء . واللهُ يُغيِّر ، ولا يتغيَّر .

ومعَ أنَّ ظاهر الآية على العُمُوم ، إلا أن بعض العلماء قال: يَمْحُو الله ما يَشاء مِن أُمور العباد، ويُغيِّره ، إلا السَّعادة والشَّقاء، فإنَّهما ثابتان لا يُغيَّران ، ولا يُبدَّلان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٨٣) : ((وقَوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ ﴾ . اختلفَ المُفسِّرون في ذلك ، فقال الثَّوري ووَكِيع وهُشَيم عن ابن أبي ليلى عن المِنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : يُدبِّر أمرَ السَّنَة ، فيمحو اللهُ ما يشاء إلا الشَّقاءَ والسَّعادة والحياة والموت ، وفي رواية : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ ﴾ ، قال : كُل شيء إلا المَوت والحياة والشَّقاء والسعادة ، فإنهما قد فَرَغَ مِنهما . وقال مجاهد : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ ﴾ إلا الحَياة والمَوت والشَّقاء والسَّعادة ، فإنَّهما لا يتغيَّران . وقال منصور : سألتُ مُجَاهِدًا ، فقُلتُ : أرأيتَ دُعَاءَ أحدنا يقول : اللهُمَّ إنْ كان اسمي في السُّعَداء فأثْبِتْهُ فِيهم ، وإنْ كان في الأشقياء

فَامْحُه عَنهُم ، واجعله في السُّعَداء ؟ ، فقال : حَسَن . ثُمَّ لَقِيته بعد ذلك بحَول أو أكثر فسألتُه عن ذلك ، فقال : ﴿ إِنَّا أنزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَة ﴾ [الدُّخَان : ٣] الآيتَيْن . قال : يَقْضي في ليلة القَدْر ما يكون في السَّنَة مِن رِزق أوْ مُصيبة ، ثُمَّ يُقَدِّم ما يَشاء ، ويُؤَخِّر ما يشاء ، فأمَّا كِتاب السَّعادة والشَّقاوة ، فهو ثابت لا يُغَيَّر . وقال الأعمش عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة : إنَّه كان كثيرًا ما يَدعو بهذا الدُّعاء : اللهُمَّ إنْ كُنتَ كَتَبْتَنا أشقياء ، فَامْحُه ، واكْتُبْنا سُعَداء ، وإنْ كُنتَ كَتَبْتَنا سُعَداء ، فأثْبِتْنا ، فإنَّكَ تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت ، وعِندَك أُمُّ الكتاب . رواه ابن جرير . وقال ابن جرير أيضًا : حَدَّثَنا عمرو بن عليٍّ حدثنا مُعاذ بن هشام حَدَّثَنا أُبَي عن أَبي حَكِيمة عِصمة ، عن أبي عُثمان النَّهْدي أن عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ قال وهو يَطُوف بالبَيت ويبكي : اللهُمَّ إنْ كُنتَ كَتَبْتَ عليَّ شِقْوَةً أوْ ذَنْبًا فامْحُه، فإنَّكَ تَمْحُو ما تَشاء وتُثبِت وعِندَك أُمُّ الكِتاب ، فاجْعَلْه سعادةً ومغفرة ... ، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ ، وجُملة ذلك عِندَه في أُمِّ الكتاب ، الناسخ والمنسوخ ، وما يُبدِل وما يُثبِت ، كُل ذلك في كتاب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٧و ٣٣٨ و٣٣٩) : ((واختلفَ المُفسِّرون في المُراد بالذي يَمْحُو ويُثبِت ، على ثمانية أقوال : أحدها أنَّه عام في الرِّزق والأجل والسَّعادة والشَّقاوة ، وهذا مذهب عُمر وابن مسعود وأبي وائل والضَّحاك وابن جُرَيج . والثاني أنَّه الناسخ والمَنسوخ، فيَمْحُو المنسوخَ ، ويُثبِت الناسخَ ، روى هذا المعنى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جُبَير وقَتادة والقُرَظي وابن زَيد . وقال ابن قُتَيبة : يَمْحُو اللهُ ما يشاء ، أي : يَنسَخ مِن القُرآن ما يَشاء ، ويُثبِت ، أي : يَدَعه ثابتًا لا يَنسَخه ، وهو المُحكَم . والثالث أنَّه يَمْحُو ما يشاء ويُثبت إلا الشَّقاوة والسَّعادة والحياة والمَوت ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس. ودليل هذا القَول ما روى مُسلم في صحيحه مِن حديث حُذَيفة بن أَسِيد قال:سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : " إذا مَضَتْ على النُّطفة خمس وأربعون ليلة ، يَقول المَلَكُ المُوكَّل : أذكرٌ أَم أُنثى ؟ ، فيَقْضي اللهُ تعالى ، ويَكتب المَلَكُ ، فيقول : أشقيٌّ أَم سَعيد ؟ ، فيَقْضي اللهُ ، ويَكتب المَلَكُ ، فيَقول : عَمَلُه وأجَلُه ؟ ، فيَقْضي اللهُ ، ويَكتب المَلَكُ ، ثُمَّ تُطوَى الصَّحيفةُ ، فلا يُزاد فيها ، ولا يُنقَص منها " . والرابع يَمْحُو ما يشاء ويُثبِت إلا الشَّقاوة والسَّعادة لا يُغيَّران ، قاله مُجاهد . والخامس يَمْحُو مَن جاء أجَلُه ، ويُثبِت مَن لَم يَجِئ أجَلُه ، قاله الحسن . والسادس يَمْحُو مِن ذُنُوب عِباده ما يَشاء ، فيَغفِرها ، ويُثْبِت ما يشاء فلا يَغفِرها ، رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير . والسابع يَمْحُو ما يشاء بالتَّوبة، ويُثْبِت مَكَانَها حَسَنَاتٍ ، قاله عِكرمة . والثامن يَمْحُو مِن دِيوان الحَفَظَة ما

ليس فيه ثَوَاب ولا عِقَاب ، ويُثْبِت ما فيه ثَوَاب وعِقَاب ، قاله الضَّحاك وأبو صالح . وقال ابن السَّائب : القَوْلُ كُلُّه يُكتَب حتَّى إذا كان في يوم الخميس ، طُرِح مِنه كل شيء ليس فيه ثَوَاب ، ولا عِقَاب ، مِثل قَولك : أكلتُ شربتُ دخلتُ خرجتُ ، ونَحْوه وهو صادق، ويُثبِت ما فيه الثَّوَاب والعِقَاب . قَوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ ، قال الزَّجاج : أصل الكتاب . قال المُفسِّرون : وهو اللوح المحفوظ الذي أُثْبِتَ فيه ما يَكُون ويَحْدُث . وروى أبو الدَّرداء عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : " إنَّ اللهَ تعالى في ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ مِن الليل ، يَنظُر في الكِتاب الذي لا يَنظُر فيه أحَدٌ غَيْرُه ، فَيَمْحُو ما يشاء ويُثْبِت". وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : هُمَا كِتابان ، كِتاب سِوى أُمِّ الكِتاب ، يَمْحُو مِنه ما يشاء ويُثبِت ، وعِندَه أُمُّ الكِتاب ، لا يُغيَّر منه شيء)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ﴾ ، قال: ((مِن أحد الكِتَابَيْن ، هُمَا كِتابان ، يَمْحُو اللهُ ما يَشاء مِن أحدهما ﴿ ويُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ ، أي: جُمْلَةُ الكِتاب)) [٣٨٥]. وعن ابن عمر قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((يَمْحُو اللهُ ما يَشاء إلا الشِّقْوَةَ ، والسَّعادةَ ، والحياةَ ، والمَوتَ)) [٣٨٦].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أَهْلَكْنا مِن قَرْيةٍ إلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُوم ﴾ [الحِجْر : ٤] .

وما أهلكَ اللهُ مِن أهل قَرية مِن القُرى الظالمة التي كَفَرَتْ بالله ، وكذَّبت رُسُلَه ، بعذابٍ أو عُقوبة ، إلا ولتلكَ القرية أجل مُقدَّر مَكتوب في اللوح المَحفوظ ، لا تتقدَّم عَلَيه ، ولا تتأخَّر عنه ، مَعلومٌ عِند الله ، لا يَجهَله ، ولا يَنساه ، ولا يُمكن التَّخَلُّف عنه بشكل مِن الأشكال . ولا يَأتيهم العذابُ حتى يَبْلُغوه. وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٢): ((يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ وما أَهْلَكْنا ﴾ يا مُحمَّد ﴿ مِن ﴾ أهل ﴿ قَرْيةٍ ﴾ مِن أهل القُرى التي أهْلَكْنا أهلَها فِيما مَضَى ﴿ إلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُوم ﴾ ، يقول : إلا ولها أجل مُؤَقَّت ، ومُدَّة مَعروفة ، لا نُهلِكهم حتَّى يَبْلُغُوها ، فإذا بَلَغُوها أهلكناهم عِند ذلك ، فيقول لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : فكذلك أهل قريتك التي أنتَ منها ، وهي مَكَّة ، لا نُهلِك مُشركي أهلها إلا بعد بُلُوغ كِتابهم أجَلَه ، لأنَّ مِن قَضَائي أن لا أُهلِك أهلَ قرية إلا بعد بُلُوغ كتابهم أجَلَه)) .

---

٣٨٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٠) برقم (٣٣٣٢) وقال : غريب صحيح ، ووافقه الذهبي .

٣٨٦ رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٧) : ((وفيه محمد ابن جابر اليَمَامي ، وهو ضعيف ، مِن غَير تعمُّد كَذِب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أجَلَهَا وما يَسْتأخِرُون ﴾ [الحِجْر : ٥] .

لا يتقدَّم هلاكُ أُمَّة قبل أجلها الذي عيَّنه اللهُ تعالى ، ولا يتأخَّر هلاكُها عن ذلك الأجل . أي إنَّ عذاب الأُمَم المُكذِّبة يجيء في الوقت المُحدَّد في عِلْم الله تعالى ، بلا تقديم ولا تأخير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٢١) : ((يُخبِر تعالى أنَّه ما أهلكَ قريةً إلا بعد قِيام الحُجَّة عَلَيها ، وانتهاء أجلها ، وأنَّه لا يُؤَخِّر أُمَّةً حان هلاكُها عَن مِيقاتهم ، ولا يتقدَّمون عن مُدَّتهم . وهذا تنبيه لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عمَّا هُم عليه مِن الشِّرْك والعِناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك)) اهـ . وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٧٤) : ((﴿ ما تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أجَلَهَا ﴾ ، أي: ما تَسْبِق أُمَّة مِن الأُمَم أجَلَها المَضروبَ لها ، المكتوبَ في اللوح المَحفوظ ، والمعنى : أنَّه لا يأتي هلاكُها قبل مجيء أجلها ﴿ وما يَسْتأخِرُون ﴾ ، أي : وما يتأخَّرون عَنه ، فيكون مجيء هلاكهم بعد مُضِيِّ الأجل المَضروب له.وإيراد الفِعْل على صِيغة جَمْع المُذكَّر للحَمْل على المعنى معَ التغليب، ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور ، والجُملة مُبيِّنة لِمَا قَبْلها ، فكأنَّه قِيل: إنَّ هذا الإمهال لا يَنبغي أن يَغتر به العُقَلاء،فإن لكل أُمَّة وَقْتًا مُعَيَّنًا في نُزول العذاب لا يتقدَّم ولا يتأخَّر)) .

وفي زاد المسير (٤/ ٣٨٣) : ((قال الفَرَّاء : إنَّما قال : ﴿ أجَلَهَا ﴾ ، لأن الأُمَّة لَفْظها مُؤنَّث ، وإنَّما قال : ﴿ يَسْتأخِرُون ﴾ إخراجًا له على معنى الرِّجال)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفُرقان : ٢] .

أوجدَ اللهُ بقُدرته المُطْلَقة وحِكمته البالغة كُلَّ شيء مِنَ العَدَم ، وأتقنَ صُنعَ المخلوقات ، وهيَّأ كُلَّ مَخلوق لِمَا يَصلُح له ، بلا خَلَل ولا اضطراب ، وزوَّده بما يحتاج إلَيه في هذه الحياة الدُّنيا . واللهُ قدَّر الإنسانَ للتَّكاليف والمنافع والوظائف ، وما يُحقِّق مصلحته في دِينه ودُنياه ، إلى أجل مَحدود. وهذا يدلُّ على مُنتهى الإتقان والحِكمة والتَّدبير والإحكام . وكُلُّ ما سِوَى الله مَخلوقٌ لله، وخاضعٌ له ، وتحت إرادته ومشيئته وقضائه وقَدَرِه. واللهُ خالقُ كُلِّ شيء، وسَيِّدُه، ومَالِكُه، وإلَهُه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٨٨): ((﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مِن المَوجودات ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ، أي : قدَّر كُلَّ شيء مِمَّا خَلَقَ بحِكمته على ما أراد وهيَّأه لِمَا يَصلُح له . قال الواحدي: قال المُفسِّرون : قدَّر كُلَّ شيء من الأجل والرِّزق ، فَجَرَت المقاديرُ على ما خَلَقَ . وقِيل : أُرِيدَ بالخَلْق هُنا مُجرَّد الإحداث والإيجاد ، مِن غَير مُلاحظة معنى التَّقدير ، وإنْ لَم يَخْلُ عنه في نَفْس الأمر ، فيكون المعنى : أوجدَ كُلَّ شيء فقدَّره ، لئلا يَلزَم التَّكرار)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٥) : ((﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، أحْدَثَه إحداثًا مُرَاعَى فيه التَّقدير حَسَب إرادته، كخَلْقه الإنسان مِن مواد مخصوصة وصُوَر وأشكال مُعيَّنة ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فقدَّره وهيَّأه لِمَا أرادَ مِنه مِن الخصائص والأفعال ، كتَهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير، واستنباط الصنائع المُتنوِّعة ، ومُزَاوَلَة الأعمال المُختلفة إلى غَير ذلك ، أوْ ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ للبقاء إلى أجل مُسَمَّى . وقد يُطلَق الخَلْق لمُجرَّد الإيجاد مِن غَير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فيكون المعنى: وأوجدَ كُلَّ شيء ، فقدَّره في إيجاده ، حتَّى لا يكون مُتَفَاوِتًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٧٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها سَوَّاه وهيَّأه لِمَا يَصلُح له ، فلا خَلَل فِيه ، ولا تفاوُت . والثاني قَدَّرَ له ما يُصلِحه ويُقِيمه . والثالث قدَّر له تقديرًا مِن الأجل والرِّزق)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

أمرُ الله قَضاءٌ مَقْضِيٌّ ، وحُكْمٌ مَقطوع بوُقوعه مُنذ الأزَل ، لا يتغيَّر ، ولا يتبدَّل . وكُلُّ أمر يُقدِّره الله تعالى فهو كائن لا مَحَالة ، فما شاء كان ، وما لَم يَشَأ لَم يَكُن .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٤) : ((وقَوله :﴿ وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ، يقول: وكان أمرُ الله قَضَاءً مَقْضِيًّا . وكان ابن زيد يقول في ذلك ما حَدَّثني يُونُس قال : أخبرنا ابن وَهْب قال : قال ابن زيد في قَوله : ﴿ وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ، إنَّ الله كان عِلْمُه معه قبل أن يَخلُق الأشياءَ كُلَّها ، فأتَمَّه في عِلْمه أن يَخلُق خَلْقًا ، ويأمرهم وينهاهم ، ويجعل ثوابًا لأهل طاعته ، وعِقابًا لأهل معصيته ، فلمَّا ائتمر ذلك الأمر قدَّره ، فلمَّا قَدَّره كَتَبَ وغَابَ عَلَيه ، فسمَّاه الغَيْبَ وأُمَّ الكِتاب ، وخَلَقَ الخَلْقَ على ذلك الكتاب ، أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم ، وما يُصيبهم مِن الأشياء مِن الرَّخاء والشِّدة ، مِن الكتاب الذي كَتَبَه أنَّه يُصيبهم)) .

وعِلْمُ الله تعالى مُحيط بكل شيء مُنذ الأزل. فهو سُبحانَه يَعلَم مَن سَيَذهب إلى الجَنَّة ، وَمَن سَيَذهب إلى النار، قبل أن يَخلُق الخَلْقَ ، لَكِنَّه لَم يُجبِر العَبْدَ على الطاعة أو المعصية . إذْ لَوْ كان هناك إجبار لَسَقَطَ معنى الثَّوَاب والعِقاب .

وأنتَ قد ترى أعمى سائرًا في الشارع وأمامه حُفرة ، فتَعلَم مُسْبَقًا أنَّه سَيَسْقُط فيها ، لَكِنَّكَ لَم تُجْبِرْه على ذلك . ولنفترضْ أنَّ هناك تلميذًا في المدرسة مُهْمِلًا في دُروسه ، فالمُعَلِّمُ يَعرِف مُسْبَقًا أنَّ ذلك التلميذ سيرسب آخر السَّنة ، لكنَّه لَم يُجْبِرْه على ذلك . فالعِلْمُ بالشَّيء لا يعني الإجبار بأيَّة حال من الأحوال .

والانتقالات في حياة الإنسان ، وتقلُّبه بين السعادة والشقاء ، والفرح والحزن ، والنجاة والهلاك ، كُلُّها تتم تحت القَضَاء والقَدَر . وعلى الإنسان أن يختار الدرب الصحيح كَي يسير فيه، مُبتعدًا عن العَجْز والكَسَل ، وأن يطمح إلى الحِفاظ على حياته بكل السُّبل المُتاحة ، ولا يستسلم للهلاك بدعوى أنَّه مِنَ القَضَاء والقَدَر . فالقَضَاءُ والقَدَر دافعان إلى مَزيد مِن الجُهد والعمل الدؤوب ، وليس التكاسل والاستسلام وفهم النصوص الشرعية بشكل خاطئ .

واللهُ تعالى رَزَّاقٌ ، لكنَّ العِباد مأمورون بالسَّعْي في طَلَب الرِّزْق ، فالسماء لا تُمطِر ذَهَبًا ، ولا فِضَّة . وقَضَاءُ الله مُحْكَمٌ ، لا تغيير فيه ، ولا تبديل ، ولكن على الإنسان أن يَعمَل ، وكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له ، واللهُ تعالى يَعلَم مصيرَ العَبد إلى السَّعادة أو الشَّقاء ، قَبل أن يَخلُقه ، ولكنَّه سُبحانَه لَم يُجبِر العبدَ على الطاعة أو المعصية . واللهُ تعالى لا يُطاع رَغْمًا عَنه ، ولا يُعصَى رَغْمًا عنه. فهو سُبحانَه مَالِكٌ للعِباد، ومَالِكٌ لِمَا ملَّكهم . خَلَقَ الخيرَ والشَّر ، والعبد يكتسبهما بأفعاله، فإذا صدرت طاعةٌ مِن العَبْد ، فَبِفَضْل الله وله المِنَّة . وإن أتى العبدُ بمَعصية فَبِعَدْل الله وله الحُجَّة.

وفي حديث الطاعون أنَّ عُمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : ((نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ)) [٣٨٧].

لَم يَقصِد أنَّه يَفِرُّ مِن قَدَر الله حقيقةً، لأنَّ القَضَاء والقَدَر يُظلِّلان حياةَ الإنسان شاء أم أبى ، ولا مَهْرَب منهما . لكنَّ حركة الإنسان في الحياة هي بقَدَر الله تعالى، فالذي فرَّ مِنه عُمر رضي الله عنه أمرٌ خاف على نَفْسِه مِنه ، والذي فَرَّ إلَيه أمرٌ فيه النَّجاة حَسَب تقديره . وكِلا الأمْرَيْن مِن قَدَر الله تعالى الذي نهى عن إلقاء النَّفْس في الهلاك. كما أن الأسباب والمُسبِّبات مِن قَدَر الله تعالى . وهذه القضيةُ دقيقة للغاية، وقد وَقَعَ الكثيرون في غَبَش تفكيرهم القاصر ، فَخَلَطُوا الحابلَ بالنابل. فالذي يَهرُب مِن وَحْشٍ ضارٍ ، أو يُحاول زيادة راتبه للخروج مِن الفَقْر إلى الغِنى ، أو يُسافر مِن أجل العمل ، أو يَسعى إلى العِلاج كي يَخرُج مِن المَرَض إلى الصِّحة ...إلخ . هو في حقيقة الأمر يَنتقل مِن قَدَر الله إلى قَدَر الله ، ضِمن منهجية الأخذ بالأسباب،ولا يَقَع في مُلْك الله إلا ما يشاء.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٠) : ((وإنَّما معناه أنَّ الله تعالى أمرَ بالاحتياط ، والحَزْم ، ومُجَانَبة أسباب الهَلاك ، كما أمرَ سُبحانَه بالتَّحَصُّن مِن سلاح العدو ، وتجنُّب المَهَالِك ، وإنْ كان كُل واقع فَبِقَضَاء الله وقَدَره السابق في عِلْمه)) .

---

٣٨٧ متفق عليه . البخاري (٥/ ٢١٦٣) برقم (٥٣٩٧)، ومسلم (٤/ ١٧٤٠) برقم (٢٢١٩).

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٨٥) : ((قَوله : " نعم ، نَفِرُّ مِن قَدَر الله إلى قَدَر الله " ، في رواية هشام بن سعد : " إنْ تَقَدَّمْنا فَبِقَدَر الله ، وإنْ تَأخَّرْنا فَبِقَدَر الله " . وأطلقَ عَلَيه فِرَارًا لشبهه به في الصورة ، وإنْ كان ليس فِرَارًا شرعيًّا . والمُراد أن هُجوم المَرء على ما يُهلِكه منهيٌّ عنه ، وَلَوْ فَعَلَ لكان مِن قَدَر الله ، وتجنُّبه ما يُؤْذيه مَشروع ، وقد يُقَدِّر اللهُ وُقُوعَه فِيما فَرَّ مِنه ، فَلَوْ فَعَلَه أو تركه ، لكانَ مِن قَدَر الله ، فهُما مَقَامان : مَقام التَّوكُّل ، ومَقام التَّمَسُّك بالأسباب . ومُحصِّل قول عُمر : " نَفِرُّ مِن قَدَر الله إلى قَدَر الله " ، أنَّه أراد أنَّه لَم يَفِرَّ مِن قَدَر الله حقيقةً ، وذلك أنَّ الذي فَرَّ مِنه أمرٌ خاف على نَفْسِه مِنه ، فلم يَهجُم عَلَيه ، والذي فَرَّ إليه أمرٌ لا يَخاف على نَفْسه ، إلا الأمر الذي لا بُد مِن وُقوعه ، سواءٌ كان ظاعنًا أو مُقيمًا)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٩١) : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِنكُم مِن أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النار، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّة)). قالوا: يا رسول الله ، أفلا نَتَّكِلُ على كِتابنا، ونَدَعُ العَمَلَ ؟. قال : ((اعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له ، أمَّا مَن كان مِن أهل السَّعادة ، فَيُيَسَّرُ لعمل أهل السَّعادة ، وأمَّا مَن كان مِن أهل الشَّقاء ، فَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشَّقاوة)) .

كُل عبدٍ كُتب مَكانه في النار أو الجَنَّة ، وحُدِّدَ مَصيره قبل أن يُولَد . وكلمة " مَقعده " تدلُّ على الاستقرار . ومعَ هذا لا ينبغي الاتِّكال على القَدَر السابق ، وتَرك العمل ، لأنَّ أهل السعادة يُيَسِّرهم اللهُ لعمل الطاعات ، فيَدخلون الجَنَّةَ ، وأهل الشقاء يُيَسِّرهم اللهُ لعمل المعاصي ، فيَدخلون النارَ . ويجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها . وكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له . فمَن كان مِن أهل الجَنَّة يسَّره اللهُ لعمل الطاعات فينال السعادة ، ومن كان من أهل النار يسَّره اللهُ للمعاصي فينال التعاسة . وفي تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨٤) : ((وحاصل السُّؤال : ألَا نَترُك مَشَقَّة العمل فإنَّا سَنَصِير إلى ما قُدِّرَ عَلَينا . وحاصل الجواب : لا مَشَقَّة ، لأنَّ كُل أحد مُيسَّر لِمَا خُلق له ، وهو يَسِيرٌ على مَن يسَّره اللهُ . وقال الطيبي : الجواب مِن الأسلوب الحكيم ، مَنَعَهُم عَن تَرْك العمل ، وأمَرَهم بالتزام ما يجب على العبد مِن العُبُودية ، وزَجَرَهم عن التَّصَرُّف في الأمور المُغيَّبة ، فلا يَجعَلوا العِبادةَ وتركها سببًا مُسْتَقِلًّا لدُخول الجنة والنار ، بل هي علامات فقط)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [القَمَر : ٥٣] . كُلُّ شيء سواءٌ كان صغيرًا أَم كبيرًا ، مَكتوب في اللوح المحفوظ . وهذا يعني أن كُل شيء مِن أعمال الناس وآجالهم مَكتوب في اللوح المحفوظ بتفاصيله . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٨٣): ((أي: كُل شيء مِن أعمال الخَلْق وأقوالهم وأفعالهم مَسطور في اللوح المحفوظ، صغيره وكبيره وجليله وحقيره)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم إلا في كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد : ٢٢] .

إنَّ المصائب والكوارث والأزمات التي تَحدُث في الأرض ، مِثل : القَحْط ، والزَّلازل ، وقِلَّة النبات ، ونَقْص الثِّمار ، والتي تُصيب الناس ، مِثل : الأمراض ، والأوجاع ، والفقر ، ومَوت الأولاد ، كُلُّها مَكتوبة في اللوح المحفوظ ، قَبل أن يَخلُقها اللهُ تعالى ويُوجدها في الواقع .

والآيةُ تُثبِت قَدَرَ اللهِ السابقَ في خَلْقِه قَبل أن يَخلُقهم ، وتُبيِّن أن الأُمور كُلَّها مُقدَّرة في الأزل، ومكتوبة في اللوح المحفوظ ، قَبْل خَلْقِ الأرضِ والناسِ . وقال ابن كثير في تفسيره(٤/٤٠٢) : ((﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم ﴾ أي : في الآفاق ، وفي أنفسكم ، ﴿ إلا في كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ ، أي : مِن قَبْل أن نَخلُق الخَلِيقة ، ونَبْرَأ النَّسَمَةَ . وقال بعضُهم: ﴿ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ عائد على النُّفُوس . وقِيل : عائد على المُصيبة ، والأحسن عَوْده على الخَلِيقة والبَرِيَّة ، لدَلالة الكلام عليها ، كما قال ابن جرير : حدَّثني يعقوب حدَّثني ابن عُلَيَّة عن منصور بن عبد الرحمن قال : كُنتُ جالسًا مع الحسن ، فقال رَجُل : سَلْهُ عَن قَوله تعالى : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم إلا في كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ ، فسألتُه عنها ، فقال : سُبحانَ الله ، ومَن يَشُكُّ في هذا ؟ ، كُل مُصيبة بَين السماء والأرض ، ففي كتاب الله مِن قَبْل أن يَبْرَأ النَّسَمَةَ . وقال قَتادة : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ ﴾ ، قال: هي السِّنُون، يَعْني الجَدْب ﴿ ولا في أنفُسِكُم ﴾ ، يقول: الأوجاع والأمراض. قال : وبَلَغَنا أنَّه ليس أحد يُصيبه خَدْش عُود ، ولا نَكْبَة قَدَم ، ولا خَلَجَان عِرْق ، إلا بذَنْب ، وما يَعفو اللهُ عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة العظيمة مِن أدل دليل على القَدَرِيَّة نُفَاةِ العِلْم السابق . قبَّحهم اللهُ)) .

وعن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : كان رسولُ الله ﷺ يقول : ((كان أهلُ الجاهلية يَقولون : إنَّما الطِّيَرَةُ في المَرْأة ، والدَّابَّة ، والدار)) ، ثُمَّ قَرَأَتْ : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم إلا في كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [٣٨٨] .

الطِّيَرَةُ هي التَّشاؤم ، وفيها سُوء الظَّن بالله تعالى ، وتوقُّع البلاء والمُصيبة . وقد كانَ أهلُ الجاهلية يتشاءمون بالمرأة والدَّابَّة والدار ، وهذا يدلُّ على جَهْلِهم وتقليدهم لآبائهم، والقضيةُ لَيست تفاؤُلًا أوْ تشاؤُمًا . إنَّ كُل مُصيبة أصابت الأرضَ أو الإنسانَ مكتوبة في اللوح المحفوظ قَبل

---

٣٨٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢١) برقم (٣٧٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

خَلْق الأرضِ والإنسانِ . وكُلُّ شيء مُقدَّر مُسْبَقًا ، ولا يَقع في مُلْك الله إلا ما يُريده اللهُ تعالى ، وكُل شيء إنَّما يَحدُث في الكَون خاضعًا لِعِلْمِ الله السابق ، وحِكمته البالغة ، ومشيئته المُقدَّسة .

وفي صحيح مسلم (٤/٢٠٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائق قبل أن يَخلُق السماواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سَنَة)) .

قَدَّرَ اللهُ مقاديرَ الخلائق وأثبتها وَفْقَ إرادته وحِكمته ، ما كانَ وما يكون وما هو كائن إلى الأبد . واللهُ كَتَبَ كُلَّ شيء في اللوح المحفوظ . والحديثُ يُثبِت قَدَرَ اللهِ السابقَ لخَلْقه ، وهو سُبحانَه عَالِم بالأشياء قَبْل خَلْقها وإيجادها في الواقع ، وقد كَتَبَها قَبل خَلْق السماواتِ والأرض بخمسين ألف سنة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٣) : ((قال العلماء : المُراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره ، لا أصل التقدير، فإنَّ ذلك أزليٌّ ، لا أوَّل له)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ [التَّغَابُن : ١١] .

كُلُّ كارثة أوْ أزمة أو مُصيبة تُصيب العبدَ في نَفْسِه أو ماله أو ولده ، فهي بقَضَاء الله وقَدَرِه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٢٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ ما أصابَ مِن مُصيبةٍ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ ، أي: بإرادته وقَضَائه . وقال الفَرَّاء : يُريد إلا بأمر الله . وقِيل : إلا بعِلْم الله. وقِيل: سبب نُزولها أن الكُفَّار قالوا: لَوْ كان ما عليه المسلمون حَقًّا لَصَانَهم اللهُ عَن المَصَائب في الدُّنيا ، فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ ما أصاب مِن مُصيبة في نَفْس ، أوْ مال ، أوْ قَول ، أوْ فِعل ، يَقْتَضي هَمًّا ، أوْ يُوجِب عِقَابًا عاجلًا أو آجِلًا ، فَبِعِلْمِ الله وقَضَائه . وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٢/ ٥٠٥) عن ابن الدَّيْلَمِي قال : أتَيْتُ أُبَيَّ بن كَعْب فقُلتُ له : وَقَعَ في نَفْسِي شيء مِنَ القَدَر ، فَحَدِّثْني بشَيء لعلَّه أن يَذهب مِن قَلبي فقال : ((إنَّ الله لَوْ عَذَّبَ أهلَ سماواته وأهلَ أرضه ، عَذَّبهم غَيْرَ ظالم لهم،وَلَوْ رَحِمَهم كانت رَحْمَتُهُ خَيْرًا لهم مِن أعمالهم، وَلَوْ أنفقتَ مِثْلَ أُحُدٍ في سبيل الله ما قَبِلَه اللهُ مِنكَ حتَّى تُؤْمِنَ بالقَدَر، وتَعْلَمَ أنَّ ما أصابكَ لَم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وأنَّ ما أخطأكَ لَم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مِتَّ عَلى غَير هذا لَدَخَلْتَ النار)). قال:ثُمَّ أتَيْتُ عبد الله بن مسعود فقال مِثْلَ قَوْلِه ، ثُمَّ أتَيْتُ حُذَيفة بن اليَمَان فقال مِثْلَ قَولِه ، ثُمَّ أتَيْتُ زيد بن ثابت فَحَدَّثني عن النبيِّ ﷺ مِثْلَ ذلك .

لَوْ عذَّب اللهُ الخلائقَ ما كان ظالمًا لأحد مِنهُم ، لأنَّه يُعاملهم بعَدْله ، ولأنَّهم ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْره ، ولأنَّ عِباداتهم ضعيفة وقاصرة عَن مُعادلة نِعَم الله الجزيلة ، كما أن رحمته تعالى أعظم من أعمالهم الضعيفة ، ولا أحد يَدخل الجَنَّةَ بعمله ، ولا حتى الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . فالكُلُّ خاضع للرَّحمة الإلهية ، يَنتظرها بفارغ الصَّبر . ودُخول الجَنَّة إنما هو برحمة الله وفَضْله .

والإيمانُ بالقَدَر لَيْسَ مِن الكماليات ، بل هُوَ من أركان الإيمان . ومُنكِرُ القَدَر كافرٌ لا يَنفعه أي عمل صالح يقوم به . وكُلُّ ما يَجْري للخلائق مَن خَيرٍ أوْ شر تَمَّ بقَضَاء الله وقَدَره ، وَلَم يَحدُث مُصَادَفَةً ، وإنَّما قدَّره اللهُ تعالى بشكل دقيق غير عشوائي ولا عبثي . وما أصابَ العبدَ مِن نِعمة ومُصيبة، أو طاعة ومعصية ، فقد قدَّرها اللهُ له أو عَلَيه ، ولم تَكُن لتُجَاوِزَ العبدَ ، وما جاوزَ العبدَ مِن خَير وشَر لم يَكُن لِيُصيبه . والمَوْتُ على غَير عَقيدة القَضَاء والقَدَر يُؤدِّي إلى عذاب النار الشديد . وعبارة " فَحَدَّثني عن النبيِّ ﷺ مِثْلَ ذلك " يعني أنَّ الحديث صار مَرفوعًا .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٨٤) : (((الإيمان أن تُؤْمِنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله ، وتُؤمِنَ بالجَنَّة والنار) أي بأنَّهما مَوجودتان الآن ، لأنهما باقيتان لا تَفْنيان: الجَنَّة للطائعين والنار للفاسقين (والمِيزان) أي بأن وزن الأعمال حَق (وتؤمن بالبَعْث بعد الموت) أي بإعادة الأجساد بعد فَنَائها للحساب (وتؤمن بالقَدَر خَيْرِه وشَرِّه) أي تؤمن بأن ما أصابك لَم يكن لِيُخطئك ، وما أخطأك لم يكن لِيُصيبك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطَّلاق : ٣] .

قد جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيء مِن الشِّدة والرَّخاء أجلًا يَنتهي إلَيه ، وجَعَلَ لِكُلِّ أمرٍ مِنَ الأُمور مِقدارًا مَعلومًا ، وتقديرًا مُعيَّنًا ، ووقتًا مُحَدَّدًا،لا يَتغيَّر،ولا يتبدَّل، ولا يتقدَّم ، ولا يتأخَّر ، وَفْق إرادة الله القديمة ، وحِكمته الأزلية .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٤٣) : ((﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ، أي : لِكُلِّ شيء مِن الشِّدة والرَّخاء أجَلًا يَنْتهي إلَيه . وقِيل : تقديرًا)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٢٥٥) : ((﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ تَقديرًا وتَوقيتًا ، وهذا بَيان لوُجوب التَّوكُّل على الله ، وتَفويض الأمر إليه ، لأنَّه إذا عَلِمَ (العبدُ) أنَّ كُلَّ شيء مِن الرِّزق ونَحْوه ، لا يكون إلا بتَقديره وتَوقيته ، لَم يَبْقَ إلا التَّسليم للقَدَر والتَّوكُّل)) .

***

فِهْرِس

مقدمة...5

أوَّلًا : الله سُبحانَه وتعالى [7]

١_ حُب الله [7] ٢_ التَّوكُّل عليه[9] ٣_ خَشْيته [11] ٤_ فَضْله[14] ٥_التَّفويض إلَيه [15]
٦_ التَّسليم لأوامره[17] ٧_الرَّجاء بالله[18] ٨_الخُشوع بين يَدَيه[20] ٩_ذِكْر الله [21]
١٠_ شُكْره [25]

ثانيًا : الإيمان بالله [28]

١_ الدَّعوة إلى الإيمان [28] ٢_ حقيقة الإيمان [37] ٣_ تشبيهه بالنُّور [41] ٤_ المُقابَلة بين المؤمن والكافر [45] ٥_ الفرق بين الإيمان والإسلام [50] ٦_ تفضيل الإيمان على سِقاية الحاج وعِمارة المسجد الحرام [53] ٧_ الإيمان والعمل [56] ٨_ الهِداية إلى الإيمان [57]
٩_ مِثال الإيمان [71] ١٠_ اليَقين [77] ١١_ النِّفاق [83] ١٢_ الرَّيْب والشَّك [91]
١٣_ الفِتنة [93] ١٤_ الجَزاء [97] ١٥_ التَّوبة [101] ١٦_ الاستغفار [114]
١٧_ الشَّفاعة [121] ١٨_ الابتلاء والفِتَن اختبار لإيمان المؤمن [130]

ثالثًا : المؤمنون [152]

١_ صِفات المؤمنين[152] ٢_ وَلاية الله للمؤمنين[177] ٣_ حُبُّه إيَّاهم ومَحَبَّتُهم إيَّاه [184]
٤_ استجابتهم لله ورسوله [187] ٥_ ما أعَدَّه اللهُ لهم [190] ٦_ وَعْده إيَّاهم [235]
٧_ وَعْده إيَّاهم بوِراثة الأرض [253] ٨ _ لا خَوف عَلَيهم [270]

رابعًا : المَلائِكَة [275]

١_ الإيمان بهم [275] ٢_ صِفاتهم [275] ٣_ عِبادتهم لله [279] ٤_ عُروجهم [288]
٥_ تنزُّلهم بأمر ربِّهم [294] ٦_ قِيامهم بأمر ربِّهم [299] أ_ تَوَفِّي النُّفوس [299]
ب_ كِتابة أعمال بني آدم[305] ج _ حِفْظهم[311] د_ دُعاؤهم[316] هـ_شَفَاعتهم [321]
و_ حَمْلهم العَرْش[322] ز _ إغاثتهم المؤمنين[329] ح _ مَلائكة العَذاب[335] ط_ مَلائكة الرَّحمة[337] ي_ النَّفْخ في الصُّور[341] ٧_ مَن وَرَدَ اسْمُه مِنهُم [347] أ _ جِبريل [347]
ب _ مِيكال[350] ج _ مَالِك[354] د _ مَلَك المَوت[356] هـ _ هاروت وماروت[357]

خامسًا : الكُتُب [361]

١_ الكُتُب المُقدَّسة [361] ٢_ التَّوراة [367] ٣_ الإنجيل [368] ٤_ الزَّبُور [369]
٥_ صُحُف إبراهيم ومُوسى [371]

سادسًا : الأنبياء والرُّسُل [373]

١_ الإيمان بهم [373] ٢_ تفضيل بعضهم على بعض [376] ٣_ المُصْطَفَوْن مِنهم [378]
٤_ أخذ المِيثاق مِنهُم[386] ٥_ نَفْي الغُلول عَنهُم [390] ٦_ مُهمتهم في البَلاغ [392]
٧_ أمْرهم بالتَّذكير[408]٨_ لا أجْرَ لهم على التَّبليغ[409]٩_ حِكْمتهم في الدَّعوة [415]
١٠_ حُكْمهم بين الناس [419] ١١_ لكُلِّ أُمَّة نذير [421] ١٢_ بلِسان قَوْمهم [421]
١٣_هُم بَشَر يُوحَى إلَيهم[424]١٤_ لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوٌّ[427]١٥_شَهَادتهم على أُمَمهم[429]

سابعًا : اليَوْم الآخِر [440]

١_ المَوت[440] أ _ قَضاء مَحتوم [440] ب_ لكُل أُمَّة أجل مَحتوم [452] ج _ ساعة الاحتضار [454] د_ الابتلاء [462] ٢_ البَعْث [465] ٣_ الإيمان باليَوم الآخِر [480]
٤_ أسماؤه [480] أ_ يَوم الدِّين [480] ب_ الآخِرة [481] ج _ يَوم القِيامة [482]
د _ السَّاعة [483] هـ _ يَوم الحَسْرَة [484] و _ المَعَاد [488] ز _ يَوم البَعْث [490]
ح _ يَوم الفَصْل[490]ط_ يوم التَّلاق[491] ي_ يَوم الجَمْع[492] ك_ يَوم الوَعِيد [492]
ل_ الوَاقِعة[493] م_ يَوم التَّغَابُن[494] ن_ الحَاقَّة [495] س_ القَارِعَة [495]ع _ الطَّامَّة الكُبرى [496] ف_ الصَّاخَّة [496] ص _ الغَاشِيَة [497] ق_ يَوم الآزِفَة [497] ر_ يَوم التَّناد[497]ش _ يَوم الخُروج[498] ٥_ الإرهاصات التي تَسْبِقُه [498] ٦_ أهواله [552]
٧_ إثباته [596] ٨_ الحَشْر [598] ٩_ المِيزان والعَرْض على الله واستلام الكِتاب [602]
١٠ _ فِئات الخَلْق يَوْمَئِذ [625] ١١_ الأنساب يَوْمَئِذ[628] ١٢_ شَهَادة الأعضاء[629]
١٣_الجَزَاء بالعَمَل[633]١٤_ثواب الدُّنيا والآخِرَة[644] ١٥_ جَزَاء العَمل الحَسَن [647]
١٦_ جَزَاء العَمل السَّيئ [649] ١٧_ تَفضيل الآخِرة على الدُّنيا [653] ١٨_ فِتنة الأموال والأولاد [664]

ثامنًا : الغَيب [667]

١_ الإيمان بالغَيب [667] ٢_ الجَنَّة [668] أ _ صِفَاتها [669] ب _ أصحابها [702]
ج _ أسماؤها[707]١_ الآخِرة [707]٢_ جنَّات عَدْن [708]٣_ جنَّات الفِرْدَوْس [708]

٤_ جنَّات المأوى[711]٥_ جَنَّات النَّعيم[711]٦_ جَنَّة الخُلْد[711]٧_جَنَّة عالية [712]
٨ _جَنَّة المَأوَى[712]٩_جَنَّة نَعِيم[712] ١٠_الحُسْنَى [713] ١١_ الدَّار الآخِرة [713]
١٢_ دَار السَّلام [713] ١٣_ دَار القَرَار [714] ١٤_ دار المُتَّقين [714] ١٥_ دار المُقَامة [714] ١٦_ رَوضات الجَنَّات [714] ١٧_ طُوبَى [715] ١٨_ الفِرْدَوْس [715]
٣_ النار[716] أ_ صِفاتها [716] ب_ أصحابها [753] ج _ أسماؤها [755] ١_ الآخِرة [755] ٢_ بِئس القَرَار [755] ٣_ بِئس المَصِير [755] ٤_ بِئس المِهَاد [755] ٥_ بِئس الوِرْد المَورود [756] ٦_ الجَحِيم [756] ٧_ جهنَّم [756] ٨_ الحُطَمة [757]٩_ دار البَوار [757]١٠_ دار الخُلْد [758] ١١_ دار الفاسقين [758]١٢_ السَّعير [758] ١٣_ سَقَر [758] ١٤_ السَّمُوم [759] ١٥_ سُوء الدَّار [759] ١٦_ السُّوأى [759] ١٧_ لَظَى [760] ١٨_ النار [760] ١٩_ هَاوِيَة [760] د _ الزَّقُّوم [762]٤_ الخُلود [764] أ _ الخُلود في النَّعيم [764] ب_ الخُلود في العذاب [770] ٥_ الأعراف[775] ٦_ الغَيب النَّفْسي[777] أ_ الرُّوح [777] ب_ النَّفْس [780] ج _ الفُؤاد [787] د_ الهَوى [791] ٧_ الجِن [792] ٨_ الشَّيطان [797] أ_ سُلوكه الشَّيطاني [797] ب_ عداوته لآدم وبَنِيه [811] ج _ وَسْوَسته [816] ٩_ السِّحْر [823]
تاسعًا : القَضَاء والقَدَر [828]

فِهْرِس..845
صدر للمؤلف...848

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللهِ تعَالى

صدر للمؤلف

الدراسات الدينية :

١_ حقيقة القرآن

٢_ أركان الإسلام

٣_ أركان الإيمان

٤_ النبيُّ مُحمَّد ، صَلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّم .

٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنة

٦_ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل

٧_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية

٨_ بحوث في الفكر الإسلامي

٩_ منهج الكافرين في القرآن

١٠_ التناقض في التوراة والإنجيل

١١_ صورة اليهود في القرآن والسُّنة والإنجيل

١٢_ عقائد العرب في الجاهلية

الأدب والثقافة والفكر :

١٣_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر

١٤_ النظام الاجتماعي في القصيدة

(المأزق الاجتماعي للثقافة . كلام في فلسفة الشِّعْر)

١٥_ صرخة الأزمنة (سِفر الاعتراف)

١٦_ مشكلات الحضارة الأمريكية

١٧_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين

الشِّعر :

١٨_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

الرواية :

١٩_ أشباح الميناء المهجور

٢٠_ جبل النظيف